

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

1938

Volume 2

2017-11-1

PUBLICATION PROTEGEE

PAR LA

LEGISLATION SUR LA PROPRIETE

LITTERAIRE ET ARTISTIQUE

(LOI N 57-298 DU 11 MARS 1957)

2017-11-15 [illegible]

PROVENANCE DE LA COLLECTION

INSTITUT DU MONDE ARABE
Cote: 833 (051) RIW

2017-11-15

MICROFILM ÉTABLI

PAR

L'ASSOCIATION POUR LA CONSERVATION ET LA REPRODUCTION PHOTOGRAPHIQUE DE LA PRESSE

PARIS

L'Exploitation commerciale de ce film est interdite. La Reproduction totale ou partielle est soumise à l'autorisation préalable des ayants droit et à celle de l'A.C.R.P.P. qui conserve un exemplaire du microfilm négatif.

© 1998 A.C.R.P.P.

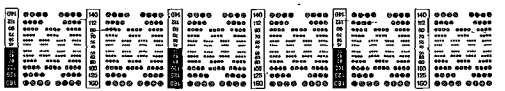
2017-11-15

ECHELLE DE PRISE DE VUE



Rx9

A.C.R.P.P



MIRE ISO N° 1
NF Z 48-097
AFNOR
Cedex 7 - 92080 PARIS-LA-DÉFENSE

graphicom


السنهوري
الرواد

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٦ | ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ — ١٥ يوليه سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

				صفحة
الفصل الأخير من المأساة ...	على أبواب المدينة	بقلم الأستاذ على الطنطاوى		٦٢٦
كان لصاً	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ..		٦٢٩
عجوز الصور المتحركة	للكاتب الأسبانى بلاسكو ايبانيز ..	بقلم الأديب محمد محمود دوارة		٦٣١
جارسون ... واحد شوب!	للكاتب كاردينك لاهوفسكى	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة		٦٤٩
عواد كريمون	للشاعر الفرنسى فرنسوا كوبيه ...	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...		٦٦٠
حاجى بابا فى انكلترا	تأليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...		٦٦٥

مكتبة معهد العالم العربى

من التاريخ الإسلامي

الفصل الأخير من المأساة

على أبواب المدينة

للأستاذ علي الطنطاوي

زينب — كفى يا فاطمة . كفى يا حبيبتي، لقد بلغنا مشارف المدينة

فاطمة — وما ذا أصنع فى هذه المدينة ؟ أألقى فيها أخى ؟ أألقي الفتية الكرام من آل النبي ؟ لقد ذهبوا يا زينب ، لقد ذهبوا إلى الأبد ...

سبية أمسى نسلها عـــدد الحصى

وليس لآل المصطفى اليوم من نسل (١)

زينب — إنا لله وإنا إليه راجعون !

فاطمة — ما ذا أجد فى المدينـة ؟ يا مدينة الرسول ! هؤلاء بنات الرسول يتامى تأكلات أسيرات ذليلات كأنهن سبايا الروم ... يا مدينة الرسول ...

زينب — فاطمة، أشفقى على الصغار، لقد نفدت دموعهن ...

فاطمة — ولن يدخرن الدموع بعد حسين ؟ إبكين إبكين ... لقد قتل الحسين !

زينب — فاطمة ، أهكذا تدخلين المدينـة يا فاطمة ! كفى يا أختاه كفى

فاطمة — لقد كانت مدينتى يا زينب يوم كان فيها أهلى ، فما لى اليوم فيها من أهل . إن مدينتى هناك ، فى القفرة التى غمست أحشاؤها بأجساد الهاشميين ، آه ... هل دخل على أهل بيت ما دخل علينا ؟ آه ، يا رب !

زينب — استعيني بالله

فاطمة — لقد رأيت ابن أخى ، وهو ابن خمس سنين ، يخرج من الخيمة فيتلفت مذعوراً لا يدرى ماذا يرى فلحقته لأدخله، فوجدت ... آه، يا رب، وجدت ... الهم ... لقد قتلوا الطفل !

زينب — إصبرى يا فاطمة إن الله مع الصابرين

فاطمة — لقد رموا أخاه فات فى حجر أبيه فتلقى الحسين دمه بيده ... أنظرى يا زينب ! ألا ترين إلى الدم قد خضب حواشى الأفق ؟

زينب — هذا هو الشفق يا فاطمة !

فاطمة — وهذا السواد الذى غطى على الكون ؟

زينب — هذا هو الليل ، مالك يا فاطمة ؟ هذا الليل ...

فاطمة — إننا سنعيش فى فجر دائم لا يلمح فى جوانبه فجر . سنعيش بعد الحسين فى ليل الأحزان السرمدى

زينب — لقد عدت إلى البكاء ! فاطمة إلى متى تبكين ؟

فاطمة — إلى أن يرجع حسين ، حسين خير الفتيان ، وسيد شباب الجنة

زينب — لا حول ولا قوة إلا بالله.

فاطمة — حسين يا أخى يا حبيبي ، يا قرة عين رسول الله

زينب — ...

فاطمة — لقد رماك النبي ، وغدتك فاطمة بنت محمد، ليقتلك سنان بن أنس النخعى ؟ لتكن ملعوناً يا سنان على كل لسان

زينب — تعال كلمها يا علي ، تعال كلم عمتك

(١) أنشده يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم بين يدى يزيد (الطبرى : ٦ — ٢٦٥)

2017-11-11

فاطمة — أن هو علي ؟

علي — هأنذا يا عمتي !

فاطمة — أدن مني ياعلي ، أنت بقية آل محمد. أنت اليوم رجلنا وحامينا ، لم يبق إلا أنت ... آه كل أسرة فيها رجالها ، ورجال بيت النبي مصرّعون في كربلاء ! لقد وسع المسلمون بعدلهم الذميّ والكافر ، ولكن عدلهم ضاق عن آل النبي ، لقد قدموا الحياة السعيدة للنصراني واليهودي ولكنهم لم يجدوا لابن بنت النبي إلا الموت الأليم

أفكان لهم ثأر عندك يا محمد ؟

علي — كفى يا عمّة ، لست وحدك المصابة ، إن المجد والشرف والاسلام ، كل أولئك أصيب يوم أصيب الحسين . كفى يا عمّة لست وحدك الباكية . ستبكي معك عيون طاهرة لن يجف فيها الدمع إلى يوم القيامة . لقد مات الحسين ، لقد قتل أبي . . . ولكنه سيعيش خالداً بروحه في جنان الخلد ، وخالدا باسمه في القلوب . ألم يختر هو الموت اختياراً ؟ ألم يقدم عليه ؟ ألم يمرض عن نصيحة عمي محمد بن الحنفية ؟ ألم يستحثه عالما الأمة بن عمر وبن عباس أن يقيم في الحجاز ، وألا يثق بما يقول الكوفيون ، وألا يشق عصا المسلمين ، فأبى ألا المسير ؟ ألم يأته الخبر بمقتل مسلم بن عقيل وانقلاب أهل الكوفة عليه ؟

فاطمة — بلى بلى ، ولكنه رأى الجورقاشياً ، والمنكر معروفاً ، وأموال الله نهباً مقسماً وحمى مستباحاً ، فهض ينصر الحق ، ويحيي العدل ، ولم يقم حتى دعوه وألحوا عليه . . . ما كان يظن أن المسلمين يقتلون ابن بنت نبيّهم ، ويذبحون أطفاله ، ويسوقون نساءه كما تساق أسرى الروم . فكيف كان هذا أبا علي ولم تطبق السماء على الأرض ؟ أيقتل بنو النبي وتسبى نساؤه ولا يغضب أحد ؟ ألم يبق على وجه الأرض مسلم ؟

هذا ابن بنت النبي ، وفتى بني هاشم ، لو مات على فراشه لهزّ موته أهل الاسلام ، فكيف وقد قتل مظلوماً ، وقد قتل معه هؤلاء الفتيان البرءاء . وهتكت أستار أكرم بيت رفع على ظهر هذه الأرض ؟ آه . أيطلّ دمك يا حسين ؟

علي — إطمئني ياعمة ! إن دم الحسين لن يطل. لقد وقع الزلزال فأفاق الناس فزعين ، ولكنّ الهزة لم تدع لهم سبيلا إلى التفكير . إن العالم اليوم حائر مشدوه لأنه لم يكن يصدق أن هذه هي التحية ، كلا ، ولا هؤلاء الذين تألبوا على أبي يحاربونه . كانوا يظنون أنه سيستسلم لهم . كانوا يتحامون قتله ، ويتأون عنه ، لا يريد أحد منهم أن يلقى الله بدمه وأن يبوء بهذه اللعنة ، فلما رأوه مقتولا ذعروا ، وتيقظوا كأنما أفاقوا من حلم هائل

فاطمة — ولكنهم أفاقوا بعد فاتت الأوان . يا لهؤلاء الوحوش ! يا للذئاب ... لقد دعوه وألحوا عليه ، حتى إذا جاء نهضوا إليه بالسيوف ، وضنوا عليه حتى بالماء . لقد شهدته يقاتل عطشان قد جف حلقه من الظمأ ، فحسبتهم سيسقونه ، ولكنهم سددوا إلى فمه سهماً ملأ فمه بالدم . هذا هو الذي منوا به عليه !

علي — إنهم سيندمون يا عمة . سيعضون أصابعهم حسرة . إنهم سيلطمون على وجوههم لوعة . إن هؤلاء الذين قتلوا الحسين وقتلوا أباه ، هم الذين سيكون عليه وعلى أبيه . إن الكوفة التي أذاقتنا الغصص ستكون مثابة شيعتنا ، ومثوى أحبائنا ... سيفنى الأعداء ، ويبقى الأحباء، سيأتي يوم يقال فيه ، أين من قتلوا حسيناً ، أين أنسالهم ؟ أين من ينتمي آل بيت النبي ؟ قد خلا وجه الأرض منهم ، ليس في الدنيا من بني أمية أحد

الدليل — وما ذنب بني أمية ؟

2017-11-11

علي — لقد نسيت أنك هنا ، ما كان لي أن أتكلم عن بني أمية بمسمع منك

الدليل — ولم يا سيدي ؟ إني من جنود أمية ولكني أحب لكم ولذلك صحبتكم. وهل يتم إسلام امرئ يبغض آل بيت نبيه ؟ إني والله ما أوتر عليكم بني أمية ، ولكنها كلمة الحق

علي — وما هي كلمة الحق ؟

الدليل — هي أن أمير المؤمنين يزيد لم يرد قتل أبي عبد الله ولم يأمر به ، ولقد كتب إلى ابن زياد ألا يقاتل من لم يقاتله

علي — لقد عرف ذلك الحسين ، فسأل القوم أن يدعوه حتى يضع يده في يد يزيد ، أو يمضي إلى ثغر من ثغور المسلمين فيقاتل فيه المشركين ، أو يعود من حيث جاء

الدليل — أنصفهم والله ! ولو قدم على يزيد لوجده مبجلاً له ، عارفاً بقدره ؛ إن لم يمنعه دينه من قتله ، منعته مروءته ، وهو ابن عمه ، أن يرمل نساءه ، ويهتك أستاره

علي — صدقت والله ، ما رأينا من يزيد إلا خيراً . أحسن إلينا ولمن ابن سمية وترحم على الحسين ، وكان قصره من البكاء على أبي عبد الله كأنه في مناحة [1] . ولكن المجرم شمر بن ذي الجوشن

فاطمة — هذا الذي أوقد النار وضرّامها . لتنزل عليه اللعنة الحمراء . ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة

علي — وعبيد الله بن زياد

فاطمة — هذا الذي أمر بها ، هذا الذي ضرب بقضيبه فاطمة رسول الله . لتنزل عليه اللعنة الحمراء . ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة

(١) تاريخ الطبري . والكتاب الذي نقتبس منه هذا الفصل مأخوذ كله من الطبري

علي — لقد باءا بلعنة العصور وكانا سبة التاريخ. لقد فقدوا الدين والمروءة، وخسروا الشرف. لم يستسر حسينهما، ولم يهج إنسانيتهما، هؤلاء الأبطال الذين وقفوا يدافعون عن الحق ، ويذودون عن أسرة النبي، يقاتلون وهم عطاش والموت عن أيمانهم والموت عن شمائلهم ، والموت من أمامهم ، وهم ماضون في سبيلهم لا يريدون مالاً ولا يبغون جاهاً ولا يحرصون على عرض من أعراض الدنيا ، ولكنهم يريدون الله حتى إذا أحسوا باليأس طفقوا يسارعون إلى الموت واحداً بعد واحد ، وكلما ذهب منهم بطل ودع الحسين وسلم عليه وأسلمه إلى من خلفه ليدافع عنه، حتى فارقوه جميعاً ليلقوه في الجنة. هؤلاء هم الأبطال الأشراف الذين سيبقى أسماؤهم درّة في تاج التاريخ تلمع أبداً فتضيء للسارين طريقهم إلى النبل والشرف والمجد: حبيب بن مظاهر، وزهير بن القين، والحر بن يزيد الذي كفر عن خطيئته ، وتاب من ذنبه ، رحمة الله على الجميع

زينب — أنظري يا فاطمة لقد وصلنا إلى المدينة

فاطمة — خرجنا منها منذ شهرين فسحنا في الأرض ورأينا العراق والشام ولكنا عدنا كالسبايا. لقد خسرنا كل شيء، آه. أين أنت يا أخي تستقبلنا؟ أين فتيان بني هاشم يحفون بناء أين رجالك يا أسرة النبي..

زينب — يا فاطمة ، إنهم ذهبوا ولكن الله باقٍ

فاطمة — هذه داركم يا آل النبي ، فتجرعوا فيها الآلام . هذه الدار فاذكروا ما كنتم احتواهم جوف الأرض من كربلاء ، هنا كانوا يقيمون ، وهنا كانوا ...

علي — قد بلغنا المسجد ، فانزلي فسلمي على الرسول . إنزلي يا عمة

فاطمة — السلام عليك يا رسول الله .. يا جدي .. لقد قتلوا ابنك الحبيب ..

2017-11-11

كان لصاً

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت الليلة هادئة حارة من الليالي التي يصادف أن تكون كذلك في خلال شهر أكتوبر فتذكر بليالي الصيف وتحمل الناس على فتح النوافذ والأبواب لاستنشاق النسيم المشبع برائحة الأزهار، ودقت أجراس الكنيسة مؤذنة بالساعة العاشرة فكانت دقات تلك الأجراس هي الأصوات الوحيدة التي شقت سكون الليل. واستيقظت عند سماعها الآنسة صوفيا وكانت نائمة في حجيرة أبيها بالكوخ الصغير القريب من الكنيسة وقد تخلل الشرفة ضياء القمر من النافذة المفتوحة.

وكانت صوفيا خفيفة النوم يوقظها أضعف الأصوات وقد سمعت بعد استيقاظها بقليل حركة خفيفة ولكنها غير عادية بالكوخ فقامت من السرير وأطلت من النافذة فرأت رجلا في الحديقة التي أمامها رافعاً بصره نحو النافذة وقالت بصوت ضعيف: «من هذا؟» ثم تبينته فقالت: «أأنت توم كلاتشلي؟»

أجابها الرجل بمثل صوتها خفوتاً: «نعم ياخالتي صوفيا»

قالت: «إذن فامش نحو الباب، وفي دقيقة سأفتح لك»

لكن الرجل ظل واقفاً في مكانه وقال: «لاتفتحي فقد نسيت أنكم تكونون في النوم؛ وإننا الآن في ساعة متأخرة، وسأنام الليلة في القرية مع بعض أصحابي وآتي إليكم في الصباح لأتناول معكم طعام الأفطار

قالت صوفيا بصوت فيه نبرة الغضب «كلا يا ابن أخي فلن أتركك تذهب بمدفيا بك حتى كاملة، ولا يهمني مجيئك متأخراً فان رؤيتك عندي خير من نوم ساعة أو ساعتين. إذهب إلى الباب وسأكون عنده قبل أن تصل إليه

ثم أسرعت إلى الباب والشمعة في يدها ويدها الأخرى تمتد إليه للترحيب به

وفي بضع دقائق أوقدت النار في المطبخ. ولما عاد بالطعام قالت: «يظهر أنك جائع وأنك تحس بتعب شديد، فكل ثم أخبرني أين كنت وماذا كنت تفعل في هذه المدة؟»

لكنه لم يظهر اهتماماً بالطعام وقال: «لم أكن في حالة مرضية في تلك المدة لأنه ليس من السهل على الانسان أن يهرب من شهرته

وكانت اللهجة التي يتكلم بها دالة على الامتعاض الشديد فقالت: «لكن دعابك كان خفة شديدة منك لأنه حمل الناس على كثرة الكلام، فانهم صدقوا الآن كل ما يقال عنك ونسبوك إلى الاجرام»

قال: «وأي شيء ينافي الحق في قولهم؟ أليست السرقة إجراماً»

فأظهرت صوفيا دهشة شديدة ودقت بيديها على المنضدة وقالت: «سرقة! إنك لم تكن قط سارقاً ولن تكون كذلك. إن السرقة في نظري أكبر من أن تتناول شيئاً ثم تنسى أن تضعه مكانه كما فعلت في صندوق «البسكوت وعلبة المربى» من عند البدال ... إن السرقة هي رغبة الحصول على الثروة وابتلاء الغير بالفقر في هذا السبيل. وهؤلاء يستحقون الشنق»

قال: «إنك لتدهشيني بتفكيرك على هذا النحو

2017-11-11

لأنه لم يبد منى ما يبرر ثقتك بى فقد فررت دون أن أحاول تبرئة نفسى »

قالت : « نعم وقد كنت أدرك أنك غير مستريح » فقال: «ولكن لو كان كل الناس يظنون بي كما تظنين ويعاملونني مثل معاملتك لكان حظى حظاً آخر »

فأطالت صوفيا النظر إلى وجهه وقالت : « ولكن القاضى هنا عادل ، ولم يمكن تمت ما يدعو إلى الظن بضياع الحقيقة لو أردت إظهارها »

فقال : « هيهِ أن الحقيقة كانت ضدي فكان فى إظهارها إساءة لسمعتك وتنغيص لك »

رفعت صوفيا رأسها بشكل يدل على الزهو وقالت: « إنك لا تفعل ما يسيء لى ذلك، فانك كنت باراً بأمك وكنت تحبها وتخشى عليها وأنا أحبك مثل حبك وأثق بأنك لن تفعل ما ينغص حياتى »

فقال : « ولكنى وأنا أدرى بنفسى أنصح لك بالا تحاول إبقائى عندك . وقد زرتك الليلة لأعرف كيف حالتك المالية لأنى بحاجة إلى ثوب جديد وحذاء وقبعة حتى أظهر بمظهر محترم لأني قد وجدت عملاً »

قالت صوفيا وقد تلاشت الابتسامة التى كانت مرتسمة على وجهها : « وهل تريد مالاً يا توم ؟ إنه ليس لدىّ مال فقد صرفت مصاريف كثيرة فى هذه الأيام . ودفعت أجرة المنزل . و ... »

فقال : « إنى لا أريد أن آخذ المال منك يا خالتى »

قالت: « ولكننى أنا أيضاً لا أتركك بغير مال ما دام الأمر يؤدى إلى وجود عمل لك »

ثم حدقت النظر إليه وقالت : « أصغ إلىّ يا توم! خذ هذه الأوانى الفضية وبعها واشتر لنفسك ما تريد . وانى لأثق تمام الثقة بأنك ستكون مستقيماً لأجل رضائى »

فقال توم : « كلا كلا يا خالتى فانك أحسنت إلىّ كثيراً فى الماضى وأظهرت بى ثقة عظيمة

قالت: « إذا لم تأخذ هذه الأوانى فانى سأبيعها فى الصباح وأضع ثمنها تحت تصرفك »

فتغيرت حالة توم فجأة عندما رأى تشبثها بإظهار العطف عليه وقال : « إننى على كل حال سأرد ما آخذه سواء منك أو من غيرك بعد حصولى على العمل . وأقسم انى سأقوم الاستقامة لسبب واحد هو أن يكون ظن الناس بى وتفهمهم مثل ظنك وتفهمك »

قالت : « أشكر لك هذا الشعور والآن قد آن وقت النوم »

ودلته على الغرفة التى سينام فيها، فقال إنه سينام فى أقل من ربع ساعة . وتركته قائلة إنها ستنام أيضاً

ولكنها لأول مرة فى حياتها لم تف بما قالته فذهبت إلى غرفتها لتقاوم النوم ولتراقب الحديقة . فلما انقضت نصف ساعة رأت شبحاً يخرج من الدور الأرضى فى الكوخ ، فتنهدت وأظهرت ارتياحها وقالت : « الآن أحمد الله على خروج اللص وعلى أنى بإهدائى إلى ابن اختى ما أهديت لم أخسر شيئاً ، بل أهديت إليه ما تركه اللص هنا حين سمع صوتى .

وكانت الحقيقة أن لصاً دخل فى المنزل قبل مجىء توم، فلما سمع صوت صوفيا اختبأ وترك الأوانى الفضية؛ ثم سمع ما دار من الحديث ، فانتظر حتى هدأت الأصوات وخرج تائبا حين رأى اللص الآخر قد تاب ، وحين رأى غير اللصة تسرق اللصين معاً

عبد اللطيف النشار

عجوز الصور المتحركة

للكاتب الأسباني بلاسكو ايبانيز
بقلم الأديب محمد محمود دوّاره

رفع رئيس الشرطة ناظريه متأملاً المرأة المسنة ذات الشعر الذى وشمه الشيب فأصبح ذا لون رمادى عجيب . كانت واقفة فى تخاذل أمام مكتبه منذ هنيهة ، ولكن سرعان ما اتخذت لنفسها مجلساً على مقعد قريب منه غير مأمورة ولا منتظرة إذناً أو إشارة

وعاد الرئيس فألقى عليها نظرة فاحصة أخرى ثم أخذ يفحص وريقة موضوعة أمامه ، هى تقرير الاتهام المقدم إليه من رجل الشرطة الواقف إلى جانبه وقفة عسكرية نظامية وما لبث أن ساح موجهاً حديثه إلى العجوز :

إحداث شغب فى دار بن دور السينما . التفوه بألفاظ مسيئة فى حق السلطات الحاكمة . التعدى بالسب والاهانة باللفظ والاشارة على أحد رجال الحفظ . تلك هى التهم الموجهة إليك فما هو دفاعك؟

أما هى فكانت فى تلك اللحظة تجيل الطرف بين مكان الرئيس ومكان مرءوسه وقد بدت عليها علامات الذهول حتى كأنها لا ترى شيئاً أمامها

وانتهى الرئيس من توجيه التهم إليها فتقلصت عضلات وجهها وبانت فيه علائم الدهش والاستغراب ثم أغمضت جفنيها ثم عادت ففتحتهما كأنها تستيقظ فجأة على أثر حلم عجيب وهمست قائلة :

— سيدى الضابط ! ليست المرأة التى أمامك سوى بائسة من البائسات المتجولات . أبيع أنواع الخضر على عربة يد صغيرة وقد اخترت لنفسى شارع «تربى» فجعلته منطقة تجارى منذ أربعين عاماً يا سيدى أقوم بهذه المهمة وأحيا تلك الحياة و....

حاول الرئيس أن يقاطعها ولكنها استمرت فى حديثها غير عابئة بمقاطعته بل بدأ فى صوتها لون من ألوان الاحتجاج

— ليدعنى سيدى الضابط أتحدث كما أشاء . إن كل امرئ يعبر عن نفسه بقدر طاقته ، وكل إنسان يتحدث على قدر عقله

فاعتدل الرئيس فى جلسته وألقى رأسه إلى الوراء ثم تناول فتاحة الرسائل بين أصابعه وأخذ فى تحريكها بمنة ويسرة . لقد عودته الصبر مهنته ودربته ثرثرة المتهمين أن يكون أكثر صبراً من أيوب .

وها هو ذا قد أعد نفسه للموقف الخطير !

— فى عام ١٨٧٠ ، أيام الحرب السابقة لهذه الحرب الضروس القائمة الآن ، كنت فى العشرين من عمرى ، وكان زوجى العزيز جندياً من جنود الحرس الوطنى فى الوقت الذى حوصرت فيه باريس . وحدث أن جرح هذا المسكين فى أثناء موقعة من المواقع التى قامت بين الفرنسيين وأعدائهم الألمان فبذلت ما تستطيع امرأة أن تبذل فى سبيل إنقاذ حياته ، ولكنى اضطررت بعد ذلك أن أعمل وأن أعمل بكل ما أوتيت من قوة كى أعيش وكى يعيش معى زوج عاجز عن العمل وابنة لم يهبنا الله غيرها . ومات زوجى كما ماتت ابنتى — وا أسفى —

2017-11-1

بعد قليل تاركة لي من بعدها حفيدين

وتوقفت العجوز لحظة عن الحديث حتى ترى أثر حديثها في الرجلين . غير أنها لم تستطع أن تقطع في الأمر بحكم أو قرار . فقد كان رئيس النقطة يصغر صغيراً خافتاً وهو يقلب الفتاحة بين أصابعه في عصبية ومهل بينما عيناه تتطلعان إلى سقف الحجرة . وأما الشرطي الذي جاء بها إلى هذا المكان فقد كان واقفاً في مكانه إلى جانب رئيسه تلك الوقفة النظامية كأحسن ما يقف الجندي النظامي الذي لا يختلف في سكونه وجموده من تمثال صخري

هل تسكت عن الكلام ؟ هل تحتج ؟ كلا إنها لا تستطيع . . . ما من الحديث مفر ، وإذن فلتتحدث ولتتحدث غير آبهة بوقوف المستمعين منها

— أما حفيدتي جوليت فهي راقصة من راقصات المسارح ، وهي شخصية معروفة جداً ، ولا أحسب إلا أن سيدي الضابط قد رأى صورتها منشورة في إحدى الصحف أو ملصقة على جدار من جدران المدينة . نعم إنني لا أراها ولا أتلقى بها كثيراً إلا في فترات متباعدة جداً ، ولكني أحبها الحب كله . وقد حدث مرة بينما كنت أدفع عربة خضري وأسير بها في أحد الشوارع أن كادت سيارتها الفخمة تصدمني وتروتي مني ، ولكني سكت راضية بينما صاحت بي هي :

— إنها غلطتك يا جدتي . . لماذا تصرين على احتراف مهنة البيع والشراء ؟

وماذا أفعل إذن يا بنيتي ؟ لقد كان حتماً علي أن أمتهن هذه المهنة عندما كانت هي وشقيقها طفلين صغيرين لأقوم بواجبات الإنفاق عليهما وسد حاجاتهما

والواقع أنني كنت أحب مهنتي . وعلى قدر لحافك مد رجليك . وإني وإن كان هذا مبلغ فقري وحاجتي أصرح بأني لا أميل ولا أطمئن إلى تلك الحياة التي يحياها هؤلاء الفنانون . ألست ترانى على حق يا سيدي ؟

وهنا أمسك الضابط عن الصغير واتجه إلى المرأة وجعل يتفرس وجهها مليا . لعله كان يعرف الحفيدة، تلك الراقصة النابهة الذكر . ولعل هذا هو سر ذلك التطور في موقفه ! . . .

واستطردت العجوز قائلة :

— أما مسيو دي ؛ أما أحب الناس إلى وأقربهم إلي قلبي وعاطفتي فقد كان حفيدي ألبير . كان في ذلك الوقت الذي أحدثك عنه عاملاً في أحد المصانع الكبرى . كان عاملاً من أنشط العمال وأمهرهم وكان يميل إلى الدرس ومطالعة الكتب . وكثيراً ما كنت أزوره على الرغم من كرهي الاختلاط بالناس وإيثاري العزلة والانفراد بعيداً عن العالم . وكنت كلما زرته جعلت همي الأول مساعدة زوجته في أعمالها المنزلية وملاعبة طفله الوحيد الذي هو حفيد ابنتي يا سيدي ! تصور مقدار ما في ذلك من سعادة وهناء ! ليس كل إنسان يستطيع أن يحظى بنعمة الحياة حتى يرى بعيني رأسه أولاد أحفاده

وصمتت لحظة قصيرة ، سبحت في أثنائها في عالم من الذكريات السعيدة ثم تمتمت قائلة :

— ما كان أسعد تلك الأيام يا سيدي ! تلك الأيام التي سبقت الحرب . قصدنا في يوم من أيام الأحد إلى خارج المدينة ، وسط الريف الجميل كي نحتفل بتعيين ألبير رئيساً لعمال مصنعه؛ وجلسنا هناك

2017-11-11

على شاطئ السين حيث تناولنا الطعام والمدام ، هنيئاً مريئاً ...

وبعد أسبوعين اثنين حدث ما كنا نخشى ، إذ أعلنت الحرب ...

وفى هذه اللحظة أبدى الرئيس حركة من حركات الضيق نسبتها المرأة إلى كرهه الاستماع إلى شىء يمت إلى الحرب بصلة فقالت :

— نعم يا سيدى ، بيدك الحق ؛ فأنا أعلم أنه قد مرت علينا أربع سنوات عجاف من جراء هذه الحرب ، وأن سيرة تلك النكبة تذهب بحلم أشد الناس رزانة وثباتاً . وقد أخبرونى أن المسارح والجرائد السيارة ملت هى الأخرى ترديد سيرة تلك الحرب ووقائعها الدامية . أعرف هذا حق المعرفة كما أعرف أن حكايتى تشبه حكايات الكثيرين والكثيرات غيرى

انضم البير إلى إحدى الفرق المحاربة إثر إعلان الحرب فلم أره إلا بعد مضى عام عند ما عاد من الميدان مرتدياً حلته العسكرية ، ثم عاد مرة ثانية ، وأخيراً اعتدت احتمال أمر غيابه عن المنزل. وكان لا يخطر ببالى قط أن ألبير كغيره من الناس يستطيع الموت أن يعدو عليه .

غير أنه حدث فى ذات يوم أن تسلمت وريقة صغيرة لم أستطع بعد أن تلوت ما حوت من كلمات إلا أن أصرخ باكية مولولة كما صاحت مى زوجته

وبعد أيام قليلة أقبل واحد من زملائه فى الفرقة حاملاً معه بعض متاع حفيدى العزيز ...

وهنا أجهشت العجوز بالبكاء وخفت صوتها خفوتاً ظاهراً وهى تقول :

— لم أره بعد ذلك يا سيدى ، فقد قتلوه !

وكأنها عادت فذكرت وعدها بأن تختصر الكلام إذا ما تحدثت عن الحرب فبذلت جهد الجبارة فى التغلب على عاطفتها وتركت الكلام عن الحرب فعلاً :

— وتعمل أرملة ألبير الآن فى أحد مصانع المواد المفرقعة الواقعة فى الناحية الأخرى من باريس، ولست أرى ابن حفيدي إلا مرات قليلة متباعدة إذ على كل إنسان أن يهتم لأمر معيشته

ولماذا أخجل من ذكر الحقيقة ؟ إننى مذ مات البير وأنا أكثر من التردد على إحدى الحانات . وكل يحاول إغراق همومه والتغلب عليها بالطريقة التى يعرفها . لقد تجاوزت السبعين ، وفى هذه السن وخاصة إذا كان الانسان مثلى مضطراً إلى الاستيقاظ مع الفجر والى الذهاب إلى الأسواق الرئيسية لشراء بضاعته التى يعيش منها ، أرى أن كوبة صغيرة من النبيذ هى خير دواء . أليس كذلك يا سيدى ؟

صمت الضابط ولم يجب على سؤالها الأخير ، وكان معنى هذا بطبيعة الحال أنه رآه سؤالاً غير لائق

ولكنها استمرت فى الحديث وبدا فى أسلوبها وفى طريقة إلقائها شىء من الحدة والحرارة مما دل على أنها كانت تقترب من النقطة الحساسة فى موضوعها .

— وفى هذه الليلة بالذات ، بعد الغروب بقليل ذهبت إلى الحانة صحبة العم كرانكفيل . وقد اعتدت أن ألتقى بهذا الرجل هناك فى كل مساء ، وتركنا المكان معاً حوالى الساعة التاسعة ، ولست أدرى لم وقفت أمام باب إحدى دور الصور المتحركة؟ ولماذا رغبت فى الدخول ؟ لفتت نظرى صورة مكبرة تمثل

فتاة أزاسية جميلة ، أمسك بها جندى ألمانى ضخم الجثة كأنه الحيوان المفترس بينما أخذت المسكينة تبذل أقصى مجهود بدنى للدفاع عن نفسها والخلاص من قبضته . وأنا أحب القصص التى من هذا النوع؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنى من أشد الناس تحمساً للوطن . ومرجع ذلك إلى أنى شهدت حربين مختلفتين ؛ ولكن دعنا من هذا ولنترك الحديث عن الحرب . . .

ورفض العم كرانكفيل أن يصحبنى فى الدخول إلى الدار مع أنى عرضت عليه ثمن تذكرته . والواقع أنى لا أعرف أى الأشياء يحب هذا الرجل وأى شىء يكره ؛ فقد تعود أن يقابل كل ما يلقى بابتسامة واحدة لا تتغير ولا تتبدل

وإذن فقد دخلت الدار وحدى وكان هذا لسوء حظى . ألم يلاحظ سيدى ظاهرة عجيبة فى حياة الانسان ؟ ألم يلفت نظره مرة كيف تسادى الظروف أحد الناس باستمرار ؟ وكيف أنه كلما حاول مقصداً انقلب إلى نقيضه ، وكلما جهد فى سبيل جلب السرور إلى قلوب الناس آذاهم وآذى شعورهم وعواطفهم حتى كأنما الشيطان بنفسه يقوده ويوجه خطاه وحركاته ؟ ولم يتنازل الضابط بالاجابة على هذا التساؤل أيضاً

— تشاجرت مع بائعة التذاكر من أجل قطعة من قطع العملة أدعت هى أنها مزيفة ولم تقبلها بحال من الأحوال ، وأصررت أنا على أنها عملة جيدة لا عيب فيها ؛ ولكنها لم تستمع لكلامى فأغضبنى هذا غضباً شديداً وقلت لها إنها لا تعرف التمييز بين أنفها وبين . . .

وعندئذ تدخل حارس الباب بيننا، مع أن هذا ليس من شأنه ولكنه أراد تمثيل دور البطل الذى يجىء لإنقاذ الفتاة النبيلة فى اللحظة الأخيرة ، فألقيت عليه هو الآخر درساً لا أظنه ينساه . . .

وفى داخل الدار لازمنى سوء الحظ أيضاً وقاد خطواتى الشيطان فبدأ جيرانى يتذمرون ويتهمونى بأننى كنت أدوس أقدامهم ، حتى أن بعضهم لقبنى بلقب غريب هو « الجزمون الفظة »

والحقيقة يا سيدى أننى لم أدس أقدامهم وإنما هى نواياهم السيئة التى أوحت إليهم بهذا الادعاء؛ وأنا شخصياً لا أبغض شيئاً فى الحياة قدر بغضى لمضايقة الآخرين .

وقد تبرعت امرأة سمينة كانت تجلس إلى جانبى بتشييعى ببرميل الخمر من حيث الرائحة . . .

برميل الخمر يا سيدى؟ هذا كثير . هذا لا يحتمل. عند ذلك اضطررت أنا الأخرى إلى إسماعها رأيى الخاص فيها ؛ فضج الجمهور واحتج ، ولكن احتجاجهم لم يكن منصباً إلا على وحدى دون غريمتى بدعوى أننى أفسد العرض وأننى أشغلهم عن المشاهدة ، ولكن ذلك لم يسكتنى قط . وإن كنت قد سكت أخيراً فإنما كان ذلك لأن قصة الفتاة الأزاسية كانت قد بدأت . . .

هى قصة مسلية جداً يا سيدى ، كنت أحب أن أقصها على مسامعك ، لولا مخافة الاطالة والاملال . . . وعلى كل حال لا داعى لذلك فلست أعرف كيف انتهت ولا كيف كانت خاتمتها . لم يتركونى أستكمل المشاهدة يا سيدى

وعاد الضابط مرة ثانية إلى التأمل فى سقف الحجرة وإلى الصغير محاولاً الترفيه عن نفسه

— وكان هناك سيد يجلس خلفى تبدو عليه

2017-11-1

دلائل المعرفة والعلم بما يتعلق بالصور المتحركة. سمعت هذا السيد يبدي رأيه في الفلم المعروض لبعض جيرانه في صوت خفيض . وعلى حين غرة تتقدم الفتاة الاراسية إلى مقدمة الستار محاولة الفرار من مطاردها . ثم يبدأون بعد ذلك مباشرة في عرض مناظر الخنادق المزدحمة بالجند ومطارح المسكرات والمدافع

قال السيد العالم بشئون الصور المتحركة الجالس خلفي : إن هذه المناظر في الواقع قطعة من التاريخ، وإنها ... ماذا أقول ؟ هي مقتطفات واقعية أضيفت إلى صور الفلم . هل استطعت التعبير يا سيدي ؟ هذه الاضافات أشبه شيء بقطع من القماش الجديدة التي ترفع بها الأثواب البالية لتبدو أحسن منظراً . ولكني لا أعرف شيئاً ألبتة عن الصور المتحركة ، وغاية ما كنت أشعر به هو أن ما أرى ظريف ظريف ، بل بالغ الغاية من الظرف والطرافة

وبعد ذلك ظهر على الستار منظر يمثل خندقاً من الداخل ، ورأينا جنداً كثيرين في وقت راحتهم، وكان أحدهم آخذاً في تحرير خطاب وهو مسند الورقة على إحدى ركبتيه بينما كان ظهره متجهاً نحو النظارة ، ثم أخذ في تحريك رأسه قليلاً قليلاً حتى ظهر وجهه ثم ابتسم للمتفرجين

حينئذ فتحت عيني جيداً وجعلت أدقق النظر . إنني لست عمياء ... ولا شك أنني أستطيع تمييز ما أمامي من مرئيات . . . كدت أصيح بكل ما في حنجرتي من قوة ... إنه حفيدي

ونهضت من مكاني واقفة كي أتمكن من رؤيته جيداً . وحاولت أن أسرع إليه مهرولة فأحتضنه وأشبعه ضماً وتقبيلاً . وقد يكون حدث في أثناء ذلك أنني دهست بعض أقدام الناس في خشونة ، أو دفعتهم أمامي في شدة، ولكن عذري في ذلك أنني لم أكن قط في كامل شعوري . وهاج المتفرجون وماجوا ، وتدخل عمال الدار في الأمر فاعترضوا طريقي نحو حفيدي وأحاطوا بي إحاطة السوار بالمعصم، ولم يقبل أحد أن يستمع إلى كلامي؛ إذ كان الجميع يعتقدون اعتقاداً جازماً أن ما حدث إنما كان من فعل الخمر في رأسي ، وبدأوا في دفعي نحو باب الخروج في قسوة وشدة حتى اضطررت إلى استعمال قبضة يدي في الدفاع عن نفسي . وجاء الشرطي الواقف الآن إلى جانب سيدي ، والذي يقولون إنني سببته وأهنته وعضضته في إحدى يديه مما لا أدري كيف أمكن أن يصدر عني . يخيل إلي أنني كنت في حال مي إلى الجنون أقرب منها إلى العقل . وجذبني الشرطي إلى الخارج وجاء بي إلى هذا المكان دون أن يسمح لي بالكلام أو شرح الموقف ، وبذلك لم يتح لي فرصة البقاء لمشاهدة ألبير

وتلا ذلك فترة سكون طويلة كانت المجوز في أثنائها تسكب الدمع من عينيها مدراراً إلى أن قالت:

— وهكذا التقيت بحفيدي ألبير أخيراً

وانحنت أمام الضابط انحناءة الخضوع والامتثال وقالت :

— استميح السيد عذراً وعفواً

ثم انحنت مرة أخرى أمام الشرطي الذي ساقها إلى ذلك المكان وقالت :

— كما أطلب عفو سيدي

ثم وقفت وقفة الذل مطأطئة الرأس مشبوكة اليدين على الصدر، مرخية العينين نحو الأرض، وظلت صامتة وهي تشعر في قرارة نفسها أن دفاعها عن

2017-11-1

نفسها لابد بالغ إلى قلب الضابط بينما كانت الدموع تنهمر من عينيها فتهبط جارية على وجنتيها المجمدتين

***

ومكث الضابط فى صمته لحظة ثم نظر إلى الشرطى الواقف إلى جانبه وهو رجل ضخم الجثة يحمل على صدره صليب الحرب وقد تحلت ذراعه بشرائط تدل على طول المدة التى قضاها فى الخدمة، فبادل الشرطى النظر وقد كان يستمع إلى حديث المرأة فى حياد تام طول هذه المدة ولم يبد منه ما يدل على التأثر كما لم تبد منه حركة إلا قيامه بفتل شعرات شاربه مرات . وكأنما كانت هاتان النظرتان كافيتين لتمام التفاهم بين الرجلين ، إذ أمسك الضابط بعد ذلك بالتقرير الذى قدمه الشرطى إليه فناوله إياه فلم يكد يتناوله حتى أخذ يمزقه دون أن ينبس ببنت شفة

وقال الضابط :

— فى استطاعتك الانصراف يا سيدى المحترمة وكأنما استيقظت المرأة من حلم آخر . أحقيقة أنهم يخلون سبيلها ؟ أتستطيع الآن أن تذهب حيثما تشاء ؟ ما أشد رحمتهم ! ... ولكنها قبل أن تهم بالخروج اتجهت نحو الضابط وقالت :

— وهل أستطيع أن أعود إلى دار السينما ؟ هل يسمحون لى برؤية حفيدى مرة واحدة فى كل ليلة ؟

فلم يسع الرجلين إلا أن يضحكا من سذاجتها ، وإلا أن يقولا لها إنها تستطيع أن تفعل ذلك كلما أرادت

وخرجت أخيراً من مركز الشرطة دون أذى ، ولكنها كانت تشعر بالخجل ولا تميل إلى رؤية أحد من معارفها فى ذلك الوقت حتى لا يلتبس عليه الأمر ويظن بها الظنون . وعند ماوصلت إلى الشارع العام تلفتت يمنة ويسرة وأمامها وخلفها، فلما لم تر أحداً جمعت أطراف ثوبها فى كلتا يديها وأسرعت العدو بقوة الشباب بينما أخذت عضلات وجهها فى التمدد والتقلص تبعاً لتردد أنفاسها وقد خرجت بعض خصلات من شعرها الأبيض من تحت القناع المزركش الذى يغطى رأسها .

وصلت إلى دار السينما فرأت الجموع الأخيرة من المتفرجين يخرجون والعمال يقومون باطفاء الأنوار ورفع الصور الموضوعة فى الخارج فوقفت على مقربة من الباب ترقب حركاتهم وهى ساكنة لا تتحرك ، مستندة بذراعها على الحائط وأسندت رأسها بيدها الأخرى وأخذت تبكى بشعور المرأة التى فقدت طفلا عزيزاً وتمتمت أخيراً محدثة نفسها :

— يا إلهى ! ... أملى الآن أن أنتظر حتى الغد؟ أتنتظر حتى الغد لأرى صغيرى المحبوب ...

***

وفى الليلة التالية دخلت المرأة دار السينما فى أدب جم . وعند ما اقتربت من نافذة بيع التذاكر أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى حتى تتحاشى رؤية العاملة لها إياها ولكن حارس الباب رآها واستطاع أن يميزها فاقترب منها وقال :

— لا . لا . هل أتيت الليلة لتكرارى فضيحة الأمس ؟ لا تذكرة لك يا سيدة

ثم حاول إخراجها ... ولكنها نظرت إليه ضارعة وقالت :

2017-11-11

— دعنى أدخل يا سيدى الفاضل ... لقد أتيت لأرى حفيدى وأعدك وعداً صادقاً أنى لن أتسبكم الليلة : فكان لحديثها الساذج هذا أثره فى الرجل جرده من كل سلاح ، فضحك كما ضحكت عاملة التذاكر وسمحا لها بالدخول ، فاتحت أمامهما شاكرة كما امتت أمام الشرطى الواقف أمام الباب

وعند ما صارت داخل المكان أبدت من الأدب الجم ما لفت لها الأنظار . . . صارت تحيى كل من تلتقى به وتنحنى أمام الذين تعرفهم ومن لامعرفة لها بهم حتى تضايق الجميع وصاروا ينظرون إليها شزراً وكأن نظراتهم تنطق بمعنى واحد هو الاشمئزاز

وانكمشت فى مجلسها محاولة شغل أقل فراغ ممكن حتى لا تضايق جيرانها ، ثم جعلت تنظر حوالها نظرات مختلسة لترى تأثير ذلك السلوك فى المتفرجين هل حاز قبولهم أم لم يحزه ؟

— وبدأ العرض فنسيت العالم بأجمعه وبكل حقائقه ؛ وظهر الجندى الألمانى وبدأ فى مطاردته للفتاة الأرستقراطية وأخذ موضوع القصة يتعقد ؛ وسرعان ما ظهرت الخنادق وظهر الجندى بظهره المتجه نحو النظارة وهو منهمك فى كتابة خطاب وقد استند على إحدى ركبتيه ثم اتجه بوجهه ناحية النظارة ، فلم تملك المسكينة أن همست :

— ألبير ... ألبير

كان عليها أن تبذل جهداً هائلا لكى تتمكن من كبت عاطفتها . فتحشرجت تلك الصرخة فى حنجرتها ، وكادت تصل إلى حالة من اليأس من التغلب على شعورها لولا أن ذكرت فى تلك اللحظة ما حدث لها بالأمس فارتعدت فرقاً . إنها لو صاحت الآن أو تكلمت لرمى بها الناس إلى الخارج مرة ثانية ولحرموها نهائياً من ارتياد الدار وبذلك يتم حرمانها إلى الأبد من رؤية جنديها الباسل

ودفعها الخوف إلى الوراء وأسكن حركاتها وخفض عواطفها المتباينة ووجداناتها الشتى فى بضع قطرات من الدموع سالت على خديها ، ولكى ترفه عن نفسها ببعض الشىء أخذت تتمتم فى صوت خافت إلا أنه عميق لأنه خارج من صميم قلبها ، وكانت عيناها ترقبان القصة من فوق الستار

— ألبير يا صغيرى ... هأنا أمامك ... ألا تعرفنى ؟ سأحضر لمشاهدتك كل مساء ... فى كل مساء يا ألبير

***

وفى الليلة التالية قل بكاؤها عن ذى قبل فقد بدأت تعتاد مشاهدة هذه القصة

وعند دخولها الدار تحدثت إلى حارس الباب كما لو كان صديقاً قديماً . قالت وهى تحاوره :

— أشهدت كيف أجاد حفيدى اللعب ؟

فلم يسع الرجل الذى لم يكن يعير حديثها كثيراً من الاهتمام إلا أن تبادل نظرة مع عاملة « شباك التذاكر » وكأنه كان يسألها عن رأيها فى مبلغ عمق هذه العجوز

وعادت العجوز إلى مسكنها ولكنها لم تستطع النوم إلا بعد جهد جهيد ... كان ضميرها يعذبها ويؤنبها ... إنها أنانية ... نعم أنانية محبة الذاتها . ألم تستأثر بكل هذه اللذة التى اكتشفت مصدرها لنفسها بينما كان لألبير فى عالم الأحياء أناس آخرون

غيرها يهمهم أمره ويسعدهم أن يروه بعد أن فقدوا الأمل فى رؤيته مرة أخرى ...

وما كادت شمس اليوم التالى تبزغ حتى أسرعت العجوز إلى السوق فباعت خضرها دون أن تهتم كثيراً بمبلغ ما تصيب من ربح ، ووضعت المرية فى مكانها فى وقت مبكر بالنسبة للوقت الذى اعتادت وضعها فيه فى الأيام العادية ، ثم سارت مبتعدة ضواحى باريس إلى أن انتهت إلى المكان الذى تقصد . وهو مكان يكاد يكون مظلماً لكثرة ماحوى من مصانع ضخمة ذات مداخن هائلة وأبنية كأنها السجون هى التى يأوى إليها عمال تلك المصانع هم وأسرهم

واقتربت من أحدالمساكن سائلة عن زوج حفيدها وابنها ، فأخبرت بأن الطفل بالمدرسة وأن أمه تعمل فى المصنع ، فقصدت تواً إلى ذلك المصنع ، غير أنها ما كادت تصل إلى هنالك حتى منعها الحارس — وهو جندى سابق — من الدخول قائلا إنه من المستحيل عليها أن تدخل ، لأنهم يقومون الآن بصناعة الآلات الحربية وأطلت العجوز برأسها لترى ما ذا فى داخل المصنع قبل أن تترك الحارس فوقع نظرها على جملة نساء منهمكات فى العمل وهن راتحات غاديات وقد ارتدين ملابس طويلة من لون واحد ذات سراويل ضيقة قد التصقت بسوقهن وأفخاذهن فجعلتهن أشبه بالتسابقين من راكبى الدراجات !

ودوى فى المكان صوت جرس ضخم مؤذناً بحلول وقت الغداء لعاملات المصنع وعماله فخرجوا جميعاً واستطاعت العجوز أخيراً أن تلتقى بأرملة حفيدها وأن تتحدث إليها

كان وجه الأرملة شديد الشحوب ، وكانت عيناها أكثر اتساعاً مما عهدتهما المرأة، قدأحاطتهما وتحيط هالتان سوداوان . وما كادت تسمع خبر ظهور زوجها ألبير فى دار الصور المتحركة بعد مقتله حتى استخرطت فى البكاء وقالت فى صوت مختنق :

— كيف يمكن هذا يا جدتى ؟

وتكلمت العجوز محاولة الشرح والايضاح ، ولكن الأرملة حاولت عبثاً أن تفهم ما تقول : وأخذت العجوز تردد كلمات الرجل الذى جلس خلفها فى دار السينما وتكرر شرحه الذى لم تكن هى نفسها تفهم منه حرفاً واحداً ، وأخيراً اختمت حديثها قائلة :

— دعينا من هذا كله ... الواقع أن البير يظهر الآن على ستار السينما؛ فما عليك إلا أن تحضرى أنت وولدك لرؤيته؛ وسوف أنتظركما هذا المساء

قالت هذا القول فى لهجة يخيل لسامعها أنها صادرة من فم ملكة من الملكات تدعو بعض أتباعها ورعاياها للمثول بين يديها فى القصر الملكى !

— وسوف تجدانى فى انتظاركما عند باب الدار الواقعة فى الناحية الأخرى من باريس

وافترقا بعد ذلك الحديث القصير على أن يلتقيا فى المساء .

وفى الموعد المحدد وصلت الأرملة وولدها فكان لذلك وقع حسن على العجوز طربت له كل الطرب ؛ وكانت الأرملة ترتدى فى ذلك الوقت ثوباً أسود جديداً كما ارتدى الطفل أحدث أثوابه

وعند ماحاولت الأرملة أن تتباع تذاكر الدخول

اعترضت العجوز واحتجت فى قوة وحزم قائلة

— مافا تعنين بتصرفك هذا ؟ سأدفع أنا ثمن التذاكر ، إن أصحاب الدار يعرفونى حق المعرفة ويعاملوننى كفرد من أفراد أسرتهم

ولكى تبرهن على صدق قولها تبادلت بعض كلمات المزاح مع عاملة التذاكر ثم صافحت حارس الباب — عدوها القديم — وقدمت إليه سيجاراً رخيصاً اشترته منذ دقائق لهذا الغرض وهى تقول :

— الهدايا الصغيرة تحكم أواصر الصداقة . أرجو يا صديقى العزيز قبول هذه الهدية التافهة

وفى داخل الدار حيت أحد العمال تحية الصديق لصديقه الحميم ، ثم قالت وهى تنفحه ببعض القطع النحاسية :

— هذه هى زوج حفيدى الذى يعمل عندكم فى الروايات وهذا هو طفله

وأخذ الجميع مجلسهم فى المقاعد التى أرشدهم إليها العامل ، وبدأ عرض القصة على المتفرجين ؛ وبدأت سلسلة مخاوفها وأوهامها . كانت تخشى وقوع حادث يصدر عن الأرملة الجالسة إلى جانبها إذا ماظهر ألبير على الستار . غير أن الأرملة كانت فى الواقع من الذين يحتملون آلامهم فى صمت وفى شجاعة . جلست ترقب المناظر التى تتوالى أمامها بعينين ذاهلتين ثبتت حدقتاها فصارتا أشبه بعينى مدمنى المورفين ، وجعلت تضغط شفتيها بأسنانها محاولة كبت عواطفها الثائرة وقد جرت مدامعها على وجنتيها فى اطراد

أما الطفل فكان يشاهد الرواية فى براءة تلك السن التى نسمع فيها عن الموت دون أن نعرف كنهه أو حقيقته

ولقد استطاع أن يعرف الجندى الذى ظهر على الستار متجهاً بوجهه المبتسم نحو النظارة ... نعم لقد عرفه فقد رآه أخيراً فى منزلهم فى نفس الرداء الذى يرتديه الآن ، ولكنه لم يعد مرة أخرى إلى المنزل فلماذا لم يعد ؟

وقف فى مكانه ثم مد ذراعيه الصغيرتين نحو الصور المتحركة أمامه وتمتم فى صوت منخفض قائلا

— بابا ... بابا ...

ولكن أمه وجدته سرعان ما أجلستاه فى مكانه وأمرتاه بالصمت وقلباها يكادان يتفطران من الغم والأسى

وعند ما خرجوا من الدار قالت العجوز :

— غداً نلتقى فى هذا المكان مرة أخرى

— ولكنى أقيم فى أقصى حدود باريس ياجدتى ومن واجبى أن أستيقظ مبكرة للذهاب إلى المصنع ولكى أعد الطفل للذهاب للمدرسة . إن الحضور مرة أخرى إلى هذا المكان يكلفنى ما لا طاقة لى به ... ثم ما فائدة الحضور مرة ثانية ؛ لن يعود ألبير إلى الحياة ... وهذه الصور تقتلنى قتلاً بطيئاً

فرمقتها العجوز شزراً ... لقد طالما شكت فى أن هذه المرأة الصغيرة لا قلب لها ... وها هو ظنها يتحقق

— أجل ... يبدك الحق يا بنية . إن الانسان الوحيد الذى يذكر ألبير هو جدته العجوز البائسة

* * *

وفى اليوم التالى كان الحزن مستولياً على العجوز

استيلاء تاماً ، فما كاد الليل يسدل ستاره على الكون حتى أخذت تطوف فى الطرقات باحثة عن اسم كرانفيل الذى اشتهر بين معارفه ولدانه باسم « فيلسوف السوق » وبأنه لا يهتم بشئون الآخرين فقد كانت تعلم أن الرجل على الرغم من اشتهاره بهذه الصفة يعطف عليها ويهتم بأمرها ...

وفى الحانة المهودة جلس الاثنان وأخذت العجوز تروى قصتها الاخيرة وأفهمته أنها قد تغيرت تغيراً كلياً بعد ذلك الحادث الفذ الذى جد فى حياتها ، حتى صارت امرأة أخرى غير التى كان يعرفها من قبل ، فهى تبسط يدها كل البسط وتلقى بالنقود هنا وهناك بغير حساب . وهى تذهب إلى السوق متأخرة فتشترى بضاعتها بأغلى الأثمان لتبيعها بعد ذلك بأبخس غير حاسبة حساباً للخسارة التى تلحق بها ، قال الفيلسوف :

— إنك تحطمين نفسك بنفسك . إنك تنتحرين . إن تصرفك هذا معناه ضياع رأس مالك

قال هـذا القول ولكنه لم يمتنع عن قبول أكواب الخمر التى كانت العجوز تطلبها له

وظلت العجوز جالسة إلى جانب العم كرانكفيل إلى الساعة الثامنة مساء ثم نهضت فجأة وقالت :

— إلى اللقاء يا كرانكفيل . فإنى ذاهبة الآن لآخذ حفيدتى معى كى تشاهد أخاها وهو يمثل فى السينما

— ولكن حفيدك قتل

— أعرف أنه قتل ... ولكنه مع ذلك يمثل فى السينما

فهز الرجل كتفيه استخفافاً ولم يتكلم إذ كان يعتقد أن الكلام فى هـذا الموضوع لا فائدة منه الآن ، ولقد علمته الحياة ألا يهتم بشىء فى الوجود وأن ينظر إلى الخطير من الأمور نظرته إلى التافه منها

***

ضغطت العجوز الزر الكهربائى ووقفت خلف الباب الضخم ترتب ثوبها الحريرى الأسود متأملة إياه لتستوثق للمرة الأخيرة من ملاءمته لها ثم تمتمت قائلة :

— لا بأس . إنه يلائمنى تماماً كما لو كان قد صنع لى خصيصاً لا لابنتى ، ثم إن القماش الجيد سرعان ما ينسى عن نفسه

وكان رأسها عارياً ولكنها لم تكن ترى فى ذلك من ضرر لأنها كانت دائمة المفاخرة بشعرها الأبيض الناعم ...

ومرت لحظة قصيرة أعقبها صوت خطى مقبلة نحو الباب . فلما فتح ظهرت خلفه فتاة فى مقتبل الشباب ما كادت العجوز تراها حتى شمرت بالاشمئزاز من حركاتها الصبيانية الطائشة ومن تلك النظرات الحادة التى كانت تلقيها عليها من أخمص القدم إلى شعر الرأس

— أيتها العجوز الطيبة القلب ! إن كنت قد أتيت تستجدين أو تطلبين المساعدة من سيدة المنزل فانى آسفة أن أقول لك إن السيدة ليست هنا وأن عليك أن تكلفى نفسك عناء زيارتنا فى يوم آخر

لاشك أن هذا الحديث أثار العجوز وأغضبها فجعلت ترمق الفتاة بنظرات حادة كما بدأت تتمتم مرددة بعض الشتائم الشديدة، ولكنها توقفت عن ذلك عند ما شعرت بيد تمسك إحدى كفيها والتفتت إلى الوراء لترى الشخص الذى اجترأ على الامساك بها فوقع نظرها على سيارة فخمة قد وقفت عند

2017-11-11

الباب الخارجي للمنزل وهذه التي أمسكت بها هي السيدة الأنيقة صاحبة السيارة والتي هبطت منها لتضم العجوز إليها وهي تقول :

— جدتي ... جدتي ...

وكانت أولى الملاحظات التي لاحظها العجوز أن حفيدتها الراقصة الكبيرة كانت تلبس ثوب الحداد ... نعم إنه ثوب فاخر غالي الثمن ، ولكنه ثوب الحداد على كل حال ... ولا شك أن الراقصة لم ترتد هذا الثوب إلا حداداً على وفاة أخيها ألبير..

وعند ما أصبحت العجوز داخل المنزل صارت تتأمل أثاثه وتحدقه ببعين الاستغراب حتى ألوان الجدران المركبة كانت تستلفت نظرها وتستدعي تأملها .

وما كادت تذكر اسم ألبير بعد ذلك أمام الراقصة حتى تحركت عاطفتها وبدا عليها التأثر الشديد وترقرقت الدموع في عينيها وهي تقول :

— كم كانت خسارتي فادحة بفقده . نعم إننا لم نكن على صلة عائلية دائمة ولم نكن على اتفاق لأنه لم يستطع أبي يفهم كيف أحيا ولكنني كنت أحبه حباً عميقاً مكبوتاً ...

وهنا تناولت صورة شمسية كانت موضوعة على منضدة صغيرة قريبة منها وأدنتها من فمها ثم طبعت عليها قبلة حارة ... ولم تكن سوى صورة ألبير ..

كم أثر هذا الوفاء وهذا الاخلاص في قلب الجدة حتى أنها قالت محدثة نفسها :

ومع هذا يقولون الأقاويل ويزعمون المزاعم الخاطئة عن جوليت من أجل المهنة التي اختارتها لنفسها والأسلوب الذي رسمته لحياتها ... أكاذيب... مفتريات... ترهات ... إنها أطيب فتيات العالم قلباً وأطهرهن سريرة ! ... غير أن هذا الخاص الزائد في الدفاع عن جوليت سرعان ما اعتراه بعض الفتور عندما لاحظت العجوز برود الراقصة وفتورها لدى سماعها قصة الاكتشاف العظيم الذي اكتشفته في دار الصور المتحركة

كان جوابها على خبر هذه المفاجأة الرائعة أن قالت

— عجيب ... هذا عجيب في الواقع !

ثم تنبأت على أثر ذلك بما تريده العجوز منها فقالت :

وأنت الآن قد أتيت يا جدتي تريدين أن أصحبك لرؤيته أليس كذلك ؟ حسن ! سأذهب معك الليلة ، ولكن على شرط أن تبقي معي هنا لتتناول طعام العشاء معاً ... ولعل سيرة ألبير قد ذكرت الفتاة الراقصة بأمور أخرى فقد استأنفت الحديث قائلة :

— نعم يا جدتي لم يكن ألبير هو الوحيد الذي ذهب للحرب . هناك آخرون لا يزالون على قيد الحياة، وأسر هؤلاء يعيش على القلق ويثير روح الكره لهذه الحرب أكثر من أسر الذين استشهدوا وانتهى أمرهم

وكانت الراقصة تفكر في هذه اللحظة في صديقها أو عشيقها وهو شاب غني جميل لم تره العجوز الأسواق ولم تعرفه ، وكانت الاشاعات ترشحه للزواج من جوليت

وأزف موعد تناول الشاي فلم تستطيعا أن تتحدثا بأكثر من ذلك إذ بدأ صديقات جوليت وزميلاتها يفدن على المنزل زرافات ووحداناً وكلهن قد ارتدين أفخر الثياب وأثمنها قيمة وأكثرها أناقة ؛ وأمام ألوانها الباهرة ودقة صناعتها بهرت العجوز بل أخذت عقيدتها في حفيدتها وسلوكها تتزعزع

وأبدى الجميع إعجابهن بثوب الحداد الذى ترتديه جوليت حتى أن إحداهن ذهبت فى إعجابها شوطاً بعيداً إذ قالت مازحة :

— ألا يعد من حسن الحظ أن يموت للانسان أخ أو أخت فيستطيع أن يلبس حداداً عليه ثوباً جميلاً كهذا ؟ إن اللون الأسود لون رائع وهو يبدى محاسن المرأة بشكل أروع مما يبديها أى لون آخر

وبدأن جميعاً يدخّن ثم ارتمين بأجسادهن على الأرض متكئات على وسائد بعضها من الحرير الخالص وبعضها من فراء الدببة الثمينة ، ومد البعض منهن أطرافهن كالحيوان البليد غير عابئات بما يعرض للأنظار من أجزاء فى أجسامهن يجب أن تكون مستورة دائماً وقد شبك البعض الآخر أيديهن على ركبهن المرفوعة وأسندن ذقونهن عليها

كان الشاى ومعداته موضوعاً فى آنية فنية من الفضة على الأرض بين الأجسام البشرية الطرية ، وكان المصباح الخافت يرسل شعاعاً خفياً من النور الأزرق البديع . وقدمت جوليت جدتها إلى الحاضرات فى شجاعة قائلة :

— هذه هى جدتى التى تبيع الخضر كل صباح فى شارع تربى ... إننى أفخر بأسلافى كما يفخر أى معاصر من نسل الصليبيين بأجداده

وقابل الجميع حديثها هذا بالقهقهة ومرت فترة قصيرة نسى الجميع بعدها أمر العجوز

أما هى فلم تكن راضية عن هذه الأفعال ، ولم تكن مطمئنة إلى هذه التصرفات ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تحس الاسادة إلى شعور حفيدتها فكانت تتنقل فى حذر من مقعد إلى مقعد كما تفعل أى طفلة صغيرة تحس المجتمعات إذا أرادت الفرار من مجتمع ما ... إلى أن وصلت أخيراً إلى غرفة الطعام ... وهناك استطاعت أن تستجمع شجاعتها المفقودة فنهضت من مكانها ملقية عنها الخوف جانباً وسارت فى الغرفة التالية حيث التقت بالخادم التى لم تحسن لقاءها فرمقتها شزراً وهى تقول :

— قليلة الأدب !

وشعرت بالارتياح عندما انتقمت من الخادم بهذه الكلمات وسارت فى طريقها إلى أن هبطت بضع درجات أدت بها إلى المطبخ . وهناك استطاعت أن تقدر ثروة حفيدتها أكثر من ذى قبل عندما شاهدت الأوانى الكثيرة اللامعة التى كانت كل آنية منها تتوهج فى ضوء المصباح كالذهب

وهناك رحبت الطاهية بزائرتها أجمل ترحيب فوضعت على المائدة زجاجة من النبيذ وكوبين وأخذتا فى الاحتساء وكل منهما تسرد أحزانها ومتاعبها فى الحياة على الأخرى . وفى أثناء ذلك أخرجت الطاهية سورة شمسية من أحد جيوب ثوبها فقبلتها ثم قدمتها لزائرتها وهى تقول :

— سورة ولدى الذى يعمل فى الصيد فى جبال الألب . فألقت عليها المرأة العجوز نظرة عابرة ثم أخرجت هى الأخرى سورة من بين ثنايا ثوبها وقدمتها للطاهية وهى تقول :

— حفيدى الذى قتل فى الحرب والذى يظهر الآن كل مساء فى دار الصور المتحركة

فلم تكد الطاهية تسمع هذا الكلام حتى تحركت فى مقعدها حركة عصبية وقد تسمت حدقتا عينيها إذ أيقنت أن المرأة العجوز الجالسة أمامها ليست سوى نحية من نحايا الجنون ، ولكنها لم تبد

2017-11-1

ما يعبر عن هذا الاعتقاد لا لشيء إلا لأن تلك العجوز هي جدة سيدتها وصاحبة نعمتها

***

وحان وقت تناول العشاء فدعيت العجوز إليه، ولكنها عند ما وجدت نفسها في قاعة الطعام جالسة أمام مائدة عظيمة إلى جانب حفيدتها وصديقاتها الفتيات شعرت بانقباض شديد وبأنها بعيدة عن الجو الطبيعي الذي ألفته بعداً شديداً

كانت تتناول الطعام بشهية حسنة، ولكنها في الوقت نفسه كانت تتحرق شوقاً لساعة انتهاء الجميع من تلك المهمة. وكانت لا تنفك بين آونة وأخرى تنظر إلى الساعة المعلقة بالحائط كأنها تتمجل سيرها

وحوالي الساعة الثامنة اتجهت جولييت نحو جدتها وقالت:

— لا داعي للعجلة يا جدتي فما زال لدينا متسع من الوقت

وما كادت تنطق بهذه الكلمات حتى ارتفع في المنزل صوت ضجيج عال وأجراس كثيرة، ثم سمع من قرب صوت رجال مقبلين، وأقبلت الخادم تلهث وقالت:

— سيدتي ... لقد حضر السيد ... !

ولم تزد على ذلك حرفاً واحداً، ولكن العجوز فهمت الباقي فنهضت من مكانها كسيرة النفس محزونة الفؤاد وقد اغبر وجهها وتقلصت عضلاته. وحينئذ أقبل شاب جميل الصورة يرتدي لباس ضباط الطيران فما كاد يتقدم خطوة واحدة في الغرفة حتى أسرعت جولييت إليه وكأنها تطير ولا تسير ...

— لاشك أنها زيارة غير منتظرة، ولكني جئت بأريس في مهمة خاصة وليس لدي من الوقت سوى أربع وعشرون ساعة و...

ولم يستطع ان يتم حديثه إذ كانت جولييت قد طوقت جيده وارتمت على جسده وأخذا يتبادلان القبلات

ورأت العجوز هذا المنظر فانسحبت وهمت بالخروج من الغرفة، ولكن جولييت لمحتها فتخلصت من يدي عشيقها وأسرعت نحوها وهي تقول:

— ها أنت ترين يا جدتي .. ليس لديه من الوقت سوى ليلة واحدة ونهار واحد . لن أستطيع الذهاب معك الليلة .. هذا مستحيل . الأيام آتية يا جدتي .. يجب أن نفضل الحي على الميت

***

ألفت العجوز نفسها وحيدة في شارع حالك الظلمة وكان البرد قارساً والأنوار جميعاً مطفأة تحذيراً للقوم من حملة جوية مقبلة، وكانت تتمتم في أثناء سيرها قائلة:

— الحياة تتطلب الحياة؛ والأحياء في حاجة إلى الأحياء؛ ويا ويلنا على من مات من الناس !.. الكل ينسون الأموات

حتى رواد دار الصور المتحركة أظهر واجهودهم بشكل واضح، ففي تلك الليلة لم يكن المتفرجون سوى عدد يعد على الأصابع ... لقد مل الرواد قصة الفتاة الأرواسية ومطاردها

وجلست العجوز في مقعدها بين المقاعد الفارغة، وكأنها ملك من الملوك أمر بعرض رواية من الروايات لتسليته الخاصة. وعند ما ظهر حفيدها على

الستار جعلت تخاطبه فى صوت هامس قائلة :

— أسعد الله مساءك يا صغيرى ! لقد هجرك الجميع ونسوك . هكذا الحياة يا صغيرى فلا تحزن . واعلم ان جدتك العجوز لن تتركك ولو تركك أهل الدنيا بأسرها ... ستجدنى هنا كل ليلة ... كل ليلة يا صغيرى المحبوب

***

أخذت الأخبار والأشاعات تنتشر فى الساعات الأولى من مساء اليوم بانتهاء الحرب وحلول السلام. بدأت ضعيفة خافتة غير مؤكدة، واستمعت العجوز إليها دون أن تسرها أى التفات لأنها تعودت أن تسمع أمثالها من قبل ، ثم اتضح لها كذبها بعد ذلك

ولكن لم يكد يحل وقت الغروب حتى تأكد الناس من صحة تلك الأخبار إذ أعلنت الحكومة خبر عقد الهدنة

وبغير أن تعرف المرأة كيف حدث هذا ولا فى أى وقت حدث وجدت نفسها وسط جمهور كبير يدفعها تيار اندفاعه وتزاحمه نحو قلب المدينة دون أن تستطيع لذلك وقفاً ودون أن تستطيع منه خلاصاً . وسرعان ماسيطرت عليها روح الجماعة فمرتها رجفة الحماسة وانتقلت إليها عدوى الفرح فهتفت مع الجماعات الهاتفة التى كانت تملأ الشوارع

ووصلت إلى ميدان الكونكورد . وكان الجمهور يردد بأصوات كهزيم الرعد بعض الأناشيد الوطنية وقد أخذ بعض أفراده يلوحون بينادق مأخوذة من الألمان كانت معروضة فى الميدان

وأقبل نحو العجوز جمع من الشبان فرفعوها فوق أكتافهم وساروا بها يطوفون الشوارع وسط الجموع الزاخرة

كان شعرها الرمادى الجميل قد انتثرت خصلاته وتشعث وجعل يتحرك تبعاً لحركات الريح، ورفعت كلتا ذراعيها فى حماس شديد ثم جعلت تنشد فى صوت قاصف نشيد المارسيز ، فلما انتهت من إنشادها حياها الجمهور بالهتاف والتصفيق

ولم يكن بطبيعة الحال بين هذه الجموع الهائلة من الناس من يعرفه من تكون هذه العجوز الشمطاء . غير أن مجرد وجودها بينهم أثار فيهم ذلك الاحترام الغريزى الذى توحى به الشيخوخة دائماً ، وكان بعضهم يرى فيها رمزاً حياً لعظمة الثورة الكبرى وأثراً من آثارها ظهر فجأة بعد فترة من الزمان تزيد على القرن ...

ولم يمض وقت طويل حتى انفض الجمع ووجدت العجوز نفسها منتصبة على قدميها وسط الشارع وحيدة ...

أين الجموع الحاشدة ؟ أين البنادق التى كانوا يلوحون بها فى الفضاء...؟ أين الشباب المتحمسون الذين رفعوها فوق الأعناق ...؟ لقد اختفى الكل وليست تدرى أين ولا كيف اختفوا

إنها الآن تسير فى الشارع الملكى إلى جانب تلك المطاعم الفوذجية الكثيرة ... وها هى حانة مكسيم الشهيرة أمامها وقد خرج عمالها إلى الشارع يوزعون أقداح الخمر على المارة تبرعاً من أغنياء القوم واحتفالا بذلك اليوم السعيد

وتقدمت فى السير قليلا فوجدت نفسها بين جماعة من الجند الأمريكيين تتبادل وإياهم الحديث

2017-11-1

كانت تحب الأمريكيين وقد عرفت أن هؤلاء الشبان منهم عندما رأت قبعاتهم ، وقد أعجبها منهم حسن منظرهم ودلائل الصحة البادية فى وجوههم وفى حركاتهم ، وروح المرح المتجلية من أحاديثهم وإشاراتهم، وذكرها أكثر من واحد منهم يحفيدها ألبير فهتفت بأعلى صوتها :

— تحيى الولايات المتحدة ! !

أما هم فكانوا يفهمون حركاتها وإشاراتها أكثر من فهمهم لكلماتها؛ غير أن هذا لم يكن يعنيها فى كثير ولا قليل ، بل كانت تعتقد أن كل ما يحتاج إليه المرء للتفاهم مع الأجانب الذين لا يفهمون لغته ولا يفهم لغتهم هو أن يتبادل الود معهم وأن يكون حسن النية . وكأن طرب العجوز وسرحها قد أثرا فى الأمريكيين فصاروا يضحكون ويقهقهون كأنهم أطفال كبار

ولمست المرأة موضعاً معيناً فى ثوبها حيث وضعت كيس نقودها الذى حملت فيه كل رأس مالها؛ فلما اطمأنت إلى وجوده فى مكانه جعلت تشير بكلتا يديها معبرة عن رغبتها فى دعوتهم للشراب على حسابها

غير أن الأمريكيين اعترضوا فى أدب كثير واعتذروا من عدم قبول دعوتها إذ أن فكرة السباح لامرأة أيا كانت بالانفاق عليهم لم تكن لترقهم

ولكن العجوز صاحت فى صوت قوى قائلة :

لا . لا .. إنكم الآن فى وطنى ، فى بيتى ، وأنا أصر على دعوتكم؛ فان رفضتم تلك الدعوة المتواضعة كان ذلك الرفض طعنة مؤلمة موجهة إلى . وما أظن أن إيلام امرأة عجوز مثلى يرضيكم ! ..

وأخيراً دخلوا جميعاً أحد المقاهى وظلوا نحو نصف ساعة فى سرور ومرح يحتسون أكواب البيرة التى قدمتها العجوز إليهم ثم انصرفوا

أما هى فقصدت إلى الحانة التى تعودت أن تلتقى فيها بالعم « كرانفيل » فيلسوف السوق فوجدته جالساً جلسته الخالدة التى لا يغيرها فحيته وجلست إلى جانبه وطلبت لها وله زجاجة من زجاجات النبيذ، ولكنها ما كادت تفرغ من نصيبها من الخمر حتى شمرت بحاجتها إلى مسرة أكبر وأروع مما وجدت من أنواع المسرات فى تلك الليلة. ذكرت دار الصور بظلامها الذى يبعث الاطمئنان والسكينة فى أشد النفوس اضطراباً خلافاً لكل ظلام عرفه الانسان ، ومناظرها الجميلة التى كانت فى نظرها الأقل جمالاً عن أجمل ما عرف الانسان من مناظر

يالله من شعور سار ! ويالهمن سرور جارف ذلك الذى كان يستولى على حواس تلك المرأة أثناء هاتين الساعتين اللتين كانت تقضيهما جالسة على مقعد مريح تتناجى ، كأروع ما تكون المناجاة الروحية ، مع حفيدها المحبوب ألبير ! لا شك أنه لم يسمع بعد بذلك النبأ السعيد الذى هز مشاعر الباريسيين عن بكرة أبيهم بل مشاعر الناس جميعاً فى جميع أنحاء الأرض ، ولكنها ذاهبة الآن إليه وسوف تسر إليه بذلك النبأ ليأخذ نصيبه من السعادة مع الآخذين

التفتت إلى كرانكفيل ثم قالت وهى تنهض من مكانها :

— طاب مساؤك يا كرانكفيل . ساتركك الآن لأن حفيدى ألبير فى انتظارى . مسكين هذا

2017-11-1

الصبي ، إنه لا يستمتع بأجازة أو راحة بل يعمل في كل الليالي

فشعر الفيلسوف في هـذه اللحظة بقوة تدفعه إلى توجيه نصيحة لصديقته فقال :

— إنك تقتلين نفسك . إنك تنتحرين دون شك . تأكلين قليلا وتشربين كثيراً . ترمين نقودك بغير حساب. ولا شك عندي إذا استمرت الحال على هذا المنوال أنك ستفقدين رأس مالك كله . ما هذا يا امرأة؟ لقد رأيتك بالأمس تبتاعين نصف بضاعتك اقتراضاً؟ ويخيل إليّ أنك في الأسبوع الأخير عشت أعواماً وأعواماً

ولـكنه عاد بعد تلك المحاضرة فابتسم ابتسامته الساخرة التي قلما فارقت ثغره وأردف قائلا :

— على أنه إذا كان هـذا يروقك وتجدين فيه سعادتك ... فلا بأس

ثم هز كتفيه كما تعود أن يفعل دائماً

وأسرعت المرأة قاصدة دار الصور . أسرعت على الرغم من شعورها بالتعب المضني وعلى الرغم من أن قدميها كانتا لا تطاوعانها على السير؛ وكانت تمني نفسها في أثناء سيرها بجلسة مريحة في تلك القاعة المظلمة الهادئة الجميلة، وكان الظلام سائداً على المدينة كما كان يسودها قبل إعلان الهدنة وقد انتشرت في أنحائها جماعات من الهاتفين والراقصين وفرق الموسيقى

واقتربت أخيراً من مدخل الدار فرآها الحارس وهو يضحك ، ولم يضحك ؟ أليس سعيداً ؟ أليس الجميع سعداء في هذه الليلة ؟

ولـكنه كف عن الضحك فجأة كأنه تذكر شيئاً لم يكن يذكره وقال :

— لقد ترك حفيدك العمل هنا وذهب ونحن نعرض الليلة برنامجاً جديداً بالاعتبار

— ماذا ؟ !

نطقت بهذه الكلمة صياحاً يكاد يكون باكياً ؛ ثم أسندت جسمها المضنى إلى الجدار المجاور وبدا على وجهها المنضن شحوب كشحوب وجوه الموتى وقد اتسعت حدقتا عينيها

وتطوع الحارس بتفصيل ما أجمل فقال محاولاً تخفيف وقع المصاب على المرأة

— لقد انتهى الأسبوع يا جدتي ونحن كنا نعرفين نغير برامجنا كل سبعة أيام . إن الجمهور قد مل قصة الاوتوماسية الحسناء ومطاردها الألماني؟ ثم إن الله قد أنعم علينا أخيراً بنعمة السلام فمن الواجب أن نعرض شيئاً يتناسب مع هذا المعنى الجديد في حياتنا. الناس جميعاً يريدون من صميم أفئدتهم أن ينسوا الحرب وشقاءها وأن يسعدوا أنفسهم؛ ونحن نعرض الليلة لجمهورنا الباحث عن المسرة والسعادة والمرح رواية جديدة من روايات شارلي شابلن؛ وأصدقك القول يا جدتي أنه شريط سار فاتا شهدته فسوف تستغرقين في الضحك

فأجابت في صوت يشبه الأنين :

— لن أراه بعد الآن ... لن أراه بعد الآن

ثم أخرجت من صدرها زفرة حارة عميقة وقالت:

— لقد قتلوه قتلة أخرى ...

كان منظر المرأة المتخاذلة داعياً لتجمهر الناس حولها ، فرأى الحارس منعاً لتفاقم الأمر أن يحاول التريفيه عنها فأخذ يخاطبها قائلا :

— رفهي عن نفسك يا جدتي . أتقتلين نفسك في ليلة كهذه الليلة لا لشيء إلا أننا غيرنا برنامج

الدار : هذا كثير يا سيدتى وعلى كل حال سوف أرى

ثم اتجه نحو بائعة التذاكر وسألها عن شىء ما فسرعان ما قدمت إليه كراسة صغيرة أخذ يفحصها على ضوء المصباح القريب وهو يتمتم قائلا :

— فلنرهذه القصة الملأى بالنباء قصة الأزاسية أين هى الآن ! يجب أن تكون معروضة فى مكان آخر ... شريط عفن هو مجموعة من السخافات .. أين هو الآن ؟ آه ها هو

ثم اقترب من المرأة وأفضى إليها باسم دار من الدور الحقيرة وسمى لها الشارع الذى تقع به

— دار بعيدة قليلا يا سيدتى ولكنك هناك سترين حفيدك. ثم ابتعد عنها ولم يعد يعيرها أى التفات إذ أن الجمهور بدأ يقبل نحو الدار لمشاهدة البرنامج الجديد

***

وعادت المرأة مرة أخرى إلى الطريق وأخذت تسير وقد استولت عليها فكرة واحدة فجعلت تتمتم قائلة

— لقد قتلوه مرة ثانية .. قتلوه فى هذا اليوم الذى يشعر فيه الجميع بالسعادة

وتحسست كيس نقودها للمرة الثانية فى هذا المساء فلم تجد فيه إلا القليل من القطع النحاسية مما يكاد يكفى لشراء تذكرة واحدة فى دار «السينما» التى تعرض الرواية . ولكنها كانت متعبة ، كانت فى أشد الحاجة إلى الراحة والمكان بعيد فماذا تصنع ؟ لاشىء... ليس فى وسعها إلا أن تسير، وكيف تسير وقواها خائرة ... فليكن ... يجب أن تسير ... قدماها لا تطاوعانها ...

ومرت بذهنها فى تلك اللحظة فكرة غريبة ماذا يحدث لو أنها مدت يدها وسألت الناس إحساناً ؟ إنه يوم عيد وسوف يرى الناس شيخوختها المحطمة وعلامات الأسى والتعب بادية عليها فلا يتأخرون عن مساعدتها

ولكنها سرعان ما استعادت كبرياءها المفقودة فقالت مخاطبة نفسها :

— إننى لم أسأل الناس إحساناً قبل الآن ؛ وأظن أن هذا وقت متأخر غير مناسب للبداية فى هذه الحالة ومع ذلك يجب أن أراه ... يجب أن أراه مهما كلفنى الأمر

وتقدمت قليلا غير أنها توقفت بعد لحظة قصيرة واستندت إلى جذع شجرة من الأشجار المنتشرة على طول الطريق ؛ وكانت أبواب الحانات والمراقص القابلة تلمع فى نظرها كأنها أبواب الأفران المستعرة ؛ وكانت الأصوات المنبعثة من الفرق الموسيقية المنتشرة فى كل مكان تسبغ على الجو روحاً من المرح والسعادة

وتنهدت العجوز قائلة :

— يا لبعد المكان ... يا لبعده !

***

ولحظة قصيرة رأت من خلال الدموع التى ملأت عينيها شيئاً غريباً ... رأت أمامها شبح جندى يبتسم ... جندى يرتدى ثوباً أبيض ناصع البياض ينطلق من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه

يا للغرابة ... ! إنه جسم شفاف لا يحجب ما خلفه من مرئيات؛ وها هى تستطيع أن ترى أشجار الانفرز المقابل وانمحة كل الوضوح على الرغم من اعتراض جسمه للمسافة القائمة بينها وبين تلك الأشجار ... كأنه جسم من الزجاج أو من البخار

هاهوذا الجندى يشير إليها إشارة معناها أن تتبعه، انتظرنى ... أنا آتية ... ها أنذى آتية ياحبيبى ...
وهاهوذا يتقدم فى المسير، وها هى تحاول بكل قواها (السويس) محمد محمود دوارة

أن تنفذ مشيئته فلا تستطيع

— إننى متعبة يا ولدى ... جسمى مضنى ... أطرافى تنضح بالألم ... لا أستطيع أن أتبعك ... إن المسافة طويلة ... طويلة

ثم ارتمت على جذع الشجرة فى غير توازن، فاتجه إليها الجندى وقد بدت على وجهه الجميل علامات الحزن العميق، فرفعت ناظريها إليه وقالت فى صوت هامس وفى لهجة تنم عن الاعتذار الشديد:

— لا تحزن ... لا تحزن يا بنى ولا تغضب ... آه لو تعلم مقدار ما أعانى ومقدار عجزى عن الحركة، إذن لعذرتنى ... ولكن ثق ... ثق أن جدتك لن تتركك أبداً .. أبداً

الى راسمى اللغة الفرنسية فى جميع انحاء العالم ، الى راغبى الالمام بوظائف البنوك والشركات الاجنبية ، الى المحبين الذين يرغبون فى تفهم أساليب الفرنسية وأسرارها هن طريق المقارنة مع اتقانه النطق : كتابانا جديدان :



ابتكار فى التاليف . مفردات . محادثات . رسائل ٥٨ موضوعا وافيا
هما خير كتابين يعلمانك الفرنسية بنفسك . الاول عن طريق المقارنة بين اللغات الثلاث . والثانى يمكنك النطق الصحيح به . فهما الكتابان اللذان تدم على كل يوم بدونهما . يا عاجزين عن اقتنائهما . ثمن كل منهما مجلدا ٦

جارسون ... واحد شوب !

فانتازية سيكولوجية للكاتب كاردينك لاهوفنكن بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

كان قد مضى على اجتماعهما أربع سنين ، سنين أربع . من الصيف إلى الصيف . هـذا الاجتماع الأول من أربعة أعوام في مدينة لوزان ، عاصمة مقاطعة فو بسويسرا ... لوزان أوشي ، بحيرة ليمان — ما أجمل هـذه الأماكن ... الجبل الأبيض يرى لامعاً بالبياض تحت أشعة القمر، كما يرى أحمر ساطعاً تحت وهج الشمس، وتلك الألوان البنفسجية واللازوردية والوردية التي تبدو في سفحه، إنها لعجيبة، ولكن الأعجب منها لون الجليد الناصع الذي تتم به قمة الجبـل في كل شهور العام ، على مدى الأسابيع والأيام...وكيف كان ذلك اللقاء الأول ؟ إن لودفيج دي جيميبه لايذكره ، ولايستطيع أن يقف عقله عند تفاصيله . كان طالب هندسة ورياضيات عليا في كلية بوليتيكنيك ، يجيد حساب المثلثات والهندسة الفراغية واللوغارتمات والتحليل الرياضي... ولكنه ما كان قط يجيد الغرام ولا يتقنه . بل كان مشغولاً بالسياسة والجمعيات السرية ... ففي أوقات فراغه ينشئ مجالس الروس والطليان — جمعية الدائرة الحمراء والكف السوداء وإخاء چوزيبي ماتزيني — وكان شغفه بحياة الخفاء في السياسة — بعد أن اقتنع بضرورته — يملك عليه لبه . فهاهو ذا وطنه بولونيا قد اقتسمه الأغيار مثالثة بعد أن تنازعوه حقباً طويلة . وكلما اغتال بولوني حر حياة حاكم ظالم أو قاض غير منصف أو بصاص خؤون ، عدو، مجرماً ذاخطورة لايستحق عقوبة أقل من الاعدام . ولكن الأحرار قد باعوا الأعمار بيع السماح ، فلم تكن لديهم وسيلة أخرى غير هذه . فلما نزل لودفيج مدينة لوزان اختار لنفسه مقراً في بنسيون ڤيلا بيانكا — الذي يملكه دي ناڤا ويديره ڤيلا بيانكا أحد منازل أڤنيو ديزالب التي كان يقطنها موسيو بروشيه وزوجته ، وقد نزحا إلى ڤيلا ميسيدور في طرف المدينة الغربي بعد أن باعا بيتهما الفخم لهذا الايطالي المحجن في الفكر، فقد كان أديباً شاعراً، ونائراً سياسياً، وداعية اشتراكياً، ناقماً على النظام الرأسمالي . وفي نفس الوقت كان مديراً للفندق ،

تصريف القصة

كان في الامكان تحوير عنوان القصة . ولكننا احترمنا إرادة المؤلف ونصه فقد أراد أن يجعل من تلك المأساة التي سيتبعها خيانة المرأة مهزلة ساخرة ليسلخ الضعفاء من الرجال بما يفيهم شر الانحلال الخلقي حيال غدر الجنس اللطيف . ولذا احتفظنا أيضاً بوصفها الفني «فانتازية نفسانية» وهي كلمة اغريقية معناها خيال أو أمر عجيب نادر أو ابتكار رجل يتفرد به في الحياة أو الفن أو التأليف ، كل يعيش على هواه ، فهي بهجة شاذة أو بدعة فذة وقد تؤدي معنى المسخ أو التحوير أو السخرية ، وكاردينك لاهوفنكن مؤلف بولوني من أتباع هنري سكوبنز مؤلف كوفاديس الشهيرة وقصة مونتكارلو وقد وصفها بأنها فانتازية . وللمؤلف هنا يصدق في نفسية المرأة والوالدة والعاشقة المهجورة والمستهترة والمتألمة والتي تشعر بالخيبة في الأدب والسياسة والزواج فتأخذ أول رجل تلقاه ثم تتعب بقلب الرجل الذي يخلص لها وتخضع للذل الذي يشبع رغبتها وهي وسط بين العقل والجنون والفحة والدعارة. إنها قصة مدهشة حقاً

2017-11-11

يتقن القيام على خدمة أضيافه، ويظهر شهم الشاعر، وترفع المصلح عن عبادة المال ، وقد يتخلى أحياناً عن المساومة فى الأثمان والأجور لزوجته كريمونا . وكانت سويسرية على جانب من الصامة ، ولا ريب أن دى نافا قد باع إليها نفسه فى مقتبل عمره لقاء دنانير معدودة كانت ورثتها ، فرزقت منه ولداً ... ثم هجرها فى مضجعها ، فافترقا على أنهما يعيشان تحت سقف واحـــد . ولـكنه عكف على حب « أنّـابيلا » ، وهى خادم ألمانية ذات جمال ورشاقة وسحر ، ولـكنها مفرطة فى البلاهة . وكان دى نافا يباشرها جهاراً ليلاً ونهاراً ويغار عليها من كل قادم ويرقبها عن كثب لوثوقه من عدم الوثوق بها ، فهى بهيمة الأنعام فى الشهوات . أما الزوجة الشرعية فـكانت تقطن فى أسفل الدار فاذا جاء الليل ودقت الساعة العاشرة صعد نافا إلى مخدعه وترك الشرعية السمينة تتحرق، فتودعه فى أسفل الدرج قائلة :

« بونا نوتى كاروا »[1] وكان من مظاهر سلطان الرجـل عليها أنهـا تخاطبه بلغته وقد تخلت عن لسانها وهى فى وطنها . أما دى نافا وكان عملاقا ملتحياً ، لا يصلح إلا أن يكون نموذجاً حياً ينقل عنه المصورون أشباحهم الملونة أو تماويلهم الممثلة بالطين المشوى[2] فلما حل لودفيج تلك الليلا أحسن دى نافا وفادته ، وأرسل إليه عشاءه فى غرفته ذات الشرفة والنوافذ المطلة على البحيرة وجبال الالب تحمله تلك « البُـنية » الشقراء التى هى أشبه النساء بجرثومة عروس المأساة الجوتيه[3] ولم يكن لودفيج زير نساء ، ولـكن دى نافا لم يصبر على بقاء البنت فى غرفته ربما تضع المائدة وتعـد الطعام فناداها « آنابيلا ! آنابيلا ! » وكانت هـذه المناداة تحز فى أحشاء زوجته السمينة التى كانت تعلم أنها سدى لغيرته على الخادمة المحظية المفضلة عليها فى كل ليلة .. وفى أحد الأيام دعا دى نافا إلى الشداء بضع نساء وبضعة رجال من الروس الثائرين والمشردين عن أوطانهم بأمر الحكومة القيصرية . وكان لودفيج يجلس بطبيعة الحال إلى تلك المائدة ، بحكم أنه نزيل بأجر . وكان دى نافا رقيقاً دقيقاً لبقاً إذ استأذنه فى الجمع بينه وبين أضيافه قائلاق لغة إيطالية نقية (وكان لدفيج قد أتقنها مذ ساح فى لومبارديا وتوسكانيا وأقام ردحاً من الزمن فى تورينو وفيرنزه) :

— انظر هنا ياصاحبى ! أنتم فى الهوى سواء . هم مظلومون ثائرون ناقمون على حكومتهم وإن كانت منهم لحماً وعظماً ودماً ، ولـكنها تخالفهم فى الرأى وطرائق الحكم ، وتحل الظلم محل النصفة ، وتؤثر طبقات الأغنياء والشرفاء المزعومين على غيرها من طبقات الأذكياء والمتعلمين والصناع والزراع والأنتليجنتزيا[1] الناقمة على تقسيم الأرزاق وتوزيع المناصب ؛ وأنتم أيضاً مظلومون وثائرون لأن الحاكمين فى أوطانكم غرباء عنكم ، فاذا نقمتم عليهم وظننتموهم بحمية أو أطلقتم رصاصة اغتالوكم وحاكموكم محاكمة جائرة ، ثم شنقوكم أو ألقوكم فى غياباتٍ سيبريا أو حصون بطرس وبولس ! أليس كذلك ؟ غير أنى أفطن إلى عاطفة أخرى ، فقد لا تحبون الجنس الذى خرج منه المستبدون فيكم ، وإن كان أفراده فى وطنهم مظلومين ...

(١) عم مساء أيها العزيز بالايطالية terra cotta (٢)

(٣) هى رواية فاوست تأليف جوته .

(١) كلة إيطاليه intelligentzia صارت دولية ومعناها الذين تثقفوا فى المجتمع الحديث وآثروا المعرفة على جمع المال

فأنت يا سيدي حر ، إن شئت قبلت دعوتي وتفديت مع أضياف على المائدة العامة ، وإلا فانك تتغدى في غرفتك فهذا حقك الذي لا ينازعك فيه أحد .

فضحك لدفيج لإسهاب الايطالي في شرح موقفه وتبريره وقبل دعوته شاكراً . وبعيد الظهر بربع ساعة دخلت امرأة رشيقة في مقتبل العمر فأجالت عينيها في الجالسين حول المائدة . ثم جلست قبالة لدفيج الذي أحس منذ الوهلة الأولى التي رآها فيها بإعجاب بها لاحداء، وود كما يود المرء أحياناً لو تسمح الشرائع أن يطوقها بذراعيه ويضمها إلى صدره وإن لم يكن له بها معرفة . لم تكن ألفاظ الجاذبية الجنسية قد سُكّت أو صيغت[1] ولم يعرف لدفيج عبارة «سيكس إبيل» التي ملأت الأفواه والأسماع بعد ذلك بيضع سنين ؛ ولكن المعنى كان في النفوس والعقول ويستحوذ أحياناً على الشعور . وقد أحس لدفيج أن هذه الفتاة فتاة أحلامه التي أعدت لها الطبيعة في قلبه أسمى عواطف الحب وأعمقها ولبث ينتظرها طويلا ، وإن فيها المثل الأعلى للمرأة التي هام به خياله الشاب ، واستهوته فراح يتأملها على الرغم منه ، فلم تتضايق من نظراته ولم تحمر خجلا. ولكن غيرها من النساء لاحظن ما حدث ، فحاول أن يصرف بصره عن الفتاة فلم يستطع، وظل محدقاً فيها . ولم يكلمها في أول الأمر ولكن نفسيهما قد أطلتا من أعينهما فالتقتا وتعارفتا منذ التقت نظراتهما وأخيراً وبعد الجهد والمقاومة قالت له بالروسية :

— إنك يلا ريب تحب السمك ! سؤال عجيب مدهش دلّ على ارتباكها المصحوب بالرغبة في « تحطيم حجاب الجليد[2] بينهما »

فأجاب بالبولونية : أحب السمك بأنواعه وأكره التكلم باللغة الروسية التي لا أجيدها

فصاح من آخر المائدة صوت نكير يقول : ولكن قوانين بلادك تحتم عليك أن تتقنها وتؤدي امتحان الدولة بها. وكان المتكلم كهلا أسفر اللون كريه الهيأة يدعونه الكولونيل فشاروف ، تدل سلمته الربعة وطيلته المديدة وعياه المستطيلتان تحت حاجبين مقوسين على سورة علامة الاستفهام أنه بلغاري من إحدى إمارات البلقان اللواتي يتملقن روسيا ويتقربن إليها ولو على حساب نحايلها . فصمت لدفيج هنيهة وأطال النظر في وجه الكولونيل المتقاعد ، وشعر كل الحاضرين بأنه يُعد سهما قاتلاً يحدث به جرحا من جراح اللسان التي لا التئام لها . ولكن الفتاة — وقد عرف أن اسمها جوتي مصغر أوجستا بادرته بنظرة مهدئة مستعطفة ، فاستلت سهام الغضب من جعبته قبل أن يصوبها . فابتسم ولم يجب، وحول وجهه عن ناحية الكولونيل فشاروف، فكان لهذا المسلك في نفوس الحاضرين وقع أثقل وأفظع وأفجع مما لو أنه تكلم . ولكنه في حالة صمته لم يضع يد أحد سلاحاً ينأله به سوء. وطربت جوتي لما علمت من مكانتها في نفسه ، وأنه أطاع إشارتها فجزته على معروفه بابتسامة قصيرة ملأ وميضها نفسه نوراً.

ومرت « الندوة » بخير الكلام .. وهو ما قل ودل. وثبت في ذهن دي نافا أن مأدبته فشلت ولم ينل منها مأربا ، وأن السبب في فشلها كانت كلمة ذلك الكولونيل المتقاعد فشاروف ، ولكن رأى لدفيج

(١) تعبير لطيف باللغة الأصيلة ، إشارة إلى أن الألفاظ تساك وتضرب كما تساك النقود

(١) اقتحام الحديث briser la glace أي وضع حد للصمت، يشبه الصمت بالثلج

كان مخالفا لرأى الدائم فقد نجحت المأدبة النجاح كله ونال منها أكثر مما أمل ، ففاز بهذه الفتاة التى لو أنفق ما فى جيبوبه جميعاً لم يكن ليظفر بلقائها. فلما انسحبا بعد الفراغ من الفاكهة اختارا مجلساً فى البهو واختليا ساعة للحديث ، وكان حديثاً لذاً كأنه قطع الروض . ثم افترقا على مصافحة اليد ، لا يفتأ يحس إلى المساء بأثرها فى يده وكأنما لمستها الكهرباء. وكان إذ يستند كردروسه أو يقرأ كتبه أو يقلب صحف المجلات ، يفكر فيها أبداً ويستعيد ذكراها فى نفسه ويرى طيفها ماثلا أمامه يؤنسه فى وحدته . ثم افترقا بندر الزمان فسافرت أوجستا إلى وطنها دون أن تودع صديقها وهو لا يعلم سبب هذه الرحلة الفاجئة . . وتنكرت له المدينة وضاقت فى عينيه على رحبها ، وتثقل بين فنادقها ونزلها ، وعاد إلى مطعم مدام بروسيه وحلبة زوجها . . وحاول فتيات من كل جنس ولون أن يتصلن به ليخضعن كبرياءه لسلطان الحب فلم يفلحن لشدة عناده وصلابته ولأنه كان منشغلا حقاً بحب أوجستا ... وبعد شهر أو شهرين نزح هو الآخر محاولاً أن ينسى تلك التى « رحلت ولم تترك عنوانها » فلم يفلح فى محاولته .

وفى يوم من أيام شهر يوليو الفائظة الشديدة الهجير فى لوزان ترجل لدفيج على إفريز المحطة من القطار القادم من إيطاليا ، وقصد إلى دار البريد فى ساحة فيدرال ، فتناول حزمة من المكاتيب والبطاقات المصورة كانت تنتظره بذلك الصندوق المبارك ، صندوق الغرباء ، ومستودع الجوالين والمستضيفين « پوست رستانت » ، ثم إلى مطعم « غليوم تيل » وبدأ فض الرسائل فكان أول ماوقع عليه بصره بطاقة بصورة دانتى وبياتريس ، وقد خطت عليها بضعة أسطر :

« صديقى العزيز اها أنا ذى فى لوزان مرة أخرى، وأبعث إليك بتلك الرسالة على أجنحة المصادفات ، هل تصلك أم تخطئك . إننى هنا نزيلة « فاميلى هاوس » إلى بضعة أشهر . كل شىء تغيّر إلا صداقتى نحوك »

أوجستا على بضع خطوات ! لقد قطع الشوق شهية الطعام ، وتقلب الوجد فى رؤيتها على تعبه . فود لو يذهب من ساعته لرؤيتها قبل أن يذهب إلى النزل الذى تعوده وهو نزل لورسن المطل على البحيرة ، ثم عاوده التعقل والأناة ، فخير له أن ينزل فى نفس الفندق الذى اتخذته مقراً ، ليكون على مقربة منها ، وإن تكن تلك الطريقة فى توريط النساء مكشوفة ... فنهض و « حجز » غرفة بالتليفون فى « فاميلى هاوس » ، ثم أمر بنقل متاعه إليه كادته قبل أن يصل لتكون غرفته على أتم استعداد للقائه . وقبل الغروب بلحظة وصل إلى الفندق وهو يتقلب على أشواك الانتظار ويلوك حنظل الصبر . وعلى مائدة العشاء قلب أجفانه فى الطاعمين والنزلاء — لأنه لم يشأ أن يسأل أحداً عن صاحبته التى لم يرها منذ أربع سنين ، خشية أن يثير الظنون — فلم يجدها فهم بمغادرة الخوان دون أن يأكل . وإنه لكذلك وإذا بها تقبل فى حياء ، وقد لبست السواد وعلى ثوبها زينة من الدنتلا السوداء والخرز الأسود جعله فتنة الناظرين ... ولكنها كانت مصفرة اللون ، كالعاج ، وفى عينيها شبه ذهول فلم تلق نظرة على أحد ولم يأخذ بصرها بلدفيج المترقب الدائب . فطال إغضاءها بدهشة القادم . وسره أنه لم يهف

2017-11-11

بالتسرع فى السؤال أو الانصراف . ولكنه لم يأكل إلا قليلا من كل لون ، ليتمكن من اللحاق بها فى نهوضها . وكانت عند ظنه بها فنهضت وحيت وانصرفت وانفلت فى أثرها ، فرآها تنحدر فى الدرج دون أن تلوى على أحد ، فتبعها ولم يشأ أن يفاجئها على السلالم ، وصبر حتى خطت بكعب الغزال واخمصيه هادئة ، وصارت فى بهو فسيح مفروش بالطنافس ثم دخلت من باب إلى مخدعها وغلقته وراءها . فوقف لدفيج يعد أنفاسه قبل أن ينقر على الباب نقرة خفيفة . ففتحت لسيدة فى العقد الرابع خمرية اللون ذات وقار ومحاسن سالفة ، فحياها وسأل عن مدام أوجستا ، فابتسمت وقالت لأعرف مدام أوجستا ولكنى أعرف مدام دامسكي

وفى تلك اللحظة تكلمت من الداخل بصوتها الملائكى وقالت بالروسية: هنا تفضل. وأسرعت لقائه فرأى فى ضوء الغرفة حمرة فى خديها وبريقاً فى عينيها لم يكونا لدى العشاء . وكانت الغرفة واسعة ولها شرفة مطلة على البحيرة والجبال . فدعته إلى الجلوس فيها ثم عرفته إلى السيدة التى فتحت الباب وقالت إنها والدتها وقد صحبتها لتقضى بضعة أيام فى لوزان . ثم رجتها أن تصنع للضيف قدحاً من الشاى

ومر لدفيج فى طريقه بسرير صغير فيه طفل نائم ... فنظر إليه ثم انحنى عليه فاذا به مريض ... فنظر لدفيج إلى وجهها فأيقن أن الطفل طفلها ، فلم ينطق بكلمة . وأخذ مكانه فى الشرفة فى صمت وأحس بأنه فى جو قاتم ، وأن أوجستا تحاول أن تظهر السرور بلقائه وتبطن ما تعانى من ضنك وألم . فانها لم تلبث أن قدمت له الشاى حتى جلست بقرب ولدها واجفة القلب يذهلها الخوف عليه وقد استعصى داؤه . تنظر إليه وقد غشيت عيناه الوديع صفرة كئيبة وأحاطت بأجفانه زرقة قاتمة. وأنعم لدفيج النظر فى صدره فاذا به يهبط طيئاً ويرتفع بمشقة وعناء . وكان لدفيج يتلهى بجرعات من الشاى ويرسل إلى الأرض بنظرات ساهمة . ثم تشجع قليلا وسأل الجدة : أمريض من زمن طويل هذا الصغير؟

قالت : منذ ثلاث سنين لا تعرف ابنتى سجو المنام ولا طعم الهناء .

قال: كيف؟ ألا تعرف العلة ؟ أو ليس فى روسيا حيث كنتم أطباء . فقالت الجدة :

— لقد استعصى الداء ، وغمض الدواء، وعجز نطس الأطباء

فضحك لدفيج ضحكة طويلة وهو يشعر أنها فى غير موضعها فى تلك الغرفة الملآنة بالخوف والكدر . وتبادلت المرأتان نظرة مذهولة . وساد الصمت قليلا ثم قالت أوجستا :

وأنت متى وصلت وأين نزلت وهل بلغتك رسالتى التى بعثت بها وأنا مثلا كدة من ضياعها ؟ فقال :

— دانتى وبياتريس ؟

فلمعت عيناها وقالت : نعم . وهل هى السر فى اهتدائك إلىّ ؟ لم أكن وربى أحب أن ترانى على هذه الحال . ولكن الأمراض تستأذن على أحسن الأسر (١) وابتسمت للنكتة

فنهض لدفيج وقال: ومن طبيبه فى هذه البلدة ؟

أجابت: دكتور كالينيى ، طويل القيصر، وهو شيخ كبير كان مدير مستشفى الأمراض فى موسكو

(١) أصل النكتة أن بسيارك أصابه دمل ضخم فى عنقه فرآه الأمبراطور غليوم فقال: له دمل بهذا الحجم أيها المستشار؟ فأجابه : هذا يحدث للأفضل العائلات يامولاى

ولكنه منذ نفيه قد تغيرت أحواله وصار يبدو كالشبح؛ ولا أظن فيه من القوة ما يعينه على التشخيص والعلاج ولكننا لا نعرف فى هذه المدينة أحداً غيره .

فضحك لدفيج مرة ثانية وقال : لا عليكما ياسيدتى ! لا عليكما . ونهض وخرج .

فنظرت المرأتان فى إثره ثم عادتا تقلبان كفاً على كف وقالت الجدة : أهذا الذى كنت تذكرين مناقبه ؟ فأجابت : لا بد أنه طرأ عليه طارئ ذهب بعظم لبه

كان لدفيج يعرف من عهد الجامعة طالب طب صغير هو جوردان بارتولسكى ، بولونى مثله ، وكان لا يزال بكابنه وقد ذاع صيته منذ تخصص لعلاج الأطفال . وقد اتخذ لوزان مقراً لعمله . فقصد إليه وكان يقطن بيتا فخما فى شارع « بنك قدرال » فالتقيا وتصافحا . ودعاه لدفيج لعيادة الصغير . وكان بارتولسكى شابا قصير القامة مستدير الوجه أزرق العينين وضاء الجبين هادئ الصوت ، يتكلم كالعلماء ويهبط على المرض كالملائكة ويعالج كالمهرة . ولم يكن فى ثيابه متأنقاً . فلما طرقا باب السيدتين فى الفندق ترددت الكهلة فى الاذن لهما . ولكنها فتحت كارهة خشية إغضاب ابنتها .

فدخل الطبيب واتجه قُدُمًا إلى سرير الطفل ، وأطال النظر إليه ثم جسه وقلب ظهره وفحص أحشاءه ؛ وكان ينظر إلى الوالد بعينين هادئتين قويتين ، كأنهما تمزقان حجب الغيب وتنفذان إلى سرائر الخبايا . وقد بكى الطفل وهو يقلبه ، ولم تكن أمه سمعت صوته أمداً طويلا ، ولم تر دموعه تتحدر على خديه . فلما فعل أسرعت المسكينة إليه تهنه دمعه وتهدهد آلامه . وقد حاولت أن ترسل له نشيدا فخانها صوتها ، وطالما أترعت رأسها تذرف الدمع زفرات تفيض حسرات وأسى ، ولكن الجدة كانت تتبع حركات الطبيب بارتولسكى بعناية وقد غمغمت فى نفسها وحدقت فيه وهو يفحص بعناية ، وسر بخاطرها ما نالاقيه بنتها من ملح وأسى لا يشفى . وجلس الطبيب الشاب وأخرج قلماً وورقاً فسألته الجدة :

— هل يشفى الولد ويقى لها ؟

فابتسم وقال : نعم ! بقليل من العناية . ودوّن الدواء ووصف ألوان الغذاء وأوقاتها بدقة رائعة ، بعد أن روى أطوار الداء السابقة كأنه كان يرى ويسمع . وهمس فى أذن لدفيج أنهما حيال حالة خبيثة من مرض « تربكايا فولينجوس » الذى يصيب طفلاً من كل مليون ، ويشفى منه واحد من عشرة مرضى ، وأن علاجه الأوحد حقنة تحت الجلد من « فلورا بيكتوراليس » ولما كان الداء نتيجة لدغة من ذبابة سامة « موشاتوكسينوس » فلا يهزم السم إلا تلك الحقن والهواء النقى والحمام الفاتر وشراب البابونج بزهر البرتقال . وفتح الطبيب حقيبته الصغيرة وكانت تحوى عشرات الأدوية ، وحقن الطفل ، ووعد بعيادته فى الغداة والعشى . وحيا وانصرفا تاركين المرأتين فى ذهول . وفى الصباح جاء الطبيب وصاحبه ؛ وكان وجه الأم متهللاً ، فقد نام الطفل هادئاً للمرة الأولى . وضحك لدفيج ضحكته الأولى ؛ وكان الحمام الأول بالماء الفاتر وماء كولونيا ثم الحقنة وشراب البابونج وعصير البرتقال . وانصرف الطبيب وبقى لدفيج يواسيها ويرقب الطفل تارة فى الشرفة وطوراً بجوار نافذة تأتى بنسمات من هواء الشمال المشبع برائحة أزهار الألب والجبل الأبيض ... وكان مقامه يطول أحياناً ، ويطلب أن يتغدى مع الأسرة فى إحدى غرفها ، فتلى إدارة الفندق طلبه . وقد أخفى عن صديقته مجاورته أمداً

2017-11-11

حتى لا تسيء تفسير إقامته أو تخطىء الرأى فى تعليلها

وكانت أوجستا تترك الفندق أحياناً نحى وأخرى عصراً وهى لابسة السواد الذى ألفه لدفيج فلا يسألها ولا تتطوع بالدلالة على مخارجها ومداخلها. وتحولت العلاقة من عاطفة الحب إلى عاطفة الحنان. ونشأت صداقة جديدة بين الأم ولدفيج من طول ما انفردا، وكانت المرأة قصاصة حاذقة ومحدثة ماهرة تطوى الأخبار وتنشرها وتجيد سرد الوقائع وتلخيص الكتب. فانتهز لدفيج غيبة أوجستا يوماً وسألها: لم أكن أعلم أن كريستك متزوجة

فقالت: ذلك فى موضعه وهى لا تزال غير ذات بعل وإن تكن ذات ولد... أما كيف صارت أماً فهذا سرها. وأظنه سبب اغترابنا. فوجم لدفيج قليلاً ولمحت الكهلة البلقة وجومه فتنحنحت وقالت «أظنك كنت تحبها وتعجب بها أما الآن فلا!»

فقال: إنها زادت حسناً فى نظرى، وزادها الألم جمالا وفتنة، ولكنى مذ رأيت الطفل عولت على أن تبقى زيارة مفردة لا تتكرر احتراماً للزوج الحاضر أو الغائب

فقالت المرأة: لو كان الزوج غائباً أو حاضراً ما بعثت إليك بتلك الرسالة. فقال: ولكننى عند ما رأيت الطفل المريض ولم أجد رجلاً يحيطها بعنايته صممت على أن أخدمها دون أن أكترث لمواطنى. وشعر لدفيج بلسعة فى قلبه ولكنه لم يظهر ألمه. وعادت أوجستا من «مشوارها» مبتهجة فرحة، فاستقبلتها الأم بوابل من الأسئلة. وألقت الأم العائدة نظرة عجلى على سرير ولدها وهى تخلع قفازها ثم أخذ بصرها بلدفيج فتنبهت ثم عضت على شفتها كمن يتذكر شيئاً بعد أوانه ثم قالت له:

— إننى لن أنسى جميلك ما حييت. لا تحسب يا صديقى إننى غافلة عن فضلك. فان ولدى يعود إلى الحياة بمحض مجهودك ومجهود صديقك الطبيب الألمانى بارتولوسكى. ونهض لدفيج يودعها حتى موعد العشاء فصحبته إلى الردهة ومنعطفات على يده وهى تصافحه. وفى تلك الليلة استبقته بعد الساعة التاسعة وهى موعد انصرافه فى كل ليلة. فقال لها: إن البيت الذى يؤوينى تقفل أبوابه فى الساعة العاشرة فلا يمكننى أن أتأخر. فضحكت وقالت له: إنى أعلم مقرك ومسكنك فلا حاجة بك إلى الاختفاء

وللمرة الأولى خلعت ثوبها الأسود ولبست ثوباً أزرق وجلست فى الشرفة على مقعد طويل وقالت له:

آن الأوان لأقضى إليك بسرى. لقد عرفت رجلاً فى وطنى فأعوانى وتخلى عنى؛ وكانت الضربة قاسية فلم أبحث عنه بل عدت إلى أبى التى كانت تعيش فى عزلة فى مدينة كيبف تزرع أرضها وتدير مطحنها وتتقاضى أجور منازلها التى تركها والدى فوقفت على قدميها، وشرحت لها حالى وسألتها الرحمة والحنان فنفرت لى وبكت. وبعد شهور معدودة وضعت غلاماً؛ وإذ بلغ عاماً بدأ ينطق ويمشى، وكنت يوماً فى حديقة كاترينا حيث يجلس الأمهات والمرضعات ويدعن الأطفال يسرحون على الخمائل، ولم تكد تمضى ساعة حتى اعترتنى رعدة فقد لمحت رجلا يمشى وقد تأبط ذراع امرأة، وكان هو بعينه الذى أغوانى وتخلى عنى بعد أن أحسست بالجنين يتحرك فى أحشائى

فازداد اضطرابى وارتميت على مقعد قريب منى وانتبهت فى نفسى ذكريات الماضى. فماذا أصنع؟ لبثت جاثمة فى مكانى حتى غاب عن نظرى. ثم أقمت

أن أمثل دور المهجورة ، وإن مثلته فلن أتقنه مهما حاولت . وعدت إلى عزلتي محطمة حزينة تحز في نفسي الآلام وتحرقها شتى المواطف . ولم أعد أطيق على البقاء صبراً فتوسلت إلى أبي أن تصحبني . وإذ كنا نستعد للسفر مرض الطفل ، فأخذنا ننتقل به من مكان إلى مكان ، فسحنا في بولونيا وفنلندا والنمسا وإيطاليا حتى استقر بنا المقام في لوزان كما ترى .

وها أنت ذا قد أسفرت عن شهم كريم وملك حارس ولا أملك أن أكافئك على إخلاصك لي ولهذا الطفل البريء وهو ثمرة غروري وغرامي — إلا بالاخلاص والوفاء . وها أنا ذي بين يديك أبادلك حبا بحب ووفاء بوفاء ، وأعاهدك على الصدق والصراحة وستجدني إن شئت صديقة لا تمل ولا تخون ...

فدهش لدفيج وكاد يذعر من هذا السيل من الكلام العذب فابتسم . ونظر إلى الكواكب الحالمة والبحيرة الهامسة بصوت أمواجها ، ثم إلى أضواء المدينة — بحيرة لمان وجبال الألب وأنوار لوزان — ما أجملها ! ثم نظر في عيني أوجستا فانما الاخلاص يشع منهما فأيقن أن الأقدار قادمة على جزائه خيراً باهداء هذه المحبوبة إليه . وهي التي اشتهاها منذ أربع سنين وفارقته على غير صورة ، وقد عادت إليه عذراء مفتونة ، وأمّا منكوبة ، وعشيقة مهجورة . فما عليه إلا أن يطأطئ رأسه ويعد يده ليقطف تلك الثمرة الدانية الحزينة . ولكن ماذا يقول بعد هذا الاعتراف الذي أفرغته في أذنه حلواً ومراً ؟ أيباحث بسرها لتستعطفه أم لتقصيه ؟ أعارفة هي بخلقه إن كان يرضى بها أم يسخط عليها أم وثقت بانسانيته ورجولته فلم تخف عنه سر حياتها ولنز وجودها ووصفت له ما قاست في سبيل ثمرة غرامها الحرم ؟ ولم يستطع أن يبرم في أمرها أو ينقض ، فتظاهر بالعطف واللطف وشجعها على المضي في سجيتها كأنه قد شاقه أن يستمتع بحديثها ويتمتعا بحديثه فأتيا بالبديع المستطرف من الملح والسائغ المستحب من النوادر . ورنت ضحكات أوجستا رنينة ناعمة تنبئه بما تمثلها من سرور واستحوذ عليها من مرح . وظلا كذلك ردحاً من الزمن غير يسير يتطارحان روائع الطرف . وأحس لودفيج بعد نصف الليل بقليل مما يضطرم في نفسها من ميول وأهواء . فقد أخذت تنظر في الغرفة وتنصت كأنها تتسمع وقع أقدام أو دقات قلب . ثم تغمض عينيها كالمرأة التي تريد أن تستسلم لماشق يدل عليها ويقاوم رغبتها الجامحة ، وسألها لودفيج فجأة :

— ألا تزال صبة مغرمة وهائمة كافة بالرجل الذي أحبها ونقلها من الهوى العذري إلى الغرام الأنثوي ثم أودعها سر الخليقة فأولدها طفلا لا تزال تمانى حبه وعلاجه ويخفق قلبها بخفقان قلبه؟ فقالت:

— إنني لا أحبه ولم أكن سوى تحية الزمان والمكان والوجد السريع النادر ، ولا أحب الآن سواك لأنك أقرب إلى مزاجي وطبعي وأدنى إلى تفهم نفسيتي ومعقوليتي من ذلك الرجل . وكان لدفيج يخالسها النظر من حين إلى حين فتباطله « نظرة المريض إلى عيون العُوَّد » وتحاول وهي تناوله الشاي أو الفطير أو قدح الماء القراح أن يحتك كتفها بكتفه عرضاً أو بنانها بأنامله مصادفة فيشعر بثمرة اللذات وفيض الهناء ، كأن مفاتن العالم ومباهج الحياة قد استحالت جميعاً امرأة فاتنة خمرية اللون سوداء الشعر هي هذه التي يسعد بالجلوس حيالها يتملى من روعة حسنها الضحيان . وما كان

2017-11-1

أسهل لديه أن يمد ذراعه ليجذبها إليه ويقبلها ويمتلكها في مظهر ذلك الجمال الأسمى المتجلي في السماء والجبال وهدوء الليل ، ولكنه كان جباراً على نفسه قابضاً على زمام طبيعته بيد من حديد ، فكبت وصمت وعادت أوجستا للحديث فقالت : لا أدري لماذا أشتهي الخمر في هذه الليلة أنا التي أبغضها من صميم قلبي . ولكن كان يودي أن أشربها معك . فاهتز كيان لدفيج هزة عنيفة ثم قالت : أعترف لك الآن أنك استملتني بجميلك وحسن صنيعك فقد شارف ولدي على الشفاء بفضل سعيك واجتهاد صديقك النطاسي بارتولوسكي ، كما ملكت عواطفي بروعة أحاديثك . ولا أدري لماذا تذكرتك كثيراً في الصيف الماضي في روسيا ولا لماذا كان طيفك يمثل أغلب الأحيان أمام عيني . وطالما تمنيت ... فقال لها : ماذا تمنيت ؟ قالت : أن يكون هذا الطفل لي منك لامن سواك ، فاني أحب أن تميد الطبيعة خلقك في صغير تحنو عليه ضلوعي وتحتويه أحشائي وأرضعه لبأني . وكانت نفسي في أشد أوقات الضيق تحدثني بلقائك . فقال لها : أكنت تنتظرين لقائي إذن يا أوجستا ؟ وكانت تلك هي المرة الأولى التي لفظ فيها اسمها من غير لقب ، فرفعت إليه عينيها الساجيتين بجلال ، ولما التقى النظران أطرقت حياء وضرج الخفر خديها الناضرين الناعمين بحمرة الورد . ولم يلبثا أن افترقا على أمل اللقاء في الند

وما انتصف النهار حتى كانت قدماه تقودانه إلى غرفتها كأن قوة خفية تدفع به إليها وما توشك أن تسمع دقته حتى تهرع إليه لتستقبله . وكانت أمها غائبة عن الدار في أحد شؤونها المالية . فدخل لدفيج وجلس وأقبلت عليه وهي ترتجف ونظرت إليه بعينين نصف مطبقتين وحيا وادع كسته العاطفة من سحرها وروعتها وتمتمت : لدفيج ! فحنا عليها وصوتها الرخيم يرن في مسمعه ، وحبها الكظيم يثور في أضلعه وهمس بحب : « أوجستا » وهم بتقبيلها فما أن كاد يصل ثغره إلى ثغرها حتى سحب رأسه وتراجع عنها أطلماً ما يكون إلى رشفة من بين ثناياها وحبس القبلة في فمه ، فردت رأسها المحبوب وأطلقت من صدرها المجهود زفرة لاهية ولم تنبس . فقال لها :

— عندي . لا أستطيع أن أحبك في هذه الغرفة ، إن عيني الصغير « الپوشكا » وشبح والدتك يوقظان الحياء والخفر في نفسي

فقالت له : أو تظن أن نفسي مجردة منهما حتى يوقاك ولا يوقاني . أنا لك أني شئت . فاتفقا على أن تستأذن أمها في غيبة قصيرة — يوماً وليلة — تقضيهما في بيت صديقة قديمة في ديڤون على شاطئ البحيرة ، ولكنهما يلجآن إلى بوفريه

فقال لها : لا بد أن والدتك تدرك شيئاً من سرنا عند ما لا تجدني أزورها في غيبتك . وعندئذ انفجرت أوجستا وقالت له : ألم تكفك الأيام التي قضيناها معاً وتصرمت منها الساعات وقد ذهبت علينا هدراً فيما لا طائل تحته ولا غنية فيه ، وإن الذي حال بين حبها وبينه من إباء وشرف وكرامة لم يكن إلا هراء ولغواً ، وقد أخطأ خطأ فادحاً في عدم انصياعهما إلى عاطفتها وهواه

فقال لها : أنتغفل كل ما تواطأ الناس عليه من قواعد وشرائط للحب ؟ فقالت وقد لمعت عيناها :

— على المرء عند ما يحب أن يرتفع فوق العرف والشرائع وأن يسمو فوق الترهات والأباطيل وأن

يتخلى عن التفكير فى غده ومستقبله وألا يبحث فى أمور السعادة والشقاء والرذيلة والفضيلة والشرف والنهتك أو يضيع أوقاته سدى، وليندفع وراء حبه إن شاء متمة نفسه وراحة قلبه . فنهض لدفيج وقبلها قبلات حارة أودعهما كل ما فى فؤاده من حنين وحب وصاحبها مودعاً إلى الغد وقد تواعدا على أن يلتقيا فى الصباح فى غرفة الانتظار فى محطة السكة الحديدية ، فيكون قد اتخذ أهبته للسفر . وخرج وهو أسعد رجل فى انتظار ذلك اللقاء المرتقب . وذهب لدفيج إلى غرفته ولكن فيمن كان يفكر وهو يصعد الدرج ليقضى ليلته وخيال من كان ملازمه ؟ وطيف أية حورية كان ذلك الذى راود أجفانه حتى الساعة العاشرة ؟ الجواب على هذه الأسئلة كلها هو « أوجيستا » . فلما أيقن أنه لن تغمض له عين ولن يأخذ الكرى بمماقد أجفانه نهض ولبس ثيابه وانحدر فى سكون الليل ليقضى هزيعاً منه فى أحد المقاهى الساهرة حتى يهون عليه انتظار أنفاس الصباح . فسار قدما فى شارع غليوم تيل ثم يون سودرون فافنيون يونون فبولفار رسوفيدان فيدراو، وهناك ولج باب تلك الحانة الشهيرة «جراند براسيرى فودواز » التى يؤمها الطلاب والطالبات ليشربوا ويطربوا ويرقصوا إلى ما بعد نصف الليل وجلس منفرداً فى إحدى تلك المقاصير المظللة بالخمائل المنزلة عن أخواتها بشبابك خضراء من الأغصان والأفنان كأنها خلوات العابدين فى بطون الوديان أو رؤوس الجبال. ولم يوشك أن يرتشف من قدحه رشفة حتى سمع ورداء ظهره وقع أقدام وصوتين يتحدث صاحباها فى مرح ممسوح بالحذر . صوت امرأة وصوت رجل. فاهتز لدفيج وارتجفت يده ثم كاد دمه يجمد فى عروقه. المرأة هى أوجستا والرجل هو دى نافارتالودى نافا ذلك الأفاق دعى الأدب وصاحب الخان الذى اجتمع لدفيج بأوجستا على مائدته لأول مرة . وبعد الدهشة الأولى كذب أذنه لشدة استغرابه واستبعاده واستهجانه ، وود لو يستطيع أن ينظر إليهما بعينه ليرى وجه المرأة التى كانت بين يديه منذ ساعات معدودة تستعطفه وتتريه وتراوده وتحمسه وتصرفه عن الفضيلة والشريعة والعرف وتهون فى نظره مراقبة الناس ومراعاة الحق والواجب . وما زال يتحرك ويعتدل ويميل حتى صار منهما بحيث يرى ويسمع، وعندما وقع نظره على ثوبها وشعرها وخدها (وكانت له فيه علامة لا تخطئ) كاد يجن ويفقد مشاعره وتحل قيود العقل فى نفسه ، ولكنه ضحك واستطاع أن يحوّل أله سروراً وطيشه حلماً وغضبه صبراً وسخطه اتعاظاً فسمعها تقول :

سأغيب عنك يومين لا أكثر ! إن لى صديقة قديمة فى ديفون تحب أن تراني ، وقد حاولت أن أدعوها لزيارتى فى لوزان فلم أظفر فسمع الرجل يقول : وكيف تتركين ولدك ووالدتك ؟

أجابت : إن الصغير دخل دائرة النقاهة ولا خطر عليه ؛ أما أبي فترى فى تلك الرحلة بعض راحتى وهنائى . ولشد ما وددت أن أكون معك فى سياحتى القصيرة

فقال : إن موسم العمل لا يسمح لى بالتنقل ، ثم إن زوجتى تحن إذا علمت بسفرى لأنها تتهمنى داعماً بمرافقتك . فما هذه الساعات التى تختلسها إلا فرص نادرة . ولولا شوق إليك ما استطعت أن أخاطر بعقلها أو بحياتي

فقالت: لا تقتأ تمتن علىّ بقربك وتشعرنى بمرتان

الجميل الذى لك فى عنق ، بيد أن الأمر بين الرجال والنساء غير ما نفعل . وكانت أشعة ضئيلة تقع على وجه أوجستا فيراها لدفيج كأنها فى غيبوبة عما حولها ، وكانت حركاتها وسكناتها كلها تنم عن استرخاء تستسلم فيه لرفيقها الابطالى الناعس استسلام التابع الضعيف يستمد حياته من متبوعه وقد أصبح خيالاً له وصدى لصوته . وكان لدفيج إذا نظر إليه متأملا خاله تارة أسعد الناس وتارة أشقى من فى الحياة ، فهو سعيد باكتشاف هذه الخيانة الناثرة فى أعماق نفس المرأة التى استسلم لها وسمى بخيبة أمله فى حبه حتى بغضت له الحياة . كان عليه أن يقتل أحدهما أو يقتلهما وينتحر ، وكان عليه — إن أراد الحياة — أن ينتقم دون أن يضحى بكرامته ؛ وهل تستحق هذه الداعر النادرة المفتونة أن يبذل حياته فى سبيلها ؟ فنهض وسار خطى ممدودة حتى وقف بباب خلوتهما المجاورة لمقصورته وصرخ بأعلى صوته : جارسون . تفضل بحاسبتى فانى مسافر فى الصباح الباكر ، إن لى صديقاً قديماً فى ديفون يحب أن يرانى وحاولت استدراجه إلى لوزان فلم أفلح وسأغيب عن حانتكم يومين لا أكثر

وساد فى المكان صمت عميق

وجاء النادل مهرولاً ولم يسمع سوى آخر ما فاه به لودفيج . فدفع للخادم ثمن الخمرة المنفذة ونفحه حلوانه بسخاء ولم يجد الجرسون مايقوله سوى قوله

« إن هذه الجمعة جيدة جداً ياسيدى ، لقد أدخلت السرور على نفسك بسرعة مدهشة » وقد ظنه سكران بفعل الخمر . وخرج لدفيج يترنح فكان من يراه لا يشك فى أنه فريسة منقوع الشعير وحشيشة الدينار . وشيعه الخادم إلى المخرج خشية أن يسقط على الأرض وهو ذلك الشارب السخى .

وبعد فترة حكم فيها السكوت على دى نافا وصاحبته قال لها :

— ليس هذا الصوت غريباً على أذنى .

— وليس كلامه غريباً على سمعى .

— أى نعم رحلة قصيرة إلى ديفون وصديق قديم .

— لعله التقفها من أفواهنا وحسن له السكر أن يعيدها .

— إن لم تخنى ذاكرتى فهو ذلك البولونى . . أتذكرين منذ أربع سنين أنك قلت لى إنه لا يعدو أحد رجلين : إما بقرى ، وإما أبله . فقلت لك : لا هذا ولا ذاك ، إنه مخلوق عادى كالدرهم الذى يتفق فى الأسواق لا زائف فيرد ، ولا حديث العهد بالسك فيدخر .

فضحكت أوجستا وقالت : صدقت لا يرد ولا يدخر . . جارسون : واحد شوب !

محمد لطفى جمعة

وكلاء في الشرق العربى

لمجلتى (الجامعة) و (الـ ٢٠ قصة)

إدارة مجلتى (الجامعة) و (الـ ٢٠ قصة) فى حاجة إلى وكلاء ومراسلين فى البلاد العربية . وخصوصاً العراق وسوريا ولبنان وفلسطين

والمخابرة بالبريد مع الادارة

شارع نوبار رقم ١ بالقاهرة

عواد كرمون

للشاعر الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

جانينا — قف التوقيع فاني لا أستطيع أن أخدعك أكثر من هذا فاني أعرف كبرياء الفنان وأقاسمك إياه كما شاطرتك آلامك فيما مضى ولكن ليس ذلك الذي يسيل عبراتي

فيليو — وماذا إذن ؟

جانينا — سأسبب لك آلاماً ثقالا ولكنك ستشفق علي بلا ريب . وحينما قلت لك أيها الصديق القديم إن الحب تتغلغل في فؤادي وإني كنت أتمنى النجاح لأحد المتنافسين وإن سعادتك هدمت سعادتي

فيليو — أواه !

جانينا — يحسن ألا يتملكك الغضب ، إنني كنت أجهل كل شيء لأنك لم تظهر لي شيئاً ، وكنت أظنك كامل مبتدئ ، وهذا أمر طبيعي ، ثم تمنيت أحسن الأماني للرجل الذي أحبه ، وإن كنت أعرف هذه الأمور لما ترددت في قراري نحوكما وكنت أقنع بهذه الفكرة من أنك أذكى منه وأمهر وما كنت أبكي كاليوم

فيليو — (مشيراً إلى الباب الذي خرج منه ساندرو) هل تحبين ؟ . . .

جانينا — (بصوت منخفض) نعم ! . . .

فيليو — ساندرو !

جانينا — أنظر ، فاني أودعك سري دون تردد . . . وهو الذي كان يغذي في الأمل في نجاحه ، ولكني بعد ما سمعته لا أري أن يؤمل في هذه الجائزة . وما أقسى أن يفقد الانسان الامل ! ولكن حزني ليس مؤلماً لأن رفيق طفولتي وأخي الذي يجب أن ينال هذه الجائزة باستحقاق وجدارة وكان ذلك فوق طاقتي . . . فعفواً

(ثم تبكي وتعول)

فيليو — إنني في الحقيقة أتألم أكثر منك فأرجو منك . . .

جانينا — أواه ! إن هذا سيء وإني لطالمة . . . وقد نسيت بؤسك ولم أفكر في شقائك . ليس لك في محلنا أيها الدف النحيل والصديق المسكين غير فنك الذي يعزيك ، فقد انتهى حزني لأني كنت حمقاء ، ومن العدل إذن أن يكون نصيبه الحب ونصيبك الفخر ؛ وسيكون ساندرو العزيز زوجي على كل حال ، وإنك فنان عظيم تثير إعجابي ، وإني أحبك وأريد أن أقسم لك (ثم تأخذ يديه)

ولن أبكي عوض . . . أنظر فاني أبسم . .

(ثم تصعد الزفرات)

ولكن هذا فوق طاقتي ! (ثم تخرج)

المنظر الثامن

فيليو (وحده بعد تأمل مؤلم) — قطعت جهيزة قول كل خطيب ! اعترفت بكل شيء وإنها تحب رجلا آخر ، وهكذا حلت مشكلة سعادتي بكلمة واحدة ، نعم رجل آخر ! . . . هذا الشاب العامل . . لم تدهش وتعجب بعد كل هذا ؟ وتتهمها بالظلم والعسف ؟ . . . إن الأمور تجري بطبيعتها أيها النفس . وفي سنها هذه تحلم الفتيات بحبيب مماثل

2017-11-11

لهذا الشاب، وأنت أيها السقط المنكود الذي تضحك السوقة في طريقه، أما نظرت وجهك قط في المرآة؟ ولكنني لم أنظر شيئاً؟ يالعمي والحماقة!

هيا أيها الأحدب واختبئ في جحر! إنها تحب ساندرو! وليكونا سعيدين هانئين! وأنت، اذهب لشأنك، تألم وموت! أواه! أية حسرة تنهش فؤادي! إنني أشعر بشيء انطفأ مني إلى الأبد. وماذا يفيدني الآن أن أدخل في هذه المسابقة والطمع في الانتصار الوهمي؟ ماذا تعمل أيها الفارق في أحلامه والذي لا يريد المجد الا ليظفر منها بالقبول والاعجاب والذي لم ينجح إلا في إسالة دمعها؟ ولا حاجة لي في المنافسة وإن ساندرو ليعد بعدي أمهر الصناع، فليأخذ الجائزة ليكفكف عبراتها (ثم يأخذ كمانه)

وأنت يامن بذلت كل ما في وسعي لنجاحها أصبحت عديمة الفائدة حتى إنني أحتقرك الآن أنت وآمالي ويجب أن أحطمك (ثم يتوقف)

رباه! أية فكرة تنهش فؤادي! وإذا نجح عامل آخر وحاز الجائزة فهل يتزوجها؟ ان حبها لا يليق بي! بل هو مضحك!... كلا! فان الاخلاص هو الذي يتقدم بينما أنا أتقهقر! لأن الكمانين متشابهتان في الشكل، وإني أستطيع أن أتنازل عن عملي بأن أغير الظرف لأن ساندرو ليس له روح موسيقية ليتسنى له أن يفرق بين صنعه وصنعي. وحينما يأخذون الآلات لتجربتها هناك سأقول له حذرا من فتح ظروفها وسترسل إلى المحكمين الآن... إنني لا أريد أن تبكي هذه المسكينة، وأنت يا كمانيَّ ينبغي أن تحطمي لأنك تستطيعين أن تخنميها من التألم؟ فلنتشجع ونقدم لها هذه الخدمة النظيمة

(ثم يفتح الظرفين ويضع كمان ساندرو في الظرف الأحمر ثم يقول وهو يضع كمانه في الظرف الأسود)

ومع ذلك فان هذه تضحية قاسية فظيعة لم تخطر على بالي أيتها القلوب الانسانية الضعيفة — إنني صرفت أياما طوالا أشتغل فيها بيدي، إن روح الفنان المشتمل قد أودع في هذه الآلة الحنو الأبوي المؤثر. إنني أحبك كثيرا أيتها الآلة العزيزة التي صنعتها، وداعا إلى الأبد. إنني أضعك في هذا الظرف الضيق الأسود، وأظنني في جداد وأنا أضعك هذا الوضع كأنني ألحد ابنتي في رمسها

(ثم يقفل الظرف بسرعة ويقول بصوت مختنق)

قد تم الأمر!

المنظر التاسع

فيليبو — المعلم فيراري — ساندرو

المعلم فيراري (وهو داخل)

هيا يا ساندرو ... وفيليبو... قد اقتربت الساعة ولم تتهيأ بعد للذهاب

ساندرو (يدخل من اليمين) — قد تم كل شيء يا معلمي!

فيليبو (مشيراً إلى الظرفين) — هاهما جاهزتين

المعلم فيراري — أتمنى لكما النجاح يا ولدي، إنني أستاذ في فني وهؤلاء المدعون يفرطون في الاكثار من وضع القلفونيا على كمانهم الرديئة! وستكون الجائزة لنا — لأني جلت جولة في المدينة فرأيت الناس جميعهم في استعداد لهذا اليوم مرتدين ملابس الأحد يسيرون زرافات ليشاهدوا اجتماع اللجنة، وبرى من بعيد رئيس الكنيسة وهو متربع في كرسيه الكبير، ينظر من بعيد وهو مبيض من البودره كأنه شجرة تفاح في ابريل. مجول في الهواء نفحة شجية، وفي الطريق لا يستنشق الناس ويشمون غير الموسيقى المنبثة من مزمار «أورب» ومزمر «أبولون»، وفي جميع مفارق الطرق تسمع أصوات الكمان صادرة من نوافذ غرف الأسطحة.

2017-11-11

وجميع الأبراج وتنبعث من مدينة كريعون أصوات مختلطة متناسبة فى الصعود كأنها الاوركستر قبل رفع الستار !

ساندرو — هل ستتبعنى يا فيليو ؟

فيليو — كلا يا زميلى ... فانى أينما ذهبت يضحك منى ويهزأ بى ويضطرنى لحمل سنمى مع سنمك ، فتصرف كمنافس مخلص لأنك فى بعض الأحيان تكون بعيداً عن الاخلاص ، وفضلا عن ذلك فان دار المحافظة قريبة جداً

(ثم يتناول يد فيليو التى مدها إليه)

ساندرو — نعم

فيليو — شكراً لك !

(ثم يخرج ساندرو حاملا الكمانين فى ظرفيهما)

المنظر العاشر

فيليو — المعلم فيرارى

فيليو (على حدة) — أواه ! قد تمت الضحية فلنتشجع ! ... (بصوت عال إلى فيرارى) ألا تذهب لتشاهد صنعه مكللا بالنجاح ؟

المعلم فيرارى — نعم سأذهب ، ولكن ساندرو لم يأخذ الجائزة بعد وإنك لتستطيع أن تنال السلسلة الذهبية ، وهل أنت أقل منه ذكاء ومهارة ؟

فيليو — كلا ! فانك تعرف جيداً أننى سيئ الحظ

فيرارى — إنك تشك كثيراً فى نفسك وإنك لا تقل عن مهرة صناع الآلات الموسيقية ؛ وإن نلت الجائزة فانى أرهن بنفسى سمك وأختارك لى صهراً وخلفاً

فيليو — أيها الأستاذ !

فيرارى — دعنى أتم حديثى فانى أعلم بدقائق الأمور ، وستكون رب بيت عظيم ، واعلم أننى حينما بنيت على عقيلتى كانت سنى ضعف سنك الآن ففتحت هذا المحل ولم أكن فى ذاك الوقت ذا جمال ناضر ولو أنه كان مقبولا ولكن فارقته قليلا تلك النضرة ، وكانت زوجى فى ربيعها العشرين ذات دل ، وهذا بلا شك فيه خطره فافتتن بها كثير من الشبان الأعيان فكانوا يقصرون زهتهم على هذا المكان . وفى المساء يأتون زرافات ويوقعون شجى الألحان على آلاتهم الوترية . ألا تعجب الآن حينما تعلم لأى حد تنفذ المصادفات شرف رجال فننا وكيف بعت فى النهار لجميع هؤلاء الفتيان ذوى الجمال الباهر كثيراً من القيثارات ، وكنت أستدل من صوت آلاتهم وأنا نائم على ضراب هذه الألحان ، وراقبت زوجتى وحافظت عليها بكل دعة واطمئنان وجمعت ثروتى هذه بلا مشقة ولا عناء

ويل لك ! لقد نسينا المسابقة وتأخرت عن الذهاب فناولنى عصاى لأذهب على عجل

(ثم يخرج من اليمين)

المنظر الحادى عشر

فيليو — جانينا

فيليو — إننى لمتشوق لتحقيق كل ذلك (ثم يلمح جانينا داخلة ويدها كتاب صلوات) ، إنها هى !

جانينا — إننى آتية يا فيليو من الكنيسة ، ولقد ذهبت وقلبى مثقل بالهموم ... ! ودعوت الله أن يكلله بالنجاح رغماً من جميع الاعتبارات ، وحينما ركعت أمام القديسة سيسيل شعرت بأن الله لا يتقبل طلباً غير عادل . ومهما حصل فقد عاهدت الله بإصديق أن أستمر معك كما كنت دون أن أغير شيئاً من طباعى ، قال الملتقى القريب ... !

(ثم تخترق المسرح وتخرج من اليمين)

المنظر الثانى عشر

فيليو (وحده) — ما أشد حبها له فوا أسفاه ! ولو كنت قوياً جميلاً مثله لأحبتنى حباً جماً ... !

2017-11-11

المنظر الثالث عشر

فيليو — ساندرو

ساندرو (يأتى من الداخل مهرولا بعنف واضطراب)

— فيليو ! فيليو ... !

فيليو — ماذا دهاك ! فانى أرى عينيك مغرورقتين بدمعهما ووجهك شاحباً ماذا عراك ؟

ساندرو — لقد اقترفت إثماً فاضحاً ، إننى لمجرم عفواً ... ! عفواً ... ! عفواً ... !

فيليو — من ؟ أنا ؟ أنا الذى أساءك أيها الصديق ؟ وماذا جرى ؟

ساندرو — إننى — كما ترى — قد فُتنت بها وسيطرت على نفسى ، وقد أنتصر على مزاحم أمام عينيها ، وإنى لتمس نذل حسود . وحينما حلت كأنك — وهى صفوة صنعك — سولت لى نفسى ويا للعار والفضيحة ، وقد فارقنى صوابى من الغيظ والألم ، فوقفت وأنا أرتعد كالمس ، فى ظل رتاج بزقاق ضيق وبدلت الكأنين

فيليو — أنت ؟

ساندرو — لقد قدمتهما للمحكمين ، وحينما فتح الخبير الظرفين لم أستطع رؤية ذلك وركنت إلى الفرار . إنتقم منى إذن أمام الاشهاد وافضح عملى ! ولكن كن بى رحيماً ولا تطلعها على فعلتى الشنعاء . وسأكتب لك اعترافاً بالجريمة ثم أذهب لأموت بعيداً لأن الخجل قتال . ولكنى أتوسل إليك ألا تدع وجهى يحمر خجلاً أمامها

(ثم يركع أمامه)

فيليو — كلا يا ساندرو فلا حاجة لى إلى الانتقام فلقد انتقمت أنت من نفسك

ساندرو — ماذا تقول ؟

فيليو — هذا الفخر الذى يرجع الفضل فيه إلى صفوة أعمالى هذه قد تنازلت عنه لك ولكنك رددته إلى

ساندرو — وكيف ذلك ؟

فيليو — هاتان الكأنان اللتان بدلتهما قد كنت بدلتهما أنا بيدى

ساندرو — ماذا أسمع ! فان توبيخ ضميرى يحول دون فهمى ؟ وما الذى اضطرك لهذا العمل ؟

فيليو — لأنى أعبدها وأنت الذى فضلته وإن كان فؤادى يفيض حسرة مؤلمة . ولو كنت أبحث عن الشجار من فعلتك فانها قد محت كل ما عملته لأجلها ...

ساندرو (ينهض) — لقد اقترفت إثماً وأود أن أنال قصاصه ، فتفوّه بكلمة لأذهب حيث لا أعود . وإن نسيتنى جانينا فسأستسلم لله ... وستجعلها تحبك لأنك الوحيد الجدير بها ... إننى أرحل ... ويجب ألا أتردد (يسمع صخب فى الخارج)

فيليو — لا تبرح مكانك وأطعنى !

المنظر الرابع عشر

الجميع (يدخل فيارى ثم يرفع ذراعيه صوب السماء حينما يشاهد فيليو وقد سار وراءه جماعة الموادين وحاجبان يحمل أحدهما السلسلة الذهبية على وسادة والثانى كأنى فيليو وقد زينت بالأزهار والأشرطة الحريرية — وتظهر جانينا على عتبة الباب الأيمن) — ليحى الفنان الماهر !

المعلم فيارى (مخاطباً فيليو) — تعال بين ذراعى فإنى أنادى بك ملكاً للفن وإنى أبر بوعدى أمام الاخوان الزملاء فأنت إذن شريكى وصهرى وقلبى ! وقبل كل شىء أمنحك هذه السلسلة الذهبية ...

(ثم يناوله إياها)

فيليو (يأخذها ويذهب إلى جانينا ويضعها فى عنقها) — إننى أمنحها جانينا الحسناء لتجعلها أحب الحلى إليها حينما يبنى عليها صديقى ساندرو

2017-11-11

جانينا — لاتقل فوك يا فيليو ألبار الطيب

صاندرو (بصوت منخفض) — صديقي النبيل ! وأخي العزيز !

المعلم فيراري — مهلا ! أما تمنيت قط أماني فرسان مالطه وأنك تستطيع أن تتزوج منها ...

فيليو — كلا ! يا أستاذي الطيب وإني أود أن أذهب بعيداً لأحمل معي شهرتك ، ومن الند سأسيح في إيطاليا . أنظر فإني حلمت حلماً ، والذي يتأتى حدوثه لم يحدث ، نعم سأذهب وأنا سعيد جداً إذا كان ذهابي يحدث بعض الأسف وهذا كل ما أتمناه (ثم يجذب نحوه صاندرو وجانينا)

وحينما يعود المحل إلى العمل ويستتب لك الحظ بجانب حبيبتك وتعمل عملك الذي تعودته وإن كان بعض الأوتار ذات الصوت الشاكي ، يتقطع بين أصابعك فاذكر دائماً أنني أشعر في هذا الوداع الأليم المائل أن قلبي يتمزق مثل هذه الأوتار الشاكية ! إنني أعرف أنكما لا تستطيعان أن تعملا شيئاً في هذا الأمر . ولا تنسيا أني كنت ولا أزال أحبكما حباً خالصاً صادقاً !

المعلم فيراري — أيها الناكر الجميل ! أتريد أن تخرب بيتي ؟

فيليو — إني أتركك لك صاندرو

فيراري — ما هذا الميل الغريب ! أتزوع هنا السعادة والثروة وما إليهما ... وما الذي حفظته لنفسك ؟

فيليو (ومد يمناه بكماله) — احفظ هذه (على حدة)

وستعزيني وتكون سلواني في همومي وأشجاني !

(تمت) محمد كامل مهاجع

الجودة الفائقة و الذوق الجميل
والثمن المعتدل
تلك هي العوامل الثلاثة التي تسير عليها
شركة مصر لنسج الحرير
عند ما تنتج أفخر أنواع الأقمشة الحريرية
ألحوا في طلب منتجات
شركة مصر لنسج الحرير
إحدى مؤسسات بنك مصر

حاجي بابا في انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الرابع والأربعون

ولي العهد يزور السفير

تقرر أن يزورنا ولي العهد، وتحدد لذلك موعد بعيد يدل على أن اليوم إنما اختير ليمينه . ذلك بالرغم من تأكيد الترجمان أن الأيام كلها سواء عند الانكليز . ولكن أكاذيب الانكليز كانت تظهر لنا شيئاً فشيئاً بشكل واضح . وقبل موعد الزيارة كتبت عنها جميع الصحف ، وقد اهتم أهل المدينة بهذا الخبر كأنهم لم يسمعوا قبل الآن أقل شيء عن الفارسيين . وأرسل السفير الدعوة إلى عدد كبير من الناس كطلبهم

والغريب في أمر الانكليز أن أحدهم يغضب إذا لم تصله دعوة كان ينتظرها ، وأنه يبني حقه في طلب الدعوة على أتفه الأسباب ، كأن يكون له ابن عم في فارس، أو أن يكون قد رأى السفير في إحدى الحفلات الخاصة . واحتجت إحدى السيدات بأنه مادام الفارسيون يسمحون بتعدد الزوجات فالواجب أن يكون عدد المدعوات في الحفلات أكبر من عدد المدعوين

وكانت قد انقضت مدة لم أسمع فيها شيئاً عن أسرة هوج سوى ما يأتي به السفير بين حين وحين من التسخرية بي والاستهزاء بتعمد ذكرهم ومحادثتي في أمر الزواج

وقبل الدعوة بيوم واحد جاءت زوجة المستر هوج وبنتها بيسي إلى دار السفارة لتقابلني، وخاطبتني كالعادة كأنه لم يحدث شيء . وكانت تخاطبني بلقب الأمير وعاتبتني على عدم الزيارة، ثم تبين أن المطلوب هو إرسال الدعوة إلى حفلة ولي العهد ، ولكي تضمن الخبيثة بيسي إجابة هذا الطلب ضغطت على أسبني الخنصر وهي تودعني عند الانصراف . فعاودني الأمل في صهرها وفيها، ووعدتها بأن أحصل على دعوة من السفير وإن كنت أثق بأن السفير سيسخر بي عند ما أطلب هذه الدعوة

بيد أنه لم يفصل ذلك ، بل وقع الدعوة إليها بغير تردد فأرسلتها إليها . لكنه في تلك اللحظة جاء عشرات من الناس يطلبون إليّ التوسط في إرسال دعوة إليهم ، فاعتذرت بأن التذاكر وزعت كلها

وأخيراً جاء يوم الزيارة، فدهشت من البساطة التي يعامل بها ولي العهد في هذه البلاد ، لأن ولي العهد عندنا إن زار منزلاً من المنازل فرشت له الطريق بالأبسطة ، وبمرات المنزل بالوسائد الحريرية المنضدة بالورود ، ويعطى عند دخوله من الباب مائة جنيه وتوقد له الشموع ويستعد الطباخون قبل يوم الوليمة بأسبوع على الأقل في تهيئة الحلوى وغيرها .

أما هنا فلا يكاد يعمل أي شيء قبل ساعة الزيارة

ولما تشاورنا فيما بيننا فيما نكرم به الأمير في أثناء الزيارة قال لي تقي الدين : إن خدم السفارة وموظفيها يجب أن يصطفوا عند الباب ويسجدوا أمام الأمير

2017-11-11

فعارض محمد بك أشد المعارضة فى هذا الاقتراح وأكد أنه ما ينبغى للمسلم أن يسجد لنصرانى

واقترح سعيد ومحبوب أن تنفى الشركسية وترقص على الطمبور كما تفعل الجوارى عندنا أمام الشاه ...

فاعترض السفير على ذلك خوفاً من بلوغ الخبر إلى سمع زوجته، واقترح أن يقوم حسن طباخ السفارة أمام ولى العهد ببعض الألعاب الفارسية مثل أكل النار وبلع قطع الزجاج والمسامير ، وأن ينشد محمد بك نحو ألفى بيت من الشاهنامة ، ويقوم تقى الدين ببعض الألعاب البهلوانية . ولكن المترجم قال : إن ولى العهد لا يفهم اللغة الفارسية فلا معنى لإنشاده ألفى البيت ، وإنه بدلاً من باقى الألعاب يحسن أن تأتى بفرقة موسيقية من الانكليز رجالاً ونساء ليكون الأمر ملاءماً

وقبل الحفلة وضع حول صورة الشاه إطار من الورد وحول المنزل كله إطار من الأنوار

وبدأ المدعوون يصلون واحداً بعد واحد ونحن فى استقبالهم على الجانبين ، وقد أدهشتنا وفرة الجمال فى الصغيرات من الانكليز وكثرة المجاثر منهن . ورأينا بين المقبلين فى عربة ثلاث نساء على رؤوسهن عمائم كبيرة كالتى يلبسها عندنا شيخ الاسلام

ولما دنت العربة عرفتهن ، وهن زوجة المستر هوج وبناتها ، وقدمن تذكرة الدعوة وعليها يخطى باللغة الانكليزية عنوان كتبته على قدر معرفتى بتلك اللغة وهو (الأم هوج ورأسان من البنات) وقد رأيتهن يتبسمن وهن يقدمنها فأدركت أن كتابته بهذا الشكل غير مألوفة . وقد ساخفنى ودخلن ، وما كدت نفسى فلم أذهب معهن ورأيت نظرات الناس إليهن تشف عن دهشة من كبر العمائم، وبعد دخولهن إلى القاعة الكبرى بدقائق دخلت فوجدتهن يقدمن التذكرة إلى الكثيرين والكثيرات ، وكل من اطلع عليها ضحك

وفى وسط هذا الوقف علت الصيحات مؤذنة بقدوم ولى العهد ، فذهب السفير والمترجم لاستقباله

وعند ما دخل سمو الأمير اجتمع الانكليز الذين فى القاعة حوله على شكل دائرة وأحنوا رؤوسهم وكانت هذه هى كل التحية التى حيوا بها ولى عهدهم. وقد تذكرت عند رؤيته عظم الفارق بين ولى العهد عندنا وولى العهد عندهم، فالأول ينظر النظرة المخيفة فترتعد الفرائص ولا يجرؤ أحد على الدنو منه ووراء كلمته العقوبة ووراء إشارته الجلاد . أما الثانى فنظراته فاترة وإشاراته رقيقة، وإن ابتعث فى النفس شعوراً فهو الحب دون الخوف . وقد كان يمشى ببطء وهوادة ويتبسم لكل من يمر به ويصافحه

ولما نظر إلى لابسات العمائم الكبيرة ابتسم وسأل السفير عنهن فقدمت له الأم تلك التذكرة المكتوبة بخطى فسلمها إلى المترجم وقرأها هذا بصوت عال : « الأم هوج ورأسان من البنات » فابتسم جميع من سمعوا إلا الأمير فان تربيته السامية منعته عن تشجيع المبتسمين فى هذا الموقف

وقد احتملت الغصة كما حسن ما يكون فى وسع إنسان أن يحتملها . ولاحظت أن الأم هوج مشتبطة مسرورة بعمائمها وكأنها تقول بعينيها : « من لم ينظرنى إلى الآن فلينظرنى »

أما كريستاها فقد لاحظت خجلهما وكأن إحداهما تريد أن تخسف بها الأرض

واتفقنا نحن أعضاء السفارة على أن الحفلات

2017-11-11

فى بلادنا أروع وأنظم من هذه الحفلات التى لا معنى لها، فقد سادسمت عميق بالرغم من كثرة الموجودين فكاد كل إنسان يشعر بأن الغرفة خالية مع أنه لو كان نصف هذا العدد من الفارسيين مجتمعاً فى مكان واحد لسمعت عن بعد منه ضجة تصم الآذان

ثم أكلنا وانصرف كل المدعوين

وفى الصباح التالى دعانا السفير ليتحدث معنا عن اجتماع الأمس لكى يعرف آراءنا فيه . وقال : «لقد رأيتم ليلة الأمس هؤلاء الانكليز ولست أعرف هل شعوركم نحوهم مثل شعورى ؟ ولكنى أقول لكم إنه كلما مر بى يوم يتهم زاد ميلى إلى احتياد عاداتهم، فان أخص ما فيهم من الصفات عدم الزهو وعدم الميل للغوغاء . هل رأيتم ولى العهد ؟ إنه «عباس ميرزا» هذه البلاد، وإننى أقسم أنه لم يتسلط إنسان على قلب إنسان كما تسلط هذا الأمير على قلبى، فقد جعلنى عبداً رقيقاً له » فقال محمد بك : « نعم إنه متواضع إلى درجة لا يصدقها أى فارسى »

قال السفير : « هل سمعتم حديثه ؟ لقد قال كلاماً جعل قلبى يخفق من الضحك . وملكته الفكاهية غريزة لا تنضب . ولقد أحسن الشاه باختيارى ممثلا له فى هذه البلاد، ولولا ذلك لضحك الانكليز من الفارسيين جميعاً . هبوا أنه اختار ذلك التركى الأحمق عسكر خان ، أو ذلك الحيوان فرج الله خان، أو ذلك المجنون عبد القاسم خان، فان الانكليز كانوا يحتقرون الجنس الفارسى أشد احتقار

قلت : « نعم نعم ! ماشاء الله ، هل فى الدنيا ذكاء كذكائك ؟ هل فى الدنيا عقل مثل عقلك ؟ الحمد لله الذى بيض بك وجوهنا فى هذه البلاد فانه لولاك لكانت وجوهنا سوداء »

قال السفير : « صدقت يا حاجى بابا : هل سمعتنى وأنا أمازح الأمير ؟ لقد أضحكته أكثر مما ضحك فى أى يوم آخر » فقلنا جميعاً : « بارك الله فيكم »

قال السفير : « لقد كان فى حاشيته ملك مخلوع وهذا الملك سمين جداً فقلت له : ماشاء الله إن المساكين يسمنون فى ضيافتكم . فضحك وضحك الملك المخلوع نفسه واستحسن الجميع هذه النكتة

وكنا نتكلم فقال الأمير إن الخيول الانكليزية جيدة، وإن النساء الانكليزيات جيدات . واستمر يتكلم على هذا المنوال ، فقلت له إن كل شىء فى انكلترا جيد إلا الرجال ، فانهم يسألون أسئلة كثيرة . فضحك الأمير وأعجبته هذه النكتة أيضاً واعترف بأن الانكليز يكثرون من الأسئلة »

فقال محمد بك : « نعم وهم يسألون أسئلة غريبة جداً؛ فمن ذلك أن شاباً انكليزياً سألنى هل يحسن الفارسيون ركوب الخيل؟ فقلت له إنه ليس فى العالم من يساميهم فى ذلك . وسألنى هل يحسن الفائلة ؟ فقلت له: سل عنا التركمان والأكراد، فان أحدنا إذا ركب جواده وأمسك سيفه أمكنه اختطاف الأسد من عرينه. فسألنى هل اعتاد الفارسيون أن يتكلموا بالصدق ؟ قلت له : إن كان هذا التعبير هو بعض أساليبه فى وصفنا بالكذب فان ذلك ليس من شأنه. ولما رأى أننى غضبت أكد لى أنه لم يقصد شيئاً، ولكنه قرأ فى كتاب قديم أن الفرس لا يحسنون فنون الحرب ولا ركوب الخيل ولا يستطيعون التكلم بالصدق »

وقال تقى الدين الفراش : « لقد قابلت رجلاً آخر يعرف قليلاً من الفارسية ، وسألنى عن نوع رؤوسنا فظننت فى بادئ الأمر أن هذا نوع من

2017-11-11

التحية الانكليزية كما تسأل الانسان عن صحته ، ولكنه أفهمني أنه يسأل حقيقة عن دماغي . ولما أذنت له أخذ يجسه بيده ويرى استدارته وتكوره وقد دهشنا من ذلك ، ولكنه أكد لنا أنه قرأ كتاباً عن أدمغة الفارسيين »

وقال أمين المركبات : إن أحد الانكليز سأله لماذا نحنّي ذيول الخيل وأقدامها ؟ فضحكت منه وقلت : « ولماذا تقصون أنتم ذيول الخيل ؟ »

وقال محبوب : « إن أحد الانكليز طلب إليّ أن أريه الشركسية وقال : إن قوانين هذه البلاد لا تسمح بسجن السيدات . فقلت له : إذهب وقل للسفير ذلك ، فمض أصبهه وذهب »

وقال محمد بك : « وقد سألني انكليزي آخر : هل نعرف اللغة العبرية ؟ فقلت : إننا لسنا يهوداً وإننا نحتقر اليهود ، وإن الكثيرين منا يعرفون اللغة العربية ، ولكن لا يوجد في بلادنا من يعرف العبرية . على أن هذا اللين أصر على تعلمنا تلك اللغة وأوصاني بإتقانها لقربها من اللغات الشرقية . ثم تحدثنا بعد ذلك عن الموازنة بين اللغة الفارسية وبين اللغة الانكليزية ، فقلت : إن قاموس لغتنا يحمل على ثلاثين جلاً ، فسكت ولم يحر جواباً »

ثم قطع السفير الحديث فجأة وسألني : من هن السيدات اللواتي كن يلبسن عمائم مثل قباب المساجد ؟ فقلت في استحياء : هن من أسرة هوج . فضحك السفير وقال : إذا كان لديهن مال فلا بأس من إتمام الزواج ولكن لا تنس مشروع الشركة التي بيننا

فأردت أن أجد مخرجاً من الجواب على ألا أتورط بالقبول ، ووجدت ذلك في إعلان استيائي من المترجم

الفصل الخامس والأربعون

مضى علينا ثمانية شهور في انكلترا وبدأنا نفكر على صورة جدية في العودة إلى إيران ، وأخذ السفير يشكو من أن المهمة التي جئنا من أجلها لم تتم لأننا لم نعقد معاهدات ولا اتفاقيات على طول ما ألفنا بهذه البلاد ، ووثق من خداع المترجم الذي كان قد أفهمه من قبل أنه سيتوسط في عقد أية اتفاقية ليكون الشاه راضياً عنا . ولما اشتد غيظ السفير عليه استدعاه يوماً وقال له محتداً : « يجب أن تفهم وتبلغ وزراء دولتك أن شاهنا عظيم ودولتنا عظيمة . إننا رجال ولنا أموال وعندنا خيول ولكنكم ماطلتمونا هنا في المعاهدات والاتفاقيات فبرهنتم على أنكم لا تعرفون الفارسيين . إن إيران تستطيع إذا شاءت أن تبتلع البلاد الأخرى . إنني أريد أن أعود ، ولكنني لا أعود قبل أن أعقد معاهدة وإلا فإن زملائي الوزراء هناك يلومون أنوفهم حين يصرونني ويميل عمائمهم نحو جانب واحد . فأخبرني يا أخي بكلمة واحدة : هل تريدون عقد معاهدة أم لا ؟ »

فأجابه المترجم ببروده العادي قائلاً : « إن التعامل بين دولتين ليس مثل التعامل بين اثنين من أفراد الناس ، وإن وزير الخارجية الانكليزية ليس متفرغاً للسفارة الفارسية ، بل بينه وبين السفراء والقناصل من جميع بلدان العالم مفاوضات ، وأن السفير الفارسي إذا انتظر قليلاً فانه سيحصل بغير شك على المعاهدة التي يطلبها لأنها ستكون في مصلحة الدولتين »

فأعاد السفير ما قاله ألف مرة من قبل وهو أن الشاه مستبد وأنه يقطع رؤوس الناس إن قضت الضرورة

وقال : « أرجو أن تذهب إلى وزير الخارجية وتقسم له أني سأموت من الحزن ، وأن دخان هذه المدينة يضايق أنفاسي ويسمم دمي ، فليعجل بعقد المعاهدات حتى أعود . فأكد للترجمان أنه سيقول لوزير الخارجية ذلك وسيخبرنا بأشياء كان أعلمها من قبل . وهذا هو عذره القديم الذي طالما ردده

قال السفير : « ما هي هذه الأشياء ولماذا لم تقلها من قبل . إنكم قتلتموني بطول الانتظار وأنا فارسي أعرف الدنيا وما فيها وليس في وسعك أن تخدعني بالكلام المسول »

فقال الترجمان : « لقد عرض مشروع المعاهدة على البرلمان الانكليزي وتلقاه بالترحيب ولم يخالفه إلا عضو واحد من أعضاء المعارضة

قلت : « المعارضة ! إن أصحاب المعارضة ثوار على ما أظن ! إنهم كالخوارج عندنا . أليس كذلك ؟ »

فقال الترجمان : « ثوار ! لماذا ؟ قد يختلف رأي الانسان عن رأي غيره ولا يكون ثائراً »

قلت : « إننا لانفهم ذلك في فارس فان الشاه يرفض أن يكون لأي إنسان رأي غير رأي جلالته ؛ وإني أنصح لك أن تشير على ملك الانكليز أن يعامل قبيلة المعارضة كما كان الشاه عباس يعامل الأرمن فيقتل البعض ويشرد البعض إلى أقاصي البلاد

قال السفير : « لقد تكلمت يا حاجي بابا كلاماً حسناً ووافق رأيك رأيي »

وسكت الترجمان ولكن كان بادياً عليه أن لديه كلاماً كثيراً ولكنه عن عمد لا يريد أن يتكلم . ثم دعا الترجمان السفير إلى زيارة مصرف انكليزي ليرى فريقاً آخر من رعايا شاه انجلستان . فوافق السفير ولكنه قال إنه سئم ممن يزورهم ويزورونه . ثم أمر محمد بك بأن يستعد لمرافقته

ويقع القصر الذي زاروه على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة ، وله حديقة غناء لا يشك من يراها في أن هذا القصر كان مملوكاً لأمير فارسي زار انكلترا في وقت من الأوقات لأنه أشبه بجنان الفارسيين

وقد استقبل السفير عند بابه رجل سمين من الطراز الذي يسمونه في انكلترا رجال الأعمال

وأدرك محمد بك بفطنته وذكائه من مجرد النظر إلى هذا الرجل أنه يهودي . ولكنني قلت : « يستحيل أن يكون ذلك يا محمد بك لأن الترجمان لا يجرؤ على أن يدنس شرف الشاه بأن يقود ممثله إلى منزل رجل يهودي

لكن الرجل اعترف لما سألناه بأنه من هذا الجنس اللعين . وقال محمد بك : « إذن ففي هذه البلاد يهود كما هي الحال في فارس . ولكن اليهود هنا أغنياء . أنظروا إلى فخامة هذا القصر ! أقسم بذقن الإمام علي لو كان عندنا يهود بهذه الدرجة من الثروة لكنت أول من يصعق على وجوههم وينهب من أموالهم ما تصل اليه إليه

وقال محمد بك محتداً : « لقد أهانتنا الترجمان إذ جاء بنا إلى هنا وسأحرق قبر أبيه » فسررت جداً من سنوح الفرصة للانتقام من الترجمان . وقلت : « لا بد من ذلك ! لا بد من ذلك ! »

ولما عدنا إلى دار السفارة جلسنا في حلقة وأخذنا نقرأ ورد : « أستغفر الله ! استغفر الله ! » حتى يتوب الله علينا من مقابلة اليهود

لما دخلنا هذا القصر قال لي محمد بك : « يجب أن نعامل هذا اليهودي بمثل ما نعامل به اليهود عندنا »

2017-11-11

فقلت : « انتظر حتى نسمع كلامه أولاً »

ولما استقرينا الجلوس كان أول ما قاله اليهودي: « هل أتيتم من فارس بجواهر وأحجار كريمة ؟ » فقلت باللغة الانكليزية : « لا. لم نأت بشيء من ذلك. أظنك تريد أن تسرقنا » فضحك ملء شدقيه واعتبر قولي مزاحاً .

ثم سألنا هل لدينا عملة أجنبية تريد استبدالها بعملة انكليزية ؟ فخشيت أن يصفعه محمد بك . وقلت لأمنعه عن ذلك : « إسمع يا أخي ! إننا لا نعاملك فأنت يهودي ونحن مسلمون »

وفي هذه اللحظة دخل رجل آخر لا يد وعليه أنه يهودي . وبدأ حديثه كعادة الانكليز بالكلام عن الجو . وسألنا عما إذا كان عندنا مثل هذه البيوت والحدائق ؟ فقلت: إن كان عندنا مثل هذه البيوت فانها لا تكون مملوكة لليهود كما هي الحال في انكلترا »

قال : « ربما كنتم تكرهون اليهود ؟ » فقلت : « نحن نكره النصارى ونكره الأتراك . ولكن اليهود أقبح من كل هؤلاء » فضحك الرجل: وقال « أنا لست يهودياً ولكني تاجر »

قلت : « تاجر ! هل التجارة إحدى الأديان في هذه البلاد ؟ فقال : « كلا ولكنها سكر وبن وفلفل وخردل »

قلت : لمحمد بك : « هذا بدال ! ما شاء الله ! إن المترجم يجمعنا بهذه الأوساط ويدعي أنه عرفنا بأصحاب المعارف » ثم سألته : هل أنت غني ؟ فقال إن الانكليز يضربون الأمثال بغنى اليهود فيقولون فلان أغنى من يهودي، ولكن بما أنكم تكرهون اليهود فإننا بدالون »

قلت له : « يجب أن تعد نفسك سعيداً لأنك مع يهوديتك موجود في انكلترا . لأنك لو كنت في فارس لجعل الشاه مالك ملكا للجميع . وقد كان الشاه عباس يلزم كل يهودي ببناء فندق أو مسجد أو تكية »

قال اليهودي : « نحن هنا ندفع الضرائب فهل تريد أن تقترح فرض ضريبة جديدة علينا ؟ »

وفي هذا الحين كان الغداء قد أعد وحضره خلق كثير، فأكلنا على كرمين طعام اليهود؛ والحق أن طعامهم شهي لا يجيده مثله أمهر الطهاة في تركيا . وكان السفير جالساً بين يهودي ويهودية . وكنت أنا ومحمد بك لا نملك نفسينا من الغضب لهذا السبب ونتساءلنا ماذا عسى أن يقوله الشاه لو علم أن سفيره أصيب بهذه اللوثة ونسي أنه سفير ونسي أنه مسلم من أجل أكلة في بيت رجل يهودي ؟

وقد نسي محمد بك تدينه فصار يتغافل السفير ويتناول القطعة بعد القطعة من لحم الخنزير حتى لم يبق على هذا الإمام المجتهد ليصير انكليزياً غير أن يمحق لحيته وشاربيه

ولما عدنا من الوليمة أعربنا للسفير وأعرب السفير لنا عن استيائه واستيائنا من تلك الوليمة. ولم تفتني الفرصة فأوغرت صدره على المترجم ، فوعد بأن يحرق أباه ، وأخذ يمدح القصر وحديقته وإتقان الطعام وحسن الضيافة ، كل ذلك مع الحرص على لعنة اليهود

الفصل السادس والأربعون

قميص بزور السفير

قضى محمد بك طول الليل في الاستغفار عن الأوزار التي لحقت به من مؤاكلته اليهود . وفي

2017-11-11

صباح اليوم التالى دخل الحمام ليتطهر من أكل لحم الخنزير . وضاعف عدد الصلوات المفروضة ، ولم أحد حذوه فى ذلك بل استوليت على سمع السفير فلم أزل أستثير غضبه على الترجم لتعريضنا باليهود . وهذا كرنا حوادث هذا الجنس فى بلادنا

وبينما نحن فى هذا الحديث إذ استأذن للزيارة قسيس انكليزى فى كل يد من يديه كتاب . أما أحدهما فهو الانجيل ، وأما الآخر فشىء يقال له كتاب الصلوات

قدمه الترجم الذى لم يزل يقدم لنا أقبح المخلوقات . وقد وجدنا ذلك القسيس أكثر أدباً ووقاراً ممن تعرفنا إليهم إلى الآن . وأحنى رأسه للسفير عدة مرات . وكان الترجم قد طلب إلى السفير أن يستقبله واقفاً فقبل . وبعد تحية قصيرة قدم القسيس الكتابين هدية لسفيرنا فقبلهما . ثم أخذ يتحدث عن الأخلاق بكلام طيب يظهر أنه عندهم مقدمة عادية للتحدث فى الدين ، وتكلم عن الله سبحانه كلاماً حسناً جداً ككلام المسلمين . وقد عامله السفير بمنتهى الاحترام والتأدب ، حتى همس محمد بك فى أذنى بأن السفير سيصبح مسيحياً وأنه لاشىء فى العالم أوضح من ذلك . لأن الترجم استحوذ على عقل السفير وليه . ولم يدع له شيئاً من حرية الاختيار حتى لقد بلغ من سلطانه عليه أن يجمعه باليهود وبالقسس وبالبدالين

وعلت الشر كسية من سعيد وعبوب بأن سيدها سيغير دينه ، فازعجت أيما ازعاج لأنها تعلمت فى أثناء المدة التى قضتها معنا تعاليم الدين الاسلامى . وثبت هذا الدين فى نفسها وصارت تقضى طوال أيامها فى الصلاة والتسبيح . وبلغ من شدة ازعاجها أنها خاطبت السفير فى هذا الشأن فجاءنا هائجاً فى اليوم التالى وقال لنا : « من منكم الذى يتهمنى أيها الأوغاد بأننى غيرت دينى ؟ هل أنت ياأحمد بك أيها الرجل المنافق ؟ أم أنت ياحاجى بابا أيها الرجل الفاسق ؟ أيكم الذى اتهمنى هذه التهمة ! تكلموا أيها الناس ! »

قال محمد بك : « اننى أقل الناس فى نظرك وفى نظر نفسى أيضاً . لكن ماذا أقول أيها السيد ؟ انك قبلت الكتاب المقدس عند السيحيين ، وجلست باحترام أمام القسيس كأنك أمام شيخ الاسلام ففهمت أنك غيرت دينك »

قال السفير : « أهذا جوابك ياطويل اللحية ؟ إن الشاه أرسلك معى لتقول لى ولمن يزورونى كلمات من التحية لا لزوم لها فى هذه البلاد ، ولم يرسلك لتراقب سلوكى . إن الانكليز لا يعرفون التشريفات الفارسية . وليس لوجودك ضرورة بيننا الآن . فإما أن تسلك معنا مسلكاً حسناً وإما أن تعود إلى فارس »

فقال محمد بك : « نعم أعود إن أردت أن أعود فانى مسلم ولا أطيق أن أراك وأنت مسلم تغير دينك دون أن أتكلم . اسأل عنى حاجى بابا فهو يعرف أننى أهمل كل شىء فى سبيل الاسلام »

قال السفير : « أسأل عنك حاجى بابا ؟ إننى أسأل حاجى بابا أولاً عن نفسه »

ثم التفت إلى وقال : « أخبرنى كيف أصبحت تنار فجأة على الاسلام ومن أين جاءتك هذه النيرة ؟ أمن الترك أم من الأكراد ؟ لقد عشت خاطئاً ثم تأتى الآن وتزعم أنك شيخ من شيوخ الاسلام ؟ »

فقلت : « يا سعادة السفير إن محمد بك صدق فيما يقول ، وإن أى مسلم ليزعج حين يرى مسلماً

2017-11-11

آخر يستقبل قسيساً بمثل الحفاوة التي استقبلته بها . فضلاً عن قبولك ضيافة اليهود . ولقد تناولت الإنجيل كما يتناول أحدنا القرآن »

قال محمد بك وقد تملكه الحماس الديني عند ما سمع جوابي : « الحق يقال يا سعادة السفير؛ فلا تغضب علينا إذا قلنا إنك نصراني »

فغضب السفير وقال : « أبهذه الوقاحة تخاطبني ؟ إنني ممثل الشاه؛ ولو كان الشاه حاضراً لقطع الآن رأسك جزاء هذه الوقاحة . إضربوه ! اضربه يا حجي بابا !

فلم يمد في وسعنا نحن أعضاء السفارة إلا أن نوسعه ضرباً . وبالرغم من أنني صديقه وشريكه في تهمته فقد كان من واجبي أن أنفذ أمر الرئيس وأشترك في الضرب . وقد كان في فم محمد بك سنان بارزان شكلهما كأنياب الخنزير ، وكانتا تسيلان له لثة دميمة ، فانتهزت هذه الفرصة ولم أزل أضربه عليهما حتى كسرتهما

وكان محمد بك يصرخ صرخات الغضب ويتوعد بالانتقام فيضطرنا بذلك إلى الزيادة . ثم أمر السفير بالكف عنه فتركناه . وعاتبني بعد ذلك فاعتذرت إليه بأني لم أكن أريد إلا إراحته من هاتين السنين ، وبأن النتيجة كانت حسنة على كل حال لانتهاء النزاع بينه وبين السفير . فقال محمد بك إنه يحمد الله على كسر سنيه لأن ذلك فسّر منامه الذي كان يتوجس منه على صورة مرضية . وذلك لأنه كان رأى في الحلم أن سنين له وقعتا . وظن أن تفسير المنام هو موت اثنين من أقاربه . أما وقد جاء تفسيره على كسر سنين حقيقيتين فإنه أصبح الآن مطمئناً على أقاربه

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهي : الحاج شلبي . الاطلال أو على عامل أرتست . الشيخ عفا الله الوثبة الأولى . قلب غانية . نشوء القصة وتطورها .

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

كتاب « فرعون الصغير وقصص أخرى »

يظهر في نهاية العام

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والايطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة الشعبية (محلى بأحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البذور المصرية بميدان ابراهيم باشا

2017-11-1

ثم تكلمنا عن السبب فيما تقدم فاتفق رأينا على أن المعيشة فى هذه البلاد أصل المصائب كلها . وعلى أنه لا يستطيع مسلم فى بلاد النصارى أن يتجنب مؤاكلة اليهود ومقابلة النفس

ثم صالحه السفير . ولما عدنا إلى الحديث عن بلادنا وحنيننا إلى العودة إليها قال السفير : « إن زوجتى أصبحت الآن عجوزاً لطول غيبتى عنها ، وإن شاء الله متى عدت إلى فارس استبدلت بها غيرها من صغيرات السن »

فقلت : « فى اعتقادى بإسعادة السفير أن معاشرة السيدات المتقدمات فى العمر خير من معاشرة الطائشات . ويظهر أن لكل عمر حالات خاصة وأن الإنسان لا يستريح إلى من لم تكن مقاربة له فى العمر . ويظهر لذلك أن الانكليز محقون فى آرائهم فى الزواج »

قال السفير : « ما هذه الفلسفة يا حاجى بابا ؟ إن العادات التى تصلح فى بلادنا لا تصلح فى بلادهم ؛ فهم قوم يخالفوننا فى كل شىء حتى فى مظهر الشمس »

فوافقته على ذلك وآمنت بأن زواج الكهل من الفتاة الصغيرة غير جائز هنا ولكنه جائز فى فارس

الفصل السابع والأربعون

او شحمام فى البركة

كنا جالسين مع السفير فى يوم من الأيام بدار السفارة فجاءنا المترجم ساخطاً متبرماً ينبئنا بحدوث مصاعب جديدة بين الانكليز وبين الفارسيين . ففزع السفير وقال للمترجم : « بحق علىّ عليه السلام إلا أخبرتنى بالذى حدث . هل وصل إليكم خبر من إران . هل مات الشاه ؟ »

فقال : « لم يحدث شىء فى فارس وإنما أحدث الفارسيون ضجة فى شوارع لوندرا »

قال السفير : « الحمد لله لقد كنت أظن نكبة حدثت من شر النكبات »

فقال المترجم : « نعم لقد حدث شىء وهو يتعلق بكم » فتململ السفير وألقى عليه ألف سؤال فى آن واحد

قال المترجم : « إن الذى حدث كاد يؤدى إلى أمور شديدة الخطر ولكنه الآن قد وقف عند حد ، وليس من المنتظر أن تترتب عليه نتيجة . أما الأمر فان بعض موظفى السفارة ذهبوا إلى حديقة عامة فى بيكاديلى ، وهذه الحديقة يؤمها خلق كثير للتنزه فى كل يوم ، وفى وسط هذه الحديقة بركة صناعية ، فما كان من أصحابنا الفارسيين إلا أن خلعوا ثيابهم ، ونزلوا للاستحمام فى هذه البركة . فازدحم الناس حولهم ، ورجمهم البعض بالأحجار . فغضب أحد الفارسيين الواقفين على الشاطىء ، واستل خنجره يريد أن يطعن به أحد الانكليز فأخذوا منه الخنجر ، وتوسط بعض العقلاء فانتهت المسألة بسلام ، ولكن الأمر ما كان يقف عند هذا الحد لو قتل موظفو السفارة أحد الانكليز

اغتاظ السفير عند ما سمع هذه القصة وسألنا عمن فعل ذلك ، فعرف أن اللذين نزلا فى الماء هما سعيد وتقى الدين الفراش . وقد اعترفا بذلك غير معتذرين لاعتقادهما أنهما لم يفعلا ما يلامان عليه

قال تقى الدين : « لقد كنا نسير وكان الجو جميلاً ولم نستحم منذ سافرنا من أزمير وللماء ماء الله فنزلنا للاستحمام فيه وليس من حق أحد أن يمنعنا عن ذلك . وإذا كان للانكليز عادات تخالف عاداتنا

فاعليهم إلا أن يعلموا هذه العادات ونحن نحترمها ، ولكنهم بدل أن يفعلوا ذلك رجموا بالأحجار ونحن عرايا .

وقال سعيد : « إذا كان الاستحمام ذنبا فى هذه البلاد فقد كان عليهم أن يقولوا لنا ذلك لا أن يفعلوا ما فعلوه »

فتقلبت روح الانصاف على السفير وقال متهكما : « ما شاء الله ! متى أصبحت فيلسوفاً ياسعيد ؟ انك الآن تتكلم مثل كلام لقمان ، ولكن من الذى استل خنجره ؟ »

قال سعيد : « هو فريدون حلاق السفارة »

وقال فريدون : « إننى لم أستل خنجرى ولكنى أردت الدفاع عن نفسى وعن إخوانى بالموسى »

قال السفير وقد غلبت عليه النخوة الفارسية : « مرحى لك ! مرحى لك ياحلاق ! لماذا لم يفعل الباقون مثلك ؟ إنك شجاع وإن كنت قد أغضبت الانكليز ! »

ثم التفت إلى المترجم وقال : « ها أنت ذا تسمع إجابتهم بأذنى وهى إجابات معقولة . وأنتم تتباهون بالعدل . والعدل لا يختلف فى بلد عنه فى بلد آخر . فاذا رأيت أن أقطع لك آذانهم فانك لا تعود إلى منزلك إلا وآذانهم فى جيبك . إن كنت تريد معاقبتهم فتكلم وإن كانت حكومتك تريد رقابهم فانى أقطعها قبل أن تقوم من مكانك »

فأخذ المترجم يتكلم عن العدل كلاماً فارغاً لم نفهم منه شيئاً ، وأخيراً قال إنه لا يريد معاقبة أحد ، وإنما يريد ألا يفعلوا شيئاً قبل أن يتبينوا هل هو موافق لعادات البلاد

فابتسم السفير وأعجبه هذا القول وقال ليلزم المترجم الحجة : « ولكنكم تباهون بالحرية فهل تستطيع أن تخبرنى كيف تفهمون تلك الحرية ؟ إن الرجلين من الفقراء ولا يستطيعان دفع الأجور التالية فى حاماتكم . ورأيا ماء من ماء الله فاذا يمنعهم من الاستحمام ؟ ألحق أن الحرية مكفولة فى الشرق وليس عندكم شىء من الحرية »

ويظهر أن الكلام أفنع المترجم فلم يرد عليه بحرف

ولما خرج المترجم رفع السفير يديه إلى السماء وقال « إن وجودى فى هذه البلاد سيقتلنى بلا شك . لقد كانت الساعة التى غادرت فيها بلادى ساعة مشئومة » ثم التفت إلى موظفى السفارة وقال : « إن وجودكم معى يزيد من تنغيص حياتى فإنه لو لم يكن من الفارسيين أحد غيرى فى بلاد الفرنجستان لما وجد الانكليز ما ينتقدوننا عليه . ولكن أحدكم يمشى فى الطرقات وكل همه أن يتزوج من بنات الناس والآخر يستحم فى الحدائق العامة . متى يمن الله علينا بالعودة إلى إيران ؟ إن بلادنا هى البلاد التى نستطيع الحياة فيها ، فهناك يطمئن الرجل على أهل بيته ، وهناك يتمتع بحرارة الشمس وبوجه الشاه »

فقلنا جميعاً : « نعم نعم يا سعادة السفير أطال الله بقاء الشاه وبقاءكم »

قال السفير : « لو أن هؤلاء الوزراء الانكليز — وأسأل الله أن يحرق قبور آبائهم — ردوا على خطابات الشاه ووزرائه فأعطونا المساعدات والاتفاقيات التى نطلبها لعدنا جميعاً فى الحال . وإذا كنت يا حاجى بابا تأخذ كل هؤلاء الأوغاد وتعود بهم إلى فارس فانى أسر بالبقاء هنا مع تابعين فقط »

لم أسترح لهذه الكلمات لأنى لا أريد أن أعود إلى فارس بعد موت رئيس الوزارة الذى كان يحمينى .

2017-11-11

ولكنني قلت في نفسي إذا أصر السفير على عودتي فإني أعود واثقاً من رضى الشاه فهو قد كلفني قبل مجيئي إلى هذه البلاد بأن أدرس اللغة الانكليزية لأترجم كتبها إلى الفارسية وها أنا ذا قد صرت أستاذاً فيها ومتى عدت إلى فارس ترجمت مؤلفاتها كتاباً كتاباً

الفصل الثامن والأربعون

الشركسية

رأى السفير بعد ذلك أن يسكن وحده ويتركني أسكن مع سائر أعضاء السفارة ؛ وكان الذي استثار حيرته هو أمر الشركسية فقد كان بعضنا رقيباً على البعض مدة وجودها معنا . وكان السفير مطمئناً من هذه الناحية . وقد كان من الواضح أنه لا يثق بأي واحد منا . ولكن ريبته في سميد ومحبوب كانت أقل من ريبته في سائر أعضاء السفارة . لكن الشركسية نفسها ما كانت تدعو إلى الريبة لأنها برهنت مدة وجودها معنا على أنها مسلمة، حريصة فلم تخرج قط من المنزل ولم تفتح قط نافذة الغرفة التي هي فيها ولم تترك فرصة ولا سنحة

حدث في يوم من الأيام أن جاء السفير مهتاجاً محتداً فسبَّ ولعن سميداً ومحبوباً لأنه سمع من أحد الانكليز أنه رأى الشركسية بالقرب من النافذة ورأى معها هذين الرقيبين

فناداها السفير ساعة دخل السفارة وقال : أين كنتما أيها الوغدان ؟

— « كنا نائمين »

— « وأين دلفريب ؟ »

— « نائمة أيضاً »

— « ألم تكونا معها بالنهار بالقرب من النافذة ؟ »

فارتبكا . وقال سميد : « لقد كانت مريضة وأغمي عليها فنقلناها إلى مقربة من النافذة لتستنشق الهواء .

قال السفير : « أقسم برأس الشاه أنكما كاذبان . إن جارنا الانكليزي أخبرني أنه رأى نافذة الدار مفتوحة على غير العادة . ورأها معكما . والانكليز في مثل هذا الشأن لا يكذبون

فنظر كل من الرقيبين إلى الآخر ولزما الصمت . ثم قال محبوب : « لقد كانت مريضة طول اليوم وكانت تبكي وتشكو الصداع ولم نفتح النافذة إلا عند ما أغمي عليها »

فصاح السفير : « ومن الذي أذن لك بفتح النافذة أيها المجنون ؟ »

قال سميد : « لا ضرر فيما فعلناه فإنما فتحنا النافذة لكي تشفى . فقال السفير : « لقد كان موتها أفضل من هذه الفضيحة »

ثم طردهما وظل طول اليوم مهتاجاً . وفي اليوم التالي عدنا إلى الكلام عن عودتنا إلى طهران . واستقر رأي السفير على أن يعيدنا ويبقى هو حتى يتم عقد المعاهدات والاتفاقيات . فربطنا أمتعتنا وهيأنا أمورنا ، وكان أهم شيء في نظرنا هو وفاء الديون التي علينا

ولما أعلن أننا سنعود هرع عشرات من الرجال

والنساء إلى دار السفارة فى يد كل منهم قطعة من الورق يقال لها قائمة . وطلبوا إلى السفير دفع المبالغ المرقومة على هذا الورق . فأزعج السفير وسب ولعن ولو كنا فى فارس لكان الأمر هيناً لأنه يسهل التخلص هناك من الدائنين بطردهم أو بعدم وضربهم على أرجلهم حتى يتوبوا عن المطالبة . أما هنا فمن الذى يستطيع أن يضرب بائع الدقيق وبائع الزيت وبائع التبغ ؟ إن أمثال هؤلاء يعدون فى بلادنا من حثالة الناس ولكنهم هنا من الوجهاء ، وربما أدى ضرب أحدهم إلى إعلان حرب أو نشوب ثورة ، وهم لا يقبلون المجادلة فى الأسعار التى يكتبونها كأن كلامهم منزل من عند الله فاستجرنا منهم بالترجم ، وقد وجدناه مثلهم ضيق العقل فيما يتعلق بأمر المساومة

ومن المصائب التى ابتلينا بها رجل كان السفير كلفه بتصوير صورة زيتية لا يتكلف زيتها والفرشاة التى اشتغل بها بضعة قروش ولكنه طلب أكثر من مائة جنيه ، ولست أدرى بماذا يستحل هذا المبلغ الكبير

لكن الانكليز متى تكلموا فى أمر الأجور تكلموا بغير عقل ، ولقد قال السفير للمصور لكى يقنعه: إن دهن حوائط منزل كبير بالزيت لا يتكلف من المال نصف ما يطلبه لصنع صورته الصغيرة الزيتية . فأبى المصور أن يقتنع أو أن يفهم

سندباد عصرى

فى سفينة مصرية

رددت أخبارها صحف العالمين

الوسائط فى شتى مظاهرها نظائرك من صفحات

سندباد عصرى

بقلم

حسين قوزى

١٢ قرشاً أطلبه اليوم من المكاتب ١٢ قرشاً

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

الفصل التاسع والاربعون

فريدون الهوى

كان فى جملة القوائم التى قدمت لنا قائمة عدونا تقديمها إلينا نكبة أحدثها سوء الطالع فكانت عقوبة على خروجنا من أزمير فى ساعة غير ميمونة

بينما الأمير يستقبل الدائنين ذوى القوائم إذ جاءنا رجل معه امرأة يظهر على وجهها الاجرام ورجل ثالث يرتدى ثوباً أسود اللون فى نهاية القذارة. وكان الرجل الأخير هو الذى يتكلم . وقد أطلق على نفسه اسم وكيل أعمال وقال على لسان الرجل الذى استدعاه: إن له بنتاً هى التى جاءت معهما ، وإن فريدون حلاق السفارة أغواها ووعدها بالزواج ثم تركها. وإزالة ذلك تطلب ألف جنيه تعويضاً لتخليه عنها.

وقد كان فريدون معتاداً مثل هذه الأمور فى فارس ولكننا ما كنا نتوقع أن تبدر منه بادرة من هذا القبيل فى بلاد القوائم التى لا تقبل المساومة

ولما علمنا هذه الحقيقة عنه عرفنا علة تفوقه علينا فى اللغة الانكليزية ونبوغه فى ضروب المجاملة بها

وكان أبو الفتاة تاجر صابون وهو من عملاء السفارة . وكانت معاملته معنا سبباً فى تعرف الحلاق عليه لأنه زعم أنه يريد أن يتعلم عليه صنع الصابون، فقبل الرجل تعليمه ودعاه إلى منزله مراراً من أجل هذا السبب . وكانت هذه الزيارات المنزلية سبباً فى توطيد الصداقة مع ابنته . وتعلم تاجر الصابون من حلاقنا صبغ الشعر على الطريقة الفارسية المتقنة كما تعلم منه أموراً أخرى مما يميد للشيخ قوة الشباب

وكانت نتيجة اتصاله به توثيق عرى الحب بإبنة التاجر

وقد أخذ صاحب الثوب الأسود القذر يتكلم مع السفير بطلاقة محاولاً التأثير عليه ليدفع التعويض عن الحلاق، محسباً من أمر سرعة الاغراء والتخلى عن الزواج . فقال السفير : « أقسم أن هذا المطالب أسمج من أى رجل رأيته فى هذه البلاد» ثم نادى الحلاق ولعن أباه وسأله عن وعده بالزواج فاعترف أنه تزوج من الفتاة زواج المتعة لمدة شهرين وفق الاتفاق بينهما وأنه لم يعدها بالزواج الدائم ولم يخدعها ، وقال إن زواج المتعة شائع فى فارس وإن الفتاة فهمت ما يريده قبل أن يباشرها مباشرة الأزواج وأقسم على ذلك أغلظ الايمان

وعند ذلك أخذ الأب وابنته ووكيل الأشغال يتكلمون فى وقت واحد وأصبحت الضجة عظيمة .

وكان من حسن حظنا أن أقبل المترجم فى هذه اللحظة فأشار بكبرياء إلى وكيل الأشغال بالانصراف. وكانت إشارته بكبرياء كما يفعل العظيم فى فارس عند ما يريد أن يطرد رجلاً حقيراً .

وقد سكت الثلاثة وبهتوا عند رؤية هذا المترجم . وظهر أنهم مهوشون فقط . ولما أمرهم المترجم بالذهاب أو يدعو البوليس ذهبوا صامتين صاغرين .

ووكيل الأشغال عند الانكليز يعادل المأذون عندنا . ولكن عمله ليس قاصراً على التدخل فى الزواج بل هو يتدخل فى كل شىء .

قال السفير : «ألا عدل فى هذه البلاد؟ أكل من عنده فتاة بائرة يستغنى عن سمتها فى استطاعته أن يطالب الناس بالتعويض ؟» فقال المترجم ان إخلاف

2017-11-11

المواعيد فى أمور الزواج من الأمور الخطيرة فى هذه البلاد فان قوانيننا تحمى المرأة »

قال السفير : « ليس فى بلادنا امرأة تبلغ بها الوقاحة أن تطالب رجلاً بالزواج منها على غير رغبته ومتى دخلت المرأة فى بيت الزوج أصبحت له وحده وتظل كذلك حتى يصير فى غنى عنها فيطلقها أو حتى يموت »

فلم يجبه المترجم

ولما تخلصنا من هؤلاء الأشرار جاء الخياط يطلب أجرة تفصيل الثياب . وجاء بائع الأحذية وبائع القمصان، وكل منهم بدون استثناء يحمل قطعة من الورق دوّن فيها حسابه . وقد تدخل السفير بيننا وبينهم وأفهمهم عوائدنا وخفف من حدتهم . وانتهى الأمر إلى أن تنازلوا على كره عن بعض مطالبهم ودفعنا لهم الباقى . وفى النهاية جاء رجل وجيه وطالبنا بمطلب غريب وقال لنا كلاماً أغرب . قال إن خيولنا كانت تأكل من الحشيش فى المراعى القريبة وإنه يريد ثمن الحشيش الذى أكلته من يوم مجيئنا إلى الآن. ونحن ما كنا نعلم أن للحشيش ثمناً فى غير هذه البلاد

سأله السفير هل هو مندوب عن الحكومة يطالب ضريبة عن الخيول أم ماذا ؟ وأفهمه أن السفراء معفون من الضرائب . ولكن يظهر أن الرجل مندوب عن هيئة أكبر من الحكومة فقد كان يقول إن « الأوصياء أمروا بهذا » والأوصياء أمروا بذلك » فصاح السفير: « أنا لا أعرف ملكا فى هذه البلاد غير جورج شاه ولم أسمع عن ملوك اسمهم « الأوصياء »

ولكن يظهر أن خوف هذا الرجل الوجيه كان خوفاً شديداً فقد قال لنا إنه سيدفع ثمن الحشيش من جيبه إذا نحن لم ندفعه . ولما استشرنا المترجم أشار بأن ندفع ماطالبه فدفعناه، وأفهمنا أن الأرض الخلاء ليست مجردة من المالك كما هى الحال فى فارس وأن الملاك لهم هم الذين يسميهم الأوصياء

الفصل الخمسون

مهبيّة حاجى بابا بتزوج

أعدت سفينة لتحملنا من لوندره إلى الآستانة وجهزنا ثيابنا وتهيأنا للرحيل ، وعزمت قبل الذهاب على أن أزود عينى بنظرة من حبيبتى بيسى ونتسامح على ما عسى أن يكون فى نفس كل منا من جهة الآخر .

وأهدى إلينا شاه الانكليز بمناسبة سفرنا هدايا ثمينة . واشتريت ثياباً جديدة فصرت جديراً بأن يكتب لقب ميرزا بعد اسمى بدل كتابته قبله فسرنى أن أزور بيت المستر هوج بهذه الثياب

فلما وصلت إلى المنزل وجدت عربات كثيرة واقفة أمام الباب . وهذا منظر لم أعهده فى بلاد الانكليز فسألت البواب عنه فقال إن اليوم يوم زواج الآنسة بيسى

عند ذلك أحسست بأن الدم يتصاعد إلى وجهى وخفق قلبى خفوقاً عالياً ، وكنت على وشك العودة فى الحال. ولكن امرأة أطلت من النافذة وصاحت: « هذا هو الأمير! » ثم رأيت من يخرج من الباب على عجل فيدعونى . فدخلت غرفة فيها جمع كبير فى

2017-11-11

أحسن الثياب والحلى ، ولكن الحزن مرتسم على وجوههم . وكانت بيسى جالسة بين أختيها وحولهن الفتيات . وكلهن فى ثياب بيضاء . ولكن عيني العروس كانتا تدمعان وكانت الكآبة متجلية عليها بأوضح الأشكال

وكان على رأس بيسى قطعة من الشريط يتدلى منها ما يسميه الانكليز نقاباً وما هو بنقاب لأنه لا يستر شيئاً من الوجه كما أن ثيابهم لا تستر شيئاً من أجزاء الجسم

وقد دهشت من مظاهر حزنها وكيف يتفق أن يكون الحزن من علامات الفرح . ثم أخبرتني الأم همساً بتاريخ هذه الزيجة وقالت إن بيسي تحسن الغناء وإنها ستكون سالحة وإنها ستكون غنية

قلت : « ولكن لماذا تبكى ؟ » فقالت : « إن ذلك من السخافات التى اعتادتها الفتيات إظهاراً لتأثرها من مفارقتنا لأنها بالطبع لا تستطيع أن تجمع بيننا وبين زوجها

قلت : « وأين هو هذا الزوج ؟ »

وكنت أتوقع بالطبع أن يكون هو ذلك الرجل ذا المهماز والشارب القصير الذى كان ينافسنى فى الحب ، فقالت لى الأم إن العادة جرت فى هذه البلاد أن يتقابل العروسان فى الكنيسة . ودعتنى إلى الذهاب لحضور حفلة العرس فى ذلك المعبد . فقبلت لأنى كنت مرغماً على الاقلاع عن كل أمل فى الزواج منها . ورأيت من واجب اللياقة أن أعرب لها عن أملى فى أن تعيش سعيدة وأن يقيها الله من عيون الحساد ويكثر من ثيابها وطعامها ويجعل ساعة زواجها ساعة ميمونة

ولما قلت ذلك وقفاً لعادات بلادنا وضعت فى يدها جنيهاً ذهبياً وقبلتها من بين عينها ، فازعج الموجودون وقالت الأم : « ما هذا يا سمو الأمير ؟ ألا ترى يا مستر هوج ؟ »

فأقبل المستر هوج وقال بلهجة بين الجد والسخرية: « أراك يا سمو الأمير عنيفاً فى مطاردة السيدات »

قلت بلهجة جدية : « لماذا ؟ هذه عوائد بلادنا ندفع المال ونُقبِّل . . . »

فجاءت مارى بالقطعة الذهبية من يد أختها وردتها إلىّ قائلة : « إن هذا عمل غير لائق فى هذه المناسبة »

فاحمرت أذناى وقلت بأعلى صوتى : « هذه عوائد بلادنا ، إن الذهب إشارة إلى السعادة . وفى بلادنا نعطى العروس ذهباً ونقبلها لتكون سعيدة محبوبة . وإن الشاه يفعل ذلك وهى عادة جميلة »

فلما فهموا ذلك أسفوا على إساءتهم فهم الحقيقة واعتذروا إلىّ وشكروني على حسن نيتى . واحتفظت بيسى بالجنيه وشكرتنى على أن تمنيت لها السعادة

وجاءت ساعة الذهاب إلى الكنيسة وهممنا بالذهاب وكنت أتوقع أن أرى العروس تقبل جندران منزلها وأرضه كما تفعل المرأة الفارسية . ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك . وسألت الأم عن ذلك فابتسمت ولم تجبنى لأن الوقت كان وقت استعجال وحركة . ثم وجدت نفسى فى عربة فخمة بين عربات كثيرة . ومشى بنا الموكب إلى الكنيسة . وقد بحثت فيها سدى عن منافسى ذى المهماز والشارب القصير . ولكننى لم أجده . وطلبت إلى الأم أن تقدمنى للزوج فنادت : « يا مستر فجي ! يا مستر فجي . تعال أعرفك بسمو الأمير »

2017-11-11

فجاء رجل غليظ الجسم هو البدال اليهودى الذى تقدينا فى منزله . وقالت زوجة المستر هوج اللئيمة : « هذا هو سمو الأمير (حاجى باربار) وهى توهم أنها تقول حاجى بابا . وإنما نطقت الإسم بهذا الشكل لأن كلة (بار بار) باللغة الانكليزية معناها الحلاق

وقد تظاهرت بأنى لم أفهم مرماها كما لو كنت سمعت اسمى على حقيقته . وقلت فى نفسى إن هؤلاء اللئام يرفضون أن يزوجوا بنتهم من مسلم شاب جميل مثلى ثم يزوجوها من ذلك البدال اليهودى الهرم القبيح الشكل لأجل ماله ! سحقاً لهم وللمال الذى يعبدونه ! إن الانكليز أقبح جنس فى الوجود فهم من أجل المال يتزوجون ومن أجله يحاربون . ومن أجله يعقدون الصلح . ومن أجله يشيدون الأساطيل . ثم أحسست بأن دمى يغلى فى عروقى . ونظرت إلى العروس نظرتى الأخيرة فأدركت علة حزنها وبكائها فإنها كانت تبكى على نفسها لحرمانها منى وعلى بيع أهلها إياها بالمال .

وجاء القسيس فعقد زواجها . ولكننى لم أصغ إليه لأنى كنت مشغول الخاطر . ولم أنتبه إلا عندما قدمت كأس من الخمر إلى بيسى فشربتها واضطربت ومالت فأسندتها أختها مارى . وازعج كل الموجودين . وثارت ثورة غضبى وحزنى على هذه الضحية فقلت فى نفسى : مالى ولهؤلاء الانكليز والبدالين واليهود وكلهم فى قرارة جهنم

ثم أملت عما متى على جانب واحد وفتلت طرفى شاربى ورفعتهما إلى الأعلى وخرجت من الكنيسة دون أن أصافح أحداً من هؤلاء الكفار

(يتبع) عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأسلوب الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية

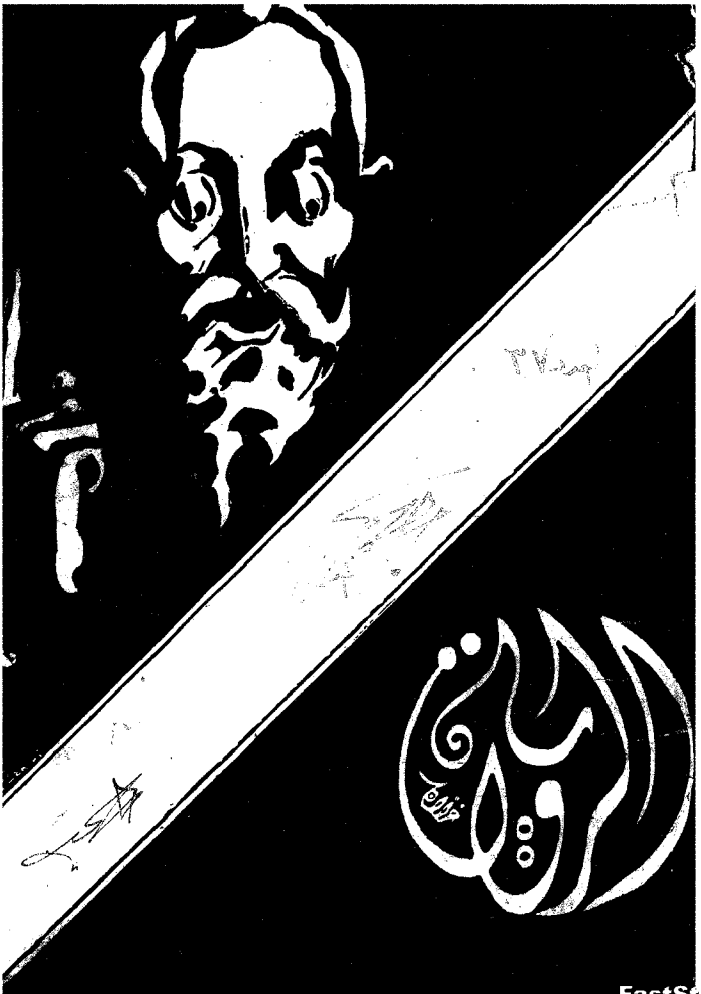
الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي فى النشء اساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل مئتان قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، والبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

2017-11-14


الرواية

الروايات

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٧ — ٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧ — أول أغسطس سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العدد

			صفحة
حرمة القبور	للكاتب اسبيدار جودورف ...	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة ...	٦٨٢
ثروة لم تخطر على بال	للكاتب الايطالى بوكانشو	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...	٦٩٢
الحب فوق الجبل	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ..	٦٩٤
شهادة الصلاحية للزواج ...	للكاتب الفرنسى بول بورجيه ...	بقلم الأديب عبد الله الريامى	٦٩٦
يد الهندى	للكاتب الأمريكى لورنس استودارد	بقلم السيد محمد العزاوى	٧٠٥
نكث الأمومة	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ	٧١٢
المجنونة	للكاتبة الفرنسية مارى بسنيرى ..	بقلم السيد صلاح الدين المنجد	٧٢١
الكأس وقطعة النقود ...	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب مصطفى صبحى	٧٢٤
خابى بابا فى انكلترا	تاليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...	٧٣٣

2017-11-1

حرمة القبور

بقلم اسبيدار جودورف
للأستاذ محمد لطفي جمعه

نظر القاضي إلى المتهم نظرة جد وأسى ، وقال له : أيها المتهم هل لديك ما تقوله مضافاً إلى الدفاع الذي فاه به محاميك فأنت بلا ريب آخر من يتكلم

فأجال المتهم نظـــره في الحاضرين ثم شد على نفسه كمن يعتزم أن يقوم بأعباء حمل ثقيل أو يحط عن كاهله عبئاً وقال :

نعم أيها القاضي ! سأتكلم ! لقد لفظتني الحياة من سلب فلاح خشن ، ورحم امرأة من بنى جلدته وأهل طبقته ، في قرية من أقصى قرى الريف البولوني ، منذ خمسة وخمسين عاماً . وكنت وأبي وأمي وإخوتي وهم أربعة وأخواتي وهن خمس نعيش جميعنا في قاعة صغيرة ضيقة لا نافذة لها ، سوى تلك التي فتحت في جدار مشترك بيننا وبين الأنعام ، وعلى هذه النافذة أو الجدار الذي كان قاعدة لها توضع في كل عشية « مسرجة » من التنك[1] لها شريط أسود مشبع بالبترول والهباب فتخرج من الدخان أكثر مما تبعث من ضوء . وكنا من الضيق والضنك بحيث كانت أمي تخشى على عفة أخواتي من إخوتي ، وكانت تتمتم داعماً قائلة : « إن اختلاط الجنسين خطر » ولذا صممت أن تكون هي ورجلها حجاباً حاجزاً بين البنات والصبيان من أسرتها البائسة

فسأله القاضي : ألم تكن تلك المرأة تخشى على عفة الصبيان من بعضهم بعضاً وكذلك البنات ؟

فأطرق المتهم وقال دون أن يرفع بصره إلى وجه القاضي :

— لم يكن الفساد قد وصل إلى هـذا الحد في القرى . ولا تنس أن هذا التاريخ يرجع إلى أربعين عاماً . فنظر إليه القاضي وقال : استمر ... !

— وكان أبي — تتمده الله برحمته — مدمن الشرب فكان يضيع كل ما يربحه وتربحه أمي وإخوتي في الحانة حتى اضطررت على حداثة سني — أن أعمل عند صانع أحذية في المدينة المجاورة ، وكان هذا الرجل — صانع الأحذية — قاسياً غاشماً فكان يعاقبني أحياناً بالطعن بمديته التي يقطع بها الجلد وطوراً بالجلد بسوط من عصب الثور المفتول . ولم يكن أحد يفكر في إنقاذي من مخالبه أو رفع شكواي إلى الشرطة لأن رجالها — رجال الشرطة —

تعريف بالقصة

اسبيـــدار جودورف كاتب روسي متى في لندن وهو ضد البولشفيك ، بل عدو لدود للسوفيت وهو من أكبر خصوم ستالين ولذا تراه يصور المشاعية (كوميونزم) تصويراً قاتماً ، ويمزج قصصه التي تنشرها مجلات أرجوسي وستراند وبلاكوود وماي رفيو بالعشق والاجرام والفلسفة . ومعظم التصاوير التي يلونها بألوان زاهية أو مظلمة منتزعة من الحياة . ولذا آثرنا نقل هذه القصة التي تنطوي على محاكمة متهم ذي شخصية نادرة المثال . يصرح حاله بما لم يأت به أعظم مدره في الدفاع عن مذنب برىء . ولما كانت تهمته تدور حول جريمة انتهاك حرمة القبر فقد جعلها المؤلف عنواناً لقصته

(١) معدن أبيض رقيق يستخرج من شواطىء بحيرات أمريكا ويعرف هنا باسم الصفيح

2017-11-11

كانوا يصلحون أحذيتهم ويحضنون نعالهم فى حانوته الملعون . غير أننى كنت أقبل العذاب والعقاب راضياً لو أننى تعلمت شيئاً من صنعة الاسكاف ، فقد كان اللعين يضن بها ، ولا يبوح بأسرارها إلا لوليديه اللذين طالما لطخا وجهى بمادة « الرساس » ليضحكا منى ويسليا والدهما على حسابى . أما أمى المسكينة — طيب الله ثراها — فكانت تلتمس رزقها فى الشوارع والطرق ، وتدخر ما تكسب لقوت أولادها وبناتها وللنفس عن أبى حين يسرق بعض النقود ليشترى بها أكواباً من الكحول الذى أحرق كبده وقضى على حياته. كانت المسكينة تطهى الطعام فى بيوت المتوسطين ، وتغسل الثياب وتمسح الخشب وتنظف الجدران وتبيع الخبز القديم « المرجوع » وتذبح الدجاج والأوز لليهود ولا ترفض عملا تجد فيه كسبا إلا ما كان يمس العرض والشرف . وفى إحدى الليالى جاء والدى نصف مخمور ، فأيقظنا جميعاً ، وبدلا من أن يقسم بيننا فطيراً أو كسكاً قال لها بمسمع منا جميعاً :

جيلة جداً شريمة القوقاز ، وعادات جورجيا الصغيرة التى يعيش فيها المسلمون والنصارى على قدم المساواة . إن الأسرة الكبيرة كأسرتنا يمكنها أن تبيع بعض أولادها وبناتها بمبالغ حسنة ، تتخلص من متاعبهم وتفتح لهم أبواب الرزق فى قصور الأغنياء . زعما كانت إحدى بناتك يا امرأة تكون سلطانة أو أميرة شرقية لو أنك تمكنت من بيعها ! وكذلك أحد أولادك ...

فزأرت أمى فى وجهه كأنثى الأسد ، وقالت له : أصمت أيها الخبيث اللعين ، الطامع الكبير ، حتى أولادى تفكر فى بيعهم لتشترى لنفسك بثمنهم خمراً . خسئت أيها الوغد المخمور . إننى أقتلك قبل أن تفكر فى هذا . فضحك والدى — رحمه الله — لأننى لا يحق لى أن أسبه أو أنسى الانتساب إليه ، إذا لم أكن ولده ، فابن من أكون ؟ أفضل أن أكون ابن أكبر سكير فى العالم على أن أكون مجهول الأب ، ولئن أعدت شتائم أبي فى حقه ، فلها أن تشتمه ما شاءت لأنها زوجته . أما أنا فالله يغفرلى ولا يسمح لى باقتراف هذا الجرم .

وكنت عندذلك فى الرابعة عشرة من عمرى وقد تعلمت مبادئ القراءة والكتابة عند قسيس القرية الاب جرنجو ارسينكفيز ، فذهبت إليه من الغداة وشكوت له كل شئ ، وقلت له إن والدى يفكر فى بيعنا صفقة واحدة كالمواشى ! فتوسط فى توظيفى عند يهودي يخرج ماله بالفوائد ويعمل بالربا فلم أطق سماع تنهدات البؤساء والبائسات من عملائه وتركته لأدخل فى بنك لبيع الأراضى بالتقسيط وبناء المنازل الصغيرة للمستخدمين ، وقد أتقنت الكتابة والحساب فى ذلك المصرف وتعرفت بكثيرين من رجال المال والأعمال ، فنقلتنى إدارة المصرف إلى مدينة ڤيلنا بترقية . وبعد عام ونصف عام كنت أثناءها أبعث بمعظم راتبى إلى أسرتى ، أفلس البنك فجأة وانقطعت مصادرى وموادى وعجزت عن دفع أجرة غرفتى وظنت صاحبة الدار بى الظنون ، فأغلقت باب الغرفة من الخارج وجعلتنى حبيسة بها ، فلم أذق طعاما ولا شرابا ولم أقض حاجتى . ولما كان سقف الغرفة مصنوعاً من الآجر المرصوف رصفاً بغير بناء فقد تمكنت من الفرار من أعلى الدار بأن خرقت رأسها ! . . . أما الأيام والليالى التى قضيتها بدون طعام ، فلا يمكننى أن أحصر

2017-11-11

عندها . وبعد فترة من الزمن اشتغلت بالتمثيل فنجحت نجاحاً لم يكن فى حسبانى ، فقدزادنى طول قامتى وحسن هيئتى وارتفاع جبهتى واعتدال أنفى قبولاً عند الرجال والنساء . وكنت أتفنن — يالتهكم الأقدار — تمثيل أدوار الملوك والأمراء والزعماء والخطباء والمشوقين. وما زلت أدأب وأنشط وأعمل بثبات وأتى الوقوع فى شراك النساء ، حتى جمعت ثروة لا بأس بها ، فابديت عذراً إلى مدير الفرقة وعدت إلى وطنى ومسقط رأسى لانقاذ والدتى وإخوتى ولأترك لهم ما جمعت من مال ، ولم أكن أدرى أن يد الزمان لاتنفك تعمل بالتدمير والتخريب فى بيوت الفقراء والمساكين ..

فقد قضى أبى نحبه فى السجن إثر مشاجرة فى حانة ، وسقط جدار قديم على رأس أمى وهى تغسل فى بيت ، وسقط بعض اخوانى فى مهاوى العار ، وتشرد إخوتى فلم أعثر منهم إلا على ولد أبله تركته فى الرابعة من عمره ووجدته فى العاشرة يقسول فى الطرق ، فأنقذته وهو فى آخر رمق وحملته إلى المستشفى ولكنه مات بين يدى . وقدتزوجت إحدى أخواتى بشرطى ، ولكنه كان يضربها كل يوم بالجلد الذى يتمنطق به أو بحمائل سيفه إلى أن أورثها الجنون ، فحملها إلى ملجأ المتوهات

أما البيت الذى كانت تؤوينا إحدى غرفه فقد تهدم — حتى ذكرى بؤسنا لم تبق فى مكانها . فكانت عودتى أليمة بقدر ما رجوت من هناء وفوز على المقادير ، فأدركت أن المنكود منكود وإن توهم السعد !

عندئذ ضاقت الدنيا فى وجهى ، فأردت أولاً أن أحصل على إذن من الحياة ، [1] وأن أبدأ ذلك بتوديع الموتى . فلم أهتد إلى قبور والدى ، طبعاً . هذا مفهوم ، لأن أبى كان مدفوناً فى قبر مجهول فى جبانة المشنوقين فى شرق مدينة دومسكوي . وكانت أمى ملحودة فى مدافن الفقراء المنبوذين بجوار جبل جراز الشاهق الذى يقف حداً بين قوتينا وبين مدينة ليتوانيا . فأنى لى أن أهتدى إلى قبرين خاملين من الفقراء بين عشرات الألوف من قبور الخاملين ؟

فقصدت إلى المدافن وودعتها جميعاً بخطبة وجيزة وكذلك إلى المستشفيات وإلى أماكن الدعارة والسجن ظناً منى أن واحدة من أخواتى أو واحداً من إخوتى لا يزال حياً يرزق ويتألم فى بعض تلك النواحى من جهنم الدنيا وجحيم هذه الحياة . تصور أننى لم أودع أحداً فى بيت أو مدرسة أو أسرة أو مخبز أو طاحونة .. أو حتى مقهى أو فندق ولكن ودعت أرواح أهلى وأشباحهم فى المقابر والمداعر والمستشفيات والسجون .. كان آخر يوم تركت فيه المدينة يوم أحد فقصدت إلى الكنيسة وصليت ، وبعد الصلاة دنوت من كرسى الاعتراف لأعترف ، لأننى ما زلت مسيحياً أرثوذكسياً على المذهب السنى القويم والخطة الكنسية الأغريقية المثلى . ولكننى بدلاً من الاعتراف فاجأت القسيس المتناوم بهذا السؤال :

— قل يا أبتاه لماذا يكافأ الأشرار فى هذه الدنيا بخيراتها على شرهم ويجازى الأخيار فى هذه الدنيا بشرورها وسيآتها على خيرهم ؟ قل وأوجز ، فانى أوشك أن أخرج من هذا الدين إن لم أجد

(١) لعله أراد أن يغير خطته فيودع موتاه قبل ذلك .

2017-11-1

جواباً شافيا قبل غروب شمس هذا النهار .

فرفع القسيس الابق عقيرته وأجاب :

— لا تتعجل يولدى ولا تيأس ، لن أطيل عليك الكلام ولن أعذبك بالثرثرة التى لا طائل وراءها . إن الذى ذكرته مشاهد ومعروف . وهو حقيقة لا خيال ، وأمر واقع لا وهم ولا ضلال . والجواب عليه أنه أمر مجهول السبب ، لا تفسيره عندنا فى الكتب . ولم يهتد أحد من آباء الكنيسة إلى تعليله تعليلا حسنا يحسن السكوت عليه .

فقلت له: شكراً لك ياسيدى ! أستودعك الله لقد كنت صريحاً معى وهذا يكفينى . وحينئذ أيقنت أنه لا توجد عدالة فى العالم مادام الأخيار فى بلاء والأشرار فى هناء والدين عاجز عن تفسير الحالمين.

سافرت من المدينة التى قريتى من ضواحيها إلى مدينة أخرى فأنفقت معظم ما ادخرت فى المرح والشراب والطعام ومنازلة بنات الهوى .

وكنت أحياناً أغشى أما كن الدعارة وأختار فتاة فأطعمها وأسقيها وأحسن إليها بصدقة متوهماً أنها إحدى أخواتى الصغيرات . وقد نسيت مرة أن أسأل امرأة عن اسمها فلما قضيت منها حاجتى (واخجلتاه) سألتها عن اسمها قالت : ايزيدورا، وكان هذا اسم صغرى شقيقاتى فكدت أجن وشرعت فى قتلها . ولكننى قلت لها ما اسم أبيك وأمك وما هى المدينة التى نشأت بها فأجابتنى بسرعة مدهشة إنها تشيكوسلافية من مدينة كراكوف مقاطعة بيلوم، وأيدت قولها بأدلة واضحة. وهى وشم على خصرها وخفيها . فأفقت من الجنون الذى أصابنى لحظة وخرجت من بيت المرأة لا ألوى على أحد ولا شئ .

وأصابنى الكسل فى روحى وعقلى فأمسيت خاملاً يائسا . ولم أجد ما أقتات به فى مدينة بريسكابيولونيا الغربية فلم أستطع التسول لحسن هيئتى وقوة بنيتى فبعت ثيابى وارتديت ثياب متشرد من أبناء السبيل وكانت غاية فى الرثاثة . ودخلت على صاحب مصنع فى مكتبه ، وشكوت له سوء حالى وفقرى وبطالتى وعطلى ، وأضفت إلى ذلك أن والدى كان يعرف والده فرق لى وعرض على العمل فى مصنعه وعهدت أن أقبل ما عرض ولكننى خفت من نظام الحياة التى بدأت أنور عليها وخشيت أن أعمل فتتجسن حالى فأرضى عن الدنيا ومن فيها فأعدل عن سورة الغضب التى غمرتنى . فقلت له إننى قد وفقت إلى عمل سأبدؤه بعد يومين، وسألته أن يقرضنى قرضا حسناً لأسلح من شأنى ريثما أختم أسبوع العمل الأول فأقبض مرتبى وأرد إليه دينه مشكوراً . فصدقنى ودفع لى خمسين كورونا وودعنى وهمس فى أذنى أنه سيمنع فى غرفة البواب بدلة ثياب كاملة وحذاء وقبعة أستطيع تسلمها فى المساء فشكرته . وعدت إلى باب المصنع وتقمصت ووضعت ثيابى الممزقة فى مكان أمين، لحاجتى إليها ، وقصدت إلى أقرب حانة فأفرغت جيبى وملأت رأسى واحتلت على المال والطعام والخمر والنساء ، أى أننى احتلت للحصول عليها جميعاً ونجحت . لقد بدأت أنتقم من هذا المجتمع المجرم الذى أصابنى منه النقص وتالى منه البلاء العظيم .

لقد فتك المجتمع بأهلى ، وعصف بأسرتى ، وتسلى على عقل أبى وقلب أمى كما يلهو الطفل بعنار القطط والعصافير فيخنقها وتلفظ أنفاسها وهو يضحك .

لقد كان أبى وأمى وإخوتى يموتون جوعاً وفقراً

2017-11-11

ومرضاً والمراقص حافلة والمآدب قائمة والملاهي سائرة في طريقها والمغاني آهلة بالنوائي والفتيان من كل لون ونوع . لقد احتلت واختلست وسرقت ، لا لأجل السرقة ، ولكن لأجل الانتقام ... على الأقل لعرض الصغيرات التي تخيلت أنهن مولودات للشرف والعفة ولو في ظلال الفقر والفاقة . وعند ذلك وقف وكيل النيابة العامة وقال :

— هل يرى القاضي العادل أن هذا الكلام يعد دفاعاً عن المتهم . إنني أطلب إسكاته . أرى أنه يهيج نفسية الجماهير من أعماقها ويوغر صدورها على المجتمع المحترم الموقر ...

الجمهور — يغمغم ويهمهم « الحرية ! حرية الدفاع ، لقد أعطاه القاضي حق الكلام فلا يحق لأحد أن يحرمه ! »

المحامي عن المتهم — إن سحب الكلام من المتهم بعد السماح له يبطل الاجراءات ويحتم إعادة المحاكمة ، فهل حضرة النائب على استعداد لسماع ثلاثين شاهداً للاثبات والنفي ومرافعة تطول ثلاثة أيام ؟ ثم لن يكون مناص من أن يؤذن للمتهم في الكلام من جديد لأنه بنص القانون آخر من يتكلم

القاضي — للنظام، استمر أيها المتهم في دفاعك

المتهم — (يطلب كوبة ماء فيؤتى بها ويشربها دفعة واحدة)

وفي مدينة رومة اتصلت بجمعية سرية اسمها الكاربوناري أو الماتيا لا أذكر الآن. وكانت خطتنا القتل باسم الفضيلة ولكن لا فضيلة هناك ولا شبهها بل القتل لأجل القتل . ولكن بعض الذين من أعضاء المافيا أسلموني إلى جمعية « الطراطير السوداء والبراقع المخضبة » وكان مبدأ هؤلاء يدعو للقتل العنيف ، وقد قالوا لي إنهم قتلوا بطريقتهم العنيفة أكثر من مليون إنسان . كنا نعيش معظم الأيام عيشة الفضلاء الأخيار ، نخادع الناس حتى نستدرجهم ، وكنا نرغم على الزواج وتأسيس العائلات فنتزوجت اضطراراً لأمرهم ، ولكنني توعدت امرأتي بالذبح إذا هي حملت . ثم لجأت للعزل والانتفاع بالعقاقير والاصباغ ، حتى إذا حل موسم الجفاف ادعيت أنا ورفاق أننا مسافرون في تجارة تسبقها رحلة بحرية وسفرة برية واجتمعنا عشرات من أشد الرجال بأساً وألفنا عصابات تجتمع سراً وترسم الخطط الدامية . وكنا نرابط في الطرق حيناً وحيناً في محطات السكك الحديدية وطوراً في الفنادق والمطاعم والمراقص وأندية الليل فاذا وقعت لنا فريسة من الأغنياء سطونا عليها وجردناها وفتكنا بها وهتكنا من الأعراض ما هتكنا ونهبنا من المال ما نهبنا ، ثم ذبحنا من استطعنا أن نذبح من الرجال والنساء والأطفال والجند والتجار والممثلات والمرضى والأطباء ، وكنا نسرق وننتصب فرادى وأزواجاً ، ولكن لا نقتل إلا أفواجاً لأنه أنفى للريبة وأبعد عن الشبهات

النائب — هل يتكرم المتهم بأن يوضح الأسماء والأماكن والتواريخ مساعدة للعدالة وخدمة للفن وإكمالاً للحديث الذي يرويه إذا شاء

المتهم — لا أحب المقاطعة . ولكنني أجيب بأن شرفي لم ينزل إلى درك التجسس على زملائي

الأقدمين ، كما انحط شرف بعض الموظفين

(ضحك وتنهد وشهيق من الجمهور)

وكنا نقتل بالشنق بخيط من حرير أو قطعة رقيقة من القماش المفتول ، وكثيراً ما كنا نضحك ونلهو ونرقص ونحن نزهق أرواحهم ثم نواريهم التراب فى قبر مشترك كقبور الجنود بعد المواقع الكبرى ، هكذا قانون جميتنا المحترمة بعد تقاليد الحرب العظمى

القاضى — إنى أقترح على المتهم أن يغير التشبيه إذا شاء ولا أرغمه على شىء فهو حر فى طريقته

المحامى — وأنا أنضم إلى المحكمة فى هذه الرغبة ولذا أرجو شطب الكلام بعد لفظ « مشترك » من محضر الجلسة

المتهم — موافق . كنا لا نعاقب مطلقاً لأننا نبذل كل الجهد فى إخفاء معالم الجرائم ، ولم يكن أحد من الشرطة أو المحققين أو رجال البحوث الجنائية يستطيع أن يلقى القبض علينا ، لأننا كنا مواطنين ممتازين بالشهرة الطيبة والفضيلة ، فاذا حدث أن اعتقل أحدنا خطأ أو نتيجة لمهارة أحد رجال القانون ، فان الجمعية تتآزر تواً فى تخليصه ببذل النفس والنفيس من مال وهدايا ، على أننا لم نكن نقتل لأجل القتل ، ولكن كنا نقتل لأننا نقابل المثل بالمثل ونقتص من المجتمع الذى قضى علينا وعلى أهلينا وأحبابنا . فانه لم يكن يقبل بين ظهرانينا إلا موتور أو مظلوم أو ثاكل أو مخدوع من الرجال أو النساء ممن فقدوا ثقتهم فى العدل والرحمة والوعود العذبة والأمانى المعسولة . لقد هدمنا المجتمع ونحن على حسن النية ؛ فبنينا أنفسنا على سوء النية ثم شرعنا نهدمه . لقد كنا أحياراً لخاربنا فصرنا اشراراً لنثأر لأنفسنا ، لقد تنمرنا حقناً للدماء الباقية

غير أنى فى نهاية الأمر ضجرت من قتل الأفراد واقتنعت أن الأولى والأفضل والأسرع والأخلق والأليق والأبلق أن يكون القتل عاماً فانفلت من روما بعد أن أتقنت الخطابة والكتابة بمنح لغات كالروسية والفرنسية والايطالية . وقصدت إلى بطرسبرج فى عهد القيصر نيقولا الثانى . وكنت أجيد التكلم بكل اللهجات . وقد قيل لى إن تعاليم الفوضى لا تتفق مع العقل وإنما تمشى مع الجنون، ولا تستمين ببرودة الكهولة وإنما تريد حرارة الشباب؛ وإن أشد مخاوفها الاحجام وأشد معضلاتها التروى . فهى لذلك تخشى العقلاء ولا تطمئن للرزانة ولا تسكن للمجادلة ، يجب أن يكون خدامها عمياً حتى لا يبصروا وعجانين حتى لا يحجموا ولا يفرقوا، فهى لذلك لا تقع إلا على نافر كره الانسانية فأراد أن يطعنها فى قلبها ورأسها ، أو مغلوك يطلب الفنى بعد الفقر . وكنت من الفريق الأول . فلما عشت ردحاً من الزمن فى عاصمة روسيا القديمة اتخذت خليلة من صفوف الثوار اسمها ناديا وكانت امرأة نصفاً تبلغ الثلاثين من عمرها، وكانت كيفاتها جنسها تتقن سبع لغات على الأقل فأخذت تذكر لى أسماء رجال لم أسمع بهم من قبل وكانت كهمى فى الخلاعة والنصابى فلهوت بها وأهلت تعاليمها . وكنا نعيش على مائة روبل ندفعها لنا الجمعية السرية « بلافدسكاي

2017-11-11

نبراسكا » مشاهرة . وأخيراً ألحقتني بإتباع زينون وكنت أظنه زعيماً روسيا خطيراً فاذا به فيلسوف يوناني . وكانت ترغمني على أن أستظهر بعض النبذ التي تدعى أن حياة الثائر في روسيا بدونها مستحيلة من ذلك قولها « ليست القوانين نتاج الحكمة من أجـــدادنا ، وإنما هي وليدة عواطفهم وجبنهم وعصبياتهم واطماعهم ، وإن العلاج الذي نستمده من القوانين هو شرٌ من الداء الذي تدعى هـذه القوانين شفاءنا منه ، فاذا أبطلت هـذه القوانين وأقفلت هذه المحـاكم وترك الفصل في النزاعات للمراجيح من الناس ، نشأ عن ذلك العدل الحقيق » أو كقولها « الامتلاك هو السرقة بعينها » . أو هذه النبذة المقدة الملتوية « إذا رجحت عقول الناس وتهذبت نفوسهم حتى يستطيعوا أن يتبعوا غرائزهم الطبيعية فلا تعود بهم حاجة إلى المحاكم ولا إلى الشرط والمعابد والأديان ، ولا إلى استعمال السكة والنقود وإنما يستعيضون عن الأخيرة بتبادل المعارف والأعطية »

ولـكن هذه المذاهب لم تكن تروقني لأني لم أفهمها بعقل وإنما حسبوت إليها بقلبي وروحي مستقداً أنها تعينني على الانتقام لأهلي . كان نزع أموال هؤلاء الأغنياء جميعاً وإغراقهم في بحر من الدماء لا يكفيني فداء لأمي وأبي وإخوتي ، ولا سبا أخواتي البائسات . لقد كانت عاطفة العائلة قوية غاية القوة في نفسي ، ولهذا أردت أن أتروّح من هذه الثائرة نادباً لتنـدمج مي أكثر من اندماج الحليلة الايطالية . وفي اليوم الذي سممت فيه على عقد زواجها اكتشفت خيانتها ! فقد كانت تخلو إلى طالب يهودي اسمه عمانوائيل كونسكي يقطن في نفس المنزل الذي كنا نعيش فيه . فلما ظهرت على أمرها كتمته وعدلت عن الزواج بها . وذكرت لها بعد بضعة أيام أني مسافر إلى الجنوب إلى ناحية أوديسا ، فغادرت الأمر كازميرسكي رئيس الشعبة التاسعة التي أنتمي إليها فقالت لي « على بركة الله أيها الرفيق ! » كأنها كانت تنتظر فراق بفارغ الصبر ، وهي تعلم أن السفر بين بطرسبرج وأوديسا لا يتم إلا في ثلاثة أيام وليلتين ، فقلت لها : ألا تمدين لي حقيبة ثياب أو طعاما في خرج كالأخراج التي يحملها الموجيك ؟ فقالت لي وهي متعجلة وقد زاغ بصرها « يمكنك أن تدبر أمورك بعشرين كوبيك أيها العملاق الثقيل » ووضعت في جيبي قطعة صغيرة من النقود الفضية فقلت لها وأنا أقبلها نفاقاً وودت لو أمزق وجهها بأنيابي : « لا زاد ولا غطاء ! أترين اني أموت برداً وجوعاً في خدمة الانسانية ؟ » فقالت « إن الشعبة التاسعة تعد لك أسباب الراحة ! هيا أسرع فقد حان موعـد القطار ! » أيتها الداعرة المحرومة من الرجال قبل أن تمرغني ؛ لقد التقطتك من الطريق وغذيتك من لحمي ودمي وعرق جبيني وخاطرت بالحياة لأجلك . أهـكذا تنبيعيني بيع السماح لأجل شهوتك الصاخبة . ألست رجلا ؟ أم دأبك التغيير والتبديل كخارة الوحش التي لا تقنع بقطيع كامل العدد والعدد من الذكور المهتاجة ؟ . هذا كلام العقل الباطن تبادلته ونفسي ، وقد تخيلت كل شيء يحدث في غيبتي . ثم نطق العقل الواعي قائلا:

حسن ما تقولين ياحبيبتى ناديا . أستودعك الله ! وسارعت بالخروج وطرت على جناح السرعة إلى حى آخر من أحياء العاصمة وقضيت ليلتى فى أحضان امرأة مذنبة . وقبل أن أضطجع إلى جنبها فى الفراش الغريب الذي لم يألفه بدنى سليت صلاة قوية وصلت المرأة المذنبة إلى جانبي راكعة على ركبتيها ، فسألتها : إن وجدت زوجاً كريماً يقوم بأودك ويكفيك مؤونة الدعارة أفتسكنين إليه ؟ فأجهشت بالبكاء وقالت : أسكت أيها الرفيق ولا تذكر هذه النعمة المقدسة فى هذا المكان الملعون . إنى كلما أذكر الطهر والعفاف والقناعة أكاد أجن شوقاً إليها .

قلت « بإن وجدته وأحسن إليك وبنى بك تخونينه مع أول قادم؟ فوضعت يدها على فمى، فقلت : وإن فعلت فما تستحقين ؟ قالت : أن يقتلنى وأن أذهب بلا دية ، وأن يباح دمى . فقهقهت حتى أمسكت بجنبى ، وكادت المرأة تظننى مجنوناً . لقد حاكمتها أى النائبة على طريقة قومها وبلدها ومذهبها بعد أن صدر الحكم على لسان امرأة من قومها ومن طبقتها ، ولم أطق صبراً ، فأفرغت جيبى فى حجر البائسة المذنبة ، أعنى أعطيتها كل ما كنت أملك ، وقصدت إلى كاتم أسرار الشبعة وزرته فى غسق الليل ، وقلت له: إن الرئيس يطلب مسدساً وذخيرة فقال : أى رئيس ؟ قلت : الرئيس ٩ + ١٤

وكان هذا رمزه الأخفى ، فأعطانى ما أطلب وقصدت إلى بيتى بعد نصف الليل بساعة وصعدت الدرج فى الظلام الحالك ، ولم يكن الدفورنيك[1] ليوقفنى . ووضعت أذنى على خرق الباب فسمعت أصواتاً وحركات وتأوهات وهمساً ، فنظرت فرأيت فى ضوء المصباح الكهربائى ما أقضى بأن المرأة فى أحضان اليهودى ولمحت لحسن الحظ نافذة مفتوحة فعلمت أن الوصول إليها سهل من السطح فصعدت إليه وصبرت عليهما حتى أخذا نصيبهما من المتعة والنوم وهبطت عليهما كالقضاء من النافذة وذبحت العاشق اليهودى من الوريد إلى الوريد كما تذبح الشاة ، ثم أيقظت ناديا ووضعت فوهة المسدس فى فمها . فلما رأت دماء معشوقها الطالب العبرى قالت لى : أنت الذى قتلته؟ قلت نعم . قالت حسناً فعلت . إننى استدرجته لذلك ، فأنا أمقته وأحب أن تفعل به ما فعلت من زمن ولكنى لم أتمكن من اقناعك .. اخلع الآن ملابسك ونم فى حضنى حتى الصباح . قلت : وماذا نفعل بجثته ؟ قالت : أترك الأمر لتدبيرى ، ولكنها لم تنته من حبك تلك الحيلة حتى أفرغت المسدس فى حلقها وغادرت الدار كما دخلتها . وفررت إلى سارانوف على نهر الفولجا واندسست بين الملاحين وعاشرت الموجيك فى المولد الكبير فى تيجنى نوفجوروود[2] وتعلمت أغانيهم وأنشدت مواليهم وقصائدهم وأدوارهم ، وأتقنت أصواتهم ، وغيرت اسمى وعقيدتى طبعاً وجعلت نفسى من قازان . وذقت أنواع الجوع والخوف والفقر ، وكانت أشباح الأحباب والأعداء والقتلى تظهر لى فى نومى وصحوى . وتعلقت بكتاب « بيت الموتى » لجدائة عهده بالنشر ودخلت الكنيسة وتعلقت بالنساء أيام الأحد وأنا كافر بملة المسيس

(١) بواب الدار وبابها وجاسوسها

(١) بالروسية المدينة الجديدة مشهورة بالموالد والأسواق .
(٢)

فلجل سوني كأحسن ما يكون منشد يترنم بمزامير داود ، ولكن القسيس فاجأني وأنا أسرق من صندوق التذور فطردوني فخرجت إلى المدينة وأخذت أغني في الشوارع فسمعتني أوجلستا نوفا [1] الممثلة المغنية فشفقت سوني وأحبت جسمي فوهبتني بدنها وعلمتني فنها واشترتني من نفسي ، فصرت معشوقها وسيدها فأظهرتني على مسرح أوليانوف بيطرسبرج ، وقد رآني رئيس الشرطة في دور حلاق اشبيلية «فاشليه» في لأنهم كانوا يبحثون عن ذابح ناديا وحبيبها ، فصفعته أوجلستا نوفا ، وقالت له أنت مجنون ، بارتزيف ! هذا أخي في الرضاع ، إنه لم يغادر قصر أبي في تسار كوي تسيلو ، فكيف تتهمه بالتشرد والقتل؟ فقلت لها: عفواً يا أختاه! لا تتصل بك الحاسة في الدفاع عني إلى هذه الدرجة ، إني قاتل هذه المرأة ومعشوقها حقاً. فحدق في الشرطي ، وفتح فمه لينطق فقلت مقهقها : ولكن في المنام !! ...

وبدون عشق أوجلها لم تبتسم لي الدنيا فوصلت إلى مسارح نيويورك وباريس ولندن وميلانو ، ثم عدت إلى روسيا ، وكانت أوجلها قد أصيبت بالسل وعجزت عن الغناء ففقدت أنا الآخر سوني كما حدث لتربلي عند ما مات سفانجيلي فجأة [2] ، وعدت إلى الفقر ومقاساة الجوع حتى قبلت أن أمثل لقاء رغيفين من الخبز وقطعة من اللحم وقدح من الفودكا . إن التهمة التي وجهت إلى هي أنني نبشت قبر أوجلها ستانوفا ، وأخذت بعض حليها التي تزينت بها قبل دفنها . إنها لجريمة كبيرة حقاً ،

ولكن لا تنسوا أنني أنا الذي أسرت بدفنها بهذه الجواهر ، وكان يمكنني أن أستحوذ عليها ، لأنه لا قانون في الأرض ولا في السماء يحتم على الورثة أن يزينوا صدور الموتى ونحورهم وأسابعهم بالجواهر، ولكنني فعلت ذلك زهداً في جواهرها ، وكنت في أشد الحاجة إليها ...

لقد نسبت الشرطة لي أنني تعديت على جسمها بفعل فاضح ، أفيعقل هذا الزعم ؟ إنها وشاية دنيئة ونميمة قذرة ، ونبأ كاذب متعفن لا يصدر إلا عن قلوب متأكلة بدود الحقد والوقيعة . هل أعتدي على هيكل عظمي وجسد لحمه البلى في وحدة الليل البهيم ؟ نعم « الهاوية » قصة خيالية ، ولكن الصندوق الخشبي النمس المغلق اعتبروه خزانة ملأى بالجواهر ، لا سرير عروس معدة للزفاف ، إني أختنق . أموت . اسمحوا لي بالجلوس لقد انتهيت .

القاضي — إجلس أيها المتهم (يجلس وينثني عنقه من التعب) أيها المحلفون ! لقد سمعتم دفاع المتهم ، لست في حاجة إلى تلخيصه ، أو ترجيح إحدى الوجهتين . إن وجهة الاتهام قوية لا ريب، ولكن المتهم أظهر ضعفها . لا تصغوا إلى القسم الأول من دفاعه . قد يكون اعترافاً خيالياً لمقل عصفت به المصائب فانهكت قواه ، وقد يكون مظهراً من مظاهر الجنون الفاجر. انه بلا ريب رجل نالت منه حوادث الدهر نيلاً كبيراً حتى اختل توازن تفكيره .

إن سجل سوابقه مفقود فلا يمكننا أن نعلم إن كانت قصته صحيحة أو كاذبة . أما الجرائم التي نسبها

(١) هذه بريادونا وسوبر أوتوفيت أثناء الحرب

(٢) Trilby تأليف دهموريه من أروع القصص الحديث

إلى نفسه متطوعاً فقد تكون وقعت ولم تظهر للملأ للتحايل فى إخفاء معالمها. كما يمكن الافتراض بأنها لم تقع إلا فى دائرة ذهنه المريض فلا تتخذوا منها سنداً عندما تنسحبون إلى غرفة المداولة. لا تسمعوا صوتاً سوى صوت ضمائركم. ولا تذكروا إلا تهمة واحدة وهى التى يحاكم من أجلها هذا المتهم. هل نبش قبر صديقته أو لجاستانوفا ليسرق جواهرها أو ليعتدى على حرمة الموتى؟ إن كانت الجريمة لسرقة الجواهر فالجواب على الأسئلة جميعها بالنفى، وإن كانت غايتة انتهاك حرمة المقابر فالجواب على الأسئلة الأساسية بالاثبات. الله يعينكم

رئيس المحلفين — لسنا فى حاجة إلى المداولة. جوابنا على جميع الأسئلة بالنفى

القاضى — حكمت المحكمة ببراءة المتهم والافراج عنه فوراً، إن لم يكن محبوساً لسبب آخر

الجمهور — ليحى العدل! الرحمة فوق العدل! يسقط الظالمون.. المجتمع يحتج. ليسقط الشرطة.. اليهود.

القاضى — (يا حارس! اطلق سراح المتهم) وأخل قاعة الجلسة من جميع النظارة!

الحارس — ايزيدور فيدوروف، انهض تيقظ! لقد حكم القاضى ببراءتك (يلمسه بلطف ثم يهزه بعنف ثم ينظر فى وجهه ويجس يده وصدره) إن المتهم لا يتحرك. لقد فارق الحياة وهذا الزبد فى شدقيه

القاضى — (يرفع قبعته وينهض) رفعت الجلسة وانتهت القضية!!

الجمهور — (يرتل — أيها الرب الرحيم تقبل روحه فى ملكوت سماواتك فقد كان أعدل من كثير من الكبراء).

محمد لطفى جمعة

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

ترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة «الرسالة»

الثمن ١٢ قرشاً

أطلبوا مؤلفات

محمود تيمور

وهى: الحاج شلبى. الاطلال

أبو على عامل أرتست. الشيخ عفا الله

الوثبة الأولى. قلب غانية. نشوء

القصة وتطورها

من جميع مكاتب القطر الشهيرة

«كتاب فرعون الصغير وقصص أخرى»

يظهر فى نهاية العام

ثروة لم تخطر على بال

للكاتب الإيطالي بوكاتشو

للأستاذ محمد كامل حجاج

لقد أجمت الآراء على أن البلاد الواقعة على شاطئ البحر من ريجيو إلى جابتي هي أجمل البلاد موقعاً في إيطاليا . وهناك على مقربة من سالرن عراء تطلق عليه الأهالي اسم شاطئ ملفي وبه مدن صغيرة وحدائق وتجار، وكانت مدينة رافلو في ذاك العهد أبرزها رشاقة وازدهارا ، وكان بها رجل يسمى لاندولف من كبار الأغنياء ولكن نهم المال لا يشبع ولا يقنع ، إذ أراد هذا الرجل أن ينمي ثروته ففضى طعمه على جميع ما ملكت يداه

وبعد ما فكر في الأمر طويلاً كادة التجار اشترى سفينة عظيمة وشحنها بمختلف البضائع وسافر إلى قبرص . وحينما وصل إليها وجد كثيراً من السفن مشحونة بنفس البضائع التي جلبها فاضطر أن يبيع شحنته بأبخس الأثمان، فتملكه هم شديد لهذه الخسارة الفادحة التي ذهبت بثناء وسمم على الانتحار أو الاستدانة مما فقده بواسطة شخص آخر فلا يرجع إلى بلده على تلك الحال بعد أن خرج منها غنياً مختاراً . وباع سفينته واشترى بثمنها والمبلغ الضئيل الذي باع به بضائعه مركباً خفيفاً يصلح لأعمال القرصنة وسلحه جيداً واختاره بعض الرجال الأشداء وطفق يجوب البحار ويسطو على كل ما يصيبه ولا سيما الأتراك حتى زادت ثروته وقامت ما كان يملكه وقت ازدهار أمواله

رأى أن غناه أصبح كافياً وأنه في حاجة إلى عيش شريف محبوب لا يحتاج إلى تعرض جديد للبؤس وتقلبات الأيام . وعزم على الرجوع إلى بلده والاكتفاء بما غنمه لأن ما حاق به من صروف الدهر جعله يخشى العودة إلى أعماله السابقة . فسافر إلى رافلو بهذا المركب الخفيف ، ولما ابتعد عن الشاطئ هبت رياح عنيفة فهاجت الأمواج ورأى لاندولف أن سفينته الصغيرة لا تستطيع مقاومة اللجج الهائجة فعزم على الالتجاء إلى جزيرة صغيرة . وبعد لحظة أقبلت سفينتان جنويتان لتحتميا في هذا الموضع من الجزيرة وكانتا آتيتين من الآستانة . وقد علم الركاب أن هذه السفينة الصغيرة يملكها لاندولف وكانوا يسمعون أنه من الأغنياء المولعين بالذهب والسطو على مال الغير فانفقوا على مهاجمته وسدوا عليه المسالك أولاً ثم أنزلوا عدداً من رجالهم إلى البر وبأيديهم قسيهم وسهامهم وتخيروا لهم مكاناً يمكنهم من إصابة كل من يخرج من السفينة . ثم هب الباقي إلى القوارب وذهبوا إلى سفينة لاندولف وأسروها بدون مقاومة ثم نهبوا جميع ما فيها وأغرقوها واعتقلوا لاندولف في قاع مركب من مراكبهم ولم يتركوا عليه غير بعض ثياب خلقة . وفي الصباح تحسن الجو فسافر الجنويون إلى بونان وسارت مراكبهم بكل اطمئنان طول النهار . وحينما أقبل الليل هاجت رياح عنيفة، واضطرب اليم فانفصل المركبان بعضهما عن بعض وارتطم أحدهما الذي يقل لاندولف في صخور جزيرة سيفالونى فتحطم كالزجاجة وافترس اليم مختلف البضائع والصناديق وحطام السفن ، وطفق الملاحون يسبحون ويجالدون اللجج الهائجة في الظلام الحالك ويتمسكون بكل ما يصادفهم ليتجوا بأنفسهم

وأما لاندولف التعس الذي كان بالأمس يتمنى الموت لفقد ثروته فقد تملكه الخوف حينما رأى

2017-11-1

نفسه مشرفاً على الهلاك ، ولحسن حظه صادف لوحاً من الخشب فتمسك به إلى أن ييسر الله له من ينتشله من الخطر

ظلت الأمواج تتقاذفه ذات اليمين وذات اليسار إلى أن طلع النهار فنظر إلى ما حوله فرأى صندوقاً صغيراً عائماً فحاول الوصول إليه ولكن هيت زوبعة شاعفت عنف الأمواج وقذفت الصندوق حتى اصطدم باللوح الذي بين يدى الغريق فأفلت من يده وغاص لاندولف من قوة الصدمة ، ثم طفا وشاهد اللوح بعيداً عنه ولكنه لمح الصندوق على مقربة منه فسبح حتى أمسك به واعتمد على غطائه ، وطفق يستعمل ذراعيه بدلا من المجاذيف ، وأخذت تطوح به اللجج فى كل صوب دون طعام ، وقضى نهاره وليله على تلك الحال المضنية دون أن يعرف إن كان قريباً أو بعيداً عن البر لأنه ما كان يرى غير الماء والسماء ..

وفي الغد طوحت به الرياح أو على الأصح إرادة الله السامية إلى جزيرة جولف ، وأصبح جسمه كالإسفنج وهو منكش على الصندوق كما يفعل الغرقي عند إشرافهم على الهلاك

وكانت فى تلك الآونة امرأة فقيرة تغسل آنيتها على الشاطئ فذعرت لرؤيته على تلك الحال وصرخت صراخاً عنيفاً . وكان لاندولف منهوك القوى حتى أنه لم يستطع النطق بكلمة . ولما اقترب الصندوق من الشاطئ وتأملت فيه المرأة ميزت شكل الصندوق ولمحت وجه الغريق فتأثرت بعاطفة الشفقة والحنان ونزلت بقرب الشاطئ وكان البحر هادئاً وأمسكت لاندولف من شعر رأسه وجرته هو والصندوق إلى الشاطئ ، ونزعت يديه المتشنجتين من الصندوق بقوة ثم وضعت الصندوق على رأس فتاة كانت معها ثم حملت لاندولف على ظهرها كالطفل وذهبت به إلى المدينة ثم أدخلته فى حمام حار وغسلته ودلكته بالماء الساخن إلى أن أفاق وتحرك ، وبعد إخراجه من الحمام سقته نبيذاً وأطعمته قليلاً من الربى حتى انتعش وعاد إليه رشده . رأت هذه السيدة أن ترد إليه صندوقه وأن تشجعه على ما أصابه من المحن

ولو أن لاندولف لم يفكر قط فى الصندوق إلا أنه ظن أن يجد فيه شيئاً يستعين به على القوت بضعة أيام . ولما أراد أن يفتحه وجده خفيفاً جداً فتملكه اليأس والقنوط ، ثم فتحه بفارغ الصبر تطلعاً لما يحتويه ، وكانت السيدة قد غادرت بيتها لقضاء حاجاتها ، فوجد فيه كمية من الأحجار الكريمة بعضها مبرى والآخر كما هو ، ولسابق معرفته بالجواهر تحقق أنها ذات قيمة كبيرة ، حمد ربه على هذه النعمة العظيمة ومجده ، لأنه قد حرسه بعين عنايته وعوضه أضعاف ما فقد . وتشجع ونشط ونسى همومه ، وعزم على أن يتصرف بكل رزانة وحكمة ليصل إلى بيته آمناً مطمئناً ولا يكون عرضة لمصاب جديد أو محنة غير منتظرة . ثم صر جواهره فى قطعة من النسيج وعرض على السيدة أن تأخذ الصندوق مقابل كيس ، فلبت طلبه ثم شكر لها حسن صنيعها ووضع كيسه على كتفه وسافر فى مركب . ولما وصل إلى برنديس انتقل إلى ترانى وصادف هناك عدة رجال من بلده وكانوا من تجار الغز والديباج فقص عليهم ما أصابه ، ولكنه لم يبح بالصندوق وما حواه فأعطوه حلة وأعاروه جواداً وبحثوا له عن رفقاء يصحبونه فى سفره إلى رافللو

ولما آب إلى بلده باع جواهره فوجد فيها كثيراً من الماس الجيد بحيث أنها إذا بيعت بثمن معقول كانت قيمتها تساوى ضعف ثروته حينما فارق بلده . ثم أرسل مبلغاً من المال إلى السيدة التى انتشلته من اليم فى مدينة جولف وكافأ تجار الحرير الذين ساعدوه فى ترانى وعاش بقية عمره عيشة هنيئة شريفة

محمد فاضل عباج

الحب فوق الجبل

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت مارى تستطيع فى يسر أن تسمع الحديث بين الشابين الجالسين على مقربة منها إلى منضدة فى فندق بشارع « فليت ستريت » ولكنها لم تعر أحدهما التفاتاً خاصاً

قال أكبرهما وهو أجلعهما للآخر : « إذا كنت لم تذهب قبل الآن إلى اسكوتلاندا فاطلب أجازة واذهب إليها . وقد يشكو بعض المتقدمين فى السن وضعاف الأبدان من شدة البرد فيها ، ولكن هذا لا يمنع من وصف جوها بأنه جميل

« وسأدلك على مكان بين الجبال ليس أطيب من هوائه ولا أروع من مناظره ولا أوفر من حاجياته مع يسر الثمن ، ولا أجمع لأسباب الراحة والسرور وقد ظل ترادى عليه وآمل أن أذهب إليه أيضاً فى الخريف »

ورأت مارى المستمع يشير بالموافقة ويقول : « لست أعرف هل أتمكن من الذهاب إليها أم لا ، ولكنى أريد أن أسألك عن بعض التفاصيل ، وأنت تعرف أننى لا أحب النزول بالفنادق فهل من المكن إقامة كوخ هناك خارج القرية؟ »

فأجابه : « ذلك سهل . وسأدلك على نفس الكوخ الذى كنت أقيم به ، وهو فى جبهة برتشاير القريبة فاكتب إلى مسز « ماك بين » وقل لها إنك أخذت العنوان من جارفى بلير »

ولم يكن المستمع يعرف الجهة التى ذكرها جارفى بلير . ولكن مارى عرفتها ، وكتبت على ظهر مجلة كانت معها ذلك العنوان. ولم يخطر ببالها أنها أخطأت فى ذلك لأنها كانت تريد الاصطياف أيضاً ، وكانت اسكوتلاندا حلماً من أروع أحلامها . ولكنها لم تكن تعرف أحداً هناك ، وليس أجدر بارشادها إليها من هذا الرجل الأسود الشعر والعينين الذى كانت تراه كل يوم على هذه المنضدة بالفندق وإن كانت إلى اليوم لم تبادله كلمة واحدة ، على أنهما كانا يتبادلان النظرات فى كثير من الأحيان

وفى تلك اللحظة كتبت مارى خطاباً رقيقاً إلى مسز « ماك بين » قالت فيه إنها سمعت اسمها وعنوانها مصادفة وأنها ترجو أن تسمح لها بالاقامة فى الكوخ مدة أسبوعين وتسألها عن شروطها فى مقابل ذلك

وفى اليوم الثالث وصل إليها الرد . وكان مرضياً وفيه تطلب مرسلته تحديد اليوم والساعة لترسل إليها العربة تنتظرها وأمتعتها عند أقرب محطة لتنقلها إلى الكوخ الذى يبعد عن المحطة ثلاثة أميال

وتم كل ذلك. وفى ليلة هادئة الجو معطرة النسيم كانت مارى واقفة أمام الكوخ وصاحبته مارجريت ماك بين ترحب بها ترحاب الصديق بالصديق

قالت مارجريت : « أخشى أن يكون هذا المكان موحشاً لشدة هدوئه وخلوه من الأنيس ، ولكنه يوافق اشتراطك فى خطابك ، وليس عمل يمكن أن يعمل هنا إلا المشى على سطح الجبال المزدانة بأعواد الزهر »

فابتسمت مارى وقالت : « إنها تألف هذه المناظر وتحبها فقد اعتادت الاصطياف فى الريف وإنها لا تنتظر أن تسبب لها هدأة الحياة شيئاً من السأم

وكان من حسن حظها أن الجو اعتدل وراق

2017-11-11

فى الأيام الأولى من زيارتها لهذا المصيف . وفى يوم من الأيام قالت « مارجريت مالك بين » : « إنه فى المساء سيأتى مصطاف جديد وسيقيم فى غرفة أخرى من ذلك الكوخ »

وقالت : « فاذا راقك مجلسه بعد التعرف به قدمت لكما الطعام معاً وإلا فانى سأدبر لذلك وسيلة تريحك »

فلم تبد مارى أي اعتراض بل سرت من وجود زميل من أهل بلدتها فى هذا المصيف . وفى أصيل ذلك اليوم خرجت لتتنزه على سفح الجبل فى طريق المحطة وهى تعد نفسها بأن تكون نزهة الند برفقة رجل هى إلى اليوم لم تصاحبه . وفيما هى تتمالى النفس بوعد جميل زلت بها القدم عند محاولتها الصعود إلى مرتفع من سفح الجبل فهوت وجرحت ركبتاها واستحال عليها النهوض ، ورأت رجلاً يسلك الطريق بين المحطة وبين الكوخ

ولما دنا عرفت فيه صاحبها أسود الشعر والعينين « جارفى بلير » . ونظر إليها وكاد أن يمشى دون أن يتكلم لولا أنها استوقفته وأخبرته بالخبر ، وطلبت إليه أن يبلغ صاحبة الكوخ رجاءها لترسل إليها عربة تقلها . فقال : إن الكوخ قريب فاذا شئت فلنذهب إليه مستندة إلى ذارعى . وفى بحمد الله من القوة فوق ما قد تظنين

قبلت مارى على خجل ما طلبه إليها . وكان لا بد لهما من التحدث فى أثناء الطريق فاعترفت له بأنها عرفت المكان من حديثه مع صاحبه . وقال لها : إنه كان يريد أن يأتى فى الخريف ولكن طرأ ما دعاه إلى التعجل

وقالت : « أرجو ألا يغضبك انتفاعى بعنوان كنت أنت تمليه على آخر » فقال : « كيف أغضب؟ لا بل يسرنى كل السرور أن تشهدى صدق النصيحة التى قدمتها لصديقى وأرجو ألا تضطرك الإصابة الحاضرة إلى لزوم الكوخ إلى مدة الاصطياف »

وفى اليوم التالى كانا واقفين أمام النذير يتحادثان فقالت : « ما أجمل هذا المنظر ! »

قال : « إنى لو أوتيت ثروة لحققت حلماً طالما كنت أنعش نفسى بتصوره وهو أن أشترى كوخاً فى مثل هذا المكان فأقضى فيه ستة أشهر من كل عام » . قالت : « أهذا حلمك ؟ » فقال : « نعم ولى حلم مرتبط به » . قالت : « أتخبرنى ما هو ؟ »

فقال : « منذ عام رأيت فتاة فأحببتها وأريدها زوجة ولكنى لا أملك ما أسديه إليها غير حبى »

فتشجعت الفتاة أكثر مما كانت وقالت : « ربما كانت الفتاة لا تطمع فى غير الحب »

ثم قالت : « هل أرشدتها إلى هذا المكان الذى أرشدت إليه صديقك ؟ » فابتسم وقال : « إننى لم أكن كلمتها على الرغم من أنى كنت أراها كل يوم . وقد انتهزت جلوس صديق معى فرصة لأذكر المكان بصوت عال على مسمع منها . وكنت أعلم أنها تريد الاصطياف »

فاحمر وجه مارى وقالت : « ربما كان عند صاحبتك مثل الذى عندك ، وربما سبقتك إلى الكوخ طمعاً فى لقائك »

وعادا إلى الكوخ . وبعد ذلك اليوم اشتد قلق « مارجريت مالك بين » بسبب التصاقهما زماماً ، ولكن قلقها عاد سروراً حين أعلناها أنهما يريدان البقاء بالكوخ شهراً آخر هو شهر العسل

عبد اللطيف النشار

شهادة الصلاحية للزواج

لكاتب الفرنسي بول بورجيه

بقلم الأديب عبد الله الريامشي

قال أحد المدعوين بمناسبة طلاق مشؤوم : يجب الحصول على شهادة صلاحية للزواج ... فقد عرفت فتاة كانت زهرة يانعة رطبة الغصن باهرة الجمال لوثها زوجها بشكل مروع منذ ليلة زفافها إليه . فقال الطبيب س ... عند ما سمع ذلك :

— لقد كثر فعلاً حديث الناس عن هذه الشهادة ، وثار الرأي العام ، وبدأ بعض النواب في التفكير فيها . وفي مثل هذه الحالة التي تتكلم عنها يميل الانسان إلى الاعتقاد بأن التشريع الذي يقضي بوجوب الحصول عليها قبل الزواج يكون تشريعاً مفيداً . أما إذا فكر الانسان في المسألة فانها لاتبدو بهذه السهولة . فكم تثير من المشاكل ! ثم هناك الصعوبة التي يجدها الطبيب في تسع حالات من عشر في تشخيصها تشخيصاً علمياً أكيداً . لم يبق إلا الحال العاشرة التي ضربت لنا مثلا منها ، ولكن ما العمل في التسع الأخرى...! وإنني لأسائل نفسي كم من زواج موفق قد يصير امتناعه بناء على دلائل خداعة لأمراض لن تظهر ألبتة . وكم من القلوب الفتية المتوثبة تتمزق وتسحق بناء على قرار أساسه نظرية قد يظهر فسادها فيما بعد ! وهذا بخلاف الأحوال التي يستعمل فيها الغش والتزوير . اسمعوا هذه الحادثة التي ما زالت ذكراها راسخة في ذهني فقد كانت من الحوادث التي أثارت حزني وألمي وفي نفس الوقت كانت عزائي في مهنتي . ولايدهشكم هذان التعبيران المتناقضان لأنكم ستوافقونني متى انتهيت من سرد قصتي

كان في المستشفى المتنقل الذي كنت أعمل فيه أثناء الحرب في الريف امرأتان هما أم وابنتها سأدعوهما إذا شئتم السيدة لور والآنسة لوز ؛ وكانت كل منهما مثالاً عالياً للتفاني في العمل والنشاط والاخلاص

إن تعلق الطبيب بمساعديه هو إحدى العواطف التي يخلقها الاشتراك في العمل ، وهي عاطفة لا نجد لها مثيلاً في المهن الأخرى، وتستمر إلى مابعد انتهاء العمل معاً ، ولكننا معشر الأطباء عند ما نؤوب إلى عياداتنا لايترك لنا مرضانا الوقت الكافي لتبادل المكاتبات ، فانني عند ما عدت إلى باريس انقطعت عن مراسلة هاتين المرضتين النشيطتين . وكانتا تقطنان بإحدى مدن الجنوب حيث كان زوج السيدة لور يتعاطى أعمال المصارف . ولكن سكوت رجال الأعمال لايتخذ دليلاً على النسيان، إذ أن هذا ماشعرت به عند ما رأيت ذات يوم السيدة لور تدخل مكتبي أثناء عيادتي للمرضى فقلت لها :

— آه ! أهذه أنت في عيادتي ! أنا الذي مازال ضميري يؤنبني منذ حضورك إلى هنا لأنني لم أجب على خطاب واحد من خطاباتك العديدة ! يسرني أن أنتهز الفرصة لتقديم اعتذاري لولا أنني ألاحظ أنك جئت في طلب استشارتي ...

— لك كل العذر ياسيدي الطبيب فإن وقتك أثمن من أن تضيعه . ومع ذلك فقد جئت أسألك

(*) في الأصل الفرنسي « شهادة ما قبل الزواج » "Certificat Prénuptial"

2017-11-1

منحي بعض هـذا الوقت ليس لنفسي لأنني لست مريضة ولكن لابنتي

— هل الآنسة لوز مريضة في باريس ؟

— لا يا سيدي الطبيب ولكنها ستتزوج أو على الأقل طلبها شاب يعجبها جداً للزواج وهو شاب نبيه وظريف للغاية عيّن منذ سنة في مدينتنا مهندساً للطرق والجسور . وقد طلبت وزوجي مهلة سنة لتبليغه ردّنا إذ نريد وضع بعض الشروط قبل موافقتنا، لأن هذا الشاب خاض غمار الحرب بكل شجاعة وأصابته النازلت السامة تحت أسوار فردان . ولما كنت عرفت أثناء اشتغالي بالتمريض ومنك شخصياً أن أكبر أضرار هذه النازلت هو تعريض ضحاياها لسطب الرئات، ولما كان والدا لوسيان

— وهو اسم الشاب — قد توفيا بذات الصدر فلا نقدر بل يجب ألا تزوج لوز بشاب مصدور ؛ وحينئذ ...

فقاطعتها قائلاً : وحينئذ خطر لكم أن تفحصوا عن مرض هذا الشاب بواسطة طبيب

— نعم يا سيدي الطبيب . لقد عرفت فكري

— وقد وقع اختياركم عليّ

— هذا طبعيّ فقد طالما رأينا منك العناية بأسرتنا والميل إلينا ، ثم شاهدنا دقة استدلالك على مواضع الداء

— لقد عزب عن ذهنك يا سيدتي مسؤولية الطبيب وواجبه الصارم نحو سر المهنة . من منا لم ير بائساً كان يعالج فيه قروحاً عنجلة ومعدية تزوج فتاة طاهرة جميلة ومنعه واجبه من الكلام، بينما كان من السهل منع حدوث هذه الجريمة بكلمة واحدة. فإذا فحصت عن داء السيد لوسيان ووجدته مصاباً بالداء الذي تخشين فإن واجبي يمنعني من أن أبوح لك به

— أوافقك على ذلك ولكن ألا تبوح به له هو؟

— إنني لا أفهم غرضك

— إذا حتمت عليه أن يأتي إليك وأن يرينى هو نفسه بعدئذ الشهادة فهل تعدّ ذلك من جهتك إخلالا بسر المهنة ؟

— طبعا لا . لأن من حق المريض أن يعرف حقيقة حاله، وللطبيب أن يرى إذا كانت هذه الحقيقة تفيد أو تضر بصحة هذا العليل الذي له أن يستعمل هذا التصريح الاستعمال الذي يلائمه

— وهل ترى ضررا في إظهار الحقيقة للمصدور!

— على العكس فهي مفيدة له إذا كان المرض في مبدئه . وبما أنك تشكين في حالة هذا الشاب فيفهم من ذلك أن إصابته ما زالت طفيفة . ولكن فكري مليا في الأمر ! إذا طلبت منه أن يستشيرني فمن المحتمل جدا أن يرفض محافظة على كرامته . ثم إذا كانت الآنسة لوز تحبه ...

فقاطعتني بحدة قائلة :

— إذا رفض لهذا السبب فهذا دليل على أنه لا يحبها ، وإذا كان لذلك فيكون طبيبه قد حذره فنصبح نحن على بينة من أمره .

ثم وقفت منما لابداء أي اعتراض جديد وقالت سنعود إلى بيتنا مساء اليوم . زوجي وأنا . لأننا لم نحضر إلى باريس إلا لهذا السبب ، وغدا سأكلم لوسيان وسأنبئك ببرقية، وإذا قبل فسيكون عندك بعد الغد ... ولكنه سيقبل ...

ودعتْ السيدة لور وعدت إلى مكتبي وأنا أسائل نفسي : « هل يقبل؟» ومع ذلك فإن موقعة

ثردان كانت فى الوقت الذى كانت تستعمل فيه غازات البثور فلم تتعد الاصابات الرئوية ٨ ٪. أما فى سنتى ١٩١٥ و ١٩١٦ فى عهد غاز الكلور فقد بلغت ٢١ ٪. إذن فالأمل كبير فى ألا يكون ثمة ما يخشاه هذا الشاب من النتائج الوخيمة . إلا إذا كان للوراثة تأثير ! . . ولكن عزة نفسه تأبى عليه أن يقبل ولو كان سليما . . . بل خصوصا إذا كان سليما لأنه يعرف ولاشك مايخشون عليه منه فى المستقبل ، وإذعانه على استشارة طبيب لا يعرفه انهام له بأنه لم يستشر طبيبه الخاص قبل أن يتقدم بطلب الزواج، وهذا يعد غشا صريحا من جهته . لا ! إنه لن يقبل ولن أتحمل مسؤولية ادخال الحزن على قلب لوز الظريفة . إن نظرات هذه الطفلة وطول تفرسها لدليلان على عمق مشاعرها ورقة عاطفتها . وبما أنها تحب لوسيان هذا ...

وتمثلت الشابة الصغيرة فى مخيلتى وأنا أردد هذه الأفكار فى خاطرى كأنها ما زالت أمامى فى بهو المستشفى حيث كنت أحبب بها كثيرا وأنا أشاهد نشاطها ورزانتها وهى تنحنى على سرير أحد مرضاى لتضميد جراحه . إن حركات وسكنات الممرضة أثناء تأدية هذه الأعمال التى تمجها النفس أحيانا ولكن تتطلب دائما الكثير من الدقة والعناية تكون دلائل واضحة للطبيب الذى يرتبط تفكيره بهذه الأيدى النسائية التى تتكشف له منها طبيعتها الحقيقة كاملة

سترون أننى لم أخطئ عند ما عددت هذه البنية فى عداد بعض النفوس النادرة التى تستولى عليها العاطفة وتأسرها وإذا ما وهبت نفسها وهبتها إلى الأبد وبدون رجعى (١)

ستدركون بعد أن رأيتم انشغال فكرى بها إلى هذا الحد مقدار حيرتى واضطرابى عندما تسلمت فى اليوم التالى برقية من أمها هاكم نصها :

« لوسيان قد قبل . سيكون عندك غداً . شكراً جزيلاً »

وقبل انقضاء أربع وعشرين ساعة دخل إلى مكتبى خاطب لوز . ستعلمون مبلغ دهشى بعد الذى حدثتكم عن ميلى وإعجابى بهذه البنية الظريفة الرقيقة الاحساس عندما وقع نظرى على الذى تحبه لدرجة التدلله كما أخبرتنى والدتها إذ لم ألمح فيه أى صفة أو سيماء تبرر أو تفسر مثل هذه العاطفة الجامحة . فوجهه المستدير الضخم الذى يبسم لكل شىء يدل على أنه ولد طيب ، ولكن عادى بشكل ظاهر . وقد لاحظت أنه متهيب ويخفى ما به من الاضطراب تحت ستار من المرح الذى كان طبيعياً فيه ولاشك . كنت أقرأ اضطرابه مسطراً وراء جفنيه، ثم تبادر إلى ذهنى أن شجاعته التى يدل عليها الشريط المثبت فى عروته هى التى سحرت خطيبته المقبلة . وبمجرد النظر إليه يترجح أنه لا يخشى عليه من التدرن الرئوى . ثم إن الفحص الذى شرعت فيه ، وأنا أقل ما أكون رغبة فى الشور على دليل يثير ريبتى أثبت لى أن نظرتى الأولى كانت صادقة فوقعت بامضائى على شهادة الصحة التابعة التى حتم والد لوز عليه إحضارها . وقلت أخاطب نفسى بينما كنت أرافقه مودعاً وأنا أوشك أن أغضب من كثرة ما أبدى لى من الشكر : « وهذه أيضاً إحدى نتائج الحرب المحزنة . الاندفاع الوهمى الذى يساور الناس فى الشبان الذين خاضوا غمارها ، ثم إذا عادوا إلى الحياة العامة كانوا أناساً أقل من

(١) الرجعى والرجعة والرجوع والرجم من رجع يرجع

العاديين ، وكثيراً من الأحيان متوحشين تظن الفتاة الخيالية أنها ستتزوج فارساً كريماً وإذا بفارسها هذا عامي خشن كما يظهر لي هذا الشاب . ما أعظم الصدمة عند ما تتكشف الحقيقة للوز الصغيرة إلا إذا كنت قد أخطأت في حقيقة نفسيتها وكانت في الحياة العامة غيرها في المستشفى كما يدل عليه هذا الاختيار أكبر دلالة

ولكن لا ! فان نظرتي كرئيس عيادة لم تخدعني وقد ألفت إحدى الصدف التي تحدث يومياً للطبيب بالدليل القاطع . وبهذه المناسبة ما هي الصدفة ؟ هي وقوع ظروف وحوادث لم يكن في الامكان التنبؤ بحدوثها . وبالفعل أي طبيب يمكنه أن يتنبأ بأن المريض الفلاني الذي لم يكن له به سابق معرفة سيستدعيه، وأن دعوته هذه ستكون سبباً في وقوع حوادث غير منتظرة ، إذ لم تمض فترة كبيرة على عيادتي لضحية غازات فردان حتى كنت قد استلمت برقية من السيدة لور تخبرني فيها بمزيد السرور بخطبة الشابين . ثم تلا البرقية كتاب يطفح غبطة وحبوراً تبدي لي فيه أسفها لأن الزواج الذي سيتم قريباً جداً بناء على إلحاح ابنتها كما قالت لم يحدد له يوم بلاعمى ، وإلا كانت رجتني في أن أكون أحد الشهود ، وإنها تعلم أن كثرة أشغالي لا تتحمل بضعة أيام أتنيها عن مرضاي وعن مستشفاي . وكانت تسكن على بعد عشر ساعات بالسكة الحديدية من باريس. وها كم المسافة التي كنت أكلمكم عنها

دعاني بعد بضعة أيام زميلان لي من تلك الجهة للتشاور في قصر قريب من مدينتها، فحدث أقرب يوم سبت للمشاورة المطلوبة رغبة مني في زيارة ممرضتي السابقتين في يوم الأحد لأستطيع العودة إلى أداء واجبي في المستشفى في يوم الاثنين بعد تمضية الليل مسافراً في القطار فقد اعتدت بحكم المهنة النوم في أي ظرف وجدت فيه . وكنت أشعر برغبة شديدة تحفزني إلى رؤية مقر أعمالي أثناء الحرب. ولما كنت داعماً ميالاً كما يقول ستاند هول إلى «معرفة كنه الشيء على حقيقته» فقد كنت تواقاً إلى معرفة سلة لوز بخطيبها الذي لم أكن أراه جديراً بها ، واشتدت بي الرغبة حتى أنني بدل أن أنام في القصر حيث أراد أصحابه أن يحجزوني طلبت أن يقودوني بالسيارة بعد الاستشارة مباشرة إلى مدينة ممرضتي الظريفة النشيطة التي كانت تمد نفسها للارتباط إلى الأبد بهذا الرجل الخشن الذي أثار كراهيتي إلى هذه الدرجة فوصلت في الساعة السادسة ومن المنزل اتصلت تليفونياً بالسيدة لور في الحال ولحسن الحظ وجدتها فقالت لي :

— كيف لم تنبئني بحضورك يا سيدي الطبيب؟ إن عملك هذا سيء بل سيء جداً ولكنني أسامحك إذا أتيت في الساعة الثامنة لتناول العشاء مع الخطيبين وبعض الأصدقاء ؛ ولا بأس من حضورك بملابس السفر طبعاً ، غير أني أرجوك أن تبكر قليلاً عن الوعد لأن ابنتي تشعر بانحطاط وأظن أن كثرة العمل قد أنهكتها ولهذا أرغب في أن أعرف رأيك.

فقلت لنفسي : « أبدأت التهمة تتقشع عن بصرها؟ ومع ذلك فما زال أمامها متسع من الوقت » وثار فضولي وتنبهت غريزة التطلع فيّ عند ما أدخلني الخادم في غرفة الاستقبال التي كنت أعرفها من قبل كل المعرفة إذ كثر ما جئت وتغذاك زيارة ممرضتي المفضلتين كلما سمح لي الوقت بين عيادة وأخرى . وقوة الملاحظة التي يمتاز بها الطبيب

شديدة جداً عندى ؛ ففى بعض الدقائق التى مكثت فيها وحدى لاحظت وجود مسند تصوير عليه صورة بالفحم لم أكن أعرفها . والصورة جانبية لفتى تبدو عليه بشكل غريب سيماء النباهة وعزة النفس؛ وكنت أعرف أن للورد بعض الالمام بأصول الرسم، وقد دلنى توقيعها تحت الصورة على أنها من صنعها فوقفت مشدوهاً من إتقانها ودقتها مع أن البرهان كان أمامى . ثم قطع علىّ تأملى صوت السيدة لورد إذ دخلت وكانت ابنتها بالطبع معها وقالت لى هذه الكلمات التى لم أفقه معناها والذى فهمته بعد قليل وربما كان الاستفهام عنها ذا عواقب وخيمة « ألا تشبهه تماماً ؟ مع أنها لم تصنعها إلا فى ثلاث جلسات ؟ ... ولكن ما بك يا ابنتى ! ... »

وكانت لورز قد وقعت فجأة على أحد المقاعد وهى متهالكة وقد غاض الدم من وجهها وكأنها فقدت وعيها بينما كانت أمها تواصل حديثها دون أن تترك لى الوقت لكى أجيبها على سؤالها عن التشابه إذ كان يفهم منه أننى أعرف النموذج الذى نقلت عنه هذه الصورة

— لقد شاهدت بنفسك مقدار ضعف أعصابها والدوار يعتريها باستمرار! ... أرجوك أن تفحص عن دائها كما طلبت منك . ألا تتفضل بالذهاب إلى مخدعها ؟ أتستطيعين المشى يا ابنتى ؟ فأجيبها وأنا أساعد ابنتها على الوقوف . طبعاً يا سيدتى ، استندى علىّ يا آنسة ، وأنت يا سيدتى هدئى روعك فلا خوف عليها

وقد دلنى تقبيض يد لورز على معصمى وارتعاش ذراعها على ما بها من اضطراب أخذ يهدأ شيئاً فشيئاً مذ خرجنا من القاعة. ثم دخلنا مخدعها فاقعدتها بالرقاد على السرير . ولما ملت عليها لكى أثبت رأسها على الوسادة قالت لى هامسة : « أخرج أنى . أخرجها بأى شكل » وبدا عليها الانزعاج والرعب حتى أننى أطعتها طبقاً للمبدأ القديم الذى يقرر عدم التصادم مع العصبيين. فالتفت إلى والدتها قائلا: «أكرر لك يا سيدتى أن لا خوف عليها . ستزاح الآنسة قليلا بينما أوجه إليها بعض الأسئلة وأظن أننى أستطيع أن أؤكد لك أننى سأعود إليك بها بعد نصف ساعة وهى على أحسن حال مستعدة لتناول الطعام كأن لم يكن هذا الحادث الذى أثارته حرارة الجو ولا شك — فقد كنا فى شهر يونيو — فقالت السيدة لورد :

— أنا ذاهبة إذن لأصدر بعض الأوامر ... ومع ذلك فهاهوذا الدم قد أخذ يتصاعد إلى وجنتيها . ثم قبلتها وقالت وهى تدلها : أجيبى بدقة على أسئلة الطبيب أيتها البنت الخبيثة ... ثم فكرى فيما يصيب لوسيان المسكين لو رآك فى الحال التى كنت عليها ! وأنت يا سيدى الطبيب أرجو المعذرة من مثل هذه المقابلة؛ وإذا احتجت إلى فدق الجرس فأعود سريعاً

وما كادت تقفل الباب حتى قامت لورز وقالت لى : « لا داعى لتوجيه الأسئلة إلى يا سيدى الطبيب فليس بى من مرض وإنما صعقت عند مارأيتك تنظر إلى تلك الصورة التى وضعتها أمى هناك خصيصاً لك لكى تهنئنى . إنها صورة خطيبى الحقيقى لا الذى جاءك فى باريس ... » وعند ما رأت عجبى قالت : « آه . لا يمكنك أن تفهم ... إننى أنا التى أردت أن يطلب لوسيان من أحد أصدقائه — وهو زميل أنقذ لوسيان حياته فى نردان فأصبح يخلص له إخلاصاً أخوياً — أن يلعب هذا الدور فيذهب

إليك بدله متسمياً باسمه للحصول على الشهادة التي ما كنت تقبل أن تمنحها له هو الذي يعرف نفسه ممرضاً ذات الصدر فيمتنع زواجنا وكان لا بد لي أن أتزوجه » . ثم عادت فقالت وهي تشد على معصمي بقسوة وحشية هذه المرة : « لا بد لي » . ثم بصوت متحشرج : « إنني حليلته وأنا حامل » ثم وضعت كفيها على وجهها وأخذت تنتحب وتنشج وهي تواصل اعترافها المحزن :

— عرفت من أبي في الساعة السادسة أنك جئت إلى هنا وأنك ستأتي هذا المساء لتتناول العشاء. لم يكن ثمة مناص من وقوع المأساة وانكشاف الحقيقة فطرد لوسيان من بيننا عند ما تقول : « ولكن ليس هذا الذي جاءني في باريس . . . » فماذا كان يحدث لي أنا المدلهة بحبه ! . . خرجت معتذرة بعذر ما وجريت إلى الفندق الذي نزلت فيه والذي عرفت عنوانه من أبي ... ولكنك لم تكن هناك فعدت إلي هنا ولكن بعد أن كانت قد وضعت الصورة في الغرفة . ولحسن الحظ أنها كانت طلبت منك أن تبدر قليلا عن الموعد لأن صحتي أهتها. وكانت كثرة الاضطرابات النفسية قد أتعبتني فوطنت النفس على أن أسارحك وأن تعرف كل شيء إذ ماذا كان يحدث لو أجبت على سؤال والدتي : «تشبهه؟ ولكنني لا أعرف الأصل ... » أكرر لك القول هناك كانت المساة بل الكارثة . ولكنني لحسن الحظ شعرت بالألم قبل أن تتكلم ... والآن هل ستتكلم ؟ .. فقلت لها وقد تملكني الفزع من هول ما سمعت « ولكن واجبي يا آنسة ! .. إنك تطلبين مني شهادة زور وشهادة زور تتعلق بجنحة » .

كانت قد انتهت من البكاء فخدجتني بمصرها وقالت لي بعزم أشعرني بأنها لن تتنازل عما قررته

— ليس الوقت وقت مناقشة وقد أوشكت أمي أن تعود فخبرها في الحال إذا كنت اتتويت إخبارها فتكون قد رحمتني لأن هذا الشك يقتلني ، ولكن تيقن من أنني عندما أخرج من هذه الغرفة سأذهب لأنتحر ولك الخيار الآن فيما تقرر ...

وجلست إلى منضدة الزينة وأخذت تصفف شعرها بهدوء أمام المرآة كأن الحديث الذي تبادلناه كان حديثاً عادياً . وكنت أرى وجهها الجميل وقد هدأ الآن كما يحدث في الأزمات الداخلية إذ تتركز الثورة في قرار يتفذ النفس منها فترتاح إليه مهما يكن الشر المنطوي عليه . ماذا يجب عليّ إذاً أن أصنع ؟ وما هو واجبي ؟ وهل تهديدها بالانتحار صادق ؟ ولكن وجه الفتاة الثابت أزال كل أثر للشك من مخيلتي ، فإذا تكلمت انتحرت ، ولكن لو سكت عن واجبي لكنت شريكا في هذا الخداع ولكي يقبل خطيب هذه الفتاة النسمة الموافقة على إحلال آخر محله في مسألة الشهادة يجب أن يكون إما ضعيف الارادة إذا كانت الفكرة فكرتها أو سافلاً إذا كان هو الذي فكر في هذا الخداع. المقوت . وثمة إغواؤها وحملها منه ! هل يجب أن أشترك في هذه المخازي بكذبي على أمها التي ستكون هنا بعد بضع دقائق . هذه الأم ذات النفس العالية والاخلاص وكرم الأخلاق ! هذه الخلال التي كثيراً ما رهنت عليها في المستشفى ؟ هاهي ذي تقترب فعلاً . إذ تنبهت حواسي كما يحدث للانسان في الأحوال العصبية الشديدة ، فسمعت وقع خطواتها

فى الغرفة المجاورة كما سمعته لويز أيضاً . فالتفتت واتجهت نحو الباب ونظرت إلى مرة أخرى وهى ملازمة الصمت ، فتبين لى أنها ستقف هناك مستعدة للخروج إذا دلتها كلتا الأولى على أننى لا أوافقها. فهل كانت تخبئ سلاحاً أو قارورة سم أم كانت تفكر فى إلقاء نفسها من نافذة غرفة مجاورة ؟ لم يبق ثمة مجال للتردد بعد أن تيقنت أن وقوع المصيبة — التى لا يمكن تلافيها لو وقعت — متعلق بى . فان الكلام معناه قتل هذه الطفلة المسكينة التى باحت إلىّ بسرها المشؤوم ووضعت مصيرها بين يدي . وفجأة اتخذت قراراً كما يحدث كثيراً لأحد الجراحين أثناء إحدى العمليات الصعبة إذ تطرأ له فكرة فيتخذ قراراً حاسماً ، قلت لنفسى : « ماذا تخشى الأم أن يمتاز ابنتها مصدور فتحمل منه ؟ إنها لم تستطع منع هذه النكبة فما الفائدة من إخبارها إلا وقوعها فى نكبة أعظم ! إذن فواجبى كطبيب يعرف ما عرفته وما يمكن حصوله بل ما لا بد حاصل — هو السكوت

وبينما والدتها تدخل المخدع فاجأتها قبل أن توجه إلى أى سؤال بقولى : « اطمئنى ياسيدتى . ليس بالآنسة شىء سوى بعض الإعياء وهو طبيعى فى الأحوال الراهنة . فهناك التعب فى إعداد معدات الزواج . وليس لدى ما أصفه لها بل أنصحها فقط ألا ترهق نفسها »

لم أكن مزهوّاً طبعا وأنا أنطق كلماتى هذه التى جعلتنى أس هذا التواطؤ الذى اتمأزت منه نفسى فى مبدأ الأمر . وبدل أن تلطف نظرات الفتاة التى كانت تبرعن الشكر من حدتى أهاجتنى كأنها كانت سبة موجهة إلىّ . وبعد دخول والدتها وسكوتى عدنا إلى غرفة الاستقبال الصغيرة حيث كان يجلس والد لويز وخطيبها الذى عرفته من مشابهته للرسم . فلم يظهر على الاندهاش عند ما تقدم لمصافحتى وهو مضطرب مما يدل على الخجل الذى كان يساوره والذى كان يجب أن أقدره له، ولكنى لم أر فى موقفه إلا دليلا على الرياء والخداع . إن هذا العشاء الذي جمع الأسرة وبعض الأصدقاء كان طويلا ومؤلما بالنسبة لى، فان مرح لويز الذى كنت أظنه مصطنعا كان يثير اشمئزازى كلما قهقهت مناحكة، وكان السرور البادى على باقى الأضياف يؤلمنى أشد الألم، وكان شعورى أمام هؤلاء الناس السليمى النية بأننى حامى الرياء يضاعف وخز ضميرى . ولم أتخلص مما انتابنى إلا بعد انتهاء العشاء إذ بادرت بالهرب مدعيا التعب بسبب السفر وواعدا بالعودة فى اليوم التالى للفطور بينما صممت على مغادرة المدينة فى نفس الليلة بقطار الساعة الحادية عشرة على أن أتخلص من وعدى تليفونيا عند وصولى إلى الفندق بدعوى ورود برقية تدعونى إلى العودة سريعا إلى باريس . وهذه كذبة أخرى ولكنكم تدركون طبعا أننى اغتفرتها لنفسى.

أما الكذبة الأولى فكم كانت تؤلمنى وأنا عائد مضطرب الخاطر مثقل بالهموم

قلت لكم عندما بدأت هذه القصة إنها أثارت ألمى وحزنى إلى أقصى حد ، وإنها كانت فى نفس الوقت عزائى فى مهنتى . وها كم تفسير هذا التناقض فقد عدت إلى باريس بعد تلك الليلة المشؤومة مثقلا بالهم الذى اشتدت وطأته عندما وصلتنى الدعوة الرسميّة إلى هذا الزواج الذى لعبت فيه بواسطة سكوتى دوراً يتنافى مع نزاهتى وصراحتى . فكم ندمت وقتئذ على سكوتى بل بلغت درجة الندم أننى برغم أبسط قواعد الأدب لم أرسل رداً ولو برقياً على هذه الدعوة . تصوروا مقدار تأثرى بعد يومين

2017-11-1

من الحفلة التي كنت أعلم ما انطوت عليه من الغش عندما رأيت لوز نفسها تدخل مكتب السيادة وتجلس على نفس المقعد الذي جلست عليه أمها منذ ستة أسابيع . ثم رأيت لوز نفسها مشرقة الوجه تهتز طرباً فقالت لي عندما رأت صمتي ووجومي — فهل كنت أستطيع أن أرى في هذه الزيارة إلا منتهى الفجاءة؟

— نعم ! هذي أنا يا سيدي الطبيب . أنا التي كنت أرغب في طلب غفرانك . لقد أدركت تماماً مقدار ألمك أثناء ذلك العشاء فأقسمت أمام نفسي لآتينك لأشرح لك الأمر في باريس . وهذا ما دعاني للحضور . ثم إنني لا أحتمل أن تظن في زوجي أنه لم يرع الشرف وجعل مني خليلته قبل الزواج . إن هذا عين الخطأ لأنه ما انفك يحترم تلك التي ستحمل اسمه . أما هناك فقد كذبت عليك ، وإنني أتوسل إليك أن تسامحني من أجل هذه الكذبة لأنه كان يجب عليّ أن أمنعك بكل طريقة من إخبار والدي بارسال بديل من لوسيان بعد أن عاينت ما عانيت في إقناعه ، لأنني أنا التي فكرت في هذه الطريقة للحصول على الشهادة التي فرضاها عليه . فلما جئت إلى هناك ، وجعلت تنظر إلى الصورة ودخلت أنا ووالدتي جننت فزعاً فوضعت نفسي أمامك بالمار ونطقت بكلمة الانتحار لأرغمك على السكوت . هل كنت أنتحر لو تكلمت ؟ لا أظن ! لأني أحب لوسيان إلى أقصى حد ، بل كنت أهرب من البيت وأرتمي بين ذراعيه طالبة منه أن يأخذني ضارية صفحاً عن الزواج الديني . ولكني جبانة ففعلت أخيراً ما فعلت . لك أن تدينني كما تشاء ، ولكن لوسيان يجب أن يسترد اعتباره لديك لأنني عندما رويت له ذلك الفصل المروع أراد أن يكتب لك ، ولكني رجوته في أن يدع لي أنا الاعتراف لك بالحقيقة . إنني أشعر بالحاجة إلى أن تحترمه وأن تراه كما هو على حقيقته ، فكم أبنه ضميره وعذبه لأنه أرسل صديقه إليك بديلاً منه . أكرر لك القول بأنني أنا التي أردت ذلك ، وإنني كنت أحبه فوق الطاقة

كثيراً ما فكرت في أنه ينبعث من كل فرد منا إشعاع ينتقل منه إلى الآخرين بواسطة الاشارة أو النظر أو الحيا وأن هذا الاشعاع يوجد بين الأشخاص إما تنافراً قوياً وإما توافقاً لا يقاوم . وإلا فكيف نفسر الانقلاب الذي أحدثه هذا السي الجديد الذي كان لي من الأسباب ما يجعلني أعتقد أنه ينطوي على مكيدة جديدة مستترة بعد أن عرفت عن لوز أنها أهل لخبثك مكرها ، ولا أظن أن أي كلة مهما قست لا تصح أن تكون نعتاً للطريقة التي استعملتها هي وحبيبها للحصول على شهادة الصلاحية للزواج الزورة . ألم تتهم هي بذاتها نفسها بأنها مثلت أمامي دور الحيلي ودور المنتحرة اللذين أخفاني في هذا الشق الذي ما زال ضميري ويخزني بسببه كل يوم ، ولكني عندما كنت أشاهدها وأستمع إلى كلامها وأرى تأثرها وحماستها تتمحى كل تلك الأسباب فجأة وتعود لوز في نظري تلك المرضة الصغيرة التي كانت في المستشفى والتي كنت أقدر فيها إخلاصها على صغر سنها . ولعل شيئاً من العطف الذي امتزج بتقديري لها هو الذي جعل إغضاءها لي بتلطتها الأولى أشد وقعاً وأكثر إيلاماً كما جعلني أشعر بالمزاء لدفاعها عن براءتها . وعلى كل حال فقد رأيتني أجيبها :

— ليس ثمة ما يدعو إلى طلب الصفح يا سيدتي .

فقاطعتني قائلة :

— كنت في المستشفى تدعوني لوز

فقلت لها إنني أفدرك الآن يا لوز كما كنت أفدرك هناك . لقد جزت دقيقة عصيبة جداً عندما سألتني أمك عن الصورة ولكن يجب

أن تطلبي الصفح منها . فقالت :

— لا وجه لذلك إذا أنقذت زوجي لأنها كانت تريد ألا أتزوج مريضاً وكنت أنا موقنة من أنني سأخلصه . نعم إنه مريض ولكن بقدر يسير وما دعاني إلى الالتجاء إلى الطبيب الذي طالما رأيته يصنع العجائب عند ما كنت ملحقة بخدمته إلا لكي يعني بزوجي العزيز ويشفيه لي

لقد قبلت وبمساعدتها القيمة أمكنني أن أرى هذا الطبيب الذي ما كنت أوافق على زواجه ألبتة لو كان هو أني بنفسه لأخلص عن دائه كما طلبت منه والدة لويز الدلفة . حقا لم يمس المرض رئته إلا مساً رقيقاً، وهو الآن وبعد مضي ست سنوات وبفضل عنايتها هي على الأخص قد أصبح بمنجاة من كل خطر . وقد أنجبا ثلاثة أولاد هم مضرب المثل في القوة والصحة ، وقد ولد أولهم بعد الزواج بعشرة أشهر وهذا دليل آخر على أنها انهمت نفسها . ترون من هذه القصة أن فائدة شهادة الصلاحية للزواج ليست أكيدة كما يبدو لأول وهلة ، ولو أنها كانت مفروضة فعلا لما وجدت هذه الأسرة السعيدة . هذا ولكم أن تستخلصوا من هذه المأساة التي اشتركت فيها النتيجة التي تحلو لكم، أما أنا فقد خرجت منها بهذه الحقيقة المؤثرة برغم بساطتها، وهي أن المرأة التي تحب حبا حقيقيا لا تثنيها عن عزمها سموءة ماء فأطهر النساء تقدم على إتيان أحط الأمور وأوأنبلها لتحقيق غرضها ، وإنه لمن عجائب الطبيعة وجود قلب كقلب لويز الذي يصنع العجائب وأمامكم هذا الزواج وهذا الشفاء أكبر دليلين على ذلك .

عبد الله الرباشي

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والايطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)
٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)
١٨ نباتات الزينة المشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)
١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البذور المصرية بميدان ابراهيم باشا

عبد المعطي المسيري
يقدم كتابه الثاني
الظامئون
به القصص الآتية :
وكدى . بيني وبين نفسي . بيت الحظ . أول غرام . الصعاليك
قدم له القصصي العظيم
محمود تيمور بك

لوحات فنية للأستاذين : بدر أمين وشفيق رزق الله
يطلب الكتاب من مؤلفه بقهوة رمسيس بدمنهور ومن مكتبة النهضة بمصر ومكتبة فيكتوريا بالاسكندرية
الثمن خمسة قروش صاغ

يد الهندي

للكاتب الأمريكي: لورنس استودارد

بقلم السيد محمد العزاوي

هب الرجال إلى أعمالهم متدافعين عليها متوائبين؛ وبعد أمد قصير كنت ترى عرباتهم وبغالهم تختفي خلف الهضاب القائمة بأقصى الأفق، وكنت تراهم يبدون من آن لآخر، حين تسمح لهم بذلك فروج الغاب والهضاب، فكأنهم زوارق ينشاها موج كالظلل من حين إلى حين ... وكانت صيحاتهم المرحة تخفت رويداً رويداً كلما بعد الركب واختفى في ضباب البعد بين أدغال وأحراج ...

ومكث الصبية بالحي والنسوة، وبقي معهم رجلان من الخوالف قد وهن العظم منهما واشتعل الرأس شيباً. وقد كان الركب بحاجة إليهما ليصحبا الصيادين في رحلتهم هذه «فأي أذى يلحق بالحي وضح الضحى ما دامت الدببة والنمر بعيدة في الأدغال؟ وعلى أية حال فسوف يأتي الركب محملا عربتيه بصيد سمين مع المساء». وقال لهن جيم الصياد: «سوف نحمل لكن الدببة على البغال فلا تخشين بأساً ولا توجسن شراً» فتصايح الغلمان ورقصوا طرباً إذ تصور كل نصيبه في المساء بين يديه ينهشه ويقضمه في شوق ولهفة؛ بينما النار تلفحه بصهدها ولظاها ...

وأمسكت أنثى غضوب بملها، وصاحت به في خوف وهلع: «ولكن الهنود الحمر..» فأضحك ذاك الجمع كله، وصاحوا: «بالهنود ...! كيف؟! إن أقدامهم لم تطأ هذه البقعة منذ عشرين عاماً، وكانت عليهم حجراً محجوراً. لقد كسحناهم إلى مكان بعيد خلف ذلك السهل الذي ينبطح تحت أقدامكن واستراحوا إلى تلك البطاح التي تسفع رمالها الهاجرة فتصهر عظامهم وتحرق أقدامهم إذا ما ساروا أياماً بطلبون الماء فلا يكادون يشربون»

فقالت المرأة الغضوب الشاحبة: «ولكنهم مرة عادوا. إنهم لا يحفظون لنا إلاً ولا ذمة». فصاح زوجها الذي غطت صدره لحية شهباء: «نعم لقد أتوا مرة فأحرقوا لنا كوخين. ضرب صغير ما أحدثه الكلاب». فضغطت الزوجة على ذراع بملها لتسكته خيفة: «صه!». وصمت الرجال من حولها متظاهرين بربط اللجم وإحكام السروج ولكنهم كانوا يرسلون ببصرهم خفية إلى فتاة لبست سواد الحداد؛ وقفت برهة ثم دخلت بيتها من دونهم. فقال ذو اللحية وهو يلتقط بندقيته:

— حقاً لقد أنسيت طفلها؛ وما أنسانيه إلا الشيطان!

وشدوا الرحال في طراوة الصبح وغرة الضحى إلى الجبال حيث الصيد والشجر ... وبدأت الظلال المستطيلة تتقلص ما سبحت الشمس في السماء ...

وعادت الثكلى إلى بابها فوقفت جواره. ولم يحيها أحد فيقربها سلاماً، وعادت كل امرأة إلى كوخها، وبقي الغلمان يلعبون أمام المنازل الأخرى صاخبين ضاحكين، يثيرون في لعبهم عثيراً وتراباً، ما أسعدهم! إن أمامهم يوم لهو طويلا

ولكن المرأة ذات السواد واقفة ما تزال،

ساكنة ما تتحرك ، قابضة بيدها على الأخرى ، شاخصة لا تطرف ؛ مرسلة بصرها — خلال السهل — إلى حيث ضاع طفلها — إلى الكسيك

كان وجهها ناحلاً هزيلاً ، فلامحه حادة ناتئة قد لوحته الشمس بحرها فأكسبته سمرة قانية لم تكن له من قبل وقد كان صبوحاً ... لم يكن حيا بوجهها إلا عينيها السوداوين اللامعتين ، فقد كانتا تورقان ببريق غريب

وكان كوخها بعيداً عن الأكواخ الأخر ، يقوم على سفح هضبة تواجه الأبطح القفر

إنها سمعت قول ذى اللحية الشهباء : « ضر صغير ما أحدثه الكلاب » أنسى حينذاك طفلها ؟ وكيف ينساه وقد وقفت تذكرة لن ينسى ؟

بالقرب من كوخها تقوم صخرة كتب عليها « ذهب ويسلى ، ٦٩ » . لقد احتفرت تلك الحروف يداها فى آخر مكان لعب فيه طفلها العزيز ، وادكرت كيف تركته وانسلت ، حتى لا يبكى ويلح فى استصحابها، تركته دون أن تحتضنه أو تلثمه . يا للأسى ! وهنا ضربت ذات السواد بيديها حيطان كوخها :

— ويحى ! من لى بتلك القبلة ، وأموت !

ولكنها ذهبت إلى جارتها الشاحبة ولم تكن شاحبة إذ ذاك أو أرملة مثلها ، بل عروساً هانئة ضحكتا ما شاء لها الضحك ، وتحدثتا بما سمح الحديث. وإنها لتذكر أنهما كانتا تتحدثان عن النازلين الجدد فى الحى . وكان يوم عطلة فغنمه الرجال فاغتدوا إلى الغاب يقطعون منه الشجر والغصون ليبتنوا أكواخاً لهم ومنازل . وبينا هما تتحدثان فى سرور وجذل إذا بهما تسمعان ما ظنتاه نباح كلب يعدو بين الهضاب والغيران ففزعتا إلى النافذة فبصرتا بخيل كثير تسبح فى الهواء سبحاً عند منعطف الطريق . وسمعتا وقع السنابك على الصخر سريعاً مدوياً ، وعلى ظهور الخيل فرسان تلهبها بالسياط والأرجل العارية ، فتنهب الأرض فى سرعة البرق وبطش العاصفة . وهنالك صرخت المرأة الشاحبة وولت الأدبار . لقد كانوا الهنود الحمر ، جاءوا ليعيثوا فساداً فى حي البيض

عم الفزع وساد الهرج ، ولكنها أوصدت من دونها الباب واستراحت إلى كوخها المتين ، وكانت تنظر من خصاص الباب فترى الأمهات يجرين على الهضاب جازعات هاربات ، وبأيديهن أطفالهن الصغار

أطفالهن ! ... وأين طفلها العزيز ؟

لقد تحولت إذ ذاك إلى صنم من صخر وفتحت الباب ...

وتجاذبها الهنود ببأس وقوة فشمشوا شعرها وضربوها حتى كادت تموت . ولكنها دافعت عن نفسها أحسن مما يدافع عشرة رجال سوياً . وماذا تعمل وقد كان هناك عشرون رجلا وهي وحيدة كمثل بين شرذمة من ذئاب جائعة ... كان الطريق مقفراً فلا شيء يدفع عنها عادية الهنود . وأمسك أحد بنحرها وضغط ، فكادت تموت خنقاً وضربها آخر على وجهها ، وصك صدرها حتى كادت تلقى حتفها . وجذبها ثالث على جواده — بعد أن أحرق كوخاً — وفر بها مسرعاً إلى قلب الفلاة . كانت يداها مغلولتين ، وعيناها غارقتين فى دموعها الثرة، ولكن لم يكن يعنيها من هذا شيء قدر ما يعنيها طفلها . « ترى الآن أين هو ؟ »

2017-11-11

وكان الرصاص — من وراء — يثر فوق رؤوس الهنود أذاً. لاشك أن البيض أنوا يتقنون عيالهم وجماهم . وفى الحق أنهم كانوا يعدون فوق الهضاب كأن بهم مساً أو جنوناً ، وفر الجنود عائدين كيلا تكون كرّة خاسرة ، فروا بكوخها وهناك كان الغلام — حيث تركته أمه — جازعاً مذعوراً . فلما أن قاربته لوحت له بيديها المتلونتين صائحة : « يا أحمق ! يا أحمق »

وهنا ضربت ذات السواد جبينها بيديها قائلة : « واحمق ! » لم لم تمر به دون أن تلحظه ؟

ولكنها توسلت وتضرعت ، ثم تشاجرت وناضلت لتصل إليه . ولكن الهندى توقف لحظة ليخطف الغلام ثم يسير سيرته الأولى

فكرت أثناء الفرار فيما عساهم فاعلين بها وبطفلها فحاولت أن تطلق سراحه فينعم بحريته ، ولكن الهندى كان ما كراً جباراً ...

وكان البيض يجدون فى العدو وراء الزنوج ، وفى ضرب الرصاص . وكان الجواد الذى كان يركبه الهندى — ممسكا بها وبطفلها — يجمجم من شدة ما يعانى ، ويجاهد فى العدو لاهثاً حتى كاد أن يصوم عن النفس . فهو يجر أرجله السابحة فى الهواء واهناً يكاد أن يبرك . ورأى الهندى ذلك ففرق بين الصبى وأمه فأسقطها حتى يكفى الجواد حملها . ولكنها قامت وعدت وراءهم غارقة فى التراب لا تكاد تبى من الأمر شيئاً. لابد أن يخطفوها هى الأخرى فدعتهم — وهى باكية تعدو خلفهم — أن يأخذوها فما سموا لها دعاء . وعثرت ولا مقيل من العثرة .. وصاحت ولكن لا مجيب . كان هذا كل شىء . فقصتها تنتهى هنا، تنتهى بين التسايح والفرار ، بين وقع السنابك والمفار ، تنتهى بطعم الطين فى فمها ، ونار الثكل فى حنايا الضلوع .. وألفوها على الرمال غالبة الوعى . ولما أن ثاب إليها الرشد وذهب عنها الروع ، ورعتها حيرانها الكثر ، سمت إلى كوخها الذى تقف الآن بيابه سامدة لا تنطق ولا تبين ، مقنعة رأسها لاتلتفت يميناً ولا يساراً، مرسلة بصرها خلال الرمال إلى حيث راح « غومسها » إلى المكسيك ...

وتعاقبت السنون وهى لا تزال وحيدة فى كوخها الذى كان يجب أن يعيش به « اثناء ». إنها الآن ترى غباراً يقوم بأقصى الأفق . تراه هنا وهناك — تذروه الرياح — من بين الهضاب يقترب داغاً ويعظم أبداً ، ولكنه كان هادئاً شفاً لا يمكن أن يحمل بين ثناياه أحداً حتى الهنود !

إن الغلام الذى تعرف قد مات ، ولكن القتلة أحياء بين أهلهم ينعمون . لو كان أحدهم بيديها الآن ... لأرته كيف يكون الثأر إذن ، وكيف يكون القصاص !

وطفقت ذات السواد تصور ماهى فاعلة به إذ هو بين يديها أسير ضعيف. لتريته الموت والفزع الأكبر ولتوسمنه عذاباً ونكالاً . ومن أقدر على ذلك من ثاكل موتور ؟! ورامقت النار فى المصطلى تستوثق من لهيبها ولظاها ؛ إذ زادتها كتل الخشب توهجاً ولهباً . وألقت فيها حطاماً وحطباً ، أتت به من الجبل بشق النفس . ولكن النار لم تزدد سعيراً . بل لم تكف لأن تشيع الدفء فيها ، فجثت أمام المصطلى ، وبصرت بالحديد يحمر قليلا قليلا . وتوهج اسم المصنع الذى صنع الموقد . وكانت الحروف كلها بارزة إلا المقطع الأخير من كلمة « كونجرس Congress »

2017-11-1

ولمست تلك الحروف والأرقام « S. S. 64 » بالمها من حروف ! فقد ادكرت كيف تركته أمام الموقد يوماً فأعجبه وهج الحروف والأرقام فقبض عليها فى براءة وسذاجة ، فهى منقوشة على يده منذ الصغر ، وإنها لتستطيع أن تعرفه من بين الملايين بتلك الآية البينة !

ولكنه مات ، وبقى الزنوج !

ووثبت ذات السواد فقد دارت بخلدها فكرة : « لم لا تذهب إليهم تتوسمه من بينهم . فربما ألفته بين ظهرانيهم . لا عائق اليوم يمنعها . فهى بعد أن ترتوى من الأماكن النزة فى السهل لا يهمها من أمرها شىء

إن الرجال فى حالم لاهون ، والنساء فى أكواخهن عاملات . فلن يبصر بها أحد فيمنعها عن المضى إلى حيث شاءت وشاء لها الجوى !

وتأملت ذات السواد ثم قامت فانحدرت على السفح فولجت الأحراج فهى فى المرج تسعى . وكان الجو لا يزال لطيفاً طريا ... ولا بد للصحراء من أخرى حتى تصل إلى المكسيك . إذن فسوف تجتازها بصبر وجلد . فجدت فى السير حتى أخذ العفار يخنقها ويؤذيها . ولكنها سارت على الرمل قُدُمًا لا تلوى على أحد . كانت تجد فى السير حتى إذا ما تعبت نظرت خلفها إلى كوخها القائم فى أقصى المدى ، ثم إلى نافذة الكوخ المجاور حيث تجلس المرأة الشاحبة

علا التراب حتى غرقت فيه قدماها وأسخطها، ولكنها مازالت تسير وتوسع الخطى . ولكن انخلع كعب حذائها فعوقها عن متابعة السير وأعياها . فجلست تبكى وتنشج . وفكرت فى العود كيما تلبس حذاءها الآخر ؛ ذلك الذى تلبس أيام الأحد . وبدت لها الهضاب بعيدة فعدلت عما انتوت ، وسارت إلى المكسيك سريعاً . على أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد خارت قواها ، ووهنت أوصالها ، فاستراحت إلى ظل صخرة ، وقد جف حلقها حتى كاد ينحطم ولا ماء بقربها يرويها . فعزمت على أن تعود وتبدأ مع الفجر مرة أخرى ، تكون فيها أشد على البلاء وأقوى ؛ أو تذهب فى الليل حين تسمح لها طراوته بأن تتقدم مسافة لا تستطيع القفول بعدها

وعادت فى الرجوع أعوالاً وشداد . وأخيراً بلغت التل ، فبرزت لها — من كوخها — الجارة الشاحبة وحيتها ، فلم تجب ذات السواد ، بل دخلت الكوخ وأغلقت من دونها الباب ، ثم تطرحت على السرير ، وجرعت من كأس الكرى جرعات ، ونامت على نغم الضباب وقرع النافذة . وتنهدت المرأة الشاحبة وأرسلت بصرها بجوب السهل ، فبصرت بما بصرت به ذات السواد فى بيعة الضحى: بصرت بذلك الغبار الشف يسير قُدُمًا متكاثفاً متدافعاً ، وأحست برعدة الخوف تسرى بفرعها لما أن رأته يسير نحو الحى ، وقالت فى نفسها : « إنه يهب دائماً ، ولكن ليس بهذا الشكل المريب » . وأدامت إليه النظر ، ولكنها لم تر إلا تراباً ؛ وازدحمت برأسها الأفكار؛ غير أن فكرة سيطرت عليها : أن تذهب إلى زوجة العمدة فان لديها منظاراً . وسخرت منها السيدة ؛ وظنت أنها مخلوق جبان

ولم تقدر المرأة الشاحبة على أن ترفعه بيديها فقد علمها وعدة وزاد شحوبها . وتناولته امرأة العمدة — وكانت ما تزال ضاحكة نشوى — ونظرت خلاله فما لبثت أن علا وجهها قترة وغيض لونها :

2017-11-1

— إني أرى على البعد رأساً ...

فصرخت المرأة الشاحبة :

— إنهم منا الآن على أميال . فلا يزال لدينا وقت وفير

— له ؟

— لنهرب ...

— ربما كانوا أصدقاء وادعين ...

— كلا، إنهم الزنوج...! فالبيض مايستطيعون فى تلك الفلاة حياة ... لنهرب فى الثاب ... ! النجدة ... ! ساعديني ... ! حذرى النسوة واجمعي الأطفال، هيا ... !

واندفعت لبيتها ، بينما كانت الأخرى واقفة تصيخ السمع الرهيف ، وتخرص ماترى ... حقًا لقد أوجس قلبها خيفة ... وقد صدق الفؤاد ما رأى ، إن هذه إلا غزوة أخرى

وساد المكان هرج وتصايح مكتوم ... كل ينادى طفله وذويه ، وكانت الفتيات ينقلن من كوخ لآخر خشماً وبكيا ؛ يحملن ماعز عليهن تركه للبناة الظالمين غنماً . وتجمع النسوة والأطفال خلف كوخ كبير يحجب عنهن العيون الظالمة العادية

وقادت أبها الفتاة الشاحبة . ثم هرعت إلى كوخ صاحبتها ونادت فى صوت خافت واضح : « أى مارى ! مارى ! » ، ولكن أحداً لم يجب . فقد كانت ذات السواد تغط فى نوم عميق ، وترددت جارتها الشاحبة ... ولكنها أحجمت وأسرعت نحو أخواتها اللائى عدون خلال الشعاب إلى الجبال حيث أزواجهن بصيدهم لاهون

غشى المكان صمت القبور ... التراب لا يزال يزحف عاتياً جباراً ... النساء يلمأن من بين الجبال رؤوساً كأنها رؤوس الشياطين ... وذات السواد ما تزال نائمة ، تحلم أن قد حان حين الثأر ، ونعم الأوان ... ! وأنها تحمل بين يديها رأس هندي عتيد ... ...

وداعب الهواء نافذة الكوخ بشدة وجزع . فقامت ذات السواد وبين ضلوعها حس غريب ، وتحاملت إلى النافذة ، وأطلت منها ، فلم تر شيئاً فى السهول ولا فى الهضاب. ولم يكن بالطريق شيء إلا شال كبير قد سقط بمرضه . وانحنت صوب النار فبصرت بالفازعات الهاربات يجرين سامتات واجمات، وأبصرت بشمورهن تسبح فى الهواء من سرعة العدو . فألقت السمع ، فهال سمعها وقع ركيب غريب

وحينذاك تبسمت: « إنها نصرى » ! إنهم الهنود جاؤوا يعبثون بالحصنات والمتاع . ألا ساء ما يعملون

وجلست على طرف الوسادة مفكرة ... إن هذا ما كانت ترجو وتطلب . أفيكون دورها هذا ؟ أم لا يزال دورهم ؟

إنها تستطيع أن تقتل « راهرا »

ولكن أين سلاحها ؟ ... لقد استعار الرجال بندقيتها ...

فأين الآن فأسها ؟ ... إنها فى الطابق الأول إن الأرض لتمور مورا ، والخيل يكسح بعضها — فى الحي — بعضاً كأنها قطع الليل ، وتصايح الهنود ينبجس فى الطريق أمامها

هبطت الدرج سريعة ، وأخذت فأسها من مكانها بالحائط ، وكانوا قد بلغوا كوخها ، فأضاءت الحجرة قليلاً . وتفلت عاقدة العزم على أن تقتل منهم أحداً . ورأت بالباب « أحدهم » يحجب عنها الشمس بظهره العريض . فمضت على نواجذها

2017-11-11

وأخفت فأسها ثم طفقت تراقبه دون أن تطرف وامتدت يداه نحوها كالمخالب ، وبرقت عيناه كأنها نورية الزناد . ثم تقدم سوسيو فشلكها رعب وفزع . فصرخت صرخة خافتة ثم تخطته فقفزت إلى الدرج وأسرعت الخطو . وبينا هي تصعد رمت غريمها بمقعد كان أمامها كي يعوقه ذلك عن اللحاق بها ، ثم ارتقت سلماً آخر إلى «صفة» بأعلى البناء دخلتها ، فأوصدتها ؛ فارتمت على بابها ، ثم طفقت تنتظر ، وساد السكون إلا في الخارج ، حيث تسمع صيحات بعيدة . وجثت على الأرض تخبرها بسمعها. إنها تسمع ترديد النفس في صدر كبير ... وتلفتت حولها فاذا بها ترى عيناً مبصرة تحدق فيها من شق بالأرض ، ولكنها ظلت واقفة قابضة على السلاح

ولت الباب ظهرها . ولكنها « أمست » بأن هناك شيئاً ، فاستدارت فرأت يدا — ذراعها تحت السقف — تبحث عن قفل الباب لتفتحه

ورفعت المرأة فأسها فوق رأسها ... ولست الأنامل قفل الباب وفتحته في هدوء ...

وحينئذ هوت الفأس — بكل ما ولده الثأر من بأس وقوة — على رسغ يد الهندى فقفزت إليها اليد ... وسقط الرجل موجعاً

وساد السكون مرة أخرى ...

وبلل دم الجريح وجهها فأدفأه ...

وسمعت في الخارج تحطيم كوخ يحترق ... فقصف الرصاص من بعيد ... فصيحات تتغالب البعد السحيق . وسارت إلى نافذة الصفة . فرأت منزل العمدة يحترق ... والهنود يتراجعون تاركين جواداً واحداً يرعى . « انها » تعرف صاحبه ! إنه « أحدهم » جاء فساهم فكان من المدحضين . وبينا الهنود يسرعون في الفرار إذبهم يقفون على أثر صيحة علت من باب كوخها . وبرز إليهم هندي وسيم يحمل ذراعاً رسمها يدى . فدعاهم بلمته للأخذ بثأره . فأسرعوا مهطعين إلى الداعي فدلهم على مكان المرأة «التكلي» فأرسلت عيناها الحمم ، وودت أن تقتله . وأدلت رأسها من النافذة مهددة بقبضتها : « أحد الهنود على الأقل ! » ورمتهم بالفأس ولكنها أخطأتهم . فأطلقوا عليها الرصاص مراراً ، ولم يصبها ...

والآن قرب الرجال ، فلما أن وجدهم الجريح مسرعين إليه نكص على عقبيه ؛ وأسرع فاعتلى الجواد ... وجمح يريد اللحاق باخوته ... وضحكت المرأة إذ يمر بكوخها . ثم جلست على الأرض أمامها قدر كبير من دم مسفوح

وعاد الرجال وما لبثوا أن تفرقوا لدى الهضاب : فتبع الهنود فريق في الأبطح وفريق للحريق ... وعلا الصياح وعمت الومضاء في الحي والغوغى . وزاد الصياح لما أن عادت النسوة والنشلان من مكامنهم. كل ذلك وهي جالسة وحدها حتى سمعت هتافاً باسمها . لقد اجتمع الجمع بكوخها ، وقالت المرأة الشاحبة «أين مارى» فأسرعت تهبط الدرج إليهم..

وأسرعت نحوها الشاحبة ، ولكنها صدقت عنها ، وأزاحتها من طريقها . ومسحت وجهها بكم ردائها وقالت :

— هل أدركتموهم فقتلتموهم ؟ أما قتلتم منهم أحدا ؟

فقالت صاحبتها « كلا يامارى ! لم نقتل أحداً» وأجاب ذو اللحية «لا ضرر أصابنا هذه المرة» ..فقالت امرأة العمدة «إلا كوخي فقد أكلته النار ، ولسوف نبتني كوخاً آخر » فصاحت ذات السواد :

— أنا لا أعنيكم أنتم ، ولكني أعني أولئك المردة الهنود ، هل قتلتم منهم أحداً ؟ هل قتلتم أحداً

يا حبيم ؟ وأنت يا ذا اللحية ! أما قتلت أحداً ؟

فأجاب الرجال : « كلا ! » وقال آخر : « لقد كانت جيادهم أسرع من جيادنا فلم نلحق بهم » . فقالت المرأة فى زهد وكبرياء : « لقد ظفرت بواحد لم أقتله ، ولكنى فعلت به أشد مما يفعل القتل ... مهلا ! » ثم اندفعت إلى الدرج ، فتراجعت النسوة مذعورات والرجال يرمق بعضهم بعضاً

وأخيراً عادت ذات السواد ، وفى يدها شىء رمته على النضد . « إنها كف أحد المغنود ... سوف تفسد ذراعه ، فيدعونه يموت على الرمال . أرأيتم كيف عذابى وعقابى ؟ » وفزع النسوة واقترب الرجال ، ولكنهم لم يلمسوا الكف البتراء فصاحت بهم ذات السواد :

— أفكنتم تتخذون كلامى هزواً ؟ أفرأيتم كيف تجبنون وتخشون لمسها ؟ !

وأمسكت باليد — باسمة بسمة نصر وازدراء — وفتحت أصابعها ، فوقعت اليدُ على النضد ، وسقطت على الأرض ، وانتسف وجه المرأة وبدت عليها علائم التفكير ... ثم صرخت المرأة صرخة قوية واستدارت نحو الحائط ، بائسة شقية ... وحاولت المرأة الشاحبة أن تصل إليها ، ولكن زوجها أمسك بها واقترب من النضدة قليلا ، ثم أمسك بالكف فى حذر كثير ... وتردد برهة . ولكنه فعل مثل ما فعلت ذات السواد بخفة ومهارة . فتح أصابع الكف ، وهناك على الراحة قرأ تاريخها ، فى حروف بيضاء كبيرة « S. S. 64 » . ثم تذكر الشيخ كيف أتته مارى يوماً تحمل طفلها ! مضمدة يده التى كواها حديد المصطلى الحار ، من عشرين عاماً خلون . كانت اليد إذ ذاك صغيرة ، ولكنها الآن كبرت وتكتلت . وتهامس الجمع : « إنها كف ابنها » ... ودلفوا إلى الباب فى سكون وهدوء ... وأخذت الشاحبة زهرة من عروة ثيابها ووضعتها فى اليد السوداء على النضدة . ثم خرجت فى أعقاب الرجال والنسوة

لم تقلع ذات السواد عن التحديق فى الحائط ، ولكنها قالت : « دعوا اليد مكانها » فأجابها العجوز : « إنها على النضدة » ثم خرج وأوصد الباب بلطف وخفة ...

واستدارت الثكلى — وقد انطفأ الآن بريق عينيها — فأمسكت باليد ، وحلت عرى الثوب ، فوضعتها على موضع الفؤاد من الضلوع ، ثم أرسلت بصرها يعبر السهل فى أثر الركب يستقر عليه وهو يشارف المكسيك

السيد محمد العزابى

كتـــابان قيمان

سيظهران فى أواخر أغسطس

هكذا تكلم زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

اعترافات فتى العصر

للشاعر الخالد ألفريد دى موسيه

وكلاهما ترجمة الأستاذ

فليكس فارس

من أرسل ٢٠ قرشاً قبل صدور الكتابين عد مشتركا فيرسل له الكتابان إلى حيث يقيم داخل القطر أو خارجه «دون علاوة لأجرة البريد» ، ومن أرسل ٢٥ قرشا يرسل له أيضاً كتاب « رسالة الغفران إلى الغرق العربى » تأليف المترجم — العنوان : إدارة مطبعة البصير بالاسكندرية

نكث الأمومة

أقصوصة مصرية

للأديب نجيب محفوظ

عند ما أخذ قطار الصعيد يهدئ من سرعته كان نور الفجر الأزرق الحالم قد اكتسى بحلة فضية من ضوء الصباح المنير ، وقد فتحت السيدة روحية هانم عينيها مع بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس ، ولبثت لحظة مستسلمة لبقايا النوم ، ثم اعتدلت فى جلستها وأدارت عينيها الزرقاوين الفاتنتين فى أنحاء الصالون حتى استقرتا على وجه الأستاذ عاصم الذى كان يغط فى نوم عميق . فلاحت فيهما نظرة حب وحنان ، وكان من الضرورى إيقاظه لدنو القطار من محطة مصر إلا أنها لم توقظه قبل أن تقوم إلى المرآة الصغيرة الموضوعة بين صورة الكرنك وأجاممنون فتسوى شعر رأسها وتمسح خديها وجيدها بالبودرة المعطرة ... وتنبه النائم على لمس أنامله ذات الأظافر الأهرامية الحمراء ... وكان أول ما مس إحساسه من عالم اليقظة رائحة أنفاسها الزكية وهى تطبع على شفتيه قبلة شهية ... وفتحت النافذة وأطلت منها برأسها الذهبى كأنها شمس تشرق من الأرض ، فرأت بناء المحطة يدنو من بعيد فالتفتت إلى الأستاذ وقالت وهى تتنهد:

« وآسفاه ... انتهت سفرتنا »

فقال لها وهو يتمطى :

« هذه نهاية كل رحلة .. أما الحب فلا نهاية له »

فقالت بصوت جمله الشوق والوجد كلحن من الموسيقى الخافتة :

«أين أسوان أين ؟.. أين خلوة الصحراء تحتوينا معاً ؟ أين جدران المعابد تستر علينا ؟ أين زورق النيل يجرى بنا على سطح الماء؟ أين أناوأنت لانفترق ونتنهد معاً وجوه اليوم من الفجر والصباح فالضحى والأصيل ثم المساء ؟ ... واها .. »

فتنهد الشاب تنهدة هادئة لا تكتنهدتها الحارة وقال :

« سنعود إلى أسوان فى الشتاء القادم . أما من الغد فالى عش غرامنا المعهود فى شارع سليمان باشا »

« هيهات أن تعوضنا هذه الساعات التى ننتهبها انتهاباً من ذلك الشهر السعيد الذى كنا فيه جسما واحداً وروحاً واحدة »

وحاول أن يجيبها بمثل حماسها ، ولكن خذلته نفسه الهادئة الملولة فقنع بقوله «صدقت يا عزيزتى» ثم قام إلى النافذة الأخرى ففتحها ، وكان القطار قد بلغ المحطة وأخذ يرسل صفيره المدوى فى جوفها العظيم ، فأرسلا بناظريهما إلى إفريز الاستقبال ، وكان مزدحماً بالجمهور . وسمعت الأستاذ يقول :

« ها هم أولاء ... زوجك وحياة ومدحت »

فقلقت عيناها بين الرؤوس المشرئبة حتى اطمأنتا إلى رأس حياة الذهبى ، فرق قلبها حناناً وتحولت عن النافذة وانطلقت تمدو خارجة والأستاذ فى أثرها ، وعلى الأفريز هرع إليها مدحت وحياة وهما يصيحان : «ماما» فتعانقوا عناقاً حاراً ، ولما تخلصت منهما رأت زوجها الشيخ وهو فى عباءته الفاخرة ، وطربوشه مائل إلى الخلف يبدى عن

2017-11-11

شعره الخفيف الأبيض فجمدت عيناها وتقدمت إليه ومدت يدها فسلم عليها واجماً ووضع يده أيضاً فى يد الأستاذ عاصم ... وساروا جميعاً إلى الخارج، الزوج فى المقدمة وخلفه الزوجة بين مدحت وحياة ومن وراء الجميع الأستاذ... واستقلوا السيارة التى انطلقت بهم فى طريق الزمالك ...

وجلس الزوج وزوجه وحياة فى ناحية وجلس فى الناحية المقابلة الأستاذ ومدحت ، واستطاع عاصم أن يرى حياة عن كثب لأول مرة إذ أنها لم تكن تقابله فى زياراته المتكررة لوالديها ، فعجب للشبه العظيم الذى بين الأم وابنتها فلم يكن يفارق بينهما إلا ما يفارق بين نضارة الشباب الأولى ونضوج الأنوثة الكاملة ، فكانت الفتاة كالياسمينة العبقة فى الغصن ، وأما الأم فكالوردة الناضرة فى الزهرية ...

وظلوا صامتين جميعاً حتى قال الزوج :

— كيف كانت الرحلة ؟ لعل صحتك تحسنت يا هانم ؟

فأحنت المرأة رأسها وتمتمت « الحمد لله » وقال الأستاذ :

— قل أن تنيب الشمس فى أسوان وهى أنجع دواء للهانم ...

فابتسم الرجل عن أسنان ذهبية صناعية وقال

— يسرنى أن أسمع هذا ، وعسى أن تسرّا بدوركما لأبنائنا ، فهنئا حياة بخطوبتها القريبة

واحمر وجه الفتاة وخفضت عينيها حياء ، والتمعت عينا الأم وبدا عليها الاهتمام ورددت نظرها بين حياة وزوجها وسألت بلهفة ودهشة :

— هل تمت هذه الخطوبة ؟

فقال الرجل :

— لايجوز أن تتم خطوبة فتاة فى غياب أمها ... ولكنها ستتم قريباً باذن الله

ونظر الأستاذ إلى الفتاة وقال مبتسماً : «مبروك» أما الأم فسألت :

— من هو ؟ وأجابها الرجل :

— طلعت، ابن شريكى

وسأل المحامى :

— هل هو موظف ؟ فقال الرجل بزهو :

— نعم ... وكيل نيابة

وأطبقت روحية هائم شفتيها فلم تفه بكلمة أخرى ، واستسلمت لأفكار غامضة فغابت عن الحاضرين ، وانتهت السيارة إلى الفيلا ودخلوا جميعاً ومعهم الأستاذ عاصم

ولكنه استأذن بعد قليل وانصرف إلى بيته القريب

***

كان السيد محمد بك طلبة من كبار تجار الشاى المعروفين بمصر وقد ربح من تجارته ثروة عظيمة تقدر بمئات الألوف من الجنيهات؛ وكان فى أخلاقه صورة من رجال طائفته الناجحين فى حسن التدبير وعلو الهمة والحرص ؛ وبالرغم مما تحفل به حياته من التجارب والمخاطرات، وبالرغم مما صادفه فيها من ويلات المحن وفرص النجاح ، فانه ما زال يعد زواجه أخطر حادث فى حياته ، وهذا هو اعتقاده الدفين وإن لم يصرح به ؛ وقد وقع هذا الحادث الخطير منذ عشرين عاماً — وهو فى الخامسة والأربعين — إذ كان يقوم بإحدى رحلاته التجارية بسوريا ، وقد التقى هناك بأسرة زوجه

وتعرف إلى والديها ، وكان الأب سوريًا والأم أمريكية . ورأى ابنتهما الشابة الفاتنة ساعة فوقع فى حبها وجن بها جنوناً وتحركت فى أعماقه غريزته التجارية غريزة الامتلاك فخطبها إلى والديها ولم يستدر ذلك الشهر حتى تم زواجه منها ، وعاد إلى مصر « بأعظم ريح وأجمل امرأة فى الوجود » كما قال لنفسه حينذاك ...

وبدأت الحياة الزوجيـة بنجاح لا بأس به ، وأثمرت على مر الأيام طفلين جميلين مدحت وحياة . فبشر مقدمهما الأسرة بدوام السعادة والمسرة ... ودارت السنون دورة سريعة فوجد البك أنه أخذ يجتاز الحلقة السابعة ، ويقنع من الدنيا بمشاهدة مدحت وحياة ، ويكتفى من الحب بتذكر أحلامه المنطوية ... وأما المرأة فألفت نفسها فى مكتمل الأنوثة ونضوج الشباب فلم تجمل نفسها القناعة من الدنيا بالأبناء والأحلام ، إذ كان شبابها عنيداً جباراً داثب الثورة على الزمن ... فتصدع ائتلاف الزوجين ، وعجزت شيخوخة الرجل عن كبح هذه الحيوية الثائرة فانكشفت أمام سيلها العارم وخلت لها المنحدر وانزوت مطمونة باليأس مذعنة بالتسليم

واتفق أن كان الأستاذ عاصم المحامى — صديق الزوج وجاره — السبب المباشر فى انفجار هذه الثورة الحيوية العنيفة ، وقد تحيرت (سالونات) الزمالك فى تحديد علاقته بروحية هانم ، فمن قائلة إن هذا المحامى الجميل ليس إلا صديقاً للأسرة ، ومن هامسة بأنه عشيق الزوجة ومتغفل الزوج ، ومن مؤكدة أنه عشيق الزوجة على علم وتسليم أو — على الأقل — تغاض من الزوج . وظل كل فريق على رأيه حتى ذاع خبر تلك الرحلة الشتوية إلى أسوان التى قيل فى تعليلها إن الأطباء نصحوا لهانم باستجلاء الصحة فى مصر العليا ، وأن الزوج — الذى تمتنع أعماله فى مثل هذا الوقت من السفر — عهد بالزوجة إلى صديقه المخلص المحامى الذى يسافر عادة فى يناير كل عام إلى أسوان ... هنالك قطع الشك باليقين واتفقت الآراء ...

وكانت روحية هانم لا تهتم بشىء اهتمامها بشبابها ، فكانت لا تنى عن العناية به والتفكير فيه حتى غدا ذلك وسواساً ومرضاً ينغصان حياتها بالمخاوف والأوهام ، وكانت كلما تقدم بها العمر يوماً تزايدت وساوسها واشتدت مخاوفها ، ذلك أنها كانت تحس فى أعماقها بلوغ قمة الشباب التى لا يعقبها إلا الانحدار ، وكانت تعلم أن شبابها هو سعادتها لأنها بدونه لا تستطيع أن تجذب إليها الرجل الذى تحبه والذى تعلم — مع الألم الشديد — أنها تكبره بما لا يقل عن عشرة أعوام ...

ولطالما تذكر ما قالت مرة امرأة — تملق لها الود وتكتم العداوة — فى مجلس لأخرى وهى تمنيها بالذات من أن النساء اللاتى يحافظن على شبابهن بعد فوات عهده يهرمن مرة واحدة بلا تدرج ... واها ... كم سخرت من رأى هذه المرأة وكم أرجعته إلى الحسد التى تحمله لها ، ولكن لاسخريتها ولا تظاهرها بالاستهانة أفادا شيئاً فى مغالبة الذعر الذى استولى عليها والرجفة التى استحوذت على أعصابها ... فغدت كالمجنونة يخفق قلبها جزعاً وإشفاقاً كلما طرقت أذنيها دقات الساعة

وجعلها ذلك فى حيرة بين حبها لمدحت وحياة وبين الخوف منهما ، فهما بلا شك لذة الأمومة التى تخفق فى صدرها ولكنهما آيتان على كذب شبابها ،

أما حياة فقد بلغت السادسة عشرة من عمرها وهي تخطو إلى النضوج بخطى سريعة تدل عليها معاني العينين ونهوض النديين ، وأما مدحت فتتمديه لها أشد إذ أن هذا الشاب ـ الذي لم يجاوز الثامنة عشرة ينمو نمواً خطيراً فهو فارع الطول جاهر الفتوة عريض المنكبين ، والأدهى من هذا كله غرامه بشاربه ومطاوعة الشارب له ، فالشاب يحب الرجولة ويستزيد منها حب أمه للشباب واستزادتها منه ... وقد كانت حريصة على استصحابه كلما خرجت حتى قالت لها مرة امرأة من صاحباتها : « ما أحرى الذي يراكما بأن يقول ما أسعدها من زوجين ! » ولم تدر ما إذا كانت المرأة تثني على شبابها أو تنمزه وعلى كل حال لم تستصحب فتاها بعد ذلك أبداً ...

على أنه لاح في أفقها الآن ما يستخف بجميع هومها السابقة ، إذ ما مدحت وما شاربه إلى زواج حياة المنتظر ؟ !

لقد بتتها الخبر ، وكانت البغتة من الشدة بحيث لم تدع لها فرصة للتدبر ولا للتفكير ولا حتى للتظاهر بالفرح أمام ابنتها إذ هما بالسيارة ... فلما ذهبوا إلى الفيللا خلت إلى نفسها بحجرتها معتذرة بتعب السفر ، وفي عزلتها عاودت التفكير في هدوء وإمعان فتوالت عليها الفروض والتصورات ، فهي لا تشك في أنه لولا الحياء لغنت حياة فرحاً وسروراً ، وأي فتاة لا تفرح للزواج ؟ وخاصة إذا كان الشاب في عنفوان شبابه وجيهاً في بحبوحة من الغنى والجاه سيداً في وظيفة تتيه على جميع الوظائف فلماذا باتت تنفرد في قلبها أطياف الحب وتحلق في جوها الطاهر أحلامه المذنبة ، فهي جد سعيدة بحاضرها ، جد آملة في مستقبلها ، ولا شك أنها تنتظر الآن أن تستعيد أمها راحتها من وعثاء السفر وأن تذهب إليها لتطبع على خدها الوردي قبلة النهنئة فتملن بها رضاها وموافقتها فتتم الخطوبة وتكمل السعادة

ولكنها إذا فعلت فستغدو الابنة زوجة وتمسي أمّاً فتسمع عن قريب من يناديها بقوله : « جدتي » جدتي ! » لقد نطقت بهذه الكلمة الشنعاء فدوت في أذنيها دوي النصوت والنواح فارتج لها جسمها البض وخفق لهولها قلبها العاشق ... وأحست ببرودة الخوف تسري في أعصابها سريان الجفاف في الغصن الرطيب ... وخيل إليها الوهم أنها تجلس إلى مقعد وثير وإلى جانبها ابنتها وعلى حجرها غلام وكأنها تسمعه بأذنيها يهتف بها : « يا جدتي » ورأت نفسها وقد ذوى جمالها وتغضن جبينها وغارت عيناها ورق خدها وابيض شعرها ... فانتفضت واقفة وكتمت صرخة رعب كادت تفلت من شفتيها ، وهزت رأسها بعنف لتطرد عن خيالها الأطياف المرعبة ، حتى إذا عاودها اطمئنانها صاحت « أبداً... أبداً ... لن يكون هذا » ولبثت ملازمة لحجرتها غير عابئة بما عسى أن يحدثه غيابها في نفس ابنتها العزيزة ، حتى ثقل الأمر على البك فاستأذن عليها ودخل ، وجلس قبالتها وجعل يرمقها بعينيه الحادتين وهو يرجو أن تفاتحه بالحديث ، ولما لم يدع له إصرارها أملا قال :

ـ أرجو أن تكون أسوأ قد شفت أعصابك

وأغضبها قوله ، وظنت أنه يتهكم عليها فنظرت إليه نظرة حمراء ، ولما شاهدت عينيه الحادتين وقر في نفسها أنه هو الذي سعى إلى هذه الخطوبة ، وأنه سعى إليها تأديباً لها وانتقاماً منها فهو أعرف الناس بها وأعرفهم ـ على وجه الخصوص ـ بما يسرها

وما يسوؤها ، واشتد بها — عند ذاك — الغضب فعضت على شفتها السفلى وأهملت الرد عليه ، فقال كالمدهش :

— مالك ؟ لست كعادتك ... والأعجب من هذا أنك لم تفرحى لما بشرتك به !

فاهتاجها الغيظ وقالت محنقة غاضبة :

— لن تتم هذه الخطوبة ...

فبدا على وجه البك الانزعاج وقال :

— ماذا تقولين يا هانم ؟

وأجابته بصوت صارم :

— أقول إنه لن تتم هذه الخطوبة ...

— كيف ؟ ... وله ؟ ...

— إن (حياة) ما زالت صغيرة السن

— ولكنها بلغت سن الزواج القانونية

— ماذا يفيد القانون إذا كان الزواج المبكر يؤذى صحتها ؟

— لقد تزوجت يا هانم فى مثل سنها ومع هذا فإن كل من يراك يشهد لك بالصحة والنضارة ...

فضربت الأرض بقدميها وقالت محنقة منيظة

— أنا داعًا أشكو من أعصابى ...

فضيق عينيه ورفع حاجبيه وقال بتهكم :

— ربما كان ذلك لعلة غير الزواج ...

فتقلبها الغضب واشتد بها الانفعال وقالت بصوت متهدج :

— باختصار لن تتم هذه الخطوبة ...

ولكن الزوج صر على أسنانه الصناعية وقال :

— لقد أطلقت لك الحبل على غاربه وملكتك حريتك الكاملة وقلت لك منذ عامين « أنت وشأنك » ... ولكنى لم أتنازل عن حقوق كوالد ولا أفكر فى التنازل عنها ، وإنى لأشفق من أن تضيع على ابنتى مثل هذه الفرصة الذهبية ، ولذا فإنى أعلنك — وإنى أعنى ما أقول — بأنى سأعقد هذه الخطوبة ...

فقامت غاضبة وأشارت إليه بيد مرتجفة وصاحت :

— وأنا أؤكد لك بأنها لن تتم ...

فهز الرجل كتفيه استهانة وغادر المكان وهو يقول « سنرى »

وصبرت الهانم حتى عاودها شىء من هدوئها ثم دعت إليها ابنتها ، وحدثتها حديثاً طويلاً عن حبها لها وحدبها عليها وتوخيها ما ينفعها وإشفاقها مما يضرها ، ثم خلصت إلى مادعتها — فى الحقيقة — من أجله فأعلنتها بأنها لا توافق على زواجها وأنها ترغب فى تأجيله بضع سنين خوفاً على صحتها ، ورجتها رجاء حاراً أن ترفض يد ذلك الشاب وألا تذعن لإرادة والدها ...

وصمتت الفتاة صمتاً بليغاً ، ولاذت به من الرفض أو القبول ، وعبثاً حاولت المرأة أن تخرجها عن صمتها ولكنها فهمت منه ، ومما طالعت فى وجهها من الحزن والاستياء ما أشفى بها على اليأس والقنوط ...

ولبثت الفتاة فى حضرتها ما لبثت ثم غادرت الغرفة ولم تنفرج شفتاها عن غير التحيتين ... تحية اللقاء التى نطقت بها فى مسرة وفرح ، وتحية الوداع التى قالتها فى صوت خافت بارد ... وحن جنون الأم وازدادت تشبثاً وعناداً ، ووقفت من الزواج موقف المقاطعة والتحدى . فلما جاء الشاب الخطيب لزيارتها أبت أن تقابله كما رفضت مقابلة أهله من بعد واضطر البك إلى امتحال الاعذار الكاذبة لها ،

2017-11-11

وبذل الرجل مافى وسعه لاقناعها بالتحول عن عنادها وتوسل إليها باسم ابنتها ، ولكنها ركبت رأسها وأبت أن تصغي إليه حتى انفجر مرجل الرجل وأقدم على الافضاء بالحقيقة إلى شريكه — والد الخطيبة — وشكا إليه قسوة امرأته التى تضحى بسعادة ابنتها فى سبيل شبابها الكاذب ... وطلب إليه أن يعاونه على إتمام الزواج — رغم إرادة الأم — إنقاذاً للفتاة من أنانية أمها المتوحشة ...

وذاعت هذه الكلمة التى قيلت سراً فى جميع الأوساط الراقية ، وتحدثت بها (الصالونات) حتى بلغت أذنى الأستاذ عاصم المحامي الذى بلغها بدوره إلى روحية هانم نفسها ولكن لم يكن هذا — ولا ما أصبح بيديه مدحت وحياة من الاستياء والنفور إلا ليزيدها عناداً وإصراراً ... ووجدت المرأة أن كل ما قيل وذاع لم يبق فتيلاً فى عرقلة الساعين إلى إتمام الزواج ، وكانت ترى فى نجاح مسعاهم القضاء الأخير على سعادتها وشبابها وغرامها ، فانبرت للدفاع عن نفسها دفاع اليائس المستميت واهتدت — فى قنوطها — إلى فكرة جهنمية شريرة لا تخطر على قلب أم أبداً ، وسارعت إلى تنفيذها بقلب أعماه الخوف والجنون عن البصر بالعواقب ، فقصدت يوماً إلى عشيقها وطلبت إليه أن يقنع ابنتها بالعدول عن الزواج ، وقد دهش الرجل وحق له أن يدهش وقال لها ...

« وما أنا ولهذا ؟ ... ثم إنه لم تسبق لى معرفة وثيقة بالآنسة حياة فلا أدرى والحالة هذه كيف يجوز لي أن أحادثها فيما هو من صميم شئونها الخاصة ؟ ... »

ولكن المرأة استهانت باعتراضاته وكذبت عليه فقالت :

« حقيقة أنك لم تسبق لك بها معرفة وثيقة كما تقول ولكنها تعلم أنك صديق والدها ، وقد سمعت فى بعض المجالس ثناء كبيراً على نبوغك في المحاماة فهى لاشك تقدر رأيك حق قدره وتنزله من نفسها منزلة سامية ... »

فتورد وجه الشاب وذكر وجه الفتاة الجميل الذى سعد برؤيته ساعة فى السيارة صباح العودة من أسوان ، فلم يستطع أن يرفض ولكنه قال متسائلا :

« فكيف لي بمقابلتها على انفراد لأحادثها فى هذا الشأن الخطير ؟ وإذا قابلتها فكيف أفاتحها به ؟ »

فتنهدت المرأة ارتياحاً وقالت :

لقد دبرت كل شيء ، سأستصحبها يوم الأحد القادم لشراء بعض الحاجات ، وعليك أن تقابلنا — مصادفة طبعاً — فى شارع سليمان باشا الساعة الخامسة مساء ، وتقترح علينا التنزه قليلاً على جسر قصر النيل فأتركها معك واعدة بأن ألحق بكما بعد دقائق ، وتنتظراني ساعة على الأكثر فان لم أعد نأت بها إلى شيكوريل حيث تجدانني ، وفى أثناء ذلك تستطيع أن تطرق الموضوع بلباقة المحامي وتفضي إليها برأيك فى الزواج المبكر ... ما رأيك الآن ؟ »

وقبل الشاب بسرور خفي ، فتركته المرأة وذهبت إلى الفيلا على عجل ، وأغلقت على نفسها حجرتها وأحضرت ورقة وقلماً وكتبت ما يلى بيد مضطربة وبخط جهدت أن تخرج به عن مألوف خطها :

سيدى الأستاذ ...

أنت شارع فى الزواج من كريمة محمد بك طلبة ولكن ينبغى قبل ذلك أن تذهب بنفسك كل

2017-11-11

يوم إلى جسر قصر النيل الساعة الخامسة مساء وخصوصاً أيام الآحاد »

ثم كتبت على الغلاف عنوان الخطيب ووضعت الخطاب فيه ، وترددت لحظة رهيبة ثم نادت خادماً وأمرته بوضع الخطاب فى صندوق البريد ...

وجاء يوم الأحد وخرجت الأم وابنتها وحدثت المقابلة مع الأستاذ ، وتم لها ما أرادت من تركها معه ، وذهبت بمفردها إلى شيكوريل وابتاعت حاجاتها ولبثت تنتظر حتى حضر الأستاذ وحياة وقد اعتذرت إليهما قائلة :

« أوه ... لقد تأخرت عليكما لأن المحل مزدحم كما ترياں . لا بأس ، أظن أنه ينبغى أن نذهب الآن. نستودعك الله يا أستاذ ... »

وفى الطريق لازمت المرأة الصمت وقد انتظرت طويلاً أن تفاتحها الفتاة بالكلام ولكنها ظلت واجمة كأنها تجهل اللغة التى تتكلمها أمها، واختلست المرأة منها نظرة فرأتها جامدة باردة لا تمير وجودها أدنى اهتمام فانقبض صدرها وتذكرت — آسفة حزينة — كيف كانت فى حضرتها لا تمل الحديث والضحك والمداعبة ، وضاق صدرها بصمت الفتاة فقالت تحملها على الكلام :

— كيف كان التنزه...؟ وماذا قال لك الأستاذ؟

فأجابتها بإيجاز قائلة :

— تحدثنا أحاديث عامة تافهة لا تستحق الاعادة

— وما رأيك فيه ؟

— هو جنتلمان

وكانت ترجو أن تعرف من إجابة الفتاة الأثر الذي تركه حديث الأستاذ فى نفسها ولكنها لم تستطع أن تدرك شيئاً ...

ولما خلت إلى نفسها ذلك المساء تنهدت وقالت « إن (حياة) لا تحاول إخفاء غفورها منى »

غفورها ! وما الغفور إلى جانب ما صنعت هي ؟ أى فعلة شنعاء ! أى إثم منكر ! إنها تعرف نفسها أكثر مما يعرف الناس ، وهي تعلم أنها سيئة التصرف ، كثيرة الأخطاء متسرعة هوجاء، ولكن لم يسبق لها أن أخطأت خطأ منكراً كهذا الخطأ. وماالها تسميه خطأ ؟ ولماذا لا تسميه باسمه الحقيقى فتقول إنه وجريمة ؟ فهو جريمة شنعاء لأنه ليس أقل من محاولة تلويث شرف ابنتها والقضاء على مستقبلها فى سبيل شهواتها هى . يا للفظاعة ! لو أمكن فقط أن يبقى هذا سراً مكتوماً، ولكنه لن يبقى كذلك لأنها فى الحقيقة وإن كانت فكرت تفكير شيطان إلا أنها دربت تدبير أطفال؛ فالرسالة التى كتبت قد تكفل لها فسخ الخطوبة، ولكن من يضمن لها ألا يتصل خبرها بزوجها ؟ ومن يضمن لها ألا يسأل الرجل ابنته عما جاء فيها ؟ وإذا صارحت الفتاة أباها بأنها هى — أى أمها — التى تركتها مع الماضى ذلك اليوم فما عسى أن يحدس الرجل ؟

أواه ! قد لا تكترث لغضب زوجها ولكنها على وشك أن تفقد محبة ابنتها إلى الأبد ، بل ابنها وابنتها معاً لأنه لا مدحت ولا أى ابن فى الوجود يستطيع أن يبر بمثل هذه الأمومة المتوحشة ، وأحست عندئذ بقشعريرة تسرى فى جسدها واستولى عليها ذعر لم تشعر بمثله من قبل وباتت فريسة الآلام والمخاوف ...

ولأول مرة منذ أن سمت بنياً خطوبة حياة اتجه تفكيرها نحو الخير فودت لو تستطيع أن تكفر

2017-11-11

عن خطيبتها يبذل التضحية الغالية وظلت تفكر صادقة مخلصة حتى قطعت عليها تفكيرها الحوادث. فعند أصيل يوم من الأيام رأت المرأة ابنتها ترتدى معطفها وتتأهب للخروج فسألتها برقة : « إلى أين ؟ » وأجابت الفتاة قائلة : « إلى السينما » فسألتها بتعجب « بمفردك ؟ » فأجابتها ببرود قائلة : « مع الأستاذ عاصم »

وأصاب الجواب منها مقتلا فاستولى عليها ذهول شديد وقالت دهشة :

« ولكنك لم تستأذنى أحداً ؟ »

فقالت الفتاة بشىء من الجفاء :

« استأذنت بابا وأذن لى »

« وهل طلب الأستاذ اليك أن تذهبى معه إلى السينما ؟ »

« نعم »

« متى ... وأين ؟ »

« على جسر قصر النيل ذلك اليوم ... »

وغشيت عينيها سحابة ظلماء فجمدت فى مكانها لا ترى شيئاً . ولما أفاقت كانت حياة قد غادرت البيت ...

وتيقظت غريزتها مرة أخرى ، فطفت على عواطف الخير التى تحركت فى قلبها منذ حين قليل وخنقتها كما يخنق الماء الأجاج الورد اليانع فذهبت تواً إلى زوجها وقالت له غاضبة :

— لم أذنت لحياة بالذهاب مع الأستاذ ؟

فقال الرجل بلهجة تهكمية :

— ولم لا ؟ أليس هو الصديق الصدوق لأمها وأبيها ؟

فاهتاجها الغضب لتهكمه وقالت وهى تنظر إلى وجهه نظرة غيظ وكراهية

— إنى أعجب من تصرفك هـذا ، أيجوز أن تأذن لها باصطحاب الأستاذ وأنت تسعى إلى تزويجها من رجل آخر ؟

فهز الرجل كتفيه وقال

— فسخ الرجل الآخر خطوبته

فخفق قلبها واصفر وجهها وتساءلت : ترى هل علم شيئاً عن الرسالة ؟ واستطرد الرجل قائلا

— عليك تقع تبعـة ذلك يا هانم فرفضك

— وما ذاع عنه — زهد الشاب فى الفتاة

ترى هل اكتفى الشاب بالانسحاب دون أن يطلع زوجها على الخطاب ؟ ليت ذلك يكون !!

وعاد زوجها يقول بقسوة لم يستطع إخفاءها

— وقد أخبرتنى حياة بأنك تركتها مع الأستاذ عاصم ساعة فى قصر النيل فظننت أنك تفضلينه على الشاب الآخر فلما استأذنتنى فى الذهاب معه أذنت لها وقلت لنفسى لا على من هذا، فعاصم شاب جميل ونابغ فى فنه ...

عند ذاك لم تستطع صبراً فولت مدبرة تترنح فى مشيتها كالمصاب فى مقتل ...

وتذكرت المثـل القائل « على الباغى تدور الدوائر » فقد فعلت ما فعلت وارتكبت ما ارتكبت وفقدت ما فقدت لتحافظ على حب الرجل وها هى ذى تو شك أن تفقد — بمساعاها هى دون غيرها — الرجل وحبه

يالله من ألم ساخر ! ليتها أبقت على الخطيب الأول أو ليتها تستطيع أن تسترده بأى ثمن.

ولم تنم من ليلتها ساعة واحدة . وعند الصباح

حدثت الحماة بالتليفون وقالت كما تعودت أن تقول دائماً « مساء اليوم فى عشنا ... هه » فأجابها بغير ماتعودت أن يجيبها به قال «آسف جداً يا عزيزتى .. أنا مشغول جداً هذه الأيام »

وقد صدمها اعتذاره صدمة شديدة وخيب آمالها ولم يغنها مغزى قوله «هذه الأيام» ولكنها لم ترض بالهزيمة فقالت بسخرية مريرة « ومع هذا فأعمالك الكثيرة لا تمنعك من الذهاب إلى السينما ؟» ماذا يستطيع أن يقول ؟ قال إنه بالأمس فقط كان لديه متسع من الوقت أما الآن فلا ...!

ورأت أنه لا يكلف نفسه حتى الاعتذار المقبول ولِمَ يكلف نفسه ؟ إنما يهتم بانتحال الأعذار من يهمه شخص المعتذر إليه ... وقد غدت عنده شيئاً رخيصاً أو لا شىء مطلقاً . أواه ! أهكذا تتقلب القلوب ؟ أهكذا ينسى الانسان ؟ أمن الممكن أن يضحى حب كبيرها ذكرى وحلماً فى لحظة سريعة؟ ألا من تدرج ؟ ألا من رحمة ؟

ولم تنقطع منذ ذلك اليوم المقابلات بين حياة والأستاذ عاصم وشاهدتهما معاً متنزهات القاهرة وخلواتها وملاهيها حتى توقعت الأم يوماً بعد يوم أن يتقدم الشاب لطلب يد الفتاة ، ولكنه كان أحزم من أن يرتكب مثل هذه الهفوة لأنه كان خبيراً بأخلاق روحية هانم عليا بطباعها وعنادها وغرامها به فرسم فى عقله خطة محكمة وعزم على تنفيذها بإرادة لا يثنيه عنها شئ . ولبثت روحية هانم فى حيرة من أمرها تعانى أشد الآلام النفسية والقلبية ، وتأسى بكراهية ابنتها لها وتحديها لعواطفها ، وتتمزق إرادتها نهب الأمومة المحتضرة والأهواء العنيفة، حتى كان مساء لا ينسى إذ دخل عليها زوجها يهز خطاباً فى يده ثم يرميه فى حجرها وهو يقول بلهجة الناعب :

« اقرأى وانظرى ... أى جرأة ... »

فتناولت الكتاب بقلب مذعور متطير وقلقت عيناها بين الأسطر الآتية :

سيدي المبجل

يصلك هذا الكتاب ونحن نستقل القطار الذاهب إلى بور سعيد حيث نبحر إلى أوربا أنا وعروسى — كريمتكم — انقضاء شهر العسل وإنى أقر آسفاً بأنه لم تجر العادة بأن تعقد الزيجات على هذا المثال الغريب ، ولكن الظروف الدقيقة التى لا تجهلونها لم تدع لى فرصة للاختيار ، وإنى كبير الأمل فى أن تقدروا سلوكى تقديراً عادلاً ، ولست أقل أملاً فى نيل عفوكم القريب .

ودمتم للمخلص

عاصم عادل

زاغت عيناها وحجبت غاشية الغضب الكلمات عن بصرها فظلت منكسة الرأس لا ترى شيئاً ولا تعى شيئاً والقنوط يتسرب إلى قلبها كالناز السام ، ولم تحاول قط أن تقاوم نفسها النهارة أمام زوجها كأنها نسيت وجوده نسياناً تاماً ، وكان الشيخ يحدجها بنظرة قاسية منشفية ، فلما وجدها تتهدم وتضمحل ولاها ظهره وذهب

ولبثت فى غيبوبة الحزن حيناً طويلا ثم رفعت رأسها الثقيل فوقع بصرها على صورتها فى المرآة فارتاعت وجفلت لأنه خيل إليها أنها ترى جالها يذوى وينضب وتنشاه سيا الهرم ...

نجيب محفوظ

2017-11-1

المجنونة

للكاتبة الفرنسية ماري بشيري

للسيد صلاح الدين المنجد

كانت تنفي أنشودة أخذتها عن أمها برقة وحنان وترنو إلى السماء الصافية صفاء الأمل الباسم، وتنظر إلى سفير الأشجار المبتعر على حفافيّ الطريق ... وتصغي إلى الذكرى تهمس في أذنها حديث الماضي إذ رحل زوجها إلى الجزائر ليرفع فيها العلم الفرنسي الجميل، ويقهر أبناء الشمس الجبارة الأشداء

وأغرقت في صمت عميق ملؤه الغموض والحيرة ثم راحت تناجي نفسها وتقول: « عجبت أشدّ العجب لمن زعم أن الحياة هي منبع الألم ومصدر الأسى ... ألا ينظرون إلينا كيف نعيش في رخاء من العيش راضين مغتبطين لا يعرف الشجو إلينا سبيلاً؟ أو لأولئك الذين يحيون حياة تموج بالنعيم وتشرق بالبشر ... لا يفقهون للشقاء أو الحزن معنى ... أما لقيت برنارد بعد أن ابتلع اليمّ أبي، وماتت أمي حزناً عليه، فأحببته وأحبني، والتقت أحلامه بأحلامي، وتمنينا على الأماني ثم زففت إليه؟

كنت أتمنى أن تكون لي دار إليها آوي، وزوج أفضي إليه بحديث قلبي، وطفل أدخل السرور بمرآه لنفسي .. فرزقت الزوج، وشُيِّدت الدار، وجاء الطفل وابتسمت لنا الحياة! ... »

وأرسلت زفرة عميقة وهي تقول: « سماء ما يزعمون »

كانت جورجيت تحس السعادة وتشعر بالغبطة ما ينغص عيشها إلا أن زوجها بعيد عنها ما تراه ولا يراها ... إنها لتذكر ذلك اليوم الذي دخل فيه عليها، وقال بصوت هادئ حزين: « سأذهب إلى الجزائر يا جورجيت مع رفاق صباي، لنرفع هناك علمنا، ونمكن الأمر لرئيسنا ... فلا تبك يا عزيزتي، لقد وُعدت أن أكون قائداً إن أحسنت البلاء ... ثم أعود إليك بعد حين راضي النفس، مطمئن الخاطر ... لا تبك يا عزيزتي ... لن أمكث هناك إلا قليلاً ... إلى اللقاء ... » ولكن ها هي ذي خمسة أعوام تمر وبرنارد لا يزال بين أبناء الشمس الأقوياء ...

وكانت نفس جورجيت تفيض أملاً بالحياة والرجاء. لقد رزقت الطفل فنشأته بعناية وعطف وربته برأفة وحنان، ولم تدع للأسى سبيلاً إلى قلبها، ولم تترك للحزن مدخلاً إلى نفسها. وكان برنارد يحدثها في رسائله اللاهبة بالحب، الطافحة بالشوق، المملوءة بالقبل، أحاديث تبث فيها النشوة والفرح، فتنتظر بصبر وثبات. كان يحدثها عن الطبيعة الفاتنة التي تستهوي النفس وتسحر الفؤاد، شأن كل ما في الشرق، وعن أولئك الجزائريين الذين عشقتهم الشمس فلفحتهم بفيض من قبلها اللاذعة، وتركت آثار تلك القبل على الوجوه ... وكان يحدثها عن تلك المساجد ذات المآذن التي تناجي الله ليل نهار، وتلك المحاريب التي رُصّعت بالجوهر، وأزيقت بالفسيفساء، وتلك الصحراء التي غمرها النور فراحت تبسم وتضحك ... وكان يحدثها أيضاً عن التلاع التي رآوها، والجبال التي صعدوا فيها، أو يذكر لها ما رآه في بلسان الفاتنة بين غابات الزيتون، وفي قسطنطين ذات الأبنية العتيقة التي شُيِّدت في عالم قديم قد ابتلعه العدم

وكانت جورجيت تعشق الشرق وترهبه ... كانت تعشقه لأنه كان مسرحاً لأروع الحوادث وأعظم المغامرات ، لأن فيه تلك الحدائق المسحورة كما يقولون ، وتلك القصور الفاتنة التي تمتزج فيها نغمات الناي بآهات الحب وأقاصيص الحرب ... ثم لأنه سيكون سبباً في نجاح زوجها وطريقاً إلى مستقبله . وكانت ترهبه لأن فيه قوماً مغاوير يبتلعون الجن ولا يخافون ... فكان يساور نفسها قلق ملح وشك عميق ، ويستولي عليها من آن لآخر الخوف والذعر فتتمنى رجوع زوجها ، لتعيش في كنفه ، وتتمتع به ، وتحيا بقربه حياة آمنة ناعمة براحة وسكون ...

***

— يا سيدتي ، يا سيدتي ، لك رسالة من الجزائر

فهبت جورجيت يفتر ثغرها عن ابتسامة حلوة ترقص حولها المنى واندفعت نحو الباب ، ونفسها تطفر من الفرح وتنز من النشوة ، لأنها ستسمع اليوم حديثاً عذباً ممتعاً ... وجاء ساعي البريد يقدم رسالة ختمت بالشمع الأسود ، فتراجعت وهي تقول:

— ليست لي ... ليس هذا خطه ... إنه خط طفل حديث عهد بالكتابة ...

قالت إحدى صواحبها :

— خذيها يا ابنتي فإنها لك . من يدري ... ربما أصبح برنارد قائداً ... ربما أنعم عليه بوسام الصليب ... ربما ظهر جنودنا على أولئك الشرقيين وخذلوهم ، خذيها يا ابنتي ... !

— آه ! ليعود إلي ، تلك أمنيتي يا أختاه ...

وأخذت جورجيت الرسالة بيد مرتجفة ، وقلب خافق ، وعادت إلى غرفتها فإذا بوليدها يعتلي حصاناً من الخشب ويقول:

— أباه ! أماه ! ألا تذهبين إلى الجزائر ...

فنشى وجهها العبوس ، ثم مزقت الغلاف قلقة مرتابة وقرأت :

« سيدتي ... ...

أنا لا أعرفك ... بل أعرفك كثيراً ، لأن صديقي برنارد كان يحدثني عنك أحياناً ... أواه ياسيدتي ! إن الحرب لمصيبة كبرى ... إنهم يرسلوننا لنفتح البلاد ونؤدب العصاة ، ويقدموننا للموت . ما أتعسنا ! من يفكر بنا نحن القدين ندفع دماءنا ثمناً للنصر ... من يردد أسماءنا أو يذرف الدمع من أجلنا إن غيبتنا رمال هذه الصحراء المرهبة ؟ ومن يرسل الآهات إن أطفئت شعلة حياتنا على هذه السرر الخشبية التي شهدت مصرع الألوف قبلنا ... ؟ »

فاستوحش قلب جورجيت ، وانقبض صدرها وقالت :

— لكن .. لكن أنا لا أفهم عنه ما يريد ..

وتابعت القراءة

« ما أدري ياسيدتي كيف أكتب إليك .. وما أدري كيف أخبرك بما وقع لزوجك . . ولكنني أقسمت أمامه لأخبرنك ... إصغ إلي ياسيدتي : في موقعة قامت بيننا وبين هؤلاء الجزائر بين ، وقع برنارد جريحاً يترسب في دمه . فضمدت جراحه ، ولكنه بقي متألما أشد الألم . لا يأكل إلا قليلاً ، ولا ينام إلا لماما ، وكان يفكر بك ويحدثني عنك . فأرسله قائدنا الأعلى ليعيش تحت الخيام ، ويستجم من العناء ولكن وآسفاه ! لقد أصابته الحمى .. الحمى التيفيه التي لا ترحم أحداً هنا . فصبراً ياسيدتي ، عيشي لطفلك الصغير وأفيضي عليه حنانك ورحمتك ، وتعهديه بعطفك ورعايتك فهو خير عزاء لك.. إن برنارد قد مات .

جورنيف ... »

2017-11-1

فشدهت جورجيت ، وجحظت عيناها ونادت:

— مات .. ؟ مات .. ؟ كلا من المستحيل ..

أيموت برنارد وهو في نضارة الصبى وبكرة الشباب ؟ أيموت وقد كان قوى الإيمان بالحياة ، عظيم الأمل بالسعادة ؟ .. أنا لا أصدق .. إن هـذا إلا كذب ومين .. !

وراحت تبكى بكاء محزناً تتفطر له القلوب ، ثم نظرت إلى أسفل الصفحة فاذا فيها كلمات مرتعشة عليها علائم قطرات من الدمع . فقرأت :

« عزيزتى جورجيت ! لقد حم القضاء .. إنتهى كل شيء ! آه ! لن أراك ياعزيزتى أبداً ، ولن تريني .. أنا أموت ... وداعاً جورجيت ... وداعاً طفل .. وداعاً .. أيها الأحباء .. ! »

برنارد ...

وتفجر الدمع من عينيها .. وراحت تلطم الوجه وتعول ، وتنادي وتصرخ ثم تئن وتقول :

— أوّاه ! أواه .. هاهى ذى النواقيس ترن ، فيملأ الفضاء رنينها ، تعلن أن غداً يوم الأموات ! أوّاه ! إن المقابر ستكون غداً مليئة بالناس ، يحملون طاقات الورد وعناقيد الزهر ، لينثروها فوق القبور ، ويذكروا الأهل والأحباب !

أما برنارد ، فواحسرتاه .. ! إنه ينام هناك .. فى الصحراء .. فى ظلال النخيل .. وحيداً لاصديق بجانبه ولا حبيب !

أوّاه ! إنه لصعب أن يذهب المرء وحيداً إلى عالم مجهول !

أصحيح أن برنارد قد مات ؟ هه ... أهكذا تُقضى علينا نحن ... أن نعيش فى الظلمة ... بصمت وسكون ... ما نكاد نتذوق طعم الهناء حتى نرزأ ، أو نعرف معنى السرور حتى نُصاب ؟

لكن ... كيف يموت برنارد .. ؟ كلا إنه لم يمت ... ! أنا أعلم ذلك ... أتخونى الحياة ... ؟ ألا تخاف منى ؟ أنا جورجيت ... ! مات ... هه ... سأحطم كل شيء من أجله . خذوا ... أنظروا أيها السادة ... أفاقوية ... خذوا ... وانظروا ... !

وراحت جورجيت ترسل أصواتاً حزينة تخوار الثيران ... وأخذت تطوف بالغرفة تهذى وتصرخ ، ثم عمدت إلى النضدة فحطمتها ، وإلى الكتب فمزقتها ... وأشعلت النار في الأثاث ... والتف حولها نسوة حاولن أن يهدئن من اضطرابها فما استطعن ، فبكين لبكائها ... ورثين لها . ثم أمسكت طفلها ورمت به الأرض فشج رأسه ؛ وهبطت إلى الشارع تبكي وتضحك وتنادى : الانتقام الانتقام . وهكذا سلب عقلها ، وأصبحت ما يفارقها الجنون إلا ساعة فى النهار أو بعض ساعة ، تقضيها فى البكاء أو الصمت ... فاذا ما عاد إليها جنونها قامت تنفث وتضحك ... وتكلم الهواء وتستصرخ المارة وتتوعد بالانتقام .

***

ما أدرى كيف انتهى بها الطواف إلى الجزائر وما أدرى كيف استطاعت ذلك ... وأكبر ظنى أن سفينة أوصلها رحمة بها وشفقة عليها . ولقد حدّث من رآها بأنها مذ وطئت أرض الجزائر عوّلت على الانتقام من أهلها . وكانت تردد ما أقفر من الأماكن وأوحش من الجبال ، وتتوغل فى الصحراء ، وهى تنوح وتبكى ، أو تسب وتشتم . ولقد حاول نفر من بنى جنسها أن يكلموها فما استطاع وأراد إرجاعها فأخفق . رأوها بعد أيام عادية نحو جوف الصحراء وقد تمزق ثوبها وعريت أقدامها ، وانتصب شعر رأسها ، وهى تضحك لمن تراه وتقول : إنه ينادينى ألا تسمعون أفارجعت بعد ذلك اليوم وما رأوها أبداً

مسكينة ! لقد غيبتها رمال الصحراء !

صدوح السيد المهدى

الكأس وقطعة النقود

للأديب مصطفى صبحي

هي قصة سمعتها من صديق منذ سنوات ثلاث بقيت في نفسي طول هذه المدة . وقد حاولت أن أكتبها قبل ذلك ، ولكني كنت دائماً أؤجل كتابتها إلى وقت أكون فيه صافي النفس مرتاح الفكر حتى لا تخرج الفكرة مضطربة ، وحتى أستطيع تحليل كل مواقفها بدقة . وكنت كلما عاودتني ذكرى حوادثها وحاولت أن أمسك القلم يتحدر بي التفكير إلى نواح أخرى من الحياة فاذا أنا تائه في الخيال ، وإذا العواطف تجيش والمشاعر تختلج ، وإذا العقل يزدحم بالأفكار ، وإذا القلم يسقط فأذهب في ملل وصدوف ... ملل من كثرة التفكير ، وصدوف عن الحياة المتشابكة المزدحمة بكل شيء ، بالأفكار وبالأماني وبالمادة التي تتدفق وتسخر من الناس والناس يعبدونها ويطأطئون لها الرؤوس

قال لي صديقي إن القصة حقيقية وأكد لي ذلك . وكنت قد ظننت أنها قصة خيالية اختلقها قصاص ماهر ، ولم تقع حوادثها فعلا في الحياة ، إلا أن وجودها في ذاكرتي كل هذه المدة جعلني أصدق أنها حقيقية وأتصور أني عرفت أشخاصها واحداً واحداً من مدة طويلة وشهدت كل ماحدث لهم ، وعرفت الأمكنة التي وقعت بها حوادثها حتى ليخيل إليّ أني أستطيع أن أزور هذه الأمكنة التي أصبحت معبداً للذكرى ووحياً لشعر حي رفيع

هو الحب أيها الأصدقاء الذي سيلعب دوراً كبيراً في قصتي . ولعل أحداً منكم لم يسأم بعد الحديث عن الحب ، إن كان منكم الشباب فان قلوبكم عامرة به ، وإن كان منكم الشيوخ فان القلوب فتية لا تهرم

فاسمعوا ، اسمعوا أيها الأصدقاء ... انظروا إلى ذلك الشاب الذي جلس أمام مكتبه بعد منتصف الليل كما أجلس أنا الآن تماماً . إنه يزيح الكتب المبعثرة أمامه ويفسح ما بينها مكاناً يتسع لورقة ليكتب فيها خطاباً

إنه قد مل هذه الكتب التي أمامه . هذا كتاب في القانون المدني وآخر في القانون الجنائي وهذا في اللغة اللاتينية ، وهذا في الشريعة ، وهذه قصة لأحد الكتاب الكبار المحدثين ، وهذا معجم وهذا ... وهذا ... أشياء لاعهد لها ، كلها قد سئم منها ، فانصرف يتلهى بكتابة خطاب إلى ماجدة قال فيه:

— أحقاً أنت سعيدة يا ماجدة بزواجك من الدكتور ؟ لعله عالج جراحك التي طالما حدثتني عنها أن مقرها في قلبك أليس كذلك..؟ بربك قولي: لا. قولي إنك لا زلت تذكرينني ، وأنك لا زلت تفكرين في ، وإن هذه التعاسة ما هي إلا من معاكسات الأيام وسوف يكون قلبي لقلبك وروحي لروحك ، ولو أن الأجسام بعيدة

سمعتك تقولين في حيرة وابتسام لما أفهم ماذا يختبئ وراءها : « لم لا يا أحمد ؟ أنا على واجب ، وما حصل إنما هو فعل القدر ، ويجب أن تكون عاقلا. »

2017-11-1

ثم هربت من أمامي مسرعة لا تلوين على شيء . أقد تغيرت بهذه السرعة ؟ كلا . . لا أظن . أنا أعلم أنك توفين الواجب حقه . أنا أفهم الموقف جيدا ، ولكني لست في كل الحالات هادئا كما أنا الآن . أنا ياماجدة في بعض الأحيان أثور وأسخب وأحطم الدنيا بأسرها . أمزق العالم . أنا وحش عند ما أثور لأني أخفقت في حبي ، لأن وردة حبي ازهرت لكي يقطفها الآخرون ، لكي يقطفها من ليس له قلب بيد جشعة مرتعشة كلها الأنانية والمادية .

كلا ياماجدة . لا واجب هناك . سأحطم التقاليد . سأحطم هذا الواجب الذي حدثتني عنه منذ أيام بعد زواجك . سأحطم كل شيء وسوف ترين »

كتب هذه الكلمات الأخيرة بسرعة وبيد مرتعشة عصبية ، وقد هاج شعوره في هذا الصمت الشامل وكادت دموعه تطفر من عينيه عند ما رأى حالته الراهنة . حياة غير مستقرة ، ودراسة متواصلة مضنية ، وإخفاق في الحب ، وتمرد على الدنيا وعلى التقاليد والحياة والقيود الاجتماعية . ألقى القلم وسرح فكره في عالم آخر . وفجأة سرت في السكون نغمة حنون من منزل بعيد فأنصت إليها . إنها تضطرب كأنها شجون الليل بيديها بلا تكتم . إنها تتمالى فتتمالى بالنفس وتسمو بالقلب والعاطفة والحب ، وتعبر عن معان أخرى لا يعبر عنها بالألفاظ ، فهي معان مبهمة إن عبر عنها بالكلام فسدت وقل مالها من روعة وجمال .

خفت الصوت وتلاشى في الفضاء ، وبقي أحمد يساهم يردد في ذاكرته النغمة الحنون ، فهدأت نفسه ونظر إلى الورقة التي أمامه وعاد إلى القلم وكتب :

« كثيرا ما رجعت إلى نفسي أحاول أن أوحي إليها أنني أستطيع أن أعيش بدونك وأن أتسلك إلى الأبد ، وكم أكون سعيدا لو استطعت ، إلا أنني لا أستطيع ياماجدة أبدا . كما أنني لا أنسى هذه الفترة التعسة من حياتي ، فترة الطيبة والضعف . الضعف إلى درجة أنني لم أستطع أن أغير شيئا وأنا أرى الدكتور عبد المجيد يتقدم طالبا يدك ، فيغري أباك ، فيقبل هذا أن يبيعك إليه مغترا بمركزه وماله ، ذلك الطبيب المريد الجبان ؟ وأنت لم تستطيعي مطلقا أن تنبسي ببنت شفة ، ولم تستطيعي أن تحركي ساكنا ، فقدمولك إليه جسما لا قلبا إلى قلب . »

شعر أحمد بضيق في تنفسه فسعل سعالا حادا خفت وطأته شيئا فشيئا وظهر على عينيه أثر من الدمع فأخرج منديله ومسح به أجفانه وجبهته . وظل هادئا فترة قصيرة من الزمن . فظهر في السكون صوت حركة خفيفة أعقبها صوت والدته تقول في نغمة متعبة وسنى :

« قم يا أحمد إلى فراشك . يكفيك هذا السهر يابني . قم هداك الله واستيقظ المذاكرة حتى الصباح فالنهار طويل »

مرت فترة سكون طويلة ولم يرد أحمد بكلمة . وبقي صامتا ينظر إلى حجرة النوم المجاورة ، فعادت أمه تناديه : أحمد . أحمد . . وكان الصوت يتردد في الردهة فيرجع صداه ويملأ المكان روعة ورهبة . فرد أحمد بصوت ممتلئ فيه رنة الاستياء :

— نامي أنت يا أماه . دعيني أقرأ قليلا فأنا لا أستطيع القراءة إلا في الليل . إني أنام أكثر النهار فنامي أنت واستريحي

2017-11-11

— وهل يسعدك أني أظل قلقة هكذا طول الليل ؟ أنا لن أستريح إلا إذا نمت . قم يا بني أراح الله قلبك

فأطاع أحمد رغبة والدته ورد عليها باستياء : « هأنذا قمت »

وقام وأدار زر الكهرباء فساد ظلام ولم يبق إلا نور ضئيل منبعث من مصباح صغير في الردهة . وذهب إلى فراشه ونام

ظل يفكر — وهو مضطجع على ظهره — فيما قالته له والدته . وفكر في حنانها وفي التضحية التي قابلها بها وندم . وقال في نفسه : إن حنان هذه الوالدة المسكينة كثيراً ما يسبب له شقاء وقلقاً . فعي لا يهدأ لها بال ما دام سهران ، ولا يمكن أن تنام أو تستقر على حال إذا كان خارج المنزل ، أو إذا تأخر عن ميعاده ساعة . وهو يتألم من ذلك ؛ وكثيراً ما يثور فتهدئ هي من ثورته وترجعه إلى نفسه وتحاول إفهامه ما تعانيه من التعب إذا غاب عنها لحظة قائلة : « يا بني أنت لا تعرف ما هو قلب الأم » ثم تعقب على ذلك بأمثلة عامية لها موسيقية لذيذة صادرة عن براءة وصدق

تذكر قولها « قم يا بني أراح الله قلبك » وقال في نفسه : هل يمكن أن يجاب هذا الدعاء وأن لقلبه أن يستقر ؟ إنه لا أمل له في الحياة بعد ذلك ، لقد فقد كل شيء في هذه الدنيا

***

قضاها ليلة كباقي الليالي كلها أحلام منقطعة لا معنى لها . وقام في الصباح وكان أول شيء فكر فيه هو حادث زواج ماجدة من الدكتور عبد المجيد، ماجدة التي تعبده ... ماجدة التي عاهدته على ألا تكون لغيره وأن تخلص له مدى الحياة . وقف بجانب فراشه واتكأ على حافته ووضع يده تحت ذقنه وراح يفكر . ما قيمة الحياة ؟ إن كل هؤلاء الناس ليسوا سوى أشباح قصيرة العمر تروح وتجيء ولا تعرف إلى أين المصير . تحركها العواطف ثم تندثر في النهاية كأنها ما كانت ، فيستوي الطيب والشرير والجميل والقبيح والمحب والجامد القلب . وما هو الحب ... ؟ ولماذا لا يكون طوع إرادة الانسان إذا أراد كره، وإذا أراد بدل حبيباً بحبيب ؟ وما هو الوفاء ... ؟ إن كل هذه الألفاظ أصبحت لا معنى لها . ألفاظ جوفاء خاوية لا تحوي وراءها إلا الرياء والكذب والخيانة

حاول أحمد أن يطرد هذه الأفكار من رأسه فمشى بكسل إلى مكتبه فوجد الخطاب الذي كتبه بالأمس ماثلاً عليه كما كان . فتناوله ومزقه بيطء ، وألقاه بدون اكتراث كباقي شيئاً بالياً ، وخرج إلى الردهة وجلس نصف جلسة على منضدة تجثم في منتصفها وتناول سيجارة وأشعلها وصار يدخن ؛ وكان فكره يجول مع الدخان المتصاعد فوق رأسه وهو ينظر إليه شارداً ، وفجأة سقطت السيجارة من يده على رجله فأخذها بسرعة دون أن تحرقه وصار ينظر إلى ثوبه ويثبت فيه النظر ثم أشار بيده بإشارة استهتار وقال في نفسه إن هذه القيود التي في هذه الدنيا ليس لها أي معنى . يجب أن يتحلل منها . يجب أن يصل إلى الحرية والحق والعدل

***

وسبح فكره بعد ذلك في الماضي البعيد ، ومرت على ذاكرته كل أدوار حياته منذ أن كان طفلا يسكن مع والده في حي محرم بك في الأسكندرية

بجوار منزل محمود عاصم بك والد ماجدة — وكان إذ ذاك أحد كبار موظفي مصلحة الجمارك — لقد كانت أياماً سعيدة تلك الأيام التي قضاها في تلك البقعة المقدسة ... أيام الطفولة المرحة . أين هي ؟ لقد ولت كأنها حلم جميل من أحلام الملائكة . أين تلك الأيام الجميلة المرحة حينما كان يلعب هو وماجدة وباقي الأطفال في حديقة منزل والده ، أو حينما كان يغمض عينيه ويجري ليبحث عنها بين أركان الحديقة وزواياها ، أو حينما كانا يذهبان معاً لشراء الحلوى من السوق الذي كان خلف محطة الأسكندرية القديمة — تلك الحلوى التي كانت ماجدة تحبها كثيراً لدرجة أنها أحدثت تآكلاً في أسنانها زادها حلاوة وملاحة وجعل في كلامها لثغة جميلة محببة ، أو حينما كانا يلقيان أسنانهما القديمة إلى الشمس لكي تنبت بدلها أسنان من الذهب . إنه لا يزال يذكر تلك الأيام السعيدة الجميلة ويذكر ولعه بالعب معها في أيام الشتاء ، فقد كانا يقفان تحت شجرة من أشجار الحديقة ينصتان إلى زقزقة العصافير وينتظران نزول المطر ، فيجريان حينئذ في أنحاء الحديقة في فرحة وابتهاج ويجري وراءهما البواب العجوز ويحملهما إلى داخل المنزل والمياه تتساقط من شعرهما ووجنتيهما وملابسهما على الأبسطة وهما فرحان بهذه المخاطرة المرحة الجميلة ولما شاهداه من مناظر الشتاء البديعة الساحرة

ذهبت هذه الأيام وكأنها كانت نغمة حلوة هادئة لم يكد صفوها شيء ، ولكنها الآن أصبحت ذكرى ، إلا أنها ذكرى تثير الأسى وتبعث الآلام . أين أبوه وأين ثروته التي ضاعت ولم يبق منها إلا ما يكفي لسد نفقاته هو ووالدته التي بقيت له في هذه الدنيا ؟ مات أبوه وكان تاجراً من تجار القطن ولم يكن هناك أحد يحل محله في تجارته ، وكان أحد إذ ذاك في الرابعة عشرة وكان لا يزال طالباً فلم يستطع أن يقوم مقام أبيه

كان والده يحبه فقد كان أمله الوحيد في حياته. مات وهو يباركه ويدعو له ، وكانت آخر كلمة قالها وهو على فراش الموت « جعلك الله يابني سعيداً في الدنيا والآخرة»

تزاحمت هذه الذكريات في رأس أحمد وهو متكئ على المنضدة وجعل يقرأ في سره الفاتحة لأبيه وقال في نهايتها « يارب ارحمني وتقبل دعاء أبي واجعلني من السعداء »

ترى أيستجيب الله هذا الدعاء؟ أجل إنه رحمن رحيم . ولكن كيف يسعد وماجدة الآن أصبحت لغيره؟ أتراها تغيرت عليه بعد أن مات والده فلم تعد تحبه ؟ لقد نقل والدها إلى وظيفة أرقى من وظيفته في وزارة الداخلية بالقاهرة ، وبعدت ماجدة عنه فترة من الزمن ، إلا أنهما كانت تأتي مع والدها لتقضي فصل الصيف في الأسكندرية ، ولم يلاحظ عليها إذ ذاك أي تغير في عواطفها

كانت هي عزاءه الجميل . وإن نسي فلن ينسى تلك الأيام التي كان يقضيها معها في أيام الصيف على شاطئ « جليم » وقد أصبحا شابين أكتمل عقلاهما ونسيا نزق الطفولة ورعونتها . لقد كانت هي كل شيء لديه . امتلأ قلبه بحبها حتى لم يبق به فراغ لأي شيء آخر في الوجود . وقد آمن بهذا الحب وثبت إيمانه بقلبه فما عاد يصدق أن ذلك الحب سيخبو وتبرد شعلته ، وما كان يصدق أنها ستكون في يوم من الأيام لأحد غيره

جد واجتهد حتى نال شهادة الدراسة الثانوية ، وسافر هو ووالدته إلى القاهرة واستأجرا منزلها الذى يقطنان به الآن والتحق بكلية الحقوق ، وكانت ماجدة طالبة فى كلية الطب . وكم كان سعيداً لوجوده معها فى بلد واحد ، وكم كانت جميلة هذه الأيام التى قضاها معها فى القاهرة لولا ذلك الدكتور الذى ظهر لها فجأة واختطفها منه

لقد كان أبوها رجلا لا يعرف معنى العاطفة ، وكان قاسياً شديداً على ابنته فلم تستطع أن ترفض هذا الزواج أو أن تنطق بكلمة واحدة . وكان أحمد قد ذهب إليه عندما علم بالخطبة وطلب منه يد ماجدة رغم أنه لا يزال طالباً ورغم أنه فقير لا يملك شيئاً ، فرفض طلبه ورده والأسى يكاد يقتلك به واليأس يكاد يقتله

هكذا كان القدر ، وما ذا يفعل إذن ؟

عبثاً حاول أحمد أن يوقف تيار هذا التفكير ، فقام وأدار الراديو وكان اليوم يوم جمعة فسمع صوت القارئ يرتل قوله تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً) وكان صوت القارئ عذباً جميلا وكان يرتل هذه الآيات بإيمان وإخلاص أثرا فى نفس أحمد . فعقب على قول القارئ بصوت ملؤه بالخشوع والإيمان « صدق الله العظيم » واستمر ينصت إلى آيات القرآن الكريم فوجد فيها عزاء عظيما وذهبت عنه بعض أحزانه وأتى موعد الصلاة فقام وتوضأ وذهب إلى المسجد ليصلى

* * *

وقف الخطيب على المنبر وصار يخطب فى الناس بصوته المتماثل النغمات والناس يسمعون كلماته فى صمت وخضوع . وكان أحمد ينصت إليه بانتباه كأنه متشوق لسماع شىء جديد هو فى حاجة إلى سماعه ، ورن فى أذنه صوت الخطيب وهو يقول : (يا أيها الناس لا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق. وإياكم والزنا فانه جرم لو تعلمون عظيم)

وفى هذه اللحظة التى كان أحمد ينصت فيها إلى بقية الخطبة كان الدكتور عبد المجيد جالساً فى منزله على مقعد كبير مكسو بالجلد فى ردهة مفروشة بأثاث هو على بساطته آية فى الأناقة وحسن الترتيب ، فدخلت ماجدة من باب مقابل فنظر إليها طويلا نظرة عطف يداخلها شىء من الشك ولكنه مستور وراء حجاب من المكر

وبادرها بقوله :

— مالك يا ماجدة ؟

— لاشىء

— إياك أن تكونى متكدرة لأننا لم نسافر لقضاء شهر العسل فى بلد بعيد . إذا كان الأمر كذلك فانك جد مخطئة ، فأنا عازم على تقديم مفاجأة مدهشة جداً لك (وضحك ثم مد لها يديه وقال) لك أنت ياحبيبتى يا أعز مخلوق لدى (واقترب منها وهو يقول) كنت عازماً على ألا أبوح لك بهذه المفاجأة ، ولكن ما دمت متكدرة فسأقولها لك الآن (وضمها إلى صدره وقبلها) إننا سنذهب عندما يأتى شهر مايو إلى سويسرا رأساً لنقضى فيها شهر العسل ثم نرجع فى طريقنا إلى فرنسا وإيطاليا واليونان . وربما ذهبنا إلى لبنان حيث نمود بالطائرة فهل أنت مسرورة من هذه الرحلة؟

— أنا لست متكدرة أبداً وحتى إذا كنت

متكدرة فأنا لا أتكدر من شيء مثل هذا ، فأنت لديك أعمالك وليس من الضروري أن تتركها في هذا الوقت، فدع هذه الرحلة لفرصة أخرى فالفرص أمامنا كثيرة نسافر فيها إلى أي جهة نشاء . وليس من الضروري أن نسافر إلى الخارج . وهل رأينا بلادنا حتى نذهب لنتنزه في الخارج ؟

— هكذا أريدك دائمًا . بالله رفهي عن نفسك قليلا ... إضحكي والله

فقبلها بين عينيها وفي وجنتيها بشغف وهو يقول : أنت ملاك يا ماجدة .. أنت ملاك

***

عاد أحمد بعد أداء فريضة الجمعة إلى المنزل وهو لا يزال يفكر في حالته . إنه يكاد يجن ، إنه يطلب من الله في ضراعة أن يريحه من هذا العذاب وأن ينتزع من قلبه حب ماجدة فلا يفكر فيها بعد ذلك ولا في زوجها الذي يمقته من كل قلبه ويود لو يسحقه سحقًا

أيذهب إليه في عيادته ويريه تغيلا على مرأى من مرضاه ؟ أم يذهب إليه في منزله ويقتله هو وماجدة في ساعة يكونان فيها غارقين في بحر من السعادة والحب ؟ وأيهما ذلك الرجل القاسي ؟ إنه يحتقره ولا يريد أن يراه ، إنه يود لو ينتك به هو أيضًا .

ولكن هاهي ذي كلمة الخطيب ترن في أذنه : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) إذن ماذا يفعل؟ إنه إذا لم يصنع شيئا فهو قاتل نفسه لا محالة دون أن يشعر . إنه ينتحر ببطء .

كيف يستطيع أن يصبر على هذا الشقاء ؟ وكيف يتحمل هذا بعد هذه السنين التي قضاها هو وماجدة في هناءة وسعادة ؟ ماذا يفعل إذا هزه الشوق لرؤيتها والتحدث إليها وسماع صوتها العذب ؟ أيتسلل مثل اللصوص إلى منزلها ليظفر منها بابتسامة أو كلمة؟ أم يقتحم منزلها ليلا ويختطفها ويذهب إلى حيث لا يعلم إلا الله ؟ أي خيال مضحك ذلك الذي يداعب أفكاره وهو مضطجع على فراشه وقت الظهيرة بعد الصلاة ؟ إن هذه الحياة كانت ممكنة في العصور الوسطى حين كانت الفوضى ضاربة في الأرض ، وحين كانت قوة الانسان ممثلة في الفرد ، فهو وحده كان أمة ، وكل الدنيا كانت وطنا له يضرب فيه أين شاء وأنى يشاء . وهو قدير على اجتلاب الرزق في كل وقت وفي أي مكان .. لقد أصبحت الأفكار والأخيلة تسخر من عقل أحمد وتجعل منه ألعوبة . والحق أن الصدمة كانت قوية عليه وهو لا يزال في سن صغيرة ووراءه أمه المسكينة وأمامه مستقبله فما كان هناك شيء يستطيع أن يتلهى به سوى الخيالات المضحكة والأماني الكذاب .

***

مرت الأيام متشابهة مملولة ، وكان أحمد يقضي معظم أوقاته في مقهى مواجه لمنزل الدكتور عبد المجيد. ولمحه الدكتور مرارا وهو يحوم حول المنزل . والحقيقة أن أحمد لم يقابل ماجدة بعد زواجها إلا مرة واحدة حين وجدها مصادفة خارجة من منزل إحدى صويحباتها .

وقد وجد أحمد في يوم من الأيام أن الفرصة سانحة لرؤية ماجدة فقادته قدماه بدون تفكير وصعد إلى المنزل ودق الجرس، وكان قلبه يخفق بشدة، وكل عضو من أعضاء جسمه ينتفض ، وفتحت ماجدة الباب بنفسها فدخل بدون استئذان وأغلق الباب

ووقفت ماجدة أمامه مبهوتة جازعة وقالت :

— أحمد! لماذا أتيت ؟

— لم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك يا ماجدة . سأجن

فلمست ماجدة عواطفها وقالت له بلهجة حاسمة :

— أرجو يا أحمد أن تعود من حيث أتيت فليس هذا مكانك

فبدا التأثر على وجهه وقال غاضباً :

— أتطردينني يا ماجدة من منزلك ، ذاك الذي كان يجب أن يكون منزلي ... آه ... إنك غافلة . أنا حضرت الآن لآخذك بالقوة ، وإذا مانعت فسأقتلك وأقتل الدكتور عبد المجيد

فقالت ماجدة منفعلة : أحمد ! أرجو أن تتركني للأقدار . . وخارت قواها فارتمت على أحد المقاعد وأجهشت بالبكاء وهي تقول : إنني أتعذب يا أحمد ... إني أتعذب ...

فاقترب منها أحمد وقد أثار هذا المنظر أعمق عاطفة في نفسه ، وحركت دموعها المتحمرة في مرارة وأسى كل أشجان قلبه ، ولكنه ملك زمام نفسه وذهب إليها وجلس بجانبها وقال :

— ماجدة ... أتبكين ... لا ، قومي فأنا ذاهب. لن تربي بعد الآن . لقد كنت مجنوناً . أنا كنت أريد أن أراك . كنت أود أن أسمع صوتك . صحيح أنك الآن لست لي

وهم أحمد بالخروج فأمسكت به ماجدة ونظرت إليه نظرة حيرة وتوسل ، فدفع يدها ببطء وقال لها :

— دعيني أذهب ، فلست أنا أحمد القديم . لقد أصبحت تحبين زوجك حتى الجنون . دعيني

فانتفضت ماجدة وكأنما أعادت هذه الكلمات ذكرياتها القديمة ، وقالت له والدموع لا تزال تجول في عينيها :

— إرحمني يا أحمد . إرحمني . ماذا يمكنني أن أفعل ؟ إنني إذا خنت زوجي فلن أسلم من ضميري وإنني الآن صابرة على حكم القدر . آه يا ربي . ياليتني كنت مت

فنظر إليها فجأة وقال لها في ثبات وعزيمة :

— اسمعي ، هيا نهرب

— إلى أين ؟

— إلى حيث يشاء الله

— ووالدتك لمن تتركها ؟ إنها تموت من أجلك . وأبي ماذا يكون موقفه أمام الناس ؟ لا لا يا أحمد كن عاقلا

— إذن سأذهب ولن تريني بعد الآن

فعاد اليأس والحزن يرسمان على وجنتيها صورة رائعة من الدموع ثم قالت له :

— تعال يا أحمد ، ولكن لا تدع أحداً يراك

* * *

كانت مخاطرة شائكة تلك التي أقدمت عليها ماجدة ، وقد ظل أحمد يزورها في منزلها في غياب زوجها ، وإن هذا اللقاء وإن كان قد أحاطته العفة في مبدئه إلا أنه قرب الجريمة إلى نفسيهما شيئاً فشيئاً ، فالانسان مهما وبلغت نفسه من القوة والسمو فانه يصل أحياناً إلى درجة من ضعف الارادة يستوي فيها مع الحيوان

إن هذا هو رأيي . ولست أدري إلى أي درجة وصل إليها أحمد هو وماجدة أثناء تلاقيهما في بيت الزوجية ؟ إنني أعرف أن أحمد كان شاباً مهذباً ولو أنه كان طائشاً إلى حد ما ، وأن ماجدة كانت فتاة

2017-11-11

رقيقة الاحساس ذات ضمير حي وأخلاق عالية

لقد داخل الدكتور عبد المجيد الشك فى زوجته ، وظن بها ظن السوء خصوصاً وقد علم ما كان بينها وبين أحمد من علاقة سابقة ، وإلا فما هذا الجمود الذى يلاحظه عليها ؟ وما هذه المسامحة الجافة التى يلقاها منها فى بعض الأحيان ولم تمض مدة طويلة على زواجهما ؟

على أنه قد دهش حينما وجد زوجته قد تغيرت فجأة وصارت تتكلف الابتسام وتحاول أن تجمل كل معاملاتها له أكثر رقة ، وأن تكون فى كل حالاتها أكثر بشاشة مما كانت قبل . غير أن ذلك كان مما قوى الشك فى نفسه فانه شخص مجرب يعرف الابتسامة المزورة من الابتسامة الحقيقية . لقد دبت الثيرة فى نفسه وعزم على أمر ...

دخل المنزل متجهماً فى مساء أحد الأيام وأخبر زوجته أنه مسافر إلى الاسكندرية لأمر هام وسيرجع إليها فى ظهر اليوم التالى ، وخرج مسرعاً وركب سيارة واتجه إلى محطة القاهرة

فجاء أحمد كعادته فقابلته ماجدة بفرحة غير معهودة وأخبرته بأن زوجها سافر وأنه يستطيع أن يجلس معها فى جو من الحرية أكثر مما تعود . وما كادت تندمج فى هذه الحرية حتى بدت لها صورة زوجها يفتح باب داره ، فارتدت إلى صوابها وتنازعتها أفكارها حتى طوى هذه الأفكار أحمد بحديثه المذب الذى انتهى بأن أغراها بتناول كأس من الخمر معه لكى يضيعا مابهما من وساوس ويذهبا ما يتملكهما من أفكار

وما كادا يمدان المدة لذلك حتى دخل الدكتور عبد المجيد ووقف بجوار الباب وعيناه تقدحان شرراً

فقام أحمد ووقف أمامه وجماً لوجه ، وصرخت ماجدة لما رأت زوجها وجثت باكية تحت قدميه تطلب منه الصفح ، فركلها بقدمه ، وأخذ ينظر إلى وجه غريمه بقسوة ، وجعل يتفرس فى وجهه ، وقال وهو يرتعد :

« آه يا سافل ... آه يا جبان ! » وهجم عليه وأمسك بعنقه ، واشتبك الرجلان فى عراك عنيف وكان أحمد قوى الجسم فاستطاع أن يفلت من قبضة خصمه ويلقيه على الأرض ووقف ينظر إليه وهو يلهث فى غضب واهتياج ، وقام الدكتور وأخرج من جيبه مسدساً وسدده إليه وقال :

— إنى سأقتلك يا سافل يا وغد . وحاول أن أن يضغط على الزناد ولكنه كان منلقاً . وفى هذه اللحظة لمح زوجته ملقاة على الأرض وقد أغمى عليها من هول الموقف ، فقال : « إنها هى التى تستحق القتل » . ثم عاد إلى نفسه وقال : « ولكن هذا فظيع ... إسمع يا هذا ، لقد وهبتكما الحياة . إنك تحبها وهى تحبك ... هذا حسن » فأفاقت ماجدة وقالت بصوت مذبوح : سامحنى ياعبد المجيد لقد أخطأت !

فوضع المسدس فى جيبه وذهب إلى الباب وأغلقه وأنهض ماجدة وأجلسها إلى المائدة التى أعدتها وأمر أحمد بالجلوس أمامها وسكب الخمر فى كأسيهما وقال لهما وهو يضحك ضحكة قاسية :

— إشربا نخب هذه الليلة السوداء

فامتنعا عن الشراب فأخرج مسدسه وصاح بهما بصوت هائل والشرر يتطاير من عينيه :

— إشرب ... إشربى ...

فشربا . فانفرجت أسارير وجهه وصار يشرب هو كذلك كأساً بعد كأس حتى أتى على ما فى

الزجاجة ولبث الخمر برأسه فقال لأحمد :

— الآن هات ثمن الليلة وثمن الخمر أيها التلميذ الصغير ...

فنظر إليه نظرة قاسية وقال له : أيها الحيوان!!

فسدد إليه الدكتور مسدسه وهو يقول :

— ثمن الليلة وإلا قتلتك فى الحال

فأخرج أحمد ريالاً كان فى جيبه وألقاه على المنضدة قائلا :

— خذ هذا ثمناً لهذا المشهد التمثيلى الذى قمت به ... فقال له :

— شكراً ... الآن تستطيع أن تخرج ولست أريد أن أرى وجهك بعد هذه المرة ثم دفعه بشدة إلى الباب

ومضت هذه الليلة وكأنه لم يحدث شئ . ولما أصبح الصباح نادى الدكتور عبد المجيد زوجته وأخرج من جيبه قطعة النقود ووضعها تحت الكأس التى شرب منها أحمد وقال لها بصوت خافت : سيبقى هذا الريال هنا إلى الأبد ، وإذا انتقل من مكانه فأنت طالق .

أصيب أحمد بصدمة عصبية قوية أزمته الفراش . ولما أيأس من مرضه علم أن ماجدة ماتت . لقد كان الدكتور عبد المجيد يستطيع أن يرحمها ويرحمه فيقتلهما فى تلك الليلة المشؤومة ، إلا أنه اختار لزوجته موتة أخرى بطيئة ، بواسطة الكأس وقطعة النقود وترك أحمد يعود إلى الحياة ويبنى مستقبله على أنقاض الماضى الحزين .

مصطفى صبحى

الجودة الفائقة و الذوق الجميل
والثمن المعتدل
تلك هى العوامل الثلاثة التى تسير عليها
شركة مصر لنسج الحرير
عند ما تنتج أفخر أنواع الأقمشة الحريرية
ألحوا فى طلب منتجات
شركة مصر لنسج الحرير
إحدى مؤسسات بنك مصر

حاجي بابا في انكلترا

تأليف جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الحادى والخمسون

أتباع السفير يعودونه

استبق السفير محبوباً لحراسة الشركية وأعاد سعيداً معنا إلى طهران . وقد ودعنا لوندرا وولينا وجوهنا شطر طهران ، وكان طريقنا فى العودة غير شائق مثل طريقنا فى المجيء ، وقد تبادلنا مع السفير الكلمات الطيبة التي تقال فى مثل هذا المقام ، وصفح كل منا عن الآخر . وعهد بنا إلى ربان الباخرة فأصبحنا فى وصايته وأصبح واجبه أن يسلمنا إلى مندوب فارسى فى الآستانة سواء أكنا أحياء أم جثثاً هامدة

وكان هذا الربان رجلا ملفوح الوجه بالهواجر كأى رجل تركانى محارب ، ووجدناه غليظاً متجهماً وكان يقدم لنا كل يوم طعاماً من اللحم والطيور ، ولكنه لم يقدم لنا شيئاً من الأرز . ومن حسن الحظ أن المقدار الذى جئنا به من فارس لم ينقص كثيراً فأخذنا منه جانباً وتركنا للسفير سائره

وقبل سفر الباخرة رأينا عشرين أو ثلاثين رجلاً فى يد كل منهم ورقة وقلم من الرصاص ، وكلهم يكتبون وصف ما يشاهدونه . وقيل لنا إن هذه مهمتهم اليومية لأنهم مخبرون للصحف

وسأتجاوز عما رأيناه من التاعب فى السفينة . ولكنى أقول : إن تلك المتاعب تربو على كل ما قاساه السلطون من جميع الدنيا من يوم أن نشأ الاسلام إلى اليوم ، فمن عاصفة إلى زوبعة إلى إعصار ، حتى إذا ما استقرت الحال وسارت السفينة فى أمن واطمئنان عادت إلى ما كانت عليه فتتأرجح بنا بين جبال من الأمواج

وأخيراً جادت الساعة السعيدة التى ظهرت لنا فيها قباب المساجد ومآذنها . وكان المنظر بديعاً فحمدنا الله وصلينا صلاة الشكر . وقد تجسم فى نفوسنا شعور الفرح فهممنا بالنزول إلى الشاطئ والخلاص من السجن والسجان . ولما قابلنا مندوب فارس ألقينا عليه ألف سؤال وسؤال عن فارس وعن أصدقائنا وأقاربنا فيها . وكانت شكوانا مرة من ربان السفينة . وقص عليه محمد بك كل شيء مما رآه مما يخالف الشرع الشريف فى بلاد الفرنجستان . ثم ذهبنا إلى بيت السفير الانكليزى فسلمنا إليه ما معنا من الرسائل المرسلة إليه . وقد وجدنا الانكليز فى الآستانة لا يستقبلوننا بمثل الحفاوة التى يستقبلنا بها الانكليز فى بلادهم ولا بمثل الدهشة التى كانوا يبدونها نحونا وسبب ذلك واضح وهو أننا كثيرو الشبه بالأتراك وقد ألفونا

ثم استأنفنا السير إلى بلادنا

الفصل الثانى والخمسون

حاجى بابا فى طهران

استأجرنا البغال وأعددنا معدات السفر ، وفى مدى أيام قلائل كنا على مقربة من حدودنا وكانت قلوبنا تخفق سروراً ، ولم يحدث فى الطريق ما يستحق

2017-11-1

الذكر . وكنا نفكر في العادات التي اعتدناها بالغرب وفي عادات بلادنا القديمة فنجد السيئ والحسن في كليهما

وفي أثناء الطريق زرنا الباشا في أرضروم واتضح لنا أنه لم ينسنا ولم ينس السفير . وفي تبريز تمحضنا بأعتاب الحاكم وهو من أسماء الأسرة المالكة ، وقد سألنا أسئلة دلتنا على أنه عين من قبل كل الذين عايناه في أثناء الرحلة . ولا يفوتني أن أذكر أننا قابلنا قبيلة من الأكراد على أثر خروجنا من أرضروم فأصروا على أخذ أمتعتنا عنوة ولكن فرقة من جنود الباشا التركي كانت تتولى حراستنا فقاتلتهم وألجأتهم إلى الفرار

وأخيراً وصلنا إلى طهران فقابلنا أصدقاءنا الذين كانوا في انتظارنا على أحر من الجمر ، وقد عزمت على أن أسلك خطة من الترفع تتفق مع المكانة التي استفدتها ، ومع المعلومات التي تلقيتها في رحلتي الأخيرة

ذهبت تواً إلى بيت رئيس الوزارة فوجدته قد ذهب إلى بيت الشاه فتبعته إليه وسلمته ما معي من الخطابات ووقفت منتظراً أوامره . وقد تركني واقفاً أمامه عدة دقائق قبل أن يأذن لي بالجلوس . ووجدت كثيراً من أصحابي في انتظاري فحيوني وهنأوني وسألوني عن الحالة في بلاد الانكليز فقال أحدهم إن النساء هناك لا يخجلن . وقال آخر إنهم يعبدون الصليب . مما يدل على الجهل بأحوالهم كما أن الانكليز يجهلون أحوالنا

وفي هذه الأثناء أبلغ رئيس الوزارة الشاه بخبر قدومي فنوديت ودخلت باحترام وألقيت بين يدي جلالته خطبة قصيرة وحرصت بقدر الامكان على أن أجمع بين موقف الوزير الانكليزي أمام ملكه وبين موقف الوزير الفارسي أمام الشاه

قال لي الشاه متلطفاً رداً على خطبتي : «سررت بعودتك يا حاجي بابا »

فأحنيت رأسي على طريقة الوزراء الانكليز فقال : « مرحباً بك »

فأعدت إحناء رأسي

قال : «هل أتيت بهدايا من شاه الفرنجستان؟ »

فقلت : « نفسي فداك يا جلالة الشاه لقد أتيت بهدايا قدمتها لأمين القصر » ثم أخرجت من جيبي عشرين جنيهاً من النقود الانكليزية ووضعتها على عتبة العرش وقلت : « وهذا الذهب أضعه متفائلا على أعتاب عرشكم »

فابتسم الشاه وقال لرئيس الوزارة الذي كان واقفاً بالقرب منه : «إن حاجي بابا خادم مطيع وقد بيض وجهي في بلاد الفرنجستان »

قال رئيس الوزارة : « نعم نعم يا جلالة الشاه وحيث وجد أتباع جلالتك نبيض وجوه الفارسيين» ثم قال لي الشاه : « صف لنا بلاد الفرنجستان » فقلت : « هي بلاد واسعة تختلف في كل أحوالها عن بلادنا »

قال : « وازن بينها وبين بلادنا » فقلت : « لا وجه للموازنة يا صاحب الجلالة فهي بالقياس إلى إيران مثل مع ضعفي بالقياس إلى جلالتكم » —

فالتفت الشاه إلى رئيس وزارته وقال : « لكل بلاد محاسنها ولكن لا توجد في الواقع بلاد مثل إيران» ثم استشهد ببيت من شعر حافظ الشيرازي في مدح فارس . فقال رئيس الوزارة : « أين شعر حافظ مما قلتموه جلالتكم من الشعر . وهل في العالم كله شاعر مثل مولانا فتاح علي شاه ؟ »

2017-11-1

فابتسم الشاه وقال : «ليس في الانصاف غضاضة فان الشيرازي شاعر معدوم النظير» ثم التفت إليّ وقال : « هل في بلاد الفرنجستان شعراء ؟ ! قلت : « نفسي فداك يا جلالة الشاه ليس عندهم أمثال السعدي والشيرازي ولكن عندهم شعراء على كل حال» فقال الشاه : «تعني أنه ليس عندهم بلابل؟ » فقلت : « نعم ليس عندهم بلابل يا صاحب الجلالة ولكن عندهم كلاباً. والحق أن إنشادهم بالقياس إلى إنشادنا كالمواء بالقياس إلى التغريد»

فسر الشاه من هذا القول وضحك وقال : « إذن فعندهم شعراء ، فماذا عندهم غير ذلك ؟ هل نساؤهم جميلات ؟ »

قلت : « نعم يا جلالة الشاه ، وأي جمال ! عندنا اليهوديات والروسيات والأرمنيات ومن كل جنس ودين وليس بين جواري الشاه جارية انكليزية وفي الانكليزيات الجديرة بأن تكون في خدمة جلالتك» فقال الوزير : « ولماذا لم تأت بجارية منهن هدية للشاه ؟ »

قلت : « تلك غلطة مني فلو أمر الشاه سفيره بأن يعود بجارية انكليزية لفرت بها عيناه »

فقال الشاه : « لم تخطئ في القول يا حاجي بابا » نحن نريد جارية انكليزية ليتم نظام حرمنا الشاهاني »

ثم التفت إلى رئيس الوزارة وقال : « وماذا تذكره لنسأل عنه حاجي بابا ؟ » . فقال رئيس الوزارة : « زجاجة التجسس يا مولاي ! »

قال الشاه : « أخبرني يا حاجي بابا هل رأيت عندهم زجاجة التجسس ؟ »

فقلت : « نعم يا صاحب الجلالة . عندهم شيء غريب مستطيل اسطواني الشكل وفي نهايته زجاجة مسحورة يستطيع الانسان بها أن يرى الجيش عن بعد عشرات الفراسخ دون أن يراه الجيش الآخر . وهي تظهر الشيء البعيد جداً كأنه على بعد أمتار قليلة . ولقد رأيت في بلاد الفرنجستان أشياء معدومة النظير »

قال : « تكلم إذن . ولكن إياك أن تكذب بحضرة الشاه . وإذا كذبت فلن تجد رحمة في نفسي »

قلت : « نفسي فداك يا صاحب الجلالة . لقد رأيت سفناً كأن الواحدة منها مدينة وهي تمشي في الزوابع والأعاصير دون أن تبالي »

قال الشاه : « لقد حذرتك من الكذب يا حاجي بابا »

فقلت : « نفسي فداك ما قلت إلا ما رأيت »

فتلطف الشاه وسألني : « أي شراع يجر هذه السفينة ؟ وما طوله ؟ وما عرضه ؟ »

فقلت : « إنها تسير ببخار الفحم » ثم أخذت أشرح معلوماتي في هذا الموضوع وهو ينظر إليّ نظرة استغراب كأني أقص عليه قصة من قصص السحرة . ثم أعاد سؤاله عن زجاجة التجسس . وسألني عما رأيت غير ذلك . فقلت : « إن أغرب ما رأيته هو النور الذي ينبعث من منارة السفن في أثناء الليل ، فانه يرى عن بعد فيهتدي به السفن ويتحرك ويدور ظاهراً بهيئة جسم عمودي ولا يتكلف إلا أقل النفقات ويؤدي أكبر النفع » . فدهش الشاه وأخذ يسألني فشرحت له معلوماتي عن المنارات أيضاً وقال : « لقد كنت أعرف أن الانكليز يصنعون الأقمشة الجيدة ولكن لم يخطر ببالي أنهم يصنعون النور الفاني » . ثم قال : إنهم من أشهر التجار ولا يبعد أن يكونوا قد صنعوا هذا

2017-11-11

النور ليفتنوا به أتباعهم الفرسيس الذى يسمدون الناو فى الهند

قلت : « هو ذلك يا جلالة الشاه » واقترحت على جلالته أن يأمر السفير بأن يرسل إليه صندوقاً من العجائب الانكليزية

فسألنى : « هل صحيح ما يقولونه عن شدة المواصف فى انكلترا ؟ »

فخطر لى خاطر بديع وقلت : « نعم يا جلالة الشاه إن المواصف هناك لا يدركها العقل ولقد هبَّت عاصفة وأنا فى الطريق وكنت فاتحاً فمى فطوحت الرياح بثلاثة من أسنانى وألقتها فى جوفى »

ثم فتحت فمى وأريته مكان أسنان ثلاث مكسورة من رحمة جواد . وأكدت له أن العاصفة هى التى أسقطتها فاستغرب الشاه هول تلك المواصف وحمد الله على أنه لم يذهب إلى الفرنجستان وإلا لنزعت الريح لحيته من وجهه

ثم أمر لى الشاه بخلعة سنية وصرفنى من حضرته مسروراً . فذهبت وأنا أدعو له ونفسى طامعة إلى الحصول على لقب خان، فأذعت بين إخوانى أنى سأحصل على هذا اللقب . وفى الحق أن كلمة « حاجى بابا خان » ذات نغمة موافقة وجرس بديع فلماذا لا يكون اسمى كذلك ؟

وقد تسامع الناس أنه أنعم علىّ بهذا اللقب ، وصار الشاه نفسه لا يقول لى « ميرزا حاجى بابا » بل يقول « حاجى بابا خان » ولا أعرف هل كان ذلك من احاسن جلالته أم جداً . ولكنه على كل حال فأل حسن

بيد أن رئيس الوزارة كان يسم أذنيه عن أقوال الناس حول هذا اللقب وإضافته إلى اسمى ، وما ذلك إلا لأن السفير فيروز خان قريبه وهو يضن علىّ أن أنال مثل مرتبته وأنا مرؤوسه

وعشت مسروراً أنفق من المال الذى خبأته قبل سفرى عند تير « زينب » ولم يحدث ما يسوءنى ولم ينقطع أملى فى الحصول على الرتبة . وكنت أقضى أوقاتى فى التحدث مع أصحابى عن العجائب التى رأيتها فى الفرنجستان وفى ترجمة بعض الكتب الانكليزية

وكنت كثيراً ما أتشرف بزيارة الشاه وأسمعه من كلماتى ما يقربنى من أملى فى الحصول على اللقب

والآن أيها القارئ الكريم أتشرف بأن أقبل قدميك وأطلب الحماية فى جيب قفطانك وأرجو ألاَّ يقصر الله ظلالك حاجى بابا خان

« تمت »

عبد اللطيف النشار

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه، والأوذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان - عابدين)

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على مدى بصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

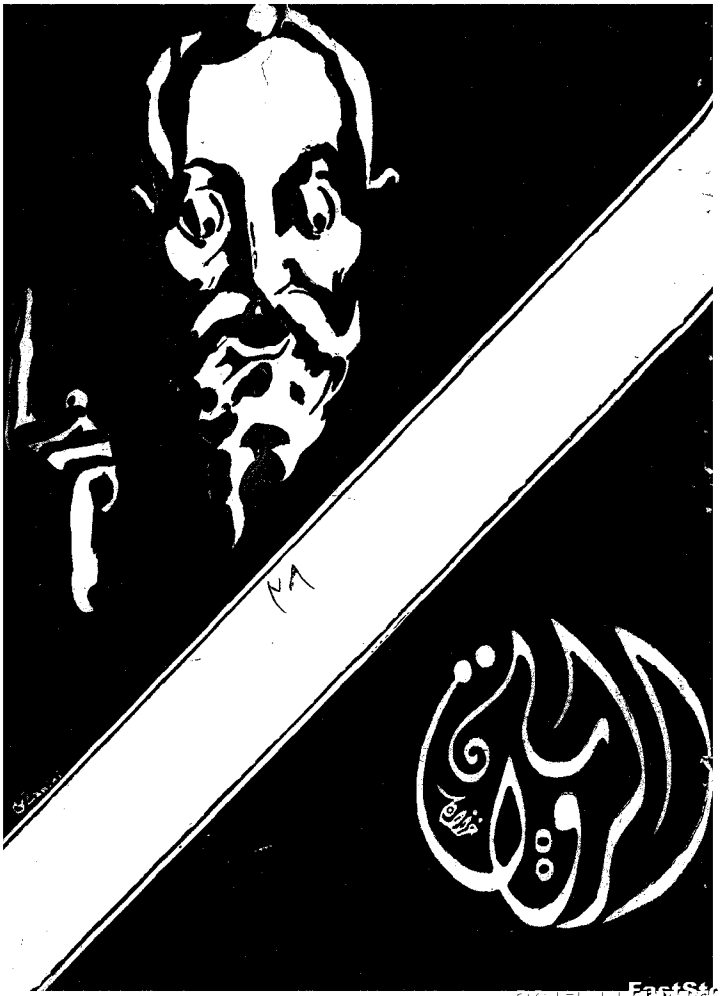
الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء اساليب البلاغة العربية

مجموعة اعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪


الرواية

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٨ | ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧ — ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
٧٣٨	مصرع توارکو توالقديس الفاسق	بقلم ايزيدور كورليانوف	للأستاذ محمد لطفى جمعة .. ..
٧٤٩	جبل النار	قصة من تاريخنا الذى يكتب الآن .	بقلم الأستاذ على الطنطاوى .. ...
٧٥٧	تجربة قاسية	مترجمة عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...
٧٦١	حكمة الموت	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
٧٦٧	كرم	للشاعر القصصى بول بورجيه	بقلم الأديب كال الحريرى ... ...
٧٧٧	الأول والأخير	للكاتب جون جالزورثى	بقلم الأديب سامى الدانص ... ...

2017-11-1

مصرع غوارکوتو القديس الفاسق

بقلم إيزيدور كوليانوف

للأستاذ محمد لطفي جمعه

منذ الشهر العاشر من عام ١٥٧٥ تربع فيدور الثالث على عرش جولد نفاجوس عاصمة ويز فيدانيا ، في قصر منيف واسع الأرجاء ، تحيط به أبراج وحصون عالية القدر ، وتلتف حوله بساتين ناضرة وحدائق غناء ، ورياض خضراء ، وغابات ملتفة الأشجار شاهقة الأغصان كأنها قطعة من جنات عدن . وكان البلاط الملكي في أقصى درجات الرفاهية ، تحف به مظاهر المهابة وتتمشى فيه تقاليد موروثة منذ مئات السنين ، وتخضع لنفوذه ألوف الرجال وتخر أمامه مئات الرؤوس من القواد والساسة والعلماء والدهاة والوزراء والمترفين . وإذا بقدم جاهل من طبقة الفلاحين السذج البسطاء خارج من أعماق « تسار كوسيلو فلاخش » إحدى مقاطعات ويز فيدانيا ، وأنفر ناحياتها ، وأبعدها عن الحضارة والغنى ، واسمه نوار كوتو ، يظهر بمظهر الرهبان ويشع بسموح الصالحين الزاهدين ، فيقبض بيده النحيل على عكاز متين ، ويبسراه على قلب كلاريوتانا زوجة فيدور الثالث وشريكته في الملك وقسيمته على العرش والصولجان ، فيمد نفوذه من قلب الأميرة المتوجة كلاريوتانا إلى البلاط الملكي فيصير له الأمر والنهي والقبض والبسط ، ويبيده الحركة والسكون وبين أنامله الحل والعقد ، وتخضع له ويز اقيدانيا من أقصاها إلى أقصاها ، وتنفذ كلمته قبل كلمة فيدور الثالث نفسه ملك ويز اقيدانيا وصاحبها وسيدها . ويذيع في الدولة خبر الراهب ، وينتشر مع اسمه في المدن والقرى والمعسكر والحقول والمصانع ، أن في بلاط الملك زاهداً مقدساً وراهباً ورعاً ، ونقياً تقياً ، يأتي بالكرامات وتتم على يديه خوارق العادات ، وأنه مقبول الارادة عنده نافذ المشيئة بإذنه ، وأنه مستجاب الدعوات ، فلا يطلب شيئاً إلا ويجاب إليه ، فما من نعمة

تعريف بالقصة

إيزيدور كوليانوف مؤلف روسي مقيم في أمريكا ، وقد تنقل بين الولايات المتحدة والمكسيك وجواتيالا . وقبل إنه نقل هذه القصة القصيرة العجيبة عن أسطورة مكسيكية قديمة جمعت حوادثها في القرن السادس عشر وكان رايدر هاجارد القصاص الانجليزي الشهير قد وصف « قلب الدنيا » عاصمة النحاس ومدينة الكنوز (وهي مدن مفترضة) عن أساطير أسبانية وأمريكية

أما هذه القصة فأهم ما تدور عليه حوادثها الأخلاق والسياسة وعواقب الاستبداد ، واستعباد النساء للشهوات . وقد أفرغ الحوادث في قالب جذاب فاتن . أما العقدة وهي المؤامرة التي قضى بها على الراهب العاشق فمن أغرب ما تخيله فكر قصاص خصب ، وقد نشرت القصة بخريطة تبين معالم المدن وأهم ما فيها ولم نر فائدة مباشرة في نشرها ، فنكتفي بذكر ما ورد فيها من الأسماء تفادياً من رسمها رسماً قد لا يتقنه إلا خبير جغرافي . ويز فيدانيا : اسم المملكة وهي واقعة بين توكسانيا وديفيدانيا جولد نفاكوس عاصمتها على نهر شاطور . وهي مدينة كبيرة . طوكسين : جبل عال في شمال الممالك الثلاث ولا يحول بينها . تسار كوسيلو فلاخش : مقاطعة الراهب التي ولد فيها وعاد إليها . هاشفات : قرية هي عاصمة القاطية وهي التي استقل بها شاطور : نهر كبير يخترق المملكة ويمر بالعاصمة والقرية . توكسانيا وتريفدانيا : جارتان معاديتان لويز فيدانيا

ديز فيدانيا ، وأنفر ناحياتها ، وأبعدها عن الحضارة والغنى ، واسمه نوار كوتو ، يظهر بمظهر الرهبان ويشع بسموح الصالحين الزاهدين ، فيقبض بيده النحيل على عكاز متين ، وبيسراه على قلب كلاريوتانا زوجة فيدور الثالث وشريكته في الملك وقسيمته على العرش والصولجان ، فيمد نفوذه من قلب الأميرة المتوجة كلاريوتانا إلى البلاط الملكي فيصير له الأمر والنهي والقبض والبسط ، وبيده الحركة والسكون وبين أنامله الحل والعقد ، وتخضع له ويز اقيدانيا من أقصاها إلى أقصاها ، وتنفذ كلمته قبل كلمة فيدور الثالث نفسه ملك ويز اقيدانيا وصاحبها وسيدها . ويذيع في الدولة خبر الراهب ، وينتشر مع اسمه في المدن والقرى والمعسكر والحقول والمصانع ، أن في بلاط الملك زاهداً مقدساً وراهباً ورعاً ، ونقياً تقياً ، يأتي بالكرامات وتتم على يديه خوارق العادات ، وأنه مقبول الارادة عنده نافذ المشيئة بإذنه ، وأنه مستجاب الدعوات ، فلا يطلب شيئاً إلا ويجاب إليه ، فما من نعمة

2017-11-1

تنال أحداً من أهل النفوذ إلا وهو مريدها ومتمنيها وسائل الله والملك فيها . وما من نقمة تصيب أحداً منهم إلا وحبلها بيده ... وأنه من أجل هذه القوة الناهضة الخارقة قد أصبح الشيخ نوار كوتو الحاكم بأمره في القصر وعلى قوائم العرش وفي ديوان الملك ثم في أعناق الرعية . هو الذي يشفي المرضى بغير طب ولا دواء ، ويعالج الجراح دون مشرط أو سلاح ، وينقذ من الموت من شارفوا عليه ومدوا يدهم لمصافحة الأبدية ، فكأنهم عند سماع صوته ومقابلة نظرته قد بعثوا من مراقدهم . بل هو يحيي الموتى ويعيد إليهم وجودهم ، وأنه على كل شيء قدير ، وهو الذي ينمي ويفقر ويعيد المغضوب عليهم إلى حظيرة الرضى الملكي — سواء أرضي الملك أم لم يرض — وينقل المرضي عنهم والمقربين إلى مضيق السخط والنضب ، سواء أغضب الملك أم لم يغضب. ليس الملك فيدور والملكة كلاوديا والوزراء والقواد سوى أدوات صماء في أيدي الراهب الزاهد والكاهن القانع نوار كوتو الذي كان يعيش عيشة التقشف في بيت وضيع في أحد أحياء المدينة الآهلة بالفقراء . ولما كان أهل ديرفيدانيا محبين للاطلاع وقد أتقنوا صناعة التجسس لأن جيرانهم الدرافيديين شرقاً والتكسومانيين غرباً يطمعون في بلادهم ، فقد حذقوا التقاف الأخبار والتقاطها من أفواه المتكلمين للوقوف على الحقيقة التي قد تفيدهم في الدفاع عن أوطانهم ، فقد سرت تلك السليقة من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة، ومن التجسس على العدو الخارجي إلى التجسس على العدو الداخلي . فأخذوا يروون عن الراهب الرهيب أخباراً يحمر لها الوجه خجلا ويقطر العرق من جبين راويها وسامعها حياء ، لا ينجو من ذلك النبلاء والأشراف وزوجاتهم ولا رجال الدين وسدنة المعابد في ديرفيدانيا طولا وعرضاً وشمالا وجنوباً . فنسج دعاة السوء وذوو الألسنة اللاذعة خيوطاً من الأوهام والأخيلة والقصص وزعموا أنه على الرغم من تقواه الظاهرة، قد غرس بذور الاباحة في مزرعة الأخلاق الطاهرة واتخذ من مظاهر الدين وسيلة للتعدي على الفضيلة ، وأنه سخر من بساطة أهل الاستقامة ورماهم بالحماقة والبله . فلم يقف في طريقه حاجب، ولم يحل دون اندفاعه في رغباته وتيار أهوائه حائل . بل إنه لا يسعى ذلك عبثاً ولا لعباً بالفضيلة ولا تعدياً على الأعراض ، إنما هي الطبيعة التي يخضع لها ويلبي نداءها ويسعى إلى سوقها ويطيع أمرها في كل وقت من أوقات النهار أو الليل . فهو لا يقترف جرماً متعمداً ، ولا يخالف مكارم الأخلاق قاصداً ، ولكنه يسمع النداء من قريب ومن بعيد . فما لديه اكتراث لعفة العذراء ، ولا لكرامة الزوج ، ولا لرابطة النسب. حقه وهو « الرجل » مقدم على حق الزوج إذا أراد هو ووافقته الزوجة . الشرائع والقوانين والعقود . . وسائل مادية بمثابة الأوراق التي تعلق في أعناق السلع لتدل على أثمانها أو البطاقات التي تتسلى على جوانب الحقائب تنسبها إلى ذويها . ولكنها لا تمنع الرجل الماهر أن يحمل الحقيبة ويولي بها الأدبار

ليستمتع بما فيها من أدوات الزينة ... وهكذا النساء الأبكار والثيبات والمتزوجات والمعشوقات، كلهن فى نظره ملك يمينه وراقصات فى هيكل ملذاته الذى لا تنطفئ أبوابه . لقد كانت تلك المواهب والرذائل واضحة فى ذهنه ، وكان واعياً لكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال . ولكن العامة ظنوه غامضاً . . وأين الغموض أيها الحمق ؟ إنه رجل متعبد ، قوي الارادة قوة نادرة ، سوبرمان إذا شئتم ؛ أتقن حكمة الدين وحكمة القلم وحكمة اللسان ، يصلي ويسحر ويريد وينال ما يريد غير مدافع ولا منازع ولا مقارع . أنتم تسمون بعض ذلك رذيلة وهو يسميه إشباعا واستمتاعاً . ترون فيه الشر والجانب الأسود ، وهو يرى فيه الخير والجانب الوردى . الله المحبة . والمحبة كل شيء ولا حدود لها . وهؤلاء المريدون من ساسة وقواد وأمراء وكواعب ناضجات وفتيات مخدوعات وظباء غريرة

***

في سفح جبل طوكبين فيلار ، وعلى ضفاف نهر شانطور يرى السائح فى مقاطعة تسار كوسيلو فلاخش قرية هاشقات پيدول ، وهى مربط أفراس ومستودع مركبات حوافل وملتقى قوافل ، وموطن ثكنات الجند والجحافل ، ومركز دائرة الطرق والسبل من العاصمة إلى الداخل ، ومحط رجال التجار والمهاجرين والمسافرين من أهل القوى وأهل الفجور . وقد نشأ نوار كوتو فى أحد بيوت تلك القرية المطلة على الحقول والمحتكة بالراعين والفادين .

فلما شب الفتى وترعرع ، هوت نفسه إلى الشموذة والدروشة الكاذبة وهو يظن أنه مجذوب إلى لباب الدين ، فأخذ يمشى المساجد ، ويطيل الصلاة فى المحراب ويتحدث إلى كل من بدا له فى ثوب الصلاح ليفيد منه علماً . فكان الواردون يذكرون المعجزات وخوارق العادات وحياة الجن وتأثيرها فى الانسان وقوة الخير والشر وسيادتهما فى كل زمان ومكان ، فجذبه هذا الخفاء فى حياة البشر واستدرجه السر والسحر ، وتغلب على خلقه الميل إلى التحكم فى حياة الناس بتأثير العقل فيمن لاعقل لهم

وكان أهل ديزفيدانيا قاطبة من الجهلاء والفلاحين المشغولين بالزرع والقوت والتناسل ، فكان لقوة الخيال ونفوذ الأوهام فيهم السلطان الأول ، وكانوا مظلومين ومرهقين ... كان فيدور الثالث ملكا على جانب عظيم من البلاهة ، كانت وراثته ملوثة بالأمراض التى تصيب الجسم والعقل . وكانت ملكته وعقيلته كلاديوتانا متحكمة فيه لانحدارها من سلالة ملكية أرقى من سلالته وأسمى . وكانت ذات جمال رائع وشخصية شيقة وإرادة ملتهمة وشهوة ملتهبة . فوضعت فى عنق زوجها أغلالاً . فما كان ظل الرعية يهمها أو يهم بعلها ، وهذه الرعية الجاهلة الفقيرة بجهلها أكثر من فقرها لجدب أرضها . إن جدب العقول أقرب إلى الفاقة من إجداب الأرض وعقمها

فما كانت كلاديوتانا تبالي أظلم الشعب أم لم يظلم ؛ وقد اخترع الكهنة للرعية فكرة الملكوت الأعلى

حتى إن من لم ينل نصيبه في هذه الكرة الأرضية ، لن يفوته نصيبه فى كرة أخرى ، ولكنها عاوية . فكانت الرعية أقرب إلى التصديق والاعتقاد والايمان بالأوهام . هذه المعابد قد انقلبت مسارح ومراقص، وتلك الهيا كل صارت أماكن للتعذيب والتنكيل ، فان الكهنة قد فرضوا على الشعب فريضة الايذاء والجلد والجوع وتعذيب الأبدان لراحة الأرواح وتنقية النفوس وتطهير القلوب . مزيج من الوثنية الهندية والبوريتانية الأيقوسية والكوبكرزم . لقد سرت الشهوات فى الأبدان وسارت سيراً عكسياً . كانت الدواعر تجلد الشيوخ فى المخادع ليحركن من همتهم الفاترة؛ وكان الكهنة يجلدون العذارى والكواعب ليطهروا من قلوبهن وينفروا من ذنوبهن . ومن هذا الجلد والتعذيب وشحذ السياط ، إلى مذهب إشباع الحواس بملة أن الله خلقها وسواها ، وألهمها فجورها وتقواها ، خطوة واحدة ! فلم يكن الشيخ الفاجر نوار كوتو واضع هذا المذهب أو الداعى إليه، إنما كان أحد أتباعه فسار فى أثر تياره وقلد أشياعه ومريديه. وكان فقهاء هذا المذهب يلتمسون التعليل والتحليل، ويبحثون عن الزكية بطريق التضليل ... ولكن نوار كوتو قد وضع المذهب موضع التنفيذ ، فان الله فى زعمه لم يخلق لنا أعيناً إلا لنرى بها ما يحتبها ويحتمنا ، فلا نجعلها تقع إلا على ما يسرنا ، وعلاناً نشوة وفرحاً، وجعل لنا آذاناً لنسمع بها أحلى الأصوات وأجل الأنغام ، فوجب علينا أن نفر بها حتما من أنكر الأصوات وأردئها ، وأبعدها عن الانسجام والهارمونية .. وما دمنا فى هذه الحياة الدنيا فلنستمتع بحواسنا ، بأبصارنا وأسماعنا وبقية جوارحنا ؛ والذنب كل الذنب فى حرمانها ، والأجر كل الأجر فى تمكينها . أما تعذيب البدن فهو وسيلة التطهر الذى لا يكون إلا لمن يشعر بأنه مذنب . أما الطاهر فلا يتنجس مطلقاً . وها هو الزاهد نوار كوتو قد صار إمام المذهب وشيخ الطريقة وتجلت قدرة الخالق عليه فبدت له تصاوير فى الأفق فى وحدة الليل ، وفى وضح النهار ... هذه تماثيل القديسين وأعين القديسات ترمقه وهن يضربن الورد بالمناب، ويعطرن المآوئ من النرجس ، وأصوات الملائكة تدعوه إلى الحضرة الملكوتية : وهذا هو الوحى بعينه وقوة الخيال وخصوبة الادراك الباطن، وها هو ذا بصير ولياً يد الله تدعوه ، وصوت الملائكة يحدوه ، ونور البصيرة يقوده، وعناية الأرواح العليا ترشده وتكلؤه. فما عليه إلا أن يلبى النداء ليرقى أسباب السماء ، وها هى ذى الأصوات تهمس فى أذنه وتأمره بالسياحة الكبرى التى لا وصول بغيرها . فليحمل المخلاة والكشكول، وليتشح المرقعة ذات الذيول، وليتأبط وعاء القناعة الحافل بألوان الطعام من المائدة السماوية، وليقبض على العكاز الذي ينبت فى يده أفنانا وأغصانا، ويورق روحاً وريحاناً ، فلا يخيفه الصيف ، ولا قر الشتاء، ولا وحوش الغاب، ولا أفاعى الغبراء، ولا الذئاب الجائعة ، ولا التماسيح اللاسعة ، لتخيفه بأنيابها وسمومها وإن يكن فراشه الغبراء وغطاؤه القبة الزرقاء ... نفس قوية لا ينفذ إليها من خلال

الجسم برد الجليد ولا وهج الشمس ، ولا تعتريها علة ولا يصرعها داء .. وهذه الكآبا والأديرة ملجأه الهادىء الهانىء عندما تخور منه قوة البدن أو يحتاج إلى التجديد ، كما يشعر الأقنوان المقدس بالحاجة إلى تغيير جلده فيسلخ عنه القديم ليحظى بثوب مرقط جديد . ولكن هذا البدن كان يلح عليه أحياناً إلحاحاً شديداً ، ويغريه إغراء مزعجاً ، فلا يملك أن يحرمه ، فان حرمه أحسّ بوخز الابرة ، فلا بُد له من الخمر المسكر ، والنبيذ المخدر .. ليفيق ، أى نعم ليفيق فهو فى نشوة دائمة ، لانقاومها نفسه العائفة . وبعد الافاقة أو السكر لا بد له من نومة الأبدان المطرة ، ولمس أجسام الإناث ذات الطراوة والخصوبة الفاتنة ، والعبث بالأيدى الرخصة . فتلك الجسوم اللينة المثنية التى يعالجها من مَسّ الجن لا بد أن تدفع له الثمن ، وما ثمن الشفاء إلا الاستمتاع ومشاركته فى اللذة العارمة والقبلة العارضة . هذا هو الاتصال المقدس ، مظهر الحب الأعلى ، إفراغ الحقيقة فى قوالب الخيال ، فان لم تكن تلك التى تلتمس العلاج تجود بنفسها ، فاليه من يلقاها فى الطريق عرضاً ، فى سواد الليل أو فى نور النهار . راعية أغنام ، أو طاهية طعام ، غنية ، أو معدمة ، طاهرة أو داعر ، كلهن صالحات لبره القديس من ألم الرغبة المحرقة . خمس سنوات ، وسبع سموات ، وألف دير ، ومئات النساء قضاها وطرقها وطاف بها وأظلته سقوفها وذاق حلاوتها ومرارتها ، وعشرات المرشدين والرفاق والمؤمنين تلقى عليهم وتلقوا عليه . وفى جبل آتوس دنيا ، أشرقت عليه الحقيقة الطاهة حقيقة العالم المحكوم بالخير والشر ، ولكنها فى نظر الحاكم الأعلى شىء واحد ، لا فرق بينهما ، لأنه هو الذى أرادهما وخلقهما وألهمهما ، فهما حقيقتان مطلقتان فى نظر السيد ، ونسبيتان فى نظر السيد الأعظم — فلا خير بلا شر ، ولا شر بلا خير ، كما أنه لا ليل بلا نهار ولا نهار بلا ليل ، ولا نور بغير ظلام ، ولا ظلام بغير نور ، ولا نار بغير رماد ، ولا رماد بغير نار ... هذه هى الحقيقة التى توهم أنها أُوحيت إليه ، وعليه أن يُنشرها ويبشر بها ويباشرها . إن الله معه ، حاضر يراه ويسمعه ، يجيبه إذا سأل ، ويحقق آماله إذا اتجه إليه . أليس عبده المطيع ومخلوقه الخاضع ؟ وها هوذا قد خرج من الخلوة ، ونفض ثياب التحنث فى الكهوف وصدر إليه الأمر بالظهور ، فعاد إلى قريته (تشار كوسيلو فلاخش) فخرجت على بكرة أبيها تحييه وتستقبله وتحتفل به ، وهو ابنها البار الذى طاف العالم بأمر الله وتعلم وتلقن وتأهل واستعد . وكان رئيس الكهنة (كونيكتوفيلار) على رأس المواكب التى أخذت بيده وأحاطته بالكرامة والبر ، وقد وضع على رأسه أرسوصة [1] محلاة بالذهب والجوهر وقبض على عكاز الرياسة الدينية . فلما أقبل القديس احتضنه الرئيس وسلمه العكاز ، ووضع الأرسوصة ليرفعها على رأس الضيف الكريم وخلع رداءه الأزرق

(١) فى الأصل تيارا Tiare أى تاج مقدس يلبسه رؤساء الدين وهو مستدير مقوس فآثرنا له « أرسوصة »

ليزين به منكبيه ، ولكن القديس ركع وصلى ، واستغفر واعتذر . فقال له رئيس الكهان المعظم « لم تعد هذه القرية بصالحة لاقامتك ، فلا بد من سفرك فوراً إلى جولدنفاجوس عاصمة ملكنا ، ومقر عرش مولانا فيدور الثالث ملك ديزفيدانيا ، فمكانك هناك بجوار العرش ، ومجلسك عن يمين الملك ؛ فهو أحوج ما يكون إلى قوة روحك ، وبركتك » قيل هذا القول بمسمع ومرأى من عجائز القرية وأبكارها شيبها وشبانها . وهذا أقصى ما يطمع فيه « رجل الدنيا » من مجد ... ليت عجائز قريتي يرينني ! هل كان الكاهن الأكبر مازحاً ما كراً ، أو صادقاً مخلصاً مؤمناً بما وصف به مواطنه ؟ هل أراد أن يهدي إلى الملك نصوحاً وميمناً أم يتخلص من مزاحم خبيث لا تؤمن عاقبة أطماعه وطموحه ؟ ... ولما وصل نوار كوتو إلى العاصمة كانت الأمة خارجة منذ عهد قريب من حرب التوكسيانيين الطاحنة ، ولم توشك أن تنفض عن أكتافها غبار الهزيمة الفاضحة . وكان رأى البورجوازيين من أهل (جولدنفاجوس) على أشد حال من الاستياء والتذمر بعد الخسارة النكراء التي أصابتهم في شرفهم وعزتهم وأوطانهم . وكان النبلاء يشعرون بأن قوائم العرش قد تزعزعت ، وأركان السلطان المطلق قد تصدعت ؛ ولكنها لم تتقوض فتشبثوا بالبقية الباقية منها ، معتقدين أن في استمساكهم بها منفعة لهم ولدراريهم ، فقد أمسوا أرقاء الشهوات والترف ، وسرى الفساد في نفوسهم سريان السم في الأبدان . فلم يجدوا علماً يرجعون إليه ، ولا عقلاً يلجأون إلى أحكامه ، ولا علماً يلتفون حوله ، ولكنهم يشعرون بالخطر ويشمون رائحة النهاية التي تدنو منهم شيئاً فشيئاً .. أويدنون منها . لقد أحسوا أنهم في آخر نهار لتلك العظمة والمجد والدولة التي آن زوالها واندثارها . هذا الشعور بآخر النهار عندما يميل ميزان الشمس ، وتختفي الأشعة الأخيرة ، هذه القيامة توشك أن تقوم على دولتهم وتفاجئهم بالويل والثبور وعظائم المهلكات

فكان النبلاء والوزراء يلجأون إلى المنجمين والمشعوذين ، ويترکون برجال الدين ويتحككون بجدران الهياكل ، ويندرون النذور ، ويلتفتون البشريات من أفواه المخرفين والدجالين ، فالشر مرتقب والخير مغيب ، والشهوات متحكمة ، والملك فيدور الثالث مضمحل الارادة منحل القوى وهو أكثر رعباً من المستقبل الغامض ، ومن الحاضر المظلم من أضعف صانع أو عامل في دولته . وكانت الملكة (كلاريوتانا) قد أصابها داء الهيستريا لحرمانها من ذكورة زوجها حرماناً مبكراً ، فانقطعت سلسلة نسلها ، وذوى عود شبابها ، وجف ماء حياتها ، ولم تكن نظم البلاط لتسمح لها بأن تتخذ من الجند أو الضباط عشيقاً مأجوراً مأموراً كما كانت تفعل جدتها كريستيانيا أو حماتها بيلادونا . فلما أن سمعت بالولي الجديد استدعته بحجة علاجها من أدوائها ما ظهر منها وما بطن . فلما استأذن عليها يأس رجلها الفاقد رجولته ، بهرها منظره واستولى عليها

2017-11-11

الفزع والطرب فى آن ! فهاهوذا معلق بين الرجال ضخم الوجه والأنف ، عريض الجبين والمنكبين ، واسع العينين والفم ، خشن الأكف والأقدام ، رث الهيئة ، ولكنه يبدو كالملوك فى عظمة فطرية لا يكسبها المجد الدنيوي ولا تحلمها مظاهر الثراء المادى .

إنها بلا ريب شخصية جذابة فاتنة ، تخضع لها الأنثى قبل أن تخضع الملكة . فخضعت الاثنتان معاً : الملكة الذليلة بحرمانها ، والأنثى المتعطشة بحاجة بدنها ... وسرعان ما وقعت المرأة المتعطشة سريعة لسلطان هذا الفلوك ، فقال : إنها مسكونة وملبوسة[1] وأن روحاً شريراً من الجن يحتل كل عضو من أعضاء بدنها ، ويسيطر على كل جارحة من جوارحها ، فلا يد من سيطرة أقوى من سيطرة الجن ... !

فقالت : وأين تكون السيطرة التى هى أقوى من سيطرة الجن يا أبتاه ؟

فضحك الزاهد ضحكة عريضة ساخرة . وقال : سيطرتى أنا !

فخرت أمامه وقبلت أطراف ثوبه البالية وقالت : صدقت يا أبتاه !

ومن تلك اللحظة سلمته قيادها — أعنى قياد بدنها وروحها — وصارت عابدته المخلصة وخادمته المطيعة المؤمنة ، وأعطته مفتاحاً ذهبياً يبيح له الدخول عليها فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، فأبواب قصرها لا تغلق أمامه ، ومداخل مضجعها الملكى لا سر لها حياله ، ولا يعترضه معترض من الحراس ولا الوصيفات... وكانت كلما خضعت لملاجه خلعت رداء المرض شيئاً فشيئاً وعاودتها العافية تدريجاً ، فزالت صفرة وجهها ، وفارقتها الهيستريا التى كانت تعذبها وتنخر شبابها وتجفف ماء حياتها ... لقد كان سراً رهيباً ، لم يقو أحد على إذاعته ، ولم يملك أن يتفوه به ... وكان الملك فيدور الثالث لا يدرك ولكن الهمس حول رأسه أشبه بطنين الذباب

لقد تمت المعجزة وضحكت الملكة كلاريونا ضحكا عالياً ، وزالت غضون جبينها وفارقتها السوداء[1] ورحلت عن مزاجها السوداء ، وزالت أعراض (الهيتارجيا) النكراء ، واختفت علة الميلانكوليا التى أضعفت شهية الطعام ، وأنهكت قوة أعصابها ، وامتصت دماء أنوثتها ، وملأت رأسها بالأخيلة فى الصحو ، وبالأحلام المزعجة فى النوم

وكان الملك فيدور الثالث كلما تمشى البرء فى بدن خليلته دب السقم فى أحشائه ، فاصفر لونه ، ونحل بدنه وهزل كيانه ، وعراه خبال وذهول ، فكأن الذى أسبغ ثوب العافية على المرأة ، سلبها فى رفق وأناة من أوصال الرجل ، فازداد ضعفاً على ضعف ؛ فأهرعت الدولة نطس الأطباء من كل مكان وبذلت لهم كل ما فرضوا من مال ونوال ورتب وألقاب طامسة أن يصيب تشخيصهم وعلاجهم

(١) فى الأصل possedée أى مملوكة لقوة خفية

(١) السوداء uciarcholie . ويقال امرأة سوداوية المزاج hysteric

محجة الصواب ، فكانوا إذا أقبلوا على سريره ورأوا نحوله وتحول لونه ، وجسوا نبضه ، وسمعوا دقات قلبه ، وفحصوا دمه ، هزوا رؤوسهم يأساً وقالوا : « إننا لنفرغ أقصى الجهد ! »

فدخل عليه الزاهد الرهيب يوماً في غفلة منهم ومسح جبينه بكفه وقال له : « إن شفيت تنذر لي يامولاي نذراً » . قال : « نعم يا أبتاه! فما هو ؟ » . قال : « ألا تعير أذنك لوشاية واش ، ولا تصدق في حق عذل عاذل »

قال الملك وهو يكاد يجود بأنفاسه : « لك ذلك يا أبتاه ! »

فركع الزاهد بجوار السرير ودفن وجهه في لفائفه وأمعن في صلاة حارة، ولما نهض من صلاته كان وجهه الأسمر الساكن وشعره الأسود الفاحم مبللين بالدموع ، وأخذ يعيد الكرة اليوم بعد اليوم ، وأخذت صحة الملك بعد قليل في التحسن ، وعاودته القدرة على الطعام والقعود والوقوف — حتى المشي على الأقدام . . .

فشاع في أنحاء المملكة المنكوبة أن صلاة (نوار كوتو) قد أنقذت الملك ، بعد أن أنقذت الملكة ، فاكفهرت وجوه الذين تحدثوا بالسوء من قبل ونسبوا شفاء الملكة الى علاج سفلي ، أو طريقة شهوانية وخطة شيطانية جلت الحياة تدب في جسم المرأة المحرومة ، التي كانت عليلة بالحرمان . وقال أنصار الراهب : هل كان بينه وبين الملك فيدور الثالث غرام واتصال كالذي زعمتم وجوده بينه وبين الملكة في ظلام الليل وخفايا القصر ؟ . وأحيطت رأس الراهب بهالة من المجد و بعد الصيت ، وهو بعد لم يغادر بيته الحقير في أحياء الفقراء . ولكن النساء النبيلات ، وزوجات العظماء كن يتزاحمن على أقدامه ويقبلن إخمصه وكعبه ، ويتشبثن بركبته ، قبيل العلاج . وكان العلاج معلوما ، لابد منه ولاغنى عنه . . . لابد لكل امرأة أن تخضع، ولكن يخضعن مسرورات ، ألم تخضع أول سيدة في البلاد ففازت بالصحة والحياة بعد اليأس من النجاة؟ وعاد طنين الضباب رنينا في آذان الملك ، فكان يستدرج الوشاة حتى يسترغوا له وينقلوا اليه كل مايشاع ويملأ الأسماع ، فيأمر بسجنهم وتجريدهم من أموالهم ، ويضيفها الى طيبه وحبيبه وشافيه ومعافيه ومنجده ومنقذه ، ويقول لنفسه : الحسد والبغضاء والغيرة السوداء ، إن صح مايزعمون عن الملكة — وهو باطل وإفك وكذب منكر — فكيف يفسرون علاجي وشفائي ؟ هل كان يشفيني أنا أيضا ؟ لقد أصاب إذ طلب إلي ألا أصدق الوشاة . وهيذه كرامة أخرى ! فقد تنبأ بحبث أهل البلاط فاحكم الحماية من شرهم بطلب النذر مني فأمنته ووفيت معه. كان نوار كوتو أخا أورجيات [1] ، لايرحم . ولم تكن أنثى واحدة بكافية ، بل إناث متعددات ، وليست قتينة واحدة بشافية، بل قتانى ودنان مختومات مفعمات . وليست راقصة واحدة بقاضية أمنية

(١) أورجيا حفلة تهتك وإباحة كانت لليونان والرومان وبعض الشرقيين . وكتبها العرب هكذا .

النفس بل راقصات ومطربات . . ألم يعلم أن فى هيا كل الهند ومعابد المكسيك نساء عاريات اسمهن عرائس الآلهة المبذولات للكهنة ، وأحيانا لكل طارق وعابد . . . وهذه النسوة المشششات حول كوخه ، المحاصرات لسكنه من الفجر الى نصف الليل ، المرتميات على أقدامه ، أليس فيهن صالحات لأداء تلك الوظيفة ، وهي عبادة « الاطمئنان » ؟ إن قوة الرجولة فيه نادرة المثال قادرة على إخضاع نصف نساء المملكة والقضاء على أوجاعهن المؤكدة .

وقدرة الكورة الكامنة وراء سوادعينه ، وسواد شعره ، وضخامة أعضائه كفيلة باخراج الجن من أبدان الكاهنات مهما كان الجنى الساكن عنيداً ، فثارت عواطف النبيلات المهجورات وغلت دماء الشباب فى عروق العرائس اللواتى كن زينة القصور وحلية المجتمع ، ولكنهن زوجات لأزواج لا يزيدون على التحية والاحترام وتقبيل الأيدى فى المجالس والأبهاء ، أما عصر تلك القدود ، والتمتع بورد الخدود ، والمناجاة فى المضاجع فكانت خارجة عن نطاق جهودهم وشاهدة بعجز نحوتهم عن أجنادهم لأنهم أسرفوا فى فتوتهم فلم يدخروا لرجولتهم ، وقد أشعلوا الشمعة حتى آخرها ، فلم يعد فى عودها شحم يغذيها أو تستمد منه أشعتها ولذا هجروا المقائل فى القصور ، كالمخطيات فى المقاتل ، فكان (نوار كونو) كعبة آمالهن وعراب عبادتهن حتى الراهبات فى الأديرة هجرن المذابح والمضاجع وحللن ببيت الزاهد يلتمسن الرحمة ! الرحمة يا أبناء ولم يكن للرحمة التى جرى اسمها على ألسنتهن سوى معنى واحد

وفى أحد الأيام علم البيلكو [1] سومان أن زوجته (البلكايا تندريس) قد فرت من القصر ، فوجدت فى حال بين السكر واللوث ، عارية البدن وموخوزة بأسنان مدية قاطعة فى زورق شراعى ضال فى عباب نهر شانطور الذى يمر بالعاصمة وقد اعتدى عليها بعد أن عذبت . ولكنها كانت فى كل الأحوال راضية . فنقل البيلكو حليلته إلى القصر والتجأ إلى الكولونيل (أنفور ماتورى تشايف) زعيم الخفية ورئيس الشرطة السرية ودفع له ألف فلورين ذهباً ووعده بمثلها إن هو أظهر له الجانى الذى استباح عرضه وهتك أستار شرفه ، وجمع بين الفجور والقسوة ... فاستوثق الكولونيل (أنفور ماتورى تشايف) من البيلكو سومان ألا يبادر إلى الانتقام ، وألا يبوح باسمه إذا سئل عنه فى التحقيق ، فوعده بذلك فقال له : « إنه نوار كونو الذى دأب على استغلال سيطرته على عاشقاته وأنه منح أجلهن لقب الأخت المختارة وكان يوعز إليهن أن يمسين أزواجهن ، فان الأزواج رجال ضرورة جمت بينهم وبينهن دواعى المال أو الحسب ، أو الخوف من هيبة الدين والأهل ، وهذه كلها ترهات ! أما المحبوب القاهر فهو الزوج الصادق الحقى والعاشق القابض على زمام الارادة عن طريق الجسم والعقل » وسمت (الكولونيل أنفورماتورى تشايف) ووضع سبابته على فمه علامة الأمر لمحدثه بالصمت

وقد أيقن البيلكو سومان أن نوار كونو أصبح صاحب الحول والطول داخل القصر وخارجه وذا الكلمة التى لا تسمى ولا ترد ، وأن أذنى الملك فيدور الثالث مقفلتان دون كل وشاية ، لأنه مدين له بحياته وحياة زوجة الملكة ، فزاد ذلك من حقد البيلكو سومان الذى أهين شرفه ، وأهريقت

(١) لقب شرف مثل كونت ولورد ومؤثته بيلكايا كما يقال كونت وكونتة

كرامته ، وديست عاطفة الزوجية منه بالأقدام ، ولكنه أضمر الانتقام وصمم على الثأر ، وكان طوال أيامه يعالج زوجته وينعشها ويطعمها ويستدرجها لتعترف له، وهو يسجل اعترافها ويخفي وراء الأستار شهود سماع يسطرون أقوالها في ثبت رسمي فعرف الكثير من أسرار الرجل ، وأن امرأتين تبغضانه وتتربصان به الدوائر (ستارهزا) رئيسة دير (باركان) وهي في أول أمرها نبيلة وقعت فريسة لشهوته وغدره ولم تنل من حبه مأربها ، إذ كانت تتمنى أن تستأثر به ، فهي قد وقعت أموال الدير ، وهي طائلة ، على الانتقام منه . ثم البارونة بيلادونا عقيلة الوزير (بيلهان) وقد كان سبباً في إسقاط بطلها وإقصائه عن دست الوزارة ثم هجرها ، وما زالت تهوى في حزون الشقاء والانحطاط حتى صارت تعرض القسري بها على من يشاء لقاء أجر معلوم ، ولكنها مع ما حل بها من الضياع وانهيار الحرمة لم تنس ثأرها . لحدثته نفسه أن انتصاره على خصمه قرين محالفة هاتين المرأتين ، إذلا أمل في الانتقام من رجل مهما علا أو هبط بغير معاونة النساء فانهن مخالب الشيطان ورأس الأفعى وأداة الشر .

فسعى البيلكو سومان الزوج الموتور إليهما وعقد بينهما وبينه أواصر المودة وأفضى إليهما حتى أمنتا جانبه ، وكانتا تحسبانه في أول الأمر عيناً عليهما أو أذناً لنوار كرتو أو مولاته الملكة ، فأخذهما إلى قصره وأدخلهما على قرينته ، وأسمعهما من شها قصة ألمها وعارها ، فأطلعتاه من أمر الكاهن الزائف على ما لم يعلمه أحد ، فعلم أن السر في شفاء الملك المخدوع أن الراهب إذ كان يتظاهر بعلاج الملكة ، كانت تدس لزوجها السم بأمره ، جرعات معلومة مقدرة ، من زعاف نباتي لا يترك في الأحشاء أثراً ، ولا يقتل فريسته للوهلة الأولى ، فلما أزاد صنع الكرامة كفت الزوجة بأمره عن تسميم زوجها ، فعاودته الصحة ... ولكن الحادثة إذا سيقت للملك في أبلغ قالب وأزهى صورة وأصدق رواية لا يصدق قائلها ولا يؤمن به ، بل يرميه بكل سوء ، ولا يعفيه من عقاب . وكان نوار كرتو خادم مخلص اسمه (بانكو) ومريد وفي يدعى ليبوس ، فاستدرجهما البيلكو سومان بالمال والنساء تنفيذاً لخطة وضعتها رئيسة الدير الموتورة التي كانت مشوقة الراهب ، وبذل لهما البيلكو النضار وقدمت لهما رواية الدير ما شاءا من راهبات وسقتهما ماروى غلتهما من خمر ، حتى أفضيا لها بأن الراهب سوف يكون منفرداً في بيت خلوي وفاء لموعد غرام جديد، وسوف توافيه إحدى النبيلات المشتعلات بالشوق إلى قربه لتحقيق أحلام الهوى التي يحلم بها نساء كثيرات من طبقتها بعد أن أفض هجر الرجال مضاجعن ؛ وأن هذه النبيلة تخشى مفاجأة زوجها أو أحد أقاربها فتسلحت بالرصاص والسم وأسباب أخرى للملاك ، قد تورد ها موارد التلف إن تنسمت ريح الفضيحة ، وأن هذه الحسناء الخجول الحذرة وتدعى (كوتشتا) لا تلبث أن تصل إلى الدار لتجوس خلالها وتعرف مخابئها ، حتى إذا بلغتها يوم اللقاء كانت آمنة مواطن القزع من رقبائها . وأن اليقين قاطع بوهمها وأنها فريسة لمخاوف مزعومة . وإذن ما أسهل أن يكمن واحد أو اثنان من عداة الكاهن ... ثم استمرت الكاهنة الموتورة في وضع خطة محكمة جعلت مصرع الكاهن الملهب من فعل عشيقته الملتهبة أمراً ميسوراً .

وفي اليوم المحدد لزيارة النبيلة زيارة كشف واستطلاع ، انفلت إلى الدار ثلاثة من النبلاء الموتورين في أعراضهم وقد تأبطوا حقيبة ضخمة

2017-11-11

أودعوها قوتاً وأسلحة وحوائج أخرى ، فلما فتح الباب ودخلت الباروزة (كوتشتا) صبروا حتى غاب سوادها فى ظلال الأشجار الوارفة وانسلوا يحذق كأنهم ينفذون مكيدة حرب فى مواقع الدرافيديين أو التوكسانيين جيرانهم وأعدائهم من قديم الزمان ولم توشك المسكينة أن خرجت ، وقد الطأنت وهى لا تدرى ما تخبئه لها الأقدار والأحقاد . ولم يطل على القابعين الانتظار فقد وافى فى اليوم التالى الراهب متزيناً فى زى أعيان الريف وجاء بعده أحد الخادمين يحمل ما يحتاج إليه مجلس الشراب ومخدع الهوى ثم انصرف الخادم وبقى الراهب فى الانتظار . وبعد الغروب جاءت النبيلة فى ثوب ريفية شمطاء مبالغة فى التخفى وغلقت الأبواب ، وجلست إلى الراهب فى استمداد لقطف أحلى ثمار الهوى ، وهى تمنى نفسها بتلقى صدمة الغرام العنيف[1] ، تلك الصدمة الأولى التى تشفيها من كل داء

ولم يوشكا أن يشرفا من نافذة النشوة على بستان الحب الفسيح ، حتى سمعا دقاً على ثلاثة أبواب فى وقت واحد ، وقبل أن يسترد العاشقان المأخوذان روعتهما ، دخل ثلاثة من أقارب النبيلة : زوجها وأخواها ... فجن جنونهما ونهضت وأخرجت سلاحها فوقف الراهب بينها وبين أهلها فأطلقت الرصاص عليه فى لحظة جنون وفزع ثم أدنت من فمها خاتماً أنيقاً كانت جعلت فصه مخزناً لسم قاتل ، فلم توشك أن مصته بشفتيها حتى سقطت صريعة ... وانكفأ الراهب عليها ينعشها بطريقته غير حافل بمحضر الرجال الثلاثة ، فى سبيل إنقاذ معشوقته التى كاد يذهب نحبها كما ذهبت نحبته . وكانت مواطن الرصاص من جسمه تسيل دما ، ولكنه كان يقاوم عوامل الموت بدوافع حيويته ؛ ويزأر حينا كالضبع الجريح وطورا يغمغم غمغمة مبهمة فأهوى عليه الثلاثة الدخلاء بخناجرهم وهو يجأر ويخور كالثور الكبير والفحل النابغ وبهض ثم يقع متخبطا فى دمه ، حتى نزف معظم مافى عروقه وكان دماً أسود قاتماً كدم الجن . فلما أيقن الثلاثة بموته رفعوا لحاهم المستعارة ، ونزعوا ثيابهم التى جعلتهم فى صورة أقارب النبيلة حتى توهمت أنها قد فضحت حقا وأن أباها وأخويها وقفوا على سيرها فأقدمت على القتل والانتحار فى حين أن خصوم الكاهن لم يزيدوا على أن قادوا تصاوير أقاربها ، وانتحلوها ليحلوا محلهم لحظة تنفذ فيها النبيلة رشدها بالرعب ، فتنتحر أوتقتل الراهب المزيف خطأ . وقد نفذت تلك الخطة المحكمة كما رسمها رئيسة الدير .

فلما تم لهم ما أرادوا غادروا المكان وتخلوا عن الحقيبة وأذاعوا فى العاصمة نبأ مصرع شيطان الانس حتى علمت به الملكة والملك . فانتحرت (كلاريوتانا) وجن فيدور الثالث وثار الشعب على النبلاء الكهنوت ووضع الفلاحون والصناع أيديهم الطامعة على كنوز ديزفيدانيا فانتهز الدريفاديون والتوكسانيون فرصة خلو العرش واضطراب الأمن وزوال العدل فاحتلوا أرض الوطن ... وأقاموا لنوار كوتو تمثالا والنبيلة كوتشاتو نصبا من المرمر لأن فسوق الأول وخشية الثانية من العار كانا سببا فى امتلاك وطن ديزفيدانيا وزوال دولتهم .

محمد لطفى جمعة

(١) فى الأصل premier "shock" d'amour لم ندر المقصود بها ولا سيما وإن إحدى الكلمات انجليزية

جبل النار

قصة من تاريخنا الذي يكتبه الآن بقلم الأستاذ علي الطنطاوي

... لما سمع الساعة تطن انتبه لها ، فلما أيقن أنها (الثانية) وثب من الفراش ، ومشى إلى الشرفة فأطل منها ، فمس وجهه نسيم السحر الناعش ، فجعل ينشق منه ويعب عبًّا ويملأ رئتيه ، حتى إذا روى منه نظر إلى المدينة فرآها نائمة ، لا يسمع فى رحابها صوت ، ولا يلمح خلالها نور ، فاطمأن إلى هذا السكون ، وأدنى منه كرسياً فجلس عليه متلفعاً بعباءته ... وجعل يحدّق فى الطريق كأنه يرقب طارقاً بطرقه ، حتى طال عليه الانتظار ، وخيّل إليه أن الفجر قد سدت عليه المسالك أو حيل بينه وبين الطلوع ، ورأى الليل ثقيلاً ، فأحس كأنه منيخ عليه بثقله ؛ وزاده ضيقاً أنه جالس فى الظلام لا يستطيع أن يوقد السراج لئلا يوقظ أهله فيفسدوا عليه الأمر الذى ائتواه واعتزمه ، وهجر لأجله فراشه وجلس فى شرفته يرقب رفيقه الذى يسعده على تنفيذه ، ولم يكن (فى الواقع) نائماً ، ولم يخالط النوم هذه الليلة جفنيه ، وإنما اضطجع ساعة من أول الليل يوهم أهله أنه نائم ، فلما اطمأن إلى أنهم هجموا نهض فأعد ثيابه ، وهيأ عدته ، ثم استلقى على الفراش يحلم بالحياة التى يقدم عليها ، ويفكر فيها حتى لقد أصابه من السهر والفكر صداع أليم لم يكن له بمثله عهد . وكان (عرفان) أصغر أبناء أبيه الثنى الترف ، وأدناهم إلى قلبه ، وكان لأمه عطف عليه ليس لأحد من إخوته الكبار مثله . فكان الصبي المدلل المحبوب ، الذى إذا سأل أعطى ، وإذا أمر أطيع ، وإذا أبى شيئاً لم يكن ، وإذا أراد شيئاً كان ، وإذا اشتكى اضطربت الدار ، وأسرع الأقرباء ، ودعى الأطباء ... وكان عرفان (على هذا) ذكياً مهذباً ، متقدماً فى مدرسته ، محبباً بين أقرانه ، فتاناً بأدبه وخُلقه ، كفتنته بجماله وخَلقه ، فهو فى الرابعة عشرة ولكن جسمه الأبيض القوى جسم فتى أناف على السابعة عشرة ، له عينان حوراوان ، وأنف دقيق صغير ، وفم كأنه زر ورد أحمر ، ولكن عطره بليغ الكلم ، وشريف القول . وكان ديِّناً صيِّناً نشأ على طاعة الله ، وأقام الصلاة وآتى الصدقة ، وما تعمد منكراً من الفعل ، ولا زوراً من القول ، فكان عرفان بهذه المزايا زهرة اللدات ، وزينة الفتيان ...

أما الفتى الذى ينتظره عرفان ، فهو رفيقه مختار ، وهو قروى فى السابعة عشرة من عمره ، أسمر شديد السمرة ولكنه جميل الصورة ؛ دقيق الملامح جذاب ، وكان شجاعاً صاحب دين وشرف عرفه عرفان فى المدرسة طالباً ممتازاً ، فلم يلبث أن جعله رفيقه وصفيه ، وخليله المصطفى ، وصديقه المختار

***

لبث منتظراً على الشرفة حتى بدت طلائع الفجر فأدركه اليأس ، وخامر نفسه ألم الخيبة ، فأزمع أن يمضى وحده ، وألقى على الطريق نظرة الآيس فاذا هو بمختار ، مختار بعينه ... فكاد يطير

2017-11-11

من الفرح، وأشار إليه أن ينتظر وحل عدّته ومشى على رؤوس أصابعه، يبتدر الباب، فلما مر بإخوته وهم نيام أدركته العاطفة فخاف أن يثب عليه حبه لهم وتعلقه بأبويه، فحبس العاطفة فى أعماق نفسه واستودعهم الله ... إلى ... إلى غير ما رجعة، فما يعلم أحد إلا الله ماذا يكون نصيبه من هذا السفر. ومضى هو ورفيقه يجتازان أزقة البلدة حذرين يترقبان لا ينسيان بكلمة، حتى إذا صارا إلى الفضاء وأمنا بعض الأمن، افتتح مختار باب الكلام فقال لعرفان:

— ماذا تظن أبلك غافلا إذا هو تيقظ فلم يجدك فى الدار؟

فلم يجب عرفان وإنما كان يصغى إلى صوت المؤذن يمشى فى سكون الليل مشى الثناء فى الأعضاء فتترع منه الأشجار ظرباً، ويؤخذ به الكون مفتوناً ... ويردد ما يقول المؤذن بصوت خافت ولكنه مملوء بالإيمان والثقة بالله: حىّ على الصلاة! حىّ على الفلاح! الله أكبر! الله أكبر! فأصغى إليه مختار وجمل يردّد الحيعلة والتكبير ... فلما انتهى الأذان وشمل الكون السكون كرة أخرى مالا إلى رحبة قريبة فوقفا يصليان وكانا (كما وصفت) شابين دينين تقيين فنسيا حين صليا الدنيا بما فيها. ولما انفتلا من الصلاة سارا صامتين يذكران الله سراً، وكأن هذا الشعور السامى الذى ملكهما، وهذه المراقبة التى أقبل عليها قلباهما قد أحالتهما من طالبين صغيرين إلى مسلمين من المسلمين الأولين الذين عرفوا الله، وأدركوا غاية الحياة فصاروا سعداء إن عاشوا لأنهم يعيشون لهذه الغاية، وسعداء إن ماتوا لأنهم يموتون فى سبيل هذه الغاية ...

وأى رجل يذوق حلاوة الإيمان ثم لا يرى نفسه أكبر من الدنيا، وهو لا يرى فى الدنيا إلا جناح بعوضة؟ أفليس أكبر من جناح بعوضة؟ ومن يعرف حلاوة الإيمان ثم يتعجب من المسلمين الأولين حين خرجوا ليفتحوا الدنيا بسيوف ملفوفة بالخرق ويقابلوا ملوك الأرض بطائفة من البدو ... أو يعجب من هذه الفئة من أهل فلسطين حين تقاتل أعظم دولة فى التاريخ الحديث، ولو اجتمع أهل فلسطين كلهم بنسائهم ورجالهم وأطفالهم ما ملأوا حياً واحداً من عاصمتها؟ لا. لا تعجبوا من ذلك، بل اعجبوا من مؤمن لا يرى نفسه أكبر من أكبر دولة فى الدنيا وهو جندى فى دولة الله، ودولة الله أكبر من كل دولة، لا إله إلا هو، له الملك وله الأمر وإليه ترجعون!

***

وابتعدا عن البلدة وهما صامتان لا يتكلمان، وعرفان يفكر فى أبويه اللذين خلفهما يتجرعان الغصص لفقده، ثم يذكر الواجب فيطمئن إلى أنه أحسن صنعاً حين خرج مجاهداً فى سبيل الله، ولكن عاطفته لا تهدأ ولا تقر، فيحاول أن يتسلى بهذه المناظر الفتانة التى تبدو له فى هذه الغداة الباكرة فى غاية الجمال، فلا يبكيه شىء فيندفع يغنى بصوت خافت حزين هذه الأغنية المعروفة ...

« يا والدىّ سيصدع موتى فؤاديكما وستسكبان الدموع غزاراً، ولكن تراب قبرى سيجف فتجف معه دموعكما، ويلتئم صدع قلبيكما ... »

« وأنت يا أختى ... ستنسيك الأيام ذكرى أخيك الشهيد، وستمحى سطور الحزن من صفحة نفسك ...

2017-11-1

وأنت يا جدى الشيخ ، ستنسى حفيدك الفقيد ... »

« ولكن أخى لن ينسانى ... »

« أنت يا أخى ستظل ذكراى بين عينيك حتى تثأر لى من قاتلى ، وتنضح قبرى الجاف بدم القاتل »

« وأنت يا أخى الأصغر ... لن تنسانى حتى تضطجع إلى جانبى (١)

فلايختم أغنيته حتى تلسب هذه الطاعنة الشجية التى تحط على النغم (الأصبهانى) بقلب مختار فتثيره وتهزه فيقول لعرفان :

— ولكنك جرعت أبويك كأس الآلام ، فشرباها منذ اليوم حتى الثمالة ...

فيجيب عرفان حزيناً واهياً :

— أعرف ذلك

وتكون فترة يصمتان فيها فلا يسمع إلا وقع أقدامهما العجلة على حجارة الطريق الوعر المهجور الذى تخيراه . ثم يقول عرفان :

— أعرف أنى جرعت أبى كأس الأحزان ، ولكن ما ذا أصنع ؟ أليس لله علىّ حق أكبر من حق أبى علىّ ؟ أنسيت يا مختار ما ذا قال مدرس الدين حين شرح لنا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم « من لم ينزو لم يجهز غازياً ، ولم يخلف غازياً فى أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة » والحديث الصحيح « لا يجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » والحديث الآخر : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد »

ألم يقل لنا إن الجهاد فى هذا العصر أفضل منه فى العصور الأولى ، لأنهم كانوا يجاهدون ليضموا إليهم إخواناً وبلاداً ونحن نجاهد لندفع الموت عن أنفسنا وبلادنا ، والجهاد فى فلسطين أفضل منه فى البلاد الأخرى ، لأنها لم تمن بلادة بمثل ما منيت به فلسطين حين دخل عليها اللصان ، فلبس أحدهما جبة الحاكم فقضى وهو اللص ... وارتدى الثانى رداء التاجر فاشترى ... وهو السارق ... وكان خلاصة الأمر كله ، أن تقول للمالك : قم فاخرج من دارك لنعطيها لهذا السارق ، أو ... أو نهدم دارك ، ونقطع رأسك

— رحمه الله ـ هذا ما قاله بالحرف . لقد كان .

— لقد كان ؟ أتعنى أنه مات ؟

— لا . ولكن سفح دمه على أرض الحرم الأقدس ؟

— ؟ ؟

— لقد شنقوه ، شنقوه لأنه حمل مسدساً .

— أو لا يرون (أولئك) يحملون المسدسات والمسبسات جهاراً نهاراً ، فلم لا يشنقونهم ؟

— (أولئك) من الشركاء ـ ولكن مالنا نتألم ؟ من كان مع الله فلايحزن ، أنشك فى وعد الله ؟

— لا والله ما شككت ، ولكنى أفكر فى أستاذى ، رحمه الله ، أيشنق عالم جليل فلا يتحرك له أحد؟ وهؤلاء الذين يحملون راية الدين ، ويعلكون الحول والطول ، وتسير بأمرتهم الجيوش ... أما

(١) أصل فكرة هذه الأنشودة لتولستوى

بين أضلعهم قلوب تعرف الايمان ـ فتحركهم إلى نصرة المظلومين ؟ ..

— وله ؟ وهل ضعفنا أو جبنّا ؟ إن هـذه البلاد ياصديقي متمودة ، متمودة الحرب . ألم تردّ جيوش أوربة كلها فى يوم من الأيام ؟ فلماذا ينقص الأبناء عن الآباء ؟ أنسينا ؟ إن نسينا ذكرتنا بتاريخنا هذه الجلاميدوهذه الأصلاد ـ وذكرتنا أجدادين ، وذكرتنا حطين ، واسم صلاح الدين ؟ ان الارحام التى ولدت صلاح الدين لا تزال تحمل وتضع ، وان الله الذى نصر صلاح الدين هوالله ، « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » فلتدافع عن (أولئك) الدولة ساحبة الأساطيل ، أو فليدافع عنهم الانس والجن ، إن الله يدافع عن الذين آمنو ، والله أكبر !

— ولكنى أخشى عليك ياعرفان ، أن ابن الترف والنعيم ، نشأت تتقلب في ثياب الحرير ، وتنام على ريش النعام ، فكيف تنام غدا على الحجر والمدر ، وتصبر على الجوع والعطش ، وتحمل لدع الشمس ووقع الرصاص وحر السيوف ، إنها الحرب ياأخى ، إنها الحرب ، ليست جولة كشفية ، إلى البين در ، إلى الأمام سر ، ثم تعود إلى بيتك فتجد حمامك مسخنا ، وطعامك مهيئا ، وفراشك موطئا . إنها الحرب ليست هزلا ولا لعبا ، أفتستطيع أن تمضى يومك في الكر والفر ، بين القنابل المتفجرة ، والرصاص المتساقط كوابل المطر ، ثم تقوم الليل كله بلا طعام ولا منام ؟

— لست أدرى باختصار ، وما جربت ذلك ولكنّ الذي أدريه هوأنى خرجت مجاهداً فى سبيل الله . ألم يقل لنا مدرس الدين ، ذلك الشهيد المرحوم : إذا دخل العدو أرضا للمسلمين صار الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة كفرض الصلاة ؟ .. أنسيت الحديث الذى علمنا إياه : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميّة ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله » ونحن خرجنا لإعلاء كلمة الله ، لا لدنيا ولا لمال ولا لجاه ولا دفاعاً عن حب ولا أرض ولا وطن ، فاذا متنا فنحن الشهداء ، أنسيت الحديث الآخر ؟ إنى لا أزال أحفظه ، رحم الله أستاذنا

— أى حديث ؟

— قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء ، إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة »

— لا لم أنسه ، ليتنا نموت شهداء ، اللهم اكتب لنا الشهادة .

وملكهما حماس طاغ ، فأسرعا وهما ينشدان أنشودة الموت التى يحفظها المجاهدون كلهم ، ويلقونها بنغمة تهتز لها أوتار القلوب كلها ...

« أيها العصافير ! »

« طيرى إلى منازلنا وبلغى الأمهات والأخوات أننا متنا فى سبيل الله ، ومن أجل فلسطين »

« قولى لهن : إن أجسادنا لن تسكن اللحود الضيقة ، ولن تحويها الأرض المظلة ، ولكنها ستسكن بطون القشاعم والنسور المحلقة فى شعاع الشمس ، وبطون الذئاب الشاردة فى الفضاء الأرحب »

2017-11-11

« أما أرواحنا فسترق إلى جنان الخلد »

« أما أسماؤنا فستكتب في تاريخ البطولة بأحرف من النور »

« أيتها العصافير ، طيري إلى منازلنا فبلغي الأمهات والأخوات إرادتنا الأخيرة : هي أن يهتممن أطفالنا الخاتمة بارعة كالفاتحة »

***

سارا سحابة نهارهما فبلغا قرية مختار في الساعة التي يعود فيها الرعاة من الجبال ، وتزدحم فيها النسوة على الينبوع ، وكان التعب والجوع قد هدا عرفان هدًا ، فاتجه به إلى أكبر دار في القرية ، وكانت تلك دار مختار ، فجاز به (بوابة) من الحجر إلى ساحة واسعة فيها فرسان كريمان مربوطان ، وثلاثة من الابل ، وفي وسطها تل من العلف . فمشى به خلالها حتى انتهى إلى باب الدار فقرعه ، فخرج صبي في التاسعة عرف عرفان منذ نظر إليه أنه أخو مختار ، فقد كانا متشابهين حتى ليصعب على المرء أن يفرق بينهما لولا السن ، ولولا دعج ظاهر في عيني الصغير الكبيرتين اللتين تشبهان إذا فكر الصبي أو أطرق سبحات مقلتي ظبي شرود فصاح به مختار :

— أين أبوك يا نوري ؟

فأجاب الصبي بصوت غرد كأنه صوت بلبل :

— ذهب في هذا الصباح إلى الجبل . لقد علم الثائرون بأن حملة كبيرة لم يروا مثلها ، ستتوجه تلقاء الجبل

فلما سمع ذلك عرفان نسي تعبه ، واستعاد نشاطه وأحس بقلبه يرقص في صدره فرحاً بالمعركة ، وصاح بمختار :

— هلم بنا ، أسرع ، أين البنادق ؟

— حاضرة ! لقد اشتريت لك خير أنواع البنادق وأعددت لك مائتي رصاصة ، والخيل مربوطة في الساحة ، اذهب يا نوري فر حمدان أن يعد الخيل ومعك البنادق

فوثب الصبي ليذهب ، ولكن امرأة في الأربعين من عمرها ، سافرة على طريقة الفلاحين ، هذا السفور المحتشم الذي نرجو أن نستبدله بهذا التبرج الفضاح الذي نسميه (هنا) حجابا . . . استوقفته هذه المرأة وأقبلت على ابنها تقول :

— أدخل أولا

فأطاع مختار ودخل معه عرفان ، ينظر إليها وهي تعانقه وقد انفجرت بالبكاء

— أتبكين يا أماه ؟

— لالا . ولكني لا أدري هل أراك من بعد أم لا ؟

— ولكن مابالك يا أماه ؟

— لا شيء ، لا شيء ، استودعك الله . . . وهذا الذي معك ، من هو ؟

— هذا صديق عرفان ابن الوجيه الكبير ل . . .

— آه ، وأنت أيضا ياحبيبي ؟ أهلا وسهلاً ، وشرفتنا يابني ، اللهم احفظ وسلم

— أشكرك ياخالة وأستودعك الله .

ماذا ؟ أتذهبون ؟ لا والله ، لقد مشيتم النهار بطوله ، أفجنونة أنا حتى أدعكم تعاودون بالليل ؟ لا والله . بل تنامون هنا وتذهبون إن شاء الله في الصباح مع من بقي هنا من رجال القرية

— ولكن ياسيدتي

— لا والله ، لا أدعكم تقتلون أنفسكم ، لو كانت أمك هنا أكانت ترضى عن ذهابك الآن ؟ أنا مثل أمك ياحبيبي . إن رفيق ابني هو ابني ، ثم إن المجاهدين بل المسلمين كلهم أسرة واحدة ...

ودخلت فتاة صغيرة أصغر من نوري وبها من

أخوها مشابه ، غير أنها أدنى إلى البياض ، وكانت تلبس إزاراً أخضر وملتفة بمنديل أحمر يزين أطرافه طراز أصفر من القصب ، فلما رأت الفتى وقفت وأحجمت ، فصاحت بها أمها :

— أدخلي يا بنتي ، هذا أخوك عرفان ، ذاهب إلى الجهاد ، رحبي به ثم اذهبي فأعدي الطعام ، هيا حالاً . وأنتما فازعا ثيابكما واغسلا وجهيكما وأيديكما. قم يانوري فأعد الماء وصب عليهما ، ثم اذهب فساعد أختك . هيا يا بنت أسرعي ؛ إنهما جائعان...

* * *

نال التعب والسير الطويل وسهر الليلة الماضية من عرفان ، فلم يكد يضع رأسه على الوسادة حتى اعتدل إلى قرارة نوم عميق ، لم يفق منه إلا سحراً حينما أيقظه مختار ليمشي إلى الجبل ، فنهض مسرعاً فتوضأ وصلى الصبح ، ثم لبس الثياب التي دفعها إليه مختار ، وأدار العقال على رأسه ، ثم حمل بندقيته واستوى على ظهر فرسه ، ليمشي إلى الجهاد ، وهو يحس لفرط سروره أن الدنيا على رحبها أضيق من أن تسعه ...

كان يظن أن الحرب من السهولة بحيث تكون كما قرأ في (قصة عنتر) فكان يتخيل أبداً كيف يبرز بعد ساعة إلى الميدان وينادي أنا عرفان ... فيصول فيه ويجول وينازل الفحول ، ثم يهجم على الآلاف المؤلفة ، فيقتل الرجل ثم يحمله فيضرب به الآخر ، ويطعن الطعنة فيصرع الفارس وفرسه ، ويضرب الضربة فتخترق الهامة وتقطع الدرع ، ثم تنزل إلى السرج فتقده هو والفرس قدّاً ...

خرج الرجال من القرية وهم قريب من مائة ، فيهم عشرون فارساً ، فسلكوا الشعاب الوعرة لئلا يلقوا على الطريق المطروق مايموقهم عن غايتهم. وكانت وجهتهم جبل النار ، فانطلقوا ينشدون أنشودة النار بصوت كانت تضطرب له الجلاميد ، وتتوارى منه الأودية الرهيبة فزعاً ... الأنشودة التي معناها :

« يا جبل النار ... »

« هل درى من سمّاك في أول الزمان جبل النار أنها ستخرج منك النار التي تزهق البغي والظلم والاستعمار ؟ يا جبل النار ... »

« هل درى أن هذه الفئة من أبطالك ستأكل جيوش الدولة ذات الأساطيل ، كما تأكل النار من الحطب شملة واحدة من النار ؟ يا جبل النار ... »

« هل دريت أنت يا جبل النار أن الأجيال الآتية ستتخذ منك حرماً للحرية مقدساً ، فتكون الشارة الحمراء والنار السارين في طريق الجهاد ؟ يا جبل النار »

« يا جبل النار ، صخورك الجحيم المتوقد في شعاع الشمس ، ولكن الله الذي وطّأ لناذراها وسهل لنا صعابها ، وأسكننا منها أوكار النسور ، وربى السباع ، هو الذي أحال نارها برداً علينا وسلاماً ، فأنت جحيم الأعداء وأنت جنة لنا ، فهل اجتمعت إلا فيك الجنة والنار ؟ يا جبل النار ... »

« فيا جبل النار ، ثر واضطرم ، ولهيبك لسان لهيبك ، ولتسقه رياح الشرق نحو الغرب ، وليحرق دور الظلم ومعاقل الاستعمار ، ولو سبحت في البحار يا جبل النار ... »

« يا جبل النار ، نحن أيضاً جبال من نار ، نحن الأعاصير المحرقة ، نحن البركان المتفجر ، نحن الحمم المتوقدة ، فمتى يمد يده إلى الجحيم ليأخذ منه

2017-11-11

جرة ... ؟ يا جبل النار ، أنت اليوم حطبين ، وكانا صلاح الدين ... يا جبل النار ! »

كان عرفان ينشد الأنشودة وهو رافع رأسه زهواً ، يظن أنه أوتى الخلافة ، أو أنه غدا خالداً أو قتيبة أو طارقاً ... كان وهو فى داره يخشى أن تصيبه شوكة ، ويألم إن لفحته نسمة باردة ، ويفزع من ذكر المرض ، فما باله الآن لا يجزع من الموت بل هو يسعى إليه ويريده ، ولا يأمل إلا الشهادة فى سبيل الله ؟ لقد هان عليه الأعداء وصغروا فى نظره حتى لقد خالهم الذباب أو أسراب النمل حينما وقف القوم وراء الصخور العالية ، ونظروا إلى الحلة وهى تجتاز الطريق البعيد كأنها خط أسود لا يبين له أول من آخر ، ولقد كان الجندى الواحد يراه فى بلده أكبر فى عينه من هؤلاء جميعاً

ورأى القوم يطلقون النار فأخرج بندقية فأطلق منها الرصاصة الأولى ، ولم يصنع شيئاً ولكنه كبر فى عين نفسه وأحس أنه أصبح رجلا حقاً ومجاهداً صدقاً ، وود لو يطير إلى الحلة حتى يسقط عليها ، ولكنه كفّ ووقف حين كفّ القوم ورأوا أنهم لن يصيبوا عدواً .. وساروا فى طريقهم إلى الظهيرة والحلة تبدو لهم عن بعد ثم تختفى وراء الصخور كأنما كانت تسايرهم أبداً وطفقوا ينظرون إليها فيرونها ثابتة لا تريم مكانها ، حتى إذا أصبحت عند مفترق الطرق ، وبلغت سفوح الجبال وأقبلت تتسلقها رأى القوم الزوال تزلزله الأرض من تحتها فتخرج أثقالها ، وينقلب عاليها سافلها ، ويمتلئ الجو بالدخان ، وكان ذلك كله فى لحظة سمعوا على أثرها الدوىّ الهائل الذى قصف فى الدنيا كأشد ما عرفت الدنيا من رعود ، فعلموا أن الثوار قد وضعوا (الألغام) على طول الطريق ، وتركوا الحلة تسعى إلى حتفها بظلفها فتحطمت تحطيما ، وعلموا أن المعركة قد انتهت وكفى الله المؤمنين القتال[1] فارتدوا إلى القرية ، أما عرفان فكانت تتقاذفه عاطفتان الفرح بالنصر المؤزر ، والندم على أنه بات فى القرية فلم يحضر المعركة ولم تكتب له الشهادة فى سبيل الله فيدخل الجنة

***

بلغ عرفان وأصحابه القرية عند المساء ، فاذا كل شىء تبدل ، فلا الدنيا بالدنيا ، ولا الناس بالناس ، وإذا القرية قد هدمت كلها ، وأحرقت سقوفها وأبوابها ونوافذها ، فاختبل مختار وجنّ ، فعدا فرسه إلى داره ولحقه عرفان وبه مثل مابه ، فاذا الدار أكوام من التراب ، وإذا العلف قد أحرق ، والأشجار قد قطعت ، فدار فى أرجائها ينادي أخاه وأمه ، ويهتف باخته ، فضاع صوته فى نحيب الرجال وصراخ النساء فمشى يفتش صامتاً ينظر فى التراب ، وقد أدرك الخبل حقيقة فلم يعد يقوى على التفكير فى شىء ، وسلم أمره إلى الله ، وتبعه عرفان ينظر كما ينظر ، فإذا هو يرى ويا لهول ما يرى ، نورى ذلك الصبى صاحب العينين الفاتنتين المدجاوين ... ملقى على باب المسجد قد مزقت حراب الأعداء جسده الأبيض الجميل وإلى جانبه أمه قد صرعتها رصاصة كسرت جمجمتها ...

فجذب مختاراً من يده حتى لا يرى ، ولكن مختاراً أحسّ بالأمر فنثر يده وأقبل ينظر فاذا هو يرى كل شىء : ضاع الباقى من وعيه فانحنى على أمه وأخيه يقبلهما ويمرغ وجهه بدمائهما ، ثم نهض منتفضاً فتماون هو وعرفان على مواراتهما حتى إذا

(١) رواية صدق عن شاهد عيان

أقام فوقهما شبه قبر ، وما القرية كلها فى الحقيقة إلا قبر، وضع يده الملموسة بالدم على القبر ، وأقسم لينتقمن ... وأقسم عرفان !

وتركا أهل القرية يدفنون الموتى ، ويرفعون أوراق المصحف التى أُلقيت على أرض المسجد ودنست ، وغادراها تضج ببكاء الأطفال الذين ماتت أمهاتهم بالبنادق ، والأمهات اللاتى قطع أبناؤهن بالحراب . وعادا مع الرجال إلى جبل الحرية المنيع ينشدون أنشودة الانتقام ...

« إلى جبل النار ، إلى جبل النار ... »

وكان مختار (يصف) لهم بصوت يكاد يقطر منه الدم ...

« لقد غرست شجرة الزيتون يا أمى بيدك ، وسقيتها كل يوم لتقطفى منها الغصن الذى تجعلينه على رؤوس أبنائك فى موكب العرس . لقد بنيت الدار يا أبى بيمينك لتسكن فيها بنيك الذين تحبهم مع زوجاتهم ، فقطع الأقوياء الشجرة ، وهدموا الدار ، وقتلوا الأطفال ... »

وهم يرددون اللازمة : « إلى جبل النار ، إلى جبل النار »

— « أرأيتم أخى نورى ؟ لم يعد لعينيه سبحات مقلة على شرود ، ولا لصوته رنة بلبل غرد . لقد قتلوه فيما هى ذى جثته ملطخة بالوحل والدم . لقد نام إلى الأبد على يد أمه التى ذبحها الأقوياء المتمدنون »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « أرأيتم كلام الله ، وبيت الله ؟ لقد مزقوا المصحف وهو كتاب الحق والنور ، وداسوه بأقدامهم (١) . لقد استحلوا حرمة المسجد ، وهو دار السلام ، وأقاموا فيه حرباً ، فماذا تنتظرون من الأقوياء المتمدينين بعد ماعبثوا بحرمة الدين وحرمة الانسانية البريئة ... ؟ قالى جبل النار »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « هذه مأساة الأندلس ... ولكننا لم ننس مأساة الأندلس بعد ، ولن ندعها تعاد أبداً ، لا فى فلسطين ولا فى اسكندرون ، ولا فى بقعة من بقاع . وها نحن أولاء ذاهبون نحقق ما نقول ... »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « يا أمى ، يانورى ... ياأختى التى لا أدرى أين قبرها ، اهجعوا فى أمان، فكلما سفك دم جديد نبتت فى القلوب بغضاء جديدة ... كلا ، ما هى بالبغضاء ! ما البغض ؟ ما العداوة ؟ إن الباطنة التى يحتويها اليوم صدر كل عربى، بل كل مسلم، شىء أكبر من البغض ، وأشد من الحقد ، وأبلغ من العداء — إنها عاطفة سوداء مبهمة ، عظيمة مخيفة تتوارثها القلوب ، فلا تزداد إلا سواداً وعظمة ورهبة ... »

— « فياجبل النار ثر واضطرم ، وليمتد لسان لهيبك ، ولتسقه رياح الشرق نحو الغرب وليحرق دور الظلم ، ومعاقل الاستعمار ، ولو سبحت فى البحار ، ياجبل النار »

— « يا جبل النار ، نحن أيضاً جبال من نار. نحن الأعاصير المحرقة ، نحن البراكين المتفجر ، نحن الحمم المتوقدة ، فمتى يمد يده إلى الجحيم ليأخذ منه جرة ... ؟ يا جبل النار ، أنت اليوم حطين ، وكلنا صلاح الدين ، ياجبل النار »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

« دمشق » على الطنطاوى

(١) رواية مؤيدة بالصور الفوتوغرافية

تجربة قاسية

مترجمة عن الانكليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

إن التغيير المستمر الذى طرأ على مركز المرأة قد سبب كثيراً من مصائبنا الاجتماعية ، ولا تزال الحالة تزداد كل يوم سوءاً

وما دامت المرأة ترى واجبها فى الحياة أن تكون أماً وزوجة وربة منزل فهي شريكة الرجل فى سروره وحزنه وغناه وفقره . ولكنها متى تركت هذا المجال فلا يمكن أن تكون إلا واحدة من اثنتين : إما خادماً للرجل وإما حاكة له ، ومن أجل ذلك كان أتعس السيدات هن نساء الطبقة التى يدعونها بالطبقة الراقية اللواتى لا يرين أنفسهن فى حاجة إلى التفكير فى قوت يومهن واللواتى يقضين أيامهن كسالى بليدات ويمددن بكل واجب من واجباتهن إلى أخريات ، فانهن أقل شعوراً بالسعادة من سائر النساء

ولقد كانت بطلة هذه القصة من النوع الأخير فانها نشأت وظلت طول عمرها لا تقدر مسئولية لشىء ، فهي تنتقل من يد المرضة إلى يد المربية إلى معلم الموسيقى والرقص دون أن تشعر فى هذه الأدوار إلا بأنها مخدومة وأن على غيرها واجبات لها وليس عليها لأى إنسان أى واجب

وتزوجت من رجل متقدم فى العمر فات وهى لما تبلغ الخامسة والعشرين ، وقد وجدت نفسها عند موته غنية ذات معجبين كثيرين بجمالها وهى حرة فى اختيار ما تريد وترك ما تشاء ، فكانت نتيجة حياتها على هذا النمط أن شعرت بالسأم وأحست بأن الحياة عبء ثقيل عليها ، فكان المال كل همها أن تقتل الوقت كأنما هي لا تريد إلا التخلص من حياتها جزءاً جزءاً

ولكنها مع هذا السأم من الحياة كانت زينة الحياة وبهجتها فى أعين كثيرين ، ومن النظرات الشائعة أن الناس يحسبون كل جميلة العينين وسيمة الوجه تكون حتماً ذات ذكاء يتناسب مع جمالها وتكون ذات روح شعرية

ولكن كان فى السيدات من تجتمع فيهن هذه الصفات فان صاحبتنا البارونة أديل لم تكن كذلك بل روحها قاتمة مظلمة

وكانت متوسطة الطول نحيلة شديدة البياض بحيث يظهر فى جلدها الناصع لون عروقها الزرقاء وهى جميلة الوجه والأنف صغيرة الفم ورديةالشفتين ذهبية الشعر ولكن عينها كانتا أجمل شىء فيها فقد كانت نظراتها الوسنى مثل نظرات الحالم

وقد قضت سنوات فى الحداد على زوجها تتنقل بين البلدان فزارت إيطاليا وفرنسا الجنوبية وأسبانيا ، وكان أحب أماكن الاصطياف إليها جبال التيرول حتى لقد جمعت كل صورها ومناظرها فوضعتها فى غرفة استقبالها . وفى يوم من الأيام أرادت أن تتسلق إحدى قممها المكللة بالجليد فلبست ثوباً من الفرو وأمسكت بعصا غليظة وصعدت إلى الجبل قبيل الغروب ، فلما وصلت إلى مكان مرتفع منه كانت الشمس قد غابت . ثم وجدت أنها ضلت الطريق وأصبحت محاطة بحفائر مكدسة بالثلج بحيث لا تستطيع العودة ولا الاستمرار فى المشى

وحاولت عبثاً أن تجد لها منفذاً ، فرأت من

2017-11-1

المستحيل أن تتقدم أو تتأخر أو تعلو أو تهبط فاستغاثت بأعلى صوتها، ولكنها لم تسمع غير صدى صوتها فأخرجت من جيب معطفها مسدساً وأطلقته ولكنها لم تسمع غير دوى الطلقات، فخارت قواها وجلست على صخرة بعد أن أزالت ما عليها من الجليد وظلت تبكى

وبعد ربع ساعة مر عن كثب منها رجل يصغر فنادته وكلمته بلهجة لم تتكلم بها منذ سنوات وهى لهجة التوسل والضراعة وطلبت إليه أن ينقذها فشى نحوها رافعاً قبعته محيياً باحترام . وعرض عليها مساعدته فشكرته شكر الضارع الخاضع ورأت من ثيابه ومن الأسلحة التى يحملها أنه من هواة الرياضة والصيد . ودلها هيئته على القوة والاعجاب

قال لها : « اسمحى لى أن أحملك »

فقالت : « أخشى أن أسبب لك تعباً كثيراً »

قال : « لا داعى إلى مثل هذا القول »

ثم حمل البارونة بين يديه فشعرت وهى محمولة بشعور غريب لم تجربه من قبل . وكانت أنفاسه الحارة تدفئ خديها فتسائل نفسها أى شعور هو الذى تجده فى نفسها فى هذا الوقت، هل هو الحب ؟

فلما وصل بها إلى الفندق الذى تقيم فيه شكرته ودعته إلى زيارتها ووعدها بأن يرافقها فى فرصة أخرى إلى جبال التيرول . وسألته عن اسمه فقال إنه فردريك فون فاردورف

قالت : « أنت ذلك الرومى الشهير ؟ لقد سمعت إسمك يتردد كثيراً فى الأوساط العالية »

فأخبرها فاردورف بأنه من أسرة ألمانية تنتمى إلى أصل روسى ، وأن ضياعه فى كورتراند ولكنه لم يزرها منذ سنوات لأنه كان فى العهد الأخير يزور بقاعاً مختلفة من الأرض

وفى اليوم التالى زارها فاردورف ودار الحديث عن زياراته لأمريكا الجنوبية وأفريقيا الشمالية وقرأ لها قصة أو قصتين من قصص إيفان ترجنيف . وكانت تصغى إلى حديثه منلذة وتدعوه إلى تكرار زياراته فكررها . وصارت بعد ذلك تخرج معه إلى جبال التيرول وإلى غيرها من المتنزهات وتدعوه للعشاء كل ليلة . فأخذ الناس يتحدثون عن علاقتهما وعن احتمال زواجهما قبل أن يتم التفاهم على شىء من ذلك

وفى ليلة من الليالى كانا جالسين معاً فى المنزل فقالت إديل : « إننا سنفترق سريعاً يا فاردورف »

فقال : « لماذا ؟ »

قالت : « لأننى تغيبت عن منزلى طويلا وأريد العودة ، فهل تزورنى هناك ؟ » فقال : « ما الذى تمنين ؟ هل تحبين ألا أزورك ؟ »

قالت : « ما الذى تعنيه أنت ؟ إننى أتألم كثيراً إذا ابتعدت عنك » فقال الرومى بلسان متلعثم : « هل تسمحين ؟ ... ألا يغضبك ... ؟ »

قالت : « تكلم ! ما الذى يمنعك من الكلام »

فقال : « إننى أحبك يا إديل »

فأطلت البارونة التحديق فى وجهه فقال : « لا تمنعينى عن الكلام حتى أقول كل ما أريد »

قالت : « ولكننى لم أعد أومن بالحب » فقال الرومى : « أعرف ذلك ولم أعمل نفسى قط بأنك ستجازينى على حبى بمثله ، ولكنك قلت لى مراراً إنك تعيشين بغير غرض ولا تسرين من أى بواعث السرور فعيشى معى زوجة لى وأنا الكفيل بأن ينشأ فى قلبك ميل لى بعد الزواج »

2017-11-1

فنظرت اديل نظرة شاردة من النافذة دون أن تجيبه بأي جواب وسكت الروسى لحظة ثم قال : « قرري ياسيدتى بكلمة منك إما حياتي وإما موتى »

فأجابته وهى تبتسم : « الحياة أو الموت ؟ »

قال : « نعم إنى أعنى ما أقول فاني أفضل الموت إذا لم تحبّيني » فقالت المرأة التى لاتلعب لها : « هذا مجرد تعبير »

قال : « كلا ولكنه الحقيقة فاختاري لى الحياة أو الموت » فقالت : « إنى سأعطيك مهلة عام فاذا لم تستطع فى خلالها إقناعى بأنك تحبني حقيقة وإذا لم تستطع أن تبث فى نفسى عاطفة الحب نحوك فانى سأقضى عليك بأن تقتل نفسك »

قالت ذلك ثم بدأت تضحك ضحكاً عالياً فقال الروسى وهو عابس مقطب : « إذا حكمت بمدانقضاء العام بأنه لا أمل لى فى الحياة معك فانى أفضل كما تريدين ولكن يكون لى عندك رجاء آخر »

قالت : « ماهو ؟ » فقال : « هو أن تقتليني أنت »

قالت : « لك ذلك » فقال : « ولكن هل تستطيعين ؟ »

« ولم لا ؟ انه يستوى عندى أنا أن تقتل نفسك من أجلى أو أن أقتلك بيدي » فقال الروسى : « إذن فاعهدبى على أنه بعد انقضاء العام إما أن تقتليني أو تتزوجى منى »

قالت : « أعاهدك على ذلك ولكن يجب أن تتذكر أنت أيضاً تعهدك عند انقضاء العام وألا تنتظر منى رحمة »

فقال : « لا وسط بين الحالتين فاما أن تكونى لى وأما أن أموت »

ومدّ كلاهما يده إلى الآخر فتعاهدا على ذلك

ومضى العام وهما يعيشان معاً فى منزلها بفينا وكان الليل ساجياً من ليالى الربيع الجميلة وهى جالسة على شرفة بجانب الشرفة وهو جالس عند قدميها فقالت : « هل نسيت ؟ »

قال : « نسيت ماذا ؟ » فقالت : « هل نسيت عهدنا ؟ إن اليوم موعده » فمرت جسم الروسى رعشة باردة وقالت له همساً : « ادن منى وأخبرنى ما هو رأيك اليوم فى تعهدك قبل أن تسمع حكمى »

قال : « إنى أرتعش . . . » فقالت : « إذن فاسمع الحكم : « إنك قد أقنعتنى بأنك تحبنى فليس عندى شك فى ذلك . . . »

وهنا ارتمى الروسى على قدميها ليقبلهما فقالت : « لا تتسرع فانك لم تسمع بقية الحكم »

قال : ما الذى تعنين ؟ فقالت : « إنك أقنعتنى بأنك تحبنى ولكنك لم تستطع أن تجعلنى أحبك »

قال : « ما أشد قسوتك ياأديل ! »

فقالت : « إنى أكلمك كلاماً صريحاً شريفاً »

قال الروسى : « أنا عند حكمك إذن فاقتليني »

فقالت : « هكذا سأفعل فانى ذاكرة عهدى . ووروحك الآن فى يدى ولن أتركها هبة لك . إنى لاأحب ولكنني أريد أن أكون محبوبة وأن يحبنى من يحبنى فيموت تحت قدمى وأنا أنظر إليه نظرة احتقار »

قال : « هل تجدّين فيما تقولين ؟ » فقالت : « ألا تصدق ؟ هل حبك لنفسك أكبر من حبك لى ؟ »

قال : « كلا كلا : وإنى مستعد للموت »

فقامت وعادت وفى يدها زجاجة صغيرة مملوءة بسائل أسود وقالت : « اشرب هذا »

2017-11-11

فتناولها وقال : « أشرب فى حبك ياأديل »
ثم قال : « ناوليني يدك فان قواى تخونني »

ثم أطلت الدنيا فى عينيه . وبعد ساعتين أفاق فوجد رأسه على حجرها وهى تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة دالة على السعادة

قال: « ما الذى حدث ؟ » فناداه باسمه بصوت عذب فقال : « هل أنا أحلم الآن ؟ ألم أمت ؟ »

قالت : « كلا وستعيش وستكون لى زوجاً فانى أحبك كما تحبني » فقال : « وما هو السائل الأسود الذى فى الزجاجة ؟ ألم يكن سماً ؟ »

قالت : « كلا، ولكنه مخدر » فقال : «لماذا؟»

قالت : « لكي أجربك » فوقف الروسى مسرعاً وقال : « تقولين إنك تحبينني ولكنك مع ذلك تتركيني أقاسى أشد الآلام بقصد اللهو والتسلية إن المرأة التى تفعل ذلك لا تستطيع أن تملك قلبي »

قالت اديل بصوت الخائف : « ألم تعد تحبني يا فاردورف؟ ما الذي جعلك تتغير هذا التغير الفجائى ألم تعد تحبني ؟ » فقال : « إنني لا أحبك الآن ولن أحبك فى المستقبل ، وداعاً ! »

فطوقت اديل عنقه بذراعيها وقالت : «أستحلفك بحق السماء ألا تجعلني أتس إنسانة فى الوجود » فقال : «أنت التى أنستنى وأنست نفسك، وداعاً»

قال ذلك ثم تخلص منها فارتمت على قدميه ولكن ذلك لم يغد وأظهر قوة إرادته فخرج مغضباً

ولما جاءت الخادمة وجدت إديل مستلقية على الأرض جثة هامدة »

عبد اللطيف النشار

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المشينة (على باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (على بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جيم الكتاب العصرية وكتب الزراعة تطلب من
شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

كتابان قيمان
سيظهران فى أواخر أغسطس

هكذا تكلم زرادشت
الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

اعترافات فتى العصر
الشاعر الخالد ألفريد دى موسيه

وكلاهما ترجمة الأستاذ
فليكس فارس

من أرسل ٢٠ قرشاً قبل صدور الكتابين عد مشتركا فيرسل له الكتابان إلى حيث يقيم داخل القطر أو خارجه «دون علاوة لأجرة البريد » ، ومن أرسل ٢٥ قرشا يرسل له أيضاً كتاب « رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى » تأليف المترجم — العنوان : إدارة مطبعة البصير بالاسكندرية

حكمة الموت

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب يحيى محمود

مضى شهر تقريباً وحضرة محمد أفندى عبد القوى يشمر بتوعك المزاج . آيته عمود فى الجسم وثقل فى الدماغ ووهن — يشتد حيناً ويخف أحياناً — فى الساقين ، وقد سكت عن حالته الطارئة طوال الشهر وهو يعللها بكثرة العمل تارة وبادمان السهر تارة أخرى ؛ وفعلا طلب إجازة قصيرة وكف عن السهر راجياً أن تعود صحته إلى حالتها الطبيعية ... وانتظر على هذا الرجاء أياماً وما تزداد حالته إلا سوءاً حتى لم ير بداً من استشارة طبيب. وقال له الطبيب — بعد أن فحصه بدقة وعناية — إنه مصاب بضغط الدم وأشار عليه بالتزام الراحة أياماً وبالاقتصار على الطعام المسلوق والفواكه ، والامتناع عن تناول اللحوم الحمراء وتعاطى الخمور ثم وصف له الدواء اللازم ...

ورجع محمد أفندى من عيادة الطبيب خائفاً مذعوراً كثير الهم والفكر ... وقد يكون هذا — فى ظاهره على الأقل — غريباً لأن الضغط لم يكن شديداً ، ولأنه من الأمراض التى يمكن تلافى خطرها بالعناية والحرص فى اختيار الطعام والشراب ، ولأن محمد أفندى شاب فى الخامسة والثلاثين فلا ينذره الضغط بما ينذر به ذوى الستين أو السبعين. والأعجب من هذا كله أنه لم يكن غافلا عن هذه الحقائق ولكنه فى الواقع لم يخش المرض فى ذاته قدر ما خشى التاريخ أعنى تاريخ أسرته . فهو يذكر أن أباه أصيب بالضغط وهو فى مثل عمره تقريباً ويذكر أنه لم يقاومه طويلا فساءت حالته وأصابه الشلل فقضى فى عنفوان شبابه وقوته . ولم يكن موت أبيه فى عنفوان شبابه حادثاً غريباً فى أسرته ، فهكذا قضى جده من قبل ولم يجاوز الأربعين ... إن ذاكرته لا تحفظ له من حياة والده إلا آثاراً خفيفة لأنه توفى وهو — أى محمد — غلام صغير ، ولكن صورة المرحوم الملقة بحجرة الاستقبال أثر باق يشهد بالشبه العظيم بين الابن وأبيه ، وإن الناظر إلى الصورة ليقتنع بهذه الحقيقة التى تدل على أثر الوراثة . فالجبهة المربعة والعينان السليتان المستديرتان ، والأنف الكبير المائل إلى الفطس ، والفم العريض المنطبق بالشارب الثليظ ، والوجه الممتلئ والجسم البدين ... جميع هذه معالم مكررة بين صورة الراحل والشخص الحى كالأصل وصورته ، وكأن صاحب الصورة هو محمد نفسه فى ثياب بلدية .. الجبة والقفطان والعمامة ..

يا له من شبه عجيب ! ولم يكن غافلا عنه ولكن خيل إليه عندئذ أنه يفطن إليه لأول مرة فى حياته أو أنه اكتشف فيه مغزى كان عنه خافياً ...

ولا مراء فى أن الشبه بينهما لم يقف عند حد الشكل فطالما سمع والدته تنوه بأوجه الاتفاق بينه وبين أبيه فى الخلق والطبع فى المناسبات المختلفة ... فكان إذا احتد وغضب لأتفه الأسباب تنهدت وقالت : « رحم الله أباك ... ليته أورثك غير هذا الطبع طبعاً هادئاً » ... أو إذا جلس إلى الحاكى ينصت فى انتباه ويهز رأسه فى طرب قالت وهى تبتسم له : « ابن حلال يا بنى . . . » أو إذا رجع

إلى البيت بعد منتصف الليل ثملا مترنحاً استقبلته قلقة حزينة وتصيح به وهى تغالب دموعها « إن جرح قلبي لم يندمل بعد ... فلا تفجعني فيك كما فجعت فى والدك من قبل ... »

فهو صورة صادقة لوالده فى شكله وخلقه وطبعه وها هو ذا يرث عنه مرضه ... فلم لا تكون نهايته كنهايته .؟..

وا أسفاه ! إن هذه الأسرة مقضى عليها بالدمار فقد قضى جده شاباً، وقضى مثله والده، فليس إذاً هذا المرض من المصادفات المحزنة ... ولكنه بداية النهاية، وما هو إلا ميعاد تمثيل الدور القصير الذى قام به من قبل المرحوم والده، وقام به قبله جده، وما مرضه هذا إلا سبب تمثل به الطبيعة عليه لتنفذ قضاءها المحتوم فى شجرة أسرته البائسة المقضى عليها بالذبول والجفاف فى إبان ربيعها ...

وجعل يردد فيما بينه وبين نفسه : « الشكل واحد والخلق واحد والسيرة واحدة والمرض واحد فالنهاية واحدة دون ريب » وتشبث وجداله بهذه الأفكار فقويت عقيدة الموت فى نفسه وملأت شعوره فتمثلت له حقيقة لا تتزحزح ، واستسلم لها استسلاماً تاماً حتى أشفى على القنوط، وبات ينتظر القضاء المحتوم الذي يراه قريباً ... بل أدنى إليه من مخاوفه ...

إننا جميعاً نعلم أننا سائرون إلى الموت ولكننا لا نذكر هذه الحقيقة إلا حين حوادث الوفاة أو لدى زيارة المقابر وفى الساعات النادرة التى نستسلم فيها للتأمل . وفيما عدا ذلك فجبلة الحياة تغمر عادة سكون الموت، وحرارة الأمل تقصى عن أفكارنا برودة الفناء. أما الآن وقد ضرب له شعوره ومنطقه موعداً قريباً للموت فقد ولى وجهه هذا الأفق القريب لا يحول عنه ، وجعل يديم إليه النظر فى استسلام وحزن ويأس ...

وعجب فى أحزانه لمن يقول إن الموت راحة، ولم يفقه لها من معنى إلا أن تكون تململا وضيقاً بمتاعب الحياة ، ولكن ما هذه المتاعب بجانب ظلمة الموت ووحشة القبر ؟

الموت ! يالله من حقيقة مخيفة ... لم يشعر بهولها من قبل ... ترى ما هو هذا اللغز الغامض ؟ وما كنهه ؟ وما حقيقة الروح التى ستفارقه بعد زمن يسير وتصعد إلى بارئها ؟ وذكر عند ذلك الآية الكريمة «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أما هو فلم يأت من العلم كثيراً ولا قليلا، وحسبه أن يعلم أن الروح — وهى منبع حياته ووجدانه وأفكاره — ستهجر جسده البائس آخذة معها كل جميل حى غير تاركة خلفها إلا أثراً جامداً ... أو جثة كما يقولون ...

فوا أسفاه !

وعاد إلى المرآة وألقى على وجهه نظرة ملؤها الأسف والحزن . وتأمل صورته طويلا ، وجعل يقبض كفيه ويبسطهما ... كم هو ممتلئ صحة وعافية وشباباً ! سينضب معين هذا كله ... وينجف غصنه الرطيب ... وتغيض معانى اليقظة فى عينيه ... ويمسى جثة ... ممزقة ... نتنة ... قذرة ... ترعاها الديدان ... ما أفظع هذا !

والأدهى من ذلك أنه لم يشبع من الدنيا وأحس فى تلك اللحظة كأنه لم يبدأ رحلة حياته بعد ، وود من أعماقه لو تتاح له فرصة فيعيد الكرة ، ليعيش حياة الطفولة السعيدة مرة أخرى ويعيد عهد الصبا

2017-11-1

وينقلب إلى الشباب عمراً مديداً ، ولا يترك الدنيا إلا وقد شبع من مسراتها وتزود من خيراتها ...

كلا إنه لم يشبع من الدنيا ولم يتمتع بحياته كما ينبغي له . وإنه ليسأل نفسه وسط حزنه وأسفه ويأسه: (ماذا صنعت بحياتي؟) فيصيبه الجواب كأنه ولد بالأمس القريب ، ثم يزول عنه الإعياء والعجز فتأتيه الذكريات تباعاً ، خفافاً وثقالا ، فلا يكاد يظفر فيها بما يجوز أن يعده من السعادة الصافية التي تطيب بها الدنيا وتربى لها الآخرة . أما ماينغص الطمأنينة وينتزع آهات الحسرة والأسف فكثير لا يحصى ، وما يبقى من الوقت ما يتيح الفرصة لإصلاح فاسده والتكفير عن سيئه ...

ماذا صنعت بحياتي ؟ قد يطرح هذا السؤال قوم فيأتيهم الجواب السديد في آيات الفكر التي أورثوها الانسانية كافة أو الأعمال المجيدة التي بذلوها لأوطانهم أو الكفاح النبيل الذي أدوه للأسرة والأبناء ، أما هو فلم يك واحداً من هؤلاء ... لم يضطلع بتبعة من تبعاتهم ولم يبذل تضحية من تضحياتهم ولم تكلل هامته بوسام من أوسمة مجدهم وجهادهم ... فلم يختلج في صدره قط معنى من معاني الانسانية ولم يعرف الوطنية إلا شقشقة لسان وجدل فراغ، ولم يقدم على الزواج ولا قدر مافيه من مغزى طبيعي خالد أو واجب اجتماعي نبيل . وبالجملة عاش لنفسه يرسف في أصفاد الأنانية وينزلق يوماً بعد يوم في مهاوي الحيوانية والجمود ...

وقد يكون من الفلاة أن يقال إنه لم ينتبه من قبل إلى تفاهة حياته ولكنه لم ينتبه إليها الانتباه الحري بأن يبعث فيه روح الندم الصادق وأن يحثه على التفكير والتجديد، فكان إذا ضايقه التفكير في تفاهته أغمض العين على القذى وقال لنفسه ممزياً «إن في العمر متسعاً للتغيير ... » ولكنه لا يستطيع أن يقول ذلك الآن والموت لا يمهله إلا شهوراً معدودة ... ولو أن حياته اقتصرت على التفاهة لربما هان الأمر ... ولكنها تناوش في سمعتها بالاثم والشر والخنوع مما يندى له الجبين خجلا ويتنزى له القلب ألماً وحزنا ...

ذكر حياته الحكومية فذكر بها الذل والهوان والضعة والجبن ... هو ولا شك موظف مجتهد ودقيق في عمله ولكنه كان دائماً أضعف من أن يقاوم الوسط الذي وجد فيه ، فكان يجاري التيار ويتفادى التصادم ويخنع إشفاقاً من النقل والاضطهاد فأدى به خوفه من الاضطهاد إلى أحط أنواع الاضطهاد والذل ، ووجد نفسه يخوض في الأعراض ويجامل في الحق ويتغاضى عن الذل ويسكت على الاهانة ... فيالله الضعة !

وذكر حادثة أهوت به إلى الحضيض وتقبلها في وقتها قبول الفاجرين ، إذ كانت تختلف إلى بيته امرأة عجوز تحتال على العيش ببيع البيض والفاكهة، وكانت أمه تشملها بالعطف فتطعمها وتكسوها مما جعل المرأة تطمئن إليها وتعهد لها بحفظ أرواحها الضئيلة حتى تجمع لديها خمسة جنيهات أوصت - إذا أصابها قضاء الموت - أن تردها إلى ابنتها البائسة وأبنائها اليتامى ... وماتت العجوز فعهدت أمه إليه برد المال إلى مستحقيه ... وآسفاه ! ... لقد كان يعلم أن المتوفاة كانت تخفي أمر تركتها عن ابنتها ، فما كان منه إلا أن دس الجنيهات في جيبه وبددها في المقاصف والشراب ... وهضم ضميره البليد فعلته الشنعاء وادفنى السرقة وحرمان اليتامى.

حقهم دون وخز أو ألم ... فأى دناءة وحقارة !

وذكر ليالى العربدة والفجور التى عرفته فيها الحانات مدمناً لا يرم ، وموائد القمار لاعباً مدلساً لا يشق له غبار ، والمستهترات رفيقاً لا يشبع ولا يرعوى ... أواه ... إنه ينبغى له أولا أن يستل الدين والايمان من صدره قبل أن يمد تلك الليالى الحمراء من الحياة السعيدة التى لا يجوز أن يندم على ما فعل فيها ...

وذكر أيضاً غرامه ... فقد استطاع قلبه على تفاهته وتلوثه ـ أن يحس ويخفق ، ولكنه كان غراماً عجيباً ، بل لو أن إنساناً سماه كراهية ما جاوز الحقيقة ... كانت فتاته أخت طبيب كان فى صباه صديقه الحميم ، ثم أنأته عنه أسباب الدراسة والعمل فانتهى هو إلى وظيفته المجهولة وبدأ الشاب حياة الكفاح والنجاح ، ولم تكن طبيعة محمد بمستطيعة أن تهضم هذا الفارق بينه وبين صديق الصبا دون أن تفرز الحقد والحسد ، وزاد سخيمته إهمال صديقه القديم له وزهده فى معاشرته ، وأجج من نيران غضبه عليه ما تراءى إلى سمعه من زيغ صديقه وعدم اكتراثه للأديان وإعلانه بالمم وحده دون غيره. ولكن ذلك كله لم يستطع أن يمحو من صدره ولداً تربى فى قلبه منذ الصغر باحسان شقيقة الطبيب الناكث الناجح الكافر ... ما كنه هذا الولع ؟ كانت الفتاة ـ إذا حرصنا على المجاملة ـ متوسطة الجمال وربما دلت بعض قسماتها على دمامة ، ولكنها كانت ممتلئة الجسم بضته ، مفصلة التثنيات خفيفة الروح ، فكان يسرى من مشهدها إلى صدره ما يشبه مس الكهرباء ، وكان يبقى فى أعصابه من أثر رؤيتها قلق وألم فاقتنع فيما بينه وبين نفسه بأن صاحبة هذا الجسم البض حرية بأن تسكن قلبه وتطفئ نيرانه .

وكان المنتظر والحال هذه أن يتقدم إلى صديقه القديم طالباً يدها ، ولكنه توقع الرفض ورجحه نظراً للفارق بينهما وبين أسرتيهما ، وسار بظنه تسليما دون مناقشة أو مراجعة أو اختبار ، فانقلب أشد حقداً على صاحبه وعلى الدنيا جميعاً ... وطارد الفتاة حتى أوقعها فى شباكه فكانا يختلسان اللقاء الحين بعد الحين ، وكانا يذهبان إلى الحدائق يطلبان غرة من الناس وهنالك يلف ذراعه بذراعها ويروى غلته بلمسها وتقبيلها ، ويعطيها فى مقابل ذلك وعوداً خلابة . ثم يعود ظافراً بإشباع عاطفته والانتقام من كبرياء صديقه القديم ...

يا لها من نذالة ! ... إنه يعبث بفتاة تصدقه الحب وتخلص له أيما إخلاص ... فلو أن نيته صدقت على الزواج منها لربما فاز ببغيته ، ولربما كان هذا الزواج خير علاج لحياته البائسة. ومن يعلم فلعله كان الآن أبا يتعزى بما يخلف فى الدنيا من أبناء يمدون خيط حياته القصير ويمدون حياته الفانية

ومهما يكن من أمر فما عساه سائماً ولم يبق له من العمر إلا أيام أو شهور ؟ ماذا هو فاعل بشهوره الباقية ؟ هل يركن إلى الراحة والدعة ؟ أم هل يطبع على عينيه فيستهتر وينادى فى غيه ؟ أم هل يستطيع أن يصلح فى شهور ما أفسده فى خمسة وثلاثين عاماً ؟

ليس الانسان حراً فى الاختيار كما يتراءى له ، وقد كان محمد ـ على تفاهة حياته وقذارتها ـ يؤمن بالله وباليوم الآخر فبث إيمانه الخوف فى نفسه وجعله يشفق من عاقبة الموت فاختار سبيل الاصلاح . نعم قد لا يستطيع أن يصنع شيئاً ذا بال ، ولكنه على كل حال لن يعدم طعم الراحة التى يثيب عليها الاجتهاد ...

إن الوت قريب وهو يحس بدنوه منه ساعة بعد ساعة، ولكن رسوخ هذه الحقيقة فى نفسه جمع شتاتها وقوى جنانها وملأه شجاعة واستهتارا بالمخاوف، مخاوف الدنيا جميعا، ومم يخاف بعد اليوم؟ بل كيف يخاف شيئا؟ لقد كان حب الحياة مبث مخاوفه جميعا، فلما صار حبا ضائعا لا فائدة فيه انحلت عقدة مخاوفه وانطلق من إساره حراً طليقا لا ينوء صدره بشىء من تكاليف الحياة ...

كم كان يخاف الرجال — أو بعض الرجال على الأصح — وكأنه يكتشف الآن فقط أنهم أناس مثله، وكم داس على الحق والكرامة فى سبيل مرضاتهم! وكم ضيع من فرص فى الحياة!... لا خوف بعد اليوم ... ولا مجاملة فى الحق ... ولا فر حيث يجب الكر . ولا إحجام حيث ينبغى الأقدام . كلا . كلا . لقد انقلبت المخاوف جميعها ألاعيب أطفال وسيشق طريقه فى الحياة غير هياب .

واستحال محمد افندى عبد القوى إنسانا غير الانسان الذى عرفه الناس ...

وكان أول ما صنع أن سحب من نقوده المودعة فى البريد خمسة جنيهات وذهب لتوه إلى المرأة ابنة العجوز المتوفاة وأعطاها إياها وهو يقول «هذه أمانة أمك ترد إليك» ووقف لحظة ذاهلا أمام الفرح الذى غمر قلب المرأة البائسة وفاض منه إلى أبنائها وشمل البيت جميعا فى ثوان سريعة، وشارك فيه وهو لا يدرى وخيل إليه أنه محدثه فأحس بسعادة طاهرة لم يخفق بمثلها قلبه من قبل ...

وألغى إجازته وعاد إلى وظيفته بعزم جديد، وحدث ما كان متوقعاً فوقع الصدام بينه وبين رئيسه وبينه وبين زملائه وجرت على لسانه كلمات لم تكن لتنتظر منه أبداً وكانت موقع الدهشة لدى الجميع، ذاد بها عن الكرامة وذم «الاغتياب» ورد بها التحرشين وجعلته بطل ثورة غريبة حار الجميع فى تعليلها، ووجد الجو من حوله يتغير سريعاً وآنس من البعض ميلا إلى إيذائه أو تأديبه ولكن شيئاً واحداً لم ينازعه فيه إنسان وهو الاحترام الظاهر والمعاملة اللائقة، ورضى بذلك منتبطاً ولم يبال ما تخفى الصدور أو ما تخفى الخبايا

ترى أمن الحكمة أن يغضب القوم وهو على أبواب الأبدية؟ ولكن ما حيلته وهم لا يرضون عن إنسان يعرف حقاً لانسانيته وكرامته، وهو على كل حال لا يسبأ بالناس فى سبيل مرضاة الله الذى هو على وشك النزول بين يديه ...

وإحسان! ماذا هو صانع بها؟ لقد ضيع الفرصة السانحة وترك شبابه ينسرب من بين يديه وهو غافل عنه بالاطمئنان إلى العمر المديد ... وهما يكن فالأمر واضح لا لبس فيه، وليس عليه إلا أن يذهب إلى صديقه القديم ويطلب يدها فاذا رفض — وهو حتما سيرفض — عاد مطمئن الضمير ملقياً عن نفسه ما ينغصها من وخز الألم والتأنيب — ولن يضير إحساناً اختفاؤه من حياتها لأن عدم الزواج من ميت ليس خسارة تذكر ...

وذهب إلى صديقه القديم وحادثه فى الأمر وانتظر الجواب الذى قدره، ولكن حدثت معجزة لم يقدرها مطلقاً ... فرحب به الشاب وقبل طلبه وشد على يده بحرارة ...

يا للعجب! لقد كان أعمى حقاً، ولكن ما العمل الآن؟ فقد غدا الزواج منها جريمة لا تغتفر لأن معناه أن يغادرها بعد حين قليل أرملة فى

2017-11-11

عنفوان الشباب وربما ترك فى بطنها طفلا يتيما ...

ووجد نفسه فى حيرة ظلماء لا يهتدي فيها إلى مخرج، فقد قبل طلبه بالموافقة التامة وعلت به احسان، ولا شك أنها تنتظر الآن بفرح عظيم الخطوات الختامية وهو لا يستطيع أن يتقدم ولا يدرى كيف يتقهقر ...

ولم يربدا فى النهاية من الافضاء إلى فتاته بأزمته النفسية بجميع تفاصيلها وباح لها بكل مخاوفه وأوهامه، وأصغت الفتاة إليه بقلب واع، ولكنها لم تجد من نفسها استعدادا لتصديقه أو موافقة على ظنونه وتقديراته، وأبت أن تسلم بما يسلم به قانطا، وحملته على عرض نفسه على مشاهير الأطباء، ولم تدعه يذهب وحده فذهبت معه ... وأكد الأطباء جميعا وجود الضغط ولكنهم سخروا من أوهامه وأجمعوا على أن لا خطر يهدده قبل الستين ... وابتسمت إحسان مغتبطة وابتسم محمد فى حيرة وارتياب، وظل على ارتيابه أياما ولكنه كان شديد الاستعداد للتأثر والايحاء فأخذت كلمة الثقات تمحو من نفسه المخاوف. ولكنه لم يعاوده شعور الطمأنينة إلى الحياة والنجاة من الموت إلا بعد أيام أخرى. فلما كرت ذهبت عنه حمى الخوف وعد نفسه مرة أخرى من الأحياء، وتأمل حياته ساعة فلم يتمالك أن يهتف من أعماق قلبه: ياعجبا ... لقد بعثت بعثا جديدا ...

لأنه مات — إذا جاز لنا أن نقول ذلك — ذليلا جبانا سارقا نذلا أعزب، ورد إلى الحياة كريما شجاعا أمينا شهما متزوجا — فياللعجب! هل يستطيع الموت أن يخلق جميع هذه المعجزات؟ لقد غابت عنه قديما المدة الفضيلة فكبر عليه فعل الخير وهالته الشجاعة وخال الاقدام عليها هلاكا ذريعا ...

فأثبت له الموت بالتجربة الواقعة أن الفضيلة المدة سامية، وأن فعل الخير سعادة لا تعجز طالبه، وأن الشجاعة حياة كريمة لا هلا كا محتوما ...

ولا نحب أن نقدر محمدا بفوق ما يستحق فالحق أنه كانت تأتى عليه ساعات يخلو فيها إلى نفسه فيهمس حيران متأسفا: قد تزوجت وانتهيت ... وهجرت حياة الليل اللذيذة ... ولن أكون آمنا بعد اليوم فى وظيفتى ... ولكنها كانت أسواتا خافتة سرعان ما تنيب فى جلبة الحياة الجديدة ...

ولبث يعجب لما صنع الموت منه. ويحسبه من الخوارق والمعجزات. ولما امتلأ صدره بالتعجب والتأمل رأى أن يشرك فى أفكاره صديقه الطبيب الذى لا يؤمن بغير العلم والمادة فقص عليه قصته وروى له ما فعلته فكرة الموت بجبانه، وأصغى إليه الطبيب بانتباه، فلما انتهى قال له بسخرية: «ويحك أتتوب عن نعيم الدنيا لدنو الموت منك؟ ... انظر إلى ... ألست تراني أواصل الليل بالنهار عملا واجتهادا وراء المجد والشهرة والنجاح؟ أتعلم ما الذى أصنع لو اطلعت على الغيب وعلمت أن الموت منى قريب؟ ... لاشيء ... اخلد إلى الراحة والدعة واقضى ما بقى من حياتى بين الكاس والخدود!»

وضحك ضحكا عاليا متواصلا ثم قال بنفس اللهجة الساخرة:

«ولكن أتعلم متى أتوب حقا عن المالك وأهب نفسى للعلم والفضيلة؟ .. إذا وجدت الخلود ممكنا فى هذه الدنيا» وأصغى إليه محمد فى صمت وجمود ... وازداد عجبا وتأملا ...

نجيب محفوظ

كرم

للكاتب الشاعر القصصي "بول بورجيه"

بقلم السيد كمال الحريري

المكان « باريس » والوقت عصر يوم من أوائل الربيع الباسم الطلق ، وزمر النادين والراحين تملأ شارع « ريفول » : وهو الشارع الذى ينتصب فى ساحته تمثال القديسة « جان دارك » وكان موج دافق متراكب من السيارات والعربات والبراجات لا ينفك يتجدد ويتوالى دويه وهديره فيصم الآذان حتى لقد كان يعجز أمهر رجال الخفية والشرط عن تعقب أحد من الناس خلال هذه الزحمة الصاخبة الماجة من الناس والآلات

لهذا وحده اختار « جول به ليه » هذه الساحة والساعة موعداً للقاء حبيبته « إديل » . فكان هناك خلف دكان حلوانى يتظاهر بمراقبة قطع الحلوى بينما هو فى الحقيقة متجه النظر لزجاج الدكان يرقب من خلاله ظلال الوجوه وهى تتعاكس وتتحرك على صفحته . كان فى الخامسة والثلاثين دقيق معارف الوجه ، واسع إنسان العين ، مكفهر السحنة : تكشف شفتاه الرقيقتان اللتان يظلهما شارب أشقر ، عن أسنان بيضاء لامعة عجيبة ، وتم هيئته وملبسه عن حياة غنى وبطالة ، ولكن صورة من الغموض والابهام ، كانت تنطبع على تقاطيع وجهه . ويشاهد الفتى من خلال الزجاج فتاة كانت ولا شك هى التى ينتظرها ، فترف ابتسامة غامضة على زاوية فمه . حتى إذا اقتربت الصبية منه ، أجال فى الشارع عينين حادتين نفاذتين أخذتا تنفضان جموع الناس ، وقد انطبع عليهما بريق من القلق والخوف لا يبررهما موقفه كعاشق قد يحتسب الرقباء والفضوليين.

كان أول ما لقى الفتاة المتأخرة بهذه الكلمة التى أودعها كل تخوفه ورعبه :

— لقد مضى علىّ عشرون دقيقة وأنا أنتظرك « يا أديل » ورجال الخفية ألا تحسبين لهم حساباً؟

ثم مشى العاشقان جنباً إلى جنب ، فقالت الفتاة فى انفعال :

— لا أستطيع أن أعمل وصيفة كما أمرتنى ، لأن سيدتى تكاد تشك فىّ ... ثم ... إذا كنت تظن أنى ما أزال خاضعة لك إنك إذاً لمغرور ... إنها المرة التاسعة التى أنقاد لك فيها ، ولكن هذا حسبى ... أفهمت ؟ حسبى هذا . قالت اديل هذا بتيقظ وهياج ، حتى إن صوتها الصاخب وحركاتها العصبية أدخلت الرعب فى قلب اللص فقال :

— حتى أنت يا فتاتى ونعيم قلبى ؟! قال ذلك فى تدليل وتعجب وقد رق صوته وانبسطت أسارير وجهه ، فأكسب ذلك محياه وهيئته شيئاً من الجمال الذى خصصت لسلطانه « إديل »

لقد كانت تقاسيم وجه الفتاة الدقيقة الجميلة ، وطراز هنداها وزينتها تناقض كل المناقضة دور الشريكة الآثمة الذى كانت تقوم به مع هذا اللص العاشق ... ثم تندم الفتاة على الرفض الذى جهرت به أمام عشيقها منذ لحظة ، خصوصاً حين أبصرت انقلاب جفائه إلى رقة وإيناس ، فقال :

— نعم لقد عرانى منذ لحظة غضب طارئ ،

2017-11-11

ولكني أحبك على كل حال . وسبب هذا الكلام الذى بدر منى إليك إنما هو الخوف من أن يقبض علينا رجال الشرطة ، ألا تعلمين أن ذلك كان لأجلك ؟ أترينى نسيت عزمنا على مغادرة هذا البلد بمجرد أن نستطيع ذلك؟ ألا تذكرين ما قصصته عليك من قبل عن آلامي وأشجاني ؟ ألا تحسين ما أنا فيه الآن من الضيق والسجن فى هذه الحياة المتشردة البغيضة؟! لقد كانت عنيفة جارحة ، تلك الكلمات التى جبهتنى بها منذ قليل . فقولى لى إنك نادمة عليها ، قولى ... وحين رأى اللص صمت الفتاة الطويل راح يلتمس يدها برفق ، ثم جذبها إلى صدره بضغطة لطيفة لذيذة أراد منها شل ارادة الفتاة وإلهاءها عن ثورتها عليه . وتلك حاسة سادسة يمتلكها بعض الرجال الذين يعرفون كيف يتحببون إلى قلوب النساء . ولقد كان هذا اللص العاشق يعلم بوحى هذه الحاسة أن هذه الفتاة البائسة إنما هى له بجعلتها مهما تثر

لقد كانت تعبده هذه الفتاة ، فكان يستغل فيها هذا الوله لتحقيق أغراضه وتنفيذ جرائمه ، منذ اليوم الذى هجرت فيه عش الأمومة حتى هذا اليوم .

فى « إديل » كل معانى الصبا الذى يبتسم عليه وجهها البديع ومعارفها الوسيمة . لقد كانت بنتاً وحيدة لعائلة شريفة متوسطة الحال . مات والدها فى حومة القتال وهو يحمل رتبة ملازم ثان ، فاضطرت الصبية عقب وفاته إلى الاقتران بـ « مسيو بارون » وهو تاجر أقشة شرس فظ ، لم ترزق منه ولداً لحسن الحظ . وحين اتصلت حبالها بهذا الشاب «جول مليه» لم تكن تعرف عنه أكثر من أنه موظف فى أحد المصارف ، ولقد لفق لها الشاب حكاية لحياته جازت على عقل المسكينة فآمنت به ثم ... ثم أصبحت له خليلة بعد فترة من الزمن . وتبلغ حكاية اتصالها بهذا الشاب إلى مسامع زوجها (وكان المبلغ له هو نفس عاشقها) فيطردها التاجر من منزله . وبعد أيام ثمانية ينهى إليها «جول» عاشقها بأنه ارتكب خطيئة فى وظيفته طرد بسببها من مركزه . وعلى هذا فقد أدركت الفتاة أنها حيلة منه ، وأنه يريد إشراكها معه فى سلسلة من الجرائم والسرقات لا تتصل حلقاتها إلا بشريكة مثلها من الجنس اللطيف . ومن أصلح لهذا منها ؟! ولسوف يدرك القارئ طبيعة هذه الشركة ومرماها حين يعلم أن هذه المؤامرة التى دار الحديث حول تنفيذها بين العاشقين كما يأتى : لقد استخدمت إديل عند سيدة أمريكية اسمها « مس إديث » بوظيفة وصيفة ، وكان ذلك بشهادة كاذبة تحت اسم مستعار مزور . وإذن فلم تكن غاية هذا الموعد الذى ضربه لها العاشق اللص فى شارع ريفول إلا الاستعلام منها عن موضع صندوق الجواهر التى اعتزم تلك الليلة على اختطافها من سيدتها الأميركية .

ولقد مرّت على شفة الشاب بسمة الفوز حين بدأت إديل تتكلم وتقول :

— لو لم تكن ياجول سيئ الاعتقاد بإخلاصى وحبى لما شككت بكلماتى الموجهة إليك منذ هنيهة ، إنك لتتسخط على حياة الاجرام والتشرد التى تحياها ولكن من يمنعنا من مبارحة هذا البلد منذ الغد ؟ أبداً لن يعلم أحد بحقيقة حالنا . ثم إنك ستعيش من العمل الحلال ، وسأشتغل أنا معك أيضاً .

وقاطعها اللص :

— إن هذا مستحيل في هذا الظرف على الأقل وأنت تفهمين جيداً وجه استحالته

— ولكن متى يكون ارتحالنا ؟

— حين نجمع لنا ثروة كافية ، وفي هذه الليلة سيكون ذلك إن بهجت إغارتنا على جواهر سيدتك. وبهذه المناسبة هل جربت على علبة الجواهر المفاتيح التي صنعناها ؟ وتجيب الفتاة :

— نعم لقد جربتها ياجول فنجحت كل النجاح

— وهل أنت مطمئنة إلى أن المقد الثمين اللؤلؤي موجود في العلبة وأن سيدتك لن تتقلده هذا المساء ؟

— بالطبع لأنها ستتبدى في « نوى » عند مدرستها القديمة وستقودني معها وعندي أن الوقت الملائم لدخول الفندق هو الثامنة مساء أو الثامنة والربع . قال اللص العاشق :

— لقد فهمت ، سأكون في الثامنة عند باب فندق « بيوزيل » الذي يشرف على شارع « سانت هونوره » ولئن سألني سائل عن وجهتي لأقولن له إني مدام « زرلي » فقد بلغني أنها تقطن شارع يتفرع عن شارع « ريفول » . لسوف أمر بأول ممر من الفندق عن يميني ، ثم أصعد درجتين ، ثم أصل إلى الغرفة التي رقمها ٦٧ ، ستكون مفتوحة بالطبع ، وسألقى أمامها دهليزاً ثم ردهة صغيرة . إن علبة الجواهر في خزانة غرفة النوم ، وقد وضعت أنت المفتاح تحت سجادة السرير ، أليس ما أقوله صحيحاً بالضبط ؟ قالت الفتاة :

— تماماً تماماً ، ثم أردفت بارتماش :

— ولكن عدني أنك إذا لقيت أحداً من عاملات الفندق ستبارح الفندق بمذر تتنحله ! ثم قالت « إديل » في همس :

— لست أطيق أن أكون مساعدة لك في جريمة قتل ، إن ذلك هائل . إن ذلك مالا أطيق .

قال « جول بليه » :

— ثق أن ذلك لن يحدث أبداً ، لأن كل شيء سيجري في سكون وخفاء كما هي عادتنا في السرقة ، وهي أني فوجئت بما لم يكن بالحسبان ، إني سأدافع عن نفسي ، وسأختار أن يفصل رأسي على أن أذكر اسمك بسوء أو وشاية ، إلا إذا كنت أنت تذكرين اسمي في مثل هذه الظروف . أجيبي أتذكرين اسمي ؟

— أبداً مطلقاً . قالتها وهي ترمقه بنظرة فيها الاخلاص والحب ، فسرى عن نفس الشاب لهذا الاحتجاج الذي عبر عنه صوتها ومنظرها ، وحين أدرك اللص أن هذه المحاورة قد يكون من أثرها إن هي طالت أن تنبه مخاوف شريكته ثانية ، فقد قال :

— ستكون هذه آخر محاولة لمحاولها ، فتشجعي يا حبيبتي وهاتي لي لثمة من شفتك الحلوة . قال هذا ثم قادها إلى جهة كنيسة « سانت روش » في زقاق ضيق خال من المارة . هناك جذبها إلى صدره وضمها بين ذراعيه ضمة عنيفة حارة ... ثم ... ثم تلاقت الشفاه ... وشمرت الصبية وهي تجوز شارع « هونوريه » عقب هذه الثواني اللذيذة من الضم والعناق ، بدبيب هذا الحب الطاغي يجري في عروقها فيجعل منها دائماً آلة صماء في يد هذا العاشق اللص الجميل

***

لم تكد « إديل » تدخل فندق « بيوزيل » .

وتمنع قبعتها عن رأسها حتى رن فى مسمعها جرس غرفة سيدتها ، يدعوها فرددت فى انزعاج وهى تتوجه لغرفة سيدتها :

— الساعة الآن السادسة إلا ربعاً ، وسيدتى من عادتها لبس ثيابها فى السادسة والنصف ، أترى بدا لها فى الذهاب ففيرت رأيها ؟ ! أعنى يارب ...

كانت «مس إديث» مستلقية على كرسى طويل فى غرفة الفندق وكان كل مايحيط بالسيدة من متاع وأثاث يحمل طابع اللطف والرقة والكرم : هى امرأة فى الخمسين من عمرها شقراء تضرب شقرتها إلى حمرة داكنة ذات عينين سمراوين ملتمعتين ، ووجه لطيف التكوين يصطبغ بصبغة زهرة حائلة ذاوية . ولسبب يعود إلى مزاجها الصريح وطبعها البرىء من التكلف والرذيلة ، كانت « مس إديث » تحب أن تطبع كل من يحيطها من الخدم والوصائف على غرارها فى العوائد والمسلك . فكان يكفيها من وصيفاتها الطيبة والاستقامة كي يتقربن إلى قلبها وينزلن من نفسها منزلة الأبناء . انجذب قلب « مس إديث » لوصيفتها « اديل » منذ غياب وصيفتها القديمة الألمانية تلك التى انطلقت إلى أهلها عقب برقية مستعجلة تلقتها من أمها المريضة . وكم تترك السيدة « إديث » لوصيفتها الألمانية فرصة سانحة للاعتناء بأمها قررت الاستعاضة عنها بغيرها خلال هذه المدة ، فشاءت الصدفة أن تكون بديلتها فتاتنا « اديل » تحت اسم مستعار مزور بشهادة ملفقة . وكان أول ما بدرت به السيدة « إديل » أن قالت لها :

— إن لى ثقة كبرى بالانجذاب أو النفور اللذين تحدثهما فى رؤيق الشخص أول مرة ، وعن هذا الانجذاب أوالنفور أصدر فى معاملتى لوصيفاتى « بإديل » . لم يكد يمضى على اديل ثلاثة أشهر عند « مس اديث » حتى عزمت هذه الأخيرة حين نزلت من نفسها الوصيفة منزلاً حسناً ، أن تعرض عليها السفر معها إلى أمريكا مع سلفتها الألمانية . ولكن شيئاً واحداً كان يؤلم قلب هذه المرأة الطيبة ، فى كل مرة كانت تلقى اديل الزائفة : كيف تطلب منها أن تكون لها وصيفة فى الدرجة الثانية بعد تلك الألمانية الثانية ؟ أى وسيلة ستتخذها كيلا تؤلم نفسها وتجرح شعورها ، بينما رسائل تلك تترى إليها بالقدوم ؟ إنها لتعلم من حب « اديل » لها وتفانيها فى خدمتها مالا تستجيز لنفسها معه أن تفاتحها بهذا الموضوع . على أن « مس اديث » لم تكن مخدوعة ، فان « اديل » كانت تبادلها حباً بحب واخلاصاً باخلاص . ولم يكن هذا التردد اللذان أبدتهما « اديل » لماشتها إلا أثراً لما يختلج فى جوانحها ويثور فى قرارة ضميرها من الندم على ما هى مقدمة عليه من خيانة سيدتها المحسنة الطيبة الكريمة . وقبيل أن يرن الجرس لاستدعائها خطر لها أنه يمكنها أن تنبه سيدتها إلى ما قد تتعرض له من الخطر هذه الليلة . لكن رنين الجرس صعقها وأزعجها ، أيكون مشروعها الأثيم قد أحبط واتصل خبره بسيدتها ، وهى الآن تريد من استدعائها أن تقبض عليها وتسلمها ليد العدالة ؟! كل ذلك جال بخاطر الشريكة المسكينة ، وهى تسرع الخطا إلى غرفة سيدتها التى بادرتها بهذه الكلمة :

— إنى لن أبرح الفندق هذه الليلة يا «اديل» لأن مدام «ونود» (وهى المدرسة التى قضت عندها

2017-11-11

مس أديث عامين من حياتها) أبرقت إليّ تسلمى بمرضها، وأنا نفسى أحس بشئ من الوعكة والضعف لم تجب « اديل » على كلام سيدتها الاميركية ، لأن مشهداً هائلاً كان يتمثل فى خيالها تلك اللحظة لقد فتح الباب الذى يواجه باب غرفة سيدتها وبرزمنه خليلها « جول بيه » وهو يعتقد أن غرفة سيدتها فارغة كما هو متفق. وإذن فإن « مس أديث » ستسمع الضجة، وسترى كل شيء، وحينئذ؟ وحينئذ إما أن تساعد « اديل » الفرصة فتنبه سيدتها لخطر حبيبها فتكون قد قضت عليه، أو أنه سيفوز فيقتل سيدتها الكريمة . فى ظرف ساعتين ، سيكون هذا المشهد حقيقة راهنة . وهنا ترتجف أوصالها وتشعر بقلبها يميد ، وتشاهد الاميركية اصفرارها وارتجافها واضطرابها ، فتقول فى قلق

— ولكن مابك يا « اديل » أتراك مريضة ؟ ثم تنهض من كرسيها الطويل وتتجه إلى وصيفتها ولكن هذه توقفها باشارة من يدها وتقول

— لاشيء يا سيدتى إنه دوار بسيط يمرض لى داعماً وقد انصرف عنى الآن

— ولكنى أشاهد حالاً غريبة تأخذك منذ أيام ! أيكون أحد قد سامك أو آذاك ؟ أتكون خدمتى لا تسجبك وترهقك ؟ قالت هذا بصوت تسيل نبراته حناناً وتحبباً ، ثم أردفت تقول :

— لئن كان هذا ، فإنى جد آسفة على ما فرط وخصوصاً أنى من السرور بك والارتياح لخدمتك وإخلاصك ، بحيث يقوم بنفسى أن أعرض عليك أمراً : لقد قلت لى سابقاً إن ذويك، ليس لهم أحد غيرك وغير شقيقتك، أفتعتقدين أنهم يرضون بذهابك معى إلى أميركا ؟

— إلى أميركا ؟ ! (رددتها شريكة اللص فى دهشة) تريد سيدتى ...

— أن آخذك معى إلى أميركا . ثم تابعت « مس أديث » كلامها فقالت

— غير أن هناك مشقة احتمالها يسير عليك ، وهي التى أتردد منذ طويل فى الإفضاء بها إليك . فقولى لى الآن فى صراحة وجلاء ، ألست واثقة من حبى لك وإيثارى مصلحتك وخيرك ؟

— أواه يا سيدتى ، وهل أشك فى ذلك وأنت من أعطف الناس علىّ وأحسنهم معاملة وأليمهم كلمة؟!

— إنك لتستأهلين منى هذا وأكثر ، وإلا فماذا كان يحدث لى لو أنك كنت بعيدة عنى هذه الشهور؟! ثم عرا الاميركية شيء من الحيرة والحياء، فاستأنفت تقول :

— وأظنك تدركين أنه لا يمكن العيش سنين عدة مع وصيفة أمينة كوصيفتى السابقة ، دون أن يتعلق القلب بها ، كما أظنك تقرينني على أنى لن أستطيع التخلى عنها ولا سيما أن رسائلها تنبئ من يوم لآخر بمجيئها ... نعم إنها هرمة عطلة تحتاج هى نفسها إلى وصيفة تمينها ... وسيكون شديداً عليك أن تكون هي الأولى وتكونى أنت الثانية ... ولكن إذا سلمت إليك رأس كل شهر نفس الراتب المتاد ، ووعدتك بأنك ستخلفين يوماً هذه العجوز فى خدمتى ، أتراك ترضين بهذا ؟

لقد كان فى هذا النوع من التوسل الذى تبديه هذه المرأة المثرية النبيلة أمام خادمتها كرم ونبل يثيران القلب ويستفزان الإعجاب والاكبار . نعم إنها كلمة طيبة لاغير. ولكنها على ذلك تكشف عن كنز غنى من حساسية دقيقة وشعور إنسانى رهيف وهنا شعرت اديل رغم موت ضميرها بمرض

2017-11-1

الجريمة والانحطاط — بهزة من الندم طالما أحست بها، إذ هي تدور من قطب هذه المرأة الصالحة الطيبة حول محور من لطف وكرم وحساسية . ولكن هذه الهزة تستحيل الآن وهي تسمع كلماتها الطيبة إلى زلزلة هائلة من الندم ووخز الضمير : زلزلت أعشار قلبها وحتايا نفسها فمادت أي ميدان . وتنظر الفتاة حائرة إلى هذه المرأة الضعيفة الطيبة الحنون التي اعترفت هي أن تضحي بها بعد دقائق على مذبح خيانتها وحبها الآثم ، فتفيض عيناها من الدمع وتروح تتمتم :

— إنك يا سيدتي رمز الطيبة وعنوان الكرم؛ وإن لساني لا يقوم بشكرك على عنايتك بي وسهرك عليّ . ليس شيء في الدنيا أحب إليّ من خدمتك فكيف تظنين أني سأستاء إن قدّمت عليّ وصيفتك السابقة ؟ سواء لدي أكنت الأولى أم الثانية في خدمتك . حسبي أن أكون بجانبك ، ولا يهمني شيء بعد ذلك ، ولكن ... وتقاطعها الأميركية :

— ولكن ينبغي لك ألا تعقدي أمراً دون استشارة أهلك . وعلى ذكر أهلك أقول إن اليوم عيد ميلاد أمك القديسة « أميل » وتذكرت « إديل » في جهد أن ذلك الاسم الخيالي الذي لفّقته « لس إديث » حين استخدمت عندها إنما كان من ابتكار خيالها وكذبها . أما « مس إديث » فقد مضت في حديثها تقول بلهجة حنون وابتسامة عطوف :

— لماذا لم تنبئيني بهذا ؟ إذن لكنت سمحت لك بقضاء يومين بجانب أمك ، ومع هذا فلا تأسي ولا تأسفي ، فما زال لديك وقت متسع إن سافرت من الآن ، فليست « كره له ل » بعيدة عن هنا كثيراً، ثم إني لست بحاجة إليك حتى الحادية عشرة غداً . إنما قولي لي هل أنت منتبطة سعيدة ؟ قالت الوصيفة في خفوت لم يبلغ مسمع سيدتها إلا بجهد :

— أواه يا سيدتي ، إني جد منتبطة ... ثم ولّت من الغرفة تكفكف دمعة حارة انحدرت على خدها

وقالت : « مس اديت » لنفسها بعد إذ غادرتها وصيفتها

— كم هن طيبات القلب بنات الشعب ! أنا واثقة بأن حزنها كان سببه حرمانها من ذكرى عيد والدتها

* * *

ومضت ساعتان على ذلك ، وكادت تدق الساعة الثامنة و « أديل » ما برحت محتبسة في غرفتها ملتزمة كرسيها الذي انحطت عليه عقيب خروجها من غرفة سيدتها ... وفي غمرة من اضطراب نفسها وتبكيت ضميرها وتناقض عواطفها وشعورها راح يعتادها من جديد شعور الاعتراف بجميل سيدتها وكريم عطفها أقوى مما كان يعتادها من قبل — حتى لقد كان واجبه عندها في تلك اللحظة بفضل حيائها وحياء حبيبها ومباهجها معه .. ونكاد نأذن الساعة الرهيبة المختجلة : ساعة قدوم حبيبها اللص ، فتنتابها لذلك حمى الخوف من الافتضاح بالإضافة إلى شعور الندم والتبكيت ، ترى ما ذا تصنع ؟ في أي مكان هو « جول بليه » الآن ؟ أتنتظره على رصيف

الشارع كى تبدهه بالخبر وتمنعه من دخول الفندق، أتقول له إن مشروعه أحبط بملازمة سيدتها غرفتها هذا المساء ؟ لقد كانت هذه أول فكرة خطرت فى ذهن المسكينة القلقة ، وهى تتمثل عيناً حبيبها الناضب المريد بنظراته الجامدة الباردة وصورته المهددة التى تنذر بالويل والثبور ، ولكن من يضمن أنه سيصدقها فلا يصمد رغماً منها إلى غرفة سيدتها كى يبحثها هو بنفسه ؟ أتحاول اعتياقه عن غايته الأثيمة ؟ ولكن تمثلت هذا المشهد الفظيع المروع : سيدفعها بعنف بل سينهال عليها ضرباً إن اتلت على صدّه وردّه ، وحينئذ والناس ملتفون حولها سيتدخل شرطى الشارع فى الأمر وسيقودهما إلى التحقيق ... وهنا كادت مادة دماغها تجمد ، حين تمثلت منظر القبض عليهما . وماذا بعد ذلك غير ضبط المصابة وزجها فى السجن ... لا،لا، هذه الطريقة غير ممكنة ولا مجدية ، وأحسن منها أن تنتظر فى الفندق بعدم اكتراث مجىء حبيبها اللص. إن ذلك ممكن وسهل التنفيذ، ثم ... شلت إرادتها ثانية فكرة مخيفة لم يكن مبعثها خوفها من تهديدات حبيبها ، ولكن مبعثها احتسابها لضعفها وعجزها أمام نظراته الساحرة المكهربة وهنا تمثل لها حبيبها ليس فظاً ولا جلفاً ولكن رفيقاً رفيقاً لطيفاً مؤنساً ... أإذا طلب منها إخفاءه فى غرفتها كى يزاول سرقته الليلية، أترفض ؟ أإذا أصرها أن تسرق هى نفسها العقد اللؤلؤى كى تسلمه إياه وهو فى مكانه ، أتأبى ؟ نعم بهذه الوسيلة سيذهب بثمنه وينتهى المشكل ولا يشعر أحد بها ولا به ... ولكن أتقدر بتلك الأنانة الكريهة التى أظهرت لها منذ لحظة كل كرم وحب وإخلاص؟ كلا ، كلا ، ولكن ماذا بعد هذا التردد ؟ وترتفق المسكينة وجه الطاولة ، وتغمر رأسها بين يديها ثم تروح فى هوة لا قرار لها من التأمل والتفكير...

ودقت الثامنة فهبت فجأة مذعورة مرهقة تقول : الوقت لا يحتمل الامهال والابطاء ... فبعد دقائق سيأتى « جول به ليه » شريكها فى الاثم . ولكن فى هذه الأزمة الفكرية المتوحجة ، ومضت فى رأسها القلق الحائر فكرة وجيهة لم تنتبه لها من قبل وفجأة عادت إلى هذه الروح الواهنة التائهة قواها النفسية الباطنة يا للدهشة والثناء ، كيف لم تفطن لهذه الخاطرة من قبل ؟ إذن فعليها أن تتوجه إلى غرفة سيدتها ، نعم إلى « مس اديث » كى تقول لها كل شىء ، وتكشف لها عن باطن الأمر طالبة منها فى تضرع أن تسدل الستار على هذه المخزاة التى كادت أن تكون هى « مس اديث » ضحيتها ... إنها لتعلم من كرم سيدتها وحنانها ما يجعلها تؤمل فى العفو عن صاحبها المجرم بعد هذا الاعتراف الصادق منها ولا سيا أن كشف أمره معناه كشفها هى الأخرى بصفتها شريكته ودليله إلى الفندق ، وذلك ما لن تفعله سيدتها ... ولكن أتجرؤ على الكلام أمام هذه السيدة المحسنة السمحة البرة ؟ أتحدثها عن تفاصيل جريمتها المخزية الشائنة التى جعلت منها وصيفة مزورة خائنة ؟ ولم هذا التزوير وما غايته ؟ يا للعار يا للشنار ...

وفى لحظة عظر فى قلبها هذا التأثير ، فلفظت

2017-11-11

كلة : لا ، لا ، ثم ألقت بهذا التصميم وجه الحائط ومضت لحظة فاذا بها تقول فى خفوت : ولكن ! إذا ! واستيقظ فيها من جديد قلب المرأة الشريفة « البورجوازية » فاذا بضميرها يبكتها من جديد ، وإذا بها تزفر وتقول : كم سيكون ذلك فظيعاً شنيعاً إن أنا لزمت جانب الصمت . ثم تقول بصوت معلمئن واضح :

— إن ما سأعمله هو جدّ صائب وشريف ... وقامت لساعتها خافقة الجوانح مرتعدة مضطربة تفتح غرفة سيدتها فى سرعة كي لا تترك لنفسها وقتاً للتفكير وموازنة الآراء ... بهذا العزم والصورة نقرت على باب سيدتها . يا لله ! كم هو رائق حلو ذلك الصوت الذى انبعث إلى أذنيها من الغرفة قائلاً : أدخلى !

كانت مس « إديث » ما تزال مستلقية على كرسيها وبجانبها بقية من طعام كانت تتناوله . فحين رأت وسيفنها بهذا القلق والارتباك قالت لها بدهشة :

— أو قد عدت ثانية يا « إديل » ولكن ماذا حدث ؟

— حدث أنى خدعتك وغرّرت بك ياسيدتى وإنى لست إلا وصيفة زائفة هى خليلة لص فاجر مجرم سينهك حرمة منزلك بعد قليل . حدث أنى شريكته قد زورت مفتاحاً لاستلاب ما تحتوى علبة جواهرك ، وهذا المفتاح فى جيب عشيقى الآثم ... حدث أنى ... بث لا أستطيع احتمال تنفيذ هذه الجريمة الشنعاء ضد الشخص الكريم الملائكى الذى عاملنى ويعاملنى معاملة أم رءوم وأخت حنونة ...

ونهضت فى هذه اللحظة «مس إديث» بينما أخذت « إديل » تكلمها وتقول :

— ليس فىّ ما تخشينه على نفسك ياسيدتى .. ولكن ... جول ليس بوسعى أن أسلمه للشرط ... كلا لست مستطيعة ذلك أبداً ... وما عليك ياسيدتي للافاة هذا الخطر الذى سيحدث بعد دقائق إلا أن تقفلى الباب من الداخل ... حتى إذا أراد الدخول عليك تحتم عليه أن يدفع مصراعى الباب ... وحينئذ ... تتكلمين بصوت مرتفع مع نفسك فيفهم أنك لم تبارحى الغرفة هذا المساء ... فينادر الفندق دون أن يحدث أمر فظيع ... أما فى حالة عدم خروجه فإنك تستطيعين النجاة إلى غرفة ثانية وهناك تطلبين النجدة والغوث ... ابق مكانك أنت ودعينى أنا أبادر إلى العمل ... وهنا يعقب كلامها عملها فأهرعت « اديل » إلى باب البهو وأغلقته ثم أدارت المفتاح فى قفله مرتين ، ثم أسقطت عليه المزلاج الداخلى . وكذلك وبنفس العجلة عملت فى غرفة النوم ما عملته فى البهو ، ثم عادت إلى سيدتها الأميركية وكانت هذه قد سمرت بمكانها كالمشلولة أمام هذا المشهد المرعب السريع الصامت . وبينما كانت المرأتان منتصبتين الواحدة أمام الأخرى ، وقبل أن تستعيدا شيئاً من حقيقة الموقف المتأزم الفاجع إذا بضجة تنبعث من البهو تهز أدق عصب من أعصاب المرأتين ثم تبدو ذراع تدير زر باب البهو ولكن المقاومة غير المنتظرة التى وجدها « جول بليه » من القفل ، أدهشته وسمقته فأخذ يحرك الباب بشيء من الحذر ... صرخت « اديل » متوسلة بذارعة

2017-11-11

— تكلمي بحقك يا سيدتي ! فصاحت مس أديت بصوت هادئ لا رعشة فيه ولا اضطراب

— ولكن من هناك ؟ ! ثم مشت بجأش رابط إلى مدخل البهو وهي تقول : إذا لم ترد على فسأنبه الخدم بدق الجرس ... قالت هذا وأرهفت أذنيها ، فإذا بها تسمع زفرة حبيسة انطلقت من صدر « جول » لهذه الخيبة والفشل الفاجئين ، ثم تجاسرت الأميركية فوضعت يدها على مقبض الباب وقد تهيأت لفتحه . ولكن في هذه اللحظة سمعت خفق نعل « جول » يضمحل ذاهباً شيئاً فشيئاً ، ففهمت أن اللص يبتعد ويلوذ بالفرار . ثم تكلمت فقالت :

— لقد انطلق صاحبك يا « إديل » وسأدق الآن الجرس كي أشعر الخدم وأهل الفندق أن أحداً من اللصوص أراد دخول غرفتي علي ، وبأني في حاجة إلى حارس أمضه في البهو بقية الليل . ثم تناولت يد الصبية وقالت لها :

— أما أنت فأريد منك ألا تبرحيني كي تقصي علي قصة حياتك لأني أبني معرفة كل شيء

* * *

في صبيحة غد هذه الحادثة أفاقت « مس إديت » متأخرة عن موعد استيقاظها ، وكان الاعتراف الباكي الحزين الذي اعترفت به الوصيفة أمامها ، قد حرك أوتار قلبها النبيل فقالت لها في حنان :

— لقد أنقذتني من ذلك اللص صاحبك ، وأنا بدوري أريد استنقاذك منه واستخلاصك لنفسي ... لسوف ترافقيني إلى أميركا ، ولسوف تتزين اسمك ، وهناك تعيشين في كنفي دون أن يستطيع لحاظك أبداً . فكان جواب « إديل » على هذه المكرمة والشهامة دموعاً حرارا هنا وقُبل مخلصة حارة لقدم هذه الانسانة الملائكية التي تعرض عليها — وهي في هوة سقوطها وتدهورها — السلام والحب والرعاية . وهل بعد هذا كرم ومروءة وحنان ؟ ولقد تم الاتفاق بين السيدة ووصيفتها على أن تلزم « إديل » الفندق حتى قدوم الوصيفة الألمانية ، حينئذ تسبق سيدتها إلى « ليفربول » حيث تنتظرها هناك للابحار إلى أميركا ...

ولكن كم كانت دهشة « مس إديت » عظيمة حين أفاقت في اليوم الثاني وراحت تتمتع عيناً زرقاء الكهرباء مستدعية « اديل » دون أن يرد عليها أحد .. أخيراً عزمت الأميركية على استدعاء وصيفة الطابق الآخر كي تستعلمها عن غياب « إديل » ولكن هذه جاءت لتخبرها أن « إديل » غير موجودة في الغرفة وأن رسالة معنونة باسم الأميركية قد وجدتها على طاولة « إديل » رسالة ؟ كلا . إن هي إلا سطور مكتوبة بيد مرتعشة هذه هي :

« إغفري لي يا سيدتي بحقك ... إني لأشعر بعجزي عن فراق ... هذا الرجل الذي لن أستطيع العيش بدونه ... نعم لقد قنعت البارحة بمقترحك لأنك ملكت قلبي واستوليت على إرادتي بلطفك وكرمك ... أما الآن ... فأنا والهفتاه ، جدُّ أسيفة على حبه الذي سأحرم منه إلى الأبد إن لحقت بك . أرأيت ياسيدتي أني لست من الطيبة والصلاح بحيث كنت تتصورين ... نعم لست طيبة ...

2017-11-11

وسأكون ... على ما يحبه منى لا أنحرف عن رضاه ولا أسير إلا على إرادته ، لأن هذه قسمتى ... إنى حين أحاول حياة أخرى بعيدة ... عنه ، أشعر بأن برودة الموت تجثم على صدرى وتمشى فى عروقى ... وداعاً ياسيدتى ... ياسيدتى الكريمة ، إنى أتوسل إليك أن تحزمى أمتعتى فى طرد وتبقيه عند البواب باسمى ... وأنا واثقة كل الثقة بأنك لن تحاولى إيقافى ولا تسليمى للعدالة حين آتى لآخذ الطرد... ولكن ... أواه كم أنا واهمة حتى أطلب هذا أيضاً. لكن وضعت ياسيدتى صورتك العزيزة المحبوبة بين... أمتعتى لتكونين هذه المرة ألطف إنسانة وأكرم امرأة عند خادمتك الفقيرة بجميلك وإحسانك إلى الأبد »

خادمتك : « إديل »

.... لقد فعلت « مس إديت » ما طلبته منها وسيفتها الآبقة ، على رغم أن بعض قراء الفضائل يرون فيه خروجاً عن الطبع الانسانى اللئيم . نعم ، ولم تكتف بالصورة وحدها ، بل وضعت بجانبها مظروفاً يحتوى على خمسة آلاف فرنك وكتبت فى ورقة فيه:

« من « مس إديت » الأميركية إلى وصيفتها الأمينة « إديل » ذكرى محبتها وإخلاصها فى خدمتى سنتين . وكان فى آخر الرسالة هذا القول المعروف : أما وقد شئت فراقى يابنية فاستميني بهذه الصبابة من المال على العيش مع صاحبك بشرف وحلال »

« إديت »

كمال المصرى

الملابس القطنية الخفيفة
هى
ملابس الصيف القائظ
تشكيلات جميلة رائعة . ومنسوجات مختلفة مغرية
وألوان ساحرة أخاذة
تقدمها اليكم
شركة مصر للغزل والنسج
إحدى مؤسسات بنك مصر

الأول والأخير

للكاتب جون جالزورثي

بقلم الأديب سامي الناقض

« يعد برنارد شو وسير جيمس ماثيو باري وجون مليجتون سنج وجون جالزورثي أحسن كتاب الدراما في الأدب الانجليزي الحديث. وقد تعلم جالزورثي في هارو واكسفورد وكمبردج من الأدباء الانجليز درس القانون واشتغل به . ولكن هذه المهنة لم ترقه فتركها واشتغل بالأدب فكتب أولا قصصاً بين طويلة وقصيرة ثم تحول إلى كتابة المسرحيات فكان أول ما كتبه مسرحية (الصندوق الفضي) ثم كتب بعد ذلك أكثر من عشرين قصة تمثيلية كان أحسنها جميعاً مسرحيات البهجة والنزاع والمحاكمة والأوباش والأمانات وكل مسرحيات جالزورثي تعالج مشاكل اجتماعية في البيئة الانجليزية . وهو يعرض لنا المشكلة في مسرحيته في قوة كعمل كتاب الدراما معتمداً في ذلك على الحوار الطبيعي وذكر التفاصيل الحقيقية مهما كانت مروعة فيهيج بذلك شعور المتفرجين . وهو يكثر من استخدام علامات التعجب لكي يترك فهم ما يراد منها إلى ذكاء المتفرجين . ومسرحياته كلها ناجحة لأنها وضعت على أساس مسرحي متين »

أشخاص الرواية

كيث دارنت مستشار ملكي

لاري دارنت أخوه

واندا

مناظر الرواية

المنظر الأول : في مكتب كيث

المنظر الثاني : في حجرة واندا بعد المنظر الأول بثلاثين ساعة

المنظر الثالث : في حجرة واندا بعد المنظر الثاني بشهرين

المنظر الاول

الساعة السادسة من إحدى أمسيات نوفمبر في غرفة مكتب كيث وهي حجرة كبيرة مغطاة بستائر كثيفة وليس بها إلا مصباح مكتب يسقط ضوءه على سجادة تركية وكتب موضوعة إلى جانب كرسي ذي مساند وطقم قهوة أزرق مذهب فتظهر كأنها واحة من النور أمام النار المشبوبة في الموقد

ترى كيث نائماً في كرسيه وقد اتصل حذاءه تركيا أحمر وتدثر بثوب قديم من القطيفة الرمادية ، وهو أحمر الوجه حاد التقاطيع حليق اللحية وقد ابيض جزء من شعره الأسود ، إلا أن حاجبيه الكثيفين مازالا أسودين . يفتح الباب المغطى بالستائر والواقع في الجزء المظلم من الحجرة بهدوء حتى أن كيث لا يستيقظ . يدخل لاري دارنت ويقف بالباب لايدري ماذا يفعل وهو شخص ضامر الجسم ذو وجه متعب بارز عظام الخد وعيون عميقة زرقاء وشعر ناعم أشعث ولكن وجهه ما يزال جميلا . يتحرك داخل الحجرة إلى جانب الحائط ثم يقف ثانية ساكنا ويتنهد وهو يلهث بصوت خافت فيصحو كيث فجأة ويتحرك في كرسيه

كيث — من ؟

لاري (بصوت جامد) — إنه أنا لاري

كيث (بين اليقظة والنوم) — أدخل ! لقد كنت نائما

(لا يلتفت إلى الباب وإنما ينظر إلى النار بين يداعبها التماس)

لاري (يتنفس بصوت مسموع)

كيث (يدير رأسه قليلا ناحية لاري) — حسن يا لاري ، ماذا وراءك ؟

لاري (يتقدم داخل الحجرة ولكنه يمشي مستنداً إلى الحائط خارج دائرة النور وكأنه لا يستطيع المضي دون الاستناد إليها)

كيث (ينهض فيه) — أأنت مريض ؟

لاري (يقف جامداً مرة أخرى ويتنهد)

كيث (يقف موليا ظهره إلى النار ثم ينهض في أخيه) — ماذا حدث لك يا رجل ؟ (في حالة أقرب إلى الوحشية تولدت عن اضطراب أعصابه)

هل اقترفت جريمة قتل حين تقف مضطرباً هكذا كالسمكة ؟

لاري (هامسا) — نعم يا كيث

كيث (بصوت يظهر فيه الكره الشديد) — يا إلهي ! سكران مرة أخرى ! (يتغير صوته بخوف مفاجئ) ما الذي أتى بك إلى هنا وأنت على هذه الحالة ؟ لقد أخبرتك — لو لم تكن أخي — ! تعال هنا ، ما الذي يؤلمك ؟ ماذا حدث يا لاري ؟

لاري (يندفع من جانب الحائط المظلم ثم يجلس على كرسي ذي مساند في دائرة الضوء) — هذا صحيح

كيث (يقدم إليه بسرعة ويحدق في عينيه حيث يظهر فيهما تعب مخيف — يتكلم بصوت منخفض يظهر فيه الغضب والحيرة) — ما هذا الهراء الذي تقوله ؟ (يذهب بسرعة ناحية الباب ويزيح الستائر جانباً ليتأكد من أنه مغلق ثم يعود إلى لاري فيراه منحنياً فوق النار) هيا يا لاري تمالك نفسك ولا تتركها للمبالغة ! ماذا تعني بما قلت ؟

لاري (متغيراً في صوت حاد) — الأمر كما قلت لك ، لقد قتلت رجلا

كيث (متمالكا نفسه بصوت بارد) — هدئ نفسك

لاري — (يرفع يديه ويحصر إحداهما بالأخرى)

كيث (يظهر عليه الخوف الشديد) — لماذا أتيت هنا وأخبرتني بذلك ؟

لاري — ومن الذي أخبره غيرك يا كيث ؟ لقد أتيت لأسألك عما أفعله — أأسلم نفسي أم ماذا أفعل ؟

كيث — متى ؟ متى ؟ ماذا ؟

لاري — الليلة الماضية

كيث — يا إلهي ! كيف كان ذلك ؟ وأين ؟ من المستحسن أن تهدأ أولا ثم تخبرني عن كل شيء من البداية. خذ ، إشرب هذه القهوة، فانها تهدئ اضطرابك (يصب فنجاناً من القهوة ويعطيه لاري)

لاري (يضرب القهوة كلها) — اضطرابي ! نعم ! هكذا كانت الحكاية يا كيث — كانت هناك فتاة

كيث — نساء! دائماً نساء، ومعك ! حسن ؟

لاري — هي ماسحة أحذية . مات والدها ولم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها وتركها وحيدة . وكان يعيش معها في المنزل نفل (ولد زنا) فتزوجها أو ادعى ذلك . إنها جميلة جداً يا كيث . ثم تركها بعد أن أولدها طفلا فكادت تموت جوعاً ، فالتقطها آخر وعاش معها سنتين حتى رجع إليها ذلك الحيوان واضطرها إلى العيش معه وكان يضربها دائماً . ثم تركها ثانية حين لقيتها وكانت على استعداد للعيش مع أي إنسان (يتوقف ويمر يديه على شفتيه وهو ينظر إلى كيث ثم يتم حديثه متحدياً) وإني لأقسم أني لم أقابل امرأة أحلى ولا أصدق منها ، امرأة وهي لم تتجاوز العشرين ! ولما ذهبت إليها أمس كان ذلك الشيطان قد وجدها مرة أخرى فاندفع نحوي حيواناً كبيراً متوحشاً . أنظر ! (يلمس كدمة على جبهته) فأمسكت بعنقه القبيح ولما تركته — (يسكت وتسقط يداه إلى جانبيه)

كيث — ماذا ؟

لاري (بصوت مختنق) — كان ميتا يا كيث . ولم أعرف إلا أخيرا أنها كانت قد تعلقت برقبته هي الاخرى لتساعدني (يعصر يديه)

كيث (بصوت جاف) — ماذا فعلت بعد ذلك ؟

لاري — ج ... جلسنا بجانب الجثة طويلا

كيث — حسن ؟

لاري — ثم حملتها على ظهري ونزلت إلى الشارع

2017-11-11

وهناك فى ركن شارع تحت قنطرة تركتها

كيث — كم يبعد عن المنزل ؟

لارى — خمسين ياردة تقريبا .

كيث — هل ... هل رآك أحد ؟

لارى — لا

كيث — متى كان ذلك ؟

لارى — الساعة الثالثة بعد منتصف الليل

كيث — وبعد ذلك ؟

لارى — عدت إليها

كيث — لماذا ... بالله ؟

لارى — كانت وحيدة خائفة وكذلك كنت أنا يا كيث

كيث — أين تسكن ؟

لارى — ٤٢ ميدان بورو ... حى سوهو

كيث — والقنطرة أين تكون ؟

لارى — فى ركن شارع جلوف

كيث — ياإلهى ! لقد قرأت عنها فى جرائد الصباح . وتحدثوا عن الجريمة فى (الكورنر) (يأخذ جريدة من كرسيه ويتصفحها ثم يقرأ) لقد تحدثوا عنها ثانية (وجدت جثة رجل هذا الصباح تحت قنطرة شارع جلوف وتستطيع من تلك الآثار التي حول رقبته أن نظن ظنا يقرب من اليقين أن هذه اللعبة القذرة لم تقف عند حد وقد سرق ما كان يحمله القتيل) ياإلهى (ينتفض فجأة) هل رأيت ما كتب؟ وهل كنت تحلم بذلك؟ أتفهم يالارى ؟ أكنت تحلم بذلك ؟

لارى (فى توق شديد) — آه لو كنت يا كيث !

كيث (يفعل يديه كما يفعل أخوه) — هل أخذت شيئا من ال ... الجثة ؟

لارى (يخرج مظروفا من جيبه) لقد سقط منه هذا أثناء الشجار .

كيث (ينتزعه منه ويقرأ) « باتريك والين » أكان هذا اسمه ؟ « نزل شيبون ، شارع فارنر ، لندن »

(ينحي جهة الموقد ويضع المظروف فى النار) لا ! إن هذا يجعلني ... (ينحى ثانية لينتزعه من النار) (ولكنه لايحرك يديه ثم فجأة يدفعه بقدمه بعيدا) لماذا بالله جئت إلى هنا وأخبرتني بذلك ؟ ألا تعرف أنني . . . أنني على وشك الانتقال إلى مقاعد القضاء ؟

لارى (ببساطة) — نعم ، ويجب عليك أن تعرف ماذا أفعل ، لم أكن أقصد قتله يا كيث ، إنى أحب الفتاة ... أحبها . ماذا أفعل ؟

كيث — حب !

لارى (مندفعا) — حب!... هذا الخنزر القذر! مليون من المخلوقات تموت كل يوم وليس فيهم واحد يستحق الموت أكثر منه . ولكن ... ولكني أشعر به هنا (يلمس صدره عند مكان القلب) أشعر بشيء يقبض قلبي قبضا مخيفا يا كيث . ساعدني إن كنت تستطيع أيها العجوز . لعل لم أكن خيرا، ولكنني لم أوذ ذبابة إذا كنت أستطيع أن أقدم لها نفعا (يغطى وجهه بيديه)

كيث — تمالك نفسك يالارى ! دعنا نفكر للخروج من تلك الورطة . قلت إنه لم يرك أحد ؟

لارى — كان المكان مظلماً والليل ساكناً

كيث — متى تركت الفتاة بعد رجوعك إليها؟

لارى — فى الساعة السابعة تقريباً

كيث — إلى أين ذهبت ؟

لارى — إلى منزلي

كيث — شارع فنزروى ؟

لارى — نعم

كيث — وماذا فعلت بعد وصولك

2017-11-1

لارى — جلست هناك — أفكر

كيث — ألم تغادر المنزل ؟

لارى — كلا

كيث — ألم تر الفتاة ؟

لارى (يهز رأسه)

كيث — ألا يمكن أن تشى بك ؟

لارى — لا ، مطلقاً

كيث — أو تسلم نفسها إذا اضطربت أعصابها ؟

لارى — كلا

كيث — من يعرف علاقتك بها ؟

لارى — لا أحد

كيث — لا أحد ؟

لارى — لا أعرف يا كيث من يكون قد عرف ذلك

كيث — هل رآك أحد وقت ذهابك إليها أمس أول مرة ؟

لارى — كلا فإنها تسكن الدور الأرضى ومفاتيح غرفتها معى

كيث — أعطنيها

لارى (يخرج مفتاحين من جيبه ويسلمهما لأخيه ثم يقف) — لا أستطيع أن أبتعد عنها !

كيث — ماذا ؟ فتاة كهذه ؟

لارى (مندفعا) — نعم فتاة كهذه

كيث (يحرك يديه ليؤثر فى أخيه) — ماذا تحمل أيضاً مما يربطك بها ؟

لارى — لا شىء

كيث — ولا فى منزلك ؟

لارى (يهز رأسه)

كيث — صور أو رسائل ؟

لارى — لا شىء

كيث — أمتأكد أنت ؟

لارى — كل التأكد

كيث — ألم يرك أحد عند رجوعك إليها ؟

لارى (يهز رأسه)

كيث — ولا عند خروجك فى الصباح ؟ أظنك لا تستطيع التأكد من ذلك

لارى — أنا متأكد

كيث — إنك مجدود . اجلس يا رجل فيجب أن أفكر (يتجه إلى الموقد ويتكىء على رفه بيديه ثم يضع رأسه على يديه)

لارى (يطيع فيجلس)

كيث — هذا لا يليق . إنها وحشية

لارى (يتنهد) — نعم

كيث — هذا الـ « والن » — أكان ذلك ظهوره الأول منذ اختفى ؟

لارى — نعم

كيث — كيف استطاع الشور عليها ؟

لارى — لا أعرف

كيث (بشدة) فى أى حالة من السكر كنت ؟

لارى — لم أكن سكران

كيث — ماذا شربت ؟

لارى — قليلا من الكلاديث (نوع من الخمور الفرنسية)

كيث — قلت إنك لم تكن تقصد قتله

لارى — يعلم الله ذلك

كيث — هذا شىء

لارى — لقد أصابنى عدة إصابات (يرفع يديه)

2017-11-11

لم أكن أحسب أني على هذه القوة

كيت — قلت إنها تعلقت برقبته ، ما أقبح ذلك !

لارى — كانت خائفة من أجلي

كيت — أتعني أنها تحبك ؟

لارى (ببساطة) — نعم يا كيت

كيت (بوحشية) — أتستطيع امرأة مثل هذه أن تحب ؟

لارى (ثائراً) — يا إلهى ! أأنت شيطان متحجر ؟ ولم لا تحب ؟

كيت (جافا) — إنى أحاول أن أصل إلى الحقيقة. إذا كنت تريد مساعدتى فيجب أن أعرف كل شيء . ما الذى جعلك تظن أنها مغرمة بك ؟

لارى (بضحكة جنونية) — أوه ، أيها العماى ! ألم تحتوك امرأة من قبل بين أحضانها

كيت — إنى أتكلم عن « الحب »

لارى (بحدة) — وأنا كذلك فقد قلت لك إنها تحبنى . ألم تلتقط كلباً ضالا من الشارع قط ؟ حسن إنها تحبنى حب الكلب الضال صاحبه الذى التقطه ، وكذلك أنا . لقد التقط كل منا الآخر . لم أشعر نحو أى امرأة بما أشعر به نحوها . إنها منقذتى

كيت (يهز كتفيه) — لماذا اخترت هذه القنطرة ؟

لارى — كانت أول مكان مظلم قابلنى .

كيت — أكان يظهر على وجهه أنه قد خنق ؟

لارى — (يحنى رأسه)

كيت — أكان مشوها ؟

لارى — نعم

كيت — ألم تلاحظ أى علامات على ثيابه ؟

لارى — كلا ، لم ألاحظ

كيت — ولم لا ؟

لارى (بضيق) لست مصنوعاً من حديد مثلك ولم لا ؟ لو كنت أنت الذى قتلت !

كيت (ممسكا بيده) — قلت إنه كان مشوهاً ، فهل معرفته ممكنة ؟

لارى (متعبا) — لا أعرف

كيت — متى كانت تعيش معه فى المرة الأخيرة وأين ؟

لارى — أظنهما كانا يعيشان فى بليكو

كيت — لا فى حى سوهو ؟

لارى — (يهز رأسه)

كيت — منذ متى سكنت سوهو ؟

لارى — منذ سنة تقريباً

كيت — وكانت تعيش هذه العيشة ؟

لارى — حتى قابلتنى

كيت — حتى قابلتك ؟ أتستفد ؟

لارى (جافلا) — كيت !

كيت (يرفع يده ثانية) دائماً فى نفس المنزل ؟

لارى (ساكتا) — نعم

كيت — ما صناعته ؟ أهو مجرم معتاد الاجرام ؟

لارى — (يحنى رأسه)

كيت — أظنه يقضى معظم وقته فى الخارج

لارى — أظن ذلك

كيت — أتستطيع القول بأن رجال الشرطة يعرفونه

لارى — لم أسمع بذلك

كيت (يمضى فى الغرفة جيئة وذهاباً ثم يقف أمام لارى ويقول) — إستمع إلى الآن يا لارى . عندما تخرج من هنا إذهب رأساً إلى منزلك وامكث هناك حتى آذن لك بالخروج . عدنى بذلك

لارى — أعدك

كيت — لن تخلف وعدك

لارى (فى إحدى ثوراته) — ذلك المتردد كالماء لا يتقدم غيره

كيت — تماماً . ولكن إذا كنت تريد مساعدتى فافعل كما أطلب منك فانى أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير فيما يجب عمله . أمعك نقود ؟

لارى — قليل جدا

كيت (عابساً) — نعم ، دائماً نقودك ضائعة . لو كنت مضطراً إلى الهجرة — لاعليك ، سأدبر أمر النقود

لارى (متواضعاً) — إنك طيب مى يا كيت . إنك دائماً طيب منى ، ولا أعرف لماذا ؟

كيت (متهكماً) — إنها حقوق الأخوة كما يحدث دائماً . أفكر فى نفسى وفى أسرتى . ولا يمكن أن ترضى نفسك بقتل رجل دون أن تجر وراءك الخراب . يا إلهى ! لقد صنعت منى شريكا لك فى جريمتك ... أنا ... المستشار الملكى الذى أقسم ليخدمن القانون ، والذى فى مدى سنة أو سنتين سيتولى محاكمة أمثالك ! يا إلهى ! لقد دفعت بنفسك فى مأزق يا لارى

لارى (يخرج من جيبه صندوقاً صغيراً) — يجدر بى أن أنتهى من هذه الحياة

كيت — أيها المجنون ؟ أعطنى هذا

لارى (بابتسامة غريبة) — كلا (يمسك قرصا بين أصبعيه السبابة والابهام) سحر أبيض يا كيت ! واحد فقط ... وليفعلوا بك ما يريدون دون أن تحس بهم . يبعد عنك كل شعور بالعذاب . إنه راحة كبرى ! ألا تأخذ واحداً لتحفظه معك ؟

كيت — هيا يا لارى ! سلمنى هذا

لارى (يعيد الصندوق إلى جيبه) — لن أسلمه لك ! إنك لم تقتل رجلاً ، أترى ؟ (يضحك تلك الضحكة الجنونية) أتذكر تلك المطرقة التى قذفتنى بها ونحن صغيران ؟ لقد كنت محظوظاً ومنذاك . وكنت محظوظاً مرة أخرى فى نابلى فقد كدت أقتل حوذيًّا لضربه حصانه ضرباً مبرحاً . أما الآن ... ! يا إلهى ! (يغطى وجهه)

كيت (يتأثر من أقواله فيذهب إليه ويضع يده على كتفه) — هيا يا لارى ! كن شجاعاً !

لارى (ينظر إليه) — حسن يا كيت ، سأحاول

كيت — لا تترك منزلك ولا تشرب خمراً ولا تكلم أحداً وهدئ من روعك

لارى (يذهب إلى الباب) — لا تتركنى مدة طويلة دون مساعدتك يا كيت

كيت — لا لا ! تشجع !

لارى — (يصل إلى الباب ثم يلتفت إلى أخيه ليقول شيئا لكن الكلمات تخونه فيذهب دون أن يتكلم)

كيت (يتجه إلى الموقد) الشجاعة ! يا إلهى ! إنى أنا الذى سيحتاج إليها !

(ستار)

المنظر الثانى

(حجرة واسعة وهى بالدور الأرضى بحى سوهو الساعة الحادية عشرة تقريباً من الليلة التالية . لا يستطيع الناظر تمييز ما بالحجرة تماماً لأنها مضاءة بمصباح كهربائى واحد مغطى من جميع نواحيه . من جهة الشمال نار خامدة . وفى وسط الحائط الخلفى نافذة مغطاة بستار . وفى الجهة اليمنى باب الأثاث مكسو بغطاء من القماش وموبر غم رثاثته نظيف . بالحجرة أريكة بدون مساند خلفية أو جانبية وهى فى الوسط بين النافذة والموقد

(ترى واتدا جالسة على هذه الأريكة محدقة فى الرماد المحترق وهى لا تلبس إلا قميص النوم يغطيه روب وقد انتعلت فى قدميها العاريتين حذاء خفيفا وقد شبكت يديها فوق

2017-11-11

صدرها وأخذت تضغط بهما عليه . فأة تتحرك فتنظر أمامها وتتسمع . يظهر فى عينيها المرتجفتين سلامة الطوية . وجهها أبيض باهت وشعرها الأحمر الباهت المفصوص معقوف جهة رقبتها الحارية . عيناها السوداوان الخائفتان وشفتاها الورديتان الباهتتان تظهر وجهها وكأنه قناع أبيض ملون)

(خطوات فرحلى منتظمة تسمع خارج الحجرة ثم تتلاشى فتذهب واندا فى خطوات خائفة إلى النافذة حيث تزيح أحد شقى الستارة فيدخل منها شعاع دقيق من النور ثم تفتح بقية الستارة حتى يظهر خلالها شجرة كأنها ساحرة عجوز موجودة فى الميدان الذى يلى الشارع من الجهة الأخرى . تسمع الخطوات مرة أخرى وهى تقترب فترتمى واندا الستائر وترجع ثانية ولكن الخطوات تتلاشى . تقف واندا بين الأريكة والباب وتنظر إلى الأرض وكأنها تبحث عن شىء ثم ترتجف وتغطى عينيها . ترجع إلى الأريكة وتجلس كما كانت جالسة أولا لتحملق فى الرماد ، ومرة ثانية ترتجف لسماعها صوت فتح الباب الخارجى فتقوم مسرعة وتجرى ناحية الباب فتضغط الزر الكهربائى المجاور للباب فينطفئ النور ولكنا نستطيع تمييزها وهى واقفة تتسمع بجانب ستائر النافذة المظللة بواسطة نار الموقد)

(يسمع صوت طرق خفيف على باب الغرفة فتقف مذعورة لا تستطيع التنفس ، يعاد الطرق ثم يسمع صوت مفتاح يدار فى القفل فيفارقها الذعر ، يفتح الباب ويدخل رجل يلبس ثيابا سوداء ومعطفا من الفرو)

واندا — (فى صوت منقطع من الفرح تشوبه نبرة أجنبية) — أوه ! هذا أنت يا لارى ! لِمَ قرعت الباب ؟ قد أخفتنى . أدخل . (تذهب إليه فى سرعة وتحوط عنقه بذراعيها ثم تتراجع فجأة وتتكلم هامسة فى خوف) أوه ! من تكون ؟

كيت (فى صوت مختنق) — أحد أصدقاء لارى فلا تخافى

(تظل تتراجع حتى تصل إلى النافذة ، وعند ما يضىء كيت الغرفة تظهر واندا واقفة إلى جانب النافذة وقد أمسكت بالروب من فوق عنقها وظهرت على وجهها نظرة ذعر وكأنها فصلت من جثة ميت)

كيت (بلطف) — يجب ألا تخافى فانى لم آت لأوذيك بل على العكس تماما (يريها الفانيح) ألا ترين أن لارى لم يكن ليعطينى هذه الفانيح لو لم يكن واثقا بى ؟

واندا (ما زالت واقفة محلقة دون حراك وكأن روحها انتزعت من جسدها) —

كيت (بعد أن يلقى نظرة على ما حوله) — إن أسفى شديد لأنى أخفتك

واندا (هامسة) — من أنت ؟ أرجوك .

كيت — أنا أخو لارى

واندا (تتنهد بفرح مفاجىء ثم تذهب إلى الأريكة وترتمى عليها)

كيت (يذهب إليها) — لقد خبرنى

واندا (تقبض على عنقها بيديها) — ماذا ؟

كيت — شىء مخيف

واندا — نعم ، أوه ، نعم ! مخيف .. إنه لمخيف !

كيت (ينظر حوله ثانية) — فى هذه الغرفة ؟

واندا — فى نفس المكان الذى تقف فيه . إنى أراه الآن ، دائما أراه وهو يسقط

كيت (يثير من اليأس المحزن البادى فى صوتها) — إنك تبدو صغيرة السن ، ما اسمك ؟

واندا — واندا

كيت — أتحبين لارى ؟

واندا — إنى على استعداد للموت من أجله (لحظة صمت)

كيت — لقد... لقد حضرت لأرى ما الذى أنت على استعداد لفعله من أجله

واندا (بمهارة) — يجب ألا تخدعنى ، أأنت حقا أخوه ؟

كيت — إنى أقسم على ذلك

واندا (تشبك أصابعها) — لو كنت أستطيع أن أنقذه ! ألا تجلس؟

كيت (يجر كرسيا إلى مكانه ويجلس عليه) — هذا الرجل ... زوجك ، منذ متى لم تريه قبل هذه المرة ؟

واندا — منذ ثمانية عشر شهرا

كيت — وهل يعلم أحد ساكنى هـذا الحى أنك زوجته ؟

واندا — كلا، فقد جئت هنالأحيا حياةتعسة فلم يعرفنى أحد . إنى وحيدة تماما هنا .

كيت — لقد عرفوا شخصيته ... ألم تعرفى ذلك ؟

واندا — كلا ، فانى لم أجسر على الخروج

كيت — حسن. لقدعرفوه ومن الطبيعى أنهم سيبحثون عن كل من له صلة به .

واندا — لم يظهر للناس مطلقا أننى زوجته. وإنى لا أدرى إن كنت زوجته ... حقا ، فقـد أخذنى إلى أحدالكاتب حيث وقعنا بامضائينا . وإنى لأعتقد أنه فعل مع كثيرات غيرى مثل ذلك فانه رجل شرير .

كيت — هل رآه أحى قبل هذه المرة ؟

واندا — لا ، مطلقا ، وهوالذى بدأ أخاك بالعدوان

كيت — نعم فقد رأيت أثر الكدمة . أعندك خادم ؟

واندا — كلا، إلا امرأة تأتى كل يوم فى الساعة التاسعة صباحا لمدة ساعة واحدة

كيت — هل تعرف لارى ؟

واندا — كلا ، فانه يكون دائما خارج البيت وقت حضورها

كيت — ألك أصدقاء أو معارف ؟

واندا — كلا ، فقد كنت وحيدة تماما حتى قابلت أخاك . إنى لا أرى أحداً يا سيدى

كيت (بحدة) — أصادقة أنت ؟

واندا — أوه ، نعم ، إننى أحبه ، ولم يحضر أحد إلى هذه الغرفة منذ مدة طويلة غيره

كيت — كم تبلغ هذه المدة ؟

واندا — خمسة أشهر

كيت — إذن لم تبرحى الغرفة منذ الحادث ؟

واندا — (تهز رأسها)

كيت — وماذا كنت تفعلين ؟

واندا (ببساطة) — أبكى (تضغط يديهـا على صدرها) لقدوقع فى الخطر بسببى وإنى لجد خائفة عليه

كيت (يقاطعها) انظرى إلى

واندا — (تنظر إليه)

كيت — إذا فرضنا أسوأ الفروض وعرفوا أنك زوجه أتتعاهدينى على ألا تشى بلارى ؟

واندا (تنهض وتشير إلى النار) — انظر ! لقد أتلفت كل الأشياء التى أعطانى إياها حتى صورته ، ولم يبق عندي بعد ذلك شىء منه

كيت (يكون قد نهض هو أيضاً) — هذا حسن. لى سؤال آخر : هل يعرفك رجال الشرطة بسبب حياتك الخاصة ؟

واندا — (تواجهه بنظراتها وتهز رأسها)

كيت — أتعرفين أين يسكن لارى ؟

واندا — نعم

كيت — يجب ألا تذهبى إليه وألا يحضر هو إليك

واندا (تحنى رأسها ثم تلتفت تجاه إليه وتتضرع به) — أرجو ألا تأخذه منى إلى الأبد فسأكون

محترسة ولن أفعل شيئاً يجلب إليه الأذى ولكنني إذا لم أره بين وقت وآخر لا أستطيع الحياة . أرجو ألا تأخذه مني (تضغط يده بيديها في يأس)

كيت — اتركي لي هذا فسأعمل كل ما أمكنني عمله .

واندا (تنظر في وجهه) — ولكنك ستكون رؤوفاً (فجأة تنحني وتقبل يده فيجذبها منها ، فتتراجع خطوة في خضوع وهي تنظر إليه ثم فجأة تتمدل في وقفتها وتتسمم تقول) إسمع ! يوجد شخص في الخارج ! (تتركه سريعاً لتطفئ النور . تسمع طرقة على الباب . واندا وكيت يكونان أثناء الطريق قد انتصفا في وقفتهما بين الباب والنافذة)

واندا (هامسة) — أوه ! من يكون ؟

كيت (بصوت خافت) — لقد قلت إنه لا يحضر إلى هنا أحد إلا لاري

واندا — نعم ، وقد أخذت منه مفاتيحه . أوه ! لعله لاري ! يجب أن أفتح الباب !

كيت (يتراجع الى الحائط ويلتصق بها)

واندا (في هذه الأثناء تذهب إلى الباب تفتحه فتحة صغيرة) — نعم ؟ أرجوك من تكون ؟

(يظهر على الحائط شعاع من ضوء بطارية مصباح كهربائي ويسمع صوت شرطي)

الشرطي (من الخارج) — لا شيء يا آنسة ، غير أن الباب الخارجي مفتوح وأنت نعرفين أنه يجب إغلاقه بعد سقوط الليل

واندا — شكراً يا سيدي

(تسمع وقع خطوات مبتعدة وصوت إغلاق الباب الخارجي . واندا تغلق الباب) شرطي !

كيت (يترك الحائط) — يا للمنة ! لقد تركت الباب الخارجي مفتوحاً (فجأة يضيء المصباح) لقد أخبرتني أنهم لا يعرفونك

واندا (تتنهد) — أظن أنهم لا يعرفونني فإني لم أذهب إلى المدينة منذ مدة طويلة ، منذ عرفت لاري ...

كيت (ينظر إليها باسمان ثم يذهب إلى الموقد حيث يقف لحظة ناظراً إلى الارض ثم يلتفت إلى الفتاة التي تكون قد جلست على الأريكة ثانيا . يتكلم وكأنه يخاطب نفسه)

— بعد حياة مثل حياتك هذه من يصدق ... ؟ إستمعي إلي ، يجب أن ينقطع ما بيننا وأن ترحلي بعيداً . أتسمعين ؟ من المستحسن لأجله أن يترك كل منكما الآخر إلى الأبد

واندا (تئن أنة شديدة) — أوه ! يا سيدي ! أكتب علي ألا أحب لأن حياتي لم تكن طيبة ؟ لم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة حين أفسدني ذلك الرجل ، لو كنت تعرف ...

كيت — إني أفكر في لاري ، فإن الخطر عليه يتزايد بوجوده معك ، فمن الواجب أن تقطعي هذه الصلة التي بينكما . أتدرين إلى متى ؟ إلى يضعة شهور

واندا (تقف عند طرف الأريكة وتلمس عينيها بيديها) — آه يا سيدي ! ألا ترى أنه حقيقة حياتي . بالله لا تأخذه مني

كيت (يتحرك متحرجاً) — يجب أن تعرفي من يكون لاري . إنه لن يتصل بك إلى الأبد

واندا (ببساطة) — بل سيفعل يا سيدي

كيت (بقوة) — بل إنه آخر من يفعل ذلك من الرجال . ولكنه سيعرض حياته وشرف أسرته

للخطر لمجرد وهم طارىء . إنى أعرفه

واندا — كلا كلا . إنك لا تعرفه ، بل الذى يعرفه هو أنا

كيت — مهلاً مهلاً ! إنهم فى اللحظة التى يعرفون فيها صلتك بذلك الرجل وأنت مع لاري فى هذه اللحظة سيرتبط لارى بالجريمة ، ألا ترين ذلك ؟

واندا (تلتصق به) — ولكنه يحبنى ، أوه يا سيدى ! يحبنى !

كيت — لقد أحب لارى عشرات من النساء

واندا — نعم ، ولكن (ترتجف عضلات وجهها)

كيت (بخشونة) لا تبك ! أإذا أعطيتك قدراً من المال تختفين من طريقه ، لأجله ؟

واندا (تئن) — سيكون اختفائى فى الماء إذن حيث لا يوجد رجال متوحشون

كيت — آه ! لارى أولا نم أنت ثانياً ! استمعى إلىّ ، إنه من المصلحة لكليكما أن تفترقا لمدة شهور قليلة ، ستنسيان بعدها أنكما تقابلتما

واندا (تنظر إليه بوحشية) — سأذهب إذا قال لارى إنه يجب على أن أذهب ولكن لا لأعيش لا ! (ببساطة) لن أعيش يا سيدى

كيت - (يفكر فيظل ساكتا)

واندا — لن أعيش بدون لارى ، ما الذى يبقى لفتاة مثلى إذا ما أحبت وفشلت ؟ لقد انتهى كل شىء

كيت — أنا لا أريد أن تعودى إلى تلك الحياة

واندا — كلا ، بل أنت لا تهتم بما سأفعل ، ولِمَ تهتم ؟ لقد أخبرتك أننى سأذهب نزولا على إرادة لارى

كيت — هذا لا يكفى ، إنك تعرفين تماماً أنه يجب أن تنتزع هذا الأمر من يديه لأنه لن يضحى بحاضره فى سبيل مستقبله . لو كنت حقيقة تحبينه كما تقولين لساعدتنى على إنقاذه

واندا (بصوت منقطع) — نعم ، أوه ، نعم ! ولكن لا تبعده عنى كثيراً ، أتوسل إليك (تسقط على الأرض وتحيط ركبتيه بذراعيها)

كيت — حسن ، حسن ! انهضى

(تسمع دقة على زجاج النافذة)

اسمعى !

(يسمع صفير خافت له نغم خاص)

واندا (تثب واقفة) — لارى ، أوه ، شكرا يا إلهى ! (تجرى ناحية الباب وتفتحه وتخرج لتقابل لارى)

كيت (يقف منتظرا وقد واجه الباب المفتوح)

لارى (يدخل وواندا وراءه مباشرة) كيت !

كيت (عابثا) — لقد حافظت على وعدك فلم تغادر منزلك !

لارى — قد انتظرتك طول اليوم ولم أستطع البقاء أكثر من ذلك

كيت — تماما !

لارى — حسن ، ما هو الحكم بالحنى ؟ أهو نفى مدى الحياة وغرامة أربعين جنيهاً ؟

كيت — إذن فأنت تستطيع أن تقول تكاتا ، أليس كذلك ؟

لارى — يجب أن أفعل

كيت — ستسافرسفينة إلى الأرجنتين بعد غد فيجب أن تسافر عليها .

لارى (يلف ذراعه حول وندا وهى واقفة بلا حراك تنظر إليه) نحن الاثنان يا كيت ؟

2017-11-11

كيت — لا يمكن أن تذهبا معا ولكن سأرسلها فى السفينة التالية .

لارى — أتقسم ؟

كيت — نعم، إنك سعيد الحظ... فهم يقتفون أثرا خاطئا

لارى — ماذا ؟

كيت — ألم تر هذا الخبر ؟

لارى — لم أر شيئا فانى لم أقرأ أى جريدة

كيت — قبضوا على مجرم كان قد سرق الجثة ورهن خاتما ثمانى الشكل كانوا قد عرفوا شخصية هذا الـ (والن) عن طريقه . قد ذهبت إلى السجن ورأيته هناك متهما .

لارى — بالقتل ؟

واندا (بضعف) — لارى !

كيت — لا تخطر عليه فانهم دائما يقبضون على رجل غير القاتل ولن يضره أن يسجن عدة من الزمن .. على كل حال إن السجن أحسن له بكثير من النوم تحت قنطرة فى مثل هذا الجو

لارى — ما شكله يا كيت ؟

كيت — رجل صغير مصفر رث الهيئة أعرج غير حليق كأنه هولة . لقد كانوا مغفلين إذ اعتقدوا أن مثل هذا الرجل عنده قوة

لارى — ماذا ! (فى صوت مخيف) لماذا ؟ لقد رأيته — بعد أن تركتك فى الليلة الماضية

كيت — أنت ؟ أين ؟

لارى — عند القنطرة

كيت — أذهبت إلى هناك ؟

لارى — مقودا يا كيت

كيت — أنت مجنون فى اعتقادى

لارى — لقد حادثته فقال لى « شكرا لك على هذه المحادثة البسيطة ، إنها لا تقدر بمال عند «سيبى» الحظ أمثالى» . إنه رجل صغير مغبر وكأنه حيوان قذر وقد جاء أحد باثنى الصحف وقال : هذا حقيق ، فإن الحكومة وجدت الجثة فى نفس هذه البقعة التى تقفان فيها ولكنها لم تقبض على القاتل بعد » (يضحك بينما تتصنع به الفتاة المذعورة) رجل برىء !

كيت — قلت لك إنه ليس فى خطر ، من غير الممكن أن يكون قد خنق . ولماذا ، إنه لا يملك قوة هرة صغيرة . والآن يا لارى ، سأحجز لك مكانا على السفينة، وهاهى ذى النقود (يخرج من جيبه رزمة من الاوراق المالية ويضعها على الاريكة) تستطيعان أن تبدءا بها حياة جديدة ، كلا كما تحت الشمس

لارى (بهمس) تحت الشمس ! « كأس من الخمر وعجينتك » (فجأة) كيف أستطيع يا كيت ؟ يجب أن أرى أولا ما سيحل بهذا الشيطان المسكين

كيت — آه ! أسقط ذلك من خاطرك فإن الأدلة غير كافية لإدانته

لارى — غير كافية ؟

كيت — كلا ، لقد سنحت لك الفرصة فانتهزها كرجل

لارى (ترتسم على شفتيه ابتسامة غريبة ويخاطب الفتاة) — هل تفعل يا واندا ؟

واندا — أوه ، لارى !

لارى (يلتقط النقود) — خذها يا كيت

كيت — كيف ! لقد قلت لك إنه لا يوجد محلف يدينه ، وإن وجد لا يوجد ذلك القاضى الذى يحكم بإعدامه . إن القول الذى يسرق جثة ميت

ليستحق أن يسجن ، إن ما فعله أسوأ مما فعلت

لارى — هذا لا يكفى يا كيت ، يجب أن أرى النهاية بنفسى

كيت — لا تكن مجنوناً

لارى — إنى مازلت أملك مقداراً من الشرف ولن أستطيع الذهاب قبل أن أعرف النهاية ؛ وإن ذهبت فلن أحيا فى طمأنينة . خذها يا كيت وإلا فسأجعلها طعمة لنار الموقد

كيت (يأخذ النقود — بمرارة) — أرجو ألا تتغافل عن شرف اسمنا ، وإلا فلا يتفق ذلك مع مقدار الشرف الذى تملكه ؟

لارى (برفع رأسه) — إنى جد آسف يا كيت ، جد آسف أيها العجوز

كيت — إنك مدين لى ... ولشرف اسمنا ... ولذكرى أمنا المتوفاة ... يجب ألا تفعل شيئاً حتى نرى ما سيحدث

لارى — إنى عالم بذلك ولن أفعل شيئاً يا كيت حتى أستشيرك

كيت (يلتقط قبعته) — أأعتمد عليك فى ذلك ؟ (يصلق بشدة فى أخيه)

لارى — تستطيع ذلك

كيت — أتقسم ؟

لارى — أقسم

كيت — تذكر ، لا تفعل شيئا ، مساء الخير

لارى — مساء الخير

(يخرج كيت ويجلس على الاريكة ناظراً إلى النار بينما تذهب واندا إليه بهدوء وتلف ذراعها حوله)

وجل يرى !

واندا — أوه ، لارى ! ولكنك أنت أيضاً يرى ، ما احتياجنا إلى قتل ذلك الرجل ؟ لا شىء ! أوه ! قبلنى ! (يلتفت إليها تتقبل شفتيه) لقد عانيت كثيراً ... لأنى لم أرك ، لا تتركنى ثانية ، ابق معى ، ألا يكون جميلا بقاؤنا معاً ؟ أوه ! مسكين أنت يا لارى فإنك متعب كما يظهر عليك . ابق معى فإن هذه الوحدة تخيفنى ، كم أخاف أن أن يأخذوك منى

لارى — يا طفلتى المسكينة !

واندا — لا ، لا ! لا تظهر بهذا المظهر !

لارى — إنك ترتعدين

واندا — سأشعل النار ، حبى يا لارى ! فإنى فى حاجة إلى النسيان

لارى — لقد سجنوا ذلك الرجل التعس ، أتعس مخلوق على الأرض بسببى ! سجنوا حيواناً صغيراً متوحشاً حيث يروح ويغدو فى قفص ، يروح ويغدو ... ألا ترينه ؟ إنه يبحث عن مكان يعترضه ليفتح لنفسه طريقاً إلى الخارج ... ذلك الفأر الأخير (يقف ويأخذ فى المشى ذهاباً وجيئة)

واندا — لا لا ! إنى لا أحتمل هذا ! أقصر عن ذلك فإنك تخيفنى

لارى (يرجع إليها ويأخذها بين ذراعيه) — رويدك رويدك ! (يقبل عينيها المغلقتين)

واندا (بدون حراك) — لو كنا ننام قليلا ... ألا تستحسن ذلك ؟

لارى — النوم ؟

واندا (ترفع نفسها) — عدنى أن تبقى معى ... تبقى هنا دائما ، لارى ، سأطبخ لك وسأجعل حياتك مريحة . سيجدونه بريئا وعندئذ ... أوه ، لارى ! .. فى الشمس ... هناك بعيدا ... بعيدا عن هذا البلاد

الخيفة ... ما أجمل هذا ! (تحاول أن تدعه ينظر إليها)

لارى ! .

لارى (يحاول أن يبعدها عنه) — إلى حافة العالم ثم ... تتخطاها !

واندا — لالا ! لالا ! إنك لا تريد لى الموت يالارى ، أليس كذلك ؟ سأموت إن تركتنى ... دعنا نعيش سعداء ... حبنى

لارى (ضاحكا) — آه ! فلنعش سعداء ولننس هذا الرجل . من يعيننا ؟ ملايين من الناس يتألمون لغير سبب معقول ، فلنكن أقوياء ككيت . كلا ! لن أتركك ياواندا . دعينا ننسى كل شىء إلا أنفسنا (فجأة) هناك يذهب ... يروح ويغدو !

واندا (تئن) — لالا ! أنظر ! سأصلى للعذراء عليها ترحمنا ! (تسقط على ركبتيها وتشبك يديها وتصلى محركة شفتيها)

لارى (يقف بلا حراك وقد عقد يديه على صدره وظهر على وجهه الشوق والحنين ، والهزء والسخرية ، والحب ، واليأس ... يهمس) صلى لأجلنا ! صلى كثيرا !

واندا (فجأة تمد يديها وترفع رأسها وقد طبعت على وجهها نظرة ذهول وشغف)

لارى — ماذا ؟

واندا — إنها تبتسم ! سنسعد سريعا .

لارى (ينحنى عليها) — ياطفلتى المسكينة ! عند ما نموت ياواندا ... دعينا نموت سوياً كى نظل فى دفء ونحن فى عالم الظلام

واندا (ترفع يديها إلى وجهه) — نعم ، أوه ، نعم ! إذا مت فلن أستطيع ... لن أستطيع البقاء فى هذه الدنيا !

(ستار)

المنظر الثالث

(بعد حوادث المنظر الثانى بشهرين)

حجرة واندا — يكاد ضوء الشمس أن يغيب فى أحد أيام يناير — المائدة معدة للعشاء وقد وضعت عليها قناني الخمر)

(تظهر واندا واقفة بجانب النافذة تنظر إلى أشجار الميدان القريب الشتوية)

(يسمع صوت بآب صحف يقترب شيئا شيئا)

الصوت — جرائد ! قتيل شارع جلوف ! المحاكمة والحكم (يكرر) الحكم ! جرائد !

واندا — (تفتح النافذة وكأنها تريد أن تناديه ثم تتراجع وتغلق النافذة وتجرى ناحية الباب . تفتحه ولكنها ترتد إلى داخل الحجرة لأن كيت كان واقفا هناك)

كيت — (يدخل) أين لارى ؟

واندا — ذهب ليرى المحاكمة ولم أستطع منعه.

المحاكمة أوه ! ماذا حدث هناك يا سيدى ؟

كيت (بوحشية) — مجرم ! حكم عليه بالاعدام ! مجانين ! بلهاء !

واندا — الاعدام ! (يظهر عليها كأنها فارت الاغماء)

كيت — أيتها الفتاة ! أيتها الفتاة ! إن كل شىء يتوقف عليك . ولارى ، أما يزال عائشاً هنا ؟

واندا — نعم

كيت — يجب أن أنتظره

واندا — ألا تتفضل بالجلوس ؟

كيت (يهز رأسه) — أأنت على استعداد للسفر إلى الخارج فى أى وقت ؟

واندا — نعم نعم ، إنى دائماً على استعداد

كيت — وهو ؟

واندا — نعم ولكن الآن ! ماذا يفعل ؟ ذلك الرجل المسكين !

كيت — هى مقابر. خول !

واندا — ربما كان جائعاً . كنت جائعة يوماً . إنك فى حالة الجوع تفعل أشياء ما كنت لتفعلها وأنت فى حالتك الطبيعية . لقد فكر فيه لاري كثيراً وفكر فى حالته وهو فى السجن، أوه ! ماذا نفعل الآن ؟

كيت — اسمعى ! ساعديني . لا تدعى لارى يبتعد عن نظرك . يجب أن أرى كيفية سير الأمور. لا يمكن أن يشنقوا ذلك البائس (يقبض على يديها) والآن يجب أن نمنع لارى من أن يسلم نفسه . إنه مجنون ، أتفهمين ؟

واندا — نعم ولكن لماذا لم يأت بعد ؟ أوه ! لو كان قد سلم نفسه وانتهى الأمر !

كيت (يترك يدها) — يا إلهى ! لو أتى رجال الشرطة ورأونى هنا (يتجه إلى الباب) كلا ، لا يمكن أن يفعل ذلك بدون أن يرانى أولا . من المؤكد أن يمحض. راقبيه كأنه مسجون، لا تدعيه يخرج بدونك

واندا (تضبك ذراعيها على صدرها) — سأحاول يا سيدى

كيت — أنصتى

(يسمع صوت مفتاح يدار فى القفل)

لارى (يدخل وقد حل بأقة من الزنبق الفرنفلى والورد الأبيض — لا يبدو على وجهه شئ)

كيت (ينقل بصره بين لارى والفتاة الواقفة دون حراك)

لارى — كيت ! إذن فقد رأيت ؟

كيت — لا يمكن أن تستمر الحالة هكذا وسأقف هذا الأمر بكل الطرق ولكن يجب أن تفسح لى الوقت يا لارى

لارى (بهدوء) — أما تزال تعنى بشرفك يا كيت ؟

كيت (غاضبة) — فلتكن آراؤك فى عقل وتفكيرى كما تريد

واندا (بنعومة) — لارى

لارى (يحيطها بذراعه) — آسف أيها العجوز

كيت — يستطيع الرجل الخلاص ، وسينجو، فقط عدني ألا تسلم نفسك أوحتى تخرج من المنزل ثانية .

لارى — أعدك

كيت (يجيل بصره فيهما) — أتقسم بذكرى والدتنا؟

لارى (مبتسما) — أقسم

كيت — لقد أقسمتما لى ... كلا كما .

وهأنذا أذهب تواً لأرى ماذا يمكن فعله

لارى (بنعومة) — حظ سعيد يا أختى .

(يخرج كيت)

واندا (تضع يديها على صدر لارى) — ما معنى كل هذا؟

لارى — العشاء يا طفلتى ... لم أذق طعاما طول يوم . ضعى هذه الزنبقات فى الماء

واندا (تطيعه فتأخذ الزنبقات وتضعها فى الماء)

لارى (يضع كمية من الخمر فى إناء زجاجى عميق ملون ويشربها) لقد تحتمنا زمنا يا واندا ، فان أحسن زمن مر على طول حياتى هو هذان الشهران وليس علينا الآن إلا أن ندفع الثمن

واندا (تمسك يأس) — أوه ، لارى ! لارى!

لارى (يبعدها عنه وهو يمسك بها ليلقى عليها نظرة فاحصة) — ارمى عنك كل هذه الأشياء والبسى ملابس العرس

2017-11-11

واندا — عدني أن تصحبني إلى أيّ مكان تذهب إليه . عدني ! أنظني يا لاري أني لم ألاحظ شيئاً كل هذه الأسابيع ، كلا يا لاري لقد لاحظت وعرفت كل شيء حتى ما لم تبح به وأبقيته في قلبك إنك لا تستطيع أن تخفي عني فاني قد عرفت ، عرفت ! أوه ، لو كنا نذهب إلى هناك لنعيش تحت الشمس ، أوه يا لاري ! ألا نستطيع ؟ (تحاول أن تلتقي عيناها بعينيه — ثم ترتعش) حسن ! إذا كان لابد من دنيا الظلام فاني لا يهمني إلا أن أذهب وأنا بين ذراعيك . لن نكون في السجن معا . إني على استعداد للذهاب ولكن أحبني أولا . لا تدعني أبكي قبل الذهاب ، أوه يا لاري ! هل سأتألم كثيرا ؟

لاري (بصوت مختنق) — لا ألم يا حبيبتي .

واندا (تتنهد) — ترحمنا الله

لاري — لو كنت رأيته كما رأيته طول اليوم وهو يتعذب ، واندا ، يجب أن نرحل عن هذه الدنيا (يبدأ تأثير الخمر في الظهور) سنكون أحراراً في دنيا الظلام ، أحرارا من وحشيتهم الملعونة . إني أكره هذه الحياة ... أمقتها ! أكره عالمها المهجور المتوحش ، أكره كبرياءها واعتزالها ووحدتها ! حياة كيت ... وجميع الأتقياء الأقوياء الناجحين . نحن لا نستطيع العيش في هذه الدنيا ، أنت وأنا .. فانا لم نخلق لها ... نحن غير أقوياء ، نحن ضعيفا الإرادة ... إن الموت أحسن لنا من أي شيء آخر . لا تخش شيئا يا كيت فلن أترك المنزل ! (يصب بعض الخمر في كأسين) اشربي

واندا (تعطيه وتشرب كأسها)

لاري (يشرب هو أيضا) — والآن اذهبي وتجملي .

واندا (تلف يديها حوله) أوه ، لاري !

لاري (يلمس وجهها وشعرها) — سيشتق حتى تفارق الروح جسده ... قصاصا لما فعلته أنا .

واندا (تنظر في وجهه نظرة طويلة ثم تتركه وتذهب خارجة خلال الستائر القرمزية من الموقد)

لاري (يبحث في جيبه ثم يخرج الصندوق الصغير فيفتحه ويشير إلى الأقراص البيضاء) اثنان لكل منا ... بعد الأكل (يضحك ويرجع الصندوق إلى جيبه) أوه ! يا فتاتي !

(صوت موسيقى خفيفة تبث السرور إلى النفس ، تعزف على بيانو بعيد ، يدمدم ثم يحتاق في النار) لعيب ... لعيب يتلألأ ... ثم يصير هشيما . « لا شيء بعد ذلك ، لاشيء ، فقدمات القمر ؛ وذهب الناس جميعا فيه » (يجلس على الأريكة وقد وضع قطعة من الورق على ركبتيه فيضيف إلى ما هو مكتوب بها بعض كلمات أخرى)

واندا (ترجع خلال الستائر وقد لبست ثوبا حريريا . تلاحظ لاري أثناء دخولها)

لاري (ينظر إليها) — كل شيء هنا ... فقد اعترفت (يقرأ) : « رجاؤنا أن ندخن سوياً . لورانس دارانت ٢٨ يناير ، الساعة السادسة مساء تقريباً » . سيجدوننا في الصباح ، تعالي نأكل يا حبيبتي

(تتقدم الفتاة ببطء . يقوم ويلف ذراعه حولها فتلف ذراعها حوله . يبتسم كل منهما وهو ينظر إلى الآخر . يذهبان إلى المائدة ويجلسان . تنزل الستار لمدة ثوان قليلة لتدل على مرور ثلاث ساعات ، وعند ما ترفع يكون الحبيبان ناعمين على الأريكة وقد احتضن كل منهما الآخر وانتشرت حولهما الزينات ويكون ذراع الفتاة العاري ملقى حول عنق لاري وعيناها مغلقتان ، أما عيناه فتكونان مفتوحتين دون إبصار . الحجرة مظلمة إلا من الضوء الذي تبثه نار الموقد . طرق على الباب وصوت مفتاح يدار في قفل الباب)

2017-11-11

كيت (يدخل ثم يقف لحظة لا يدري ماذا يفعل فى هذا الضوء الخافت ثم ينادى بحدة) — لارى

(يضيء النور فلما يرى من على الاريكة يتراجع لحظة ثم ينظر إلى المائدة والفناني الخالية فيذهب إلى الاريكة وهو يتمتم) — ناكان ! سكراكان ! آه !

(تجاه يمنى ويلمس لارى ثم يقفز إلى الوراء) :

— ماذا ؟ !

(ينحنى ثانية فيهز رأسه وهو ينادى) :

— لارى ! لارى !

(ثم دون أن يتحرك ينظر إلى عينى أخيه المفتوحتين اللتين لا تبصرانه وفجأة يسلل أصبعه ويمرره على شفتى الفتاة ثم على شفتى لارى) — لارى !

(ينحنى ليتسمع دقات قلبيهما فيرى الصندوق بينهما فيمسكه بيده) — يا إلهى !

(يقوم متثاقلا ثم يغلق عينى أخيه وبينما هو يفعل ذلك يقع نظره على ورقة ملصقة بالاريكة فينتزعها ويقرأ) :

« أنا ، لوراس دارنت ، على وشك الموت منتحراً ، أعترف أنى ... »

(ثم قراءة الخطاب وهو صامت وقد تملكه الرعب فلما ينتهى تسقط الورقة من يده ويتراجع عن الاريكة حتى يصل إلى كرسى موضوع أمام مائدة العشاء فيجلس عليه وهو ذاهل . فجأة يتمتم) :

— يا إلهى ! إن فيها الدمار !

(يمسكها وكأنه يريد أن يمزقها ثم يكف عن ذلك وينظر إلى الاثنين فيغطى وجهه بيده ويترك الورقة تسقط على الارض ويندفع نحو الباب ، ولكنه يقف عند الباب ويرجع وكأن هذه الورقة مغناطيس يجذبه إليه فيأخذ الورقة ويضعها فى جيبه

سوت خطوات شرطى خارج الحجرة بطيئة منتظمة. يتجمد وجه كيت ويرتعش ويتسمع حتى يتلاشى الصوت فينتزع الورقة من جيبه ويذهب إلى الموقد) :

— كل ... لا ، فليشنق !

يلقى الورقة فى النار ويدوسها بقدمه ويأخذ فى ملاحظتها وهى تتلوى وتسود . وفجأة يقبض على رأسه ويدور ليظر إلى الجسدين على الاريكة وهو يلهث كرجل مختل الشعور ثم يذهب إلى رأس الأريكة ويدفع نحو النافذة فيرفع الستائر ويفتح النافذة طلبا للهواء . تظهر الشجرة فى الخارج وكأنها هيكل عظمى لساحرة عجوز وكأن شخصا هناك يشنق فيتراجع كيت)

ما هذا ؟ ماذا ... !

(يغلق النافذة ويرخى الستائر)

مجنون ! لا شئ !

(يضغط قبضتى يديه كل يد بالأخرى حتى يستعيد ثباته ويهدئ نفسه بكل ما يستطيع من قوة . ثم يذهب فى بطء إلى الباب حيث يقف لحظة وكأنه تمثال بوجه جامد كأنه قد من حجر . وفى هدوء يطفئ النور ويفتح الباب ويخرج. الجسدان لايزالان كما هما راقدين أمام النار التى مازالت تسرى فى بقية الخطاب المسود)

(ستار — انتهت)

سامى الناقص

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى النصر لوسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى حزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان — عابدين)



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على مدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء اساليب البلاغة العربية

بمجموعة اعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪


٤٩
الرواية

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
التبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣٩ — ٦ رجب سنة ١٣٥٧ — أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العدد

			صفحة
العدل والانتقام	للكاتب ألبرت ريتشارد ويتجي ...	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة	٧٩٤
هيكل عظمي	لشاعر الهند وفيلسوفها رابندرانات تاجور	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج	٨٠٠
الخادم	للكاتب العظيم سيميونوف	بقلم الأديب نصري عطا الله سوس	٨٠٥
الآية المكسورة	مترجمة عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...	٨٠٩
موت الحب	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ	٨١٦
مفارقات الشارع	للكاتب الأمريكي دون ماركيز ..	بقلم الأديب محمد محمود دوارة	٨٢٣
ذكرى حب	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب عبد الحليم محمود المشيري	٨٣١
ابن تاراس بولبا	للكاتب الروسي غوغول	بقلم الأديب ابراهيم زين الدين ...	٨٣٨

2017-11-1

العدل والانتقام

للكاتب الفرنسي هنري بوردو
نقلا عن الأستاذ محمد لطفي جمعه

لقد علمت ذلك السر العظيم من شفتي الشقي الصريع وهو على فراش موته، فلو أنني أذعته، وهو ما يسوغه العدل والشرف، لضاعفت هذه الاذاعة عبء الكرب والبلاء على الفتاة التي هي أحب خلق الله إليّ وأعزهم على نفسي، والذين حسبهم ما هم فيه من هم وغم. فهل كان يليق بي أن أجلب الخزي والعار والفضيحة والارتباك على جميع أولئك الذين كانت تربطني بهم أواصر الحب والوداد، ولهم في عنقي أطواق وأرباق، لكثرة ما أولوني من منن وآلاء؟

لقد تدبرت الأمر، وعرضته على ضميري أثناء كان الشقي الصريع يؤدي اعترافه ساعة النزع، فرأيت الطمع والاغراء ومعهما العدل نفسه في صف، ولكنني رأيت الحب والأمانة وعرفان الجميل في صف آخر. فكانت هذه أغلب على قلبي وأحوز للبي. ولما انجلى غبار هذه الموقعة العنيفة عن فؤادي توهج ضميري بشعاع مؤنس من الفرح والسعادة، وبكيت سروراً إذ جعلت أحمد الله الذي وفقني إلى اختيار تلك الخطة. لقد قتل ولكنه كان من قبل قاتلاً.

كنت أعلم أن هذا الحي من أحياء لندن، مأهولا بالأعيان وذوي المكانة العالية، وأن الكثرة الغالبة من ساكني قصوره السعيدة ومنازله الفاخرة ذات الحدائق الناضرة والبساتين المشرقة، ويظهرون أمام المجتمع في أبهى الحلل وأجمل الفاتن، متخذين لزينتهم أغلى الحلى وأرفع الملابس، ويقيمون الليالي الساهرة والأمسيات الراقصة ويحيون حفلات الشاي والكوكتيل، تتلوها المآدب والولائم فترمقهم الأعين بالاجلال والاكبار، وتؤخذ بهم الأنفس بين الغبطة والدهشة والحسد والانبهار ... من كان يظن أن هؤلاء السادة وأولئك السيدات ليسوا سوى مجرمين وجناة وآفاقيين متزينين بأزياء الأعيان واللوردات والبارونات. منهن من تؤجر للاتجار بالسموم والمخدرات، ومنهم من يؤجر على القتل بدراهم معدودة. وأظن هذه السيدة التي فقدت زوجها غدراً واغتيالا هي التي سمعتها في أحد أركان الحانة تخاطب رجل الأسرار بصوت خافت وأنفاس مختنقة وعينين دامعتين وقلب دام:

«أين زوجي يا بوردو؟ رد عليّ زوجي! كيف وقفت جوف الليل تنظر إليه وهو يقتل؟ بل كيف أفلت منك الخائن الذي جناها؟ فأراد بوردو أن يتناول يد السيدة التي تخاطبه، ولكن تلك السيدة المجهولة انثنت عنه ووضعت قناعها ثانية واتكأت على المنضدة. وكان وجهها ممتقعاً شاحباً كما بدا لي من وراء القناع. وأما عيناها وأطنهما كانتا في السادة حاوتين رفيقتين فقد وجهتا إلى بوردو نظرة تفجع وتوجع، وتأسف وتأفف، لم يطقها بوردو على جفوته وقسوته وجموده وكنوده وجحوده، فزوى وجهه عن تلك النظرات اللافذات. وكان على مقربة منا رجل وامرأة يتحادثان فقالت المرأة للرجل:

— نعم لك أن تلقى بي في الهاوية ، أو تدعني أندهور من حالق إلى الدرك الأسفل من حضيض الحياة بعد أن استغلتني أنت وأصحابك

— لقد أحسنت إليك بقدر ما استطعت إلى ذلك سبيلا ثم جاء دور غيرك . فعليك أن تخضع لأحكام القضاء والقدر ، وتلك الأيام يا ليلى نداولها بين الناس ، فلا تطمعي في أنصبة الناس بعد أن نلت نصيبك

ليلى — سأعمل على فضيحتكم ، وأظهر العالم على طريقة إجرامكم وكيف تأخذوننا نحن الفتيات من السوق فقيرات فتخلعون علينا ألقاب الشرف الكاذبة بين لادى هاجرة لوردها ، وباروتة من بارونها هادية . ثم ...

فقال لها : إنك تسرفين الثمن الذي تدفعينه نقداً وعداً إذا شئت أن تستمتعي بتلك الخيانة

ثم غرق صوتهما في عباب الضوضاء . وسمعت السيدة المقنعة تعود إلى تعنيف صاحبها الذي كانت تدعوه بوردرو قالت :

— لم تقل لي يا بوردرو الأمين ، يا بوردرو الوفي كيف أفلت منك الخائن الذي جناها ، وأنت بطل بيتنا ومانع حوزته ، وأنت الذي كنت ترى أنك تضحي حياتك في سبيلنا ، وأنت الذي كنت مناط حبنا وثقتنا ..؟

ليلى — أريد أن تختفي ، إنك لا تملك ذلك في حانة عامة ، إن هذا المكان حافل بالشرطة السرية ورجال الخفية من كل لون ورتبة ودرجة ، ولعل واحداً أو اثنين أو أكثر يلتقفون الأقوال من أفواهنا . لقد خلعت عليّ العقود والجواهر والخواتم والأقراط ، فخليّت بها جيدي وصدري وأنامل ومعاصمي وأنا لا أعلم أنها زائفة إلا بعد أن تخاصم عني واضطررت لرهن بعضها وبيع البعض الآخر ، فإذا بها لا تساوي فلساً . لقد أرغمتني على الاتجار بالخدرات سنوات عدة بعد أن طليتني ودهنتني حتى صرت كواحدة من نجوم المجتمع اللامعة . تخرج الرجل الذي كانت توجه إليه هذا اللوم بالصمت عن لا ونعم !

وتأملها بعد أن سمت امتعاضها وهو : ليلى[1] وأنعم النظر في جسمها الذي لا فضول فيه فأسفت على ما أصابها ، ولم أكن أملك لها خيراً ولا شراً

وبعد أن طال صمت الرجل عقيب تهديده انفجر مرة أخرى وقال لها : عهدي بك رزينة يا ليلى كأختك فيليس[2] ولكنك الليلة تعملين بالمثل السائر : « من راقه بدنه ، كشف عن محاسنه ، ومن أعجبته رنات صوته رفع عقيرته » وقد اخترت لرفع عقيرتك مكاناً عاماً ، وهو فخ لأمثالي وأمثالك ، ومصيدة ...

وفي تلك اللحظة فتح باب الحانة وظهر فيه سواد مستر ميكائيل آرلين المؤلف الشهير ، فخفت أن يتعرف عليّ فيهتك ستار التخفي الذي كنت متزوياً وراءه . فحولت وجهي ناحية أخرى وإن كنت واثقاً من تجميل ممارق في الزي الذي كنت به على أفسق الناس بي . ولحسن حظي رأيت مستر ميكائيل آرلين قد اتجه إلى طائفة من الشباب اللاهين كانت تجمعهم تلك الحانة للعبث واللهو والمجون . وكان ذهن هذا المؤلف سريع الالتفات إلى معاني

(١) فلة زهرية بيضاء عبقة
(٢) اسم انثوي بمعنى غصن

المرأة . وكانت أعصابه قوية الانفعال بحديث النساء ولا سيما بعد أن نشر قصة « حتى الدودة تستطيع أن تسعى لرزقها » فقد آلمت عواطف صديقاته من بنات إسرائيل ... حتى الدودة تستطيع أن تسعى . لقد كانت قصة بشعة . إنها تدور حول قصر فاخر تقطنه أسرة إسرائيلية غنية ، فدعى إليه مرات فنشيه زائراً ورواقصاً ومقامراً ومنازلاً ، فاتضح له أمر عجيب وهو أن أهل القصر يعرضون شرائط صور متحركة فيها مناظر لا توصف ، وقد يتلو العرض نوع من الأرجيات الأغريقية والرومانية ، وقد أثرى صاحب الدار وكان اسمه ليفيكو فصار لورلفيكار أوف جيبتار بفضل من سبقوه إلى مراتب المجد أمثال سيمون ميكلنبرج وأولان مندلبرج وولف ساندولباوم وناثان كيرزون هاندلسون وجويل مايزنشتاين

فلم يشغل مرأى المؤلف بالي أكثر من لحظة ، ثم تنقلب صوت المرأة المقنعة على صوت من عداها وهي تقول لبوردرو :

— لماذا دخلت بيني وبين زوجي ؟ إنك لم تهدنا سوى الحزن والكمد والندم . لقد مكنت منه عدوه حتى قتله .. الندم الأليم جزاء ودنا ورحمتنا . ألم تك طفلاً يتيماً أول ما رأيتك ورآك هو الذي كان غاية في البر والنبل وحسن النية . وقد كان من رأيه إرسالك إلى جهة أخري ولكني سألته أن يبقيك حماقة مني وسفها ، وادعيت أنك تعجبنا وصدقتك

فقطع بوردرو صمته بكلمة واحدة فقال :

— لقد كنت صغيراً لا أعي شيئاً ولا أميز الخير من الشر ، ولا أفرق بين الجوزة والثمرة .

فقالت السيدة :

بالرغم من صغر سنك إذ ذاك ومن ضعفك وانفرادك فلقد كنت توجست شراً في استبقائك وبلاء . ولقد قرأت أسارير وجهك ونظرت في أعماق عينيك فرأيت فيها شواهد النكر ودلائل السوء ، وقد وقع المحذور والمكروه وكنت عليمة بوقوعه .

فقال بوردرو : فلِمَ لم تدفني عنه مادمت عليمة بوقوع المكروه كما تزعمين ؟

فقالت : ولِمَ لم تمت أنت ، إذ أسابك الجدري وكنت أعودك بنفسي وأنت في هذيان محّاك لاتسرفي حتى جعلت تناديني وأنا بجانبك . فكل ما أصابني منذ ذلك الوقت هو جزاء العدالة ، أصاب قلبي الخبيث ، قلبي النيور الخبيث . ويلي ثم ويلي ، لقد لقيت العقوبة ، لقيت أصرم العقوبة ، فهاك زوجي يتخبط في دمائه ، قد قتل وأنت بجانبه ولكنك لا تريد أن تدل على قاتله .

في هذه اللحظة الرهيبة نظرت فلم أجد ليلي ولا صاحبها أو خانقها الذي كان يتوعدها بالقتل إن هي وشت به وجماعته وعصابته ، وكان الشرطيان بيل شاندلر وسيايك موليجان أحدهما يحتال في ثوبه الرسمي ، والآخر في زي أهل الفراغ والجدة ، وهما يراقبان « الطيور الجارحة » من القتلة وأهل السطو الخفي والمتجرين بالمخدرات . حتى ناقوس الرقص إيذاناً بنهاية اللف والدوران والجاز بند في الدور الأول . وبمدهنيهة عادت الموسيقى إلى التوقيع وامتلأت الحلقة المستديرة بالراقصين وبدأ تموجو من نوع جديد وبدأ كذلك اللمس والهمس والنمز واللمز ووزن الخطى على الأنغام

وفجأة تقدم خادم إلى بيل شاندلر الشرطي الرسمي وهمس في أذنه خبراً هاما فذهب الشرطي إلى خزانة المسرة (كشك التليفون) ثم عاد منه مسرعا وخرج

2017-11-11

إلى الطريق . فسأله صاحب الحانة مستر ما كيردو ، أشهر « بوص » فى ماربل آرش قائلا :

— حادث مهم يا حضرة الكونستابل ؟

— أى نعم ، فقد قتلت الفتاة ليلى أوميجان هايل وهى الآن جثة هامدة على إفريز الشارع ، وقد طعنت فى قلبها بخنجر منذ هنيهة كأن قاتلها كان ينتظر خروجها من الباب .

وكان المؤلف ميكائيل آرلين يصغى إلى كل كلمة تدور فى الحديث بين صاحب الحانة وصاحب الشرطة ، يكاد يرشف الألفاظ حرفاً حرفاً ، ويتتبع المعانى خبراً صرفاً ، وحتى لتراه وهو يستمع إلى حديثهما عن المرأة القتيل ، واليد الخفية التى طعنت ، والقلب الصخرى الذى قسا ، والفكر الخبيث الذى دبر مصرع المرأة ، كأنما يخيل إليه أنه يرى قصة ما يسمع ، وأنه يشهد حادثة لا يصغى إلى حديث . ولا ريب فى أنه كان يضمر وضع قصة طريفة يجمع لها الشاهد ويحشد لها الأقاويل كالنحلة التى تجنى من كل زهرة قطرة ، ثم يزين له الخيال ما يزين فيضيف من وحيه إلى ما سمع مالم يسمع . وكان يستزيد مما يسمع وهو مصغ ملذوذ فيحمل صاحب الحانة والشرطى على الاطناب والاسترسال ، حتى ينفض جملة ما فى نفسه من رواية الواقع أو مبتدعات الخيال

ولكن الشرطى كان مجولاً . بعد أن أنحى خبر الفاجعة إلى المركز العام لم تبرأ ذمته ، ولن تبرأ حتى يجمع الأدلة ويدونها فى كناشته . كذلك المؤلف ميكائيل آرلين فقد أخذ يدون ما سمع فى مفكرته ...

وإنه لكذلك منهمك فى كتابة ما وصل إلى سمعه وذهنه من الأسماء والوقائع ، إذا بمستر دارك نابط أو فجاردر ، ذلك المحقق الخطير الذى يرتبض فى «فيلا سافوار تروث» بأعلى قمة فى مقاطعة نورفولك ولا يرد عاصمة البلاد إلا نادراً . ولا يكون وروده إلا مؤذناً بأمر من أهم الأمور فى عالم الجنايات الخفية ، عالم الظلام والجريمة ، وقد استفاضت شهرته فى عواصم أوربا وأمريكا الشمالية حتى كسفت شمسه كواكب الشهرة العالمية التى عرف بها أرسين لوبان ورافلز وموريس هيوبت ... فلم يكن يضارعه أو يفوقه قليلاً سوى أستاذه ومرشده ومعلمه الأول شيرلوك هولز ، ولكن هولز قد قضى نحبه قبل موت صاحبه بأعوام وقد خلا الجو لدارك نابط أو فجاردر فلا منافس ولا مبارز ، وقد ساعدته طوالع الحظ السعيد فأظهر حذقاً ومهارة تكاد تكون من المعجزات ، لا من نبوغ الفن فى كشف الجرائم

فمقدت النواصى على الاعجاب بدارك نابط وصار بطل الساعة ، وخصم اسكوتلانديارد الألد ، لأن رأيه أن ينقض مايبرمونه وينقى مايثبتونه ، ويكتب ما يقطعون بصحته ولا يبالى ، لأنه لا يلبث أن يقيم الأدلة الحاسمة على صدق نظره وصواب رأيه . ومن ذلك لم تتوانى دهشة ولم يأخذنى عجب إذ رأيت هذه السيدة الفتنة تلجأ إلى دارك نابط فتهمد إليه بقضيتها ليكشف بقوة ذكائه الخارق أسرارها الغامضة ، فيرشدها إلى الجانى الذى تحوم حوله شبهاتها ، ولا تستطيع أن تقيم عليه الدليل

***

تبدأ حوادث هذه الجريمة فى بلدة نيدلهام من

مقاطعة بوركشير حيث توطنت أسرة كبيرة العدد من نيف وثلاثين عاماً ، وانقطع أعضاء تلك الأسرة إلى الزرع والضرع والحرث والغرس والري والسقيا والجمع والحصد ، والاتجار فى الحبوب والأنعام والأصواف ، وتربية الدواجن ، وترويض الجياد لكسب قصب السبق فى مضمار داربى القريب من موطنهم . وبالجملة كانوا أسرة لا تعرف اللهو واللعب ، ولا تضيع الأوقات فى غير ما يعود على أفرادها بالخير والمنفعة ، حتى أصبحوا مثالاً يحتذى وقدوة تتبع فى الجد والاجتهاد والحرص على المال والحذق فى تكوين الثروة . وكان أرجوس كوبلاند براكنبرى أظهر أفرادها مشهوراً بالشدة ، فكثر عدد أعدائه الذين يضمرون له السوء ويخفون نية الانتقام لثارات لا يعلمها إلا ذووها ممن ربوها فى صدورهم ونموها فى أفئدتهم . ومن العجب العاجب أنه لم يسمع قط يتلفظ بكلمة خشنة ، ولكنه كان لا يتبذل مع أتباعه ، وكان يتلطف فى معاملة الأمة السوداء كما يتلطف فى معاملة الأميرة العصماء ، ولم يكن يخطر ببال أحد أن يتجرأ عليه تجرؤاً منكراً . وكان أرجوس كوبلاند براكنبرى يضطر أشد الخلق سلفاً وكبراً إلى الكف عن غلوائه بما يصوب إليه من قوارص التهكم ، فقد كان له فى ذلك مذهب يجعل الناس منه على أشد المخافة والحذر . ومما قيل عنه إنه كان يحب الترؤس على كل مجلس يضمه

وفى مساء يوم من الأيام سمع أهل البلدة التى كان يقيم فيها ذلك الرجل وهى نيد لهام بمقاطعة يوركشير طلقات نارية تترى ، فلما زال الجمود الذى يتلو وقوع الكارثة ، وقضى على الدهشة التى تعقب كبار الحوادث هرع الناس إلى مصدرها ومرجع صداها فاذا بهذا الزعيم العائلى ، ورئيس الأسرة الجادة المجدة ممعراً بتراب الأرض مضرجاً بدمائه ، مكفناً بثيابه التى كان يختال فيها منذ برهة . ولم يعثروا فى مكان القتل على أثر للفاعل الشرير الذى انتهز بلا ريب خلو المكان ، فصوب فوهة طبنجته إلى صدر الرجل ضامناً القضاء عليه حتى لا يشي به ولا يبوح باسمه

واتصل الخبر برجال الشرطة وأعوان سكوتلاند يارد ، وكان من نحيتهم ما يكون فى مثل تلك الحال فانتقلوا بقضهم وقضيضهم وأدوات بحثهم وآلات فحصهم ، وبثوا عيونهم وأرصادهم ووزعوا آذانهم توزيع الماء فى الفيضان ، ولكنهم وا أسفا عادوا بالخيبة وباؤوا بالحسرة ولم يوفقوا إلى إثبات التهمة على أحد . غير أن واحداً من أقوى أعداء الرجل حامت حوله الشبهات وكان صديقاً حميما لبوردردو الذى رباه القتيل وأنفق عليه وتعهده منذ الصبا إلى تمام الرجولة وجعله موضع ثقته وموطن أمانته . ولكن بوردردو الذى لا تشك أسرة الصريع فى علمه بشخصية القاتل وقدرته على إقامة الأدلة على جنايته ، غادر البلدة ولم يعد إليها وفضل أن يعيش على هامش الحياة فى لندن ، على أن يقضى بقية أيامه فى مستقط رأسه ومستقر أصدقائه وموالية ومن بينهم تلك السيدة ، وهي لا تزال دائبة فى البحث والتنقيب ، وقد ضرب لها دارك نايط وجفاردر موعداً فى هذه الحانة ليتمكن من رؤية الرجل الذى تظن أنه يعرف قاتل زوجها . فلما دخل من الباب ووقع بصره على الرجل والمرأة التى تحاول تليين قلبه ليعترف لها بما يعلم تقديراً لجميلها وجميل زوجها فى معاملته تجاهلهما ثم خرج وعاد متربياً بزى سكير

لا يفيق وإن يكن من أهل الأناقة ، وأومأ إلى السيدة أن تنتهي فتنتحي ، وجلس إلى جانب بوردرو الذي لم يعرفه

وتبادلا النظرات فالحديث فالمحادثة . وبدأ دارك نايط يروي لبوردرو بعض حوادث من مبتدعات الخيال يوهمه أنها من مغامراته وأنه كان بطلها إلى أن سأل لاعب بوردرو ، فروى له الحادثة الآتية : لو أسرعت الخطى منذ هنيهة لاصطدمت هنا بامرأة تتهمني بالقتل وأنا منه بريء وتتذلل إليّ وتستعطفني وتستفتي وتذكرني بالماضي السحيق . وقد قتل زوجها ولم يكن إلا قاتلا رجلا آخر استولى على ثروته وكان من الحذق بحيث لم يكشف عن جريمته أحد ، ومضى على هذه الجريمة أعوام وأشهر وأيام ، وظن القاتل وهو زوج تلك المرأة الملحة أن ستار النسيان قد أسدل على الجريمة والمجرم ... ولكن شقيق القتيل كان لا يزال يذكرها معاً ، وكان يعد الأيام والساعات ويحصي الدقائق والثواني ويتحفز للانتقام ممن اعتقده قاتل أخيه، وكان يمهله ولا يهمله ، كأنه القضاء المبرم ، وكأن القضاء المبرم أراد أن ينزل به في أسعد أوقات حياته ، فاتصل به وصادقه وصافاه ، حتى أمن القاتل جانبه ، ونصح إليه بالزواج فتزوج وشاركه أفراحه ، وصحبه إلى باب غرفة الزفاف كأعز صديق يقضي مع صديقه آخر أوقات العزوبة ليشاركه مسراته

ولما سنحت له فرصة القضاء عليه وهو على أتم ما يكون صحة ومالا وجاهاً وأمناً على نفسه وفرحاً بزوجته وولده ، استل روحه من بين جنبيه

فضحك دارك نايط وهو يتظاهر بالسكر وقال : وما دخلك أنت أيها الغبي في هذا الأمر ؟ لا يد لك فيما نبت يداك . لا تحدثني عن نفسك إلا حديثا فيه قتل كنت أنت بطله .

فقال بوردرو : إنك لم تفهم شيئاً . ألم أقل لك إن الشقيق هو الذي قتل وإنني الذي مهدت سبيل القتل ، باختيار الساعة التي كان فيها القتيل وحيداً والطريق خالياً . وقد كان نصيبي من تلك الحادثة مكافأة قبضتها بعد مرور عام على حفظها في سجل الشرطة ونسيتها مؤقتاً إلى قاتل مجهول فأرقت أسرة دارك نايط ولمت عيناه . وقال له :

وما عليك إذا كنت تصيب مكافأة جديدة لا يعرف سبيلها سواي ؟

فملق بوردرو في محدثه ، فاستمر الرجل :

— أي نعم ، أكتب تقريراً مطولا يبعث به أحد أصدقائنا إلى رجال الشرطة فينحونك منحة لا بأس بها ، ولا غبار عليك ولا حرج . فضحك بوردرو حتى بانت نواجذه . . وقال : لقد كتبت ورقة كهذه واجتهدت أن أدفع عن نفسي المسئولية ما أمكن ذلك . وها كها :

فضحك دارك نايط وقال : وأنا أعددت لك المكافأة وها كها . وأخرج من جيبه « جامعة » الحديد ، وقبل أن يستفيق بوردرو من دهشته ، ليدرك ما حل به كانت يداه مقيدتين في الأغلال وكان رهن رجال الشرطة الذين كانوا يحيطون به من كل جانب .

وكان المؤلف ميكائيل آرلين يرهف السمع ويصوب البصر ليقف على هذا الحادث الجديد بالتفصيل، فما كان يصبر على أن تفوته طرائف الحانات في هذه الليلة الحافلة بالحوادث

محمد لطفي جمعه

2017-11-11

هيكل عظمي

لفيلسوف الهند وشاعرها رابندرانات

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

كان في الغرفة المجاورة لغرفة نوم الأطفال هيكل عظمي معلق يفزعهم حينما تعبث به الريح وفي النهار كنا نسر بالاصطدام به

وكان في هذا الوقت طالب من مدرسة الطب بكامبيل يعلمنا تشريح العظام لأن أوصياءنا كانوا يزعمون أنهم ينقشون في عقولنا العلم التام. ليت شعري لأي حد نجحوا؟ ولاحاجة لأن نقول ذلك لن يعرفنا. والأفضل بلا شك أن نلتزم الصمت أمام من يجهلنا

وقد كرت الأعوام واختفى الهيكل العظمي من الغرفة كما اختفى تشريح العظام من ذاكرتنا دون أن يترك أي أثر

ازدحم منزلنا أخيراً بالمدعوين فاضطررت أن أتخلى الليل في تلك الغرفة التي كان معلقاً بها الهيكل العظمي والتي انقضى الزمن الذي كنت آلفها فيه. حاولت النوم بكل وسيلة فلم أستطع، أخذت أتقلب وأعد دقات ساعة الكنيسة طوال الليل ... طبق مصباحي يختلج لحظة ثم انطفأ، وقد فقدت أسرتنا بعض أعضائها حديثاً، وهذا ما اقتاد فكري نحو الموت ...

ساءلت نفسي ألا يشبه نور المصباح الذي يبقيه في الظلمات من مسرح الحياة العظيم ضوء حياتنا الضئيلة الذي لايلبث أن ينطفئ في كل ساعة من الليل أو النهار؟

ولتداعي الفكر عاودتني ذكرى الهيكل العظمي، وبينا أنا أتصور شكل الجسم الذي كان يكسو تلك العظام، شعرت أن شخصاً يدور حول سريري يسير متسكعاً بجانب الحائط، ولقد شعرت بتنفسه السريع، وخيل إلي أنه يبحث عن شيء لا يجده ويدور حول الغرفة بخطى سريعة

ولقد خدعت في الحقيقة من شيء خلقه مخي المضطرب الذي حرم نومه، وظننت أن وقع الأقدام التي سمعتها ما هو إلا دقات شرايين في صدغي، ورغم ذلك شعرت بارتعاد مشلج ... ولأطرد من خيالي هذا الهذيان صحت بأعلى صوتي: «من هناك؟» فأحسست بأن الخطى وقفت بجانب سريري وأجابني صوت: «أنا الطارق وقد أقبلت لأختبر هيكلي العظمي»

ومن السخف أن يظهر الانسان الحلم والخوف من خيال بسيط، ثم اكتفيت بأني أضغط على وسادتي وأصبح بلهجة مخالفة للأولى: «إن هذا الشاغل الذي افتادك في مثل هذه الساعة من الليل لمضحك؟ وماذا يهمك هذا الهيكل العظمي»

ويظهر أن الجواب انبعث من كياني نفسها: «إن عظام هذا الهيكل قد أحاطت قلبي ورأت محاسن شباب الخلابة في ربيعها السادس والعشرين! وكيف أقاوم الرغبة الملحة في رؤيتها ثانية؟»

فقلت له بدوري: «إنها لرغبة شرعية فتم بحنك واتركني لشأني عساني أجد النوم»

فرد الصوت : « إخالك وحدك وأود أن أجالسك لحظة نتسامر فيها . لقد كان يسرني أن أساجل الناس الحديث ولكني لم ألق في هذه الخمسة والثلاثين سنة الأخيرة إلا الأنين فوق نيران الموت ، وما أحيل أن أحادث اليوم رجلاً مثل العهد السابق »

وقد شعرت أن شخصاً أقبل وجلس بجانب ستائري فاستلمت واستمعت بتوددي قائلا :

— ما أعظم ابتهاجي وسروري للسمر ولنبحث سوياً عن موضوع شائق نتحدث فيه ...

— إني لا أجد موضوعاً مسلياً أعظم من قصتي الشخصية فهل تسمح لي بسردها ؟

وقد دقت في هذه الآونة ساعة الكنيسة الثانية صباحاً .

قال الصوت : « حينما كنت في عنفوان شبابي وكنت أقطن بين الأحياء سبب لي أحد الناس فزعاً ورعباً يفوقان رعب الموت : ولم يكن ذاك غير زوجي . وإني لا أجد ما أقارن به شعوري غير السمك المعلق في سن الشمس فكأن شخصاً أجنبياً ألقى بشص عنيف وانتزعني من دار طفولتي السعيدة حتى كنت لا أستطيع أن أفكر في الخلاص ولقد مات زوجي بعد الزفاف بشهرين بينما كان أقاربي وأصدقائي يبكون بكاء مراً لحظي التعس المنكود . وفي ذات يوم قال حمى لحاني بعد ما أطال النظر إلى وجهي : « ألا ترين أن زوج ابنتنا لها عين سوء سائبة حاسدة ؟ » هل أنت مصغ إليّ ؟ وهل يهمك حديثي ؟

— يهمني جداً وإن أوله ليدل على أنه شائق مسل !

— أنعم إذن حديثي . ولقد عدت إلى بيت أبي بكل سرور . ولو إن البيئة التي كنت فيها ما كانت تشعر بشيء من محاسني لكنني كنت واثقة من أنني أحوز جمالا رائعاً نادراً . فما رأيك ؟

— هذا شيء معقول جداً ، ولكن لا تنسي أنني لم أرك قط

— قط ؟ وماذا تعمل بهيكلي العظمي ؟ ها ! ها ! هذا لا يهم فإني أمزح

وكيف أجعلك تتصور أنه كان في هذين التجويفين اللذين تجردا من لحمهما عينان سوداوان يتلألآن بأنواع السحر والفتنة ؟ أو أن الابتسام الذي كان يضيء هاتين الشفتين الورديتين لا يشبه في شيء هيئة الضحك العابس التي عرفتها ، وعند ما أذكر كل المحاسن والرشاقة ومتانة هاته الانحناآت التي كانت في شرخ الشباب تتفتح كالأزهار فوق هذه العظام النخرة لا أستطيع أن أكتم ابتساماً . وإني لأتألم من ذلك . وهل يستطيع مشاهير العلماء في زمن أن يفرضوا أن عظام جسم مثل هذا تخصص لدراسة تشريح العظام ؟ واعلم أن طبيباً من الشبان المجاورين لنا شهي بزهرة (الشمباك) الذهبية ؟

وحينما أمشي كنت أشعر بأن أقل حركاتي تفجر أمواجاً منسجمة تنبثث من كل سوب كلآلاء الماس . وكانت تمر عليّ ساعات وأنا أشاهد في يدي اللتين كبلتا برشاقة الرجال الذين يتأجج فيهم نشاطهم

ولكن هذا الهيكل العظمي قد أخفى عنك الحقيقة كشهادة الزور ، ولم يكن في ميسوري أن أدحض تأكيداته الوقحة . إني أشعر أني أحب

أن أطرد النعاس من عينيك إلى الأبد بأن أستحضر أمامك الصورة الوردية الحية لجمالي بحيث أمحو من أمامك كومة العظام المشؤومة التي تملأ ذهنك

— كنت أستطيع أن أقسم بجسمك إذا كان لم يزل حياً ، ولو أنه لم يترك منه أي أثر من العظام لكن عقلي قد اقتنع بالصورة الوضاءة لجمالك كامل يظهر بهاءه بقوة التضاد هذا الليل الفاحم الذي يحيط بها ، وإني لا أقدر أن أقول أكثر من هذا

— استمر الصوت في حديثه قائلا : لم تكن لي صاحبات لأن أخي الوحيد صمم على عدم الزواج . كنت وحدي في خدري ، وقد اعتدت أن أستلقي في الحديقة في ظل شجرة ، وكانت الأحلام تستدرجني في يقظتي حتى خلت أن العالم كله قد شغفه حبي وأن الدراري التي ما فتئت مستيقظة على الدوام لتشمل من نشوة بهائي ، إن الصبا لتتهيد حينما تنتحل لها عذراً لتتمسح بي بجناحها . وإن داست قدمي مرجاً فإن مجرد اللمس يفقده رشده . وإن فتيان العالم يظهرون أمامي كأنهم أعواد الكلأ تحت قدمي ، ولا أدري لأي سبب يلازمني الحزن والكآبة

وحينما تخرج شيكهار صديق أخي من مدرسة الطب أصبح طبيب أسرتنا ، وقد لمحته عدة مرات مختبئاً وراء ستار . وكان أخي رجلاً غريب الأطوار لا يهتم بالنظر إلى العالم الخارجي ، وكان بوده ألا تكون الدنيا مقفرة ويتمدد بالتدريج إلى أن يقبع في ركن مظلم ، كان شيكهار صديقه الوحيد الذي أتاحت لي الفرص مقابلته ، وفي بلاط المفتونين بحبي الذي كنت أتخيله في أوقات نزهتي الليلية كان كل شاب مشتت الفكر عند قدمي يستمر وجه شيكهار . هل أنت مصغ إلي ؟ وما قولك في قصتي هذه ؟ »

فأجبت وقد سبقت لساني زفرة :

« وددت لو كنت شيكهار ! »

— انتظر قليلاً وأصغ أولا لآخر الحديث ، وفي ذات يوم مطير أصابني الحمى فجاء الطبيب يعودني ، وكانت هذه أول محادثة جرت بيننا . كنت راقدة أمام النافذة وقد لطف ضوء الشمس عند غروبها بياض لوني ، وحينما نظر إلى الطبيب وضعت نفسي مكانه وطفقت أنظر إليه مغرقة في التصور والتأمل ، وشاهدت وجهي الشاحب في ضوء الأصيل موضوعاً فوق الوسادة البيضاء كزهرة ذابلة وحلقات شعري الحمي تسبب بجبيني بينا أجفاني مطرقة باستحياء ناشرة ظلا مميراً فوق سحنتي

سأل الطبيب أخي والحياء يلجم لسانه ويخفض من صوته : « أتسمح لي أن أجس نبضها ؟ »

« أخرجت من تحت الغطاء قبضة مستديرة مدنفة ولاحظت حينما تفرست فيها أنها عاطل من سوار الصغير ! »(١)

لم أر في حياتي أجمل من هذا الطبيب في جس النبض . كانت أصابعه ترتعد حينما تمس ذراعي ، فإن قاس درجة الحمى في جسمي فإني شعرت بدقات قلبه وقسمتها من أصابعه — هل وعيت حديثي ؟

فقلت : بكل سهولة ، إن دقات قلوبنا تعبر عن أفكارنا

— وبعد عدة وعكات وكثير من الشفاء والعافية وجدت أن عدد المفتونين الذي يؤمون بلاط حبي الخيالي آخذاً في النقص حتى انتهى إلى فرد واحد وفي النهاية استحال عالمي الصغير إلى طبيب ودنفة

(١) من عادات الهنود أن الأيامى لا يلبسن غير الثياب البيضاء ويكن عاطلات من الحلي

وبمناسبة مقابلتي اعتدت أن ألبس سراً طيلسانا أصفر وكنت أعقد حول شعري عقداً أبيض من أزهار الياسمين ، ثم أتناول مرآتي وأذهب إلى مكاني الذي ألفته تحت الأشجار

. إنك ترى بلا شك أن مشاهدة جمالنا في المرآة يكون على ممر الزمن مملا ؟ ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل لأني لا أنظر بعيني نفسها لأني كنت في الوقت نفسه أحد الشخصين فكنت أختبر كما يختبر الطبيب وكنت أطيل النظر وأفتنن وأشتعل بنار الحب . ورغماً من انتباهي وحذري أغار أين على فؤادي وسمع له صوت كنسيم الصبا في السماء

ومن هذا العهد كففت عن الشعور بالوحدة وفي أثناء نزهتي كنت أتتبع بنظراتي عبث أصابع رجلي الصغيرة الرقيقة بالرمال الناعمة ، وكنت أسائل نفسي ماذا يكون شعور الدكتور لو كان حاضراً . كنت أمثل الشمس وقت الزوال مغيرة على الزرقاء بنورها الوهاج ، ولم يكسر صفاء السكون غير صياح متقطع لنسر بعيد وصوت وراء سياج الحديقة لبائع خواتم من البلور وهو ينادي نداء شجياً ! فرشت على الكلأ ملاءة بيضاء لأستلقي عليها وأسندت رأسي إلى ذراعي وأرخت ذراعي الأخرى فوق الملاءة بشكل رشيق ، وقد تخيلت أن شخصاً يأتي لاحظ وضع يدي الشائقة فشد عليها بين يديه ووضع في راحتي قبلة ذهبية وابتعد يبطء . وإن وقفنا الحديث هنا فما رأيك ؟

— « يكاد يكون ختاماً مقبولا » وقد أجبتها بلهجة حالم . قالت : وستبقى الصورة ناقصة قليلا ولكني سأقضي بقية الليل في إصلاح هذا النقص

— ولكنها تكون جافة . وكيف تدخل فيها الضحك ! وكيف تصل إلى جعل الهيكل العظمي يضحك ويذكر ملامحه ؟

— دعني الآن أتم الحديث ، وما أن وجد الطبيب بعض المرضى حتى أخذ غرفة أرضية من منزلنا وأعدها لعيادته . وفي هذا الزمن كنت ألهو بسؤاله عن تأثير المقاقير والسموم والكمية الكافية لقتل رجل ، فكانت هذه الأسئلة ملائمة لطبيعته فأجاب عليها بفصاحة ولباقة ، وكان من نتيجة هذه المحادثات أن صارت عندي فكرة الموت عادية لا تثير أي اهتمام ، وبذلك توطن الحب والموت عالي الباطني . إن حديثي قد قارب النهاية لأننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة

— كما أننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة من الليل

— وقد لاحظت بعد مدة من الزمن قلقاً غريباً يساور الطبيب وظهر عليه كأنه يخجل من أمر يريد أن يخفيه عني . وقد حضر مرة بثياب فاخرة وهندام ظريف ليستعير عربة أخي

« كنت فريسة لتطلع شديد فصممت على سؤال أخي . وبعد أن دار بيننا الحديث من الشرق إلى الغرب قلت له : خبرني بالحقيقة يا أخي ، أين يذهب الطبيب الليلة في عربتك ؟

فأجاب أخي باختصار : « إلى الموت »

— خبرني بكل صراحة أين ذهب ؟

— « ذهب ليتزوج » وقد أجاب أخي بطريقة أكثر وضوحاً

— أحقاً ما تقول ! وقد تفوهت هذه الكلمة مصحوبة بقهقهة طويلة

وقد علمت في آخر الأمر أن الخطيب كانت غنية وورثت ميراثاً عظيما سيغدق على الطبيب ثروة طائلة ولكن لم أهانني باخفائه هذا المشروع ؟ هلا سألته يوماً أن لا يتزوج حتى لا يعصى فؤادي ؟ ولكن الرجال لا يؤتمنون . لم أعترف في حياتي إلا رجلاً

2017-11-11

واحداً ، ولكن لحظة كانت كافية لكشف هذه الحقيقة .

ولما رجع الطبيب من عمله وتهيأ للرحيل قلت له والضحك يغالبني : « ستتزوج فى هذا المساء أيها الطبيب ؟ »

— إن فرحى قد أربكه بل زاده غيظاً وحنقاً

— ماذا جرى فانى لا أرى الأور كستر ؟

— فأجاب بتأوه : هل الزواج حادث مفرح ؟

« عاودني ضحك عنيف لا يغلب ثم قلت له :

لا ! لا ! فذاك من المستحيل أن يملن زفاف دون أضواء وموسيقى !

ثم ضايقت أختى حتى أعد معدات العرس وجعله بهيجا سارا .

ولم انقطع لحظة عن التندر بالخطب وعن الوقائع التى ستمر بها وعن حالتى تلقاء هذه الواردة الجديدة .

— خبرني أيها الطبيب ، هل ستستمر فى جس نبض مرضاك ؟

يخ يخ ! ولو أن عمل العقل الباطن غير منظور لاسيما عند الرجال فانى أستطيع أن أؤكد بأن قول سيمسى فؤاد محدثى كالخراب الفولاذية .

إن الزواج سيشهر بعد قليل فى الليل وقبل الذهاب شرب الطبيب هو وأخى كاسا من النبيذ كعادتهما اليومية ، وفى هذا الوقت طلع القمر

« ثم ثابت حدثنى قائلة والابتسام يعلو وجهى : هل نسيت زواجك ؟ قد آن المسير »

وقد فانني بعض التفصيل ، فانى قبل هذه الآونة قد هرولت إلى العيادة وأخذت منها مسحوقا ووضعته خفية فى كأس الطبيب .

لقد أفرغ الطبيب كأسه بمهلة واحدة ثم قال لى بصوت متهدج من التأثر مسحوب بنظرة اخترقت فؤادى : «سأذهب» . ابتدأت الموسيقى بأنغامها الشجية ، ثم ذهبت إلى مخدرى ولبست ثوب الزفاف المنسوج من خيوط الذهب والفضة وتزينت بحلي ووضعت على شعرى العلامة الحمراء التى تميز الزوج وذهبت إلى الأشجار لأهيىء مضجعى .

وكان الليل شائقا وقد ذهبت رياح الجنوب المنعشة بتعاسب الدنيا وقد تضوع شذا الياسمين والورد حتى غمر البستان البشر والفرح

وكانت أصوات الموسيقى تصل إلى سمعى أضعف مما كانت عليه وطفق لألاء القمر آخذا فى النقص وانحجت من ذاكرتى الدنيا وسورة بيت الأسرة كأنها وهم تبدد ثم أغمضت عينى وأنا مبتسمة .

وقد تخيلت أن الذين سيقبلون لمشاهدة بسمتى الأخيرة المنطبعة على شفتى كأنها آثار نبيذ وردى ، وأنى سأدخل فى مخدع زفافى الدائم ووجهى مضيء بنفس ابتسامه .

وأسفاه على مخدع زفافى وثوب عرسى المنسوج من الزخرف والدجين ! لأنى حينما استيقظت من قرقعة العظام التى يخيل إلى أنها صادرة من هيكلى العظمى وجدتنى فى حضرة ثلاثة غلمان يتعلمون تشريح العظام فى هيكلى . وفى هذا الصدر الذي كانت تخفق فيه أفراحى وأتراحى والذى تفتحت فيه وريقات زهرة صباى كان المعلم يبين بسبابته عظاما واحدة فواحدة . هلا وجدت أثرا من هذا الابتسام الذى درسته بكل عناية ؟

وكيف وجدت قصتى ؟

— إنها للذيذة محبوبة .

وفى هذه الآونة ابتدأ ينعق أول غراب

ثم سألت : « هل أنت هنا ؟ »

فلم يرد على أحد

واخترقت أشعة الصباح مخدعى فأضاءته .

محمد كامل حجاج

2017-11-1

الخـــادم

للأديب العظيم سميرنوف

بقلم الأديب نصرى عطاالله سوس

— ١ —

عاد جيرازيم إلى موسكو حين كان يتعذر الحصول على عمل فيها ، وذلك قبل عيد الميلاد بأيام قلائل . وفى هذه الفترة كان كل عامل يتمسك بعمله مهما كان حقيراً ، طمعاً فى الحصول على هدية من مخدومه . وهكذا قضى الشاب الفلاح ثلاثة أسابيع دائباً فى البحث عن مهنة ولـكنه لم يوفق

وكان يعيش مع أقاربه وأصدقائه الذين نزحوا من قريته. ولم يكن فى فقر مدقع، ولـكنه كان يتم لرؤية شاب قوى مثله يحيا بغير عمل

وقد عاش جيرازيم فى موسـكو منذ حداثته . وعند ما كان طفلاً كان يشتغل بشل الأوانى فى معمل من معامل البيرة ، ثم اشتغل بعد ذلك خادماً فى أحد المنـازل . وفى السنتين الأخيرتين كان يعاون أحد التجار ، ولولا أنه دعى إلى قريته لسبب يتعلق بالخدمة العسكرية لبقى حيث كان الى الآن. ولسبب ما لم يقبل جيرازيم جندياً. ولما لم يكن معتاداً حياة الريف فقد بدت القرية لعينيه فى حلة من الـكآبة ، وصمم على الرجوع إلى موسكو مهما كانت النتائج

وكل دقيقـة تمر كانت تزيد ماله من جوب الطرقات فى فراغ وبطالة . ولم يترك جيرازيم أى سبيل للعمل إلا طرقها . ولقد ضايق جميع معارفه بالحافه ، وأحياناً كان يتصدى للمارة ويسألهم إذا كانوا يعرفون سبيلاً إلى عمل خال

ولم يعد يحتمل جيرازيم أن يكون عالة على الناس . وقد أصبح وجوده يغيظ بعض مضيفيه . وتمرض بعض الخدم الذين كان ينزل عليهم لتأنيب مخدوميهم إياه بسببه . لقد كان فى حيرة تامة لا يدرى ماذا يفعل ، وأحياناً كان يجوب الطرقات النهار كله دون أن يتناول طعاماً ...

— ٢ —

فى أحد الأيام ذهب جيرازيم إلى صديق له من أبناء قريته ، يعيش على حدود موسكو . وكان هذا الصديق حوذياً عند رجل يدعى شاروف ، وقد مضى عليه أعوام كثيرة فى خدمته شاروف ، وقد أطلع فى أن يستحوذ على عجبة سيده فأصبح يأمنه على كل شىء ويبدى له دلائل الرضا . ولعل لسانه الفتيق هو الذى كسب له ثقة سيده فقد كان يثني بكل الخدم ، وكان شاروف يقدره من أجل ذلك

وتقدم جيرازيم وحياه؛ واستقبل الحوذى صديقه استقبالاً مناسباً وقدم إليه شاياً وبعض الطعام ثم سأله عما يفعله فأجابه :

— فى أسوأ الأحوال يا يجور . إنى أعيش بدون عمل منذ أسابيع

— ألم تسأل مخدومك القديم أن يستعيدك إليه؟

— لقد سألته

— أو لم يقبل ؟

— هناك من حل محلى

— آه ... هذا هو السبب . تلك هي خطتكم أيها الشبان . تخدمون رؤساءكم حينما اتفق ، فاذا تركتم مهنتكم تكونون قد سددتم طريق الرجوع إليها بالأوحال . ألا يجب أن تقوموا بواجباتكم بحيث تنالون التقدير الحسن ، فاذا رجعتم إلى مخدوميكم لا يهملونكم — بل يخرجون من حل عملكم ...

— وكيف يكون ذلك ؟ إنك لا تجد مخدومين على هذه الشاكلة في هذه الأيام كما أننا لسنا بملائكة !

— وما فائدة تبديد الكلام ؟ ! إني أريد أن أحدثك عن نفسي : إذا حدث أني تركت عملي لسبب من الأسباب ورجعت إلى منزلي ، فالسيد شاروف يقبلني عندما أرجع إليه ويكون سعيداً بقبولي

وجلس جيرازيم محزوناً . لقد لاحظ أن صديقه كان يباهي بنفسه ، ورأى أن يسايره فقال :

— إني أعرف ذلك ولكن من العسير وجود رجل مثلك يا يجور . ولو لم تكن من أجود الخدم ما أبقاك سيدك في خدمته اثني عشر عاما

فابتسم يجور لأنه كان يحب المدح وقال :

— ذلك هو الواقع . لو أنك اتبعت نظامي في الحياة والعمل ما وجدت نفسك عاطلا شهرا بعد أشهر

ونادى شاروف حوذيه فخرج وهو يقول :

— انتظر برهة .. سأرجع حالاً

— حسن جدا .

— ٣ —

عاد يجور وأخبر صديقه أن عليه في خلال نصف ساعة أن يعد العربة ويسرج الخيل ويستعد لحمل سيده إلى المدينة . وأخذ يجور يهيئه وأخذ يذرع أرض الغرفة ثم وقف فجأة أمام جيرازيم وقال :

— استمع يا بني ، إذا رغبت في أن أحدث السيد شاروف عنك فلا بأس

— وهل هو في حاجة إلى خادم ؟

— لدينا خادم غير كفء . تقدم به العمر ومن المتعذر عليه القيام بالخدمة . ومن حسن الحظ أن هذه الضاحية غير مأهولة — كما أن رجال البوليس لا يدققون كثيرا ، وإلا لم يمكن الخادم الشيخ أن يحتفظ بالمكان على حالة من النظافة ترضيهم

— آه .. لو أمكنك ، حدثه عني يا يجور — إني سأدعو لك طول حياتي .. لم أعد احتمل العيش بدون عمل

— حسن . سأحدثه عنك . تعال غدا . والآن يحسن أن تأخذ هذه البهيمات

— شكرا يا يجور . هل ستحدثه عني ؟ قم بهذا الجميل من أجلي

— حسن . سأحاول

وانصرف جيرازيم وأعد يجور العربة وارتدى ملابسه الخاصة بمهنته وقاد العربة إلى الباب الرئيسي للمنزل حيث ركب شاروف ، ثم انطلقت به الخيول إلى المدينة وهناك أدى مهمته ثم آب إلى منزله . ولاحظ يجور أن سيده على شيء من البشاشة فبدأ حديثه معه :

— هل لي أن أسألك معروفاً ؟

— وماذا تطلب ؟

— شاب من قريتي ، شاب طيب ... ليس لديه عمل

— حسن !

— ألا تلحقه بخدمتك ؟

2017-11-11

— وهل أنا فى حاجة إلى خادم ؟

— ألحقه على أن يقوم بأية خدمة تطلب منه

— وما ذا يعمل بوليكار ؟

— وما فائدة بوليكار ؟ ؟ لقد حان أوان فصله

— ليس من العدل فصله . لقد خدمنا عدة سنوات . فلا أستطيع طرده بدون سبب

— ولنفرض أنه اشتغل بخدمتك سنوات ، إنه لم يخدمك بغير أجر . لقد كان يتناول مرتباً ، ومن المؤكد أنه ادخر بعض المال لسنى شيخوخته

— ادخر ؟ كيف كان يمكنه ذلك ، إنه ليس وحيداً فى الدنيا : لديه زوجة يعولها وهذه مضطرة أن تأكل وتشرب أيضاً

— إن زوجته تكسب أيضاً . إنهما أجيرة بالبومية . ولم تعير بوليكار وزوجته اهتماماً ؟ حقاً إنه خادم فقير . ولكن لم تبعثر أموالك ؟ إنه لا يؤدى عمله كما يجب . وعندما تحين نوبته فى حراسة المنزل يترك مكان الحراسة أكثر من عشر مرات أثناء الليل . لم يعد يحتمل البرد وقد يكدرك البوليس بسببه يوماً . قد يهبط المفتش علينا يوماً ، وعندئذ لن يسرك أن تكون مسئولا عن نتائج إهمال بوليكار

— ومع ذلك ففصله قسوة واستهتار . لقد خدمنا خمسة عشر عاماً ، وبعد هذه المدة نعامله هذه المعاملة الفظة فى شيخوخته ... إنها خطيئة

— خطيئة ؟ هل يصيبه منك ضرر ؟ إنه لن يموت جوعاً بل سيذهب إلى ملجأ الفقراء . وهذا أجدى عليه . هناك يقضى شيخوخته فى سلام

وأخذ شاروس يفكر فى المشكلة ثم قال :

— حسن . دع صديقك يحضر هنا . وسأرى ما يمكننى أن أفعل له

— أرجو يا مولاى أن تلحقه بخدمتك . كم أنا حزين له ! يا له من شاب خَيِّر ! ومع ذلك فهو عاطل منذ أمد طويل . إنه سيؤدى واجبه على أكمل وجه وسيخدمك بإخلاص . لقد ترك عمله الأول بسبب الخدمة العسكرية ولولا ذلك ما تركه مخدومه الأول

— ٤ —

عاد جيرازيم فى المساء التالى وسأل صديقه :

— هل أستطيع أن أقوم بشىء فى سبيلى ؟

— نعم ... على ما أعتقد . دعنا نتناول بعض الشاى أولا ، وبعد ذلك نذهب لمقابلة سيدى

ولم يكن جيرازيم يرغب فى شرب الشاى . لقد كان متشوقاً إلى معرفة ما قرر عليه أمره ولكن مقتضيات الواجب واللياقة نحو صديقه أجبرته أن يشرب قدحين من الشاى ، أخذه بعدها صديقه إلى رب الدار

وسأل شاروس جيرازيم عن مكان سكنه وعن مخدوميه السابقين ، ثم أخبره بعد ذلك باستبداده لقبوله خادماً عاماً يؤدى كل ما يطلب منه وأن عليه أن يأتى صباح اليوم التالى ليبتدئ عمله . وأذهل جيرازيم هذا الحظ الفاجئ وكان فرحه عظيما حتى أن قدميه لم تقويا على حمله ، وبعد برهة رجع جيرازيم إلى غرفة الحوذى

وقال له الحوذى : « حسن يا بنى . يجب أن تعنى بأن تؤدى واجبك على الوجه الأكمل حتى لا أضطر يوما إلى التجمل بسببك . أنت تعرف من هم السادة إذا قصرت مرة تعقبوك دائما بالبحث عن أغلاطك ولن يدعوك فى سلام أبدا

— كن مطمئنا يا بجور

وانصرف جيرازيم وعبر فى طريقه فناء المنزل ،

2017-11-11

وكانت غرفة بوليكار تطل على هذا الفناء وكان ينبعث منها نور ضئيل يضيء طريق جيرازيم الذي شمر بالشوق إلى رؤية الغرفة التي ستخصص له، ولكن زجاج النافذة كان مغطى بالصقيع بحيث يتعذر رؤية أي شيء خلاله . وسمع جيرازيم أصواتاً تنبعث من الغرفة فوقف يتسمع . سمع صوتاً نسائياً يقول « ماذا نفعل الآن ؟ » فأجاب رجل — وكان بوليكار لا شك :

— لست أدري .. لست أدري، نطوف الشوارع مستجدين .

— هذا كل ما بقي لنا . وما من حيلة أخرى . يالله لنا، نحن الفقراء ! أي حياة تسة نحياها! نكد ونكدح من الصباح الباكر حتى الليل يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، وعند ما تتقدم بنا السن نتضور جوعا

— ماذا نفعل؟ إن سيدنا ليس من طبقتنا، ولا جدوى في التهاب والتحدث إليه . إنه لا يهتم إلا بمصلحته

— كل السادة على مثل هذه الحقارة . إنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم ، لا يخطر ببالهم أننا نعمل بشرف وإخلاص مدى سنوات ، نفنى زهرة قوانا في القيام بخدمتهم ثم يخشون أن يقوتنا عاماً آخر ، حتى ولو كانت لدينا القوة للقيام بواجباتهم . فاذا عجزنا تماماً وجب علينا أن ننصرف من تلقاء أنفسنا

— إن شاروف لا يلام بقدر ما يلام حوذيه الذي يود الحصول على مهنة لصديقه

— نعم ... يا له من ثعبان ! إنه يعرف كيف يتشقشق بلسانه ... وأنت يا بجور أيها الحيوان القذر اللسان ... انتظر ، سأتكلم منك ، إني سأذهب إلى السيد وأخبره كيف كان هذا الوغد ينشه وكيف يسرق التبن والعلف . وسأقنع السيد أن هذا الوغد يكذب في كل ما ينقله عنا .

— لا لا . أيتها المرأة لا ترتكبي خطيئة

— أية خطيئة ؟ أو ليس حقاً ما أقوله ؟ إنني أعرف صدق ما سأتحدث به وسأقفي بكل شيء للسيد . ولم لا ؟ ماذا نفعل الآن ؟ أين نذهب ؟ لقد حطمنا، لقد حطمنا، وانفجرت المرأة باكية متأوهة

سمع جيرازيم الحديث كله وكأن خنجرا نفذ في أوصاله . لقد تحقق أي بلاء كان يجره الى هذين الشيخين وشعر أن قلبه يتمزق

وقف حيث كان زمنا طويلا محزوناً غارقاً في الفكر ، ثم دار على عقبيه وذهب ثانية إلى غرفة الحوذي الذي سأله عندما رآه

— هل نسيت شيئاً ؟

وأجاب جيرازيم متلعثما : لا ... لقد أتيت ... استمع إليّ ... أود أن أشكرك كثيراً على حسن استقبالك إياي ، وكل ما عانيته من أجلي .. ولكني لا أقبل العمل هنا

— ماذا ؟ ما ذا تعني ؟

— لا شيء . لا أرغب في العمل هنا . سأبحث عن عمل آخر . وانتابت بجور حدة غضب وقال :

— هل تعني أن تجعلني مجنوناً في رأي سيدي؟ هل تعني ذلك أيها الأبله؟ لقد أتيت تتضرع في وداعة وترجو المساعدة . والآن ترفض العمل . أيها الوغد لقد أخزيتني !

وصمد الفم إلى وجه جيرازيم وخفض عينيه ولكنه لم يتبس ببنت شفة

وأدار بجور ظهره في احتقار وكف عن الكلام

وعندئذ التقط جيرازيم قبعته بهدوء وترك غرفة الحوذي وعبر الفناء مسرعاً ثم اجتاز باب المنزل وابتعد عن الدار مهرولاً

وكان يشعر بالسعادة والفرح ...

نصري عطا الله سوس

2017-11-1

الأنية المكسورة

مترجمة عن الإنجليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

إن مدينة نابول ليست إلا قرية صغيرة جداً على خليج كانز . ولكنها لجمالها من أشهر المدن فى إقليمها وتحيط بها مزارع البرتقال الداكنة الاخضرار وبساتين الكرم والزهور . على أن ذلك وحده لا يكفى لشهرتها فلا بد أن تكون فتياتها جميلات . وإنى لست واثقاً من ذلك وإنما استنتجته مجرد الاستنتاج . ويحزننى أن هذه المدينة صغيرة فلا يكفى ما فيها من البرتقال والعنب والنساء لتقسيمه على أهل بلادى

وقد كان نساء نابول منذ وجدت هذه المدينة جميلات . وكانت كذلك إحداهن الملقبة باسم ماريتا الصغيرة . وسميت صغيرة لجمالها ولكنها بنت سبعة عشر عاماً وقد علت هامتها فارتفع جبينها بحيث يصل إلى ثغر الفتى الطويل القامة

وقد أكثر المؤرخون من الكلام عن ماريتا . ولهم كل العذر فى ذلك ولو كنت فى مكانهم لفعلت مثل ذلك لأنها كانت حتى إلى العهد الأخير لما انتقلت مع أمها إلى مدينة مانون على شاطئ الافينون قد قلبت المدينة رأساً على عقب . ولست أعنى أنها قلبت أبنية المدينة ولكنها قلبت الرؤوس والقلوب التى يحيق بها الخطر كلما جاورتها عيون جميلة . وإن الذين يسخرون من هذا القول هم الجهلاء الذين لم يقرأوا فى التاريخ أن سيدة واحدة كانت سبباً فى إثارة الحرب فى آسيا وأوربا . وقد جاء ذكر هذه السيدة فى شعر هوميروس

لم يمض أسبوعان على سكنى ماريتا المنزل الذى أقامت فيه حتى عرف كل شبان المدينة أن الفتاة التى سكنت هذا المنزل هى أجمل فتاة فى الإقليم . وكانت كلما مشت فى الطريق تكلم الطاعنون فى السن . وأما الشبان فيعتريهم الخرس . وتفتح النوافذ ذات الشبين وذات اليسار ويلقى عليها السيدات من هذه النوافذ تحية ، فتجيب متلفتة يميناً ويساراً بابتسامتها الساحرة

وإذا مشت ماريتا فى الكنيسة نسى من فيها من الشبان الجنة ونسيهما وصدفوا عن صور القديسين إلى خديها الورديين

وكان نساء المدينة يعدون عيبها نكبة فان أزواجاً كثيرين فترت محبتهم ، وكاد يساورهم شوقه كل عاشق مستهتر ، وأصبحت الأحاديث كلها عن حوادث الطلاق بعد أن كانت عن الزواج . وأخذ كل خطيبين يَرُدّان الخواتم والهدايا والصور بدلاً من التهادى بها فى العهد القديم . وشارك الكبار الصغار فى ذلك ، وصار الزوجات ذوات النفس يغضبن من بيوتهن ومعهن أبناؤهن وأحفادهن

وكانت ماريتا هى السبب فى ذلك كله . وصار كل الناس يتكلمون بهذه الحقيقة ، ولكن ماريتا نفسها لم يخطر ببالها أنها فعلت سوءاً ولا أن الناس ينسبون إليها مثل هذه الشرور . وكان البادئ بنسبة الشر إليها أترابها الفتيات ثم الأمهات فالآباء فالشبان . ولكن الفتاة ظلت تحترم الجميع وتحب

الجميع ، فشذ عن هذه القاعدة الشبان وصاروا يقولون إنها طاهرة بريئة من الأذى فلا يهمونها بشيء . وحذا الآباء حذو الشبان ثم تبعتهم الأمهات فالفتيات

وكان مجرد الحديث مع ماريتا يكسبها الحب والاحترام والتقدير . ولكنها لم تظن أنها موضع التقدير كما لم تظن من قبل أنها موضع البغض . وهل تظن البنفسجة المختفية فى الصخور وراء العشب أنها جميلة ؟

غير أنها كانت تلاحظ أنها تدعى إلى كل حفلة وكل سهرة ، وأن جميع الرجال يبدون من العطف ما يسترق القلوب وإن كان بعضهم أقسى قلباً من فرعون ، ولعل تلك القسوة وراثية عن آدم بعد طرده من الفردوس .

ومن أمثلة القسوة التى ارتكبت ضد ماريتا ما فعله كولين أغنى مزارع فى نابول وهو صاحب مزارع الزيتون والليمون والبرتقال ، وهو يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً ، ولكنه لم يسأل نفسه قط لماذا خلق الله النساء . وقد كان الأوانس إلى عمر معين يغتفرن له ذلك ويحسبنه من أحسن من أظلتهم السماء .

ولما عاد أهل المدينة فاتفقوا على أن ماريتا بريئة لم تجن ذنباً كان كولين هو الوحيد الذى لم يعدل عن الرأى الأول فيها ، فاذا ما ذكر اسمها اعتراه الصمت ، وإذا ما رآها فى الطريق أدار وجهه مغضباً ، وإذا ما اجتمع الشبان عند الشاطىء للتنزه أو للرقص كان كولين أشدهم مرحاً حتى تظهر ماريتا فيعتريه الانقباض والصمت

وكانت نظرات كولين حادة تحبها الفتيات وتخشينها إلا ماريتا فانها لا تحب هذه النظرات ولا ولا تخشاها . وإذا جلست مع كولين فى وسط أصدقائه وأخذ يقص إحدى قصصه وهى كثيرة عذبة لم تلتفت إليه كسائر الفتيات بل كانت تنتقم منه . وإن الانتقام لمذهب وان ماريتا لتعرف كيف تنتصر . لكنها مع ذلك كانت رقيقة وكانت محقة . وإذا سكت كولين فانها تتألم ، وإذا عبس امتنعت عن الضحك ، وإذا ذهب لم تمكث بعد ذهابه طويلاً بل تعود إلى منزلها وتبكى وحدها وهى فى بكائها تكون أجمل من المجدلية ولو أنها لم تخطىء مثلها .

وكان الأب جيروم راعى كنيسة نابول يبلغ السبعين من العمر وفيه كل الصفات التى تميز القديسين غير أنه أصم . وكان الصغار يسرون من خطبه وهى دائماً تنحصر فى موضوعين أحدهما : « الحب المتبادل بين الأطفال » والثانى « عجيبة هى أفعال العناية » والحق أن هذين الموضوعين يتضمنان كثيراً من روح المسيحية . ولكن كولين لم يكن يفهم شيئاً منهما ، وهو حتى حين يرى أنه أحب حبًّا شديداً يضمر فى نفسه حقداً شديداً

وفى الموسم السنوى الذى ينتقل فيه أهل القرى فى ذلك الاقليم إلى مدينة فنس ، ذهب أهل نابول وكان بينهم ماريتا وأمها وكان بينهم كولين أيضاً . وقد أنفق كولين كثيراً فى مشترى هدايا لأصحابه ولكنه لم ينفق درهماً واحداً من أجل ماريتا . ذلك على الرغم من أنه لم يفارقها . على أنه لم يكلمها ولم تكلمه فى كل مسافة الطريق . وكان من السهل

2017-11-11

عليها أن تفهم أن وراء هـذه الملازمة والخاصمة تدبيراً من تدابيره السيئة

ووقفت أمها واستوقفتها أمام حانوت وقالت : « انظري ياماريتا ، ما أجمل هذه الآنية ! إن الملكة لا تشرب في آنية أنفس منها . انظري إلى هذا الذهب اللامع وإلى رسم هذه الحديقة التي تشبه الفردوس . إن صور الزهور فيها جواهر غالية . انظري إلى شجرة التفاح . إن آدم وحواء كانا معذورين إن كان تفاح الجنة يمثل هذا الجمال »

فنظرت ماريتا إلى الآنية وقالت : « أيكون لي مثلها في يوم من الأيام ياأمي ؟ » فقالت الأم : « أنحن في سوق فنس هنا ، أم في سوق الفردوس ؟ »

وفي أثناء الحديث بين الأم والبنت اجتمع حولهما الفتيات والفتيان الآتون من نابول وسألوا صاحب الحانوت عن ثمن هذه الآنية فقال : « مائة جنيه » .

فسكتوا وذهبوا يائسين

ولما ابتعد أهل نابول عن الحانوت عاد كولين وحده إليه ودفع المائة جنيه وأخذ الآنية ملفوفة في الأقطان داخل صندوق

ولما اقترب كولين من مدينة نابول وهو عائد إليها رأى في الطريق جاك الهرم حاجب القاضي ، وكان هذا الحاجب طيب القلب جداً ولكنه غبي جداً . قال له كولين : سأعطيك مالاً ياجاك على أن تذهب بهذا الصندوق إلى بيت ماريتا على شرط أن تقول إن الذي أعطاك إياه رجل غريب ولا تصرح باسمي ولا باسم أي إنسان . وإذا خالفت فاني أعاقبك ياجاك »

فوعده جاك وأخذ الصندوق الذي به الآنية ولكنه قبل أن يذهب إلى المنزل رأى سيده القاضي « هو تمارتين » فسأله القاضي : « ما هـذا الذي تحمله ياجاك ؟ »

قال جاك : « هذا صندوق سأذهب به إلى بيت ماريتا ، ولكنني لا أقول لك من الذي أعطاني إياه» فقال القاضي : « لماذا ؟ »

قال الحاجب : « لأن كولين يعاقبني إذا قلت »

فابتسم القاضي وقال : « لك الحق في كتمان السر ياجاك ، ولكن فاتتك الفرصة في هذه المرة : هات الصندوق فاني سأذهب إلى بيت ماريتا »

سلم جاك الصندوق إلى القاضي فقد كان من عادته أن يقابل بالطاعة كل أمر يصدر إليه وذهب القاضي إلى منزله ففتح الصندوق وفحص الآنية فأدرك قيمتها ، وعرف أن كولين لا يشتري هذه الهدية إلا وله غرض سيء من إرسالها إلى ماريتا، ففحصها خشية أن يجد فأراً مخبوءاً فيها، فلما لم يجد فأراً قال إن كولين لم يرد على كل حال إلا إيصال الأذى بماريتا ، وقد يكون قصده أن يشاع أن هذه الآنية مهداة إليها من عاشق فيمتنع خطابها وتسوء سمعتها . وقال : « إنني منعاً لهذا الأذى سأقدم الآنية على أنها هدية مني »

وتذكر قول القسيس جيروم إن الأطفال يحب بعضهم بعضاً . وقد كان هذا القاضي طفلا ولو أنه

2017-11-11

تجاوز الخمسين . وكانت ماريبتا تكرهه ولم تفكر قط فى ضخامة مركزه وكثرة أمواله ، وكان يزور منزلها فيتكلم أحياناً عن الزواج فتهرب ماريبتا من مجلسه متحجة . أما الأم فانها تظل جالسة غير خائفة أمام هذا الرجل الرفيع المركز . ومما ينبغى أن يذكر أنه وإن كان كولين أجل أهل المدينة فان هذا القاضى يمتاز عنه بشيئين أولاً أنه أكبر منه سناً ، وثانياً أنه أضخم منه أنفاً . وقد كان أنف هـذا القاضى فريداً بين الأنوف ، فهو يتقدمه فى الجلسة كأنه حاجب ، وهو إلى جانب أى أنف آخر كالفيل إلى جانب أى إنسان .

وذهب القاضى إلى بيت ماريبتا فقابلها هى وأمها وقال : « لقد رأيتك فى فينس تبدين إعجابك بالآنية فجئت إليك اليوم بهـا وأرجو أن تقبليها مع قلبى هدية إليك »

فأخـذت الأم تنظر إلى الآنية نظرة سرور ، ولكن ماريبتا قالت : « لا أقبل الآنية ولا أقبل قلبك » .

غضبت الأم وقالت : « إننى يا حضرة القاضى أقبل الآنية وأقبل قلبك . وأنت أيتها المجنونة كيف تحتقرين الحظ ؟ هل تظنين أن الكونت سيتزوج منك حتى ترفضى خطبة قاضى نابول ؟ إننى أعرف مصلحتك أكثر مما تعرفينها . إننى يا حضرة القاضى أفتخر بأن تكون زوجاً لبنتى »

وفى أثناء هـذا القول خرجت ماريبتا باكية وكرهت الآنية أشد الكراهية من ذلك الحين . ووضع القاضى راحة اليد اليمنى فوق أنفه وقال لمن يريد أن تصير حماته : « لا تستعجلى يا أمى فمع مرور الزمن ستعرفى ماريبتا أكثر مما عرفتنى إلى الآن . وإننى أفهم أخلاق الفتيات . وأؤكد أنه بعد ثلاثة أشهر ستصير ماريبتا محبة لى »

فقالت ماريبتا ساخرة من وراء الباب : « إن أنفك أكبر من أن يسمح لى بالحب »

وانقضت ثلاثة الأشهر ولم يستطع القاضى أن يصل إلى قلبها ولو بطرف أنفه .

وفى أثناء هذه المدة كانت الآنية سبب متاعب ومضايقات كثيرة لماريبتا . وفى خلال الأسبوعين الأولين كان أهل المدينة يقولون إن القاضى أهدى إليها آنيـة فقبلتها وإن الاتفاق قد تم على زواجها منه . وكانت ماريبتا تقول لصاحباتها إنها تفضل أن تلقى بنفسها إلى قاع البحر على أن تصبح زوجة له فيقلن لها ضاحكات : « إنه لمن السعادة أن تستظلى بظل أنفه » فيزيد هذا القول من مضايقتها

وكانت الأم تكره ابنتها على أن تضع فى الآنية كل يوم باقة جديدة من الزهر ، وهى تريد بذلك أن تحببها فيها وفى مهديها ؛ ولكن ماريبتا استمرت على كره كليهما . وكانت تعد ما تكلفه بها أمها عقوبة . وهذا سبب آخر من أسباب مضايقتها .

وفى الصباح نزلت إلى حـديقة المنزل كالعادة لتقطف الأزهار وتصنع منها باقة للآنية فوجدت باقة من أجمل الزهور موضوعة فوق صخرة . وفى وسط هـذه الباقة ورقة كتب عليها : « عزيزتى ماريبتا » فظنت هذه الباقة من القاضى ومزقت الورقة إرباً . ولكنها أخـذت الورد ووضعته فى الآنية .

2017-11-11

وفي ذلك اليوم جاء القاضي للزيارة في موعده فلم تجده مستاء حين لم يجد الورقة في الآنية . وفي ذلك دلالة على تمزيقها . فكان عدم استيائه سبباً ثالثاً من أسباب مضايقتها

وأخيراً فهمت من حديثها مع القاضي أنه ليس الذي وضع الباقة والورقة في الصباح .

وكانت ماريتا كما كثر الفتيات شديدة الرغبة في معرفة الحقائق فتساءلت أي رجل آخر في المدينة هو الذي فعل ذلك ؟ وأخذت تستعرض في ذاكرتها أسماء الشبان واحداً بعد واحد، ولكنها لم تصل إلى نتيجة ، فقررت أن تراقب الحديقة حتى تعرف هل يعود مَنْ وضع الباقة

ولكن مراقبتها لم تسفر عن نتيجة، فقد كانت كل صباح تعثر على الباقة وفيها ورقة كتب عليها « عزيزتي ماريتا » ، فكانت تحمل هذه الجملة تأوهاً وتعود في اليوم التالي قبل ساعة من اليوم السابق حتى صارت تنزل إلى الحديقة في أواخر الليل .

وفي إحدى الليالي نزلت قبل الشروق فوجدت شاباً نائماً وفي يده باقة من الزهر . وكانت دهشتها شديدة عندما عرفت أنه كولين . وعرت جسمها رعشة شديدة وقالت في نفسها : « أهذا هو الشرير الذي استنار قلبي هذه المدة الطويلة وجعلني أقوم كل ليلة في هذا الموعد ؟ »

ثم عزمت على الانتقام منه فحملت الباقة ورمتها منثورة حوله كما ترى الزهور فوق القبر . ولم تكتف بذلك بل أرادت أن تزيد في الانتقام فحلت الشريط الأزرق من قبعتها وربطت بطرفه يد كولين والطرف الآخر فرع الشجرة القريب منه لكي يزيد ارتباكه عند ما ينهض من النوم

ولكنها استبقت الورقة التي عليها « عزيزتي ماريتا » . وقالت إنها لا بد أن تكون بخطه وأنها متى احتفظت بها فقد احتفظت عنده بدليل كتابي

وهكذا كانت ماريتا تظن أنها ماكرة ولكنها أسفت على تعجلها بربط يده بالشريط ، فانه لما نهض لف هذا الشريط حول قبعته ومشى كذلك في كل شوارع المدينة . ولم تكن ماريتا تظن أن شريطها الأزرق معروف لكل إنسان ؟ ولكن أهل القرية عرفوه وأخذوا يتحدثون بأنها أهدت شريطها إلى كولين

وسمع القاضي وسمعت الأم بهذا الحديث فاشتد غضبها وخجلت ماريتا وأنكرت . وقال القاضي : « أما وقد وصل الأمر إلى هذا الحد فلابد من عمل سريع » . فقالت الأم : « إذهب اليوم وأعد وليمة العرس وفي غد سأبعث بماريتا إلى القسيس ومعها رسالة حتى لا ترتاب . ولكني في هذا اليوم سأكلم القسيس وأفهمه الأمر . ومتى وصلت إليه فإننا سنباغتها عنده ونعقد إكليلها عليك »

قال القاضي : « ولكنها لا تحبني » فقالت الأم : « أنا أعرفها أكثر مما تعرف . إذهب وأعد وليمة العرس »

وذهب القاضي مطمئناً إلى ذلك . وفي الصباح التالي نهضت ماريتا في الفجر وذهبت إلى الحديقة فلم تجد الباقة . ولكن بعد لحظة ظهر كولين وفي يده الباقة فاحمر وجهها واضطرب كولين وقال :

2017-11-11

« سعدت صباحاً يا ماريتا »

قالت : « سعدت صباحاً ، ولكن لماذا تمشى بالشريط فى شوارع المدينة وتعرضه علناً ؟ ألا تخجل ؟ إنى لم أعطك هذا الشريط »

فزاد اضطراب كولين ، وخجلت ماريتا من كذبها فقالت : « نعم أنا أعطيتك الشريط ولكن لم يكن من حقك عرضه علناً على هذه الصورة . هات الشريط »

قال : « اتركيه لى » . فقالت بحدة : « كلا ولكن هاته »

فغضب ووضع الشريط فى باقة الورد وتناول منها الآنية ووضع فيها الباقة وألقاها على الأرض وجرى مسرعاً فتكسرت الآنية ، وكانت الأم إذ ذاك معلة من النافذة ورأت كل شىء ، وسمعت الحديث كله فكاد يطير عقلها من تكسر الآنية . ولكن بعد تفكير قليل قالت : « إن قاضى المدينة سيكون صهرى ولا بد أن أشكو كولين إليه فيحكم لماريتا بتعويض كبير يكون مهراً لها تدفعه إلى القاضى »

أخذت ابنتها وذهبت إلى القاضى ومعها أجزاء الآنية المكسورة وقدمت شكواها ، فثار القاضى وأمر الجنود باحضار كولين ، وعقدت الجلسة فجاء كولين إلى جانب ماريتا وهمس فى أذنها : « سامحينى فانى كسرت الآنية ولكنك كسرت قلبى »

وسمع القاضى أقوال الأم . وسأل كولين فاعترف بأنه كسرها عن غير عمد . فقالت ماريتا : إنها هى التى أغضبته وإنه لم يكن يريد كسر الآنية »

صاحت الأم : « هل تدافعين عنه ؟ إنه لم ينكر كسرها وذلك استحق لنا التعويض »

فنظر القاضى إلى كولين وقال : « عليك أن تدفع ثمن الآنية ثلاثة جنيه فانها تساوى أكثر من ذلك »

فقال كولين : « إنى اشتريتها بمائة جنيه وأهديتها الى ماريتا فهى لا تساوى أكثر من ذلك ؛ ولا أدفع ثمنها إلا إذا طلبته ماريتا لأنى صاحب هذه الهدية »

هنا اضطرب القاضى اضطراباً شديداً وأبهم الأمر على الأم ، واستغربت ماريتا ، وقال القاضى :

« كيف تجرؤ على الادعاء بأنك اشتريت الآنية مع أنها هدية منى »

فقال كولين : « أنا أرسلتها إليها مع حاجبك هذا . تكلم يا جاك فأنت شاهدى »

قال جاك : « تذكر يا حضرة القاضى الصندوق الذى أخذته منى فى الطريق لتذهب به إلى بيت ماريتا . إن الصندوق الخالى لا يزال بمنزلك إلى الآن وعليه خط كولين »

ضجّ المتفرجون فى الجلسة وكاد القاضى أن يصمم ، وطرد الحاجب ، وأجل القضية إلى الغد ، ولكن كولين قبل خروجه من الجلسة قال : « هذه آخر جلسة تجلس فيها أيها القاضى اللص . وسأذهب اليوم إلى وزير الخفانية وأعرض عليه أمرك »

ثم خرج كولين توّاً إلى محطة السكة الحديدية وقالت الأم فى آخر الجلسة : « على من سيحكم لى بالتعويض ؟ » فقالت ماريتا : « أنا صاحبة الآنية وقد نزلت عن ثمنها إن كان اللازم به هو كوليفى »

2017-11-11

وخرجت الأم وابنتها . وفى عصر ذلك اليوم أرسلت الأم ابنتها بأكياس إلى القسيس وقالت لها إنه طلب منها هذا الاكياس من أجل عروس أخرى. فذهبت ماريتا وهى لا تعرف السعادة التى تنتظرها ولا تفكر إلا فى حادث اليوم. وفى أثناء الطريق قابلها كولين فتذكر لها ما قالته أمام القاضى وقال إنه قابل وزير الحقانية وإن الوزير جاء معه . وسألها : « ألم تصغحى عنى ؟ لماذا أنت قاسية علىّ يا ماريتا ؟ »

فقالت : « إننى سأرد إليك الشريط ولكن هل أنت الذى اشترى الآنية حقاً ؟ »

قال كولين : « وهل تشكين فى ذلك ؟ إن كل ثروتى لك يا ماريتا »

وظل سائراً معها وهو يحدثها حتى وصلا إلى الكنيسة فاستقبلهما القسيس بقوله : « فليحب كل منكما الآخر كما يتحاب الأطفال »

ويظهر أنه لضعف سمعه قد أخطأ فى سماع الاسم الذى كانت الأم قد ذكرته له . أو لعله لضعف ذاكرته قد نسى هذا الاسم . وعلى أية حال فانه ظن أن هذين هما المطلوب إليه أن يعقد إكليلهما. وقال كولين جواباً على كلمة القسيس : « إننى أحبها من سنوات ولكنها قاسية » وقالت ماريتا :

« إننى أحبه ولكن هو القاسى »

وأخذا يتعاتبان عتاباً لم يسمع القسيس الأصم كلمة منه، فظن أنه إيجاب وقبول، وضم رأسيهما وهو يقرأ صلاة الزواج ، فتبادلا قبلة حارة على الفم وعقد الزواج والمصلون حاضرون ثم خرجوا يتحدثون عن زواج ماريتا وكولين

وتأخرت الأم عن الموعد المضروب بينها وبين القسيس لأنها كانت فى انتظار القاضى ليذهباً معاً وفقاً لتدبيرهما السابق . فلما لم يأت القاضى ذهبت إليه فى المحكمة فوجدت الوزير قد أجرى تحقيقاً مع القاضى ثم أمر بسجنه فقالت : « هذا عمل شرير من أعمال كولين » ثم هرعت إلى الكنيسة لتستدرك للقسيس عن التأخير ولتؤجل الزواج للزمع، ولكنها وجدت هناك بنتها ، وقد تم زواجها من كولين ؛ فثارت مقدار لحظة ثم شرحت له الأمر فقال كمادته : « عجيبة هى أفعال العناية »

ثم اصطلحت مع كولين لما علمت مقدار ثروته وليقينها بأن القاضى لن يعود إلى منصبه

وذهب العروسان وأم العروس إلى بيت كولين حيث دعى كل أهل المدينة إلى وليمة فخمة استمرت يومين ...

واحتفظ الزوجان ببقايا الآنية المكسورة لأنها هى السبب فى زواجهما

عبد اللطيف النشار

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

موت الحب

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

للعاشق من عشقه لذة، أما ساعي فله من عشقه لذتان ... لذة الهوى ولذة الفوز . ذلك أن فتاته لم ترتبط به عبثاً ولهواً كما يقع عادة في الطرق المزدحمة أو الخلوات العامة ، ولا هي فرضت عليه تحت تأثير الظروف كما يحدث كثيراً بين الأقارب ، ولكنه رآها مرة فأحبته وأطربته ، ثم رآها بعد ذلك مرات فآنس في روحها اللطيفة جاذبية ظاهرة، وأولع بعينيها الصافيتين الجميلتين ، ونظراتهما البريئة الناطقة بالوداعة والاستسلام . وكان — في تلك الأيام — يدير في نفسه مسألة مسائل الشباب وهي الزواج، فرجا أن يوفق إلى الاستقرار والسعادة بتلك الفتاة الحسناء . ولم يكن ساعي ممن يقنعون بلذة الأماني ، ولا ممن يتيهون في وديان الأحلام، فشق طريقه بقدمين ثابتتين وقلب جسور ، ولم يثنه عن عزمه أن يعلم أن ابن خال الفتاة يحوم حولها ويطالب بيدها، لأنه كان ذا ثقة بنفسه لا حد لها، وكان بطبعه جباراً عنيداً لا يرضى بالهزيمة ولا يستسلم لليأس. فاستمال الفتاة إليه ،وظفر بعواطف قلبها، وارتبطا معاً سراً بالمواثيق والعهود ، ثم تقدم إلى ذويها يطلب يدها ، وكان هؤلاء من الحكمة بحيث جعلوا الاختيار منوطاً بصاحبة الشأن ، واختارت الفتاة حبيبها وأعلنت رغبتها على الملأ، وعلت كلمة الحب وغلب نوره، وا كتسب ساعي في ساعة واحدة حباً صادقاً ونصراً عزيزاً ، ودحر خصمه واستهان بكيده وغضبه ، وآوى إلى ظلال الحب يفتن بفتنانه ويحلق في سماواته ، ويضم إلى نفسه فتاته ، الحسناء ينتظران على الجوى معاً أن تنطوي أيام التأهب ، ويرقبان في الأفق السعيد أعلام اليوم الموعود ومنية المني ...

إلا أنه حدث ما لم يكن في الحسبان، فأصيب ساعي بحمى وبيلة حبسته في فراش الألم والذهول ثلاثة أشهر كاملة علقت فيها حياته بين البقاء والفناء، واضطربت قلوب ذويه بين الغصة باليأس والشرق بالأمل، وتمنت له نفوس الشفاء حتى أمنانها التمني، وتلهفت نفوس الى هلاكه حتى أفضتها اللهفة ، ولكن أراد الله له السلامة ، فسلم واجتاز طور الخطر واستقبل دور النقاهة ضعيفاً ذاهلا شارداً كمن يقوم من نوم مائة عام ...

ومضى يسترد صحته ويستعيد قوته فاستطاع بعد حين أن يستأنف تمثيل رواية حياته المألوفة ما بين البيت والمصلحة والخطيبة ، إلا أنه لاحظ على نفسه تغيراً طارئاً ظن أول الأمر أنه أثر من آثار المرض لا يلبث أن يزول، فلما لم يزل ولم يبشر بالزوال ذهب إلى طبيبه يسائله، ولم يفجأ الطبيب المجرب وهز رأسه هزة المتوقع لما حدث ، وقال للشاب إن مرضه قلما يدع فريسته سليما بلا عاهة مستديمة وأنه لم يعفه من ضريبته التي يفرضها على مرضاه فأصابه في قواه التناسلية بالوهن والضعف اللذين سينتهيان بها في شهور إلى موت تام لا رجاء في النجاة منه ...

واستمع الشاب إلى قول الطبيب في ذهول كأنه لا يعي شيئاً ولا يفقه معنى، واستوضحه مرة ومرتين وألقى عليه الأسئلة جماعات وفرادى، وكان كلما هوى

2017-11-1

عليه الطبيب باليأس يفزع إلى نأي الأمل ويستصرخ الاحتمالات البعيدة والفروض المتعذرة ، ولكن الرجل اضطر إلى خنق أنفاسه وقتل آماله وعجايبته بالحقيقة القاسية ...

وهكذا نجا من الموت ، ولكنه لم يهنأ بالصحة ولا اطمأن إلى الحياة . نعم إن صدره ما زال حارا ورغبته ما تزال حية ، ولكنها هادئة رزينة يملكها ولا تملكه ، ويسيطر عليها ولا تسيطر عليه ، وقد يكون من الجائز أن يعلل وهنها بعدم تماثله للشفاء التام ، ولكن لا مكابرة في الحق ولا فائدة ترجى من معاندة الواقع ، وأولى له أن يصدق الطبيب ، فلا ريب أن قواه تحتضر وأن ما بها من حياة إن هو إلا اضطراب اليأس تبدله في منالبة الجفاف والبرودة الزاحفين ...

يالله العجب !... ترى ماذا عسى أن تكون حقيقة الحال التي تتربص به ؟ وما ماهية الشخص الغريب الذي سيستحيل إليه بعد قليل ؟ كيف يكون شعوره ووجدانه ؟ وكيف تكون دنياه ؟ وهل يبقى له ادراكه كما هو وشعوره كما هو وعاطفته كما هي ؟ أم أن موت هذه الغريزة الجبارة بعقبه مباشرة موت كلي لدنياه جميعا بيدله من وجدانه جمودا ومن إدراكه غباء ومن أفراحه سأما وملالا ؟.. ماذا عسى أن يكون حاله ؟ هل حق أنه من الممكن أن تقع عيناه على الحسناء غداً فلا يخفق لها قلبه ولا يثور وجدانه ولا تتيقظ فيه رغبة ؟ أم تبقى له حاسة عواطفه ولكنه يعجز عن إشباعها وهذا أشد قساوة وأبلغ نكاية ...

ولدى بلوغه هذا المبلغ من التفكير الحائر الحزين أحس بالنهاب الخجل يحرق خديه ويغرق العار يتصبب من جبينه فتأوه من قلب قنوط وهتف من الأعماق : ما حكمة هذا القضاء ! ... ما حكمة هذا القضاء ! ...

ولم ينغل عن تذكر عطية دقيقة واحدة ، هذه الفتاة الجميلة ذات العينين السليتين الصافيتين ، التي أحبته فصدقته الحب ونبذت من أجله أقرب الناس إليها . كيف يفي لها بعهوده ومواثيقه ؟ كيف يحقق لها ما مناها به من السعادة والحب ؟ وهل تبقى على حبها ووفائها إذا علمت بحقيقة دائه ؟ إنه لا يظن ذلك ، وما معنى هذا الوفاء لو منحته إياه ؟ وماغايته ؟ كلا ... كلا ... إنه شذوذ لا ترضى عنه الطبيعة ولا تسيغه الفطرة . أما المعقول فهو أنها تتحول عنه من الساعة التي يداخلها فيها اليأس من ناحيته . هذا هو الحق الذي لا ريب فيه ، فالأنوثة معنى أجوف من غير الرجولة ، وكأنهما متضايفان كما يقول المناطقة . والمرأة تنشد حياتها في الرجل ، فاذا يئست من شخص فلن ترضى بمجمل اليأس منه يأسا من الحياة كلها ما دامت تستطيع أن تجد رجلا آخر يحقق لها حياتها ... وعطية واحدة من النساء تخضع لناموسهن . . فليعلم ذلك جيدا . . وليرُض نفسه على التسليم به ... وا أسفاه...

فاز خصمه وغريمه وكسب المعركة التي لم يرم فيها بسهم واحد ، فاز بالفتاة التي يحبها ، وفي الند تعود إليه كسيرة القلب تضرع إليه أن يغفر لها تمردها على حبه ويفتح لها صدره مرة أخرى ، وإنه لفاعل حينما يكون هو قابعا في عقر داره بائسا محزونا لا يدري من أي جنس هو .. !

وغص عند ذاك بمرارة الخيبة والهزيمة والقهر، وعصرت قلبه آلام الخسران والقنوط، وضيقت صدره عواطف الحنق والحقد، فثار ثورة مكتومة على الطبيعة والأقدار وحقد على غريمه ما شاء له الغضب واليأس ووجد على حبيبته البريئة موجدة شديدة ورمق العالم أجمع بعين الحقد والكراهية...

ولم تحل آلامه الخفية دون اللقاء فكانا يلتقيان كثيراً، وكانت تلقاه دائماً بعينين فرحتين صافيتين تفيضان بآي الامتنان كأن نجاته من الموت طبعتهما بطابع الشكران العميق. وكانت تجلس إلى جانبه تستمتع إلى همسات ضميره الصادقة وتلقي إليه بآهات قلبها المحموم وكل ما بها من عينيها المتنتين ووجهها المتطلع وشفتيها المشوقتين وصدرها الصاعد الهابط ينطق بالحب الصادق واللهفة الحارة، وكان يجالسها ويحادثها ويضمها إلى صدره بحنان وشوق ويقبل ثغرها قبلات عنيفة... فاذا أخفت وجهها في صدره — وأصبح بمأمن من عينيها — تمهد عزوناً أسيفاً، وقال لنفسه بصوت غير مسموع: كيف أحرم هذا النعيم دون ذنب أو جريرة! يا لك من بائسة يا حبيبتي... تمثلين مأساة الوداع وأنت تجهلين... وكان يعلم أن هذه الحال لن تدوم طويلاً، فكان يسائل نفسه جزعاً: «ماعسى أن أصنع بالبقية الباقية من حبوبتي؟» فليس من المبين أن يفرط الانسان في سعادته ولا أن يزهد فيها وهي على وشك الذهاب، فما العمل؟ هل يعجل بالزواج من فتاته؟ لن يتسنى عليه تحقيق ذلك، ولكن ماذا يفعل غداً إذا حم القضاء؟ وكيف يحتمل تلك الفضيحة المدخرة له؟ إنه يصبر على المكاره جميعها في سبيل أن يتلافى تلك الفضيحة، وقد فكر جدياً في أن يهجر حبيبته، وكأنه يهجرها لزهد أو لملل تستراً على عجزه لولا أنه وجد من نفسه ميلاً إليها لا قبل له بمقاومته... فما العمل إذاً؟... وخطرت في باله أفكار حمراء خالطت نفسه في حذر وتهيب ولكنه طاردها بعنف شديد وأغلق دونها قلبه يأساً وخوفاً...

وفي ذلك الوقت ذهب مرة لزيارتها في بيتها فوجده خالياً إلا من خادم عجوز، فطابت لهما خلوة جميلة وجلسا يتناجيان ويتباثان الحديث، وكانت عطية تطلب مثل هذه الخلوة لتصارحه بما ترددت في التصريح به... فقالت له همساً بالرغم من انفرادها:

«ألاحظ عليك شرود اللب والكآبة في أحيان كثيرة...»

«أنا!...»

«ألاحظ أحياناً أنك تكون منهمكاً في الحديث معي والبهجة تشمل حواسك جميعاً... ثم تجمد بغتة قسمات وجهك كأن نفسك اصطدمت على غرة بخاطر أليم... فتظلم عيناك، ويثقل جفناك... وكأنك تشفق من نفاذ عيني فتعود إلى الأخذ بأسباب الحديث ولكن تخونك بهجة الروح... لماذا؟... لماذا؟... ما الذي يكدر عليك صفوك؟»

فاستولى عليه الارتباك، وقال لنفسه: «آه لو تعلمين ما يكدر عليّ صفوي...»

ثم قال لها بصوت مسموع كالمعتذر: «لعله أثر من آثار المرض»

ولكنها هزت رأسها بارتياب وقالت وهي تديم إليه النظر:

«المرض؟... إنك صحيح معافى»

« أؤكد لك أن نفسي آمنة مطمئنة ولا داعي للقلق مطلقاً ... »

« حقاً ؟ ... »

« لا تدعي الشك سبيلاً إلى نفسك »

وأراد مخلصاً أن يبدد مخاوفها وأن يغير مجرى الحديث إلى ما هما بسبيه من الخلوة السعيدة الطاهرة فضمها إلى صدره ونال من شفتيها المنفرجتين الهامتين بالكلام قبلة طويلة حارة رطبت ريقها شفته ... وليثا في غيبوبة غرامية يحس خلالها بصدرها الصاعد الهابط بين يديه ويشعر بملامسة نهديها لصدره المضطرب الخافق ، وكانت تلك الملامسة الرقيقة كأنها مس شيطان جذبه من عالمه الدنيوي ، إلى جحيم متقد تفور فيه الشهوات ، ويسيطر الجنون فتفتق قلبه بماطفة نارية ، والتمع ذهنه بأمنية خبيثة؛ وسرعان ما وجد جواب السؤال الذي عذبه وسهده: « ماذا أصنع بالبقية الباقية من حيويتي » حاضراً بين يديه ... وليكن ما يكون ...

وأحست عطية بأنه يضمها إلى صدره بعنف لم تعهده من قبل ... وأنه يلتهمها بعين وحشية تتقد فيها نظرة جنونية ... فداخلها خوف وهمت بالابتعاد عنه ... ولكنه تعلق بها بقوة ، ولف يديه حول خصرها بعنف وفظاظة ، فاشتد بها الخوف وطالعت صفحة وجهه بنظرة مريبة فامتلأت رعباً وأخذت تقاومه مقاومة جدية وتدفعه عن نفسها بما أوتيت من قوة وتهتف به ضارعة متوسلة باكية ، وما يزداد إلا عنفاً وجنوناً . فلما لم تفن عنها جميع محاولاتها صرخت بأعلى صوتها تستغيث بالخادم العجوز ... وشلت الباغتة حركته حيناً ، فجمد ، ثم استولى عليه غضب كاسر فرفع يمناه وضربها في وجهها ضربة شديدة وقعت على أثرها على الأرض وقد انعقد منها اللسان ... فارتد إلى الوراء مترنحاً كالثمل وغادر البيت في ذهول شديد

ما الذي فعل ؟ ... كيف سولت له نفسه محاولة اغتصابها ؟ ... بل هب أنه فاز بمأربه فماذا كانت تكون العاقبة؟ ... كيف انقلب وهو الوديع الدمث وحشاً اثيما سافلا بلا تدبير سابق ولا تعمد مبيت ؟ . كيف هانت عليه فأطاعته يده الشريرة في توجيه تلك الضربة القاسية إلى وجهها الجميل ؟ ... يالله من ألم أليم وخزي باق لا يزول ...

ولما هدأت نفسه قليلا وسكت عنها الغضب وخفتت بها أصوات التأنيب وأنات الخزي والخجل واستطاع أن يذكر أمرا آخر فيطيب بذكره ويرتاح له، ذكر أنه تخلص من فتاته، وهو وإن كبر عليه إلا أنه ضرورة لا مندى عنها، وقد تخلص أيضا بغير افتضاح سره وهو ما كان يرجو ويتمنى، ولئن يفقدها وهي تعتقد وغريمه يعتقد أيضا — أنه رجل غادر سافل خير من أن يفقدها قهرا وعجزا وهي ترثي لمواته وغريمه يطير فرحا وشماتة به ... وبهما يكن الأمر أليما ممضا إلا أنه أوفق حل. وتهاد الكارثة المتوقعة من حين لآخر ...

وعلى أثر هذه الحادثة مباشرة انفلت منه زمام نفسه ، واختلت موازينه واضمحلت إرادته فغلبه الفور واليأس وحز في نفسه انهيار سعادته ، وتهدم آماله، فأغرق في الغواية إغراقاً وأوغل في الفجور إيغالا ، وكان أكثر ما يرى في رفقة نسوة ممن اصطلح على تسميتهن بالساقطات ، وكان يتعمد أن يظهر معهن في سبيل حبيبته أو غريمه ، وكان يأتي هذا بشراهة ليزود نزود الوداع وليستر على العجز

2017-11-1

الكامن فى أعماقه ، وليوهم غريمه البغيض بأنه زاهد لايائس ؟ وأقسم ليتقين على سلوكه هذا ولو بعد حدوث الكارثة دفعاً للظنون وشفاء للصدر وقهراً لكل شامت أو ساخر ... ثم وقعت الواقعة وتم التطور المقدور ...

ولسنا هنا بسبيل وصف هذا الماء بصفة عامة فقد يحدث أنواعاً لا تحصى من الجنون والشذوذ ولكنا حيال حالة خاصة ...

وقد شاهد سامى التغير بارتياع ودهشة، وأحس قانطاً بالحرارة تتسرب من طوايا قلبه ، واستولى عليه جمود وتأفف بلغا حد الزهد والشبع، وسرت فى عروقه برودة الشيخوخة والهرم ... حقاً إنه تغير خطير غريب ...

كانت تطيب له معاشرة النساء ويسعده الجلوس إليهن والاستماع لهن، فزهد فى ذلك كله غير آسف ولا حزين، ولا أحس بأنه فاقد بفقدهن شيئاً ذا بال، ولم ينظر إليهن إلا بالعين التى ينظر بها الرجل الكامل الرجولة إلى اللعبة التى كانت تستهوى طفولته وتستأثر بها

وكان أخوف ما يخافه أن تبقى رغبته ناشطة قوية ويعجز عن إشباعها ، ولكن الموت أدرك الرغبة نفسها واقتلع الشهوة من جذورها فانهار معبد المرأة فى نفسه وتبخرت العواطف التى تخلقها فى قلوب الرجال ، فاستهان بالأمر ولم يذق أسفاً ولا وجد ألماً ولا حزناً، فكان فى حرمانه كما يكون فى شبعه ، إذ ماذا تعنيه أى امرأة بعد فقدان هذه الرغبة ؟ تغدو صورة غريبة سخفها ظاهر وحسنها غامض لا معنى له ... كالمال فى عين الزاهد الصادق الزهد ... ليته كان يعلم ذلك من قبل . . . ! لقد حزن فبالغ فى الحزن . . . وأسف فغالى فى الأسف . . . وتحسر فجن حسرة . . . وحاذر من أن يفتضح أمره لدى حبيبته وأشفق من أن يشمت به غريمه . . . لماذا ؟ . . . لماذا ؟ . . . لا حزن ولا أسف ولا حسرة . . . وليذع فضيحته من تسره إذاعتها، وليشمت به من تطيب له الشماتة به ... إنه أسمى من ذلك وأعلى ... إنه لا يبالى بالتافهات...

* * *

وأعجب ما حدث له بعد ذلك أن وصلته رسالة من حبيبته — أو من كانت حبيبته — تطلب إليه أن يوافيها إلى موعد . . . وكانت مصوغة فى قالب مختصر ، شديد الاختصار يذكر بلهجة الرسالات البرقية ، فدهش دهشة عظيمة وسأل نفسه ماذا تريد عطية منى ؟ وما الذى دعاها إلى تحرير هذا الخطاب ؟ وهل يحسن به أن يذهب إلى لقائها أم أولى له أن يتروى ويتحقق من أفقها إلى الأبد ؟ وأحس بدبيب الخوف يسرى إلى قلبه ولكنه لم يستسلم إليه وصدقت عزيمته على الذهاب ...

وفى الموعد المضروب جاءت تسعى إليه فى مشيتها الرقيقة وحركاتها الرائعة . ولما صارت منه على بعد خطوة رمقته بنظرة عتاب أنبأ بريقها الخاطف عن بشائر ابتسامة خفيفة تتألب للظهور ، وأكتفت بها تحية وجلست إلى جانبه على الأريكة المظللة بأغصان الكافور ... إنه يعلم بما يسكنها ويعلم بما يربكها ... فلقد أتته حقاً ولكنها أتت مهمومة متألمة ، وأقل ما تنتظر الآن أن يتحسس للقائها، ويفيض مخلصاً فى الاعتذار وطلب الغفران ... إنه يعلم بذلك كله ،

2017-11-1

ولكنه لا يجد من نفسه أدنى استعداد للرياء والتمثيل فظل ساكناً جامداً يقلب ناظريه فى قسمات وجهها وجيدها ويديم النظر إلى ثديها وساقيها العاريتين. ويتعجب أيما تعجب ... كانت هاتان العينان تنفذان إلى أعماق قلبه وتفتحان مغلق مشاعره فتبثان به حياة آتيها القوة والجمال والنشوة ... وكان هذا الجسم البض يطلق شرارة حامية إلى أعماق صدره تسرى إلى فرائصه وأعصابه فتجعلها شعلة من نيران موقدة ... فما له اليوم لا ينفذ سحر إلى قلبه ؟ ولا يقوى جمال على بث عواطفه ؟ وما بال صدره هادئاً بارداً كأنما قدت ضلوعه من الثلج ؟ وما بال هاتين العينين لا تنفذان إلى قلبه ولا تفتحان مغلق شعوره ؟ ما بال هذا الجسم لا يبث ناراً ولا يشعل وقوداً ؟ كيف أمست هذه النظرة لا معنى لها ؟ وكيف أمسى هذان النهدان ولا مغزى لهما ؟ ... يا عجباً ... وكان لابد له أن يقول شيئاً فقال بصوت هادئ :

« كيف حالك يا عطية ؟ »

ولم تجبها لهجته ولا ارتاحت لنبرات صوته فحدجته بنظرة لوم صارمة وقالت :

— يا غادر !

فأحنى رأسه أسفاً وذكر لقاءها الأخير وما وقع فيه فقال :

— مسنى الجنون ذلك اليوم... كم أنا آسف .. غفرانك ...

— وأنا استولى على رعب شديد فدافعتك بقوة وما أدري ...

— قد أكرمتنى فوق ما أستحق ... وسكت عن سفاهتى ...

— مع هذا فقد غضبت على غضباً شديداً ، لما تنفره لى ...

— أنا ... ؟

— كيف السبيل إلى النكران ؟ لقد انقطعت عنى ... وهجرت مودتى ... وتناسيت عهودنا ، وقد انتظرت طويلاً أن تثوب إلى عقلك وترجع إلى كيما نصفى حسابنا ... انتظرت طويلا ... وانتظرت عبثاً ...

— إنى آسف يا عزيزتى ...

— وليتك قنعت بكل هذا... بل رأيتك عيناى تسير فى رفقة ... إخص يا ... كم تألمت ، إن الندم قاتل أليم ... »

أوّاه ... إنها تنفخ فى « قربة مقطوعة » كما يقول المثل السائر، حقاً إنها تتكلم فى حماسة وحرارة وصدق ، ولكن كيف له باستجابة دعائها أو تلبية ندائها ، فاكتفى تهرباً بتنكيس رأسه ، وقد روعت لجوده وضاق صدرها به واحتارت فى تعليله وأحست بيد اليأس تقبض على أنفاسها فقالت جزعة مذعورة

— مالك ..؟

فلما لم تبد عليه أى رغبة فى الكلام عادت تقول بلهفة :

مالك ؟ أمريض أنت ؟ .. لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تحدثنى ؟... لم لا تكلف نفسك مشقة الاعتذار إلى ؟ ... تكلم بحار أو بر ... لن أتردد فى نسيان الماضى إذا طلبت إلى ذلك ... كلمة واحدة ونبدأ صفحة جديدة ... أواه ياسامى إنك لا ترغب فى الكلام ...

— إنك لا تعلمين ...

— تكلم ... تكلم ... ماذا ينبغى أن أعلم ؟

2017-11-11

ما فائدة المواراة والتردد؟ وما وجه الحكمة فى مد أجل هذا اللقاء الذى قد يكون آخر لقاء بينه وبين امرأة ؟ وآخر ما يسمع من حديث الحب وأهواله ؟ لا فائدة ترجى، وأولى له أن يصارحها بالحقيقة ...

الحقيقة ! ...

كان بالأمس يشفق من ذلك إشفاقا شديدا ويفتديه ببذل النفس ومقارفة المخافات، أما الآن وقد ماتت تلك الشجرة الباسقة المتفرعة فقد سارع الجفاف إلى ساقها فذبلت أغصانها واصفرت أوراقها وتناثرت أزهارها وأمست شبحاً كئيباً لا يرجو بعثا ولانشورا. لقد أظلم عالم الحب البهيج وأقفرت وديانه وسكتت بلابله وتبددت أخيلته واقتضحت أوهامه واستحال مقبرة لا حياة فيها ولفظا لا معنى له وذكر لا أسف عليها ... وجمع فاول قواه وذكرى للفتاة العاشقة الحقيقة العارية فى عبارة مقتضبة وتلقى نظرتها الملتاعة الحيرى بهدوء عجيب ،، وانتهى كل شىء

أهكذا ينتهى الحب ؟ ...

وهل تنتهى عوالم الانسان الأخرى الشاسعة وأحلامه السامية إلى أصول عناصر خافية فى طبيعته ؟ وهل إذا كتب على إحداها الموت تبدد عالمها وتلاشت أحلامها وأضحت هباء وأوهاما ؟ أمن الممكن أن يكون نصيب الحق والجمال والبطولة والجلال نصيب حب سامى السيء الحظ ؟

نجيب محفوظ

كتـــابان قيمان

سيظهران فى أوائل أغسطس

هكذا تكلم زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

اعترافات فتى العصر

للشاعر الحالم ألفريد دى موسيه

وكلاهما ترجمة الأستاذ

فليكس فارس

من أرسل ٢٠ قرشاً قبل صدور الكتابين عد مشتركا فيرسل له الكتابان إلى حيث يقيم داخل القطر أو خارجه «دون علاوة لأجرة البريد» ، ومن أرسل ٢٥ قرشا يرسل له أيضاً كتاب «رسالة للنبر إلى الشرق العربى» تأليف المترجم — العنوان : إدارة مطبعة البصير بالاسكندرية

مؤلفـــات

الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (على بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جيم الكتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من

شركة البذور المصرية بميدان ابراهيم باشا

2017-11-1

مفارقات الشارع

للكاتب الأمريكي دون ماركيز
بقلم الكاتب الأديب محمد مجدي مقرر

خسر (مريوذر بوك) كل ماله كما أضاع ما كانت تملكه شقيقاته وبنات عمه وخالاته ... وفي ساعة من ساعات الضيق واليأس قال محدثاً نفسه :

— سوف أضع حداً لتلك المهزلة بطلق نارى واحد أصوبه نحو قلبي ... ولن يتأخر تنفيذ ذلك عن الساعة الثانية بحال من الأحوال ... الساعة الثانية تماماً ...

وتلمس مسدساً آلياً ذا عشر طلقات كان موضوعاً بعناية في الجيب الأيمن لمعطفه الثقيل ، ثم خرج يتسكع في طرقات برودواى .

كان يسير في خطى متعثرة بطيئة تخطى المخمور . ولا غرو فإنه لم يتناول طعاماً منذ يومين كاملين لا لسبب إلا أنه لم يجد ما يأكل

ألقى نظرة على شوارع المدينة المترامية الأطراف وتمتم مخاطباً إياها ، وكأنه يتمثلها أحد أبناء البشر يسمع ويعي ما يوجه إليه من حديث :

— كم أكرهك أيتها المدينة الملعونة ! وكم كنت أتمنى أن تكفى تسع رصاصات للقضاء عليك وتدميرك ... آه لو كانت تكفى تلك الرصاصات التسع لخرابك ! إذن لما ترددتُ لحظة واحدة في إطلاقها عليك متتابعة كالسيل الجارف أو المطر الهاطل ...

كان هذا أسلوباً عنيفاً غير لائق من أساليب التفكير والتعبير وخاصة إذا علم أن مصدره كان شاباً في مقتبل العمر تلقى قسطاً وافراً من التعليم والتهذيب ، ولكن المسكين كان فاقداً لكل شعور ، مجرداً من كل وعي

أما المدينة وكيف تلقت كلماته الثائرة النارية فلا حاجة بنا إلى القول بأنها لم تعر ذلك التفاتاً ، كما لا حاجة بنا إلى القول بأنها استمرت في حركتها ولنطها وضوضائها وجلبتها كما كانت قبل أن تتحرك في جوها تلك الموجات الصوتية الضعيفة الخائرة التي انطلقت من فم مريوذ بوك

ولو كانت المدن كالبشر تشعر بما يدور حولها لكان شعور هذه المدينة في تلك اللحظة شعور السخرية من الجنون الذى يريد تدميرها والقضاء عليها برصاصات تسع تخرج من فوهة حديدة صغيرة موضوعة في جيب معطفه ...

والذين جربوا اليأس والبأساء من الناس كثيراً ما شعروا بخيبة الأمل عندما كابدوا الشعور الذى كان مريوذ بوك يكابده في هذه الآونة

يمتلىء قلب الواحد منهم غيظا وحنقا على المدينة التي يعيش فيها والتي يعتقد في قرارة نفسه أنها سبب شقوته وبلائه ويتمنى أن يسمع المدينة رأيه فيها ولكنها لا تشعر به ولا تحس بما يتأجج في صدره من نيران

وفي اعتقادى أن الثائر على مدينة من المدن لن يستطيع أن يشفى غليله منها كما يحب ويهوى إلا إذا حدث بصدفة غريبة أن كان هو نيرون بعينه

* * *

الساعة الآن الواحدة ...

اخترق مريوذربوك أحد شوارع ميدان هيرالد متجها نحو عمارة كبيرة هي إدارة إحدى الصحف اليومية الكبرى ، فما كاد يقف هناك لحظة حتى خرج من العمارة شاب تبدو على وجهه وحركاته إمارات الجد والتفكير، غير أن عينيه كانتا تقترنان كثيراً إلى بريق الذكاء في نظراتهما

وقف الشاب على عتبة الدار واضعا كلتا يديه في جيبي سترته الثمينة واستسلم للتفكير غير ناظر إلى ما حوله؛ فانتهز مريوذربوك هذه الفرصة واقترب منه ثم وجه إليه الحديث قائلا :

— أسألك المعذرة ياسيدي . ألست مخبراً من مخبري الجريدة ؟

هز الشاب رأسه ولم يصدر عنه إلا سوت عميق كصوت الخنزير قائلا :

— نعم ...

— إذن فإني متحدثك بقصة نادرة

صمت المخبر ، ولكن مريوذربوك استمر في حديثه قائلا :

— قد نعيش في الحياة نكرات لا أهمية لها، ولكننا جميعاً نحب أن نشعر قبل انقضاء تلك الحياة أن موتنا سيحدث أثراً ما ولو كان طفيفاً ...

فكان جواب المخبر صوتاً آخر شبيهاً بالأول هو:

— وبعد ؟ ! ...

قال مريوذربوك في لهجة الجد والصراحة الصارمة :

— عند ما تحل الساعة الثانية سأطلق النار على نفسي

فبدت على المخبر دلائل خيبة الأمل إذ كان عمله في الجريدة قاصراً على الأخبار السياسية ، ولكنه قال موجهاً السؤال إلى محدثه الغريب الأطوار :

— وهل أنت من أصحاب الأسماء المعروفة ؟

— لا ...

ولم يزد على ذلك حرفاً لأنه كان يعلم أن من العبث إضاعة الوقت في ذكر اسمه واسم الأسرة التي ينتسب إليها ؛ وسواء قال إنه يدعى مريوذروأنه من أسرة بوك إحدى أسر ولاية جورجيا أو لم يقله فالنتيجة واحدة ، وهو أنه نكرة ابن نكرة ومجهول من أسرة مجهولين

قال المخبر في لهجة تنم عن اللوم والتوبيخ :

— أظن أنك قلت قبل الآن إنك ستقدم على مسامعي قصة ذات أهمية ؟ فهل عزمك على قتل نفسك هو تلك القصة النادرة ؟

— أجل .. ألست على الأقل أحد أبناء البشر ؟

— أبناء البشر ؟ يالك من معتوه .. أيتساوى أبناء البشر في كل الأمور ؟ إن فيهم من هو أرخص وأتفه مما تظن يا عزيزي

وما كاد يصل إلى هذا الحد من حديثه حتى أبدى حركة دلت على رغبته في الانتهاء من ذلك الحديث الذي لا يقدم ولا يؤخر وهمّ بالانصراف

غير أن مريوذربوك اعترض طريقه وصاح به قائلا :

— يالك من كافر جاحد ... أتكفر بالحياة يا هذا وبقدسية الروح ؟ ... ولكن لا ... ليس لي أن أنتظر منك غير هذا . أفلست صخراً من صخور نيوبورك التي خلقت على صورة البشر وألبست ملابس الرجال ...؟ ذلك رأيي فيك فهل

2017-11-11

سمته ... وهل علمته ؟ وأظن أنى سأبدأ بقتلك أنت قبل قتلى نفسى

— لا، لا يا عزيزى... ليست لى رغبة الآن فى الموت، ولن أسمح بحدوث ذلك قط، فإن لدى صفقة من أحسن الصفقات

ووضع مريودزبوك يده فى جيب معطفه الأيمن وقبض على المسدس الصغير بين أصابعه وهم بإطلاقه ولكنه عدل عن رأيه فى اللحظة الأخيرة لا خوفاً من المصير أو رهبة من الموقف... ولكن لأن فكرة عاصفة طارئة مرت بذهنه المكدود لا يدرك لها كنهاً ... وأخرج يده فارغة من غير سوء ...

وبذلك ابتعد الخبر عن القبر المحفور الذي كاد يتردى فيه ...

واستأنف مريودز حديثه قائلا :

— أنا جائع ...

فلمعت عينا الخبر قليلا وقال :

— لقد ذكرتنى .. يا عزيزى .. لقد ذكرتنى.. أنا الآخر أشعر بالجوع

ثم عبر الشارع متجها نحو مطعم قريب سرعان ما اختفى وراء بابه الدائر

ولم يتكلم مريودز حينئذ ولم يبد حراكا، غير أن سوتا من أعماق نفسه كان يتكلم ويتكلم ...

— يالهذا الانسان المتحجر القلب والعاطفة ..! يا لهؤلاء الناس أبناء هذه المدينة الملعونة !

ومكث فى صمته قليلا يستمع إلى ذلك الهاتف فى أعماق نفسه، ثم تكلم أخيراً فى صوت منخفض ولكنه عميق، إن دل على شيء فعلى الاصرار والعزم الأكيد قال :

— نيويورك .. إنك الآن فى قفص الاتهام .. إنك الآن على كفة الميزان، إننى أمهلك ساعة واحدة. فان دعيت إلى النداء فى خلال هذه الساعة نجوت من التجربة الهائلة التى قدرت لك، وإن لم أدع فالويل لك. سأقتل نفسى... نعم . ولكنى قبل أن أفعل ذلك سأبدأ أولا بقتل أكبر عدد ممكن من أبنائك : أبنائك الناجحين الموفقين الذين تحتضنهم وتحدبين عليهم . أكبر عدد ممكن.. أكبر عدد أستطيع أن أصل إليه برصاصاتى التسع ... نيويورك ! لقد انتهى كل شيء .. نيويورك، أنت الآن على وشك مشاهدة مذبحة مروعة من مذابح التاريخ

كانت فكرة عابرة، ولكنها أطربته وراقته؛ ولا عجب فقد جبل عجباً لألاعيب الصدف ومفارقات الحظوظ .

واستسلم للتفكير وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه :

— قد يحدث الآن أن يخرج رجل ناجح أو امرأة ناجحة من بين ألوف الناجحين والناجحات فى المدينة فيكون على يديه أو على يديها إنقاذ الموقف، وبالتالى إنقاذ تسعة آخرين من موت محقق

— إذ أنه سيحتفظ بالرصاصة العاشرة لنفسه — وقد لا يحدث هذا فتكون النتيجة وبالاً

وهنا استولت عليه نزعة من نزعات الكبر والغرور، وسرت فى جسده رعدة كرعدة المحموم .. أليس هو الآن قادراً على سفك الدماء ! ...

وقهقه ضاحكا من تفاهة قيمة الحياة ... حياة الانسان

وكانت هناك امرأة تسير مخترقة الطريق على مقربة منه فى تلك اللحظة فلم تكد ترنة ضحكته تصل

إلى أذنيها حتى التفتت إلى الوراء لترى مصدر تلك الضحكة الساخرة وبذلك تلاقت عيونهما ...

كان مريوذر بوك حسن المنظر وكذلك كانت المرأة ، ولكنها كانت إلى جانب حسن منظرها من النساء اللاتى تكفى نظرة واحدة من الرجل إليهن لمعرفة حقيقتهن ! ...

تقدم مريوذر بوك نحو المرأة ووجه إليها الحديث قائلا :

— أرجو المعذرة يا آنسة ، ولكن ألا توافقين على تناول الغداء معى ... أ ... أعنى على أن نتناول الغداء معاً

فضحكت ضحكة رنانة وقالت :

— تعجبنى جرأتك

والواقع أن جرأته كانت تعجبها . واقتربت منه حتى كاد جسدها يلتصق بجسده وقالت :

— وأى مكان تختار ؟

— المكان الذى يروقك أنت .. ذلك متروك لتقديرك ، لأنى معتمد عليك فى دفع ثمن ما سنأكل

فضحكت ظناً منها أن حديثه هذا نوع من أنواع المزاح المبتكر، ولكنها عندما نظرت إلى وجهه أيقنت أنه يعنى ما يقول

قالت :

— تعجبنى جرأتك

وفى الحقيقة لم تكن جرأته موضعاً لاعجابها فى تلك اللحظة كما كانت منذ دقيقة واحدة، وسبحان مغير الأحوال !

واستأنف مريوذر بوك حديثه قائلا :

— قد تبدو ملابسى فى حالة حسنة إلى هذه اللحظة ، ولكن لاتغرنك المظاهر ، فأنا لا أعدو أن أكون رجلا غائباً، محطماً وفوق ذلك فإنى جائع؛ بل لاتكفى كلمة الجوع للتعبير عما أشعر به من حاجة إلى الطعام . لم أتبلغ بلقمة واحدة منذ يومين يا آنستى العزيزة . إننى لا أخدعك ولا أكذبك القول ولا أموه عليك ، والله شهيد على ما أقول ؛ وعند ما وقع نظرى على شخصك الكريم توسمت فيك الخير ، وأحسست أن الحديث معك فرصة لاتعوض؛ والجوع كما أعتقد له حسنة واحدة هى أنه يهب الانسان خبرة نادرة بالوجوه . فذلك قاصرت على وجهك

غير أن كل هذا الحديث العذب المنمق لم يبلغ الغاية التى كان المسكين يرى إليها . فرمقته الفتاة شزراً وقالت فى لهجة الشخص الذى يدفع عن نفسه إهانة لحقت به :

— دع عنك هذا الملق المبتذل ووفر عليك عناء الرياء والمداهنة ؛ واعلم أننى خدعت فيك حين ظننت أنك رجل شريف ! ...

ثم انطلقت من أمامه مسرعة ؛ وعند ما حاول أن يتبعها توقفت عن المسير والتفتت إليه صائحة به :

— أغرب عن وجهى أيها اللص الذى يعيش على فضلات النساء . أغرب وإلا دعوت رجل الشرطة ليقودك إلى المكان اللائق بأمثالك

وابتعد مريوذر بوك ... ابتعد

* * *

الساعة الآن ثلث واحدة و ... ومعنى ذلك أنه انقضى من المهلة التى حددها ذلك البائس لتنفيذ خطته ثلث ساعة يصبح بعدها فى خبر كان بعد أن يمحو من الوجود عدداً لا يعلمه إلا الله ممن قدر لهم الموت برصاصات مسدسه

سار على غير هدى إلى أن وجد نفسه أخيراً

2017-11-11

أمام محطة من المحطات حيث لمح شخصاً يدل مظهره على أنه ذو مركز خطير فى الحياة يخرج من أحد الأبواب . تأمل وجهه بعينيه الزائغتين ليقرأ فيه ما طبعته أخلاقه وميوله ، فدلته وجنتاه المتوردتان على أنه ذو طبع مرح ومزاج منبسط . لا شك أن سنوات طويلة قضاها هذا الرجل فى البر بالناس وإسداء المعروف إليهم هى التى أكسبته هذا الطابع وتلك الطبيعة

اقترب مريودر بوك من ذلك الرجل العظيم وقال فى ذلة وانكسار :

— لا تؤاخذنى يا سيدى على فضولى وجرأتى ولكنى توسمت فيك الخير واستبشرت بلقائك . ويغلب على ظنى أننى الآن فى حضرة أحد وزرائنا العظام . أليس السيد وزيراً من وزراء الدولة ؟

فأخرج الرجل من جيبه منظاراً ذا سلك ذهبى وقربه من عينيه وهو يقول فى لهجة مرحة :

— نعم إنى وزير ، فما حاجتك يابنى؟

— أنا جائع

— جائع ... ؟ لم يخطر ذلك ببالى قط

— ولكنه الواقع يا سيدي ، فهل تدعونى لتناول الغداء ؟

— إه ...

كان سؤالاً غريباً ، ولكن الرجل تقبله قبولاً حسناً ولم يتبين في حركاته ما يدل على الضيق أو التذمر ، بل صمت لحظة وكأنه يحاول صياغة رد لا يصدم شعور محدثه ؛ وأخيراً قال :

— يا عزيزى الفاضل ... أنت تعلم ... تعلم حقيقة ...

ثم أسند إحدى يديه على كتف مريودر بوك بشكل ودى يدل على العطف ورقة العاطفة

وانتظر مريودر تتمة الجملة التى بدأها الوزير بصبر نافد ، ولكن هذا لم يتكلم بل اكتفى بأن ضحك ضحكة قصيرة لعله اعتبرها غاية معنى

قال مريودر بوك :

— ولكنى أطلب إحساناً ...

فما كاد الوزير يسمع كلمة الاحسان حتى تنفس الصعداء كمن يعثر على ضالة طال بحثه عنها وقال :

— حسن ... إذن فأنت تطلب إحساناً ... هل قصدت ... ولكنى أحب قبل أن أستطرد فى الحديث أن أسألك سؤالاً

— إننى رهين إشارتك يا سيدى

— هل أنت جاد فى حديثك أم هو نوع من أنواع المزاح ؟

— وهل يجوز المزاح في شأن كهذا ، بل أنا جاد يا سيدى كل الجد

— هل اتصلت بإحدى الجمعيات أو المؤسسات الخيرية المعروفة ؟

— كلا ... وأحسب أن ...

فقاطعه السيد قائلاً :

— يا ... يا ... يا ...

ثم أخرج بطاقة من حافظة نقوده وتناولها بين أصابعه وأخذ يدوّن عليها بضع كلمات وهو يقول :

— سأعطيك بطاقتى الآن وما عليك إلا أن تقدمها إلى (سكرتير) الجمعيات الخيرية المتحدة ... إنها مؤسسة حسنة النظام كما أعتقد. هناك سيتحرون أمرك وأمر سيرك وسلوكك وظروفك وأخلاقك وسوابقك

— كل ذلك لكي يطعموني وجبة واحدة ؟

— بطبيعة الحال

ولما فرغ من الكتابة تأمل مريوذر البطاقة وكأنه يناوله مفاتيح الدنيا بأسرها وهم بالانصراف ولكن مريوذربوك قال

— ولكني أريد أن تقوم أنت بإطعامي الآن

فابتسم الوزير وهو يقول :

— لقد فعلت ياعزيزي ... إنني مشترك من مشتركي هذه المؤسسة الخيرية وهذه هي طريقتي الوحيدة في الاحسان وهي طريقة مثلى توفر كثيراً من الزمن

— سؤال أخير ياسيدي

— وما هو ؟

— ألا تريد سماع قصتي ؟ ألم تثر فيك حالي ولو قليلا من الاهتمام ؟

فبدا الضيق على وجه الوزير جلياً ولكنه قال مخفيا ما يدور بخاطره

— قصة ... قصة . هناك ياولدي سيستمعون إلى قصتك بآذان واعية . إن عملهم منظم ولديهم ملفات كثيرة كلها قصص وحكايات ، مئات من القصص ... أكوام من ملفات القصص لكل ملف منها رقم خاص وستأخذ قصتك رقما من هذه الأرقام قد يكون المائة بعد الألف

ثم ختم حديثه قائلا في شيء من التحمس :

— أؤكد لك أن طريقتهم من أحسن الطرق . أستودعك الله

كان الرجل يريد إنهاء الأمر كله بهذه الجملة، غير أن مريوذر تشبث بأذياله في إصرار عجيب وهو يقول

— ألم تجد شيئا من الغرابة في أمري ؟ ألا تريد أن تعرف لماذا أنا جائع أليس لديك الوقت الكافي للاستماع إلى بنفسك ؟

— الوقت .. الوقت يابني هو الشيء الوحيد الذي يموزني والذي أبحث عنه في ظرف كهذا فلا أجده ولكني سأدلك على ما تفعل

ثم أخرج بطاقة ثانية من الحافظة المتنفخة وكتب عليها بضع كلمات أخرى ثم قدمها إلى مريوذر وهو يقول :

— إذا أردت أن تقص عليّ حكايتك خذ هذه واذهب إلى مكتبي حوالي الساعة الثالثة والنصف . هناك ستجد كاتبي المختزل فأملي عليها ما تريد وستقوم هي بعد ذلك بكتابته على الآلة الكاتبة وتقديمه إليّ ...

ثم انسحب من أمامه وذهب

***

كانت الساعة وقتئذ واحدة وخمسا وعشرين دقيقة ... أي أنه بقيت من ساعات الحياة خمس وثلاثون دقيقة !! ...

استأنف مريوذر بوك تسكعه في شوارع نيويورك متصفحاً وجوه المارة واعترض طريقه أحد النسوليين فلم يتردد في منحه بطاقتي الوزير اللتين تخولان لحاملهما دخول الجنة بغير حساب، ثم اتجه ناحية الشرق ماراً بالشارع الثاني والأربعين .

وإذا كانت حياة الانسان قد انقضت ولم يبق في عمره إلا دقائق معدودات فلماذا لا يقضي هذه الدقائق في الشارع الخامس ... هناك يستطيع أن يمتع النظر بأحسن المشاهد وأعظمها

والواقع أن هذا الشارع كان أنسب مكان لمن كانت غايته كفاية ساحبنا . في ذلك الشارع يستطيع

2017-11-11

الانسان أن يلتقى بأعظم الشخصيات وأهمها وماذا يريد هو غير ذلك ؟

وما كاد يقف هناك لحظة قصيرة حتى رأى أمامه عجباً . رأى مشهداً لم يكن يخطر له ببال: على أن ذلك المشهد لم يكن حادثاً خطيراً أو معركة هائلة كما لم يكن رغيفاً من الخبز معه قطعة من لحم خنزير مشوى ... كلا ... إنما هو رجل

لم يصدق مريوذر عينيه فى بادئ الأمر وقال مخاطباً نفسه

— هذا غير ممكن ... هذا مستحيل ... إنه شخص آخر

وفى هذه اللحظة اقترب الرجل منه فعلم مريوذر أن عينيه لم تكذباه الخبر

أما الرجل فكان ج. ديمون إيفانز أكبر رجال المال فى نيويورك ، نعم هو بعينه ، إن مريوذر بوك يعرفه حق المعرفة ويستطيع تمييز وجهه من بين مليون وجه

هاهوذا المستر إيفانز على قيد شبر واحد من فوهة مسدس مريوذر بوك . أليست هذه مفاجأة يطيش لها صواب أكثر الناس ثباتاً وأسلبهم عصباً فضلا عن إنسان عطم لم يذق الطعام منذ يومين ؟ غير أن مريوذر بوك تلقاها صامداً لا يتأثر وكأنه الجبل الأصم

بعد دقائق معدودات يصبح المستر إيفانز صاحب الثروة التى تزرى بكنوز سليمان ومال قارون خبراً بعد عين ضحية من ضحايا اللعبة الخطرة التى يمارسها ذلك المناهر المجنون الجائع

أحس مريوذر بوك بقوة غير عادية ، وكأن دماً جديداً يجرى فى عروقه الجافة ... هاهى ذى مفارقات الطريق تضع تحت رحمته مصير عدد من دور المال الكبرى فى نيويورك لا يقل عن نصف ما فيها من دور ، وعلى تصرف مستر إيفانز معه يتوقف ذلك المصير ونوعه ، بل هاهوذا القدر الساخر يضع لقمة وقطعة من اللحم أو قليلا من الحساء فى كفة ميزان ويضع فى كفته الأخرى نصف ثروة أمريكا ولا يعلم إلا الله أيهما تكون الراجحة ! ...

فى استطاعة سبابة مريوذر بوك الموضوعة فوق زناد المسدس أن تقرر الآن لا مصير رجل واحد ، بل مصير شعب بأسره

قبض على المسدس وصوب فوهته من تحت الثوب إلى قلب المستر إيفانز وتقدم خطوة نحوه وهو يقول فى لهجة تنم عن الأدب :

— كم الساعة الآن يا سيدى ؟

ومضت ثانية قبل أن يجيب الرجل خيل لمريوذر فى أثنائها أنه يرى رأى العين عمارات المصارف تنهار واحدة واحدة ، وطرق السكك الحديدية تتحطم طريقاً طريقاً ، والمصانع تغلق أبوابها والأسواق تتعطل ، والمتاجر تتوقف عن الانتاج ، والمحاصيل الزراعية تترك فى الحقول ، والسفن التجارية ترابط فى الموانئ ليل نهار ، والكساد يعم جميع المرافق ، وراية الخراب ترفرف فوق المدينة

أخيراً رفع المستر إيفانز سيجاراً ضخماً من فمه وألقى نظرة شك وارتياب على مريوذر بوك وهم بالانصراف ، ولكنه عاد فعدل عن رأيه وأخرج ساعة فضية كبيرة الحجم ألقى عليها نظرة وقال فى لهجة يشوبها قليل من التذمر :

— الساعة الآن الثانية إلا دقيقتين

ثم عاد وقال فى لهجة أقل تذمراً

— هل أجد معك عود ثقاب أيها الشاب ؟

2017-11-11

بعد دقيقة واحدة سيسأل الرجل أن يطعمه فان لم يقبل قتله دون تردد ، ولكن لا بأس من إعطائه عوداً من الثقاب قبل ذلك .

أخذ يبحث فى جيوبه وهو فى أثناء ذلك يتذوق الوضع المناسب لاصابة محدثه فى مصرع ، وفكر فى رغبة الرجل الذي سيصبح فى عالم الأموات بعد ثوان فى التدخين فأضحكته المفارقة فأخذ فى القهقهة ثم قدم بعض أعواد الثقاب إلى الغريسة

غير أن مستر إيفانز ما كاد ينظر إلى الأعواد حتى صاح قائلا :

— وماذا أصنع بهذه الأعواد يا ولدي وهى كما ترى من النوع الذي لايشتعل إلا إذا حك فى علبته الخاصة ... أين العلبة إذن ؟

قال هذا القول وقد ثبت فى ذهنه تمام الثبوت أنه إنما يخاطب إنساناً به مس من الجنون

فضحك مريوذر بوك ضحكة هستيرية حادة وأجاب قائلا :

— هـذه فكرة علمية عظيمة ... هذا سر صناعى خطير

ثم استأنف الضحك والقهقهة ولم يكن يضحكه إلا ذلك الميت الذى يلح فى طلب التدخين ... !

وفكر المستر إيفانز قليلا ثم قال :

— سر صناعى ... أى سر ياسيدى ؟

فأجابه مريوذر وقد استولت عليه نوبة من نوبات الجنون :

— إنه سر عظيم ... إنها فكرة رائعة يمكن استخدامها فى إيجاد مدمر عظيم يثنينا عن استعمال السفن الحربية والمفرقعات الحالية التى تستعمل فى الحروب وفى المناجم ... و ...

فقاطعه المستر إيفانز قائلاً :

— كل هذا ... ؟ إذن فأنت مخترع

فكذب مريوذر لأول مرة إذ قال :

— نعم ياسيدى ... لقد اخترعت مدمراً أقوى من الديناميت ويمكن استخدامه بغير الحاجة إلى النـار خلافا للمعتاد عند استعمال البارود . مدمر لا صوت له ولا يتجمد بعد استعماله ، طريقة واحدة يمكن استخدامه بها وهى تقريبه من مادة كيائية أخرى كما هى الحـال فى أعواد الثقاب التى تشتعل بحكها بعلبتها

— لله درك يافتى .. إن ثروة عظيمة تنتظر اختراعك هذا. أليس فى السوق اختراع يماثله؟

— لا ياسيدى

وفى هـذه اللحظة أخذ فى إحكام تصويب مسدسه من وراء الثوب ثم استطرد قائلا :

— ولكنى لا أملك المال الكافى لتحقيق آمالي باخراج اختراعى إلى عالم الوجود

فابتسم الآخر وقال :

— حسن، سأدلك على ما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال أيهـا الشاب النابغة . أظن أنك لا تمانع فى مرافقتى لتناول طعام الغداء معا .. تعال ياعزيزى، سوف نتناول موضوعك بالدرس أثناء تناول الطعام وسنبحثه من كل النواحى ... المال وغير المـال ...

وفى هذه اللحظة دوت فى الجو أصوات ساعات بنايات نيويورك العظيمة مؤذنة بحلول الساعة الثانية ...

(السويس) محمد محمود دوارة

ذكرى حب

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عبد الحليم محمود المشيري

تأخذني رعدة رهيبة ، ويستولي علي أسى عميق كلما رجعت القهقرى عشرة أعوام وأحييت في خيالي ذكرى ذلك العهد البائد ، عهد شبابي الزاخر بالشقاء والآلام ، عهد شبابي الذي يطوي بين أيامه أحلى أماني ، ويلف في أكفانه السود الخيفة أول حب دب إلى قلبي ، وسعدت وشقيت به نفسي !

إنني لأود الآن من قرارة نفسي أن أترك ذلك العهد جانباً ، وألا أعيد ذكراه المرة الأليمة إلى ذهني حتى لا تثير أشجان قلبي ... ولكن ... ولكن العجيب أن قلبي هو الذي يدفعني دفعاً للعود إلى هذا العهد بالرغم مما فيه من إيلام له. ولعله يفعل هذا لأنه يريد أن يعيش ثانية في جو تلك الأيام البعيدة وأن يتذوق مرة لذة ذلك الحب الهائل الذي كان يملأ حينذاك ...

وأنا ... ما ذا أفعل لو خالفت رغبة قلبي ... ورغباته لما تزل كل ما أعنى به في حياتي ؟ حسن . سأطيع قلبي — وليست هذه هي المرة الأولى التي أطيعه فيها على شيء لا أحبه — ولأعد إلى ذلك العهد فانه وإن كان لا يحمل لي في ثناياه إلا الشقاء ، فان في استعادة هذا الشقاء لذة عظيمة قد لا يجدها من يستعيد عهداً سعيداً من عهود حياته ... وما أجمل أن يعيش الانسان مرة ثانية مع الماضي وفي جو الذكرى ، ذكرى حبه الأول والأخير ...

***

كنت أيامئذ في العشرين من عمري . وكانت دماء الشباب تجري في عروقي فتملأني قوة ونشوة ومرحاً . ولم أكن قد رأيت القاهرة ، فقد عشت تلك المدة من حياتي في إحدى المدن الصغيرة . فلما قيل لي إنني سأسافر إلى القاهرة لأتم علومي رقص قلبي طرباً وغبطة . وسهدت أياماً لعظم فرحي . فلقد كنت أسمع عن جمال القاهرة وعن أخذ أهلها بأساليب الغرب . فكانت أعز أماني أن أراها وأجوس خلال شوارعها الواسعة الطويلة التي كانت تنقص مدينتي الصغيرة

وأتيت القاهرة . ولم أعتم أن صادقت بضعة من شبانها . رحت وإياهم ننشي دور الدم الحرام ، ونقضي جل لياليا في المواخير بين أحضان الفتيات الأجنبيات اللاتي يبعن أعراضهن لكل طارق ما دام يملك المال الذي يسد به أفواههن الجشعة ...

وصارت حياتي على هذا المنوال بضعة أشهر . ثم ابتدأت أشعر بأن هناك فراغاً عميقاً يضرب أطنابه في حياتي ، ومكاناً كبيراً ظل شاغراً في قلبي . ولم أعرف سر هذا الفراغ ولا ذاك المكان الشاغر في أول الأمر . ولكنني عند ما فكرت فيهما ملياً عرفت أنني في حاجة ماسة إلى حب أملأ به فراغ حياتي وقلبي ، وتسمو به عواطفي التي انحطت ... وتتطهر به نفسي التي دنست ...

وعجلت في البحث عن هذا الحب فقد كنت أحس بالحنين إليه يتضاعف ، يبحث عنه في كل مكان ، في شوارع القاهرة ، وفي منازل أصدقائي وحتى في دور اللهو التي كنت أتردد عليها . ولكن

2017-11-1

هباء ذهب بحبي . فما وجدت الفتاة المنشودة . الفتاة الهيفاء القد ، الفاتنة الوجه ، الطاهرة الروح والقلب ، التي رسمت صورتها في خيالي وأحلامي مراراً ...

وبلغ مني اليأس مبلغه في الشعور على حبي المرجو ... وظلت حياتي فارغة قاحلة كما هي ، حتى كانت احدى الأمسيات وكنت جالسا في شرفة الطابق المتواضع الذي استأجرته في أحد البيوت لأقضي فيه مدة إقامتي بالقاهرة ، وإذا بفتاة ما رأيت وجها أجمل من وجهها ، ولا قداً أرشق من قدها ، تبدو أمامي في شرفة المنزل المواجه للمنزل الذي أقيم فيه كما يبدو الحلم الجميل في خيال النائم . فما استطعت أن أمنع صرخة خافتة كلها دهش وإعجاب

لقد كانت هذه الفتاة هي نفس الفتاة التي رسمت صورتها في خيالي .. نفس الفتاة التي ستهبني الحب !

وحسبت نفسي أحلم في أول الأمر .. ولكن هذا الوهم لم يلبث أن تبدد .. ووجدتني بين يدي الحقيقة الحلوة الجميلة ..

ورأتني الفتاة فمادت في دلال من حيث أنت واختفى شبحها عن ناظري ؛ ولكنه ظل عالقا بذهني ...

ولما أفقت من غيبوبتي ولم أجدها أمامي ، عرتني انتفاضة ، وخيل إلي أنني كنت في الجنة وطردت !!

***

وطفقت دور اللهو . واندفعت بجميع قلبي إلى هذه الفتاة . فما كنت أغادر شرفتي إلا للحظات قصيرة . ونسيت مدرستي فكنت أذهب إليها يوما وأنقطع أياما .. ومع هذا فانني لم أرفتاتي إلا قليلا .. أربع مرات أو خمسا . وكانت في كل مرة يقع بصرها علي تغادر شرفتها مسرعة ؛ ولعلها كانت تفعل ذلك بدافع الخجل مني ، أو انني لا أعرف تعليلا لذلك غير هذا التعليل ..

بيد أن هذا لم يكن ليغير رأيي فيها . فقد كنت واثقا أنها هي الفتاة التي ستملأ فراغ حياتي وقلبي بالحب .. وقد كان .. ولم يخب ظني عندما ابتسمت لي يوما ..

كان هذا في الصباح على ما أذكر ، وكنت قد بكرت في الجلوس بشرفتي . وفجأة — بعد قليل — أطلت برأسها الجميل من إحدى نوافذ المنزل الذي تقطنه .. وكانت هذه أول مرة أراها فيها تطل من نافذة . فأردت أن أتنهز هذه الفرصة وأعبر لها عما أحس نحوها ولا سيما أني وجدتها في تلك المرة باسمة الثغر ، مشرقة الوجه فلم أخف على نفسي منها ، ولم أجد أفضل من الابتسام لهذا الذي أريد . فابتسمت لها . ابتسمت بسمة سكبت فيها كل قواي . وكانت مفاجأة ملأتني سعادة وغبطة حينما ردت علي بسمتي ببسمة منها . أجل وايم الحق لقد ابتسمت لي ، وابتسمت لي في اشراق وصفاء وعبقرية !

لو سئلت يوماً ماهي أسعد أيام حياتي ... لأجبت فوراً أنها هي الأيام التي كانت تبتسم لي فيها تلك الفتاة . وإنني لأطوي الآن مراحل حياتي فلا أجد يوماً ذقت فيه سعادة تدانى هذه السعادة التي كنت أشعر بها تغمرني كلما ابتسمت لي . فلقد كانت بسمتها بمثابة نور ينير حياتي . ويبدد ظلمات نفسي وكانت بعد هذا تفتح أمامي الطريق إلى حياة جديدة تقوم دعائمها على الحب ... والأحلام ...

وأنا ممن يعشقون تلك الحياة ...

2017-11-11

فقد كانت — على الأقل — تبعدني عن حياتي الحقيقية التي لم تكن تزخر إلا بالهموم . وكان حبي لهذه الفتاة يزداد كل يوم . وأصبح أملي أن أراها دائماً تبتسم .. تبتسم لي . فما كنت أحس بالحياة تترقرق بين جنبي إلا إذا ابتسمت لي . وما كنت أجد لذة للعيش إلا إذا لاقتني ببسمتها كل صباح ، ولا للنوم إلا إذا ودعتني ببسمتها كل مساء ...

ومرت الأيام مرّ السحاب وأنا لا أعلم إلى أي مصير تقودني حياتي هذه . وزارني يوماً أحد أصدقائي ممن كنت ألهو معهم في الماضي فما إن رآني حتى صرخ دهشاً وهو يقول :

— قاسم ! يالله ... هل أصدق هذا ... ؟

قلت : ماذا ... ماذا تعني ؟

قال وهو يحملق في عيني والدهش لا يزال مرتسماً على وجهه :

— منذ كم رأيت نفسك في المرآة ...؟

قلت : منذ قليل ...

قال : عجباً ... وهل تعرف أنك قد تغيرت ؟

قلت : كلا ...

قال : إذاً تعال ...

وجذبني من يدي إلى مرآة كانت بالقرب منا ثم طلب مني أن أنظر إلى نفسي فيها . ففعلت قال :

— والآن تأمل في نفسك جيداً وخبرني ماذا يبدو عليك : على وجهك وجسدك ...

فهززت رأسي متعجباً فما رأيت جديداً في وجهي ولا في جسدي . فعاد صديقي يقول :

— أنظر إلى عينيك جيداً . ألا ترى كيف ذبلتا ... أنظر إلى وجهك ألا ترى كيف شحب .. أنظر إلى جسدك ... ألا ترى كيف نحل ؟

ونظرت إلى عيني ، ثم إلى وجهي وجسدي ، وعندئذ أجفلت والدهشة تقد لساني . فقد وجدت صديقي على حق في ملاحظاته . ووجدتني قد تغيرت حقاً ... وتغيرت كثيراً ...

وعجبت كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل ... وظلت حزيناً للتغير الذي طرأ علّ أربعة أيام أو خمسة لا أذكر ... ثم عدت أتابع حياتي ... الحياة التي تقوم دعائمها على الحب والأحلام ، وتملأها بهجة وجمالا بسمة فتاة ...

ودرجت الأيام مجدة في طريقها المجهول الذي لا يعرفه إلا الله .. إلى أن كان يوم من أيام الصيف رهيب الجو حار الهواء راكده . وكنت جالساً كعادتي في الشرفة أنتظر بسمة فتاتي التي احتجبت في ذلك اليوم فلم تبد لي حينما دخلت على ساحبة المنزل الذي أسكنه — بعد أن استأذنت عليّ — وقدمت لي برقية باسمي وصلت إلى المنزل منذ ثوان . وكان ما في هذه البرقية مروعاً أليماً .. أليماً جداً .. حتى تمنيت لو مت قبل تلاوتها ..

كانت البرقية من أمي تقول لي فيها إن أبي قد مات فجأة ليلة الأمس « بالسكتة القلبية » وتطلب مني أن أعود إلى مدينتي سريعاً لألتحق بعمل عثرت لي عليه هناك حتى أعول أسرتنا بعد أن مات أبي الذي كان يعولها ...

وأظلمت الدنيا في عيني .. وأخذني ذهول عميق أين أنت الآن يا فتاتي لتبتسمي لي ، ولتبددي ببسمتك بعض ما عراني من الهم والحزن ؟ ... أين

أنت لتعيدى بسمتك إلى قلبى بعض الأمن والاستقرار ؟

ولكن أحداً لم يجب ... وسقطت على راحتى بضع قطرات من العرق كانت عالقة بجبينى !

***

وكان يوماً مشهوداً من أيام حياتى هو ذلك اليوم الذى حزمت فيه أمتعتى لأبارح القاهرة ...

أقسم أننى ذرفت كثيراً من الدموع فى ذلك اليوم ... ولعمرى ما ذرفت هذه الدموع حزناً على والدى الذى مات ، كلا بل حزناً على فتاتى التى سأخلفها بعد قليل ... وعلى بسمتها التى كانت تملأ حياتى بهجة وجمالا .. ثم .. ثم على حبى وسعادتى وكل منهما سيذوى !

وخلفت المنزل وفى قلبى لوعة وأسى . وما كدت أقف على أرض الشارع وأرفع رأسى إلى النافذة التى اعتاد وجه حبيبتى أن يطالعنى منها كل يوم حتى وجدتها تطل منها وعلى فمها نفس البسمة الساحرة التى كنت أحس وأنا أتلقاها منها بالحياة تترقرق بين جنبى ، وفى يدها زهرة صغيرة كانت تداعب بها حافة النافذة فى هدوء ...

طار عقلى من رأسى فى تلك اللحظة . ولم أعد أسيطر على قواى . وتعالى صوتى مدوياً حزيناً وأنا أقول لها بجرأة عجيبة — فيما بعد — كيف توفرت لى:

— لا تنسى يا فتاتى ، أنى مسافر إلى مدينتى ؛ مسافر الآن ولن أعود ...

ونظرت إلىها فإذا بها تنظر إلى فى دهش وذهول ، وإذا بسمتها قد تلاشت ، وكأنما محتها تلك الدموع التى رأيتها تنحدر من عينيها على شفتيها ووجدت يدها تضغط على الزهرة فى قوة فتناثرت بضع ورقات منها على الأرض التقطتها فى الحال ووضعتها بين صفحات كتاب كان فى يدى

وعند ما تحولت لأسير سقطت على يدى من عل قطرة من دموعها ... من دموع تلك الفتاة التى أحببتها ، والتى خلق متى حبها إنساناً جديداً يختلف عما كنت فى الماضى كثيراً . فلم أستطع أن أمنع نفسى أنا أيضاً من البكاء ، وكان بكائى مراً مكتوماً

***

أنا خجول .. خجول جدا . واعترف بأن خجلى كان هو السبب فى أننى لم أعرف إلا الآن .. إلا متأخرا ... أن تلك الفتاة التى أحببتها تحبنى أيضا . فكثيرا ما فكرت فى أن أسألها من شرفة الطابق الذى كنت أنزل فيه : هل هى تحبنى أولا . ولكنى كنت أخجل فأظل جامدا مكتفيا بالبسمات التى أتلقاها منها فى كل يوم ..

كان حبى عجيبا ، ولا أدرى كيف استطاع أن يعيش إلى تلك اللحظة وإلى ما بعدها وهو قانع بتلك البسمات ..

آه لو كانت هذه الجرأة التى استطعت بها أن أخاطب حبيبتى ، ومن شارع قدير فيه عابر فيسمع كلامى قبل الآن ؛ إذاً لاستطعت أن أجنى ثمار حبى ، ولكن الخجل . . . أضاع منى الفرص السوانح وأضاع معها سعادتى !

***

لا أعرف كيف استطعت أن أعيش فى مدينتى بعد أن عدت إليها ، ولكن الشىء الذى لن أنساه هو أننى كنت أحيا فيها كالغريب عن هذا العالم . كنت أحيا فيها كطائر شارد تاه فى بلد لا يعرفه ولا يعرف أحدا فيه . وكانت حياتى تسير على وتيرة

2017-11-11

واحدة وأسلوب واحد : من بيتي إلى مقر عملي ، ومن مقر عملي إلى بيتي ، لم يجد فيها يوما جديد

وانكببت على عملي أحاول أن أنسى فيه نفسي لأنسى ، ولكن الذكريات كانت تلح عليّ دائماً فلا أستطيع أن أطردها عني إلا بعد أن تحول الدموع في عيني .

ولطالما تراءت لي بسمتها من وراء تلك الدموع فلألأت قلبي حسرة وألما ، لأنها كانت تبدو لي في كل مرة حزينة شاحبة تمحوها شيئا فشيئا عن الشفتين اللتين ارتسمت عليهما .. دموع !

ووجدتني يوما أدخر بعض الجنيهات التي أتناولها في كل شهر من عملي . وكنت أسأل نفسي كثيرا لم أدخر هذه الجنيهات وأنا في أشد الحاجة إليها . فما كنت أجد ردا شافيا . إنني أدخرها وكفى . .

وما إن مضت ثلاثة أعوام حتى كنت قد ادخرت مبلغاً من المال لا هو بالكبير ولا بالضئيل وبعد أيام من مرور هذه الأعوام الثلاثة كنت في طريقي إلى القاهرة ... لم ؟ لأخطب فتاتي إلى أهلها بعد أن حاولت في تلك الأعوام الثلاثة التي مرت أن أسلوها فلم أستطع !

وهبطت إلى أرض القاهرة مهدحي ومسرحه ، وما إن قاربت الحي الذي كنت أقيم فيه حتى هاجتني ألوف الذكريات ... ووجدت الحي كما هو ... كما تركته منذ ثلاثة أعوام وبضعة أيام . ودنوت شيئاً فشيئاً من دار الفتاة التي أحببتها في كل هذا الوجود وطفت عليّ سعادة غريبة لا عهد لي بها ، واشتد وجيب قلبي وازدادت دقاته .. ووجدت «بواب» الدار في (كشكه) الصغير كما تعودت أن أراه في الماضي . ولم يكن قد طرأ عليه تغير ما ، إلا تلك الشعرات البيضاء التي عمت رأسه ولحيته وشاربه . وملت عليه أسأله قبل أن أخطو إلى داخل الدار :

— هل سيدتك الصغيرة هنا ؟

فلم يبد عليه أنه فهم سؤالي . فشرحته له . وعندئذ بدا على وجهه أنه فهم ما أرمي إليه . فتمتم قائلا في صوت أبح ظهر فيه شيء من الاضطراب :

— أتعني ... المرحومة « اعتماد » ؟

كانت كلمة صدمة قوية كدت أن تذهب بعقلي ؛ فاعتماد هذه هي حبيبتي بعينها ، فقد سمعت أمها يوماً تناديها بهذا الاسم . جمت أطراف شجاعتي وصرخت فيه بصوت لا أدري كيف خرج من حلقومي :

— وهل ماتت ؟

— من عام ...

— كيف ؟

— مرضت . . . ولكن أحداً لم يعرف سر مرضها . وكل ما نعرفه أنها كانت تهذي كثيراً في أيامها الأخيرة . وقد سمعتها أنا بنفسي وهي تهذي قائلة : « لقد كنت أحبه ... وقد مضى ... سافر إلى مدينته ولن يعود . فما فائدة الحياة من بعده » وكثيراً ما حاول أهلها أن يعرفوا هذا الذي كانت تحبه . ولكنهم أخفقوا ... وماتت سيدتي اعتماد وسرها في صدرها

وأحنى الرجل رأسه على صدره في حزن وقال :

— رحمها الله ...

وفهمت كل شيء ... فتوليت من أمامه في .

2017-11-1

خطوات ذاهلة وأنا أتمتم فى ذهول وقد اعترانى شبه خبال :

— أجل ، وحمها الله ...

وسرت كثيراً لغير وجهة فى ذلك اليوم ... وأخيراً عند ما أفقت من ذهولى بعض الشىء — وجدتنى فى القطار المسافر إلى مدينتى

وكان أول ما فعلت عندما عدت إلى منزلى فى المدينة أن تناولت الكتاب الذى كنت أضع بين صفحاته الورقات التى تناثرت من تلك الزهرة التى كانت فى يد « اعتماد » يوم أن بارحت القاهرة عقب وفاة أبى ... وأخذت واحدة منها وضعتها على كفى وكانت قد جفت ... تماماً كما جفت حياتى فى ذلك اليوم الذى عرفت فيه أن فتاتى قد ماتت . وخيل لى وأنا أنظر إليها أن وجه « اعتماد » قد رسم عليها .. ورأيت فمها وعليه تلك البسمة التى ربطتنى بالحياة مدة طويلة . ولكنها كانت تبدو لى شاحبة حزينة تمحوها شيئاً فشيئاً عن الشفتين اللتين ارتسمت عليهما — دموع !

وغابت البسمة وغاب الوجه .. وخيل لى أننى أسمع هاتفاً يهتف فى صوت كئيب خافت ، ولكنه هادئ رهيب :

— « لقد كنت أحبه وقد مضى .. سافر إلى مدينته ولن يعود . فما فائدة الحياة من بعده ! .. »

وأعدت ورقة الزهرة إلى مكانها بين صفحات الكتاب ... ودمعت عيناى !

عبد الحليم محمود العشيرى

الملابس القطنية الخفيفة
هى
ملابس الصيف القائظ
تشكيلات جميلة رائعة . ومنسوجات مختلفة مغرية
وألوان ساحرة أخاذة
تقدمها اليكم
شركة مصر للغزل والنسج
إحدى مؤسسات بنك مصر

ابن تاراس بولبا

للكاتب الروسي غوغول
بقلم الأديب ابراهيم زين الدين

« حاصر (الزابورجيون) دوبنو إحدى المدن البولونية يريدون الاستيلاء على أموال أهلها ومواشيهم، وقد سمعو أن فيها مؤناً كثيرة . وهم إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وأكلوا الأخضر ، وأحرقوا اليابس ، وأهلكوا الزرع والضرع ... ثم يتركونها قاعاً صفصفاً ... »

كانت المدينة كأنها غارقة في سبات عميق، وكانت سقوفها وجدرانها القوية وحصونها الحصينة تلمع على أنوار النيران البعيدة

اخذ أندريه يتمشى بين صفوف القوزاق بينما أخذت النيران التي حف من حولها الحرس النائمون تخمد من وقت لآخر . ثم الحرس بعد أن ملأوا أجوافهم من طعام المساء بشهيتهم « القوزاقية » واطمأن أندريه إذ قال لنفسه : « من حسن حظنا أننا لسنا تجاه عدو يخشى جانبه ، وأن ليس هناك أحد نخافه [1] »

أخيراً اقترب من عربة تسلقها واستلقى على ظهره ، وجمع يديه تحت رأسه، ولكنه لم ينم؛ وتطلع إلى السماء الممتدة فوقه فرأى النجوم الكثيرة ، وأحس بالهواء الندي يداعب شعره؛ وكانت النجوم في وسط السماء تنمرها بالنور وبالسحر ...

نسي أندريه نفسه بين هذه الأشياء ، وفجأة غطى السماء سحاب حجبها عن عينيه ثم انقشعت الغيوم وبانت السماء أجمل مما كانت

شبه له في ذلك الوقت أن مخلوقاً حياً غريباً ظهر لعينيه ، فظن لأول وهلة أن هذا الشبح هو من تأثير غفلته الأولى ، ففتح عينيه وحدق في السماء ، فرأى حقيقة وجهاً يقترب منه وينظر في عينيه ، ورأى شعراً أشعث نافراً من غطاء الرأس :

نظرات غريبة ووجه أسمر شاحب جعلاه يعتقد أنه فريسة كابوس وأوهام ، فتناول بندقيته بحركة آلية وقال باضطراب : « من أنت ؟ إذا كنت من الأرواح الشريرة فابتعد عني ؛ وإذا كنت رجلا فانك قد اخترت وقتاً غير لائق للمزاح : إذهب وإلا قتلتك من أول ضربة ! »

فما كان جواب الشبح إلا أن وضع أصبعه على فمه طالباً السكوت والهدوء ... ألقى أندريه سلاحه ونظر باتتباه إلى الشعر الأسود الطويل ، إلى العنق والصدر العاريين. فاذا بالشبح امرأة. ولكنها ليست من بنات جنسه : وجهها أسمر وعليه آثار المرض، وجنتاها بارزتان وعيناها غائرتان . وكلما أطال النظر إليها وجد فيها شيئاً له به عهد . وأخيراً لم يسعه إلا سؤالها : « قولي من أنت ؟ يظهر لي أني أعرفك ، أو شاهدتك في مكان ما ! »

— قالت: كان ذلك منذ سنتين في « كييف! »

ردد بعدها أندريه « منذ سنتين في كييف؟ ... مجهداً نفسه في استرجاع ما يمكن أن تسميه ذاكرته

(*) من قصة للكاتب الروسي غوغول عنوانها « تاراس بولبا »

(١) قوزاق تعلم أو عاش في « زابورجيه » في المدرسة الحربية

من ذكريات « كيان » ... من دخوله إلى المدرسة وما مرّ عليه ... ثم نظر إليها وصاح فجأة « أنت التترية خادم النبيلة الصغيرة ابنة الحاكم ! »

— فدمدمت التترية قائلة: صه ! وهي تمد يديها برجاء وابتهال وخوف ... ثم رفعت رأسها لترى إذا كان أحد أفاق على صوت أندريه ...

— قولي تكلمي ... لم وكيف أنت هنا ؟ أين السيدة الصغيرة ؟ ألم تزل حية ؟ تكلمي ، أسرعي . قال ذلك بصوت مخنوق من تأثير الشعور الداخلي الذي كان يخالجه

— هي في المدينة !

— في المدينة ؟ وأحس أندريه بأن دمه تجمع في قلبه ... ولم كانت في المدينة ؟

— ذلك لأن والدها هناك ، وهو لم يزل فيها منذ سنة ونصف

— وبعدئذ ... هل تزوجت ؟ ولكن تكلمي كم أنت غريبة الأطوار ... ماذا تعمل الآن ؟

— إنها لم تذق طعاماً منذ يومين ...

— ماذا تقولين ؟

— لم يبق شيء عند أحد من سكان المدينة .. حتى ولا كسرة خبز . منذ زمن طويل والناس لا يجدون ما يأكلونه غير التراب

بقي أندريه صامتاً لا يبدي حركة ... إلى أن قالت التترية : « عرفتك السيدة الصغيرة من بين جميع الزاورجيين من أجل القلنسة وقالت لي : إذهبي وقولي لهذا الفوزاق النبيل أن يأتي لأراه... وإذا لم يعد يذكرني ، فاطلبي منه كسرة خبز لأجل والدتي المسكينة ، لأني لا أريد أن أرى أمي تموت بين يدي وأحب أن أموت قبلها ... تضرعي إليه : واركعي عند قدميه ، وقولي له إن له أماً أيضاً. فلعله ما تذكرها أعطاك ! »

واستيقظت مشاعر الشاب واستولت عليه بقوة :

— ولكن كيف جئت إلى هنا ؟ كيف ... وأي طريق سلكت ؟

— اجتزت طريقاً سرياً تحت الأرض !

— وهل يوجد نفق سري تحت الأرض ... ؟ وأين ... ؟

— إنك لا تحزن أبداً !

— أقسم لك بالصليب المقدس ... !

— هناك تنزل طريقاً منخفضاً وتمر بمجرى الماء عند آخر الدغل

— وبعد ذلك تصل إلى المدينة ؟

— نصل إلى جانب المبد

— هلمي نذهب حالاً

— ولكن ... قطعة الخبز

— حسن ؛ إجلسي هنا ؛ إبقي في العربة ... أو اضطجعي بداخلها فلا يراك أحد . الكل نيام . سوف أرجع حالاً ...

واقترب من العربة حيث تراكمت المؤن بمقعها فوق بعض وهي مؤن فرقته

خفق قلبه ، وعاوده ما حرص على الابتعاد منه طيلة تلك الأيام بنومه في الصحاري في الأيام الأخيرة ، واقترب من حياة الحرب البائسة المقطبة ... عاودته ذكرى امرأة من منزل رفيع ظهرت له كما تظهر من قاع بحر مظلم ... ولمست في مخيلته يداها الطاهرتان وعيناها البراقتان وفمها الباسم الضاحك ، وشعرها الجعد بلونه البندق الجميل المسدل فوق كتفيها وعلى نديها ...

2017-11-11

وبعثت فى مخيلته كل تقاطيع وجهها بانسجام جميل ...

كلا لم تنطفئ هذه الآثار ولم تمح من مخيلته ، لكنها ظلت جلية فى قلبه تملو عليها الحياة الصخبة التى سعى إليها ، ولكن كثيراً مافكر فيها ، وكثيراً ما كان يضطرب من تأثيرها فى غفواته ... وكثيراً ما بقى مستلقياً بعد استيقاظه ، لايعرف السبيل إلى إيضاح عواطفه وإبانتها

تابع سيره ودقات قلبه تقوى وتتسارع لذكره أنه سوف يلقاها ، واضطربت ركبتاه ... ولما وصل إلى المربات نسى كل ماجاء من أجله . نسى مايجب أن يفعل . . حمل يده إلى رأسه مجتهداً فى تذكر ما يجب عليه عمله ...

أخيراً اختلج وأخذته رعشة خوف ، وفجأة جاءته الفكرة ... إنها سوف تموت جوعاً ...

ألقى بنفسه على العربة وأخذ عدة أرغفة من الخبز الأسود وضعها تحت إبطه ... ولكنه فكر : هل يكون هذا الخبز — وهو كاف (الزابورجى) قوى — جشباً متنافياً مع مزاجها وطبيعتها اللطيفة ؟

تذكر عندئذ أن القائد عشّ الطاهي ليلة أمس لأنه خبز دفعة واحدة مقادير كبيرة من الطحين، إذاً لبقى ما يكفى ثلاث مرات ...

فتأكد من أنه سوف يجد ما يلزمه : أمسك بقدر والده الصغير واتجه نحو طاهى الفرقة الذى كان نائماً بالقرب من قدرين عظيمين يسع كل منهما عشرات الأرطال ، ولم يزل الرماد تحتهما ساخناً

ألقى نظرة على القدرين فعلم أنهما فارغان ، نظر إلى قدور الفرقة الباقية ... لا شىء فيها أيضاً ...

فذكر بالرغم منه مثلاً سائراً : « الزابورجيون كالأطفال ، إذا وجدوا شيئاً قليلاً أكلوه ، وإذا وجدوا منه شيئاً كثيراً لم يبقوا على شىء ! »

ما العمل ... ؟ تذكر أن فى عربة والده كيساً من الطحين الأبيض وجدوه عند ما سلبوا أحد الأديرة... اقترب من عربة والده ، ولكن الكيس لم يكن فيها . لقد وضعه أخوه أوستاف تحت رأسه ومدد باقى رأسه على الأرض ... وملأ السهل من شخيره ...

أمسك أندريه الكيس بيده وسحبه بقوة جعلت رأس أوستاف يرتطم بالأرض ويفتح عينيه بألم من أثر الضربة التى أصابته فأخذ يصيح بكل قوته : « أمسكوا هذا المغرب البولونى . اقبضوا عليه ، أمسكوه ، أوقفوا الحصان! » فصرخ أندريه مأخوذاً بالرعب والخوف : « أسكت وإلا قتلتك ! » ولم يكن أندريه بحاجة إلى مثل هذا التحذير لأنه سكت من نفسه وعاد إلى مكانه من الأرض ، وعاوده شخيره يملأ السهل ويهز الأعشاب التى نام عليها

أجال أندريه نظره فى كل الجهات خوفاً من أن يكون صوت أوستاف قد أيقظ أحداً من القوزاق

لم ينهض غير رأس واحد من الفرق المجاورة ، فألقى نظرة واحدة على الجموع النائمة ثم ترك نفسه الى الأرض

انتظر أندريه دقائق قليلة دون حراك ثم حمل ماعمله

لم تزل التترية مستلقية فى العربة تتنفس بصعوبة . ولما اقترب منها أندريه قال لها : « انهضى ، الكل نيام ... لا تخافى ... ولكن لا يمكنك أن تحملى شيئاً مما أحمل ، وليس فى إمكانى أن أحملها كلها .

2017-11-11

قال ذلك ثم حمل على ظهره كيسه ومرّ بالقرب من عربة عليها كيس من الذرة حمله أيضاً ووضع تحت إبطه الخبز الذى أراد أن تحملة النترية . وسار بين صفوف القوزاق منحنى الظهر خائفاً بين حين وآخر أن يستيقظ أحد

— أندرية ! قال الأب بولبا فى الوقت الذى مرّ فيه ابنه بجانبه . فتوقف أندرية عن السير وخفق قلبه وأخذ يرجف ثم أجاب بصوت منخفض :

« ماذا ؟ »

فقال له أبوه : ملك امرأة ؟ قسماً سوف أضربك عند ما أنهض ، إن النساء لا يجلبن لك شيئاً من الخير ، قال ذلك وانكأ على مرفقه محدقاً فى وجه المدثرة بغطائها

بقى أندرية واقفاً نصف ميت لا يملك القوة على النظر إلى والده . ولما رفع نظره إليه وجده قد نام ورأسه بين يديه

رسم إشارة الصليب وسرعان ما زال عنه الخوف ولما التفت ليبحث عن النترية وجدها واقفة بالقرب منه كتمثال حجرى مظلم ، ملتفة بردائها ، وشعاع نار بعيدة تنير عينيها ، فوجدهما كعينين قاسيتين أو كعينى ميت . أمسك بطرف ثوبها وسارا ... وكل منهما باق نظرة بعد نظرة وراءه حتى وصلا إلى أرض فيها منحدر كأنه حفرة ، يجرى فى أسفله جدول ماء صغير ، وعلى جانبيه الحجارة والحصى ...

بلغا المنحدر واختفيا عن الأنظار . ولما نظر أندرية إلى ما حوله وجد جداراً يعلو قامة الرجل نبتت فى أعلاه بعض الحشائش البرية ... وفوقهما يلمع القمر كأنه سجن ذهبى ... وهب عليهما هواء خفيف من السهول المشوشبة أعلمهما أن لم يبق وقت طويل على انبلاج الفجر ، لكن لم يطرق سمعهما صياح ديك فى جهة من الجهات ؛ لا فى المدينة ولا فى الجهات المجاورة التى صارت كالصحراء ... لأنه لم يبق ديك واحد منذ زمن بعيد

اجتازا جدول الماء على جزع شجرة ثم وصلا إلى الضفة الثانية ، فوجداها أعلى من التى تركاها كأنها سهل منحدر من طرف جبل ...

هذه الجهة من المدينة آمنة ويمكنها المقاومة ، ولو خرج رجال الحرس لما رؤى واحد منهم ... وكذلك يتعالى سور الدير من الجهة الثانية ويحميها

كانت الضفة الثانية محلوة بالحشائش البرية ، كثيرة الوعورة يفصلها عن الماء قصب كثير يقارب علوه طول الرجل ، وعند مشرف الوعورة بقايا سياج حدد فيما مضى البساتين والغيط ، ومن أمامهما تعالت أوراق القرطب[1] الكبيرة ووراء السياج نبت العوسج البرى الشائك ... وكذلك نبت العباد[2] فى البقية الباقية من الأرض

عند هذا المكان نزعت النترية حذاءها المرتفع الكعب وسارت عارية القدمين ، رافعة ثوبها فى حذر وتحفظ لأن المكان موحل ومليء بالماء ... وتوقفا عندما ولجا طريقاً بين القصب المرتفع ووجدا فتحة لا تزيد على فتحة الفرن

أحنت النترية رأسها وسارت ، وتبعها أندريه محنى الظهر ما أمكنه ليقدر على المرور بحمله .

وسرعان ما دخلا فى ظلام دامس

***

استطاع أندريه التقدم بصعوبة فى هذا الممر

(١) Bardane — نوع من النبات

(٢) Tournsol — عباد الشمس

المظلم وراء التترية جاراً وراءه أكياس الخبز قليلاً ووصل إلى النور ؛ قالت التترية : نحن نقترب من المكان الذي وضعت فيه المشعل

وكذلك كان . بدأت جدران الأرض المظلمة تضاء بنور شاحب ، ثم وصلا إلى ممر يظهر لأول وهلة كأنه معبد ، فيه طاولة صغيرة مسندة إلى الحائط على هيئة المذبح ، وفوقها صورة العذراء والقديسين ، تكاد لا تظهر من شدة كمود لونها . وعلق بالقرب من هذه الأشياء قنديل فضي اللون يضيء هذه الأشياء

انتحت التترية ورفعت بيدها القنديل الذي تركته من قبل ؛ ثم حركت النار بملقط بجانب القنديل زاد الشعاع وقوي ، ثم سارت ورفيقها ، يحفهما نارة نور قوي ، وتارة يكنفهما ظلام دامس. وظهر التباين الفادح بين وجه الشاب المتلئ صحة ونشاطاً وبين وجه التترية الأصفر الشاحب ...

أصبح الممر أعرض من ذي قبل، وتمكن أندريه من الوقوف على طول قامته ، ولاحظ وهو يسير جدران النفق التي ذكرته بمحرات « كيان » الأرضية فان الشبه بينهما قريب جداً . ترى الحفرات في الجدران والأرض، والقبور منتشرة في كل مكان ؛ وترى أيضاً في بعض الأمكنة بقايا بشرية تأثرت بالرطوبة وصارت رمادا

يظهر أن في هذا المكان رجالا قديسين هربوا من صخب العالم وحسرائه وضلاله ...

كانت الرطوبة قد تمكنت من بعض الأمكنة ، وانتشرت بقع الماء تحت أقدامهما

وقد اضطر أندريه مراراً إلى التوقف عن السير ليترك لرفيقته الوقت اللازم لترتاح من آلامها التي سببتها لها قطعة صغيرة من الخبز ابتلعتها

قالت بصوت منخفض وهي لا تبدي حراكا: « شكراً لله ، هانحن وصلنا ! »

واقتربا من باب حديدي كبير رفعت يدها لتطرقه فلم تسعفها قواها ، فطرق أندريه الباب مكانها مرات انتشر بعدها صدى الصوت ، مما دل على طول المسافة وراء الباب؛ ثم تثير الصوت عندما اصطدم بحاجز ، وبعد دقيقتين سمع وقع أقدام وحركة المفاتيح في الباب ثم خرج عليهما راهب بيده شمعة وظل واقفاً على المدرج

توقف أندريه بالرغم منه عند رؤيته راهباً كاثوليكياً ينذر النفور بين الفوزاك ... الذين يعاملونه معاملة أقل إنسانية من معاملتهم اليهود

وتوقف الراهب أيضاً ورجع إلى الوراء عند رؤيته (فوزا في زايورجي) ... لكن كلمة غير واضحة فاهت بها التترية طمأنته فأضاء لها الطريق وأوصلهما بعد أن أوصد الباب إلى أعلى المدرج حيث وجدا نفسيهما بين أروقة الكنيسة المظلمة

وقف بالقرب من المذبح حيث علقت الشمعدانات الكبيرة وأضيئت بالشموع ، ثم جثا على ركبتيه وأخذ يصلي بخشوع . وبجانبه جثا شابان يرتلان الألحان ، وعليهما ثياب خضر فوقها قمصان بيضاء مزركشة الجوانب والأطراف ، وبيد كل منهما مبخر ... يصلون بخشوع للمعجزات والخوارق الالهية ، يصلون لأجل تخليص المدينة واستجراع شجاعتهم ، يصلون لله ليهبهم الصبر ويبعد عنهم الأرواح الشريرة التي توسوس لهم بالشكوى وتحثهم

عليها بالهدوء فى أعينهم ، وتسلبهم شجاعتهم أيام المصائب الأرضية

بعض نساء كالأشباح ركعن مستندات إلى الكراسى ووضعن رؤوسهن بجانب القاعد الخشبية السود .

وبعض رجال اتكئوا على الأعمدة القائمة فى وسط القاعة وركعوا بحزن وأدوا صلاتهم بخشوع

أصاب شعاع الصباح الضئيل النافذة ذات الزجاج الملون ، فأرسلت أنواراً على شكل مربعاتها زرقاء وصفراء ، وغيرها من الألوان . فأنيرت الكنيسة فجأة ، وظهر المذبح بالرغم من شدة سواده محاطاً بالأنوار الساطعة ... وشاهد أندريه بدهش من ركنه عظمة النور ... »

تعالى صوت الأرغن فى ذلك الوقت وملأ الكنيسة الفسيحة ، وأخذ يقوي من وقت لآخر ويتعالى كثيراً ويتحول إلى قصف رعد عظيم ، ومنها يتحول إلى لحن موسيقى ناعم يتعالى من وقت لآخر تحت الأروقة ثم يتغير من حال إلى حال حتى يصبح حاداً يذكر بأصوات الفتيات الصغيرات ... ثم يعود إلى القصف والرعد ... ثم يسكت

وبعد ذلك ارتفع الصوت من جديد وانتشر بين الأروقة والأعمدة ، وأندريه فمه نصف مفتوح يصغى إلى هذه الموسيقى العذبة

أحس عندئذ أن أحداً يمسك بطرف ثوبه : « لقد حان الوقت » قالت الفتية ذلك واجتازا الكنيسة من غير أن يلحظهما أحد وأطلا على ساحة بالقرب منهما

منذ زمن طويل والفجر يضيء السماء بلونه الأحمر ، وكل شيء يعلن ظهور الشمس . كانت الساحة المربعة الشكل خالية تماماً ولم يزل فى وسطها بعض مقاعد سود دلت على أنه كان هنالك منذ أسبوع تقريباً أسواق البلد ، والطريق التى لم تنظف منذ ذلك الحين كانت مملوءة بالأوحال الجافة

كانت الساحة محاطة من كل جوانبها بمنازل صغيرة مبنية بالحجارة أو الآجر مؤلفة ، من طابق واحد وحولها الأعمدة الخشبية الرقمة ، وكلها من صنع أصحابها وسكانها وهى شبيهة بمنازل ليتوانيا وبولونيا . كانت كلها منطاة بستوف على غير انتظام وفى بعض جدرانها نوافذ صغيرة لا نوافذها

وعلى أحد الجوانب ظهر منزل على غير طراز المنازل فى المدينة ، عرف فيه (فندق المدينة) أو غيره من دور الحكومة . كانت تلك البناية مؤلفة من طبقتين ، وفى أعلاها جناح خصص للحراسة ، وعلقت ساعة كبيرة فى الحائط

ظهرت الساحة كأنها ميتة

لكن أندريه سمع أنيناً ضعيفاً منبعثاً من الجهة الثانية ...

حدق فى المكان فرأى جماعة من ثلاثة رجال مستلقين على الأرض بلا حراك تقريباً ، وحدق النظر فيهم أكثر ليتبينهم إذا كانوا أمواتاً أو أحياء

وبينما هو سائر اصطدمت قدماه بجسم ممتد على الأرض : كان ذلك جسم امرأة يهودية على ما يظهر — ما تزال شابة بالرغم من آثار الضعف والهزال البادية على وجهها مما يمنع تقدير سنها . وضعت تلك المرأة على رأسها غطاء من الحرير الأحمر وزينت قبعتها بجواهر — ربما كانت زائفة — وأسدلت بعض شعرها الجعد على عنقها الجاف المتنفخ الأوداج

وانطوح بالقرب منها طفلها ممسكا ثديها بشدة قارصاً إياه بين أسنانه بحركة غير إرادية ... ولا يجد فيها لبناً ... لكنه لم يبك ولم يصرخ ... ولا يمكن الحكم على حياته إلا بحركات بطنه التي ينتفخ ويهبط ببطء لافظاً من بين شفتيه أنفاسه الأخيرة

تابعا سيرهما في الشارع ؛ لكنهما توقفا فجأة أمام رجل هائج تقدم منهما عند رؤيته حمل أندريه الثمين ، وارتمى عليه كالنمر الهائج وأمسك بتلابيبه وصاح : « خبز ! » ولم تباعده قواه أكثر من ذلك فأبعده أندريه عنه فوقع على الأرض ، وأخذته الشفقة عليه فألقى إليه بالقمة خبز ارتمى عليها الرجل كالكلب الهائج وعضها بين أسنانه وابتلعها وهو يرسل معها أنفاسه الأخيرة ... بين هياجه وتشنج أعصابه من تأثيرها

خرج الناس من منازلهم ظانين أنهم بعملهم هذا ربما تنزل عليهم معونة من السماء ترد إليهم قواهم

وأمام منزل جلست عجوز القرفصاء ورأسها بين يديها فلا يمكن معرفة ما بها . هل هي نائمة أو مغمى عليها أو هي جالسة بلا حراك إلى الأبد ..

وظهر من سقف أحد المنازل حبل مربوط في أسفله جسم رجل مدلى لم يتمكن ذلك المسكين أن يصبر أكثر مما صبر على هذه الآلام ، فعجل لنفسه الموت بانتحاره ...

لم يتمالك أندريه نفسه عند رؤيته هذه الأشياء فسأل رفيقته : « هل حقيقة لم يجد هؤلاء الناس ما يمسكون به حياتهم ؟ عند ما يصل الرجل إلى حالة لا يمكن معها أن يعمل شيئاً ، ولا يجد ما يأكله بأية طريقة كانت ، يمكنه أن يتغذى بكل شيء ، يمكنه أن يأكل الحيوانات المحرمة عنه . كل شيء يصبح صالحاً لطعامه ! »

— لقد أكلوا كل شيء ! أكلوا القطط والحيوانات بأجمعها ، وإنك لا تجد في المدينة لا حصاناً ولا كلباً ولا هراً حتى ولا فاراً

— ولكن كيف يمكنكم وأنتم لا تجدون ما تأكلون أن تدافعوا عن المدينة إلى اليوم ؟

— نعم ! من الممكن أن ينام الحاكم المدينة ، ولكن القائد الذي في « بوزداك » أرسل اليناير سالة مع الحمام يأمرنا ألا نسلم المدينة ، وأنه عازم تحوننا مع جيش لينقذنا ، ولكنه ينتظر لذلك قائداً آخر ليتمكنا من الحضور في وقت واحد ... ونحن في انتظارهما من وقت لآخر ... ولكن ها نحن قد وصلنا إلى البيت ...

رأى أندريه المنزل من بعيد ليس هو فاذا كغيره من منازل المدينة ، يظن أن مهندساً إيطالياً شيده على طابقين بقرميد دقيق جميل . نوافذ الأول متوجة بشكل جميل مرتفع ؛ والثاني مؤلف من أروقة وغرف كبيرة ، وتظهر من بين الأعمدة أسلحة السائلة المعلقة على الجدران

يصل سلم القصر العريض إلى الساحة ، وعند أسفله وقف الحرس حاملين سلاحهم الأبيض بيد ، وممسكين بيدهم الأخرى رؤوسهم المنحنية على صدورهم ، وهم في موقفهم هذا أشبه التماثيل منهم إلى الناس

إنهم لم يناموا ولم يغفلوا أبداً ، ولكنهم لا يشعرون بما حولهم حتى لم يروا الذين مروا أمامهم

وعند أعلى السلم وقف جندي بثيابه الثقيلة

التالية حاملا فى يده كتاب الصلاة . وعند ما مرّ أندريه بالقرب منه رفع إليه نظرات دهشة ، لكن التترية قالت له كلمة رجع بعدها نظره إلى كتاب صلاته ...

دخلا أولا غرفة قاذاهى متسعة الأركان متباعدة الجوانب كأنها قاعة استقبال ، مليئة بالجند المستندين إلى الجدران على أوضاع مختلفة ، والخدم والحرس والسعاة وغيرهم من رجال الخدمة اللازمين لشرف رجل بولونى عظيم ، أكان رجل حرب أم مطلق سيد كبير ؟

فى وسط القاعة شمعة على وشك الانطفاء ، واثنتان تضيئان فى شمعدانيهما الكبير بالرغم من أشعة الصباح التى دخلت من النافذة الكبيرة

ترك أندريه هذه الغرفة واتجه نحو باب حديدى مزدان بأنواع الأبسطة فأمسكته التترية من يده وأشارت بيدها إلى باب صغير فى آخر الجدار

اجتاز هذا الباب إلى ممر ضيق ثم إلى غرفة أخذ يتفحصها بدقة . وكانت الأنوار التى تدخل من فتحاتها تتنقل من أثاث إلى آخر وتقع على قطعة هندسية أو لوحة فنية أو ستار أحمر

هنا قالت له التترية أن ينتظر ، وفتحت باباً يطل على غرفة ثانية كانت مضاءة بنور الموقد ... سمع دمدمة ثم صوتاً خافتاً جميلا رنيماً ... ورأى من خلال الباب خيال فتاة يمر بسرعة ، رافعة بيدها شعرها الطويل

خرجت التترية ثانية وسمحت له بالدخول ، ولم يذكر أندريه كيف دخل ولا كيف أغلق الباب وراءه ولا كيف وجد نفسه وسط الغرفة

وجد غرفة منارة بشمعتين بالقرب من صورة العذراء فوق طاولة صغيرة على حسب عادة الكاثوليك ، وعند أسفل الطاولة وضع كرسى صغير للركوع عليه وقت الصلاة

وجد نفسه فى الغرفة ، ولكن ليس هذا ما يبحث عنه

أدار وجهه إلى الجهة الثانية ، فرأى امرأة كأنها مثلجة ومتصلبة بوضع غريب ، وظهرت كأنها تهم بالوقوع عليه ، ثم توقفت فجأة وهو أيضاً بقى واقفاً مشدوهاً ...

لم يتخيل أنه سيلقاها على هذا الشكل . ليست هى ليست التى عرفها ورآها من قبل ، ليس فيها شىء يشبهها ... تلك كانت عذبة وجميلة أكثر من هذه ، وكان لها مزايا لا نهاية لذكرها ووصفها . أما هذه فهى جميلة ، ولكنها تشبه لوحة انتهى الرسام من آخر ريشة فيها

كانت فتاته القديمة مرحة شهية غير مضطربة . أما هذه فهى جميلة ، وهى امرأة بكل مافيها من لطافة ، وظهرت فى عينيها الطوباتين علامات التألم وطفرتا بالدموع التى لم يكن لها الوقت الكافى لتجف ، فظهرتا رطيبتين لامعتين نافذتين إلى القلب ، فالصدر والقلب قد حافظا على اعتدالهما وجمالهما

وشعرها الذى كان فيما مضى مجعداً مجعماً أصبح الآن مرسلا . خصلة منه على ظهرها والثانية على على كتفها وذراعها وصدرها

لقد طرأ عليها تغير عام . واجتهد أندريه أن يتذكر شيئاً فى فتاته الأولى يشابه التى أمامه ولكن عبثاً حاول . لم تبق فى ذاكرته إشارة واحدة تنطبق على هذه

وبالرغم من أنها لم تحافظ على جمالها القديم فقد زادها اصفرارها جمالاً عن ذى قبل ، جمالاً لا يقدر ولا يقارن .

وشعر أندريه بخوف واحترام فى قلبه وبقى لا يبدى حراكا . وهي أيضاً بقيت متأثرة بمشاهدة الشاب الفوزاق الذى ظهر لها فى أبهى صورة لجمال الرجل الشاب وقوته . وعلى الرغم من سكونه فقد تأجج صدره بشتى العواصل ، ولمعت عيناه ببريق الشدة، وتجمع حاجباه على شكل نصف دائرة فدلا على جرأته وإقدامه . ولمعت عيناه بقوة وكذلك شارباه السوداوان اللذان يشبهان الحرير

— كلا، ليس لدى وسيلة يمكننى أن أشكرك بها أيها الفارس النبيل . قالت ذلك وصوتها النقى يتهدج ... إن الله وحده يستطيع أن يكافئك ... ليس ذلك فى مقدورى ، أنا المرأة الضعيفة ...

وخفضت عينيها وحجبتهما تحت جفنيها المسلحين بأهداب طويلة كالسهام . . . ونكست رأسها واصطبغ وجهها بحمرة خفيفة

لم يتبس أندريه بكلمة ... أراد أن يظهر ما يضمر أراد أن يتكلم بتلك القوة والحرارة اللتين فى قلبه ولكنه لم يفلح ، وأحس بشىء يمسك شفتيه ويحبس صوته

أحس بأن ليس له ، وهو الذي انتظم فى الحياة العسكرية الحربية وتعلم فى المدرسة ، أن يجاوب فى مثل هذه الظروف النترية

عندئذ دخلت النترية الغرفة وقد قطعت الخبز الذى أحضره الفارس إلى قطع صغيرة وأحضرته فى صحيفة من فضة وضعته أمام سيدتها

نظرت الفتاة إلى الخبز ثم رفعت بصرها إلى أندريه وكان فى نظراتها معان كثيرة ، وهذه النظرات التى كانت تقول بالاستحيل وعدم القدرة على إظهار المواطف المتيقظة ، فهمها أندرية وأدرك معناها أكثر من إدراكه لأى حديث آخر

وفجأة تذكر أنه أصبح حراً ؛ وأن حركاته وشعوره لم يعودا مقيدين كما كانا من قبل ، وتحفزت نفسه للكلام ، وفتح فمه يريد أن يرسل أقواله كالسيل المنهمر ...

لكن الفتاة الجميلة أدارت رأسها نحو النترية وقالت لها : وأى ؟ هل أحضرت لها شيئاً ؟

— هي نائمة

— وأبي ؟

— قدمت إليه الطعام وقال إنه سوف يأتى بنفسه ليشكر الفارس

وتناولت الفتاة قطعة من الخبز حملتها إلى فمها بين أصابعها الدقيقة . ونظر إليها أندريه وهى تقطعها بأسنانها ... وفجأة ذكر ذلك الرجل الذى لقيه فى الطريق وهو يكاد يموت جوعاً ، وذلك الذى أسلم الروح وهو يردد الكلمة التى ألقاها إليه

علت وجهه صفرة ثم أمسك بذراعها وصرخ :

« كفى ! لا تأكلى أكثر من ذلك. مر عليك زمن طويل لم تذوقى طعاماً. وربما سبب لك الخبز ضرراً !

تركت يدها تقع ووضعت قطعة الخبز ثم نظرت إلى عينيه بهدوء نظرة الطفل ، ولم تنطق بكلمة

لا يمكن لمنحت المثال ولا لريشة الرسام ولا لقلم مهما قوى أن يعبر عما تكنه نظرة فتاة

2017-11-1

صرخ أندريه وهو يمتلئ قوة روحية وعاطفة قلبية : تاريتزا [1] ماذا تريدين ، ما يلزمك ؟ عبثي أن أعمل شيئاً لا يقدر على عمله الرجال الطلبي مني المستحيل اسرع إلى إنجازه . اذهب إلى الموت ، والموت في سبيلك عذب شهي لدي

عندي ثلاث مزارع ، ونصف قطعان والدي هي ملكي ، وكل ما أحضرت والدتي لوالدي ، وما تخبئه له أيضاً . كل ذلك لي ، وعندي أسلحة ليس لأحد من الفوزاك مثلها

إني أخرج عن هذه الأشياء . أني أترك كل ذلك : أرميه ، أحرقه ، أنقيه في الماء عندما تلفظين كلمة واحدة ، بل وأقل من كلمة : عندما تحركين حاجبيك الأسود الدقيق . ولكني اعلم أن عزيزي هذا ربما كان جنونياً . هل عبث كل ذلك ؟ ... أو ليس لي الحق وقد أمضيت حياتي في (زابور وجيه) أن أتكلم أمامك كما يتكلم الناس أمام الملوك والأمراء؟

أرى أنك مخلوقة إلاهية ، تختلفين عنا تمام الاختلاف ، ولا تشابهك إحدى نساء الأشراف ولا بناتهن . . نحن لسنا صالحين لنكون عبيداً لك ، فقط وملائكة السماء وحدهم يصلحون لخدمتك ! »

بقيت الفتاة مأخوذة بعاطفة سامية لا تنطق بكلمة مصغية كلام الشاب الصريح الخارج من قلب صاف نقي كالمرآة تبين فيها روح الشاب المتأججة ...

(١) كلمة روسية معناها ملكة صغيرة

أحنت الفتاة رأسها إلى الأمام وألقت شعرها إلى الوراء وفتحت شفتيها ونظرت إليه طويلاً ثم أرادت أن تقول شيئاً ، ولكنها توقفت فجأة وتذكرت أن أمامها شاباً قوزاقياً له هدف معين وله أب وإخوة ، وكل أهله ومواطنوه واقفون وراءه ناقمين . . . ما أظلم أولئك القوازق الذين يحاصرون المدينة ! وامتلأت عيناها بالدموع فأمسكت منديلها الحريري وألقته على وجهها . . . أما هو فغشيت عينيه سحابة

بقيت كذلك برهة ورأسها الجميل إلى الوراء وشفتها السفلى بين أسنانها العاجية كأنها أحست ذبابة سامة . ولم ترفع المنديل عن وجهها حتى لا يلاحظ الآلام التي تكابدها

قال لها أندريه: قولي كلمة واحدة ... ؛ وأخذها بين ذراعيه وأحس بنار تسري في عروقه ، وضغط على اليد التي بقيت بلا حراك بين يديه ...

لكنها ظلت ساكنة لا ترفع المنديل المسدل على وجهها ولا تأتي بحركة فقال :

— لماذا أنت هكذا حزينة ؟ قولي لماذا أنت حزينة ؟

فألقت المنديل جانباً ورفعت خصلات الشعر التي سالت على عينيها وأخذت تنطق بكلمات ممزوجة بتنهدات في صوت ضعيف شبيه بالهواء المنبعث آخر النهار في الأسقاع الممتدة وأكوام القصب المترامية عند مجاري المياه ؛ أصوات خفيفة ترتفع متمددة ، ويقف المسافر يصغي إليها بآلام شديدة ... لا يشعر

2017-11-11

بالنهار الذى يولى ... ولا بالأغانى البهيجة المتصاعدة من أفواه الفلاحين العائدين من أعمالهم فى الحقل

— أليست جديرة بحنان دائم ؟ أليست شقية تلك الأم التى وضعتنى فى هذا العالم ؟ هل قدر لى أن أحيا حياة مرة ؟

ألست أنت الباعث على آلامى أيها القدر القاسى ؟ لقد وضعت تحت قدمى أعظم رجال البلاط وأغناهم وأشرفهم ، وكلهم من الملاك والمثرين ، وكلهم كان يتمنى أن يحبنى ؛ وكلهم حسب حبى فوزاً عظيما له ، ولم يكن على إلا أن أشير إشارة صغيرة حتى يصبح أكثرهم مالاً وأجلهم وجهاً وأرفعهم حسباً زوجاً لى

عجيب أمرك أيها القدر القاسى ، لم تجعل قيادى لأحد ! من رجالنا ولكنك جعلتنى أسيرة لغريب ... لعدو ...

لأى سبب أيتها الأم الالهية المقدسة[1] ومن أجل أية خطيئة تبعينى هكذا يدون شفقة ولا رحمة ؟

لقد مضت أيامى رغيدة طيبة ، لا أتناول طعامى إلا فى أثمن الآنية ، ولا أشرب خمورى إلا فى كأس مترعة ... فلم تبدل كل هذا ؟ الأجل أن أموت ميتة أفقر رجل فى المملكة ؟ ولم يكف أن قدر لى مثل هذا الحكم. لم يكف أننى قبل أن أموت يجب أن أرى أمى وأبى على شفا حفرة من الموت من العذاب أشده . كل ذلك لم يكف ، وأهلى يريدون تسليم المدينة التى أدفع ثمنها حياتى عشرين مرة ... أوجب على وأنا أقرب من نهايتى أن أرى ... وأسمع أحاديث حب لم أسمع بمثلها من قبل أبداً ، وأن أشعر بهذه الأحاديث تمزق قلبى وتزيد فى حرارة ماقدر لى ، وأن آسف على حياتى الشابة الأولى ... وأن أرى قسوة الموت ، وأن أبتسم وأكرهك وألسنك أيها القدر ... اغفرى خطيئتى ومذلتى أيتها الأم الإلهية المقدسة »

وعند ما سكتت ظهرت على وجهها علامة غير منتظرة ، كل ملامح وجهها تكلمت ، وكل شىء فيها : من جبهتها المهوكة وعينيها الملتفتين بالدموع التى تسيل وتبرد وتجف على خديها المتقنحين قليلا كل شىء كان يقول : « لا سعادة فى هذا الوجه ! »

— قال أندريه : لم يسمع أحد بمثل هذا فى العالم بعد . إن من المستحيل أن يكون ذلك . إن من المستحيل على أجل امرأة فى العالم أن تتحمل مثل هذه الآلام ، إنها لم تخلق إلا ليركع أمامها الحب كما يركع أمام تمثال العذراء ... كلا ، لن تموتى . أقسم لك بيوم ميلادى وكل شىء عزيز على فى العالم أنك لن تموتى . وإذا قدر ذلك ولم يمكن تجنبه لا بالقوة ولا بالسلاة ولا بالارادة القوية ، فلتمت معاً ، ولأكن أول من يموت تحت قدميك

— فقالت له وهى تحرك رأسها بهدوء : لا تخدع نفسك ولا تخدعنى ، أنا أعلم أن ذلك هو شقائى الأعظم ، أنا أعرف أن من المستحيل عليك أن تحبنى . أنا أعرف واجبك وإيمانك : أبوك وإخوانك ووطنك كلهم يدعونك ، أما نحن فلسنا الا أعداءك ... !

— فقال لها : وماذا يهمنى من أمر أبى وإخوانى ووطنى ؟ ثم ونهض بقامته الطويلة

(١) Saive Mére Ditnine

كشجرة الحور عند أطراف الغدير : وإذا كان الامر كذلك فليس لى أحد ، ليس لى أحد أبداً...

كرر ذلك بصوت عال محركا يده حركات رجل قوزاق عنيد مصمم على رأيه

... من قال إن أوكرانيا هى وطنى ؟ ومن أعطانى إياها وطناً ...؟ الوطن هو الخير الذى تبحث عنه أرواحنا ، وهو أعز ما لديها . وفوق كل شىء وطنى هو أنت ، هاك وطنى وسأحمله . سأجعل ذلك الوطن بين حنايا قلبى ، سأحمله إلى اليوم الذى نحيين فيه ساعتى ، وسوف نرين إذا حاول أحد القوازق أن ينتزعه من هنا...

وكل ما لدى كل ما أملك ، أبيعه ، وأحرقه ، ألقيه فى الماء من أجل هذا الوطن !

ظلت الفتاة برهة مأخوذة بكلماته ، كأجل تمثال ، تنظر إلى عينيه ، ثم أجهشت بالبكاء وارتمت عليه ، وأحاطت عنقه بذراعيها ، كأجل امرأة لها قلب كبير خلقت للحوادث الكبيرة ، وظهرت بذلك المظهر النسائى الذى لا يمكن لواحدة غيرها أن تظهر به

عندئذ سمع صوت طبول وحركة غير اعتيادية صادرة من الشارع ، لكن أندريه لم يسمع شيئاً ، لم يشعر بغير الشفتين تنشدقان عليه من رحيقهما المسموم ، وتردد أنفاسهما العذبة ، ودمعها الذى سال على خديها ، وشعرها العطر الذى أحاطه وغطاه بكامله بين لمعان حريره الأسود

دخلت النترى فى هذه البرهة وهى تجرى وتصيح قائلة : « لقد نجونا ، نجونا ، لقد عاد رجالنا . لقد أحضروا خبزاً وطحيناً وشعيراً ، وقد أحضروا معهم بعض أسرى الزابورجيين ! لكنهما لم يسمعا شيئاً ، لا هى ولا هو ، ولم يبرحا عن أى رجالنا تتكلم النترية ولا عن أى أسارى ...

أما أندريه فلم يعد يشعر بغير الشفتين النطرتين الملتصقتين بخده ، والشفتين العطرتين تقابلانه بالمثل . وفى هذه القبلات المتبادلة شعر أندريه بما يحق للرجل أن يشعر به ولو مرة فى حياته « ... لقد ضاع ذلك القوزاق ، وأضاع فروسيته القوزاقية . إنه لن يرى بعد اليوم « زابورجيه » أبداً ولا مزارع والده ولا كنيسة الرب

وكذلك « أوكرانيا » ! إنها لن ترى بعد اليوم أشجع أبنائها الذى أخذ على عاتقه الدفاع عنها

أما الأب « بولبا » فقد جز شعره الأبيض من خجله ، ولعن الساعة التى رزق فيها مثل هذا الابن

ابراهيم زكريا العربى

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالاوشاء الانيقة

بـ

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع الميدان - عابدين

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي فى النشء اساليب البلاغة العربية

بمجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق

الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل ستون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بقسم ٣٠ ٪


الرواية

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر و فى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٤٠ | ٢٠ رجب سنة ١٣٥٧ — ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
٨٥٠	دير سمعيحة	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود بك خيرت . ...
٨٥٩	هل مات مسموما	للكاتب الروسى ليوكوز يانوف ..	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة .. ...
٨٧٠	مشاهدة وجه الروس	لفيلسوف الهند وشاعرها تاجور ..	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج . ...
٨٧٣	يوما واحداً فحسب	للكاتب التركى أرجنه أكرم	بقلم الأديب عبداللطيف أحمد ....
٨٨٠	المنى	مترجمة عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...
٨٨٣	... ثم جاء الربيع	للكاتب الانجليزى دوروثى بلاك .	بقلم الأستاذ فؤاد الطوخى ... ...
٨٨٩	الأغــلال	للكاتب الفرنسى بول هرفيو ...	بقلم الأستاذ فيلكس فارس ... ...

دير سمحة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ محمد دياب جبر

— داعماً إلى مكتبك ؟

— أحاول أن أضع قصة

— قصة ؟ وما عساك أن تكتب فيها . لعلك وقعت على حياة بعض الناس ، فيها من الحوادث ما حبب إليك تسجيلها

— كلا ، فما أكتب إلا عن نفسي

وعند ذلك لم يتمالك صديقه نفسه من الضحك

— ولم لا ؟ ألم يكتب جان جاك اعترافاته، وكونيه روايته «حياة»، ودوديه «الشيء الصغير»، ودوماس «ذات الكاميليا» ؟ إن الكتاب كثيراً ما يدونون حياتهم حتى في أدق أسرارها

— ولكن القصص لا يقبل عليها الناس إلا إذا غذاها الكاتب بالحوادث العنيفة ومواقف الحب المتقدة المعقدة حتى تلهب المشاعر وتهز النفوس . وأنت يا صديقي لا يتخلل حياتك شيء من ذلك . وكل ما في الأمر أن أبويك خلفا لك هذه الثروة الطائلة التي تعيش عليها ، كما أنك أكثر الناس نفوراً من المرأة حتى إنك لا تفكر في زوجة تسكن نفسك إليها وتطرد بها وحشة العزلة التي أصبحت من بعدها فيها . لم لا تتزوج فيكون لك أولاد يروحون ويغدون أمام عينيك فيملأون دارك حركة وبشراً . إن الأولاد كالنور ، وإنهم لأولى بهذه الثروة من بعدك . على أنني إلى الآن لم أقف على سر كراهيتك للنساء وأنت بحمد الله في أوج الصحة ومقتبل العمر ؟

— ومن قال لك إني أكرههن ؟ ولكني لن أتزوج

— لن ؟

— نعم . ولقد حرصتُ دائماً أن أخفي عنك السبب الذي وقف بي عند هذا العزم . ولكني أذكره لك الآن حتى لا تعود عيناك تعذباني بنظراتهما التوسلة وأنت تحاول أن أكشف لك الغطاء عنه

كان أبي رحمه الله من كبار تجار الفاكهة بالاسكندرية، فعزم مرة على زيارة جبل لبنان للاتفاق مع أحد ملاك البساتين فيه ليرسل إليه بكل ما تخرجه من الثمار . وكان من بين أغنياء الجبل رجل اسمه السيد محمد صلاح الدين شهاب يقيم في دير القمر الذي كان فيما مضى مقر الأمير شهاب المعروف . فكتب أبي له لينتظره .

وبينما هو في طريق الجبل إليه داهمه على مقربة من دير القمر بعض قطاع الطرق فلما قاومهم طعنه أحدهم بحديته طعنة وقع على أثرها منشياً عليه ثم فروا بعد أن سلبوه المال الذي حمله لتنفيذ ذلك الاتفاق

ولما طال انتظار السيد صلاح الدين عزم على ملاقاته بنفسه . ولكنه ما كاد يبتعد عن حدود القرية حتى لمح أبي ماثلاً على الحالة التي ذكرت ، فلم يشك في أنه هو وأسف على أنه لم يفكر في النزول إلى بيروت لمقابلته . على أنه كلف رجاله بحمله إلى داره . وكان الجرح من حسن الحظ غير غائر فالتأم في مدى شهر بفضل عناية الطبيب الذي استقدمه لمعالجته .

ومن ذلك العهد توثقت الصلة بينه وبين هذا

2017-11-1

الرجل الكريم إلى أن مات وهو فى شرخ الشباب

— لعلة ؟

— كلا . وإنما أولع بعد انتهاء الحرب الكبرى كغيره باقتناء أوراق البنكنوت الألمانى . وقد استنفدت ثروته كلها وهو يعلل نفسه بالغنى الطائل فى يوم قريب حتى إذا انكشف الأمر وظهر له أن هذه الأوراق لا تساوى شيئاً قضى عليه الهم

— وأهل بيته ؟

— لم يكن له غير زوجه وابنته . وقد وقع نعيه فى نفس أبى أسوأ موقع فبكاه بكاء مراً وأسرع إلى لبنان ليعود بهما إلى مصر ، ولكنه لم يعثر عليهما لا فى دير القمر ولا فيما جاوره

— لعله ذلك الذى كانت صورته هنا إلى جانب صورة المرحوم أبيك ؟

— نعم هو ولكنها تثير دائماً فى نفسى تلك الذكرى فأنزلتها . إنها الآن فى ركن فى غرفة نومى بل إننى حرمت على نفسى تناول الفاكهة أيضاً حتى لا أذكرهم جميعاً

— حقاً إنها الذكرى تصلح أساساً لقصة رائعة طريفة . ولكنى لا أجد فيها إلى الآن سبباً يباعد بينك وبين الزواج ... لعل تلك البنت ... ؟

— هى . هى يا صديقى . ومن الغريب أننى لم أرها ولاهى رأتنى ، إذ كانت فى القسم الداخلى بمدرسة عنطورة لتزور أبويها إلا مرة كل أسبوع ، ولكنها على رواية أبى كانت أجمل فتيات دير القمر بل وقرى الجبل كلها . وقد تعاهد أبى وأبوها على أن تكون لى إحكاماً للصلة بين البيتين .

وعند ذلك ساد السكوت وأخذ كل منهما يسبح فى بحر قاتم من الخيالات . فيلمن الزائر تلك الأوراق التى جرت الحسرة والويل على كثير من الناس . ويلعن أولئك الطامعين القصيرى النظر وإلا كانوا يقتصرون إذا كان لا بد من المضاربة على جزء من أموالهم فلا يحيق بها كلها الخراب . وكان كامل افندى (صديقه) يذكر تلك الفتاة وحسنها الذى كان مضرب المثل فى الجبل حتى خيل اليه أن دير القمر لم يسم بهذا الاسم إلا لأنها كانت نزيلته

ثم يشعر بالمرارة وهو يتصور ما صادفها وأمها بعد موت عائلهما من غوائل الفقر والجوع والتشريد . وهكذا يحطمه اليأس وتتسابق فى عينه الدموع . ولم تكن هذه المرة هى الأولى التى صدعته فيها تلك الذكرى فانه ما كان يقبل على غرفته ويرى صورة أبيها حتى تتجدد ولذلك اضطر إلى رفعها . ولكنه كان يقول فى نفسه إذا كانت لم تعد بعد من سكان دير القمر فلم لا أقيم أنا لها فى قلبى ديراً آخر تترهب ذكراها فيه إلى أن يحين ساعتى . ولذلك وطن نفسه على عدم الزواج .

وكانت الساعة أخيراً تدق النصف بعد العاشرة ، ولكن أحداً منهما لم يشعر بها وهو فى شاغل من هذه المأساة لولا أن طرق الباب طرقاً عنيفاً فانتبها . وعند ذلك هرول صديقه مستأذناً كما رافقه كامل افندى إلى الباب ليرى من هذا الطارق .

ولما فتحه وجد أمامه أحد رجال البوليس وفتاة فى أسمال بالية مستندة إلى الحائط وبجانبها صرة يظهر أن بها ملابسها . وعند ذلك قال الجندى إنه رآها جالسة عند عتبة الباب تبكى وتقول إنها خادمة حضرتك ، ولكى شككت لوجودها خارج البيت فى ساعة كهذه فطرقت الباب لأتأكد من صدقها

— نعم إنها خادمتى يا شاويش ... أشكرك

2017-11-11

وعند ذلك انصرف صديقه وهو يعتقد أنها خادمة جديدة ، وكذلك الجندي ، ثم أغلق الباب . وكان وهو ساعد وهي من خلفه يسائل نفسه في ألم: لم تسرع في إيوائها ؟ وكيف جاراها فيما ادعته وقد تكون هاربة بعد أن سرقت ما وصلت اليه يدها ؟ ولكنه تذكر رواية رجل البوليس من أنها كانت تبكي وأن دموعها لا زالت تنحدر من عينيها في جزع وصمت ؟ ثم لم لا تكون بائسة مضطهدة ففرت لهذا السبب . وعند ذلك تنفرج أساريره وتنبسط نفسه وما فعل شيئاً يجانب ما فعله صديق أبيه حين قصده في لبنان ودهمه قطاع الطرق .

ويظهر أن الفتاة أدركت من سكوت كامل افندي أنه نادم على ما اندفع إليه فقالت ياسيدي: إني لم أكن خادمة وما ما لولا موت أبي فاضطررت إلى الخدمة، ولكن اتضح أن الشاب الذي أرسلت إليه اليوم أغرب ويعيش وحده فما كاد يدخل الليل حتى أخذ يخاطبني بلهجة غير اللهجة التي يخاطب بها المخدوم الخادم ، ثم أخذ شيئاً فشيئاً يقترب من غرضه حتى انكشف لي،ففرصت. ولكنه حاول أن يأخذني غصبا فقاومته حتى مزق ثوبي وجرح ساعدي . وأخيرا دفعته عني وفررت . وقد كذبت على رجل البوليس فلم يشأ أن يصدقني وطرق الباب. وعند ذلك اضطربت وبكيت خشية أن يفتضح أمري . على أن هذه الصرة بين يديك يمكنك أن تلقي نظرة على ما فيها .

— ولكن يا ...

— سميحة ياسيدي

— ولكني ياسميحة أنا أيضا أغرب وأعيش هنا وحدي فكأنك ما فررت من النار إلا إلى النار أليس كذلك ؟

وكانت الفتاة في خلال ذلك تنظر إليه من طرف خفي وقلبها مطمئن فصاحت :

مش كل الناس ياسيدي

وعند ذلك قال: لها إذن ستنامين هنا إلى الصباح. أتبعيني لأدلك على المكان الذي تقضين سواد هذه الليلة فيه . ثم أخذها إلى غرفة خادمته التي استأذنته في غياب ليلة فتأخرت ليلتين . وبعد ذلك عاد إلى غرفته لينام هو أيضا .

ولكنه كان مشدود الأعصاب مشتت الخاطر فلم تجد عيناه سبيلا إلى النوم وقد ذكر ما تعاني خطيبته وأمها أيضا بعد أن كشر لهما الحظ فأخذتا تضربان في بطن الأرض هائمتين في دنيا الهموم والأحزان .

وما كانت الفتاة كذلك ليطرق جفنيها النوم وهي تعلم أنها لن تنام تلك الساعات القليلة الباقية إلا لتفتح عينيها عند الصباح على جفوة الطريق وقسوة الناس ومرارة الفاقة وذل السؤال، ولذلك كانت تبكي وتقول: لو أن تلك الخادمة لا تعود فتحل محلها ! إن هذا الشاب الكريم الذي أنقذها من موقفها مع رجل السلطة لن يتردد في استبقائها مكانها . ولذلك لم يلبثق نور الصباح حتى أخذت تكنس السلم وتنظف الغرف وترتب الأثاث ، ثم استعانت بما وجدته في ثلاجة المطبخ من اللبن والشاي على إعداد طعام الإفطار، حتى إذا استيقظ كامل افندي دهش وسر فلم يتعرض لمسألة خروجها وأتفى عليها

ومن حسن الحظ أيضا أن الخادمة الأولى اعتذرت من عدم العودة بالزواج فأثلج ذلك صدر سميحة وأخذت تدبر كل شئون البيت بمفردها . وكانت

فى عملها تتوخى دائما السرعة والدقة وسلامة الذوق حتى إنه كان يجد ما على مكتبه منظما تنظيما غريبا وهو يرى الكتب العربية فى جانب والأفرنكية فى جانب آخر، والدواة والأقلام منسولة براقة زاهية، وورقة النشاف المستعملة منزوعة

وكانت جريدة الأهرام تصل باستمرار فى صباح كل يوم فاشترت لها حالة من الخيزران على مثال ما يجده الناس فى المقاهى، وكانت تعلقها فى مكان قريب من المائدة حتى إذا وقت عينه عليها ساعة إفطاره تناولها بسهولة . وكانت بعد إطلاعه عليها تحفظ أعدادها فى مكان خاص فلمله يطلب الرجوع إلى عدد منها .

وكان المطبخ فى عهد الخادمة السابقة قذرا مهملا فأخذت فى تنظيفه وترتيبه وتجديد كثير من الوسائل اللازمة له فأوصت النجار بعمل حامل يحفظ الأطباق بين قوائمه وأعدت كذلك مائدة كست سطحها بالزنك لتيسير غسل المواعين والآنية .

وكان سيدها لا يحاسبها على ما تأخذ كل صباح من المصاريف اليومية، فكان ما يزيد منها على الحاجة تشترى به ورقا أمريكيا للمراحيض أو طوابع بريد كانت تضعها على المكتب فى مكان ظاهر، كما أنها اشترت تقويما مما يعلق على الحائط كانت تنزع منه كل صباح ورقة اليوم المنصرم، وكذلك اشترت جرسا على شكل سلحفاة وضعته إلى جانب الدواة حتى لا يجهد سيدها نفسه بالنداء عليها

وكل ذلك أعدته ولم يمض عليها أسبوع من يوم التجائها إلى الدار مما أدهش كامل افندي وجعله يشعر بأنه لم يكن أمام فتاة عادية كان أول عهدها بالخدمة ذلك اليوم الذى فرت فيه

وكان لكامل افندى عمارات ضخمة فى بورسعيد أقام عليها وكيلا يحصل له إيجارها ويرسل به اليه كل شهر مع كتاب مطبوع فى رأسه اسم « دائرة كامل أفندى الزاهد ببور سعيد » فأراد كامل افندى أن يكتب له فى شأن مستعجل من شئون تلك العمارات ثم وضع الكتاب على المكتب وفى الصباح خرج بعد أن أوصاها بسرعة إيداعه صندوق البريد لأهميته . ولكنها وجدت الغلاف خلواً من العنوان فخطر لها أن تطلع على خطاب ذلك الوكيل وهكذا كتبته فوقه ثم أرسلته . غير أن الوكيل لما تسلمه لاحظ خلافاً بين خط الغلاف وخط سيده فخشى أن يكون من حمل الكتاب إلى مكتب البريد فتحه ليطلع على ما فيه ولذلك نبه سيده إلى ذلك مع إعادة ذلك الغلاف

أما كامل افندى فقد أدرك أنه نسى كتابة العنوان وأنه ليس هناك غير سميحة التى استكملت ذلك النقص حتى لا يفوت الغرض الذى قصده فأكبرها، وقد ظهر له أنها مثقفة تجيد القراءة والكتابة كما أنها فطنة ذكية تقدر ما يجب للقيام بتنفيذ مطالبه على الوجوه التى ترضيه وتتفق مع ما تتطلبه من العناية والسرعة .

نعم، إنه لما سألها عما إذا كانت تعرف القراءة والكتابة أنكرت وقد صبغ خديها الخجل، ولكنه لم يناقشها إذ قد تكون ظنت أنها تصرفت فى أمر الغلاف تصرفاً غير لائق أو أنها لتواضعها تنفر من مظاهر الاعتزاز والكبرياء

ومرة أخرى دخل عليها المطبخ فوجد بين يديها قصة الشاب الفقير لأوكتاف فولييه، فما إن رأته حتى نهضت مضطربة وطوت الكتاب بعد أن

2017-11-11

وضعت عند الصحيفة التي كانت تقرأها عود ثقاب لتهتدي اليها ، فلما تناولته قال إنك تجيدين الفرنسية أيضاً يا سميحة، ولكنها أجابته سلباً وأنها فقط كانت تتسلى برؤية المناظر المصورة مع أن تلك الصحيفة كانت خالية منها

قضت هاتان الحادثتان وقضى نشاط سميحة ونضوج تفكيرها وقوة ملاحظتها مما ذكرناه على كل شك في أنها من أسرة رفيعة لا بد أن الزمان وقف في طريق سعادتها . وكان في ذلك اليوم قد قصد إلى البنك وقبض منه مبلغاً فناولها منه عشرة جنيهات قائلا خذي هذه يا سميحة واشتري به فوراً ملابس تليق بك فاني أريد أن أراك من اليوم في غير هذه الأسمال .

وهكذا ما حان موعد طعام العشاء حتى كانت سميحة في زيها الجديد آية من آيات الحسن والرشاقة وهي في سن الرابعة والعشرين التي تكتمل عندها الأنوثة وتبرز الملاحة .

ولقد لفت نظره قرطاً في أذنها من ماس صناعي فأسرع إلى خزانته وأخرج منها قرطاً من ماس ثمين كانت تتحلى أمه به ، ثم شبكه في أذنها بيديه المرتجفتين بدلا من ذلك القرط الكاذب وجسمها ينتفض وأنفاسها العاطرة تتلاحق وعيناها الساحرتان تنظران إليه في صمت أبلغ من الكلام كله شكر

وكانت المائدة حاضرة وقد زانتها بوعائين أطلت منهما عجوزتان من الورد الزاهي المختلف الألوان كما أن غرفة الطعام كان ينيرها نور ساطع قوي وقد ضاعفت عدد مصابيحها . وكان النور ينعكس على قرطها فتنبعث منه شرارات متألقة تتحرك بتحرك القرط في أذنها الجميلتين ، وقد ظهر وجهها الصبوح تحت شعرها الأسود اللامع بدراً في ليل ، وعيناها النجلاوان وأنفها الدقيق وفمها الذي يطلب التقبيل . كل ذلك يبتسم في جو يموج بأثير الشباب. وما كان هذا الوجه البديع إلا ثمرة شهية أطلت فوق غصن قدها المتدل الناعم وقد زانه نهداها البارزان وبطنها الضامر وأعطافها اللينة وساقاها الجميلا التكوين مما يأخذ باللب ويثري بالحب ، حتى أنه حين أخذ مجلسه من المائدة قال لها : من الآن يا سميحة تتناولين الطعام معي . اجلسي هنا أمامي فما أنت بخادمتي وإنما أنت سيدة بيتي . وكانت حيرى مترددة فألح عليها؛ حتى إذا انتهيا من الطعام أسرعت إلى المطبخ وعادت تحمل طبقاً واسعاً من الصيني به قرص شهي من التورتة ظن أنها اشترته من أحد حوانيت الحلوى . ولكن كم كانت دهشته لما علم أنه من صنع يديها ، وأنها اشترت مما تقتصده فرناً صغيراً لهذا الغرض وغيره. وأخيراً عادت إلى المطبخ، فلما طال غيابها خف خلفها ببطء فرآها تبكي . وعند ذلك عاد دون أن تلمحه وهو يسائل نفسه من عساها أن تكون هذه الفتاة؟

* * *

وكان من عناية كامل افندي بسميحة أن أفرد غرفة خاصة أزينها كما أعد لها سريراً نظيفاً في الغرفة المجاورة لغرفة نومه . وكان إذا خرج اصطحبها في سيارته التي كان يقودها بنفسه ، وكانت تتولى هي قيادتها أيضاً في بعض الأحيان . أما إذا غادا في

2017-11-11

الليل من رياضتهما فكانا يشتركان فى الحديث والمطالعة

أصبحت سميحة الشغل الشاغل لكامل افندى لا يفتأ يفكر فيها ويعجب بمحاسنها وينعمره السرور عند كل حركة من حركاتها حتى كادت تنسيه تلك التى أرادها له أبوها وأبوه، وقد أخذت سميحة تنزل رويداً رويداً إلى أعماق ذلك الدير الذى أقامه فى فؤاده لتلك الذكرى

وفى ليلة من ليالى القمر قضياها فى طريق السويس عادا إلى الدار وقد تملكه حبها ولم يعد يستطيع صبراً عليها فأخذ يداعب شعرها ويتلطف معها ويسائلها من أنت أيها الملاك الذى هبط على من سماء وحشتى ؟ أو لا أعرف على الأقل من أنت ومن أبوك ومن أمك وما هى أحداث القدر التى حاربتهما وحاربتك ؟ تكلمى . إشفى غليلى فانك لم تعودى الآن إلا جزءاً منى بعد أن تلاشت روحك فى روحى وامتزجت نفسك بنفسى . ولكنها ظلت تغمره بنظرات فاترة ضالة وقد عجم لسانها الصمت وغلبها الحياء. وأخيراً قالت له : ماذا يهمك من أمرى ومن أمر أبوىّ . بالله عليك أن تترفق بى ولا ترجعنى إلى ذلك الماضى الذى أحاول نسيانه لأنه لم يثمر غير شقائى ...

— إن من واجبى إذن أن أحول بينك وبين هذا الشقاء

— هيهات

ولكنه أمسك بكفيها وقال متململاً وهو يحدق فيها :

— إنى أحبك يا سميحة

وعند ذلك عادت إلى حلمها ونظراتها الشاردة تسبح فى فضاء الغرفة كأنها تفتش فيه عن شىء مفقود

— أو كثير عليك أن تقابلى هذا الحب بمثله ؟

— إننى لا أنكر ما لك على من الجميل ياسيدى. ولكن فى هذا القبر (مشيرة إلى قلبها) شبحاً دفيناً ينوص فى تراب الذكريات البعيدة ، فبالله عليك لا تحاول أن تثيرها فإنك لا تعلم مبلغ ما تجدده لى من العذاب

— إذن أنت تحبين يا سميحة ؟

— .....

— قوليها كلمة صريحة وإن كان عذابى فيها فانى بقدر ما أحببتك وأكرمتك أكرم أيضاً هذه الصراحة فيك

— ... نعم

— نعم ! إن من الكلمات القليلة الحروف ما يحقق سعادة أو يحطم حياة ... ولكن من عساه أن يكون هذا السعيد ؟ من هو وأين هو ؟

— إنى أجهله يا سيدى ...

أنت أيضاً ! أنت أيضاً تجهلين مكانه كما جهلت أنا مكانها . والحظ الذى يجمعنى بك ويملأ نفسى منك هو الذى يهدم الآن سعادتى ويباعد بينك وبينى . ولكنك على كل حال أكبر منى نفساً وأكثر وفاء ، فأنت لا تزالين على عهده أمينة وفية بينما أنا الشقى أسدل الآن ستاراً على عهدها وأنساها

وعند ذلك أفلت كفيها من يديه وارتمى على مقعده خاراً ذليلا . أما هى فمقدت ساعديها حول

رأسها وأخذت تبكي . وأخيراً قالت له فى رفق وخشوع : إن لى عندك حاجة يا سيدى لعلك لا تخيب رجائى فيها

— وما هى ؟

— أن تأذن لى بالذهاب عن هذه الدار حتى لا يطول عذابك ... وعذابى

— ماذا ؟ وهل جهلت يا سميحة أن بعدك عنى الآن يضاعف هذا العذاب وربما قتلنى . بل تبقين إلى جانبى حتى تهتدى إليه فأجمع بينكما وتعيشان سعيدين .

— وأنت ؟

— وأنا أعيش فى ظل هذه السعادة صديقاً وفيا

كم كان موقفه معها فى هذه اللحظة القاتلة نبيلاً . وكم كانت هى أيضاً تحبه وتتهالك عليه وهو جميل رشيق شجاع عادل ، لولا ذلك العهد ، وكان قد غلبه النوم فأيقظته فى رفق لينتقل إلى سريره ويرتاح .

ولكنه لم يلبث أن شعر برأسه يدور وجسمه ينحل ويتفكك وقد ثقلت أطرافه وزادت حرارته فعكفت على تمريضه . وأغلقت النافذة التى بجواره منعاً لمرور التيار . ولكنها فتحت النافذة الأخرى البعيدة عنه حتى يتجدد دائماً هواء الغرفة ثم ناولته قرص اسپرين كما أعطته ملينا فقد يكون الصداع الذى يشعر به بسبب سوء هضم أصابه . وكانت بين فترة وأخرى تختبر حرارته بترمومتر أسرعت فى شرائه . وقد لاحظت أن حرارته ترتفع شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغت ٣٩ درجة وخطين ازعجت وأسرعت إلى دفتر التلفون لتستدعى فى الحال طبيباً

وبينما هى تنتظر عودته وهى على أحر من الجمر كان هو يهذى فى نومه فيذكر أبويه ويذكر اسمها والجبل ودير القمر وساعداه يمتدان فى الفضاء كأنه يناجى ويتوسل . وعند ذلك ذهب بها الظن إلى أنه كان على نية السفر إلى هذه الربوع لأنها وجدت دليل المصيف من بين الأوراق التى على مكتبه

وعند ذلك سمعت حركة سيارة تقف عند الباب وما كان الطارق غير الطبيب فأسرعت به إليه ولكنه كان نائماً فرأى ألا يوقظه واختلى بها فى غرفتها يستفسر منها عن يوم إصابته وعن أعراضها وعن الاجراءات التى اتخذتها فى تلك الأيام الخمسة التى مرت عليه وهو فى تلك الحالة . وكم أعجب الطبيب بكل ما فعلته ولاسيما بالبيان الذى حرصت على أن ترصد فيه درجة حرارته فى خلالها . وكان كامل قد استيقظ لأنه ناداها عليها فأسرعا نحوه وقد دهش لعنايتها به إلى هذا الحد

وبعد أن فحصه الطبيب لم يجد به أثراً لأية علة فقلبه سليم ومعدته طاهرة من العفونة إلا حمى رفعت حرارته إلى ٣٩ درجة ونصف لم يكن سببها برد تعرض له . وعند ذلك لم ير إلا أنه وقع تحت تأثير سيء وصدمة شديدة لم يتحملها ، فشرح كل ذلك لها قائلاً : إن الجسم كما يتسمم من سوء التغذاء والشراب ، يتسمم كذلك من اضطراب الفكر بسبب حادث مفاجئ أزعجه . فهل مر به شيء من ذلك أو هو على الأقل تكدر لسبب من الأسباب ؟ وعند ذلك التفت كامل إليها والتفتت إليه ثم سكتا.

2017-11-11

فأدرك الطبيب أنه لم يخطئ فيما انتهى إليه بحثه . ولذلك أوصاه بالحذر من الوقوع مرة أخرى تحت سلطان مثل هذه المفاجآت ثم قال له : إنك على ما أرى دقيق الحس إلى حد أن أقل اضطراب يؤثر فى أعصابك ثم فى جسمك. سأكتب لك الآن عن دواء يشفيك من هذه الحمى فتعود حالتك إلى طبيعتها الأولى . وربما كان من حسن حظك أن هذه السيدة الفطنة إلى جانبك ، فهل هى ممرضة ؟

وعند ذلك قال المريض: نعم يا دكتور مع تغيير فى شكل بعض الحروف، فلم يفهم غرضه ، ولكنها فهمته هي ، وقد أراد بذلك سكون الميم الثانية مع كسر الراء ، ولذلك لم تستطع أن تحبس دمعها

— هلا ترى يا دكتور أن يذهب إلى الجبل لقضاء فصل الصيف فيه ؟ ...

— نعم . نعم . ولكن بعد أن يجدد قواه

ثم انصرف

أما كامل فقد أدهشته هذه الاشارة ولكنه حملها على هذيانه فى نومه بعد أن ذكرت ذلك له، ثم قال لها:

أوعَيْتِ ما ذكره الطبيب يا سميحة من أننى أكون سعيداً إلى جانبك على شرط أن أحذر مثل تلك الصدمة ... ولكن ثقى بأنها لن تعود ، وأننى سأطيب وسوف لا أخون العهد الذى قطعته لك . سأعيش يا سميحة إلى جانبكما كما وعدتك فحسبي بعد ذلك من هذه الدنيا أن أراك سعيدة . وعند ذلك لمحت شبح الخطر يتمثل لعينيها لأن تلك الصدمة لن تلبث أن تدعه مرة أخرى وهى تعلم مبلغ ما فعل حبه لها فيه . ولذلك أخذت توازن بين بقائها على عهدها نحو ذلك النائب الذى لا أمل فى عودته وبين أن تهوى بقبلتها على جبين هذا الذي أحبها وأحبته وبريد أن يضحى بسعادته ويعيش معذباً فى سبيل سعادتها. ولكن دافعاً خفياً كان، كلما همت إلى تنفيذ عزمها ، يستوقفها

وقد خطر لها أن تنقل إلى ذلك الركن الخالى المقابل لسريره منضدة فى غرفتها حتى تكون على مقربة منه فيمكنها القيام عليه . ولذلك حملت تلك الصورة لتنقلها إلى مكان آخر وكان التراب قد علاها وهتك غلافها فنزعته عنها . ولكنها وقفت ذاهلة مسمرة فى مكانها وهي لا تصدق عينيها ، إنها صورة أبيها وهذا خطه فى ذيلها حين أهداها إلى صديقه تاجر الفاكهة فما الذى انتقل بها إلى هذه الدار ، لعله اشتراها من تركته ، ثم لماذا يحرّم الفاكهة على نفسه مع أنها من خير ما ينفع الأجسام حتى أن الطبيب نفسه أشار بها

وعند ذلك اقتربت منه وكانت حرارته قد انخفضت درجتين فهلل وجهها ثم استأذنته فى أن تحضر له فاكهة كما أمر بذلك الطبيب، فقال لا بأس ما دام قد أشار بها ولكنها لن تكون كتلك التى كان يطعمنا إياها أبي ...

— أبوك ؟

— نعم . ألا تعلمين أنه كان من أكبر التجار فيها

— ولم لم تقل لى من قبل يا كامل ؟ الآن أبشرك بأننى قد اهتديت إلى مكان تلك التى أرادها لك

— أنت ؟

2017-11-11

— نعم ... أنا . وسوف لا تعود إليك بعد الآن تلك الصدمة التي كنت أنا السبب فيها . سوف تجتمعان فلا تحدثك في عهدك الذي ربطك به أبوك كما تكون خير عون لي مع احترام عهدي فلا يضيرك بعدئذ أن أتزوج أنا أيضاً به

— به ؟

إنه في تلك اللحظة شعر بسلطان حبها عليه بعد أن نسي الأخرى . ولكنها لم تمهله فطوقت رأسه بساعدها وحدقت بعينيها في عينيه قائلة: إنها أنا يا كامل وهذا شاهد على ذلك من أهلي ... أبي

ثم طبعت على فمه الملتهب تلك القبلة الحارة التي طالما اشتهاها وطالما حبستها

***

ما كاد كامل أفندي ينال الشفاء حتى أرسل إلى وكيله بكتاب طويل ولكن الرد عليه لم يصله إلا بعد عشرين يوما تقريباً . وقد جاءه من لبنان مما يدل على أنه كان قد كلفه بالقيام إليها . وعند ذلك كاشف سميحة وأمها بعزمه على القيام معها فورا إلى الجبل ، إلا أن هذه الرغبة لم تصادف هوى في فؤادهما ، وقد غلبت عليهما ذكرى دارهما التي ألفاها ونشأت سميحة فيها وقد خرجت من أيديهما . ولكنهما مع ذلك رضختا والطبيب هو الذي أشار بذلك .

ولما وصلوا إلى دير القمر قصد بهما أولا إلى قبر عالمهما لزيارته ثم عاد بهما وقد ظنتا أنهم سينزلون في خان بالقرية حتى أنهما لما صرت بهم العربة أمام الدار حولتا عيونهما عنها وقد اغرورقت بالدموع .

ولكن كم كانت دهشتهما عندما رأتا العربة تقف بهم عند بابها

لعله إذن سيعند مالكها في أن يأذن بزيارتها أيضا قبل الانتقال إلى ذلك الخان . وكانت الدار على عهدها السابق إلا أنها أصبحت أزهى لما تناولها من التعمير والتجديد . وكان أثاثها جديداً نحما وكان كل شيء فيها مستكملا مرتبا أحسن ترتيب . فأخذتا تطوفان في غرفها ومسالكها وكأنهما في صمتهما تتخاطبان : هنا كنا نأكل ، وهنا كنا ننام ، وهنا كان رحمه الله يجلس ، وهنا كان يستقبل أصدقاءه من التجار ، ولكنهما كانتا تشعران بالألم والمرارة وهما لا تلبثان أن تبرحاها حتى إذا هنا بالنزول أوقفهما كامل افندي قائلا : إلى أين ؟ إنها كانت داركما وهي الآن كذلك . لقد سبق أن اشتريتها ثم كلفت وكيلي بتعميرها وتأثيثها حتى لا تنزلا في سواها ...

ومن محاسن الصدف أن صديقه لما علم بسفره إلى لبنان أدرك أنه قصد إلى دير القمر العزيز عليه فوافاه إليه . وكم كان سروره لما علم بكل ما ذكرناه هنا حتى قال له : الآن قد استوفيت عناصر قصتك فأي عنوان ترى أنه يليق بها فقال كامل افندي : لا أدري للآن

— سميها دير القمر

— أو دير سميحة

محمود طنبيت

هل مات منتحراً

للكاتب " ليوكوزانوف "
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تسألني متى عرفتها، وكيف عرفتها . تالله إن أمرك لعجيب، فقد رويت لك هذه القصة عدد شمرات عشونك التي لا تفتأ تنتفها من الهوس وفقد الذاكرة

لقد عرفتها يا صاحبي في صيف تلك السنة التي عرفتك في خريفها . هل في هذا التدقيق إبهام أو غموض ؟ هل كانت سعيدة في زواجها أي قبل اتصالنا ؟ من يدري ؟ ولكن من ذا الذي عرف الدنيا وخبر أخلاق رجالها ونسائها فراح بعد ذلك يشك فيما قد أصاب تلك السيدة من البلاء على يدي زوجها .. لقد وصفته لي كأني أراه وأسمع صوته ، وقد رأيت أناساً هبطوا إلى أسفل درك الشيخوخة حاملين في أحشائهم جمرة صبابة الصبا ، وحرقة غرام الشباب . وكان ذلك الزوج منهم . ولكن لكل امرأة جبلة وصبية أن تعد مسؤوليتها من العقد ساقطة متى عجز الزوج عن حمل مسؤوليته . فإن حبها لا يبقى بعد زوال قوته ... مالي أراك تحدق فيّ كأني أكلت ميراث أبيك أو هدمت قبة كنيسة القديسين بطرس وبولس ؟ لست حارساً على هيكل الفضيلة . وأنا أقرر الواقع . أنا لا أنكر أنه قد يحدث أحياناً خلاف ما ذكرت ، كما يروي كثيرون ممن شاهدوا وجربوا . أن بيوتاً عدة لم يطفأ قط فيها سراج الحب المقدس منذ أشعل ليلة الزفاف

تعريف بالقصة

ليوكوزانوف كاتب روسي من العهد القيصري ، تأثر بمدرسة تورجنيف وبوشكين ، وأندريف في القصة القصيرة ، وكان صديقا حميا لبونين الذي حاز جائزة نوبل ، ودرس ليوكوزانوف الرياضة والميكانيكا ، في جامعتي زوريخ وجنيف ، كما درس حياة العناصر والأوساط الثورية ، التي هاجرت أو فرت إلى خارج روسيا ولجأت إلى سويسرا وإيطاليا . ودأبه بعض الغموض الشديد في العقدة ، والجلاء في وصف الشخصيات وتحليل النفسيات ولا سيما النساء من أبطال قصصه . وقد نقلت هذه القصة « هل مات مسموما ؟ » إلى الفرنسية ونالت جائزة مجلة ليزانال Les Annales ونجحت نجاحا عظيما

إيه ؟ ماذا تقول ... تهمس ولا ترفع عقيرتك . كلام مسيب .. تخجل من تكراره ... ها .. ها ها .. صدقت .. تمام . أي نعم.. إن سراج الحب الذي يصب نوره على العروسين ليلة الزفاف لمرضة لألف ريح وإعصار يهبان عليه من المدخنة فيطفئانه وربما أخذته قلة الزيت ... ها ها ... الزيت . مفهوم . مفهوم طبعاً . إن المرأة ليست سيارة . قد تكون كوكباً أو نجماً مذنباً ... ولكنها ليست سيارة . فإذا ما نضب الزيت ، حينئذ ترى الزوجة يائسة يائسة تحيي الليل المظلم الطويل أرقاً بينما الزوج يغط في نومه لا يبالي ولا يكترث . نعم ؟ آه الحالة المضادة لما أقول ... دائماً المحاسن والأضداد . أنت ترى حالة الرجل المسكين قد تزوج من خداعة لا قلب لها ثم انتبه من حلم الزفاف الباطل إلى الحقيقة المرة . لقد هيأ الزوجان لنفسيهما فراشاً لا بد أن يرقدا فيه حتى يفرق بينهما الأجل، زيجة أورثوذكسية على قواعد عقيدتنا الدينية . . .

لا ، لا . المرأة التي تعرفها لم تقبل ولم تخضع . لقد سارعت إلى الفرار وهي تحمل في أحشائها الجنين .. الذي حملت به ليلة الزفاف، وبالها من ليلة! لقد قضت عامين اثنين فقط أثناء الخطبة والزفاف . وكنت أعرفها قبل الزواج ، فعرفت فيها الشباب والجمال والمرح وعدم الاكتراث للحياة ... لقد كانت قبل عامين طفلة . أمُّ طفل وكانت تفيض على كل من يراها من ابتسامتها كضوء الشمس ، منبع الحياة والأنس . ولكن عند ما أيقنت أنها دفنت زواجها وشبابها في قبر الشيخوخة المتمة أسنَّت فجأة كما يهرم الذين يكابدون الآلام النفسية الجسيمة في سكينة وصمت . . . إنها علمت أموراً كثيرة كانت لا تخطر لها قبل على بال ... فلما تعلمت ما تعلمت على يد ذلك الأستاذ الكريه (الشقاء) ثارت حينها فنبذت كل طاعة . ولكن بعد أن كابدت مرارة الفجيعة في حياتها التي قضى عليها أن تسلك مناهجها وحدها

أي نعم ! لقد عرفتها في تلك الفترة .

وفي تلك اللحظة دخلت مدام اوجستا دمانسكي، فلما علمت ان الحديث بيننا كان بشأنها تضرج وجهها من فرط السرور والخجل . وكانت في مشيتها ونظرتها أزهى من أميرة . وعيناها بلون القطيفة ، ونعومتها في شكل النرجس الغض ، وكانت لخديها صفرة تخالطها حمرة وخضرة كأنهما خدا تفاحة نضرة أو زيتونة عطرة ، ولما صوت لين غني بالأنغام المؤثرة الشجية، ولفتات هادئة ونظرات عميقة. وقد فاجأت كرولنكو ذلك الفيلسوف ذا المئتين الملتوف وهو يهز كتفي قائلاً : اغرس غرسك أيها الغلام واغتنم من دهرك ما ساقه اليك القدر . والله لوددت لو أرجع صبياً فأدخل الجامعة لأرشف رضاب العلم ، وأشهد التمثيل خالي البال، وأهصر أغصان الصبايا خاوي الوفاض من المال . أحب الحياة التي يكون فيها جيبي وفؤادي فارغين . فلما سمع صوت حفيف حرير التافيتا الذي كانت تجب فيه أوجستا رفع رأسه وألقى عليها نظرة عجلى ثم أطرق . فخجلت كما خجل فتقدمت اليه وقالت له: غم صباحا يا ايليا ايليا نفتش. كيف حال السيدة حرمك ؟ إنني لم أرَها ولكن أعرفها بالشهرة الذائعة . فنهض ايليا ايليا نفتش وتناول يدها الطائلة الممتدة اليه في عظمة امبراطورية وقبل أطراف البنان . فلم تحمله حتى يلمع ريقه ويتكلم: بل قالت وفي صوتها لهجة حزن وشيء من التهكم « حقاً إن دارنا هذه لموحشة ، دار سمجة عتيقة مظلمة . نصفها خَرِب وسائرها ناقص الأثاث والرياش . ومن كان مثلك قد تعود محافل الأنس والحبور ومجالس السمر والفكاهة في لندن وبرلين وفارسوفيا ، لا يرتاح إلى مسامرة امرأة وطفلها وصديقها الطالب بالجامعة (تشير إليّ) ولا يقر عينه مثل هذا المجلس وقلة أنسه . والواقع أننا لا نصلح لضيافتك . فأما إسعادك وإدخال السرور على نفسك ففي غير هذا المكان ملتمسهما ومطلبهما فانتظر عودة أمي ...

فقال ايليا ايليا نفتش : لعنة الله على القيصر وجميع أسرة رومانوف يا اوجستا قيلوفنا إن كنت أدري أتجدين الآن أم تمزحين ! فدنت مني وتناولت أنملي تعبث بهما وكان ولدها بوريس قد دنا منهما فتناولت خصلة من شعره تلاعبها باليد الأخرى . وأخذت تنقل عينيها من وجهي إلى وجه الصغير الساهم ثم وجهت الحديث إلى الرجل الناشج :

2017-11-11

— إني أحِدُّ يا سيدى ايليا ايليا نفتش ، وهل هذا المقام يحتمل مزاحاً ؟ ثم صوبت نحوه نظرة عظمة وأبية ورنت إلىّ بلحظها الفاتر كأنها تناجيني

فأوقف عينا ايليا ايليا نفتش وقال مسرعاً ألفاظاً متراكمة كأنها قطع من الحديد المحمى يفصلها حداد حاذق ، بدقات على السندان متتالية كرنات ناقوس القطار السريع :

— أحقاً يا أوجستا فيلوبوثنا أنك حتمت على هذا الفتى أن يتمى شعر لحيته الفضى ليبدو للناس رجلاً ناضج السن ، فلا يلفت أنظارهم اليكما بفتوته وكمال نموك ، فان الفارق فى السن ملحوظ بينكما لدرجة أنك تخجلين من مصاحبته . وإن بعض الناس ليظنك أمه خصوصاً فى مصلحة البريد عندما قال له موزع المكاتيب والطرود : أخبر السيدة المصون والدتك أن لها خطاباً مسجلاً ولا يمكننا أن نسلمه إلا اليها يداً بيد ... أليس كذلك يا ساسا ؟

أما أنا فقد أصابنى دوار ، كأنى أخوض غمار البحر فى سفينة مخروقة ، ودارت بى الدنيا ورأيت ألوان قوس قزح ترسم أقواساً أمام عينى ، ثم سمعت فى أذنى طنين ذباب لا بنى ولا يكف ، وقد فقدت توازنى من هول ما سمعت من الاعتداء على كرامة سيدة وشرف رجل . إن هذا الرجل كان يكلمنى فى صفاء وحسن نية ، وهأنذا أراه يهجم على عرض السيدة التى أحبتنى وأحببتها ، بأفظع القول ، وأقذع السب ، وأمر القذف ...

وعند ما دخلت زنيا (خادمتها الخاصة) بطقم الشاى لم تتردد أوجستا فى خدمته بأن سألته فى أدب عن عدد قطع السكر التى تكفيه ليزدرد فنجانه ، وقد تمنيت أن يكون منقوع الزرنيخ الذى ، لتخمد أنفاسه . ولم يكن أقل ثباتاً منها فقال : ثلاث قطع من فضلك . كأنه لم يأكل حلواً فى طفولته فهو يعوض على مائدتنا ما فقده فى صباه ...

وفى خلال تلك اللحظات لم ينقص أدب السيدة ذرة ولم تقل محاسنها فى عينى ، فكان وجهها لا يزال يحمل لى ألطف الابتسامات وأرق النظرات ، وإن لم تكن تلك الابتسامات من الفرح والسذاجة على مثل ما كانت عليه إذ هى تلاعب طفلها وتداعبنى . وشيئاً واحداً لحظته يدل على ماطرأ من التغيير ، لقد كان صوتها عميقاً كأنه خارج من قاع بئر . ولو كان للأصوات ألوان إذاً لكان صوتها أبيض مشرباً بزرقة الفجر ، وقد دهشت حقاً من جرأة إيليا إيليانوفتش الذى عهدته وديعاً . لقد كان موقفاً حرجاً حقاً بيني وبينهما ولم ينقذه إلا وصول أمها فى هذه اللحظة فيدورا كيليا نوفنا ، فقد كانت فى سياحة قصيرة فى نيون ، فلما وقع بصرها على إيليا إيليانوفتش قالت له :

— ها أنت ذا أيها الشيطان الأزرق ، لا تزال على قيد الحياة ، وقد احترفت مضايقتنا فى كل مكان ، أمالك عنا منصرف ؟ فاحتقن وجه الرجل وجحظت عيناه ولكنه ضبط نفسه وقال :

— أهذه هى التحية التى تدخرين لى منذ فراقنا فى ايسيا ناپوليانا يا أمي العجوز .

فقالت فيدورا كيليا نوفنا : لئن كنت أمك العجوز كما تزعم أيها الشيطان الأزرق إذن لشكلتك بأسرع مما فقدت أم موسى ولدها الوحيد .

فضحكت من سرعة خاطر هذه المرأة التى كنت لا أميل إليها لأنها كانت ذربة اللسان موجعة الهجاء ، وإذا كانت قد نازلت فى حومة النضال كل

2017-11-1

منافساتها من فاتنات عصرها ، فلا جرم أن تكون قد كابدت من المنازعات ما لا يحيط به حصر أو استقصاء .

فقال لها إيليا إليا نوفتش فى هدوء قاتل :

— لا عليك يأمنا العجوز ، سواء أنكلتنى أم لم تشكينى ، ما دام الله قد عتق رقبة زوجك الذى كنت تجودين عليه بالضرب الوجيع لغير ما علة يدريها . وإنى ما أردت إلا إنقاذ هذا الفتى المسكين ساشا (يقصدنى ويدلنى إذ حقيقة اسمى كما لا يخفى عليك الكسندر دريانوف) الذى لا يزال فى صحوة شبابه من الوقوع فى مخالب ابنتك ، لأنها حديثة السن مليحة التقاطيع فلا يخدعنه حسنها وشبابها؛ فغير عجيب أن تنمو الأشجار الكبار فى انجاء معاطف الأعواد الرطاب — ألم يمت والدها مسموما بيد مجهولة ؟ قيل إنها يد أقرب الناس إليه ؟

فتقدمت العجوز نحو ذى المثنون وقالت له :

كذاب أشر ، وغام أثيم ، أتجرؤ أيها النادر الفاسق أن تقال منى ومن ابنتى ، وقد أويناك وغذيناك ونجيناك من مخاطر لا عدد لها ؟ بعد أن التقطناك من حمأة الخمر وما إليها من الشرور والمفاسد

فابتسم إيليا إيليا نوفتش ابتسامة عريضة صفراء حتى بانت نواجذه وبدا وجهه كالذئب الذى يتحفز لالتهام فريسة لينة وهو آمن وقال :

دعى عنك يأمى العجوز تلك السخافات وتنكبى بالله مواضع العبث والسخرية فى الحديث ، فقد انقضت دولتك وولى معها الزمن الذى كان يحيطك فيه أهل الدعابة والمزاح ، ولا تجتدينى علىّ وأنا ناصح لأنك تريدين أن تلبثى إلى آخر دقيقة من عمرك وأنت تعلمين النفس بأنك فاتنة الحسن خلابة الجمال مصرة على التحلى بزهرة الربيع وبهائه ، وقد أفقى بك العمر والمنعرجات إلى قلب شتائه ، ومتبرجة فى حلة الشباب التقشيب بعد أن جلل رأسك ثلج الشيب ، دعى عنك اليد المرتجفة الملطخة بالدماء

وفى الحق كان وجه العجوز مدهونا بالابيض والأحمر إلى حافات أجفانها ، فكان هذا الدهان يعير عينيها بريقا وحشيا ، غريبا ، وكان على رأسها برج من الخرمات[1] وتحت هذا البرج خيلة من الغدائر السوداء المستعارة فلا بدع أن يكون هذا الوخز الأليم قد غاظها فهرأت أحشاؤها من الحقد . لم أكن فى حياتى شهدت مثل هذا المنظر ، إذن هذه هى دراما الحياة بعينها . ولا يشهد أمثالى نوعا منها إلا على خشبة المسرح ، فلا عجب إذا بهتُّ وذعرتُ وأنا أرى وأسمع هذا النضال النادر ، فأخذت أحدق فى العجوز من فرط الدهش بعينين تقاربان فى السعة عينيها ، كما كنت أحدق فى الممثلة التى كانت تمثل فى المآسى دور الملكة الشريرة .

ثم نظرت إلى وجه أوجستا حبيبتى وكريمة تلك المرأة الخبيثة ، فاذا هو ممتقع بلون الكركم الصينى وهى ترتجف من قمة رأسها إلى إخمص قدمها ، كغصن رطيب فى وسط عاصفة هوجاء .

وقد نظرت إلىّ نظرة بالغة الحزن والعتاب ، كأنها تنتظر منى أن أبطش بخصمها اللدود ، الذى

(١) نوع من الحرير المصنوع على هيأة « الماتله » وقد بطلت هذه (المودة)

2017-11-11

كشفت عنه الصادفة ، ولم أكن أنا التي جلبته إلى الدار ، بل هي التي لقيته في شارع كاردج مأوى المطاردين والمنفيين المتآمرين من الثائرين ، ودعته حنانا ولطفاً ليشرب الشاي على مائدتها .

فدنوت من أوجستا وهمست في أذنها أسألها ما ترى واجباً علي في هذه اللحظة العصيبة . ولبث ايليا نوقتش الموتور يرنو إلى ذلك المنظر العجيب بألحاظ ماكرة رزينة . أما العجوز فقد أخذت ترفع عن رأسها تلك القبعة الضخمة التي شبهها خصمها بالبرج ، بيد مهزولة هرمة ، وكانت رواجبها المعقدة المتشنجة تأتلق بما لا يحصى من الخواتم . فانتهزت هذه الفرصة ودنوت منها وأخذت أقبل يدها بخشوع وخضوع قائلا :

— أرجو المعذرة ، فالذنب ذنبي والخطيئة خطيئتي ياسيدتي ...

فأجهشت المرأة بالبكاء كالطفل ، فسارعت اليها ابنتها وحملتها إلى الباب تريد بها الخروج . ودنوت من ايليا ايليا نوقتش فبادرني بقوله :

— أراك يا بني مولعاً بتقبيل أيدي العجائز وإنه لأمر غير مستحسن .

فقلت له : يا سيدي . . . إنني حديث العهد بمعرفتك . ولم أكن أظن أنك تقسو على امرأة ضعيفة بهذا القدر

فقال : لم يؤن الأوان لأطلعك على حقيقة هذه المرأة بعد أن رأيت للابنة فيك هوى وأنت أصغر منها بسنين عدة ، وكدت أراها في موضع بقتك وكاد نجاحها في الاستيلاء عليك يتحقق .

فأوشكت وأنا أحرق الأرض حنقاً أن أقول له : وماذا ينفعك أو يضرك أيها الفضولي الدخيل أن تنقذني أو تتركني أغرق ما دمت لم أستنجدك ؟ ومتى كان لشأن أن يحشر نفسه فيما لا يعنيه من شؤون رجل رشيد ؟ ولكني بعد أن عرفت شراسة طبعه أحببت أن أخدعه حتى أخلص من شره فقلت له :

ولمَ ياسيدي تسلك في ذلك سبيل القسر والاكراه ، وكان في مقدورك أن تعالج الأمر برفق ولين ورقة ، فكنت بذلك تجتذب ميلي ومحبتي ، لأني أسهل انقياداً وأطوع انسياقاً بهذه الأساليب مني بذرائع العنف والقسوة

ولم تكد كلماتي تصل إلى سمعه حتى انبسط جبينه وهدأت ثائرته وابتسم في وجهي بنظرة ملغزة عميقة وقال لي : الحق بيدك يا الكسندر دوبرانوف ما دمت قد أدركت حقيقة مقاصدي الخيرة ، فلك عليَّ أن أطيع ما تأمرني به . فقد توصلت بقلبك الفياض بالطيبة والعطف وبفضل ما أوتيت من بشاشة وظرف إلى اكتساب ولائي وطاعتي

فدهشت من مسلك الرجل ، وخيل إليَّ لحظة قصيرة أنه قد يكون مجنوناً ، فما الذي دعا إلى سورة غضبه الفاجئة ثم انقلابه حملا وديعاً . أو قد يكون بلغ من الدهاء غايته ومنتهاه فهو يخدعني ليستل الغضب والغيظ من نفسي كما يستل السهم من العضو الكليم . وكأنه لحظ ترددي ودهشتي فقال لي : سأفضي إليك بكل شيء بعد أن نصفي موقفنا ونمحو أثر ما رأيت وسمعت . فقلت : هل ترى أن تستند إلى هاتين

السيدتين كما يفعل النبلاء من الرجال . وإن كان فى الأمر ما يوجعك أو يشرك بالهوان بعد موقف الجفاء والعنف الذي وقفته فاعلم لأجلى وتحمل فى سبيل مودتى بعض الأذى الذى تحملته وأنا أشهد منظر التخاصم والتقاذف بالشتائم والسباب

فقال : لك علىّ ذلك ، فان كانت هـذه المرأة الجحمرش الدردبيس قد أسـدت إلىّ من الخير وصنعت معى من الاحسان ، فانما هو شرف تعرق إليك فانك ممن يأسف المرء على ما مضى من عمره بدون صداقتك

فكبر الرجل فى عينى ونفيت فكرة جنونه نفياً باتاً . وصافحته ، فقال لى :

إن الحوادث التى ألمت إليها فى خصومتى مع تلك الكاهنة الشوهاء وقعت فى وقت كان القوم فيه فى موسكو وبطرسبرج قلبى النيرة على أعراضهم حتى لقـد كان أهل الشرف منهم والحسب يمدون تلوث أعراضهم بوصمة قيصرية حلية من حلى المجد والفخار . وإن هذه المرأة هى التى سودت سمى بذنها وألبست عهد طفولتها وشبابها ثوب التعاسة والشقاء . وكان زوجها لا يخرج عن كونه صفراً فى البيت لا كلمة له ولا نفوذ بل خاضعاً كل الخضوع لسلطان قرينته الطاغية ، وكان حسبه أن يزجى أيامه بين قليل من الصيد فى الحراج وقليل من الطرد وكثير من النوم وكثير من شراب الفودكا على مائدة القمار . وأخيراً ذفت ابنتها تلك التى ترى إلى شيخ قد بلغ من العمر أرذله ، وكاد ينقلب إلى الطفولة مرة أخرى ، وكان ساكن الريح فاتر الحركة عليه جلباب موشى بالأزهار وفوق رأسه قبعة كبيرة وهو مشتغل بعض البرتقال ، وكانت زوجته أوجستا هذه التى تبادلها الحب لا تزال تمسح له أنفه كما كانت تفعل مع طفلها ؛ أما أيام الأحد فلا يزال يرتل الأدعية والصلوات من خيشومه الكبير الهرم . وقد مات الرجل بجريمة غامضة فضاد الغموض إلى نفسى من هذا الوصف الدقيق الذى دلنى على أن إيليا إيليا نوفتش جد خبير بتاريخ الأسرة من قديم . فلزمت جانب الصمت وقدته إلى حيث كانت المرأتان تجلسان وعليهما مظاهر الكآبة والألم . فلما رأتانا جفلت الصغرى وتشبثت الأم المجوز بمسندى مقعدها كأنها تكاد تنور بها الأرض وتبتلعها ، فقلت : لا عليكما ياسيدتى فقد جئنا لنعتذر إليكما . وقد آلينا على نفسينا لا يغادر إيليا إيليا نوفتش هذه الدار الكريمة إلا بعد أن يصلح ما أفسد بتهوره وطيشه

فقال إيليا إيليا نوفتش :

— أى نعم ! إن العفو من شيم الكرام ، والحق ما قال ساشا الذى أتقـدم به إليكما شفيعاً وكفيلا . وهأنذا أنثم يديكما وأستميحكما عذراً عما فرط منى فى حقكما . وأنت ياسيدتى الكريمة (متجها إلى تلك التى دعاها جحمرش ودردبيس متذلطة) أحق الناس بالمغفرة لى . وإن قصرت فى خشوعى وخضوعى بين يديك ، فلأن البطل لا يكون أبداً بطلاً فى عين سيده . وعندما نطق بهذه الكلمات التى لا أدرى كيف نغمها ومتى نسقها وفى أى قالب من قوالب الاخلاص أو النفاق أفرغها ، بدت فى عين الأم نظرة خبيثة كأنها تتفرج على مشهد من

2017-11-11

مشاهد الألعاب . وكانت المرأة جريئة كاللبؤة الهصور ، كأني بها لا توجس خيفة من أحد . أما أوجستا المسكينة فقد غامت فى مقعدها والفزع منتشر على محياها . وكانت من قبل ممتقعة اللون هادئة الصفحة . ثم إن المرأة العجوز همت بالقيام وتوهجت دياجيها وبرقت أساريرها .

فقالت لها ابنها :

ناشدتك الله ياوالدتى أن تقبلى اعتذاره وأن تلزمى الصمت والسكينة وألا تعرضى نفسك لخاطر الموت بالسكتة القلبية . فابتسمت المرأة وقالت :

— نعم نعم ، كيف لا أقبل عذره وهو ربيب دارى ، وأنيس وحشتى فى شبابى وقد كابد من الشقاء فى حياة المرحوم والدك ما كابدنا .

فجلسنا وتبادلنا الحديث والفكاهة ، نصطنع السرور ونفتعل الضحك ، ونقوم بأدوار تمثيلية ماجنة بعد الفاجعة التى مرت بنا عاصفتها .

وكان الليل قد أرخى سدوله . فقالت العجوز : تتعشى معنا ياإيليا إيليا نوفش . فقال : كان بودى أن أجيب دعوتك ، فنبست الماضى الجميل من مرقده ولكن موعداً سابق التحديد يستحثنى إلى موافاة الرفاق فى « كاروج »

فقالت له : إذن تشاركنا الشاى والفطير عصر الأحد . سأستمع لك الكمك بيدى . وأعد لك صحناً من مربى البرتقال التى كنت به جد شغوف . أليس كذلك ؟ ولك أن تدعو من تشاء من أحبابك

فقال : طبعاً يكون ساشا حاضراً .

فقالت : هذا مالا شك فيه فانه يعيش معنا تحت سقف واحد .

قلت : يكفينى أنسكما وصحبته

ثم نهض وانحنى وقبل أيديهما وصافحنى وحاول مداعبة الطفل فنفر منه نفوراً شديداً فضحك الرجل مدارياً خجله واستخذاءه وعجل بالانصراف .

فلما عدت وجدت الغلام (وكان اسمه بوريا تدليلا من اسمه الحقيقى بوريس) فقد عثرت عليه وحيداً كئيباً منطوياً على نفسه كأنه سلحفاة أدخلت رأسها وعنقها تحت درعها الصخرى ، فلما دنوت منه نظر إلىّ نظرة نم عن الابتهاج والدهش بعد النجاة من الغول الذى عكر صفاءنا ، وكان شعره الذهبى يلمع فى ضوء المصباح ، وعاد محياه يتلألأ وضاءة ونضارة ، وثغره يتألق بنور الابتسام ، وعيناه تشرقان بنوع من الحنان جعل قلبى يخفق دهشاً واضطراباً .

وفى تلك اللحظة حضرت مدام بوييه وهى خادم عجوز تؤجر بالساعة لتطهى الطعام وتعد المائدة ، دون أن تذوق من الألوان التى تتفنن طبخها لقمة واحدة ، لشدة محاسبة العجوز فى كل صغيرة وكبيرة ؛ فكنت أعتذر عن العشاء أو الغداء أحياناً لأمكن الخادم العجوز (وهى فرنسية الأصل تقيم فى جنيف) من أكل الوجبة التى أعطى عنها شفقة عليها . فاذا تحركت شفتى وشهيتى فى وقت واحد نفحتها فرنكا تمد به طماماً لنفسها فى غرفتها المظلمة فى حى « فوبور » فلما تركته لحظة لأبدل ثيابى استعداداً للعشاء عاد إلى سمته وحزنه وكآبته . فلما رأته أمه على تلك الحال ذاب قلبها رحمة وشفقة فأخذت بيده ووضعت يدها الجميلة الثانية على رأسه وجعلت ترنو اليه بألحاظ كلها رأفة وحنان وتخاطبه بألفاظ كلها حلاوة ورقة وعذوبة .

2017-11-11

فلما عدت من مخدعي أخذت بيد الطفل فانصرفت الأم لتعد أزهار المائدة ، وكانت تعلم حبي الشديد للخزامى ولكنها وضعت مكانها زهر البنفسج . وأخذت أتحدث إلى الغلام وهو يسألني وأجيب وأستدرجه في لين ولطف ، لأعرف من ذهنه أثر المشاهدة الأليمة التي شهد بعض أدوارها فكانت تحوم في ذاكرة الغلام عهود غامضة وذكريات مبهمة ترجع إلى زمن أقدم من ذلك العهد ، فقد كان يتذكر أنه أقام في قطر آخر وأنه رأى مدينة ذات منازل شاهقة بيضاء وأنه ركب في سفينة ، غير أن هذه الأمور كانت كالخطوط الدارسة في صحيفة ذهنه . والواقع أنه لم يلبث إلا قليلا حتى لحقت بهذه المشاهد الغامضة ذكرى مدينة « كيف » أو على الأقل ذكرى كثير مما قاساه وكابده هنالك .

فلما انقضت وجبة العشاء وراحت الخادم العجوز تتمتر في أذيال شيخوختها وفقرها وضعفها وآوت الأم إلى غرفتها وهي تجتر الشر وتضرب أخماساً لأسداس ، أقبلت عليّ أوجستا في ثوب أسود وقد رسمت تحت أجفانها حلقات زرقاء فكسر منظرها من حدة غضبي وألانفي بوادر الحزن التي ظهرت على وجهها وهي تقول :

— لك أن تفعل ما تشاء إلى أن تقضي عليّ . إن حظي من الحياة بين يديك وأنت سيد هذه الحياة منذ عرفتك ، وبوسعك أن تعد ما يحلو لك من انتقام تجاه هذه الجهود التي يبذلها الدهر المائد وأمثال هذا الوغد المخبول الذي جنى على سعادتنا . فما حياتي في هذا الحائل الذي انتصب فجأة على سبيل آمالنا فتعثرت به حتى توشك أن تتبدد وأنت تعلم أنني لم أدخر وسعاً لتحقيق أمانينا

فقلت لها : أصحيح ما قاله ذلك الرجل وإن كان صحيحاً كله أو بعضه فلِمَ أوصدت سريرتك دوني ؟ وما الذي دعاك إلى كتمان أسرك ؟

فقالت : هل تشك في إخلاصي ؟

قلت : ولكن الماضي الذي لمح إليه إيليا إيليا نوقش . فأعتم حتى ظهرت علي أوجستا دلائل الشحوب فأمست صامتة تحمي داعاً رأسها . فأردت أن أشدد عزمها بتأكيدي لها أنها ستلقى السعادة وأني سأقف حياتي على هنائها ، فلجأت إلى ذرف الدموع

وما كان قلبي وهو السادر في هواه ليخامره ريب في إخلاص أوجستا فاذا لاحت لي فكرة تستدعي لومها ردها هذا القلب متمرداً بعد أن رأى من ثباتها وولائها ما رأى . وهكذا أوجدتني تلهياً في وهاد أظلمت آفاقها وخفيت عني مخارجها

وما كانت هذه المرة الأولى التي حاول بها الناس بمثل هذه المكايد أن يفرقوا بيننا ... فجذبتها إليّ وقبلتها ، فعلا وجهها الشحوب وأعرضت بعينيها عني تاركة شفتيها لشفتي ، ولم أعدُ أن أسير في طريق الحب إلى أبعد من تلك القبلة ، ولم يجد النوم الى عيني سبيلاً في تلك الليلة ...

فتحرك كوتشامسكي الذي كنت أقص عليه هذه القصة وقال :

ألم تكن تعرف هذا الرجل الذي عذبك وعذب المرأتين ؟

2017-11-11

قلت : قلت تقصد إلى إيليا إيليا نوفتش ؟

قال : طبعاً أقصد إلى هذا الشيطان

قلت : كلا

فقال كوتشامسكي : أما أنا فأعرفه فذاً من أفذاذ الخلق الناشز والطبع الغريب فاسمه ملء الأسماع، وشهرته هذه لم تكن لولا كبته في السياسة أو الثورة والأدب، بل لغرابة أطواره وشذوذ عاداته فقد كان في أول أمره يتجنب الناس ما أمكنه الأمر، وينأى عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وكانت رغبته في الانزواء ملحة قاهرة، وهو منذ وضع قدمه في جنيف يأبى إلا أن يزورنا في منازلنا ، ويأبى إلا أن يقدحنا بطلعته المشؤومة في غرفنا كأنما لم يكن يكفيه طول ما يتكبنا بها أثناء اجتماعنا في المطاعم والمقاهي لأنه كان يعتقد أن زيارة الزملاء وأبناء الوطن في الغربة فرض لا مناص له من أدائه وواجب لا بد من القيام به

— نعم نعم لقد عرفت بعض ذلك من السيدتين قبل حدوث الفاجعة ولكن كانت الفرصة قد فرت

— الفاجعة ... أية فاجعة ؟

— الأفضل أن أتم حديثي . فقد كان بيننا وبين يوم الأحد الذي عينته الأم العجوز لدعوة الشاي ثلاثة أو أربعة أيام ففي غداة المشادة والاعتذار تيقظت العجوز فيدور اكيليانوفنا ممتعضة ، ممتقعة اللون متجهمة الأسارير . وعند ما وقع بصرها على أوجستا قالت لها كأن المسكينة كانت مسؤولة عن زيارته المشؤومة :

— ما له عندي حتى يأتي إلى منزلي ؟ قولي له بالله عليك إنني أكرهه ولا أريد أن أرى له في بيتي وجهاً بعد اليوم

فقالت أوجستا : ولكنك دعوته إلى الشاي يوم الأحد هو ومن يحب

— من يحب ؟ أله من يحب هذا الكائن المشؤوم ؟ حسن ... بعد هذه المرة . لعلها تكون الأولى والأخيرة

أما أوجستا فلم تتم هي الأخرى . وكانت أمارات الاعياء والقلق بادية على محياها الشاحب بأجلى مظاهرها فقلت في نفسي :

أيسعني أن أتخلى عن أوجستا هذه الأفرودیت الساحرة التي ملأت حياتي ولولاها لبقيت أيام شبابي فارغة ، لأن مأفونا واشيا نماما اعتدى على كرامة سيدتين لا حول لهما ولا طول ؟ وكان يجب على أن أختنه أو أركله بقدمي وأقذف به خارج الدار

وفي اليوم الثاني كانت العجوز على أسوأ ما تكون خلقاً ومزاجاً فقالت عند ما رأتني :

— ألا ما أردأ الناس وأخبثهم !

وراحت تحدثني بدل ونفر عما تملكه في مقاطعة بادولي (عاصمتها كييف) من مال منقول وعقار ، وعما تنتجه المزرعة في (جرائيش) من خضار وبقول وحبوب وفاكهة ، وعما يحفل به بستانها الثري من أشجار مثمرة وجني شهي . وكل الذي حدث أن هذا الغزم المفتون الذي كان وجهه الصغير الشاحب شؤماً على رائيه أراد أن يتزوج من أوجستا . أتتصور ذلك ؟ أيمكنك أن تتخيله أو ترتسم شبحه في وهمك ؟ وكيف يريد أن نبحث

فى أمر زواجه من ابنتنا وليس فينا جميعاً من يعتقد أن هذا القزم الجبان أهل للزواج ؟ وقد خيل إلينا للوهلة الأولى أن هذا المفتون هازل فيما يقول ، فاذا بنا نراه جاداً كل الجد . على أن هذا لم يحل قط دون اعتبارنا كل قول فى هذا الصدد هراء فى هراء وكل بحث فيه من باب التندر كأكثر الأحاديث التى تتداولها الألسن

ويجب ألا أنسى أن أقول لك يا ولدي ساشاً إن أوجستا استسمجت إيليا إيلينا نوفتش ، وكرهته للوهلة الأولى التى وقعت فيها عليها ، وكانت تأنف حتى من ذكر اسمه ، أو الجلوس معه على السفرة، وكثيراً ما كانت تقول لنا عندما كان يذكر اسمه فى أحاديثنا عرضاً : « أنا لا أفهم كيف تستطيعون أن تحتملوا هذا المأفون الواغى فيما بينكم باسم الصدقة أو الصداقة» وكان هذا السخيف لايفتأ يقول : « لن أبقى مكبر إلا ردحاً من الزمن يسيراً وأعتزل بعده الحياة وأعيش حراً طليقاً بعيداً عن المداجاة والرياء والتزلف» . فكنا نقابل هذا الوعيد السعيد بمأسفة من الضحك لأنه على الرغم من أن نقض العهود والنكث بالوعود والمخالفات على شتى أنواعها ، كانت تبليه باضطراب الخاطر وانحلال القوى ، فانه لم يف قط بوعد فراقنا والتحول عن دارنا

فقلت لها : وكيف صنعتم بمشروع الزواج ؟

قالت العجوز : أى زواج ؟ آه . تذكرت . دعوناه يوما إلى حضرة والدها فقال له :

— نحن نعلم يا إيليا إيليا نوفتش أن كل شخص سيتزوج يوما ما . ولكن أمر الزواج خطير بل أشد خطورة من أن نظن، وعلينا أن نفكر فى الواجبات المقبلة وفى التبعة التى ستلقى على عاتقنا كى لا نقع فيما نحاذره ونخشاه .

وبعد بضعة أيام وفى إيليا بوعده وغادر منزلنا غير مأسوف عليه .

***

فى يوم الأحد الموعود تزينت العجوز وتبرجت فوق عادتها . وتبدت أوجستا فى ثوبها الزاهر الأنيق ووجها الطافح بشراً وإيناسا فاتنة أخاذة . فلم أفهم لهذا التبدل سراً .

وجاء إيليا إيليا نوفتش وأخذ ينتف عثنونه بعد أن قبل يدى السيدتين وصافحنى وداعب الطفل بوريا الذى نفر منه النفور كله وكاد يفر من وجهه لولا تودد إليه وتلطف والدته .

وإن أنس لا أنس تلك الساعة الرهيبة ، فان أوجستا التى كنت أعلم أنها تبغض الرجل وتنفر منه وتتمنى هلاكه أقبلت على إيليا إيليا نوفتش تتحدث إليه وتزين عروة ثوبه البالى بزهرة يانعة ، وكانت تارة تضحك ويداها على خاصرتها ضحكات ساحرة فاتنة وطوراً تثنى بصوت رقيق عذب ، أغانى عاطفية جميلة مسكرة — وفى تلك اللحظة أخرجت العجوز من ثنايا صدرها ورقة صغيرة وأفرغت ما فيها من مسحوق أبيض فى فنجان إيليا بسرعة البرق وتناولت قطعة من السكر وأخذت تقلب بملعقة صغيرة، ثم مدت يدها المرتجفة إلى الرجل بفنجان الشاى، فأخذ يحتسيه ويلتهم الكعك والفطير والمربى

بنهمة المفجوع بنقمة الجوع والحرمان. فعجبت لسانه كيف لم تمده فلم يفه بعبارة سوى امتداح الماضي وإطرائه بعد أن كان يحمل عليه بالأمس حملة نكراء. وبعد ساعة شمر إيليا إيليا نوقش بدوار وإعياء فاعتذر عن البقاء ورجاني أن أصحبه إلى غرفته. فبادرت العجوز قائلة :

— لا عليك يا ولدي . إذا كنت تشعر بدوار فهلم إلى غرفتي فترقد حتى تستريح فان فراشي كمالا يخفى عليك من أنظف الفرش . فنهض الرجل متهالكا وقد استند إلى ذراع أوجستا التي تطوعت بمؤنته فتبعتهما وأنا موزع بين الدعر والغيرة فسمعت إيليا يدمدم :

— لقد اسودت الدنيا في عيني واحلولكت مرائيها، ولم أعد أسمع ولم أعد أرى، وما بلغ الغرفة المنمورة بآزاد القمر وأضوائه حتى خلع ثيابه وهرع إلى السرير ورقد فيه محرور الجسم منهوك القوى .. ولم يقم منه بعد ذاك

وفي الصباح استشرت العجوز في استقدام الطبيب فألحت عليّ في الاسراع بإسعافه . فدعوت طبيباً روسياً مسنا كان يقطن على مقربة من البيت فلما عدناه وجدناه نائماً وراء كلته ، منطلي بلحاف العجوز حتى الرأس وطرح عليه الطبيب بعض الأسئلة فلم يكن ليرد إلا بلا أو بنعم، وكانت العجوز تروح وتجيء حيال السرير مكتئبة النفس محزونة الفؤاد . فقال الطبيب : حمى وافدة ، داء الموسم . لا خوف عليه ! ووصف له جرعة وبرشاماً ونهاه عن الطعام

وكانت حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وقلما اغتمضت عيناه في لياليه السود لطوارق أوهامه ومروعات أحلامه ، وبعد أسبوع ذاق خلاله هذا البائس المحزون من صنوف الألم وضروب العذاب ما صهر جسده الواهي وأذاب جسمه النهوك ، وقع القدر ونفذ المحذور وأسلم صاحبنا الروح . ومن العجب الماجب أنه لم يسأل عنه أثناء مرضه أحد .

وسرنا جميعاً وراء نعشه في موكب مهيب . وإنني في غنى عن إخبارك بأن أوجستا كانت الوحيدة التي مشت في جنازته خاشعة مطرقة بكل ما في الخشوع والاطراق من معنى، وأنها ذرفت عندما واروا جثمانه الثرى بضع قطرات من دموعها السخين .

أما العجوز فقد عادت من دفنه وعلى وجهها أمائر الحزن ، لا أسى عليه ، بل لأنها كانت تأبى أن تظهر على وجهها دلائل السرور . وقد سمعتها تهمس كمن يحدث نفسه : إن موت رجل مثل ايليا ايليا نوقش مسرة لقلوب من نكبوا بطلعته المشئومة إبان حياته ...

محمد لطفي جمعة

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

مشاهدة وجه العروس

لصاحبه المندوستانية "تاجور"
بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

كان كنشندرا لا يزال فى عنفوان شبابه حينما فقد زوجه ، ولم تحدثه نفسه بالبحث عن عقيلة جديدة ، وانقطع لقنص الوحوش وصيد الطيور ، وكان عظيم القامة ممشوقها ، نشطاً خفيف الحركة حاد البصر ماهراً فى الرماية

ارتدى يوماً ثياب الريف واصطحب هيراسنغ المصارع وشكتلال وخان صاحب الموسيقى وميان صاحب وكثيراً غيرهم

وفى شهر أجراها يانا ذهب كنتى إلى الصيد فى مستنقعات تيندبجى بصحبة نفر ممن يحسنون الرماية . ركب الصائدون وحاشيتهم وخدمهم الكثيرون المكلفون بملء أحواض الاستحمام سلسلة طويلة من القوارب . وقد قالت نساء القرية إنه لم تتمكن واحدة منهن من الاستحمام أو حمل الماء إلى دورهن طوال النهار لأن فرقعة البنادق عكرت صفو الأرض والأمواج ، كما أن الموسيقيين لم يستطيعوا النوم ليلة واحدة

وفى ذات صباح كان كنتى جالساً فى مركبه ينظف بندقيته المفضلة ، وعلى حين غفلة أصابته رعدة عند سماع صوت البط البرى الذى لم يسمعه قط ، فرفع عينيه ولمح فتاة قروية تقترب من الشاطئ ، وقد ضمت إلى صدرها بطتين صغيرتين ، وكان الغدير فى هذا الوقت جافاً تقريباً لأن الحشائش سدت مجراه ، ووضعت الفتاة بطتيها فى الماء وطفقت تنظر إليهما بنظر حار ، ولم يكن اهتمامها بالصائدين أقل من اهتمامها ببطتيها وخوفها من أن تطيرا . كان لجمال هذه الفتاة القروية روعة غريبة كأنها نحتت فى معمل ويشفا كرمال (وهو المثال الربانى فى المثيولوجيا الهندية) وكان الانسان لا يستطيع أن يقدر مقدار عمرها لأنها جمعت بين جسم المرأة ووجه الأطفال بشكل لم ير فى غيرها ، ويظهر أنها كانت تجهل أنها على عتبة الشباب

لبث كنتى لحظة دون حراك كالمسحور ، وما كان يتصور أن يجد مثل هذا الوجه فى مكان مثل هذا وقد زادها المنظر الطبيعى جمالا لن نبلغه فى القصور لأن الزهرة البديعة تفتننا وهى على شجيرتها أكثر مما لو كانت فى إناء من ذهب . وفى ذاك اليوم كان القصب مزهراً مخضل السنابل من ندى الخريف ، وكانت السنابل تتلألأ وهى مخضلة من قطر الندى تحت أشعة شمس الصباح وقد حف هذا المنظر وجه فتاتنا النضر الفتان حتى ظهر ساحراً لكنتى كأنه صورة أخاذة

وقد فات كاليدوس أن يغنى ملكة جمال سيئا هابطة فى بعض الأحيان للجنح الشاب حاملة فوق صدرها بطتين صغيرتين

وحينما لمحت الفتاة كنتى ارتعدت رعبا وانقضت على بطتيها متهيدة وغادرت الشاطىء ثم اختفت فى خميلة قصب هندى (بمبو)

وقد شاهد كنتى أحد رجاله يصوب بندقيته إلى البطتين فانقض عليه ونزع سلاحه ولطمه لطمة قوية . وقد انتهى المزاح على الشاطىء وعاد كنتى لينظف بندقيته

2017-11-1

ولقد جره حب التطلع إلى خيمة القصب الهندى التى اختفت فيها الفتاة فر عليها وتعداها إلى أن قادته قدماه إلى فناء بيت ميسور الحال، ترى فى اليمنة مخازن النخال وفى اليسرة حظيرة نظيفة للبقر وفى طرفها خيمة من النبق. وكانت الفتاة التى يبحث عنها جالسة وسط هذه الخيمة والدمع ينحدر من مآقيها، وكانت تحاول أن تعتصر من طرف ثوبها المبلل بعض قطرات فى منقار بطة جريحة. وكان بجانبها سنور رمادى اللون متكىء برجليه الأماميتين على ركبتيها، وكان ينظر بنهم إلى الطير من وقت لآخر حينما يقترب القط منه فدفعه بلطمة على مخطمه كانذار منها.

وهذه الصورة الفتانة التى تظهر وسط النهار فى جو هادىء من فناء مزروعة قد انطبعت فى قلب كنتى. وكان اللعب المتبادل بين الضوء والظل يعكس صورا مرتعشة فوق ثوب الفتاة، وعلى كشب بقرة تجتر وتذود عنها الذباب بحركة بطيئة من رأسها أو من ذنبها بينما تهب ريح الشمال وتخلط صوتها الذى يشبه خرير الماء بحفيف أوراق القصب الهندى.

وكأن الفتاة التى حضرت فى الفجر إلى شاطىء النهر ملكة الغابة وقد أظهرت الاهتمام بملكة البيت، وقد أحس كنتى بأنه أشبه بلص فوجىء وبداه مخضبتان بالدماء. وعلى حين غفلة سمع من البيت صوتا ينادى: صدمى (معناها بالعربية الرحيق الموجود فى بعض الأزهار) فهبت الفتاة فجأة وأمسكت ببطتها ودخلت مهرولة. فأعجب كنتى بهذا الاسم الظريف

رجع كنتى إلى السفينة وأعطى بندقيته إلى رجاله ثم ذهب إلى باب الدار الأصلى فوجد برهميا فى منتصف العمر بوجهه وديع ودقن محلوقة جالسا فوق مقعد داخل البيت وهو يقرأ فى كتاب صلوات. وقد لاحظ كنتى فى ملامحه المحبوبة المفكرة العطية والعطف المشرقين على وجه الفتاة الغروية. ثم حياه كنتى وقال له: «أيسمح لى سيدى بقليل من الماء فانى شديد العطش؟» فقابله الرجل بكل لطف وترحاب وأجلسه على المقعد ثم خرج من المنزل وخرج وبيده صينية من النحاس وبها أصناف من الكعك وقدح كبير من البيرز وبه ماء.

وحينما أكل وشرب رجا منه البرهمى أن يعرفه بنفسه فعرفه باسمه واسم أبيه وعنوانه، ثم قال عند انصرافه: «إننى أكون مسرورا جدا إذا استطعت أن أؤدى خدمة لسيدى».

— إننى لا أسألك أية خدمة. أجاب نابان بارجى. «ولكن مما يشغلنى الآن».

— وما هو؟

إن الأسى يتملق بابنتى التى شبت (فتبسم كنتى حينما فكر فى الوجه الصبيانى الذى شاهده) ولم أجد لها إلى الآن بعلا كفوءا؛ وإن حصلت على هذه الأمنية أكون قد أديت دينى أجمعه للعالم. إننى لا أعرف فى هذه البلاد حزبا ملائما ولا أستطيع أن أترك وظيفتى لأذهب للبحث عن زوج مناسب.

— «إنك يا سيدى إن استطعت أن تزورنى فى سفينتى فاننا نستطيع أن نتكلم فى شأن زواج ابنتك» ثم حياه كنتى ثانية وانصرف وقد كاتب بعض أتباعه الاستفسار عن هذه الأسرة فلم يجد إلا ثناء عاما على جمالها وفضائلها.

وفى الغد حينما حضر البرهمى لرد زيارة كنتى حياه أعظم تحية ثم طلب يد ابنته، فدهش البرهمى لهذه السعادة التى كان يحلم بها — لأن كنتى فضلا عن أنه من أسرة برهمية عريقة فى النسب فانه يملك ثروة ضخمة — وظن الرجل أنه فى حلم فأعاد القول كالآلة: «أتريد أن تتزوج ابنتى؟»

— إذا تنازلت بالقبول

— أتتكلم عن صدمى؟

2017-11-1

— بكل تأكيد

— ألا ترغب قبل كل شيء أن تراها وتحادثها؟

فتظاهر كنتى أنه لا يعرفها وقال بكل بساطة :

— سننتظر كشف الوجه فى حفلة العرس ...

فأجابه الشيخ البرهمى بصوت متهدج من التأثر :

— إن ابنتى صدحى لهى فى الحقيقة طيبة عارفة بشئون البيت ، وبما أنك قبلتها بكرم عظيم فهى لا تسعد لك يوماً ما ظل الأسف والتندم ! وهذه أمانى أعرضها عليك وأنا أباركك

وقد حدد الزواج فى (ماغ) وأظهر كنتى رغبته فى عدم تأجيله . وقد استعاروا للحفلة بيت مازومدار البنى بالآجر ، وفى الوقت المناسب حضر الخاطب ممتطياً فيله فى موكب عظيم من الموسيقيين والأتباع يحملون فى أيديهم المشاعل ثم ابتدأت الحفلة

وحينما نزع العروسان القناع الأحمر القانى لاتمام شعائر كشف الوجه تفرس كنتى فى وجه عروسه المستحى الناعس الطرف ورأسها مكلل بتاج الزفاف وفوقه عجينة الصندل ولم يستطع أن يعرف القروية التى ما فتىء شكلها منطبعاً فى ذهنه ، فتأثر وظن أن شبابا كشيفاً حال دون تحقيق منظوره

وبعد انتهاء الحفلة اجتمعت النساء فى غرفة العروس . . . ذهبت عجوز منهن قائلة لكنتى هيا اكشف قناع عروسك . ولما نزع قناعها وجدها غير التى كان يعهدها ، فتقهقر بسرعة وكاد يجن من الغضب والغيظ ، وظهر ضوء المصابيح أمام عينيه ضئيلاً وتصور أن الظلمات أغارت بظلها على وجه العروس ...

وثارت نفسه ضد حبه وظن أنه يدل العروس بأخبها . ولكنه بعد التأمل والتفكير تذكر أنه لم ير أية واحدة منهما وأن الخطأ واقع عليه نفسه ، وفضل أن يخفى حماقته وأخذ مجلسه متظاهراً بالسكون والدعة . ولو استطاع أن يبلع السم لما تمكن من إبعاد طعمه . لم يتحمل فرح هذه الجموع ولهوهم ، وكان يتمنى أن يتمتع بهذا السرور هو وجميع العالم

لح على حين غفلة أن زوجه اقشعرت وكظمت صرخة ، ثم شاهد أرنباً هارباً اصطدم برجل عروسه وظهرت وراءه الفتاة التى شاهدها فى الشاطئ ، ثم أخذت أرنبها ولطفقت تلاطفه بالمسح وهو فوق ذراعها وتتمتم له بتودد وعطف

صاح النساء قائلات : هاهي ذى البريئة . وأشرن إليها بترك الغرفة ، ولكنها لم يظهر عليها شيء وجلست بدون اهتمام أمام العروسين وظلت تطيل فيهما النظر بتطلع صبيانى . ثم هبت خادم وأمسكت بذراعها لتبعدها عن هذه الغرفة فاعترض كنتى بشدة وصاح فيها : « دعيها وشأنها »

— « ما اسمك ؟ » فاهتزت الفتاة ذات اليمين وذات اليسار ولم تجب بكلمة . فأغرقت النساء فى الضحك

عاد كنتى إلى سؤاله : « هل كبرت بطناك ؟ »

فاستعرت الفتاة فى عدم اهتمامها

ولما يئس كنتى من إجابتها سألها بكل لطف وعطف عن أخبار بطنها الجريحة فاشتدت القهقهة من الجميع وعدد من ذلك نكتة مسلية

وانتهى الأمر بأن علم كنتى أن تلك الفتاة صماء بكماء ولا أنيس لها غير طيور القرية وحيواناتها . وكان من سبيل الاتفاق أن الفتاة ظهر عليها أن تلبى نداء من كانت تنادى صدحى .

تملك كنتى تأثر جديد وعرف أن الستار الذى أخفى عنه ضوء النهار قد انزاح فتنفس الصعداء كأنه تخلص من كابوس وفر من مصيبة .

ثم نظر ثانية إلى عروسه فعرف أخيراً حقيقة المشاهدة لوجه العروس ، وتسلطت الأشعة الصادرة من قلبه وأضواء المصابيح على وجه قرينته فتجلى جماله الوضاء وتحقق أن ركة تايان قد أثمرت وأتت بأعظم نتيجة .

محمد فاضل عباج

يوم واحد في حسبان

مترجمة عن التركية
بقلم الأديب عبد اللطيف الخمسي

كان الوفاق التام سائداً بين « سرمد بك » وبين زوجه السيدة « ناهد » ؛ وكانت حياتهما صفواً كلما إذا استثنينا أمراً واحداً كان لا يروق السيد في زوجه العزيزة طالما حدثته نفسه باعتراضها فيه وبحملها على الكف عنه ، ألا وهو الكذب !! إذ أن السيدة ناهد كانت ككثير من بنات جنسها لا ترى بدًّا من تجسيم الحقائق وتوشيتها كما يشاء خيالها، وإذا ما أنصفناها أمكننا القول بأنها لم تكن مغرقة فيه ، بل كانت طبيعتها تجنح بها إلى القليل منه ، ونعني أن كذبها لم يكن منطوياً على مضرة ؛ أما زوجها فقد كان على العكس منها لا يرضى في أمر من أموره أن يتخلله نصيب من هذا الخيال . فهو يسره جد السرور أن تسرد الوقائع وتذكر الأشياء كما هي ، ولكن هذا لم يكن ليحمله يوماً على تعنيف زوجه ، بل كان يكتفي — إذا ضاق به صدره — أن يقول لها :

— ناهد ، أرجو ألا تكذبي وأنت عالة مقدار بشظى لهذه الطريقة الكريهة عندي

فتأخذ ناهد في الدفاع عن نفسها حينئذ في لهجة محتدمة ، غير أن الطبيعة الغلابة تسلك بها سبيل الكذب فتنظم أفانين منه مثبتة أنها ليست بكاذبة ، فيعجب زوجها ويجن جنونه صائحاً :

ها هو ذا !! ما زلت تكذبين . ومن العجب أنك تبرئين نفسك من الكذب باستمساك فيه

— ماذا مما قلته كذب ؟!

— هل نسيت يا عزيزتي أنك كنت قصصت على حادثة الخاتم الضائع قبل الآن مجردة عن هذا التزويق المسرحي ؟

وهنا تتخاذل ناهد قليلاً وتجاوب زوجها في إخلاص :

— أقسم لك أن الحادثة كما قصصتها عليك ، وإن كنت حين سردتها مرة أخرى قد اختلفت شيئاً يسيراً فذاك مالا أرى منه بداً . وهل يستطاع سرد حادثة دون تحويرها ؟

— نعم يستطاع

— وهل يمكن التحدث بحديث دون أن يتخلله كذب مطلقاً ؟

— نعم يمكن

— لا يمكن

— إنه ممكن من غير شك

وكذلك يتجمع الخلاف بين هذين الزوجين ويدور الجدل حول هذا المحور وحده ، فينكر كل منهما على صاحبه رأيه كلما بدرت بادرة . وبينما هما في نقاشهما — ذات يوم — اقترحت السيدة ناهد على زوجها المحتدم في إثبات رأيه هذا الاقتراح :

— إني أتعهد لك بأني لن أكذب بعد اليوم ، ولكن وفائي بهذا العهد مرتبط بقبولك لما أشترطه عليك ، وذلك أن تأخذ على نفسك ألا تكذب يوماً واحداً مهما تكن الظروف

— أجل ، لك ما اشترطت

— على ألا تكذب فيه ولو اقتضته منك المجاملة وتطلبه الأدب ، وألحت به عليك الدواعي القاسرة

ترجمت هذه الأقصوصة عن الكاتب التركي ارجند أكرم

— لك ما شئت

— وألا تحاول تحوير الحديث ، ولا الطفرة من موضوع إلى ما لا علاقة به ، وألا تنفصل بالسكوت حين يجب الجواب عما تسأل عنه

— ليكن لك ما أردت

— ولا تكون فى ذلك اليوم صادقاً إلى حسب بل للناس جميعاً ! !

— سأكون كذلك



— حسن جداً ، وإذن سأعرض أنا عن الكذب ! وأكبح نفسى عن الأخذ به مهما تكن الحال ، واقتضت الظروف . غير أنى أطلب منك أن تخولنى حق تعيين هذا اليوم وسيكون فى أسبوعنا هذا إن شاء الله !

أدت بسرمد بك عزمته أن يقبل كل اقتراحات زوجته غافلا عن تدبر مبتغاها وتبين حقيقتها ، وراح يقسم بضميره ويحلف بشرفه أن سيبر بوعده ويوفى بعهده ، غير أنه لم يمض يومان على أثر ذلك حتى نسى الرجل حديثه مع زوجه وفرغت ذاكرته من كل ما دار بينهما

غربت شمس يوم الثلاثاء وأقبل مساء اليوم التالى يحمل لسرمد بك ثمن غفلته ، ولم يكن المسكين يدرى أن اليوم الموعود هو يوم الأربعاء ذو التاريخ القديم .

فى مساء ذلك اليوم كان « نرى بك » أحد أصدقائه الأقربين قد دعاه إلى طعام العشاء ؛ وكان نرى بك تاجر تبغ قد أحب فتاة تدعى « شكوفة » تشتغل عنده فى محل تجارته على الآلة الكاتبة ، ولم يلبث حتى اتخذ لنفسه منها خليلة ، وما كان إلا أن نما الحب بينهما واشتد حتى أثر رأياً جديداً فى نفس نرى بك وهو أن يتخذ شكوفة زوجاً له

راقت له هذه الفكرة وأخذ الحب يزداد بين الحبيبين حتى زالت الكآبة واحت دواعى التكلف وبانت نفس شكوفة وانكشفت عما كانت تنطوى عليه من نقص فى التربية وقلة فى الذوق ، وبدا منها ما يتنافى مع أصول العشرة ، وتضاءل أمامه رأيه فى الزواج بشكوفة ولم يعد فى نفسه شىء من ذلك .

وكان من جراء ما استقر عليه فكره أخيراً أن تجافيا ثم افترقا . انقضت أيام وقد ضرب الهجر بينهما حجابه وأخذ يثقل كاهل الفتاة حتى نأت به وضعفت عن احتماله بما أصابها من الضجر وذاقت من المرارة ، فرجعت إلى خليلها مستسلمة خاضعة غير مشترطة عليه شرطاً ولا متخذة عنده عهداً .

وكانت هذه المصالحة سبباً فى إقامة المأدبة التى دعى اليها سرمد بك إذ كان على علم بتفاصيل روابطها .

ولما كان نرى بك شديد الإلحاح فى دعوته لسرمد إذ قال له :

2017-11-11

— أناشدك الله أن تجيء واذكر أن شكوفة تطلب حضورك حتما وقد أخبرتني أنها ربما لا تحضر بمفردها .

— من سيكون هناك إذاً ؟ ؟

— قد ذكرت أن لها صديقة بهية الطلعة رائعة الجمال ستجيء بها إن هي تمكنت من إقناعها . وكان سرمد بك قد استشعر غمزاً في كلام صاحبه فلم يجد بداً من مماشرته بقوله :

— ياعزيزي إنكما ستتحابان وتمرحان في صفو هواكما ولا أحب في وجودي معكما تمكيرا لهذا الصفو . فأجابه نرمي بك في مزاح يشوبه بعض الجد :

— أرجو ألا تكلف نفسك مشقة المداورة وأن تعفيها من هذه المجاملة فان شكوفة قد حدثتني بكل شيء وأنك — قبل الذي كان بيني وبينها — كنت تتفازلها وتطير حولها كالفراش — ومن يدري لعل الهوى قد جمع بك في هذا المضمار أكثر مما علمت .

— لقد أشفقت أن يجمح بي الهوى فجمح بك الظن إلى حد القمة ، وكان الأولى أن تسمو بحديثك وظنك عن الاسفاف يانرمي .

— إن أقصى ما كان بيني وبينها أني قبلتها وربت على خدها أو عبثت بشعرها . كان سرمد بك — بدواعي أعماله — يتأخر أحيانا عند العودة مساء إلى بيته ، وكانت زوجه قد ألفت منه هذه الحال منذ سنين فلا تجد نفسها في حاجة إلى سؤاله عن السبب ، ولا يجد هو داعيا لتعليل تأخره ؛ غير أنه كان يكتفي باخبارها قبل هذا لئلا تنتظره في طعام العشاء . وكذلك أخبرها قبل يوم الأربعاء بعزمه على التأخر قليلا في مسائه . وفي صباح هذا اليوم على إثر شربه الشاي نهض وليس ثيابه ، وما كاد يتناول عصاه وقبعته حتى وقفت له السيدة ناهد بالباب تقول :

— أريد منك اليوم أن تبر بوعدك الذي وعدتني به .

فلم يفهم — لهذه المفاجأة — ماتريد ، ولما سألها :

— وما هو هذا الوعد ؟

— وعدك الذي قطعته على نفسك ألا تكذب قط في يوم قد خولتني حق تعيينه

فأجابها وقد اعتراه شيء من الارتباك :

— أجل ، سأفعل

— ستتأخر الليلة قليلا . أليس كذلك ؟

— بلى

— هل ذلك لأن لك في المكتب من الأعمال ما يشغلك ويحول بينك وبين المبادرة ؟

ابتلع ريقه ثم قال :

— لا ، بل لأن نرمي دعاني للعشاء

— هل ستتمشيان أنتما الاثنان فحسب ؟

ابتلع ريقه مرة أخرى وكأنه مقبل على مورد الموت الأحمر

— ستكون شكوفة أيضاً معنا

وكانت السيدة ناهد تعرف شيئاً من علاقة شكوفة بنرمي لأن زوجها كان أنبأها بخبرها ، إلا أنه غير لها الأمر وصور تلك العلاقة في صورة مشروعة وأن نرمي يرغب في الزواج من شكوفة . ثم لم يلبث أن أخبرها بعدول نرمي عن الزواج بها بعد أن شاهد فيها من الطيش والنزق ما جعله يزهد فيها ويرغب عنها

2017-11-11

— وهل اصطلحا ؟

— نعم

وكان يحدق فى الباب عساه يصادف فيه فرجة يستطيع أن يتسلل منها .

— رويدك لا تستعجل . فان أستاذى لم تنته هل شكوفة هذه كانت خطيبة انرى ؟

— لا ...

— فلماذا كانت له إذن ؟

وهنا ثارت ثائرة سرمد :

— إعلى أنه ليس لنا أن نسبر أسرار الناس ولا سيما إذا كانت من هذا النوع الذى تنوسين فيه

— لا تنس أنك وعدتنى وعدًا وفيّ بأنك لا تكذب مهما تكن الظروف أو تقض المجاملة والأدب أو تلح عليك الدواعى ، وأنك إذا ما سئلت عن أمر لا تخفى ماتسأله عنه ، وأنك لا تحاول تحوير الحديث أو الطفرة فيه أو الانتقال منه أو التنصل بالسكوت حين يجب الجواب عما تسأل عنه . واذكر أنك أقسمت بضميرك وشرفك على الوفاء بكل هذا ، فأنت اليوم رهينة الوعد فلا حول لك ولا قوة .

وهنا شعر سرمد بك بعمق الهوة التى هبط إليها وأسقط فى يده فراعته نكبته ، وباعدت مابينه وبين الطمأنينة عنته .

— هلا قلت ماذا كانت له إذن ؟

— كانت خليلته !

— من ذا الذى أغراها حتى زلت قدمها ؟

— أف ! دعينى أذهب .

— إذا كان يرضيك أن تذهب وأنت مسلوب الضمير موسوم بعدم الشرف فاذهب ...

— حذار ياأحمد ...

— ألم تكن لك بهذه البنت علاقة ؟

— كان هناك شىء قليل فى الأيام الخالية ! وبعد ما أخذ نرمى يتحبب إليها كففت عنها ولم يعد الآن بينى وبينها علاقة ما .

— إلى أى مدى بلغت رابطتكما ؟

— أناشدك الله أن تكفنى لأن ذلك يؤخرنى عن عملى .

— ربك قل الحق . هل أنت تريك لأنك قد تتأخر عن عملك ؟

— لا ، بل لأن أسئلتك تضجرنى !

— إذن ، قل لى وحدثنى حتى تنتهى إلى أى مدى بلغت معها ؟

ثنى جيده وقد تعبت نفسه واستولى عليه الملل ولكنه استمسك وقال :

— كنت أعبث بشعرها وأعانقها وأقبلها ، هذا كل ما هنالك .

وكان حينئذ قد وضع قبعته على رأسه ومد يده إلى مزلاج الباب ولم يكد يجره حتى تبصت زوجه على معصمه ، وراحتاها تلتهبان كالنار وأظافرها المرهفة تكاد تخترق عروقه وهى تقول :

— لى سؤال أيضا . هل تجىء هنالك امرأة أخرى عدا شكوفة هذا المساء

— لا أعلم . ولكن على ما قيل لى ربما تجىء !

— ولن تجىء هذه ؟

— لا علم لى بهذا . وربما كانت من أجلى ولكن أقسم لك أن ...

2017-11-11

— لا أرى ضرورة لليمين إذ قد سبق وأقسمت . على أني مؤمنة بكل ما تقول لعلى أنك رجل أخو ضمير وذو شرف !



— والآن من يلمك ماذا يساورك من الظنون ؟ إن هذه الأمور مع كونها عادية قد أحدثت فيك من الانفعال مالا أستطيع تكييفه ...

قاطعته زوجه قائلة :

— حسبك ! .. حسبك ! .. لقد بلغت غاية تستطيع معها أن تذهب !

خرج سرمد بك وكان مثله حينئذ كمثل من نجا من تنكيل محاكم الارهاب فى القرون الوسطى وقد وصل إلى الشارع وهو لا يدرى ماذا كان يريد أن يعمل ، ثم بدا له أن يركب الترام . ولم يكد يقف لانتظاره حتى تأبط ذراعه أحد أصدقائه القدماء يسأله :

— كيف أنت يا عزيزى سرمد ؟

— لست طيباً !!

— لا بأس عليك ؟ ! هل أنت مريض ؟؟

— لا ...

— إذن ، ماذا بك ؟

— تملكنى الهواجس

— وهل هذا من شئون الأسرة ؟

— نعم ، ولكن أرجوك ألا تسألنى سؤالا آخر وأن تتركنى أذهب لشأنى

— أستودعك الله

ترك صاحبه ، وصاحبه ينظر إليه من خلفه وقد تملكه العجب وهو يسائل نفسه :

— ما باله قد تغيرت أخلاقه وتنكرت حاله !! إنه قد أصبح وغداً !! وأيما وقاحة !!

لم يكد سرمد بك ينزل من الترام حتى واجهه خاله المرحوم ، وقد فاض قلب الشيخ شوقاً إلى ابن أخته فتلقاه بحنان عظيم وأخذ يسأله فى لهف :

— أهذا أنت يا سرمد ؟؟ كيف حالك يا بنى ؟ لماذا لم تجيئوا لزيارتنا ؟؟

— لا أعلم !! وها أنت ذا ترى أننا لم نجىء !!

— وهل هناك ما يحول بينك وبين هذا يا بنى ؟

— لا

دهش الشيخ :

— أتقول لا ؟ كيف ؟! كأنه لم يستفزك الشوق إلى رؤية خالك أيضاً ؟؟

رفع سرمد حاجبه وهو يقول :

— لم يستفزنى الشوق !

بهت الرجل وقال « وهو يصرخ من فرط غضبه » :

— يا وقح . يا عديم الأدب . ألم تستح حين تقول هذا الكلام الرذل الثقيل مواجهاً به خالك الشيخ ؟

وكان الرجل آنئذ ينبش الأرض بعصاه وهو يبتعد غاضباً مرتعشاً

جرى سرمد فى طلب خاله وهو يحاول الاستغفار مما بدر منه بقوله :

— لاتؤاخذنى ياخالى ، لقد حلفى على ما رأيت أننى أقسمت ألا أقول إلا صدقا !

فوقع هذا الكلام من نفس الرجل موقع الحطب من النار وكان فى نظره على حد المثل القائل : «عذر أقبح من ذنب»

ولما لم يكد سرمد يتم اعتذاره حتى دار الرجل بنظره حوله وهو يشير إليه :

أنظروا إلى عديم الأدب. هذا مازال يؤكد لى وقاحته ويزعم أنه كان يصدق فى حديثه.. لاتقرع بسد هذا اليوم بابى ولا أريد منك أن تحضر جنازتى

ومضى الشيخ لا يلوى على شئ

وصل سرمد إلى مكتبه وقد مسه نصب ناء باحتماله فأرهقه إرهاقاً ولم يكد يتنفس الصعداء حتى سمع دق التليفون

— ألو ... ألو ...

— سرمد بك ؟؟

— نعم . فمن أنت ؟؟

— أنا (ناجى) بحثت عنكم بضع مرات فلم أجدكم . اسمع ... لى عندكم رجاء خاص

— تفضل وقل

— هل لديكم خصوم جنيهاً ؟؟

— عندى

— وهل بكم حاجة إلى هذا المبلغ مدة يومين أو ثلاثة أيام ؟

— لا

— شكراً . إننى سأعيده على أثر اليوم الثالث أظن أنك تقرضنى خمسين جنيهاً ؟ أليس كذلك ؟

— كلا ، أبداً !!

— لماذا ؟ ! (وكان هذا الاستفهام بصوت يشبه الصراخ)



— إننى لست مطمئناً إلى أنك تعيد هذا المبلغ

أجابه صاحبه بصوت أشد من سابقه وقد غلبه الغضب وتملكه السخط :

— ياعزيزى ، إنك تستطيع ألا تقرضنى ولك ذلك ، ولكن ليس لك أن تتمادى على كرامتى وتهيننى على غرار ما يفعل السفلة ومن لاخلاق لهم

— معذرة . إننى أخذت اليوم على نفسى ألا أكذب فلذلك ...

أقفل التليفون وبعد قليل دخل الكاتب على سرمد بك فى حجرته قائلا :

— جاء المتعهد ياسيدى البك فهل تأذن لى أن أماطله ؟

— كيف ؟

— أقول له إنكم ذهبتم إلى أقفرة .

— لا يجوز اليوم أن تكذب .

2017-11-11

— إذن يجب أن يعطى مبلغه المطلوب فى حين أنا لم نملك منه شيئا

— قل له ليس عندنا اليوم من النقد ما نستطيع معه تسديد ما علينا .

— مهلا ياسيدى البك ، ماذا تقول ؟ إن هذا برج مركزنا رجا ويحدث فى السوق المالى تأثيرا سيئا

— ما الحيلة إذن ؟ إننا لا نستطيع اليوم أن نكذب

لم يكد الكاتب يخطو للخروج وهو يفكر فيما أصاب البك اليوم حتى ناداه من ورائه ثم قال له :

— إستمع إلى ... إن أعصابى اليوم متوترة جدا ولهذا أرانى شديد الحاجة إلى تهدئة النفس وتسكينها . فمن جاء يسأل عنى فقل له : إنى لست هنا .

— أمرك يا بك ! ...

— انتظر لا يناسب أن نقول ليس هنا خوف أن أكون كاذبا ، قل له إنه لا يقابل أحداً

ولكنه استشعر خشونة هذا القول لأنه ليس من اللائق أن يجيب زائره بهذا الجواب ، فسأل الكاتب وقد ملكه الاضطراب واستولى عليه اليأس:

— ماذا يجب عمله الآن ؟ إن ... جزاها الله شر الجزاء

ألقى الأوراق التى بيديه على الأرض وهو خارج وقد خطف بإحداها قبعته وبالأخرى عصاه ، ولم يلبث أن ظفر من الشرفة إلى الخارج

كان المساء ، وإذا سر مديك يتمتم بصوت خافت مضمضع وهو جاث على ركبتيه مطرق الرأس أمام زوجه يقول :

— أى زوجتى العزيزة ، لقد بان لى بجلاء لايقبل الشك أن الحق كان بجانبك وأنه يتعذر كل التعذر بل يستحيل على الانسان أن يتم أمراً خطيراً كان أو حقيراً دون أن يشوبه الكذب . لا الصداقة ، ولا مصالح الأسرة ، حتى ولا العشرة ولا التجارة ، يمكن الانسان أن ينجح فيها دون أن يفتقر إلى الكذب ! !

هأنذا أعدك ألا أعترض عليك فيما أنت منه بسبيل ، وأسألك أن تصفحى عنى ، ومع ما تعلمين مما طبعت عليه من حب الصدق فلك منى أن تعفى عن نفسك ذلك القيد وتكذبى ماشئت أن تكذبى !

عبد اللطيف أحمد

مؤلفـــات

الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المشيية (محلى بإحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب المصرية وكتب الزراعة تطلب من شركة البذور المصرية بميدان ابراهيم باشا

المنفى

عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

لن أذكر اسم المكان ، ولن أذكر اسم بطل القصة . أما الأول فهو بعيد جداً فى جهة خصبة حارة على شاطئ البحر . وقد كنا نسير بقرب ذلك الشاطئ فنرى عن يميننا مزارع القمح الخضراء وعن يسارنا أمواج البحر التى تهتز تحت أشعة الشمس . وكانت الأزاهير الغضة نابتة على حافة البحر مظلة على مائه . وكان اليوم شديد الحر ولكن جوه زكى العرف قد تشبع بروائح التربة الخصبة والأعشاب والأزاهير والماء ، فكأننا كنا نستنشق مع الهواء عبير الحياة العطر

وقيل لنا إننا سنكون فى المساء ضيوفاً على رجل فرنسى يقيم فى وسط بستان البرتقال . ولم أكن أعرف هذا الرجل ولا أعرف عنه سوى أنه جاء إلى هذه الجهة منذ عشرة أعوام فاشترى أرضاً واسعة جعل بعضها كرمة وبعضها مزرعة برتقال وسائرها خصصه لزراعة القمح . وأقام من ذلك النهد فى أرضه يعمل كادحاً مجداً . وكان يزيد نطاق أرضه اتساعاً كلما مر شهر أو عام فحصل على ثروة واسعة بهمة لا تعرف الفتور

وكان جيرانه يقولون : إنه يستيقظ قبل الفجر ويظل يعمل فى حقوله إلى هزيع من الليل وجعل نصب عينيه فكرة واحدة لا يمكن إرواء ظمئها ، وهى فكرة الحصول على الثروة

وكانت الشمس قد غربت عندما وصلنا إلى منزله فى حديقة البرتقال . ولما دخلنا المنزل المطلة شرفاته على البحر خرج لاستقبالنا رجل طويل القامة طويل اللحية . وبعد أن سلمت عليه طلبت أن يقبل ضيافتى ، فمد إلى يده وقال وهو يبتسم : « تفضل أيها السيد أنت هنا فى منزلك »

ثم قادنى إلى غرفة خصصها لى . ووضع تحت تصرفى خادماً . ورأيت من كرمه ما دلنى على حسن تربيته . وقال وهو يتركنى : « إننا سنتناول العشاء فى الطابق الأرضى بعد أن تستريح وتغير ثيابك »

وتعشينا فى غرفة تطل على البحر . وتكلمت عن هذه الجهة الجميلة النائية الغنية . فقال لى : « نعم هى جميلة غنية . ولكن لا يمكن أن يسر الانسان فى بلاد مهما كان جمالها وغناها ما دامت بعيدة عن وطنه الذى يحبه »

قلت : « أأنت آسف على مغادرتك فرنسا ؟ »

فقال : « إننى آسف على مغادرتى باريس »

قلت : « إذن فلماذا لا تعود ؟ »

فقال : « إننى سأعود »

ثم أخذنا نتحدث عن باريس وعن شوارعها الواسعة الطويلة . وكان كلامه عنها كلام من يعرفها حق المعرفة . وذكر لى عدة أسماء لا ينساها من زار الأحياء التى فيها مسارح الفودفيل فى باريس

قال : « من الذين يقابلهم الانسان فى تورتينى الآن ؟ »

فقلت : « هم الذين كانوا فيها دائماً عدا من مات منهم »

قلت ذلك ثم سكت فجأة لأنى نظرت إليه نظرة بدت فى نفسى ذكرى . وأدركت أننى كنت رأيته ولكن متى وأين ؟

وكان يبدو عليه التعب والحزن على الرغم من

علائم القوة وصلابة العزم . وكانت لحيته الطويلة متدلية إلى صدره . وكان يمسكها بيده أحياناً أثناء الكلام . وهو خفيف شعر الرأس غليظ الحاجبين كبير الشاربين وفي خديه بقع مملوءة بالشعر ملحقة بلحيته

وكانت الشمس تغرب فيما وراء البحر الذى تطل عليه مرسلة شعاعها الذهبي إلى الشاطئ . وكان البرتقال الذهبي يبعث رائحة قوية جداً فى جو هذا المساء

كان مضيفى لا ينظر إلا نحوى . وكان ينظر إليّ محدداً فيّ بصره . ثم وقع نظرى ونظره على صورة معلقة فى الحائط تمثل جمجمة فى شارع دروت فسألنى : « هل تعرف هذا الشارع ؟ »

قلت : نعم . فسألنى : « هل تعرف بوتريل ؟ »

قلت : « أعرفه حق المعرفة »

فقال : « هل تغير كثيراً ؟ »

قلت : « لا . بل لا يزال كما هو »

فقال : « وهل تعرف لاريدى ؟ »

قلت : « وهذا أيضاً لم يزل كما كان »

فقال : «والنساء ؟ هل تعرفهن ؟ قل لى شيئاً عن سوزان فرنر »

قلت : «إنها لا تزال كما كانت فى شرخ الشباب»

فقال : « وصوفيا أستير ؟ »

قلت : « ماتت »

فقال : «مسكينة أستير .. هل .. هل تعرف..» ولكنه سكت لجأة وتغير لون وجهه وقال بصوت غير صوته الأول : « كان خيراً ألا أتكلم إنها ذكريات مؤلمة »

ثم وقف . وكأنه يريد أن يغير اتجاه أفكاره فسألنى هل أحب أن أزور بقية المنزل ؟

ثم سار فتبعته

وكانت غرف المنزل واسعة ولكنها تكاد تكون خالية من الأثاث وشكلها يدل على أنها لم تستعمل قط . وكان فى إحدى هذه الغرف أوان وزجاجات خالية متروكة على الأرض . وقد علقت على الحائط بندقيتان وقصبة لصيد السمك ، وبعض الفؤوس

وقد قال صاحب المنزل وهو يريني هذه الأشياء المبعثرة : « أليس هذا المنزل أشبه بسجون المنفيين منه بالمساكن ؟ »

وكنت أتخيل لو لم يقل ذلك أنني فى بعض الحوانيت التى تباع بها السلع المستعملة . وكان مما رأيته بين هذه السلع دروس شعر مما تستعمله السيدات لتثبيت القبعات فوقفت أمامه وقد بدت علىّ علائم الاستغراب، فوضع مضيفى يده على كتفى وقال : « إن هذا الدروس هو الشيء الوحيد الذى أحرص عليه فى هذا المنزل — لا بل إن حرصى عليه يزيد عن حرصى على حياتى »

ففكرت لكى أجد كلمة مناسبة أقولها فلم تسعفنى الذاكرة إلا بقولى : « أظنك عانيت فى الحياة كثيراً بسبب امرأة » فقال : « إننى أعانى مالم يعانه أتعس إنسان . وإننى سأسألك عن اسم آخر ولكن إذا قلت لى إن صاحبته قد ماتت كما قلت لما سألتك عن استير فانى سأقضى على حياتى فى هذا اليوم »

ومشى فمشيت معه إلى غرفة أخرى وكانت الشمس قد غابت . ونظر إليّ وقال : « هل جان دى لامور لا تزال على قيد الحياة ؟ »

قلت : « نعم والله » فقال : « وهل تعرفها ؟ »

قلت : « نعم » فتردد لحظة ثم قال بلسان متلعثم : « هل معرفتك إياها إلى درجة تسقط التكلف ؟ »

قلت : « لا » فقال : « حدثنى عنها »

قلت : «ولكن ليس عندى ما يستحق التحدث

به سوى أنها من أجمل الباريسيات وأشهرهن فى الأوساط وهى تعيش كما تعيش الأميرات ، وهذا كل ما أعرفه عنها »

فقال : « هذه هى التى أحبها . وقد حاولت قتلها خمس مرات أو أكثر من هذا العدد . وحاولت هى قتلى بهذا الدبوس الذى رأيته الآن . أنظر إلى أثر الالتحام الذى تحت عينى اليسرى . إنه من أثر هذا الدبوس . وكان كلانا يحب الآخر ، وقد لا تكون على استعداد لفهم ذلك ، فان الحب الشائع بين الناس حب بسيط . ولكن الحب القوى لا يخلو من العنف . والمحبون من هذا النوع يعبد أحدهما الآخر ولكنه يتوق إلى قتله .

« وقد أهلكتنى هذه الفتاة فى ثلاثة أعوام أنفقت فى خلالها أربعة ملايين من الفرنكات ثمناً لابتسامات حلوة ونظرات فتانة . وقد وجدت فيها شيئاً لا يقبل المقاومة ، ولكن ماهو هذا الشىء ؟ لست أدرى هل هو قوة عينيها ؟ هل هو عذوبة ابتسامتها ؟ هل هو صوتها ؟ لقد عشت ثلاثة أعوام عانيت فيها من الآلام ما لم يعانه إنسان . وكانت تخدعنى وتخونى لا لشىء سوى الرغبة فى خيانتى وخداعى ، فلما استكشفت ذلك وخاطبتها قالت لى : « هل نحن متزوجان ؟ »

ولما تركتها وجئت إلى هنا استطعت أن أفهمها أكثر من قبل فهى لا تستطيع أن تعيش دون أن تخدع »

قال ذلك ثم سكت بضع دقائق استمر بعدها يقول : « فلما أنفقت عليها آخر درهم قالت لى : « أنت ترى يا عزيزى أننى أحبك أكثر مما أحب أى إنسان آخر ، ولكننى أريد أن أعيش ولا أستطيع الحياة مع الفقر . ولذلك لا أرى بداً من أن نفترق »

ولقد وجدت من نفسى عندما سمعت ذلك دافعاً آخر إلى تقبيلها فمددت يدىّ إليها لأعانقها وأخنقها فى نفس الحين . وقد كان فى عينيها غير الجمال قوة أخرى قاسية . ولعل هذا هو السبب الأكبر لحبى إياها وكان فى نومتها زيادة لا تبعث فى النفس عاطفة غير الجنون

« ولقد سكرت وانتشيت وجننت بحبها وبعشقها . ولما كنت أمشى معها فى الطريق كانت تنظر إلى كل رجل تمرّ به نظرة كأنها بها تسلم نفسها إليه ؛ وكنت أشعر وأنا أسايرها أنها من متعلقات كل إنسان ، وأنها خلقت كذلك رغم أنفها ورغم أنف ورغم أنوف الناس جميعاً

« أتفهم يا عزيزى معنى ذلك ؟

« تستطيع إذا فهمته أن تتصور أى عذاب كنت أعانيه ؟

« لقد كنت أذهب معها إلى المسرح أو إلى المطعم فأحس بأن نظرات الناس إليها عناق وتقبيل ؛ وكنت أعتقد أنى إذا غبت عنها جاء الناس جميعاً ليجلسوا إليها . ولقد مرّت عشرة أعوام لم أرها فيها ولكن حبى لها لا يزال كما كان »

وكان الظلام قد اشتد فى هذا الوقت وزاد تصاعد الروائح العطرة من حديقة البرتقال وسألته : « وهل تريد أن تراها مرة أخرى ؟ »

فقال : « إننى أملك الآن ما يربو على الثمانمائة ألف فرنك . فعندما تصل ثروتى إلى مليون فانى سأبيع كل شىء وأعود إلى باريس ويكفينى من العمر بعد ذلك عام واحد أقضيه معها فى أحلام رائعة كأحلامى السابقة

قلت : « ثم ماذا ؟ » فقال : « ثم أودع الحياة مسروراً أو أطلب إليها أن تستخدمنى سائقاً لسيارتها ! »

عبد اللطيف النشار

2017-11-1

... ثم جاء الربيع

للكاتب الانجليزى دوروثى بلوك

ترجمة الأستاذ فؤاد الطوخى

كان زواج مستر بوينت من هلدا موضوع حديث القوم . ولقد تضاربت الأقوال فى هذا الشأن لأن رجلا فى مثل ثروته ومقامه كان يستطيع أن يتزوج بأحسن منها ، لأن هلدا لم تكن إلا موسيقية فى إحدى الفرق . وصحيح أنها كانت جميلة ولكن جمالها لا يكفى .. أما هى فإنها كانت قانعة بهذا القران لأنه أنقذها من عملها الشاق المضنى القليل الأجر ولقد نقلها إلى قصره الفخم الذى يشرف على غابة من شجر الصفصاف ... وكان بعض العمال قد اعتادوا أن يتخذوا فى نهايتها ملجأ يأوون إليه فى الربيع

على أن مستر بوينت لم ينس أن رجلا موسيقياً غريباً ذا شعر طويل لبث ثلاث ليال متتالية يجلس فى الصف الأول بالمسرح ويحدجها بنظرات حادة ، وكانت صغيرة السن تميل إلى كل جميل كالملابس البديعة والأرائك الحريرية والروائح العطرية فأنامها مستر بوينت كنعمة من السماء ، وأنقذها الله من العمل فى المطبخ بالمنازل الريفية القديمة ، حيث كانت تطهى طعامها بيديها — وطالما كانت تتزع إلى الحب ونظراً لصغر سنها فقد ظنت الحب سهلا ، وتوهمت كعادة الشابات أن الحب ... ماهو إلا كاهن يأتى بكلمات سحرية فوق رأسها

وكان من عادة الفرقة الموسيقية أن تأتى فى فصل الربيع بعد أن تجرى حركة ملاء وتجديد واستعداد فى المسرح

وكانت زهرة الماتوليا تزين حدائق القلات فى ذلك الفصل

واشترك مستر بوينت فى الحفلات اشتراكا اعتاده لأنه كان يناصر الفن مع أنه لا يتذوق الموسيقى

وكان من الجائز عنده أن يستغرق فى النوم وهو فى قاعة الموسيقى كما ينام فى أي مكان آخر ولكن منظر هلدا الرائع جعله ينتبه إلى موسيقاها .. كان شعرها ناعماً كالحرير الأسود ، وجلدها يحاكى زهرة الماتوليا

وهناك كان يجلس فى الصف الأول ذلك الرجل الموسيقى وهو يكاد يلتهمها بعينيه التهاما فلمح ذلك مستر بوينت ودبت فى نفسه عقارب الغيرة ، وهو الذى اعتاد أن يحصل على كل مايريد بنقوده الكثيرة فتزوجها فى الكنيسة الانجليزية للقديس سنت بارثليميو فى يوم عاصف ... وزحلت الفرقة الموسيقية تنفضها هلدا ، ولكن ماذا جرى لذلك الموسيقى الذى اعتاد أن يجلس فى الصف الأول ؟؟

كان مستر بوينت يجهل ذلك ، ومن المدهش أن هلدا لم تكن تشعر به ، فضلا عن أنها كانت ساذجة لا تعرف المكر ولا تتقن بمواهبها الخاصة فى حين قد نالت كل ما كانت تحلم به من مجد وفخار ، فقد غص القصر بألوان الترف والنعيم ... ففوق منضدة ملابسها كان لها تلك القضبان الخزفية التى كثيراً ما رأتها فى نومها الهادئ وأحلامها الجميلة .. ولما أخبرها بقيمتها التالية — وكان حريصاً على القول بأن كل شىء عنده لا قيمة له — توقفت

أنفاسها وأمست قلقة ، فقالت له :

— وماذا تقول إذا تحطمت ؟

فهز رأسه وقال :

— يمكن أن تعوض

وكان بوينت يعتقد أنه لا شيء في الدنيا لا يمكن تعويضه ، ولا حزن لا ينسله الشراب رقم (٨٧) . ووجهة نظره هذه يصعب على هلدا أن تفهمها لأن الفنانين لا يقدرون الحياة على هذا الوجه . وظهر في الجو شيء جديد فقد كان مستر بوينت يتحدث عن الحركات والنغمات في حين لم يكن يدري شيئاً عن الموسيقى ، ولم يكن في وسعه أن يترنم حتى بأنشودة الملك . جلس على أحد المقاعد وقال لزوجته :

— أسمعيني يا عزيزتي !!

فامتلأت الحجرة بنغمات الموسيقى

— ظريف وجميل جداً ... ولكن أتعرفين أنشودة فيما تغنم ؟؟

فوقفت له أخرى

— إنه صوت شجي ما أحلاه يا هلدا . وضرب بقدمه ضربة قوية

وفي المساء غنت له وكان صوت الكمان يزداد عذوبة ورقة ، فنهض مستر بوينت وقال :

— حقا ... إنني أني شوق لسماع هذا اللحن أسمعيني ثانية يا عزيزتي هلدا .. عزفك جميل حقا

وما لبثت أن أجهشت بالبكاء ، ثم طوحت بالكمان بكل قواها في أحد أركان الحجرة ، أما هو فلم يكن يعرف لذلك سببا .. وكثيراً ما خطر له أنها عرضة للنوبات العصبية ، إذ أنه قد أمدها بكل ما تشتهي نفسها في هذا العالم ، وما كانت الخسارة مقصورة على تحطيم آلاتها الموسيقية ، ولكنها عند ما ألفيت هشمت في طريقها تمثالا لآلهة الحب ؛ وكان ثمنها مصنوعا من الخزف ، وقد اشتراه مستر بوينت بثمن غال . التقط حطام التمثال والكمان وقال :

— يمكن تعويضهما

ولما رحل إلى ڤينا لقضاء بعض أعماله اشترى لها كمانا آخر بثمن بخس ، ليحل محل كمانها المحطم ؛ فشكرته ووضعت الكمان في ركن من أركان حجرة نومها . وعلى أثر ذلك .. نمى عليها أن تسمعه لحنا ، فنظرت إليه بحمق ثم هزت رأسها باحتقار وسكتت

— لقد ماتت الموسيقى يا بوينت ! وعجيب أنك تخاطبني كأن لك إلماماً بالعزف

كانت هلدا قبل زواجها قد تجولت مع فرقتها الموسيقية هنا وهناك واكتسبت شهورا وذوقا خاصا ... أما اليوم وهي منعمة في القصر بالفراش الوثير والطعام الفاخر وشراب الخمر (٨٧) الجيد فقد أصبحت خشنة ... ولم يتسع الجمال لستر بوينت لمبادلتها الشعور ، لأنه لم يكن بينهما انسجام . وكثيرا ما كان يرحل إلى لندن أو باريس أو ڤينا لمباشرة أعماله ، فيغيب عنها أياما

وكثيرا ما أقيمت في هذا القصر ولائم فاخرة فلم يغن ذلك عن كآبتها شيئا

وذات يوم رحل بوينت وبصحبته خادمه وحقائبه في سيارته . فسلكت هلدا مسلكا جديدا ، وبدأت تعيش عيشة أخرى .. أغلقت القصر ورفعت ستائره وأبسطته وطردت جميع الخدم ما عدا مارية وصيفتها الخاصة التي كانت تشاطرها الحزن والأسى . فقد مرت بتجربة قاسية ؛ إذ أحبت بحارا واقترنت به ثم ضرب الدهر بينهما بضربانه ، فأمست لا تسلم من أمره شيئا . واتخذت من حجرة نومها حجرة للجلوس ، ووضعت على إحدى المواقد موقدا للبترول لتهيء الطعام بيديها . كما كانت تفعل

2017-11-1

فى أيامها السالفة . ومن العجب أنها لم تقترن بمستر بوينت إلا لتتخلص من تلك الحياة التى بدأت تمجها إليها ، وما أحزنها إلا جهله بالموسيقى فأفضى ذلك إلى شعورها بالجمود نحوه .. وكثيرا ما كانت تقول فى نفسها ... لقد أشرق ضوء فى ظلال حياتى ولكنى أطفأته .

ومرت أيام وأيام ومستر بوينت يزداد غنى وثراء. وحل الربيع مرة أخرى وظهر فى المسرح عمال بدأوا يشتغلون فى تنظيفه وطلائه وترتيبه وإصلاح أدوات الحمام . وشخص مستر بوينت إلى باريس فى بعض أعماله .

ثم عاد الصفاح مع قافلته يحتل مكانه المعهود فى الغابة بين أشجار الصفصاف ، وفى كل عام كان يأتى عند ما تتفتح الزهور وكان يصطحب فى كل مرة كناريا ، ولم تكن هذا قد رأته من قبل وإنما كانت تطل من النافذة من وقت لآخر على قافلته ، فيروقها ألوان ملابسهم الزاهية الجميلة . وكان وقتئذ مرابطا فى الطرف النهائى من الغابة .. ولحرارة الجو انتحى ناحية الغدير . وكان يوما مشمسا أزاحت فيه مارية الستار عن نافذة سيدتها وأطلت على مقدمة القافلة فأبصرت نارا تحترق ، ودخانا يتصعد فى الجو فيكسب زرقته سوادا ، قالت : إنها لوقاحة متناهية ، وهمت باستدعاء مدير الضيعة لولا أنها تذكرت أنه رحل إلى سنت بريك ليشيع جنازة أمه وانبعثت هذا نحوها وقالت :

— دعيه إنه لا يؤذى أحدا

— ولكن إذا هبت الريح اندفع الدخان رأسا إلى نافذة سيدتى

— ولكن دخان الخشب لن يقتلنى

— ربما كان بحارا ، وثقى يا سيدتى أن أى امرأة فى العالم لم تسلم من أذى أولئك البحارة

ثم نظرت مارية فى المرآة فرأت جمالها السريع الذبول ووجهها الشاحب وقالت :

— أخشى أن نكون فى خطر ولو من أولئك البحارة

ولم تكن هذا تهتم بأمر القافلة من قبل ولكنها أعارتها بعض الالتفات فى هذا الربيع . وذهبت يوما إلى غابة الصفصاف داخل الأحراش . وكانت القافلة مرابطة فوق بساط من الزهر البنفسجى اللون بين ثنايا الأشجار . وانساب بجوارها جدول من الماء . واسترسلت على النافذة سجوف قشيبة . وتطلعت هذا إلى حجرة الصفاح فلم تجد فيها شابة ، وقد كسا الفراش الممدود فى بعض الجوانب لون قرمزى بديع فأدهشها أن يكون ساكنها صفاحا بسيطا . وحارت فى أمر ذلك الرجل وماذا عسى أن يكون ولماذا لم يزر تلك البقاع إلا فى فصل الربيع .

وأرسل مستر بوينت برقية فى يوم الثلاثاء قال فيها إنه سيتخلف فى باريس أسبوعا نظرا لسوء حالة الجو.

وقد صدق بوينت فيما قاله عن الجو فقد زمجرت عاصفة فى منتصف الليل فأخلت ببعض أجزاء المسرح وشتتت أدوات الحمام فكسرت وارتمت على الأرض كدمى الأطفال ... ونجا القفص بأعجوبة من الزوبعة ، أما الصليب المثبت على قمة الكنيسة فقد سقط متحطما على الأرض، ولم يصب القصر من الضرر إلا بقليل، وقد قصمت الأشجار الباسقة فى الحديقة كأنها كانت تتبارك مع الجن ، وكسرت النافورة المرمرية التى جاء بها مستر بوينت من فينا إلى ثلاث قطع ، وقد نكب الإله فينس الذى كان جالسا على عرشه فى قمة النافورة بهزة ألقته على الأرض صريعا، فرقد يندب حظه العاثر وهو لا يصدق ما قد حدث . أما هذا فكانت موقنة بأن كل ما سيصنعه زوجها بمجرد اطلاعه على تلك الخسائر هو أنه يقول:

2017-11-1

— يمكن تعويضها

وتصدع سقف الغرفة على أثر ظهور ثقب فى قناة، فبدت أولا صغيرة ثم اتسعت حتى صارت بحجم عجلة السيارة ، فصاحت مارية ، وأخذت تضع تحت هذه الفتحة ما تجمع عندها من أوان :

— يا لله ! ! أيحدث هذا ومدير الضيعة غائباً فى مأتم والدته

سيدتى ... ماذا نصنع بهذا الشلال الفظيع ونحن امرأتان وحيدتان ، وهرعت إلى النافذة لتصب إحدى الأوانى الممتلئة بالماء ، ورأت العمال لا يزالون فى مكانهم

— انظرى يا سيدتى إنى سأحضره ، فهو على الأقل رجل ويستطيع الصعود إلى السقف ، أما أنا فلا أستطيع لضخامتى الدخول من الباب الصغير المؤدى إليه وإذا صعدت أنت فان سيدى لن يغفر لى هذا الذنب ... فخرجت تاركة وراءها تعليمات هذا الخاصة بوضع الأوانى تحت هذا الشلال ، وبعد أن رفعت هذا الاناء الرابع وقد فاض بالماء لتلقى به من النافذة ... إذا بجارية قد عادت ومعها الصفاح وكان مديد القامة ، يرتدى سروالا من الفانلا وسترة موثوقة المرى حتى عنقه . فلما رأته علمت لأول وهلة أنه لم يكن من طبقة البحارة. وذكرت بمايشبه الحلم أنها قد تعرفه وربما تكون قد صادفته فى بعض أنحاء المدينة من غير أن تعلم شخصيته

وفى تلك الأثناء كانت مارية تطالعه بالحالة وهى بجانبه تشرح له الصدع بكل اهتمام ولو أنه لم يكن سباكا إلا أنه قال :

— أظن أن الصدع هو نتيجة ثقب فى البالوعة وأن فى وسعه إصلاحه لو سمحت له السيدة بالصعود.

ثم صعد فوجد قطعاً من الأغصان وبعض الأخشاب المتناثرة التى ساقتها الريح إليه فتناولها وأصلح بها الصدع ، فلما هبط قالت له هذا :

— أشكرك ألف مرة على ما فعلت .. وأصرت له بزجاجة من السدر . وكانت قد جهزت فى يدها بعض النقود لتعطيها له، ولكنها توقفت خشية ألا يقبلها وخرجت مارية وفى عينيها نظرات سوداء ، ولما وقع نظر الرجل على المكان بادر بالتقاطه ومسح النبار الذى كان عليه وقال :

— لعل سيدتى قد أغفلت العزف

— وكيف عرفت أنى أجيد العزف ؟

ونظرت إليه فى حيرة وقلبها يشتد فى الخفقان وقال : على أن السيدات الأرستقراطيات لايقتنين كاناً حقيراً ليضعن عليه ريشهن. فأدارت وجهها وقالت :

— لم أعد أوقع فقد ماتت الموسيقى

ثم أمسك بالمكان مرة أخرى وقال:

— إن الموسيقى نائمة ولن تموت، أتسمحين لى بالعزف . ثم أخذ يوقع لحناً كانت هى توقعه منذ سنوات مضت فى المسرح

— أين سمعت هذا الدور ..؟ لقد عزفته من قبل

— إنه أحد الألحان الوطنية

ورفع الآلة ثانية ثم تنفى بلحن مشج امتزجت عذوبته بأشعة الشمس المشرقة

— أنت لست بصفاح ... وما اسمك ؟ ثم ارتجف قلبها للمرة الثانية ... فقال :

— حقاً أنا صفاح ... ألم ترسيدتى ما عندى من أوان وأوعية ؟ وتلفت فى الحجرة بمنة ويسرة فراقه منها بعض ما فيها من آثار الترف ثم نظر إلى الحديقة فمز عليه أن يرى إله الحب ڤينس مذبوحاً وملقى على الأرض وقال بصوت كأنه يخاطب نفسه ولا يخاطبها

— أى عصفور يمكنه أن ينفى فى القفص ؟

وبعدها عادت ماريا وبيدها زجاجة الخمر . ولما رأت نفسها وحيدة مع سيدتها قالت :

— ما أشد وقاحته لاجترائه على لمس كمان سيدتي ... حقاً كان يجب أن تعطيه بعض النقود وتدعيه ينصرف في الحال حتى لا يتلكأ فيتضح له أننا امرأتان وحيدتان في هذا القصر . وأغلب الظن أننا سنقتل في هذه الليلة في فراشنا . فقالت هلدا وهي ترفع رأسها إلى أعلى :

— على كل حال لقد أدى لنا عملنا

ولكنها كانت تنظر إلى كمانها

وقال مستر بونيت حينما جاء إلى قصره

— يسرني أنك عدت إلى الريف ... إن هذا الجبل فكل سيدة لها هوايتها ، فاعزفي لي يا عزيزتي

فوقفت له أنشودة ، ولما أتمت على آخرها قال :

— إني لأحس بالحياة تجري في ثنايا نفاتك .

ثم نفض سيجارته وأضاف :

— أراك أكثر انتعاشاً .. فلقد عملت بنصيحتي . ولقد عاهدت نفسي أن أعطيك كأساً من الشروب (٨٧) مع قليل من البسكويت كل صباح

وما كان الخمر هو الذي أعاد اللون إلى وجهها والبريق إلى عينيها ، وإنما كشفها المدهش أن مواهبها الموسيقية لم تندثر رغم مرور الأعوام الطويلة فهي لا تزال قادرة على العزف ولو أعوزها المران .. في كل صباح كانت تقوم بالمران في نافذتها أثناء اشتغاله بأوعيته وأوانيه . وإذا أرخى الليل سدوله خرجت من القصر وذهبت إليه فكان تارة يعجب بعزفها وأخرى ينتقدها ويظهر لها أغلاطاً جساماً وكثيراً ما تناول كمانه ولعب عليها بنغمات ساحرة كانت تملك عليها شعورها فتذكر أيامها الغابرة التي قضتها تحت ظلال الفن ثم تعود على نفسها باللائمة لأنها باعتها بعيشة الترف والثراء فرحلت عنها السعادة ثم سألته :

— ماذا تعزف ؟

— « أغنية البحث » ولكنها لم تتقه بعد ، فلربما غنيتها كاملة في سهيحة يوم عيد الفسح . فهل ستستمعين لها ؟ ثم نظرت إليه وقلبها يخفق في عنف فهل هي لا تزال عذراء تنظر هنا وهناك وتنشد الحب ضالة إلى أن تهتدي إلى قرار ؟ !

لم يكن في الأمر خيانة فاذا كانت القصة قد جرت في المدينة لعرفها جميع الناس منذ أمد بعيد ، ولتحدثوا بشأنها في المسرح ... ولكن القصر كان بعيداً عن المدينة ولم تكن الأشجار الباسقة تروي أخباراً . وحل الصيف في بريتانيا فسمعت دقات أجراس الكنائس والأغاني الجميلة ، وشوهدت القبعات الجديدة ، وكست غابة الصفصاف الأزهار والورود . وعاد مستر بونيت من باريس

وفي ليلة العيد ذهبت هلدا إلى الغابة ، فوجدت القافلة على أهبة الاستعداد للرحيل ، وكان الجواد الكبير يرعى بجوار الورود ومنابع الصفصاف ، فسألت في وجل وخوف :

— ما هذه الجلبة ؟

— إن ... فترة أجازتي قد انتهت وفي كل ربيع أعود إلى هنا لأمتع نظري بالمشاهد التي ألفتها في صباي ، وطالما حلمت بها في منامي . ولقد فطنت سيدتي إلى حقيقة أمري فأنا لست بمصلح

— طبعاً عرفت ذلك ولكن من أنت ؟

— ليس من شأني أن أنبي ضوء على هذا السؤال إذا لم تعرف سيدتي من تلقاء نفسها

فجلست بجواره وقد أرنج عليها وكادت تجهش بالبكاء الحار على تلك الليالي الطوال التي سوف تقضيها في عزلة ووحدة بعيدة عنه ، حتى لا يضيء مصباح في النافذة المعرمة الموحشة الرهيبة ثم همست في أذنه :

— هل أراك ثانية ؟

— ومن يدري ؟

فلما تركته واقفاً هناك خيم الأسى على عينيه وهو يشيعها ، وحامت الخفافيش حول مصباحه ذي الضوء الخافت ، وقال :

— سأعزف لك في الصباح « أغنية البعث » وهي تؤدي لك رسالة وقد لا تؤدي

وجلست في نافذتها وأسندت رأسها بيدها ... وانتصف الليل ... وانبعث من الناي عزف سحري أخذ بمجامع قلبها حتى حملها على البكاء قسراً ... وجال بخاطرها أنها ستصبح وحيدة رغم صغر سنها وتذكرت أنها ستصبح وحيدة خائفة بين أعضاء فرقتها الموسيقية ؛ وأمامها في الصيف ذلك الرجل تكاد عيناه تلتهمها التهاماً فهمهت من مكانها وقالت :

— نعم . هذا هو الواقع . لقد عرفت الجواب الآن ، ثم قالت :

— إني قادمة

ولم تأخذ شيئاً ألبتة معها مما قد أحضره مستر بوينت، وفي منعطف الطريق قابلت القافلة وقالت :

— قد تذكرت ... تذكرت ... !

وامتطت صهوة الجواد يجواره ثم لفها بغطاء أحمر فسار بهم اركب بين سلسلة أوانيه وأوعيته ، وبين صوت حوافر الجواد وهي تقطع الطريق الوعر ولم يخرج حديثهما عن المسرح وملعب التنس وحفلات الشاي

وها هي ذي قصة خيانة تمرض نفسها لمختلف الأحاديث والتعليقات ... هي قصة فتاة هجرت زوجها الذي إلى الأبد لتتصل برجل بسيط أحبته

نعم ... فقد جلس الرجال العسكريون وسكان المدينة إلى المصطافين يتحدثون بصوت خافت :

لقد كانت دائماً غريبة الأطوار.. لقد أخرجها من الفقر إلى الغنى.. ومن فرقة الموسيقى إلى قصره الفخم

وبعد بضعة شهور كانت مارية تحزم بعض مجلات قديمة كان قد أحضرها مستر بوينت معه من فينا ، فاستلفت نظرها مقطوعات شائقة في الصحائف المصورة وعثرت على صورة شمعية لرجل ذي شعر أسود ضارب إلى البياض وقد انحصر إلى الوراء تاركاً مكاناً فاحلاً بينه وبين جبهته العريضة وكان يرتدي ملابس السهرة وعلى ركبته كمان

هذا هو دانزليس الذي اعتاد أن يزور كل عام في زي صفاح ومعه قافلته تلك البقاع التي قضى فيها أوقات صباه وزهرة عمره ، وسوف يعزف أغنية في بودابست في الصيف ، وهي من أروع الأناشيد التي تحاكي قلب الطبيعة ... وقد بلغت مهارة ذلك الرجل الموسيقي مبلغاً عظيماً ، فطغت على ما عداها وأكتسحت كل شيء أمامها ... فهرعت مارية إلى مستر بوينت وقالت :

— ها هو ذا الرجل بعينه .. إنه ليس بمصفاح ياسيدي ... سأتلك بالله أن تنظر ... فتناول مستر بوينت الورقة بيده النليظة وقال :

— أنشودة البعث ... ماسمعت بها قط ، خذيها من وجهي ولن تعودي تذكرين اسمها أمامي ثانية .

ولما بلغت الباب استعادها وقال :

— أبلغي هنري أن يأتيني بشراب (٧٧)

ثم نظر مستر بوينت إلى الحديقة فرأى المقعد الحجري الذي كانت تجلس عليه مارية في الأيام الحارة مشتغلة بإبرتها بجوار نافورة فينس وهو التمثال الذي أحضره من فينا ... ثم أخرج من غليونه عموداً من الدخان وقال :

— يمكن تعويضها ...

« يتبع »

ثوار الطرمي

الأغلال

للكاتب الفرنسي "بول هيرفيو"
بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل الأول

ينكشف الستار عن قاعة مزينة بأفخر الرياش تلوح من شرفتها حديقة مشتوية ، الوقت مساء وقد أنيرت القاعة بنور ضئيل

المشهد الأول

(إرين وبولين أختان تتحادثان وهما جالستان إلى خوان)
(بولين تخاطب أختها بهدوء الناصح وإرين تضطرب ثم تقف تذرع القاعة طولا وعرضاً ، وفي الحديقة ثلاثة رجال يدخنون)

بولين — ما هي شكايتك من زوجك ؟

إرين — شكايتي منه هي أنني لا أحبه

بولين — أتعدين إذاً إعراضك عنه ذنباً عليه؟

إرين — عشر سنوات مرت عليّ وأنا أحاول اختراق قلبه بحبي فما أجدت محاولتي غير هبوط آمالي

بولين — ما يدفع بك وبأمثالك إلى الثورة إلا إعلان قانون الطلاق، فسقيا لزمان المحصنات الفاتنات الجاريات لحظهن في الحياة

إرين — لست ممن يحترن الموت في الحياة

بولين — هلا وجدت من حياتك نفسها منفذاً إلى الحياة؟ إذا كان الله حرمك الولد فاحرمك مباهج المجتمع . لك مسكن من أجمل المساكن تقيمين فيه فلا يزورك إلا زوجي وأنا ، فافتحي ذاعتك للاستقبال وافتحي تيار العالم فانه ينقذك مما تولدينه لنفسك من أوصاب

إرين — لو أنني طالبة ملاذ لأخذت بملاجك ، ولكنني طالبة سعادة؟ وما يوصلني إليها السبيل الذي تصفين

بولين — لا أدعي أن زوجك روبير كمال مجسم ، ولكنني أراك تحدجينه بعين مريضة ناثرة ، فكيف تتوقعين أن يروق لك ؟ إن دماغك يسكب سموماً على قلبك فأنت محيّرة في أمرك

إرين — بالله يا بولين لا تحولي الحقيقة التي ألمسها كل يوم إلى أشباح وأوهام . أفلا ترين أن زوجي كالحجر الصلد لا يتأثر لشيء ولا يشعر بشيء؟ أما أنا فلا أشعر منه إلا بحق سيادته، فكأنه لم يوجد إلا ليكون حاكمي المطلق وسلطاني البارد المستبد

بولين — (بتهكم) وهل يصح أن يحكمك أحد ، أنت التي لم تخلق إلا للشعور وللحبة كل شيء والاضطراب من كل شيء ، أنت التي تحيين من نسمة وتموتين من لفحة

إرين — ما أدعي بلوغ الذروة في الرقي ، وما أتطلب من زوجي صفات أعاظم الرجال . ولقد كنت أرضاه حقيراً فقيراً وأقنع بعيوبه لو أن فيه أقل شعور بالحياة . لو أنه يفرح أو يحزن ، إذن لكنت أرفعه على هيكل روحي ، ولكن زوجي متمم ذاته بذاته مصفح بشخصيته ، ويا ليته يبكي مرة واحدة لأسكب عليه كل ما أكبت من العطف والحنان في قلبي

بولين — أفما يتسنى لك إشعاره بعطفك عند ما يثور بينكما الخصام ؟

إرين — إنك لا تعرفينه ... إن أمثال هذا

الرجل لا يثورون ولا يحتقون لأنهم يرون الحق فى جانبهم أبدا فلا تتزعزع ثقتهم بأنفسهم. وليتك تنظرين إلى زوجى حين يفيق من رقاده ، فانك لتلمحين على سيمائه التصميم على إعلان حقوقه طوال النهار؛ فهو يفرض حقه على الخدم وعلى الخيل وعلى الكلاب ولا يمكن أن يرتكب خطأ فى أى أمر كان مع أى كان . . . وما سمعته مرة يتحدث إلا وهو يسرد قصة يكون غيره فيها المخطئ وهو المصيب.

بولين — ولكنه إذا وقف أمامك يصبح الحق فى جانبك على ما أرى

إرين — أنسيت حقوق الزوج ؟ إنه يلوح بها أبدا لفصل الخطاب بيني وبينه فاذا هو المصيب وأنا المخطئة .

بولين — إسمعى ياإرين ، لقد كنت أنا الساعية فى زواجك كما سمعت أبى فزوجتنى من قبل. وليس زوجى بأفضل من زوجك فهما فرسا رهان لكل منهما ثروة طائلة ولكل منهما ما تجبى الثروة على أصحابها من الكسل والجمود . لقد قذف الآباء الطامعون المجاعدون فى سبيل المال إلى الوجود بأمثال هؤلاء الأزواج الذين لا يخطر الزواج على بالهم إلا بعد أن تتحجر قلوبهم وتتعرى رؤوسهم فهم عون حينئذ إلى الأدبرة ليختطفوا من مقاعدها فتيات الجمال والمال . تلك هى طريقة الزواج فى هذا الزمان وليس لنا أن نبدلها . لقد اعترفت بالأمر الواقع، لذلك تريدنى على أنهم وفاق مع زوجى لأن حبنا متشابه متبادل ولا خيار فى الواجب .

إرين — إذن أنت فى عداد الزوجات اللواتى لا يتمسكن بأزواجهن إلا بقدر تمسك هؤلاء الأزواج بهن .

بولين — لم أفهم ...

إرين — لايصعب عليك فهم ما أقول إذا أنت تذكرت ما قاله زوجك ونحن على العشاء حين كان ميشال دافرنيه يقص علينا أسفاره فى بلاد اليونان . أفلا قال ليثبت حبه للأسفار : لو أننى أصبت بفقد عقيلتى وكنت لا أزال شابا ، فانى أذهب سائحا فى تلك الأقطار .

أفلا لاحت على وجهك علامات الرضى فكأنك كنت تؤيدين رأى زوجك وتجدين قوله طبيعيا لا غبار عليه .

بولين — وأية غرابة ترين فى هذا القول ؟

إرين — الحق أن لا غرابة فى أن يفتكر الزوج سلفا فى كيفية سلوانه لشريكة حياته إذا ماتت. وأقل غرابة من هذا أن يعلن الزوج رأيه بحضرة زوجته وأن ترتاح الزوجة إلى مثل تلك الوقاحة .

بولين — تذكرى أن الخطأ كامن فى المبالغة ياعزيزتى .

ارين — أتجدين اخلاصى مبالغة ... فما هو تقديرك للرضى المتبادل بين زوجين على تمثيل دور الزواج بالخادعة والأكاذيب . لا ، إننى لن أرضى لنفسى بمثل هذا الشقاء يستتر وراء بوشاح الحب والاخلاص .

بولين — (وهى تبتسم بتهكم) إذا كنت لم أنتبه لما قاله زوجى ، فما ذلك إلا لأننى كنت مستغرقة فى التفرس بملامحك لأقرأ فيها تأثير ميشال دافرنيه بفصاحته الخلابة .

ارين — لم أفهم

بولين — أما أنا فقد فهمت كثيراً ... فوالله

2017-11-11

ما اهتاجت أعصابك إلا المقابلة بين جمال زوجك وعبقرية صديقك القديم

ارين — وإلى م تذهبين بهذا الظن ؟

بولين — إلى أن هنالك غمامة صيف ستنقشع عن قريب . أرى الرجال يستعدون للخروج من الحديقة ، ولعلهم قادمون الينا نخير لك أن تغسلي وجهك فهو مكفهر وقد بدا الاضطراب فى عينيك .

ارين — (تتوجه نحو باب الغرفة) بل خير لى أن أصنع وجهاً مستماراً لأتمكن من الظهور أمام الناس بالتصنع والخداع .

المشهد الثانى

بولين وفرجان زوج ارين

فرجان — لماذا تركتك امرأتى وحدك ؟

بولين — أفما أتيت أنت لتقوم مقامها ؟

فرجان — أتيت لأستأذنك فى الخروج . إن حضرة السيو دافرنيه ثقيل الوطأة علىّ بفلسفته وأخباره ، ولهذا أبقيته لزوجك فردينان يتدبر الأمر معه .

بولين — أنت تدعى الانشغال حين تخرج من البيت ولكنك لا تذهب إلا إلى النادي

فرجان — لقد تعود أصدقاء النادي الاجتماع فيه ، وليس لهم أن يخلفوا وعدهم .

بولين — أفلا يخطر لك بعض الأحيان أن هنالك أمراً يجدر بك أن تهتم له ؟ أفلا تفكر فيما يمكن أن يحول فى مخيلة زوجتك وأنت تسلمها إلى العزلة والانفراد ؟

فرجان — أنا واثق من أنها على أحسن حال حين أفارقها ، أفما رأيت اغبرار وجهها عند ما كنا على العشاء . دققى فى ملامحها بعد ذهابى فلسوف يتضح لك أنها ستعود إلى المرح والسرور . تلك هى عادة أختك : إذا أنا اقتربت منها جللها الكدر ، وإذا ابتعدت عنها انبسطت نفسها وزال عن وجهها القطوب .

بولين — خير لك أن تنظر فى مداواة العلة من أن تتلهى بوصف أعراضها .

فرجان — ماذا تريدين أن أفعل ؟ لقد لاح لارين أن تستحسن هذه الطريقة ، وما أنا بمضيع أوقاتى فى حل الرموز .

بولين — إذا كانت هذه هى طريقتك أيضاً فالطرق بينكما سائر إلى الاتساع

فرجان — يؤلمنى ذلك . ولكن ما يهمنى شىء إذا كان ضميرى مرتاحاً إلى طريقتى . وهل لك أن تقولى لى ما هو قصورى تجاه إرين ؟

بولين — أنت مقصر وبرهانى على قصورك أنك لم تنلها السعادة

فرجان — وهل تظن أختك أننى أنا سعيد بمشاهدتى سحنتها الشاحبة القاتمة ؟ كلما زادتنى قطوباً زدتها هجراً . لقد قررت أن ألهو خارج بيتى إلى أن يثوب رشد زوجتى إليها

بولين — وما يحل بإرين يا ترى أثناء لهوك ؟

فرجان — إننى أمنحها وقتاً للتبصر فى أمورها

بولين — أتريد إخضاعها بالعنف ؟

فرجان — إنها زوجتى وأنا القيم عليها

بولين — هي لنفسها أولا يا فرجان

فرجان — لقد اتخذتها زوجة لى لأوفر لها الحياة الهنيئة ، فقمت بواجبى ، فما أنا أطالبها إلا بالهدوء والسكينة واللذة التى يتمتع كل الناس بها

بولين — ليست إرين كبقية الناس

فرجان — إنى آسف لذلك ، فلا يلومن الانسان الشاذ غير نفسه . إننى لست مطالباً بالخروج على القاعدة المتبعة . أريد أن أتمتع بالحياة كما هي وإرين تمضى أيامها بالاستغراق والتفكير ، أما أنا فأكره قرع الأوهام ولا أفهم ما هي الأفكار التى يشغل الانسان فيها دماغه إذا لم يتجه إلى تنظيم حياته ؟ على أختك أن تصلح نفسها ومن واجبك أن تدعيها إلى ذلك

بولين — كنت أحاول هذا الأمر منذ عشية

فرجان — وماذا كانت حجتها ضدى ؟

بولين — لم يكن لها من حجة عليك غير الحجة التى تدلى بها أنت من فمك

المشهد الثالث

بولين ، فرجان ، إرين

(تدخل إرين فيبدو عليها الاضطراب إذ ترى زوجها)

فرجان — (هما لبولين) أنظرى ، تأملى (بصوت عال) لقد عادت رفيقتك فهأنذا أهرب (يظهر الارتياح على وجه إرين)

فرجان — تأملى واحكمى ...

(ينحنى فرجان مسلما ويخرج)

المشهد الرابع

بولين ، إرين

إرين — لقد كنت أنا مدار الحديث بينك وبينه

بولين — وما عساه يكون سوى ذلك ؟ لقد اتخذت لهجة الاعتدال فى النصح

إرين — والنتيجة ؟

بولين — هى النتيجة نفسها التى توصلت إليها تجاهك .

المشهد الخامس

بولين ، إرين ، فالانتون ، زوج بولين ، ميشال دافرنيه .

(يدخل الرجلان من الحديقة)

فالانتون — (مخاطباً ميشال) — إذاً لم أتوصل إلى إقناعك

ميشال — ولن تتمكن من زعزعة اعتقادى .

فالانتون — (موجها الخطاب إلى زوجته وأختها) كنت أقنع صديقى بوجوب زواجه .

إرين — بمن ؟

فالانتون — لم نصل إلى حد تعيين العروس ، فقد كنت أقول لميشال : لقد بلغت الثلاثين وأنت رجل مثقف ولك شهرة ومقام فى الكلية ، فمن السهل عليك أن تجد عروسا ذات جمال ومال. وقد مرت عليك أيام طويلة فى باريس ولم أرك تفكر لا فى الاندفاع إلى العروس ولا فى التسلى باللاهى .

بولين — آه

فالانتون — إذاً لست عاشقا ، ياصديقى ، ولا شىء يحول دون زواجك ، فما عليك إلا أن تصمم على الزواج ثم تجيل أبصارك فيمن حولك من الفتيات حتى إذا اخترت إحداهن تفكر بعد زواجك فى خلق الحب بينك وبينها ، تلك هى القاعدة ولا خير فى العمل بسواها .

بولين لميشال — وبماذا أجبت على هذا النصح؟

ميشال — أما أنا فلا أرى فى الوجود إلا ثلاث حوادث هامة هى الولادة فالزواج فالموت . وكلها متساوية تخضع لنظام واحد . فاذا كان الانسان لا يجىء الحياة مختارا ولا يبارحها مختارا فالزواج لا يرسو أيضا على الاختيار وهو صنو الولادة والموت. من منا لم يأت الحياة صاغرا ولن يبارحها صاغرا .

2017-11-11

لذلك أريد أن يكون الزواج تابعا للبداهة لا أثر فيه لتصنع الانسان وإرادته . أريد أن تكون كلمة الايجاب والقبول في الحب كلمة مقدسة تدفعها الطبيعة من مستودع أسرارها كما تدفع الطفل إلى الصراخ حين يستقبل النور، وكما تدفع المخضر إلى الأنين وهو يبارح الحياة .

إرين — إن الطبيعة تسود ولادتنا وموتنا ولكنني لا أراها تهتم كثيرا بتزويجنا .

ميشال — بلى ، إنها تهتم إذ أنها تفتح قلبنا لشخص واحد يتحصر الوجود فيه لدينا . تلك هي القوة التي تنور قلب الانسان مرغما هي أشبه القوى بالناموس الالهي الذي يفتح الأعين للنور وينعمضها للقبور ...

بولين — ولكن الانسان مخير في زواجه فهو يقدر ألا يتزوج ، وهو مخير في زواجه بلاحب حتى إنه ليتزوج بالرغم من الحب

ميشال — ذلك لأن الطبيعة التي تستقر فيها ناموس الحياة والموت قد شاءت أن تركز ناموس الزواج على قاعدة الشعور الخفي فهي تنبه الانسان بواسطته متوسلة باكية ثم تهيب به مسيطرة موجعة

ارين — ولكنها مع ذلك لا تقوى على ردع الانسان عن الزواج الموافق لأحوال الأسر والمنفعة الشخصية .

ميشال — إذا نحن ترفعنا عن الطبيعة فلا نفلت من سيطرتها إلا إلى حين ، فهي تتحكم في الحياة من حيث لا ندري ، فاذا لم يذهب الزواج بالرجل والمرأة إلى الحب عن طريق المودة والرحمة فان الحب يربط أحد الزوجين أو كليهما برباط الزواج الحقيقي خارجا عن أنظمة الناس بالرغم من كل قاعدة مرعية

فالانتون — أما أنا فلا أفهم من الزواج غير شريعتين شريعة الكنيسة والقانون المدني .

ميشال — لا زواج حيث لا حب . . . ولقد شاءت التقاليد أن تجعل الحب سلمة تسام وعملا يتفق عليه متعاقدان بموجب عهد . ولقد يكون مثل هذا الزواج راسيا على حق الايجاب والقبول ولكنني أنكر عليه كونه أخا الولادة والموت .

بولين — لملك تعلمت هذه المبادىء في مدرسة أتينا ...

ميشال — بل تعلمتها في مدرسة الحياة ، وأنت تعرفين كيف قضيت حياتي .

فالانتون — أما كنت أول رفيق لأخت عقيلتي أيام طفولتها ؟

ميشال — لقد كان مسكنها قرب مسكني عند ما كان لي أب وأم ؛ وعند ما حرمني الله الأب والأم قاسمت جاوتي الصغيرة آلامها .

(يدخل خادم ويقول ان عربة مدام فالانتون حاضرة أمام الباب)

فالانتون — (للخادم) حسن فلتنتظر

(يخرج الخادم)

بولين لميشال — لقد كنت ضعيفاً متألماً وأنت صغير ...

ميشال — تلك قسمتي من الدنيا وما الضعف إلا إرث يتلقاه الأبناء عن الآباء .

ارين — ولكن ميشال كان سيء الطبع

ميشال — لا أذكر أني كنت سيء الطبع يا سيدتي .

ارين — أما أنا فأذكر كل ما كنت تخترعه لتكدري ؛ وعندما كنت أبكي كنت تقطب وجهك وتذهب دون أن تبالي بقهري .

2017-11-11

ميشال — لعل الصبيان هكذا يكون

(ينهض فالانتون مشيراً إلى زوجته بالذهاب)

فالانتون — (مخاطباً إرين) إنى أعتذر لاضطرارى إلى الذهاب. لقد أتعبنى الصيد اليوم وعلى أن أعود غداً إلى الصيد أيضاً

إرين — ولم لا تأخذ لنفسك راحة من هذا العناء؟

فالانتون — لو كان الصيد عملا لوجب أن تتخلله راحة ، ولكنه تسلية (يتجه فالانتون نحو ميشال ويصافحه)

فالانتون — إلى اللقاء أيها الصديق

ميشال — (يقف هو أيضا) وأنا أيضاً أريد الذهاب فقد طالت زيارتى ، وما كنت لأطيلها لولا أنها زيارة الوداع

إرين — زيارة وداع !

بولين — أنت مسافر إذاً ؟

ميشال — لقد عهد إلى بالقيام بدروس فى آسيا الصغرى

إرين — وما يوجب هذا الاسراع يا ترى ؟

ميشال — أمور لها شأنها

(يتجه فالانتون وعقيله نحو الباب فتلتفت بولين إلى ميشال)

بولين — وهل لك أن تزورنا قبل سفرك ؟

ميشال — سأزوركم ولا شك يا سيدتى

(ويتقدم ميشال ليودع إرين فتستوقفه بإشارة خفية)

المشهد السادس

(إرين ، ميشال)

إرين — ماهى هذه الأمور الهامة التى تستدعى إسراعك بالسفر ؟

ميشال — وددت لو أنى لم أتوه بها

إرين — كنت تفضل إذاً أن تطلعنا على سفرك برسالة من بعيد ؟

ميشال — دعى العتاب ولا تلومى

إرين — ما معنى هذه الألغاز ؟

ميشال — لقد سافرت للمرة الأولى أتلمس قوة أحكم بها نفسى ، وما عدت إلا لأتيقن عبث محاولتى . عرفت أننى أسأت إلى نفسى بالرجوع ، فهأنذا أعاود أسفارى

إرين — أفلا يحق لى أن أطلع على هذه الأسباب؟

ميشال — بل لا حق لأحد سواك فى معرفتها

إرين — آه !

ميشال — سامحينى أجبك

إرين — لم أعد أجسر على السؤال

ميشال — إذا كنت لا تجسرين فسأقدم أنا على القول من نفسى

إن هذه الأسفار الطويلة التى ألفتها بين الأطلال وبقايا الأزمنة الغابرة جعلتنى محباً لكل شىء حكم عليه بالزوال لتبقى على الأرض آثاره . لندع الحاضر ، اتبعينى إذاً إلى مجاهل التذكار ، إذا شئت فلسوف أقودك إلى متنزه جميل تسوده الروعة كأنه أطلال هيا كل مندثرة

إرين — أراك تعود إلى طريقتك القديمة يا ميشال ، فما أنت ذا تريد تعذيبى كما كنت تفعل وأنت صبى

ميشال — عند ما قضى عليك بالزواج ، كنت أنت فى الثامنة عشرة وأنا فى العشرين . دخلت أنا الكلية ، ودخلت أنت بيت فرجان . احتملت القضاء كأنه عدل مصدره مجهول ، وما أدرى ما تكون المواطف فى قلب امرأة لم تتجاوز الثامنة عشرة ، غير أنى أعرف ما يشعر به شاب لم يتجاوز العشرين . تمنيت أن أراك بعد زواجك

صامتاً صاغراً إلى أن أنجلت لى سرائرى فعرفت أننى أحبك . عرفت أن السنين التى توالت علىّ وأنا بقربك قد حشدت من الوجد فى قلبى ما يصدعه. من عرف ماضيه وما ترا كم فيه من الهيئات فهو على بينة من مستقبله ، وما كنت لأجهل ما فى نفسي ، فأدركت أن القضاء جعل حبي وقفاً عليك دون من فى الأرض من بنات حواء . قضى لى أن أحبك وقضى علىّ أن أحرمك . اضطهدنى الزمان فهربت منه وفزعت إلى العمل من الغرام . وإذا ضاق مجال العمل عن سلوانى هربت إلى الأسفار، إلى المنفى . سافرت منذ ثلاث سنوات إلى الشرق محاولا إغراق بلابلى فى بحر أنواره ، حملت عيني وقد انطبعت عليها صورتك لعل شعاع الآفاق فى أجل بلاد الله يمحو جمالك . ولكننى حاولت عبثاً وما أنا أعود إلى تلك البلاد مفترآ بشفائى ، ولكن المريض يتقلب على جنبيه وفى الجنبين مرض وآلام

إرين — قف عند حد الماضى ودع الحاضر فلن أتبعك إذا سرت على سبيله

ميشال — لقد وقفت حيث يجب الوقوف فلن أزيد كلمة على ما قلت

إرين — (بعد سكوت قصير) لا أفهم ما قلته عن الفرق بين عواطف الرجل وعواطف المرأة ، فهل للرجل أن يسلو بالابتعاد والهرب . أما أنا فأرى أول واجب على المحب ألا يهرب من محبوبه

ميشال — هل من برهان على قوة المحبة أشد من الهرب حين لا يجدى الاقتراب غير التألم والويلات ؟

إرين — أفلا ترى أن القيام بالواجب فى القرب أولى من السلوان فى النوى ؟ أتعلم أننى أعانى التضحية ولا تقدم عليها ؟

ميشال — ما كنت أعلم أنك تعانين التضحية لأقدم عليها

إرين — وأنا أيضاً ما عرفتها قبل اليوم

ميشال — وما الذى غيرك وكشف لك سريرتك يا إرين ؟

ارين — لقد طرحت نفسي نقابها؛ وها أنا ذى أراها متجلية أمامى بكل خفاياها وبكل خوفها من أن تفقدك يا ميشال

(تجلس إرين على كرسيها وتغطى وجهها بيديها وتستخرط فى البكاء

ارين — لقد تمودت أن أحسبك ملكا لى .. وهأنذى أشعر أنك قطعة من قلبى فكيف أنسلخ بدون أن أتقطع ألماً ؟

ميشال — عفوك يا إرين لقد آلمتك . وقد كنت أحسب الألم مكتوباً علىّ وحدى .

ارين — عدنى بأنك لن تسافر

ميشال — وماذا يحل بنا يا ترى لو بقيت بقربك؟

ارين — ليكن ما يكون . ليتزل المستقبل على بكل ويلاته . إننى أرضى بها ولكننى لا أحتمل بعادك . كن لى ملاكا حارساً يا ميشال. كن تعزيتى فى أحزانى . ليتك تعرف مقدار عذابي . لأنفلت بيدك نافذة الرجاء التى تذر أنوارها على لأول مرة فى حياتى . لنكن مفترقين مقترنين . دعنى أرك وأسمعك . لا تبتعد عنى ، فنبقى كالأخوين نقتسم نصيبنا من الدهر ولكل قسطه من عذابنا الواحد .

ميشال — أراك تتزين بقوتى يا إرين .

إرين — أرانى قوية أنا، لأننى أعتقد القوة فيك.

ميشال — أنت على ثقة من شرفى، ولهذا تجدينني

2017-11-11

أدفع من أن أخلط احترامى لك باحتقار مقامك . ولكنك لا تعلمين ما يمكن أن يحول فى قلبي من المواطف التى تلطخ أشرف نزعاتى بقربك .

إدين — لا أفهم ما تعنى

ميشال — لا تنسى أن بقربك رجلا هو سيدك وله الحق فى التمتع بك كما يشاء .

إدين — لست كريما يا ميشال

ميشال — بل لست حجراً ، فالغيرة تقتلنى قتلا

إدين — اسكت

ميشال — إننى إن أهرب فما هربى منك فالدنيا بكل مداها أضيق من أن تضع حاجزاً بينى وبين هذا الرجل الذى يسودك

إدين — (بعد سكوت طويل) لقد شعرت بما لك على . لا أقدر أن أكون لك فلن أكون لسواك

ميشال — أواه ... أتقسمين بالمحافظة على هذا العهد !

إدين — نعم أقسم إذا بقيت بقربى وشجعتنى وحيتنى ، فلسوف تقرأ كل يوم آيات الأمانة فى عينى . سوف أكون لنفسى

ميشال — (ياخذ يد إدين فيقبلها) تشكرك روحى من أعماقها يا إدين

إدين — عد إلىّ لأراك ، فقد رجعت اليوم إلى الحياة

ميشال — وأنا اليوم قد بعثت من عالم الأموات

(يخرج ميشال من باب الحديقة)

المشهد السابع

(بعد أن تشيع إدين حبيبها بنظرات الحب تعود فتستلقى على مقعدها ، ثم يفتح فرجان باب غرفته ويتقدم ببطء من إدين ويضع يده على المتكأ)

فرجان — أنائمة أنت ؟

الصيف خفيف هذا العام
لأن
شركة مصر للغـــزل والنسج
تقدم لكم المنسوجات القطنية
الخفيفة على اختلاف انواعها
معتدلة فى أثمانها جميلة فى ألوانها
فبادروا في اخذ طلباتكم

إرين — لقد أرعبتني

فرجان — ما كنت أقصد هذا ، وما كنت عارفاً أنك باقية في القاعة وقد انطفأت النار في الموقد . (ياخذ يدها بيده) إن يديك باردتان كالثلج

إرين — دعني

فرجان — ماذا طرأ عليك ؟

إرين — أريد أن أبقى منفردة

فرجان — أعاودك اضطراب أعصابك ؟

إرين — نعم

فرجان — إني أفضل أن تكون أعصابك في ثورتها ؛ فانك أجل ثائرة ، منك مستسلمة للأسى

إرين — أرجو أن تدعني وشأني

فرجان — لن أتركك

(يقدم فيطوق خصرها بذراعيه فتفلت منه وتتجه نحو باب غرفتها وفرجان يسير وراءها)

إرين — إنك تدوس أذيال ثوبي

فرجان — (ينحني على أذنها) أريد أن أوصلك إلى غرفتك

إرين — لا ، إنني لا أريد

فرجان — إسمعي

إرين — لا ، لن أسمع

(تدخل الغرفة وتوصد الباب في وجه فرجان فيبقى أمام الباب ينادي)

فرجان — إرين ... إرين ... إرين ... آه ، سوف ترى

الفصل الثاني

(يرتفع الستار عن الغرفة التي انكشف عنها في الفصل الأول غير أن المشهد يظهر في ضوء النهار بدلا من ظهوره على نور المصابيح)

المشهد الأول

(فرجان وإرين ، هو إلى خوان وأمامه كأس شاي يشربها ، وهي إلى الجهة المقابلة غارقة في مطالعة كتاب تحمله بيدها . يقف فرجان بغتة ويتقدم إلى إرين فيأخذ الكتاب من يدها ويغلقه)

فرجان — بالرغم مما أوصلتني إليه من الرغبة عن محادثتك ، لا أرى بداً من اطلاعك على أمور قررتها اضطراراً . لقد مضى الشهر وأنت تشكين الصداع واختلاج الأعصاب ، ويؤلمني أن تستسلمي لمثل هذه الأوصاب الوهمية وما خفيت عني أسبابها . غير أني سأنهز فرصة انتهاء أجل الايجار لترك هذا القصر والخروج بك من باريس . إن هواءها لا يضر بك على ما أرى ، فهل لك ما تقولينه في هذا الشأن ؟

إرين — لا

فرجان — لقد اخترت مسكنين في الضاحية لكل منهما حديقته ومناظره الرائعة ، وأبقيت لك حق الترجيح ، لأنك ستقيمين في البيت أكثر مما أقيم به أنا ، فإن أشغالي تضطرني إلى الحضور لباريس في كل يوم ، لذلك أرجو أن تقولي كلمتك في أقرب آن

إرين — (بهدوء) قلت لك أن لا حق لي في إبداء الرأي في أي أمر كان ، فأنا أعتبر اتحادنا مفصوماً ، وليس لنا أن نواجه المستقبل بنظرة واحدة فيما بعد . أنت تبغضني وأنا أبغضك

فرجان — وهل من سبب لهذا البغض المتبادل سواك ؟ لقد أحرجتني . غيري مسلكك أغير طريق

إرين — وهل أملك تغيير مسلكي معك ؟ إن ما أشعر به لا أقدر على مقاومته

فرجان — إنك الآن على غير ماعهدت من قبل

إدين — وهل كنت إلا ككل فتاة تتزوج مكرهة أحاول أن أخلق الحب خلقاً فى فؤادي فما أجدت محاولتى شيئاً ؟ لقد كنت ألقى حبك فريضة على قلبي كما يلقى الايمان كرهاً إلى الفكر دون اقتناع به فما استفدت غير الشقاء والآلام . أقسم بالله أنى لن أقدر أن أعتاد على حبك اعتياداً . لقد تفحصت أعماق قلبي فلماذا أخدعك وأخدع نفسى

فرجان — (وهو يتميز غيظا) إن كل كلمة خرجت من فمك إنما هى حنث بعهودك وتحقير لواجباتك

إدين — لتكن كلماتى ما تكون فانها صرخة مدوية فى أعماق روحى

فرجان — لا أفهم ما تقصدين

إدين — وأنا أيضاً لا أفهم ما تريد أنت

فرجان — ماذا ترجين يا ترى ؟

إدين — وأنت ما هى آمالك ؟

فرجان — أراك مجنونة ولكل داء دواء

إدين — إذا رأيتنى مجنونة فكن أنت عاقلا على الأقل

المشهد الثانى

(إدين ، فرجان ، بولين)

بولين — (تدخل بتلهف) يا لله . ماذا جرى ، أفلا يمكن أن تتفقا ؟

فرجان لبولين — سوف أركك معها لتتحقق أمرها وتعلمى إلى أين بلغ بها الجنون . دعيها تتكلم فان ما تقوله لا جواب عليه

المشهد الثالث

(إدين ، وبولين)

بولين — أفلا تزال أعصابك فى هياجها ؟

إدين — إنها ستزداد هياجاً من يوم إلى يوم ، ومن ساعة إلى ساعة . إن مثل هذه العلل لاشفاء لها

بولين — تذرعى بالصبر يا إدين

إدين — وعلام أصبر ؟ لقد سمعت أمس تهديده ، وها هوذا اليوم يعمل على تنفيذ أحكامه فقد أعلن لى أنه سيأخذنى من هنا . فهو يريد إلقائى فى سجن يكون هو السجان فيه

بولين — مسكينة يا إدين !

إدين — لقد وصلنا إلى حيث لا منفذ لنا إلا بالطلاق أو ...

بولين — أو ماذا ؟ ...

إدين — إلا الطلاق أو الموت .

بولين — بربك يا إدين اصمتى .

إدين — لقد قضى الأمر فكونى معى أو فكونى على .

بولين — وهل أكون معك فى مثل موقفك إلا إذا كنت عليك ؟ ماذا تشكين من هذا الرجل الذى ينحنى أمام إرادتك ؟ أفلا يكفيك منه أنه وهو زوجك لا يتمتع بحقوق الزوج منك ... أفلا ترينه يفضل الكثيرين ، فهو على الأقل لا يلجأ إلى إغضابك ، ولو كان سواه فى موقفه لما أحجم عن استعمال القوة لارغامك ...

إدين — اصمتى ، يا بولين ، على المرأة ألا تضحى بنفسها لأحد .

بولين — ولكن الواجب يقتضي هذه التضحية من كل امرأة فاضلة .

ارين — لا ، إنى أنكر العظمة والفضيلة على ضحية تنبت فى تربة الكره والاشمئزاز .

بولين — ان الدين يقضى عليك بهذه الطاعة .

ارين — لا ، يا بولين ، ان الدين الراسى على التضحية بكل مبادئه السامية ، لا يقضى بمثل هذه التضحية الراسية على تدنيس القلب . إذا كان إنكار الذات فضيلة فما تدنيس الذات إلا رذيلة لا تنحط عنها رذيلة فى الحياة . أفلا يعلمنا الدين أن الطهارة هى أقوى ما يتزلف به مخلوق إلى الله ؟ وهل من الطهارة أن تستسلم المرأة بلا حب لشهوات حيوان ؟ أهذا هو الزواج ؟ أيمكن أن يمسخ الانسان باسم الشريعة أقدس مافى الانسانية تكاثراً وكذباً ورياء؟ أيمكن للمرأة أن ترى فى رجل هادم حياتها ويرون قلبها ثم تقتسم معه عمرة الحياة والموت ؟ يالله من هذا الدنس! ويالله من هذا العار يلصقه الناس بروح الوجود ولا يخجلون !

بولين — أنت عاشقة يا ارين .

ارين — وما هو برهانك على ما تدعين ؟

بولين — ان البغض سلبى، أما المحبة فايجابية؛ ولا يتغوه الانسان بمثل ما تتفوهين به دون أن تحفزه قوة إيجابية مستقرة فى أعماق روحه .

ارين — هبى افتراضك صحيحاً أفلا ترين فى الحب قوة أشد من قوة البغض تهيب به إلى الخلاص؟

بولين — ولكن من يضمن وأنت على مثل هذا التمرد أنك لن تعاملى زوجك الثانى كما تعاملين زوجك الأول الآن ؟

ارين — لست أنا الآن تلك الفتاة التى تزوجت منذ عشر سنين ، هى غيرى تلك العروس التى اقتلعت من مقعد دروسها اقتلاعا لتطرح على سرير رجل مجهول . لقد صرت (أنا) الآن فأنا أعرف ما أريد وما لا أريد وما لا طاقة لى باحتماله . إن فى أعماق قوة تهيب بى للانعتاق أو للموت .

بولين — اسكتى بحق الله يا ارين . ويلاه كيف الخلاص ، وما العمل ؟

ارين — لقد آن أوان العمل . أنت زوجتى فعليك انقاذى الآن .

بولين — أنت إذا مصرة على عزمك .

إرين — وهل بامكانى أن أحول عنه ؟ إذهبى إلى زوجى وأعيدى عليه مالا يريد الاصغاء إليه .

بولين — ولكن للطلاق شروطا ، يا إرين ، ولا يمكن الحكم به دون أسباب مبررة ثابتة .

إرين — إذا توافقنا على الافتراق سهلت أمامنا الوسائل . إذهبى إليه وقولى له كل ما ترين من خطورة الحالة . إن هذا الرجل يخشاك ولا أراك إلا مدركة ما يجب عليك القيام به تلافيا لأشد الاخطار .

المشهد الرابع

(إرين ، بولين ، خادم)

الخادم — إن المسيو دافرنيه بالباب يستأذن فى الدخول

إرين — ليتفضل

المشهد الخامس

(إرين ، بولين)

بولين — أى حديث سيدور بينكما يا ترى؟ أهو عالم بما يجرى؟

إرين — لا، إنه لا يعرف شيئا

بولين — مسكينة أنت يا أختى .

(تقبل إرين بولين وتخرج)

2017-11-11

المشهد السادس
(إرين ، ميشال)

ميشال — أستسمحك العفو لأنني أتيت

إرين — لا عفو يا ميشال، وقد كنت في غنى عن الحضور الآن

ميشال — وعدتك أن أبتعد عنك ، وأقسمت ألا أقترب منك ، ولكنني تمثلتك معذبة فأشفقت على نفسي وعليك .

إرين — أفما تتوقع أن يدور القضاء دورته ونحن مفترقان ؟

ميشال — لقد صرت أحذر الآمال وأخاف الأماني .

إرين — لئن غبت عني فرسمك ماثل في فؤادي وأينما اتجهت بأنظاري أراك بجبينك الشاحب ينم عن مرض فيك تحتم عليّ شفاؤه

ميشال — وهل لمثل غرامي أن يشفى ؟

إرين — أريد محو ما ارتسم على وجهك من شقاء ، أريدك سعيدا تتذوق لذة الحياة يا ميشال .

ميشال — وهل لإرادتك أن تهدم ما بيننا من حوائل ؟

إرين — قل لي ، ياصديقي ، أفلا تراني وأنا غائبة عنك ماثلة أمامك كما أراك أنا ماثلا أبدا لعيناي

ميشال — أجل إنني أراك . أراك في غيبوبة فكري ، فتشاهدك بصيرتي بأجلى مما يشاهدك بصري ، وأشعر أنك لي دون أن يدنس عرضنا لؤم أو يحوم فوقنا ارتياب .

إرين — يا لله ما أشبه روحك بروحي ! فكأن تفكيري إمتداد لتفكيرك ، أو كأني شعلة منبثقة من نورك . كلانا مترفع عن الدنايا طامح إلى الحق الصريح

ميشال — أصحيح ما تقولين ؟

إرين — إصغ إليّ : إنني منذ زمان مديد أفكر في طريقة تجمع بيننا بلا لوم أمام الله والناس

ميشال — وكيف يكون هذا يا إرين ؟

إرين — إن القضاء يدور لنا أو علينا في هذه الساعة . إن أخي يخاطب زوجي في هذه اللحظة لتطالبه بحريتي

ميشال — وهل تؤملين النجاح في هذا المسعى ؟

إرين — لا أعتقد أن هذا الرجل سيتمسك بالبقاء معي في جحيم دائم الاضطرام

ميشال — ليتني أشاطرك الأمل يا إرين

إرين — عليك أن تسافر الآن إلى أن أعد العدة للخطوة الأخيرة

ميشال — أتقضين عليّ بالابتعاد عنك الآن

إرين — أطلب ابتعادك حتى تعود إليّ بعد سنة إذا أنا نجحت في مسعاي ، وإن أنا فشلت فجال الأرض رحب والأمر لله

ميشال — ويلاه !

إرين — إذا قضى علينا بفراق لا لقاء بعده ، فاننا نلبس الحداد على حياتنا ونبقى طاهرين أمام ضميرنا فتلك ومثلي لا يتخذان الخداع سبيلا لسعادة مكذوبة

ميشال — أنت حياتي يا إرين

إرين — إنني أواجه الحقيقة فلا أخادع نفسي

ميشال — ولكنني لن أطيق الفراق إلا على ذكرى وأمل ؛ فامنحيني من نور عينيك ويدي من حرارة يديك (يتقدم إليها بحركة ملؤها الجوى فتتراجع عنه)

إرين — لا تدخل الاضطراب إلى نفسي . لا تفقدني الثقة بذاتي . إياك أن تفسد إيماني بعزمة نفسي . إذا كان الدهر يقضي لنا في هذه الساعة ، فلا تلطخها بوصمة ضعف أندم عليه في أي زمان . دعني أنا خطيبتك يا ميشال

ميشال — أواه ، إنني أعبدك (يضع على جبينها قبلة) أنا خطيبتك المطيع لأمرك

إرين — لقد طالت زيارتك ، فاذهب الآن

ميشال — أأذهب دون أن أعلم ما قضى الله في أمرنا ؟

إرين — سأبلغك الحكم في حال صدوره

ميشال — ولكن من يضمن لي أنك ستتمتعين بحريتك بعد اليوم ؟ أفما تحاذرين أن يمنعك زوجك من الخروج وأن يراقبك فلا تتمكنين من الكتابة إليّ ؟

إرين — (تشير بيدها إلى الحديقة) أدخل إلى الحديقة وانتظر إلى أن نعلم ما تقدر لنا

(يتوارى ميشال في الحديقة)

المشهد السابع

(إرين ، بولين)

بولين — أذهب ميشال من هنا ؟ لقد خفت أن يدخل زوجك فيراه أو يلتقي به في البيت وهو على ما هو عليه من هياج فلا نأمن سوء العاقبة

إرين — هو يرفض إذن ؟

بولين — سوف تسمعين حكمه من فمه فهو آت

المشهد الثامن

(إرين ، بولين ، فرجان)

فرجان — أهذه هي المؤامرة الرائعة التي كنت تدبرينها مع أختك يا إرين

بولين — لم يكن من مؤامرة بيننا

فرجان لإرين — أهذا ما كانت تضمر كل آلامك العصبية ، لأجل التوصل إلى هذه الحجة كانت كل هذه المحاولات

إرين — أنت تعلم أنني ما اتخذت تجاهك مرة واحدة طريق الخداع والمداجاة فما أخفيت عنك تمردي . لقد أعلنت لك بكل صراحة أنني لا أحبك ! والآن أكرر القول بأنني مقت ذرعاً بك وبحالي ولا قبل لي بالاحتمال . أفما آن لنا أن نفك أغلالنا ونضع حداً لهذا العذاب ؟

فرجان — يا للغرابة أن تتنصبي أنت للمثلة ضلال القلب والتمرد على الشريعة والعفاف لتطلبي مني الوضوح لك أنا الممثل كرامة الأخلاق وقداسة العادات وشرف المجتمع وحق الشرع ؟

بولين — إسمع يا فرجان ، مالك وللاعتصام بالمبادئ والشرائع ، فما نحن نناقشك في مواد القانون

فرجان — وفيم تناقشينني إذاً ؟

بولين — لقد حاولت من جهتي أن أمنع البركان من الانفجار فلم أفلح

فرجان — أشكرك على هذه المحاولة

بولين — كن عادلا يا فرجان ، كن شفيقاً ، أتوسل إليك باسم محبتي لأختي واعتباري لك أن ترفع نفسك إلى أرقى مراتب العظمة

فرجان — لقد حسن لدى أن تتخذك أختك واسطة بيني وبينها في هذا الأمر ، وأنا أجد من حقي ألا يتوسط أحد بيننا فيما لا يعنى سوانا فالحديث سيكون إذاً بيني وبينها

إرين — لا ، يا بولين ، لا تذهبي ، لا تتركيني وحدي معه

فرجان — لا تخافي فلن أرفع يدي عليك

2017-11-11

وقد تتوقين إلى مثل هذه المعاملة الخشنة تتخذينها حجة علىّ ، إذهبي يا بولين ، فأنا صاحب الأمر هنا

بولين — لله ما أقساك

بولين — (تتقدم إلى إدين وتقبلها قائلة) اغفري لى عجزى فما ادخرت جهداً فى سبيل مرضاتك

المشهد التاسع

(إدين ، فرجان)

إدين — إلى أية دركة تريد قذفى يا فرجان ؟

فرجان — لا أقصد إلا إعادة رشدك إليك

إدين — لقد أبديت لك الأسباب التى توجب فراقنا ، فما هى الأسباب التى تدعوك إلى التمسك بأبعادنا ؟ لاحجة لك إلا إذا ادعيت العشق وتظاهرت بحب مكذوب

فرجان — ما أدعى أننى أحبك لأننى لا أحبك ، ولكن لى عليك دعوى القتيل على قاتله ، فأنت مزقت حياتى تمزيقا

إدين — إذاً أنت طالب انتقام ، أنت تقضى على بكفارة لا نهاية لآلامها

فرجان — إننى إن قصدت ذلك لا أكون إلا مستعيداً ذرة من حقوقى الضائعة . ولكننى لا أخرج ببرهانى من هذه المقدمة . لقد عقدنا يوم زواجنا اتفاقاً وكلانا بصحة العقل والجسد وهذا الاتفاق صحيح لا غبن فيه ولا تغرير وهو سالم من شائبة التزوير ، وبموجب هذا العقد أصبحت رجلا متزوجاً أى رجلا مزدوجاً أدبياً وماديًّا ، وقد ألقت من حسبتى بكل تكاليف العقد بلا تردد ولا مخالفة ، وأنت الآن تتقدمين بطلب على غاية من الغرابة ، فأنت تريدين أن أشطر شخصيتى إلى شطرين فأصبح مطلقاً ومطلَّقاً ، فأضطر إلى بيع نصف بيتى ونصف مفروشاته وأن أفرغ نصف كيسى ، ثم أذهب إلى المجتمع فلا أجد فيه غير نصف مقعد ونصف استقبال ، وكل هذا لأجل النزول عند إرادة أعصابك المختلجة ، ولأنك لا تجدين لذة فى عشرتى . والله إنها لأسباب مضحكة مبكية ، ولن تجدى رجلين فيهما مسكة من عقل يوافقانك عليها

إدين — أما أنا فانى أكره التظاهر بغير الحقيقة وأحتقر زواجاً يرسو على الخيانة والنفاق ، فانى حين أقول لك إن الزواج هو الشعور بالسعادة من توليد السعادة فى القرين لا أسمع منك غير كلمات الشرف والعهود المبرمة والاتفاقات المسجلة ، وكل ما هنالك من مضحكات ما أشبهها بالبكيات

فرجان — لقد أردت أن تدنى نفسك غريبة فى بيتى فاتخذت الوقاحة سبيلا للانشقاق عنى ، لذلك رأيت أن أعاملك المعاملة التى لا تستحقين سواها . إن بيدى اتفاقاً مسجلاً أقودك للرضوخ له بالرغم منك ، فأنا لا أشعر نحوك إلا بأمر واحد ، وهو حق عليك

إدين — فى الحياة حقوق وواجبات يا فرجان وأنا أحترم كل شريعة تؤمن الانسان على ماله ولا أبحث فيها ، ولكن الذى لا أفهمه بل أعترد عليه هو القانون الذى يجعل الانسان ملكا لانسان مثله ويحكم المخلوق بالمخلوق ما دام فيه نسمة حياة

فرجان — إنك تنكرين الزواج وهو يرسو على مبدأ احترام العقد وسيادته من تلاعب الأهواء

2017-11-1

إرين — لقد كان زمان هنا فى هـذه البلاد نفسها يمكن فيه لأحد الزوجين أن يحل الزواج بمجرد اختياره

فرجان — ومن قال لك هذا ؟

إرين — أحد المحامين

فرجان — وهل توصلت بالهوس إلى هذا الحد إلى استفتاء المحامين ؟

إرين — لقد كان ذلك فى أوائل القرن التاسع عشر ، حين كان المجتمع يفوق مدنية اليوم عظمة وتنظيما ، فما أطلب إذاً مايزعزع دعائم الكون. إن قرينا أبغض قرينه بالأمس ويبغضه اليوم ولن يحول عن بغضه غداً هو ذو حق صريح وعلى الشريعة أن تحميه . لقد كان من الواجب أن يحترم حق الانسان على نفسه لأنه يرسو على فطرة كل نظرية ترتد عنها خاسئة متحطمة. أى شئ أصدق من العاطفة وفى العاطفة كل الحياة ؟

فرجان — أحمد الله لأن شريعة هـذا العصر لا تجيز الطلاق حتى ولو طلبه الطرفان بالتراضى

ارين — وما هي حاجة الطرفين إلى الشريعة إذا اتفقا على الطلاق ؟ ان القانون لم يوضع لاقامة عدل قائم بنفسه ، ولكنه ضرورى لانصاف المظلوم وأخذ حقه من ظالمه وماذا يفيد تشريع لا يمنع النخاسة ويحطم الأغلال الجائرة ؟

فرجان — اتجهي إلى أى منفذ فالأبواب كلها موصدة فى وجهك .

ارين — لن أعدم مخرجا أنطلق منه .

فرجان — لا ، لن تجدى . أنا لم أرفع يدى لضربك يوماً ، ولم أقصر فى تقديم ما تحتاجين اليه . لست زانياً، ولم يصدر على حكم بجرم وما من سبب غير هذه الأسباب يمكنك أن تتقدى به أمام الحاكم ...

ارين — ولكنني أتمكن من جرك جراً إلى طلب الطلاق

فرجان — لن تستطيعي .

ارين — وإذا أنا أوقفتك موقفاً تتحرج أنت فيه؟

فرجان — ولا هذا يجديك نفعاً .

ارين — سوف ترى .

فرجان — وماذا أنت فاعلة يا ترى إذا أنا أوصدت عليك الأبواب كلها ؟

ارين — أترك السجن وأهرب .

فرجان — إذا فررت من مسكنك أرسل الجنود يقبضون عليك ويعيدونك اليه ...

إرين — وإذا قضيت أنا على نفسى وأصبحت امرأة لا يجوز لرجل شريف أن يبقيها عنده

فرجان — سوف أحرسك .. يلذ لى ألا أعيد حريتك إليك . أنا حاكك حتى الموت وفى هـذا الحكم كل لذتي . القانون فى جانبي ، فأنت فى يدي ولن تفلتى منها

إرين — ويلاه لقد منعت النخاسة فى جميع الأقطار وأبطلت التجارة بالبيد . لقد نقض العقل كل تعهد أبدى، ويمكن لمن نذر حياته لله أن يتحرر من نذوره ولا يمكن لامرأة أن تتحرر من عبوديتها لزوجها — أين الحرية فى العالم ولما تزل فيه قوانين

2017-11-11

تمنع الانسان أن يكون مالكا لنفسه، ونفسه عطية الله له .

فرجان — سوف تألفين هذه العبودية . لقد قلت لك إنى أعمل على شفائك ، فسوف نبارح باريس فيتسع لك المجال فى عزلتك لتدبر أمرك وتعديل مبادئك المتطرفة

إرين — أهذه هى كلمتك الأخيرة ؟

فرجان — الكلمة التى لا كلمة بعدها

إرين — (تضم يديها بحركة التوسل) لاتكون طاغياً ، ارحمنى ولا تدفعنى إلى المعاصى

فرجان — (يدفعها عنه) أرجوك أن تترفعى عن مثل الحركات الصبيانية إذ لافائدة منها . لقد مضى زمن العناد والثورة ، لقد قررت ما وجب اتخاذه من وسائل وما أقرره لا مرد له .

إرين — (ترتمى على قدميه) الرحمة .. الرحمة .. الرحمة ! أنقذنى ..

فرجان — إن إرادتى لا تتزعزع ، شددى نفسك واتبعى أوامرى ، ولسوف يأتى يوم تزول فيه سكرتك فتشكريننى لأننى صنتك من الضلال وقدت خطواتك على السبيل السوي .

(يخرج فرجان شامخا بأنفه من الباب المؤدى إلى غرفته)

المشهد العاشر

(إرين وحدها ثم يدخل ميشال)

(تسقط إرين على ركبتيها وهى مضمضة ثم تلوح على وجهها بغتة علامات التردد والعزم فتقف وتتجه نحو باب الحديقة وتفتحه مناديةً : ميشال)

ميشال — (يهرع إلى إرين) مالك ... ماذا جرى ؟

إرين — (ترتمى بين ذراعيه) أنت .. أنت .. ها أنا ذى بين يديك

« يتبع »

فيكتور فارس

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأعداد الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع البندقية — عابدين)

2017-11-11

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

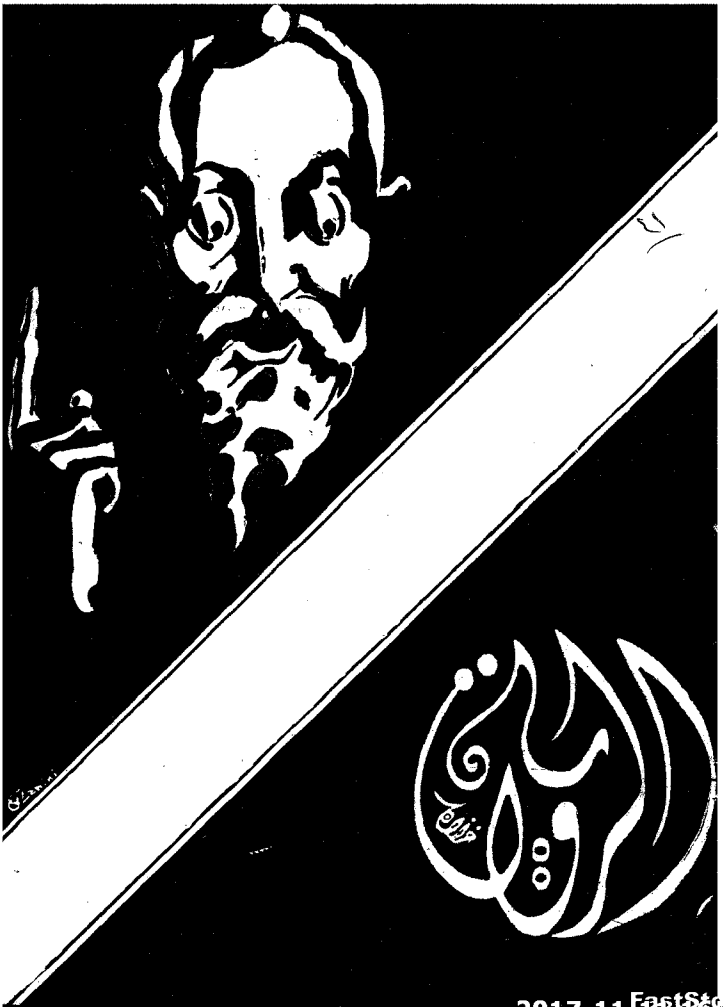
الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي فى النشء اساليب البلاغة العربية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل عشرون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وقيمة النسخة خمسة ٢٠ ٪



FastStone
2017-11

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر و فى نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ قرشاً فى مصر والسودان
٥٠ قرشاً فى الممالك الأخرى
١ قرش ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

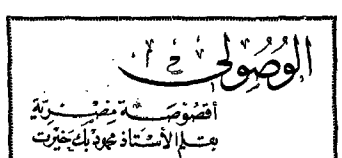
العدد ٤١ | ٧ شعبان سنة ١٣٥٧ — أول أكتوبر سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
٩٠٦	الوصولى	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود بك خيرت .. ...
٩١٤	فى جوف الليل	لشاعر الهند وفيلسوفها طاغور ...	بقلم السيد لطفى شهاب العيدى ..
٩٢١	زهرة الجبل	للكاتب الايطالى جيوفانى دى نانا .	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة .. ...
٩٣٠	اللص الثرثار	مترجمة عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...
٩٣٤	جنـــية البحر	للكاتب الفرنسى جول لمتر	بقلم الأديب السيد محمد الزواوى ..
٩٤٠	ســـارقة الأطفال	للكاتبين القصصيين إركمان وشاتريان	بقلم الأديب السيد صلاح الدين المنجد
٩٤٥	فنـــان	للكاتب الايطالى أدريانو زوكولى .	بقلم الأديب محمد حسنى .. ..
٩٥٣	الأغـــلال...	للكاتب الفرنسى بول هرفيو ...	بقلم الأستاذ فيلكس فارس .. ...

2017-11-1



بناحية (أبو النمرس) من قرى مديرية الجيزة رجل في العقد الرابع مديد القامة نحيف الجسم خفيف الشارب، وقدمات أبواه وهو صغير فشبّ يعمل أجيراً في أطيان الملاك كغيره من فقراء الفلاحين.

وكان هذا الرجل طموحا حسودا لا ينحدر إلى ركن غرفته المسقفة بسعف النخيل والقش قبل أن يفكر في أحوال هؤلاء المحظوظين الذين يستبدون الزراع في فلاحة أراضيهم وهم يقيمون في أحياء القاهرة هانئين معطمئنين فيتملكه الغيظ ويفيض صدره عليهم بالحفيظة

ينظر إلى تلك الغرفة المظلمة الرطبة فيذكر ما لهم من القصور والضياع، ويتناول طعامه البسيط الحقير فيتمثل لعينيه ما ينعمون به من ألوان الطعام الشهي. ولا ينتقل في الصباح المبكر إلى الحقل وهو بعيد عن حدود القرية حتى يخيل إليه أنه يرى غرباءهم الفخمة وخيولهم المطهمة تجرى بهم وهم غارقون في النعيم.

وهكذا يدب البغض في نفسه ويأخذ في النمو على تعاقب الأيام. وبخاصة كلما زار الناحية صاحب الأرض التي يعمل فيها وهو يصيح في رجاله وفيه: «يظهر أنك كسلان يارجل، فمن الخير أن تلتفت لعملك وإلا طردتك»

وعند ذلك يكب بفأسه على الأرض وهو يكظم غيظه ويلعن الأقدار التي حكمت هذا الرجل فيه، وقد أخذت النار تنفذ إلى جسمه، وشررها يتقد في عينيه، والفأس ترتج بين أصابعه المرتجفة حتى لتحدثه نفسه بأن يهوى بها على رأس الشيخ منع ذلك الملاك فيحطمها لولا بقية من رشد يذكر عندها ما هو فيه من مرارة اليتم والفاقة فيهدأ ثورته ويعود إلى عمله؛ حتى إذا ما انصرف الشيخ ألقى بفأسه على الأرض ساخطا وعاد إلى التفكير.

وكان ربحه من مزاولة الزراعة ضئيلا، فتركها وانخرط في سلك العمال الذين يشتغلون في تطهير الترع وتقوية الجسور. ثم عدل عن هذا أيضاً وفكر في أن يشترى مقدارا كافيا من التبغ يمر به على هؤلاء العمال وهو يتنقل في شتى البلدان التي يكثرون فيها بسبب مشروعات الري الجديدة، حتى اجتمع لديه من المال قدر لا بأس به، فحدثته نفسه أن يزاحم صغار المقاولين الذين يعهد إليهم في تنفيذ تلك المشروعات فنجح وأصبح في رغد نسبي من العيش. ولكن عطية (وقد اشتهر ببطية الجمحش) كان يطمع في أكثر من ذلك: في ضياع وقصور، وفي جاه يساعده على تحقيق أمانيه التي لا تقف عند حد والتي كان من أشباهها أن يقف يوما ما في وجه ذلك الشيخ ليسعى معه حساب ذلك الماضي القاسي.

وإذا كان عطية قد تعلم مبادىء الكتابة والقراءة وحفظ القرآن وقد وفق إلى جمع هذه الثروة فان كل ذلك لم يغير من أخلاقه التي انبعثت من الشر واتجهت للشر؛ وما كان أبوه إلا لصاً خطيراً، ولا أمه إلا امرأة سليطة اللسان شريرة. حتى إن

2017-11-11

عمه السرى تبرأ منه كما تبرأ فيما مضى منها فكان من الذين حلت عليهم لعنته واستوجبوا حقده

واتفق أن هذا الرجل الكريم كان ذات ليلة عائداً إلى داره فشعر فى جنح الظلام بمدية تنوص فى عنقه وفى صدره تخر صريعاً . وقد أقام هذا الحادث رجال الحفظ وأقعدهم ، وبالرغم من مثورهم فوق جانب من سور الحديقة على أثر كف ملوثة بالدم فانهم لم يهتدوا إلى القاتل ولا الى تلك المدية . وقد رأوا أخيراً أن وقوع هذه الجريمة كان لمجرد الانتقام فاتجه خاطرهم إلى عطية الجحش لأنه ابن أخيه وابن أبيه ... وقد قوى هذه القرينة اختفاؤه من ابوالعرس منقط رأسه، فحكم عليه بالاعدام غيابياً. ويظهر أن القتيل كان قلقاً قبل وقوع هذا الحادث، وأحس دنو أجله فأقام الشيخ متاع صديقه وصياً مختاراً على ولده صادق . وهكذا انتقل قصره وأملاكه التي فى أبو العرس إلى يد الشيخ فقام على إدارتها وعنى بتربية الناصر ، حتى إذا حصل على شهادتى الدراسة الابتدائية والثانوية — كما حصلت عليها وسيمة كريمته — أوفده إلى احدى جامعات التجارة بسويسرا، كما خصص لها أساتذة يحاضرونها فى الدار لإتمام ثقافتها

أما صادق ففتى صبوح الوجه حلو الشمائل، كما أن وسيمة فتاة جذابة رشيقة الحركات ، فكان من ذلك ومن ظروف اجتماعهما تحت سقف واحد أن وقعت من نفسه كما وقع من نفسها . وساعد على نمو هذه العاطفة الطبيعية ما سبق فى نية أبيها من أن يزوجه منها إكراما لذكرى ذلك الصديق

وهكذا كانا يتكاتبان فى رسائل تفيض تارة بالحب وتارة بأحوال المجتمع أو الزواج وما تطور اليه فى العصر الحاضر، تعد من أسمى النماذج فى مثل هذه البحوث . ويتلخص رأيها فى الزواج فى كتاب قيم من بين ما كانت ترسل اليه به :

القاهرة فى ٢ فبراير سنة ١٩١١

عزيزى صادق

تسلمت كتابك فخيب إلى المقام فى تلك البلاد العجيبة بجبالها الشاهقة البيضاء مما جعلنى أقبعك على اجتلاء مناظرها الساحرة . وكم كان لشرحك مشاهد المتزحلقين والمتزحلقات فوق الثلج من الأثر فى نفسى حتى خيل إلىّ أن أمّ بالطيران نحو هذه الربوع لتشترك عيناى فى الاستمتاع بها مع عينيك الجميلتين .

وكم سرنى أيضا إقبالك على الدرس وأنت تشيد بطلاوة الموضوعات التى تتلقاها كما سرنى أنك من رأيى فيما أوجزته لك عن الزواج فى العهد الحالى .

والواقع أن حجر الزاوية فى الزواج السعيد هو الحب المتبادل بين الزوجين لأنهما متى امتزجت روحاهما توحّدت مصالحهما وامتنعت من بينهما أسباب الشحناء والقلق . ومثل هذا الحب يقتضى اختلاطاً بين الجنسين، حتى إذا كانت فى طبيعة كل منهما جاذبية نحو الآخر كاملة ظهرت وتمت . نعم إن آباءنا وأمهاتنا فى عهد الحجاب كانوا يمقتون مثل هذا الاختلاط وينفرون منه ، ولكن الواقع أن الرجل فى ذلك العهد ما كانت لتقع عيناه إلا على زوجه . وكذلك المرأة ، فكانت علاقة الحب تنشأ بينهما بحكم هذه الصلة الضيقة واستمرارها . وكان يساعد على ذلك ما كان الناس عليه من كرم الخلق وإنكار الذات . فكان للزواج قديماً طابع روحى شفاف لا يتأثر بمغريات المادة . أما فى عصرنا الحاضر

فقد قام منها سد منيع بين العيون والنور فلم يعد الزواج إلا سفقة بين طرفين لا يجمعهما ذلك الرباط المعنوى المتجانس وإنما هو رباط من المصلحة فى صورها المختلفة من مال أو جاه أو غيرهما . وهكذا يبيع الفتى شبابه لمن هى أكبر منه سناً ليعيش عالة عليها . وتسلم الفتاة فى نفسها لا لشىء إلا لإشباع أهوائها ومطامعها . وكل ذلك تحت ستار من الشريعة التى ما كانت حمايتها لغير ما يتفق مع النواميس الطبيعية

وعندى أن الفتاة التى تسقط لإطعام طفلها الجائع أو مساعدة أمها المحرمة البائسة لأكرم ألف مرة من تلك العذراء التى لا ترتق إلى سرير الزوجية إلا لتناول المال الذى فوقه لترضى به شهوات زينتها وجنونها . ولذلك فكل علاقة تتم على أساس بعيد عن تلك النواميس ، ولا تقوم إلا على غاية مادية أو مطمع يدفع إليه حب الذات ، ليست فى نظرى إلا دعارة فى أوسع معانيها وإن اختفت عنا حقيقتها تحت غلاف من عقد رسمى على يد مأذون

وكثيراً ما يتعدى هذا الاستهتار أشخاص المتزوجين إلى آبائهم وأمهاتهم فيضحون بهم على هياكل أغراضهم كأنهم من بعض السلع التى يتجرون بها لا يهمهم من أمرها أن يكون المشترى لها شيخاً أو شاباً . ولذلك أصبحنا اليوم أمام أزمة خطيرة قامت حائلا دون تحقيق الغاية المشروعة من الزواج وهى أن يكون طرفاه شريكين متضامنين لمواجهة أعباء الحياة

وما دمنا على هذا الاعتبار من الغفلة فى الصور المجردة النباهى، ومن سوء التدبير فى اختيار الشريك الصالح، ومن البعد عن الروح الحقيقية التى لا يترعرع الزواج إلا بها — ما دمنا لا نتزحزح عن هذا الأساس فقل على الأسرة السلام

(وسيمة)

وقد بلغ من حب الشيخ لابنته أنه كان لا يتعرض لحريتها فى الكتابة إلى خطيبها على أى نحو تراه وهو يعلمها مثقفة عاقلة وزينة حتى كانت دائماً البادئة فى عرض ما تكتب عليه . وكم كان يلتذ للموضوعات التى تخوضها والأسلوب الذى تصوغها فيه . وكثيراً ما كان يناقشها وتناقشه وهى تعترف بخطئها إذا رأته على حق ولكنها ما كانت لترميه بالخطأ إذا ابتعد عن الصواب ، فيدرك هذا الأدب منها وهو ينظر إليها فى حنان ورفق معجباً بشعورها معتزاً بها

وكان الشيخ قد جاوز الستين وهو نحيل يشعر بالضعف فأقعده الروماتزم الذى أصابه عن الحركة وأعجزه عن الاستمرار فى إدارة مزارعه ومزارع صديقه حتى زارهذات ليلة رجل كان قد تعرف به فى بعض مجالس جيرانه اسمه عبد الرازق بك ناصر فى العقد الخامس من عمره ، ولكنه قوى تدل ملامحه على الختل والشراسة ، إلا أنهما كانتا تختفيان وراء حديثه اللطيف أو المتكلف وبين حبات المسبحة التى كان لا يفتأ يحركها بين أصابعه

وكان الشيخ مناع يملك فى أبو النمرس حوالى مائة وخمسين فداناً جيدة التربة، ومثلها لصديقه، إلا أنها ارتفعت إلى مائتين بعد أن باع الشيخ منزله الذى لم تعد لصادق حاجة به لبعده عنه فعرض عليه هذا الزائر أن يستأجرها جميعاً . وكانت فرصة سانحة فلم يتردد الشيخ فى إجابة هذا الطلب ، وقد قبل الرجل الشروط التى عرضها والقيمة التى قدرها كما

2017-11-11

أنه أبدى استعداده لدفع نصف إيجار المدة كلها معجلا. وهكذا عاد إليه فى اليوم الثانى ومعه صورتان من العقد، أخذ يتلوه عليه حتى إذا انتهى وقعا عليهما واحتفظ الشيخ باحداهما أودعها خزانته

وبحكم هذه الصلة الجديدة كان عبد الرازق بك يزور الشيخ من وقت لآخر. وكثيراً ما كان يلتقى وسيمة وهى تطالع كتاباً أو تهيئ رسالة أو تشتغل بالابرة فى زركشة، فيحادثها ويحييه ولكن بغير أن ترفع عينيها فيه لأنها كانت إذا نظرت إليه تولاها الفزع وشمرت بالخوف . وحاجباه الكثيفان يرتفعان وينخفضان كلما تقلصت عضلات جبينه عندما يتكلم حتى لكأنهما من بعض تلك الكتل الحديدية التى يستعين بها الرياضيون فى حركاتهم البدنية . وتحت كل حاجب منهما حفرة غائرة استقرت عند قاعها إحدى عينيه الصغيرتين وهما تبرزان وتختفيان وتتسع حدقتاها وتضيقان بتأثير الحديث كأنهما عدستا جهاز تصوير شمسى تتحركان بتأثير ما ينمر المرئيات من الظلمة أو النور . وكان إذا ضحك انفرجت شفتاه الغليظتان عن أسنان صفراء برز من بينها نابان كنابى الذئب . وفى تموجات ضحكه ما يشبه قرقرة الماء فى قدينة « النرجيلة » أو هدير الأمواج وهى ترتطم بجوانب خليج ضيق

وكان إذا يئس من تلطفها معه ساد سكوت طويل يتناول فى خلاله هذه الفتاة الخلابة الثقيفة المتمالية التى تجرح دائماً عزته بسلوكها هذا معه ، وهو رجل غنى جميل المهندام فى ثوبه الأفرنكى ، وساعته الذهبية وحذائه اللامع ورباط رقبته الحريرى وهو يتموج حول دبوس من اللؤلؤ الثمين رشقه فيه وكان قد علم بحكم اختلاطه بأبيها بالصلة التى بينها وبين خطيبها — فتنور نفسه . ويتمنى لو أنها فى يوم من الأيام تكون له فينزلها عن كبريائها ويخضعها لسلطانه .

وكانت هى أيضاً فى خلال هذا السكوت تحلل هذا الخلق الغريب الكريه الذى ينم ظاهره عن باطن غامض خبيث . ثم تحدث نفسها كيف يطمع مثل هذا الرجل فى أن يكون يوماً ما زوجاً . بل من هى تلك الفتاة التى تقبل أن تدفن شبابها بين ساعديه إلا إذا كانت على شاكلته : والطيبون للطيبات ، والخبيثون للخبيثات

أما صادق الذى كان قد انتهى من دراسته فقد اضطر إلى البقاء فى سويسرا نظراً لقيام الحرب العالمية الماشية. وكانت مدة الايجار قد انتهت فانقطع المستأجر عن زيارته ، وحمدت وسيمة الله على هذه الفرصة التى من شأنها أن تنقطع صلته بأبيها

وكانت كتب صادق قد انقطعت عن وسيمة فأرجعت ذلك إلى صعوبة المواصلات بسبب الحرب العامة . ولكن كم كانت دهشتها حين وصل إليها كتاب منه يشكو فيه ما حل به من الضيق ويلمن هذه الحرب التى كانت سبباً فى عدم وصول نقود إليه ... حتى باع ساعته وخاتمه وبعض ملابسه وكتبه ليحفظ بثمنها القليل رمقه ...

ولكن الشيخ من عهد انتهاء العقد احتجب فى غرفته وظهرت عليه آثار الهم وبواعث التفكير. ولقد كانت وسيمة فيما مضى إذا أقبلت عليه هش لها وأنس بها فأصبح إذا وقع نظره عليها اضطرب وأخذ يحدثها وصوابه بعيد ونظراته سائحة ضالة . وهو مع ذلك يحاول أن يظهر أمامها فى مظهره الطبيعى ، ولكن تكلفه ما كان ليخفى عليها وهى

2017-11-11

حيرى لا تفهم سبب هذا التغير الذى طرأ عليه

على أنها لم يفتها أن تكشف سر آلامه بأسلوب غير محسوس ، إلا أنه كان يتملل بالرفض وبشواغل الدنيا ؛ فاذا ما سألته عن هذه الشواغل عاد فنفاها وهو يتململ ويرسل اليها نظرات دامعة كأنه يتوسل بها عندها لتكف عن تعذيبه .

وعند ذلك رأت أن تلجأ إلى الجانب اللين وهو أنها ولكنها ما كادت تخاطبها فى شأن أبيها حتى انهمرت دموعها وخنقها البكاء

— لاتلحى يا ابنتى فتعجلى الأيام الباقية له بعد تلك الصدمة التى أصابته

— أية صدمة يا أمى ؟ وكيف لم أعلم بها ؟ تكلمى بالله . إن هذه الصدمة إذا كانت تتناولنى أنا أيضاً فقد أصبح من حق أن أقف عليها . وإذا كانت تقتصر عليه وحده فإن لى هذا الحق أيضاً لأنه أبى ...

— إن ذلك المستأجر الذى تعهدينه خاطبه فى شأنك

— فى شأنى أنا ؟ تريدين أنه يسعى للزواج منى ؟ ان أبى لن يقبل ذلك . على انى لاأرى فى ذلك مايدعو إلى هذا الهم الذى أصبح فيه . فلم لم يصدق فى وجهه ولم لم يطرده ؟

— هيهات ياوسيمة

— هيهات ؟ إذن وراء هذا الطلب ماهو أمر منه

— لقد انخدع أبوك بمظهر هذا الرجل بل هذا الشيطان . ولعلك تذكرين أن عقد الايجار كان لثلاث سنوات، فهذا العقد لم يتجدد لانتهائها، ولكن لأن ذلك الرجل جعله عقد بيع وبسلامة نية أبيك اكتفى بأن يتلوه عليه ثم احتفظ بصورته من غير أن يطلع عليها .

— وهكذا ...

— وهكذا لم يكن تعجيله لنصف الايجار وموافقته على كل شروط أبيك إلا ليوهمه بمقدرته من جهة، وليلهيه عن حقيقة مايبتغيه من جهة أخرى. وهكذا سجل العقد وانتقل إلى اسمه التكليف فأصبح المالك بغير منازع . ولو أن ما وقع اقتصر على ما كنا لهان الأمر ولكنه تناول أطيان ذلك الفتى المسكين . وقد لوح هذا المجرم لأبيك بأن المجلس الحسبى قد يقف على مثل هذا التصرف فيقع تحت طائلة المسئولية وتصبح سمعته مضغة فى أفواه الناس . ولعله بهذا التلويح كان يحاول الضغط عليه ليقبل ماطلبه بشأنك . ولكنه رفض .

وعند ذلك انحدرت مدامعها وقد أكبرت هذا الأب الرحيم الذى عز عليه أن يبيعها بالرغم من هذا الذى أصبح فيه . وقد أدركت أيضاً سر انقطاع النقود عن خطيبها كما أدركت خطر الهاوية التى أصبحوا جميعاً عند حافتها فمزمت على مواجهة أبيها، ولكنها أسرعت قبل ذلك فباعت ماكان لها من حلى وأضافت إلى ثمنه ماكانت قد اقتصدته ثم أرسلت بذلك كله إلى صادق وهى توسيه بالاقتصاد فى مثل ذلك الوقت الذى ارتفعت فيه أثمان الحاجات وأصبحت الأطيان يكاد إيرادها لايكفى إلا لمصاريفها وماعليها من الأموال . وبعدذلك اندفعت إلى غرفة أبيها

— أنت هنا ياوسيمة ؟

— نعم يا أبى

— لقد ساءت صحتى؟ وكم أتمنى لو أن ساعتى تحين فاستريح من هذا العذاب

— بل تعيش يا أبى . وستنجلى هذه الغمرة

إن شاء الله . ولكني أطلب اليك شيئاً أرجو ألا يغضبك

— وما هو يا ابنتي ؟

— أن تجيب ذلك الرجل إلى ما طلبه منك بشأني

— أنا يوسيمة ؟

— نعم .

— ومن العجيب أنك أنت التي تطلبين ذلك . فلمَ ؟

— لأنتقم

* * *

لم تقدم وسيمة على هذه التضحية إلا لتصون أولا سمعة أبيها التي تهددها المستأجر بذلك التلويح، لأنه بحكم هذه الصلة لا يجرؤ على تنبيه المجلس ولو من طريق غير مباشر . ولكن تبقى بعد ذلك أطيان صادق التي يجب أن تعود له وما كان له يد في ضياعها . هذا ما فكرت في توجيه جهودها إليه بعد أن تفرض سلطانها على هذا الغاصب الباغي الحقير

ومن غير شك أن سروره بتمام هذا الزواج كان بشيراً بوقوف الحظ إلى جانبه وقد امتلأت يده من تلك الفتاة الجميلة الجموح وأصبح سيد أبو النمرس بتلك الأطيان الواسعة وبما له من ثروته الخاصة

ولكنه مع ذلك يذكر ما بينها وبينها من التفاوت في السن ، وأنها كانت مخطوبة في ربيع الصبا ونضرة الشباب، فكان مجرد تسرب تلك الذكرى إلى خاطره يزعجه ويكدر عليه صفوه . نعم إنه قطع خط الرجوع على تلك العلاقة بعقد زواجه منها . ولكنه كان يريد أيضاً أن تقساها هي وأن ينصرف قلبها إليه وحده ، فاشترى لها حلياً ثمينة ونفحها مبلغاً من المال وفيراً كهدية رأى من الواجب أن يتقدم إليها بها على أثر ذلك العقد

إلا أنه بعد كل هذا يعود فيشعر بالفارق بينها وبينه من حيث الثقافة وكرم المنبت ، فكان كلما هم بالتحدث إليها في شأن الغرض من هذا الزواج ينحل عزمه ويقف لسانه في فمه . وهكذا مرّ شهر واثنان . حتى إذا ضاقت نفسه أمسك بأطراف شجاعته ولمّح لها بغرضه ؛ فأرسلت ضحكة ساخرة ساخرة وهي تقول : لمَ هذه العجلة وقد أصبحت لك ؟ ولكن الذي تطلبه أدعى إلى الصبر والتمهل حتى أروض نفسي عليك فتمتزج وتأتلف . أما قبل ذلك فلا يكون الزواج إلا معنى واحد هو الاغتصاب ولا أظن أن نفسك الرقيقة ... ترضاه

وعند ذلك يغلب عليه الخجل ويتقهقر . وقد خيل إليه مع ذلك أنها بدأت تجاهد نفسها لتنسى ذلك الذي كان أحق بها منه . وهكذا مر شهران آخران ...

وكانت أم صادق على أثر وفاة زوجها تقيم في دار الشيخ وهي لا تجهل ما بين ابنته ووالدها من الصلة، وأن النية كانت متجهة إلى زواجها منه؛ فلما رضي لها أبوها غيره انكسرت نفسها وغلب الحزن عليها وهي شيخة مضمضة فقضت نحبها . وكان في ذلك فسحة جديدة تحول بين عبد الرازق بك المتحرّق وبين أمنيته

ولكن وسيمة في خلال ليالي المأتم طرق أذنها همس بين بعض الزائرات عن ذلك الزوج الذي صارح أباها بأنه لم يسبق له زواج مع أنه تزوج من اثنتين على التعاقب ماتت إحداهما مسمومة والأخرى محروقة. وعند ذلك اضطربت نفسها واسودت الدنيا

2017-11-11

فى عينيها ، لأنهما إما أن تكونا آثرتا الموت على شراسة هذا الرجل؛ وإما أن يكون هو الذي قضى عليهما . وليس مثل هذا يميد عليه وهو الذى ماتت نفسه فدس إلى أبيها ذلك العقد المزور

ولكن الذى شغل بالها وأفزعها أنها ربما كان لها عنده مثل هذا النصيب أيضا. وعندذلك تفكر فى العودة إلى حجر أبيها ثم تسى فى الطلاق على أية صورة . إلا أنها تعود فتصطدم بذلك الغرض الذى نحت بنفسها من أجله وهى لو فعلت ذلك لقضت على كل ما هيأت نفسها له ومهدت لهذا الوحش سبيل الخروج ظافرا بما حصل عليه دون جزاء . فشد ذلك من عزمها وضاعف شهوة الانتقام فيها وقد أصبح عليها أن تنتقم لا لأبيها وحبيبها فحسب ولكن لبنات جنسها أيضا .

لذلك رأت من حسن الرأى أن تأخذه باللطف والحيلة لتكشف حقيقته ، فلما عادت إلى داره وأثر الحزن بادٍ فى عينيها هشت له فغمره السرور ولمس فى ذلك دليلا جديدا على تقدمها فى طريق نسيان غريمه .

وتشاء المقادير أن يسافر لشأن من الشؤون وكان قد نسى سلسلة مفاتيحه ومن بينها مفتاح مكتبة فأسرعت تفتش فى أدراجه حتى وقع نظرها على حزمة من خطابات مرسلة من بعض المقاولين بعنوان « عطية الجعش » وكانت تعلم أن هذا الرجل هو الذى حكم عليه لقتله والد حبيبها . فما الذى جعل هذه الرسائل تستقر فى هذا المكتب ؟ وما هى العلاقة التى تربط زوجها بهذا الرجل ؟ وبينما هى فى سبيل جرد ما بقى من تلك الرسائل وجدت أن إحداها خطاب مرسل من نفس ذلك القاتل وفى أسفله الرد عليه . وعند ذلك انتفضت مذعورة وكأنما استيقظت من حلم مزعج عنيف . لأنها رأت أن خط الخطاب لا يفترق فى شىء عن خط زوجها . إذن لم يكن ذلك القاتل غير هذا الذى تسكن معه وحدها فى تلك الدار .

وقد وجدت أيضاً فى درج آخر مدية ذات حدين ملوثة بدم متجمد فكاد يغشى عليها وقد ارتجف جسمها وزاغ بصرها ولكنها تمالكت نفسها وأعادت كل شىء إلى مكانه وتلك السلسلة حيث وجدتها .

وكانت فترة الأربعين قد انقضت ، وسيعود من سفره فى مساء الغد ، وهو لا بد سيكرهها على تنفيذ ما يطلب منها بعد أن صبر عليها وفرغ صبره، فلم تر إلا أن توقف مأمور القسم القريب على كل ما اهتدت إلى كشفه

ولقد وقع الذى حسبته، فإنها ما كادت تستقبل زوجها حتى ضمها إلى صدره وهو يقول : هذه المرة لن يقبل منك أى عذر. فحسبى تلك الشهور الطوال التى حالت بينك وبينى . تعالى يا حبيبتى. ثم جلس إلى جانبها فوق منضدة بالغرفة ، ولكنها ابتعدت عنه فاقترب هو منها قائلا :

يظهر أنك لازلت تفكرين فى ذلك الأبله الذى قطعت عليه سبيل كل أمل فيك . ثم لم لا يستمتع الكهول كالشبان بحسنات الحياة ؟ ومع ذلك فهل يظهر شبابك النفس إلا إلى جانب شيخوختى . أو يبدو رونق شعرك الفاحم إلا إذا جاوره هذا الشعر الأبيض الذى يكلل رأسى ؟ اعلمى يا وسيمة

2017-11-11

أن أنفاسك العاطرة هي كنزي الذي يعيد إلى حرارة الحياة ، وأن سحر عينيك ليبعث في عينيّ الذابلتين القوة والنور من جديد . فلم تقفين بيني وبين هذه السعادة ؟ تعالي يا حبيبتي . اقتربي مني

ولكنها مع ذلك ازدادت بعداً ثم التفتت تسأله :

— قل لي أولا أصحيح أنك لم تتزوج من قبلي ؟

— لقد صارحت أباك بهذا

— ولكن الناس يقولون إنك تزوجت من قبل باثنتين

— كاذبون . وحتى لو صح هذا فماذا فيه ؟

— ولكنهم يقولون أيضاً إن إحداهما ماتت مسمومة والأخرى محترقة

— ليكن كل هذا . ولكن اعلمي أن الحياة مرحلة قصيرة يجب أن نجتازها من طريق المال والجاه والحب . وقد يخدع الأغبياء مظاهر التقوى بالأساريرالتي تشقّ جبيني . وبهذه المسبحة التي تحرك حباتها أصابعي . وما كانت الأولى إلا سطور دعائي وتدبيري ، ولا الثانية إلا الحبل الذي أشد به على عنق كل من يقف في طريقي . وإذا كنت قد تزوجت باثنتين قصدتا نحبهما على الصورة التي ذكرت فليس لأحد كان حساب بشأنهما عندي

— وعذاب الضمير ؟

— ها . ها . وهل تريدين أن يكون لمن يسعى إلى مباهج الحياة ضمير ؟ لم تكن الحياة في أي عصر إلا شلة تسعرها المصلحة ويذكيها حب النفس . فلا تظني أن رجل اليوم تثير عن رجل الماضي فكلاهما واحد في البطش وان اختلفت وسائل كل منهما

— وشرف النفس ؟

— لانصيب لها منه ولا من الوجدان والرحمة وهذه الخرافات التي ينكرها كل من يريد أن يحيا . ولقد كان رجل القرون الغابرة اذا نازل خصمه ترك له السبق في الطعن ولو مات مدفوعا إلى ذلك بفروسية ذهب زمنها . وكان قرني اذا صرعني ندم وبكاني . أما اليوم فقد يقتلني في الصباح وفي المساء ويقبل على الطعام والشراب والنساء كأن ماجرى لم يكن : هذه هي شريعة العصر الحاضر عصر المادة . وأخيراً ، فما دمت زوجتي فلا مناص لك مني

— بالقوة ؟

— بكل الوسائل . والآن لا أطلب عندك إلا كلمة واحدة نعم أولا .

— لا

— ولكني لازلت أحتفظ بمدية غير بكر ... لأنها جربت كيف يكون مصرع كل من يتحداها فخذي حذرك واعلمي أني قادر على أن أغيبها في صدرك فألحقك بثنيك الراحلتين وإلا لا أكن أنا عبد الرازق بك ناصر ...

— أو عطية الجحش

— ماذا ؟ أوقفت على هذا أيضا ؟ إذن فلتذهبي في أثرها .

وعند ذلك انطلق إلى غرفة مكتبه فخرج رجال الشرطة من مكامنهم . حتى إذا عاد والمدية في يده أحاطوا به

وهكذا نفّذ حكم الاعدام وانتصر الحق .

محمود فهيم .

(٢)

فى جوف الليل

للشاعر الهندى الفيلسوف " طاغور "
بقلم السيد فخرى شهاب المبيدى

« دكتور ... دكتور »

استيقظت من نومى العميق فى جوف الليل فزعاً مذعوراً ، فاذا أميرنا « دوخين بابو » ... فقدمت له كرسياً باليا أجلسته عليه ، ونظرت إلى وجهه فى شىء من القلق والاهتمام ... ثم ألقيت على الساعة نظرة فاذا هى قد جاوزت منتصف الثالثة صباحاً .

قال « دوخين بابو » وقد علا وجهه شحوب ظاهر ، وانسمت عيناه :

— « إن أعراض المرض قد عادت إلىّ ، ودواؤك ذاك لم يغدنى فى قليل ولا كثير »

فأجبته فى استحياء :

— « أخشى أن تكون عدت إلى الشرب مرة أخرى »

فقال وقد بدا غضبه :

— « لقد أخطأت خطأ فاحشاً ... فليس هو الشراب ... بل عليك أن تسمع القصة كاملة لتفهم الأسباب الحقيقية »

وأدرت السراج الذى كان يتقد فى المشكاة شاحباً باعثاً فازداد ضوؤه قليلا وتصالى منه الدخان؛ ثم أسبلت ردائى على كتفى وجلست على صندوق أستمع قصة « دوخين بابو »

قال :

— «من نحو أربع سنين تمضّت أصبت بمرض خطير كاد أن يودى بحياتى؛ ثم أبلت من مرضى بعد أن اشتدت على وطأته وقرب ما بينى وبين الموت، فاسترجعت صحتى كاملة فى شهر أو بعض شهر . . .

« وكانت زوجتى — خلال ذلك — لا تعرف للراحة معنى فى لحظة من لحظات الليل أو النهار ، حتى لكأنها كانت تدافع رسل الموت عن الاقتراب من الباب ! ودام ذلك منها لا تطعم شيئاً ولا تأخذها سنة من الكرى ، ولا تفكر فى شىء سواى

«وكان الموت كمنمر خُدِع عن فريسته استلت من بين فكيه فغيبت عنه .. فلما غُلب هذا الغَلَب ، أصاب زوجتى بضربة قوية من براثنه ، فاذا هى بعد قليل تضع طفلا ميتاً ، وإذا دور عنايتى بها قد حلّ »

قال: «ولكن ذلك كان يسوؤها، فتصرخ قائلة:

— « إبتعدوا بضوضائكم عن غرفتى هذه ابتغاء مرضات الله ... »

« . . كان يزعجها كل شىء ؛ فلو ذهبت إلى غرفتها فى الليل وقد اشتدت عليها الحمى فأحرك المروحة لأروحها وكأنى أروح نفسى بها ، تتنبه منزعجة . .

«ولو أخرت موعد طعامى من أجلها يكون ذلك مدعاة لتوسلات واستعطافات ترفعها إلىّ ..

« ... ولو ذهبت لآقدم لها أبسط ما أستطيع من أمر خدمتها ، جزاء ما صنعت بى ، يكون لذلك فى نفسها أسوأ الوقع ، فتصرخ قائلة :

« ليس للرجل أن يمنح كل هذا الضجيج ! »

« أظنك رأيت حديقة دارى حيث ينبسط أمامها نهر الكنج ... وهناك فى ناحية الشمال كانت تقوم غرفة نومها ومن حولها حديقة انخذتها لنفسها تكتنفها أشجار الحناء ؛ وقد كانت تلك البقعة من الحديقة هى البقعة البسيطة المتواضعة ، إذ لم تكن ترى فى أحواض الورد تلك الأسماء اللاتينية الطويلة

(*) من كتاب « من رواثع طاغور » الذى سيصدر قريبا

2017-11-11

معلقة على أوتار الخشب كأعلام مزوقة خافقة ؛ بل كانت أنواع الياسمين وزهور الليمون والورد هى التى تسود المكان

« وكانت تحت شجرة من أشجار « البُكُل » رخامة بيضاء اتخذتها زوجى متسلاً تتسلل فيه مرة أو مرتين فى النهار يوم كانت لها صحتها ونشاطها . وكانت هذه الرخامة أيضاً مجلسها فى أمسيات الصيف حين ينتهى عملها ، تظل منه على النهر فترى الغادين والرائحين فيه دون أن يشعروا بوجودها !

« وفى ليلة مقمرة من ليالى نيسان (ابريل) أبدت زوجتى رغبة فى الخروج إلى رخامتها تلك بعد رقاد دام أياماً فى سرير المرض ، لتستبدل بجو غرفتها الخانق جلسة فى حديقتها هذه ... فحملتها فى عناية كبيرة ووضعتها تحت الشجرة حيث تساقطت عليها بعض زهورها ، وأطل القمر من بين فروع الأشجار

« وقد كان السكون يشمل كل ما حولنا ، فلما نظرتُ إلى وجهها — وقد كانت إلى جانبى تحت الظلال القاتمة — واستنشيتُ عبير الزهور ، ترقرقت عيناى بالدموع ، فدنوت منها وأخذت إحدى يديها الغضة الحارة بين يدى فلم تمنعنى ، ثم بعد أن جلست كذلك هادئاً بدأ قلبى يخفق خفقاناً شديداً ؛ فقلت لها :

« لن أستطيع يوماً أن أنسى هذا الحب ! »

« ضحكت زوجتى على أثر هذا ضحكة كان فيها بعض معانى الفرح والسرور ، وكان فيها بعض معانى الشك والارتياب ، وكان فيها أثر من التهكم المرير!

« لم تقل ما يدلُّ على أنها أجابت جواباً بيناً ، ولكن ضحكتها تلك التى أرسلتها كان من جملة معانيها أن ماقلت ليس مقبولاً مُستساغاً ، بل ولاهى ترضاه!

« ... لم يكن عندى من الشجاعة ما يمكننى من أن أحبّ زوجتى حباً مجرداً عن الخوف من ضحكتها الحادة تلك ؛ فكل ما أصطنع لها من الأحاديث فى غيابها يصبح مبتذلاً تافهاً عندما أكون فى حضرتها ! !

« ... إنك لتستطيع أن تمضى فى الكلام حين تخالف فى الرأى ؛ ولكن « الضحكة » لا تقرع بالحجة ولا تقابل بالبرهان ؛ وذلك ما يجعلنى أقف بين يديها لا أنبس بشىء ! »

قال : « ثم ازداد ضوء القمر إشراقاً ، وصدح طائر من طيور « الككو » طويلا حتى ظُن أنه مأخوذ أو أصابه مس من الجنون ! فجئت وأنا فى مكانى هادىء لا أبدي حراكا : كيف تدق «عروسُ الككو» فى مثل هذه الليلة قليلة الاهتمام كذلك؟!

قال : « وبعد أن لم تفد أنواع الأدوية زوجتى اقترح علينا الطبيب أن نبدل الهواء فأخذتها إلى « الله آباد »

وعند هذا الحد من الكلام توقف «دوخين بابو» لجاءة وظل صامتاً ، ثم فحص وجهى بنظرة أجالها فيه وبدأ يجيل الفكر ، وقد ألقى رأسه على يده ، فبقيت أنا الآخر كذلك صامتاً

وارتجف لهب المصباح فى المشكاة .. وارتفع فى جو الغرفة طنين البعوض وانحنى ؛ ثم إذا «دوخين بابو» يباغتنى بتبديد شمل السكون راجماً إلى قصته ، فقال:

« عالج الدكتور « هاران » زوجى طويلا ثم علمت — من بعد ذلك — أن هذا المرض لا شفاء منه ، وأنه قد كتب على زوجتى المسكينة أن تتحمل ذلك حتى نهاية حياتها !

« عندئذ قالت زوجتى : « إذا كان مرضى هذا لاشفى ، وليس ثمة أمل بموتى قريباً ، فلم تقضى أيامك مع هذا الميت الحى ؟ أتركنى وارجع إلى أعمالك »

قال : « وكان دور ضحكى منها قد حل ، لولا أنى لا أقوى على « القهقهة » مثلها فأجبتها فى حشمة يتطلبها موقفى ، مؤكداً أقول :

— ما دام فى جسمى حياة ...

فقاطعتني قائلة: « كفاك .. كفاك .. لست في حاجة إلى أن تقول أكثر من هذا، لأن سعاي إياك تقولها بيمث في نفسي الثورة.. ويجب إليها تركك الحيال!

« ... لست أدري أصارحت نفسي بهذا الذي أقول أم لم أصارحها به حينذاك ، ولكني أعلم الآن علم اليقين أني كنت سئما من العناية بذلك العليل الذي لم يكن في شفائه رجاء

« ومن الواضح أن تكون اكتشفت مالي الخفي بالرغم من خدعتي لها ...

« ... ما كنت أدرك يوم ذاك أنها كانت تستطيع أن تقرأني كما يقرأ الصغار كتب « قراءاتهم الأولية » الخالية من معقد الكلمات ... ولكني الآن لا يزاولني الشك في ذلك »

قال : « وكان الدكتور «هاران» من طائفتي التي أنتسب إليها، وكانت لي في داره دعوة دائمة ليس لها انقطاع ... وبعد بضع زيارات قدمني إلى ابنته

« لم تكن ابنته متزوجة ، مع أنها كانت قد جاوزت الخامسة عشرة، وقد اعتذر عن هذا التأخر أبوها بدعوى أنه لم يجد من يزوجها إياه من أبناء طائفته ؛ على أن الشائعة تقول إن سبب تأخرها هو مولدها الموصوم بالعار !

« ولم تكن لها غلطة غير تلك ، وذلك ما جعلني أتحدث إليها في شتى الموضوعات وأبعث وإياها ألواناً من الأسئلة والأحاديث إلى ساعة متأخرة من الليل قبل عودتي إلى الدار حيث كان يجب علي أن أقدم الدواء لزوجتي في الوقت المعين له.. ولم يكن ليخفى على زوجتي أني كنت في دار الدكتور «هاران» ولكنها ما كانت تسألني مطلقاً عن سبب ذلك التأخر الطويل

« ... كانت غرفة الريضة تتراءى لي موحشة منعجة فكنت لا أتثاقل عن العناية بزوجتي وأتناسى غالباً مواعيد دوائها .

« ... وكان الطبيب قد اعتاد أن يقول لي أحياناً « إن هؤلاء الذين لا أمل في شفائهم يكون لهم الموت عتقاً ... فهم ما داموا على قيد الحياة يقلقون أنفسهم ويشقون الآخرين ! » وهو قول مسموح به في « الأحوال الاعتيادية » فأما أن يقال هذا وزوجتي على حالتها تلك فشيء لا يستساغ ولا يجوز أن يذكر أبداً ؛ ولكني كنت أفترض في الأطباء قسوة القلب في مثل هذه الظروف فلا يبالون ما يقولون . »

قال : « وكنت يوماً جالساً بالقرب من إحدى المقاصير إذ سمعت زوجتي تقول بنبرة : يا دكتور ! لم أراك جادا في إعطائي هذه الأدوية التي لا طائل فيها ؟ إن حياتي حين تكون مرضاً دائماً يكون من الخير أن تفكر في قتلي بدلاً من معالجتي ؟ ! »

ثم سمعت الدكتور يقول لها : « عليك ألا تتحدثي بمثل هذا الحديث ! » ... ومتى انصرف الطبيب ذهبت إلى غرفتها وألقيت بنفسي إلى جانبها، فقالت وهي تضرب ناسيتها بلطف : « إن هذه الغرفة حارة ، فاذهب إلى نزهتك المتادة ، إذ لولا عنايتك بي في كل مساء لفقدت شهية العشاء »

« ونزهتي المتادة هذه معناها الذهاب إلى دار الدكتور «هاران» . وقد كنت — أنا — الذي قلت إن بعض التمارين البسيطة ضرورية للصحة والشهية لتناول الطعام ؛ وأنا الآن جد واثق من أنها كانت تتناضى عن ذلك !

« : وقد كنت بليداً حقاً، إذ ظننت مطمئناً إلى أنها كانت يومئذ غافلة عن هذا الخداع . »

وهنا توقف « دوخين بابو » عن الكلام واعتمد برأسه على يديه وظل كذلك صامتاً برهة من الزمن ؛ ثم إنه قال : « أعطني كوبة ماء » فناولته وشرب ثم استأنف الحديث .

قال : « وفي يوم من الأيام أبدت « مونوراما » ابنة الدكتور رغبة في رؤية زوجتي ، وما كان ذلك

2017-11-1

ليرضيني تماماً . ولكن لم يكن لي عذر في الرفض ، ولذلك جاءت إلي دارنا في المساء

« كان مرض زوجتي يومئذ قد تماثم وجاوز المتاد ، وكان من عادتها إذا اشتد بها المرض أن تضطجع ساعتة هادئة أو تقبض أصابعها علامة ما تقاسيه من ألم النزع ...

« كنت جالساً بجانبها ، وكان يسود ما حولنا السكون ، ولم تكن قد التمست مني أن أعاودها ، إما لأن قوى الكلام فيها كانت قد خارت إلى هذا الحد ، أو لأنها كانت تستشعر الراحة في بقائي بجانبها أثناء نزعها المؤلم الشديد !

وكان مصباح النفط قد وضع بقرب الباب خشية أن يؤذي عينيها ، فكانت الغرفة يسودها الظلام والسكون ولم يكن يسمع فيها غير حسرة تفرج بها كربها حين تخف عنها وطأة المرض لحظة أو بعض لحظة . »

قال : « وفي عين هذا الوقت كان مجيء « مونوراما » ووقوفها بالباب ، فكان الضوء ينعكس على وجهها فيجلوه واضحاً فانتفضت زوجتي وقبضت على يدي قائلة : —

— « أوكي (١) ؟ »

«وفي هذه الحال ، كان يفزعها أن ترى شخصاً غريباً يقف ببابها ، فاذا هي تتساءل بهمسات تقول:

« أوكي ؟ أوكي ؟ ! » فأجبتها في أول الأمر :

لست أدري ! ولكني شعرت في اللحظة التالية كأن شخصاً أهب بدني بالسياط فتداركت قائلاً :

ألا تعلمين بأنها ابنة الدكتور ؟ فاستدارت إلي ونفضتني بنظرة لم أفهمها على أن أحدق في وجهها ، ثم التفتت إلى القادم الجديد قائلة بصوت ضعيف :

— أدخلي .. ثم قالت لي : جيء بالمصباح ..

« دخلت مونوراما » الغرفة وبدأت تكلم زوجتي قليلاً ، وأنها لكذلك إذ جاء الدكتور يعود مريضته .. وكان قد جاء من الصيدلية معه زجاجتين من الدواء . فأخرجهما قائلا لزوجتي :

— أنظري ! هذه القنينة الزرقاء للعلاج الخارجي ، وتلك للعلاج الداخلي . وكوني شديدة الحذر من أن تخلطي بين الاثنتين فان هذا سم زعاف ! » ثم نهض أيضاً ووضع الزجاجتين على النضدة إلى جانبها ، فلما أراد أن ينصرف نادى ابنته لتذهب معه ، ولكنها أجابته قائلة :

— لم لا أبقى يا أبي وليس هنا من يمرضها ؟!

فتحركت شجون زوجتي عند ما سمعت منها ذلك وأجابتها تقول :

— لا تجعلي نفسك فان عندي خادمة عجوزاً تعنى بي كأمي .

قال : « وإن الطبيب لمنصرف مع ابنته إذ نادته زوجتي قائلة :

— دكتور .. لقد طال جلوسه في هذه الغرفة الضيقة الملأى بالأثاث . أفلا تأخذه إلى الهواء الطلق ؟

فالتفت الدكتور نحوي وقال يخاطبني :

— سآخذك إلى نزهة على ضفاف النهر ، وبعد تردد وامتناع نزلت على طلبه .

.. ثم انصرفنا ، وكان الدكتور قد نبه زوجتي مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الزجاجتين قبيل خروجنا

« ... تناولت طعامي ليلتئذ في دار الدكتور ؛ ثم رجعت إلى الدار متأخراً فاذا بي أرى زوجتي قد انتابها ألم شديد فسألتها :

— هل اشتد بك الألم ؟!

« ... ولكنها لم تكن تقوى على الجواب فاكتفت بأن نظرت في وجهي . وقد رأيت — حينذاك — أنفاسها تتردد في صدرها بمشقة وجهد شديد ! ، فأرسلت في طلب الدكتور ...

(١) كلمة بنمالية معناها : (من هذه ؟)

« وما كان الطبيب ليفهم سر هذا الألم أولا ولكنه سألها :

— هل ازداد الألم عن قبل؟ هل استعملت ذلك الدهان ؟

قال ذلك وتناول الزجاجة الزرقاء من مكانها على المنضدة فوجدها خالية !

... فسألها الطبيب فى ثورة وحنق ظاهرين :

— أو أخذت هذا العلاج خطأ ؟! هل فعلت؟!

فأومأت برأسها اشارة الايجاب !!

« ... فأما الطبيب فقد ركض ليحضر جهازاً خاصاً يستخرج به السم المستقر فى معدتها! وأما أنا.. فقد سقطت كمن فقد الوعى ..

قال: « وكما تحاول الأم الحنون أن تهدئ عن طفلها وطأة المرض فكذلك أراحت زوجى رأسى على صدرها ، وبلمسات أصابعها كانت تريد أن تبشى ما كان فى نفسها من الأفكار !

« .. كانت بتلك اللمسات الخفيفة توحى إلى بالصبر، وتمنينى بخير تؤول إليه الأمور ، وتعزينى عن نفسها بأنها ستموت مرتاحة سعيدة ، وذلك ماسيجعلنى سعيداً أنا أيضاً ..

« .. ورجع الطبيب بآلته ولكن الآلام المبرحة كانت قد أودت بحياتها ... »

ثم تناول جرعة من الماء ، وقال :

« يالله من حر شديد ! » ثم مشى إلى الشرفة ورجع ثم استدار اليها ثم عاد منها .. كمن يريد أن يهرب من الحرفيستعصى عليه.. ثم جلس واستأنف حديثه من جديد .

وتبينت منه أنه لم يرد أن يطلعنى على الطرف الأخير من القصة ولكن قوة خفية ساحرة منى سيطرت عليه فاجتذبت البقية منه اجتذاباً ، فقال:ـ

« ... كنت بعد زواجى من مونوراما » كلما حدثتها فى شىء مسترسلاً معها فى الحديث ومقتنى بنظرة رزينة قوية حتى ليخيل إلىّ أن فى ذهنها معنى بعض آثار الشك التى ما كنت أقدر على أن أفهمها تماما !

«وفى ذلك الوقت عينه.. بدأ هيامى بالشراب!»

قال : « وفى أمسية من أمسيات الخريف الباكر كنت أتجول مع « نوراما » فى بستاننا على ضفة النهر ، وكان الظلام حولنا يشعرنا أنا فى عالم خيالى ؛ والهدوء لايعكره شىء حتى ولا انتفاض أجنحة الطيور المستغرقة فى نومها العميق ، بل لم يكن على جهتى المشى الذى كنا نسير عليه غير ذوائب السنديان الأسترالى يحركها النسيم .

« وشعرت « مونوراما » بالتعب استولى عليها فاضطجعت على تلك الزخامة البيضاء متوسدة بذيها وجلست — أنا — بجانبها فكان يخيل إلىّ أن الظلام الشامل قد تكاثف بعضه مع بعض حتى بدت رقعة السماء التى كنت أحدق فيها مكتظة بالنجوم! وكان صرير بعض الحشرات تحت الأشجار يشبه تموج صوت رقيق فى طرف الصمت السفلى ..»

قال : « وكنت ليلتئذ قد شربت قليلا فكأن قلبى كان رقيقاً ، سريع التأثر ؛ فلما نظرت إلى « مونوراما » فى ثوبها الفضفاض ولونها الشاحب وكانت عيناى تعودتا رؤية الظلام — أيقظ ذلك الذى رأيت فىّ شوقا لايستطيع لسانى التعبير عنه.»

قال : « وتبدت أطراف الأشجار بثنة فى مثل هيئة الحريق تعلوها حافة البدر ملونة بلون غلات الحصاد مشرقة النور تساقط الضوء على ثوب المضطجعة الأبيض ، فما كان لى أن أملك نفسى بعد ذلك . فاقتربت منها وأخذت يدها بين يدى وقلت لها:

— « مونوراما » ! وربما كنت لا تصدقين...

2017-11-1

ولكني ... لن أستطيع برهاً أيها الناس مهما كنت قديراً !

« وفي اللحظة التي بدأت بها هـذا الكلام تذكرت أني كنت قد قلت مثل هذا الشخص آخر

« وفي عين هذا الوقت جاء الصوت من بين ذوائب الشجر والبدر المنير ، ومن وراء ضفة الكنج البعيدة

— « هَاهَا .. هاها ... هاها ! »

« رنة قهقهة تطوى الجو طيا ...

« لست أستطيع أن أقول أكانت تحكي قلب محزون ، أم نوحاً شق عنان الفضاء ، ولكني عند سماعها سقطت مغمى علي

فلما أفقتُ وجدتُ نفسي في غرفتي مضطجعاً على الفراش . فسألتني زوجتي قائلة : « ماذا حل بك ؟! » فأجبتها في شيء من الاضطراب والفزع : « ألم تسمعي رنين القهقهة في السماء ؟ ! — هاها — هاها — هاها ؟ » . فتبسمت زوجي قائلة :

— « قهقهة ! أين هذه القهقهة ؟ إن ما سمعته كان أصوات طيور تطير ... إنك لسريع الفزع جداً ! »

« وعلمت في اليوم التالي أن ما سمعت كان نجيج سرب من الطير اعتادت أن تهاجر في مثل هذا الفصل من كل عام إلى الجنوب ... ثم لما أمسى المساء رجعت إلى وساوسي تارة أخرى ، فخيل إلي أن السماء ترن بقهقهة عالية تمزق جلباب السكون لأقل داع ... وكان من ذلك أني لم أستطع أن أكلم « مونوراما » بكلمة واحدة عند ما تخيم جيوش الظلام ...

« وقررت أن أهجر حديقتي إلى رحلة في النهر مصطحباً معي « مونوراما » وأزالت رياح (نوفمبر) الفارسة كل مخاوف فلبثت أياماً منتبطاً سعيداً ، ثم غادرنا « الكنج » مجتازين نهر « خورى »

حتى وصلنا إلى « بادما »[1]

« ... كان هذا النهر ممتداً في البطاح كثعبان مستغرق في رقدة شتوية عميقة ، وكانت في ناحية الشمال منه تتراءى شواطئ الرمل القاحلة الوحيدة متقدة في وهج الشمس ؛ وفي ناحيته تقوم أحراج العنبة (المانجو) كأنها في امتدادها واقعة في انفراج قمم ذلك النهر المجنون الذي كان بين الفينة والفينة يتقلب في نومته على أرض الشواطئ الفطرة فيملأ شقوقها بخرير ولدم[2] ظاهرين

« فلما وجدنا مكاناً مناسباً رسوت بالقارب على الشاطئ »

قال : « وسرنا فأوغلنا في السير مبتعدين عن القارب ، وكان الشفق الذهبي يتضاءل شيئاً فشيئاً فبرزت السماء طافحة بنور البدر الفضي ، فشعرت وقد كان ذلك النور يملأ الفضاء الرحيب الفسيح ويتساقط على الرمال البيضاء بفيضه المتألق — شعرت كأن نحن الاثنان منفردان نتجول في عالم الخيال على غير قصد .

« كانت « مونوراما » ترتدي ليلتئذ شالا أحمر سبلته على رأسها وكتفيها مبدية وجهها فقط ، فأخذت يدي بين يديها وقد اشتد الهدوء حتى صار جلالاً لا يسكره شيء

فقلت لنفسي في اشتياق :

— أحقاً أن في العالم مجالاً يتسع في غير هذا الفضاء الرحب تحت السماء لقلبين عرفا الحب جديداً ؟

« ثم خيل إلي أن ليس عندنا دار نأوي إليها ، فنمضي سائرين كذلك ممسكين يداً بيد ، متحررين من كل العوائق والتقاليد في هذه الطريق

(١) أسماء أنهار في جهة الشمال الشرقي من الهند والمشهور منها الأول والأخير

(٢) اللدم : صوت وقوع الماء ، وهو المعنى المطابق للكلمة الانجليزية Thud

التي لا تعرف نهايتها تحت البدر

« ووصلنا بعد التطواف إلى بركة ماء تكتنفها رُبى الرمال من أطرافها، وكانت أشعة القمر تخترق « قلب البركة » كسيف وامض، فوقفنا هناك صامتين ونظرت «موتوراما» في وجهي متطلعة. وكان الشال قد انحسر عن رأسها فانحنيت عليها؛ وقبّلتها وإذ ذاك جاء من حيث لا أعرف خلال ذلك الصمت في تلك الصحراء النائية صوت يقول ثلاثاً في نغمة هادئة مهيبة.

— أوكي ؟ أوكي ؟ أوكي ؟

«فتراجعت إلى الوراء . وفزعت الى زوجي »

قال : « وفي اللحظة التالية تأكدت — أنا وزوجتي — من أن الصوت لم يكن صوت بشر ولا ملاك ، بل كان صوت طير ذُعر من مجيء القادمين في هذه الساعة المتأخرة من الليل !

« ثم ثاب إلينا رشدنا فرجعنا إلى القارب بأسرع ما استطعنا وآوينا إلى المضاجع ، وسرعان ما استولى الرقاد على «موتوراما» قال : « وفي الظلام المهيب شبه لي أن شخصاً قد وقف بجانب السرير مشيراً بأصبعه النحيلة إلى النائمة وبهمسة سألني قائلا:

— أوكي ؟ أوكي ؟ أوكي ؟ !

« فقمت مسرعاً وأشعلت السراج فاذا الشبكة ترفرف في الهواء وإذا القارب تحركه الأمواج

« وقد جمد الدم في عروقي ، وتصببت العرق غزيراً عند ما سألك مسمعي رنين الضحكة : — هاها هاها — يتردد صداها بين سجف الظلماء متجولة في النهر ، بين ضفافه الرملية في الجانب الآخر ، ثم حائمة على مدن المقاطعة النائمة وقراها ؛ طائفة بلا انقطاع على أقطار الأرض جمعاء ؛ ثم طفقت تتضاءل في الفضاء غير المتناهي حتى تستغرق تدريجاً فاذا هي كرأس الابرة في استدقاقها !

ما كنت سمعت من قبل صوتا نافذاً خافتاً ؛ ولا كنت ظننت أن مثل هذا الصوت في الوجود ! وعلى أنه لو كانت في جمجمتي سماء غير متناهية ولا محدودة لما استطاع ذلك الصوت — مهما أوغل في رحلته — أن يبرح ذهني .. »

قال : « وأخيراً ، وحين جاوز الأمر حدّ الاحتمال فكرت أني لن أستطيع أن أقوم بما لم أقو في السراج . وما كان أسرعني حين ألطفأته فاذا أنا أسمع قريباً من كافتي في جوف الظلام ذلك الصوت المبحوح قائلا :

— أوكي ؟ اوكي ؟ اوكي ؟!»

« فطفق قلبي يخفق على وقع هذه الكلمات وبدأ يستعيد بالتدريج السؤال — أوكي .. أوكي.. أوكي ؟ — .. وفي هدأة الليل ، ومن وسط القارب ابتدأت ساعتي المستديرة تردد السؤال : — أوكي ؟ أوكي ؟ أوكي ؟ — بفصاحة مثيرة بمقاربها إلى « موتوراما » ..

كان وهو يقص على هذا يجتمع لونه امتقاع وجوه الأموات ويتضاءل صوته ، فقلت له واضعاً يدي على منكبه : « إشرب قليلاً من الماء » ، وخفق لهب المصباح ثم انطفأ ، فوصل أذني صوت غراب ينعق ، وصفير قبرة صفراء ، وصلصلة عجلة كان يجرها الثيران ...

وكانت أمارات « دوخين بابو » المرتسمة على وجهه قد تغيرت فلم يبق في نفسه من آثار الفزع شيء ، ذلك بأنه قص على ما قص متأثراً بخوف خيالي ، مخدوعاً بسحر الليل ، فتظاهرت بتأنيبه على ذلك الخوف حتى أرَيْتُه غضبي عليه ، وانطلق فوراً وخرج تصحبه السلامة !

فتحي شهاب العيسوي

زهر الجبل

للكاتب جيوفاني دبي فاقا

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

لما بلغت قرية مورجان نزلت بفندق «رأس الجن» وقد أطلق هذا الاسم على الفندق نسبة إلى جبل شهير هناك في قمته صورة رأس مخيفة . وأهل القرية يروون عنها الأخبار ويتناقلون الأساطير . أما القمة ذاتها وهي إحدى قرى مقاطعة ڤاليه فهي راقدة في حضن الوادي كأنها وديعة ثمينة في يد غادة حسناء يحرسها أحد الجبابرة . وكان الناظر يرى عن يمينه جبلا آخر اسمه المنظر الجميل ؛ وما أغرب التفاوت بين الجبلين ! فان المنظر الجميل كان كأنه كتلة من الزمرد القاتم لكثرة ما فيه من الأشجار الخضراء والأجمات الملتفة والأدغال القائمة . وبقدر ما كان جبل رأس الجن حجرياً قاحلاً كان جبل المنظر الجميل خصباً غضا . فكأنما يرى الناظر إليهما مثال الخير ومثال الشر قد اجتمعا معاً ، فان جبل المنظر الجميل تتسلقه الأبقار لترعى الكلأ الذي ينمو بغير غرس وهي تتبع في مرعاها ذكراً ضخما من أفرادها قد علق صاحبه بعنقه جرساً ليسترشد به القطيع ، وذلك الفحل المرشد لا يضل ولا يتيه في ذهابه وجيئته وصعوده وهبوطه . أما الناظر إلى جبل رأس الجن فما كان يستبين إلا رمزاً مخيفا يبعث إلى نفسه بديبب الوجل ، وبقدرما كانت طريق جبل الجن وعرة ومسالكها محفوفة بالمهالك كانت سبل المنظر الجميل سهلة واضحة يتبينها الطفل .

أردت يوما أن أصعد في جبل المنظر الجميل فهداني بعض العارفين إلى دليل يأخذ بيدي أو أفتقي أثره إذا بلغنا جهة لا يأمن فيها السائر مخاطر الوحدة . وكان الدليل شيخا بلغ العقد السابع من عمره وقد ترك كل حول في صفحة جبينه سطراً ، كما سلب كل هم من هموم الحياة من عمره شطراً .

وكان كث اللحية مهيب المنظر حديد البصر كأنه من جوارح الطير ، سهل الخلقة قليل الكلام ، وكان اسمه چيوفاني وقد علمت أنه قضى أربعين عاماً يدل السائحين في جبال الألب إلى أن بلغ من الكبر عتياً وأمسى عاجزاً عن تسلق شوامخ الجبال المتمنعة بالجليد طول العام ففضل الدزلة في تلك القرية ليقضي في ظلالها أيامه الأخيرة .

ثم سار صامتا وهو يحس الأرض قبل أن يطأها بهراوة مدببة وأنا أتبع له من ظله ، فإذا عبر قناة عبرتها ، وإذا اخترق غابة صرقت فيها ؛ وكنا كلما أوغلنا وعلونا مصعدين نان لنا منظر جديد تنبسط له النفس . فشهدنا حقولاً ينبت فيها النرجس الغض فيحمل النسيم إلينا عطرها على أجنحته فتكاد تثمل من العبق . ثم بلغنا غابة سوداء تلامس أشجارها الباسقة منا كب النهام ، وتتلاحم أغصانها الشاحبة عنان السماء ، ولو كانت في سهول الهند لأمست عرين الآساد ومكمن النمور ، ولو كانت ببادية الفانتة لخلق الفرنسيون منها « غاب بولونيا » تشرق فيه الشموس والأقمار ، وتسرح في مجاهله الغوانى والحور ، ولكنها هنا كغيرها من غابات سويسرا لا ترى فيها إلا نهاراً مشمساً وليلا مقمراً ، ولا تملؤها إلا رائحة الأزهار

ولا يسمع بحوانبها إلا خرير الماء وتغريد الأطيار . فلما أن توسطنا الغابة وصلنا إلى نهر قوى الانحدار شديد التيار ولكن ماءه صاف كعين الديك، وهو من شدة انهماره يطفى على ضفتيه كأنه ينازع اليابسة ليغمرها، فسألته عن اسم هذا النهر فقال نهر الجياز؛ ولما رآنى قد ارتعت لرؤيته قال لى إنه الآن بالنسبة له فى وقت فيضانه كالحمل والدئب . فانه إذا انهمرت الأمطار فى منتصف الربيع وذاب الجليد فى جبال الجنوب حيث يوجد المنبع اندفعت أمواه هذا النهر بقوة تفوق قوة نهر الرون عند فيضانه ، وعند ذلك يطغى على الضفتين ويطمر الأرض على مسيرة نصف ميل ويحمل فى طريقه كل مايعوقه من أحجار وجذوع أشجار ورمم بالية وأوكار طيور جارحة وأفاع منسابة وذئاب عاوية ، وبالجملة لايغرمن طغيانه جماد ولا نبات ولا حيوان . فلما أن توسطنا الأجمة رأيت آثار أشجار ملتفة قائمة كأنها دعائم أعمدة من عمد المرمر وأرفع من مسلة كليوبطره وأكبر . فقلت لصاحبي الدليل: ماهذا الذى أرى: أمعبداً أقامه القدماء يتوسلون به إلى أرباب الغابة وآلهة المياه؟ قال: كلا إنما تلك الأشجار هى بقايا كوخ عتيق له حديث يعد من أساطير الأولين . قلت. هل لك أن تجود على بهذا الحديث فأشكر فضلك. قال: إذن هيا بنا نجلس على بعد من ذلك النهر . فوقع نظرنا على هضبة خضراء فقصدنا اليها وأخذنا مكاننا منها وبدأ الدليل حديثه قال :

كان فى هذا المكان كوخ لامرأة مات زوجها وخلف لها ولداً وقطيعاً من الغنم فكانت تعمل ليل نهار لتحصيل الرزق وإنبات ولدها، وما زالت المرأة تعمل وتدأب وحول يجىء وحول يذهب ، حتى شب الولد وخفف عن أمه العجوز أثقالها، فكان يرعى الغنم ويصطاد الأرانب البرية ويحتطب ويحسن إلى تلك الأم التى قضت أيامها فى تربيته . وفى يوم من الأيام خرج الفتى إلى القرية يبيع فيها صوف الخراف وخرجت الأم من الكوخ وجلست على ضفة النهر وإذا بها ترى سبية جميلة لايستر بدنها إلا أطمار بالية تبكى وقد سترت وجهها بكفيها ، كما سترت جدائل شعرها كتفيها؛ وكانت بهية الطلعة رغماً من فاقتها البادية وحزنها العميق . فلما أن بصرت بالمرأة مالت نحوها وجلست على مقربة منها وزاد شهيقها وعلا صوت انتحابها ، فتحركت عاطفة الحنان فى قلب المرأة وسألتها ما يبكيها ثم ضمتها إلى صدرها فاطمأنت الفتاة وسكنت عاصفة نفسها وقالت : ليس لى أب ولا أم . وكنت أعيش مع « الراعى الصغير » يطعمنى القديد ويسقينى الحليب ، ومنذ أمس ذهب عنى وغاب ، فأخذت أبحث عنه وأناديه فلم أعثر به حتى بلغت هذا المكان . فقالت لها الأم: أترضين بهذا الكوخ مسكناً وبى أمّاً وبولدى أخاً ؟ فبكت الفتاة ولم تحر جواباً . وكان سكوتها أفصح بيان فضمتها المرأة إلى صدرها وقبلتها فى جبينها وأنهضتها وأدخلتها كوخها وأطعمتها من جوعها وأمنتها من خوفها وألبستها ثياباً بسيطة نظيفة وطيبت خاطرها وأعدت لها مكاناً على المائدة ومرقداً بجوار مرقدها وفرحت بها . ولما أن عاد الولد عشية قالت له أمه إنه رزق فى غيبته أختاً تقاسمه الطير والعنبر. ففرح

2017-11-11

الفتى بها وسماها « زهرة الجبل » وقضى ثلاثتهم الفريق الأول من الليل ساهرين ، وقد استأنست البنت بعد وحشتها وأعادت عليهما نفثاً من نفثاتها . وكان الفتى ينظر إلى « زهرة الجبل » نظر الفتون بجمالها ، ولما أصبح انصرف الوالد كعادته وأخذت زهرة الجبل، وقد اطمأنت، تحمل عن العجوز عبء حياتها المنزلية . ولما عاد الفتى أخذت تحادثه بلطف وهو يداعبها والأم تسر بذلك وتبتهج لأنها أملت أن تنشأ فى قلبيهما عاطفة الحب ، فترى بينها آهلا بنسلهما قبل موتها . وقد دبت فى الكوخ وما حوله حياة جديدة بحول تلك الزهرة الشريدة . وزاد نشاط الفتى وصار يصيب فى الصيد المرمى أكثر مما كان ، ويربح فى بيع الحليب والصوف والحطب أضعاف ربحه الأول . وكان كلما ذهب إلى القرية عاد إلى زهرة الجبل بهدية كنديل من حرير أو عقد من خرز أو خاتم من معدن ، وهى تتقبلها بفرح عظيم ولا تكتم عنه سرورها

وفى يوم ما انحدر الفتى إلى القرية ثم عاد وجلس مطرقاً كأنه يفكر فى أمر شاغل فلم يداعب زهرة الجبل ولم يمرها التفاتة الذى تسودته، فسألته أمه عن سبب انشغاله ، فقال إنه رأى فى القرية راعياً كان يعرفه منذ بضعة أعوام فلم يتعرف عليه للوهلة الأولى لما يبدو عليه من علامات الغنى واليسار . فلما سأله عن مصدر ثروته أجابه أنه تجشم أخطار السفر إلى الدنيا الجديدة التى تنبت أرضها ذهبا وتمطر لجينا ، أنى وضع الرجل فيها قدمه أو كفه لقى مالا ينتظره كأن أمنا الأرض تركت لكل منا إرثا يطالب به فى تلك البلاد العجيبة، فأقام بها بضع سنين وأحرز من المال ما أحرز ، وأنه ما عاد إلا ازائراً وسوف يرجع إلى بلاد المال والحرية فيوالى العمل حتى يملك نهراً بسفائنه أو منجما بدقائقه . فلما رأته الأم مشغول البال يكاد الحسد يأكل قلبه وحب المال يملك نفسه نظرت إليه نظرة استعطاف، ونظرت إلى زهرة الجبل وكانت صامتة ، وكأن نفسها الطاهرة النقية قد أشرفت على المستقبل الرهيب ، فقالت الأم بعد طول السكوت وقد جالت الدموع فى عينيها : إنى ياولدى لا أعوقك عن السفر فسافر إن شئت فى طلب المال إن كنت لا تقنع بعيشتنا. وكأنما لم يدرك الولد أن فى هذا الكلام ما فيه من الاستعطاف . وكان حب المال ، والطمع فى تحقيق آمال مبهمة قد أعماه عن حب الوالدة وأنساه كل ما قاست فى سبيل تربيته ، فلم يشأ أن يجيب نداءها وكانت تظن أنه سيفتى بجانبها فى شيخوختها ولكن محبتها وكرامتها أبتا عليها أن تلح وقد علمت بفطرتها وخبرتها أن الشباب إذا تعلق بأمنية لا يتحول عن تحقيقها . أما زهرة الجبل فقد أدركت كل معنى ما دار من الحديث بين الأم وولدها ولكنها لم تستطع الكلام بل لم تكن تدرى ماذا يجب أن تقول ولكنها أدركت أن سعادتها فارقتها، فأخذت تبكى بكاء مكتوما ولكن هذا لم يلن من جمود الفتى ولم يحرك من عواطفه ساكنا . فانه فى اليوم التالى تأهب للسفر وترك المرأتين رهن الوحدة والوجل .

سافر الفتى وبقيت الأم وزهرة الجبل وقد أراحتها من عناء الحياة وحملت عنها عبء العمل .

2017-11-11

وكانت المرأة إذا ذكرت ولدها ضمت الفتاة إلى صدرها، وإذا ذاقت نفسها للحديث عنه حدثتها، وإن دعاها ألم البعد إلى البكاء بكت واستبكتها .

أرسل الفتى خطاباً يصف فيه أهوال رحلته وصعوبة الحياة على القادم وشدة الصدمة الأولى التى تصيب كل مهاجر . فكانت المرأة تقرأ وتبكي وتقبل الجواب حيناً وحيناً تضعه على قلبها كأنه جزء من ولدها . ثم جاء كتاب آخر ينبئها بأنه مريض وطريح الفراش، وأن أمله فى الأثراء بل فى الحياة ضعيف ويحن فيه إلى عيشته الهادئة فى الكوخ الجبلى ويذكر الجلوس على ضفة النهر ويتحدث بجمال زهرة الجبل . فزاد قلق المرأة وذهب هناؤها وتزعزعت أركان صبرها لبعد ولدها، ولزمها الحزن والبكاء حتى ابيضت عيناها ، ومللت ألم الفراق عليها قلبها وهي لا تعلم إلى أى مكان تبعث بخطابها ولا تدرى كيف تستقدمه من الدنيا الجديدة . وكانت تتخيلها لجمالها عالماً آخر غير دنيوى .

ذهب الصيف وأقبل الخريف وأخذت أوراق الشجر تتساقط ذابلة، وبدأ النهار يقصر والليل يطول والغيوم تتلبد والأمطار تهطل ، وتكمل الوحدة وينقطع السبيل على المازة وتلزم الأم وزهرة الجبل الكوخ أشهراً شعرت المرأة بانحطاط قواها وامتنعت عن الغذاء وعجزت عن أهون الأعمال وقل كلامها، فكانت زهرة الجبل ترداد بها عناية كلما رأت شدة وطأة المرض عليها وتقضى الليالى ساهرة تبكي تارة وترقب وجه الراقدة طوراً .

ذهب الخريف وأقبل الشتاء فاشتد الضعف واستعصى الداء ، وكانت زهرة الجبل لاتعلم أن فى الدنيا أفراداً انقطعوا لإسعاف المرضى اسمهم أطباء، وإن عرفت فلم تكن تدرى أين مقرهم ولا كيف تكون دعوتهم . وكذلك الأم فانها لم تفاتحها بشيء ولم تشكُ يوما البها حالها . ولكن زهرة الجبل كانت تجمع بعض الأزهار والأعشاب وتستخرج خلاصتها وتقدمها للعجوز قائلة إنها رأت « الراعى الصغير » يجمعها ويحفظها . إشتد الضعف واستعصى الداء وصامت الأم عن الكلام والغذاء فكانت تقضى يومها وليلتها راقدة لا يمضض لها جفن، وإذا نطقت فباسم ولدها أو بطلب جرعة من الماء تطفىء بها لظى نار خفية تشمل أحشاءها . وكانت زهرة الجبل بجانبها لاتفارقها ولا تفتر عنها طرفة عين، تارة تمسك بيدها وطوراً تحمل رأسها فى حجرها

وفى ليلة من ليالى القر العنيف كانت العواصف تزأر والرياح تزمجر كأنها وحوش سجينة ـ نهضت الأم من فراشها وضمت زهرة الجبل إلى صدرها وسألتها عن ولدها ثم طلبت شربة ماء فأسرعت زهرة الجبل إلى الاناء وعادت به إلى الأم العطشى فاذا هى لاتتكلم ، فدنت منها ونبهتها فلم تنتبه، فمسحت جبينها بيدها فاذا هو بارد عليه قطرات من عرق النزع الأخير . ولم تكن زهرة الجبل تعرف ماهو الموت فظنتها نائمة وأرادت ألا تقلقها فبقيت ساهرة بجانبها ولكنها كانت تشعر بما لم تمارسه فيما مضى من الليالى: سكون شامل ووحشة لم تشتدها . كانت الأم تنام ساعة وتستيقظ أخرى . أما هذه الليلة فعندما نامت لم تستيقظ. لم تر زهرة الجبل قبل هذه

2017-11-11

المرة إنسانا يموت ، فلم تعرف الموت. رأت أمها هذى بالأمس راقدة وعلى وجهها علامات الألم مما ألمّ بجسمها من الضعف وبقلبها من الحزن ، والليلة رأت وجهها ساكناً هادئاً كأنه مرآة صافية وعلى شفتيها ابتسامة جميلة ولكنها مخيفة — هى ابتسامة الفراق .

كانت زهرة الجبل منتظرة الصباح بفارغ الصبر لعل الراقدة تنهض بعد هذا الصمت الطويل

قبيل الفجر سكنت العاصفة وجفت مآقى السماء وأطلقت ديانا سراح وحوش الريح فانطلقت إلى الوادى

* * *

كل شيء فى الطبيعة تبدل وكل ساكن تحرك إلا تلك الأم الراقدة فانها مازالت راقدة لا تنهض . فخرجت زهرة الجبل إلى ظاهر الكوخ لعلها تجد الفتى عائداً من رحلته فيشاركها فى إيقاظ والدته . وإنها لكذلك إذا بها ترى فتى أشعث أغبر قد تلفع بفرو؛ فلما دنا منها تبينته فاذا هو « الراعى الصغير » الذى أضلته فيما مضى من أيامها فبهتت للقائه وسرت برؤيته وسألته عن حاله فطلب منها خبزاً وحليباً فأدخلته إلى الكوخ وقدمت إليه طعاماً وشراباً ، وكان سرورها به عظيما لأنها تمكنت من رد جميل لمن أحسن إليها وصنع بها معروفاً ، ثم حانت منه التفاتة فرأى المرأة راقدة . وإذ رابته ملامحها اقشعر وعرته رعشة الخوف ، وتبينت زهرة الجبل منه ذلك فسألته ، فلم يخف عنها أنها ميتة . وإذ كانت لا تعرف معنى الموت أخذت تسأله فقال إنها فقدت الحياة والحس فلن تنهض ولن تتكلم ولن تبصر ولن تسمع فسألته: أو لو عاد والدها من الدنيا الجديدة تبقى صامتة !

أجاب الراعى: لو انتقلت الدنيا الجديدة بأسرها إلى هنا فانها لن تسود إلى حالها لأن الحياة فارقتها فقالت له: هل هذا الفراق أبدى بيني وبينها؟ فأجاب الراعى: لا أعلم. فسكتت الزهرة ، ثم طرحت نفسها على صدر الراقدة واندفعت تبكى وتختلج حتى بللت وجه الراقدة وصدرها ببكائها وجاشت بنفسها عواطف الحب والحنان والألم والذكرى . ثم إن الفتى أنهضها وقال لها: لابد من دفنها. فلم تفهم. ولما ذكر لها حالة الجسم الانسانى وسرعة فساده وواجب الأحياء نحو أحبابهم الذين كانوا بالأمس مثلهم امتثلت وطلبت إليه أن يحفر لها مضجعاً فى الكوخ حيث رقدت، فقال لها هذا لا يكون ولابد أن يحفر قبرها فى مكان خال، فأشارت إلى الشجرة التى جلست فى ظلها يوم لقائها بالأم على ضفة النهر وأخذ الفتى فأساً وحفر لحداً فى ظل الشجرة . وكانت زهرة الجبل ماشية بجانب أمها تكلمها وتبكى وليس هناك من يشهد ذلك المنظر الرهيب إلا الطبيعة والراعى الصغير ، أما الطبيعة فجامدة صامتة غشوم عمياء وهى التى أوجدت، وهى التى أعدمت، وهى التى تخلق وتبيد ، وأما الراعى الصغير فقد علمه شقاء الحياة معنى ألم الموت وآلة الحياة

دفنت الأم بعد أن كفنها الراعى بأوراق الشجر وكأنما الخالق الذى سول له أن يترك الطفلة فيما مضى دعاه الآن إلى تركها وحيدة بعد الذى رأى ، فقال لها الفتى وهو جامد : أستودعك الله يازهرة الجبل .

2017-11-1

وكأن الفتاة لم توجس بعد حالها ، ولم تتبين مثيبتها ووحدتها فلم ترد على أن سألته أعائد أنت إلى أمك ؟

فأجاب : لا أم لى ولا والد .

قالت : أين تذهب إذن ؟

أجاب : أطلب رزقا بتعب اليمين وعرق الجبين .

قالت : إبق هنا وارع الأغنام وصد الطير ربما يعود أخى

فقبل الفتى لا كريما ولا عجبا سؤلها ، وإنما تبين فى المكان رزقاً فلم يجد بأساً فى البقاء ، وعاشا معاً : هو يقوم بكل ما يقوم به الرجال من أعمال الزرع والرعاية والصيد وتحويل مجرى النهر إذا طغى على الكوخ ، وتقويم جدرانه إذا انقضت من شدة السيل الجارف ، وينحدر إلى القرية يبيع فيها الحليب والصوف ، وزهرة الجبل تعد الطعام وتغسل الثياب وتبكى على قبر أمها وقد فارقتها الوحشة الأولى وذهب تدبير المنزل بما فى نفسها .

وفى أحد أيام الربيع إذ أخذت الطيور فى التغريد وظهر زهر البنفسج فى أثناء الثلج وتجدد شباب الطبيعة ونهضت الأرض من رقدتها بعد الشتاء قال الراعى الصغير : ألا تأتين معى بازهرة أريك إحدى العجائب ؟ قالت : أين ؟ قال : عند تلك الشجرة وأشار بيده ، فانطلقا حتى تبعت الفتاة وقالت له : أين الشجرة ؟ قال هناك وأشار بيده ، وكانت تبدو عليه سيما الاضطراب والحيرة ، فسارا حتى كلّ قدماها وقالت له أين تلك الشجرة ؟ فوقف أمامها وقال لها ألا ترين أمامك تلك الشجرة التى تظللك بفرعها بعد أن رويتها بحبك ؟ ألا ترين أمامك الشجرة تحمل قطوفا دانية ، وقد آن لها أن تجنى ؟ ألا ترين تلك الشجرة التى خلقت وخلقت لك ؟

فهتت الفتاة وارتجفت وقالت له : كلا لا أرى .

ففتح الفتى ذراعيه وقال لها : أنا تلك الشجرة . فلم تتكلم ولم تتحرك وأخذت تنظر إلى الأفق كأنها تنتظر من الطبيعة أن توحى إليها جواباً . فلما ارتج عليها مالت صوب الكوخ وسار خلفها الراعى الصغير وهو لا يدرى ماذا يجول فى صدر زهرة الجبل . أتدرك الحب أم لا تدركه ؟ وهل تريده رجلا لها أم هى لا تفهم ذلك المعنى ؟

ولما بلغا الكوخ رأت زهرة الجبل شخصاً كأنها لم تره من قبل وإلى جانبه شابة مريبة المنظر وقد لبسا ثياباً غريبة ، فمن حذاء يصل إلى ركبته ، إلى قبعة مزدانة بطيور ميتة على رأس المرأة ، وكان الرجل خشناً وحشى الصورة فابتدرها بقوله ولم يسلم : أين صاحبة الكوخ ؟

فأجابت زهرة الجبل : إنها راقدة

قال : ألا توقظينها ؟

قالت : إنها لا تستيقظ من رقادها

قال : وأين هى ؟

قالت : هناك فى ظل تلك الشجرة

فنظر إلى صاحبته ثم نظر إلى الراعى الصغير ، وقد بقى هذا صامتاً متشائماً من هذه الوفدة الغير المنتظرة — ثم تحول الرجل إلى زهرة الجبل وقال لها : ألست أنت تلك الفتاة الوحشية التى اتخذتك ربة الكوخ بنتاً لها منذ ثلاث سنين ؟

قالت : بلى

قال : ومن يكون هذا ؟ وأشار إلى الراعى بطرف سوط كان فى يده . أجابت : هو الراعى

2017-11-1

الصغير الذى دفن أمى بعد أن كفنها بأوراق الشجر وهو يقاسى متاعب الحياة والغربة

ثم شعرت كأنها تتذكر الصوت والسيدين والقامة فقالت له : ألست برنار أخى ؟ ثم أقبلت عليه تريد تقبيله فدفعها عنه بعنف وقال : ألا تخجلين من هذه السيدة ؟ ولكن خبرينى متى كان زواجكما . فلم تجب لأنها لم تدرك سؤاله ولأنها منذ دفعها قال: ألم تذهبى إلى الكنيسة قبل مخالطة هذا الرجل . فظلت على سكوتها لأنها لم تكن تدرى من كل ذلك شيئاً . قال : إذن أنتما تعيشان بغير رباط شرعى . لقد عشنا فى الأرض الجديدة وعرفنا أخلاق الأمم ، فأنت وهذا الفتى فى عرف الفضيلة آثمان . كيف جاز لكما أيها الفاسدان أن تدنسا قبر أمنا الطاهر بجرمكما ! . ثم أخذ يتبادل مع رفيقته ذات القبعة المريشة حديثاً بلسان لا نفهمه زهرة الجبل ولا الراعى، ثم استمر فى خطبته وقال : إن هذا الكوخ كوخنا وجئنا نبنى الاقامة فيه ، فسيرا فى سبيلكما وكفانا منا هذا الاحسان ، فاننا نطلق سراحكما ولا نريد أن نودعكما ظلام السجون . ثم خاطب رفيقته ، والتفت إلى المسكينين يترجم ، قال إنها تقول : يا للعار ، أفى هذا المكان الجليل ، وفى تلك البقعة الطاهرة تقترفان إثماً كهذا ! ثم قصد قبر أمه وجثا أمامه ، وكذلك فعلت الأمريكية ، وقال : عفواً يا أماه إذا كان هذان الأثيمان قد أساءا إليك فى غيبتنا ولم يرعيا لك حرمة . أما زهرة الجبل فقد بدت عليها حيرة شديدة ، وكأنها تنبهت إلى ما فى هذه الأقوال والأفعال من سوء المغبى والحرمان ، وقدرت ماسيصيبها من الشقاء بالبعد عن هذا المكان.

ولما نهض برنار ورفيقته وقد نظرا إليهما نظرة الكره والطرد وفاء بذلك فى وجه تلك المسكينة ، هاجت زهرة الجبل ووقفت فى وجهه كأنثى أسد غضبى تقول له : كيف تريد أن ننصرف وأنا التى سهرت بجانب أمى أشهراً وعنيت بها ليلا ونهاراً حتى نامت النوم الأخير ، وأنا التى غرست هذا الزرع ورعيت القطيع ، وهذا الفتى هو الذى حول مجرى النهر وشاد جدار الكوخ الذى أراد أن ينقض بعد أن طغى عليه الماء، وهو الذى حفر لأمى مرقدها فى ظل تلك الشجرة ! ألا تريان أنت وهذه المرأة المرقشة أننى قضيت ثلاث سنين فى الخدمة والعمل وهذا الراعى الصغير لم يلجأ إلى الراحة إلا خلسة لنكسب قوتنا ! لقد عدتما من أرض الأحلام بالمال فاذهبا وشيدا لكما كوخاً غير هذا واشتريا قطيعاً غير قطيعنا . فقال برنار : إنك لاشك معتوهة، ولو علمت أنك تتكرين الجميل ما تركت أمى فريسة لخياناتك . ثم حادثته رفيقته قالت : ومن يدرينا كيف ماتت هذه الأم المسكينة وأنت بعيد عنها؟ ولم تدرك زهرة الجبل معنى هذا السؤال وإلا لافترست تلك الأمريكية الفاسدة القلب التى حاولت أن تنسب إليها أفظع الجرائم

أما برنار فقد أخرج من جيبه ساعة ونظر فيها وقال إن لم تنصرفا لساعتكما من كوخنا وأرضنا استنجدنا برجال الشرطة والقضاء ليبتلوا بكما، فقالت زهرة الجبل: نحن لا ننصرف. فسار برنار ورفيقته فى سبيل القرية ودخلت زهرة الكوخ وبشرت

2017-11-1

عملها كعادتها . ولكن الراعي كان بادي الحزن والوجل ، ولم ينتقل من مكانه كأنه ينتظر حادثاً فاجعاً . ولم يخب ظنه فانه لم يكد يميل ميزان النهار حتى عاد الغادمان ومعهما شرطي من القرية ، فلما دنوا من الكوخ أسرع الراعي إلى زهرة الجبل وأفضى إليها بما يكون من وراء العصيان . والغريب أن نفسه لم تحدثه بفكرة المقاومة التي تلتئم مع حالة الفتاة النفسية . وفي ظني أن القليل الذي عرفه من الحياة المدنية ترك نفسه فريسة الخوف من القانون ورجاله الذين يمثلون العدل الوهمي . ولكن زهرة الجبل لم تبأ بقوله إلى أن أقبل الشرطي وطلب إليها بلهجة الآمر أن تنادي الكوخ ، وأن تتخلى عنه للملكه وأنها إن امتنعت أرغمها بالقوة ، فأخذت المسكينة تحتكم إليه برواية تاريخ حياتها ، وما كان من شأنها منذ تبنتها الأم الراقدة تحت ظل الشجرة. وكاد الشرطي يشفق عليها لأنه لم يرحل إلى أمريكا ولم يقف على قواعد المدنية الحديثة . فلما رآه برنار بوشك أن يضعف حيال قصة زهرة الجبل قال له: أيها الشرطي لست قاضياً ، قم بواجبك . فقال الشرطي للفتاة إن رئيس الشرطة لاشك ينصرها إن هي طرحت لديه شكواها واستنصرته في بلواها . وكانت زهرة الجبل كالمهدة المجروحة فخرجت من الكوخ هائجة لم تحمل شيئاً من متاعها إما شحا وإما اعتقادا منها بأنها بلا ريب عائدة ، فتقدم برنار إلى الكوخ وعاد يخرقها وحليها الموهمة ، وبينما ما كان قد أهداه إليها وقذف بكل ذلك في النهر. وبهذا أضاف الأذى إلى المهانة وزاد الطين بلة . سارت الفتاة والشرطي وخلفهما الراعي وقد شيعتهم الأميريكية بضحكة عالية

فلما بلغا القرية لفتت زهرة الجبل الأنظار بغرابة زيها وما يبدو عليها من علائم البداوة والجفوة وخشونة المظهر والملبس . ولما مثلت بين يدي رئيس الشرطة سألها عن اسمها ولقبها وسنها وصناعتها ومسكنها وهلم جراً ، فلم يحيرا جوابا. فسأل الشرطي عن حالها فأبدى له ما رأى وسمع، ثم تقدمت اليه زهرة الجبل وهي مملوءة بالأمل في العدل الانساني، وروت له كل ما جرى لها، وكان أثناء ذلك ينظر اليها تارة معجباً بجمالها وبساطة نفسها وبطولتها، وطوراً مستخفاً بشأنها وساخراً من دعواها . فلما أن فرغت سألها عن عقود الملكية ! فلم تقدم ولم تؤخر . فنظر اليها ثم أصدر حكمه بأن القانون لا يعطيها على (العين حقاً) وانها لم « تضع يدها » بسبب صحيح ! وأن حكمه (نهائي لا يستأنف) ونصح لها ألا تعود إلى الكوخ لئلا يضطر إلى حبسها . والأولى لها ورفيقها أن يبحثا عن عمل أو يفارقا المقاطعة لئلا يعاملهما معاملة المتشردين وإنه يمهلها أربعاً وعشرين ساعة ! ثم أمر الشرطي بطردها . تفرجا ، وقد غابت الشمس . أما زهرة الجبل فانها ما كادت تخرج من غرفة الضابط وتخطو عتبة باب (دار العدل والقانون) خارجة حتى تركت الراعي الصغير الذي لم تتبين فيه أخاً ولا صديقاً ينفع وسارت على وجهها وحدها حتى خرجت من القرية، وما زالت تقودها قدماها رغم إرادتها حتى بلغت مكاناً يطل على الكوخ ، فلزمته كلما نظرت اليه حنّت

2017-11-1

ثم تملكتها عواطف الغيظ والمقت لساكنيه، وكانت أيام الربيع الأولى قد فكت أغلال الجليد من رؤوس الجبال ودفعت بالمياه المكرة والأحجار المتناثرة فى مجرى النهر إيذانا ببداية الفيضان فعاشت زهرة الجبل أيامها فى الغابة كيانها الأولى، وكانت تقتات من ثمر التفاح والقطن البرى على مافيها من غضاضة وسرارة، وتروى ظمأها من ماء ذلك النهر الذى صحت عزيمتها على أن يكون فيه إطفاء لنار عاطفة الانتقام التى ولدتها نظرات الشقاء والكره الذى ذاقته فيما رأت.

ولما مضت عليها أيام أصبحت كبعض الوحوش التى تسكن الأدغال، وتثير مظهرها كأنها لا يهدأ بالها إلا أن تنتقم من عدوها. وكانت إذا تنفس الفجر وتضرجت وجنة الأفق بأرجوان الصباح وخشيت أن تصادف نارا ورفيقته أوغلت فى الغابة وأمعنت وكأن خشخشة أردية الدوح ومطارفه، ووسوسة أوشحة النبات وملاحفه، وانحدار المياه وهديرها، وهبوب الرياح وصريرها، أصوات تبعث فى نفس زهرة الجبل حب الانتقام. ولم يكن خفقان النسيم وهتاف الطير بصوته الرخيم، ولاتغريد البلبل بالترنيم والتنغيم، لتعوق البنت الموتورة عن الانتقام. حتى إذا جن الليل وأقبل الظلام سكنت الفتاة إلى مكان منفرد فى غيابة الغابة أو اختفت فى أغوار الأجمة، فلما أن توسط الربيع وأقبل الفيضان نهضت زهرة الجبل خفية فى السحر والطبيعة نائمة، ودنت من ضفة النهر من مكان يشرف على الكوخ وأخذت تحفر بمعض الأغصان مجرى صغيراً يشبه النذير لتحويل ماء النهر. وما زالت تعمل فى الحفر والماء يندفع بقوة انحدار السيل حتى اتسعت الثغرة ثم أخذت تنقل حجارة كبيرة إلى وسط النهر لتكون سداً فكانت.

وكاد يندفع النهر بمائه إلى حيث حفرت له زهرة الجبل، وزاده انهماراً وجود الكوخ فى وهدة منخفضة. ولما أن رأت فيضان النهر فاض السرور فى جوانحها وشاع الطرب فى فؤادها وهنأت نفسها على أنها فازت بمنيتها، وقضت على عدوها وعدوتها.

وإنها لكذلك وإذا الماء كالطوفان يطم الكوخ ويغمره ويزعزع أركانه، ويغرق جذوع الأشجار ويهلك سكانه، وأخذت جدرانه التى أقامها الراعى الصغير تتداعى ثم تنقض، وعلت الأصوات بالاستغاثة ولم يلبث الكوخ أن تهدم على من فيه، وجرفته الأمواه بعد أن أغرقتهما؛ والفتاة تنظر إلى الخراب الذى صنعته يداها وهى تعتقد أنها أقامت ميزان العدل وأنها اقتصت لنفسها ممن أذلها وطردها.

وكان الصبح قد تنفس ونثر النور فى الشرق ياقوتاً من أشعة الشمس، فرأت زهرة الجبل قبر أمها وقد نبشه الطوفان فبدت جيفتها على سطح الماء وقد عراها الفساد ومرت أمامها مسرعة كأنها سفينة تمخر عباب بحر الأبدية؛ فلم تطق الفتاة رؤيتها وظنت أنها أساءت إليها بانتهاك حرمتها فألقت بنفسها وراءها واستشهدت فى سبيل الذنب الذى تخيلت أنها جنته على من أحسن إليها. وهكذا ابتلع النهر أربع جثث عاشوا جميعاً على ضفتيه، وماتوا بين حافتيه، وهذا باسم القانون والعدل

فلما فرغ الدليل من حديثه كانت الشمس قد آذنت بالمغيب فعدنا إلى القرية

محمد لطفى جمعة
(٤)

اللص الثرثار

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

لما أضيئت الغرفة فجأة شعر اللص بالخطر، وكان هذا اللص يلقب بين أصحابه بلقب الذوق لجرأته على اقتحام المنازل ولحسن طلعته وهيئته. وقد قضى أكثر من عشرة أعوام فى مخاطراته دون أن يعتقل مرة واحدة. لكن الخوف يعترى أجرأ اللصوص عند وقوع الخطر

وكان البيت مكوناً من طابقين: أما الأول فهو إدارة جريدة. وأما الثانى فهو مسكن رجل من الأغنياء كان مسافراً وكان البيت خالياً من السكان فجاء هذا الذوق ليسرقه على هذا الاعتقاد

لكنه لما دخل من النافذة وجد الغرفة مظلمة ورأى فى وسطها منضدة وشم رائحة فأدرك أن فى المنزل سكاناً لأن الرائحة هى رائحة ويسكى. وكانت الزجاجة موجودة على المنضدة وبجانبها كأس وزجاجة من الصودا. ولما كانت النافذة لا تزال مفتوحة فقد تردد الذوق وهمّ بالعودة. ولكن فى هذه اللحظة أضيئت الغرفة ووقف عند الباب رجل فى يده مسدس وهو يقول: «من هذا؟»

فأجابه اللص: «حسن، استدع البوليس»

قال صاحب المنزل: «سأفعل» وفى نفس اللحظة دخلت سيدة فاختفت وراء صاحب المنزل وسألت: «ما هذا؟»

فقال صاحب المنزل: «إذهبى فاردندى المطعف وعودى إذا شئت فانظرى لصاً من أشهر اللصوص» وقال: «ألست الوغد الذى يدعونه بالذوق؟»

فابتسم اللص وقال: «نعم أنا الذوق ولكننى لست وغداً»

وكان الذوق فى الخامسة والثلاثين مهيب الطلعة يحمل وقاره رجال البوليس على رفع أيديهم بالسلام عند ما يرونه. وكانت ثيابه ثمينة وصوته يدل على السيطرة والنفوذ، وقال له صاحب المنزل: «ابق أنت» ثم مشى نحو آلة التلفون فجلس اللص أمام المنضدة ووضع رجلاً على رجل كأنه جالس فى منزله أو كأنه ضيف كريم

وطلب صاحب المنزل قسم بوليس «لايم ستريت» فقال اللص: «بل اطلب قسم بوليس (واردور) فهو أقرب مكاناً ونحن تابعون له»

قال صاحب المنزل: «كما تريد» وطلب القسم الذى أشار به الذوق، ثم قال فى سماعة التلفون. «من؟ مفتش البوليس؟ أرسل بعض جنودك الآن. أنا السير براندون برتون — شارع كوردوى رقم ١٦٢ — عندى لص. الأمر لا يدعو إلى عجلة شديدة فإنى أستطيع الانتظار حتى يحضر الجنود»

ثم ألقى السير برتون بالسماعة والتفت إلى اللص الجالس أمام المنضدة وقال: «مرحباً بك!» فقال الذوق: «إننى أعلم منك بأقسام البوليس وأنا فضلا عن ذلك أحب قسم واردور فإن سجنه من السجون الجديدة النظيفة» فقال السير: «إننى لم أر لصاً أبرد منك. ما مقدار العقوبة التى تظن أنه سيحكم عليك بها؟» ففكر الذوق لحظة ثم قال: «خمسة أعوام لأنهم سيسجنوننى مدة سابقة بسبب حكم

2017-11-11

لم ينفذ . وقد كنت فى الواقع لا أريد دخول هذا المنزل بل للمنزل المجاور وهو نادى السباق »

مضت بعد هـذا فترة فى صمت ثم قال السير وهو يشير إلى زجاجة الويسكى : « اشرب كأساً إذا شئت »

فشرب وشكره ومضت فترة صمت أخرى . ثم قال السير برتون : « ولكن لماذا كنت تريد أن تدخل فى نادى السباق ؟ »

فقال الدوق بلهجة تنم على الوثوق التـام : « لقد كنت أعلم من قبل باسم الجواد الذى سيربح فى السباق المقبل » فابتسم السـير وقال : « أنا كذلك أعلم »

فهز الدوق رأسه وقال : « أنت مخطئ فقد تغير العزم على منح الجائزة لجوادك : «وايت لادى» الذى كنت تعتقد حتى هـذه اللحظة أنه صاحب الجائزة »

فامتقع وجه السير لما رآه يصرح باسم الجواد وصاحبه . وقد كانت الحقيقة أن التدبير جرى من قبل فى النادى على أن ينال هذا الجواد الجائزة »

ثم قال اللص : « وكنت قد اشتريت أوراقاً للمراهنة على جوادك ، ولكننى بعتها واشتريت بمائة وخمسين جنيهاً أوراقاً أخرى على الجواد الآخر لكى أربح خمسة آلاف جنيه وجعلت أصدقائى من اللصوص على مثل ذلك »

وكانت لهجة الثقة التى يتكلم بها اللص داعية للسير برتون على تكرار الابتسام وقال : « لكنه من المحتمل أن تخسر » فقال الدوق : « إن هـذا مستحيل — لكن البوليس تأخر كثيراً »

وكان إبداؤه هـذه الملاحظة بمناسبة هى أن الساعة دقت الثانية بعد منتصف الليل . وقد نظر إليها اللص وأبدى تعجبه من ارتفاع صوتها حينما تدق دقة مزعجة مع أنها من أغلى طراز . فلم يجبه السير على هـذه الملاحظة ولكن سأله : « ما اسم الجواد الآخر ؟ »

قال الدوق : « ليس من حقى أن أخبرك لأن مصدر علمى يتعلق بمحادثة غرامية بين رجل أعزب وبين امرأة متزوجة . ولو أخبرتك باسم الجواد فقد تعرف هذه المرأة . وأرى مما يتنافى مع شرف الكبار من اللصوص أن يفعلوا ذلك . لقد كنت أسرق منزلا لأحد الأغنياء فوجدته مستيقظاً ومعه امرأة فاضطررت إلى الاختباء وسمعت الحديث الذى دار بينهما وهو عن التدبير الذى تم لتغيير الجواد الرابح . وقد كان هـذا التدبير لمصلحة الرجل وبواسطة تلك المرأة

وهنا دخلت اللادى برتون وقد دهشت عندما وجدت زوجها واللص يتحادثان كأنهما صديقان ووجدت اللص جالساً مطمئناً . وزادت دهشتها عندما وقف اللص ووقف زوجها للترحاب بها عند الدخول . وقالت لزوجها : « ما الذى فعلت ؟ ألم تستدع البوليس ؟ »

فتناول اللص كرسياً وأشار إليها بالجلوس فجلست وهى فى نهاية الدهشة مما تراه .

وقال السير : « انسى ما يقوله الدوق . لقد أخبرنى بأن العزم تغير فى نادى السباق ولن ينال

2017-11-11

الجائزة جوادنا « وايت لادى »

فنظرت اللادى فى حيرة إلى اللص وقالت : « ما هو الجواد الأخير ؟ »

فقال : « لا تسألينى فان القصة تمس شرف إحدى السيدات . وقد كنت منذ أسبوع أسرق بيت رجل غنى فجلست فى غرفة الاستقبال . وكان فى غرفة النوم سيدة متزوجة تتآمر مع الرجل على موضوع السباق »

ولاحظ الدوق ارتباك السيدة مما بدا فى نظراتها وصوتها . ولكن السير كان بطىء الملاحظة فلم يدرك شيئا من ذلك .

وقالت اللادى : « وهل رأيت السيدة ؟ »

فقال : « لقد لمحتها » فقال السير برتون : « هل هى زوجته ؟ »

قال : « كلا وقد قلت الآن إنها متزوجة »

قالت اللادى : « ولماذا لم تظهر نفسك ؟ »

فلاحظ السير على زوجته هذه الملاحظة : « كيف يستطيع إظهار نفسه ويتعرض للاعتقال ؟ »

فقالت : « إنه ما كان من الممكن أن يعتقل ما دامت المرأة التى معه متزوجة »

قال الدوق بأباء وترفع : « إننى لا أستغل الأسرار ولا أتجر بسوء السمعة »

* * *

استمر اللص فى سرد ما سمعه عن تغيير الجواد الرابح فاستأثر اهتمام السير لأنه وثق من صدق ما يسمع لما فيه من التفاصيل عن شئون النادي

وفى أثناء الكلام دق الجرس فاستأذن السير من اللص وذهب إلى الباب . وفى أثناء غيبته التفتت اللادى إلى اللص وقالت : « أرجو أن تسامحنى الآن، أليس المنزل الذى سمعت فيه هذا الحديث هو منزل اللورد آرثر جريفزلى ؟ »

قال : « نعم ولكن ما يدريك ذلك ؟ »

فقالت اللادى : « دع هذا التجاهل فانى أنا السيدة التى كانت هناك . ألم تكن تلك الليلة ليلة الأربعاء ؟ »

قال اللص : « أأنت مجنونة حتى تعترفى أمام مثلى بمثل هذا الاعتراف ؟ لكن سرك على كل حال مصون فى قلب يكتم الأسرار وقد كانت الليلة ليلة السبت وكانت المرأة امرأة غيرك »

وقد كان اللص يحسب هذا القول مطمئناً لها ولكنه أخطأ فان هذا القول لم يزدها إلا انزعاجا . وألحت عليه أن يخبرها باسم المرأة الأخرى .

وقالت إنها لاتهتم لنفسها ولا تعبأ بالسر ولكنها تهتم لأن اللورد يدعو إلى منزله امرأة غيرها . وأخذت تلمن وتسب وتقسم أنه لن يكون بينها وبين اللورد علاقة »

وفى أثناء الحديث عاد السير برتون وقال إن الذى كان يدق الجرس هو رجل البوليس وإنه صرفه بكذبة اخترعها وإنه يرجو من الدوق أن يخبره باسم الجواد الآخر

قال الدوق : « لاتتعب نفسك فانى لا أسمح بذكر حديث يؤدى إلى معرفة المرأة » فقال السير « عجيب والله أن يأتى لص فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ليلقى علينا درساً فى الأخلاق . قل وسأعطيك ماتريده من المال » فأبدى اللص علائم الاشمئزاز

2017-11-11

وقالت السيدة لزوجها : ليس مما يتفق مع مكانتك أن تساوم مثل هذا الرجل على ما أفهمك أنه سر .

ولكنها رأت إصرار زوجها وتشبث الدوق وضاق صدرها بسرهاوشعرت بأنها أحرجت فقالت: « ان الرجل الغنى الذى يتحدث عنه هو اللورد آرثر جريفزل والجواد الرابح جواده »

وقف الدوق مغضباً وقال : « هذا سر خطته »

ولكن اللادى خرجت باكية متعثرة وقد عرتها رعشة المضطرب فتبعها زوجها . ووقف اللص وحده وهو نادم على إفشاء السر أكثر من ندمه على أنه سارق

وبعد ساعة عاد السير برتون وهو أصفر الوجه خائر القوى وقال : « إن اللادى اعترفت لى بالحقيقة كلها وهى ترجو مكافأة على إطلاق حريتك الليلة أن تسرق لها الخطابات التى كتبتها إلى اللورد آرثر » .

فوعده الدوق بذلك

وفى الليلة التالية كان اللورد آرثر فى حجرة مدير البوليس السرى ليساعده على استكشاف جريمة

قال المدير : « ماهو الشىء المسروق ؟ » فقال: « رزمة من الخطابات يظهر أن اللص حسبها أوراقا مالية »

فقال مدير البوليس : « وما فائدة البحث عنها ؟ إن اللص سيمزقها كما كنت تفعل لو أعيدت إليك »

لكن مدير البوليس كان مخطئا فان اللص أخذها ليردها إلى اللادى برتون وقد نال فى مقابل ذلك جائزة هاجر بها من انجلترا إلى أمريكا وترك مهنته الدنيئة

عبد اللطيف النشار

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الطائب

أبى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

جنية البحر

للكاتب الفرنسي "جول لميتر"

بقلم السيد محمد العراوي

احتبست الريح عنها إذ هي تحاذي الشاطئ من جزيرة « جن البحر » فلم يعد أحد يسمع للرياح عواء ولا عويلاً، أو يسمع للموج هديراً ولا هزيماً، أو يدرك في اليم عوجاً ولا أمتاً ؛ فهو الآن هادئ سادر ، تتفجر الرهبة من جوانبه ، وتتبع الوحشة من نواحيه . وإذ رأى الركب ما رأى من عنت البحر وبأسه طوى الشراع للسارية ثم استكانوا

لقد كان أودسيوس وصحبه . فقد أحنقوا نبتيون الجبار ، فأرسل عليهم الرياح عذاباً فهي عاصفة قاصفة ، لا تبقي ولا تذر . وألب عليهم البحر عقاباً فهو تموس لا يستقيد ولا يلين . . لكم كان البحر لهم بلاء ، وأي بلاء ! وقد استعذبوها في سبيل رائيا كا !

واستمع أودسيوس لما نصحت به « سيرس » العاشقة ، فعجن الشمع ، وصبه في صاحبيه حجاباً كثيفاً ، وفي آذان صحبه فهم صم لا يسمعون . وشده الرجال — كما أمر — إلى السارية بحبال غلاظ شداد ، ثم طفقوا يزمجون عن السفينة زبد البحر الناضب

وكانت جنيات البحر يشهدن تقدم السفينة — من كهفهن — بصبر وشغف . حتى إذا مادخلت السفينة مجال السمع بدأن الغناء :

« أيها الناس هلموا ! فما من بنا رجل إلا سحر الغناء لبه ، وألهب حسه ، فانتقل إلى عالم الخلد مسروراً ، عالماً بما لم يكن يعلم في الحياة الأولى ... »

« نحن نعلم ما على الأرض جميعاً ، إن هي إلا أمنا ... ... »

ثم استوين جالسات على وصيد الكهف يلوحن بأيديهن فرحاً وطرباً ، مستبشرات بالقادمين النازلين ... أهلا وسهلا !

وكانت أصواتهن رقيقة ناعمة . يلفها ريح البحر المخم فيزيد من غموضها وجلالها ... يخالطها البحر بسحره وسلطانه فيجذب نحوها السامع كما تجذب النار الفراش ...

واصطرع أودسيوس على السارية بوثاقه . وطفق يجذبه وينحيه عنه في بأس وقوة ، ثم يدعو رجاله أن يفكوا وثاقه . ولكن الرجال أحكموا الوثاق ثانية ، وشدوه من جديد . ونظن «أوفريون» أحد أعوانه أن ذلك الغناء الذي هز رب الحكمة والجد فصارع الأغلال من أجله — لابد أن يكون جميلا ساحراً وليس بكثير أن يموت المرء من أجله فانتزع الشمع عن صاحبيه فسمع الغناء فاذا هو في لجة البحر وقاموس التبيج ، يصارع اليم المتدافع ويجالد الموج المادر ... سابحاً إلى « السرينات الصادحات » . وحزن السفر لما رأوا ، وعز عليهم أن يتركوا أخاهم للبم سيداً أو للجنيات غنماً ؛ ولكن أودسيوس — من فوق — دعاهم بنظرة راجية أن واصلوا السير علنا نبرح المكان فننجو من بلاء عظيم

***

2017-11-1

وسبح أوفرون بما أوتى من قوة العضل ، فقد كانت الرغبة الملحة تهتك صدره ، وتدفعه شهوة السباح فيسابق الريح إلى الصوت سبقاً

وكانت المياه اللامعة تدلف فى وهج الشمس ، آمنة إلى كهف بالشاطئ القريب ؛ والجنيات السبع قد اجتمعن على وصيده صادحات فرحات

وليس يخالف أن الجنيات غريبات التكوين ؛ فهن إلى ما بلى الحصور أبكار كواعب ، نحيلات الخصور ، مرتبات الصدور . وهن طويلات النحور حور العيون ؛ يعلو الجبين منهن شعر غزير أصفر كأنه سبائك الذهب ... وكانت أسنانهن مشدودة منضدة فى أفواه واسعة ركبت فى وجوه بريئة ضاحكة كوجوه الأطفال . أما ما بعد الخصور فتكسوه حراشيف ناتئة تعاوها فلوس لامعة . ويمكن للدانى منهن أن يرى أذيالهن — ذات الألوان الرائعة — تنبعص فى الماء تيهاً وعجباً

ولما اقترب منهن سكن الجوفلا غناء ولاصدى ، ثم تواثبن عليه توائب الذئاب على حمل وديع . وعلت صيحات العقبان المنقضة ؛ وجذبنه إلى داخل الكهف المعتم ، فنضون عنه الثياب ، ثم طرحنه على تل من عظام وجماجم ؛ إذ كان من دأب هؤلاء الجنيات أن يلتقطن من حطمت سفائنهم على شعاف الصخور البارزة فى قاموس البحر ليتمصمن دماءهم بشفاههن الملس المكتنزة

والآن تراءى لأوفرون أن إحداهن أقوى سحراً من أخواتها الأخر وأشد فتنة : فمناها تشمان مالا تشع عيون أخواتها من حنان وعطف فولاها وجهه ثم قال :

— إنى لأموت سعيداً بعد أن سمحت ما أطربنى من غناء عرائس البحر الحسان . ولكن لن يتم لى سعد أو تطيب لى نفس إلا أن أموت على يديك أنت من دون أخواتك جماء !

فجحظت عينا النانية من دهشة واستغراب ، منكرة عليه ثبات جنانه وهدوء نفسه ، إذ لم تعتد أن ترى وجهاً من وجوه ضحاياها الكثر يعبر عن الرغبة ويعرب عن العزم مثلما عبر هذا وأعرب . لقد كانت عيون ضحاياها لا تشف إلا عن فزع ورعب مميت . إلا حين ينهكها التعب فهى شاخصة لا تطرف ، أو يميها الهول فهى جاحظة لا تبصر . فما ليمنى هذا الرجل يلمع فيهما بريق العزم وضوء التفكير ؟

فاستدارت الجنية لأخواتها وقالت آمرة :

— تخلفن فان الغريب غنيمتى !

وأطاعتها الجنيات الأخر . فربما كان لها عليهن نفوذ وسطوة ، أو فى قلوبهن حب وحظوة . أو ربما كان ذاك جرياً على عرف تواضعن فى عليه قسمة الضحايا . فانفردت بالاغريقى تسائله عن اسمه وخبره فلما قص عليها منه ذكراً قالت :

— فديتك يا أوفرون ! لقد علقتك ! وما أظنها إلا المرة الأولى إذ أصرح فيها بالحب وأستشعر الهوى !

فسألها الاغريقى :

— وأنت ما اسمك يا عروس ؟

— ليكوسيا !

***

أما الجنيات الأخر فقد تركن المتحابين يعيشان فى سلام ودعة . ولعل ذلك كان جرياً على العرف الذى تواضعن عليه ، والذى لا نعلم من أمره شيئاً.

وكان بداخل الكهف مرج خصيب نبتو سطيع

2017-11-1

من ماء معين ؛ كان أوفربون يروى منه غلة الظمأ بعد أن يتغذى بلحم السمك السمين .

ولم تفارقه ليكوسيا بعد ذلك أبداً : فهما يسبحان حتى تكل سواعدهما وتهن قواهما . وهما الآن يسبح الموج وبعد حين على الأعراف ؛ وهما بجنب الشط طوراً وفى القاموس أطواراً . تضمه إلى صدرها بينما هى فى الوشل ، وتنفذ إلى صدره — بعد أن ترق شفاف الصخر الناتئة — فكأنها سهم مراش . حقا لقد كانا سعيدين تحت ضوء الشمس المشرقة . وكثيراً ماداعبا الحيتان فى عودتهما إلى الكهف الوقور .

وإذا جن الليل نامت الجنيات على الشاطىء تاركات أذيالهن فى الماء . أما أوفربون فكان ينام بالمرج فى أحضان ربة البحر ليكوسيا . ولم تكن أحضانها بذات دفء فيلتمس فيها ملاذاً من البرد ومأوى .

وكانا قليلا مايتحادثان . إذ لم تكن تلم ليكوسيا من الكلام إلا بما سمحت به إقامتها بشاطىء البحر الأبيض المتوسط . فهى تستطيع أن تسمى «السماء» و «البحر» و «الشمس» و «القمر» و «النجوم» كلا باسمه ؛ وأن تسمى الصخور قاطبة والسمك كافة . وهى تستطيع أن تقول إنى « أرى » و « أسمع » و « أعشق » ، وإنى « أريد » و « آمل » و « أفعل » . وكان هذا كل مالها من لغة .

وسألها أفربون يوماً « كنتن تتنفين — حين سمحت غناء كن من الفلك المسرع — بعلم مالا يعلم البشر . فهل لك أن ترينيه يا ليكوسيا ؟ »

ولكنها أفهمته بأن ما ذهبن إليه فى أغانيهن باطل ، لايقصدن به إلا الكيد وإثارة التطلع فى النفوس .. وصحيح ماقالت، فان الكلمات التى تتغنين بها والتى يسمعها أوفربون صباح مساء — لم تكن تدل على شىء محدود ، بل كانت تثير فى النفس مايثيره جمال الشروق وجلال الغروب ؛ وكانت تستمد قوة السحر من حنان أصواتهن الذى يأسر القلب البشرى ويعطله من الحكمة والعزم وقد وضح ذلك لأفربون وضوحاً ..

ولم تكن ليكوسيا غافلة عن أحزان حبيبها العزيز ، فكانت تنعشه بقبلات حارة ، وكانت تلقفه إذ هو يغوص فى البحر إعياءً لأنها كانت أوفى منه قواماً وألين عضلا . وقد تهبه ظهرها صهوة يمتطيها إذا كده النصب . ولكنها كانت تتبطه — إذا ما كانا فى المرج الخصيب — على جوارحه الماهرة التى لم يكن لها منها إلا ساعدان مجدولان لايثنيانها كثيراً إذ هى تسايره، وذيل يموّجها إذ هى تشائيه، واستشعرت قصور عقلها وذكاء عقله ، وأحست فوق ذلك — بنقصها رغم الخلود، وكماله رغم الفناء. لقد كانت تعلم أن عقله يعى مالا يعى عقلها من عوالم غريبة لاتعرف عنها قليلاً أو كثيراً ، فكانت تتبطه وتحسده لكل ذلك ثم ودت لو كانت بشراً سوياً .

وأخذ أوفربون على عاتقه أن يعلمها مالم تحط به ، ويبهها عما تجهل أفكاراً وصوراً . ولكنه تبين الفشل سريعاً . فقد كانت لاتستطيع أن تتصور مايقول أو تفقه له معنى . وكيف تفهم وهى تسمع ألفاظاً للمرة الأولى ! ثم كيف تفهم وهى لم تتخذ غير البحر مقاماً ومستقراً

وبدت له الحياة ثقيلة نوعاً : فقد زال عن ليكوسيا روعة الجديد وبهجته ، وتولى عنها سحر الغامض وجلاله . ثم ... ثم هى جنية لا تفنى

2017-11-1

الانسى شيئاً ؛ فلا هو من أصلها ولا هى من طينته ولا هى واجدة فيه ما ترتجى ، ولا هو واجد فيها ما يشتهى ... وران على قلبه الحزن. ألن يأتى عليها دهر تدرى فيه فتريحه ، أو تنقلب إنساً فتسعده وتعينه ؛ أو يأتى عليه حين ينقلب فيه إلى جنى فينسى آله وصحبه ، ويستريح من الجوى والحنين ؟

وجّ به الحنين إلى الوطن فتبره تتبيراً ... ففى الليل بينا يهجع فى أحضان ربة البحر تسبح أفكاره وراء البحر إلى عالم البشر . فيبصر بعين الخيال الواهم أنهاراً وغاباً ، وجنات وحقولا . ويبصر مدناً وخلقاً كثيراً .. ويرى الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، والراسيات على الشواطىء كالأطواد .. وينعطف بصره بغتة إلى المواخير غصت بالمربدين السكارى ... هم الآن فى شغل فكهون : أمامهم خمر عتيق لذة للشاربين ، تتهادى بينهم الغانيات النشاوى متثنيات ضاحكات مداعبات باسمات ؛ ينضدن على شعورهن اللامعة زهراً ناضراً وجميلا.. هن — دون شك — دقيقات الخصور ، ناعمات الأنوثة مثمرات الصدور ... مرهفات القوام ... رقيقات السواعد والأقدام ... و ... إلى آخر ما يصوره خيال المحروم

وحدث أن مرّ بالمكان فلك منكود جذبه سحر الصوت وترجيع الصدى فاستوى الفلك على صخور قريبة . وهرعت إليه الجنيات هادرات صاخبات . وانقضضن على ركبه — وقد أنشبن فيهم أنيابهن القاطعة — يمتصصن دماءهم الزكية . وتخلفت ليكوسيا عن أخواتها فلم تشاركهن الثناء أو النداء . وما كان ذلك ميلا عن الطبيعة أو عزوفاً عن الطعام ، ولكن مجاملة لأوفربون الحبيب . ولما علم أفربون بذلك حزن واستخذى . وأيقن أن الحب الذى مسّ قلبها عاجز أن يهبه الحنان خاصة تميزه . وأيقن — كذلك — أن العطف والحنان قد اختص بهما القلب البشرى دون العالمين

***

ليس يخاف أن جنيات البحر ينشقن الهواء فى البر والبحر على السواء . وقد سرت تلك الميزة إلى أفربون بعد أن هذبتها قوانين البشرية ، فهو يستطيع الصوم عن الهواء تحت الماء أكثر مما يستطيع غواص مجيد . وكان أحب اللهو إليه أن يغوص بقاع البحر بين صروح المرجان والعشب الجميل ، وأن يهيم بينها متعجباً لها ، فى حيرة من أمرها : أهى أزهار أم أحجار أم حيوان يشعر ويرى !

وقد عثر يوماً بقاع البحر على فلك محطم ووجد بين أنواحه وحسره صحافاً من ذهب وأوانى من خزف بديع . ووجد أكواباً وأباريق ، وقدراً من ذهب فى صندوق متين . وعثر على جواهر وقلائد ونطقاً من حرير ومرايا وأساور من فضة ثم عدة لوحات محاكى الطبيعة الساحرة

واستعان على إخراجها ليكوسيا ، فكانت خير معين . وقد حلى جيدها العاطل بقلادة وطفاء اللوائب والأهداب ؛ وذراعيها بأساور من فضة ، وطوق خصرها الدقيق بنطاق من حرير ، ثم ثبت فى يدها مرآة صافية

وملأ قلب ليكوسيا الفرح إذ ترى صورتها الجميلة فى مرآة صافية . وطفق أوفربون يفسر لها ما استعصى عليها فهمه ، وشرح لها ما تمثله اللوحات من مناظر الطبيعة . فبدأت ليكوسيا تفهم العالم الذى حاول أوفربون أن يهبها عنه فكرة ضئيلة . لقد

ألفته عالماً غريباً جذاباً . فقالت برنة الأسى ولهجة الحزن : « وددت لو فهمت ما في الأرض جميعاً . ولكن لن تنفى الوحدة ، فما أنا إلا درية بحر قدر عليها نينيون ألا تبرحه . » .

ودار بخلد أوفرون أن يستغل تلك الحسرة . فزين لها الرحيل إلى الأرض ، وحرضها على هجر اليم الصاخب إلى البر الوادع ... فهو يغريها بالوعود الخلابة والأماني الباسمة ؛ وهو يحدثها عن أشجار وأطيار ، ورياض وبساتين — أنشأها له خياله الخالق . وهو أخيراً يقص عليها من أخبار الناس كل طريف ... وما ذلك إلا ليهرب من جزيرة « جن البحر » وينقلب إلى أهله مسروراً :

— لو تستطيعين السير معي يا ليكوسيا لركبنا الموج إلى بلد يدعى « أثينا » لا يبعد عنا إلا سبح ثلاث ليالٍ .

— ولكني لا أستطيع أن أعيش على البر ، أو أمشيَ زمناً .

— سوف أعينك على أمرك : فاذا كنا بالبلد الأمين سآتيك بعربة كاحدى ما أريتك في اللوحات فتقلنا إلى حيث تهوى الدهاب . وسوف نحيا في نعيم بما نحمل من ذهب وغير وخير كثير ...

ولم يبح لها بما يكن فؤاده من شتى الأمور ..

ولم يكن صبح ثلاث ليال بمجز رية البحر ، ولكنه كان على إفرون بلاء عظيماً . وعلى أية حال فقد وصلا الأرض ؛ وهبطا شاطئاً غير ذي أهل ولا زرع . ولم تكن المدينة تبعد عنه طويلاً ، إذ كانت تتراءى على أبواب الأفق ، ولكن الطريق إليها كان وعراً متعباً . وطفق أوفرون يخصف على نفسه من ورق الشجر ما كساه كساء مقبولاً .

وسايرته الجنية يبديها فرحة مسرحة . ولكن السير مالبث أن آلمها ، وآذاها والحر مالبث أن خنق أنفاسها المتلاحقة المبهورة .. وسبقها أوفرون في المسير فنادته :

— أوفرون ! إن الأرض صعب سيرها شديد حرها . وقد حملتك فاحملي بدورك .

وما كان له أن يتخلى عنها فلا حبها يسمح ، ولا المروءة ترضى . فعاد وحملها فطوقته بزراعيها ، بينا ذيلها يثير خلفهما عثيراً وتراباً .

وتسايل العرق على وجهه المكدود ، وناء تحت حمله ، فوهت أعصابه وتمردت نفسه على ذلك الخلوق الذي يحمل ... وعجب لنفسه إذ يصطحبها ! فبالله ماذا يفعل بتلك السمكة الخنثى بين الناس ... ؟ ولم يكن منه إلا أن طرحها بعيداً عنه ، وعدا نحو المدينة مسرعاً . فأعولت ليكوسيا :

— أوفرون ! أوفرون الحبيب !

لقد كان التوسل يائساً حزيناً ، تحرك له قلب أوفرون فعاد وهو يقول :

— ألا فاصبري يا ليكوسيا ! فاني عائد بعد حين بعربة تقلنا للمدينة

— لا ! لا ! إني موقنة بأنك لن تعود ... إنك لم تعد تحبني لأني لا أحاكي الانس في شيء . وما ذاك ذنبي ! ألا فاذكر نعمتي عليك يا أوفرون إذ أنت إلى اليوم حيّ ... أتريد بعد ذلك فنائي وموتي ! ؟ يالك من جحود ... ! آه لو تعلم عظم التضحية ... إن الآلهة قد نضت عني ثوب الخلد لأني علقتك !

وضمت إليها يديها إذ تفيض الدموع من عينيها للمرة الأولى !

— أوفرون ! عطفاً علي !

— عطفاً ؟ ! عطفاً ؟ ! ما نطقت بتلك الكلمة من قبل !

— ذلك لأني لم « أقاس » حبًّا أو شقاء . إسمع إلي ! إني موقنة بأني حل يؤودك ، إلا إذا استوبت إنسانة تؤنسك وتؤسي جراحك . وما أجد عن

2017-11-11

حالي هـذه حولا ... على أن ما رأيت من عالمك أفزعني وأرعبني فلا يحزنك أسري ... ولا تبتئس إذ أعود اليم مرة أخرى ، فأسير سيرتي الأولى مع أخواتي القاسيات

— القاسيات !! أتى لك تلك اللفظة الأخرى؟!

— واحسرتا ؟ لقد علمتني أنت معناها !

ولم يعقب الرجل على ما قالت كلاماً . بل حملها بين ذراعيه وعاد إلى الشاطئ شديدي أسى كاسف بال . وابتسمت له ليكوسيا من بين الدموع الوا كفة نقادها الرجل إلى الشاطئ بلوعة الموجع وجوى العاشق المشفق

— وداعاً يا صاحبي !

— آه ! لو وهبك الاله من لدنه أقداماً !

— حسن يا صاحبي ! فليس لي أقدام ، ولا أود أن يكون . فالى بها من حاجة في هذا البحر اللجي . سوف أنسى كل شيء أو أحاول .. وسوف أسير سيرتي الأولى . وإن قدر لي أن أذكرك بين الماء والسماء فيا لسعدي وهنائي ! ولكني سأشفق على نفسي خشية أن يحطمها الهوى ... وسأشفق عليها مرة أخرى ... فما أشد خوفي أن أطرح بعد أن يسخط علي نبتيون الأعلى

وبكى أفرنون بكاء مراً . وصاح بها :

— كوني كما شاء نبتيون الطاغية ! ولكن تعالي ! تعالي نكن كما شئنا وشاء لنا الهوى !

وما كان أفرنون إلا أحمق وعجولا . وما منعه أن يأتي خاتمه إلا « زبتيس » الوادعة ! وقالت لها إذ تستوى في جلال الآلهة :

— لقد سرني أمركما وأطربني ، وإني لمجيبة بكاسوياء فأنت يا ليكوسيا قد أكرمت مثوى فارس صنديد ، ظاهر ولدي آخيلوس بن بيلوس إذ هو بنـار الحرب صال . وأنت — يا أفرنون — قد عطفت على إحدى فتياتي — ربة البحر ليكوسيا — وكنت من سؤلك قاب قوسين أو أدنى ... لقد أحب كل منكما أخاه وأعلى مقامه . وإني بكما لفرحة طروب ؛ وإن لكما عندي أحسن الجزاء فالنساء في واحد مما أرى ... أنا مستطيعة — يا ليكوسيا — أن أمحو — قبل أن أسرحك — ما تخلف بقلبك من ذكر هذا الآدمي . وأنا — أفرنون — زعيمة بأن أهبك هيئة الحوت مبقية لك على روحك الآدمي وعقلك ، كي تعيش مع ربة البحر وغداً سعيداً ... ولكني أفضل أن أهبكما السعادة كما ترغبان ... والآن يا ليكوسيا ! أأنضو عنك ثوب الخلد ثم تعيشين في دنياه إلى حين ؟

— يقيناً ! فما في الخلد من غناء !

— لا شكر لك ولا أجر !

— آه ! مولاتي ! لأجل بك الصنع وأولى ! كنت أتحدث عن نفسي !..

— لاتتريب عليك الآن . فاني أفهم ماتقولين جيداً . والآن ! أتصبحين آدمية ؟!

— نعم !

— إذن فكوني بشراً سويا !

ولمستها برعما الرشيق فاذا هي امرأة تسعى .

— والآن يافتاتي ! أسرعي إلى تلك الراهبة في ذلك الدير القريب واسألبها إزاراً وبرداً ثم سيري خلف فتاك ولا تمضي له أمراً ...

وعقل الفرح لسانيهما، وعطل الذهول حواسهما فما استطاعا شكراً ولا سجوداً ...

وانقتل العاشقان .. وابتسمت لهما إذ يودعانها.

ولكن ما أمر بسمتها ..! بسمة حزينة مشفقة! لقد خامرها الشك فيما وهبت من سعادة ونعمة.

السيد محمد العزاوي

2017-11-11

من القصص الآلام

سارق الأطفال

للكاتبين القصصيين "إركمان وشاتريان"

بقلم السيد صالح الدين المنجد

في سنة ١٨٧٠ ، كان يُرى في مدينة « مايانس » ، امرأة شاحبة الجسم فارهة القد ؛ قد لصب خدّاها ، وسهمت عيناها ونال منها السقم والضنا ، تمثل في الشوارع ، وتطوف الأحياء وتضمنم بصوت خافت حزين : دوبش ... دوبش ... أين أنت يولدي .. !

كانت تسمى « كريستين » وكانت صورة للجنون المتصل والألم الدائم . فقدت عقلها بعد أن اختطفوا منها طفلها الصغير قبل عامين وهي تتنزه في شارع « الفوارب الثلاثة » في عتمة الليل العابسة . فصاحت آنئذ وعَدَتْ ، ثم أعولت ونادت ، ثم فتشت عنه في كل مكان .. حتى في البحر المضطرب العميق ، وسألت عنه من رأته ، من أطفال ووالدان .. ولكنها ، وآسفاه ، لم تجد له أثراً في البحر ، ولم يحدثها عنه إنسان ..

من ذلك اليوم . لم تتمتع كريستين بالعيش أبداً . أصبحت لا تطأ أرض دارها التي صارت رهناً للبلى إلا قليلا ، ولا تذوق عيناها المذعورتان طعم النوم إلا غراراً . فهي هائمة على وجهها في الشوارع والطرقات . تنادي ابنها بصوت يرتفع تارة فيرعب ، ثم ينخفض أخرى حتى ما تسمع منه سوى زفرات تتصعد ، وأنات ترسل ، وجمجمة تمزق الصدر وتلهب الحشا ، وحتى لا يتمالك الناظر إليها من الرثاء لها والاشفاق عليها ، فيقدم لها من الطعام ما تأكله ، ويجود عليها من الخرق الممزقة بما تلبسه . مسكينة ! لقد كانت القلوب تتفطر حزناً لمنظرها وتتصدع أسى ، وكان نداؤها لابنها حزيناً باكياً ، يستدعي الرحمة ويستدر الشؤون .

ولم تكن كريستين وحيدة في هذا المصاب ، إذ فقد كثير من الأشراف أبناءهم ، ولقد حاولوا عبثاً معرفة أولئك اللصوص الذين يتكلون الأمهات إذا ما جاء الليل وابتلع الكون ، وأقفرت الشوارع . وعلى الرغم مما بذله هؤلاء الأشراف من جهد ، وما أنفقوا من مال ، فان السارقين بقوا مجهولين لا يعرف مقرهم ولا يهتدى إليه .

ففي إحدى أمسي أكتوبر من تلك السنة ، جلست كريستين إلى عين ماء ، بعد أن طافت المدينة وزارت الأحياء . وقد قص شعرها الرمادي ، وافبر وجهها الشاحب الكئيب ، وأخذت تنظر حولها بعينين تائهتين تارة ، وترق ببصرها الحائر إلى السماء أخرى .. كأنها تسأل الأرض والسماء والكون عن وليدها المفقود . وكانت الخادمات يأتين إلى النبع ليملأن جرارهن ويرجعن عجالاً ، لا يقفن كعادتهن ليتحدثن بما يقع لهن في الليل أو النهار من حوادث ،

تعريف

إيركمان وشاتريان أديبان فرنسيان كبيران ، أصدرا معا ، كثيراً من الروايات والأقاصيص التاريخية . وقد اشتهرا بأسلوبهما الذي تغلب عليه السهولة في التعبير ، والدقة في الوصف .

وقد أجادا في وصف عادات أهل الأرياف الأقدمين ، ومن أشهر مؤلفاتهما : الصديق فريتز ، مدام تيريز وغيرهما

ومايسمعنه من أخبار ، وكانت المجنونة ساهمة واجمة . لا تتحرك ولا تتكلم . وكان المطر يرش رشاً خفيفاً . وقد بدأ الظلام يغمر الشوارع ويظلل الدور .

ودقت الساعة السابعة . فلم تتحرك كريستين ، بل راحت تجمجم : دوبش .. أين أنت يادوبش .. وفجأة انتبهت عيناها ، وتقلص جسمها ، وتطاول عنقها وأخذت تنظر ... إلى امرأة كانت تمر فى الجانب الثانى من الشارع ، وقد التفت بثوب فضفاض وحملت بين يديها فى قطعة من قماش شيئاً يلبط ويتحرك ، ويقفز يريد الخلاص

وكان منظر المرأة يثير فى النفس الشك والريب وكانت تتمدو كسارق يريد الاختفاء عن الأعين . فاعترت كريستين هزة عنيفة . . فراحت ترتجف وتتمتم كلمات مبهمة غريبة . ثم قفزت فجأة وانطلقت تعدو فى أثر المرأة وتنادي بصوت مرعب : السارق السارق ... اقبضوا عليه .. اقبضوا عليه ..!

ولكنها ماكادت تلحق بها حتى اختفت المرأة فجأة.. كأنما ابتلعتها الأرض !

هنا لك .. وقفت كريستين تبكى .. لقد كادت تعرف مقر ابنها . ولكن . . ولكن وآ أسفاه ، اختفت السارقة فى هذا الظلام المرهب ، وساد السكون .. فلا صوت إلا خرير الشلال المتساقط البعيد .

وراحت المجنونة تلطم على وجهها ، وفى صدرها كلام تجمجمه كأنه أزيز القدر ، وفى ناظريها وميض يرعب ويخيف ، ثم عادت أدراجها ، ومرت بشارع الفوارب الثلاثة وهى تتمايل كالسكران ، واجتازت ساحة غوتنبرغ وقصدت إلى مقر رئيس الشرطة .

ورأته فى غرفته ، وفى يده قدح من الشاى ، فقالت له وهى تبكي :

— سيدى الرئيس .. لقد عرفت سارقة الأطفال . . اسرع ياسيدى واصغ إلى . . ! وكان رئيس الشرطة ذا قلب كالحجارة أو أشد قسوة ، وكان ضيق الصدر متبرماً بالناس ، يحب الإخلاد إلى الراحة إذا أسدف الليل وأكل الظلام . فأزعجه مرأى هذه المجنونة فنادى بها مغتاظاً :

— يا إلهى ! ألا أستريح لحظة واحدة طوال النهار ؟ أرأيتم بالله مخلوقاً أتعس منى أو أشقى . . ؟ ماذا تريدين منى . . ؟ لم تركتموها تدخل . .؟

— آه ياسيدى . ! تسأل إن كان هناك مخلوق أتعس منك.. أنظر إلى..أنظر إلى ياسيدي.. هه..أنا مجنونة ؟. لقد كنت ذلك قبل أعوام ..! اما الآن. هه . . هه . . لقد رأيتها ياسيدى تحمل طفلاً . . أقسم لك .. آه أين أنت يادوبش .. ياولدى ..!

— عليك وعلى طفلك ، وعلى السارقة اللعنة. اعزبى عن وجهى . . حقاً إنك مزعجة . هانس .. أطرد هذه المرأة .. اسرع .. ياهانس اسرع !

فجاء الخادم وحيا الرئيس فقال له :

— أطرد هذه المرأة . وغداً سأطلب زجها فى السجن .. هيا أخرجها .

عندئذ راحت كريستين تضحك . . وتقهقه وتنفي .. فجاء اليها الخادم وقد امتلأت نفسه شفقة عليها وقال :

— هيا يا كريستين .. هيا .. تعالى واخرجى .

وعاودها الجنون . . فخرجت تنادى : دوبش دوبش أين أنت ياولدي ..!

***

وفى الوقت الذى راحت المجنونة تنادى طفلها ، كانت مركبة رئيس الحرس الامبراطورى تجرى فى شارع « إرسنين » ثم تتوجه نحو مقر صاحب الشرطة

وترك الكونت رئيس الحرس مركبته وقصد دار الرئيس بلباسه الرسمى الأخاذ ، وكان فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أشقر اللحية والشعر ، آتاه الله بسطة فى الجسم وقسوة فى الطبع . فرأته كريستين فضحكت منه ، ثم دخل على رئيس الشرطة فجأة وقال له :

— سيدى رئيس الشرطة ! إن حراسك كسالى متقاعسون . منذ عشرين دقيقة وقفت مركبتى أمام باب الكنيسة الكبرى فرأيت الكونتيس م ... ، فتركت طفلى فى المركبة وجئت لأستقبلها ، ولما عدت إلى المركبة لم أجد طفلى ... لقد حاولت أن أعرف السارق ولكننى فشلت ، لقد يئست من معرفتهم ... لقد يئست !

وسكت الكونت ، وجفف دمعتين محرقتين انحدرتا على خديه ... وتنحنح رئيس الشرطة وأراد أن يؤجل أمر البحث عن الطفل إلى الغد .. ولكن الكونت قال :

— إننى سأتمم ... إن عليك أن تحضر لى ولدى ... وإن عليك أن تسهر على راحة الناس .. إنك مهمل ... حذار ... حذار ... منى ، أتسمع ؟

وكان العرق يتصبب من جبين رئيس الشرطة على الرغم من البرد القارس ، فقال له :

— إنه الولد العاشر يا مولاى ... ! ماذا تريد منى أن أفعل .. ! إن السارقين مهرة جداً .. وإنهم لـ..

— ماذا أريد أن تفعل .. ؟ أهذا جوابك لأب يطلب ابنه منك ... ؟ آه يا ...

— هدئ روعك يا مولاى ... لقد كانت هنا منذ دقائق ... امرأة مجنونة ... اسمها كريستين لقد قالت لى .. إننى أذكر .. نعم ، هانس .. هانس

وجاء الخادم فقال له الرئيس :

— فتش عن كريستين

— إنها لا تزال هنا يا سيدى

— دعها إذن تدخل

— إجلس يا مولاى الكونت ... إجلس

ودخلت كريستين فقال رئيس الشرطة :

— مولاى ... لقد فقدت هذه المرأة ولدها منذ عامين ... وفقدت بعد ذلك عقلها ...

ورأرأ الدمع فى عينى الكونت وقال :

— ثم ماذا !

— لقد جاءت إلىّ وقالت ... لى ...

— تكلم ماذا قالت لك ؟

— قالت لى إنها رأت امرأة تحمل طفلا

— وأين هذه المرأة ؟

— لقد حسبت أنها تهذى فطردتها ...

— طردتها ... !

— نعم ... نعم ... حسبت ...

فاغتاظ الكونت وثار وصاح :

— يا لك من ... إنك تمين السارقين . آه ! أنا ما رأيت رجلا أصفق منك وجهاً .. إنك لجبان .. حذار منى ... لئن لم تجد لى ولدى لأقتلنك ، ثم لأمثلن بك ، ولأطرحنك إلى الكلاب ... !

وترك رئيس الشرطة يرتجف خوفاً وفرقاً ، وقال لكريستين :

— أيتها المرأة... أجيبيني ... أين رأيت السارقة ؟

— دوبش ... دوبش ... لقد قتلوه

— لكن أين السارقة ؟

— واحسرتاه ! إنهم قتلوه ... نعم قتلوه ...

وتركت الكونت ينظر إليها ، وانثنت راجعة من حيث أتت وهي تبكي وتنادي: دوبش... دوبش أين أنت يا ولدي ؟ ...

وهبّ الكونت ليلحق بها فناداه رئيس الشرطة

— سيدي الكونت ...

— صه يا ...

وراحت المجنونة تندب وهي تتمتم ألفاظاً سقيمة الجرس، غريبة اللحن، والكونت يتبعها ويقول لنفسه:

— لقد ضاع الولد، وخاب الأمل ... إن هذه المرأة لا تدري ما تفعل ولكن ... من يدري لعلّ شعورها الخفي يقودها نحو مكان السارقة فلأتبعها إذن على أن أنقذ الطفل وأرجعه إليّ

مضى الكونت في طريقه يتبع خطوات كريستين . وكان يراها على الرغم من الظلام الدامس والضباب الكثيف الذي غمر المدينة ، ويسمع أنينها وزفراتها على الرغم من الهواء السكران النائح . ووهن الليل ... ثم عسعس ، وما زالت كريستين تمشي ... لقد طافت حول المدينة والكونت وراءها تدفعه الأماني ، وتقوده عاطفة الأبوّة الحائرة ، ووصلت إلى النبع الذي تركته لتلحق بالسارقة عند ما كان الليل طفلا ... وكانت تتمتم كلمات تبعث في النفس الحزن والكآبة . وأظلمت الدنيا في عيني الأب المفجوع ... فراح يدعو ربه . وكان القمر يظهر من وراء الغيوم تارة ويختفي أخرى ، فينير الأرض مرة ، وينشر عليها رداء رقيقاً من الحزن مرات ... وفجأة انطلقت المجنونة كالسهم ... إلى أحد الشوارع ... فتبعها الكونت ... وكادت أن تختفي عنه ، ثم اختفت ، وضاعت في الظلام

وحار الكونت في أمره ، ثم رأى نوراً يظهر تارة ، ثم يختفي من ثقب في زاوية الشارع ، كان مصدره نفق في الأرض ، فتقدم نحوه ، فرأى كريستين واقفة تبكي... فلما رأت الكونت نادت : هذا بيت السارقة ... لقد رأيتها الآن ... إنها هنا ، فبرقت عينا الكونت ... وثار ثأره وحطم باب الدار ودخل ووراءه كريستين

ودقت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل في كنيسة القديس إنياس

وسمع الكونت وقع أقدام ، ثم بكاء طفل ، كأنما سلط عليه العذاب... ثم رأى عجوزاً محدودبة الظهر ... في غرفة صغيرة ... تذبح طفلا ... لم يتبينه ، فجن جنونه ، وفقد وعيه ... وقفز نحوها ولكنه تدحرج سريعاً إلى هوة عميقة مظلمة ... !

وتنبهت المرأة ... وانطفأ المصباح ... وساد الظلام في الدار ... فراحت المجنونة تنادي ابنها دوبش ، وراح الكونت ينادي طفله الصغير ... وراحت العجوز تقهقه وتضحك

وسمعت أصوات تصدر من الدار ... واشتد اللغط ... والمجنونة تنادي ، والكونت يصيح ، والعجوز تجيب

— انتظروا قليلا ... سأعطيكم ما تريدون ... أولادكم ... أليس كذلك ؟

أخرجوا يا ... هيا وإلا أحطمكم بهم ...

وأشعل المصباح ... وتقدمت العجوز ...

2017-11-1

فرأتها المجنونة فوثبت إليها ... ولكن ... مسكينة لقد اجتذبتها العجوز إليها ثم أهوت عليها بطعنة تركتها ثنى فى الأرض وتصيح

وقام الكونت ... فتألب عليه جمع من النساء لم يدر من أين أتين، ألفظتهن الأرض، أم أرسلتهن السماء ... وجرّد الكونت سيفه وضرب إحداهن ففرون ... فتبع العجوز ... واقتحم إحدى الغرف وهناك سقط مغشياً عليه لا يحس ولا يعى ...

لقد رأى ابنه مذبوحاً ..! نعم مذبوحاً يا قارئى ورأى رأسه يتدحرج فى أرض الغرفة ، وأبصر يديه وقدميه ، وقد تمزق جسمه ، وسال هنا وهناك دمه ، وأبصر الجماجم والرؤوس معلقة على جدران الغرفة ، والفؤوس والمدى مبعثرة فى جوانبها ... آه ! يا للوحشية ! ويا للفظاعة !

***

لم يستفق الكونت من غشيته إلا فى صباح الغد فوجد نفسه فى قصره بين الخدم والحراس ... إذ ألقته المرأة فى زقاق بعيد عن دارها بعد أن أشبعته طعناً بالمدى . فنقله المسس إلى قصره بعد أن عرفوه

وعلمت آنئذ أن تلك المرأة كانت تبيع اللحم ! تخطف الأطفال ... وتذبحهم ، ثم تبيع لحومهم الطرية للناس يساعدها أربع نساء فى دارها

وفى تلك الليلة اختفت سارقة الأطفال ... ولم تظهر بعد ذلك اليوم أبداً ...

***

ترى ماذا يبقى فى المرأة إذا جردتها من عاطفة الأمومة ، وحب الأطفال ؟ ...

« دمشق » صدوح الدين النجم

الصيف خفيف هذا العام

لان

شركة مصر للغـــزل والنسج

تقدم لكم المنسوجات القطنية

الخفيفة على اختلاف انواعها

معتدلة فى أثمانها جميلة فى ألوانها

فبادروا في اخذ طلباتكم

فنان

للكاتب الايطالي "أدريانو رُوكولي"

بقلم الأديب محمد حسني

قال الكونتس :

— هل شاهدت الكنيسة الصغيرة المشيدة على ذروة مونت سان فوستو ؟

فأجابها أرتورو أندولي بسرعة عجيبة قائلا :

— أجل يا كونتس، زرتها منذ ثلاث سنوات خلت، وهي بديعة جداً ، وإني لأذكر أن قدمي زلقت في منتصف الطريق أثناء صعودي فسقطت إلى جانب الماء المتدفق هناك وأصبت ركبتي برض فاستدعيت الطبيب في اليوم التالي ، وإنه لطبيب نطاسي لا نظير له ، وقد عالجني بأسلوب غريب ..

وعند ذلك أنشأ أرتورو يفيض في الحديث ، فروى سيرة الطبيب ، والوسائل التي يعمد إليها في علاج الرضوض ، ثم خرج من ذلك إلى ذكر بعض أزهار معينة كان قد اقتطفها من سفح مونت سان فوستو

وهكذا سقط موضوع الكنيسة الصغيرة من الحديث ذي الشجون

وفي الواقع أن الكونتس عراها بعض الدهش لما ذكر الماء المتدفق ، غير أنها ظنت أنه ربما كان هناك ماء مهمر منذ ثلاث سنوات ثم غير طريقه فسلك مسرباً آخر . وعلى أية حال فقد كانت تصغي إلى القصة الصغيرة وتبتسم وعلى وجهها أمارات الرضا

كان هذا شأن الكونتس ؛ أما أنا فإني أقسم أن الرجل ما غشي تلك الكنيسة قط ، بل إن بصره لم يقع عليها حتى من بعيد ، وفي مقدوري أن أحلف غير حانث أنه لا يدري أين موقع ذلك الجبل

لقد عرفت أرتورو منذ أمد بعيد فعرفت فيه الكذب ، وكان يكذب على الكونتس

ولكن لماذا يكذب ؟

لعله يسوؤه أن يُعرف عنه أنه لم يصعد مونت سان فوستو ، أو لعله يستروح تسلية في مجرد قوله « نعم » بينما قد يقول الآخرون « كلا » ، ثم هو سيسرد قصة ولا ريب متى أجاب « بنعم »

إن الرجل أستاذ كبير في فن اختلاق الأكاذيب، وملم بفنه الإلمام كله، فيعرف الابتسامة التي تنم عن شيء بينما يكون الفكر منصرفاً إلى شيء آخر، كما يعرف أسول القصة الملفقة التي ينبغي أن ترتجل ارتجالا في برهة قصيرة إذا استدعى المقام فجأة إنقاذ الموقف ، أو إخفاء بعض الظروف ، أو القضاء على شبهات وريب

وإنك لتراه وهو يكذب ثابت الجنان هادئ النفس وعلى وجهه الناعم المورد أثر السوداء والحزن كأن الصدق الذي يلقيه يجشمه بعض الجهد ، وكأنه لا يفضي به إلا إلى خلصائه ومن يثق بهم ، وما نعني بصدقه إلا الأحاديث التي يبتكرها من العدم ونسميها نحن الكذب

ولأرتورو صوت منسجم هادئ دائماً ، ونظرات صريحة فيها ما يذكرك بنظرات النساء ، ولسانيه أهداب وُطف ، وهما واسنتان وتبان عن

ذكاء صاحبها فى الاختراع والتأليف ، وتنظران إليك باقناع لطيف يسل من نفسك أى شك يقوم وتكاد ابتسامته أن تكون مهمة غامضة إلا أن الهيب ظاهر فيها ، وتراها فتري التوسل وطلب المعونة والتماس الموافقة

وبذلك الصوت ، وتلك النظرات ، وهذه الابتسامة استمان ارتورو على الكذب كما استمان أيضاً بذلك الجمال البارع الرائع الذى أغرغته عليه الطبيعة إفراغا

وقد دأب على الكذب نيفاً وثلاثين سنة بلا وجل ولا فتور وكأنه مكلف بأداء واجب مقدس. ويكذب فى العظيم من الأمور وفى الصغير منها ، إما رغبة فى الكذب كما سمعت من حديثه مع الكونتس ، أو تظاهرا بالورع والتقوى ، أو إشباعا لرغبة سيئة ، أو اضطلاعا بالتزام اجتماعى ، أو لمجرد التغرير والايقاع بالغير

ثم إن الطبيعة حبته نعمة تعينه على ما هو بسبيله دوما ، وإنى أرى هذه النعمة من أتم الأشياء له ، وهى ذاكرة هائلة عظيمة

وإن الذاكرة الواعية التى يستخدمها الناس فى شؤون حياتهم لايعدها ارتورو شيئاً ذا قيمة إن لم تكن معينة له ومسعفة فى ميدان الكذب

وبفضل هذه الموهبة النادرة جداً والمثيرة للحسد يفصل ارتورو العجائب ويأتى بالدهش المستغرب

ومن أمثال ذلك أنه بلد له ويطيب فى بعض الأحايين أن يخبر أناساً مختلفين بأكاذيب مختلفة تدور جميعها على أمر واحد معين ، ثم هو يخترع لكل فرد منهم تفصيلات يرويها للآخر على صورة تباين الأولى وتخالفها ، وقد يعيد بعد شهر أو عام أكاذيبه كما رواها لكل واحد دون أن يخرم منها حرفا

وقد خيل إلى بادىء ذى بدء أن الرجل يستعين بمذكرة يدون فيها أعظم ترهاته وأكبر أكاذيبه ويثبت فيها أيضاً أسماء ضحاياه، غير أنى مالبثت أن أبعدت هذا الرأى . لأنه لو عمد إلى مانخيله وتوهمته لما وسعت خرافاته المجلدات مهما كثرت ، إذن فالأمر الذى لايرقى اليه شك أنه يطبع كل كذبة يرسلها على صفحات عقله وناعيك به من طبع لايمحوه كر الأعوام

وإذا اتفق وذكرته مثلا بألوان القصص الخرافية التى حباني بها وحدى فى غضون سني صداقتنا الطويلة لما أعجزه أن يعيد على مسمعى رغم الأعوام التى تصرمت أول أكذوبة آنحفنى بها ..

ثم هو فى غنى بعد عن أن يتذكر دائماً كل شىء بحذافيره فلو تصادف أن تمتر فى حديث له فانه يبادر إلى إصلاح ما أفسد بمهارة لايكاد يصدقها العقل ، وهكذا ينشل نفسه من نفسه ويخلف السامع مشدوها فاغراً فاه

ولم تعرف زوجة ارتورو (نعم ان لارتورو زوجة ... ألا يمكنك أن تتصورها ؟ ... يالها من امرأة مسكينة) من أمور بعلها إلا ما يطيب له هو أن يطلعها عليه كأن يخبرها بقصة يحشوها بالاغراق فى المبالغة ، أو يروى لها حكاية مضحكة أو أي شىء آخر ، إلا الصدق ...

سافر ارتورو مرة إلى روما فلما آب اتفق أن سألته زوجه عمن رأى هناك فذكر أسماء عديدة من جملتها اسم الكونت سجاربجى

2017-11-11

وفى مساء نفس اليوم ، وكانا على الطعام مع آخرين اتفق أن قال فى كلام له :

— وهل تعلمين أن سجاربى كان هناك أيضاً ؟

فقاطعته زوجته بقولها :

— ولكن أليس سجاربى فى روما كما قلت ؟

فقال فوره :

— هذا هو أخوه ، وأنت تعرفينه أيضاً

— لا يا عزيزى

— لا ، بل تعرفينه يا عزيزتى

وجرت بعد ذلك مناقشة قصيرة جهدت السيدة المسكينة خلالها أن تتذكر سجاربى الآخر الذى يزعم بعلها أنها تعرفه أيضاً ، ولم تطرح على زوجها سؤالا يبدد حيرتها فقاتها فرصة الاهتداء إلى الحقيقة

وكنت من جملة الجالسين إلى المائدة فسألت نفسى بقولى : ترى أى الرجلين موجود فى هذه الحياة الدنيا ، سجاربى روما أم سجاربى ميلان ؟ ولماذا اخترع أرتورو وجود واحد فى العاصمة وآخر فى مدينة ؟

إننا جميعاً نعلم علم اليقين أن ليس فى العالم كله سوى واحد يدعى كونت سجاربى ، ولكن أين هو الآن ، أفى روما أم فى ميلان ؟.. وظل السر فى بطن الكذاب الأعظم

وإذا ضبط أرتورو فى أكذوبة أو أحرج فانه لا يتردد برهة فى سوق البراهين على أنك مخطئ ، وأنك لم تفهمه كما يجب ، وربما يتواضع ويقول إنه لم يوضح حديثه جيداً ولذلك نبت الشك فيه

ولأجل أن يبرر فى وضوح وجلاء عما يقصده يعمد إلى تشييد قصة أخرى حول قصته فاذا أردت أن تتفهم تماماً ماوراءه أولا وأخيراً لتبين عليك أن تنفذ خلال ذلك التيه من التفصيلات والجزئيات والحواشى ... وهذه خطة عسيرة ومراد مرهق فلا يسمك إلا الرضا بالتسليم ، وقد تتهم نفسك بأنك لم تفهم أقواله جيداً كما ألقى الفنان فى روعك

إذن هو ما أراد التوضيح والتفسير بل التعجيز والارهاق ...

وقد يكذب ليطيع روحه الخيالية أو مزاجه المتقلب الغريب الأطوار

خرج ذات صباح للتروض غير أنه بدل أن يعود مساء أو بعد مومن من الليل انقطع عن بيته وأهله ثلاثة أيام سويا

وليس فى غياب ثلاثة أيام ضرر عظيم ، بل وليس ثمة ما يمنع النائب عن الاعتراف بالسبب الذى غيبه عن بيته ، وأى إنسان يمكنه أن يعلن فى صراحة كيف قضى أيام غيبته ، إلا أن أرتورو ليس بالرجل العادى فلا تطلب منه ما تطلب من سواه

وأرتورو أكبر وأعظم من أن يدع تلك الفرصة تمر دون أن يطلق لخياله الخصب العنان ويصوغ سلسلة من الحوادث المعقدة وإن لم تقع قط

وارتجل أرتورو كذبة بارعة بدون أن يجهد فكره فكان مثله فى ذلك مثل الفنان القدير الذى يخرج فى زمن قصير أبدع الطرائف وأثمن القطع الفنية التى لا يتأتى للفنانين الآخرين إخراج مثلها إلا بعد عناء ومشقة تطول أعواماً

طلع على أهله بأنه اشترك فى مبارزة ، وعلل غيابه الطويل بقوله إن تسوية المسائل المتصلة بالشرف ليست من الأمور الهينة التى تعالج بسرعة فى يسر ويقضى فيها بدون روية واهتمام عظيم ... ثم لابد

2017-11-1

قبل المبارزة من اختيار الميدان وانتخاب السلاح والموافقة على الشروط

وقد بارز بجرح منازله ...

ولكن ماذا جرى له هو ؟

لم يصب ولا يخدش خفيف ، أدره وأدره ، وانظر إليه من كل ناحية ... لم يصب ولا يخدش خفيف ...

وتم كل شيء على أحسن ما اشتهي ورام ، وقد طعن بسيفه ذراع غريمه طعنة جعلته الآن طريح الفراش ...

ويصيح أحد أقاربه قائلا :

يالها من حادثة ! أتجازف بحياتك ، ولكن لماذا ؟

وكان ارتورو لم يفكر بعد ذلك في اختلاق سبب المبارزة ، والمرء لا يبارز رغبة في أن يرى جسده مشختا بالجراح ... وكان القصاص الأعظم لم يقدر أثناء الكلام هذا السؤال بل ولم يدخله في حسابه ، وإن كان من المعقول والمنتظر أن يأتي السؤال

وسمع ارتورو السؤال دون أن تهتز له شعرة ، ولم يزد على أن ابتسم ابتسامة الحذر الأريب ، ثم ألقى نظرة لطيفة متوسلة فأدركوا جميعا ما شاء أن يدركوه

إن من أسباب المبارزات أسبابا لا تفشى ...

إنه شرف امرأة .. أو إنه فضيحة امرأة (والشرف والفضيحة كلمتان مترادفتان في بعض الأحوال)

وقال قريب آخر له ولع بالمنطق :

— ستتسرب أنباء الفضيحة إذ ستنشر الصحف كل المسألة من ألفها إلى يائها ...

فقاطعه ارتورو بقوله :

— أنت تهذي ، سترى أن الصحف لن تشير إلى شيء فلقد مررت مع الشهود على دورها ولم أزل بالشرفيين على تحريرها حتى استخلصت منهم وعدا بألا ينشر شيء . أجل لن يقولوا كلمة واحدة ، وستصدر الصحف غدا وليس في واحدة منها كلمة عن المبارزة . وأتوسل إليكم أنتم أيضا أن تصونوا سري ، وإني ما بثثتكم إياه إلا لأن المرء الكريم لا يضمر شيئا دون أهله ونائه ... وأتضرع إليكم ألا تستمروا سرى على نحو ما !

فبادر السامعون إلى رفع أصابعهم إلى شفاههم ووقفوا جامدين وكأنهم يتآمرون . وجعل ارتورو يتصفح وجوههم وجها وجها ثم ابتسم وآوى إلى فراشه ... يالله من فتان !

ولم تنشر صحف الصباح إلى المبارزة ... وكان ارتورو قد أمر بابتياع كل الصحف ، فلما جيء له بها راح يقلب طرفه فيها باهتمام كبير ، هذا وأهله حوله وقد علقوا أنفاسهم من فرط القلق

ولا كلمة واحدة ...

لقد بر الصحفيون بوعدهم ...

وأجال ارتورو بصره فيما حوله وعلى فمه مثل تلك الابتسامة التي أجلاها أمس ، وقد افتر لما رأى القلق مرتسما على وجوه ذويه

وقال بينه وبين نفسه : حبذا الأهل البررة ، لقد ابتلعوا جميعا الكذبة ، يالها من مزحة !

وليس أرتورو دائما بالرجل الفاضل المحب للنظام إذ قد تصادفه حال يكشف فيها عن مثل براثن الأسد ، وذلك حين لا يكون ممازحا أو متهكما في حديث سداه الغرابة ولحمته التهويل ؛ ثم تواجهه حاجة قد أوجدتها ضرورة ملحة من ضرورات حياته اليومية

2017-11-1

وإنك لتراه إذا ركب ذلك المركب متأهباً فى صبر وجلادة لتنفيذ أية مكيدة وتدبير أية خطة ، ويفعل ذلك قبل وقوع الأمر بأشهر

وقد يلقى فى حديثه كلمة اليوم ، ويدس أخرى غداً ، وثالثة بعد أسبوعين ، وهذا شأنه إذا ما أراد أن « يخلق الجو » على حد تعبيره ، حتى إذا ما بصر بالثمرة وقد أينعت وحان قطافها لا يكلف نفسه أكثر من أن يهز الفرع هزة خفيفة فتهوى الثمرة بين قدميه

كيف يستطيع أن يشخص إلى باريس ليشهد افتتاح « الصالون » الحديث دون أن تصطحبه زوجه الشهور ؟

إن سافرت معه فستمنعه ولا ريب من التطواف طويلا فى مدينة تفضل العابد وتفتن الزاهد

ولكنه سافر

وسافر بمفرده

وكيف ؟

بفضل العمل فى هدوء وصبر قراية ستة أشهر ، العمل فى اختلاق قصة من قصصه المألوفة

وإنى إذا حاولت أن أسرد ما حاكه ودبره فى غضون نصف عام لما اتسع المقام، ولذلك أراني في حل من أن أذكر الخلاصة كما يذكرونها فى برامج دور السينما

يتعرف أورتو إلى السنيور كارلو روستى ويقول لزوجه ذات يوم إنه تعرف أخيراً إلى السنيور كارلو روستى أحد تجار الصور ، ثم يمسك عن ذكر اسم صاحبه الجديد خمسة أيام

ثم يقول :

— آه ، هل تعلمين أني التقيت بروستى صباح اليوم ؟

وتمر ثلاثة أيام ويقول أورتورو لزوجه :

— إن روستى رجل غريب الأطوار ، قابلته اليوم فاقتطع من وقتى ساعة أفناها فى الحديث عن الصور !

وتنقضى ثمانية أيام لا يحرك الرجل فيها لسانه باسم صاحبه ، ثم يقول :

— آه تذكرت ! أقول على ذكر ذلك : إن روستى يعتقد أنى أفهم أصول الرسم الحديث ، وأكبر ظنى أن حوارنا أخيراً جعله يرى هذا الأثر فىّ ، ثم هو يزعم أن نصائحى سوف تنفعه نفعاً عظيما

ويمر أسبوعان فى صمت

ثم يقول الفنان لزوجته :

— آه تذكرت ما أنسيت أن أطلعك عليه، إن روستى مسافر إلى باريس

ويمسك أورتو روعن ذكر صاحبه أسبوعاً ويمضى ذات مساء إلى دار التمثيل بصحبة امرأته ، وفجأة يحيى إنساناً غير منظور فتسأله زوجه بقولها :

— من هذا الذى تحييه ؟

فيرد عليها بقوله :

— إنه روستى ، أتودين أن أقدمه إليك ، سأمضى إليه وأحضره ؟

فتجيب السيدة قائلة :

— كلا

فيبتسم ارتورو ، وكان يتوقع ما أجابت به ، ثم يقول :

— عرض روستى على اقتراحا سخيفا : إنه يبتغي أن أرافقه إلى باريس ليستأنس برأيى عند شراء الصور

ويطول الصمت ثلاثة أيام ثم يتكلم الفنان عن صاحبه فيقول :

2017-11-11

— لا أكتمك أني برمت بروستق وضقت به ذرعا ، لم يعد يشغله سوى الافضاء إلى كل من يقابله بأني مسافر معه إلى باريس لأعاونه في اختيار الصور ، وزعم أني نقاد وأن لدي ثقافة فنية تبعث على الحسد.

ومر أسبوع ولا حديث عن روستق ثم يقول ارتورو لزوجه :

— آه ياعزيزتي ، حقا اني لم أعد أطيق أن احتمل فوق ما احتملت . إن الجميع يتحدثون عن باريس . وعن معرضها ، وعن روستق ، وعن سفري معه ، يجب أن أعترف لك ياعزيزتي بأني قد أرمى بالبله إن مكثت هنا . من الواجب علي أن أسافر ولكن انظري ما انتهيت إليه بهذر ذاك الحمار ، أسبوعان ؟ ! لماذا ؟ يكفي أسبوع واحد ، أو أربعة أيام فقط ، بل اني أراها كثيرة . سأسافر لأكفي نفسي مؤونة فضول الناس ولأتقي مقالة من قد يقول عني إني أسرف في الحديث وأخبط فيه خبط عشواء

ثم لايذكر صاحبه ولا يذكر باريس أربعا وعشرين ساعة

ثم يضرب الضربة الفاصلة

لقد انتهى من « خلق الجو »

يقول لامرأته :

— نعم ، أشهد أني أكثر الناس سخطا على تلك المسألة ، ولكن من كان يتصور ياعزيزتي ان أطويل ذاك التاجر سترغمني يوماً على ركوب البحر إلى باريس ؟ هدئي من غضبك أيتها الزوجة الصغيرة !

سأذهب ثم أعود من فوري ، آه ، لو قدمني ، في المستقبل صاحب إلى تاجر صور للكنه فوق أذنيه ، أتريدين أن أجعل من نفسي أضحوكة بالمكث هنا على حين أن الجميع ينتظرون رؤية الصور التي سأنصح روستق بشرائها ؟ وبعد فليست باريس في طرف الأرض الآخر . . . النساء ؟ لم أفهم بربك وعلى ماترمين إليه .. إن النساء أشباه في كل مكان. ألا توجد نساء هنا أيضاً ؟ ويلي على روستق لقد مكر بي واحتال علي إلا أنها آخر حيلة أيضاً

وتأذن المرأة لبعلها بالسفر فيستقل القطار بمفرده وأين روستق ؟

تقدم بيوم ليلقى النظرة الأولى السريعة على صور « الصالون » ...

وسافر أرتورو إلى باريس حيث مكث شهراً ، وأود أن تعتقد أنه لم يكن في باريس بمفرده ... كما رأيته في القطار ...

وأرتورو وإن كان قد دبر الخرافة المضحكة بحذق ومهارة إلا أنها انتهت بمأساة ...

أسرف الفنان في الغلو ومع أنه لم يفته أن يكتب إلى زوجته مراراً ويذكر لها ما ابتاعه صاحبه من صور والنصائح القيمة التي أسداها ، إلا أن الزوجة المسكينة ساورها القلق وانتابتها الهواجس والمخاوف

وإذا ما خلا المرء بنفسه قد يواتيه الانسجام في التفكير بل وقد يصل إلى السداد في الرأي فيقع على الحقيقة

ولما عاد أرتورو من رحلته راعه من زوجه أنها جابهته بقولها :

— أشتهي أن أتصرف إلى روستق العظيم .

فيتأملها ثم يقول :

— ولكنك رفضت أن أقدمه إليك في الملهى

— نعم غير أني راغبة الآن في التصرف إليه

— لاشك أن صديقي سيسر ويطرب ، يا له من صديق عزيز ، إنه رجل ذكي مهذب ، وهو ذو حرص وبصيرة وستشاهدين منه ما يسرك

ومع أنه لفظ أقواله هذه وعلى شفتيه ابتسامته الهادئة المألوفة ، غير أنه كان بعيداً عن الهدوء والاستقرار . إنه ما واجه قط مثل هذا الخطر الداهم الرعب . لقد أصبح لزاماً عليه أن يفرد يوماً يدبر فيه الحيل التي ينقذه من ورطته

وقد أجاد التدبير وأتقنه بصبره المعروف عنه والذي دونه صبر القطط

وبعد مرور أيام قلائل على ذاك الحديث مرض روستي ، وانقضى بعض الوقت وهم لا يعرفون ما دهاه ، وذهب الأطباء في مرضه فرقا ، وأخيراً استفحل الداء فنم عن نفسه وكشف عن سره. إنها الزائدة الدودية ، المرض الرفيع السامي ، وخشي الأطباء النهاب البريتون . وارحماه لك يا روستي ! أهكذا تمسي حليف الأوجاع والآسقام وأنت في ميعة الصبا وشرخ الشباب ، وأنت الصديق الوفي الفاضل ؟ من كان يصدق ذلك أثناء المرض في باريس ؟ كان روستي شفاه الله ينافس إخوانه في الفنون ، ويعمل سحابة يومه بهمة وحماس ...

وبينا أنا أهم بالخروج ذات صباح إذ دخل علي ارتورو اندولي في لباس الحداد فصحت إذ بصرت به:

— آه ، من أين قدمت ؟

فأجابني بقوله :

— من جنازة روستي المسكين ، لقد توفي أول من أمس ...

— من ؟

— روستي تاجر الصور

وكان ارتورو رفيقي في عهد المدرس والتحصيل ويعلم أني أفهمه جيدا ولذلك اختصني بأسراره

وذكر في لهجة تقطر سخرية القصة بأكملها ثم ختمها بقوله :

— وكان الخطر عظيما ، وكيف أقدم إلى زوجتي صديقا ما عاش إلا في مخيلتي . لا أنكر أني أشرت إليه في الملهى ذات مساء غير أني كنت أحي الهواء ، ولا أنكر أيضاً أني عرضت على زوجتي أن أقدمه إليها ولو أنها قبلت لدرت حول المقاعد دورة ثم رجعت إليها أقول إنه غادر دار التمثيل في نفس الوقت الذي رأيته فيه . ومما وهن الموقف وصعبه ما وضعته زوجتي من عقبات في طريقي ، وكانت لا تفتر عن ذكر روستي ، وتسألني عنه دائماً حتى خشيت من فرط إلحاحها أن ينتهي بي الأمر إلى أن أعتقد أنه موجود حقاً في هذه الدنيا . ولما رأيت الضرورة تقضي بأن أضع للأمر حداً قتلته ، وها أنت ذا تراني قادماً من مقبرته بعد أن واريته التراب

ثم أخرج من أحد جيوبه ورقة ذات حواش سود وقال :

— وهذا نبأ نعيه ، وقد وصل إلي بالبريد أمس ، ولا أكتمك أنه سقط علي سقوط الصاعقة ؛ وقد أثر المصاب في زوجتي أيضاً فهي حزينة واجمة. ولما رأت لوعتي على صاحبي في اليومين الماضيين جعلت تعطف علي وتواسيني وتتمرني بشفقتها . سألتك بالله أن تحدثها عن روستي المسكين إذا ما زرتها لأنه لا حديث لنا اليوم في منزلنا إلا عنه ...

فضحكت وقلت :

— أنت مهرج كبير

فقال بلهجة المعاتب :

— يجب ألا تضحك

ثم جلس وأشعل سيجارة واسترجع يقول :

— نعم يجب ألا تضحك ، إن موت روستى المسكين خسارة فادحة منيت بها ، ولقد كنت أدخره لرحلات أخرى هامة قد تترامى إلى الهند . والآن وقد فقدته فانى لا أدرى كيف أشخص إلى الهند مثلا

— متى أزمعت السفر إلى الهند فما عليك سوى أن تخترع شخصية مهراجا

فقال فى جدة ورزانة :

— رأى صائب . إنى أرى فيك بعض الحصافة ولكن أعدك بأنى سوف أدع المهراجا فى بلاده بعد انتهاء السياحة إذ ليس من الوفاء للأصدقاء أن أقتل كل من يطوف بى

ثم وقف وقال بعد أن استأذن فى الانصراف :

— يجب أن أذهب لأتناول الغداء ولأبدل ثيابى هذه بأخرى . لا تنس أن تذكر لزوجى ولو كلمة واحدة عن روستى المسكين ، وسأكون ممتناً لك جدا ... إلى الملتقى ، ليس لدى من الوقت إلا ما يكفى لتناول وجبة الظهر وتغيير الثياب إذ سيزورنى سيد انجليزى فى الساعة الثالثة ...

فقاطعته بقولى :

— لا فائدة من اختراع الأكاذيب أمامى ، إنى لا أصدقك

— لا ، لا ، أقسم أنى منتظر فى الساعة الثالثة قدوم ذاك الانجليزى

وتكلم فى لهجة المحتج الصادق ثم قال :

— والكونتس فيورا هى التى نصحت السيد الانجليزى بأن يزورنى . ألا تذكر أننا تحدثنا فى بيتك يوماً عن الكنيسة الصغيرة المشيدة فوق مونت سان فوستو ؟ حسن ، نصحت الكونتس السيد الانجليزى بأن يزورنى لأزوده ببعض المعلومات عن الكنيسة وعن أقصر طريق الوصول إليها

وأمسك عن الحديث برهة ، ثم انفجر ضاحكا وقال :

— لو استطاع ذلك السيد الانجليزى الاهتداء إلى طريقه فوق التل بفضل إرشاداتى لعدته عبقرياً فى فن تخطيط الأرض

وخرج وأنا أسمع رنين ضحكته يدوى فى البهو ، كان فرحاً مسروراً !

لقد خدع زوجته وسيخدع السيد الانجليزى كما خدع الكونتس ، ولعله خدعنى أنا أيضاً بتلك القصة الصغيرة عن الكونتس والسيد الانجليزى

إن أحداً لن يعرف الحقيقة أبداً ... !

محمد عيسى

اقرأ :

توفيق الحكيم

فى كتبه الثلاثة الجديدة :

عهد الشيطان

ثمن النسخة ٨ قروش

تحت شمس الفكر

ثمن النسخة ١٠ قروش

تاريخ حياة مصرة

ثمن النسخة ١٥ قرشا

تطلب من جميع المكاتب الشهيرة

الأغلال

لكاتب الفرنسي "بول هيرفيو"
بقلم الأستاذ فليكس فارس

الفصل الثالث

(ينكشف الستار عن قاعة فى قصر من قصور ضاحية باريس ، للقاعة بابان ومخرج يؤدى إلى حديقة)

المشهد الأول

فرجان . وفالانتون

(فرجان منهمك فى ترتيب الكتب على رفوف كبيرة ، فيدخل فالانتون ويديه شبكة صيد)

فالانتون — أيمنعك شاغل عن مرافقتى إلى الصيد؟

فرجان — ألا ترى يا صديقى ، أننى لا أنكب عن العمل كأنني سيدة بيت . لقد مضت عشر سنوات على انتقالنا إلى هذا القصر ولم أتمكن من جعل إرين تهتم بأى عمل

فالانتون — وهل هي جاءت عن طيبة خاطر إلى هذا القصر لتطالبها بالاهتمام بترتيبه ؟

فرجان — وهل يقى الانسان عشر سنوات مكرهاً ؟

فالانتون — (وهو يلهو بترتيب شباكه) إذا أكرهت المرأة مرة فلن ترضى أبداً

فرجان — ليس فى حياة زوجتى ما يبرر سوء الظن بها ولعل هذا الاهمال طبيعة فيها ، لست أشكو منها . وقد انقضى العهد الذى اضطررت فيه إلى سوقها بيد من حديد

فالانتون — وهكذا قمت بواجبك نحو نفسك على ما نعتقد

فرجان — بل قمت بواجبى نحوها هى لأنى وقيتها السقوط وحفظتها من التدهور فى زمن كانت فيه على شفير الهاوية لاضطراب أعصابها ، والحق يقال أنني مرتاح إلى ماعملت ولست بنادم على ما أبديت من حزم وشدة . لقد أعادت العزلة السكينة إلى زوجتى ، ومنذ أصبحت أماً تغيرت أطوارها وأدركت معنى الحياة فهي راضية بما قسم لها

فالانتون — وهل يبقى من خلاف فى زواج مرّت عليه عشرون سنة ؟ إن الهرم يلقى السكينة على كل شىء

فرجان — ولكن المصاعب لا تزول من الزواج حتى بعد مضى خمسين سنة ، فأنا اليوم تجاه مشكل جديد يجب على أن أستعمل الشدة فى حله

فالانتون — سنعود إذن إلى المشاكسة القديمة

فرجان — لا بد من ذلك فان المسألة تتعلق بتعليم ولدنا رينيه وامرأتى تقاومنى

فالانتون — إذا كان لا بد لكما من المراك فأرجو إرجاء المواقع إلى نهاية الصيف أى إلى أن أذهب مع زوجتى من بينكم

فرجان — ليت هذا الارجاء ممكنا ، فان اليوم ميعاد دخول التلامذة إلى المدرسة ؛ وقد قررت إدخال رينه إلى مدرسة تبعد خمسة عشر ميلا من هنا وأوجبت أن يكون هذا المساء بين أقرانه فيها . وبما أنى أعرف طباع إرين فقد أردت توفير الحنق عليها مقدماً ، لذلك سترى نفسها أمام أمر واقع هذا المساء .

فالانتون — أنت إذاً ترغمها إرغاماً ولم تسألها رأيها

* انظر العدد الماضى من الرواية

فرجان — ولماذا أطلبها على أمر أنا واثق من رفضها له ، فاذا ما سامحت هذا المساء أكون وفرت عليها صباح شهر

فالانتون — (يستعد للخروج بشبكته) إن العاصفة على وشك الهبوب . فهأنذا ذاهب

فرجان — أي نوع من الأسماك تصطاد ؟

فالانتون — كل نوع أتمكن من اصطياده

فرجان — ولكن ما هي الأسماك التي تقع في شباكك ؟

فالانتون — لا يقع فيها شيء

فرجان — أنت تجهل صنعتك يا عزيزي

فالانتون — لا بل هي الأسماك تجهل صنعتها ، ففي كل شيء في هذه البلاد تتلهى بالتفكير مستغرقة في أحزانها فلا تدنو من الشباك

(يقول هذا ويخرج)

المشهد الثاني

فرجان . ثم إدين وبولين

(تدخل المرأتان من باب الحديقة وعلى وجه إدين دلائل الهرم وقد لعب برأسها الشيب ، وبولين تحمل طاقة من الأزهار)

بولين — لقد أنهكنا التعب

فرجان — إلى أين اتجهتما بهذه النزهة ؟

بولين — ذهبنا إلى الحرج ومنه إلى المرج ثم أردنا الخروج من السياج للدخول إلى المزرعة

فرجان — (متهيباً) ولكن السياج يمنع المرور

بولين — لقد كان السياج مخروقاً فولجناه ، وكانت هناك امرأة تنسل على شاطىء وهي التي خرقت السياج

فرجان — إنها الوقاحة (إلى إدين) وماذا قلت لهذه المرأة ؟

إدين — سألتها عن صحة ابنها

فرجان — وبعد ؟

إدين — أعطيتها دراهم لتشتري أدوية له

فرجان — (يأخذ قبعته ويتجه إلى الباب) أما أنا فسأعلمها كيف تخرق السياج مرة أخرى

بولين — ويلاه! ماخطر لي أن المسألة ستنتهي على هذه الصورة . بالله يا فرجان لا ترعب هذه المرأة المسكينة

فرجان — ولماذا أجازت لنفسها خرق سياجي ودخول أملاكي ؟

بولين — أفلا تتسبك المطالبة بحقوقك دائماً يا فرجان ؟

فرجان — لو كان كل الناس على شاكلتي يعرفون ما لهم ويدافعون عن حقوقهم لكانت الدنيا على غير ما هي عليه الآن (يخرج)

المشهد الثالث

إدين . بولين

بولين — كان يجب عليك أن تردي زوجك عما يقصد

إدين — إنه يفعل ما يريد وليس لي أن أقف في وجهه .

بولين — أنت الآن كما كنت من قبل ، تمر الأيام ماشية بنبارها على لنك ، وقلبك ذلك القلب القديم لا يتحول عن عواطفه

إدين — ولن يتحول

بولين — يخيل لي أن العواصف قد سكنت بينك وبين زوجك

إدين — لم يعد ما يوجب النضال بيننا إلا أمر واحد أحاذر وقوعه

بولين — وما هو هذا الأمر يا ترى ؟

إرين — مسألة تعليم دينه

بولين — أظنه يستغرب مزيد انعطافك على ولدك يا إرين

إرين — إنى أكاد أعبده . لقد ضحيت بموتى من أجل حياته ، ولولاه لما كنت أدرج على الثبراء بل كنت مدرجة تحت أطباقها . إنى من أجل هذا الطفل أعيش وهو وحده يربطنى بهذه الدنيا ، فليس لى فى الحياة إلا حياته الواهية ونفسه الصغيرة الفكرة التى أحسبها مركبة من أنينى وأوجاعى فأنا لا أطيق الابتعاد عن دينه . وكيف أسلم تذكارى وشقيق ودموعى لأيدى الملعين ، لأيدى الغرباء ؟

بولين — وهل فاتحك فرجان بالأمر ؟

إرين — لقد تحدث إلى بشأن تعليم ابنه مراراً ، وإذ شعر بما يخالج ضميرى فهم أن حياتى معلقة بشعر الولد الصغير ، وقد مضى زمن دخول التلامذة إلى المدارس هذه السنة ولم يرجع إلى حديثه وإذا هو عاد إلى نغمته لأقفن فى وجهه وقفة اللبؤة تدافع عن شبلها

بولين — مسكينة أنت يا إرين ! أنت لا تحيين إلا بحياة ابنك ، وقد قضى عليك ألا تكونى لنفسك ومع هذا فانك ما كنت لتصلين إلى حالة أسعد من حالك اليوم لو أنك اتبعت السبيل الذى استهوتك عجلته من قبل

إرين — من يدرى ؟

بولين — لا ، يا إرين ، لو أن حظك تابع إرادتك لكنت اليوم زاجرة تحت وقر أشجانك ، فقد وقر القضاء عليك أعظم ما يقع على قلب رقيق كقلبك

إرين — لا أفهم ما تعنين

بولين — ويلاه ، ما كان أغناك عن إعادة هذه الذكرى إليك !

إرين — تكلمى يا بولين

بولين — قولى لى الآن ، أفما كنت مصممة على الافتران بميشال دافرنيه

إرين — (تشيح بوجهها) لقد أكون فكرت فى هذا

بولين — أفما كنت أصبت بأشد الضربات لو تم لك ما أردت

إرين — كان على أن أطلب هذه السعادة وأحصل عليها ، وما كان سيقع بعد ذلك فليس من شأنى

بولين — لا ، يا إرين ، لو كنت اقترنت بميشال لكنت اليوم على أسوأ حال . أقترين من السهل على المرأة أن ترتفع مع رجل إلى ذروة السعادة ثم تسقط منها بنتة وهو ميت بين ذراعيها ؟

إرين — لو أننى تزوجت به لما مات ... لكنت شفيته بقبلات غرامى ، ورددت عنه سهام الموت . لكنت منعت عنه الماء برد الشقاء عنه فى حياته المنفردة المؤلمة . لكنت وقيته كل إفراط مما أعلم (وتخفض صوتها كأنها تهمس همساً) وما لست أعلم

بولين — كان ميشال مصدوراً وابن مصدور

إرين — اسكتى

بولين — مالك ، يا إرين ؟

إرين — (تمالك نفسها بصعوبة) لا شىء يا بولين إنها فكرة الموت المروع ... ويلاه من التذكار لماذا تعيدينه إلى ؟

المشهد الرابع

(إدين ، بولين ، رينه)

(رينه ابن عشر سنوات ، يدخل بلهفة وينطرح على أمه)

رينه — أى ... أى ...

إدين — (قاطعة ذراعيها لابنها) رينه .. ياحياتي .. ياملاكي الصغير تعال أقبلك (تقبله) دعني أنظر إلى دلائل الصحة على وجهك فقد صرت قوياً وصرت شيطاناً

رينه — وعدني أبي أن يأخذني معه إلى النزهة

إدين — لأسمح لك بالخروج مع أبي كان بدونى

رينه — أواه ...

إدين — ماذا فعلت يا رينه حتى بلت أنوابك عرقاً وقد كنت تكتب مع معلمتك ؟

المشهد الخامس

(إدين ، بولين ، رينه ، فرجان)

(يدخل فرجان فيسمع العبارة الأخيرة)

فرجان — هذا يدل على تمرد المسيو رينه فان معلمته لا تقدر على ضبطه

إدين — يجب أن تتغير كل أنوابك

فرجان — (يهز كتفيه) ماشاء الله

بولين — (تأخذ رينه بيده وتقوده) تعال معى فسوف أوبخك توبيخ السمة فلا أضحك ولا أبكيك

(تخرج بولين مع رينه)

المشهد السادس

(إدين ، فرجان)

فرجان — (وهو يتردد) على أن أتحدث إليك بشأن تعليم رينه

إدين — وما يدعوك إلى ذلك اليوم ؟

فرجان — لأن الأمر لا يحتمل التأخير

إدين — لماذا ؟

فرجان — لأن الولد قد بلغ العاشرة من عمره، وحين يبلغ الولد هذه السن ترتفع عنه سلطة الأم . لقد أبقيت رينه تحت سلطتك حتى اليوم لأن الأطفال يحتاجون إلى الحنان ، أما وقد خرج رينه من طور الطفولة فهو بحاجة إلى غير الاشفاق والتدليل

إدين — إذا كنت ترى تربيتي غير وافية له الآن فاستقدم له معلماً يعطيه الدروس فى البيت

فرجان — ليس الولد محتاجاً إلى العلم فقط لنستقدم له معلماً يعطيه الدروس فى البيت ، فهو بحاجة أيضاً إلى تقوية نفسه والاعتماد عليها ، هو بحاجة إلى المناظرة والاجتهاد والطاعة ، وكل هذه أمور لا يتعلمها الولد إلا فى المدرسة

إدين — ويلاه ! لقد عدنا إلى معالجة أمر لا أطيق ذكره . ألم أقل لك يا فرجان إنك تجنى على حياة رينه إذا أنت حرمته حنوي

فرجان — دعى هذه الأوهام يا إدين فان حبك لرينه سيكون علة شقائه ، فأنت أضعف من أن تتولى تقويمه وتهذيبه

إدين — وأنت تريد أن تبتاع له قساوة الغرباء ويلاه ! أتطلب القساوة لهذا الطفل الصغير الذى يتهدده الفناء حتى تحت جناحى ، هذا الطفل الذى لا ينام إلا مرتجفاً وأسمع سعاله المتقطع فى الليل وأجفف بيدى عرقه البارد ...

فرجان — تعالين فى تدليل ابنك يا إدين فتجعلينه حريصاً ولن يشق إلا حين يعيش كباقى أبناء الناس

إدين — إن ابنى لن يبارحنى

فرجان — إن ابنى سيكون مثل فليس هو

2017-11-11

خيراً منى . وأنا عندما بلغت سنه كنت دخلت المدرسة منذ سنتين . وسوف يأتى رينه إلى البيت يوم الأحد من كل أسبوع ولك أن تنهى لمشاهدته على قدر ما تسمح قوة خيولنا

إرين — أكرر لك القول إن رينه مريض، وحياته رهن طريقة معيشته. أنا أعلم هذا وقد أثبت الأطباء ظنونى ومخاوفى

فرجان — ومن هم هؤلاء الأطباء ؟

إرين — كل الأطباء الذين تسنى لى إستشارتهم

فرجان — وقد استشرت الأطباء دون علمى

إرين — نعم

فرجان — ما أشد جنونى، وما قال لك هؤلاء المحالون عن صحة الولد ؟

إرين — (باضطراب) قالوا إنه ...

فرجان — ماذا ؟

إرين — قالوا إن لمجلتى وحدها أن تقيه الموت، فعلى أن أداريه وأنظم معيشته بكل دقة

فرجان — ما معنى هذا ؟ إن لكل مرض اسماً فما هو اسم مرض رينه يا ترى ؟

إرين — أواه، لكم تعذبنى، دعنى، أفما ترى لوعتى واضطرابى ؟

فرجان — أراك تخضعين اعتقاداً لأعصابك كما أخضعت لها حياتك، ولملك وصفت للأطباء من حالة ابنك ما شاءت لك الأوهام، فقالوا لك ماتريدين أنت لا ما يقرر العلم . إننى والحمد لله ذو صحة كالحديد ولست أنت مريضة ليجىء ولدنا مسلولا... وسوف نرى كيف تتحسن صحته بعد أن يقضى السنة فى المدرسة

إرين — إنه لن يقضى فيها يوماً واحداً

فرجان — إيه ، ماذا تقولين ؟

إرين — عبثاً تحاول تنفيذ أمرك ، فانى سأقاومك إلى النهاية

فرجان — إذاً لم يبق سوى العمل ، تفضلى بإعداد أثواب رينه

إرين — ولماذا ؟

فرجان — لأننى سأذهب به إلى المدرسة

إرين — أتجسر ؟

فرجان — سيكون الولد بعد ساعة واحدة حيث أريد أن يكون

إرين — ولن يكون هنا، لأننى سأحمى ولدى ولن أدعه يموت حتى أموت قبله

فرجان — لقد عادت إليك أعراض مرضك القديم ، ولكننى سأستعمل سلطة الأب لأشفيك كما استعملت سلطة الزوج فيما مضى

إرين — خير لك ألا تذكرنى بما فعلت ... لقد كان انتصاراً باهراً... وهذا الانتصار جدير بإعجابك لقد أحنيت رأسى ولكن قلبى لم يزل متمرداً ، ومنذ أحنيت جبينى أمامك وقرت على نفسى أن أنظر إليك وجهاً لوجه . أما الآن فها أنا ذى أرفع الرأس لأنظر إليك ؟ ليست الزوجة من تتمرد اليوم ، إن الأم هى المتمردة وما يقف بوجه الأم إلا قوة من السماء ... !

فرجان — أنت منتزة بحقوق الأمومة يا سيدتى

إرين — لست أعلم بحقوق الأم من الأمهات يا سيدى ، إننا نعلم هذه الحقوق علماً أوفى وأصدق من علم أى مشرع أنانى . لأن الله يكتب هذه الحقوق وماً فيوماً مع نمو الجنين فى أحشائنا

2017-11-11

فرجان — أنا صاحب الحق وسوف أتمتع بحق باسم القانون

إدين — ويلاه من هذه الكلمة المروعة، لقد حطمت حياتي باسم القانون، وباسم القانون أيضاً تريد قتل طفل بين يدي . ما أنت الآن أمامي إلا ما كنت منذ عشر سنين جلاد الانسانية وقاتلها باسم العدالة المضللة ، فأنت تسلط الحق بيدك لقتل الانسانية وعينك باردة كالثلج وقلبك متصلب كالصخر

فرجان — قولي ما تشائين إنني حر في التصرف بولدي كما أشاء

إدين — أفليس بوسعي أن أقول لك كلمة تردعك عن منازعتي ولدي ؟

فرجان — إن الولد لأبيه. هكذا ينص القانون

إدين — لقد كذب القانون

فرجان — بل أنت تكذبين

إدين — لا ... لا ... لست كاذبة

فرجان — إذهبي وأعدي حوائج رينه

إدين — إسمع ، توقف

فرجان — (وهو متجه نحو الباب) أنا ذاهب لأعد العربة ، سوف نسافر الآن

إدين — (حائلة بينه وبين الباب) أشهد أمام الله أن هذا الولد هو لي وحدي

فرجان — (يدفعها بيده) هو لي أولا لأنني أبوه

إدين — (تصرخ بصوت هائل) لا، أنت لست أباه ... !

فرجان — (يدير وجهه بغتة) ماذا ؟ هل طرأ عليك جنون ؟

إدين — لا بل أنا ممزقة نقاب التمويه والخداع

فرجان — ماذا قلت ؟ أتدرين ما تقولين ؟

إدين — وهل أجهل ما تهتف به أحشائي ؟

فرجان — إنك تكذبين ... إنك تلجئين إلى آخر وسيلة يخترعها حنانك . قولي ... إعترفي ... تكلمي ...

إدين — إذا كنت تطلب ما يقنعك فاليك البرهان ، وليكن ما تريد . تذكر الآن . تذكر أنني أوصدت بابي في وجهك منذ عشر سنوات حين كنت حاكمي وجلادي وما عدت إليك بعدها إلا مرغمة على احتمالك ؛ فافهم الآن

فرجان — ماذا ... ؟

إدين — لو كنت ممن يفكرون لأدركت أن المرأة لا يمتلكها إلا من يمتلك قلبها

فرجان — (وهو يرتعش) ويلاه ... لقد فهمت

إدين — لقد احتفظت بسري في ذلك الزمان واحتملتك لأنقذ حياة ولدي ، ولأجل إنقاذه اليوم أيضاً أرفع النقاب وأدفع بك إلى الوراء

فرجان — (يهجم عليها وهو يتميز غيظاً) يالشقية الجانية !

إدين — (تهرع إلى الجرس) إذا أنت مددت يدك ، دعوت خدامك

فرجان — ويلاه ... أبعد الخيانة فضيحة وبعد العار شنار ؟

إدين — تلك هي نتيجة مبادئك الفاسدة وقوانينك المضحكة ، لقد جرتني قسراً إلى الكذب ثم إلى السقوط ، أنت هو المذنب وأنا لا أغتفر لك جنايتك

فرجان — من كان هذا الرجل ؟

إدين — لقد يكون ممن تعرفهم

فرجان — قولي، اعترفي، من هو هذا الرجل؟

2017-11-11

إرين — أبدا ...

فرجان — وهل جاء إلى هنا ؟

إرين — إلى مكان قريب من هنا

فرجان — لا أفهم كيف توصلت إلى الاجتماع به

إرين — ولا أنا أفهم أيضاً

فرجان — وهل تكرر اجتماعك به ؟

إرين — ما يهمك هذا ؟

فرجان — أفلا يزال يجتمع بك

إرين — (تحاول إخفاء حزنها) لا، فانه ذهب منذ زمان طويل إلى سفر بعيد ... ولن يعود

فرجان — أفلا ترين من الجناية أن يحمل ابن غيري اسمي أنا وأن أكون مكرهاً على النظر إليه كأنه ولدي

إرين — هذا ما ورد في الشريعة التي مكنتك من البقاء زوجاً لي بالرغم مني وبالرغم من الأرض والسماء .

فرجان — ما كنت لأرتاب بمفاتك أيتها المرأة ، عرفت أنك عدوة لي ولكن (تحتقد زفراته) ولكنني ما عرفت أنك امرأة ساقطة لا شرف لها

إرين — لكل سلاحه يا سيدي. لقد حاربتني بكل قوتك فحاربتك بكل ضعفي ...

فرجان — لقد كنت أدافع عن حق الصريح

إرين — ولكنك نسيت أن للطبيعة حقوقاً أقوى من حقوقك

فرجان — (وقد ظهر الهم على وجهه) لقد دفعك التبيط إلى الاقرار ، فهأنذا محرر من كل واجب نحو ابنك ، غير أني لم أزل صاحب الحق والسلطان عليه فلسوف أستعمل قوتي

إرين — لا ، بل أنت أعجز من أن تستعمل سلطانك بعد هذا الاعتراف

فرجان — وكيف ذلك أيتها المرأة ؟

إرين — لن يذهب بك اللوم إلى الانتقام من طفل ضعيف

فرجان — مالي ولضعفه

إرين — ما أقدمت على الاعتراف إلا لأني أعتقد بأن ليس على وجه الأرض رجل يدعى المتمدن ويقتال الأطفال مهما تمسك بالشريعة وتعزز بالقوانين

فرجان — وإذا أنا جعدت الشرائع والمتمدن الآن ...

المشهد السابع

(فرجان ، إرين ، رينه)

إرين — رينه يا بني

رينه — (يجيء راكضا نحو فرجان) أنا ذاهب إلى النزه يا أبي ؟

فرجان — اسكت

إرين — (تجذب ولدها إليها) اسكت ... اسكت ...

فرجان — أخرجيه لنتمم حديثنا

إرين — (إلى رينه) اذهب وانتظرني عند خالتك

رينه — لماذا يبكي أبي ، وهو لا يبكي أبداً ؟

إرين — إذهب يا ولدي ... إذهب

رينه — لماذا لا تبكين الآن، وأنت تبكين دائماً؟

إرين — أواه يا عزيزي ، لقد تفقدت دموعي

(يخرج رينه)

المشهد الثامن

(إرين ، فرجان)

فرجان — لقد أصبح هذا الولد لك وحدك الآن ، فافعلي به ما تريدين ، لقد قلت حقاً ... إني لن أستطيع تعذيبه ، وأكاد لا أجد القوة الكافية

لقتل محبتى له ... (ينتفض بشدة) خذيه من هنا ، اذهبي به إلى حيث تريدين

إدين — لا ، لن أذهب من هنا

فرجان — وكيف يمكنك البقاء ؟

إدين — سأبقى من أجل رينه ، فما أرضى بأن أطرد وأهان . إن لهذا الطفل حقاً أن يقيم فى المجتمع أدبياً ومادياً فهو ابن الشريعة ...

فرجان — سأكرهك على الذهاب

إدين — لن تستطيع

فرجان — لقد طلبت الطلاق أنت فيما مضى ، فهأنذا أطلبه اليوم

إدين — لقد رفضت أنت أمس وأنا أرفض اليوم . لم يعد لى من مستقبل وقد تلاشت آمالى . فأنا أتحاشى كل تغيير وكل جهد . لقد شئت إرادتى فلسوف أبقى على ما أنا حيث أنا

فرجان — أفترضين أن أحتملك احتمالا ؟

إدين — لا برهان لديك غير اعترافى ، فعليك أن تحتمل

فرجان — وهل أنت منكرة هذا الاقرار ؟

إدين — أتطلب أن أهتف به عالياً أمام الناس وأشهره على ملأ الاشهاد ؟

فرجان — (يتنهد ويبكي) ولكن كيف أعيش وأنت أمامى ؟

إدين — لقد احتملت هذا فيما مضى فاحتمله أنت الآن . كلانا مرتبط بالآخر وما ربطته عماوة الناس لا تقدر قوة على حله . هذه هى الشريعة ... لقد شعرت بوقرها طويلا وحدى وقد آن لك أن تساعدنى على حملها

فرجان — أفليس من عدل على الأرض ؟

إدين — بلى ، هنالك عدالة وهى حمل الشقاء بالمساواة ؟

فرجان — وما هى هذه المساواة وأنت مجرمة وأنا برىء

إدين — لا برىء ولا مجرم هنا ... كلانا شقى وحيث يسود الشقاء تسود المساواة

(انتهى)

فيكتور فارس

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالورنيش الوتنية

السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ صـ

كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين ٧٠ صـ

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه ، والأذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث سرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان — عابدين

2017-11-11

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر بإخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي فى النشء اساليب البلاغة العربية

بمجموعة اعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق

الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل مئون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٤٢ | ٢٢ شعبان سنة ١٣٥٧ — ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
٩٦٢	عاشقة الأحذية	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود بك خيرت . ...
٩٦٧	معركة على عروس	الكاتب الفرنسى جوستاف جيفروا	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة .. ...
٩٧٨	النكادو في الزواج	مترجمة عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...
٩٨٥	النار المقدسة	الكاتب الانجليزى والتر سكوت .	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...
٩٩٠	الثلاثة الزاهدون	الفيلسوف الروسى ليوتو لستوى ..	بقلم السيد نجرى شهاب السيدى ..
٩٩٥	تحت ظلال الشجر	الكاتب الانجليزى فرنسيس بنج .	بقلم الأستاذ فؤاد الطوخى ... ...
٩٩٨	ميتور السافين	الكاتب الفرنسى بى دى موباسان	بقلم الأديب السيد كمال الحريرى ..
١٠٠٢	القرار	الكاتب الانجليزى هولوى هورن.	بقلم الأديب محمود السيد شعبان ..
١٠٠٧	حاجى بابا أصفهانى	الكاتب الانجليزى جيمز موير ..	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ..

2017-11-1

عاشقة الأحدية

قصة مصرية

بقلم الأستاذ محمود بك خيرت

فى صباح يوم مبكر كانت سيدة محجبة تقطع طرقات الاسكندرية بخطى مسرعة وقلبها يدق وجسمها يرتجف، حتى إذا بلغت نافذة الملجأ أخذت تتلفت حولها، فلما لم تر أحداً يتعقبها أخرجت من إزارها طفلاً حديث الولادة ووضعته على الحامل المثبت عند قاعدة النافذة ثم دقت الجرس، وبعد لحظة امتدت يدان فالتقطتاه ثم اختفتا. وعند ذلك اطمأن قلبها وعادت أدراجها

وكان بالدار سيدة منطرحة فوق سريرها وعلى وجهها أثر الشحوب والضعف؛ فلما أقبلت عليها تلك السيدة المحجبة سألتها فى لهفة، فقالت: انتهى الأمر على أحسن حال وأصبح إلى جانب أطفال الملجأ. وعندئذ سرّى عنها وشعرت كأن حملا ثقيلا كان يضغط على صدرها قد ارتفع وزال

وكانت هاتان السيدتان شقيقتين من أسرة عريقة، إحداهما وهى التى كانت تحمل الطفل متزوجة من أحد أعيان الاسكندرية، أما أختها فتقيم مع أبويها بالقاهرة ولم يسبق لها عهد بزواج؛ إلا أن فتى من فتيانها وقع نظره عليها فأولع بها وأخذ يطاردها ويتودد لها وينفخ من روح غوايته فيها، وهو كلما تلاقيا يفتح أمام عينيها آفاقاً جديدة مشرقة بالحب ونسيمه. وكان يقسم لها بأنه لن تطيب له الحياة إلا بها، ولن يتزوج فى حياته من سواها، حتى إذا أفلت زمام عفتها من يدها وزلّت قدمها أدار لها ظهره وأنكرها واختفى عن عينيها

ولقد أحست بعد أشهر بجنينها يتحرك فى أحشائها فخشيت أن يفتضح أمرها وأسرعت إلى شقيقتها بحجة قضاء فصل الصيف عندها، فما كترت لها تلك الدار لتضع حملها فيها إلى أن تم الأمر على الصورة التى مرت بنا

وقد بلوح غريباً أن (إحسان) تلك الفتاة البائسة الرقيقة يهون عليها أن تقذف بهذا الطفل البرئ الضعيف وهو ثمرة حشاشتها إلى هذا المصير المجهول، وأن يتحجر قلبها إلى حد ألا تذرف عليه عيناها دمعة واحدة وهى تسلمه لأختها. ولكنها فى الواقع كانت لاتزال تحت سلطان ذلك الموقف الرهيب الذى أقل ما فيه أنه كان يجرّ عليها وعلى أسرتها عار الأبد. حتى إذا مضى شهر على بعده عنها وقد هدأت أعصابها من تأثير الجزع الذى كان استولى عليها استيقظت فى نفسها عاطفة الأمومة الصارخة فانطلقت دموعها من عينيها غزيرة حارة، وأخذت ترجع باللائمة على طيشها وتسرّعها وترى أن ذلك العار الذى خشيته كان أهون عليها من أن تسبّ بطفلها مثل ذلك السبّ الأثيم. ألم يك ولدها؟ ألم يك قطعة منها؟ لقد أصبح بينها وبينه بعد ذلك حجاب قاس، فلم يعد أمامها تثمره بنظراتها وتغذوه بحنانها وتضمه إلى صدرها الدافئ وهى تهزه بيديها

2017-11-1

وتناجيه . لقد حُرمت لذة إرضاعه ، ولذة الاستماع إلى صياحه ، ولذة النظر إليه وهو يحبو ويمشي ، ولذة أول كلمة تخرج من بين شفتيه اللتين فى حمرة المرجان : أبى !

أما هو فقد أصبح يندفع إلى غير صدرها ويرتضع غير ثديها ، وما كان الرضعات إلا أجيرات يمنن لبنهن ولكنهن لا يمنن الحنان ، فإنهن إلا أمهات صناعيات .

كانت إحسان لذلك لا يغمض لها جفن ولا يهنأ لها طعام ولا شراب . ثم صورته بينها فى كل لحظة من لحظات النهار ، وتراه فى أحلامها كأنه يمد ساعديه الصغيرين إليها ويندفع إلى صدرها وكأنه يناديها . حتى إذا ما استيقظت يوماً من الأيام كان حزنها قد بلغ غايته فانطلقت نحو الملجأ وقد وطنت نفسها على أن تعود به .

وقبل أن تأخذ فى سبيل ما اعتزمته حملت معها كثيراً من الحلوى والأقمشة لتتقدم بها كهدية لأطفال الملجأ ، وقد رحب بمقدمها سيدانه ورجاله وتقبلوا تلك الهدية منها مع التقدير والشكر . وهكذا أخذت تطوف بالغرف وتتفقد أولئك اليتامى الذين كشر فى وجوههم الحظ لعلها تعثر من بينهم على طفلها ولكنها لم توفق

ومن الطبيعى أنها كانت تتحاشى أن تبوح بالغرض الذى جاءت من أجله إلا إذا تمكنت من الاهتداء إليه ، فلما يئست أخذت تستفسر من رئيسة الملجأ عن حديثى الولادة الجدد وعن الاجراءات التى اعتاد الملجأ اتخاذها نحوهم ، فعدتها إلى أربعة عشر طفلا جيء بهم فى أيام مختلفة ، منهم خمسة فى اليوم الذى حملت أختها صغيرها إليهم فيه . فلما تأملتهم وجدت من بينهم اثنين بشرتهما سمراء ولكنها لم تعرف ولدها من بين الثلاثة الباقين ، لأن الأطفال على أثر ولادتهم يكونون أشبه بقطع حية من اللحم يصعب تمييز بعضها عن بعض ، إذ يكون الشبه بينهم وبين ذويهم لا يزال بعيداً ، فهم فى ذلك مثلهم كمثل الصورة السالبة أول ما يبدو منها عند التظهير خطوط أولية يتلوها شيئاً فشيئاً أنصاف ظلال فظلال كاملة وعند ذلك يكون الشبه قد تم واستقر

ولا تسل عن الصدمة التى أصابتها فى تلك اللحظة التى علقت كل آمالها عليها وهى أمام ولدها وليست أمامه ، فلبثت خائرة حائرة بين هؤلاء الأطفال الثلاثة ولا سيما أن اثنين منهم عيونهما زرقاء كعينى طفلها فأيهما هو الذى حملت به ووضعته وقاست وستقاسى عذاب الدنيا وصراعها فيه ؟ إنها أصبحت أمًّا لكليهما ، فإما أن تأخذهما معاً وإما أن تدعهما . على أنها علمت أن هذا الأمل بعيد أيضاً وأن من دونه مباحث وتحريات وتحقيقاً يثير من جديد تلك الفضيحة التى أمنت شرها وتخلصت منها ، ولذلك استأذنت وانصرفت وهى حزينة باكية كثيرة الهموم

وكان أبواها طاعنين فى السن تتلفت فى جسميهما الأمراض فقضيا نحبهما ، ولذلك انتقلت

إلى الاسكندرية لتعيش فيها على مقربة من أختها

بعد ثماني عشرة سنة

كانت إحسان في موطنها الجديد تشغل نفسها بالمطالعة وتقضي كثيراً من وقتها في الاحسان إلى الفقراء كما أنها لاتنسى زيارة الملجأ وحمل الهدايا إليه . وهي كلما قصدته وقفت عند بابه خاشعة كأنها أمام ضريح يضمّ في جوفه رفات ضحايا الأقدار والحظوظ

وكان من النظم المتبعة في الملجأ أن كل لقيط يأنس فيه القدرة على التعلم والاستعداد له يلقّنه مبادئ القراءة والكتابة ثم يخصّصه لحرفة من الحرف تساعده فيما بعد على تحمل أعباء الحياة ، وكان من نصيب ذينك الطفلين المتشابهين صناعة الأحذية

وكم كانت لوعتها حين ذهبت إلى الملجأ في يوم من الأيام فلم تجدهما ، لأنهما بارحاه بعد أن أصبحا قادرين على العيش بعيداً عنه . نعم كانت مفاجأة قاسية وقد كان هذا المكان قبلها يقيم فلذة كبدها بين أركانه . أما الآن فقد أصبح أمامه هذا الفقر الفسيح المترامي الأطراف فكيف تجده وكيف تهتدي إليه ؟

ولقد ظلت احسان سنواتٍ تجوب أزقته وطرقاته وعيناها إلى الحوانيت والمخازن ، حتى إذا وجدت من بينها مصنع أحذية أسرعت إليه ، ولكن سرعان ما تتركه يائسة حزينة ولم تجد طلبتها فيه

وأخيراً بعد أن مضى على ذلك الحادث ثماني عشرة سنة عوّلت لآخر مرة على أن تقصد إلى حي محرم بك ، حتى إذا لم تعثر عليه فيه لزمت دارها واستسلمت لهمومها

ولقد عثرت في ذلك الحي على حانوت بجانبيه خلف الزجاج أحذية مصفوفة للسيدات والرجال والأطفال ولكنها لم تجد به أحداً فلبثت لحظة ثم همت بالانصراف عنه إلى غيره ، ولكن دافعاً من نفسها استوقفها . وفي تلك اللحظة رأت في الجانب المقابل للحانوت فتى يسرع نحوها، فلما رآها دهش وأخذ يسائل نفسه أين سبق له رؤية هذه السيدة . ثم تذكر أنها كثيراً ما كانت تزور الملجأ وتحسن إلى أطفاله، وعندذلك شعر بالسرور يتمشى في نفسه فقال لها : « خيراً يا هانم » . وما كادت عيناها تقعان عليه حتى انقبض جسمها وخفق قلبها فاندفعت إلي داخل الحانوت وطلبت إليه حذاءين من نوع تلك الأحذية التي رأتها

وعند ذلك تناول شريطاً من الجلد قربنا منه وشرع في قياس قدميها وهو يقول: إنك ستسرّين كثيراً من أحذيتنا يا سيدتي . فاننا مع جودة الجلود التي نقتطعها منها ومراعاة الدقة في تفصيلها لا نجري خلف الربح الكثير لكي نكسب ثقة الناس فينا وإقبالهم علينا . وكانت في خلال حديثه تنظر إليه من طرف خفي فأخذت تسأله :

— هل لك زمن طويل في هذا الحانوت ؟

— ست سنواتٍ يا سيدتي كنت عاملا

2017-11-11

فيه أما الآن فقد أصبح الحانوت لى

— ومن الذى عى بتعليمك هذه الصناعة . أبوك ؟

وعندذلك أرسل زفرة طويلة ثم قال: لا ياسيدتى إنما هو الملجأ . . . وكم كانت المرارة التى أحسّها عند ذكر هذه الكلمة ! على أنها قابلت هذه الزفرة بأخرى مثلها احتبست فى فمها ، ولم يمد يساورها شك فى أن هذا الفتى هو أحد ذينك الطفلين اللذين كانت تزورهما فى الملجأ ، وأنه ولدها وكل ملامحه تشير إلى ملامح أبيه من عينيه إلى أنفه إلى فمه وإلى نبرات صوته

وكان قد طلب فى ثمن الحذاءين مائة وخمسين قرشاً فدفعت إليه جنيهين فى سبيل أن ينذل فيهما كل فنه وعنايته، ثم انصرفت وهو يكاد يرقص طربا وقد حصل على إيجار الشهر المتأخر عليه فلم يمد يضايقه المالك بسببه

وبعد عشرين يوما عادت إليه لاستلام الحذاءين وأوصته بالشروع فى حذاء ثالث من نموذج آخر . وهكذا كانت لا يحر شهر إلا وتوصيه بإعداد حذاءين جديدين حتى أنه كان يقول فى نفسه : لو أن هذه السيدة تستمر على ذلك فلن أتعرّض يوما ما إلى مضايقة مالك الحانوت بسبب الايجار . كما أنه وجيرانه كانوا يستغربون أمر هذه السيدة وولعها بالأحذية إلى هذا الحد ، حتى لقد أطلقوا عليها اسم « عاشقة الأحذية »

وفى يوم من الأيام بعد أن انتهى من حذائها الجديد كلفته بأرساله إلى منزلها فحمله إليها بنفسه، وكانت قدمتهيأت لطعام العشاء فدعته إلى مشاركتها فيه فقبل ولكن بعد تردد منه وإلحاح منها . وبعد أن انتهيا أخذت تتحدث إليه :

— لعلك لا تجهل من هى التى دفعت بك إلى ذلك الملجأ ؟

— وهل كان هذا ممكنا ياسيدتى وقد كنت وقتئذ مشدودا فى قماطى حديث الولادة ؟ إننا معاشر القطاء لا نعرف لنا أبا ولا أما . وكل ما نعرفه عن أنفسنا أننا من نفايات الخلق لفظنا المجتمع وأصبحنا من طينة غير طينة الناس . وكثيرا ما كان يزور الملجأ سيدات معهن أولادهن فأنظر إليهم والأسى يرجّنى والدموع تتسابق فى عينى . أما سبب هذا المصير الذى كان من نصيبنا فلعله لا يخفى عليك يا سيدتى . إننا لم نكن غير ثمرة ملوثة من ثمار الزنا والدعارة. إن لنا أمهات، ولكن أولئك المرضعات فى عينى خير منهنّ لأنهن يعوّضن علينا ذلك اللبن الذى حرمتنا إياه . ومع ذلك فقد كنا أحوج إلى لبن آخر لا نجده عند أولئك المرضعات . كنا أحوج إلى الحنان، لبن الروح، ولكن حيل بيننا وبينه. وفوق ذلك كان علينا أن نشق لنكفر عن خطيئات أمهاتنا

— ومن يدريك أن أمك الآن تبكى بُعدك وتبحث عنك ؟

ولم تبحث عنى يا سيدتى الطيبة وأنا لا أعرفها ولن تهتز جوارحى لها ؟ لقد قطعت علىّ طريق

2017-11-11

العودة إليها وسهدت السبيل أمامي لانكارها ونسيانها. كم كنت أود لو أنها أبقت عليّ فأحمل عارها وأغفر زلتها والعصمة لله وحده، ولكنها أبت علي حتى ذلك فباعدت بينها وبيني، وأغلقت فؤادها من دوني فحرمتني نصيبي عنده من نعمة الحنو الذي غرسته فيه يد الله. وما تغري بيحثها عني أو اجتماعها بي؟ إنني يومئذ أجد أبي، ولكنني لا أجد ذلك الحنان الذي كنت في حاجة إليه عندها وأنا طفل لا حول لي ولا حيلة. بل إنني لأخشى أن أذهب إلى أبعد من هذا لأن اللجأ إذا كان قد فك تلك الأغلال التي وضعتها في يدي فان عليّ واجباً آخر وهو أن أحطم هذه الأغلال وأحطمها معها..

وعندذلك صرخت إحسان قائلة: كفي يا حسن فحسبي من العذاب ما تحملته ثماني عشرة سنة وأنا لا يهدأ لي جنب ولا يطرف جفني، غمض حتى إذا اهتديت إلى حانوتك كان لي منه بعض السلوى وأنا أعيش بين هذه الأحذية التي لم يكن لي حاجة بها، وإنما لأنها تحمل أثر أصابعك. إنني أمك ...

ثم سقطت منشياً عليها. فأسرع نحوها ينضح وجهها بالماء وينهضها ثم أقبل على جبينها يقبله وهو يهمس في أذنها والبكاء يكاد يخنقه:

ساحيني يا أمي! محمود مُنيت

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى المصر لموسيه، والأذيسة لهوميروس، ومذكرات ناثب في الأرياف لتوفيق الحكيم، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة.

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

معركة على عروس

للكاتب الفرنسي جوستاف جيفروا

ترجمة الأستاذ محمد لطفي جمعة

في شارع چارنت الذي يتفرع من شارع رامبارديفيه يجري پيراش بمدينة ليون الزاهرة ذات الشوارع الضيقة والجسور الفسيحة والكنائس الشاهقة، حانوت صانع الأثاث إرمان موتون.

في صباح يوم الأربعاء السابق لعيد البنتكوت نادى المعلم موتون صبيه شارل شفارز وكان عاملاً ألمانيا من ستراز بورج:

« أي شارل! إذهب إلى دار مدام ديلوم، فانها ستطيك كرسيا دلوى كاتورز » يحتاج إلى التنجيد وقد خبرتها أني مرسلك اليوم فامض على عجل » فمضى شارل في شأنه وهو يصفر، حتى إذا مر بدكان الحلوى المواجه لمدار معلم موسيو موتون مال إليه وانفلت من الباب الصغير، حيث كانت صديقته الصغيرة ليوني تصنع قطعاً من الشكولاته في وعاء معدني كبير، وكانت ليوني غضة بضة مثل قطعة الفشدة، وكانت عارية الذراعين والنحر والصدر إلى منبت النهدين، لضرورة العمل، وقد ائتزرت بمئزر قصير لا يصل إلى منتصف الساق، وقد انسدلت ضفائرها المسجدية على ظهرها المنحني. فلما رأته ضحكت وقالت له: حذار أن تكون « البجعة » قد لمحتك. والبجعة صاحبة الدكان مدام كرنك دولاك السمينة الضخمة التي التقطتها وتبنتها وتعهدتها ووهبتها نصف ما تملك لتكون بائنة لها عند الزواج. ولكن ليوني كانت تبغضها وتخشاها وتحقد عليها وتشكو قيود العفة والخدر التي فرضتها عليها لتصونها من أخطار الحياة.

فابتسم شارل وقال: كلا! إنها مشغولة بمحاسبة بعض عملائها وسمعتها تعنف الكتبي كنزلو وتتهمه بأنه التهم سبع فطائر ولا يدفع إلا ثمن أربع، وقد جحظت عيناها وهي تقول له: تأكل السحت في بطنك أيها العنكبوت العثيل وتزداد تحولاً كلما أدخلت بطنك فطائري المختلسة! ألا أني التمتك وفتحت لك صناديق دكاني وتشاغلت عنك بنزلي.. إن عين التاجر لا تغمض.

فضحكت ليوني وألقت بجسمها الناعم اللين بين يدي شارل هامسة:

— قبلة الصباح يا حبيبي، متى أغادر ذلك الجحر الخرب، لأبقى لك طول حياتي!.. فضمها الفتى إلى صدره بعنف الرغبة، وقبلها في وجنتيها وفمها وعينيها ونحرها، وكانت تتوجع متلذذة وهو يلثم فاها، ويكاد ينرش أظافره في كتفيها، فلما أفاقت من

تعريف بالقصة

جوستاف جيفروا قصاص فرنسي قدير، اشتهر بالقصة القصيرة والمسرحيات الموفقة وهو يدرس في هذه القصة خافي بعض الشبان والفتيات في مدينة من أعرق مدن فرنسا، اشتهرت بالجمال وحب الاستمتاع في هدوء وغموض وهي ليون وقد كشف القناع عن عفة الفتاة وفجور المرأة، وشح التجار. وقد قيل عنه لشهرها إنها رمزية تحلل نفسية الألمان ذوي الجبروت وقوة الارادة، فتراهم لا يترددون أبداً دون تحقيق أمانيهم مهما كلفهم ذلك من القسوة على الآخرين وهي تنقل إلى العربية للمرة الأولى لقراء الرواية فسى نحوز رضائم

عند الزواج. ولكن ليوني كانت تبغضها وتخشاها وتحقد عليها وتشكو قيود العفة والخدر التي فرضتها عليها لتصونها من أخطار الحياة.

فابتسم شارل وقال: كلا! إنها مشغولة بمحاسبة بعض عملائها وسمعتها تعنف الكتبي كنزلو وتتهمه بأنه التهم سبع فطائر ولا يدفع إلا ثمن أربع، وقد جحظت عيناها وهي تقول له: تأكل السحت في بطنك أيها العنكبوت العثيل وتزداد تحولاً كلما أدخلت بطنك فطائري المختلسة! ألا أني التمتك وفتحت لك صناديق دكاني وتشاغلت عنك بنزلي.. إن عين التاجر لا تغمض.

فضحكت ليوني وألقت بجسمها الناعم اللين بين يدي شارل هامسة:

— قبلة الصباح يا حبيبي، متى أغادر ذلك الجحر الخرب، لأبقى لك طول حياتي!.. فضمها الفتى إلى صدره بعنف الرغبة، وقبلها في وجنتيها وفمها وعينيها ونحرها، وكانت تتوجع متلذذة وهو يلثم فاها، ويكاد ينرش أظافره في كتفيها، فلما أفاقت من

2017-11-1

غشية الحب السريع الفاجىء ، ملأت فمه بالشوكولاته المحشوة بالفوز والبندق والجوز الفسم ، وأولته علبة من الورق المقوى ملأى باللبس الفاخر الذى يصنع خصيصاً لبيد البنتكوت . وقالت له : عليك أن تخرج فى حذر ثم تدخل على البجعة بعد لحظة لتتأكد أنها لم ترك . فدس العلبة فى جيبه وانسلّ وسار قدماً وهو يصفر أنغاماً من أوبرا لوهنجرن ، سمعها والتقفها من غناء ريدبز التينور (١) الشهير . فلما دنا من عتبة الحلوانية امحى وحيًّا وكان كنزلو لا يزال مستسلماً لمطر الشتائم الذى ينهال على رأسه من سماء مدام كرنك دولاك

— ياذيل الخنوص ، ياجبة الرياء ! ياجرذ الحوانيت ! مادمت لا تملك ثمن الفطائر السبع ، فلم تسارع إلى ابتلاعها ؟ وكان وجه الكتبى مصفراً كالكركم الصينى وهو يقول :

— مدام كرنك . أقسم لك بسمات فورتير ! أنها أربع فطائر فقط لم تزد . إننى بطىء المضغ . اسألى الدكتور موبسليه طبيب عائلتى . شقى بطنى إن شئت ، ولكن كفى بحق العذراء عن تقريعى أمام الجمهور .

فقالت له : إن كنت تستحى حقاً من الجمهور فلم تصنع فى الخفاء مالا يليق بكرامتك فى العلانية ؟ ألم تفد شيئاً من الكتب التى تسمم بها عقول القراء ؟ ألا إنها ويال عليك مادامت تؤدى بك إلى تلك الجماعة التى لا تجد لها سنداً إلا من بضاعة أرمل بائسة مثلى . فقال الكتبى مبتهلاً متوسلا :

— شقى بطنى !

(١) سفة للمنشد الأولمبر

— لا أشق بطنك ، فلست فى حاجة إلى تبكير جيوبك بما تأكل . اعزب عن عينى ! صباح الخير أيها الشاب ، لاعليك ، فإنى أمزح مع موسيو كنزلو كعادتى لأدخل عليه السرور فيحسن هضم ما أكل ، فأرتج على شارل الذى دار بعينه فى الدكان كمن يبحث عن شىء ، فقالت :

— أظنك تبحث عن ليونى . إنها خرجت منذ الصباح لتشترى مؤونة للشوكولاته التى نعدها لعيد البنتكوت . كيف حال معلمك ؟ إن لدىّ مقعداً قديماً أريد تنجيده خير تنجيد وأخته فهو من تراث المرحوم زوجى ، وهنا نبلت عيناها بالدموع ، فنظرت إلى كنزلو الكتبى الذى مازال واقفاً مسموراً وقد قيده الخجل ، وقالت :

— بعد العصر يا موسيو كنزلو ، شرفنا لتأكل مايحلو لك من شطائر اليابان المحشوة بالقشدة ومُمَشَّرقة فى روم جامايكا النتيق . فابتسم كنزلو وقال

— وعد الحر دين عليه ، إلى اللقاء يامدام دولاك أوريفوار أيها الشاب ، بله من مزاح !

وخرج كالفار المسلوخ ، يتعامل على ساقيه النحيلتين ، ويكشف عن صلعة حمراء كباطن المقل المصنوعة من نحاس فيرفان ، فضحك شارل ملء شدقيه والتفتت البجعة إليه ، وقالت :

— أدخل ، أدخل أيها الشاب . ووع عنك مارأيت وسمعت بينى وبين هذا الحمار الذى يحمل أسفاراً . وإياك أن تنقل حرفاً مما سمعت إلى ليونى أو غيرها ، لأننى أفكر فى تزويجها من ابن هذا الكتبى النتيق ، لأنهم أغنياء ، وأحب قبل الزفاف أن أخضع حماها بالإذلال والإرهاب ، حتى إذا تصاهرنا كان هذا الكتبى أطوع لى من كلبى

2017-11-11

ليبين ؟ وضحكت فبانت أسنانها المحطمة وقالت .

— أتعلم أن موسيو كاوش عمدة المدينة ، أمر بتحرير محضر مخالفة ضدي لأنني أطلقت اسم محافظ مقاطعة السين على هذا الكلب الأمين ! ولكن فطيرة ضخمة مشبعة بالزبدة ومحشوة بالكرز أخمدت أنفاس كوميسير البوليس كابان . ومحت محضر المخالفة كما لو أنك أرسلت خطاباً لبريد الحلوى والمذاهنة تفسد أحسن الدم . فضحك شارل من حديث المرأة المزوج بالبلاهة وقال لها :

— أفهم جيداً أن « الفليك » يُباعون بأبخس الأثمان .

— آه الفليك [1] يالهم من فحول ذباب ! لو كانت ليوني هنا كنت أذقتك طعم تلك الشوكولاته الفاخرة . ولكن غداً لناظرها قريب . . والملبس الفاخر هدية البنتكوت . فابتسم شارل وهو يحس طعم الشوكولاته في فمه ، ويذكر قبلات الفتاة .

ومد يده إلى جيبه ليتأكد أن علبة الملبس الفاخر لم تغادره ، ولم تنفذ اليها عين تلك التاجرة الماكرة . وقال : شكراً لك سلفاً وسأمر ببيتك لأنقل ذلك للعهد العزيز ، وأدار ظهره وهو يصفر ، حتى إذا بلغ دار السيدة ديلورم ، فتحت له الباب فتاة في الثامنة عشرة ولما أبصرت الغلام الألماني الأهيف الجميل فتحت عينيها وحدقت فيه دهشة وعجباً ، وعراه هو من الدهشة لحسنها ماعراها ، فحدق فيها وقد ذهل عما كان يجب عليه من نزع قلنسوته تحية واحتراماً فوقف شاخص البصر إلى نضرة جمالها ثم أفاقت هي قبله فقالت له : من أنت ؟

فأجاب : صبي الحلواني ، أعني الحلواني « البجعة » مدام كرنك دولاك . وأخرج من جيبه علبة الملبس قائلا :

— ولما كانت عادتها أن تبعث إلى خيرة عملائها بعينات من الملبس الفاخر الذي تصنعه خصيصاً لعيد البنتكوت . ومد يده بالعلبة فتناولتها الفتاة وفتحتها فقال : تذوق يا آنسة ، تذوق ، فان نجاح محلنا قائم على مبدأ « من ذاق عرف » وهو شعارنا . « ذوقي وقارني » . فتناولت الفتاة بينانها في رشاقة فاتنة ملبسة ووضعتها بين شفتيها الرجانيتين ثم افترت ثغرها عن ابتسامة زادتها في نظر الصبي حسناً على حسنها

وقالت : هل ندفع لك ثمناً لهذه العلبة ؟

فضحك قائلا : هذه هدية وعينة ...

فقالت : شكراً لك وسأقنع عمتي بشراء الحلوى من محلكم . وهمت بمواراة الباب فاستدرك شارل قائلا :

— عفواً . وأسراً آخر نسيته

— وهو ؟

— إنني أيضاً صبي المنجد موسيو أرمان موتون أعني أنني أزاول مهنتين بل ثلاثاً

فابتسمت الفتاة وقالت بين مصدقة ومكذبة :

— يا لك من فتى ذي صناعات عدة !

— الحياة تقتضي الجهاد في سبيل العيش . إنني منجد في الصباح ، وحلواني بعد الغروب . فصدقته الفتاة وأشفقت عليه وسألته :

— أتريد شيئاً من متاع المنزل أم جئت بمبنة أخرى من الأثاث الجديد ؟

فأجاب مداعباً : وهل في المنزل شيء هو أحلى وأشهى من ذلك المتاع الذي أراه الآن ماثلا أمامي ؟

(١) الفرطى

فضربت الفتاة بقدمها غضباً واغتاظاً من جرأة الفتى وخفته، واحمر وجهها قليلاً، فأدرك شارل أنها من الصنف الذي يكره المداعبة وتذكر أحضان حبيبته الوانية ليوني التي ألهبت وجهه منذ هنيهة بحر أنفاسها، فحا صورة الحب السريع من ذهنه وزاده غيظ الفتاة الماثلة أمامه تمادياً في مداعبتها فقال:

— إذا كان في متاعك خلل أو فساد تريدين إصلاحه فاعلمي أن متاع الفتيات ليس مما نعنى بإصلاحه، فاطلبي لمتاعك مصلحاً آخر! وإنما جئت ههنا بأمر معلى الحلواني. وسلمت إليك هديته، ثم بأمر معلى النجد الموسيو أرمان موتون لأحمل إليه من مدام ديلورم كرسياً كانت خبرته أنها في حاجة إلى تنجيده، فأين هو؟

فتصبت الفتاة رأسها في أنفة وكبرياء وفتحت له الباب وسمت به إلى قاعة الاستقبال ثم أومأت إلى كرسي فيه خرق دون أن تنبس ببنت شفة، ففحص شارل الكرسي بدقة، ثم حمله على عاتقه وسار إلى الباب، حتى إذا بلغه التفت وراءه ونظر إلى الفتاة وقال:

— خيراً؟

فقالت بكبرياء: ما ذا تريد؟

فأجابها شارل بابتسامة معنوية أجابته عليها باحمرار وجنتيها ثم قال:

— إني بخير والحمد لله وأرجو أن تكونوا بخير أيضاً. فضحكت الفتاة ضحكة خفاية عالية وقالت:

— إنك أظرف حلواني وأعبط من رأيت من المنجدين في حياتي. أولى لك أن تذهب في الحال وإلا ناديت عمتي وإنها لشديدة على أمثالك المستهترين

فأسرع شارل الهبوط في سلم الباب وقال:

— أرجو أن تكون عمتك بخير أيضاً

فلما بلغ أسفل الدرج قال:

— وإني لا أعلم كيف احتفظت ببلة الملبس ورفضت ملاطفتي. ولكنه لم يسمع سوى صفقة الباب وراءه

وسار قدماً وهو يُصفّر، إلى أن بلغ المنزل رقم ٥ شارع بواساك حيث كانت مدام جاكيه معشوقته تنتظره، ففتحت له الباب عاشة باشة فقد كان الفتى حبيب قلبها في غيبة زوجها الضخم في معمل الساعات في مونشا إحدى قرى النهر التي شيدت فيها مصانع الآلات الدقيقة، وكانت المرأة آمنة عودة الزوج طول النهار. فغلقت الأبواب وأنزلت الكرسي عن كاهل معشوقها، وكانت امرأة قصيرة القامة ذات محاسن وفتنة تدفع إلى الصبي ثمن غرامه السري كل ما تدخره نفقة البيت وما تسرقه من كيس زوجها أثناء غطيطه

ولم تكن تصبر عن لقاء شارل يوماً واحداً فكان يلهب عاطفته بين أحضان ليوني، ليطفئ ناره عند جاكيه القصيرة البادنة. وسرعان ما خلعت عنه ثيابه وألبسته ثياب الفتفشل من سوان زوجها ومدت له مائدة رداحاً زاخرة بالدجاج المشوى

— يوليه دوريه دى بريش —(١) وسمك الرون المقلي، ولحم مجل حنيذ محمر، وحمس أخضر بالزبد والسكر وحربي المشمش التي كانت تجيد صنعها —

(١) نوع من الدجاج الفخم يتقن أهل ليون تربيته وطهيه

واعتذرت له عن بعض الفطير المحشو بلحم الخنزير وشحمه . فأكل الفتى أكلة الشره وشرب من نبيذ جراف الذهبي حتى روى وشبع واستعد للقيلولة فسألته — أين كنت يا روحي ؟

أجاب — في العمل ، العمل الشاق المضني

قالت — هل كنت تفكر فيَّ ؟

قال — طبعاً ؛ وفي من سواك أفكر ؟

قالت — أنت معبودي ، وحبك السنيف غذاء حياتي — أين تقضي أجازة البنتكوت ؟

قال — هنا في ليون ، ما لم تحنَّ أسرتي شوقاً إلي !

قالت — لقد أعددت لك مفاجأة سارة فحصلت على إذن من البنك زوجي ، لأزور أهلي في هوت سافوا، وفي الحق أعددت تذكرتين لنذهب معاً إلى قرية « إيل بارب » فنمرح أياماً وننعم بالحب . وقد ادخرت مائة فرنك ننفقها معاً في فسحتنا المرتقبة

قال : كيف أسافر وأنا لا أملك غير هذه الثياب الرثة ووالدي لا يرسل إليَّ مالاً ظنا منه أن ارمان موتون يندق عليَّ النِسَم ويدفع لي من ثروة فارون . فأطرقت جاكيه الوهلة ثم قالت :

— لقد فكرت في ذلك أيضاً ، فأعددت لك بدلة كاملة من صنع لابيل جاردينير ، أخذتها على حساب زوجي وأصلحتها على قياسك عند طرازي يجلاني في شارع جامبتا ، فلا يشك في غايتي من تقصير ساق سراويلاتها ، وتوسيع أكمامها ، فانك أعرض صدراً من الرجل وأقصر قامة .

وبعد الظهر بثلاث ساعات خرج شارل من بيت عشيقته يحمل الكرسي وعاد إلى الدكان فلم يجد معلمه الذي ذهب إلى أهله يتمطى بعد طول انتظار الصبي ، فوضع شارل الكرسي في غرفة الأمتعة المخلة واستأنف عمله في مرح وهو يصفر كعادته . فرت بذهنه صور شتى مما شغل خياله منذ الصباح؛ فها هي ذي ليوني تقبله وتنفخه بالهدايا ثم البهجة ، والكتبي الشرير ، ثم الفتاة التي تهدده بصمتها . . ثم المرأة الناضجة التي أطعمته ومتعته وأعدت له الكسوة والنزهة على حساب بعلها وبغلها .

ولكن محاسن الفتاة الثانية جعلت تتراءى لعين خياله ، وكان وجها فتانا يحمل دلائل الدلال والتيه وآيات الزهو والكبرياء ، وقد لمع الفتى أثناء هذه التخيلات ما كان يبدو على ذلك الوجه من العبوس عند سماع أمازيحه التي كانت تعدها الفتاة ضرباً من الاجتراء على مقامها السامي من صبي حلواني أو صبي منجد حقير مثله كما وهمت ونعمت. فأكمل إصلاح ماييده في ظرف ساعة ومضى إلى المخزن لاختيار القطعة التالية . وكان تمت عدة أمتعة فلم أصحابها وألحوا في سرعة إصلاحها ، ولكن شارل ضرب عن جميعها صفحاً وأخذ الكرسي المخروق فحمله إلى مائدة شغله . ولم يكن في نيته أن يبدأ بإصلاحه ولكنه نافذ بمجرد النظر إليه من أجل الحسناء ذات الوجه المليح العابس . وبينما هو يتأمل المخرق الذي به ويضغط على لوالبه ، أخذت عينه ورقة صغيرة كانت قد سقطت في الثقب الذي في ظهر الكرسي فتناولها فاذا بها حوالة مالية بعشرة آلاف فرنك تصرف لحاملها ، فأخذها

هادئاً وأعاد تلاوتها وهو لا يصدق نظره ثم وضعها في جيبه ثم بدا له غلاف رسالة مدونة بالعنوان الآتي « المناجم الزئبقية جولد نبرج وشركاؤه — المدير جورج دي ساكس » فدسها هي الأخرى في جيبه وآمن بأن الدهر يبتسم له حتى في الغربة .

وفي تلك اللحظة عاد موسيو أرمان موتون متجهماً؛ فلما رآه انفجر فيه بأقذع السباب على تلاعبه بوقته وتركه في انتظاره بدون غداء إلى ما بعد الظهر بساعتين في سبيل حل كرسي مخروق. فوقف شارل باسماً وقال له :

— على رسلك يا معلمي . إن قبلت عذري خيراً وكرامة ، وإلا فوفر لي بقية أجري وسرحني بإحسان أحدك حسن العشرة . فخبت نار غضب النجد وقال: أتتركني يا شارل وقد علمتك خير ما في الصنعة ؟ قال : إني منصرف ؛ فإن حياة النجدين لا ترضني . قال : لا عليك ، فمذورة . قال شارل : سأنصرف ساعة حتى يصفو دمي بعد كدره، السلام عليك . وخرج لا يلوي على شيء حتى بلغ بيت جاكيه وكانت لا تزال كليلة من أثر عناقه ، حالة بما كان بينها وبينه من حلو الغرام ففتحت له وقالت:

— إني قديسة ! فقد اشتهيتك تشاربني الشاي وتقاسمني تلك الكعكة المحشوة بالزبيب والفستق . فنزل على إرادتها ومزج الأقداح بالتقبيل والمداعبة ، حتى استلانت له فنهض ينظر في المرآة ثم قال لها : إني مسافر إلى قريتي حالا . ففجعت المرأة وذهلت . فقال : لقد بلغت حالي من الرثاثة ما يجعل كل من يراني يحتقرني فلا بد لي من ثياب قشيبة وساعة وسلسلة وأزرار ودبابيس من فضة وذهب . فضحكت المرأة وقالت : انتظر ! ثم عادت فرحة بالثياب الجديدة وحملت من صندوق زوجها وهو ساعاتي وصائغ كل ما طلب ، وألحت عليه أن يلبس الحلل ويتحلى بما ناقت إليه نفسه من متاع زوجها معللة نفسها بنسيانه ما أودع من مصوغ .

فتأبى شارل هنيهة ثم فعل فبدا كأبناء السراة ذوي العز والنعمة وسارع إلى تركها واعداً إياها بالعود غداة غد كعادته . وفي سرعة البرق بلغ مقر « سوسيتيه جنرال » وهو مصرف قوي لرجال الأعمال ، فرحبوا به ، وأبرز لهم الحوالة ، فصرفوا له قيمتها ، وعرضوا عليه أن يحتفظوا بها لحسابه لقاء دفتر صكوك بجمل المال رهين إشارته وتوقيعه، فقبل بعد أن قبض مئة فرنك وهي تعدل مرتبه عند المنجد شهرين وعاد إلى بيته فخلع الرداء الجديد ولبس ثياب العمل وقصد إلى مقهى تونون ليشرب فنجاناً من القهوة . وأخرج الرسالة التي وجدها مع الحوالة في خرق الكرسي فإذا فيها

عزيزتي روزموند

ليت شعري كيف أرُّ فيّ حسنك هذا الأثر البالغ ! ماذا أحدثت ألحاظك في حشاي من الجراح والأوصاب ؟ وما الذي قالته عيناك لقلبي فأجاب ؟ هل نلتقي في يوم الأربعاء المقبل بعد ظهره، في عين المكان والأوان اللذين تلاقينا فيهما آنفا فانعم بحديثك العذب ؟

المخلص

جورج

فقطب شارل جبينه ووضع الرسالة في جيبه. ولما عاد إلى المكان استمر مقطباً ونسي صفيره ،

2017-11-1

ولمن لوهنجرن الذى كان يكرره، فلفيه المعلم موتون بالترحاب وقال له :

— ما رأيك ياشارل فأنا كفيل بنفاذه . أجاب « أن تزيد راتبي إلى مائة وخمسين فرنكا فى الشهر ، وأن تدفع لى مقدما مرتب شهرين لأصلح من شأنى، وأن تمنحنى أجازة ثلاثة أيام أقضيها فى تريض خاطرى » وهو يعلم أنها شروط قاسية لن يرضخ لها المعلم لبخله وشدة حرصه، ولكنه جعلها محكة ليصرفه مستغنياً عن خدمته . فنهد موتون وقال : إنها لأقسى من شروط سيدان التى أملاها بيسبارك على وطننا . . . ولكنى أقبلها. ثم دفع له ما طلب لأنه كان ينتوى أن يزوجه من ابنته لورا ويترك له المتجر والمصنع ، ليتم آخر حياته بالراحة والغنى واستمرار اسمه معلقاً بأعلى الدكان حرصاً على شهرته وعملائه . ولكنه يضمر ذلك ولا يبوح به ، لئلا يفسد أخلاق عامله الذى يجهل منشأه .

فعاد شارل إلى عمله فى كرسي آخر وترك المقعد المخروق ينى من خرمه، ودس فيه وثيقة المال ووثيقة الهوى بعد أن نال حظه منهما وسهلا له بداية المعركة ليفوز بمرؤسه .

وبعد لحظة ظهرت الفتاة الحسناء العبوس فى عتبة الدكان ، فقال له المعلم :

— شارل ! هذه ابنة شقيق مدام ديلورم تريد أن تكلمك كلمة . فاحتفظ شارل بثباته ، وهو الفاجر الواثق من نفسه الخبير بأخلاق النساء : وكانت الفتاة مرتبكة مضطربة يذهب لونها ويجيء فقالت للفتى :

— أظنك قد . . . أريد أن أقول لك هل عثرت على شيء فى الكرسى الذى أخذته اليوم من دار عمتى ؟ فنظر شارل تلقاء المعلم فوجده مكبا على شيء يصلحه غافلا عنهما فقال : انى منذ حملته على كاهلى لم أره ولم ألمسه فتفضلى بأخذه ان شئت أو فخصه إن أردت . ثم عاد إلى عمله . فقالت بكبرياء وعظمة : انه خطاب لا أكثر ولا أقل فأعطنيه . فقال: انتظرى لحظة ، ودخل إلى غرفة المخزن وعاد يحمل الكرسي بعد أن دس الخطاب فى الخرق أعمق مايكون ،ووضع يده فأخرج الغلاف واستبقاه فى يده فقالت : اعطنى الرسالة . فهز رأسه نفياً وإباء فقالت : إذا أبيت تسليم هذا الخطاب شكوتك إلى مدام ديلورم عمتى

فقال شارل بثبات ورزانة : وإذا سلمته اليك فسأبلغ الأمر إلى مسامع عمتك مدام ديلورم . ولم يكد يتم قوله هذا حتى راعه وآلمه ما أبصر من شدة اصفرار الفتاة وامتقاع لونها . فالتفت إلى مسيو موتون معلمه وقال :

— إن السيدة الصغيرة تريد أن أرافقها إلى دارها لتطلعنى على شيء من أنبائه وسأعود بعد برهة قصيرة . فهز المعلم رأسه موافقة دون أن يرفعه عن عمله .

وغادر شارل الدكان تتبعه الفتاة مستكينة متواضعة، فلما بلغ زقاق جوادى ثيثرو كانت الشمس قد آذنت بالغروب وقف وواجه الفتاة وكان يشرف عليها بمقدار قدم لطول قامته . وقال لها : إياك أن تحاولى انتزاع الرسالة من يدى لئلا تحدث فضيحة شنعاء أمام المارة ، وتدلى بذلك على سوء نيتك فتذهبى بالبقية الباقية من احترامى وعطفى عليك . فأومأت برأسها علامة الرضى وهى تكاد تنفجر غيظاً من تحكمه، ففتح الرسالة وقرأها بصوت لم يكن

2017-11-11

يقع نظره عليها لأول وهلة . ثم قال مستفهما :

— اسم حضرتك روزموند ؟ فقالت مغضبة ليس هذا من شأنك. فقال مبتسما : إذا كنت تأبين أن تجيبي عن سؤالي هذا فسأعرف الجواب من حضرة عمتك . فقالت : اسمي روزموند . فرنا إليها بنظرات لينة رقيقة ملؤها الحب والطرب وقد أذهله ما هو فيه من اللذة عن مشاهدة ماسبغ وجهها إذ ذاك من حمرة الغيظ والوجل . ثم قال :

— إذن اعلمي ياروزموند أني لست بمعطيك هذه الرسالة . كلا ! لاتعبسي ولا تقطبي جبينك ولا تظني أني من قبيل ذلك الفتى جورج صاحب الرسالة . ومهما يكن جورج هذا فانه وغد خسيس وكذاب أشر وما خطا به إلا إفك وبهتان. سأبحث عنه فأنظر بنفسي أي امرىء هو، هل يصلح أن يكون زوجاً لمثلك . لاتؤاخذيني في فضولي وتطفلي على أسراوك فاني مدفوع بأقوى عوامل النفس إلى الاهتمام بشأنك ؛ فاذا وجدته كفؤاً لك — ولا إخاله — فسأعتذر له عن سوء ظني ثم أحضر حفلة زفافك بثياب فشية وهدية من الحلوان . . ولكن هاتفاً يهتف بي من أعماق نفسي انه وغد خسيس ونذل جبان وأحق غبي . كذلك شموري وهو شمور صادق قد ورثته عن أبي . فدعيني وتنفيذ خطتي وإمضاء عزيمتي فانك إن حاولت مني فسأذهب تواً لمعتك وأقدم لها الرسالة قائلا إني عثرت عليها في الكرسي . فلم يكن من الفتاة إلا أنها شرعت تبكي وتنتحب وتمزق منديلها بثنايا الحيلة من شدة القهر والغيظ والعجز عن الانتقام فقال لها : لاتؤذي عينيك الجميلتين بالبكاء فوحق العذراء ماتحببت إلي إيلامك وإيذاء عواطفك فقالت وهي تحرق الأرض : إنك لفظ غليظ القلب. أعطني الرسالة من فضلك . انها ملكي لاملكك .

— فقال شارل شفارز : إني أستملحك وأستظرفك وإني معجب بمحاسنك ، وسيأتي يوم تتبين فيه حقيقة مقصدي ، وهو إيصال النفع إليك ورد الأذى عنك ؛ فاذا خشيت عمتك إلى هذ الحد فاني أعدك ألا أوصل الرسالة إليها أبداً ولكني أذهب معك إلى أقرب أقسام الشرطة ، وهناك أسلم الرسالة . فنصبت الفتاة قامتها وقذفت الفتى الألماني بنظرة حشدت فيها كل ما تستطيعه طبيعتها من البغضاء والكراهية وانطلقت في سبيلها دون أن تنفوه بكلمة أخرى. فرافقها وحك رأسه، ولكنه لم يلبث أن سرت إلى وجهه دلائل العزم والاصرار الذي قد ورثه أهل جرمانيا قاطبة عن أجدادهم القدماء، فمضى توا إلى القنصلية الألمانية بشارع كي دي برتو وقال إنه يريد لقاء القنصل للتو واللحظة ، فما لبث أن خرج إليه القنصل من مكتبه الخاص فدنا منه شارل وأسر إليه كلمة في أذنه ، فأجابه القنصل : كلا ! فأخرج شارل من جيبه رسالة وأعطاها القنصل فقرأها الثاني بروية وأعادها إلى شارل وقال « لابأس ! »

عند ذلك ذهب شارل إلى مكتب شركة المناجم الزئبقية. جورج دي ساكس وشركاؤه، فقال صبي المكتب لشارل : المسيو جورج دي ساكس ليس هنهنا ، ولعلك واجده في قهوة ريش في الشارع المجاور . فمضى شارل إلى القهوة وعقد صحبة مع الناذل فأمحقه بكأس من الراح وألطفه بلفيفة من تبغ الراس وأقبل عليه يحادثه في حالة الطقس وأخطار الحرب المرتقبة وأسعار الحرير وحوادث القمس

2017-11-1

ثم شرع يستفهم منه عن أسماء اللاعبين بالورق، وكانوا جالسين بناحية من المكان فكان ممن سماهم النادل جورج دى ساكس، فاذا به كما كان قد صوره كارل فى مخيلته تماما — صغير نحيف حسن الهيأة ولكنه ضعيف البنية أصفر الوجه. وقال النادل: إن موسيو جورج هذا على ضعفه ونحوله وصغره زير نساء عريق وله على الفتيات سلطان عظيم، فهن يتزاحمن عليه ويتهالكن. إنه غنى .. وخداع. وانتظر شارل حتى فرغ جورج من اللعب والخسارة لأنه سيء الحظ فى الورق، حسن البخت فى النساء [1] — ثم استدعاه ووقف به ناحية وقال له:

جئت من ستراز بورج وما زلت أبحث عن صنف جيد من الزئبق الأندلسى، أرسله هنالك، وإنى أعلم أن ليس من اللائق أن أبتئك بطلبي هـذا فى مثل هذا المكان ولكنى لا آتى هنا كل يوم وقد.. فقال جورج ببشاشة التاجر وحفاوة الثرى المستزيد:

عفواً ياسيدى، أنا فى خدمة عملائى فى كل آن ومكان، تفضل بالجلوس، ماذا تشرب؟ لا بد أن تكون أنبذة كروم الراين قد أوحشتك، إنى أشربها بلذة. ثم تناقشا طويلا فى الزئبق وأسعاره ونفقات شحنه ونسبة «العمولة»، وقال شارل إنه سينظر فى الأمر ثم يخبره بالنتيجة فيما بعد. وقد أساء شارل وآذاه وآلمه أنه بدأ يشعر بشيء من الميل إلى جورج والاستئناس به واستظرافه، وأن جورج بدأ كذلك يظهر مثل هذه العاطفة نحوه وقال جورج دى ساكس:

— حبذا لو تعشينا الليلة معاً! إنى لأعرف مطعماً شهيراً بجودة دجاجه وحسن نبيذه. فقبل شارل دعوته والتمس منه ساعة لتبديل ثيابه وتواعدا على اللقاء فى نفس القهوة التى اجتمعا بها. وعاد شارل متطرباً مجلواً متحلياً طروباً وبانت عليه نسمة مشوقته مدام جاكيه وبثلها وهو بعلها. فانتقلا إلى المطعم فى سيارة جورج، وقبل فراغهما من الطعام خبره دى ساكس أنه مستعد أن يقدم إليه كل ما لديه من الزئبق بأسماره الأصيلة وأردف قوله «أى هيرشارل! إنك أحب إلىّ من أن أربح من ورائك أدنى شيء وبودى ألا أفارقك أبداً. فهل لك فى الركوب معى الليلة للنزهة فانى أعرف فتاتين لاتأبيان أن تسحبانا فنقضي معهما برهة من الزمن. فذهبا للنزهة مع النادتين وكانتا مليحتين، ثم اقترح شارل أثناء النزهة الذهاب إلى دار الصور المتحركة ولكن دى ساكس هز رأسه نفياً وهمس فى أذن شارل عند أول فرصة قائلا:

— لاتقترح أدنى شيء من هذا القبيل فانى أعرف فتاتين أخريين أفضل أن نأخذهما إلى دار السينما، لأنهما أليق بذلك المكان وأبهر للعيون فى الضوء وأمتع لنا فى حلكة الظلام. وكذلك ذهبا إلى دار السينما ووفى دى ساكس بوعده فاستحضر الفتاتين. وتغيب شارل عن دكان معلمه المنجد ثلاثة أيام قضاها مع صديقه الثرثار رئيس شركة الزئبق. وفى كل ساعة يقدم له هذا الصديق فتاة جديدة، وكل ساعة يزداد شغفاً بشارل الذى نسي ليوتى وجاكيه وازداد تعلقاً بروزموند. وقد سهل على شارل أن يستكشف السر فى ميل الفتيات الى صديقه، وذلك أن جورج دى ساكس كان طلقاً متهللا لاتفارق شفتيه ابتسامة البشر ولا ينطق فى أساريره وجهه نور البشاشة مع كثرة المزق والتلهوق

(١) مثل فرنسي سائر

والاطراء، وكانت له حيلة إلى أقناع كل واحدة أنها خليلته ومعشوقته دون غيرها . فقال مرة لشارل : إنى لا أخلو من النساء ساعة ، وإنى لأجدنى مدفوعا إلى مغازلتهن اندفاعى إلى الأكل والشرب، لا أستطيع الامتناع عن الأولى إلا إذا أطلقتُ الامتناع عن الثانية .

فقال شارل : ولكن ماذا تصنع إذا تزوجت وقر قرارك ؟ فحدق جورج فى وجه شارل قائلا : أتزوج ؟ إنى متزوج، ألم تعلم بذلك ؟ لقد مضت زوجتى إلى قرية مونبيان لتزور أمها وسأقدمك اليها عند عودتها . وإن لها زمرة من الأتراب الحسان والصواحب الغوانى كأنهن الربوب أو سرب المها لايزلن يحمن حول دارنا يرفرفن علينا . فقهقه شارل ضاحكا ثم أمعنا فى الشراب فقدم إلى دى ساكس الرسالة التى كان وجدها فى الكرسى فقرأها جورج وشرع يمسح جبينه بيده كالذى يحاول أن يتذكر شيئاً قد نسيه ثم قال :

لقد نسيت اسمها وانقبها . خبرنى كيف حصلت على هذه الرسالة ؟ فأدرك شارل قلة اهتمامه بشأن روزموند وذهوله ألبتة عن كل ماحدث بينه وبينها . وسأله جورج « ولكن كيف وجدت الرسالة ؟ قال شارل: سأخبرك فى وقت آخر، ولكنى أطلب اليك الآن أن تكتب لها رسالة أخرى وتعطينى إياها لأوصلها إليها فأريح رهانا عقدته فى مسألة مسلية، أتوافق على ذلك؟ فقال جورج وهو يترنح : ولِمَ لا ياصديقى ؟ وسيان عندى أن أقول لها إنها أحب الناس إلى أو أقول لها بُعداً لك وعليك العفاء. هلم أملِ على ماتشاء أيها الألمانى الظريف .

***

وردت على مدام ديلورم عمة الفتاة روزموند رسالة فجعلت تقلبها فى يديها مراراً عدة ثم قالت : لا أفهم ما ذا فى هذه الرسالة فان أسرة برادنبور تدعونا إلى الغداء بعد ما نسونا زمناً طويلا ، وقد دعوا أيضاً القنصل الألمانى وجميع أصحابهم القدم . فى أى حلة تذهبين إلى المأدبة ياروزموند ؟

***

قالت مدام برادنبور : ما أشد فرحتى بك ياروزموند ! لم تكونى آخر عهدى بك إلا طفلة ضئيلة . هاك قنصل ألمانيا يا روزموند يذوب شوقاً لرؤيتك، وهاك موسيو شارل شفارز. فهمس شارل فى أذن الفتاة قائلا :

— سأرد إليك الرسالة متى شئت . فطفت الفتاة شفتيها تلك المطة الجاوة المعهودة وعبست تلك العبسة المستملحة وقال شارل : إن الرسالة ليست معى الآن ولكن معى رسالة أخرى من الذى كتب لك الأولى فبدا الغضب على وجه الفتاة . وقالت :

— لا أدرى لماذا أنت هنا الآن ؟ ولا يهمنى تهديد صبي حلوانى أو صبي منجد وضيع . ولكن إذا كنت تحسب أن من الشرف والمروءة أن تتدخل فى شؤونى وتقاتل رجلا من الناس لتنلبه فترغمه على أن يكتب إلى رسالة سفه وخسة ودناءة فاسمع لى أن أخبرك أنك رجل شاذ غريب الأطوار. فقال شارل :

— أقاتل رجلا ؟ أتريدين موسيو جورج دى ساكس ؟ عجباً لك ! إنى أعشق الرجل . وهنا تدخل القنصل فجأة فصاح إلى عمة روز موند :

— أى مدام ديلورم ! ما رأيك فى هذا الفتى (يريد شارل) إن أباه من أغنى تجار الأخشاب فى

2017-11-1

النابة السوداء وأشهرهم فى بلاد الزاس وقد أراد أن يصقل ابنه ويعلمه فن التنجيد لضرورة تجارته، ولكن شارل أنف أن يزاول هذه المهنة فى وطنه، ولما قدم إلى هذا البلد فأخفى نفسه فى دكانة منجد صناع، ولكنها مستورة عن الأنظار حيث يأمن ألا يعثر عليه أحد. وبينما هو كذلك إذا به قد خرج بنتة من جحره فانقض على وسألني المدونة فى مسألة غرامية اعتاداً على ما يبقى وبين أبيه من الصداقة والمودة فخبرني يا مدام ديلورم رأيك فى الفتى وفيما يرى إليه ويطمح

فبدت على مدام ديلورم دلائل الحيرة والارتباك، ولكن مسيو براد نور رب البيت وصاحب المأدبة شاهد ماظهر إذ ذاك على وجه روز موند من شواهد السرور والفرح فى احمرار وجنتيها ووميض عينيها وريق ثغرها فأخرج مفتاحاً من جيبه وأعطاه لخازن الراح وقال له :

— هات لنا أجود ما لديك من السلاف نشربه فى نخب العروسين

قالت مدام ديلورم بشارل جانباً وقالت : أسامحك بأن باثنة روز موند وهى حوالة بعشرة آلاف فرنك قد نقدت مني — وبلل الدمع عينيها — وكانت كل ماتركه شقيق لكريته فما حيلتى ؟

فأخرج شارل من جيبه حوالة باسم روز موند على مصرف سوسيتيه جنرال بأن يوفروا لها باسمها مبلغ ثلاثين ألف فرنك نقداً فقالت العجوز :

— سيدى ! فقال لها: لقد وجدت الباثنة فى خرق الكرمى المبارك الذى لا يزال عند معلى أرمان موتون وقد آليت على نفسى ألا يصلحه أحد سواي وسأحتفظ به حتى يراه أولادنا فيطلوا أنه سبب سعادتى وعلة وجودهم. فضحكت روزموند وقالت: وسأحتفظ أنا كذلك بعلبة من الليس الذى يصنع ليد بنتكوت

* * *

ودعا شارل إلى حفلة زفافه « البجعة » وليونى والمنجدوجاكيه والكتبى كنزلو وجورج دى ساكس وقدم لكل منهم هدية لائقة، ولما كان ألمانياً فاجراً قادراً على القهر والحيلة فقد أرضى كلا من مدعويه بهمسة فى أذنه فقنعوا من مودته بوعوده، ما عدا المحبة المفتونة جاكيه البادئة الشقراء التى وثقت أن زفافه سيحرمها غرامه. فهمس فى أذنها :

— لا تنسى أننا سنقفى معاً أجازة البنتكوت

محمد لطفى جمعة

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المشيية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

2017-11-1

التكافـــؤ فى الزواج

مترجمة عن الإنجليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر ولم يبق إلا دقائق على الموعد عند ما التفتت « مونا » من نافذة المشرب الذى هى جالسة فيه وهو فى البناء المواجه لدار البرلمان وهى تنتظر مجىء « روى »

وكانت « مونا » مخطوبة « لروى » منذ ستة أشهر وكان الحب متبادلا بينهما . لكن الخطبة لم تعلن بعد ولم يوافق عليها أهلها إلى الآن . وكان لابد للفتاة من إثارة حرب شعواء بدارها قبل أن يوافقوا على هذه الخطبة . ولقد نشبت الواقع الأولى ولكن على غير طائل .

وجاء روى فى موعده ودار الحديث فقال : « من العبث أن تتجادل فانى مع اعتقادى بأنك أنت الفتاة التى خلقت لى فانى أرى كلا منا ينتسب إلى دنيا غير التى ينتسب إليها الآخر »

قالت مونا : « لست أفهم ما تعنيه » فقال : إنى رجل فقير أشتغل كاتباً فى مصرف ولا يزيد إيرادى على مائة جنيه فى العام ، وأنت بنت عضو فى البرلمان ينفق مثل هذا المبلغ فى أقل من أسبوع ، وأنت تلبسين من أغلى الثياب وتقيمين فى شارع « بوندستريت » ، وأنا ألبس من أرخصها وأقيم فى « شارع ستراند » ، وأنت تسافرين فى السيارة إلى أبعد المسافات وأنا قد أمشى أحياناً لأنى لا أملك أجرة الترام .

قالت مونا : « إنى أكره الكلام بهذه اللهجة فانك بها تحاول إفهامى أنى مغرورة بالغنى » فقال : « إنك لست بالغنى مغترة . ولو كنت كذلك لما قبلت الزواج منى . ولكن الواقع أن الأساليب القليلة الماضية دلت على أن عهد خطبتنا لن يدوم »

قالت : « إنى أفضل عدم المناقشة فى هذا الموضوع . وقد وعدت أبى بلقائه الليلة فى المجلس وقد آن الموعد وسأقنعه بكل رأيى

قالت ذلك ولكنها لم تتحرك من مكانها ولم يتحرك روى كذلك . وبقى كلاهما صامتاً مدة من الزمن . وكان هذا الموضوع أهم من أن يهملاه أو أن يحسما فيه برأى دون تروٍ . وكانت مونا تشعر فى أعماق نفسها بأن فيما يقوله روى شيئاً كثيراً من الصدق

ومونا هذه هى وحيدة السير فيليب مازرز ولم تعرف قط ما معنى الاحتياج إلى شىء من الأشياء وكانت دائماً مالكة حريتها التامة فى قصر أبيها فى ويمبلدون . وكان من عاداتها أن تسوق عربتها بنفسها وتبتاع من الثياب والمعاطف مايجزع عند المطالبة بثمنه كل الآباء ، ولكن السير فيليب كان وافر الغنى وكان لايضن على ابنته بشىء . . .

وكان روى من هواة التمثيل وهو يشغل أوقات فراغه بتأليف روايات للمسرح وتمثيلها مع جماعة من أصحابه الهواة . وفى يوم من الأيام احتاج الى سيدة لتمثل دور الأميرة فوقع الاختيار على مونا لأنها بطبيعتها تمثل هذا الدور فى غيرها تكلف وقبلت مونا ذلك أولا لأنها تحب التمثيل ، وثانياً لأن هذه فرصة سانحة لشراء ثياب جديدة . ولما كان

2017-11-1

روى من أبعد الناس عن التأنق فى الثياب فانه مثل دور سائق سيارة للأميرة .

وكانت الرواية تجعل هذه الأميرة تتدلل بحب هذا السائق، فلم تكتف مونا بحبه على المسرح فقط بل أحبته فى الحياة الحقيقية، فأحبها روى كذلك، وتبادلا العهود والمواثيق وشعر كل منهما بأنه لايستطيع الحياة دون الآخر . وكانا يتقابلان دائماً ويقرآن كتباً متوافقة ويفكران تفكيراً مشتركا ويستنشقان نسياً واحداً . وفى الحفلات الراقصة يرقصان معاً . ومايكاد يمضى يوم واحد لايتقابلان فيه

ولما ذهب روى إلى السير فيليب ليعرض عليه تزويجه من ابنته تلقاه بالضحك والبشاشة لأن عهد الكبرياء والتعرطسة فى حياة هذا النائب قد انقضى منذ سنين .

قدم اليه النائب لفافة تبغ وقال : « إننى لا أعجب من حبك لمونا فهى جميلة ، ولكنى بغض النظر عن موافقتى أو عدم موافقتى باعتبارى أباً فلا أشير عليك إذا عدتنى صديقاً بأن تتزوج منها، فان الزوج الذى يستريح الى حياته معها هو الذى ينفق عليها أربعة أو خمسة آلاف جنيه فى العام .

هبط قلب روى « بنطين أو ثلاثة » على حد تعبير سماسرة البورصة وأدرك أن السير فيليب لم يقل إلا الحقيقة، ولكنه أجاب : « إن مونا تعرف أنى فقير ولكنها لم تعر هذه المسألة شيئاً من الالتفات »

فقال النائب : إن مونا كالأوزة، فهى لاتعرف معنى الافتقار الى المال، وهى لاتعرف كيف تطبخ الحساء وأرى أن الزوج الذى يناسبها هو الذى يستطيع أن يجعلها تعيش على نفس النظام الذى اعتادته قبل الزواج . والحقيقة يا صديقى روى أن مونا بلهاء وإنك على مايظهر لست أفضل منها »

اختضب وجه روى احمراراً، ولكن ذلك لم يكن لاستيائه من أن يخاطب بلفظ أبله بل لأنه لم يكن يتوقع أن يتكلم أحد عن مونا بمثل هذا اللسان

وخرج روى من عنده وهو يائس، ولكن مونا نفسها أنقذت الموقف، فقد قالت لأمها وتلك أبلغت السير فيليب أنها راغبة فى الزواج من روى وأنها هى التى اختارته، وأن أباها إذا اعترض على ذلك فانها لن تصغ عنه ، فنير السير فيليب خطته وقال لابنته : « إذا كانت سعادتك مرتبطة بحظ هذا الشاب فانى وأمك نكف عن معارضتنا، فاننا نريد أن تكونى سعيدة . ولك الحق فى أن تختارى لنفسك ، ولكنى أريد أمراً واحداً إذا وعدتنى به تركت المعارضة، وهو أن تمتنع الكلام بتاتاً عن أمر الزواج مدة عام وفى العام المقبل تتزوجين »

وكان فى لهجة النائب رنة لم تستطع الفتاة فهمها، فقطعت على نفسها العهد الذى طلبه . ولم تكن مونا متعجلة بالزواج اكتفاء بأنها مخطوبة خطبة علنية لروى وأنها تذهب معه إلى كل مكان مبكرة أو متأخرة وهى تعد شريكته فى كل مجتمع

ولما اجتمع السير فيليب وزوجته لأول مرة بعد ذلك أشعل السير سيجارة وقال وهو يراقب دخانها : « لو أننا عارضنا هذين الأبلهين فانهما يظنان نفسيهما من الشهداء . ومن المحتمل أن يتزوجا على الرغم منا . ولذلك وجب علينا أن نأخذهما بالحيلة وأنا واثق من أن كلا منهما سيمل من الآخر قبل انقضاء ستة أشهر . إن مونا لاتحب إلا الأشياء الغالية الثمينة وهذا الخاطب الفقير لايستطيع أن يفى

2017-11-11

بطالها . ولذلك انتظر أن يتشاجرا فى أقرب الأوقات »

لم تجبه زوجته ووضعت مروحتها بين وجهها وبين المصباح : إما لكى تستر مايبدو على عينيها من الملام ، وإما لكى تحمى عينيها من الضوء

وكانت تقول فى نفسها : «هل يجوز للمتقدمين فى السن استخدام تجاربهم بمثل هذه الوسيلة ؟ لكنه ربما كان فيليب محقاً وربما تشاجرت مونا وروى . ولكنى أفضل أن ترسو سفينتهما عند الشاطىء فى أمان فان من الخطر بقاءها فى وسط البحر مدة طويلة .

ومرت الأيام واتضح أن رأى السير فيليب كان رأياً سديداً

جلست مونا وروى أمام المنضدة التى يتناولان عليها الشاى وكلاهما يتجنب النظر إلى وجه الآخر . ولكن هذا التجنب كان خطأ منهما فلو أنه نظر إليها لأدرك أن الدموع تتجمع فى عينيها بالرغم من دلالة صوتها على الغضب . ولو أنها نظرت اليه لرأت رغم غيرته وقلقه أنه لايزال يحبها ، ولا يزال هذا الحب مالكا كل قلبه

لكن المصاعب التى وجدت أمامهما كانت أشد مما يتوقعان، فاذا ماذهبا إلى المسرح لم تسترح مونا إلى العربة لأنها اعتادت ركوب السيارات الفخمة، ولم يسترح كذلك روى لأنه يفضل السير على قدميه أو ركوب « الاتوبيس » . وكانت مونا تحب الملاهى وتعدها أهم شاغل لها فى الحياة فهى المدرسة الوحيدة التى تتعلم فيها ؛ أما روى فانه يعد الملاهى تسلية مؤقتة للتخفيف من أعباء العمل اليومى

وكانت هناك علة أخرى للمتاعب هى شعور روى بالثيرة . ولم يكن هذا الشعور خالياً من المبررات فان مونا كانت تدعى دائما أن لها حرية التصرف فى كل شىء . وكانت تقول : « ليس معنى خطبتنا أن نهجر كل أصدقائنا القدماء . وفضلا عن ذلك فان هانسون يختلف عن غيره وقد كان يعرفنى من عهد الطفولة »

وكان « هانسون ميدواى » أكبر من روى بعشر سنوات وهو من أغنى التجار ، ولاحد لاستعداده فى تبذير الأموال وهو يقدم لمونا من الهدايا مالايس يملك تحته روى ، وكان يهزأ بفقر صاحبه هذا

كانت صداقتها له امتحانا مؤلماً لروى ولكنه لم يكن يجد سبباً حقيقياً للشكوى لأن مونا لا تستر بشىء فى العالم مثل اعتزازها بالصدق والأمانة . وكانت تقول له : « يجب ألا تهتم بشىء فان هانسون ليس له مكانة فى قلبى ولكنى أسر من الخروج معه لمجرد اللهو والتسلية .

ولكن روى كان شديد التذمر فلما ألح فى مراجعتها قالت : « إذا أردت فسخ الخطبة فان الأمر كله فى يدك »

ولم تكن تعنى ما تقول ولكنها أرادت إطعامه طعاماً مهيناً فلم يستطع تناوله وامتنعت شهوته للطعام وقال بلهجة تدل على الغضب أكثر من دلالتها على الود : « إننى لا أريد أن أفسخ الخطبة ولكنى أريد أن أتزوجك، غير أن السعادة لا يمكن أن تكون على هذا المنوال »

قالت : « ماذا تريد أن أفعل ؟ أأجلس على المقاعد الخشبية فى أعلى المسرح لكى أقنعك بأنى أميل إليك ؟ »

2017-11-1

فسكت روي وقالت : « إذا لم يكن لديك مال تستطيع إنفاقه فهذه ليست غلطتي فان غيرك يستطيع بسهولة أن يحصل على ثروة »

كان هذا الجواب قاسياً ولكنه لم يستثر روى فأجابها بهدوء : « إن بعض الناس يحصلون على الثروة بسهولة ولكنني لست واحداً منهم؛ والأفضل يا مونا أن نفترق مدة عام ليفكر كلانا في الأمر بروية »

فقالت : « كما تشاء »

وكان جوابها بغير تردد ، ولو أنها شعرت بأن حرارة قلبها تهبط إلى درجة الصفر . وقال : « إنني أعرف على أية حال ستكون مشاعري عند انتهاء هذا العام، فاني سأظل راغباً في الزواج منك، ولكن ربما استطعت أن أحصل على شيء من المال فتكون حياتنا أقرب إلى السعادة منها الآن »

ثم أطرق، ولو أنه استطاع قراءة أفكارها في هذا الحين لوجد أنها تريد أن تقول : « لا حاجة إلى الافتراق يا روى فاني لا أريد أن أكون قاسية »

لكن الكلمات التالية جعلت التوفيق مستحيلا إذ قال : « إذا كنت لا تزالين تميلين إليّ فربما كانت فتنة هانسون ميدواي غير قابلة للمقاومة »

فأخذت الفتاة تقفز بها وقامت وهي تقول : « أريد مقابلة أبي الآن، فاذا سمحت فاني أريد أن أدفع لنفسي ثمن الشاى »

فقال وقد احمر وجهه : « لا أظنك تريدين أن تفعلي شيئاً كهذا . ألا تريدين مقابلتي مرة أخرى »

فأجابته : « نعم بعد عام من الند » فتبين طول المسافة وقال : « ألا يكفي ثلاثة أشهر ؟ »

قالت : « كلا فأنت اقترحت جعل المدة عاماً وهذه فكرة صائبة . لا تنس هذا الموعد فسأنتظرك في هذا الشرب على هذه المنضدة في الساعة الرابعة من يوم ٢٣ ابريل من العام المقبل فاذا لم تأت فاني أعرف ما ذا تعنيه بتخلفك »

ثم أحنت رأسها أمامه بشكل كتمت فيه عواطفها وجرحت عواطفه وقالت : « وداعاً بالنسبة للحاضر »

ولقد يظن القارئ أن مدة عام لا تحدث أي تغيير ...

— ٢ —

في شهر ابريل التالي كان روى جالساً في الفندق عند شاطئ البحر والأمواج الهائجة تتحطم على الصخور تحت نوافذ هذا الفندق، وجاء الخادم يستأذنه في احضار الشاى فأمره باحضاره وسأله هل وردت باسمه خطابات ؟ »

فأجاب بأن له خطاباً في غرفته ثم ذهب ليأتي به وعاد ، فلما وقع نظر روى عليه عرته رعشة لأن عنوانه بخط مونا وكانت هذه أول مرة رأى فيها خطها منذ عام .

ولقد حدث في هذا العام من الحوادث فوق ما كان ينتظره حين اقترح هذا الاقتراح بشرب الشاى أمام البرلمان .

على أثر المقابلة الأخيرة نقل روى إلى فرع جديد صغير أنشيء للبنك في بعض النواحي . وكان عدد زملائه في هذا الفرع قليلاً . وفي أحد الأيام صادف أن وجد روى وحيداً في ذلك المكان فدخل عليه رجلان مقنعان يحمل أحدهما مسدساً .

ولقد أراد واضعو الروايات السينمائية أن يجعلوا من يقع في مثل هذه الحالة من التهديد يرفع يديه مستسلماً لأن أكثرنا يفعل ذلك في مثل هذه الحالة .

2017-11-11

ولكن ذلك كان مستحيلا بالنسبة لروى فانه لم يظهر شيئاً من الارتياح بل نظر الى ماوراء الذى يهدده وقال : « قيد يديه بضابط البوليس . أسرع باعتقاله »

فالتفت المستدى الى الوراء ، وفى أقل من لمح البصر ضربه روى على ظهر رأسه بقبضة المنشفة التى على مكتبه فلاذ زميله بالفرار وتبعه الآخر ، فطارده روى وتمكن من القبض عليهما ودلا على سائر أفراد العصابة .

وكافأ المصرف روى على « ذكائه وحضور ذهنه » بجعله رئيساً آخر وبزيادة راتبه مائة جنيه. ولكن روى بدلا من أن يشكر رئيسه على ذلك ويذهب أظهر عدم اهتمامه . وكان موجوداً بجانب الرئيس صديق له من تجار الماس فاستأذن الرئيس وعرض على روى أن يخدم لديه براتب قدره ٧٠٠٠ جنيه فى العام . وقال إن المهمة التى يراد من أجلها تستدعى سفره الى أمريكا بالجواهر وأن حياته قد تتعرض للخطر فى بعض الاسفار . وقال رئيس المصرف لروى إنه لاينصح له بقبول هذه الخدمة . ولكن روى قبلها بغير تردد . وفى الاسبوع التالى كان فى الطريق الى أمريكا .

ولما انتهت مهمته فى الولايات المتحدة تلقى برقية بالذهاب إلى جنوب أمريكا . وما كاد ينتهى إليها حتى أرسل إلى جزر المحيط الهادى . وها هو ذا الآن يعود إلى انكلترا وقد زيد أجره إلى ألف جنيه فى العام مع إنه لم يمض عليه غير عام واحد .

وجلس روى ناظراً إلى البحر وفى يده خطاب مونا . وكانت الأسفار الطويلة قد شحذت من عزيمته وقوت إرادته واكتسب صوته لهجة الآمر وفقد تلك اللهجة الضعيفة التى أفادها وهو كاتب . وبعد أن فض الغلاف وجد نص الرسالة :

« عزيزى روى

لقد سررت عندما علمت بخبر عودتك، ولكن الموعد الذى اتفقنا عليه منذ عام يصح ألا ينظر إليه نظرة جدية ؛ فان أسررت فانى سأحافظ عليه وإن كنت أفضل العكس. وإننى أتمنى لك كل خير

المخلصة : مونا

تأوه روى تأوه الألم، وكان فى حياته الماضية قد اعتاد مقابلة الآلام منتظراً أو غير منتظرة فلم يجد مفاجأة أشد على نفسه من هذا الخطاب . وقد كان وفياً لمونا بالقول وبالفعل منذ افترقا، وكان يعتقد أنها أيضاً وفية له. وهاهى ذى لهجة خطابها تدل على السأم، فهى بلا شك استماضت عنه برجل آخر . ولكن هل فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة ؟ إن العالم قد تقدم وصار فى الامكان أن ينسى المرء من يحبه وأن يحب سواه بأسرع مما يستطيع وضع حذاء ونزع حذاء .

وجلس إلى المائدة فكتب :

« عزيزتى مونا :

إننى آسف على انتهاء قصتنا على هذا الشكل ، ولكنى لا ألومك فلك مطلق الحرية . وأتمنى لك حسن الحظ

المخلص : روى

— ٣ —

لم يكتف بكتابة الخطاب وإرساله على هذا الشكل . ولكنه عزم على أن يبتعد عن المدينة فى يوم ٢٣ إبريل حتى لا تضعف إرادته فيذهب فى الموعد . ولما كان اليوم قريباً فقد حصل من رئيسه

2017-11-11

على أجازة قدرها أسبوعان . وذهب إلى الريف محاولا نسيان المدينة ومن فيها

وفى يوم ٢٣ ابريل وصلت إليه برقية يدعوه فيها رئيسه إلى الحضور لأمر هام فسافر إلى لوندرا ووجد رئيسه فى انتظاره بالمحطة . ومشى معه الرئيس فى الطريق قائلاً إنه يريد مخاطبته فى شأن هام . ولم يزل يسير به حتى وصلا إلى نفس الشرب المعهود أمام البرلمان . وكانت الساعة الثالثة إذ ذاك، وهذه مصادفة من المصادفات التى تقع فى الحياة الحقيقية أكثر من وقوعها فى القصص .

جلس روى فى هذا الفندق وهو يقول إنه لا ضرر فى ذلك فان مونا لن تأتى . ولكنه مع تأكيده لنفسه بأنها لن تأتى فقد كان فى أعماق قلبه يتمنى مجيئها . وكان يتمنى لو يمكن التوفيق لأنه فقدها بسبب الغيرة . ولم يكن بينها وبينه منازعات . وكان يتساءل : أى الناس هو الذى حبته قلبها بعد روى ؟ هل هو هانسون ميدواى ؟

وعندما خطر اسمه بباله قطب حاجبيه وادعه الشعور بالغيرة مرة أخرى . ولم يعطه جليسه السير جون فرصة طويلة للتفكير فانه كان فى هذه الأثناء يشرح له المشروع الجديد وهو أن يحل محله فى إدارة العمل بلوندرا لأنه سيسافر إلى الخارج رعاية لصحة زوجته ، وقد تكون إقامته فى الخارج دائمة . ثم أخرج السير جون ساعته فجأة وقال إنه سيغيب الآن قليلا لاضطراره إلى مقابلة وزير المستعمرات .

ومشى تاركا روى وحده على نفس المنضدة . وكان قد بقى شىء قليل على حلول الساعة الرابعة فدق الجرس ليدفع الحساب . وجاءت خادمة المشرب والتفت اليها روى فاذا هى مونا . . .

وهكذا تقابلا فى نفس الموعد ولكن عن غير قصد .

قال : « مونا ! ماذا حدث فى العالم حتى أصبحت خادمة مشرب ؟ »

فقالت : « أشكر لك المجىء فى موعدك . ولقد قدمت لك ولصديقك الشاى منذ ساعة ، وكنت أظن أنك ستنصرف دون أن تعرفنى »

وأراد أن يلقى عليها السؤال مرة أخرى لتجيبه عن سبب مجيئها إلى هنا ، فدخل « زبون » آخر واضطر روى إلى الصمت على أمل أن تعود الفتاة اليه

ولكنه تبين أنها لا تريد أن تعود وأنها خادمة حقاً فى هذا المكان . وصمم على معرفة الحقيقة فذهب إلى أمين الخزانة ودفع النقود وسأل متى ينتهى المشرب فقيل له فى الساعة السابعة .

وخرج فجلس فى مكان آخر يراقب منه الباب وهو يقول إن مونا ستكون لى الآن أولا تكون لى أبد الدهر .

وأخيراً أغلق الباب وخرج بعض الخادمات . ولكن مونا لم تخرج فقال فى نفسه وهو يبتسم : لعلها تأخرت توقعاً منها أن أكون فى انتظارها »

ثم خرجت فقابلها وقال : « لابد لى من التحدث معك يامونا فما معنى هذا ؟ »

فنظرت اليه طويلا وقالت : « ليس عندى ما أقوله . لقد كتبت لك بأنى أفضل عدم مجيئك

2017-11-11

ولكن لا أعرف ماذا جعلك تأتى »

وأصر على أن تروى له قصتها فقالت إن أباها أفلس وترك مجلس النواب لان هانسون كان نصاباً وجره إلى خسائر مالية نشأ عنها الافلاس ثم تركه .

وكان روى يصغى وهو متأثر ثم قال : هل أنت مخطوبة ياسونا ؟ »

فقالت : « لا »

قال : « إذن فلنبدأ عهداً من جديد »

فقالت : « كلا ! لقد طلبت اليك عدم المجىء حتى لاتستثير الذكريات المؤلمة . وانى لمسرورة من مركزى الحاضر وان كان الأجر فيه قليلا »

فلم يتمالك نفسه من الابتسام لأن مونا المتأنقة المرفهة ليست هى التى تعيش معيشة الخادمة مسرورة راضية وقال : « كل ماضاع فقد مات . وسنتزوج بأسرع ما تستطيعين فأين تحبين أن نسكن ؟ لقد أصبحت الآن فى حالة حسنة

قالت : « مستحيل يا روى فانى لما كنت غنية وكنت أنت لا تملك شيئاً بلغ من حماقتى أننى ...

ثم سكتت وأذرفت من عينيها الدموع

وبدأت السماء تمطر، ثم اشتد المطر على حين فجأة فاستدعى سيارة وطلب إليها أن تركب فقالت : « إلى أين ؟ أنت لا تعرف أين أقيم »

وركبت وأسرعت السيارة فقال رداً على سؤالها: «ليس هذا مهماً فقد أمرت السائق بأن يستمر دون أن يقف حتى أحصل منك على وعد بالزواج »

عبد اللطيف النشار

الطائرة

اسرع وألطف وسيلة للسفر من مصر إلى العراق وبالعكس

عن طريق فلسطين

سافروا بالسلامة على طائرات

« شركة مصر للطيران »

خصم ١٠ ٪ على تذكرة الاياب دائما

الاستعلامات وحجز التذاكر من أي مكتب سياحة أو من مركز الشركة بالمظلة

النار المقدسة

للكاتب الانجليزي ولتر سكوت
بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

ولو أن بارونات أرنهيم كانوا يهتمون أبا عن جد بالعلوم الروحانية إلا أنهم كباقي النبلاء الألمان حربيون مولعون بالصيد . تلك الصفات كانت ممثلة في البارون هرمن دارنهيم جد آن دوجيرستين لأمها ومن كان يفخر بأنه يملك أفخم الاسطبلات وأكرم جواد للسباق في ألمانيا ، وإني أترك وصفه وأكتفي بالقول بأنه أسود كالسبج (حجر كريم أسود) وليس به شعرة واحدة بيضاء لا في جبهته ولا في أرجله . ولهذا السبب ولكونه حاد الطبع أسماه صاحبه (أبوليون) هذا مما زاد الاشاعة الدائمة عن بيت أرنهيم تأكيداً لأن البارون أطلق اسم أحد الشياطين على جواده .

وفي ذات يوم من نوفمبر ذهب البارون إلى الغابة ليصطاد ولم يرجع إلا عند ما خيم الظلام ولم يجد شيئاً جديداً في القصر أو زائراً غريباً . لأن البارونات ما كانوا يقابلون في قصورهم غير من يتوسمون فيه العلم والمعرفة ليزيدوا معلوماتهم .

كان البارون جالساً وحده في بهوه ويده كتاب لا يستطيع هو أو غيره أن يقرأ حروفه ، وكانت يده الأخرى متكئة على مائدة من الرخام وعليها زجاجة من نبيذ توكي ، وفي آخر هذه الغرفة يرى حاجب واقفاً وقفة احترام ، وقد ساد السكون ولم يسمع غير زفيف رياح الليل كأنها أنين بنغمة محزنة حينما تمر بعيون الورود الصدئة والأعلام الممزقة التي يتكون منها آيات هذا القصر الذي بني في عهد الاقطاعيات .

وعلى حين غفلة سمع وقع أقدام سريعة على السلم وكأنه يرتعد ، ثم فتح الباب بعنف وظهر جنبار رئيس اسطبلات البارون والرعب باد على وجهه وهرول إلى منضدة سيده وهو يصيح :

— سيدي! سيدي! إن شيطانا في الاسطبل.

— ماسعى هذا الجنون؟ ثم وقف البارون واستاء من هذه المقاطعة .

— إنني أكون في حل من عاقبة غضبك إن كنت أقول غير الحق ، وإن ابوليون . . .

ثم سكت لحظة

— تكلم أيها الأحمق فان الرعب قد أفقدك صوابك! هل أصاب جوادي مرض أو وقع له حادث ؟

وكل ما استطاع أن يتفوه به أن كرر (أبوليون)!

— وإذا كان (أبوليون) موجوداً فلا داعي لكل هذا الفزع

— إن الشيطان بجانب أبوليون

— يا لك من معتوه. ما الذي ذهب بحجاك. إن رجالا مثلك وجدوا ليقوموا بخدمتنا يجب عليهم أن يتغلبوا على كل صعوبة. ثم قام واتجه إلى الاسطبلات وكانت في الطرف الأخير من القصر وبها خمسون جواداً للسباق من كرام الخيل مربوطة على صفين وبجانب كل جواد أسلحة الهجوم والدفاع بحالة جيدة . دخل البارون وخلفه خادمان وهو دهش من هذه الاستثنائية الغريبة وساد بين صفي الخيل إلى

أن اقترب من جواده الفضل الذى كان فى طرف الاصطبل فلم يصهل الجواد ولم يحرك رأسه ولم يضرب برجليه كعادته حينما كان يعبر عن فرحه بمقدم سيده، بل اكتفى بالأنين كأنه يستغيث بسيده. رفع هرمن مشعله، فوجد رجلا كبيرا متكئاً بيده على كتف الجواد

— من أنت ؟ وماذا تصنع هنا ؟

— أبحث عن ملجأ وضيافة ، أتوسل إليك بكتف جوادك وفرند سيفك ، جعلهما الله لك عوناً على الشدائد !

— إنك إذن من إخوان النار المقدسة ، ولا أستطيع أن أرفض طلبك احتراماً لمذهب السحرة القدمى . إنك تطلب حمايتى خوفاً من، ولاية مدة ؟

— خوفاً من الذين سيبحثون عنى هنا قبل صياح الديك ، لمدة سنة ويوم تبدأمن هذه الساعة.

إنى قسمى وشرفى لايسمحان لى بالرفض، وسأحميك ، وسيكون قصرى مأواك وستجلس إلى مائدتى وتشرب نبيذى ، كما أنك يجب عليك أن تحترم أوامر زرادشت إذ قال : « فليحم القوى الضعيف » كما قال أيضاً : « فليعلم الحكيم من هو أقل منه علماً » .

إنى القوى وستكون فى حمايى، وأنت الحكيم ويجب عليك أن تعلمنى الأسرار الخفية

— أريد أن تظهو على حساب خادمك ، وإذا كان دانيشمند يعرف شيئاً يفيد هرمن فان تعليمه تكون كتعليم الوالد لولده

— أخرج إذن من خبيئك؛ وإنى أقسم بالنار المقدسة التى تعيش بدون إسعاد أرضى وبالاخاء الذى يسود بيننا، وكتف جوادى ، وفرند سيفى لأحميك علماً ويوماً بقدر ما تسمح به سلطتى .

خرج الغريب من الاصطبل ولم يدهش الذين شاهدوا زيه الغريب كثيراً مثل ما فزع منه جسبار حينما رآه فى الاصطبل دون أن يعلم من أين دخل . وحينما أدخله البارون إلى البهو وتلقاه بترحاب واحترام . وقد لاحظ فى ضوء المشاعل أنه رجل طويل القامة يلبس ثياباً أسيوية أى قفطاناً أسود كالذى يلبسه الأرمن وقلنسوة مربعة عليها عمامة سوداء من صوف اسطراخان، وكانت ملابسه جميعها سوداء ، وقد تدلت على صدره لحية بيضاء فزادت وضوحاً وسط هذا السواد ، وبوسطه حزام من حرير أسود علق به خنجراً وسيفاً قصيراً مقوساً فى غمد من الفضة ، وكان متحلياً بخاتم من الياقوت كبير الحجم تتلألأ منه أشعة لطيفة . ثم قدم له البارون الحارى والمرطبات فقال له :

— لا أستطيع أن أكسر لقمة أو أضع نقطة من الماء فوق شفتى إلا بعد حضور المنتقم أمام بابك.

ثم أمر البارون بإيقاد المصابيح وزيادة عدد المشاعل ثم قال لجميع رجاله : إذهبوا لتستريحوا . ولبث وحده مع الغريب .

وفى منتصف الليل تزعزعت أبواب القصر ، وسمع لهاسوت كصوت الأعاصير الهوج، وسمع صائح يقول : أسلموا إلى أسيرى دانيشمند بن على. ثم سمع بواب القصر صوت نافذة تفتح وعرف صوت سيده وهو يخاطب الصائح المنذر ، وكان الليل حالكا فلم يستطع أن يميز أحد المتكلمين ، وكان الحديث بينهما بلغة غير مفهومة .

وبعد خمس دقائق استأنف الصائح حديثه باللغة الألمانية قائلا :

— إذن أؤجل تنفيذ حق سنة ويوماً بشرط أن أنفذ الواجب وألا ترفض بعد ذلك أو تعارض فى تنفيذه .

ومن هذا اليوم استقر الفارسى فى قصر أرنهيم

ولم يتعد بابه ، وقد ركز همومه وعمله فى مكتبة القصر ومعمل البارون الذى يشتغل معه فيه عدة ساعات متتابعة .

لم يجد سكان القصر فى سيرة الساحر الفارسي نبأ يلام عليه ولكنهم لاحظوا أنه لم يقم بشىء من شعائره الدينية كما أنه لم يحضر أية حفلة دينية . وفضلا عن ذلك كان دانيشمند مواظباً على صلاته الفردية وقد صنع مصباحا من الفضة بشكل بديع ووضعه على عامود صغير من المرمر ونقش على قاعدته سطوراً أشبه بالهيروغليفى ، ولم يعلم أحد إلا البارون بأى مادة كان يغذي هذا المصباح لأن غيبه كان نقياً جداً يفوق أنواع الذهب المعروفة بعد الشمس .

وقد لاحظوا على الغريب أنه فى غاية الحشمة والشدة ، كثير الصوم والصمت لايحادث إلا البارون عند الضرورة ، كان كريماً لايوزه المال فلذلك احترمه الخدم دون خوف .

أعقب الربيع الشتاء وأتى بعده الصيف ففتحت أزهاره ثم أقبل الخريف بثماره فنضجت وتساقطت وكان بالعمل حاجب يساعد البارون عند الحاجة إليه وقد سمع الفارسى يقول للبارون :

— يحسن بابنى أن تصغى إلى أقوالى لأن الدروس التى ألقيتها عليك تنتهى الآن ، ولا سلطة فوق الأرض تستطيع أن تؤخر طويلا ماقدر علىّ .

— وا أسفاه يا أستاذى ! أيجوز أن أحرم دروسك حينما أحتاج ليدك لتضمنى فوق ذروة معبد الحكمة !

— لاتأس يا ولدى فستقوم أبنى بإتمام دراستك حتى تبلغ النهاية ، وستحضر هنا لهذا الغرض . ولكن تذكر جيداً أنك إذا أردت أن تخلد اسمك وجب عليك أن تحفظها عندك كساعدة لتعليمك . وإن كان جمالها ينسيك أنها ما خصصت إلا لتعليمك فانك ستقبر مع سيفك وفرسك وتكون آخر سلالة بيتك من الذكور ، وستحدث لك مصائب أخرى لأن هذا الزواج لاتنتج منه نتيجة سعيدة .

— صه فانهم يراقبوننا .

ولما أتم دانيشمند إقامته فى القصر خرج منه راكباً جواداً كالسباح وودعه البارون والأسف ملء فؤاده ، فطمأنه الحكيم وقال له بصوت منخفض سمع منه هذه الجملة :

— سنكون على مقربة منك وقت ظهور أشعة الشمس الأولى فاعطف عليها ولكن لا تتورط فى عطفك .

ثم سافر بعد هذه الكلمات ، ولم ير بعد هذا اليوم ، ولم يتحدث عنه أحد فى ضواحى القصر .

وخلافا لعادته جلس فى البهو الكبير ولم يدخل المكتبة ولا المعمل الذى حرم الفتح فيه بمصاحبة أستاذه . وبعد ماغسل وجهه وأصلح من هندامه انتظر إلى أن ظهرت أشعة الشمس ودخل معمله وخلفه أحد الخدم فوقف على الباب لحظة وفكر فى صرف خادمه ، وتردد فى فتح الباب ثم صمم على الدخول كمن ينتظر أن يرى شيئاً غريباً . وحينما دخل وخادمه وراءه دهش من المفاجأة الغريبة التى واجهها بشىء من الذعر لأنها وإن كانت عجيبة ولكنها محبوبة تسر الناظرين .

لم ير البارون المصباح الفضى على قاعدته بل شاهد مكانه غادة فتانة مرتدية حلة فارسية قرمزية اللون جاسرة الرأس كستنية الشعر وقد عقدته بشريط أزرق وثبتته بأعلى جبينها بمشبك ذهبى زينه فص ثمين من عين (١) الشمس المتعدد الألوان وكان يعكس بين ألوانه لونا أحمر كالنار .

(١) حجر كريم يسمى بالفرنسية Opale

2017-11-11

كانت هذه الفتاة متوسطة القامة ممشوقة القد باعتدال وجمال ورشاقة ، تلبس سراويل فضفاضة ربطت أطرافها فى كعبيها، صغيرة الرجلين، وترى تحت طيات ثوبها ذراعان ويدان آية فى الجمال والانسجام، وكانت سحنتها تدل على النشاط وقوة التعبير وحدة الذكاء ، ولها عينان سوداوان يملوها حاجبان انتظم قوسامها وترجمت أطرافهما ، وفم صغير وشفتان قرمزيتان علاهما الابتسام الخفيف كأنهما توشكان أن تتلفظا بالقول .

ويظن لأول وهلة أن الكرسى الذى كانت واقفة فوقه لا يستطيع أن يقل حملا جسيماً ولكنها كانت عليه فى غاية الطمأنينة والخفة كمصفور حط من الجو على فرع وردة . وحينما دخلت أشعة الشمس الأولى من النافذة المواجهة لهذا الكرسى زادت هذا التمثال الحى بهاء وجمالا، وكانت ساكنة كالرمز، ولم تظهر أنها لمحت حضور البارون إلا بسرعة تنفسها واحمرار خديها وابتسامها الساحر الهادىء .

لم يكن البارون يتوقع أن يصادف مثل هذا الجمال الفتان فانبهر عند مشاهدتها وليث لحظة ساكن الحركة، وأراد أن يحسن مقابلة زائرته فتقدم إليها باسطاً ذراعيه ليساعدها على النزول ولكنها لم تقبل منه غير مساعدة يده وقفزت بكل خفة على الأرض كأنها من الكائنات الجوية ثم قالت :

— لقد جئت طوعا للأمر الذى تلقيته ويجب أن تثق أنك ستجد منى معاملة جادة، وآمل أن أرى فيك التلميذ المجتهد المتيقظ .

وبعد حضور هذه الناذة الفتانة حصل تغير عظيم فى قصر أرنهيم . قبلت إحدى السيدات وهى ابنة كونت من أقارب البارون أختى عليها الدهر أن تشرف على خدام القصر ، ولتبعد الشبهة التى يلصقها به الناس من وجود هذه الفتاة التى أطلق عليها الناس اسم الحسناء الفارسية . فكانت الكونتيس ولدسفيتن لا تفارق البارون حينما يتلقى دروسه من هذه الفتاة التى حلت محل الساحر الشيخ، فكان يدرس معها فى المكتبة أو فى المعمل. وكانت أعمالها غريبة جداً ، كانت ترعب بها بعض الأحيان البارون، وكانت المعلمة لا تقبل مطلقاً أن تعمل شيئاً عرضا بل كان علمها لا يتبدى الحلال المشروع.

كان أسقف بمبرج يمد حكيما عظيماً فى مثل هذه المواد فزار قصر أرنهيم ذات يوم ليقف على مبلغ ماوصل اليه علم الفتاة هرمبون التى ذاع صيتها فى جميع البلاد التى يروبها الرين . وحينما دارت بينهما المناقشة تحقق من تبحرها فى علوم الدين وقال إنها دكتور فى التوحيد تلبس ثياب راقصة شرقية، وإنه كان يعتقد أن ماقيل فى شأن هذه الفتاة مبالغ فيه فتحقق أنه لا يبلغ نصف حقيقة فضلها .

وهذه الشهادة التى لا تجرح قد وضعت حداً للاشاعات السيئة التى دارت حول الحسناء الأجنبية حتى حازت أخيراً عطف الجميع .

وقد حصل تطور جديد فى مقابلات المعلمة وتلميذها فكانت دائماً بتحفظ واحتياط ولم تقتصر على المكتبة والمعمل . فكانا ينشدان اللهو والتسلية فى الحدائق والصيد فى البر والبحر وبحيبان الليل فى الرقص .

كانت هذه الفتاة حلوة الشمائل فتانة شائقة الحديث حادة الذكاء فى منتهى اللطف والوداعة والكرم ، وقد وزعت على صديقاتها كثيراً من الحلى

كانت بارعة فى الرقص لخفتها ومهارتها فلا يستريها أى تعب مهما طال الرقص حتى أن أمهر الراقصين لا يستطيع أن يجاريها .

وحينما كانت تجهد نفسها فى الرقص أو الرياضة ويتورد خداها كانوا يزعمون أن فص عين الشمس

2017-11-1

الذي يزين مشيك شعرها ولايفارقها يتطاير منه شرر وألسنة من نار . وقد لاحظ عليها خادمها أنها حينما كانت تغضب يحمر هذا الفص العجيب كأنه يقاسمها تأثرها ، وكانت تتجنب أن تبله بالماء .

ولم تمنع هذه الأقاويل البارون من اقتران بهذه الفتاة الجذابة وقضاء شهر الزفاف على أفخم شكل . وعاش الزوجان فى هناءة وسعادة . وبعد عام ولدت بنتاً أسمتها سيبيل كاسم والدة البارون ، ثم حددوا ميعاد حفلة التعميد حين تماثل الوالدة للشفاء . ثم دعى الناس من كل فج وازدحم القصر بالأفواج .

وكانت بين المدعوات سيدة عجوز تدعى البارونة ستينفيلد اشتهرت فى كل مكان بفضول غريب وسلف وقحة ؛ ولم تمض عليها بضعة أيام فى القصر حتى جمعت لها خادمتها كل الإشاعات التى ذاعت فى القصر عن البارونة هرميون .

وفى صباح اليوم المحدد للتعميد والناس مجتمعون فى البهو ينتظرون ربة القصر ليذهبوا إلى الكنيسة شجر خلاف بين البارونة التى سبق الكلام عليها وبين الكونتس ولستين لأسبقية المقام فحكما البارون ليفصل بينهما فحكم لصالح الكونتس . فغضبت البارونة وأصرت باحضار جوادها فى الحال ثم ركبت هى وأتباعها وقالت :

— إنى أترك قصراً لا تقبل مسيحية صالحة أن تدخله . أغادر قصراً صاحبه ساحر وصاحبته شيطانة تخشى أن تبل جبينها بالماء المبارك .

ثم تقدم البارون بضع خطوات وقال : أيها الفرسان والنبلاء ! هل فيكم من يشهر سيفه ليزكي كذب البارونة الفاضح الذى تقايأته ضد زوجى وقريبتى .

رفض الجميع أن يدافع أحد منهم عن افتراء البارونة ستينفيلد وأعلنوا أنه كذب وادعاء .

وبينما كان البارون يتكلم كانت الكونتس ولستين تصدر منها إشارات قلق وحيرة ، ولما انفضت الجماعة من حوله اقتربت منه وقالت له : كن بصيراً ولا تعمل شيئاً فيه مجازفة ، واعلم أن فص عين الشمس فيه سر عظيم غريب .

— هل أنت أيضاً حمقاء ؟

وفى هذه الآونة دخلت البارونة ووجهها شاحب من النفاس فسلمت على المدعوين ثم أقبل البارون ورجا منها أن تدعو الحضور للذهاب إلى الكنيسة وكان الصبي محمولاً على محفة فاخرة يحملها أربع فتيات .

ولما دخل البارون الكنيسة غمس أصبعه فى ماء المعمودية ودهن جبين البارونة وأراد أن يفتدافتراء البارونة ستينفيلد بطريقة غير ظاهرة فأسقط نقطة من أصبعه على الفص فانفجر منه لهب متوهج كالشهب الساقطة وفقد لألاءه وأصبح كالحصاة ؛ وسقطت فى الحال البارونة على رخام الكنيسة وهى تئن أنيناً شديداً من الألم . ذعر المدعوون من هذا المشهد وحملوا البارونة إلى غرفتها . وفى هذه الفترة القصيرة حصل تغير عظيم فى ملامحها وضعف نبضها ثم رجت منهم أن يتركوها مع زوجها ، ثم جلس بجانبها ساعة وخرج وأقفل الباب بالقفل ورجع إلى الكنيسة وركع بكل خشوع أمام المحراب ساعة

وحينما أقبل الأطباء طلبت الكونتس ولستين من البارون مفتاح الغرفة فناولها إياه قائلاً : لا فائدة من أى إسعاف ؛ وطلب منهما أن يغادر القصر المتطفلون

ولما فتحوا الغرفة لم يجدوا فى السرير غير حفنة من رماد كالذي يتخلف من إحراق ورقة . وعندئذ أعلنوا الجنازة وأقاموا الشعائر الدينية .

وبعد ثلاث سنين ، وفى نفس هذا اليوم توفى البارون ودفن فى ضريح الكنيسة بالقصر ودفن معه سيفه وخوذته وترسه وكان آخر الذكور من أسرته .

محمد فاضل صباغ

2017-11-11

الثلاثة الزاهدون

للفيلسوف الروسي "ليو تولستوي"

بقلم السيد فريد شهاب السيد

كان الجو لطيفاً رائقاً ، والريح رخاء طيبة ؛ وكانت السفينة تجري بركبها في اطمئنان وسلام .. وكان في جملة الحجاج إلى دير « شلوفتسك » أسقف قدم من « أركانجل » لزيارة ذلك الدير

وكان الركاب قد انتشروا على ظهر السفينة فبعضهم قد اضطجع ، وبعضهم جلس للأكل ، وآخرون منهم قد اجتمعوا يزجون فراغهم بالحديث. أما الأسقف فكان قد نزل إلى ظهر السفينة وظل يخطر بين جماعات الركاب ، إلى أن استرعت نظره منهم جماعة ملتفة حول صياد[1] من صيادي السمك وهو يحدثهم ويشير إلى مكان في البحر ... ووقف الأسقف ومد بصره إلى حيث كان يشير ذلك الرجل فما وجد شيئاً غير مياه البحر تضطرب تحت أشعة الشمس ، ودنا الأسقف من المتحدث عله يسمع شيئاً ولكن ما إن رآه هذا حتى رفع قبعته احتراماً وانقطع عن الكلام ، فرفع الآخرون قبعاتهم أيضاً وانحنوا له ، فقال الأسقف :

— لا ترجعوا أنفسكم أيها الأصدقاء فما جئت لأكون سبب ذلك لكم ؛ إنما جئت كي أستمع ما كان يقوله هذا الرجل الطيب

فأجابه أشجع الواقفين وكان أجرأ:

— إنه كان يقص علينا نبأ « الزاهدين » !

— وأين الزاهدين عنيت ؟ !

قال ذلك وذهب إلى جانب السفينة واتخذ مجلسه على صندوق كان هناك

ثم قال :

— خبروني عنهم ؛ أحب أن أعرف خبرهم وإلى م كنتم تشيرون ؟ !

فأجابه الرجل :

— أترى تلك الجزيرة الصغيرة هناك ؟

— وأشار بيده ذات اليمين — إنها الجزيرة التي يعيش فيها أولئك الزاهدون الذين خصصوا أعمارهم لانقاذ أنفسهم !

— ولكن أين الجزيرة ؟ ! إني لا أرى شيئاً !

— هناك إذا تفضلت فانبعث اتجاه يدي ... أترى تلك السحابة الصغيرة ؟ انظر ما تحتها إلى اليسار قليلا . تلك البقعة الدكناء هي الجزيرة

ونظر الأسقف في جد إلى حيث كان الرجل يشير ، ولكن عينيه الضعيفتين ما كانتا ترىان غير الماء يعكس أشعة الشمس

— لا أستطيع أن أراها ، ولكن من أولئك الزهاد الذين تتحدثون عنهم ؟

فأجاب صياد السمك :

— إنهم رجال مقدسون . اتصلت بي أخبارهم

(*) هذه القصة وقصص أخرى جمعها مترجمها إلى الانكليزية على أنها بعض ما يرويه سكان مقاطعة « الفولجا » في روسيا من قصص شعبية ، تبين نفسياتهم الخالصة من التكلف والبغض به وكان « تولستوي » قد ألف أقوال أولئك السكان فأخرج هذه الأسطورة منها دون أن يزيد عليها شيئاً أو يحذف منها شيئاً ، أو يضيف عليها تعليقاً من عنده (المترجم)

(١) لصياد السمك اسم عربي وهو «الركي» فلو استعمله الكتاب واصطلحوا فيا بينهم عليه لشاع استعماله بين القراء

2017-11-11

منذ أمد بعيد . غير أني لم أحظ بملاقاتهم إلا إلى ما قبل عامين

ثم قص الصياد كيف كان أمرهم معهم حين ضل في إحدى الليالي ، فقذفه الموج إلى جزيرتهم دون أن يدري . فلما أصبح الصباح وارتاد نواحي الجزيرة أبصر كوخاً من الطين ؛ ورأى فيه شيخاً طاعناً في السن قد وقف بالقرب منه ، ثم خرج اثنان آخران من الكوخ وبعد أن أطعموه وجففوا أمتعته من الماء ساعدوه على إصلاح قاربه المحطم

وهنا سأل الأسقف :

— وكانوا يشبهون ما ذا ؟

— كان أحدهم صغير الجرم ، منحنى الظهر ، يرتدي ما يرتديه الكهان ، وكان طاعناً في السن إلى حد كبير ، إذ ما أظنه إلا قد جاوز المائة من عمره حتى أن شعر لحيته كان قد خالطته الخضرة الفاتحة من شدة الكبر ! وكان إلى ذلك باسماً وضاء الوجه ، كأن وجهه وجه ملك من ملائكة السماء. أما الثاني فكان أطول من صاحبه قامة ، وكان طاعناً في السن أيضاً ، وعليه رداء خلق مما يلبس الفلاحون ، ولحيته كبيرة قد ضربت إلى الصفرة من شدة البياض ! وقبل أن أمد لهذا الشيخ الفاني يد المساعدة انقلب إلى قاربي فحمله كأن لم يكن قارباً ضخماً بل دلواً صغيراً مما يحمل به الماء ! وكان هذا الآخر حنوناً شفيقاً . أما الثالث فكان طويلاً أيضاً ذا لحية بيضاء كالثلج ، قد امتدت وتشعثت حتى وصلت إلى ركبتيه ؟ وكان متجهم الوجه عابساً ، بحاجبين غليظين مشرفين على وجهه . وقد لف حول بدنه من الوسط حصيراً

فسأله الأسقف قائلاً :

— وهل تحدثوا إليك بشيء ؟

كانوا في أغلب الوقت لا ينبسون ببنت شفة ، وإن نطقوا — وقليلاً ما يفعلون — اقتضبوا الكلام فيما بينهم... إن أحدهم ليرمق الآخرين بنظرة واحدة فما أسرع ما يدرك هذان الآخران قصد صاحبهما !

وقد سألت أطولهم : هل كانوا قد استوطنوا الجزيرة من أمد بعيد ؟ فعبس وغمغم شيئاً كالمغضب ولكن أكبرهم أخذ يده بين يديه وابتسم فسكن ثائر الطويل وأجابني الأخير بهذه الكلمات :

— « إن الرحمة والغفران لمن فوقنا ! »

وكانت السفينة اقتربت من الجزيرة حينئذ قليلاً ، فقال التاجر الذي بَدَأَ الأسقفَ الكلامَ — أول الأمر — :

— أنظروا يا صاحب السيادة — إن الجزيرة لتبدو الآن واضحة ، قال ذلك وأشار بيده نحوها .

ونظر الأسقف فأبصر بقعة دكناء حقاً .

— كانت الجزيرة — وبعد أن أطال إليها النظر غادر مكانه وذهب إلى من بيده « سكان السفينة » فقال له :

— ما تلك الجزيرة ؟

— ليس لتلك الجزيرة اسم ، وفي عرض البحر مثلها كثير .

— أحقاً أن فيها زاهدين قد خلصوا إلى إنقاذ أنفسهم ؟

— إنه ليقال كذلك — يا صاحب السيادة — ولكني لا أدري حظ هذا القول من الصحة ؛ وكثيراً ما زعم صيادو السمك أنهم شاهدوهم ، ولا ريب في أن ما يقولون محض تخرص وتلفيق !

2017-11-11

— أريد أن أنزل إلى تلك الجزيرة وأري أولئك الرجال ، فكيف السبيل إلى ذلك ؟

— إن السفينة لا تستطيع أن ترسو بجانب الجزيرة ؛ غير أنكم تستطيعون الذهاب إليها فى قارب، وخير من هذا أن تكلموا الربان فى الموضوع

وأرسل فى طلب الربان فجاء. فقال له الأسقف:

— أريد أن أرى أولئك الزهاد ، أفلا يمكننى الخروج إلى أرضهم ؟

وحاول الربان أن يثنيه بالعدول عن فكرته قائلا:

— أجل، إن ذلك فى الإمكان، ولكنه يقتضينا وقتاً جد طويل ! ولو تجاسرت لقلت لسيادتكم إن أولئك الشيوخ لا يستحقون كل هذا العطف منكم عليهم. إنهم مجانين سخرون، لا يعون مما يقال لهم شيئاً ولا يفهمون ؛ ثم إنهم لا يزيدون كلمة على الأسماك التى فى البحر — إن كان للأسماك حديث! —

غير أن الأسقف بقى مصراً على رأيه ، مقرراً أن يراهم ، وتعهد أن يعوضهم عن كل ما يخسرون .. فلم يكن مما أراد بد ، وصدرت الأوامر إلى الملاحين بتوجيه السفينة إلى ناحية الجزيرة ، واتخذت تلك التدابير ... وبحبال بالكرسى فوضع فى صدر السفينة ليكون مجلس الأسقف عليه يرقب الجزيرة . وكان الركاب بجمعهم قد تجمهروا هناك فكان ذوو البصر الحاد منهم يرونها وسخورها ، ثم الكوخ الذى فيها ، حتى استطاع أحد المشاهدين أخيراً أن يبصر الرجال الثلاثة أنفسهم .

وإذ ذاك جاء الربان بمنظار وبعد أن مدّ فيه بصره سلّمه إلى الأسقف قائلاً :

أولئك هم حقاً ! قد وقفوا على الساحل .. هناك إلى يمين تلك الصخرة الكبيرة قليلاً . وسلم المنظار إلى الأسقف ، وبعد أن مد فيه هذا بصره رأى الرجال الثلاثة — الطويل ، فالأوسط ، فالقصير المنحنى الظهر ، وقد وقفوا على الساحل متماسكين بأيديهم .

وهنا التفت الربان إلى الأسقف قائلاً :

— إن السفينة لا يمكنها أن تتقدم إلى أكثر من هذا يا صاحب السيادة فتفضلوا فاركبوا زورقاً يوصلكم إليها إن شئتم ، بينا نرسو هنا فى انتظاركم

وألقيت الرساة ، وأنزل الشراع ، فمن ذلك — السفينة حركة اهتزت لها ، ثم سكن اضطرابها فأنزل إلى البحر قارب ركبه بعض الملاحين وهبط الأسقف إليه معهم واتخذ مكانه فيه . ثم جذف الرجال فجرى بهم الزورق سريعاً نحو الجزيرة ؛ ولما وصلوا إلى ممر بين الصخور رأوا الشيوخ الثلاثة : طويلهم بحصيره التى التف بها ، ثم الذى يليه فى ثوب خلق من أثواب الفلاحين ، ثم أقصرهم حجماً : محنى الظهر كبراً ، وقد لبس ثوباً مما يرتديه النساك وكان بعضهم ممسكا بأيدى بعض .

وتقدم الملاحون من الشاطىء واقتربوا منه ، فربطوا القارب به بينا صعد الأسقف إلى البر . وانحنى له الشيوخ الثلاثة ، فحياهم بمثل تحيتهم وقال يخاطبهم :

— لقد ترامى إلى أنكم رجال أتقياء ، تعيشون هنا لتخليص أنفسكم وإخوانكم الناس بالتضرع إلى سيدنا المسيح . . وأنا خادم غير ذى بال من خدمه دعتنى العناية الإلهية إلى إرشاد عباده ، وقد جئت لأراكم وأعلمكم ما أستطيع أيضاً . . فتبادل الرجال الثلاثة النظر بينهم وابتسموا ولكنهم لزموا جانب الصمت . ثم قال الأسقف :

2017-11-11

— خبروني ما أنتم فاعلون لإنقاذ أنفسكم ، وكيف تخدمون الإله على هذه الجزيرة ؟ ؟ فنظر أوسطهم إلى الكبير وتنفس الصعداء . فابتسم الأخير وقال يخاطب الأسقف :

— لاندري كيف نخدم « الرب » إنما نحن نخدم أنفسنا ونتمهدها

— وكيف تصلون لله ؟

— إنا نصلي هكذا :

« أنتم ثلاثة

« ونحن ثلاثة .

« فارحمونا ! »

ولما قال الشيخ ذلك رفع الثلاثة أبصارهم إلى السماء وكرروا الجملة فتبسم الأسقف .

— إنكم على ما أرى قد سمعتم عن « الثالوث المقدس » ولكنكم لاتؤدون صلواتكم على الوجه الصحيح ؛ وأراكم أيها الأحبة تسعون إلى إرضاء بارئكم ولكنكم تجهلون الوسيلة إليه . فتعالوا أعلمكم طريقة الله التي أوصى عباده باتباعها فيما أنزل من كتب وأسفار مقدسة . وبدأ الأسقف يشرح للزهاد كيف جاء المسيح هادياً للناس ، ثم حدثهم شيئاً عن « الأب والابن والروح القدس » فقال :

— وقد نزل « السيد الابن » إلى الأرض لينقذ الانسان ، وعلمنا أن نصلي هكذا . أصغوا ثم أعيدوا بعدي ما أقول :

— يا أبانا . . .

فقال أولهم « يا أبانا » وقال الثاني مثل قول الأول ثم أعاد الثالث قوليهما .

— . . الذي في السماء . .

فأعاد أولهم الجملة الثانية صحيحة ولكن الثاني تلعثم بها ، أما الثالث فقد أخطأ ؛ إن الشعر كان قد نما حول فمه بحيث ما كان يستطيع أن يقول شيئاً بوضوح . وصاحبه الذي قبله : فقد كانت السنين الطويلة أسقطت كل أسنانه بحيث لم يكن في مقدوره أن يمضغ طعاماً أو أن يقول شيئاً إلا غمغمة لاتبين ! !

وأعاد الأسقف الكلمات ثانية فكررها بعده الزهاد . . . ثم إنه جلس على صخرة كانت هناك حيال الثلاثة الذين كانوا يرقبون فمه ، مايصدر من قول إلا أعادوه .. وعمل الأسقف طيلة ذلك النهار ، يقول الكلمة . . . المرة والمرتين . . . والعشرين والثلاثين ، بل ربما قالها المرة المائة أو تزيد ، فيعيدها الشيوخ الثلاثة بعده فاذا أخطأوا أعاد عليهم وأصرم باعادة الكلمة من جديد .

ولم ينادرهم الأسقف حتى علمهم كل صلوات الله بحيث أصبحوا قادرين على إعادتها بأنفسهم — لاكما بدأوا يعيدونها بعد سماعها من فمه — وكان أول من تعلمها وتمكن من إعادتها بنفسه : أوسطهم ، فكان الأسقف يأمره باعادة تلاوتها مراراً حتى تعلمها أخيراً منه الاثنان الآخران ... وكان الظلام قد جثم على المكان وطلع القمر يريق أشعته على مياه البحر حين أوشك الأسقف أن ينادر الزاهدين إلى السفينة ؛ فسجد له الشيوخ شاكرين ، فأنهضهم وقبلهم واحداً بعد واحد ، وحثهم على اتباع تعاليمه في أداء الصلوات ؛ ثم استقل القارب إلى السفينة .

وكان وهو في القارب منتبهاً إلى السفينة تطرق آذانه أصوات الثلاثة مرتفعة في هدوء بالتراتيل التي علمهم ، ثم انقطعت أصواتهم عنه حين بلغ

2017-11-11

السفينة ، وأما منظرهم فى ضوء القمر فكان بيناً واضحاً يستطيع أن يستجليه بوضوح ويسر . ذاك أقصرهم قد وقف فى الوسط والاثنان الآخران قد وقف أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره .

وما أن وصل الأسقف السفينة حتى رفعت شراعها وأقلعت ، فهبت الريح رخية ، واستؤنف السير .

... جلس الأسقف فى مؤخرة السفينة بقرب « سكانها » يراقب الجزيرة التى أقلعوا منها ... كان يرى — أول الأمر — الزهاد الثلاثة ثم اختفى منظرهم عنه ، فما بقى غير الجزيرة ولكن هذه اختفت أيضاً فلم يبق أمامه غير البحر تضطرب أمواجه تحت أشعة القمر .

وأوى الحجاج إلى فرشهم نفلا ظهر السفينة إلا من الهدوء التام ؛ أما الأسقف فلم تكن فى نفسه إلى النوم حاجة ، ولكنه ظل حيث كان يحدق فى البحر ، فى المكان الذى اختفت فيه عن ناظريه الجزيرة ، مفكراً فى أولئك الشيوخ الثلاثة .. لقد كانوا ممتنين مما علمهم ؛ فشكر الله على أن أرسله ليهدى أمثال هؤلاء النقاة البررة !

ظل الأسقف جالساً فى مكانه كذلك يفكر فى هذا ومثله يحدق فى تلك الناحية التى غاب منظر الجزيرة فيها وضوء القمر يتلألأ أمام عينه يداعب أمواج البحر هذه مرة وتلك مرة ، وإنه لكذلك إذ بصر فجأة بشىء أبيض مشرف يظهر على موقع قمراء البدر من البحر ... أتراه طيراً من طيور الماء ؟ أم هو شراع إحدى المراكب الصغيرة ؟ وأثبت الأسقف فيه بصره ما يحوله عنه ... لا بد أن يكون شراع إحدى السفن الصغيرة تجرى وراءنا ولكنى أراها تقيمنا سريعاً ، لقد كانت منذ لحظة بعيدة ، بعيدة جداً فما أسرع ما أدركتنا ؟ لا ، ليست هذه مركباً إذ ليس لها شراع — ولكنها مع ذلك جادة فى اقتفاء أثرنا ! — ولا هى من الطير ولا الأسماك ؟ ثم إنها أكبر من رجل ! وأنى لرجل أن يتراقى على الماء فى وسط البحر ؟

ونهض الأسقف نفور «مدير الدفة فى السفينة»

— أنظر إلى هناك . ما ذاك يا صاحبى ؟ أى شىء هو ؟

... إنه ليرى الزهاد الثلاثة يركضون على الماء وضاحة وجوههم ، مشرقة ملامحهم وقاربوا السفينة حتى لكأنهم قد وقفت عن السير !

ونظر الربان فترك إدارة السفينة مذعوراً :

— يا إلهى ... أولئك هم ثلاثتهم يركضون خلفنا كما لو كان وجه الماء أرضاً صلبة ! وسمعه الركاب فهرعوا وتجمهروا حوله ... ما ذا يرون ؟ إن الزهاد ثلاثتهم قد أقبلوا وأيدى بعضهم تمسك بعضاً ... فأشاروا إلى السفينة أن تقف ، وقبل أن تتمكن السفينة من التوقف عن السير وصلوا إليها ورفعوا رؤوسهم قائلين بصوت واحد :

— لقد أنسينا تعليمكم يا عبد الله . إنا منذ أن تعلمناه بدأنا بتكراره ، ولكن سقطت منا كلمة ... ثم إنا نسيناه كله الآن فعلمنا تارة أخرى !

فاتجه الأسقف إليهم وانحنى يخاطبهم :

— إن الله ليتقبل صلواتكم التى كنتم تتوجهون بها إليه ! ليس لى أن أعلمكم شيئاً ، بل صلوا من أجلنا نحن المذنبين ! »

وانحنى لهم ، فرجعوا من حيث أتوا ...

واختفوا عن النظر ، ولم يبق من آثارهم غير شعاع كان آتياً من حيث اختفوا حتى أشرق ضوء النهار !

غنرى شهاب السعيرى

تحت ظلال الشجر

للكاتب الانجليزي « فرنسيس بريت هارت »
بقلم الأستاذ فؤاد الخشن

كوسارد يروي القصة ... وكوسارد رجل طويل القامة ، جميل الوجه ، مفتول الساعدين ، عريض المنكبين ، ينبعث من ناظريه بريق يخلب اللب ، ويجري في عروقه دم هندي ، ولقد جاء مع والده إلى إفريقيا وبصحبتهما واحد ومائة من الهنود ليناضل بهم عملاً يقوم به واحد ومائة من الاغريق

ورحل كوسارد إلى انجلترا ، وأقام فيها رددا من الزمن ثم رجع إلى افريقيا وأحاط به يوما جماعة من الهنود وحدثوا إليه في مختلف المسائل ثم نهض ملجان وسأله أن يطالعهم بمعض المناصات ، وألح في الطلب وألحف ، وأهاب به إخوانه أن يسكت ، وأوقفوا الجلبة حتى ينصتوا في هدوء لقصة كوسارد

سأتلو على مسامعكم قصة لا يجد فيها ملجان المثل الأعلى للقصة التي تصبو نفسه إليها ولكنها شائقة ممتعة ، وسأذهب بكم إلى منطقة من الأرض جرداء موحشة ليس فيها إنس ولا جان ، فتبصرون عند الأفق مزارع خضراء ، تتخللها حدائق غناء ، وتسيرون وعلى يمينكم فلاة تنتهي بكم إلى غدير صاخب ، وعلى يساركم جبال زرقاء خلو من الثلوج ، فالوقت صيف ، والشمس شديدة وهاجة تحرق الجلد وتذيب الثلج وقد آذنت بالغروب ، وبدأ الليل يرخي سدوله . فتقفون صامتين خاشعين بعد ما انمحت آثار الحياة وضجيج الحركة ، ولا يبقى أمامكم إلا جلال الطبيعة وروعتها ، فلا يسعكم إلا التسبيح لله على ما خلق وأبدع ثم تطيف بكم غلالة سحرية فتستحيلون إلى كائنات سماء كقطع الأحجار التي تكتنفكم ، وتغيب الشمس الافريقية وراء الأفق فتضيون عن الوجود ، وتكادون تفنون فيما حولكم من نجاد ووهاد ، وإذا البحر من بعيد يكشف عن صفحة من لجين ،

وإذا الجبال تتراءى متعدانها بما يكسوها من الورد الفاني ، وإذا السماء فوقنا تثيه بزرقتها الصافية الأديم ، وتوغل في الارتفاع طبقات بعضها فوق بعض ، وتحصون بالأرض الحافلة من تحتكم تخمد حرارتها شيئاً فشيئاً ، وتومض الآفاق بقبس من الوهج الأحمر وهي تتلقى آخر أشعة من ضوء الشمس المنحسر ، ثم تنبو عنكم النشية فتستيقظون وتعودون إلى الحياة ، وتعدون وتمرحون وتهبطون وتلون ؛ وإذا بالليل يهيمن على الطبيعة ويعد ظلاله فوق أرجائها ، فترحلون إلى كوكب جديد . فما هي ذي صفحة السماء تتلألأ في جنباتها شموع النجوم ، وما هي سفوح الجبال يلمع وراءها بريق أبيض يبدد حلكة السواد وظلمات الليل البهيم ، ويزداد الضوء لمعانا وظهورا حتى يتربع القمر في كبد السماء وتهب نسمات الليل فتنعش أرواحكم بما تحمل من عبير الورد وأريج الأزهار .. تلك الطبيعة برمتها ، نجومها وقمرها وبحارها وجبالها إنما هي ملك أيمانكم .

وها كم قصتي ، هي قصة رجل وامرأة ... وامرأة أخرى . وسأنتقل بكم إلى مكانهما في سفح الجبل حيث صعدنا .. أما الرجل فقوي البنية ممتلىء الجسم مليح الوجه ، هولاندي المنبت .. والمرأة في مقتبل العمر وريان الصبا وفرط الحسن والجمال .

وقف كلاهما على سفح الجبل ، وأشعل الرجل ناراً في كهف مخضوضل الجوانب ، وكانت المرأة

2017-11-11

جافة الخلق ، فحمل الرجل فى كفيه ماء من ينبوع وتقدم إليها فروت ظمأها ثم وضعت رأسها فوق يديه كأنها تحاول إخفاء نفسها عنه ، وكان صدرها مفعماً بالشجون والخواطر المختبئة ، فأطلقت لها العنان وطفقت تبكى والدموع تنهمر من عينيها فوق يديه فهدأ روعها وطيب خاطرها وسألها :

— ماذا يبكيك ياحبيبتي . . أتخافين ؟

— كلا ، كلا . لست خائفة

وظهرت فى خلال دموعها ابتسامة ، وداعبت شعرها ، ونظرت إليه بدلال ورشاقة ، ثم عانقته وعادت فنفرت منه وابتعدت عنه ، وقالت :

— هذه مخاطرة مروعة

— ما الحب إلا مخاطرات

— ولكنى كذبت فى قولى فى الفندق ، ومنذ شهرين فقط لم أكن أعرفك وأحبك ، ولا أدرى كيف جرى ذلك ، ولم جئت إلى هنا ؟ وماذا يظن والداى الآن ؟ هل يظنان أنى أعيش على سفح جبل ؟ ومع من ؟ مع رجل متزوج ويستحيل أن يطلق زوجته . . ولماذا لم أعرفك قبل زواجك ؟ !

— أنظرى ياعزيزتى ! لقد صنعت القهوة ، فهيا نطعم طعام العشاء .

وجلسا يشربان القهوة ، وكانت لذيذة . وخرجت الحشرات من ثقوبها تنصت ، وتمايلت الأشجار ، واستوت النجوم الوضاءة فى السماء وهبت نسمات فيحاء وساورتها الهموم ، وقالت بصوت غير مسموع لنفسها :

— هى أن أختى جاءت إلى هنا . . هى أن أحد الناس رآنى . . هى أن زوجته تفقده فلم تجده وحضرت تبحث عنه . . هى . . هى

وداعب شعرها فشعرت بيده ، وتملكها السرور وانكبت عليه وقالت :

— دعهم يذهبون إلى حيث يشاءون . . فما شأنهم بنا . . نحن فى إفريقيا المحبوبة الرائعة . . دعهم يذهبون فى سبيل هذه الليلة الساحرة ، وفى سبيل الرجل الوحيد الذى أحبه . . أحبه .

وكانت ولهانة مفتونة به إلى حد الجنون ، تذيبها لمسة ، وتروعها نظرة فدنياها أحلام ، وجسدها لهيب .

وتعذر عليها أن تحدثه فى أمر ، إذ كانت زفراتها تتصاعد تباعاً بقوة من صدرها فأدناها منه وداعب شعرها وهمس :

— أنت لاتحبيننى !

— كلا ! إنى أحبك

وقبلها فى عينيها وفمها وعانقها ، فنشيتها غبطة عميقة من الهيام ، فمددت إلى وجهه وطبعت عليه قبلة ضخمة وعادها مايشبه الأحلام ، ثم تنبهت فأفاقت ورجعت إلى صوابها ، ومرت بخاطرها صورة من ذكريات ماضية فوجمت وخجلت ووجلت ، وامتد خيالها إلى أبيها ، فرأته يدخن غليونه ، وإلى أمها فوجدتها تحيك لها معطفاً ، فنفرت وتباعدت عنه وأدارت وجهها إلى ناحية أخرى ، فدهش وسار نحوها يستعطفها ، ثم ذهب إلى الكوخ وأخذ يحرك النار المشتعلة ، أما هى فأنشأت ترقب الأفق والسماء ، وإذا بكوكبة جديدة من النجوم تبزغ فى الجو وتسيطر على سائر الأجرام السماوية فتزيدها روعة وبهاء ، وأنصتت فسمعت خشخشة ورأت شيئاً يتحرك . . شيئاً مظلماً غريباً فذعرت وشهقت ونهضت ، فأبصرت مبعودها واقفاً ممسكاً بمعصمه فتمتمت

— حية . . ؟ لا . . ليست حية

— لا . . بل هى حية حقاً

— لم أر شيئاً كهذا فى حياتى . . لا . . رأيت مايشبهها فى حدائق الحيوانات .

وساد سكون رهيب . . ثم قطعته قائلة

— ماذا تصنع ؟ بل ماذا أفعل . . وارتجفت وحارت فى أمرها ، ودقت يداييد ، وخارت قواها وعالها الموقف حتى صعقت

وبدأ يقتص معصمه فأقبلت نحوه فنعما ، ثم

2017-11-11

انهالت على يده الجريحة وأعطرتها وابلا من القبل وهى ولهى خائفة دامية القلب فقال لها :

— إذهبى إلى الكوخ القائم فى أسفل الجبل ، واطلبى المعونة من صاحبه فعنده ترياق ودواء .

فشت مسرعة فى الممر فى طريقها إليه، ولكنها ما لبثت أن توقفت وفكرت فى افتضاح أمرها لأن الرجل سيعلم كاسيلم أولاده، ثم ماذا يكون حالهما مع أبيها وأمها، فعادت واسترسلت فى التفكير فتوهمت أن الرجل سيموت... سيموت فى الكهف، وستبقى وحيدة على الجبل حتى مطلع الفجر ، فصرخت صرخة مدوية فزع منها الطيور فى أوكارها فخرجت تحوم حول الجبل . أما هو فخاطبها فى لهجة حاسمة

— إما أنك تحبيننى أولا . لو كنت تحبيننى لذهبت توا إلى الكوخ

فصاحت وهرعت نحوه وعانقته وقبلته بوله وقالت:

— إنى ذاهبة .. إنى ذاهبة .. وأخذت تعدو فى الممر فناداها فوقفت :

— تعالى

— كلا ، سأذهب لئلا تضيع الفرصة

— تعالى .. تعالى .. فقد كنت أعالج النار عند ما اقتربت منك وهرولت إليها فوجدتها من النوع الذى لا يؤذى ، فتركتها تمضى فى طريقها ، وقد اخترعت فكرة اللذعة لأختبر مبلغ حبك لى ، فأيقنت أنك تحبيننى حقا .. فتعالى .. تعالى إلى .. وضمها وقبلها قبلات حارة فى شغف وشوق .

أما هى فاسترجعت ونفرت وهربت على وجهها سحابة من الغضب والسخط والتوت أسابها من شدة الحنق ثم واجهته فى كبرياء وأنفة

— إنى أكرهك .. أكرهك لخداعك إياى أيها الوحش المفترس . واستدارت وأخذت تهبط الجبل غير مكترثة بصيحاته وتوسلاته، فوثبت واثقت وتدحرجت فوق الأحجار حتى بلغت الأرض وسارت على غير هدى فى ليل إفريقيا المظلم وهناقاطعه ملجان:

— يلوح لى أن هذا المولندى ممن يأخذون من الأشياء أطيبها لخسب. فاعترضه كوسارد :

— كلا أنت مخطئ

— يظهر أنك تزوجتها يا كوسارد فانى أعرف نهاية أمثال هذه الفتيات

— كلا، لم أتزوجها، وهى تعيش عيشة رغدة

— ولكن أظنك أخبرتنا أنها غضبت وتركته فى الجبل

— نعم ولكنه لحق بها

وعرج على مركبة بجواره ولم تكن تتوقع مجيئه بل أخذت تسير عند انبثاق الفجر هائمة على وجهها دون مال أو متاع، حيرى لا تلوى على شىء، وفى رأسها حلم بفندق كانت نازلة فيه وقد ساقها تسوقها إليه

فأشاحت بوجهها عنه لأنها كانت غاضبة حانقة، وتحدث إليها فلم تجب ، وأمرها أن تبقى فى الفندق فأذعنت للأمر على كره منها إذ لم يكن فيها سبيل آخر ، وعاد هو إلى الجبل وقضى سحابة يومه يفكر ، ويفكر طويلا ، فعقد النية على طلاق زوجته . . تلك الزوجة الفاتنة المرحة التى هجرها ولكنها لم تكن لتأسف على تركه لو نالت حقوقها المالية كاملة . ثم كتب خطاب استقالة من وظيفته ، وأخذ يحصر أملاكه ليبيعها ، ويجمع أمواله من المصارف استعدادا للرحيل مع معبودته إلى أرض أخرى

وفى تلك الليلة كانت زوجته فى مركبها وبجانبها رجل تمل ، وانطلقت تعدو بهما فى نفس الطريق المؤدية إلى الجبل، وأضيئت أنوار السيادة، فليم هرمنس زوجته بطرف عينه بخجل ولكنه ابتسم وقال :

لقد أصبحت الآن أختى.. أختى الصغيرة الظريفة.. غادة فاتنة هيفاء.. أليس كذلك؟ نوار الطرشى

مبتور الساقين

للكاتب الفرنسي جي دي موبسان

بقلم الأديب السيد كامل البحيري

جرت لي هذه الحادثة سنة ١٨٨٢ وكنت مسافراً في القطار ومنهمكاً الانزواء بنفسي في إحدى عرفه ، حين انفتح بابها وسمعت صوتاً يقول لآخر :

— خذ حذرك من الزلق ياسيدي ، فقد بلتنا ملتقى الخطوط « القص » ثم إن مرتقى القطار مرتفع .

فأجابه صوت آخر :

— لاتخف يالوران فسأعتمد على مقبض عكازي ثم ظهر لي رأس مستور بقبعة مستديرة وبدان تعلق بهما سيران من جلد ، أخذتا تعتمدان وتستندان إلى جاني باب القطار . ثم رفعتا بهوادة وبطء جسماً بديناً بعض الشيء . سمعت لوقع أقدامه الخشبية نقراً على مرتقى القطار . وحين هم الرجل بالدخول إلى غرفتي أبصرت نهاية بنطلونه المتراخي فبرزت لي من خلاله رجل خشبية سوداء لم تلبث أن لحقت بها أختها ، فعلمت أن رفيقي مبتور الساقين .

ثم برز لي من ورائه رجل آخر راح يقول له :

— هل أنت مرتاح في جلستك ياسيدي ؟!

— نعم يالودي

— وإذن فهاك سُمَرك وهذا عكازك . وهنا أبصرت خادماً تبدو في سحنته معارف جندي قديم يصعد إلى مهاجعنا حاملاً له بين ذراعيه كدسة من أشياء ملفوفة بأوراق بعضها أسود وبعضها أصفر . حتى اذا وضعها في رف القطار الواحدة بجانب الأخرى ، قال لسيده :

كل شيء معد لك يا سيدي : ففي هذه الصرر الخمسة أشياء :

السكر والملبس ، والهمية ، والطبل ، والبندقية ، وأخيراً الفطيرة الدسمة

— حسن جداً يالودي .

— أتمنى لك سفراً ميموناً ياسيدي

— شكراً « يالوران » وأنا أتمنى لك صحة موفورة . ثم غادر الخادم القطار بعد أن أغلق على سيده باب الغرفة .

كان رفيقي في السفر في الثالثة والثلاثين من عمره تقريباً ، على رغم أن شعره وخطه أكثر من الشيب ؛ وكان حسن البزة والشارة غليظ الشارب تبدو عليه الفراهة والقوة واكتناز اللحم . فبعد أن استقر ومسح جبينه وراح ينفث في الهواء دخان سيجاره رمقني بنظرة هادئة ثم قال :

— لعل دخان سيجاري يزعجك ياسيدي ؟

— فقلت له : كلا ، ولكن ماكدتُ أنطق حتى دهشت . ذلك أن هذين السنين وذلك الصوت وحتى هذه السحنة لم تكن غريبة عني . نعم كنتُ أعرفها ولكن أين . . ومتى ؟ وفي الحق لقد بدا لي أني لاقيت هذا الشاب وكلته وضغطت على يديه ولكن ذلك كان بعيداً حتى لقد ضاع في ضباب كثيف يُخيل للفكر معه أنه يتلمس ذكريات الماضي ويتبعها كأنها الأطياف الغابرة الغائرة . كان هو أيضاً يحدجني بنظره ويتفرس في وجهي متعرفاً .

2017-11-11

كأنما داخله من التشكك يعرفني مثل مادا خلني . وتضايق نظراتنا من هذه الملاقاة اللجة فافترقنا . على أنه لم تمض إلا ثوان حتى عادا وتلاقيا ثانية بتأثير حب الكشف والاستطلاع . وابتدرته أنا قائلا :

— يالله يا سيدي . ألا ترى أنه يحسن بنا بدلا من أن يسارق كل منا صاحبه النظر أن نبحث معاً عن المكان والزمان اللذين تعارفنا فيهما أول مرة؟ فأجاب بلطف :

— إنك لمحق ياسيدي . وهنا سميت له نفسي قلت :

— إني أدعى القاضي هنري «بونكلير» فتردد برهة ثم قال بعين غائمة بضباب الذكرى وصوت من يحضر ذهنه كي يستذكر شيئاً عفى عليه الزمن :

— آه . . ذكرتك تماماً . فقد صادفتك في « بوانسل » وكان ذلك منذ اثني عشر عاماً قبل الحرب المشئومة . .

— نعم ياسيدي . . . أوه . . . وإذاً فأنت الليوتنان فاليه ؟

— نعم بعينه ، ثم أصبحت الكابتن «فاليه» قبيل اليوم الذي فقدت فيه ساقي الاثنتين بإصابة فظيعة من قنبلة حربية .

وهنا حدق كل منا في صاحبه من جديد بعد هذا التعارف . وتمثل في خاطري هذه الساعة منظر ذلك الشاب الجميل اللطيف الذي كان ملء العين والفؤاد ببلاغته وخفته وجماله . ولكن وراء هذه الصورة الناعمة الملفوفة بضباب النسيان ، كانت تطفو على ذاكرتي قصة لهذا الشاب ، كنت أعرفها وأنسيتها الآن ، ولكني لم أنس أنها قصة جذابة الحوادث مغرية رغم قصرها لأن الحب لعب على مسرحها . ثم أخذت ظلال النسيان تنحسر عن ذاكرتي شيئاً فشيئاً وإذا بها تنضوء وتستنير بها المسالك فيطالعني من خلال سطورها المحوة وجه فتاة مليحة ، وإذا باسمها يرن في سمعي ويجري على لساني:

الآنسة « ماندال » . . لقد ذكرت كل شيء الآن . . وفي الحق لقد كانت قصة غرام تلك التي نسيتها أولا . كانت تلك الفتاة تحب هذا الرجل حين التقت به ، وكان الناس يتحدثون عن زواجهما المنتظر القريب الذي كان يفجر ينابيع الفرح والسعادة في قلب صاحبنا الضابط .

وهنا صوبت بصري إلى الصدر الموضوعة على الرف فوق رأس الضابط الكسيح . فاذا بها تهتز وتضطرب من حركة القطار ، وإذا بي كأني أتمم الآن صوت الخادم يقول لسيده :

كل شيء مُعد لك ياسيدي . ففي هذه الصدر الخمسة أشياء : السكر ، واللبن ، والبندقية ، والطبل وأخيراً القطيرة الدسمة . وتألقت في لحظة بخاطري رواية لهذا الكسيح الذي أراه أمامي : رواية تشبه الشبه كله جميع ما كنت قرأته في القصص أو رأيته في المسارح ؛ وذلك إما أن يتزوج الخطيب ذو الساعة خطيبته السليمة أو لا . وإذن فان هذا الضابط المبتور الساقين قد وجد خطيبته بعد الحرب فوهبت نفسها له رغم مصيبته بساقيه . تمثلت كل هذا جيداً وفي بساطة ، ثم عرض لي لجاج افتراض آخر أشبه بالحق وأقرب إلى الواقع المنتظر . أيكون الرجل قد تزوج من فتاته قبل الحرب وقبل الفاجعة الأليمة بساقيه ؟ أتكون الصبية المسكينة احتسبت الله في مصيبتها فيه وخضعت لمشيئة القدر القاسي ، فهي تستقبل مكرهة هذا الكسيح الذي غادرها

2017-11-1

ملء العين ملاحة وسلامة قبل الحرب ، وآب إليها بساقين خشبيتين وجسم ناقص لا يتحرك إلا على عكازين ؟ أتراه سيداً أم متألماً ؟ ! وقامت بنفسي رغبة لا تقاوم في الاستعلام عن قصة زواجه والاستفسار على الأقل عن النقط المهمة التي أستطيع أن أبصر على ضوئها ما يود هو إخفاءه عني أو ما لا يمكنه الافضاء به. ورحت أكلمه بأحاديث شتى، بينما عيناي مثبتتان على الصرر الملفوفة التي وضعها خادمه على رف القطار ثم استنتجت من محتوياتها أن له امرأة وطفلين: أما السكر والملبس فلامرأته ، وأما الدمية فلطفلته، وأما الطبل والبندقية فلطفله، وأما الفطيرة الدسمة فله هو ؛ وفجأة قلت له :

— لعلك أب لعائلة يا سيدي ؟؟

— كلا.

فشعرت بشيء من الخجل والريبة لهذا السؤال كأني ارتكبت ما لا يتفق وحسن المشورة . لهذا عقّبتُ :

— معذرة يا سيدي لقد ظننت ذلك مما سبق إلى فهمي من قول خادمك وإشارته إلى هذه اللُّعب . وأنت تعلم أن المرء قد لا يملك أذنه حتى ولو لم يرد ذلك . فانتزعه عن بسمة راضية ثم قال :

— وما قولك أني لست متزوجاً ؟

وهنا بدت على دلائل الاستذكار والتأمل ، ثم قلت فجأة :

— أوه ! إن ما تقوله الحق ، فحين تعرفت بك كنت عاقداً خطيبتك على الآنسة ماندال فيما أظن ؟

— نعم يا سيدي إن ذاكرتك جيدة جداً .

فاجترأت وتابعت :

وأذكر أيضاً أني سمعت أن الآنسة ماندال خطيبتك تزوجت موسيو ... موسيو ... فلفظ الضابط في سكون هذا الاسم :

— موسيو فلوريل ، أليس كذلك ؟

— نعم هو بعينه . وأذكر أيضاً أني سمعت في ذلك الحين قصة فاجعتك ، ونظرت إليه من جانب عيني فاذا بالهم يتدفق في وجهه أحمر قانياً ، ثم إذا به يجيبني في حمية ونشاط مثل من يدافع عن قضية ضاعت له سابقاً وفرّ طفي حقّه فيها وهو يريد الآن تبرير موقفه فقال :

— لقد كان من أعظم الخطأ بل والألم أن يذكروا أمامي اسم خطيبتي « ماندال » بعد إذ أُبتُ من الحرب بدون ساقين ، وللأسف، لم يكن يوسي أن أقبل دون ألم وتقريع ضمير أن تصبح « ماندال » امرأتي . أترى ذلك يكون ممكناً ؟ ؟ حين يتزوج المرء يا صديقي لا يفعل ذلك كي يتباهى على الناس بامرأة جميلة فتانة ! إنما يفعل كي يعيش بجانبها ويتصل بها طوال الأيام والساعات والدقائق والثواني . فاذا كان الزوجُ مثلي كتلة شوهاء مبتورة فانه يزواجه من فتاة رياة الشباب يكون قد حكم عليها بالألم المضّ وقسرها على حياته الناقصة المحطّمة حتى الموت . أنا أفهم وأقدّر بل وأحبب بجميع التضحيات ، ولكن حين يكون لها حدود تنتهي إليها . لهذا فانا أستنكر من نفسي أن تحرم فتاةٌ جميلة نفسَها لأجلي من كل ما تهفو إليه جوارحها ونفسها من سعادة وملاذ وأحلام للصبا وللجسد أيضا ، كل ذلك كي يقال عنها إنها عفيفة ظريفة كريمة . ثم كيف أطلبُ منها هذا وأنا نفسي حين أسمع على أرض الدار وقع عكازي وأنا أمشي وأحجلُ ، أنا نفسي

2017-11-1

حين أسمع هذا الصوت الذى يُشبه وقع أقدام البغال يجيش فى نفسى الحنق فأود خنق خادى . وهل تظن أنه يمكن أن يقبل الزوج من امرأة أن تسامح فى شىء هو نفسه لا يغتفره لنفسه ، ثم أتعتقد وتتصور أن ساقىّ الخشبيتين هاتين جيلتان فى النظر فاتنتان للعين ؟ وسكت وسكتُّ فا عساى عجيبه ؟! إن كلامه الصدق فهل يوسى أن ألومه أو أخطئه . ثم سألته فجأة :

— هل لمدام فاوريل خطيبتك المتزوجة أولاد ؟!

— نعم ، طفلة وصبيّان ، ولهؤلاء الأطفال ما أحل من لُبب فى هذه الصرر كهدية . إنها وزوجها طيبان . . وكان القطار فى هذا الوقت يصعد ملتق خطوط « سانت جرمان » ثم يمضى تحت الأنفاق المتعاقبة فى المحطة . ثم يقف . وعزمت على تقديم ذراعى لُمكأة الضابط الكسيح كى يستعين عليها فى النزول من القطار ولولا أن يدين امتدتا من باب القطار المغلق لمساعدته

— نهارك سعيد يافاليه . فأجاب صاحبى الضابط

— سعد نهارك « يا فاوريل » . وكان خلف الرجل امرأته الجميلة تبتسم له أيضا وهى ترسل التحيات الحارة من كفيها المستورتين بقفازين . وبجانبها طفلة صغيرة كانت تطفر من الفرح والابتهاج بلقاء صاحبى الضابط وبجانبها الآخر صبيّان صغيران كانا يتناولان بشغف ونهم الطبل والبندقية وقد برزا من طرفى الصرر التى تسلمها أبوهما فاوريل

وحين هبط الضابط إلى إفريز المحطة أسرع إليه الأطفال فعانقوه فى محبة وألفة وشوق . ثم اتخذت العائلة طريقها إلى المنزل ، وفى أثناء الطريق أخذت الطفلة تسند بكفها اللينة الغضة مسند عكاز الضابط الكسيح وقد فاض وجهها بماء الابتهاج والطيبة والمحبة البريئة

كمال الحريرى

وحى بغداد

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بقلم الدكتور زكى مبارك

يطلب من المكاتب الشهيرة

وثمن النسخة عشرة قروش

اقرأ :

توفيق الحكيم

فى كتبه الثلاثة الجديدة :

عهد الشيطان

ثمن النسخة ٧ قروش

تحت شمس الفكر

ثمن النسخة ٨ قروش

تاريخ حياة مصدة

ثمن النسخة ١٠ قرشا

تطلب من جميع المكاتب الشهيرة

الفرار

للكاتب الإنجليزي "هولوي هورد"
بقلم الأديب محمود السيد شعبان

ما كاد السير (بول كاشكارت) يصل إلى المستشفى حتى كان الليل قد قارب أن ينتصف ؛ فتلبث غير قليل — والقلق يملأ جوانب نفسه ويملك مداراك حسه — في البهو الرحيب الرهيب يترقب متلهفاً مقدم الممرضة ، فلما وافته سألها : « ألم تتحسن صحتها بعد ؟ »

وأجابت الفتاة في صوت خافت هادئ حزين : « إنه ليؤسفني ويكربني ياسيدي أن أعترف لك بأن صحتها قد ساءت كثيراً .. وإنها لتعاني الساعة أشد حالات المرض ؛ فهل تود أن ترافقني لتراها ؟ »

... وتبع الرجلُ الفتاة وهي تسير في البهو الفسيح ذي اللون الأبيض الناصع وقد انبثت من من جنباته رائحة الخمر المطهر ... وما كادت تقف عند باب من أبواب غرفه حتى خرج منها رجل يومئ إليك منظره ومظهره أنه طبيب

وتمتمت الممرضة قائلة : « ها هو ذا السير (بول كاشكارت) يا دكتور (ياردو) ! ! »

وتصافح الرجلان ...

وقال السير (بول) في صوت هادئ رزين متزن : « إنني أريد أن أعرف منك الأمر على حقيقته ؛ فهل تسمح بذلك يا دكتور ؟ »

وعقل التردد لسان الطبيب برهة من الزمن فلزم الصمت ... ثم جمع ما تشتت من شجاعته ، وما تبدد من صراحته ، وما تفرق من قوة بيانه وحدة لسانه ، وقال : « إنه لمن الخير لي ولك يا سيدي أن أصدقك القول . إن الجرح الذي أصاب زوجك خطير مهلك ... وإني لأخشى أن يكون هذا آخر عهدها بالدنيا وأول عهدها بالآخرة ... ؛ لقد كاد هلاكها أن يكون حقيقة ملموسة واقعة ، وأكبر ظني ياسيدي أنه لم يبق لها الآن نصيب من النجاة أو حظ من الحياة ! »

— « لله الشكر يا سيدي ... ؛ ولكن ألا يمكنني أن أراها الآن ؟ »

— « أوه ! ... بلى ... ولكنها الساعة غائبة عن وعيها لفرط ما تقاسي من شدة الألم ، وبرح ما تعاني من هول الفاجعة ! ! »

ودخل ليراها فإذا بها وحيدة في حجرة خاصة مضاءة ، قد ارتدى كل ما فيها حُلة بيضاء كساء ما في ذلك البناء الرهيب . وكانت عيناها مفتوحتين ؛ أما وجهها فهادئ لا يتألم ، صامت لا يتكلم ، ساكن لا حراك فيه ولا أنين به ، كأنما قد وُكلت به ملائكة الصمت فسقلت لسانه ، وأخذت بيانه ، وشلت حركته ... حتى ظن الرجل لأول وهلة أنها قد قضت

وانحنى عليها ونادها : « يا مارى ! » ؛ ولكنها — واحسرتاه — قد أخلفت ظنه فلم تتحرك

وقدمت الممرضة مقعداً للسير (بول) واقترحت عليه أن يجلس فشكرها ؛ ثم وقفت — وقد قبضت بيدها على معصم المريضة تجس نبضها — ناظرة إلى وجه الرجل المتجهم وهو يتأمل بنظراته الحائرة

2017-11-11

الزائفة وجه زوجه الصامت ، وقد جلله بياض رهيب وهي مستلقية على فراشها ؛ وعجبت من هذا الوجه الهادئ الجميل الذي لاتعرف الرحمة سبيلا إلى نظراته القاسية . . . ! !

. . . وملأ المكانَ صمت رهيب كصمت القبور ، وسكون موحش كسكون الموتى ؛ ثم . . . ثم دوّى على حين غرة صوت الرجل يخاطب الممرضة : « إن نبأ هذه الفاجعة لم يصلني إلا منذ قليل . . . فانني لم أتسلم رسالة المستشفى إلا عند عودتي إلى الدار » .

— « لقد نقلت زوجك إلى المستشفى في الساعة الثامنة » .

— « فهل أستطيع أن أستنتج من هذا أن الحادث قد وقع قبل ذلك بقليل ؟ »

— « نعم »

ونظرت إليهما المرأة الراقدة على فراش المرض نظرة غاضبة عاتبة كأنما قد أزعجها تجرّس كلامهما وهمس حديثهما . . . وسرت على شفتيها كلمات متقطعات مبهمات لم تدر لها الفتاة لأنها لم تسمعها ، ولم يفهمها الرجل لأنه لم يتبينها ، فانحنى إلى الأمام وأرهف سمعه علّه يعي شيئا مما تقول

— « إنني لم أستطع أن أفهم كلامها »

— « إنها غائبة عن وعيها منذ حين وما أفاقت بعد . . . فهل لك أن تذهب فتجلس في حجرة الانتظار حتى يرحل عنها ما ألم بها من السوء فيعود إليها رشدها ؟ »

وما سمع السير (بول) هذا حتى نظر إلى الفتاة نظرة فيها شيء من الحدة والغضب ، وشيء من الشك والريب ، ثم قال لها : « لا . . . أشكرك ! »

ولكن . . . ولكن في هذه اللحظة صاحت المرأة الجريحة هاتفة : « بولي ! »

. . . لقد كان هذا الاسم أول كلمة صحيحة كاملة فاهت بها المسكينة ، وأول لفظة جلية واضحة فُهمت عنها

وسأل الرجل الممرضة في صوت هادىء النبرات « ألم تهتف بهذا الاسم من قبل ؟ »

وأجابت الفتاة في كثير من التردد والحيرة والارتباك : « إنني . . . إنني لم أكن أفهم عنها ما تقول ، وما استطعت أن أتبين شيئاً من حديثها قبل الآن »

ولكن الرجل لم يصدقها فيما قالت . . . فقد كان في ترددها الواضح ، وتلعثمها البيّن ، وشرود فكرها ما يرجح أنها كاذبة فيما تقول

. . . في هذه اللحظة دخل جراح المستشفى وهو شاب لم يكتهل بعد ؛ وكان الناظر إليه يلحظ في حركاته شيئاً من الاضطراب ، أكبر الظن أنه نتيجة لوجوده في حضرة الرجل العظيم النابه السير (بول كاسكارت)

وجسّ الجراح نبض المريضة ثم قال : « إن نبض عروقها ضعيف بطيء ولكنه بالرغم من كل ذلك منتظم . . . . . »

ولم يدعه السير (بول) يسترسل في حديثه وإنما سأله : « هل ستقضي نحبها الآن ؟ ! »

— « ما زال باب الحياة مفتوحاً أمامها وإنك لتعرف ذلك ياسيدي . . ولكن مرضها عضال ، وجرحها بليغ ، وإني أخشى عليها . . . »

2017-11-11

كان الطبيب صادقاً فيما قال ، فما مضت ساعة على هذا الحديث حتى أغلقت السكينة جفنيها ، وأسلمت روحها لبارئها

... وأتم الطبيب حديثه مخاطبا السير (بول) : « إنني أخشى أن أقرر لك يا سيدى أن الأمر قد خرج من يدى . . . لقد حُم القضاء ، وماتت المسكينة ، وانتهى كل شيء ! ! »

وكبّ الرجل العظيم واقفاً دون أن ينبس بذات شفة ؛ ثم ألقى نظرة طويلة على ذات الوجه الأبيض المسجاة على فراش الموت ، وقال وهو يبرح الغرفة : « والآن . . . سأذهب ! ! »

وما كاد الرجل يخرج حتى تمتم الطبيب : « يالله من زائر ثقيل ! ! »

وصاحت الممرضة في ثورة وغضب : « ثقيل ؟! . هذا الرجل السكين . . هذا الرجل الطاهر . . . اللهم امدده بعونك والحَفْظهُ بعنايتك » . ثم وقفت ناظرة هي الأخرى إلى ذلك الجسد الهامد الممدد فوق الحشايا ؛ وقالت في صوت مرتفع : « إني لأعجب من يكون (بونى) يارى ؟ ! »

— « بونى ؟ » .

— « لقد كان هذا الاسم حديثها ونجواها . . وأشهد أني ما سمعت منها هتافاً غيره مذ رأيتها » .

— « من المحتمل أن يكون هذا الاسم الذى اعتادت أن تطلقه على قرينها السير (بول) لتدلله به » .

وهزت الممرضة رأسها قائلة : « لقد رأيته بعيني عندما هتفت أمامه به . . إنه لم يكن هو . ! ! »

وماعدت الفتاة الحقيقة فيما قالت ؛ فقد كان (بونى) — كما يعلم السير (بول) نفسه — رساماً تعرفه الليدى (كاشكارت) ، وما كانت تنفك عن دعوته إلى كثير من حفلاتها وولائمها ؛ وهو شاب في مقتبل العمر أصغر سناً من الليدى (كاشكارت) نفسها ، وإن كانت في الخامسة والعشرين من عمرها عندما أدركها الردى ، بينما كان زوجها قد جاوز الخمسين في ذلك الحين .

وجلس السير بول في سيارته متجهم الوجه

وقال يناجي نفسه : « بونى ؟ .. لقد كانت تود أن تراه ... فيجب أن يتم لها ما أرادت . . . يجب أن أحقق رغبتها ... يجب أن أجيب رجاءها فلا أعصى لها أمرا ! » .

وما خيب (السير بول) طوال عمره حاجة لها أو رد لها مطلبا ؛ وليس ما تريده الآن غير مطلب يسير لو قيس بما اعتاد أن يجيب من رغائبها !

وقفت السيارة الفخمة أمام دار السير (بول) الأنيقة ، فهبط السائق منها ، وسأل سيده إن كان في حاجة إليه فيبقى ، أم في غنى عنه فينصرف .

وأجابه السيد العظيم وهو يحاول أن يكون أكثر هدوءاً وجلدا وقوة : « هذا يكفى ... إذهب إلى فراشك . إنى لا أريد أن يزعجني أحد ! » .

***

ما مضت نصف ساعة على هذا الحديث حتى كان السير (بول) قد أعد عدته للخروج ، فارتدى سترة خشنة النسيج اعتاد أن يرتديها في الريف ووضع فوق رأسه قبعة ، ثم مضى وحيدا في ظلمة الليل الحالكة إلى حيث يقطن (بونى) وإن كان بينه

2017-11-11

وبين مسكنه طريق طويله ميل . وسار الرجل مسرع الخطى بالرغم من رطوبة الجو وحلكة الظلام ...

لقد ذهب ذات مرة مع زوجه إلى (الاستوديو) الذى يعمل فيه (بولى) فلم يكن من الصعب عليه أن يهتدى إليه وحده هذه المرة ...

كان (الاستوديو) غارقا فى ظلام رهيب موحش كما توقع السير (بول) ؛ ولكنه ما كاد يدق الجرس حتى أضيئت الأنوار وانفتح الباب ..

ولما رأى الرسام وجه زائره ملكته الدهشة من هذه الزورة المفاجئة فى تلك الساعة المتأخرة من الليل !

وقال (كاتكارت) — وكان أكثر هدوءا من مضيفه — فى صوت هادىء متئد « إنه ليؤسفنى أن أزعجك ! »

— « إننى لم أكن نائما . تفضل فادخل ! تفضل ؛ إننى لم أرك من قبل فى مثل هذه الساعة؟»

وتابع السير (بول) مضيفه بين جدران (الاستديو) وكان يرتدى فوق ملابسه معطفاً حريريا أسود اللون مما يلبسه الرسامون والفنانون .

وقال صاحب الدار لضيفه وهو ينظر إليه نظرة فاحصة وقد خيم عليهما صمت موحش وسكون : « ماذا وراءك ؟. هل أصابك مكروه ؟ هل (سينثيا) بخير ؟! »

— « هل تعنى زوجى (الليدى كاتكارت) ؟ »

— أجل ! ... أجل ... هل هى بخير ؟ »

وأجاب السير (بول) فى صوت وحشى قاتل : « لقد ماتت ! »

كان هذا النبأ الفاجع صدمة قوية لم يتحملها الشاب ، وهزة عنيفة لم يقو عليها جلده ، وما كادت كلمات الزائر تصل إلى قرارة نفسه حتى أذهلته المصيبة الفاجعة فأنشب أظفاره فى المنضدة التى إلى جانبه ثم نظر إلى ضيفه نظرة تحمل بين ثناياها أبشع الوحشية والجنون ...

— « ماتت ؟ .. ماتت (سينثيا) ؟ ! »

— « لقد قضت منذ ساعة » .

— « ولكن .. يا إلهى ! ولكن .. ماذا حدث لها أيها الرجل ؟ »

— « لقد صدمتها سيارة .. وقضت دون أن تفيق من غشية الواقعة » .

وقفز الرسام واقفاً على حين غرة ، كأنه وحش هم يريد أن ينقض على فريسته ؛ وأخذ يصرخ ويهذى كالمتوه .. « سينثيا .. ماتت .. ما .. » ثم ارتمى فجأة فوق مقعده ، منحنياً إلى الأمام ناظراً بعينين لا تبصران إلى الحائط الجديب .

ولم يشفق (كاتكارت) على الرجل ولم يرق له فمضى فى حديثه : « ولقد كان اسمك آخر كلمة نفاهت بها .. اسمك أنت .. أنت وحدك ! ! »

وأعاد الشاب الذاهل الكلمة الرهيبة : «ماتت» ثم أطبق شفتيه وأمسكت لسانه كأنما أفزعه أن تطرق هذه الكلمة المدمرة مسمعيه أو تمر على شفتيه

ومضى السير (بول) فى حديثه غير مكترث بما أصاب مضيفه ، أو آبه لما حدث له : لقد سألت عنك كثيراً ... ونادتك ... وأرسلت فى طلبك .. وكانت تريد أن تراك ... وأشهد أنها لم تنفل عن ذكرك لحظة ... وإنك وربى الذاهب معى إليها ... فهلم بنا ! »

2017-11-11

وصرخ الشاب : « نادتني ؟ .. تقول إنها نادتني .. وطلبتني ؟ .. وأرادت أن تراني ؟ .. هل أنت متأكد ؟ .. أتقول حقاً ؟ أحقاً ما تقول ؟! »

ولم يستطع (كاشكارت) أن يجيب عن شيء من ذلك كله ؛ فقد جفّت شفتاه وتقلصتا فر يلسانه عليهما ثم تمتم في صوت خافت : « نعم » ؛ وأطبق بعد ذلك راحتيه كأنما يسحق بينهما شيئاً

— « كانت تحبني ... تحبني ... أنا ... ليتني عرفت ذلك من قبل ! آه .. آه لو عرفت ! يا إلهي . . يامن تسمى نفسك عادلا رحيما . . . ليتني يا إلهي قد عرفت قبل الساعة أنها تحبني ... ليتني!! »

ولم يتمالك (كاشكارت) نفسه فصاح به : « أنت . . . ألم تكن تعرف ذلك ؟ ! »

— « آه . . . إنني ما عرفت هذا قبل اليوم ؛ وإلا لأخذتها منك أيها الأحمق المغرور . . . يامن لا ترحم . . . إنه ليهون علي أن أصلى عذاب السعير من أن أفكر فيها مقيمة معك . . . معك أنت . . . وهي التي أحبتني أنا وحدي . . . أنا وحدي أيها القاسي . . . ولكن ما عرفت ! ! »

وغطى الشاب وجهه براحتيه ثم تكبكب على نفسه وأخذ يميل من جهة إلى جهة ويهتز بعنف ويسرة كأنه معتوه لا يعي أو مخبول لا يعقل . . . غير عابيء بمن معه ! !

... ونظر السير (بول) لحظة إليه ؛ ثم ... ثم ولّى هارباً دون أن يشعر به الرجل ... وأغلق الباب وراءه في هدوء وسكون !

« الاسكندرية » محمود السيد شعبانه

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الأديب

ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته، وفي أسلوبه، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

حاجي بابا الإصفهاني

لجيمس موير
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

مقدمة المترجم

لمؤلف هذه القصة قصة أخرى عنوانها حاجي بابا في انكلترا ، وقد قرأها قراء « الرواية » . والقصتان مضى على نشرهما أكثر من مائة عام. ولم يكن من أغراض مؤلفهما إلا تصوير حالة واقعة في عصره لا في إيران وحدها ، بل وفي الشرق عامة . وسيرى المنصفون المتزنون بمحاسنهم ومساويهم الأقدم من الشرقيين أن الرجل لم يكن متجنياً على الشرق ولا مفتئاتاً على التاريخ . فما من شك في أن الشرق كان منذ مائة عام ذا عيوب وذا هنات . وما نفتخر بعظمائنا وأبطالنا من عهد نهضتنا إلا بقدر ما سمعوا بنا عن الحالة التي سبقت هذه النهضة . وما نفتخر بتقاليدنا وبدينا إلا لما فيهما من العناصر التي ساعدت على رفعنا إلى المستوى الذي نحن فيه بعد أن وصلنا منذ قرن من الزمان إلى ما كنا عليه

على أن الصورة التي رسمها هذا الكاتب فضلا عن صدقها ليست زرية ، فقد بين المؤلف فيها عناصر من القوة أشار إليها في الفصل الأول من كتاب حاجي بابا في انكلترا . وقد قرأه قراء الرواية حيث قال : إن الاعتزاز بالنفس والاستماتة في المحافظة على الكرامة من أخص صفات الايرانيين ، وإنه لو أضيف إلى ذلك علم صحيح لما سامتهم أمة في الحياة . وقال إن غرضه لفت نظر الشرقيين إلى عيوبهم، وإن لكل أمة محاسنها وعيوبها . وقد نقد بلاده نفسها « انكلترا » في كتابه السالف من وجهة النظر الشرقية

أما كتاب اليوم فنقد الشرق من وجهة النظر الغربية . وقد كان المؤلف سفيراً لبريطانيا في طهران حين وضع الرواية الحاضرة، ثم أقام في بلاده للموضع الرواية الأخرى . وكلا الكتابين مقروء في كل اللغات . وفي اعتقادنا أن مشاركتنا مئات الآلاف من القراء من أبناء اللغات الأخرى في مطالعة أجدى علينا من إغفال ما كتب عنا وما ليس يغفله غيرنا إذا نحن أغفلناه . وأسأل الله أن يوفقنا نحن الشرقيين إلى سعة في الصدر لا تحرج منها من نقد ناقد ، وإلى ثقة بالنفس واطمئنان إلى القوة فلا نخشى على أنفسنا من رأى الغير فينا ، وإلى احترام للحرية وحب للمعرفة ، فلا نكره سماع ما يخالف رأينا ولا نميل إلى الجهل بما نحن أولى الناس بأن نعلمه

المترجم

الفصل الأول

نشأة حاجي بابا وتربيته

كان أبي واسمه كربلائي حسن من أشهر حلاق أصفهان . وقد تزوج وهو لا يزال في السابعة عشرة من بنت رجل بدال كان جاراً له في حانوته، ولكن العلاقة بين الزوجين لم تكن سعيدة ، لأن زوجته لم تلد فأهلها . وقد جلبت له خفة اليد في حمل الموسى شهرة واسعة وعدداً كبيراً من « الزبائن » معظمهم من التجار الأغنياء . وبعد أن مارس صناعته عشرين عاماً استطاع أن يتزوج من سيدة أخرى ضمها إلى زوجته الأولى في بيت واحد

وكانت الزوجة الثانية بنت صيرفي غني، كان أبي يعنى به أكثر من عنايته بسائر « الزبائن » فلم يتردد في قبول خطبته عند ما طلب الزواج من ابنته

وفي الأيام الأولى من عهد زواجه رأى زوجته الأولى ستقتنصه بما تبديه من ضروب الغيرة، وأحب أن يستريح منها وأن يظهر لصهره الجديد أنه صالح تقي فأخذ زوجته الثانية وذهب لزيارة مشهد الحسين

2017-11-1

فى كربلاء . وفى أثناء الطريق حملت بى منه . وقد كان معروفاً قبل هذه الزيارة باسم « حسن الحلاق » فلما زار ذلك المشهد دعى باسم « الحاج حسن » لأن الشيعيين فى البلاد الفارسية يلقبون بهذا اللقب من زار قبر على أو أحد ولديه وإن كان سائر المسلمين يقصرونه على من زار المشهد النبوى . وقد دعيت أنا أيضاً بلقب الحاج وإن كنت لم أحج فى كبرى لأنى كنت فى بطن أمى وهى تؤدى هذه الزيارة . وقد أفادنى هذا اللقب احتراماً كبيراً بين الناس

ترك أبى حانوته فى مدة غيابه لأكبر عامل عنده. ولما استأنف عمله زاد الاقبال عليه، لأن حجه زاده شهرة فزاد إقبال المتدينين عليه عامة والتجار منهم خاصة

ويظهر أنه كان فى عزم أبى أن ينشئنى على هذه الحرفة ، ولكنه أرسلنى إلى المكتب لأتعلم مبادئ الدين . وكانت حرفته لاتستازم من التعلم كل الذى تعلمت، ولكن فقيه المكتب كان يحبنى لأن أبى كان يحلق شعره مرة فى كل أسبوع بغير مقابل . وكان يكرمه لتدينه وورعه . ووجد الفقيه فضلا عن ذلك سبيلى إلى التعلم فعلمنى القراءة والكتابة. ولم يمض عامان حتى كنت أعرف اللغة العربية وأحفظ القرآن وأحسن الكتابة بها وباللغة الفارسية. وكنت فى أوقات فراغى أجلس بحانوت أبى وأتعلم الحلاقة فى رؤوس الصبيان ورءاة الجمال . ولقد عذبت كثيراً منهم فى أول الأمر

ولكن لما بلغت السادسة عشرة من عمرى صار من العسير أن تعرف فى أى الأمرين كنت أكثر نبوغاً، أفى المكتب طالباً أم فى السوق حلاقاً . وعلى معرفتى حلاقة الرأس وتنظيف الأذن وقص اللحية فقد كنت أعرف التدليك والتكبيس فى الحمام على الطريقتين التركية والهندية، فقد كان ذلك من واجب الحلاقين فى عصرى . ولكننى كنت أمتاز بخفة اليد ولطف الحركة . ولقد أحسن إلىّ معلمى الفقيه بتلقينى شعراً كثيراً من دواوين شعرائنا الفارسيين كالسعدى وحافظ الشيرازى وغيرهما، وكان صوتى عذباً وألقانى جميلا ؛ وكنت أجّمل محادثاتى بالاستشهاد ببيت أو بيتين مما حفلى رفيقاً أنيساً لاتفّ كل اللياقة لصناعتى. وأقول فى غير غرور إن حاجى بابا كان فريداً بين الشبان فى سلامة الذوق وإمتاع الجليس

وكان حانوت أبى بالقرب من أكبر خان فى المدينة وهو المعروف بخان الشاه ، وهو محلة التجار من الأجانب والمقيمين . وقد كان أكثرهم يزوره ويجزل له العطاء محبة فى ابنه ، وكان أحدهم وهو تاجر بغدادى يصر على أن أحلق له دون سائر العمال فى الحانوت ويقدمنى حتى على أبى . وكان يحدثنى باللغة التركية التى تعلمت مبادئها فى العهد الأخير ، وقد شوقنى إلى زيارة البلدان المختلفة بما ذكره لى عن جمالها حتى نشأ بنفسى حب عظيم للسياحة . ثم خلا عنده مكان كاتب ، وكنت جديراً بأن أملأ هذا المكان وأنا أمتاز عن سائر الكتبة بأننى حلاق ، فعرض على أن أدخل فى خدمته فقبلت حباً فى السياحة ولكى أتعلم التجارة ، ولأن الراتب الذى عرضه على كان راتباً عظيما . ولما عرضت عزمى هذا على أبى وجد فى بمدنى عنه خسارة كبيرة عليه فحاول إقناعى بالعدول عن ذلك وقال : إن هذه الأسفار ممتلئة بالمتاعب والأخطار . ولكنه لما علم بمقدار الراتب وبالنفع الذى أرجوه فى مستقبلى ،

2017-11-1

ورأى أنه من المحتمل أن أسير غنياً مثل هذا التاجر، وافق على سفري ومنحني بركته ومنحني كذلك صندوقاً من المواسي وأدوات الحلاقة

وكان حزني أبي شديداً على بعدي لأنها تخاف على من الأخطار وتكره أن أكون خادماً لرجل سُنِّيّ مع أننا من الشيعة؛ وبين الطائفتين في إيران عداوة قوية قديمة . ولكنها لما رأت إصراري وتثبيت أغراضي أهدت إليّ صندوقاً من الكعك وأهدت إليّ كذلك حُقًّا من المرمر قالت إنه يشفي جميع الأمراض، وأوصتني بألا ألتفت إلى الباب عند سفري لكي أعود سليما . وهذه عقيدة محترمة عند الشيعيين

الفصل الثاني

رحيل عابجي بابا . محاربة الأكراد . وقرضه في الروس

كان اسم هذا التاجر عثمان أغا، وكان يريد السفر لشراء جاود من بخارى وبيعها بعد ذلك في الآستانة. وكان عثمان أغا قصير القامة ضخم الجثة كبير الرأس أقمى الأنف متنفخه كبير اللحية أسودها

وكان يحافظ على صلواته ولم يترك نزع الخف والجوارب عند الوضوء حتى في أشد أيام البرد محافظة منه على السنة مع أنه كان يستطيع مسح الخف في هذه الحالة . وكان يكره الشيعة إلى حد المقت، ولكنه كان يخفي ذلك كل الاختفاء في مدة وجوده بالبلاد الفارسية . وكان أكبر ميوله متجهاً إلى الكسب، ولم ينم قط قبل أن يستوثق من أن أمواله في مكان أمين . وكان يرفه عن نفسه بالتدخين المستمر وبشرب النبيذ سراً وإن كان يلعن الجاهرين بشربه ويعد ذلك نقصاً كبيراً فيهم

وكان الموعد الذي ستسافر فيه القافلة في أوائل الربيع فاستعدو للسفر، واشترى السيد لنفسه بغلة قوية واشترى لركوبي فرساً أحمل عليه متى رجحيلته وموقداً وزمزمية للماء وصندوقاً لنعم الترجيلة وثيابي . واشترى للعبد الذي يقوم في خدمته بواجب الطباخ بغلاً يحمل عليه ممه سجادة وأدوات الطبخ، واشترى للخادم بغلاً ثالثاً يحمل عليه ممه ثياب السيد وزاد السفر وسائر الأمتعة

وفي اليوم السابق على السفر وضع السيد بعض ماله في قماش ملفوف على عمامته وخاطه عليها وكان لا يطلع على هذا السر أحد غيري . ووضع سائر الأموال داخل لحاف وخاطه أيضاً على هذه الطريقة

وكانت القافلة عند ما استعدت للسير مكونة من خمسمائة بغل وفرس ومائتي جمل أكثرها يحمل متاجر من شمال فارس، وكان عدد الرجال مائة وخمسين من التجار والخدم، ولكن فيهم بعض المتبدين الذين لم يكن لهم غرض من هذا السفر غير زيارة قبر الامام علي الرضا في مشهد . وبهم صارت للقافلة هيبة دينية

وكان كل رجال القافلة مسلحين . وكان سيدي الذي اعتاد أن يدير وجهه خوفاً كلما أطلق غدارته، ويصفر وجهه حينما يرى السيف مجرداً من نصله ؛ كان هذا السيد يحمل في نطاقه غدارة كبيرة مقوسة وسيفاً مموجاً معلقاً على جنبه ، وكان صدره كله مغطى بالخرطوش . وكان في نطاقه غير الغدارة مسدسان وخنجر . وكان مي رمح ومع العبد سيف وبندقية قديمة بغير زناد

وكنا ساعة الفجر من ضاحية في شمال أصفهان . وكان يقود القافلة جاويش تسميه الحكومة

2017-11-11

ومعه جنود يساعدونه، وكانت مهمته أن يرشد عن الطريق وأن يحدد الأسعار التي يشتري بها المسافرون مايحتاجون إليه من المدن التي يمرون بها ويحدد ساعات السفر والإناخة ويفض المنازعات بين المسافرين ويعين أوقات الصلاة .

أعلن هذا الجاويش السفر بصيحة عالية أتبعها جنوده بدق طبولهم النحاسية . وعلى الرغم من أن المسافرين كانوا جميعاً يحملون السلاح فيظهر أنهم كانوا جميعاً مثل سيدى عثمان أناساً مسالمين لا يعرفون كيف يستعملون سلاحهم .

وقد سرني من هذا المنظر أنه كان جديداً عليّ . وكنت أصرح بجوادي الذي لم أركب جواداً من قبله، وكان سيدي يتناظمن ذلك، وقد نبهني إلى أن الجواد لا يستطيع أن يقطع مسافة الطريق كلها إذا أتعبته في أثنائها بالركض وإظهار الفروسية .

ولم يمض إلا وقت قصير حتى عرفت كل المسافرين وصرت حبيباً إليهم جميعاً ؛ وقد حلقت لأكثرهم بعد اليوم الأول من السفر . ولا حاجة بي إلى القول بأني كنت في هذا السفر مبعث سرور وأنس لسيدي ؛ وكنت بين مرحلة ومرحلة أريح جسمه المكدود بالتدليك وبالاستجمام وبمسامرته حتى وصلنا إلى طهران دون أن يحدث عائق جدّي في طريق القافلة .

وقد بقينا بهذه المدينة عشرة أيام لنريح المطايا ولكي يزيد عددنا، وكان أشد أجزاء الطريق خطراً هو الذي نحن مقبلون عليه بعد مغادرة المدينة، لأن به جماعة من متمردي الأكراد، بينهم وبين جنود الشاه حرب مستمرة، وكان من عاداتهم قطع الطريق والاغارة على القوافل لسلب ما معها من المؤونة ، وقد هاجمت قافلة قبل قيامنا بعهد قصير فجردتها مما معها وأسرت الأقوياء من رجالها لاستخدامهم في الحرب. ومن أجل هذا السبب كان كثيرون من رجالنا وأخصهم سيدي عثمان شديدي الخوف من مواصلة السير إلى مشهد ، ولكن ماسمحه عن رخص أثمان الجلود فيها وغلائها في الآستانة أغراه بالتغلب على المخاطر حباً في الكسب .

وكان جاويش القافلة ورجاله يجمعون من طهران وما حولها من أرادوا الانضمام إلى قافلتنا، وقد كان عددهم كثيراً ففرحنا بهم لمرافقتنا بجسامة الخطر الذي سنصادفه

وكان هذا الجاويش معروفاً مهيباً في الطريق بين طهران ومشد وذلك لما اشتهر به من الشجاعة فقد قطع رأس رجل تركماني وجده ميتاً في الطريق . وكانت طلعته مخوفة لأنه طويل القامة عريض الكتفين متجهم الوجه في ذقنه الكبيرة العظام شعرات قلائل طويلة على شكل لحية . وعلى صدره درع وفوق رأسه خوذة ذات سلاسل حديدية تتدلى فوق كتفيه وإلى جنبه سيف وفي نطاقه مسدس وفي يمناه رمح طويل يعده لاتقاء الخطر . وكان يفاخر كثيراً بقوته ويتحدث باحتقار عن التركمان حتى كان سيدي يطمئن إلى السير بالقرب منه والانضواء تحت لوائه

وكان موعد رحيلنا بعد أسبوع من النيروز . وبعد أن أدينا في المسجد صلاة الجمعة ذهبنا إلى قرية « الشاه عبد العظيم » حيث تجتمع القافلة وتبدأ بالسير في اليوم التالي .

وكان الطريق مقفراً جديباً لا يسر العين ولا يشرح القلب. وكنا كلما اقتربنا من قرية أولقينا

جماعة فى الطريق بإلقائهم التحية الاسلامية ووقت الطبول وكانت جل أحاديثنا عن التركمان

وعلى الرغم من اتفاق آرائنا على أنهم أعداء أشداء فقد كنا كبار الأمل فى أنه لا يستطيع عدد التغلب على عددنا الكبير ومظهرنا الذى يبشر ، وكنا نصيح عندما نرتاب فى قوم : « بسم الله ! من هؤلاء الكلاب الذى تطمعهم أنفسهم فى مغالبتنا؟»

وكان كلنا يتبارى فى إظهار شجاعته؛ وكان سيدى يفاخر — وأستانه تصطك من الخوف — بما كان يفعله لو هوجمت القافلة. ولو سمعته إذ ذاك لظننت أنه لم يفعل شيئاً طول عمره غير محاربة التركمان وتقتيلهم .

وقد سمع الجاويش هذه الأقوال ؛ وكان شديد الحرص على أن يوصف وحده من بين رجال القافلة بالشجاعة فقال وهو يفتل شاربيه حتى يكاد يلمس بطرفيهما أذنيه : « لا يتكلم إنسان عن التركمان حتى يراهم، ولا يتكلم أحد عن الأسد حتى ينجو من بين مخالبه . ولقد صدق السيدحين قال : « لا يسلم أحد من الخوف فى يوم المعركة حتى ولو كان ذراعاه ذراعى أسد وجسمه جسم فيل »

لكن سيدى عثمان أنا كان كبير الأمل فى السلامة لأنه سمى كسائر الأتراك والتركمان، ولم يكن يعتمد عند لقائهم على سيفه أو غدارته وإنما كان يعتمد على قطعة من القماش الأخضر يلف بها عمامته . وهذا اللون عند الأتراك علامة على أن المرء من السلالة النبوية بعكس العرف عند الفارسيين ولم يكن سيدى من الأشراف فى الحقيقة وإنما هو سلاح يلجأ إليه عند الضرورة

سرنا على هذا المنوال عدة أيام ثم أخبرنا الجاويش بلهجة الرجل المطمئن الذى يلقى خبراً هاماً أننا أصبحنا الآن فى أرض التركمان وأوصانا بأن نستعد للدفاع عن أنفسنا دفاع اليائسين وبأن تتجمع القافلة فلا يبتعد عنها أحد ولا ينفرد بنفسه فريق. فكان أول شىء فعلناه سيدى أن ربط بندقيته وسيفه وغدارته ولفها بين الحقائب وادعى أنه مريض وأقلع عن عزمه السابق على الاشتراك فى القتال . ولف نفسه بعباءته وظهرت على وجهه علائم البؤس والتعاسة وصار لا ينقطع عن الاستغفار والتوبة ، واستعد للإفلاق القدر المكتوب عليه ونزع من نفسه فكرة الاحتماء بالجاويش لأن الأخير ترك الباهاة بقوته وصار يزعم أن معه « حجاباً » يقى القافلة شرور الاعتداء ويدفع عنهم سهام التركمان

وكان بعض الفتيان فى القافلة يباهون بقوتهم ويختالون فوق خيولهم إما لاظهار الشجاعة وإما ليحتفظوا بها فى أنفسهم . وأخيراً وقفنا فإذا كنا نخشاه وسمعنا طلقات النيران ودوت فى آذاننا أصوات وحشية ، فاعترانا القلق جميعاً من مسافرين وركائب وتجمعنا يدافع الخوف فصرنا كتلة واحدة كما يتجمع سرب من الطير عند رؤية العقبان . .

ولكن لما ظهر أمامنا فريق من التركمان تغيرت الحال فتفرقنا وفر بعضنا بغتة وبسرة واستسلم البعض ومنهم سيدى عثمان فصاروا يصيحون : « يا الله ! يارسول الله ! ياأولياء الله ! لقد هلكنا ! لقد متنا!»

ورمى البعض ما على فرسه من المتاجر ليخف عمله ويستطيع الجرى ثم ركض به . وأصابنا وابل من السهام ثم انقض علينا أعداؤنا ولم تمض الا دقائق حتى صرنا فى أسرهم

وكان الجاويش من أوائل الهاربين فلم نره ولم نسمع له خبراً منذ سمعنا طلقات الرصاص. ولما اطمأن

2017-11-11

التركمان إلى أنهم لن يجدوا مقاومة وضعوا أيديهم على التاجر فسلبوها . وكان سيدى قد اختفى بين الحقائب المطروحة على الأرض منتظراً ما سيصيبه فاستكشف مكانه تركماني ضخم الجثة مرعب الهيئة فأخذ عثمان يتوسل إليه ويضرع بكل الألفاظ الدالة على الذل والخضوع فاكراً أنه من أتباع أبي بكر وعمر لاعناً شيعة علي. ولكن شيئاً من ذلك لم يفده حتى أظهر له قماش العمامة الخضراء فعفا عن حياته ولم يبق على شيء من متاجره وإنما ترك له ما عليه من ملابسه وترك له حقيبة ثيابي لأنها لا تستحق أن تسرق، وكان فرحي شديداً حين ترك لي أيضا صندوق المواسي

وبعد أن أخذ التركمان ما أرادوا أن يأخذوه أسروا بعضنا وأطلقوا سراح البعض، وكنت من بعض الأسرى الذين ربطت أعينهم وشُدوا إلى ظهور الخيل . وبعد سفر يوم على هذه الطريقة تركونا في كهف

وفي اليوم التالي رفعوا الأربطة عن عيوننا فوجدنا أنفسنا في جهة لا يعرفها غير التركمان، واستأنفنا السير حتى وصلنا إلى سهل مملوء بالخيام السود وبه عدد وافر من الأغنام والمواشي المملوكة لأعدائنا

الفصل الثالث

التركمان — المواسي

لما اقتسم التركمان الأسرى كان من حسن حظي أنني كنت وسيدي عثمان أغانم نصيب رجل واحد هو اللص السفاح الذي سبقت الاشارة إليه وكان اسمه « أسلان سلطان » يعني سيد الأسود ، وقد كان قليل النظير في القوة والشجاعة، وكانت خيامه على حافة مجرى يجري بهماء منحدر من التلال المجاورة، وكان على سفح تلك التلال حشائش خضراء ترعى بها الماشية

وقد أخذ بعض أقراننا إلى داخلية البلاد وقسموا بين قبائل التركمان التي تسكن في هذه المنطقة . وحينما ظهرنا في المسكر اتجهت إلينا جميع العيون لترانا، وقوبل الذي كنا من نصيبه بتحيات عالية تدل على أن له زعامة عليهم ، ونبحتنا كلاب المرعى التي خصص بعضها لحراستنا، وكانت زوجة هذا الزعيم مقيمة في خيمة من خيامه ، وكان لسان طيلسان أخضر يكسبه مهابة، فلما رأته تلك الزوجة أعجبها فأخذته منه ولم يبق على رأسه غير القاووق وهو نوع مستطيل من العمائم يحفظ فيه أمواله وقد طلبته الزوجة أيضاً لتقطعه وتضمه تحت هودج الجمل . ولما أعطاه إياها أخذته وألقته في جانب من جوانب الخيمة وقد حاول أن يحتفظ به ولكن عبثاً ذهبت محاولته . وأعطى بدلا منه غطاء للرأس كان يلبسه رجل مات من الأسرى وهو مصنوع من جلد شاة وقد مات هذا الأسير من حزنه لما تلقاه من سوء المعاملة

وكان هذا الأسير مكلفاً بخدمة الجمال، فلما مات أراد التركماني أن يضعني مكانه ، ولم يكن مسموحاً لي إلى ذلك الوقت بمغادرة الخيمة، وكان العمل الذي كلفت به منذ وصلت هو تحويل اللبن إلى جبن

وقد أقام الزعيم حفلة ابتهاج بنجاح الحملة على القافلة فأولم للكبار من أعوانه وذبح الذبائح ، وكان معظم هؤلاء الأعوان من الذين اشتركوا في مهاجمتنا

2017-11-11

اجتمع الرجال في خيمة والنساء في خيمة أخرى ، فقدمت للرجال أطباق الأرز وعليها قطع اللحم ، وبعد أن أكلوا حتى شبعوا نقلت الأطباق إلى خيمة النساء فأكلن ، ثم نقل ما بقي بها لرعاة الجمال فالتهموا بشراهة حتى امتلأت بطونهم ، ثم جيء لنا وللكلاب بالبقايا الأخيرة

وقد كنت أنتظر وقت مجيئها بصبر نافد، لأن الجوع قد نال مني، وكان ما ذقته منذ أسرت تافهاً يسيراً ولكن في أثناء انتظاري تلك الفضلات جاءت إلى خادمة في السر بطبق محلوء بالأرز وبقطعة كبيرة من اللحم وقالت : إن التي أرسلته هي زوجة الزعيم وأنها تعطف علي وتأسف لي بأن أتشجع

وقضى الرجال النهار في التدخين وفي سرد حوادثهم . وقضاء النساء في الغناء على الطنبور . أما أنا وسيدي عثمان فقد كنا في حالتنا هذه وقلب كل منا مفعم بالأحزان . لكن تشجيع زوجة الزعيم وإرسالها لي الطعام قد جعلا خيالي يسبح في الأجواء وتسليت كثيراً عن مصابي . ولم تكن كذلك حالة رفيقي الذي ضاق صدره وغلب عليه الهم ، وكنت أحاول مواساته بتلك الجملة التي تخفف عن كل المسلمين أحزانهم ، وهي « الله كريم ! الله كريم ! » . فكان يقول : « الله كريم ! الله كريم ! ولكنك لم تفقد شيئاً وأنا فقدت كل شيء »

وفي اعتقادي أنه لم يحزن على شيء كما حزن على ضياع الكسب الذي كان ينتظره من شراء الجلود . وأنه كان يقطع وقته في عد الأموال التي كان يقدر كسبها ولم يكسبها

على أننا افترقنا بعد وقت قليل فذهب عثمان إلى الجبل لرعي خمسين جملا، وهددها الزعيم بقطع أذنيه وأنفه إذا فقد واحداً منها ، وبأن يقطع من قوته ثمن الجمل الذي يموت : وإظهاراً لعطف على عثمان أجلسته في اليوم السابق على غدائه أمام المسكر وحلقت له . وقد رأى الجنود براعتي فاشتهر أمري بينهم وأمروني بأن أحلق لهم . وسرعان ما وصل الخبر إلى الزعيم فاستدعاني وأمرني بأن أحلق له وبالا أضيع الوقت فأخذت أحلق بالموسى ورأسه الكبيرة التي بها مائة انحام من آثار ضرب السيف

وكان هؤلاء التركمان يحلقون من قبل بنفس الآلة التي يقصون بها شعر أغنامهم ويحلق لهم أناس لا يحسنون هذه الصناعة. فأبدى الزعيم سروره. ولما وضع يده على رأسه ووجدها ناعمة ليس بها أي أثر للشعر مع أنه لم يحس بأي نسب أو ألم أقسم أنه لن يقبل فداء عني مهما كانت قيمته ، وأنا كرمني بأن جعلني حلاقه الخاص . وإني لأترك للقارىء الكريم تقدير شعوري في هذه الحالة

سجدت تحت قدميه وقبلتهما علامة على الشكر لهذا الاحسان وصممت على أن أنتهز فرصة الحرية التي ستتاح لي بعد ذلك فأهرب في أول فرصة . ولكثرة اجتماعي بالزعيم صارت لي منزلة عنده وكنت أدبر خطة في نفسي لأتمكن من النجاة

الفصل الرابع

انقاذه الأموال واصراره على حفظها

وكان من أهم أغراضي أن أحصل على عمامة سيدي عثمان وهي التي فيها أمواله وهي ملقاة في جانب من جوانب خيمة السيدة . وكنت أريد الحصول عليها دون أن أثير أقل ريبة .

لما عرف في المسكر أني حلاق وجد لي فيه أصدقاء، وكنت أعتقد أن العطف الذي وجدته من زوجة الزعيم سيزداد. ولكن مضت أيام طويلة لم ترد فيها تلك العلاقة على نظرة حنان منها ونظرة شكر مني.

ولكن الحلاقين في البلاد الفارسية كانوا يزاولون بعض الأعمال الطبية مثل خلع الأسنان

وجبر العظام والحجامة والكي ومعالجة الجراح، وقد وجدت زوجة الزعيم نفسها في حاجة إلى أن تحتجم فأرسلت إلي تسألني: هل لي معرفة بالحجامة؟ فأجبت على الفور بأنها من صناعتي التي أحسنها كل الاحسان. وقام بعض رجال القبيلة بأعمال فلكية ونصبوا الأسطرلاب وقرروا أن الوقت المناسب لها هو الصباح المقبل.

وفي تلك الساعة المباركة قدمت إلى خيمة السيدة فوجدتها هناك تنتظرني بصبر نافد. ولم تكن من السيدات اللواتي يزعجهن رؤية السلاح في يد ضعيف مثلي. وهي مفرطة في السمن كالنساء اللواتي يحبهن الأتراك على النقيض من أذواق الفارسيين فانهم لا يحبون من النساء غير الهيفاء الرشيقة، ولذلك لم يلائم جمالها ذوقي، وفضلا عن ذلك فانني أعيش تحت حكم الظالم «أسلان سلطان» ولو وصل إلى علمه أي شيء عني لما كان عقابي أقل من الموت.

ولقد كان التفاتها إليّ عظيماً، وكان خدماتها ينظرن إلي نظرتهن إلى الرجل الكبير النفوذ ويتملقنني، وقبل أن أباشر عمل الحجامة جسست نبضها فوجدته شديد الاضطراب، ودرت بلحظي في أرجاء الخيمة لأرى إناء يسكب فيه الدم المتخلف عن الحجامة فوجدت آنية ثمينة من البلور وطلبتها، ولكن زوجة الزعيم أبت وقالت إنها هي التي تشرب منها فاقترحت أن يؤتى بالعمامة التي كانت لسيدي السالف عثمان اغا

تفقدت السيدة تلك العمامة فلم تجدها وقالت لها الزوجة الأخرى إنها أخذتها وإنها أصبحت لها، وقام خلاف بين الزوجتين خشيت أن يصل إلى مسمع الزعيم فيدق عظام الزوجتين

ولكن المنجم تدخل في الأمر فقال للزوجة الثانية أنه لا ينبغي أن يساء إلى من ستحتجم وإلا كان ذلك مؤذياً لها وستكون عليها تبعة ذلك. فجاءت بتلك العمامة

ولما وضعت الموسى على ذراعها ورأت نظرات القلق في العيون المتطلعة إليها بدا عليها الخوف وخفت أنا أيضاً ألا أستطيع أخذ العمامة لهذا السبب، فقلت إن رفضها لا يفيد، لأن الحجامة ضرورية لها. واستشهدت بالمنجم واتفق الكل على تمنيد رأيي فتجلدت وتحملت وخزة الموسى. وقلت: إنه يجب أن يترك الدم الذي سكب منها فلا يقربه أحد غيري ويجب إخراجه من الخيمة ووضعه في مكان غير معرض للشمس لأن هذا ضروري لصحتها

فسمح لي بأخذ العمامة وفيها الدم وانتظرت إلى الليل ثم فتقت القماش وأخرجت ما فيه من المال وهو خمسون قطعة ذهبية وأخفيتها ثم أخفيت العمامة أيضاً.

وفي الصباح أخبرت السيدة بأني فعلت ما تقضي به أصول الصناعة فدفنت الدم بأناة حتى لا يصيبها في المستقبل حادث مكروه، فأظهرت الاقتناع بهذا القول وكافأتني بطبق من اللحم طبخته بيدها وبآخر من الأرز

ولما صار في يدي المال تذكرت صاحبي الأول الذي قدر عليه أن يقضي حياته في شقاء وليس يشغل فكره غير عد الأموال التي فقدها والتي كان ينتظر أن يكسبها فلم يوفق إلى ذلك، وذكرت إكرامه لي فصممت على أن أحفظ له ماله. ولكني بعد ذلك أخذت أناقش هذا الرأي فلت إلى العدول عنه وقلت في نفسي: «لولا حيلتي التي توصلت إليها بذكائي لما أمكن الوصول إلى هذا المال، وفضلا عن ذلك فان سيدي عثمان لن يستفيد من هذا المال وهو في عمله الجديد من رعي الابل في الجبل؛ وقد كان من المقدر عليه أن يفقد هذا المال ومن المحسوم في أن آكله. واعتبرت نفسي مالكا شرعياً لهذا المبلغ الذي لا أرى أي قانون يقضي على برده. ولكن نفسي حدثتني في الوقت نفسه بأن أرسل إليه نصف الذي أرسل

2017-11-1

إليَّ من اللحم بواسطة الطفل الذى يساعده والذى كان يذهب كل يوم إلى المرتى والذى وعدنى بألاَّ يأكل شيئاً منه ، وقد كنت أشك فى صدق هذا الوعد . ولكن لم يكن فى وسعى أن أركن إلى غيره وكان من العبث أن أحاول غير ذلك

الفصل الخامس

حاجى بابا يصير نصاً

مضى عليَّ أكثر من عام وأنا فى أسر التركمان فاكتسبت ثقة لاحدٍّ لها من الزعيم وصار يستشيرنى فى كل أعماله الخاصة وفى الأعمال التى تتعلق بقبيلته؛ ورأى أنه يمكن الاعتماد عليَّ فى كل شيء فصول على استصحابى فى غزواته إلى بلاد الفرس ، وهذه الثقة تهيئ لى الفرصة للفرار . ولكنه إلى ذلك الوقت لم يكن يسمح لى بالذهاب وحدى إلى ما بعد المراعى. وكنت أجهل الطرق المنفرة الصخرية الواقعة بيننا وبين فارس فرأيت أن محاولة الفرار عبث لا يفيد. وقد جاول بعض الأسرى أن يفروا فهلك فريق منهم فى الصحراء واضطر الفريق الآخر إلى العودة إلى سادتهم الذين زادوا فى الاساءة إليهم، فقلت فى نفسى إنه لا داعى إلى التعجيل بالفرار. ويجب أن أجعل همى مقصوراً فى هذه الغزوة على دراسة الطريق، فاذا لم أتمكن من الهرب عند وصولنا إلى فارس فانى أكون قد عرفت الطريق إليها وأهرب فى أى وقت أشاء

ومن عادة التركمان أن يجعلوا غزواتهم فى فصل الربيع لأنه يكون لديهم إذ ذاك غذاء وافر للماشية ويكونون واثقين من مقابلة قوافل فى الطريق. وكان ذلك الموعد قريباً فجمع أصلان سلطان شيوخ القبائل ورؤساء المائة ورؤساء العشرة والمهرة من الفصوص وأخذوا يدبرون الخطة لغزو البلاد الفارسية . وقد اجتمعت كلمتهم على غزو مدينة أصفهان فى الميل وهذه المدينة شهيرة بغنى تجارها.

وكان دليلنا فى هذه الرحلة هو الزعيم نفسه ، لأن خبرته بالطريق أعظم من خبرة أى رجل سواه. وقد اعتمدوا عليَّ فى إرشادهم فى طريق المدينة ولكن البعض منهم اعترضوا على ذلك وقالوا إنه لا يصح الاعتماد على رجل فضلا عن أنه أسير فهو من أهل البلاد المراد غزوها وليس بهمه شيء كما يهمه الفرار

وبعد مناقشة شديدة تقرر أن أقودهم فى أصفهان على شرط أن يركب فارسان بجنبي أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فاذا رأيا منى ما يريبهما قتلانى فى الحال.

ولما تم الاتفاق على ذلك أعد التركمان خيولهم وألبسونى ثوباً من ثيابهم المصنوعة من جلد الماعز ووضعوا على رأسى عمامة من فرو الغنم وأعطونى رمحاً طويلا وربطوا فى جوادى كيساً من القمح والخبز والبيض . وكنت فى مدة الأسر قد تعودت الصبر على الجوع والنوم على الأرض فصرت مثل سائر رفاقى الذين لا يعدلهم أحد فى الصبر وتحمل المشقات

وحرصت على إخفاء ما معى من المال وقلت لسيدى القديم إنه إذا أمكننى فداؤه أو حمل الزعيم على فك أسره فانى سأفعل ذلك فى الغزوة الأولى .

فقال لى إنه لا يفكر فيه أحد ، ولا يقبل أن يفتديه أحد، فابنه سعيد بان نال ممتلكاته ، وزوجته لا بد أن تكون تزوجت من رجل آخر وإنه لم يبق بنفسه أمل ، ولكنه يرجونى رجاء واحداً هو أن أسأل له عن أسمار الجلود فى الآستانة

وهنا قام بينى وبين ضميرى نزاع جدى بشأن ما معى من المال فقلت إن حفظه معى خير له وليس له أى أمل، فى النجاة بنير وساطتى ، وإذا فررت ومعى مال خير من فراري معدماً

وحدد المنجم ساعة - فرنا وكانت بالليل فركبنا، وكان عدد الضباط عشرين بما فيهم أنا والزعيم أصلان ، وكنا جميعاً نركب جياداً مطهمة من خير جياد الغارة الأسيوية . وكانت الليلة مقمرة ونحن

2017-11-1

مسلحون بالسلاح الكامل، وقد كنت أشعر بأني لم أخلق لأكون محارباً وإن كان في مقدوري أن أتصنع حالة المحاربين من البسالة حتى يظن أصحابي أنني لست أقل شجاعة من رستم وهو أشجع بطل في تاريخ فارس. ولكنني كنت بيني وبين نفسي أجزع من حلول يوم التجربة الذي تتضح فيه حقيقتي.

ولما سرنا في الصحراء مدة اختلفت طبيعة الأرض ووجدنا تلالاً تسلقناها، وهناظهرت معرفة أصلان بالطريق، فقد كان مثله في البر كمثل الربان في البحر له في معرفة الطرق ما ليس يسهل على غيره علمه

وكنا نسير بالليل ونستريح بالنهار حتى قطعنا أربعمائة وعشرين ميلا فوجدنا أنفسنا على أبواب أصفهان وصار الأمر متوقفاً على أكثر من أي إنسان، لأنه لم يكن فيهم حتى ولا الزعيم نفسه من يعرف طرق المدينة كما أعرفها، وكانوا يريدون دخولها من شارع كبير فيها ليس عليه باب وفي هذا الشارع خان الشاه وهو محط رحال التجار ويستحيل أن يخلو من أموال كثيرة ومتاجر؛ وكان في نيتنا ألاّ نحدث ضجاجاً ولا ضجيجاً متى استطعنا إلى ذلك سبيلاً بل نأخذ ما تصل أيدينا إليه والناس نائمون ونعود قبل أن يستيقظوا إلى معسكرنا

هكذا كانت خطتهم. ولكنني وجدتها منطوية على كثير من الأخطار، والأمل في نجاحها قليل فنهيتهم عنها، فنظر إليّ الزعيم نظرة ملؤها العزم وقال: «افتح عينيك ياحاجي بابا فاننا لسنا أطفالاً وليس أمرنا لعباً. إنني أقسم إذا لم تسلك معنا مسلكاً حسناً بأن أحرقك حياً

ثم أمرني بأن أسير بجوادي بالقرب منه وأمر وغداً آخر بأن يسير بجانبي الآخر. ثم تقدمنا نحن الثلاثة سائر الحملة فدخلنا في الجزء غير المأهول من المدينة، فوجدنا المنازل الخربة ودخلنا فربطنا جيادنا ومشينا على أقدامنا دون أن نحدث هرجاً حتى وصلنا إلى الخان وقد كنت أشعر به وأعرف كل جزء فيه لمجاورته حانوت أبي، فأشرت إلى أصحابي بالوقوف ونادیت البواب باسمه بأن يفتح الباب وكان اسم هذا البواب علي محمد

ففتح البواب وهو بين النوم واليقظة وقال لما رأى كثرتنا: ما هذا الموكب؟ ما هذا الموكب؟

فقلت: «نحن آتون من بغداد»

قال البواب: «بغداد! هل تريدأن تسخر مني؟»

فقلت: «لقد جئنا من بغداد بالأمس» ثم لما رأيته مرتاباً قلت «أنا حاجي بابا ابن الحاج حسن الحلاق وقد ذهبت مع عثمان أغا كما تعلم إلى بغداد وعدت مزوداً بالأخبار»

قال: «هل أنت حاجي بابا الذي كان يحلق لي؟ مرحباً بك، لقد ظل مكانك خالياً مدة طويلة»

ثم أوقد شمعة فرأينا حجرة فسيحة بها أمتعة التجار. ولما رأى أصحابي ذلك عزموا على اختطاف بعض أغنياء التجار لأن أحدهم يستطيع أن يفتدي نفسه بأكثر مما نستطيع نحن حمله من المتاجر ولأن اختطافنا إياهم لا يكلفنا من المشقات والأخطار ما يكلفنا نقل هذه المتاجر

وقبل أن نحدث ضجة في المكان اختطف زملائي ثلاثة من التجار الملتحفين بالطيالس الحريرية التوسدين السجاجيد الفارسية وأردفوهم على ظهور الخيل. وفي ذلك الوقت دخلت الغرفة التي كنت أعرف أن صاحب الخان يحفظ فيها أموال الضيوف فانفتشت الصندوق وجربت، وكان ذلك الصندوق مفتوحاً وبه عدد من الأكياس المتفاوتة الأحجام فخبأت في ثيابي أكبر كيس منها، ولم نكد نخرج من الخان حتى استيقظ جميع من فيه وهاجوا، وكان البواب إذ ذاك شمكتوف اليدين غائب الرشد من الخوف، ولم نكد نصل إلى مربط خيولنا حتى كانت المدينة قد هاجت كذلك وخرج الشجعان من رجالها يبحثون عنا.

«يتبع» عبد اللطيف النشار



FastScanner
2017-11-11

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الرواية
دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٤٣ | ٩ رمضان سنة ١٣٥٧ — أول نوفمبر سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
١٠١٨	المجنون	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود بك خيرت ...
١٠٢٤	سحر بابل	أقصوصة شرقية	بقلم الأستاذ دربي خشبة ... ...
١٠٣٠	خمسة أعوام في عذاب ...	مترجمة عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...
١٠٣٢	الشريدان	للكاتب الفرنسي جوستاف جيفروا	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة .. ...
١٠٤٤	وقائع مارثان ولديك	للكاتب الانجليزي والتر سكوت .	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...
١٠٤٩	انتقام رهيب	للكاتب الفرنسي أونوريه دي بلزاك	بقلم الأديب عبدالوهاب مصطفى بحلاق
١٠٥٥	فتاة المصر	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
٠٦٥١	حاجي بابا أصفهاني	للكاتب الانجليزي جيمز موير ..	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ..

2017-11-1

المجنون

اقصوصة مصرية

بقلم الاستاذ محمود بك خيرت

لا مناص من الزواج لأنه ركن العمران وسعادة الأسرة . ولا شك فى أن أول الأسباب الحافزة إليه جمال التكوين لأنه مطمح الشباب والباب الذى ينفذ منه الحب، ولكن الجمال والشباب لا يدومان إلا كما تدوم الزهرة الناضرة، حتى أن المرأة لتلجأ إلى كل الوسائل استبقاء لأثر حسنها الولى . وكذلك الرجل، فكان مما لا بد منه أن يسد هذا الفراغ عاطفة غير عاطفة الحب تستقر بها هذه العلاقة وتستمر .

نعم إن الزواج فى العصر الحاضر ابتعد كثيراً عن معناه الروحانى الذى كان هناء البيت، لانصراف الناس إلى المادة وافتتانهم ببريقها ، إلا أن العقلاء منهم ما زالوا يحسبون للزواج حسابا كبيرا لأن عليه مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وبناتهم

وإذا كان ليس بغريب أن الملاحين يرون غرق السفن بأعينهم ثم يعودون إلى البحر وأخطاره لأنه مادة حياتهم ومصدر رزقهم فأن من غير المستغرب أيضا أن الفتيان الذين يدفعهم جنون الشباب إلى تحطيم سفن الزوجية على صخور غوايتهم يعودون إلى ركوبها لأنهم مضطرون بحكم الناموس الطبيعى إلى التفكير فى الرفيق الصالح من طريق الزواج تيسيراً لمتاعب الحياة ...

ولكن كيف نوفق إلى اختيار هذا الرفيق والقلب عميق بعيد الغور هيهات أن يرتفع الحجاب عنه فنكشف ما ضمت ظلماته من مختلف الشهوات والأهواء؟

ولقد أمكن للعلماء أن يضعوا للكرة الأرضية خطوط الأطوال والعروض فأمكن لهم أن يهتدوا إلى أجزاء الدنيا العريضة الواسعة، ولكن بحر الزواج الشاسع المتناهى الأطراف لم يظفر يوماً بمثل هذه الخطوط نسير بها قرار القلوب وما اندفن فى أغوارها من معانى الخير والشر وأسباب الاستقرار والانهيار .

نعم إن اختلاط الجنسين وتعارفهما قد يساعد على الالمام بأخلاقهما ولكنه فى الحقيقة إلمام ناقص لأن كلا منهما يجتهد فى كتمان عيوبه ويتكلف الظهور فى ثوب من محامد الصفات ليست فيه وقد تعمى القلوب أيضا عن جمال الصفات بجمال الذات « وعين الرضى عن كل عيب كليلة » .

على أن من الناس ذوى البصيرة النافذة من اعتادت عيونهم تحليل النفوس والنفوذ إليها فيستخلصون أسرار قلوب الناس من سكونهم وحركتهم وحلمهم وغضبهم ومن سرورهم وأحزانهم ومن أساليبهم فى أحاديثهم لأن كل ذلك ينشر من حولهم شبه موجات تحمل فى ذراتها الدقيقة أثرا محسوسا من تلك الأسرار .

وقد كانت « جلسن » من هذا القبيل حديدة

2017-11-1

الذكاء بصيرة بمواقب الأمور حتى أنها لما خطبها « كمال » رفضت يده بمجرد نظرها إليه والاستماع إلى حديثه مع أنه فتى سري جميل . ولكنها قبلت يد آخر ليس بالجميل ولا بالعديم وهو مع ذلك رقيق الحال

وقد كانت هذه الفتاة فوق ما هي عليه من أسباب الفتنة ولباقة الشمائل على جانب عظيم من بعد النظر وسداد الرأى تبحث عن كمال السيرة قبل جمال الصورة وتنظر إلى الزواج نظرة التي تريد الحياة إلى جانب رفيق يقدرها ويحبها ، وقد قرأت فى سذاجة خطيبها الثانى مادة أولية يسهل عليها تكييفها بحيث تتفق مع طبيعتها وطبعها

ومن أبرز صفات هذه الفتاة أنها لا تجارى فتيات عصرها فيما يسمينه حسنات الدنيا فكان من أبغض الأشياء إليها المشد لأنه يضغط على صدرها وأمعائها فيؤثر فى حركة التنفس ويسوق عملية الهضم ؛ وإنما كانت تكتفى عنه بحزام لين خفيف لا يؤذيها ، وعن أربطة الجوارب التى تمنع سريان الدم إلى قدميها بشبك يصل طرف جوربها بطرف سروالها . وكانت تنفر أيضاً من الماسخيق والأدهان والأصباغ لأنها تتلف البشرة وتذهب بمحاسن الوجه وشتان ما بين الملاحة الطبيعية والملاحة المجلوبة ، كما أنها كانت تمقت كشف صدرها وساعديها لأن ذلك يعرضها لتغيرات الجو والأمراض ولا يثمر غير الفتنة والاثم ، وما تبخترت الصفة إلا من فتحات الأكمام القصيرة

وكان لأسرة جلسن أطيان فسيحة بشبين القناطر يباشر شؤونها ناظر كان كما هبط إلى القاهرة تحتل به وتتحدث إليه حتى ألمت بأصول الزراعة الشتوية والصيفية وأنواع المحصولات وطرق رى الأطيان وتسميدها وبذرها وغرس عقل أشجار الفاكهة فيها ومواعيد جمع القطن وحصاد النلال وتقليم الأشجار وتقليمها فى مشاتلها ولف فسائل النخيل بالخيش أو الحصير لوقايتها من أشعة الشمس إلى غير ذلك

كانت تحيط بكل هذا علماً وعملا لأنها كانت كما قصدت إلى شبين مع أبيها تمر بالحقول وتجلس عند السواقي وتزور الأجران وتتطلق إلى زرائب الماشية وحظائر الدواب وتشرف على حلب الأبقار وتربية الدواجن وخلايا النحل حتى أن الفلاحين كانوا يدهشون من إقبال هذه الفتاة الناعمة على مثل هذه الشؤون الخشنة

ولقد مر على زواج جلسن وصادق نصف عام كانت السعادة فيه تظللهما بظلها والهناء يرفرف بجناحيه من فوقهما وهو يذهب كل يوم إلى عمله بينما تقوم هى على شؤون البيت ، وكان إذا جاء الليل يقضيان شطراً منه في الحوار والمطالعة ، وإذا حضر الشيخ ابراهيم أشركته معها فى التحدث إليه لتدربه على مثل هذه الأمور التى يجهلها كما أنها كانت ترافقه إلى شبين أحياناً ليكون ما ألم به ثابتاً من طريق عملى

وكان الفلاحون يستقبلونها فرحين وقد اصطفوا على جانبى الطريق ، وهى تحييهم وتوزع ابتساماتها عليهم وتسألهم عن صغارهم ثم توزع عليهم ما حملته لهم معها من الهدايا والحلوى . وهى تقصد من كل ذلك أن تمد زوجها الأثيراف بنفسه يوماً من الأيام

2017-11-11

على هذه الشؤون لاسيما وأن مرتبه من الحكومة ما كان يتجاوز تسعة جنيهات

وكان كل هذا يبلغ مسامع كال فتثور نفسه ويأكله الحقد على صادق الذى امتلأت يده بهذه السعادة من دونه وهو لا ينسى ذلك اليوم الذى رفضت جلسن يده فيه فيحز فى نفسه أنها تبيعه لتشترى ودّ ذلك النر الذى ما كان ليطاوله فى المال أو الجمال . ولذلك وقر فى نفسه أن ينتقم بالسعى إلى إفساد هذا الزواج مهما كلفه من الجهد .

وإذا كان الطريق إلى ذلك يقضى بالاتجاه نحو المرأة لضعفها ولأنها خلقت لتحب وتنعم ، ولكنه يعرف من أخلاق جلسن وصلابة عودها ما صرفه عنها إلى زوجها زميله من أيام الدرسنة لأنه ساذج سليم النية فهو خير مطية يصل بها إلى غرضه ؛ فيفسده عليها حتى لا يبقى لها منه إلا جثة تتحرك أقفرت من تلك الروح التى تحاول إعطاءها شكل القالب الذى فكرت فيه . وكل ما كان عليه أن يهتم له هو إحكام المكيدة التى يدبرها لأن المقدرة فى عينه ليست فى الضربة الشديدة ولكن فى الضربة الشديدة التى تصيب .

***

وكان صادق إذا خرج للرياضة فى المساء لايتأخر عن الساعة الثامنة ليتناول العشاء معها . ولكنها شعرت فى الأيام الأخيرة أنه كان يرجع بعد تلك الساعة . وكان إذا سألته فى ذلك يدعى أنه تأخر مع إخوانه لأن الحديث كان يلهيهم بغير أن ينتبهوا ثم يعدها بأنه سوف لا يتأخر بعد ذلك ، ولكنه مع هذا يستمر فى تخلفه ، بل إنه كثيراً ما كان يتأخر إلى منتصف الليل وإلى ما بعده . وأحياناً كان يقضى سواد الليل بعيداً عنها ...

وكان كال لاتخفى عليه خافية من أحوال صديقه يستدرجه إلى الكشف عنها فى حديث أخاذ ظاهره مرر وباطنه محجوب بما يتمقه له من حديث الأخلاص وصداقة الصغر

وكان خالياً يقضى أكثر وقته بين الكؤوس والنوانى على خلاف صادق الذى لم يكن أول عهده بالحب إلا عند صدر زوجته وهى لاتبسطه إلا بالقدر الذى تستبقيه به ، فكان حبها له كالملح فى الطعام قليله يصلح وكثيره يفسد . نعم إنه كان فى وسعه أن يستزيد منه أو يحسن تذوقه ولكنه كان كالمازف على آلة يجهلها ولم تمرن أصابعه عليها فأوتارها لاتخرج من النغم ما تطرب له أذناه .

وكان كال يلمس هذا الضعف فيه فاتخذ منه خيرة لما هيأ نفسه الشريرة له من وسائل الكيد . وهكذا أبعده عن زوجته على الصورة التى ذكرناها وهو يشجعه شيئاً فشيئاً على السهر ويدفعه إلى الشراب ثم إلى غشيان مجالس الساقطات من النساء وعند ذلك يخيل إليه أنه عثر على ذلك النغم الذى أخطأ أصابعه فى البيت فيمعن فى الرذيلة دون حاجة إلى إيعاز جديد من ذلك الصديق المفسد .

ولقد فكر صادق فيما ينفقه على هذا السبيل ، وكان قد أهدى إلى زوجته خاتماً من ماس فى صدر زواجه فعمد إلى أخذه بحجة صياغة ذهبه على ابتكار حديث . وهكذا باعه ، ولكنه بثر ثمنه كما أن المصلحة قررت فصله لتكرر انقطاعه وتراخيه فى عمله

أما جلسن فقد أحست من أول ليلة تأخر فيها

بالخطر الذى يحدق به وبها . وكانت غير مطمئنة إلى ما كان يسوقه لها من وجوه المعذرة فأوعزت إلى أخيها بمراقبته . وهكذا وقفت على حركاته يوماً فيوماً كأنما كانت تقع على مرأى منها ، حتى إذا ما علمت بأمر بيع الخاتم وقرار المصلحة ، أحست العاوية التى عند قدميه وضرورة العمل لزحزحته عنها لأن من أعظم الأخطاء العجلة قبل الامكان والتأنى بعد الفرصة

وكان صادق كلما أراد كمال أن يتقدم به خطوة إلى الأمام فى الطريق الذى دفعه إليه يحاسب نفسه ويوازن بينها وبين نفس زوجته فيندم على ما أساء إليها وفرط فى حقها ويقوم فى خاطره أن يسارع فى الاعتراف لها وطلب غفرانها وهى التى فضلته على غيره وآثرته على فقره . فلما شعر كمال بأن ندمه أخذ يستيقظ وأن صوت ضميره يناديه أسرع إلى خنق هذه العاطفة التى ظن أنه قضى عليها وانتهى منها فشرع يوسوس له بأن امرأته ما كانت لتحبه وإنما أرادته ليكون زوجاً ... وكفى . وإلا فمن هى تلك التى يتقدم لها من الخطّاب من يفضلونه فى كل نواحى الحياة من حسن وغنى وجاه فتعرض عنهم إليه إلا إذا كان لها غرض عجيب . ثم لم تجمعه بناظر الزراعة ليلتقيه مبادئها مع أنه موظف ؟ بل لم يفرض عليه الرحيل إلى شبين فى أيام العطلة التى كان أولى بقضائها إلى جانبها ؟ نعم إنها لم تتخلف عن مرافقته إليها إلاّ مرة واحدة . ولكنه فى المستقبل لن تقوم له حجة فى اصطحابها ، وهى زوجة عملها فى البيت وهو رجل من شأنه الحركة والسعى . وهكذا شاعت مخاوفه وسئم ظنونه فجرفه التيار ..

أما جلسن فلم يساورها شك فى أن كمال هو الذى أفسد ما بينها وبينه وما تراجم الظن على أمر مستور إلا كشفه . وكانت لا تزال تذكر رفضها الزواج منه وأنه كثيراً ما حاول الاتصال بها وهى تحتقره وتعرض عنه . ثم تعود فتذكر زوجها وخفّته التى جرّت إلى الاساءة إليها وإلى نفسه . ولكنها كانت مع ذلك تلتمس له العذر وقد استغلّ ذلك الشيطان سلامة قلبه وحسن طويّته

وكان على أثر ما انتهى أمره إليه نوم سريره وقد أصابته حمّى شديدة عصفت بعقله حتى أوصى الطبيب بالحذر من إثارة أعصابه لأن الحالة التى أصبح فيها تنذر بثورة عنيفة مقبلة فهو بحاجة إلى السكون والراحة وفيهما سلامة محققة تحول دون وقوع تلك الثورة التى قد تكون سبباً فى شفائه كما قد تكون القاضية على حياته . ولذلك قامت جلسن بنفسها عليه خير قيام وهى تبتسم له وتتحاشى لومه وتشجّعه وتواسيه

وكان صادق فى فترات رشده يعجب بهذه الزوجة التى أنجد صديقه بحذره منها وبرميها بما ليس فيها ، وهو يقول فى نفسه إذا كانت على ما وصف فلم عنايتها هذه به وإشفاقها عليه ؟

وكانت جلسن إذا خلت إلى نفسها تتناول ذكرى ذلك المجرم الذى كاد يقضى عليه وهى حيرى لهذه الوسيلة الدنيئة التى لجأ إليها والغرض الذى كان يحاول النفوذ إليه منها . ثم تقول إن زوجها صديقه من الصغر ولم يفعل معه ما يوجب أن ينقلب عليه بمثل تلك القسوة التى لا ذنب له فيها وقد كانت بالعكس أولى منه بانتقامه فلم وجّهه إليه ولم يوجهه

إليها . وعند ذلك يتزحزح الغطاء شيئاً فشيئاً عن هذا المسمى الذى طالما حيّرها . وهو أنه أراد من إفساد زوجها أن يسوّئه فى عينيها فينصرف عنه قلبها وهكذا يخلو له بها الجو . وتترتّب على ذلك أنه لا بد إذن من عودته إليها لتنفيذ تلك الغاية السافلة بعد أن مهد لها بذلك التمهيد الجهنمى ولذلك انتظرته بقدم ثابتة

***

— لقـــد حزّ مرضه فى قلبى فأسرعت لأطمئن عليه

— لا غرابة فى ذلك . وأنت صديقه ... الحميم

— ولكنى سمعت يا هانم بأنه مُجنّ

— ... تقريبا . ولذلك فنحن نحرص كل الحرص على راحته

— وهل تظنين أنه سيشفى ؟

— ولم لا ؟

— ولكن مثل هذه الحالة قل أن تجد سبيلها إلى الشفاء لأننى علمت من طبيبه أنه على باب ثورة عنيفة قد تعصف به

— وقد تشفيه ...

— ربمـا . ومع ذلك فالذى يشغلنى كثيراً هو أنت أيتها السكينة . لأنه إذا ذهب فقد استراح وإذا شفى فلن يكون نصيبك معه غير العذاب . فـالذى بقى لك الآن منه وقد انصرف إلى ملاذّه التى انتفس فيها وهو يقضى لياليه بعيداً عنك بين أحضان النساء وأكواب الشراب . من كان يظن أن هذا الحمل الوديع يهوى إلى هذا المنحدر بمثل هذه السرعة المدهشة وإلى جانبه كنز من كنوز الحسن ... وثمرة شهية لا تطلب غير الحب ... ولكنه على ما يبدو لى جامد الشعور أو ينقصه كثير من سلامة الذوق وإلا لخرّ ساجدا بين قدميك ولجعل لك من قلبه محراباً يعبدك فيه . وعلى كل حال فلعلك تدركين الآن أنك لم تحسنى الاختيار وأن حسابك أخطأ برفضك يدى وإيثارك إياه علىّ ..

(تسمع فى خلال ذلك حركة فى الغرفة المجاورة ولـكنه يستمر فى حديثه)

ولـكنك ...

— ولكننى لم أخطئ فى حسابى يوماً ولاخطر ببالى أن أندم على اختياره وقد كان عفّ اللسان . طاهر الثوب سليم الضمير . ولكن الأصدقاء ... قرناء السوء هم الذين جروه إلى هذا الدرك . ومن الغريب أنك تدعى صداقته وتباهى بها ولكنك لم تعمل عملا يدل على تبادل عواطفها بينك وبينه

— ومن أدراك أننى لم أحذّره من عاقبة ضلاله . ولكن مالنا ولـكل هذا وقد قضى الأمر فـلمَ تفكرين فيه ولا تفكرين فى مستقبلك أنت . إنك ياجلسن لا تعلمين مقدار الحب الذى فى قلبى لك والعذاب الذى أعانيه فيك ...

ولو أن هذا العذاب كان ابن يوم أو يومين لاحتملته ولقضيت على سببه . ولكنه قديم ، قديم يا جلسن ، من ذلك اليوم الذى تقدمت فيه إليك فأعرضت عنى وحطمت قلبى . وكم حاولت أن أجد السبيل إليك فأرى الأبواب موصدة فى وجهى حتى إذا سافر إلى شيبين يوما من الأيام بنيت أن

2017-11-11

تراقبه قلت في نفسي لقد سنحت الفرصة . ولكني لم أكن أوفر حظا فرفضت مقابلتي وأغلقت أبوابك من دوني ...

وعند ذلك يفتح الباب على مصراعيه وينطلق منه المريض وقد احتقن وجهه وانقدت عيناه وكان وافر الجسم قوي البنية فساد السكوت وهو يذرع الغرفة طولا وعرضا ثم وقف أمام صديقه والحمى تصهره والغضب يرجه :

— أنت هنا ؟ شرفت يا « حبوب » أهلا وسهلا يا « أنس » أليس كذلك يا « جامد » ؟ إنني أعيد على سمعك نفس الكلمات التي كنت تستقبلني بها في مجالس شرابك وفجورك وأنت تدفع الكأس إلى فمي والنساء إلى صدري وأنت هناك تحسن لي القبيح وتقبح في عيني الحسن لأنك تريد أن أعرف كيف أساير العصر . أما هنا فمعنى ذلك أنك كنت تمحضني النصح وتحذرني من عاقبة الضلال . أليس كذلك ؟ ومن العجيب أنك كنت تمتنع عن زيارتي بحجة أنك خطبت امرأتي من قبلي وأن أدب السلوك ودقة الموقف يحولان دون ذلك ، فإذا جاء الآن بك وأنت الذي كنت تحاول هذه الزيارة من قبل في غيبتي ... لقد كنت أعمى حين وثقت من صداقتك وأحسنت ظني فيك . وما جرني إلى طريق الخيانة إلا أنت ، ولا حاول إفسادي إلا أنت ، ولا طمن هذه السيدة الطاهرة في عفتها إلا أنت ؛ فلما أفلتّ آخر سهم من جعبتك وبلغت المأمول من غايتك ، جئت إلى هنا تتسلل كاللص لتسرق امرأتي بعد أن سرقت صوابي وعقلي . جئت إلى هنا وأنت آمن مجنون آمن بموتي

مالك سكت . تكلم يا حبوب . تكلم يا أنس . تكلم ياجامد ... ولكنك لا تجرؤ لأنني تحت بأذني ورأيت بعيني

نعم أنا الآن مجنون فاحذر جنوني ، وإنني كتب عليّ الموت ولكن بعد أن أجرعك كأسه بيدي

وعند ذلك صرخ صرخة هائلة ، ثم أطبق على عنقه بيديه القويتين فلم يتركه إلا ميتاً

وكانت هي الثورة العنيفة التي أشار إليها الطبيب ... ولكنه شفي !

محمود خيرت

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

ص
٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والايطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)
٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)
١٨ نباتات الزينة المنزلية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)
١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من
شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

سحر بابل

قصة شرقية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

كان القمر الساهر يسكب ذَوْب فضته على أطلال بابل النائمة فوق عُدْوَة الفرات الشرقية، حينما خرج الشيخ فوزان من كوخه الجاثم فوق الضُّفة الغربية، ميمما شطر المرفأ الساكن، ليركب في الزورق الذي اعتاد أن يحمله في عرائس الليالي العربية المقمرة إلى عذراء حمورابي[1] الراقدة تحت أضلاع الزمان

وكان الليل البابلي الرائع مفعما بالذكريات، وكان في كل حَبَّة من لُجَيْن القمر المنتثر في صفحة الفرات طيف من أطياف البابليين والآشوريين والأكاديين والكلدان يسبح خلف الزورق، أو يرقص فوق السُّكَّان، أو يحملق في غُرَّة الشيخ فوزان ... هذا الشيخ العجيب الذي افتتن به الشعب، وانصرفت إليه أشدة الخلق، وسُحرت بخوارقه قلوب الناس

لقد كان الشيخ فوزان يلعب بالأفاعي السامة ذوات القرون فما تصيبه، وما تلحق به أذى؛ وكان يرسل النظرة الحادة من عينيه الصارمتين فيحرك بها الصخر عن موضعه، ويلوي بها أعنة الدواب في سيرها ... وكم من مرة تمتم بكلمات لا يفهمها إلا الشيطان فيقبل الشجر فينثر عليه من رُطَبِه، ثم يمضي تبارك الله فيكون في منازعه

وكان النسوة من جميع القرى المجاورة يقبلن إلى كوخ الشيخ فيلصقن به حتى يتأذن فيشفي مرضاهن ويُذهب أوصابهن؛ وهو في كل ذلك لا يتجشم شيئاً، إلا رقية ينفثها في أذن الريض أو المريضة، أو تميمة يُنمنم حروفها المرتبكة بماء البصل ثم يحملها في جيد الغادة أو ظهر الفتى الأمرد فيهرول سليما معافى بإذن الله

وكان معروفاً مع ذلك بالتقى والصلاح، ولم يكن أحد يعرف غرامه بالخمر، ولا ولوعه بالموسيقى، ولا سيما الناي. وكان فوزان حصيفاً حازماً، فكان يستعين على هذين بالكتمان

***

ركب إذن في الزورق ومعه نايه وزجاجته، ثم هم، فهمهمت حوله أطياف الملوك الغُر والفتية الصِّيد من أبناء بابل ... وتبسم القمر الساخر وأخذ يسطع بشدة فوق العمامة المكورة والعباءة البيضاء ... وفي وسط الفرات، بدا للشيخ أن يتشبه بالملك بختنصر، فرفع المجاديف وأوقف الزورق ثم جذب القدام ووضع الزجاجة في فمه حتى ارتوى. وما هي إلا لحظة حتى استدار رأسه وبَرَق القمر في عينيه، وامتلأ النهر حوله بالجنيات الجميلات

ومع ذلك كله لم يثب صواب الشيخ، ولم يضع من حلمه شيء، بل هم مرة أخرى بالزورق فلم يزل به حتى بلغ شاطئ بابل فنزل فيه، ومعه الناي والزجاجة

(١) حمورابي مؤسس مجد بابل وصاحب مجموعة الشرائع التاريخية

وسرى بين الأطلال الشاخصة حتى بلغ آثار البرج الكبير فخلع عباءته ، وفرشها فوق حجر عظيم من حجارة الرصيف الملقى هنالك ، ثم جلس يحتسى النُّطَف الأخيرة الباقية فى الزجاجة

وتناول نايه ، وطفق ينفخ فيه ... وخُيل له أن المدينة الميتة قد انتفضت تحت الثرى وهبت من سباتها الطويل ، وأرهفت آذانها تتسمع وتتطرّب ، فملأ الشيخ فى النفخ ، ولم يبال أن تضج رقات الموتى البابليين

ثم سكت قليلا ، وتوارى القمر الساخر وراء سحابة رقيقة فشاعت فى الوجود رهبة طارئة ، وأمسكت الصهباء أنفاسها ، ثم ما هى إلا لحظة حتى رجفت الراجفة تحت بابل فمايلت أوتادها واهتزت جوانبها وتشققت عن كل جبار عنيد

وظن فوزان أنه يحلم فغرك عينيه وحملق فى الآثار المضطربة أمامه ، لكنه رآها ترقص رأى العين ، فأيقن أنه البلاء من الله ، فتشهد وسبح باسم ربه ، وندم على ما عصى أمر الخالق من معاقرة بنت الحان فى مثل ذاك المكان ، الذى لم يكن يصلح إلا للعظة والاعتبار ، والتفكر فى أمر هذه الدنيا الفانية التى تضج أحيانا بصولة الأمراء وجبروت الملوك ، ثم ينفذ الأمراء والملوك إلى أعماق رموسها فهم فى بطونها حديث مروى وذِكْرٌ صامتات

ثم انشق بطن بابل فجأة ، فصعد منه جداران عظيمان عُلق بينهما شيطان هائلان ذَوَا أجنحة مثنى وثُلاث ، وقد ربطت أقدامهما بأمراس من نار ، وتدلى الرأسان العظيمان إلى أسفل ، وجعل لهب أزرق ينبثث من بدنيهما ، وشَرَرٌ كبير ينقدح من عيونهما ومناخيرهما

وتبسم فوزان مع ذاك ... وحسب أن ما رأى وما سمع إن هو إلا تهاويل مما تصنع الخمر برؤوس الخمورين ... ثم أراد أن ينصرف ، فالتفع بعباءته ، وحمل نايه وزجاجته ... وما كاد يخطو خطوتين حتى سمع أحد الشيطين يقول وهو يبكى : « ربّاه ! ربّاه ! تبت إليك ، وندمت على ما فعلت ، وإلا تغفرْ لى أكن من الهالكين ! » . ثم سمع الآخر يقول : « يارب ! وسعت رحمتك كل شئ فكيف تضيق بما جلتنا ؟ اللهم لقد أعذرنا الناس فخفف عنا ! »

فخافتَ فوزان بالحديث إلى نفسه : « ما هذا ؟ ماذا أسمع ؟ تالله لأعودن وليكونن لي مع هذين حديث ... أبداً ماسمعت الخمر بى مثل هذا أبداً ! »

وعاد إلى مكانه ، وهدأ من روعه ، ثم حيّا الشيطين بتحية الأسلام فردّاها وأحسنا ، وعادا إلى ما كانا فيه من شجوٍ وشكوى

— نَشدْتُكما الله يا ساحيّ أن تقصا علىّ قصتكما !

— عُدْ يا ابن آدم من حيث قدمت ... فما أنت وما نحن فيه !

— لقد سمعت أحدكما يتوب إلى الله ويستغفره ، وسمعت الآخر يستعتبه ، فما ذاك أنابكما الله وخفف عنكما !

ونظر إليه الذى سمعه يستعتب الله فتأفف ثم قال :

— اذهب لحالك الله يامفتون ...

— مفتون ؟... لا والله ما أنا بذاك !

2017-11-11

— وما ذنك يمينك يا رجل ؟

— هذه ... ؟... هذه زجاجة !

— ألق بها وانج بنفسك يامسكين !

— وماذا علىّ منها أيدك الله ؟ !

— عليك منها ما تراها الآن فيه يا مخبول !

— لست أفهم !

— أيكما شرب صاحبه : أنت أم الزجاجة ؟ ألق بها وتب إلى الله ، وآل على نفسك ألا تقارفها قط ، واحمد الله على أن رأيتنا فى هذا العذاب بسببها اكسرها يا أتعس خلق الله ؟

— ولكن ...

— يا ربنا آمنا بك ، وندمنا على خطايانا ... آه ؟ واحرباه !

— ألا تذكران لى من أنتما أثابكما الله وخفف عنكما !

— إذهب .. إمض بها أيها الخاسر فسيُسحنك الله !

— ولكن ... من أنتما ؟

— لن تصدق إذا ذكرنا لك !

— وكيف ؟

— إذن ... نحن مَلَكان !

— من ملائكة الله ؟

— جاهل وغبى ... وهل لغير الله ملائكة يا أحمق ؟

— ويم طردكما الله من سمائه ؟

— بهذه التى فى يمينك !

— وَىْ ! والله لاذقتها بعد اليوم أبداً ! ولكنكما ملكان يا صاحبىّ ، فكيف شربتما هذا الاثم ؟ !

— لذلك قصة طويلة فامض عنا هداك الله ، وخلّنا فيما نحن فيه من ذاك البلاء

— لا والله لا أفعل حتى أسمع منكما ، لأروىَ للمسلمين لعلهم يهتدون

— ومن المسلمون هداك الله ؟

— المسلمون ! ألا تعرفان من المسلمون وأنتما مع ذاك تذكران أنكما ملكان من ملائكة الله ؟

— يا أخانا إننا ما نزلنا إلى الأرض إلا فى زمان إدريس عليه السلام ، ونحن فى ذاك العذاب منذ ذاك الأوان !

— ويحكما ! إذن فاعلما أن المسلمين هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم !

— أو قد بعث محمد ؟

— بعث محمد وانتشر الاسلام فى المشرقين والمغربين !

— ومنذ كم بعث محمد رضوان الله عليه ؟

— منذ ثلاثة عشر قرناً

— يا ربنا لك الحمد .. إذن لن يطول عذابنا !!

— ولِمَ ؟

— لأننا كنا نعرف ونحن فى السماء أن محمداً لا يرسل إلا فى آخر الزمان

— صلى الله على محمد وعلى آله وسلم

— أفأنت مسلم من أمة محمد يا أخانا ؟

— مسلم وابن مسلم ولله الحمد

— وهذه الزجاجة ؟ ! ألم ينهكم محمد عن الخمر ؟

— لا حول ولا قوة إلا بالله ! نهانا الله

عن الخمر فى كتابه الكريم !

— وفيم شربك الخمر أيها الفاسق إذن ؟

— عفا الله عنى ياصاحبى ، لقد كنت أقول إنها أهون المحرمات !!

— وى ! لقد وقع المسلمون فيما وقعنا فيه ياهاروت !!

— أجل ! لقد قالوها كما قلناها ياحبيبى ماروت !

***

وشده فوزان حينما سمع الملكين يتناديان بهذين الاسمين ، وسرت فى جسمه قشعريرة باردة أبرد من قشعريرة الموت ، ثم لم يملك إلا أن ركع أمامهما وطفق يبكى ويتضرع ويطلب الصفح والمغفرة

— ياهذا أنت مسلم وتركع لغير الله سبحانه ؟

وخجل فوزان فانتصب واقفاً ثم قال :

— أأنتما هاروت وماروت حقاً ياصاحبى ؟

— أجل أنا هاروت وهذا أخى ماروت

— ويلكما !! لقد ذكركما الله فى كتابه إلى محمد !

— ذكرنا الله فى القرآن ؟ وعمّرك الله ماذا قال سبحانه ؟

— قال تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ، وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » صدق الله العظيم

— صدق الله العظيم يا أخانا المسلم ... صدقت يا أله ! صدقت ياربنا ! اللهم فرج كربنا واقبل توبتنا واغفر ذنبنا واعف عنا يا أرحم الراحمين !

واستخرط الملكان فى البكاء . فتنظر فوزان حتى فاءا ، ثم سألهما :

— نشدتكما الله إذن إلا ما أخبرتمانى بما وقع لكما ، مما استوجب طردكما من السماء ، وكتب لكما سوء ذاك المآل !

— إعلم ياأخانا أن الملائكة[1] لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك فى زمن إدريس عليه السلام ، عيروهم بذلك وأنكروا عليهم ، وقالوا لله سبحانه : هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء فى الأرض واخترتهم فهم يعصونك فقال تعالى : لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ماركبت فيهم لفعلتم مثل مافعلوا . قالوا : سبحانك : ربنا ما كان ينبغى لنا أن نعصيك . قال الله سبحانه . اختاروا إذن ثلاثة من خياركم . وأسفاه علينا ! ! اللهم لا حول ولا قوة إلا بك يارب !

قال ذلك وتفصد العرق من بدنه كالمهل ، ثم أنّ أنينا مؤلما وقال :

— ولسوء ظالى وطالع أخى ماروت اختارنا

(١) الرواية هنا عن ابن إسحاق بتصرف قليل

الملائكة واختاروا ثالثا لنا أخانا عزرائيل . وكنا ثلاثتنا من أتقى الملائكة وأكثرهم ورعا ، بيد أن عزرائيل كان أحصف منا وأكيس ، فكتب الله له السلامة ، وكتب علينا الشقاء فبؤنا بهذا الخزي الذي ترى !

— لست أفهم ياهاروت فأفصح خفف الله عنك!

— سأذكر لك فلا تعجل ... أوه ، النار تدب في عروق ظالم غفراً وتخفيفا !

— خفف الله عنك ياهاروت ؟

— لا كتب الله مثلها لك ياسماح ! .. أقول : ثم إن الله سبحانه ركب فينا الشهوة الملعونة التي ركبها فيكم يابني آدم ، وأهبطنا إلى الأرض ، وأمرنا أن نحكم بين الناس بالحق ، ونهانا عن الشرك والقتل بغير الحق ، والزنا ، وشرب الخمر .. فأما عزرائيل فانه لما وقعت الشهوة في قلبه استقال ربه ، وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه ، وسجد أربعين سنة ، ثم رفع رأسه ، ولم يزل بعد ذلك مطأطئاً رأسه حياء من الله تعالى ... ألا ما أسعده ! ألا ما أسعده !

— وأنتما ياهاروت ، ماذا أصابكما ؟

— كل صغير وكل شر يخطر أو لا يخطر على قلوبكم أيها البشر ! لقد لبثنا شهراً أو نحوه نحكم بين الناس بالعدل ، فاذا أمسينا ، ذكرنا اسم الله الأعظم وصعدنا إلى السماء . ثم افتتنا بعد ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

— وكيف ؟؟

— لشد ما أخجل أن أذكر لك !

— لا عليك فقل !

— اختصمت إلينا يوماً امرأة مفتان يقال لها ناهيد[1] ، فما كدنا نراها حتى أخذت بقلبينا ... فـ ... فراودناها عن نفسها فأبت وانصرفت ؛ ثم عادت في اليوم الثاني ففعلنا مثل ذلك فقالت : لا ! إلا أن تعبدا ما أعبد ، وتصليا لهذا الصنم ، وتقتلا خصمي الذي شكوت إليكما ، وتشربا مي من هذه الخمر . فقلنا لها : لا سبيل إلى هذه الأشياء فان الله قد نهانا عنها . فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من الخمر ، وفي نفسها من الميل إلينا ما فيها ، فراودناها فأبت ، وعرضت علينا ما قالت بالأمس ... فنظرت إلى أخي ماروت ونظر أخي ماروت إلي ، وقلت له وقال لي ، ثم قلنا : إن الصلاة لنير الله أمر عظيم ، وقتل النفس أمر عظيم كذلك وأهون الثلاثة شرب الخمر ، فشربت لا هنيئاً ، وشرب أخي ... وشاعت فينا محبتها فطمس الله بصائرنا ، وارتكبنا كل الآثام التي نهينا عنها !

ولما بلغ هاروت من القول هذا الحد أخذته برحاء العذاب فصرخ وصرخ ماروت مثله ، ولبثا في ألم وتبريح ساعة كان فوزان يصلي من أجلهما أثناءها ، فلما فاء وصل هاروت حديثه فقال :

— أرأيت يا أخانا ما صنعت الخمر بنا ؟ لقد قلنا مثلك إنها أهون الشرور فحسوناها فأوقعتنا في جميع الشرور ، فاحذرها ، ولتكن لك فينا أسوة

— إي وربي لن أذوقها بعد الليلة قط . ولكن

(١) هي فينوس اليونانية . وناهيد هو اسمها الفارسي . والزهرة اسمها العربي .

حدثني عفا الله عنك يا هاروت، كيف آل أمركما إلى ما أرى ؟

— حاولنا أن نصعد إلى السماء بعد إذ أغتنا إثمنا فلم تطاوعنا أجنحتنا ... وحقت علينا لعنة الله بما زينا وعبدنا من ناهيد وقتلنا رجلا منكم رآنا ونحن نصنع أولئك تخشينا أن يشهد علينا فيفضحنا ، كأنما نسينا أن الله كان معنا وهو بكل شيء محيط !

— ثم ...

— ثم شق علينا ما حل بنا ، وكان إدريس نبي الله على مقربة منا فتوجهنا إليه ، وقلنا له : يا إدريس : إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى الله ... وشفع لنا إدريس ، وجاءه الوحي يخيّرنا بين عذاب الدنيا نحتمله ونصبر عليه ، وبين عذاب الآخرة يكون سرمداً ... فآثرنا عذاب الدنيا لأنه ينتهي ، ولأنه أخف وأهون

— أوَهذا الذي تسمونه أخف من عذاب الآخرة وأهون ؟

— وماذا رأيت من عذابنا ؟ أواه لو رأيتنا نعذب بسياط زبانية كزبانية جهنم ، أو لو رأيتنا نرجم بحجارة مُسوَّمة وشواظ من نحاس !

— وناهيد يا هاروت ! ماذا كان من أمرها بعد ذاك ؟

— وا أسفاه ! ! لقد علمناها الاسم الأعظم فصعدت به إلى السماء فمسخها الله كوكباً كما غرب انشق بطن بابل علينا كما ترى !

— خفف الله عنكما يا صاحبيّ وعفا عنكما ... ولكنكما كنتما تعلمان الناس السحر ، فما ذاك أنابكما الله ؟

— كنا نفعل ، وكنا نحذر الناس مما نعلمهم وتقول لهم : (إنما نحن فتنة) ، بيد أنهم ما كانوا يسمعون ، وهل سمع الناس إلى ما أنام على رسل الله ؟

— كلا والله إلا الأفاكون ! ولكن يا صاحبيّ ، نشدتكما الله إلا ما علمتماني مما علمكما الله ؟!

— آه يا هالك ! وأنت مع ذاك تحفظ كتاب الله وقد رأيت ما نحن فيه ؟ !

— علماني نشدتكما الله !

— كلا ! بل أفت تنشدنا الشيطان ! إذن فاجلس نعلمك ما يعصم الله به ظهرك في الدنيا والآخرة ...

***

وما كاد يفعل حتى زلزلت بابل زلزالها ومادت أحجارها ، وأطبقت الأرض على هاروت وماروت . وفرك الشيخ فوزان عينيه وهو ينظر إلى القمر ، ثم قبض على الزجاجة وخبط بها رأس تمثال فهشمت وأخذ نايه فحطمه ، وعاد إلى زورقه ، وتوضأ من الفرات وصلى لله ، وأقسم ليكونن أزكى خلق الله ، وأن يهجر الخمر والسحر ... وقد فعل

دريني خشبة

تحت الطبع :

حيـــاة الرافعي

للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة ، أو إلى المؤلف بعنوانه :

شبرا مصر . شارع مسرة رقم ٦

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً

خمسة أعوام في عذاب

عن الإنكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

ليس فى وسع إنسان مهما يكن شعوره بالفضل وبالترفع أن يفاخر بأنه لا يميل بالمزيات وبدوافع الشر أو بأنه يحتقرها . فالانسان لا يعرف كم تتغير نفسه تحت أحكام المؤثرات

وإنى لأروى على سبيل الاستشهاد على صدق هذه النظرية القضية الآتية التى سمعتها من أحد رجال البوليس السرى فى لوندرا

ماتت زوجة تاجر غنى لم يكن له إلا ولد واحد فتزوج من أرملة فى منتصف العمر . وكان ابنه شاباً فلم يرض عن هذه الزوجة . وكان يشتغل فى غير المدينة التى فيها أبوه فامتنع عن مهاسلته بعد هذا الزواج . ولكن الأب كان راضياً بهذا الثمن وهو غضب ابنه فى مقابل تلذذه هو واستمتاعه مدة العام الذى بدأ بالزواج وانتهى بوفاته

ولأسباب لم تظهر قط كان الجزء الأخير من هذا العام كله ريبة وسوء ظن ودسائس فى هذا البيت، لأن الخدم الثلاث كن يرتبن فى مقاصد الزوجة . وكانت أقدمهن وقد قضت فى خدمة المنزل بضعة أعوام تمد نفسها فى موضع الجاسوس على كل أعمال الزوجة . وقد كانت تنصت فسمعت زوجها يتوعدها عدة مرات بأن يشير الوصية ويحذف منها اسمها بتاتاً . فكانت تحييه بأنها تحمد الفقر أخف عبئاً من معاشرته على وفرة غناه . وكانت تلك الخادم تستدعى زميلتيها ليسمع ثلاثتهن مثل هذا الوعيد . وقد فهمن جميعاً علة الخلاف بين الزوجين فلما مات الرجل انتظرن أن تكشف الوصية لهن عن جلية أمر الخلاف . وقد كانت دهشتهن عظيمة عند ما جاء المحقق وتبين أن الوصية تحرم ابنه من الميراث وتعطى الزوجة ألفى جنيه فى كل عام وهى كل إيراده طول حياتها

وكان من الطبيعى أن تشعر الزوجة بالراحة والاطمئنان عند ما صارت مالكة لهذا الإيراد . وزالت الحزازة التى كانت تشعر بها أيام حياته . وبعد يومين من الوفاة جلست أمام مكتبها تكتب الردود على التعازى . وقد فرغت سريعاً من هذا الواجب ثم أخذت تقلب أوراق زوجها وهى لا تزال مبتسمة. ولكنها لم تكد تقرأ اثنى عشر سطراً حتى قطبت وعبرتها رعشة، لأن الذى كانت تقرؤه إنما هو النص الأخير لوصية زوجها ؛ وهو يحرمها كل شىء ويهب تركته كلها لابنه . وكان تاريخ هذا النص قبل أسبوع واحد من الوفاة ، وعلى الوصية توقيعات شهود من الأحياء . فجلست تفكر فيما سيؤول إليه أمرها لأن البقية الباقية من ذلك العمر ستكون حياة فقر مدقع . ولذلك كان الاغراء الذى تجد نفسها تحت تأثيره قوياً جداً ، فهو ليس بين الشرف وبين انعدامه ، ولكن بين الغنى وبين الفقر . وكان عمرها إذ ذاك خمسين عاماً وهى لا تستطيع الكسب بوجه من الوجوه . ورأت أنه إذا لم يكن أحد ليذيع أمر هذه الوصية فلماذا لا تلزم الصمت ؟

وحملت الوصية فى يدها ومشت إلى الموقد ولكنها وجدته خالياً . وكانت من قبل ذاهلة عن ذلك وعن

2017-11-1

أن الليل كان قد انتصف . وكادت تمزق الوصية ولكن الخادم فى هذه اللحظة دخلت ووقفت واجمة فسألتها : « ماذا تريدين ؟ »

ابتسمت الخادم ولم تجبها فقالت : « ما الذي تعنين ؟ »

قالت الخادم : « أراك ياسيدتى الآن منزعجة كأنك قد رأيت جنيًّا »

حاولت المرأة أن تضحك ولكنها لم تستطع . وقبل أن تتحرك أية حركة كانت الخادم قد اختطفت من يدها الورقة التى ستتركها فى فقر مدفع فصرخت تلك صرخة يأس ، وحاولت أن تسترد الوصية

وعلى الرغم من التفاوت فى السن فان الخادم كانت أقوى المرأتين فاستطاعت التغلب على سيدتها . وتلت الوصية فى هدأة ثم قالت بعد الفراغ من ذلك : « لقد فهمت الآن »

قالت الأرملة : « لقد وجدت هذه الورقة منذ دقيقة فقط وأردت أن ... » فقالت الخادم مقاطعة : « أردت أن تحرقيها لو كان فى الموقد نار »

ثم مضت فترة صمت قالت بعدها الخادم : من حسن حظك أنى أكره المستر وليم ابن سيدى المرحوم فانا سلكت مسلكاً حكيماً فانه لن يعلم أحد بأمر هذه الوصية »

سمت المرأة هذه الكلمات فانفلجت صدرها لأنها كانت شديدة الخوف من الفقر ، فاستدعت الخادم وأجلستها بجانبها وعرضت عليها اقتسام الثروة بينهما وأن تدفع لها ألف جنيه مقدماً .

فلما تم الاتفاق على ذلك قالت الأرملة : «والوصية؟ هل تمزقينها؟» فقالت الخادم: « كلا بل ستبقى معى إلى الأبد »

ورأت الأرملة أن خادمتها لا تقبل المناقشة فى الأمر فأذعنت . ومن ذلك اليوم أصبحت الخادم هى السيدة الحقيقية فى المنزل ، فبدأت بطرد سائر الخدم واختارت آخرين . وكان ثانى عمل أتته أن أحضرت ابنها إلى المنزل وأطلقت عليه لقب السكرتير لتلك الأرملة فكان يلازمها فى الصباح وفى المساء

***

صارت الحياة مؤلمة فى نظر السيدة لأنها أصبحت تشعر بعد إخفاء الوصية بأنها ارتكبت جريمة منكرة وبأنها باتفاقها مع الخادم قد وضعت نفسها فى مركز ذليل . ولكنها احتملت حالتها خمسة أعوام فى صمت؛ وفى يده العام السادس ذهب الخدم ليقدموا الشاى إلى كبيرتهم التى يعرفون أنها السيدة الحقيقية فعادوا يصرخون ويعلنون أنها ماتت

وظنت الأرملة أن الحظ عاد إلى الابتسام ؛ ولكن سرعان ما أخفق أملها لما أمرت ابن تلك الخادم بأن يترك خدمتها فتذكر لها وهددها باظهار الوصية .

ولما رأت أن حالة الذل ستبقى كما هى بل ستزداد لأن خضوعها لهذا الرجل سيكون أشد إيلاماً لنفسها من خضوعها لأمه ـ لما رأت ذلك ملكها اليأس وذهبت إلى إدارة البوليس . ولكن جعلها بالفانون جعل رجل البوليس يضحك منها لأن الوصية التى تخشى شرها قد بطل مفعولها بعد وفاة ابن زوجها عن غير وارث وأصبحت هى من تاريخ الوفاة مالكة للتركة .

كانت إذن فى الأعوام الثلاثة الأخيرة تقبل الذل خشية من ظهور وصية تجعلها هى المنفردة بالمال .

عبد اللطيف النشار

2017-11-11

الشريدان

لِلكاتب الفرنسي جوستاف جيفروا

بقلم الأستاذ محمد عبد اللطيف جمعة

تزوج كنزلو الكتبي في شارع فيكتور هيجو بمدينة ليون من آديلايد مانجتو ، وقبض باثنة قدرها مائة ألف فرنك ووضع يده على المكتبة . وكان مسيو مانجتو والد العروس من أغنى الوراقين وأشهرهم ، يتجر في المطبوعات القديمة ، ويحتكر كتب التعليم المقررة في الجامعات والليسيه، وكانت ابنته آديلايد وهي وحيدته ، على جانب من الجمال والرشاقة وهي وارثته دون منازع ، فلم يختر لها سوى صبيه كنزلو ، الذي حذق بيع الكتب ، دون أن يفتح واحداً منها ، ولم يخطر بباله يوما أن يستطلع السر في إقبال الشيب والشبان على شراء تلك الأوراق المخزومة المنلفة بمبالغ طائلة ، فكان يحسد سيده ويسخر من جمهور القارئين ، إلى أن شب وأدرك أمور الحياة ، فأخذ يغالي في الأثمان ، ويحسن البضاعة للهواة ومدمني القراء والطلاب حتى وثق سيده بمهارته وأمانته ، فأطعمه وكساه ووهاه إلى داره وقدمه إلى بنته وزوجته ، ثم عقد على الصبي والبنية وخلّف التجارة وزحزح إلى قرية شاربونيير ، حيث ابتنى قصراً ؛ وبدأ يعيش عيشة راضية بين الأزهار والكتب النادرة ، يقلب صفحاتها ولا يدري ما فيها ، ويمرضها لوارثيه مكتسباً فخر اقتنائها .. إلى أن مات وعلى صدره نسخة ثمينة من العهد القديم .

وبدأ كنزلو حياة البخل التي شرعها حموه وسلفه الصالح ، فكان ينازع زوجته رغبة النسل ، ويلجأ إلى شتى الحيل ، خشية أن يرزقا أولاداً يهلكون الحرث والبضاعة ، ولكنه مع كل ذلك رزق منها بولدين : فتى وفتاة . فلما شبا قليلاً بثت بهما أمهما — التي احتفظت في عقد الزواج بحق التفريق بين البائنة وصميم المال الموروث — إلى مقاطعة لوسرن بسويسرا ، ليثقفا في خفاء عن والدهما الذي كان يقتله الهم لو علم أنهما يتكلفان مائتي فرنك كل شهر وهو ثمن مجلدين من أمهات كتب الطب الحديث ... ولأجل أن تصون الأم روح زوجها البخيل من التلف أخبرته أنهما يعيشان عالة على أقارب لها فأثلجت صدره ونام مطمئناً على مال غيره ، تلك الليلة . وفي أحد الأيام من فصل الربيع صمد جورج كنزلو الصغير مع أخته لورا إلى أعلى البرج القائم وسط قصر لوسرن ، للمرة الأولى منذ أن قدما من بلدهما إلى تلك البقعة الجبلية الفاتنة ، فذهل لما رآه من بساط سندسي يحيط بالقصر من كل ناحياته ، تليه هضاب ووهاد ، من ناحية ، وغابات من الناحية الأخرى ، فصاح بأخته الصغيرة لورا قائلا :

— أختاه الصغيرة ! أختاه الصغيرة ! تأملي الأرض حولنا

وكانت حاسة الجمال قوية في الطفلين ، وكان الولد على خلاف والده وجده عباً للكتب يقرأها ويحملها إلى فراشه وعلى مائدة طعامه ويتيه بها . فأجابته أخته لورا وكانت تحب الجمال في كل شيء :

— إنها جد كبيرة تلك الأرض يا أخي الصغير

2017-11-1

فقال جورج : لقد أخبرنى أستاذى بذلك ولكن مربيتى أدلفايس قالت لى أنظر بنفسك قبل أن تصدق ، الاختبار مقدم على السماع والقراءة. فقالت الفتاة لورا : ما أقسى أن يكون العالم كبيراً جداً هكذا ، فقد يضل المرء سبيله أو ينفصل عن أحبائه ، إننى أحب أمى وأشتاق إليها . ولكن أبى ... ماذا أقول ؟ لم لا يسأل عنا ولا يزورنا ؟

فتجاهل الولد ذكر أبيهما وأجاب: ما أبهج أن يكون العالم متسعاً فسيح الأرجاء ، فيستطيع الانسان أن يتأمل ويبحث عما وراء الأفق ويقارن بين مايقرأ فى الكتب وبين عالم الحقيقة ، ووراء هذه الألوان البنفسجية ! أختى لورا ! إنى سأفتح كل هذه الجبال وأصل إلى نهاية هذه الدنيا ...

— وما هذه الحجارة الملقاة بجانب الروة الخضراء؟ فتفهقه أخوها قائلا : هذه منازل يا أختاه، أفلا تعلمين حدود لوسرن ؟

فسألته فى سذاجة :

— وما هذا الجرى الذى ينساب كالأفعوان ؟

— إنه النهر ! أنظر إلى الجسر الحجرى الجميل !

وقبل أن يتم كلامه قالت وهى تشير نحو الأفق :

— أخى ! أخى ! أنظر ، أنظر يا هذا الذى يضىء فى جانب الجبال الزرقاء كصفحة من البلور الأزرق ؟ فأجاب : هى البحيرة التى حدثتنا عنها مربيتنا ادلفايس ، محذرة إيانا من مائها الخطر الجميل ومن الحور الحسناء — عرائس الماء — اللاتى يسكن فى خفاياها ويخطفن الأطفال . فأجابته فى تصميم وحزم : فلنذهب إليها ! وكأنما ارتاع الصبى من قولها ، ففغر فاه وصاح بها محذراً ... وكان جميلا فى خوفه وتهديده

— لقد أمرتنا « ماما » ألا نخرج منفردين ، فكيف بنا نجسر على الذهاب إلى أقصى المسورة ؟ فصرخت فيه لورا: ها أنت ذا لا تريد أن تذهب معى ومع ذلك فأنا لا أجرؤ على فتح الأرض ، ولا أطيع فى الوصول إلى أقاصى المسورة مثلك . سأذهب وحدى إلى هناك ، وبدرت من الطفل ضحكة سخرية زادت فى حدة الفتاة فنادت من أعماق قلبها:

إضحك ما شاء لك الضحك ! فسأذهب وحدى أكشف عن المياه الهادئة الوديعة وأرى حورياتها الجميلة ، بينما تجلس أنت فى عقر الدار تلاعب الدمية الصغيرة كطفلة يائسة ؛ وكأنما أطربت هذه الكلمات نفس الطفل الصغير ، وأذكت فيه روح الحماسة ، فصاح صيحة الواثق : فلنذهب إلى البحيرة ولنتحفظنا الحوريات !

***

وفى أصيل اليوم التالى بعد أن آوت المربية إلى حجرتها هرع الطفل إلى أخته وناداها قائلا : هيا بنا ! هيا بنا ! فأجابته فزعة :

إلى أين؟ فأجابها وهو يجذبها لتتبعه رغم تمنعها: « صه صه ! سنذهب إلى البحيرة ... »

— ولكن كيف نذهب بعيداً دون إذن ؟ انظر إلى حذائى الحورى الناعم ! هل يجوز أن نذهب ؟ ثم تراها تمانع وهو يصر ، ألم تمنعه بالأمس عند ما أشفق من الذهاب معها ؟ ألم تنعته بالطفلة اليائسة تلهو بدميتها ؟ وإنه يكيل لها الآن الكيل

مرتين ، والضياع ساعين ؟ فلتذهب معه ، رضخت أم لم ترضخ ، وافقت أو لم توافق ! ووافقت الطفلة فى تحفظ قائلة : فلنذهب من طريق غير طريق القرية ، خوفاً من أن يرانا أحد فتسوء العاقبة

وتولى أخوها الشرح والايضاح « سنتبع فى سيرنا طريق « جرنشن » الذى يدور حول القرية من الناحية الأخرى »

وسارا فى طريقهما بينما أخذت الصغيرة تجمع زهر البنفسج الساحر ، وزهر الثالوث من أبيض وأحمر ، تريد صنع باقة جميلة تهديها إلى حوريات البحيرة ، وشاركها أخوها فى العمل فى نشاط واهتمام وقد زال خوفه وحذره

وأجهدت الفتاة نفسها فى المسير إلى أن وقفت إعياء وقالت : أخى إنى عطشانة ! فأجابها وهو يلهث : وأنا كذلك ، غير أن النهر مازال بعيداً ولا أرى فى هذه الجهة مجرى ولا نبعاً

— والآن ما العمل ؟

وما زالا فى حيرتهما حتى رأيا فلاحاً قد أقبل من بُعد ، يحمل سلة فاكهة من العنب الأحمر الشهى ، وبإشارة حسن خطبها أن يكون مع الفتاة جنيه ذهباً ذو بريق يخطف البصر ، وأن يرضى الرجل إعطاءها بعض العنب فى مقابل الأصفر الرنان .

وسار الطفلان يتمتعان بالتهام الحبيبات الحمراء البديعة ويلقيان البذور ذات اليمين وذات الشمال ، وأخذت أشعة الشمس الذهبية تميل وراء الأفق البعيد ، بينما أخذ النسيم العليل يهب مداعباً شعر الفتاة فى رقة وفى حنان . وسار الطفلان يحوطهما سكون رهيب ، وصرخت الطفلة « لقد فقدت حذائى ، حذائى الحريرى الناعم ، فكيف أواصل السير بقدم حافية ؟ وتلفتت خلفها فظهرت قلاع لوسرن من بعيد كنقطة سوداء بين السحاب والغمام فارتاعت الطفلة ، وصاحت واجفة :

رباه ! سوف تأكلنا الذئاب العاتية ، وسوف تموت أمنا من اللوعة والأسى علينا . فضحك جورج وهو يقدم لها حذاءها الذى التقطه فى غفلة منها .

— لاتخشى بأساً يا أختى الصغيرة ! ! ستعود ثانية قبل هجوم الليل . . قالى الأمام ! هيا !

* * *

وعادا بعد بضع سنين إلى ليون ، وأظهر جورج نجابة فى الدرس والفهم أدهشت السارقين بجعل أبيه وغباءه وبلادته ، وعللوا ذلك بالرجعى فى قانون الوراثة ، فقد تفوق الفتى فى الآداب والفلسفة ونظم الشعر حدثاً ، وأمسى موضع ثقة أساتذته وإعجاب رفقائه ؛ وظهر نبوغ لورا فى الموسيقى . فلما شباعن الطوق وأدى جورج الخدمة العسكرية ، ماتت الأم ، فوضع الوالد البخيل الجاهل يده على التركة ، وأظهر من الشح فى النفقة والتعليم ماقطع على الفتى وأخته طريق العلم والتثقيف . وحتم كنزلو على ولديه أن يلازماه فى المكتبة للبيع والشراء ولقاء العملاء ، فكانا يأنفان أن يراهما زملاؤهما فى الدرس أو يتحسر الأساتذة على نبوغ جورج وجمال لورا اللذين يريد الوالد وأدها بين جدران المكتبة العتيقة المظلمة فى ظلال براثن شارع

فيكتور هيجو . ولم يكن كنزلو يشعر بشيء من ذلك ، بل كان أبخل من خلق الله وأخبث من خلق الله، وكان له في البخل كلام معقول، ومنطق موزون ، ومبادىء ثابتة ، فقد رأى موسيو كامبير عميد كلية الحقوق مرة في اكتوبر وقد بكر البرد شيئاً ، والعميد شيخ كبير طاعن في السن ، فلبس كساء له مبطناً بفراء خفيف ، قد نيل منه ، بعد أن صحب لابسه عشرين عاماً .

وكان انقطع عن شراء الكتب فلا يضير الوراق أن يهيج فيه غريزة الحرص على المال فقال له : « عم صباحاً ياسيدي العميد ! . ما أقسى السرف بالعاقل العالم ، وأسمج التبذير بالحكيم ! ماظننت أن الاحالة على المعاش والانسحاب من حياة الجامعة يبلغ بك ما أرى ! فدهش العميد السابق وقال : وأي شيء أنكرت منا منذ اليوم يا موسيو كنزلو ؟ وما كان هذا قولك فينا بالأمس . فقال :

— لِبسك هذا الكساء قبل أوانه ، فقال العميد : « قد حدث من البرد بمقداره ولو كان هذا البرد الحادث في يوليو أو أغسطس لكان إبانا لهذا المعطف ، فليست فصول السنة بأوراق التقويم تعرف ، ولا بتواريخ الأيام تقاس ، ولكنها بشعور الأذكياء الذين خلقهم الله وسواهم بنير ريش ولا لُبد ، ولا جلود سيكة كالفسور أو السباع » قال كنزلو : «إن كان ذلك كما تقول، فاجعل بدل هذا المعطف الثخين البطن بالفرو كساء أسمر ، لا يخترقه البرد ، بثلاثين فرنكا من مستودع « ألف صنف » فانه يقوم هذا المقام ، وتكون قد خرجت من الخطأ فأما لبس الصوف والفرو اليوم فهو غير جائز فقال العميد : ولِمَ ؟ قال الوراق كنزلو وهو يرجف غيظاً من سرف الشيخ ويود لو يحجر عليه للسفه ؟ ولكنه كظم غيظه لأن غبار آخر الصيف يتداخله ويسكن في خلله ، فاذا نزل المطر ، وندي الهواء وابتل كل شيء ، ابتل ذلك الغبار ، وإنما الغبار تراب ، إلا أنه لباب التراب ، وهو مالح ينقبض عليه الفرو والصوف فيأكلهما أكل الأرضة ويعمل فيهما عمل السوس في الخشب والصدأ في الحديد ! فضحك العميد كامبير ، ونظر حوله وقال وهو يسرع إلى الطريق :

— حقاً إنك لم تتجر في كتب العلم عبثاً ... لله ما أوسمك ! أنت وبإستير فرساروهان ! أفهذا أعملت تسليم ولدك وتثقيف ابنتك ..؟

فبرز جورج لأبيه بعد أن انصرف العميد وقال:

— ماذا دهاك يا والدي حتى تعترض الناس في أخص شؤونهم ؟ أتحرم عليه الدفء بثيابه وهي ملكه وقد عتقت وبليت كما شارف صاحبها على الهلاك ؟ وأنت الذي تخشى البرد وتصطك أسنانك في مقتبل الشتاء ؟ فقال الوالد : أنا أخشى البرد ؟ حبذا البرد من طقس ونعم الشتاء من فصل ، فانه يحفظ رائحة الطعام الثابت ولا يحمض فيه التبيذ ، إن ترك مفتوحاً ، ولا يفسد فيه مرق أن يبق أياماً ، وتطرح الحكومة مدافئ للناس في الطريق ويشيع بيع القسطل الساخن وهو أرخص غذاء وألذه وأسهله ، ولا يسألك الناس عن تقصيرك في النفقة إذا لم تذهب إلى ملعب الأوبرا ، محتجاً بداء المفاصل

2017-11-11

والزكام والسعال ورغبة الكرى، وتدفأ الكنائس بأنابيب البخار فلا تشعر بالصقيع أيام الأحد ونستغنى عن معاكسة الفحامين، ومشاحنة الحمالين، ولا نحتاج أبداً إلى الحشب والورق، وفى الشتاء أطلح فى المران على الجوع، فلا أشعر أثناء الربيع بالسغب فمن صبر عن الطعام شهراً بارداً، استطاع أن يصبر بقية أشهر السنة.

قال هذا وهو يفرك يديه منهللا كمن انتصر فى معركة.

ولما طالت العزوبة على هذا البخيل، خطب لنفسه مدام دولاك الحلوانية التى كانت تغض الطرف عن اختلاس فطائرها، فيأكل منها سبعاً ولا يحاسب إلا على أربع، تريد أول الأمر مصاهرته، فبادر إلى خطبتها آملا أن يلتهم مالها وفطائرها، فلا يفتقر ولا يجوع فى ظل تلك الأرمل الدسمة. فلما غضب الوفدان من زيجة أبيهما وتخيلا أن هذه الدرديس السمجة ستحل محل أمهما أنكرا على أبيهما فعلته، فباع الأثاث بالمزاد وانتقل إلى بيت زوجته الجديدة وفرض لولديه نفقة ضئيلة، فلم يطيقا المعيشة ولم يجرآ على محاسبته أو مقاضاته، واختفيا من وجهه، واتخذ كل منهما سبيله فى الأرض هرباً وقد فرقهما النفر والقسوة، بعد أن جمعتهما الثروة والحنان، وحمل الفتى بعض كتبه وثيابه وحلت الفتاة حليها الموروثة وحللها وقيثارتها ولم يسأل أحدهما الآخر أنى يولى وجهه .. فضرب الدهر بينهما.

***

فى حديقة لوكسمبرج على مقربة من متحف الفنون الحديثة وعلى مرمى حجر من مستشفى « شارنييه » كان شاب جالساً على المقعد الطويل ينتفض من البرد ويتلوى من السغبة وكأنه يعانى سكرات الموت، يكاد شناف قلبه يتمزق، وكادت أطرافه تذوب، وقد علت الصفرة وجهه والزرقة أظافره، وأحس بأن عظام بدنه تتفتت، وكان البرد شديداً فى ذلك المساء من شهر ديسمبر فسرى إلى ذهنه الذاهل خاطر سريع.

— لماذا لم يدركنى الموت منذ ساعات، بل منذ أيام وأشهر طوال؟ أفى الانسان تلك الحيوية القاهرة؟ أم إن الأعمار محدودة كما يقول مارك أوريل فى تأملاته ... ؟ وهل الحظ العاثر يتنير ويتبدل بتبدل حركات النجوم، كما يزعم إبيكتيت؟ ألا إن الحظ السعيد لن يدركنى ولو أطلق ساقيه للريح! إن نهايتى قريبة ... وعلى غرة منه وهو سابح فى أحلام شقائه، لا يذكر الماضى، ولا يملك أن يعرض حوادثه، ولا يرى شعاعاً من نور المستقبل، وينتظر انسدال الليل ليتمدد على خشبة المقعد لعلها تكون الرقدة الأخيرة، سمع وقع أقدام مقبلة نحوه فبشر نفسه بمقدم الشرطى الذى سيقوده حتماً إلى قوميسير البوليس، فغرفة السجن الدافئة، فان السجن أحب إليه من الحرية، لأن الحكومة أشفق عليه من القدر، ودنا منه سواد وسوت ولكنه لم يرفع رأسه ليتبينهما وسمع صاحب الصوت يقول:

— هل تتألم من الجوع والبرد؟

فقال: البرد والجوع من شأن من يشكوهما

وحده ، فاذهب عنى بسلام أو اقبض على إن كنت شرطيًا ، فانى متشرد لا مال لى ولا صنعة ولا مأوى ، أو اتركنى أذهب إلى جهنم إن كنت قسيساً

فأجاب صاحب الصوت ، وهو يلمسه بلطف بيد كريمة :

— لست شرطيًا ، ولست قسيساً ، ولكنى أستطيع أن أنقذك من الجوع والبرد والألم والوحدة فنحن أفراد جمعية البر بالطرداء ، نجوس خلال الحدائق العامة ، ونغرق تحت الجسور ، فنفرج بهم ونسيهم ما استطعنا . وليس البر من سلب مالى ، ولكنه بعض الدين الذى فى أعناق المجتمع يسدده لكم أقساطاً ضئيلة على أيدينا ، فهل تقبل ما أعرضه عليك وتبنانى على أداء واجبى نحوك دون أن أسألك عن شخصك أو أصل بلائك ؟

فأحس الشاب بأنه مقود إلى صاحب الصوت الهادئ واليد اللطيفة الكريمة ، ولكن البرد والجوع قد أثقلا أعصابه ، حتى غشيت بصره سحابة ، واختلج صوته فى حنجرته ، وخانته رجلاه وهو يحاول النهوض ليتبع المحسن مستسلماً ، فأى بلاء يخشاه بعد الذى هو فيه ؟ وما خوف الشريق من البلل ، والمحترق من مستعمر الشرر ؟ فلا حذر اليوم ولا وجل ، ولا رضى ولا أمن ، فقد استوى لديه الماء والخشب ، والبغض والحب ، وتكافأت فى عينه محاسن الدنيا ومساوئها !

فلما نهض ارتجف وكاد يقع على الأرض ، فأسندته يد كريمة . فقال الشاب كمن يفيق من غيبوبة :

— هل البرد شديد ؟

أجاب صاحب الصوت : نعم وإنه لشتاء قاس

قال : «يخيل إلى أننى سمعت رجلا يقول : « حبذا البرد من طقس ، ونعم الشتاء من فصل ، فانه يحفظ رائحة الطعام ، ولا يحمض فيه النبيذ إن ترك مفتوحاً ولا يفسد فيه مرق إن بقى أياماً ، وتطرح الحكومة... أختاه هذا هو حذاؤك الحريرى الناعم ... » . ولم يكمل كلامه بل سقط على الأرض ، فظنه المحسن ميتاً فحمله على ظهره إلى أقرب سيارة ، وهو يجس نبضه ، ويفرك صدره ... وفتح الشاب عينه بعد ساعتين وهو يحس بالدفء والحياة ورائحة الطعام تهب على وجهه ، فطلب إليه أحد الخدم أن يدخل الحمام قبل الطعام ، وأن يترك ثيابه ليلبس سواها جديدة ؛ ولما أكل ونام ويقظ لم يسأله أحد عن شخصه وتركوه أياماً حتى استعاد قوته ونشاطه وعرضوا عليه أن يتعلم صنعة من الصناعات الرفيعة كالتصوير أو الموسيقى أو إحدى الحرف النافعة كصنع الأثاث أو النسيج الراقى ، فاختار التصوير واجتهد فى إتقانه ، ولكنه كان يقضى معظم وقته فى المكتبة ويحمل كتباً لا يفارقها ، وعبثاً حاولوا أن يقصوه عن القراءة حتى يحسن فنه فيربح منه مايعينه على هوايته . وكانت أيام الشتاء قد ولت وعاد الربيع بأزهاره وأطياره ، وعاد الشاب إلى كتبه وأشعاره ، إلى أن انتهز فرصة ، فاستأذن فى الخروج ، ولم يعد إلى الدار ، بل عاد إلى حياة التشرد حياة مفاوكة طليقة من كل قيد واتخذ له مجلساً ومقراً فى بارك مونسو على مقربة من تمثال جبي دى موبسان ، ذلك

2017-11-11

الكاتب الذى أحبه فى صغره فكان يأنس إلى تمثال أقيم هناك لتخليد ذكرى ذلك الكاتب الذى شغف بقراءة كتبه فى عهد صحاه الشقاء من ذاكرته ، ولم يقو على محو روح هذا الكاتب من لوح فؤاده المعذب ، فقد صنع له المثال صورة امرأة من نساء باريس فى آخر الزمن ، ونهاية هذا العصر ، مضطجعة على « شيزلونج » ومتكئة برأسها الجميل الذى يشبه رؤوس عصافير الجنة ، على معصمها الفاتن ، وفى يدها الأخرى كتاب كانت تقرأه ولعله « قصة حياة[1] » وإلى جوارها عمود من المرمر نصبوا فى أعلاه تمثال جيدى موبسان فى الأربعين من عمره ، وهى السن التى مات فيها نزيل مصحة دوكتور بلانش ، وقد كان هذا التمثال فى أول أيام الربيع مدعاة لتفكير الشاب وتأمله ، فان المرأة الرافدة فى يقظة النسمان ، وإن كانت من المرمر الملون ، إلا أنها ناطقة بشرات المعانى ، التى لا يدركها إلا من تذوق حياة باريس ووقف على الصورة العجيبة التى أودعها المؤلف كتبه ، سواء أكانت القصص الطوال أم الروايات القصار ، أم النوادر الصغيرة « الناليّة[2] » امرأة فى مقتبل العمر وروعة الجمال عليها كل مظاهر الفتنة والحيرة أمام لغز الحب والحياة ، وكأنها تطلب حل هذا اللغز ، من ذلك الكتاب الذى تقلب فيه أجفانها أثناء تقليب صفحاته ، تقرأ بعينيها وعقلها وقلبها ، هناك بعيداً جداً تتبع رجلاً فى خطواته وتسأل نفسها عن وفائه وخيانته ، أهى مهجورة فى مضجعها ، أم منتظرة حبيبها ، أم يائسة من لقائه ، أم تائبة بعد أن اكتوت بنار الحب اللاذعة ؟

فكان الشاب يجلس حيال هذا التمثال فى وقت الأصيل وبين يديه كتاب ، وفى لحظة يستعرض حياته ويحار فى مصيره ، ولكنه كان يقضى النهار متسكعا لا عمل له . كل ما يملأ ذهنه تلك الطيور المغردة المتنقلة بخفة أجنحتها بين الأغصان ، ثم مناظر الطبيعة فى موسم الربيع الساحر ، فى تلك المدينة الباهرة الجمال . وكان أحيانا يقصد إلى بعض المتاحف والمكاتب فيسلخ فيها بعض ساعات النهار ثم جاء الصيف وهو سريعاً ... ثم جاء الخريف وعادت السماء إلى الوجوم والتلبد بالغيوم وبدأت أمطار باريس تهطل مدرارا ، والبرد يتضاعف ويصبغ أفكاره بالسواد . أين يجد حياة تقيه متاعب الشتاء ... خطر له أن يبيع الكتب القديمة على ضفة النهر ... وأثناء تفكيره كتب قصة عن حياة طفلين ، ونظم قصيدة فى حنان الأم وبعث بهما إلى جريدة «الماتان» لأنه تفاءل باسمها ، أليس كل الخير والبركة والبشاشة فى البكور والبكور فى الصباح ؟

وجعل عنوانه مكتب البريد يشارع بونتيه ، لقربه من بستان مونصو ، حيث تمثال مؤلفه المحبوب . ولكن الجريدة لم تستجب له ، ولم يشتر أعدادها بانتظام ليرى قصته وقصيدته . وضاقت الدنيا فى عينيه من جديد ، وندم على أنه ترك بيت المحسنين الذين أنقذوه أول مرة وخجل أن يطرق بابهم ،

(١) قصة Une vie من أشهر كتبه

(٢) Histoire gauloise قصة فيها مجانة وخلاعة نسبة إلى بلاد « الغال »

2017-11-11

ولعله نسي مقرعم ، فهل يترك نفسه للموت البطيء وكان في العالم النابر أقرب إليه من حبل الوريد لولا أن أدركه الله . فلن يتحمل الآلام القديمة من جديد ، فلا بد له من الخلاص من الحياة ، فاستجدى ثمن سم سائل في زجاجة صغيرة ، استجدى امرأة شابة ، ظنها ذاهبة إلى موعد غرام ، والمرأة أكرم ما تكون عند ما تقصد إلى لقاء الحبيب ، فعاطفتها أرق وقلبها ألين وأرحم ، وهو شاب في مقتبل العمر ، لا زال به أثر للجمال ظاهر ، وبقية من نعمة مفارقة فأخذ الصدقة ، ليدفعها ثمناً للزع ثم القبر المجهول ، إن رُخامة « المورج[1] » أحن على ضلوعه من البرد والجوع ومن هذه المدينة ذات الجمال والأضواء بل أحن عليه من أبيه . ولما ظفر بالسم عاد منهللا ، لأنه سيقضي على آلامه إلى الأبد ، وفي لمحة ذهن لامسة تذكر أبياتا لفيرجيل :

إذا أشرفت النفس الحزينة على الموت
تجردت من هومها واستبشرت
سوف يكسر الموت المواتي أغلالها
ولا يهمها أن تخرج مختارة أو مرغمة
فانها تعبر القنطرة في طرفة عين
عبور القنطرة بالنار أو بالماء

بالخنجر أو بالسم الزعاف . إن العين لن ترى ، والأذن لن تسمع ، والعقل لن يذكر ، عبور القنطرة .

فكررها وترنم بها ، وكأنه يقرؤها في كتاب قديم في ركن مكتبة عتيقة في شارع مظلم ، في مدينة نائمة ، فمن هو وما هي المدينة ؟

ذهب إلى الحديقة — بارك مونصو — ولم يقصد إلى المقعد الذي تعود أن يجلس عليه ، بل أخذ ممشى إلى ناحية قصوى وأخرج القنينة من جيبه ، كانت كقارورة العطر التي يفوح منها ريح الموت المريح . ونظر حوله فلم يجد حياً عاقلاً سواه ، غير أنه لمح طائراً صغيراً يبني عشه في أغصان الشجر فضحك ضحكة عالية وهو آمن ألا يسمعه أحد وقال : حتى صغار الطير مسخرة للحياة ، تلتمس رزقها وجرعة الماء وتبني عشها ثرة فذرة وقلامة فقلامة ، وتغني وتعشق وتخضع للحب كما تلتقط الحب ، وتستهدف لحماة الطفل ، ونبل الصائد ، ومنقار الجارح ومخالبه ، وأظفار القط الجائع ، لتبيض وترقد على صغارها حتى تفرخ وترتاش ... أما الانسان العاقل الطموح إلى الحياة ، المدرك لدقائق الدنيا ، المتطلع لأسرارها ، يبتلى ويجوع ويرد ويظمأ ويأس وهو آمن . دبي لم أر يصنعوا قانوناً يضمن لنا الحياة كما ضمنت أنت الحياة لهذا الطائر ؟ لقد تركته طليقاً وتركوني في أقفاص ضيقة أتراك تحاسبني وتسألني عن تلك المثلة من عمري .. ولكن إذا كانت هناك بقية فلم مكنت لي شراء هذا الدواء ، وأعدوتني للموت هادئاً في ذلك المكان المهجور ، وسط المدينة الصاخبة ؟ إن قليلا من مالهم وطماسهم وثيابهم وتارهم ، يرد عني غائلة الردى الذي حببته إليّ ! ألهذا وهبتني أبي الحنون وأرضعتني وخافت عليّ حادية الهلاك طفلا وفتى ويافعاً ؟ ترى كم من فتى مثلي في موقفي هذا بين يديك في تلك اللحظة المدهشة . وما قصصهم ؟ وما هي طريق المسيح التي وُصفت بالعذاب وهو يحمل صليبه ؟ هل كانت خشبته أثقل على كاهله من خشبتي التي لا يراها أحد ، ولكني أشعر بعبئها ؟

(١) معرض جثث المجهولين في باريس

2017-11-11

هأنذا أقصد إلى الجولجوثا طائماً ، وليس ورائى حواريون يبكون ولا جنود يحزنونى بأسنة رماحهم ولانساء من الأهل والعابدات يندبنى . هأنذا أصنع خلاصى بيدى ، ولكن أسنعه بخطيئة حلوة ، لأنها تحد من شقوتى . غداً يقرأون بأمصرعى ، سأموت مجهولا ويقولون شريد قضى ! مجهول لا يحب لأحد بصلة ، ولن تذرف عين على جسدى العارى دمعة واحدة . ألا وداعاً أيها الحزن الدائم وأيتها المخاوف من برد الساعة الرابعة ، وأيها الجوع القارص وأيتها الذكريات الناعمة . سيفوز حتماً منسيف ماجز ، بالانتصار على الطبيعة وعلى قوة القدر ، سأمحو بجرعة واحدة أعواماً طويلة من الشقاء المرتقب . وسأريح فى لحظة غفران ذنوب لم ترتكب وسأخلص نفساً ، وكأنى أخلص النفوس جميعاً .. إلهى ! إلهى ! لماذا تركتنى ؟

ثم رفع يده بالزجاجة ، فتجرع نصف ما فيها وإذا بصرخة مدوية ، أفقدته بقية رشده ، فلم يتم شرب مينته وأرخى يده . ترى من صاحب هذا الصوت المشئوم الذى أفسد عليه جمال تلك اللحظة الرائعة ؟ من ذا الذى تدخل متطفلا بين الموت وبينه ؟ من يكون ذلك الثقيل الذى لم يدرك جمال البرهة الرهيبة المقدسة ؟ من قطع تلك المحادثة بينه وبين ربه الذى يصغى إليه فى حنان ورحمة ويعد الملائكة لاستقباله ؟ أو .. فى غضب ونقمة ويأمر الشياطين ليجروه إلى سقر . هل كان دانتى البيجيرى كاذباً إذ وصف عذاب المتحيرين فى تلك المهزلة ؟ ثم أغمض عينيه وراح فى غيبوبة مظلمة . ومضت ساعات طويلة قبل أن يعود إليه رشده ، وفتح عينيه فاذا به فى غرفة مشرقة وإلى جانبه امرأة فى ريعان الشباب تحنو عليه وترعاه ... وقد حملته إلى سرير نظيف وفراش ناعم وأشملت ناراً وجلبت له طعاماً ونبيذاً وأزهاراً يانعة . فشعر بالحياة تعاوده . وعرف أنها عاملة فى أحد مخازن الكتب ، وأنها كانت فى الحديقة بانتظار حبيبها الذى أخلف موعده فرأت إنقاذه خيراً من الصبر على صديق متباطىء ، فهل أخطأت ؟ نعم أخطأت ولكنى أحببتك منذ رأيتك ، وغفرت لك ذنب إقصائى عن الموت الذى كنت أنشده .

وقبلها وضمها إلى صدره . وشعر بأن قوة تجذبه إليها ، ولكنها مانعت ، لأنها لا تزال مرتبطة بالآخر الذى كانت تنتظره ، فتلقاطعه أولا ، بصراحة لا تعرف المواربة . ستذهب إلى الحديقة فتلقاه وتودعه ، وهى لن تلين له بعد اليوم ، وإن كان جديراً بشكرها لأنه يسر لها إنقاذ حياة الرجل الذى أحبته ، فوافقها وصحبها إلى سور البستان ، وشهد خلال أعواد الحديد والأغصان موقفها . فانه لم يزد على دقائق معدودة

قالت له فى رفق : إن ما كان بيننا قد انتهى . والماضى لا يعود ، وداعاً .

وعادت إليه فرحة مسرورة كمن وضعت حملا عن كتفها . فقال لها : أبهذه السرعة تقطعين حبال الود ، وتدفنين غير باكيات ذكريات الهوى ؟ فضحكت وقالت : موتنى الله بدل الدرهم ديناراً ، فانك أنبل وأشجع وقد سمحت مناجاتك كلها قبل

2017-11-11

أن ترفع يدك بالسم إلى فمك ، وكنت موزعة بين التلذذ والروعة ، وبين الخوف على حياتك والخوف منك . وحسبتك فى أول الأمر شاعراً مجنوناً ، إلى أن ذكرت سيدنا المسيح ، واستغفرت لله من المعصية ، فأيقنت أنك يائس ولكن خشيت أن أزعجك ، فلما رأيت السم يسيل بين شفتيك خاطرت بعمرى فى سبيل عمرك . ستعيش وتنجح وتفوز فما أنت للشقاء خُلقت .. وعادا إلى غرفتها . فألفاها عامرة بالكتب التى تشتريها وتستعيرها وبأوراق الموسيقى التى تجيد عزفها فأخذ يقرأ ويا كل وينام وينتظرها وهى تدأب وتعمل وتوفر له مطالبه ، ولا تتألم ولا تضجر كأنها أم فرشت فأنامت ولم تسأله عن اسمه ولا صنعته ، وهو كذلك لم يسألها ، فلو أنهما افترقا وافتقد كل صاحبه لما اهتدى إليه أبد الدهر . وإذ عادت ذات مساء وكانت تحمل رغيفاً ملتفاً فى جريدة قديمة ، لمح اسمه فكتم عنها الأمر ، ثم تناول الوريقة الذابلة وقرأها ... هذه قصته منشورة ، فابتسم . وفى الصباح ذهب إلى مكتب البريد فاذا مكاتيب تنتظره ، وكلها تدعوه إلى لقاء رئيس التحرير لأمر مهم ، فلم يستطع أن يخفى عنها رغبته فى الذهاب إلى إدارة الجريدة فمنيت بثيابه ومظهره فراح متقمشاً معطراً ، فلما تقدم إلى رئيس التحرير ، رحب به وقال له : يهمنا أن تساهم فى تحرير جريدتنا التى سرها نشر قصتك وقصيدتك ، ولا ريب أنك كنت تتجول فى الأقطار تجمع مادة لكتبك وهذا الذى دعا إلى إبطائك فى تلبية دعوتنا . إنك من فحول كتابنا المطموزين ، ولعلك غنى ، تعمل لأجل الفن ، ولكنا لا نقبل مساهمة بغير أجر . سندفع لك مائة فرنك عن القصة الواحدة مؤقتاً أما القصائد فلها حساب آخر وإن شئت فاسحب من الصيرف قسطاً على المحاسبة ، ولكن ألف فرنك لتضمن تماونك فذهل من كرامة الرجل ، وأراد أن يشعره بجاهه فقال له :

— إنى أقبل لأسرك ، فلست بحاجة إلى المال

فقال الرئيس : إن اسم كنزلو ليس غريباً علىّ . أتعرف صاحب مكتبة شهيرة بهذا الاسم فى مدينة ليون ؟

فقال جورج كنزلو — إذ لم يكن سواه — أنا ابن صاحب المكتبة بعينها . .

فقال الصحفى : إنى آسف لما أصاب والدك ، ولا أحب أن أحرك آلامك وقد نشرنا نعيه منذ عام بشىء من التفصيل وأغفلنا ذيول الحادثة خشية ذيوعها .

— فانى هذا المدد . . . وإن كنت

— فبعث الرئيس فى طلبه وقدمه متلطفاً ، فطواه جورج وشكر الرئيس وودعه ومر بالخزانة ليقبض القسط الموعود ، ثم قصد إلى مقهى ونشر الصحيفة . وعلم وهو بين الفرح والألم أن والده مات فجأة عقيب مشاجرة بينه وبين زوجته ، فاتهمت يدس السم له فى فطائر دسمة ، وأثبت الدكتور لوكار إمام الخبراء فى الطب الشرعى أن فى أمعائه أثارة من زرنيخ ، فهاج الرأى العام ونعتوها بمدام لا فارج جديدة ، فاعتقلت الحلوانية — مدام كنزلو حالا وهى مدام دولاك سابقاً ، فخصوا تركته وجردوا ثروته . وإذا بها تربى على ربع مليون ، وأنكرت التهمة أن له ورثة ، ولكن الجيران شهدوا بحياة وارثين من صلبه ولكنهما غابا غيبة منقطعة ولعلهما يطلبان العلم فى بلاد نائية ولم يبلغهما

2017-11-11

نفي أبيهما . فهذه الثروة ثروتهما . ولما كان قاتل الموزث لايرث في حكم القانون ، فقد أصبحا بغير مراحم ، لأن الوصية التي ضبطت في الأوراق ، أمست لغواً ولم تفد المرأة إلا دليل إثبات عليها ولا تقدر على نفيه . فابتلت غيناه بالدموع وهو يقرأ الخبر المطول وتذكر طفولته وأخته وأمه . ولكن أين هما ؟

هل هو في حلم أم في حقيقة . وهل كان في عداد الأغنياء عندما كاد يموت من الجوع والبرد . ما أوسع بارئي رحمتك ! وما أعجب تدبيرك وأحكمه.

وهذه الفتاة الغريبة التي أنقذتني ترى مايعتريها من جنون الفرح إذا علمت أنها لم تنقذ متشرداً ولا طريداً ولا وضيعاً ، بل أنقذت غنياً شريفاً يحب الشعر والأدب ، كان وأخته ضحية البخل وجنون الذهب ، وكانا ذوي مواهب كامنة قضى عليها لؤم الحياة. نهض جورج كنزلو فاشترى أزهاراً وثياباً وأطعمة دسمة وحلياً ولم يقرب الحلوى ، واتخذ مقعده في سيارة فخمة . وقال : سأتزوج منها اليوم ، وسنبحث عن شقيقتي معاً . لشد مايكون فرحنا جميعاً عندما نعود معاً إلى ليون ، ونفتح أبواب المكتبة . ثم لا نعترض على ثياب الناس ولا نحتدم فصل الشتاء اللندن ، سوف نقضي الصيف في لوسرن لنرى القصر والحصن والبحيرة والجبل . وسوف نبني لأمنا قبراً فخماً ، ونشهد محاكمة المرأة المجرمة . ونثبت وراثتنا ، بأسهل مايكون . أيمكن أن يتجاهلنا أحد ؟

ولما بلغ البيت دفع أجر السيارة بسخاء ، وانتهب درجات السلم حتى وصل إلى باب الغرفة فوجده مغلقاً ، وقد علقت بأعلاه رسالة مغلفة ففضها وهو يلهث

— أخي جورج . لا تحاول البحث عني عبثاً فاني عرفتك بصوتك وملامحك منذ الوهلة الأولى ولكني لم أرد أن أجلبك بما وصلنا إليه من الشقاء . أما أنك لم تعرفني ، فلأن الألم قد أثر في ذاكرتك . لقد ذقتُ أكثر مما ذقتَ ، ولما لم أسألك عن نفسك شيئاً . لقد شهدت عاري ، وعلمت من حياتي ما لا يسمح لي بلقائك إذا عرفتني . أنا شقيقتك لورا البائسة . لقد مات والدنا بيد تلك العجوز التي اختارها بعد أمنا ، وترك ثروة طائلة ، ولكنني لا أجرؤ على الذهاب لإثبات وراثتي دونك وأفضل الموت الآن على مواجهتك ، بعد أن علمت أنني سقطت في أحضان رجل لم تربطني به رابطة الزواج أنا التي أبتغتني أبي نباتاً حسناً ، ولم يحن عليّ وعليك إلا جنون أبينا الذي في الأرض . ستعود إلى غرفتي فلا تجدني وسوف أختفي في باريس إلى أن أغادرها إلى بقعة مجهولة . إني أحمل على كاهلي الصليب الذي تركته في حديقة مونصو . لكل منا نصيبه. ولكنني لن أقتل نفسي ، لأني لا أزال مؤمنة . لقد أحببتني وحدثتك نفسك بالزواج في فراشي خليلا وأنت لا تعلم أنك أخي . لعلي أخطأت إذ لم أسارحك في الساعة الأولى . ولكني خفت عليك أثر الصدمة ، وأنت ضعيف محتاج إلى العناية والهدوء . إني فتية صحيحة البدن وسأجد رزقي كذلك المصفور الذي وصفته وأنت على شفا الهاوية . لقد كان نبش عشي نتيجة إنقاذك ، فهل أندم أن كنت سبب نجاتك ؟ سوف ألقط حَبي ، وأحاول أن أبني عشي دون أن يصيدني سائد ما كر . سأغرد باكية وأذرف دموعاً ساخنة على فراقنا المرة بعد المرة . إصفح عني واغفر لي ، فاني لم أتعمد إلى تدنيس شرفك عامدة ،

2017-11-1

أتذكر سياحتنا فى الجبل والبحيرة ؟ . كنت وأنا أتهدك أذكرها دائماً ، وأبكى أثناء نومك ، وطالما همت أن أوقظك قائلة : جورج ! أخى الصغير ... تلك لورا التى تكلمك ... ولكن شجاعتى كانت تخونني ...

وفى تلك اللحظة فتح الباب وخرجت سيدة مكتهلة ، وهى مالكة الغرفة المهجورة وصاحبة الدار كلها وقالت :

— سيدى ! إن الآنسة قد سافرت ولم تترك عنوانها ، ولم تذكر شيئاً يهتدى به إليها

— حسن ، لقد قرأت خطابها ، تفضلى بقبول هديتها إليك فقد أوصتنى أن أشكرك على ما رأت من لطفك أثناء إقامتها لديك ...

فابتسمت المرأة وقالت : تفضل واسترح قليلا من عناء المشترى والمساومة . فدخل يمسح عرقه ، وأخذت المرأة الأزهار والهدايا وسفقتها فى أماكن لائقة دون أن تمس غلافها ثم سألته : هل كنتما عازمين على الزواج ؟

أجاب : كلا ، أى زواج ؟ أفى بلاد الزنوج نحن أم فى الهند الصينية ، أم أن الحضارة تتقهقر ؟

— ولم يا ولدى ألا يتزوج عن عشق غير الزنوج وهند الصين ؟

— إنها شقيقتى ياسيدتى من أبى وأمى

— شقيقتك ؟ آه لقد فهمت شيئاً

ولم تركتك على غير صورة ، كأنها تفر من شيئر ، وأراك مهذباً شهماً لا تنكر قرابتها ، ولا تأخذها بلاعة

— وكيف أنكر قرابتها وقد أنقذت حياتى من موت مؤكد ؟ ولكنى فى الحق لم أعرفها للوهلة الأولى وإن هى عرفتنى

— لعلها خشيت عتاباً أو ملاماً ..

— وأى عتاب يكون بين شقيقين فرق بينهما الدهر ثم اجتمعا على إحسان أحدهما إلى الآخر إحساناً لا ينسى .

— إذاً ما يسمى فى لغة العصر الحديث « سوء تفاهم » وإنه للفظ حلال للعقد .

— وأين لى أن أجدها لأركع تحت قدميها ، شاكراً مستغفراً ؟ ألا تعلمين ياسيدتى ، بالله عليك ، مظنة من مظان وجودها ؟ أحب أن أودعها ولو شاءت مفارقتى ، مستحيل أن أفقدها هكذا .

فأغرورقت عينا العجوز بالدموع وقالت :

— ويحا ! ثم خرجت من الغرفة فأطرق جورج ملياً ثم سمع وقع أقدام قرع رأسه ليرى من القبل عليه .

فاذا بلورا نفسها خاشعة مطأطأة الرأس ، فأقبل عليها يقبلها ويحتضنها ويبشرها بالسعادة بشرط ألا يذكر أحدهما كلمة عن الماضى القريب أو البعيد ، فما جمعهما الله لتفرق بينهما الذكرى . فابتهجت ووافقت ودخلت العجوز تبكى من الفرح وقد جمعت شملهما بعد أن ظنا أن لا تلاق بعد الساعة ، وقالت وهى تنشج بدموعها : أنا التى أستبقيتها إلى أن تعود ، وقلت لها : انتظرى حتى أمتحنه ، فان جفا أوقسا ، فمع السلامة ، وإن حنّ ولان فهو بك أولى وأنتما بمالكما أحق ، ووعدتنى أن تبقى الغرفة لها مادامت بباريس

— وأنت أيضاً لنا ، فلن نفارقك بعد اليوم فقد كان بيتك دار النعمة والبركة ، والرجاء بعد القنوط ، ولا معنى للحياة مع اليأس

محمد لطفى جمعة

2017-11-11

وقائع مارتان وليك

للكاتب الشهير ولبرس كوبت
بقلم الأستاذ جمال كامل حجاج

إن الوحشة التي سادت غابات هرتس بألمانيا ولا سيما الجبال المسماة بلوكبرج أويروكنبرج قد جعلت من هذه الأخيرة مسرحاً ممتازاً للأقاصيص التي تسرد فيها أخبار السحرة والجن والشياطين والخيالات . وأغلب سكان هاته القاطعة حطابون أو عمال في المناجم . وهذا النوع من المعيشة قد جعلهم يعتقدون بالخرافات ويعزون الحوادث الطبيعية إلى السحر والجن والشياطين

ومن الحكايات التي ذاعت في هذه البلاد المتوحشة والتي يشاع فيها أن غابة هرمس يسكنها شيطان ويصورونه بشكل عملاق آدمي متوج الرأس وبوسطه حزام من أوراق البلوط وبيده شجرة صنوبر قلعت من الأرض بجذورها . ويزعم كثير من الناس أنهم شاهدوه مراراً في أطراف واد صغير يتنزه فيه أو في سفح الجبل . وهذا الزعم مقبول عندهم ولكن العصر الحاضر لا يقبله ويعزوه إلى خداع النظر

وكانوا يعتقدون في العصور القديمة أن هذا الشيطان كان يتاجر مع بني الانسان . ويقال في تقاليد تلك البلاد السابقة إنه كان يتدخل في أعمال الناس فتقوده أهواؤه تارة إلى الخير وطوراً إلى الشر ، كما أنه لوحظ أن منحه تكون مع الشر مشئومة

وكان القسس يشيرون على أتباعهم وهم يعظونهم بأن يتجنبوا الاختلاط بشيطان هرتس بشكل مباشر أو غير مباشر

إن المشاهدين والمشلين في المسرح الآني كانوا ثلاثة فتيان يحتطبون ويحولون أحطابهم إلى فحم ، وكانوا عائدين إلى كوخهم ، وكان حديثهم دائراً حول شيطان هرتس وعن الراهب الذي كان يلعن هذا الشيطان الوديع المسالم فرجمه الأهلون بالحصى والحجارة قائلين له : إذهب لشأنك لتلعن الشياطين في بلاد غير بلادنا ، ثم جرهم الحديث إلى أن الذين يربطون علاقاتهم بهذا الشيطان تكون آخرتهم مشؤومة واستشهدوا بجواد السباق الأسود الذي منحه شيطان هرتس إلى الفارس أكبرت دورابتوالد والذي بفضله حاز قصب السبق في سباق ريم ولكنه سقط في الهاوية بسيده ولم يعلم أحد بخبرها إلى الآن

كان مارتان أصغر إخوته الحطابين الذين سبق ذكرهم يخالف أخويه الأكبر والأوسط في الاعتقاد بالشيطان ، وكان جسوراً جريئاً ماهراً في جميع الأعمال التي يقوم بها الجبليون وكان مقداماً في كل عمل يطلب منه أعمال المجازفة أو القوة وكان يضحك من حياء أخويه ويتسلق الجبال بكل سهولة وخفة .

قال لأخويه وهو يحاورهما : لا تقصا على هذه الخرافات فان الشيطان طيب وهو يعيش بيننا كأحد الفلاحين ، وكان يتسلق الصخور ويجوب الجبال كأنه يصطاد أو يرعى المعز ، ولما كان يحب غابات هرتس ومناظرها الطبيعية الخلابة فلا يتأتى أن يكون عديم الاهتمام بحفظ ساكنيها .

2017-11-1

وحينما يكون خبيثاً شقياً متلكماً فكيف يكون تصرفه مع من ينتفعون بمنحه دون أن يتعهدوا له بأي تعهد ؟ وحينما تورد لحمك في المسيك لمديره بلز ذاك الشيخ الذي لا يفوه لسانه إلا بالتجديف ، أفلا تفضل أن تأخذ منه نقودك ولا تأخذها من القسيس ؟ فليست إذن منح هذا الشيطان التي تعرضك للأخطار ولكن سوء استعمالها والتصرف فيها . أما أنا فانه إن ظهر لي في هذه الساعة سواء أكان باسماً أو عابساً فانني أستمر في حفر الأرض قبل أن يبرح مكانه ، وسأحسن التصرف في نعمته التي يمحن بها علي وآمل أن أكون في حماية ورعاية فرد أقوى منه .

فأجابه الأخ الأكبر بأن المتاع الذي ينال بطريق غير مشروع يندر أن يتصرف فيه صاحبه على أحسن وأفضل وجه . فرد عليه مارتان : إنني إذا امتلكت جميع كنوز هرتس فان ذلك لا يغير شيئاً في طباعي وصفاتي .

فقال له ماكس : يلزمك أن تتكلم باحتراس وتحفظ حينما تخوض في مثل هذا الموضوع . وأراد أن يحول الحديث إلى موضوع آخر وانتقل إلى صيد الغياب الذي سيشرع فيه . وقد استمر بينهم الحديث إلى أن وصلوا إلى كوخهم القائم على سفح أكمة بواد ضيق بجبال بروكنبرج ، ثم حلوا محل أختهم في مراقبة تحضير الفحم وكانوا يتناوبون مراقبة الفحم فينام اثنان ويراقب الثالث .

كانت نوبة ماكس والديك فسهر الساعتين الأوليين وقد دهش حينما شاهد على أكمة أمام كوخهم وحولها أشخاصاً كثيرين يدورون وتصدر منهم إشارات غريبة . ففكر في بادىء الأمر أن يدعو أخويه ولكنه رأى أن أعباء السهر يخالفهم في الرأي وأنه لا يستطيع أن يوقظ جورج دون أن يقلق مارتان ، ثم ظن أن ما رآه ربما كان نتيجة وهم أوجده الحديث الذي دار بينهم عن الشيطان . وقد ظن أنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً أحسن من الصلاة وأن ينتظر بقلق وفزع هذه المشاهدة . وبعد ما استمرت النار وتوهجت ثم انطفأت شيئاً فشيئاً وخيم الظلام لبث مضطرباً مدة نوبته مما شاهده .

حل جورج محل ماكس الذي ذهب لينام بدوره فشاهد النار التي رآها أخوه ، وكان حول النيران أشخاص تصدر منهم إشارات كأنهم يقيمون حفلة رمزية

ولو أن جورج كان أشد فطنة من أخيه الأكبر ولكنه كان جريئاً مقداماً ، وقد صمم أن يقترب من هذه العجينة ليختبرها فاجتاز قناة صغيرة تجري في هذا الوادي واقترب من النار حتى أمسى على رمية سهم منها فوجدها متأججة كما كانت

وكانت الأشخاص المحيطون بها أشبه بالأشباح التي تراها في أحلامنا ولأول وهلة تحقق أن هؤلاء ليسوا من أهل الدنيا وقد رأى بينهم عملاقاً هائلاً بيده شجرة صنوبر قلعت بجذورها كان يستعين بها للملاق في إسعار النار ولم يكن عليه من الملابس غير تاج وحزام من أوراق البلوط . ولما عرف جورج شيطان هرتس هلع فؤاده لأنه كان طبق الصورة التي كان يتحدث بها الرعاة والصيادون الذين رآهم يجولون في الجبال فرجع ممعناً في الهرب وبعد قليل من التفكير وعّ نفسه على هذا الجبن وقرأ مزماراً من الزبور : « فليتبارك جميع الأمم الآله »

2017-11-1

واتخذ طريق الأكمة حيث شاهد النار ولكنه دهش حينما لم يجد للنار أثراً

أضاء الفجر بأشعته الضئيلة ذاك الوادى ، ولاحظ جورج أن جبينه ينضح عرقاً ، بارداً وقف شعر رأسه من الفزع ووصل وهو يرتعد إلى المكان الذى شاهد فيه النار وكان به شجرة بلوط كبيرة كانت تظهر كأنها وسط النيران فلم يجد أثر أقدام، ولاحظ أن الكلأ والأزهار البرية لم تمس ولم يهشم منها شئ وكانت أوراق البلوط مخضلة بقطر الندى

رجع إلى كوخه وهو يرتعد من الهول وفكر مثل أخيه الأكبر وسمم ألا يتفوه بشئ مما رآه خوفاً من أن يثير فيه تطلعا تصحبه المجازفة

جاء موعد سهرة مارتان عند صياح الديك مؤذناً برحيل الليل واقتراب الفجر . اختبر استمرار التنور الذى يجهز فوقه الفجر فوجده ضعيفاً لأن مشاهدة جورج للشيطان وما حاق به من الهلع أنسياه واجبه من مراقبة النيران فأراد أن ينادى أخويه ولكنه رآهما فى نوم عميق فمالج النار وحده ولكن الأخشاب التى استعملها كانت رطبة خضراء وانتهى الأمر بأن خبت النيران . طفق يمدو باحثا عن حطب جاف ولما رجع وجدها قد انطفأت وكان هذا حادثا جللا يفقدهم عمل يوم . أخذ يقدح زنده فلم يفلح لأنه تشبع بالرطوبة . فلم يجد مناصا من استدعاء أخويه ولج على حين غفلة ضوءا مفاجئاً فى الكوخ ففتح الباب فاذا هى الظاهرة العجيبة التى أذهلت أخويه ما كس وجورج

ظن فى بادئ الأمر أن الموهر هاوسرس الذين كانوا معهم فى شجار مستمر لما انتابهم من غيرة الصناعة قد أغاروا على أرضهم فى الغابة ليسرقوا ما وصلت إليه أيديهم ، ففكر فى إيقاظ أخويه ليؤدبوا هؤلاء الجريئين ولكنه حينما شاهد إشارات الملتفين حول النار كأنهم يعملون عملا غير فكره واستنتج أن هذه حادثة غير حقيقية — مهما كانوا رجالا أو شياطين ومهما كان شغلهم سأذهب إليهم أسألهم جذوة من النار أضرم بها التنور . ورفض أن يوقظ أخويه وخشى أن يحول استحياء أخويه دون مقصده ثم تناول رمحاً مما يصطادون به الدببة وذهب وحده ليجعل حداً لهذه الواقعة

سار بشجاعة تفوق شجاعة أخيه جورج واجتاز الفناة ثم صعد الأكمة وتقدم صوب هذه الجماعة وعرف أن الرجل الذى يتزعمها ليس إلا شيطان هرنس فأصابته رعدة كانت الأولى فى حياته ولكنه تذكر أنه طالما تمنى هذه الفرصة الساحة فلذلك تجددت شجاعته، فتقدم نحو النيران بثبات وجرأة فظهر له أن هؤلاء ظهرت عليهم ملامح غريبة خارقة للعادة وقابلوه بضحك متواصل وقع فى أذنه مزعجاً عنيفاً

— من أنت ؟ سأله المعلاق وقد ظهرت على سحنته الصميمة ملامح الغضب والشدة

— أنا مارتان ولديك الفحام، وقد أجاب بكل جرأة وبسالة ، ومن أنت يا هذا ؟

— أنا ملك الجبال والمناجم . وكيف تجاسرت على تعكير أسرارى ؟

— قد أتيت لأطلب جذوة نار لأوقد بها تنورى ثم سأله بكل جرأة : وما هى الأسرار التى تحتفل بها هنا ؟

— فرد عليه الشيطان مازحاً : إننا نحتفل بقران هرمس بالتنين الأسود ، فهيا خذ النار واذهب لشأنك فما من مخلوق يطيل فينا النظر إلا ويهلك

أنشب مارتان سنان رمحه فى قطعة كبيرة من الخشب ملتهبة وعاد بها إلى كوخه وسط ضحك مستمر وقهقهة عالية دوى صوتها فى الوادى ثم وضعها وسط الأحطاب الجافة ليوقد تنوره، ورغماً من جهده المتواصل وكيره الكبير انطفأت الخشبة المستمرة . ثم التفت إلى النار المعهودة فرآها مازالت مستمرة فوق الأكمة فظن أن الشيطان أراد أن يلعب معه دوراً فعاودته جرأته وصمم أن يعود إلى الأكمة ليأخذ جذوة أخرى فأخذها دون أن يصادف أية معارضة ولكنه لم يفلح فى إشعالها كالمرة الأولى وأراد أن يجرب المرة الثالثة فأخذ قطعة كبيرة وذهب فسمع الصوت يخاطبه : حذار أن تسود للمرة الرابعة

حاول أن يسعر النار ويذل كل جهده ولكنه أخفق . يئس وقطع الأمل وارتمى على سريره الذى اتخذه من أوراق الأشجار وقرر أن ينتظر إلى الصباح ليطلع أخويه على جميع ما حصل له فنام من التعب واضطراب فكره . استيقظ فى الصباح على أصوات الفرح والدهش وصراخ أخويه فأنهما حينما شاهدا التنور خامداً أخذا يخرجان الخشب منه وبالجان إيقاده فوجدا فى الرماد ثلاث سبائك ضخمة ضعرفا فى الحال أنها من الذهب الخالص

ولما حدثهما مارتان عن الكيفية التى بها أصبحت هذه الثروة فى حوزتهم هدأت أعصابهم لأن ما رآه فيما مضى جعلهما يثقان بحديث أخيهما ولا يشكان فيه ، وقد سولت لهما نفساهما أن يشاطرا أخاهما هذه الثروة

اعتبر مارتان نفسه رئيس الأسرة واشترى ضياعاً وغابات وبنى قصراً عظيما وحصل على براءات الشرف ومنح نفس الامتيازات التى تمنح للبارونات العظام الذين فى جواره . ولشجاعته فى الحرب وخصومة أعدائه لم ينل منه أعداؤه الذين كانوا يحسدونه على علو النجاح وغروره الماشى . لم يلبث مارتان ولديك أن أظهر قدرة جديدة تدل على أن قليلاً من الناس من ينظر فى عواقب ما تنتجه الثروة المفاجئة ، إذ ظهرت عيوبه التى أخفاها الفقر ، ففسدت أخلاقه ، وأصبحت الأهواء تجر بعضها ، فأيقظ شيطان البخل شيطان الكبرياء ، واستعان الاضطهاد بالقسوة والوحشية

استمر مارتان فى غيه وجرأته فحقد عليه الناس من سراة وفقراء لكونهم رأوا رجلا سافلا علا فجأة ونفذ فيهم قوانين الاقطاعيات بقسوة همجية

انكشفت عيوبه وأصبح ممقوتاً حتى من رجال الدين الذين كانوا يلقبونه بشريك الشياطين والساحر لأن ثروته تضخمت بأساليب جهنمية ولم يمنح جزءاً صغيراً منها إلى الكنيسة حتى يبارك فى باقى ثروته . وقد حصلت له حادثة كانت سبباً فى سقوطه

أقام دوق برونسويك ، وهو الحاكم ، برجاساً ودعا إليه نبلاء الألمان ، وكان مارتان ولديك متقلداً أفخر الأسلحة مصحوباً بأخويه متبوعاً بحاشية كبيرة العدد والعدد . وقد ساقته وقاحته لأن يظهر وسط الفرسان النبلاء وأن يطلب منهم أن يدخل فى المضمار ، فارتفع ألف صوت قائلين : لا نستطيع أن نتحمل اختلاط لحام بالفرسان النبلاء فى حلبة ألعاب الفروسية ؛ فاغتاظ مارتان وغاب صوابه واستل سيفه وضرب الفارس الذى عارضه فى دخوله إلى المضمار، وشهر مائة فارس سيوفهم فى الحال لمعاقبة هذه الجريمة ، فدافع ولديك دفاع الأسود ثم قبض عليه فى النهاية وحوكم أمام ماريشالات البرياس ،

2017-11-1

وحكم عليه بقطع يمينه وتجريده من ألقاب النبلاء وأن يطرد من المدينة

وحينما جرد من سلاحه ونفذ فيه الحكم ترك للرعاع فانبعوا هذه الضحية البائسة التي جنى عليها الطمع وطفقوا يسبونه سائحين : « أيها الساحر الظالم » وانهالوا عليه بأقطع الشتائم وأشنع الاهانات فتركته حاشيته وولت الأدبار . ثم أقبل أخواه وخلصاه من أيدي الغوغاء، ولما شفوا غليل انتقامهم منه تركوه حينما رأوه مشرفاً على الاغماء من فقد دمه وتمذيبه ، وقد قسا عليه أعداؤه حتى أنهم لم يسمحوا بنقله إلا على عربة فخر من التي كان يشتغل عليها حينما كان لخاما فوضعه أخواه على حزمة من قش فوق العربة وأرادا أن ينقلاه إلى مكان أمين قبل أن يرحمه الموت من آلامه

ولما سارت أسرة وليديك بهذه الطريقة المحزنة واقتربوا من بلدهم الأصلية رأوا من بعد في المضيق الواقع بين الجبال شخصاً يتقدم نحوهم ظنوه في بادئ الأمر شيخاً هماً ولكنه كلما كان يقترب ظهرت قامته الهائلة ثم اختفت عباءته من كتفيه واستحالت عصاه إلى شجرة صنوبر قلعت بجذورها ، ثم ظهر أمام أعينهم شيطان مرعب فارتعدوا من الهول ، وحينما وقف أمام العربة التي حملوا عليها أخاهما ظهرت على ملامحه هيأة أمير محتقر ، ثم قال بخبث ووهاء لمارتان : « كيف وجدت النار التي أشعلها خبثي ؟ » وما أتم قوله حتى جد الدم في عروقهما من الخوف ولكن الجريح عاوده نشاطه وقوته ونهض ولوح بقبضة يده الباقية مهدداً الشيطان ؛ وما كان من هذا اللعين إلا أن قهقه بهمكم وخبث ، ثم اختفى عن العيون

تملك الفزع الأخوين ، ثم اتجها نحو دير قائم في غابة صنوبر على قارعة الطريق ، فتلقاهما راهب بالترحاب وكان حافي القدم طويل الذقن ، ولم يعش مارتان غير الوقت اللازم لاعترافه لأنه لم يعترف منذ أقبلت عليه النعم الفجائية مع أن مارتان كان يساعد الغوغاء على رجم هذا الراهب المسكين وطرده من قرية مور حنبرودت قبل هذا التاريخ بثلاثة أعوام . ويظن أن هذه الأعوام التي أقبلت فيها السعادة بكل تسامح كان لها ارتباط خفي بالرحلات الثلاث التي ذهب إليها مارتان ليرى النار الغريبة

ثم دفن مارتان في الدير وترهب أخواه إلى أن وافاهما الأجل المحتوم ، وبقيت أرض مارتان خلاء ولم يقبل أن يمسها أحد إلى أن وضع يده عليها الامبراطور ولم يقترب الحطابون ولا عمال المناجم من أطلال القصر معتقدين أنه أصبح مأوى للشياطين

وقد جعل مارتان وليديك من نفسه مثالاً للمصائب التي يستهدف لها كل من حصل على ثروة بطريقة غير مشروعة ثم أساء التصرف فيها

محمد كامل عجاج

وحي بغداد

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بقلم الدكتور زكي مبارك

يطلب من المكاتب الشهيرة

وثمن النسخة عشرة قروش

انتقام رهيب

للكاتب الفرنسي أونوريه دي بالزاك

بقلم الأديب عبد الوهاب مصطفى بجلاق

على بعد مائة متر تقريباً من بلدة فندوم على حدود إقليم الفوار توجد دار كبيرة محاطة بأسوار عالية وقد قامت وحدها بعيدة عن جميع الدور الأخرى وتتبعها حديقة واسعة جفت الآن نباتاتها وغطى التراب دروبها وزاد منظرها من تحمة القدم والوحشة البادية على الدار، ولم يكن يفتح لها باب ولا يطرقها طارق، وقد علمت أنها قد أغلقت هكذا وخلت من السكان منذ عشر سنين، وإنما أحدث صبية الناحية فتحات في السور ترى منها جوانب من داخل الدار

وقد قصت على صاحبة المنزل التي نزلته قصة لا شك أنها سبق أن حكتها لسواي من النزلاء قالت :

« حين أرسل الأمبراطور أسرى الحرب من الاسبانيين وغيرهم إلى هذه البلدة أنزلت الحكومة عندي واحداً منهم . وقد أخذت عليه كفالة الشرف ألا يفر، ومع ذلك كان عليه أن يقدم نفسه كل يوم إلى وكيل المحافظة وكان من أشراف الاسبانيين واسمه ينتهي بأوس وديا، وهو يشابه كلمة بورجوس دي فيرديا، واسمه الصحيح مدون في دفاتري، ولم يكن طويل القامة، وكانت بداه رقيقتين يعنى بهما ويخضبهما بفرشاة كأنه سيدة حسناء . وكانت ثيابه أحسن ما مر علي وقد تعلم أني غسلت ثياب أمراء وأشراف لا يحصى لهم عدد . ولم يكن ذلك الشاب كثير الأكل، وقد أعجبني منه حسن أدبه ووداعته، وملت إليه كثيراً وإن يكن لا يكاد يفتح فاه للكلام أكثر من بضع عبارات في اليوم، وكان من المحال أن يفتح أحد باب الحديث والسمر معه، وإذا كلمه أحد لا يجيب،

وكان يتلو صلواته كل يوم كما ينبغي ويذهب إلى الكنيسة بانتظام، وفي المساء كان يمشي في الجبال وبين خرائب القصور، ولم يكن له من تسلية سوى ذلك وقد علمت أن اسبانيا مملوءة بالجبال والدمن فلا عجب في أن ينشدها هنا. وكان متعبداً أسره فقد اعتاد أن يرجع إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل ولما لم أكن أغلق عليه إذا غاب، وكان يأخذ معه مفتاح الباب فلا يحس به أحد حين عودته . ثم أخبرني أحد الخدم أنه رآه يسبح في النهر في ناحية منعزلة فبادرت إلى تحذيره من مواطن الخطر بالنهر حتى لا يغرق. ولكن جاء يوم لم يعد فيه أصلاً، ثم انقضت أيام أخرى دون أن يعود وقد بحث زوجي عنه طويلاً، وكان وقتئذ لم يمت بعد فسار على ثيابه وراء حجر كبير عند أعالي النهر، وأيقنا أنه غرق. ولما فتحنا درجه في الغرفة الخاصة به وجدنا خمسين قطعة ذهبية اسبانية وحلياً من الألماس ومعها مكتوب منه يوصي بها لنا في حالة عدم عودته، ولم يكن أحد قد رأى زوجي وهو يرجع بالثياب لأنه كان قد ذهب في ساعة مبكرة قبل الفجر للبحث عن الشريف الاسباني ولما حرقنا تلك الثياب وأخذنا النقود والحلي تبعاً لتلك الوصية وأعلنا المحافظة أن الأسير هرب وقد أرسل وكيل المحافظة جميع الشرطة للبحث عنه ومطاردته، ولكنهم بالطبع

2017-11-11

لم يجدوه ، وكان المرحوم زوجي يعتقد أنه انتحر غرقاً . ولكني لا أعتقد ذلك بل إني أرجح أن يكون ذلك الشاب المسكين علاقة بقصة مدام دى ميريه فقد أخبرتني روزالى أن الصليب الذى كانت سيدتها تلك تحتفظ به وتحرص عليه كان من الأبنوس والفضة وهو الذى دفن معها طبقاً لوصيتها وقد جاء الشاب الاسبانى إلينا ومعه أيضاً صليب من الأبنوس والفضة ولكني لم أره معه بعد ذلك. والآن ألا تعتقد أن لى الحق فى أن أحتفظ بالنقود والحلى التى تركها لنا ذلك الشاب الاسبانى ؟ »

فقلت لها :

— بالتأكيد . ولكن ألم تسألى روزالى عن معلوماتها بهذا الصدد ؟

— سألتها ولكنها تكتم كل ماتعلمه ويبدو لى أنها تعرف أشياء ولكنها لا تقولها . ثم تركتنى صاحبة المنزل ومكثت أفكر فيما قالت لى وقد دلنى إلهام خفى على أن بين هذا الحديث وتلك الدار المهجورة صلة متينة، ولذا عزمت أن أكتشف ذلك السر الذى تكتمه روزالى فقد كانت وصيفة لمدام دى ميريه زوجة صاحب الدار المهجورة قبل أن تشتغل خادمة بالمنزل فقلت لها ذات مساء :

— روزالى !

— نعم

— ألست متزوجة ؟

فضحكت وأجابت :

— فى استطاعتى أن أجد كثيراً من ارجال إذا خطر لى أن أشقى بالزواج

— إنك جميلة ذكية ومثلك لاينقصها المجون، ولكن خبرينى ياروزالى لماذا اشتغلت بهذا المنزل بعد أن تركت خدمة مدام دى ميريه ؟ ألم تخلف لك تلك السيدة شيئاً تعيشين به ؟

— بلى . ولكن عملى هنا لا يضايقنى ألبتة

ففهمت أنها لاتريد الكلام عن سيدتها السابقة ومن ثم زاد اهتمامى بكشف ذلك السر الخفى . وفى صباح الغد قلت لها دون مقدمة :

— نبئينى بكل ماتعرفينه عن مدام دى ميريه

— لا تسألنى مثل هذا السؤال . .

ولكنى أصررت على سؤالي وكنت قد كسبت ودها فقالت لى :

— حسن ، مادمت تلح فى معرفة القصة فانى سأقصها عليك ولكن ينبغى لك أن تعدنى بأن تكتمها عن جميع الناس

— أجل ، أعدك بذلك بشرف اللصوص وهم أكثر الناس محافظة على الوعود . ولو أنى أردت هنا أن أبين فصاحتها وهى تقص على قصة مدام دى ميريه لاحتجت إلى مجلد كامل ولذا سألخصها هنا بإيجاز :

« كانت الغرفة الخاصة بمدام دى ميريه فى دار زوجها الكونت بالطبقة السفلى ويتبعها دولاب كبير مبنى فى الجدار لحفظ ثيابها ، وقبل ثلاثة أشهر من ذلك الحادث الرهيب الذى أدى إلى إغلاق الدار وهجرها كانت مدام دى ميريه منحرفة الصحة فتركها زوجها وحدها فى جناحها الخاص بها واحتل جناحاً آخر فى الطبقة العليا. واتفق أنه عاد من غاديه ليلاً بعد ساعتين من موعده المعتاد وكانت زوجه تحسبه فى البيت راقداً فى فراشه ، ولكن الكونت كان يتحدث مع أعضاء النادى فى الشؤون السياسية وقضى وقتاً طويلا فى البليارد وقد خسر فيه أربعين فرنكا ، وهو مبلغ كبير بالنسبة لبارة فندوم حيث يدخر الأهالى نقودهم وحيث تقل الملاهى ووجوه

2017-11-11

الانفاق ، وكان الكونت قد اعتاد فى المدة الأخيرة أن يسأل روزالى عند عودته ليلا عما إذا كانت زوجه قد آوت إلى فراشها فكان جوابها دائماً بالايجاب فيذهب الكونت توا إلى مخدعه بادى الرضا عن نفسه ، ولكنه فى تلك الليلة خطر له أن يقصد إلى مخدع زوجه ليخبرها بما منى به من الخسارة فى لعب البلياردو ويلتمس منها العزاء ، وكان قد رآها عند تناول العشاء فى أحسن ثيابها وفتنتها قبل ذهابه إلى النادى فخطر له أنها قد شفيت من مرضها وأن دور النقه قد زادها جمالا ، وكان على عادة الأزواج بطيئاً فى إدراك ذلك

وبدلا من أن ينادى روزالى للسؤال عن زوجه ذهب إلى مخدعها على ضوء المصباح الذى وضعه على السلم وسمع وقع خطواته فى الردهة ، وفى اللحظة التى أدار فيها أكرة الباب خيل إليه أنه يسمع صوت باب الدولاب الداخلى وهو يغلق ، ولكنه لما دخل الغرفة وجد مدام دى ميريه وحدها أمام المرآة وقد خطر له أولا أن روزالى بداخل الدولاب ولكنه طرد هذا الخاطر وحل محله ارتياب شديد ، ونظر إلى زوجه فرأى عليها دلائل القلق وقالت له بصوتها الرقيق البادى التأثر :

— « لقد تأخرت الليلة ! »

فلم يجب لأن روزالى دخلت فى تلك اللحظة ، وأخذ يذرع الغرفة ذهابا وجيئة وهو مطبق الذراعين وقد ثارت بنفسه عاصفة كان يكظمها جهد المستطاع ، وبينما كانت روزالى تساعدها على خلع ثيابها قالت لزوجها :

— « أسمعت أخبار آسيثة أم أن بك مرضاً ؟ »

فظل ساكتا

وعندئذ أسرت روزالى بالانصراف

وقد دهما منظر زوجها على شر مستطير ، فلما ذهبت روزالى وهى فى الحقيقة لم تذهب بعيداً لأنها وقفت فى الردهة تستمع موقف الكونت أمام زوجه . وقال لها بجفاء :

— مدام ! يوجد أحد فى مخدعك ؟

— كلا ياسيدى !

ولم يصدقها ، ولكنه رآها فى تلك اللحظة أبدع وأطهر ما تكون ، وقام ليفتح باب الدولاب ولكنها تناولت يده وقالت بصوت يدل على التأثر والأسف :

— إذا لم تجد أحدا بالداخل فلا تنس أن ذلك يكون آخر العهد بيننا

وكان اطمئنانها وتأثرها باعثين له على الندم لارتيابه بها فقال لها :

— كلا .. لن أدخل ، فسواء كان هذا أو ذاك فانه مؤد إلى افتراقنا . اسمعى إنى أعرف أنك أمينة طاهرة وأن حياتك حياة قديسة ولن ترتكبى ذنباً خالداً لانقاذ نفسك

فنظرت إليه نظرة التساؤل فاستطرد يقول :

— تناولى هذا الصليب وأقسمى لى أمام الله أنه لا يوجد أحد مختبىء هناك ؛ وعندئذ أصدقك ولا أفتح الباب

فأمسكت مدام دى ميريه بالصليب وقالت :

— أقسم

— ارفعى صوتك وقولى : « أقسم أمام الله أنه لا يوجد أحد مختبىء بهذا الدولاب

— فكررت هذا القسم بهدوء

— حسن

وبعد أن سكت برهة أمسك بصليب من الأبنوس معظم بالفضة وقال :

— إنى لم أر هذه اللعبة الجميلة من قبل

— لقد وجدتها فى محل دوفينيه وكان قد اشتراها من راهب أسبانى حين مر الأسرى

2017-11-11

الاسبانيون بلدة فندوم فى العام الماضى

فلم يقل الكونت شيئاً وأعاد الصليب إلى موضعه ودق الجرس فجاءت روزالى مسرعة فقال لها :

— اسمعى ، إنى أعلم أن البناء جورنفلو يتمنى الزواج بك وأنك تتمنينه زوجاً لك ولكن الفقر هو العائق الوحيد ، فهيا أسرعى واتلينى به ومعه أدواته وعدده وليبرهن على براعته فى البناء . وحذار أن توقظى أى أحد فى الدار ، وسأكافئه بما يتمنيه وعليك ألا تحدثى أى صوت وإلا ...

وهنا عبس فبانت كل قسوته ، ولما ذهبت ناداها وقال :

— إليك مفتاحى السرى

ثم نادى جان الحوذى وكان فى تلك الساعة يلعب بالورق مع رفاقه الخدم فأمره الكونت بأن يأوى الجميع إلى فراشهم ... ثم قال لجان همساً :

— حين ينام الجميع تعال وأخبرنى

ولما انتهى من الادلاء بهذه الأوامر عاد إلى زوجه فأخذ يحدثها عن خسارته فى لعب البليارد وعن أمور أخرى عادية ، حتى إذا عادت روزالى وجدتهما جالسين معا بخير حال

وكان الكونت قد أصلح فى العهد الأخير جميع سقوف الغرف التى بالطبقة السفلى وجاء لهذا الغرض بمقدار وافر من الجص من باريس وقد أمل أن يبيع الباقى منه بعد سد حاجة الترميمات فيجد له سعراً عالياً فى البلدة ، وقد أوحى إليه ذلك بفكرة فى هذه اللحظة وبعد حين جاءت روزالى وقالت للكونت بصوت خافت :

— سيدى ، لقد جاء جورنفلو

فصاح بها قائلاً :

— أدخليه إلى هنا

ولما رأت مدام دى ميريه ذلك البناء شحب لون وجهها ثم قال له الكونت :

— يا جورنفلو ، إذهب واثت بطوب وافر يكفى لسد باب هذا الدولاب ، فاذا انتهيت من ذلك طليت البناء بالجص

ثم قال لروزالى وجورنفلو بعد أن انتحى بهما ناحية :

— إسمع يا جورنفلو ستنام هذه الليلة ، وفى الغد أعطيك جواز سفر إلى بلدة فى الخارج أدلك عليها ، وستمكث عشر سنين بهذه البلدة بشرط أن تكون فى نفس المملكة ، وستسافر أولاً إلى باريس حيث تنتظر قدومى ، وسأعطيك أولاً ستة آلاف فرنك لأجل سفرك ، وفى باريس أعطيك عهداً على بستة آلاف أخرى سوف تتسلمها عند عودتك بعد انقضاء السنوات العشر بشرط أن تكون قد نفذت كل شروطى ، وهذا هو ثمن كتمانك لما تعمله هذه الليلة . أما أنت يا روزالى فانى سأعطيك يوم زواجك عشرة آلاف فرنك بشرط أن تتزوجى بجورنفلو ، ولكن إذا كنت تريدين الزواج فيجب أن تمسكى لسانك وإلا فلا زواج ولا صداق !

وفى تلك اللحظة نادت مدام دى ميريه وصيفتها لتصلح لها شعرها

وكان الكونت يروح ويجىء وهو يراقب زوجه ووصيفتها والبناء ، ولكن دون أن يبدى شيئاً من الهواجس التى تختلج فى نفسه ... وانتهزت مدام دى ميريه فرصة اشتغال البناء بتفريغ الطوب ووجود الكونت فى الطرف الآخر من الغرفة فقالت لروزالى :

— لك منى ألف فرنك كل سنة إذا قلت لجورنفلو سراً أن يترك طوباً مفككاً فى أسفل البناء

ثم قالت بصوت مرتفع :

— إذهبى وساعديه

2017-11-11

وكان الكونت ومدام دى ميريه ساكتين طوال الوقت بينما أخذ جورنفلو يسد الباب بالبناء ، وقد أراد الكونت ذلك الصمت حتى لا يسطى زوجه فرصة لأن تقول كلمة ذات معنيين ؛ أما هي فقد رأت أن تسكت إما بدافع الكبرياء أو بعد النظر

ولما تم بناء نصف الحائط انتهز البناء الماكر فرصة عدم التفات الكونت فضرب بأداته على لوح زجاج بداخل الباب الذى يسده بالبناء وقصده من ذلك أن يخبر مدام دي ميريه بأن وصيفتها أخبرته وأنه موافق عليه وفى تلك اللحظة بدا للجميع — ماعدا الكونت الذى كان وجهه إلى الناحية المقابلة — وجه رجل أميل إلى السمرة وكان جاحظ العينين يرتسم الرعب فى ملامحه وقبل أن يلتفت الكونت أشارت مدام دى ميريه إلى ذلك الرجل إشارة معناها الأمل

وعند الساعة الرابعة من الصباح تم البناء وسد باب الخوان فبعث الكونت البناء إلى الحوذى جان لينام عنده وظل هو فى غرفة زوجه

ولما استيقظ فى صباح اليوم التالى قال لها دون اكتراث :

— يجب أن أذهب إلى المحافظة لأجل جواز السفر .

ووضع قبعته على رأسه ومشى ثلاث خطوات ولكن ظهر عليه أنه غير قصده فتناول الصليب الأبنوس وعندئذ كادت مدام دى ميريه تصيح من الفرح وقالت لنفسها :

— لاشك أنه ذاهب إلى دوفينيه

ولم يكد يغادر الدار حتى نادت وصيفتها وقالت لها :

— هيا على عجل، لقد رأيت كيف ترك جورنفلو طوبا مفككا وعلينا الآن أن نحدث الثغرة المطلوبة ثم نبنى عليها . هيا اتقنى بالأدوات

وسارعت مدام دى ميريه إلى العمل بهمة فائقة وأخذت تزيل جانبا من الطوب وإذا بها ترى الكونت يعود ثانية ويدخل الغرفة دون أن تنتبه وكان قد اكتفى بالكتابة إلى المحافظة بصدد جواز السفر وبعث رسولا إلى الجوهرى دوفينية ولاريب أن الكونت قد تنبأ بما ترومه زوجه فأراد أن يوقعها فى الفخ

وما كادت مدام دى ميريه ترى زوجها يدخل وبياغتها على ذلك الشكل حتى أغمي عليها فقال لوزالى :

— ضى السيدة فى سريرها

وبعد برهة جاء الجوهرى دوفينيه فأطلعه الكونت على ذلك الصليب وقال له :

— هل اشتريت هذا الصليب من رجل أسبانى مر بهذه البلدة ؟

— كلا

— حسن أشكرك

ونظر إلى زوجه وهى راقدة نظرة تحيل فيها الحقد ثم أمر بأن تمد وجبات طعامه فى غرفة المدام وقال لجان وهو يأمره بملاحظة ذلك

— لأن السيدة مريضة ولن أترك غرفتها حتى تشفى من مرضها

وقد مكث فى غرفتها عشرين يوماً، وفى الأيام الأولى منها كانت تسمع أصوات بداخل الخوان حتى كادت مدام دى ميريه تتوسل إلى زوجها أن ينفذ حبيبها السجين بذلك السجن الرهيب فكان الكونت يسبقها بقوله :

— لقد أقسمت على الصليب أنه لا يوجد أحد بداخل الدولاب !

عبر الرقاب مصطفى بحوزه

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

ابى العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

محققه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة وبباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الجب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

مصنع الفرش للطرابيش وغزل الصوف



تحذير للجمهور

اتصل بإدارة المصنع ان بعض محلات الطرابيش تعرض للبيع طرابيش أجنبية باسم طربوش الفرش المصرى . كما أنها تعلن عن بيع طرابيش الفرش بغير أسعارها المحددة . ولما كان هذا العمل مضراً بسمعة الطربوش المصرى عدا ما فى ذلك من تضليل للمشترى وحمله على شراء بضاعة بغير صفتها الحقيقية .

لذلك ترى إدارة المصنع من واجبها أن تحذر الجمهور من ذلك وتنبهه الى أن جميع طرابيش المصنع مختومة بختمين : الأول ختم طربوش الفرش الأسود وهو الختم الأوسط أعلاه والثانى ختم الصنف وهو بين نوع الطربوش كما هو فى الأختام الأخرى البيضاء أعلاه والمرجو من كل مشترٍ أن يدقق فى فحص هذه العلامات عند عرض الأصناف وقت الشراء إذ ليس لطربوش الفرش فى الوقت الحاضر أصناف أخرى خلاف الأصناف المبينة أعلاه كما أن الأسعار محددة

طربوش الفرش

مصنوع بأكمله فى مصر وبأيدٍ مصرية

صناعة مصرية صميمة

فتاة العصر

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

هو شاب جميل الصورة طاهر النفس ، فاضل الخلق ، له دين ومروءة وعفة وحياء ، يحفظ القرآن ويستلهمه القول والعمل ، ويقيم الصلاة زلفى وتقوى ، ويؤتى الزكاة طاعة ورحمة ، ويصوم رمضان تديناً وتطهراً . ومن يطلع على باطنه يجده صورة صادقة لظاهره ، وقد وهبه الله ضميراً يحاسبه على الخطرة الحبيسة حسابه على العمل المحسوس ، ويضرم فى نفسه حماساً وشوقاً إلى المثل الأعلى

وقد تسألنى أيها القارئ : هل هذا الذى نعنى أحد أشبال الاسلام الذين جاهدوا مع النبى الأمين ؟ فأقول لك : كلا ... هو من شباب العصر الحاضر ، وقد تهز رأسك بالطمئنان الذى اهتدى إلى حقيقة المسألة وتقول : « لا ريب أنه من أبناء الريف الطاهر الذى لم تلوثه حياة الحضر » فأقول لك : إنه من المقيمين فى القاهرة منذ ثمانى سنوات على أقل تقدير ، وإنه طالب بكلية الحقوق ، وإنه إلى هذا وذاك من أسرة سعيدة معروفة كريمة المحتد موفورة الثراء عظيمة الجاه فلا يعنيه من الاستهتار لو أراده فقر ولا ضرورة . وقد يأخذك العجب وتستبد بك الحيرة ويداخلك بعض الشك فى أننى لم أتوخ الدقة فى وصفه ، أو أننى أغض الطرف عن بعض نقائصه غض من يزكى عروساً ، ولكننى أؤكد لك أننى لم أجاوز فى نعته قولة الحق ، وأنه شاب فاضل حقاً ميزته سجاياه الجميلة عن جمهرة أمثاله من الشبان ، فهو لا يشرب الخمر ولا يرقص ولا يدخن ولا ينازل الطالبات والمعلمات . ويتجنب الملاهى حتى البرىء منها ، فلم يعرف عنه أنه اختلف مرة إلى السينما ولا دخل المسرح إلا مرة واحدة ليشاهد رواية يوليوس قيصر التى كانت مقررة حينذاك على طلبة البكالوريا ، وهو فى حياته العامة والخاصة كالمايد القانت لا يعرف طريقاً سوى طريق الجامعة أو الجامع ، ولا يطمئن إلى مكان غير البيت والمكتبة ، وقد وهب حياته جميعاً للعلم

وما كنت أتطفل على حياته لو أنه قدر لها أن تسير فى مجراها المألوف ... لأنه يصح أن يقال فيه ما قيل عن الفيلسوف كانط من أنه لا حياة له . وحسبك أن تعرف تاريخ يوم من أيام حياته الموزع بين العبادة والدراسة لكى تعرف حياته جميعاً ... ولكن قدر لحياته غير ما أراد لها ووقع له ما لم يدر فى خلد إنسان ...

كان يقيم منذ هبوطه إلى القاهرة فى الجيزة فى بيت من البيوت المعدة لسكنى الطلبة ، وكان يسكن البيت المجاور له محام شرعى مترمت ، فلبثت نوافذ الحجرة التى تواجه حجرته منافذ هذه الأعوام كأن لا حياة بها ، وانتقل المحامى أخيراً إلى مسكن جديد فحل مكانه موظف حكومى وأسرته ودبت فى البيت حياة جديدة وفتحت الحجرة على مصراعيها وتمتعت بمد طول الحرمان بنور الشمس وطيب الهواء

ولم يفت الشاب ملاحظة التطور الجديد ولكنه لم يلق إليه بالا . وإنه ليجلس إلى مكتبه ذات يوم يكتب بعض المحاضرات سمع ضحكة رقيقة ، فالتفت

2017-11-11

إلى الحجرة المواجهة له بحركة عكسية فلمحت عيناه «صورة أنثوية» ثم رد رأسه إلى الأوراق الموضوعة على مكتبه بسرعة البرق فلم يعرف من صاحبة الصورة إلا جنسها، أما لونها وشكلها فلم تلتقطهما عيناه أي أثر وما كان ينبغي له ... ومضى يكتب محاضراته إلا أنه كان يحرك عينيه — ورأسه ثابت — ناحية النافذة كلما مضت فترة من الوقت فيلحظ الصورة الأنثوية الغامضة في مكانها من النافذة لا تريم، حتى أخذه العجب من ملازمتها لوقفتها — الخالية من الحياء — واشتد به العجب فرفع رأسه ورأى فتاة تطالع في كتاب وكأنها أحست بحركته فهمت برفع رأسها ولكنه رد رأسه إلى موضعه الأول بسرعة وقد اهتاجه الحياء والغضب وهمس لنفسه: «عسى ألا تكون رأتني» وبات ليلته غير راض عن نفسه لأنه صرف ثوانى من وقته الثمين في غير ما يرضي الله ...

وفي صباح اليوم التالي وكان يرتدي ملابسه؛ لاحت منه التفاتة — لا يدري كيف — إلى نافذة جارته فرآها تطل منها في مصطف المدرسة الأزرق الجميل وعلى رأسها قبعة صغيرة أنيقة فالتقت عيناها قسراً، وسحب عينيه — كالعادة — بسرعة فلم يدرك حسن هاتين العينين ولكنه — وآسفاه — أحس بهما. وغادر البيت ساخطاً غاضباً يفكر في وسيلة يقطع بها دابر هذا الشر الباغت .. ولكن كيف ... إنه لا يستطيع أن ينتقل إلى حجرة أخرى فان جميع حجرات البيت مأهولة بالطلبة ... ولا يستطيع أن يغلق نافذة حجرته دواماً فهذا فوق ما يحتمل ... وجعل يفكر في أمر الفتاة ساخطاً غاضباً لاعناً، ولكنها على كل حال استطاعت أن تفرض نفسها على تفكيره سحابة يومه ...

ولدى عودته إلى مكتبه عصراً شعر بحبيبها إلى النافذة كما فعلت بالأمس ولكنه أقسم ألا يعيرها أي انتباه وألا يحدث بقسمه مهما كانت الظروف والأحوال؛ إلا أن جهداً كبيراً مما كان يصرفه في القراءة بذله في تركيز الانتباه وتجنب المحذور ... وبالرغم من ذلك المجهود الجبار فقد طرق أذنيه صوتها وهي تتكلم بصوت رخيم يجمل من أنغامه الأحاديث ألحاناً رشيقة، ولم يفقه لما تقول معنى، ولكن لم تتب عنه حلاوة الصوت ... ترى من تحادث ... ولكن ماله هو ومن تحادثه ... فلتحدث من تشاء ... أو فلتحدث نفسها كالمجانين ... المهم أن يصم أذنيه عن صوتها الخبيث ... يا للشيطانة ... إنها لا تقنع بهذا الحديث فتضحك ضحكتها الرقيقة الطروبة المغرية، وتالله إنها لتضحك لا بدافع السرور أو الطرب ولكن إيقاظاً للعواطف والشهوات ... فكيف السبيل إلى تفهم الرومانى والشريعة وسط هذه الاذاعة الجنونية المضطرمة؟...

ومضت أيام كثيرة وأسابيع وهي لا تكف عن أحاديثها الرقيقة وضحكاتها المثيرة وهو جامد كالجبار صارم كالصخر يجاهد نفسه مجاهدة عنيفة ويكبت عواطفه كبتاً لا هوادة فيه، ولكن الفتاة لم تستسلم للقنوط بل لجأت إلى طريقة شيطانية فأتت بطفل صغير وحملته بين يديها ومضت تداعبه وتلاعبه وتقبله قبلات حارة رن صداها في حجرته وتقول له بصوت مسموع «يا حبيبي ... قبلني ... أعطني شفتيك المذنبتين ... مالك لا تنظر إلي ... أنظر إلى حبيبتك ... ألا تحبني ... ألا يروقك وجهي ... أنظر إلي يا حبيبي ...»

2017-11-1

فكان يصغي إلى مناجاتها بقلب مرتجف كجناح طير ذبيح ، والدم يتصاعد إلى رأسه فيخضب وجهه وينبض بقوة في أذنيه ويستسلم إلى الاصغاء استسلام المجاهد اليائس أثناء الجهاد والعزم، ولا يلبث أن تتجلى في عينيه نظرة حزن عميق ويهتف من أعماق قلبه المعذب: « رباه... اغفر لي ذنبي وهبني من لدنك قوة » ... ولكنها كانت تزداد جرأة على مرور الأيام حتى كان يصلي عصر يوم فوقفت خلف النافذة تديم النظر إليه وتقول ضاحكة : «إيه لي» وتقول أيضاً : « الله يهديك ويفتح عليك » فلما أن رآه ركع ليختم الصلاة أخذت تقرأ التحيات معه كلمة كلمة ... فاضطرب واستحيا ... رباه ... لقد جنح فكره إليها وهو بين يدي الله . وانفتل من الصلاة حزيناً كئيباً وارتمى على مقعده وجعل يتلو الآية الكريمة: «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » وكأن الآية الشريفة أمدته بقوة غريبة فانتفض قائماً بعزم كالحديد وسار إلى النافذة وفي عزمه أن يغلقها بشدة وعنف ... وقرأت الفتاة عزمه في تقطيبة جبينه فهتفت به بدلال جميل « إخص يا قدري ... »

وانخلع قلبه في صدره ورفع بصره إليها وهو لا يدري، فامتلأت عيناه من وجهها الأسحر البدري وهو في غيبوبة الدهشة والذهول .... وجفلت يداه من مس النافذة فعاد إلى مكانه كمن يسير في حلم .... كيف عرفت اسمه ؟ .... كيف ؟ ... ولماذا ناديته به ؟ .... ما أجمل صوتها ! .... وما أجمل اسمه في صوتها ! .... إنه لم ينادِ هذا النداء من قبل .... وما هو بالنداء، إن هو إلا غناء جميل .... لقد غنى باسمه كما يغنى بأسماء مشاهير العشاق في الروايات الغنائية الخالدة ....

ولقد سما اسمه على أجنحة ذلك الصوت العذب إلى طبقات الفضاء العالية يتنافس محاسن الطبيعة حسنها وجمالها .... لقد أنى ذلك النداء على البقية الباقية من عزمه فتخاذل وتضعضع ولم يغن عنه عزمه ولا إيمانه فتيلا .... وطال ليله ولكنه لم ينم كبشار . وطرح على نفسه هذا السؤال أكثر من مرة « هل الحب فضيلة » ؟ إن ما يسمونه حبا وما هو إلا عبث وقبل ووعود كاذبة، رذيلة منكرة؟ أما تلك الجاذبية النفسية التي يهتدي بها الانسان إلى شريكته في الحياة فهي الحب وهي الفضيلة، ولقد أحب النبي الكريم الشيدة خديجة، ثم أحب مرة أخرى السيدة عائشة أم المؤمنين، وما كان في الحالتين إلا كامل الخلق كما وصفه الله تعالى .... فالحب بالرذيلة التي تخشى مقارفتها، وما عليه من بأس في أن يحب جارته التي أجيرته على حبها .... وهكذا جعل يهون وقع المصاب على نفسه ويبرره أمام ضميره ليطمئن نفسه المذعورة المنهالكة .... وفي الصباح قام من نومه نشيطا مبتهجا برغم تقلبه وتسهيده وارتدى ثيابه بعناية لم يلق إليها بالا من قبل ، وكان يختلس من النافذة نظرات يمتص الرجاء وردها النهيب، ولكنه ألفاها خالية ، ولم يبق شئ يعوقه عن الذهاب إلى الكلية ولكن كبر عليه أن يذهب قبل أن يتزود بنظرة من وجهها الأسحر الجميل .... ولكن النافذة ظلت خالية كالفم الفارغ الذي غاب عنه درره النضيد ....

ولم ير بداً من الذهاب فذهب كئيباً محسوراً ورجع متلهفاً جزوعاً ، وانتظر على حرقة وشوق، ولكن لم

بر لها أثراً ولا سمع صوتاً فذهب وجاء، وجاء وذهب وقام وقعد، وقعد وقام، وجعل يقلب فى أوراقه وكتبه بدون وعى، ودلف إلى نافذة حجرته واستند إليها وانتظر وانتظر . . . . ثم انتظر حتى ضاق به الصدر وكتمت الأنفاس وحتى ودّ لو يصرخ بأعلى صوته أو يسير شوطا كبيرا بغير هدى، ومضى ذاك اليوم غير محسوب من العمر فلا ذوق للطعام فى فمه، ولا معنى للرومانى فى عقله، ولا أثر للصلاة فى قلبه.. ولا سبيل للنوم إلى جفنيه . . . . لقد مات ذلك اليوم الأغبر . . . .

وفى صباح اليوم الثانى . . . . وكان الجمعة — ورآها كما كان يراها — فهبطت على قلبه ملائنة سعيدة، وفرح فرح ذلك الانسان الذى رد إليه نور الأبصار بعد ظلام العمى ورفع نظره إليها بعد تردد واستحياء، ولكنه أحس بخيبة لأنه رآها تنظر فى كتاب بين يديها غير ملتفتة إليه فأدام إليها النظر ولكن لم يبد منها ما يشعر بأنها أحست بوجوده، فاقترب من النافذة وسعل سعالا خفيفا فنظرت إليه نظرة غريبة لا حياة فيها كأنها تراه لأول مرة ثم عادت إلى النظر فى كتابها . ياللشيطان! ماذا حدث؟ أهى هى بذاتها أم هذه أخرى تشبهها؟ مالها هكذا جامدة وما الداعى إلى هذا الفتور؟ وفيم كانت إذاً مطاردتها له وإلحاحها عليه وتمنيها بحبه؟! أتناست هذا كله بين يوم وليلة فى الزهد مكان الرغبة والجفاء مكان المودة؟ ورآها تغلق الكتاب وتمد يديها إلى مصراعى النافذة تريد إغلاقها فنفسى نفسه وحياءه ورفع يديه إليها بتضرع وقال: « كلا . . . » فتوقفت ونظرت إليه نظرة شديدة إلى حين . . . ثم لم تبالك نفسها فانفجرت ضاحكة ضحكا مكتوماً ظافراً وتجلت فى عينيها نظرة الجنون والعبث . . . . فيالشيطانة . ولم تضع وقتها سدى، فأشارت بيدها إلى نفسها وإليه ثم إلى الشارع، فاضطرب وتحير وأشار إلى الشارع مستفهما منكرا فهزت منكبيها ببساطة وأحنت رأسها كأنها تقول « ولم لا؟ »

فازداد حيرة لأنه يرى أن « الزندى ڤو » باب من أبواب الحب المحرم لا الحب الفاضل فوقف مترددا لا يأتى حراكا ولكنها هزت يدها هزة عصبية تستحثه . . . فأسرع إلى بدلته وارتداها ووضع الطربوش على رأسه بعناية فائقة وهبط السلم إلى الطريق لا يلوى على شىء، فرآها تسير على بعد أمتار منه فتبعها كالكلب الأمين، حتى بلغا ميدان الجيزة وانحرفت إلى اليسار فى طريق الأهرام وهو فى أثرها يتلفت بين الحين والحين يمنة ويسرة . . . وانتهت إلى محطة الترام ووقفت، فوقف على بعدمنها قريب مضطربا حائراً محمر الوجه — فالتفتت إليه وابتسمت ابتسامة مشجعة فابتسم ابتسامة ذاهلة ولم يدر ماذا يصنع، فلم تر بداً من أن تتقدم إليه وتمد إليه يدها وتقول برقة: « بونجور » فمد إليها يده كالخائف ورد عليها وهو لا يدرى مايقول « بونجور مسيو » وهمّ بالانثناء فيا حوله ولكنها همست فى أذنه ضاحكة « الثبات» وجاء الترام رقم ١٤ فصعدت إليه وصعد خلفها وانتبذ مقعداً منفرداً وذهب بهما فى طريق الأهرام — وفى أثناء الطريق لاحظت ارتباكه فسألته برقة . . .

— مالك؟ فقال بصوت ضعيف

— لاشىء مطلقاً . . إلى أين نحن ذاهبان؟

— ستعلم بعد حين

— وماذا عسى أن يقولوا فى البيت؟

2017-11-11

فأرته كتاب الطبيعة للمدارس الثانوية الذى كان بيدها وقالت ضاحكة :

— يقولون إنى أذاكر عند إحدى زميلاتى

فضحك قدرى وقد أحس بأنه ينبغى أن يقول شيئاً ليثبت وجوده كما يقولون فسألها :

— كيف عرفت إسمى ؟

— هذا أمر بسيط . . سمعت شخصاً يناديك

ماذا يقول بعد ذلك ؟ إنه لايجد مايقوله ! وقد سألته هى بتدلل :

— هل تعرف اسمى ؟ . .

— كلا . . .

— ولم لم تسألنى عنه ؟ . .

— ! ! . . .

— إسمى لولو

— إسم جميل

— حقاً ؟

— جداً

— مِرسى

— ولكن هل هو اسم عربى ؟

— نعم

— ولكنى لم أسمع به من قبل

فضحكت دهشة وقالت :

— لولو تدليل ليلى

— آه . . .

فقالت له وماتزداد إلا دهشة :

— أنت ساذج جداً ياقدرى

ما أحلى اسمه فى فمها ! وما أحلاها هى ! وما أحلى الدنيا فى وجودها

وسكتت عن الكلام حيناً فسكت طيباً وكانت تديم النظر إلى وجهه لاتحول بعينيها عنه ؟ فألقى عليها نظرة على عجل أبصر بها حسنها الفتان وأناقة ملبسها البسالتة ، ولم يمد يحتمل نظرتها الفاحصة فعطف رأسه إلى نافذة الترام وأرسل بناظريه إلى الحقول الترامية يميل نبتها الأخضر القصير مع ريح نوفمبر الخفيفة الباردة وقلب وجهه فى السماء كأنه يشاهد زرقتها الباهتة التى انتشرت عليها الكتبان من السحاب بعضها أبيض متوهج كالقطن المندوف، والبعض مظلم داكن كالدخان. والحق أنه ماكان يرى إلا الصورة التى انتزعتها عيناه من وجهها الأسمر الجميل واحتفظت بها متشبثة جشعة . ثم حول رأسه إليها فوجدها ماتزال ترنو إليه بعينيها السليتين الجذابتين ... رباه ! . . ، وأثارت الحديث مرة أخرى فسألته :

— أرى أنك طالب ... أليس كذلك ؟

— نعم

— بأى كلية ؟

— الحقوق

— آه ... وفى أى سنة ؟

— السنة النهائية

فبدا على وجهها الارتياح وعادت إلى الصمت وكانت تنظر إلى الطريق كل دقيقة وأخرى، وكأنما أصابت هدفها فقامت واقفة وهى تقول له : « هلم » ولم يكن الترام قد بلغ نهاية مرحلته إلى الأهرام فعجب قدرى ولكنه تبعها مستسلماً إلى مقهى قريب من المحطة ، واجتازت به المكان إلى حديقة خلفية صغيرة المساحة أنيقة التنسيق يخيم عليها سكون شامل وهدوء عميق ويوحى جوها بالخيال والحب ، فاتخذا مكانهما تحت ظل شجرة وارفة ولم يكن

2017-11-11

بالحديقة سوى زوجين متلهما فى الجانب المقابل لها وجاء النادل يسعى فطلبت ليلى بدون استئذانه « شوبين بيرة » دهش للطلب وامتلأ قلبه رعباً ... كيف يشرب خمراً محرمة ؟ وهم بالاحتجاج ولكنه لم يجسر عليه فسكت وهو كظيم ... وكان مبلبل الفكر يسأل نفسه : كيف عرفت هذا المقهى المنزل البعيد ؟ ومتى عرفته ؟ من الذى صحبها إليه أول مرة ؟ فانه من المستحيل أن يكون جيئها اليوم إليه لأول مرة ... يالها من فتاة غريبة الأطوار ... غاية فى الجسارة والجرأة ... أنظر إليها كيف تجلس واضعة رجلاً على رجل وساقها بادية حتى الركبة ... وانظر كيف تفتح مقدم معطفها عن صدر ناهد فيلوح نهداها من وراء ستار الفستان الرقيق كتفاحتين آن أوان جنيهما ...

وانتبه من أفكاره إليها وهى تقول :

— أنت لا تكاد تبرح حجرتك إلا حين تذهب إلى الكلية ... وفيما عدا ذلك فأنت لا تفارق مكتبك على الاطلاق ... لقد عجبت لشأنك وقلت لنفسى : يالله من شاب ليس كالشبان ... ثم رأيتك لا تبالى بى ... فأنصت

وكان الباقى مفهوماً فلم تكمل حديثها وضحكت ضحكة الظافر ثم عادت تقول :

— لا تظن أن إصرارى — الذى لا شك أدهشك — كان محض عناد أو رغبة فى الفوز، فالحق أن وجهك الجميل أثر فى نفسى تأثيراً عميقاً من أول نظرة

فتلبله الحياء وخضب الاحمرار وجهه وتصبب العرق من جبينه وقال لنفسه : ويلاه ! من منا الشاب ، ومن منا الفتاة ؟ أما هى فسألته :

— لماذا جفوتنى طويلا . . أليس قلبك خالياً ؟

وحضره جواب ظن أنه غاية فى الجرأة وآية فى النزل فتردد عن قوله هنيهة ولكنه ذكر كلامها الجسور فجمع أطراف شجاعته وقال :

— كان قلبى خالياً

— والآن ؟

أف لها، ألا تكفيها الاشارة؟ وماذا يستطيع أن يقول زيادة على ماقال؟ ولكنها خففت من حيرته فقالت :

— وقبل ذلك ألم تحب أبداً ؟

— أنا ... ؟ أبداً

— أشباب وجمال وجفاف ؟

— ولم لا ؟

— ولكن ما قيمة الحياة بغير الحب ؟

— قيمتها بغير الحب أنها حياة خصب

— هذيان ما تقول ... فالرجل الذى لا يخفق قلبى فيه بالحب لا أعده من حياتى

— يا سلام !

— أنت إما سافنج غرير أو ماكر داهية

— لا شأن لى بالمكر والدهاء ... ولكن هل أحببت كثيراً ؟

— طالما أبحث عن الحب ... إنى أحب الحب ... ولئن ضللته فى الواقع فما أضله فى الخيال فانى أخلق حبيبى خلقاً وأناجيه بالشعر ... ألا تعلم أنى شاعرة ؟ ثم أنتفى بشعرى لأنى موسيقية أيضاً ...

— شعر وموسيقى ...

— نعم ... ولكنى أحب الفن للحب لا للفن ... وكم أتمنى لو يتحقق خيالى يوماً وتتفتح حياتى تحت

2017-11-11

شماع الحب ، إن قلبي يحدثني بأني بت على خفقة قلب من أمنيتي

فعاوده الحياء الشديد واستولى عليه الارتباك وجعل ينظر إلى غطاء المنضدة كأنما يشاهد الصور المطرز بها ، فكرت تداعبه وتقول وهي تتنهد :

— بهذا حدثني قلبي وأرجو ألا يكذبني ... ولذلك جدوت في طلابك لتطمئن نفسي

فابتسم وقال :

— إذاً فأنا تحت التجربة ؟

— هو ما تقول ... ألا تقرني على ما فعلت ؟ أما أنا فاني مقتنعة بأني ما تنكبت جادة الصواب ، فهذا هو السبيل الوحيد إلى « الحياة الزوجية » السعيدة ... !

وحيرته تلك الجسارة التي لم يسمع بمثلها من قبل وعجب كيف أنها تخلص إلى غرضها غير مكترثة للحياء أو التردد كالسهم الذي ينفذ إلى القلب من خلال الدرع المتين ، ورأى ألا يجمل التخجل سلطاناً على نفسه خشية أن تقتحمه عيناها وأراد أن يخوض الموضوع بجرأة تماثل جرأتها فقال :

— صدقت يا ليلى ...

ولكن سرعان ما غالبه التردد فتلبد ولم يزد على قوله حرفاً ، وشاهدت حيرته فقالت :

« أراك تحجم عن الكلام ، على أن هذا هين علي ، وكم من شاب يجيد ترويق الأحاديث وقلبه من الاخلاص خال ... أنا أبحث عن القلب الذي يخلص لي ... »

قالت ذلك ووضعت يدها على يده فانتفض انتفاضة سرت إلى جسمها وبلع ريقه مرتين وقال بحرارة ووجد :

« قد بز علي الكلام يا ليلى ولكني مخلص .. أي نعم أنا مخلص وصادق ولست كأحد من الشبان الذين تمنين ... أنا لا أخادع فتاة وأمكر بها كي أحظى منها بقبلة ثم أفر هارباً ... »

فضحكت وقالت وهي تشير بيدها « أنظر » فنظر إلى ما تشير إليه فرأى الزوجين الجالسين تجاههما يتعانقان فبدا على وجهه الغضب وقال :

— هذا شاب عابث ممن تمنين

— ما الذي جعلك تسارع إلى هذا الحكم ؟

— ألا ترينه يقبل فتاته ؟

— ولم لا يقبلها إذا كان يحبها ؟

— فقال بشيء من الحدة :

— الحب الطاهر يترفع عن هذا العبث

فقالت بدلال وما تزال يدها على يده :

— هنا لك قبلات طاهرة بريئة

— وما الفرق بين القبلة البريئة وغير البريئة ؟

فأدنت وجهها من وجهه وهمست قائلة :

— القبلة البريئة تنال بغير فضول أعني بلا ضم ولا عناق

ورأى فما دانياً كأنه يقول له « قبلني » فمرت به لحظة رهيبة ... ونظر إليها في حياء وارتباك لا يدري كيف ينال هذه القبلة البريئة ، وكان كلما مرت ثانية ازداد إحجاماً ، حتى سمعاً سمعاً وقع أقدام ، فتراجعت الفتاة وقد احتقن الدم بوجهها ، وتنهد هو ارتياحاً ، وجاء النادل بالجعة ثم اختفى ثانية ، ورفعت الثوب وهي تقول « سمعك » فارتد سريعاً إلى حالة الارتباك والحياء ، ولكن تردده هذه المرة لم يطل لأنه أشفق من أن يجرح شعورها مرة أخرى فرفع « الثوب » وتجرع رشفة ثم رده

وقد بدا على وجهه الاشمئزاز ؟ فسألته :

— ألا تحبيك ؟ فقال :

— إنها مرة كريهة

— ألم تذقها من قبل ؟

— أبداً !

— حقاً إنك شاب عجيب ! لست كأحد من شباب العصر

— وهل تدعين العلم بهؤلاء الشبان ؟

— إن أمرهم مشهور

وصمت يفكر ملياً ، فساورته بعض الشكوك ، وتيقظت به سعيديته فسألها :

— ألم تعرفي أحداً منهم ؟

فباغتها السؤال ، ولكنها كانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تخفي حقيقتها إلى الأبد فقالت باخلاص « إسمع إلي يا قدري ... أنا لا أحب أن نبدأ حياتنا معاً بالكذب والرياء وما دمت تريد أن تعلم فاعلم أني عرفت شباناً كثيرين ... »

فاكفهر وجهه وأظلمت عيناه وسألها بصوت فاتر :

— وكيف حدث ذلك ؟

— كما يحدث عادة ؛ إذ ليس التعارف من العسوبة بالمكان الذي تراه، وكنت أذهب إلى اللقاء تغرر بي آمال قلبي في الحب فألقى خداعاً ورياء ووعوداً كاذبة فأرجع أتعثر في أذيال الخيبة والقنوط

فازداد اكفهرار وجهه وتصلبت عضلاته وساورته الشكوك فسألها :

— ألم ينل واحد منهم قبلة بريئة ؟

— لماذا تنبش الماضي ؟

— كيف لا ؟ ما الحاضر وما المستقبل إلا امتداد للماضي

— كنت أبحث عن ضالة قلبي المنشودة

— لم لم تنتظريها حتى تأتيك هي دون تلوث ؟

— تلوث ؟ ماذا تستطيع أن تنال قبلة من طهارة قلبي ونفسي ؟ لاتكن كالجامدين الذين ينظرون إلينا نظرة الجشع والأنانية فيود الواحد منهم لو يلهو ويعبث كيف يشاء على أن تنظره عروسه خلف الستائر لاتمسها يد كأنها لؤلؤة في قوقعة . . ينبغي أن نحظى بقسطنا من الحرية ، والحرية معنى سام. ولاتظن أني حمقاء، يخيل إلي الجاهل أن الحرية هي الاستهتار ، كلا، هي عندي الخلاص الالهي للعقل والشعور كما أرى بعقلي وأشعر بقلبي، فاذا أحببت فاني أهب قلبي عن حب صادق لا عن اضطرار أو تسليم أو يأس . كم من فتيات يجدن أنفسهن في بيوت رجال لايدرين كيف ذهبن إليها فيروضن أنفسهن على الرضا ترويض الأسير نفسه على الذل ويعشن حياة بهيمية تتحكم فيها ضرورات الحياة وحاجات الجسد ... كلا، ليس هذا الزواج الذي أريد . . أنا أريد زواجاً تلتحم فيه الروحان التحام الجسمين . . فيكون اتحادهما خير عتاد لهوام العشرة الشريفة السامية . .

— لا أنكر ما في كلامك من الوجاهة والحق، ولكن السبيل الذي تنتهجين لايسلم رواده من رذاذ يلوث السمعة .

— ليس ذلك لعيب فيه ولكن لأننا لم نعتد عليه . . فلا تجعل لهمس الناس فوق مايستحق من

2017-11-11

الاعتبار، واذكر أن مثلي إذا وهبت قلبها فانما تهبه عن حب يصمد للعواصف فهي آمن على الحياة الزوجية ممن تسمونها « فتاة البيت » أو « الغريرة التي لا تعرف من الدنيا شيئاً . .

وبدا على وجهه الارتباك والانقباض فتولاها الخوف والقلق وقالت بشيء من الانفعال :

— ماذا يهم الماضي أو كلام الناس إذا وجدتني منذ الساعة طاهرة مخلصة حتى الموت ؟ لا تنسخ إلى وسوسة نفسك وكن مثلي جسوراً واقتحم التقاليد السخيفة لتفوز بالسعادة . .

هل تبيعني بثمن بخس ؟

وكان مستغرقاً في تفكيره فلم ينتبه إلى سؤالها الصارخ فاشتد انفعالها وسألته :

— هل تبيعني يا قدري بثمن بخس ؟

فهز رأسه وهو لا يدري وقال لها :

— كلا . . ما فكرت في هذا قط

— إذاً فهل أطمئن إليك ؟

— كل الاطمئنان

— وهل أعزي نفسي عن طول عذابي بأن نبعي لم يضع هباء وأني وجدت أخيراً ما أنشودة ؟

— أرجو أن أكون كذلك

— وإنك لكذلك ؛ وما هو ذا قلبي دليلي يبث في نفسي الطمأنينة والاستسلام بما لم أعهده فيه من قبل ... كم أنا فرحة يا قدري ... إنك لم تقل لي أحبك ولم أقلها لك ولكن كلانا يعترف حاله بالحب وبأننا تعاهدنا عليه إلى الأبد ، أليس كذلك ؟

— نعم ... نعم ...

— أواه يا قدري ... كم أنا فرحة .. وكم أجد رغبة ملحة في الغناء ... ماذا تحب أن أسمعك دوراً ؟ لعبد الوهاب ؟

فهز رأسه بفتور ، فقالت ضاحكة :

— إنك كغالبية الرجال تحبون أم كلثوم

— ولا هذه ، فقالت بدهشة :

— ألا تحب الغناء ؟

— أحب أن أسمع صالح عبد الحي

— إيه !

فقلق لانكارها وسألها :

— هل تمدين هذا تنافراً بين روحينا ؟

فقالت تهدئ روعه :

— كلا يا عزيزي ، إن ماما وبابا في شقاق دائم بسبب عبد الوهاب وأم كلثوم ، ولكنهما زوجان سعيدان ... إني آسفة لأني لا أحفظ أدوار صالح عبد الحي ولكني سأغني لك « افرح يا قلبي ... » وغنت بصوت عذب أطربه وأسكره وما زالت تراوح بين الحديث والغناء وهما في دنيا لا تعرف الزمان والمكان حتى حانت العودة فعادا وافترقا على موعد جديد . . .

وحين خلا إلى نفسه صاح : ويله أي فتاة !

لقد بدأته بالمنازلة ... ودعته صراحة إلى تقبيل فمها ... وذكرت الحب والزواج وصارحته بماضيها الحافل ، وعادت وهي تمد نفسها مرتبطة معه بميثاق أبدي !! انتهى الأمر ، فأحب وخطب وعاهد بالرغم من أنه لم ينطق بجملة واحدة مفيدة ! فأي فتاة هي ؟! هذه واحدة ، أما الأخرى فهي ابنة عمه الحاج اسماعيل

حافظ تاجر القمح الشهير بجرجا التي يمد زواجه منها — لدى والديه على الأقل — أمراً مفروغاً منه على الطريقة الصعيدية ، الحنى أن ليلى محت من قلبه كل أثر لابنة عمه ، وأمثالها ولكن نفسه لم تطمئن إليها ، ولم يكن قدرى منلق القلب ولا متعصبا بل كان ذكيا حاد الذكاء لا تحجب التقاليد نور الحق عن عينيه، فقدر ما للفتاة من الذكاء واللباقة والرشاقة وأعجب بروحها الحساسة التي تلبي نداء الشعر والموسيقى والغناء، ولكن لم يشرب قلبه الاطمئنان فكان كمن يعجب بدين غير دينه دون أن توانيه الشجاعة على الدخول في الدين الجديد ...

وجعل يقول لنفسه: ماذا يكون حال لو تزوجتها ورآنا واحد من أصدقائها القدماء قال على صاحبه وقال ساخراً « أترى هذه المرأة التي تسير إلى جانب زوجها ... ؟ كانت وكانت ، وكنت وكنت .. »

ولكنه على تردده وخوفه لم يكابر في الحق فاعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه يحبها حبا لم يحبه أحداً وأنه يهيم بها هياماً ...

إن في قلبه لحباً قوياً يروضه على النزول على حكم زمانه، وإن في نفسه لتراثاً من التقاليد الناشئة يصده عن فلسفة العصر الحديث، وهو بينهما موزع لا يدري أين المستقر ، وعبثاً حاول أن يخلص من شكوكه وهواجسه ، وما زال يقدر ويقدر دون أن يهتدي إلى رأي أو يقر على عزم ...

نجيب محفوظ

الطائرة

اسرع وألطف وسيلة للسفر من مصر إلي العراق

وبالعكس

عن طريق فلسطين

سافروا بالسلامة على طائرات

شركة مصر للطيران

خصم ١٠ ٪ على تذكرة الاياب دائما

الاستعلامات وحجز التذاكر من أي مكتب سياحة أو من مركز الشركة بالمناطة

حاجي بابا الإصفهاني

للكاتب الإنجليزي "جيمس موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

(تابع)

وكان الضباط والجنود وهم أكثر الفارسيين كلاماً وأقلهم جرأة يصيحون : « اقتلوهم ! اضربوهم ! اعتقلوهم ! » ولكن أحداً من هؤلاء الصائحين لم يفعل شيئاً لمنع العدو المغير . وأطلقت بعض طلقات نحونا فلم يصب أحدنا لحسن الحظ إصابة جدية . وذلك بسبب الظلام

وفي أثناء هذه الحركة حدثتني نفسي بأن أترك اللصوص وأختبئ في مكان أفر منه في الصباح . ولكن رأيت بعد تفكير قليل أن ذلك يؤدي إلى اعتقالي ومحاكمتي لأن الثياب التي عليَّ تدل على اشتراكي مع التركمان في هذه الغزوة . وليت الأمر يقتصر على الاعتقال والمحاكمة بل إن أهل المدينة يمزقونني إرباً إذا رأوني قبل أن أجد فرصة لشرح حالتي لهم

ورأيت وأنا أجري في الطريق حانوت أبي فتذكرت أبي السعيدة . ولم أستطع منع نفسي من التريث قليلا والالتفات إليه بعد أن غادرته

وشعرت في هذا الحين بيد تمسكني من ذراعي ورأيت أصلان سلطان عابس الوجه يهددني بالقتل إذا لم أرهن على أنني أهل للثقة التي أولانيها، فلأجل أن أظهر له وفائي هاجمت رجلا فارسياً كان قد خرج ليرى سبب الهياج وقلت له إنه إذا لم يتبعنا أسيراً فإني أقتله

فصاح الرجل متوسلا بقبر الحسين وبقبر عمر وبروح أبي أن أتركه

ولما سمعت صوته تأملت في وجهه فاذا هو أبي، ولا بد أن يكون غرضه الأول من الخروج إلى الطريق في هذا الوقت هو إنقاذ ما بحانوته من أيدي اللصوص ولم يكن بذلك الحانوت غير ستة مناديل وأربعة كراسي وصندوق من المواسي وصابون وسجاد

ولما عرفت أنه أبي تركت لحيته التي كنت قابضاً عليها وهممت بأن أجري على عادة الفارسيين في احترام آبائهم فأقبل يده وأقف أمامه منتظراً أوامره، ولكنني رأيت أنني لو فعلت ذلك لقضيت على حياتي وحياته فتظاهرت بأنني أضربه ووجهت ضرباتي إلى سرج جوادي وقال متمتماً : لو كان ابني حاجي بابا موجوداً لما عوملت هذه المعاملة »

فآلمني هذه الكلمة أشد الألم وقلت لأصلان باللغة التركية : هذا الرجل لا يفيدنا بشيء لأنه حلاق »

ثم تركته وركضت مع أصلان

الفصل السادس

التقهقر مع الأسرى وتوزيع الأسلاب

لما وصلنا إلى مكان بعيد عن المدينة نزلنا عن الخيل لنريحها ونستريح ولم ينس أصحابي أن يسرقوا جملاً في جملة ما سرقوه فذبحوه وشووه واقتسمناه بيننا ، وكان أول شيء فعلناه بعد ذلك هو التحقيق مع الأسرى لنعرف ماذا استفدناه من أسرهم . وكان الأول طويل القامة نحيل الجسم يبلغ الخمسين من العمر حاد النظرات بادي عظام الوجنتين خفيف

اللحية يبدو عليه التفكير . وكانت ثيابه ثمينة دالة على الغنى

وكان الرجل الثانى قصيراً سميناً ممتلئ الوجه بالحمرة تدل هيئته وثيابه على أنه من كبار الموظفين وهو يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر

وكان الرجل الثالث قوى الجسم متجهم الوجه تدل هيئته على القوة والصلابة

أعطينا هؤلاء الأسرى ما بقى من طعامنا ، ثم دعونا واحداً بعد واحد منهم واستجوبناه عن صناعته ومركزه فى الحياة . ولما لم يكن أحد من زملائى يعرف اللغة الفارسية فقد قمت بمهمة الترجمة وكان الذى يلقى الأسئلة هو أصلان سلطان . وسألنا الأسير الأول :

— « من أنت ؟ »

فقال بلهجة المستسلم : « أنا يا سادتى رجل فقير ليس لى مركز فى الحياة »

— « ما صناعتك ؟ »

— « أنا شاعر ولست أحسن أى عمل من الأعمال »

قال أصلان وهو يظهر الاشمئزاز عند ما سمع هذه الصناعة : « شاعر ! وماذا نستفيد بالشعر ؟ إن ثمنك لايقدر عندنا بعشرة قروش . إن الشعراء فقراء ولا يقبل أحد أن يفتديهم من الأسر لأنه لا نفع فيهم »

ثم قال : « ولكن إذا كنت شاعراً فمن أين جاءتك هذه الثياب الثمينة ؟ »

فقال الشاعر : هذه خلعة أجازنى بها أمير شيراز على قصيدة مدحته بها

فأمر أصلان سلطان بنزع هذه الثياب عنه وإعطائه ثوباً من سلخ الغنم . ثم جىء بالرجل القصير السمين وسألناه :

— « ما اسمك وما صناعتك ؟ »

— « أنا قاض فقير »

— « وكيف تلبس هذه الثياب إذا كنت فقيراً ؟ اعترف بأنك غنى وإلا فصلنا رأسك عن جثتك . إن كل القضاة أغنياء فصناعتهم تجارة رابحة »

قال القاضى الأسير : « أنا قاضى مدينة جالادون وقد جئت إلى أصفهان بأمر من الحاكم لأدفع الضريبة عن مزارعى »

فقال أصلان سلطان : « وأين هى الأموال التى جئت لتدفعها ؟ »

أجاب القاضى : « ليس معى أموال لأن الجراد أتلف زراعتى فى هذا العام ولم يكن ماء الرى كافياً »

فقال الزعيم : « هذا القاضى يقدر بثمن كبير وإذا كان عادلاً فان الفلاحين يودون أن يعود إليهم . أما إذا لم يكن كذلك فان قيمته لاتقدر بدينار (وهو أصغر عملة فى فارس) احتفظوا به فقد يكون انتفاعنا به أكثر من انتفاعنا من أى تاجر غنى.

ولننظر الآن ماقيمة الرجل الثالث »

واتجه أصلان سلطان إلى الرجل الثالث وقال : « من أنت وما صناعتك ؟ » فقال الرجل بلهجة المعتز بنفسه ! « صناعتى فراش »

فصاحت الأصوات من كل جانب : « هذا كذاب ! هذا كذاب ! ويستحيل أن يكون فراشاً . أنت تاجر وإذا أصررت على كذبك قاتلنا سنقتلك »

ولكن الرجل أصر على قوله فضربوه حتى اعترف بأنه تاجر

2017-11-11

ولكنني وأنا أكثر منهم معرفة بأحوال الناس رأيت من هيئة الرجل أنه قد لا يكون تاجراً وأنه ربما كان صادقاً فيما يقول، فحاولت إقناعهم بذلك ولكنهم زجروني وحاول بعضهم أن يضربني فاضطررت إلى السكوت . وتداول أصحابي بعد ذلك فيما يجب أن يفعلوه بالثلاثة الأسرى ، فقال البعض إنه يحسن إبقاء القاضي وقتل الشاعر والفراش، ورأى البعض إبقاء القاضي طمعاً في فديته واسترقاق الفراش . واجتمعت كلمة الفريقين على قتل الشاعر

وقد أخذتني الرأفة بهذا الرجل الذي كانت هيئته تدل على أنه كبير الأهمية وعلى أنه غنيّ بالرغم من ادعائه الفقر فقلت لأصحابي : « ما أهول التخطة التي تريدون ارتكابها ! تقتلون شاعراً ؟ ألا تعرفون أن الشعراء قد يكونون من أغنى الناس وأنهم جميعاً قادرون على الوصول إلى الغنى متى انجهت ميولهم إليه لأن كسبهم من ثمرات عقولهم ؟ ألم تسمعوا عن الملك الذي كان يعطي الشاعر مثقالا من الذهب عن كل بيت يقوله ؟ أليس الشاء الحالي يجزل العطايا على قصائد المديح ؟ ومن يدري لعل الشاعر الأسير عندنا الآن هو شاعر الملك » !

قال أحد اللصوص : « إذا كان الأمر كذلك فليكتب لنا قصيدة في الحال وإذا لم نجن بكل بيت منها مثقالا فاننا نقتله »

فقال الجميع : « قل لنا شعراً وإلا قطعنا لسانك »

وأخيراً تقرر أن يبقى الثلاثة الأسرى ثم بدأوا يقتسمون بينهم الأسلاب، فدعانا أصلان وجمعنا حوله وسأل كلا منا عما سرقه فقدم إليه بعضهم مباسم ذهبية وقدم البعض علباً فضية أو طيلساناً أو غير ذلك من الأشياء القليلة الثمن . ولما جاء دوري قدمت الصندوق المملوء بأكياس الذهب وكنت قد راجعت عقلي وخشيت أن يوجد مع الكيس الذي خبأته فوضعته بالصندوق مكتفياً بما اعتقدت أنهم سيمنحونه لي من الأسلاب

لكن طاش فألي فانهم قابلوني بالتصفيق وامتدحوني وأثنوا عليّ . ولكنهم لم يعطوني شيئاً رغم إلحاحي الشديد

قال أصلان عند ما قدمت إليه الصندوق : « أحسنت ياحجي . أحسنت كل الاحسان . لقد أصبحت تركمانياً صادقاً وليس في وسع أحدنا أن يفعل خيراً مما فعلت »

ولما انتهى كل واحد من إخواني قال الزعيم : « إنني سأتبناك ياحجي بابا وسأقيم لك خيمة وحدك وأزوجك من إحدى إماثي وأعطيك قطيعاً من الغنم وسأدعو إلى عرسك جميع المعسكر »

لم يكن شأن هذه الكلمات إلا أن تزيد من تصميمي على الفرار في الفرصة الأولى . ولما طلبت إعطائي نصيباً من الأسلاب قيل لي : « إذا قلت كلمة أخرى فاننا سنقطع رأسك »

فسكت مكرهاً ثم اقتسموها بينهم فحدثت منازعات كادت تؤدي إلى سفك الدم لولا أن واحداً منهم قال : « لماذا نختصم كذلك وبيننا قاض ! تعالوا نترك الأمر لحكمه »

فجيء بالقاضي الأسير ليكون حكماً بين اللصوص الذين يختصمون على توزيع أمواله لأن أكثر المسروق كان مملوكاً له

2017-11-11

الفصل السابع

تاريخ الشاعر عسكر

عدنا من نفس الطريق الذى أتينا منه . وكان منظر الشاعر منذ أسرناه مؤثراً فخصصته بعطف وقد أرضيت غروري بأن أصبح فى حمايتي رجل من رجال الأدب فى وقت محنته . ونجحت فى تولى الرقابة عليه محتجاً بأنى سأحته على نظم الشعر

وصرت أتكلم معه باللغة الفارسية التى لا يفهمها أحد من التركمان وقد أمنت جانبه وأمن جانبي فأعربت له عن رغبتى فى الفرار وأظهرت له استعدادى لأداء أية خدمة له . وقد ظهر عليه السرور حين سمع كلماتى الرقيقة حيث كان لا ينتظر إلا معاملة خشنة . ولما اكتسبت ثقته بهذه الوسيلة أخذ يحدثنى بحرية عن نفسه وشئونه وقد كان كما ظننت شاعر الملك

وكان لقبه الرسمى « ملك الشعراء » وكان عائداً من شيراز (حيث أرسله الشاه فى مهمة) إلى طهران ومر بأصفهان ليلة وقوعه فى أسرنا .

ولقطع المسافة فى الطريق الشاق طلبت إليه أن يحدثنى بقصته بعد أن حدثته بقصتى فروى لى تاريخه كما سأذكره متوخياً ذكر ألفاظه . قال :

« ولدت فى مدينة كرمان واسمى عسكر وكان أبى حاكما على المدينة فى عهد الملك الخصى « آغا محمد شاه » وبالرغم من كثرة الدسائس التى كان يراد بها عزل أبي فانه كان من القوة بحيث تتغلب على كل أعدائه . وبقى فى منصبه حتى مات موتاً هادئاً فى عهد الشاه الحالى وورثت عنه عشرة آلاف طومان (نحو ستة آلاف جنيه) وكنت فى صغرى منهمكا فى الدراسة حتى بلغت السادسة عشرة من العمر فأصبحت من أكثر الناس استظهاراً للشعر . وكان ديوان حافظ الشيرازى مما حفظته عن ظهر قلب . وصرت أقرض الشعر بسهولة عجيبة حتى اشتهرت بأنى أستطيع أن أجعل كل كلامى منظوماً . ولم أترك موضوعاً إلا وكتبت فيه ، فكتبت عن ليلى ومجنونها ونظمت قصائد كثيرة على لسان البلبل يناجى بها الورد ، وفى مختلف المراثى والأغراض . وفى ذلك الوقت كان الشاه يحارب « صادق خان » وهو زعيم كان يطالب بالعرش .

وقاد الشاه جنوده بشخصه لضمان الانتصار على هذا الثائر فكتبت قصائد كثيرة فى مدح الشاه وتشجيع جنوده على الحرب وجعلت فى بعض هذه القصائد كلاماً على لسان رستم أشهر الفرسان فى تاريخ بلادنا وجئت بالمعانى البديعة التى سهل حفظها وكثر تداولها ، ومن هذه المعانى قولى إنه لاحق لجنود صادق خان فى التظلم من الشاه لأنه وإن كان قتلهم إلا أنه جعل رؤوسهم عالية برفعها إلى السماء . وقد سمع جلالة الشاه هذا القول فى جملة ما سمعه من مداحى فطرب وأمر بنصب أعمدة توضع فوقها رؤوس الثائرين تصديقاً لما قلته .

وأكرمنى أكبر اكرام يمكن أن يناله شاعر وذلك بأن ملأ فمى درراً فى وسط جمع حاشد من كبراء الدولة ورجال البلاط والوزراء والحكام . وكان هذا أول باب لرفعتى فقد عينت بعد ذلك فى الحاشية وجعلت شاعر الملك وكلفت بالكتابة عن كل الحوادث . وقلت للشاه إن الشاعر الفردوسى وضع كتاباً لتخليد ذكرى جده وسمى كتابه « شاه نامه » أى تاريخ الملوك وإن ذلك الشاه أذن بأن يقدم الكتاب باسمه وكافأ صاحبه عليه .

2017-11-11

واستأذنت جلالته أن أضع كتاباً أدعوه « شاهنشا هنامه » أى تاريخ ملك الملوك ، فسر الملك وأذن بوضعه وتنويجه باسمه وشكرنى .

وكان وزير المالية عدواً لى بغير سبب يحمل على العداوة ففرض علىّ ضريبة قدرها ١٢٠٠٠ طومان بوصف كونى أكبر شاعر فى البلاد فرفعت أمرى إلى الشاه الذى أمر بالغاء هذه الضريبة .

وحدث فى يوم من الأيام أن دارت مناقشة فى جمع كبير عن الجائزة التى أثاب بها محمود شاه شاعره الفردوسى وهى منحه مثقالا من الذهب على كل بيت فقلت إن هذه الجائزة تعدل ، لا بل تقل عن جوائز الشاه الحالى لشاعره الضعيف الموجود بينكم الآن ، فالتفتت إلىّ العيون وبدا على كل من المجتمعين أنه قوى الرغبة فى معرفة الجائزة التى أثابنى بها الملك . فقلت إن جلالته سمح بأن أرث عن أبى عشرة آلاف طومان مع أنه كان حاكما وأموال الحكام يرثها الشاه إذا أراد ، وفقاً لقوانين هذه البلاد فكان هذا المبلغ أول جائزة نلتها . ثم أراد وزير المالية أن يفرض علىّ ضريبة قدرها ١٢٠٠٠ طومان فرفع جلالته عنى هذه الضريبة وأجازنى بكيس وكيت . وذكرت هداياه لى والراتب الذى أتقاضاه فى منصبى ، فكانت جملة ذلك أكبر من جائزة محمود شاه الشاعر الفردوسى ثم هتفت بحياة الملك وبأن ينصره الله على كل أعدائه

وكنت على يقين من أن كل ماقلته فى هذا المجلس سينقل إلى الشاه بأحرفه . وبعد بضعة أيام جاءتنى خلعة سنية لا أزال أرتديها فى الأعياد وفى أيام المقابلات الرسمية . وهنأنى كافة الأصدقاء فشعرت من السرور بما لم أشعر بمثله من قبل

وكتبت قصيدة أمدح بها الملك وأثأر ثأراً مضاعفاً من وزير المالية ، وكان كل بيت فيها محتملاً معنيين أحدهما فى مدح الملك والآخر فى ذم الوزير .

وكنت فضلاً عن الشعر الذى تفوقت فى صناعته تفوقاً عظيما ، على جانب كبير من المعرفة بالميكانيكا فاخترعت آلات نالت إعجاباً شديداً فى القصر الملكى واخترعت كذلك نوعاً من الورق وآخر من الحبر وبعض أنواع الثياب . وقد تركت الشعر مدة كنت فى خلالها أشتغل باختراع أقمشة تغنى عن التى نستوردها من أوربا . فطلبنى الشاه وأمرنى بأن أعود إلى نظم الشعر وأترك الاشتغال بالأقمشة لأن ما يرد من أوربا يكفى مؤونة الاختراعات فصدعت بأمر جلالته ...

ولما جاء يوم النيروز استعد كل من خدم جلالته لتقديم هدية إليه كما هى العادة فى هذه البلاد ونظمت قصيدة رائعة فى مدحه فكتبتها بخط جميل ووضعتها فى إطار ثمين وقدمتها إليه ، فلما سمعها منى وقرأها أمر كل وزرائه ورجال حاشيته بأن يقبلوا فى ففرحت بإكرامه لى وإن كان قد ساءنى اختيار هذا النوع من الجزاء

وأخذ الناس لا يعدون الفردوسى شيئاً يذكر بالقياس لهذا الشاعر الحديث

وكذلك صرت من أقرب المقربين إلى الملك وانفتحت أمامى أبواب الغنى كما انفتحت أبواب الجاه

وكان آخر ما أكرمنى به أن أرسلنى إلى شيراز مندوباً عن جلالته لأسلم الخلعة السنوية التى يرسلها إلى ولى عهده . وأرسل معى هدايا غالية وعهد إلى باستلام الضرائب من الجباة فى الطريق ، فكانت جملة ذلك عظيمة جدا

2017-11-11

ولما حدث حادث الأمس ضاع كل ذلك فلم يبق منه شيء فصرت أتعس إنسان في الوجود. وإذا أنت لم تهيئ لي الطريق إلى الفرار فاني سأموت أسيراً بين هؤلاء اللصوص . ولو سمح الملك بأسري فانه يتمنى خلاصي ولكنه لايدفع ديناراً واحداً ليفتديني لأن وزير ماليته لابد أن يحاول منعه عن ذلك منهزاً فرصة غيابي . ولأن رئيس الوزارة يكرهني كذلك لأني قلت في يوم من الأيام وقد جرى بيننا الحديث عن الفنون الصناعية والفنون الأدبية : « إنه لا قيمة لحكمته ومعارفه إذا لم يكن يعرف من الصناعة تركيب الآلات التي تدور بها ساعته على الأقل » . وربما كانت الأموال التي أتيت بها قد سرقت جميعها وهكذا أصبحت يائساً . ولكنني أتوسل إليك بحمامة الاسلام التي تربطني بك أن تساعدني إذا أمكنتك المساعدة »

الفصل الثامن

مهاجمة بابا بهرسب من اللصوص

لما انتهى الشاعر من سرد قصته أكدت له استعدادي لبذل كل ما في وسعي لخدمته، ولكنني أوصيته بالصبر وبالتجلد في الوقت الحاضر لأني لم أملك بعد حريتي ومن الصعب أن أحميه وأحمي نفسي قبل أن أصير حراً، وأفهمته صعوبة الفرار منهم لأن رقابهم شديدة على الصحراء وجيادهم مثل جيادنا وهم أكثر خبرة بالطريق فالهرب إذن لايمكن أن يكون إلا محاقة . وخير وسيلة هي الصبر وانتهاز الفرص

جاوزنا الصحراء ووصلنا إلى الطريق الذي يمر بين طهران ومشهد وصرنا على بعد عشرين فرسخاً من داماجان ، فأمرنا أسلان بالبقاء يوماً أو يومين في هذا المكان لعلنا نجد فيه قافلة فنهاجمها لأن هذا الطريق هو طريق القوافل

وفي فجر اليوم التالي عاد إلينا أحد جواسيسنا يقول إنه رأى غباراً بتطاير من الجهة الغربية وإن قافلة ستقبل نحونا آتية من داماجان إلى مشهد . فقيدنا الأسرى وتركناهم في المكان الذي نحن فيه على أمل أن نعود إليهم متى فرغنا من مهاجمة القافلة وسرنا نحوها راغبين في السرقة وسفك الدماء

وكان في المقدمة أسلان سلطان وكنت بجانبه وقال لي : « هذه فرصة سانحة لك ياحاجي بابا لتتعلم كيف تقود هذه الغزوات في المستقبل . إنني أصبحت لا أستغني عنك لأننا قد نجد قوافل ليس فيها فرد واحد يعرف اللغة التركية وسأجعلك مترجمي الخاص »

وكنا كلما اقتربنا من القافلة نرى أسلان سلطان يزيد قلقاً واضطراباً . وأخيراً قال : « أخشى ألا تكون هذه قافلة فان نظام الصفوف يدل على أنهم جنود ؛ وفضلا عن ذلك أرى وميض الأسنة وشيئاً يشبه الأعلام »

ولما زاد اقترابنا منهم اتضح لنا أنهم جنود وأن الموكب موكب رسمي ولعله موكب حاكم مسافر من مدينة إلى مدينة فخفق قلبي سروراً لعلمي أن هذه أحسن فرصة سنحت لي للفرار وليس عليّ إلا الاقتراب حتى أمكنهم من أسري دون أن أثير ريبة في نفوس التركمان، وقد يعاملني الجنود معاملة سيئة في مبدأ الأمر ولكنهم سيعلمون بلا ريب بعد فترة قصيرة حقيقة أسري فيمتنعون عن إساءة المعاملة . وقلت لأسلان : « تعال نجر نحوهم. ودعون أن أنتظر أمره جريت نجري خلفي لكي يمتنع ولكننا سرنا على مسافة قريبة منهم ، فعاد وعدت معه وكان يسرع لكي ينجو وكنت أبطيء لكي أقع في الأسر

وفى هذه الأثناء انشق بعض الفرسان عن الموكب وجروا خلفنا وبحبحت مناورتى فأسرت ولكنهم فتشونى وأخذوا ما معى من الزاد والثياب وأخذوا الخمسين قطعة من الذهب وصندوق المواسى أيضاً وتحملت ضربهم إياى ولطمهم وجعى بصبر وجلد حتى جيء بى أمام زعيمهم وقد تبينت من شكله ومن ملابسه أنه أمير وزال كل شك عندما ضربنى الجنود وأمرونى بالسجود فى حضرة « الشاه زاده »

ولما خفت أن يتناولونى اجترأت فأمسكت بثوب الأمير وأنا راكع عند قدميه وصحت « بيناه بى شاه زاده ! » أى أنا فى حماية الأمير صاحب السمو الملكى »

ولم يكن لأحد أن يتعدى علىّ فى هذه الحالة لأن التشبث بثوب الأمير يعتبر عند الفارسيين لاجئاً إلى شخص مقدس كما يفر المذنبون فى أوربا إلى الكنيسة فلا يجوز اعتقالهم . وقد أمرهم سموه بأن يبتعدوا عنى ووعد بأن يحمينى فقبلت الأرض بين يديه وشرحت حالتى بأكثر ما يمكن من الايجاز وطلبت إليهم إذا أرادوا التحقق من صدق قولى أن يبعثوا بعدد من الفرسان ليقبضوا على التركمان . وقلت لهم إنهم إذا فعلوا ذلك فسيجدون فى أسرهم شاعر الملك واثنين من الوجهاء الفارسيين وقلت إن عدد التركمان قليل بحيث يسهل التغلب عليهم .

لكن الفرسان الذين كانوا يطاردون أصلان سلطان عادوا فى هذا الحين وأقسموا كذباً أن عدد التركمان كان يربو على الألف فأكدت لهم أن عددهم لا يبدو مائة فكذبونى واتهمونى بأنى جاسوس وبأنى أريد الشر بجنود الأمير وتوعدونى بالقتل إذا قام التركمان بهجوم ضدنا

ثم سار الموكب فى غير الاتجاه الذى يؤدى إلى لقاء اللصوص وقد بدا عليهم من الخوف ما يبدو على كل فارس يسمع لفظة « تركمان »

أخذ منى جوادى وأركبت بغلا من البغال التى تحمل الأمتعة ولم يكن يجيبى درهم ولا فيمن حولى صديق وندمت على الحماقة التى دفعتنى إلى الانتقال من أسر التركمان إلى أسر الجنود الفارسية وارتكنت على ما اعتاده قوى من حرية الكلام فأخذت أصيح بصوت عال : « أتدعون أنفسكم مسلمين ؟ إنكم قوم لا شعور لهم ولا إحساس وإن التركمان أكثر رجولة منكم »

لكن هذا النوع من الشكاية لم يستثر غير الضحك والسخرية ممن سمعوه فاستبدلت به لهجة الضراعة وأخذت أتوسل بعلى والحسين وبأرواح آبائهم وحياة أبنائهم وأذكر رابطتى الدين والوطنية واستعطفتهم بذكر ما لاقيته فى أسر أعدائى وأعدائهم فلم أجد عطفاً إلى من رجل واحد اسمه «على خاطر» وقد قال لى وهو يشمل لفافته : « إن هذه الدنيا بيد الله يابنى . وإذا كان الله قد جعل لون هذه الدابة أبيض فهل يستطيع على خاطر أن يجعل لونها أسود؟ وإذا كان الله رزقنى شعيراً فهل أستطيع أن أجعله قمحاً ؟ احمد الله على حظك حسناً كان أو سيئاً وتمثل بقول حافظ الشيرازى : « إن كل ساعة تمر عليك مع لا يمكن تعويضه »

تميزت بهذا القول بعض المزاء ولم أعجب من تمثل الجندى بشعر حافظ فان التمثيل بالشعر أمر شائع عند الفارسيين فهم أمة شعرية . وقد حملنى هذا الرجل معاملة عطف وشفقة وتقاسمنى طعامه فى بقية الطريق وأخبرنى أن الأمير الذى وقعت فى أسره هو النجل الخامس للشاه وأنه عين حاكماً

لفاطمة خراسان وهو ذاهب الآن ليتولى الحكم فيها وأنه مستصحب من الجنود أكثر مما اعتاد أن يستصحبه ليرهب التركمان ، وأن الأوامر صدرت إليه بألا يدخل معهم في موقعة جدية إلا إذا اضطر إلى ذلك ولكنه إن تلاقى مع عدد قليل منهم فليقطع رؤوسهم وليرسلها إلى طهران لتعلق على باب القصر الملكي .

قال لي الجندي : « احمد الله على أن سحنتك ليست كسحنة التركمان وإلا لقطعوا رأسك وأرسلوها إلى طهران فتحسب هناك من رؤوس الثوار .

ولما استرحنا من المسير في الليل عزمت على أن أحاول مقابلة الأمير وأرجوه أن يرد لي الخمسين قطعة من الذهب التي أخذت مني وثيابي وجوادي كذلك ، وكان صوت في نفسي يحدثني بأن حقي في هذا المال ليس أكثر من حق الذي سلبه مني . وقد انتهزت فرصة قبل صلاة العشاء فتقدمت إليه.

وكان جالساً على نمرقة في خيمة نصبت له وقد حاول الجنود مني ولكنني صحت : « عرضي داروم » أي « مي عريضة » فأمرني سموه بأن أدخل وسألني عما أريد

فشكوت إليه معاملة الجنود الذين سلبوني مالي عند ما اعتقلوني وطلبت إليه أن يأمر برد هذا المال وجوادي وثيابي

فسأل من حوله عن أسمائهم ، فلما أخبروه بهم استدعاهم فلما حضروا بين يديه سألهم عن مالي فانكروا أنهم أخذوا شيئاً مني . وأمر بتفتيشهم فلم يوجد معهم شيء . ولكنني أقسمت ورأى الأمير على وجهي علائم الصدق فأمر بجلدهم وطرحوهم على ظهورهم فوق الأرض ورفعوا أرجلهم المقيدة بحبل مربوط من الطرفين في عصا غليظة وضربوهم، فاعترفوا بالمال

عند ذلك صحت بأعلى صوتي مخاطباً الأمير : « أعطني المال إذن »

فنظر سموه بكبرياء إلى من حوله وقال : « ماذا يقول هذا ؟ اضربوه بالحذاء على فمه إذا عاد إلى الكلام

فرفع أحد الجنود حذاء أخضر يظهر أنه أعد خصيصاً ليضرب به الذنبون وقال : كيف تجرؤ يا وغد على مخاطبة الأمير بهذه اللهجة ؟ إذهب واقتح عينيك وإلا قطعنا أذنيك »

ثم دفعني بعنف إلى الجنود فقادوني من حضرة الأمير

عدت يائساً إلى صاحبي الذي لم يظهر شيئاً من الدهشة لما حدث وقال لي : « ما الذي كنت تنتظر ؟ أليس هو الأمير ؟ وهل تظن أي إنسان يرد شيئاً بعد أن يصير في حوزته ؟ إن هذه البنلة لا تسطيك من الحشائش الخضراء بعد أن تصير في فمها، وكذلك لا يسطيك الأمير المال بعد أن أصبح تحت تصرفه

« يتبع » عبد اللطيف النشار

المجموعة الأولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوديسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان - عابدين)

الرسالة

مجلة الأدب والعلم والفن

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء اساليب البلاغة العربية

بمجموعة اعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق

الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل سبعون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪



FastScanner
2017-11-11

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر و فى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

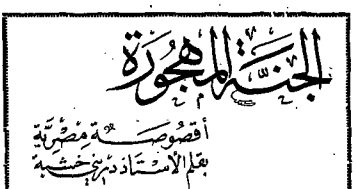
العدد ٤٤ | ٢٣ رمضان سنة ١٣٥٧ — ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

				صفحة
١٧٠٤	الجنة المهجورة	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...
١٠٨١	في المصيف	للكاتب الروسى أنطون تشيهوف	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى ...
١٠٨٦	البيوت الثلاثة	أقصوصة مصرية	بقلم الدكتور محمد بهجت ... ...
١٠٩٠	بعد ثمانية عشر قرناً	للكاتبة الانجليزية بارونس أورزى	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة .. ...
١٠٩٩	الملوح	القصصى الروسى فسفولد ميخائيلوفيتش	بقلم الأديب فخرى شهاب السعيدى ...
١١٠٧	جزاء الفضيلة	للكاتب التركى رشاد نورى	بقلم الأستاذ بشير الفريق ... ...
١١١٢	وفاء راقصة	للكاتب لافكاديو هيرن	بقلم الأديب السيد صلاح الدين المتبدد
١١١٨	حاجى بابا أصفهانى	للكاتب الانجليزى جيمز موير ..	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النمار ...

2017-11-1



— منزلكم جميل جداً يا نسيم ! حقول فسيحة تطن بالنحل والفراش ، ونهر عظيم ناعم الأديم ينبع من الأزل ويتدفق فى الأبد ، وريف وديع هادئ يُسيم فيه الشاء والبقر ، ويضم فيه الفلاحون بالتوت والجميز ... و ...

— حسبك يا محمود ! إن بيتنا هذا كالجنة المهجورة التى تفيض بالزهر الفياح والنبات الأريج ، وهى مع هذا بكماء خرساء عمياء ، لأن زهرها يفتح فلا يحس به أحد ، ونباتها يتأرج فلا ينتفع به مخلوق

— ماذا تعنى يا نسيم ؟ أعاشق أنت ؟

— أنا ؟... أنا عاشق ؟ وَيْلك يا أخى ؟

— ولم لا يا صديقى ؟ أنت شاب فى مقتبل صباك وشرخ شبابك ، فاذا لم تحب ، فلمن خُلق الحب ؟

— خلق الحب لمن خلقوا له !

— وأنت من أنتهم ! أليس كذلك ؟

— أنا ؟ لشد ما يخدعك مظهرى عن مخبرى يا محمود !

— لست أفهم !

— لأنك كمعظم الناس ، يخلبهم زخرف الحياة فلا يعرفون حقيقتها

— ماذا يا نسيم ؟

— لا شىء ! ألست قد بهرك هذا المنزل الجميل وذاك الرج المونق فخدعك ظاهرى عن باطنى !

— توشك أن تنقلنى من عالم الملموس إلى دنياك المترعة بالألغاز !

— ألغاز ؟ آه ! حقيقة إن الحياة ممتلئة بالألغاز ، بل المعميات ، وهى مع ذاك وعلى ما يبدو لى لا ألغاز فيها ولا معميات !

— وكيف يا أخى ؟ أكاد أحسبك تناقض نفسك !

— كلا يا محمود ! إن الحياة حقيقة تصدم النفس، وشعر يُزَوِّقه القلب ؛ والحقيقة تمتع نفسها ، أما الشعر فهو تعلات وآمال ، وهمس الروح التى تنشد الأمانى ولا تقدر عليها ، فهى تكتفى بأطيافها السابحة فى عوالم الخيال ، ترنو إليها وتنازلها بالأحلام ، حتى إذا استيقظت صدمتها الحقيقة المرة فَفُجِعت ، وتمنت أن تعود إلى أشعارها الحلوة ... ولكن هيهات !

— هيهات ماذا ؟

— هيهات أن تعود نفس صدمتها حقيقة الحياة إلى شعر الحياة !

— إنك تخيفنى يا نسيم بهذا الذى تقول !

— حقاً أنا أخيفك لأنك أحسست أن كلامى تنقلك من دنيا الأحلام الباطلة التى تسبح فيها إلى هذه الأرض التى خلقت من طين الحقيقة !

— لقد كنت أرجو أن أكتشف فيك غراماً ... فاذا

— فاذا أنت تكتشف فى آلاماً !

2017-11-1

— ومع ذاك فأنا لا أفهم مصدرها !
— إذا ... هل أدرك بيتنا يا محمود !

***

— هذه غرفة أبي !
— إنها غرفة صحية واسعة جميلة الأثاث !
— ألست ترى أنها كذلك !
— بل أكثر من ذلك ! ما أثمن هذه السجادة الفارسية ! وهذا السرير الوثير ما أبدعه !
— وتلك آية أخرى على أنك تعيش على هامش الحياة !
— وكيف يا صديق ؟
— لأن الذي فتنك من غرفة أبوي هو أثاثها وسجادتها وسريرها !
— وأنت ؟ ألا تفتنك هذه الأشياء ؟
— وكيف تفتنني وهي أكفان سعادتنا يا محمود !
— ويحك ماذا تقول يا نعيم ؟
— إي وربي إنها أكفان تلك السعادة العزيزة الغالية ... أنظر يا صديق إلى هذا السرير الذي تقول إنه وثير ... أليس يشبه النعش ؟
— أي نعيم ! أي صديق ! !
— ماذا يا محمود !
— إنك تزعجني !
— لعل الذي أزعجك شيء آخر ! هذه الألفاظ ... أكفان ... نعش ...
— أجل ... وشيء آخر ...
— وما هو ! ؟
— لهجتك ونبرات صوتك .. إن روحك تبكي من بين شفتيك
— أسلوبك جميل يا محمود ! بدأت تفهمني !
— لنخرج من هنا يا نعيم !
— ولماذا ؟
— لأنني أرتجف !
— ومم ترتجف يا صديق ! ؟
— منك !
— مني ؟
— هلم ! هلم نخرج من هنا
— إنك تهينني يا محمود !
— ما إلى إهانتك قصدت ، ولكن ...
— ولكن ماذا ؟
— ولكني رأيت شيئاً غريباً في عينيك !
— رأيت شيئاً غريباً في عيني ؟ إنها أحزاني يا محمود ، وكنت أرجو أن تواسيني ، فاذا أنت تريد أن تهرب مني ... تعال !

— ٢ —

— أهكذا تقضي هذه الحياة يا نعيم ؟
— وماذا عسانا أن نصنع يا أختاه ؟
— إلى متى تتجرعها كؤوساً من العلقم يا أخي ؟
— وماذا جعلها علقما يا أمينة ؟ ألسنا في سعة وعز ؟ أليس لنا هذا المنزل المنيف ومن حوله فاك البستان الفينان ؟ ألسنا محبوبين في ذاك الريف البريء ؟ فلِمَ تكون حياتنا علقما إذن ؟
— نعيم !
— ماذا يا أعز الناس علي نعيم !
— لقد آن أن أصرح لك !
— تصرحين لي بماذا ؟
— بالسر نفسه الذي يمزق صدرك ، وتحسب أنك أنت الذي تعرفه وحدك !

2017-11-11

— السر الذى يمزق صدرى ؟ أى سر هذا ؟

— نعم ! لماذا إذن أنت منقبض النفس سادر هكذا دائماً ؟

— بل خبرينى عن السر الذى تزعمين أنه يمزق صدرى ، ما هو ؟

— أراك تحاول أن أعترف أنا أولا ... كنت أحسبك أكثر شجاعة منى لأنك رجل وأنا امرأة

— عجباً ! أنتن يا بنات حواء تبدأن بنصب الشراك دائماً ! أى سر يا أختاه هذا الذى لا أجسر أن أعترف به لك قبل أن تعترفى لى به ؟

— وها أنت ذا تأبى إلا أن تبالغ فى الكتمان لأعترف أنا أولا ، ومع ذلك فقد أخذت تضطرب وتتنفس عرقاً !

— أنت بارعة فى اقتفاء الصيد يا أمينة ، على أننى أحلف لك أننى لا أعرف أى سر تريدين !

— إذن هذا الشاب محمود !

— ماله !

— لقد ... أحبنى !

— وهل هذا سر ؟ هاها ... إنى أكون مخدوراً إذا تزوجتها ! آه يا خيبتك ! لشد ما أفزعتنى !

— أرأيت إذن ؟ ها قد انشرح صدرك حينما اطمأننت على السر الذى يمزق صدرك ، وتأكدت أننى لا أعرفه !

— ماذا يا أمينة ؟ أتريدين أن تلعبى بى يا أختاه ؟

— سأظل ألعب بك حتى تعترف أنت أولاً ...

تكلم يا آدم ! إنك لن تنتلب حواء قط !

— يا عجباً ! تريدين أن أعترف ؟ أى سر هذا الذى يفزعك فلا تستطيعى البوح به ؟ ماذا صنع بك محمود ؟

— وماذا تظنه صنع بى ؟

— إعتدى عليك ! أليس كذلك ؟

— هو ذاك ! هو ذاك يا نسيم !

— ويْلك يا شقية ، يا ابنة الحية التى لا تلد إلا حية !

— مرحى مرحى ! لقد انتصرت ! ها قد بحت بكل شىء يا عزيزى !

— انتصرت ؟ وكيف ؟ وبم بحت أنا !

— ألست قد قلت إننى ابنة الحية التى لا تلد إلا حية ؟ وبم كنت تريد أن تبوح أكثر من هذا ؟

— أمينة ! أصدقينى يا أختاه ! أحقاً قد اعتدى عليك محمود ؟

— محمود يعتدى على ؟ والله لأرويت الأرض بدمه ! حقاً لقد كانت أمنا كما زعمت ، رحمها الله وغفر لها ، ولكنى تعلمت العفاف من مأساتها يا أختى فاطمئنى !

— أمينة ! ماذا تقولين ؟ أية مأساة يا أختاه !

— أوه أيها الأبله ! إلى متى تتعامق على ! إذن فاعلم أننى اكتشفت السر الرهيب بعد إذ اكتشفته أنت مباشرة ، وفى الليلة نفسها التى كدت تنقض على الكأس الهائلة لتشرب المثالة القتالة التى تركها أبوك المسكين ، لولا أن سمعت وقع قدمى !

— أمينة !

— محمود ! لا فائدة فى الانكار يا أخى ! يجب أن تتعاون على هذا الشقاء الذى أوقعنا فيه سوء طالعنا . نحن أبرياء ، ولكن البرىء فقط هو الذى يتعذب أكثر من غيره

— ولكن مالنا نحن إذا كان أبوانا قد شربا السم ... ؟

— مالنا نحن ؟ إننا الثمرة المرة يا أخى ؟ لقد اتفقا على أن يتخلصا من الحياة بالسم حتى لا نعرف

2017-11-1

نحن سرها الرهيب ، ولكنك كنت مختبئاً فى الليلة الماثلة تحت النافذة تسمع حوارها الخافت ، وتسترق حديثهما المفزع ... وكنت تحسب أنك وحدك تفعل هذا ، فى حين كنت أنا الأخرى أسترق السمع كما تسترق ، ولكن من ناحية أخرى ... أليس كذلك يا نسيم ؟

— .... ؟ ...

— يا للحياة من مأساة هى أشبه شىء بالهزلة ! ومع ذلك كنت تريد أن تحتملها وحدك يا نسيم ، وكنت تقبله على لترى هل تعرف أختك البائسة سر أمها !

— الآن أعترف لك يا أختاه ... لكنى أظنعك أنى ماعرفت كل شىء ، فهل عرفت أنت كل شىء ؟!

— عرفت كل شىء يا أخى ، بيد أنى أسألك أولاً ماذا تعرف وماذا لا تعرف من فصول هذه المأساة ؟

— الذى عرفته أننا لم نكن أبناء هذا الرجل الذى كان يحسبنا أبناءه .. واستنتجت بعد إذ رأيته يقنع أمنا باحتساء السم أنه فضّل أن يموتا فيذهبا بالعار كله قبل أن تأكلنا ناره ، وهذه تضحية عظيمة من الرجل الذى أحبنا ، والذى كنا نتمنى أن يكون أبانا الرحيم كما كنا نحسب

— والذى لا تعرفه يا نسيم ؟

— والذى لا أعرفه هو من عسى أن يكون أبانا يا ترى ؟ إنه يكون الألم من خرج من صلب آدم ! ثم لماذا سلكت أمنا هذا السلوك الآثم ؟ إنها لا بد قد فعلته مضطرة بدافع غريب لم أستطع أن أحدسه !

— لقد كان زوج أمنا رجلاً ماقراً يئس الأطباء من إصلاحه ، وكان غنياً جم الغنى ، ثرياً واسع الثراء ، وكانت أمنا تحبه ، لكنها كانت تخشى أن يتزوج عليها أو أن يهجرها إلى خليلة أو خليلة ، فكانت لا تنى تبحث عن الطبيب المؤاسى ، فلما عثر عليها زين لها الشيطان أن تحمل باسمه لتربطه بأسبابها برباط لا ينفصم .. وكانت تحتال لذلك بحِيَل جمة ، وذلك أهون الأشياء على المرأة متى أرادت ...

— أنت تستنتجين أم عندك علم بشىء يا أختاه !

— من ذاك ومن ذاك ...

— يجب ألا يقفو الانسان ما ليس له به علم يا أمينة فاحذرى !

— يا أخى لقد سمعت أكثر هذا الحديث من شفتيها وهى تعترف به للرجل المسكين الصالح ... وسمعته من شفتيها وهى تهذى به فى حمى جعيل إذ أنا بين ذراعيها ليلة ، إذ هى تقبلنى ، وتثير دموعها على وجنتى ، وتستغفر ربها استغفاراً !

— أوه ! أذكر أنها صنعت مثل هذا معى ... اللهم يا من وسعت رحمته كل شىء إلا أن يُشرك به إغفر لها وارحمها

— وصنعت مثل هذا مع على ... ولقد رأيتها بعينى تنضح وجهه البرئ بدموعها !

— يا ألله ! أو كلنا أبناء زنى ؟ اللهم لا رحمتها ! اللهم لا رحمتها !

— نسيم ! بل يرحمها الله أرحم الراحمين ! لا تبك يا أخى فان دموعك تنصب على وجهها كالمهل وهى الآن بين يدى ربها

— وهل كان استغفار إبراهيم ربه لأبيه إلا عن عدة !

— ذلك أن أباه كان مشركا يا نسيم

— وهل يزنى الزانى إلا وهو مشرك ..

— رحمها الله يانسيم .. ورحمنى الله وإياك يا أخى !

— أتعنى حديثك يا أختاه ! من أبونا إذن ؟ !

2017-11-11

— أبونا ! لعنه الله ! لقد قتله زوج أمنا !

— قتله الشيخ عبد الموجود !

— أجل ! وهل كان يلق ربه إلا بهذا الدم !

— رحمك الله يا شيخ عبد الموجود ! رحمك الله فلقد كنت لنا خَيْراً من ألف أب !

— أي والله ! لقد كان لنا خيراً من ألف أب!

— ومن أبونا يا أمينة إذن ؟ !

— أبونا ! !

— أجل ! من هوه ؟

— وهل حتم أن تعرفه يا نعيم ؟

— حتم وأي حتم ... وهل أصبح بعد ذاك السر سر ؟

— إذن ... هو ... والد محمود ! !

— والد محمود ؟ ! يا للهول !

— هو بعينه !

— ومحمود !! ألا يعرف أن الشيخ عبدالموجود قتل أباه !

— أكبر الظن أن لا ! إن التحقيق لم يتناول شيئاً من ذلك ، بل لم تحم شبهة حول الرجل ، ولم يذكر اسمه قط

— يا للهول ! ومحمود مع ذاك يبحث عن قاتل أبيه !

— لا أحسبه يفعل يا نعيم ؟

— لا تحسبينه يفعل ؟ وكيف ؟ ألا يفكر في الثأر له ؟

— في الثأر له ؟ ! إن الزناة لا يدرون ذوي حمية يا نعيم ؟

— أوه ! لقد وهدونا يا أمينة ! !

— ولكنا أبرياء يا أختي ، وما ذنبنا نحن ؟

— ودماؤنا يا أختاه ؟ أليست أنجس دماء في هذه الدنيا ؟

— بل هي أطهر دماء وأزكاها ! إنني ما رفعت وجهي في السماء يا نعيم إلا رأيت الله جهرة ! لقد كنت أبكي أكثر منك ، وكنت أشعر بنار العار تدب في عروقي كالحميم ، حتى رأيت ربي يمسح بيده المباركة على قلبي ، فشعرت بمن أنقذني من جحيم أحزاني ...

— إيه ! يبارك الله إيمانك يا أختاه ! أما محمود!

— ماله ؟

— ماذا بينكما إذن ؟

— بيني وبينه مثل الذي بيني وبينك ، فهو أخي لظهر ، وأنت أخي لبطن ...

— لكنه لا يعرف هذا ، وأري أنه يحبك !

— يحبني ؟ إنه يكون غبياً !

— ولم يكون غبياً يا أختاه ؟

— لأنني لست جميلة ، وليس فيَّ ما يجذب قلوب الشباب ، وهذا ما أحمد ربي عليه حتى لا تكون المأساة هائلة !

— أو ليست مأساتنا هائلة مع ذاك ؟

— كلا ... إذ أنها لا تزيد على زلة أم تكررت ثلاث مرات ، وهي إن تكن مأساة ، فهي مأساة أوديب ، أو هي تشبهها، وإن لم يشبه الرجل الصالح الشيخ عبد الموجود البطل أوديب !

— أي أنه يقل عنه تعاسة !

— الشيخ عبد الموجود بريء يا أخي ، ولقد فقد أخطأ في شرب السم ، وقد قتل بانتحاره نفسا حرم الله قتلها إلا بالحق ...

— إنه لم يطق الحياة بعد إذ عرف أننا لسنا أبناءه ، وأن زوجته التي هي أمنا كانت تخدعه في شرفه ومباشرته، وفي أيام السعادة الطويلة التي كان يظنها سعادة حقيقية ، فاذا هي نفاق في نفاق !

2017-11-1

— لوثاب إلى ربه وسكن إلى رشده ، ماتناول الكأس أبداً !

وما ذا كان يصنع غير ذلك ؟ !

— كان ينبغي أن يكون شجاعا فيواجه المأساة مادام لم يرتكب جرماً

— وكيف كنت تحسبينه يواجهها ؟

— كما يواجه الناس أي مشكلة من مشكلات الحياة يلعب فيها القضاء الأعمى ! إنه قد قتل نفسه لأنه لم يُطق الفضيحة ، أليس كذلك ؟

— بلى ، هو ذاك ، ولأنه قد عز عليه أن يفقدنا ويفقد زوجته مرة واحدة ؟

— لا أحسبه حين أقدم على الانتحار قد فكر فيما تقول ، بل كان كل الذي رَوَّعه هو شبح الفضيحة فلو أنه سكن إلى الله قليلا لما غلبه شيطانه لأن الذين صنعوا الفضيحة أشخاص آخرون

— بل هما شخصان أشدهما إثما زوجته

— والآخر أبونا الزاني يا نعيم ، وهنا لا نجد كيلا لبد الوجود ، فعلام نحمي السكين بنفسه إذن ؟

— من أجلنا !

— وهذا لا يسع إلا أن يكون خطأ مضافاً إلى خطأ ، فانه قد أذن لزوجته أن تحتسي السم ، وهي شخص الجريمة الأول ... ثم هو قد تأر لشرفه من الرجل الذي أغراها فأزاله من الوجود وزيل بينه وبيننا ، فلم يبق هو ، ولو من أجلنا نحن ؟

— يعيش من أجلنا؟ وماذا يهمه من شأننا بعد ؟ يهمه هذا الخيال البديع ... خيال البنوة الذي كان يستغني به عن حقيقة البنوة ؟

— هذا شعر يا أخاه ، وما أبعد الشعر من الحقيقة

— ولولا الشعر لأظلمت أفق الحياة ، وضاعت بهجتها

— كثيراً يا أمينة ماتكون الحياة غير المنطق ، وفي أغلب الأحيان يسلك الانسان سبيله في الحياة خاضعا لعواطفه وغرائزه دون أن يكون لعقله سلطان عليه ، والناس في هذا سواء ، حتى الفلاسفة الذين لا يكونون فلاسفة إلا حينما يناقشون مسئلة منطقية أمام أحدهم فضيتها وأراد الآخر نقض أقوال صاحبه فيها ... أما هم في حياتهم الخاصة ، بل العامة أيضاً ، فسوفون مثلنا ، لا يستخدمون عقلهم أو منطقهم أو فلسفاتهم ... وهكذا كان الشيخ عبد الموجود... ومن يدري ! فقد أنتهي أنا ، وأنت أيضاً ، وقد ينتهي أخونا الصغير علي ، إلى مثل ما انتهى إليه هذا الرجل البائس

— ماذا تقول يا نعيم ؟

— أقول إن آخرتنا قد تشبه آخرة الشيخ ، ولو لم نقصد نحن إلى ذلك ... فلا تزعجي !

— لا أزعج !

— بلى ، لاتزعجي يا أختاه ، فوالله لقد أنرت لي سبيلي إلى الله ، وإني أطامك أني لن أقدم على ما أقدم الشيخ عليه ...

— وما دمت قد أعطيتني موثقك على ذلك فكيف تنتهي أنت أو أنا أو أخونا علي إلى ما انتهى الشيخ إليه ؟

— أما أنا فسيقتلني الحزن

— وأي حزن يا أخي ؟

— أنت تكلمين يا أمينة وكأنما قدت أعصابك من حديد ! أتسألينني أي حزن ؟ الحزن الذي ليس كمثله حزن ... إننا شُذاذ يا أمينة ! من أبونا ؟ من أمنا ؟ بيت من هذا الذي نأوي إليه بغير حق ؟ لمن هذه الضياع الشاسعة الواسعة ؟ بأي حق نتصرف في ريعها ونحن نعلم أنها ليست لنا بحق ؟ كيف ندعي ملكيتها وغيرنا بها أولى ؟ أخوات عبد الموجود

2017-11-11

وإخوته ؟ أليس أولئك ورثته الحقيقيين ؟ أين منطقك ؟ تكلمي ؟

— نعيم !

— أمينه ؟ ما أحسبك تزعمين أننا بعيد الوجود أولى ! أنا ذاهب يا أمينه !

— نعيم ! إلى أين يا أخي ؟

— سأهاجر إلى . . . إلى . . . إلى الله ! إنه حسبي وهو ولي ...

— وأنا يا نعيم !

— إن شئت هاجرت معي ! ولي مع ذاك شرط !

— وما ذاك جعلت فداك !

— أن تكوني مؤمنة فأنت التي أرت لي طريق الايمان !

— سألبي يا أخي ! ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— أخونا علي ؟

— سيأتي معنا ، وسيفتح الله به علينا !

— إذن ... هلم !

* * *

وذهب إخوة عبد الوجود إلى الأقطار الحجازية ليؤدوا فريضة الحج ، فلقوا نعيما وعليا وأمينة يهرولون بين الصفا والمروة ، ولما أفاضوا من عرفات دعاهم نعيم إلى منزله الهادىء الساكن السعيد القريب من المسجد الحرام فقضوا هنالك عيدهم ، ثم ذهبوا إلى دكانه الجميل فاشتروا العقود والخواتم والسبح والكوفيات والعقالات وتمر الحلية

وحاولوا أن يكلموا نعيما في الماضي فاعتذر لهم ، وكان الدمع قد أوشك يترقرق فتفيض به عيناه

— لكنك نزلت لنا عن كل ميراثك من أبيك ،

وكذلك فعل أخواك ، وما كان لك سلطان على الصغير علي .. ولقد بحثنا عنك في أقطار الأرض لنرد على أخيك ما لا يقدر أحد على استلابه منه ، وها قد عثرنا بك جميعاً ، فتقبل يا بني أن نكون أوصياء على أخيك لنرسل إليه من مصر ما هو حقه

— بعد عام واحد يبلغ أخي رشده ويتولى هو هذا الحساب

— إذن فلنا مآرب أخر

— مآرب خير إن شاء الله

— تزوج ابن عمك محمدا من أمينة !

— بارككم الله ... لقد تزوجت أمينة !

— وممن ؟

— من الفتى المكي الحجازي الصالح ابراهيم ابن عجوب ، وهو يعيش وإياها في سعة والحمد لله وإن لي أنا الآخر لمأربا ...

— وماذا أصلحك الله وأثابك !

— ذاك أني كنت استعنت ببعض أموالكم على سفري ، وقد بارك الله لي ، وإن لكم في عنقي مائتي جنيه ، فهاكموها !

— والله لا يكون هذا أبداً ...

— بل الحق أحق بتبع ... فخذوها أثابكم الله .

— والله لا تصل أيدينا إليها قط ... إنك تحيرنا يا نعيم ، وتذهب ألبابنا كل مذهب ... تالله إنه لسر ، ولا ندري لم تخفيه عنا ونحن أعمامك !

وذهب نعيم إلى جدة ليودع القوم ، ولما همت الفلك واحتواها الماء ، وفر نعيم زفرة صدعت فؤاده ، وعاد إلى مكة أدراجه والدمع يترقرق من مقلتيه ، فقصد إلى مقام إبراهيم فصلى لربه ، واستغفر لذنبه ، واستعان بالصبر والصلاة على بلواه

2017-11-11

في المصيف

للكاتب الروسي أنطون تشيخوف

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

« أحبك فأنت حياتي وسعادتي ، وأنت لي كل شيء في الوجود ! ولتغفري لي هذا الاعتراف فما أنا بقادرة على أن أحمل الألم ولا أشكو ، وما أسألك أن تبادليني حبا بحب ولكني أسألك العطف علي والرأفة بي . فلتلقني في تمريشة المنتزه في تمام الساعة الثامنة من مساء اليوم ... وما أحسب بي من حاجة لأن أوقع خطابي هذا باسمي وإني لأرجو ألا يزعجك أن أبقى مجهولة منك ، فحسبك أن تعلم إني صبية مليحة المنظر ... وما عساك تطلب وراء ذلك ! »

هذا هو الخطاب الذي تلقاه ، ساعة الأصيل ، « باڤل ايفانتش » وهو رجل متزوج يقضي عطلة الصيف في بيت من بيوت المصايف ، فلما قرأه هز كتفيه ودعك جبهته ، وقد استولت عليه الحيرة ، وقال يخاطب نفسه :

« ياله من عمل من أعمال الشيطان . أنا رجل متزوج ، فما لهذه المرأة تبعث لي بمثل هذا الخطاب العجيب . السخيف ! ومن ترى تكون كاتبته ؟! »

وقلب باڤل إيفانتش الخطاب أمام عينيه غير مرة وكرر قراءته مرة وثانية ثم تفل احتقارا وقال متهكما :

« إني أحبك ! حقا لقد وقعت على شاب ظريف جميل أيتها الحسناء ؟ إذاً سأسرع إلى لقائك في تمريشة المنتزه

لقد نعمت ، يا بيتي ، منذ أعوام طوال ، بأمثال هذه الخيالات ، وملأت مماطلي بما كانت تبعث به أزهار الغرام في الجو من عطر ذكي .. يالله ! إني ما أشك في أن كاتبة هذا الخطاب امرأة خليعة لا تقيم للفضيلة وزنا . رب ! إن لهؤلاء النسوة لأدعيا لا يحس الحياء . إنهن شيطانات يالعب التي تعرض في الأسواق ليتلهى بها الأطفال فليغفر لنا الله!

إن المرأة التي تكتب مثل هذا الخطاب لرجل متزوج وأجنبي عنها لا يمكن أن تكون إلا امرأة هوائية مستهترة لا تحفل بالآداب .. الحق أن هذا هو غاية ما يصل إليه الانحلال في الأخلاق ! »

وكان باڤل إيفانتش قد تنقلب في السنوات الثمان من حياته الزوجية ، تنقلباً تاماً على المواطف الغرامية ولم يتلق في خلال هذه المدة أي خطاب من أية امرأة إلا أن يكون خطاب تهنئة . لهذا كان الخطاب الذي تلقاه أصيل ذلك اليوم منشأ اضطراب استولى على نفسه وحيرة أحاطت به من جميع النواحي على الرغم من محاولته الزراية بهذا الخطاب وبالمرأة التي بعثت به

ولم تمض على الرجل ساعة من تسلمه هذا الخطاب حتى كان مستلقياً على أحد المقاعد مفكراً يحدث نفسه فيقول :

« ما من شك في أني لست بالصبي الأبله الذي يندفع إلى المكان الذي عينته هذه المرأة للقاء ... ولكني أرى من الشائق مع ذلك أن أعرف من هي هذه المرأة الملعوب ... تبارك الله ... إن الخط خط امرأة ما في ذلك من ريب ... وإني لأشعر أن الخطاب يعبر عن إحساس صادق ... لذلك يبعد أن

يكون خطاباً قد أريد به المزاح الخالص ... ويغلب أن تكون كاتبته إحدى هؤلاء الفتيات العصبيات اللواتي ... ولكن لماذا أرمل ... والأرامل على العموم مداعبات غريبات الأطوار ... يا لله ... ترى من تكون الكاتبة ؟ »

وكان مما صعّب الأمر فى نظر بافل ايفانتش أنه لا يعرف من بين زائرات المصيف غير امرأة واحدة هى امرأته ... فهمهم لنفسه :

« عجباً ... إن هذه المرأة تقول « إنى أحبك » فكيف أحبتنى ومتى وقعت فى شرك هذا الحب ؟! حقا إنها لامرأة مدهشة ! فما عهدنا الحب يقع على هذه الصورة ... ومن غير سبب ظاهر ... ومن غير تعارف سابق ، وقبل أن تعرف المحبة أى نوع من الرجال أحبت ... ما من شك فى أن كاتبة هذا الخطاب فتاة صغيرة ... خيالية ... ليس أدل على ذلك من وقوعها فى حبى أن بعد رأتنى اتفاقا مرتين أو ثلاث مرات فى الطريق ... ولكن ترى من تكون هذه الفتاة ؟!

وذكر بافل ايفانتش فجأة أنه إذ كان يسير خلال بيوت المصيف فى اليوم السابق والليوم الذى قبله التقى أكثر من مرة بفتاة حسناء على رأسها قبعة معاوية اللون ، شاخة بأنفها إلى السماء ، وقد أطالت هذه الحسناء الرقيقة النظر إليه ، ولما جلس على أحد المقاعد العامة جلست إلى جانبه ... فسأل نفسه فى حيرة :

« أيمكن أن تكون هى ؟ ما أظن ذلك بممكن ! وهل من المعقول أن تحب فتاة هيفاء كهذه الفتاة كهلا مثلى متحطما ؟ كلا ! إن هذا لهو المستحيل بعينه ! »

وفى أثناء تناول العشاء الأول نظر بافل إيفانتش إلى امرأته نظرة تائهة ، وكان غارقاً فى بحر من التأمل والتفكير يحدث نفسه بقوله :

« .. إنها تقول فى كتابها إنها صغيرة حسناء .. إذن هى ليست عجوزاً ... عجباً ! الحق الذى لا مرية فيه أننى لست من الكبر والسذاجة بحيث لا يمكن أن تقع امرأة فى حبى ! فامرأتى تحبنى . ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن الحب أعمى .. وليس فينا من يجهل ذلك ... »

وقطعت عليه زوجه سلسلة تفكيره بهذا السؤال :

— فيم تفكر ؟

فأجاب الرجل ولم يك صادقاً فيما قال :

— أنا لا أفكر فى شىء ... ولكننى أشكو صداعاً خفيفاً ...

واستقر رأيه آخر الأمر على أن من البلاهة والبله أن يفكر فى شىء لا معنى له ، كخطاب تحدثه فيه كاتبته عن الحب ... وعاد يهزأ فى نفسه ، من جديد بالخطاب وكاتبته

ولكن أسفاً ... إن للانسان من نفسه لعدواً قوى السلطان ! فقد رقد بافل إيفانتش بعد العشاء على سريره ، وبدل أن ينام انهمك مرة أخرى فى التفكير والتأمل فكان يحدث نفسه :

— ولكنى أستطيع أن أجزم بأنها الآن جالسة تحت التمريشة فى انتظارى . فيا لها من حماقة ! وإنى لأتصور إلى أى حد تفوز أعصاب الفتاة وقد استولى عليها القلق من طول الانتظار ، كما أتصور كيف ضاق صدرها عندما دخلت التمريشة ولم تجدنى فيها ومع ذلك فلن أذهب ... ولتأكل نفسها ؟

2017-11-11

ولكننا نعود فنقول أن للانسان من نفسه لمدوا قوى السلطان . فلم تمض على الرجل نصف ساعة وهو راقد على فراشه حتى حدث نفسه من جديد :

« ومع ذلك فقد يحسن ، من قبيل الاستطلاع ، أن أذهب وأنظر من بعد أى نوع من الخلوقات هذه الفتاة ... وما تضرنى نظرة سريعة أتعرف منها شكل المرأة التى تجرؤ على كتابة مثل هذا الخطاب ... وهل يكون ذلك أكثر من دعابة لا يبقى لها فى نفسى من أثر بعد أن تمر لحظها ... لقد هيأت لى المصادفة فرصة للدعابة فلم لا أقتنصها ؟ »

وهب بافل إيفانتش عن سريره وشرع فى ارتداء ملابسه .

ولا حظت امرأته أنه أعد قميصاً نظيفاً ورباط رقبة أنيقاً فسألته :

« لم أراك تتأنق فى لباسك على هذا النمط ؟ »

فأجاب الرجل متململاً :

« أف ! ليس هناك مايدعو إلى العجب ... وما هناك من شىء ، غير أن بى حاجة شديدة إلى التروض ... فرأسى مصدوع ... و ... أف ! . »

ارتدى بافل إيفانتش أحسن ملابسه قبداً فى أجل هندامه ، وانتظر حتى وافت الساعة الثامنة وغادر البيت . فكان كلما التقى بأحد من زوار الصيف من رجال أو نساء أسرعت نبضات قلبه . وكان كلما رأى امرأة سأل نفسه متحيراً :

« ترى أيهن هى من هؤلاء ؟ ولكن مالى أشعر بشىء من الخوف ؟ وعلام هذا الاضطراب ، وما أنا بذاهب إلى موعد ولقاء ! يالها من غباوة وحمق ! فلأتقدم فى ثبات ! ثم ماذا علىّ إذا أنا دخلت إلى التمريشة ؟ ولكن لا ، فليس هناك ما يستوجب الدخول »

ثم اشتد خفقان قلب بافل إيفانتش

... وتصور فجأة وعلى غير إرادة منه منظر التمريشة المظللة .. وخيل إليه أنه يرى فيها فتاة رائعة المنظر على رأسها قبعة سماوية اللون وأنفها شامخ إلى السماء .. تصورها مستحيية لما ظهر من حبها .. وقد أصابتها الرجفة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها .. ثم رآها وقد تقدمت إليه على استحياء وهى مضطربة .. و .. على حين فجأة ضمته بين ذراعيها ..

وحدث نفسه — وهو يحاول أن يطرد من رأسه جميع الأفكار الآثمة :

« لو لم أكن متزوجاً لما كان ثمت من بأس .. على أنه أى ضرر فى أن أحاول مرة فى حياتى هذه المحاولة من باب الاختبار ؟ .. وإلا فأن الانسان يموت قبل أن يتعلم ما يجب . ثم أى شىء فى ذلك يضير امرأتى ؟ ألا فلتشكر لله فى خلال ثمانى سنوات عشتها معها لم أبتعد عنها خطوة واحدة ... ثمانى سنوات أؤدى واجب الزوج المخلص بما لا يدعو إلى لوم أو عتاب ! أما يكفى كل هذا الوقت الطويل فى مثل هذه الحياة المقيدة .. حقاً أن ذلك لما يضيق له الصدر .. وإنى لأشعر أنى لن أبالى بتضحيها

ودنا بافل إيفانتش من التمريشة وقد استولت الرجفة على جميع أطرافه وأمسك بنفسه كالملصوص ثم مد رأسه إلى الداخل فملأت رطوبة الجو خياشيمه وقال يحدث نفسه :

« أعتقد أن ليس هناك من أحد »

وتقدم بضع خطوات حتى صار داخل التمريشة

وهناك تبين شبح إنسان فى أحد الأركان

وكان شبح رجل ... وإذ دقق النظر عن قرب تبين أن هذا الانسان ليس أحداً غير الطالب ميتيا شقيق امرأته التى يعيش معه فى البيت

فدمدم متمتماً بعد أن جلس ونزع قبعته :

« أنى ! هو أنت ؟ ! »

فأجابه ميتيا :

« نعم هو أنا ذا »

ومرت لحظة ساد فيها السكوت ثم قال ميتيا :

« عفواً يا بافل إيفانتش إذا رجوتك أن تتركنى وحدى ، فانى أفكر فى الرسالة التى أتقدم بها للحصول على درجتى العلمية ... ووجود أى إنسان إلى جانبى يقطع على طريق التفكير »

فقال بافل إيفانتش فى شىء من التواضع :

« وقد يكون خيراً لك يا ميتيا أن تذهب إلى أى مكان آخر يتفق مع غرضك كزاوية فى بعض الشوارع الكبيرة المظلمة ... فان الهواء الطلق مما يسهل عليك التفكير ... ثم لا أخفى عليك أننى أود ... نعم أود أن أنام فترة قصيرة هنا ... فوق هذا المقعد ... فالجو فى هـذا المكان أقل حرارة منه فى البيت ... »

فأجاب ميتيا متذمراً :

« الأمر بالنسبة إليك أمر نوم ... أما بالنسبة لى فأمر استذكار وتفكير فى الرسالة العلمية ... ومن البديهى أن يكون التفكير فى مثل هذا الموضوع خيراً من النوم ... »

وساد السكوت مرة أخرى ... وكان بافل إيفانتش قد أرخى العنان لخياله ، وخيـل إليه أنه يسمع وقع أقدام فنفر من مكانه فجأة وقال فى صوت يتهدج غضباً :

« أرجو أن تصغى إلى يا ميتيا ! فأنت أصغر منى سناً وواجب عليك أن تحترمنى ... وأنا الليلة مريض ... وبى حاجة ماسة إلى النوم ... فلتنصرف من هنا ! »

فأجاب ميتيا :

« إنك لتدل بذلك على أنانيتك الشديدة . فلماذا تبيح لنفسك البقاء هنا وتطلب منى الانصراف .. إننى تمسكا بمبدأ الحق لن أغادر هذا المكان »

فقال إيفانتش محتدا :

« إصغ إلى إنى أطلب منك أن تنصرف ! فقل عنى إنى أنانى . مستبد أحمق . قل ماتشاء . ولكننى أطلب منك أن تغادر هذا المكان فى الحال . وهذه أول مرة فى حياتى أطلب منك فيها أن تسدى لى يدا بمعروف ! فهلا ظهرت بشىء من حسن التقدير والذوق ... »

فهز ميتيا رأسه وقال بافل إيفانتش فى نفسه :

« يالله من حيوان حقير . إن وجوده هنا تسير على القاء ! نعم مستحيل على أن اجتمع بهـا فى حضرته ! »

ثم وجه إليه الخطاب قائلا :

« استمع يا ميتيا إنى أطلب منك للمرة الأخيرة . فلتثبت أنك رجل ذو إحساس . مهذب . فى نفسك شىء من الانسانية ! »

فهز ميتيا كتفيه وقال :

« لا أعرف لماذا تلح على هـذا الالحاح . لقد قلت لك إننى لن أغادر هذا المكان . وها أنا أكرر لك هذه القول .. نعم سأبقى هنا احتفاظا بمبدأ الحق والحرية ... »

فى هـذه اللحظة أطل داخل التمريشة رأس

امرأة شاخصة الأنف إلى السماء ...

فلما رأت ميتيا وافل إيفانتش حبست وجهها واختفت فى الظلام .

فقال وافل إيفانتش فى نفسه وهو يرمق ميتيا شزراً :

— لقد ذهبت ... نعم لقد رأت هذا الحيوان الدنئ فهربت ! لقد أفسد هذا المجرم كل شىء علىّ

وانتظر وافل إيفانتش فترة قصيرة ثم هم واقفاً فوضع قبعته على رأسه وقال :

— إنك وحش ... إنك حقير ... وجبان دنئ ! نعم لقد برهنت على وحشيتك ودناءتك ... أيها الأحمق ... والآن لتعلم أن كل شىء بيننا قد انتهى !

فوقف ميتيا أيضاً ولبس قبعته وقال :

— إنى لسعيد لسماع هذه الكلمات ... ولتعلم أنك بوجودك هنا فى هذا الوقت قد مثلت معى فصلاً قذراً لن أنساه لك ما حييت

وخرج وافل إيفانتش من التمريشة فعاد إلى بيته مسرعاً وهو ثائر غضب .. ولم يجد منظر المائدة المعدة لعشاء الليل فى التخفيف من غضبه

وفكر فى نفسه وهو ثائر مضطرب :

— مرة واحدة فى العمر تسنح لى مثل هذه الفرصة ... ثم تفلت منى فى اللحظة التى كدت أنتهزها فيها ... إنها الآن غاضبة مسحوقة القلب !

وفى أثناء تناول الطعام ثبت وافل إيفانتش وميتيا نظريهما فى أطباقهما وصمتا صمتاً كثيباً ... وقد طفح كل منهما بيغض صاحبه ...

ونظر وافل إيفانتش إلى امرأته نظرة المتحفز وقال :

— علام تضحكين ؟ إن الحمقى الأغبياء هم الذين يضحكون من غير سبب !

ونظرت المرأة إلى وجه زوجها الغاضب وانفجرت ضحكا وسألته :

— ما هذا الخطاب الذى جاءك اليوم ؟

وأخذ وافل ايفانتش بهذه المفاجأة فتولاه الاضطراب وقال :

— أنا ؟ أى خطاب تعنين ؟ أنا لم أتسلم خطابا ما ... وإنك لتخترعين ما تقولين ... وأراك تجرين وراء الخيال ...

قالت امرأته :

— ألا فلتكن صريحا ! فانى لواثقة من أنك قد تسلمت اليوم خطاباً ! ثم علام الانكار وأنا مرسلة الخطاب ! نعم أقسم لك بشرفى إننى أنا التى أرسلت لك هذا الخطاب ! ها ! ها !

فاحمر وجه وافل ايفانتش وأرخى نظره إلى سحنه وقال مهمهما :

— مزاح بارد !

فقالت زوجته :

— ولكن خبرنى بالله ماذا كنت أستطيع أن أعمل غير ذلك وكان علينا أن ننظف الشرف هذا المساء ... ولم تكن هناك من وسيلة أخرى لاخراجكما من المنزل !... ولكن لا تغضب أيها البليد فلقد أردت ألا يتولاك السأم من الجلوس وحدك فى التمريشة ... لذلك أرسلت لميتيا أيضاً بصورة من الخطاب الذى بعثت إليك به ! فهل ذهبت إلى التمريشة يا ميتيا ؟

فكشر ميتيا عن أسنانه وخرج يرمق منافسه فى موعد الغرام بعين الغضب والبغضاء !

عبد الحميد حمدى

البيوت الثلاثة

أقصوصة مصرية

بقلم الدكتور محمد بهجت

وتقع كلها فى شارع واحد من شوارع حى محرم بك بالاسكندرية ، أما الأول فبيت كبير فخم يدانى القصر فى أبهته ورونقه ، ذو شرفات واسعة مشرفة يدور عليه سور من غليظ الحديد ترى من خلال قضبانه حديقة أنيقة متعددة الألوان يسكنه رجل من أصل تركي اسمه مدحت بك . آلت إليه الثروة عن طريق أبيه الذى كان من ندماء الخديو إسماعيل باشا . وكان أن صدرت منه نكتة ظريفة فأنعم عليه الخديو العظيم بجارية حسناء وخصاة فدان من أجود أراضى البحيرة . أما مدحت بك فرجل أرمل نحيل تقدمت به السن حتى جاوز الخمسين ليس له ولد يرث ثروته العريضة ولذا كانت تملو ذلك المنزل وحشة وكآبة لا يسترها جمال بنائه وتنسيق حديقته ، يجلس على بابه زنجى عجوز يسمى عم حنين تدور على رأسه عمامه كبيرة بيضاء ، وله لحية كثة بيضاء كذلك ، وعينان حمراوان مغرورقتان . وإذا ما خلست الشمس فى الشتاء تراه جالساً على مقعده الخشبي يصطلى دفئها فى سكون ولذة فاذا ما انحرفت إلى الغروب قليلا نقل مقعده إلى حيث تميل حتى تراه جالساً فى منتصف الشارع لايقوم إلا إذا سمع صوت عجلة مقبلة أو ليتبع ضوءها إلى الجانب الآخر . وإذا ما بدأت الأشعة تصعد جدار المنزل المقابل قام فألصق نفسه به إلى أن تجاوز الأشعة رأسه فيجذب حينذاك مقعده ويقف عليه بل ويشب على قدميه حتى لاتفوته لحظة استمتاع . وأخيراً يرجع المسكين إلى بابه منكس الرأس وهو ود لو تحتمله خيوط الشمس فيتعلق بها ويغرب معها

وأما البيت الثاني فهو ذلك الذى يقابل البيت الأول والذى تنتهى عنده لذة ذلك الزنجى التعس كل مساء ، صغير متوسط البناء تقطنه عائلة متوسطة الحال يشتغل ربها متولى افندى بالجمرك ويتقاضى مرتباً معتدلا لا يكاد يكفى للانفاق على زوجه وأولاده الخمس ، أكبرهم خيرة التى كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر ربيعاً . جميلة الحيا فتانة ، قوامها رشيق يحلو للشباب أن يحل فيه ، يانعة كالوردة فى أول تفتحها . ولا يهمنا أن نعرف شيئاً عن باقى أفراد العائلة ، ويكفينا أن نذكر أن المنزل كانت تخيم عليه السعادة والقناعة والرضا ...

أما البيت الثالث فهو لصق البيت الثانى تسكنه أرملة المرحوم درويش أفندى مع أولادها الثلاث . مات عنهم عائلهم الذى كان موظفاً بالبلدية وخلّف لهم الفقر ومعاشا ضئيلا يتميشون منه . فوضعت الأرملة كل أملها فى ولدها الأكبر حسن وعنيت به العناية كلها . ولشد ما كانت تجول دموع الفرح فى عينيها نهاية كل عام دراسى حينما يدخل عليها ويخبرها بأنه بذّ كل أقرانه وأخرج متفوقا على رأس فرقته . أما يوم حصوله على البكالوريا فكان يوماً مشهوداً فى هذا البيت الصغير ولكن سرعان

2017-11-11

ما غامت سحابة كدر فى ذلك الجو الفرح عند ما تقرر سفر حسن إلى القاهرة لدراسة مادة القانون

وكانت بين عائلتى المرحوم درويش ومتولى أفندى صداقة قديمة ، وكثيراً ما تكلمت الوالدتان فى زواج حسن من سميرة عند ما يبلغان السن اللائقة. وبطبيعة الحال لعب حسن وسميرة سنوات طويلة مع بعضهما . وكانت بينهما ألفة عظيمة فكانت تراكم إليه وتراكم إليها ، كانت تخصه بعطفها وحنانها ويخصها برعايته واهتمامه، ولكن حدث أن قل الاختلاط والتمازج رويداً رويداً إلى أن امتنعا تماماً عند ما شبا وكبرا . وربما كان ذلك استحياء منها أو عن رغبة والدة سميرة التى ارتأت أن تحجزها عنه فأصبح لا يراها ولا تراه إلا من النافذة ويقتنص بتبادل ابتسامة حلوة وبعض إشارات خفيفة يختلسانها من وقت لآخر . غير أن ذلك لم يعد يروق لحسن إذ ازدادت رغبته فى الاكثار من رؤيتها ولم تلبث الرغبة أن انقلبت إلى لهفة فكان يقضى معظم أوقاته إلى جانب النافذة وزاد فى لهفته شوره بدنو يوم الرحيل . وأخيراً نفد صبره فراح إلى أمه يصارحها بما جدّ فى نفسه من شعور وسألها أن تخطب له سميرة حتى يستطيع أن يجالسها وينعم بقربها

ذهبت أمه فى اليوم التالى إلى بيت سميرة وبعد ترحيب الكثير من الذكريات الماضية طلبت يد سميرة لابنها فابتسمت والدة سميرة ابتسامة المدل وعذرت بقولها أنهما ما زالا صغيرين وأن أمام حسن مرحلة كبيرة قبل أن يدخل فى طور الرجولة العملية . رجعت الأم المسكينة بالخبر الذى تلقاه حسن بالصبر ثم حزم أمتعته واستعد للسفر . وكانت وقفة طويلة بجانب النافذة ودع فيها سميرة وداعاً طويلا مؤثراً أجرى دموعهما التى نمت عن حب عميق باض وفرخ فى قلبيهما الفتيين الطاهرين

ولنعد إلى مدحت بك صاحب البيت الأول

فتراه قد برم بوحدته وأصبح يشعر بفراغ مؤلم فى حياته ويتمنى من صميم فؤاده لو أن له ولداً يرثه وطالما شكا ذلك الهم الدفين إلى خادمه العجوز الأمين الذى تلازمه وتعنى به عنايتها بطفل . فما كان منها إلا أن أشارت عليه بالزواج من فتاة صغيرة تجعل من قصر بيته جنة يانعة وتملأ فراغ حياته بالسعادة التى يظمأ إليها واقترحت عليه أن يخطب سميرة ابنة متولى افندى فهى غاية ما يشتهى من الحسن ثم أن الحصول عليها محتمل لفقر والدتها فأبرقت أسارير وجهه وراقه الاقتراح وفوض إليها تمهيد الطريق لذلك . فذهبت فى اليوم الثانى إلى منزل متولى افندى وهى تخفى غرضها ، وأخذت تطنب فى حسن أخلاقهم وطيب سمعتهم وتتدفق عليهم من كلمات العطف والمحبة الشىء الكثير . وجرى الحديث وتشعب إلى أن سألتها والدة سميرة عن حال سيدها فأظهرت لها ما هو عليه من ضخامة الجاه والثروة وكيف أصبح يفكر فى الزواج ليكون له ولد يفرح به وليورثه ماله الكثير . وبعد أن أحكمت نصب الحبالة قامت متسرعة وهى تحجج بقرب عودة سيدها ثم عادت الزيارة ثانية وثالثة وفى كل مرة تضرب على هذه النغمة الساحرة إلى وجدت مغمزاً ليناً فى جانب والدة سميرة وفى مساء أحد الأيام قرع عم حسين الزنجى العجوز الباب وأعلن أن سيده يرغب فى زيارة متولى افندى فكانت حركة ونشاطاً وجلبة اشترك فيها الصغار والكبار استعداداً لاستقبال الجار الوجيه فأقبل تكتنفه مظاهر الثراء والعظمة وجلس يتحدث إلى متولى افندى عن حقوق الجار وعن تمهيدهما فى التعارف والعمل بوصاة النبى الكريم. وبعد أن زخرف وذهب الكثير من القول أفهم متولى افندى أنه يرغب فى الزواج من إبنته ليتمكن من مساعدة العائلة . فشكره متولى افندى واستمهله بضعة أيام للتفكير فى الأمر والتداول .

2017-11-11

ولم تطل المداولة بينه وبين زوجه فقد بدت لها قصور الأماني شاهقة وقررا أن يزوجا سميرة من ذلك الشيخ الغني. وعبثاً حاولت سميرة أن تفنعهما بخطل رأيهما الذي بناه على الطمع لا على ما يحقق سعادتها الحقيقية، وأن الأمر أمرها هي فلم يصغيا لها وأفهماها أن الإرادة إرادتهما. فأذعنت واسلمت نفسها للآلام والأحزان.

وعلم حسن بالأمر فزاد همه وفترت همته واضطرب حاله فلم يعد ذلك الطالب النابه المبرز بل رسب في الامتحان وتملكه يأس شديد خيل إليه أنه سيقضي على مستقبله بعد أن تبدد حلم شبابه. وعاد إلى الاسكندرية لقضاء العطلة الصيفية. وكانت أياماً سوداء تجرعت فيها العائلة غصص الأحزان واستسلمت إلى يد القدر القاسية التي راشقتها بسهام الآلام إلى أن تكسرت النصال على النصال ... وفي مساء يوم جميل بدا منزل متولي افندي في أبهج زينة وسطعت منه أجمل الأنوار ونمت فيه كتابة العقد واستمر السرور الكاذب إلى ساعة متأخرة من الليل ... وكما يبدو سطح الماء صافياً بينما الكدر راسب بالقاع، وكما يحمل العسل السم الزعاف بين جزيئاته الحلوة، وكما تبدو الشوهاء جلية من وراء النقاب كذلك بدا ذلك العرس الذي قام على فتات قلوب سحيقة. ولو رفع متأمل ليلتئذ بصره إلى شباك المنزل المجاور لأبصر شبح حسن متهدماً كأنه كومة بشرية ترنو إلى تلك الأنوار فيخالها تحترق من سراج حياته. وما أن انطفأت الأنوار حتى رفع حسن عينيه الدامعتين إلى السماء يستصرخ تلك العين الساهدة التي لا تنام. وفي هدأة الصباح وقبل شروق الشمس بقليل سمع صياح وعويل فنهزت سميرة وهرولت مع من هرول من أهل المنزل إلى النافذة وهناك كشفت الحقيقة عن وجهها البشع وبدت مخيفة مؤلمة. لقد انتحر حسن!

تجرع جانباً من محلول اليود — ذلك السائل الذي يريح الناس على أي حال، فإما بالشفاء وإما بالموت. وانتابت سميرة إغماءة طويلة كانت أبلغ احتجاج على قسوة القلوب الجافية، وعلى منها والدها ضعف الأساس الذي قامت عليه أطماعهما وحقارته. أما الناس فمزوا انتحاره إلى خيبته المدرسية وأما أهله وأهل سميرة فمندهم الخبر اليقين وقد حرصوا كل الحرص على أن لا يفشو ويذيع ... غير أن حسن لم يمت إذ أسعفه طبيب بالعلاج وأنجاه من مخالب الموت فخلص من موت جسماني ليذق في موت نفساني. وقال الناس: انتصر الشباب على الموت وعوفي حسن. والحقيقة أن جراحات نفسه كانت داميةً نزازة لا ينفع فيها طب طبيب

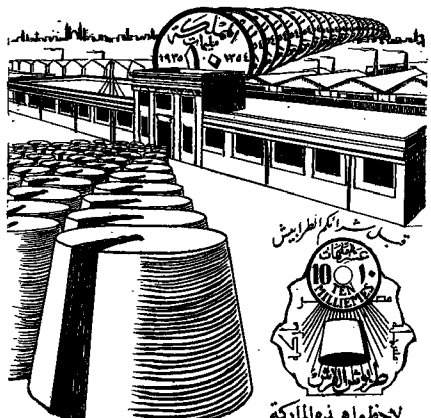
وفي ليلة علمت سميرة بتحديد يوم الزفاف فانتابتها رعدة ثم ذهول أشبه بذهول الفريسة بين يدي الوحش الكاسر قبيل انقضاضه عليها وإلتهامها. فانسابت إلى غرفتها وأطلقت لدموعها العنان. وفجأة رفعت رأسها إلى السماء تستنصر العين القاهرة التي لا تنام. وإذ ذاك وقعت عيناها على نجم لامع فوق الغرفة التي بها حسن وخيل إليها أنه خفق خفقتين فهدأ روعها وحل بقلبها هدوء وسلام وأسلمت نفسها للذيذ المنام

وقبل يوم الزفاف بأسبوع واحد، كان اليوم ينعب في الليل نعيباً مؤلماً منقطعاً وفي الصباح انطلق صراخ وعويل من المنزل الأول، لقد توفي مدحت بك بسكتة قلبية أدركته وهو في فراشه يحلم أحلامه اللذيذة

تمت المعجزة وانجلت المأساة عن انحدار ثروة عظيمة لسميرة، إذ ورثت ثلاثين ألفاً من الجنيهات عدا العقار. وما هي إلا بضعة شهور حتى عقد لها على حسن ثم انتقلت به وبعائلته إلى القاهرة وساعدته على إتمام دروسه وعاشا سعيدين في ظلال الحب

محمد بهجت

من الأمة وإليها



لاحظوا هذه الماركة

طربوش القرش : الذى ساهمتم جميعا بجهودكم وقروشكم فى تأسيس صرح الشاخ

طربوش القرش : الذى فاز على سائر الطرابيش الاجنبيه

طربوش القرش : الذى تشترونه بحفظ أموالكم فى بلادكم

طربوش القرش : هو شعار الوطنية وتاج القومية

محمد على فوه قلعه محله قها

٣٥ ٣٠ ٢٥ ٢٠ ١٥

خامات فاخرة - صباغة ثابتة - نسيج مصقول

تحسينات متواصلة - أسعار معتدلة محدودة

صناعة مصرية صميمة

إنتاج

مصنع القرش للطرابيش وغزل الصوف

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الطائر

ابى العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

مريم المجدلية ...

بعد ثمانية عشر قرناً

للكاتبة الإنجليزية "بارونس أورزي"

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

لما خرج أرنست كنزلو من سجن لاجيونير بمدينة ليون في أصيل يوم ١٤ مسيدور من السنة الثالثة للثورة الفرنسية، كان الخادم صاحب الرداء الرسمي البنفسجي ذي السجاف والطراز الأحمرين، في انتظاره، فتناول هذا الخادم أمتعة الفتى ارنست، وكانت نزرة يسيرة، ثم خرج به من ذلك المكان المنكر سجن لاجيونير، وسلك طريق راه باردبي، إلى ضفة نهر الرون عاوراذلك الجسر الحجري العتيق، الذي مرت عليه جحافل الصليبيين في طريقهم من قلب بيرجندي ويبرجون إلى رومة ومالطة، فالشرق الأدنى لمحاربة العرب، أتباع صلاح الدين الذي تغلب على معظم أمراء فرنسا وانجلترا ... فاستعجل الخادم قارباً، فركباه وارتفعا في النهر إلى قرية كولانج، وجعل ارنست كنزلو في أثناء ذلك يخال أن الشمس لم تكن قط أشرق منها في هذا النهار، ولا أبهى رونقاً ولا أبهر لألاءً، ولا كان النسيم أروح قط منه في هذه الساعة ولا أبرد على الأكباد، ولا أندى على القلوب، ولا أنعش للأرواح والأبدان. وبينما يرتقيان مع العباب الزاخر، يمثلان المجاديف، خيل إليه أن حديقة بيلكور، قطعة من رياض الجنة، وامتلأ قلبه سروراً وجذلا لنظر الأرصفة والدكك والمباني القائمة على ضفاف النهر مثل باليه رويال، ودير لاشارييتي حيث كان قد شرع في بناء الجسر الفاخر الجديد، وبرج كارز چوبيه وقصر الحرية، ومنظر نهر الرون تتلألأ صفحته رونقاً ويتوهج متنه بريقاً يضاحك حاجب الشمس وتلاعبه الأشعة، قد ازدحت على صدره القوارب والزوارق — هذه المناظر الجمة المختلفة أفعمت قلبه فرحاً، وهزّت أعطافه مرحاً.

ولا جرم أن يطرب لأمثال ذلك المنظر حديث العهد بالسجن، قد لبث طويلاً في ظلمات وحشة يضاعف ظلامها سواد همومه وأشجانه ... وما زالا يستحثان القارب ارتفاعاً في النهر، حتى انتهيا إلى قرية كولانج

تعريف بالقصة

بارونس أورزي أو البارونه أورساي Orczy من أشهر كاتبات القصص في اللغة الانكليزية. نبيلة بريطانية، مختلطة الجنسين الفرنسي والسكوتي، تسلسلت من نبلاء فرنسيس هاجروا إلى انجلترا أيام الثورة الفرنسية وقد اتخذت موضوع الثورة وحياة فرنسا وانجلترا لمعظم قصصها ومنها «الزهرة القرمزية» سوف أسدد ديني، البدورادو. وقد اتخذت پيرنل رمزاً لشخصية فتى محبوب جعلته بطلا لكثير من قصصها الطويل في مغامرات النبلاء أثناء الثورة. وهذه القصة التي تنقلها إلى العربية تحكي تاريخ فتى فرنسي ارنست كنزلو، يبحث عن سر عميق لقاء سر آخر، يهبه لمن يهديه إلى سر مولده وفيها وصف جميل للاشراف والجزويت وتحليل للاخلاق والنفسيات وهي منشورة في مجموعة مغامرات پيرنل

(The adventures of the scarlet Pimpernel.)

الحسناء ، المضمنة طائفة عديدة من منازل بديعة ريفية للأشراف والسادة ، الذين عملت الثورة على تقويض مجدهم وهدم صروح عظمتهم وتبديد ثروتهم ، ومصادرة أملاكهم والقضاء على مظاهر قوتهم ، بعد أن ظلموا الرعية وانتهكوا الحرمات ، وناءوا بكلاكلهم على صدور الأمة فامتصوا دماءها واستعبدوها وهم أجراؤها وخدامها . وكان هؤلاء السادة من الأعيان والأرستقراطية ، وعبّاد الشهوات وسدنة هياكل المال قد تعلق منهم بأذيال الفرار من تعلق ، واختبأ في خفايا القصور العتيقة من اختبأ ، وما كان يجرؤ على الظهور منهم إلا المسلح المدرع الذي يستطيع أن يدافع عن نفسه . أما خدمهم فكانوا يسرحون ويمرحون ، ولا جناح عليهم ، لأنهم من طبقة الشعب ولا يتميزون عليه إلا بآثار النعمة البادية عليهم . كذلك الخادم الذي كان في انتظار أرنست كنزلو بساحة السجن ، في عصر ذلك النهار . وكذلك وصلا إلى دار النبيلة الكونتة — وهي دار بهيجة جديدة ، إذ كانت من منشآت العام الأخير من حكم لويس الرابع عشر ، وهي في الصف المواجه للنهر ، وراءها بستان أنيق ، وهي تشرف على مشهدين جميلين ، أحدهما تلقاء بواساك والثاني ناحية سان بول ، حيث يقوم القصر الفخم العتيق — قصر البرنس بوربون

***

في بهو الكونتيس أبصر أرنست كنزلو بعض تلك الصور التي كانت في قصر جرانفولان ، والتي قد نقلتها السيدة النبيلة إزابيل دي كابيت إلى دارها الجديدة عقب وفاة زوجها — وهو والد أرنست كنزلو — من امرأة من الشعب . وفي أخص مكان وأشرف موضع كانت ترى صورة السيدة النبيلة الكونتة إزابل دي كابيت بريشة المعلم دافيد . ذلك المصور النابغ الذي امتد به أجله حتى رسم بريشته تصاوير نابوليون وجوزفين بوهارنيه وجميع الأمراء والأميرات من أسرة بونابرته ، بعد أن رسم تصاوير دانتون وروبز بيير وما رات وشارلوت كورداي . وقد قيل في ذلك الحين إن هذا الرسام الذي لا ضمير له ولا كرامة (كذا وما أنا إلا ناقل) قد دنس ريشته بتصوير أوغاد الثورة ، بعد أن شرفه الملوك بنقش صورهم !! ولكن دافيد كان طوال حياته مغلوكاً متصلكاً ، لا يبالي شيئاً فقد رسم صورة ماري أنطوانيت وصورة جوزفين بوهارنيه ، وجمع بين اللوحتين في بهو مرسمه وقال لصديقه جوراندي « هاك صورتي داعرتين ممتازتين ، الأولى أوصلتها العظمة الامبراطورية إلى الفجور والفسوق ، والثانية أوصلها الفجور والفسوق إلى العظمة الامبراطورية » وقد نقلها جوراندي إلى رجال الحكم وإلى ذلك الماهية تاليران ، فهز كتفه وقال :

« دافيد قاتلها ، وأنت تنقلها إليّ ؟ علام تريدني أن أفعل به ؟ إنه مفتن ، وكل مفتن مجنون ، أتراني أقدمه للمحاكمة . إن عهد فوكييه دي تنفيل قد انتهى ، الحكمة الثورية قد غلقت أبوابها ... ولكنني أستطيع أن أعمل شيئاً يسرني ويسره ، أي دافيد ، وهو أن ...

فقال له جوراندي : ما هو يا موسيو تاليران ؟

فقال : سترى عما قريب . ثم صرفه ولم يكد هذا الصديق الخائن يبلغ باب الديوان ، حتى أمر تاليران بالقبض عليه بتهمة التجسس . . لقد صرت

هذه الخواطر برأس أرنست كنزلو الابن الطبيبي لزوج الكونته إزابيل دى كابيت فى هيأة ربة الصيد « ديانا » وعلىها سارية سفراء ، وفى يدها قوس ، وعلى جبينها هلال ، وحولها كلاب تنبح وتمرح . وكانت هذه الصورة قد نقشت أيام كان المشاق الملوكيون يتوددون إلى ربة الصيد العذراء (إزابيل) فيلقون عندها منزلة وزلفى .

وكما أن الالهات لا يَشِبْنَ ولا يهرمن ، بل ينعمن بصبًا دائم ، وشباب سرمدى ، فكذلك ما برحت هذه الالهة (الكونتس ازابيل) إلى يوم وفاتها تعتقد أنها لم تكبر قط ولا كان للزمن أدنى سلطان على شبابها ، وهكذا لبثت طول عمرها ترى أن الصورة لا تزال تحكى حسنها وتمثل جمالها

كان أرنست كنزلو يريد الوقوف على سر مولده، وكانت السيدة تريد الوقوف على سر مقتل زوجها ، الذى كان الفتى بسببه سجيناً . بعد أن سيق أرنست كنزلو إلى حجرة السيدة بواسطة خادم البرفة ، وانتظاره هنالك المدة التى تقتضيها مراسم التشريفات وآداب الزيارات ، تنزلت الالهة «ديانا» إلى الظهور للفتى ، فجاء يتقدمها زنجى أسود فى زى الأتراك ، أحمر الحذاءين فى عنقه طوق من الفضة منقوش عليه شارة الفيكونتس ، وهو يحمل وسادة السيدة ثم تبعته وصيفتها وجاء بعد ذلك طائفة من كلاب الصيد ينبحن ويعرحن أمام السائدة ذات الجلال والعظمة . ثم أقبلت السيدة الكونتة ذاتها تنثر صنوف الطيب النالية ، وفنون السبق والشذا ذات اليمين وذات الشمال . وما زال أرنست كنزلو يذكر منذ طفولته أريج المسك الذكى الذى كان يفوح ويتضوع من أردان زوجة أبيه

وكما أن الأفق الغربى يزداد حمرة كلما ازدادت الشمس دنواً من المشيب ، فكذلك كنت ترى السيدة الأرملة يزداد خدها حمرة كلما ازدادت دُنواً من أجلها ، فلقد كان وجهها يتوهج بالدهان الغرمزى الذى كان يضاعف وهجه بياض مايجاوره من الطلاء وكانت تلبس من الشعر ذلك النمط المجعد المسلسل الذى كان مألوفاً أيام الملك لويس الرابع عشر وكانت عيناها تبرق من وسط هذا البناء العجيب المركب من شتى أنواع الدهان والصبغة والطلاء . وهى ألوان من الأكاذيب . وإن البيت الذى يحل فى وسطه هؤلاء السادة والسيدات ، لجدير بألا يضم بين أكنافه إلا مرائين منافقين ، لأنه لكل منهم إلا أن يكذب على صاحبه ويظهر له غير حقيقته . فالزوج يكذب كلما استقبل الأضياف بوجه باش قد ارتسمت عليه ابتسامة المداراة أو المجاملة، والزوجة تكذب وتمضى على القذى وتسيغ الشجى وتظل طول حياتها فى كذب مستمر . تكذب على زوجها وشريك حياتها وقسيم روحها ، وتكذب إذا أسرت طفلها الصغير باحترام أبيه العزيز، وتكذب إذا أكدت لأبيها أنها فى هناء تام وعيش سعيد، والخدم أيضاً يكذبون كلما تظاهروا بالخشية والخشوع وهم ماثلون وراء كرسى مولاهم ، وكلما تناولوا عما يقع من النزاع تحت أعينهم . وكذلك يقضى القوم حياتهم من مطلع الشمس إلى موعد النوم فى كذب ونفاق ، ثم ترى أدعياء الحكمة يمتدحون ذلك الرياء الأبدى ، ويسمونه مراعاة لآداب المعاشرة واحتفاظاً بقواعد المجاملة . أما الصدق والصراحة وقول الحق فليست مثلا صالحة لحسن المعاشرة ولا قدوة طيبة لاستقامة المعيشة ، وبسبب هذا

النفاق وقعت أغرب حوادث هذه القصة فان الكونت دى كابيت وهو فقيد الكونته إزابل وبطلها كان قد استقبل فى داره مركيز ديلامور وضافه وأكرم وفادته أياما طوالاً وهو يعلم أن هذا المركيز الماجن قد انفصل عن زوجته وقد وقع له كثير من الحوادث التى لها مساس بالعرض والشرف ، وكان السبب فيها النساء كما هى العادة .

وقد لحظ الفيكونت كابيت حديثاً دار بصوت خافت بين ضيفه وبين قرينته إزابل ، فلما بهتهما رب الدار (الكونت كابيت) انتهر زوجته قائلا : « قبحك الله أيتها الأفعى الصغيرة ، أخرجى من الغرفة ! »

فصاح المركيز ديلامور قائلا :

إنى مخبرك يا كونت عما قالته لى زوجتك ، ويعلم الله أنى لا أكذب فى حرف واحد منه . لقد تضرعت إلي ، وعيناها مملوءتان بالعبرات ، فى الاقلاع عن ملاعبتك ألعاب الزهر أو الورق ، وأنت أعلم وأدرى هل ذلك السؤال فى مصلحتك أو فى غير مصلحتك

فقال الكونت كابيت بصوت يابس جاف :

« لا شك أنه كان فى مصلحتى يا مركيز ! ولا شك فى أنك مثال الانسان الكامل ، وإن الدنيا لتعلم أي قديس طاهر أنت !

فقال المركيز : لست بقديس ، ولست أنت شيطاناً ، ولكن امرأتك ملاك

فقال الكونت : والله لأحاسبنك على هذا

فاعترض المركيز ديلامور قائلا : حقاً يا كونت إن المصاب فى إبهام قدمه بالنقرس ليعجز عن الجرى وراء نساء غيره .

وبعد يومين أعلن ماركيز ديلامور عزمه على الرحيل ، وكان مضيفه الكونت أثناء ذلك يعامله بتأدب متكلف متصنع ، لا شك أنه يخالف ما هو معهود فيه من الصراحة والتبسط ورفع الكلفة ، بيد أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الظن بأن هذين النبيلين قد افترقا على غير الصداقة والاخاء

ولكنهما افترقا على ضغن كمين ، وحقد دفين ، ونار أشعلتها الغيرة المحرقة . فان الغيرة متى تنبهت لم يكن فى طاقة الأفيون أو المرفين ، بل ولا فى طاقة كل ما حوى الشرق من المخدرات والمسكنات أن تلطف حدتها أو تطفىء جذوتها

فقد اجتمع الكونت والمركيز وانتحلا سبباً للقتال ناشئاً عقيب العشاء والمسرح والشرب والورق . فنادوا على مركباتهم تسعهم وأصدقاءهم وشهودهم ، وهمسوا فى آذان السائقين بالانطلاق إلى بستان رأس الديك — بارك تيت دور — فلما بلغوا ذلك المكان نزلوا إزاء حانة — فولى كابير — وكان الوقت منتصف الليل ، وقد هدأ الناس فى مضاجعهم ، ولم يبق من الأنوار إلا أشعة قليلة تنبعث من نوافذ بعض المنازل . بيد أن الليل كان زاهي النجوم ، والسماء صافية الأديم ، ولم يكن المتنازعون يحتاجون إلى أكثر من هذا لقضاء وطرهم الوبيل ، فدخلوا البستان ولبث السائقون فى خارج السور يحرسون البوابة مخافة أن يزعج الاجتماع بعض الناس فانه لم يمض أكثر من دقيقتين حتى سمعت صيحة من السائقين الواقفين خارج البستان يدخنون « شبقاتهم » ويتكئون على السور ، وهم يراقبون سير النضال فى داخله ، فلما ارتست كزلزو من تلك الصيحة أنه قد وقع خطب جسيم ، فدار ملتفتاً ثم انطلق يعدو

إلى حيث وجد الكونت كابيت (زوج الكونتس) صريعاً على الأرض ، وكان الماركيز ديلامور واقفاً عند رأسه يقول بصوت أجوف : « هل أصابك جرح بليغ يا كونت ؟ »

فقال الكونت وهو طريح فى مصرعه :

— أحسبنى بين يدى المنية

فقال الماركيز ديلامور الذى أصاب من الكونت كابيت مقتلا : لا قدر الله ! لا أحسب الأمر كما تظن ! إنى أخبرك والله على ما أقول شهيد : بأنى كنت عازماً على التماس عفوك لو أنك أعطيتنى فرصة لالتماسه . إن سيدتى الماركيزة بريئة من كل ..

فقال الفيكونت المسكين وقد نهض متحاملا ، واتكأ على مرفقه : صه صه ! إن النزاع الذى بيننا لا يتعدى هذه الوريقات ، نعم هذه الوريقات الملوثة (مشيراً إلى أوراق اللعب) وهنا وقع مغشياً عليه ، فاستحوذ الرعب على الجميع وحسبوه قد فارق الحياة ، ولكنه لم يكن مات فنقل إلى أحد الحانات العامة ليلفظ أنفاسه الأخيرة

وهناك أشار إلى الجميع إشارة ضعيفة بترك الغرفة ثم قال لارنست كنزلو :

إذن فانصت إلى اعترافى وأنا على فراش الموت فسألته الكونتيس النبيلة : فماذا قال لك ؟

قال لى : إنه أبى ، وإننى ولدت له من امرأة من غمار الشعب ، وهأنذا أطلعتك على ملابسات ولادته ، فأطلعينى على سر مولدى . فصاحت الكونتيس : أشهد الله أنى بريئة من ذلك الاثم فقد حمل بك وبأمك رحمها الله ظلامة جسيمة ، وإن أباك الخبيث هو الذى . . . فقال ارنست متمما : الذى جلب هذا العار على أسرتنا . . . أعرف ذلك حق المعرفة ولا أريد تكدير صفاء أحد قط ولا إقلاق راحة إنسان ما . فان ورثة الألقاب والثروة الآن كانوا أكرم أهل ودى ونسمتى وما تمددونى بسوء قط وحاشاهم

فصاحت الكونته إزابيل : إننى يا ولدى لم أعرف الحقيقة إلا قبل وفاته بيضعة أشهر . وقد زادنى ألماً أنك سجنت بسبب مصاحبته فى تلك الليلة ولا بد أن يكون بعض النفس عرفوه من سبيل الاعتراف

فقال أرنست : وعليك الآن يا أمه ... يا زوجة أبى الكريمة أن تكشفى لى عن سر مولدى ، فدقة بدقة ، وسر بسر !

فقالت : لقد فحصت عن أمر والدتك ، لأعرف أهى على قيد الحياة أم لا ؟ وقد خبرنى الأب كابان فى آخر زفرات حياته أن والدتك ماتت منذ أعوام عدة ، ولا شك عندى فى مقاله . فقال أرنست : لست أدرى أفى طاقتى إثبات الزواج الذى عقد بين أبى وأمى ، على أنى ما كنت فاعلا لو استطعت ، إذ لا أحب أن ألوث اسمك بالخزى ، أو أسوق الهم والكمد إلى من أكرمونى . فاعلمى أيتها السيدة أن ابن أبى لن يضاعف ما نالك من أذى والده ، فابق أرملته ، وامنحيها برك وعطفك فهو كل ما أرجو لديك ، ولن ترينى أذكر ذلك الأمر بعد الساعة

فصاحت الكونته بالانجليزية ، وكان دأبها أن تنطق بها كلما اهتاجت عواطفها ، لنشوئها فى بلاط الملكة حنة ، ملكة انجلترا أو إرلاندا

« والله إنك لشريف الطبع كريم السجية » فقال أرنست منحنياً فى خشوع وتخاضع : « ذلك يا سيدتى البارة ما يقتضيه مقامى . إن فى الدنيا أناساً

2017-11-11

طالما وعدت أن أبذل فى سبيلهم روحى جزاء ودهم وحنانهم ، أفيليق بعد ذلك أن أعاديهم وأشاحنهم من جراء لقب ؟ وماذا على أن يكون ذلك اللقب لى أو لهم ما دام فى الأسرة ؟

فأجهشت الكونتيس بالبكاء ، وضمت أرنست إلى صدرها وأغدقت عليه من النعم ما أنساه ألم الذكرى والتفكير فى والديه وهما الكونت العظيم ، و « السوقية » التى حملته فى أحشائها ووضعته ولم تستطع إرضاعه ، ولا العناية به ، ولم يقع بصره عليها وهو يدرك أنها أمه . ثم قالت له الكونتيس : إعلم أن الأب لامبير المتكئ الآن فى دير نوتر دام دى فورفيير ، بأعلى هضاب المدينة هو الوحيد العالم بمصير المرحومة والدتك ، وقد وكلنا إليه تهذيبك فى الصغر ، فأنم ها هنا معنا أياماً ، حتى تستجم من وعثاء السفر

فقال أرنست السجن ... أو السفر ، شىء واحد ثم ندعوه إليك ، فيقص عليك أنه «الصادقة

***

ولكن أرنست : لم يجد صبراً فاستأذن الكونتيس وسار قدماً إلى الكنيسة ، بعد أن خلع ثيابه وتزيا بأزياء الصعاليك الذين وصفوهم فى الثورة بعديمى السراويلات « صان كيلوت » ولما بلغ باب الدير واستأذن على الكاهن العتيق أخبره بكل ما وقع وأنهى إليه أنه قد اطلع على أسرار أسرته وصمم على عدم إفشائها ، فأكبره ذلك فى عين الكاهن ، لما أبداه من الايثار وإنكار الذات . وقال فى نفسه عجباً إن فى هؤلاء المجهولى الأصول ، وأولاد الطبيعة والأبناء غير الشرعيين من يسمون بمكارم أخلاقهم درجات فوق أدعياء الحسب والنسب الذين تخر عظامهم سوس الكبرياء والأثرة وحب الذات . فهنا الفضل راجع للأم حتماً ، لا للأب الذى عرفته خبيثاً ما كراً

ثم اعتنق الكاهن المؤدب تلميذه القديم وجعل يهنئه بكثير من عبارات الاعجاب والاستحسان قائلا : إن أرنست فتى شريف القلب نبيل النفس وإنه يفتخر بتلميذه وصديقه وقال له : إنه كان يود أن يهديه إلى الكنيسة الحقة الواحدة التى ينتمى إليها الأب وأن يدمجه فى سلك أشرف الجيوش التى حارب فى صفوفها الانسان — يعنى طائفة اليسوعيين التى تضم بين جنودها (كما يزعم الأب لامبير) أعظم الأبطال الذين دبوا على أديم البسيطة — أبطال شجعان لا يهابون شيئاً ولا يعجزون عن احتمال شىء ، يقابلون الجيش العرمرم بقلوب أشد صلابة ولا يخافون لقاء الموت مهما أفزعت صوره — جنود بسلاء ، قد حازوا من الانتصارات مايكسف الآلآء أبهر فوز أحرزه أبرع القواد ، وغزوا المدائن والشعوب حتى خرجت الأمم ركعاً وسجوداً بين أيدى لوائهم المقدس : الصليب ! واكتسوا من برود المجد وأكاليل النصر ما هو أسنى وأبهى من أشرف ما تقلده أمجد الفاتحين فى الأرض ، تيجان من النور السرمدى ، وهالات من البهاء الأزلى ، وآرائك فى أرفع مقامات الفردوس

فشكر أرنست لصديقه القديم ومؤدبه ومعلمه الأب لامبير اليسوعى ، حسن رأيه فيه وإن كان لا يشاركه فى تحمسه لمذهب الجزويت ، ثم قال وقد أمسك يد صاحبه :

« لقد فكرت فى هذا الأمر أيضاً يا أبى العزيز ، نعم لقد فكرت فى هذه المسألة وحللتها لنفسى ،

2017-11-11

كما ينبغي لكل امرىء أن يفعل ، وإني لباذل جهدي في سبيل الحق والخير ، وإني لأعطي الله من حُسن الطاعة وصدق الإيمان بحسب طريقتي مثلما تعطيه أنت بحسب طريقتك .. إني لا أستطيع التصديق بأن القديس فرنسيس جافير قد عام فوق اليم بعباءته ولا أنه أحيا الموتى — لقد حاولت جهدي تصديق ذلك فلم أفلح . ولقد أوشكت ذات مرة أن أصل إلى حد اليقين ولكني لم أستطع . فدعني أنس الحق وأطلب الهدى وأسأل الله الخير من الطريق الذي أنتهجه لنفسي

فجعل القسيس ينهمه تمادى تليينه في الجهل وإصراره على الضلال . ولكنه لم يمنعه محبته وعطفه . وكان توثق عرى الصداقة بين الأب لامبير وأرنست كنزلو قد شجع هذا الأخير على سؤال صاحبه عن طرف من تاريخ أمه المسكينة تلك التي طالما كان يهتف بها في أحلامه والتي لم يَرها قط في حياته . وشرح الفتى أرنست للأب لامبير ما جرى قبيل مقتل والده وبعده ، وذكر له العهد الذي قطعه للكونته والأسرار التي وقف عليها ، ثم توسل إلى الأب لامبير في إطلاعه على ما يعرفه من أنباء تلك المرأة المسكينة التي انتزع من أحضانها

فنهض الأب الجزويتي وتزيا بزي « أحد مندوبي الشعب » كوميسير دي بيل — وهو يقول: اعلم يا بُني أن كل أزياء التنكر جائزة في سبيل الدين والولاء والصداقة . وكل أصناف الملابس جائزة — حمراء كانت أو سوداء لا فرق بين الشارة الثلثة الألوان التي أحملها وأنا أمقتها ، وبين الشارة السوداء والشارة البيضاء ، كما لا فرق بين القبعة الحلاة بالوشي والقلنسوة ذات الزغف العريض التي تلبس فوق الناصية المجزوزة أو الضفائر المهدلة

وانحدر القسيس وصاحبه التي أرنست كنزلو من أعالي فورفيير إلى ضفاف نهر السون ، الذي يجري للتق له مع نهر الرون في طرف المدينة الغربي حتى بلغا أقصى حي كروا روس وجادة جيراف ، إلى الشارع الذي كان يقيم فيه أبوه والذي ولدت فيه أمه على ما يعلم . ثم قال له: كانت أمك من أهل هذه هذه المدينة ، ففي سنة ١٧٧٥ قدم أبوك ههنا في حاشية الملك السابق فتعرف أبوك (وكان لا يزال ضابطاً في الجيش ولم يرث لقب الكونتيه الرفيع) بأمك وطاردها حتى أوقعها في حبائل غرامه وقد أخبرني في كثير من أحاديثه ، وكنت أشعر يومئذ بأن الواجب يقضي عليّ بكتمانها أن تلك المرأة كانت رحيمة القلب كثيرة الصلاح ، جمة الوفاء رقيقة العواطف ، وله الحق وله العذر في أن يخجل ويستحي من مسلكه في معاملتها ، وكثيراً ما أعرب لي عما يقدح في قلبه من صريح الندم ، وما يحز في ضميره من خالص التوبيخ على ماسامه إياها من سوء العذاب كما كان يحدثني عن صفاتها الحميدة وخصالها الكريمة بلهجة تنم عن الحنان والمحبة . وقد اعترف لي أنه كان يفرط في إساءتها وأن حياته يومئذ كانت سلسلة من مخازي الفسق والقساوة والغدر . وفي ذلك الوقت حملت بك أمك . فلما انكشف السر لوالديها لعناها وطرداها ولكنها لم تعنف من جلب لها النعاسة والخراب ، إلا بعبراتها المنسكبة من مدامعها الأبية وبما ارتسم على محياها من آيات الشقاء . وكان اسمها جرترود كنزلو . فأنت منتسب إلى جدك لأمك . وهذا هو السر في حملك هذا اللقب الذي لم تكن تعرف علة اقترانه باسمك . ولم يمض على مولدك قليل

حتى مَلَّ عشيرة الفتاة التى سلبها عفتها وهناءها .
ووصل إليه فى ذات يوم مبلغ من النقود أرسله إليه عمه مولاى الفيكونت السابق (الذى ورث لقبه بمدوفاته) فادعى أن لديه أشغالا تضطره إلى الرحيل إلى باريس ثم أكد لأمك المواثيق بوشك إيابه ومن ذلك العهد لم يَرَ وجه المرأة المسكينة قط

فتنهد أرنست كنزلو الذى جدت عيناه ، وكاد أن ينفجر من الغيظ : تبًّا لهؤلاء الأشراف ... وتبًّا لرجال الكنيسة الذين يجحدونهم ويمينونهم على التمادى فى الفساد . ألم يكن فى مقدورك أيها الراعى الصالح أن تنصح له بالعقد على أمى تلك المسكينة التى ذهبت تحية غروره وشهوانه؟ وهأنت ذا تتضجع عليها وكنت تملك إقناعه بتصحيح موقفه أمام الله والكنيسة ، دع عنك المجتمع والانسانية والطفل المسكين ...

فصمت القسيس ، وأطرق قليلا ثم قال :

— لقد أقر لى أولا فى عرض اعترافه وثانياً فى عرض الحديث بين يدى عمتك زوجته — الكونتس دى كابيت — وإلا ما كنت مذيعاً لك ما أنا اليوم ذاكره — أقول إنه أقر لى بأنه عند قدومه إلى باريس أرسل اعترافاً مزوراً إلى المسكينة جرترود (والدتك) مخبراً إياها بأنه كان قبل اتصاله بها قد تزوج من امرأة أخرى ، وبأن اسمها ليس برتران وهو الاسم الذى عرفته به وبأنه على وشك مغادرة أوربا إلى مزارعه فى قرجينيا ، حيث ما برحت لأسرتكم ضيعة أقطعكم إياها الملك لويس الرابع عشر وبعث إليها مع هذا الاعتراف مبلغاً من النقود هو نصف آخر مائة من الجنيهات التى كانت معه ثم سألها الصفح عنه واستودعها الله . وما خطر قط على بال والدتك المسكينة أن ما جاء فى هذا الخطاب من الأنباء قد يكون مخالفاً للصدق شأن سائر أحواله معها . وقد طلب إليها أحد الشبان الذين من طبقتها — وكان يعرف تاريخها — أن يتزوج منها ويتبناك ويسميك باسمه ، ولكنها أبت . وتعرضت بذلك لغضب أبيها وسخطه وكان قد آواها فى بيته حيث ما برحت تعانى منذ سقوطها سوء المذلة وقسوة المعاملة ، وحيث كانت لا تجرؤ على رفع رأسها استكانة واستخذاء ، فرثت لحالها بعض السيدات الصالحات من معارفها ورتبت لها معاشاً يسيراً فذهبت الفتاة إلى أحد الأديرة ، وعهد بك إلى إحدى الحاضنات إذ كانت أمك من شدة الضعف والهزال بحيث لا تستطيع إرضاعك . فهل لك الآن رغبة فى مشاهدة الصليب المنصوب على لحد المرحومة والدتك فى مقبرة الدير ؟ إن رئيسة الدير من أتباعى الأقدمين ، وهى لا تزال تحن إلى ذكرى الراهبة مريم ماجدلين ، وهو الاسم الذى اتخذته والدتك فى رهبانيتها ، أما حقيقة اسمها فجرترود كنزلو

***

فى أصيل يوم من أيام الربيع الصاحية المشرقة ذهب ارنست كنزلو إلى مقبرة الدير فأبصر بين آلاف من الصلبان السوداء وأغيانها الممتدة على الآكام الخضراء ذلك الصليب المخصوص الذى تضطجع تحته أمه فى مثواها الأبدى . لقد تسمى بهذا الاسم (أعنى مريم المجدلية حوارية السيد المسيح وخادمته الثائبة) كثير غيرها من أولئك البائسات الرافدات فى تلك المضاجع وما هو إلا الشعار الذى وسمتهن به الأحزان والرمز الذى يشير فى لطف ورقة إلى ما كابدنه من الحب والجوى .

وجعل الفتى ارنست كنزلو يتخيل أمه وقد راحت تسكب الدمع تحت جنح الدجى وهى راكعة بين يدى ذلك الصليب الذي دفنت تحته أشجانها وهمومها ، فخر جاثياً وأنشأ يتلو صلاته وما به لوعة ولا أسى وإنما هى رهبة ملكت عليه مشاعره (فقد كان لا يعهد من أمه شيئاً حتى ذكراها) ورحمة ورثاء لما كابدته تلك الروح الرقيقة فى حياتها من الآلام التى حضرت بها إلى هذا الصليب حيث استمانت بهذا العروس السماوى من الذى فتنها واستنوامها ، والنادر الذي هجرها وأشقاها .

وكان على مقربة من الفتى راهبة فى قناعها الأسود راكعة بجانب مضجع إحدى الراهبات الراقدات ...

وكان الواقف هنالك يلمح من وراء جدران المقبرة شرفات مدينة ليون الزاهرة ومناراتها ووشيم ومضات ولمحات من أمور الدنيا ومعترك الحياة فتنهد أرنست وبكى ثم قال : ألا رعاك الله أيها الموت وحياك ! أنت ملجأ الراحة الصامتة ومستقر السكينة العميقة، لا تنالك أيدى العواصف ولا يزعج سكونك اضطراب القلاقل ! وكذلك خرج من المقبرة وإنه ليشعر كمن كان ماشياً فى قرار البحر العميق يتلمس مواطىء قدميه بين العظام المتناثرة من هياكل السفن المحطمة.

وعاد أرنست كنزلو أدراجه إلى المدينة ، وقد اشترى سراً بسر بعد أن اهتدى إلى قبر تلك الأم التى لم يحظ يوماً بتدانيها قائلاً « أماه ... »

محمد لطفى جمعة

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة الشعبية (محلى بإحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من
شركة النور المصرية بميدان ابراهيم باشا

يصدر قريبا

حيـــاة الرافعى
للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة ، أو إلى المؤلف بعنوانه :
شبرا مصر . شارع سمرة رقم ٦

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً

الملوح

للقصصي الروسي شسقولديمخائيلوفيتش كارشين

بقلم الأديب السيد مخزي شهاب السعيدي

كان « سيمن إيثانوف » حارساً على خط من خطوط السكك الحديدية ؛ وكانت المسافة بين مسكنه وبين أقرب المحطات إليه — قرابة سبعة أميال ؛ ولم يكن حول مسكنه ذاك سوى دور زملائه الحراس الآخرين ، وسوى مدخنة سوداء سامقة في الفضاء لطاحونة كبيرة شيدت قبل عام على بعد ثلاثة أميال منه

كان « سيمن إيثانوف » هذا مريضاً مقعداً وكانت له سابقة الاشتغال في خدمة ضابط في الجيش لازمه في كل الحملات التي اشترك فيها ، ونالته من ذلك ضروب الأذى — فانه كثيراً ما جاع ، وإنه كثيراً ما تعرض للهلاك ، وإنه كثيراً ما قطع عشرات الأميال سعياً على قدميه في زمهرير الشتاء القارس ! ولكن الله تعالى قد أعجاه من كل هذا ..

وكانت الفرقة التي كان فيها سيده في مقدمة الصفوف المحاربة التي كانت تكافح الأتراك مدى أسبوع كامل لم تفتر خلاله الحرب ، أو ينقطع إطلاق الرصاص . وكان — هو — يحمل جرايات سيده من شاى أو طعام إلى مقره في خنادق القتال مجتازاً بها مسافة طويلة في مساحة الحرب التي يصم الآذن فيها أزيز الرصاص فكان ذلك يروعه وربما أبكاه ! ولكنه ما كان يتوقف عن المضيّ حاملا إلى سيّده ما جاء له به من مطبخ الجيش . وكان ذلك منه مدعاة إلى ابتهاج الضباط فقد كان الشاى الساخن في متناولهم متى اشتهوه !

عاد « سيمن » من الحلة سالماً لولا أن كان أصابه مرض مؤلم في يديه ورجليه ومنذ ذلك الحين لازمته النماسة ، فقد وجد عند أوبته أن أباه الشيخ قد توفى ، وأن ابنه الصغير قد لحق بجده ، وأنه لم يبق غيره وغير زوجه في الدار ... ذلك إلى أنه لم يكن يكتب له التوفيق في عمل ما ، وكيف — ترى — يكون التوفيق وهذه أطرافه قد شلّها الألم المبرّح فهي لا تفيده في الحرث ؟

ولم يصبر « سيمن » على الحياة في قريته كذلك : بائساً ، معدماً فقيراً ؛ بل ذهب هو وزوجه يبحثان عن « السعادة » في أماكن

(*) الملوح : كلة استعملناها لمن يعين لارشاد سائق القطار بالملوح له بيدين صغيرين مشيراً عليه بتخفيف السرعة أو الانطلاق حسب مقتضى الحال — ويقابلها بالانكليزية « The Signal »

أما مؤلف هذه القصة فأديب روسي نابغ ، من المأثرين على مذهب « تولستوى » والمتأثرين بأسلوبه وأفكاره . ولد سنة ١٨٥٥ وكانت له في الجيش الروسي خدمات أثرت في أدبه القصصي إذ انتزع من حياة الجيش تلك صوراً جميلة رائعة لقصصه التي كتب ، والقصة التي تقدمها للقراء اليوم ترسم طرفاً من تصوره تلك الحياة . ثم أصيب باضطراب في أعصابه جعله ينقل إلى الناس بعض ما كان يعانيه من ذلك الداء الوبيل في كثير من قصصه التي كتب في تلك الفترة من عمره . وقد مات « كارشين » منتحراً وهو ما يزال في مبعة الشباب سنة ١٨٨٨

2017-11-11

أخرى .... لقد ذهبا يبحثان عن عمل فى سكة القطار فى « خاركوف » و « الدون » ولكن الحظ لم يواتهما أينما ذهبا ؛ فاضطرت زوجه إلى أن تكون خادماً ، وظل هو يكمل رحلته فى التفتيش عن عمل له ... وإنه لجاد فى سفره إذ صادف مدير إحدى محطات القطار الصغيرة ؛ فتفرس فيه ، وأخذ يثبته وينفيه كأن له به سابق معرفة حتى ذكر من يكون هذا الرجل ... إنه من ضباط الفرقة التى كان فيها سيده !

— ألست « إيفانوف » ؟

— أجل . . أنا هو ياسيدى .

— وكيف جئت إلى هذه المحطة ؟ !

فقص « سيمين » قصته عليه .

— وإلى أين أنت ذاهب الآن ؟

— لست أدرى يامولاي !

— ماذا تبغى ! أمجنون أنت فلا تدرى أين تضرب فى الأرض ؟

— هو ما تقول يامولاى ، إذ ليس لدى مأوى ألجأ إليه . وإن على أن أمضى فى التفتيش عن عمل سهما كان نوعه يا صاحب السعادة .

فنظر إليه مدير المحطة لحظة ، وظل ساهماً ، ثم قال له : —

— إسمع ياصديقى ، ابق فى المحطة الآن ؛ أنت متزوج فيما أعتقد فأين زوجك ؟

— أجل ، هذا صحيح ؛ سيدى أنا متزوج ، وزوجتى فى « كرسك » فى خدمة تاجر هناك .

— حسن ، فاكتب إليها تستقدمها لتوافيك إلى هنا ، وسأحصل لها على بطاقة سفر مجانية . . إن أحد حراس « الخط » سيخلى مكانه ، وسأكلم رئيس الشعبة فى شأنك .

— أنا شاكر جميل صنعك ، مولاى !

... وكذلك ظل « سيمين » فى المحطة يساعد المكلفين بإعداد طعام المدير طوراً ، وبقطع لهم الخشب تارة ، أو بكنس الساحة والبلاط أحياناً حتى قدمت — بعد أسبوعين — زوجه تخرج لاستقبالها ، وحمل لها أمتعتها فى عربة يد صغيرة إلى مقرها الجديد .

كانت داره هى مقر حراسته الخط وملاحظته القطار ؛ وكانت داراً جديدة البناء دافئة ، هذا إلى أن باستطاعته أن يحتطب مايشاء ، وأن يزرع أرضاً صغيرة حول داره ... وإنه ليفكر الآن فى شراء بقرة وحصان ليستفيد منهما فى تلك الأرض

وأعطى « سيمين » كل ما يحتاج إليه فى أداء وظيفته : علماً أخضر وآخر أحمر ، ومصباح نفط ، وبوقاً ومطرقة ومفتاحاً يقوى به مسامير الخط ، ومكنسة وكلاباً ، كما أعطى كتابين صغيرين فى أحدهما قوانين استعمال العلمين وفى الآخر مواعيد وصول القطار ... وما كان « سيمين » يستطيع أن ينام فى بادئ الأمر ليلا لأن استظهار مواعيد القطار كان موضع اهتمامه وشغله ... فلو أن قطاراً سيمر بعد ساعتين كان يمضى له « سيمين » فيصلح من الخط شيئاً ، ولو بدقات بسيطة عليه من مطرقته ، ثم يجلس على مصطبة حيال داره يرقب مقدم القطار ، فان استعصى عليه ذلك بالسماع تحسسه باهتزاز الأرض أو ارتجاف خطوط السكة . وحفظ قواعد استعمال العلمين عن ظهر قلب بعد سمومة قاساها كان الفصل فصل الصيف ، والعمل فى الصيف

يسير ، فليس ثمة ثلج يقتضيه تنظيفه ... بل كل ما هناك بضعة قطر تدرج على ذلك الخط مرات قليلة في اليوم ؛ فكان سيمن يخطر في مصامته[1] المسؤول عن حراستها مرتين في اليوم : يربط هذا الخط ، ويقوى ذلك المسار ، ويعدّل تلك الصابورة ويلاحظ أقنية الماء ، ثم يعود إلى داره ليشتغل في زراعة أرضه ؛ ولكن أعماله في الدار كان يعطلها شيء واحد هو طلب « الأذن » من ملاحظ الطريق الذي يرفع الأمر بدوره إلى « رئيس الشبة » وقبل أن يجاب الطلب يكون قد فات الأوان ! وكان ذلك سبب تذمر « سيمن » وزوجه المستمر

مضى على مقام « سيمن » شهران فبدأ يتعرف إلى جيرانه ويتخذ له منهم الأصدقاء ... كان أحدهم شيخاً طاعناً في السن ، تفيض الألسن بشائمة الاستغناء عنه إذ لم يكن يستطيع الخروج من داره وكانت تسيئه على أداء واجبه زوجه فهي التي تلاحظ الخط وتقوم بذلك مقامه ، وهي التي تؤدي ما كان زوجها مسؤولا عنه من واجبات ... وكان الآخر شابا في مقتبل العمر ، لقيه « سيمن » أول ما لقيه على خط السكة الحديدية حين جمعتهما المهنة المشتركة فألقى «سيمن» على الشاب نظرة ثم انحنى له وحياه فرد الآخر تحيته عليه ثم استدار يخب السير في طريقه

والتقت زوجاهما بعد ذلك فكانت «إرينا سيمن» تبتدر صاحبتها بالتحية ، وكانت الأخرى ترد عليها ثم تنصرف إلى ما كانت فيه ... وقد صادف «سيمن» زوج صاحبه مرة فسألها قائلا :

— ما بال زوجك يا سيدتي طويل السكوت ، لا يتكلم إلا لماما ؟

فنظرت إليه الشابة بادئ الأمر ثم أجابته قائلة :

— وعاذا تريده أن يتحدث إليك ؟ إن لكل امرئ شغله الشاغل ... هلا انصرفت إلى ما أنت فيه محروساً ؟

ولكن ما أن تمضي على ذلك شهر أو لواذ شهر حتى عرفا جملة من الأصدقاء هناك ... فكان «سيمن» إذا ضمته على الرصيف جلسة و«فاسيلي» تبادل وإياه الحديث عن سير حياتيهما التي يحيان وأزجى فراغه وصاحبه بالتدخين ، وكان «فاسيلي» ساكتاً أغلب وقته يستمع لأحاديث « سيمن » تارة عن قريته التي نشأ فيها ، وتارة عن أخبار الحملة التي شهد ، ثم تنتهي الجلسة بأن يختم « سيمن » كلامه قائلا :

— إنها ليست بالمتاعب القليلة تلك التي قاسيتها طوال حياتي ... إن الله لم يحملني ذا حظ سعيد ، ومهما يكن من شيء فانه قسم لي هذا يا أخي ... ثم ينفض « فاسيلي » غليونه من الرماد بدقة على القضبان الحديدية وينهض وهو يقول :

— كلا إنها ليست « قسمة » المرء التي تجلب له « التعاسة » إنما هم « الناس ! » فليس مثل الناس وحوش ! إن الذئاب لا تأكل الذئاب ، ولكن الانسان يفترس أخاه الانسان وهو على قيد الحياة !

— كلا يا صديقي فالذئاب يأكل بعضها بعضاً ، ليس إلى إنكارك هذا من سبيل !

— هكذا خطرت لي الكلمة فقلتها ... إنهم جميعاً سواء ، فليس ثمة مخلوق أقسى من مخلوق ! ولكن لو لا أن كان في الانسان «الشر» و«الطمع» لاستطاع أن يعيش ... إن كل فرد يتحين بك

(١) المصامة : الحدود المعينة التي لا يجوز تخطيها إلى غيرها

الفرصة لينقض عليك وأنت ما تزال حيًّا فيختطف لقمتك من فك إليه !

— لست أدري ، يا أخي ، ربما كان الأمر على ما تقول ... ولكن إذا كان هـذا حقًّا فتلك « قسمة الله ! »

— فإن صح ما ذهبت إليه فليس لدى أحدنا ما يقول للآخر ... إنا ياهذا لو عزونا كل ظلامة إلى الله وا كتفينا بالصبر على مضض العيش فما نحن بشر ، بل أنعام ... هذا ما أرى !

ثم يستدير ليمضي دون أن يسلم على رفيقه ، فيناديه « سيمن » ويتب عليه لهذا التهجم ، ولكن « فاسيلي » يجد فى السير إلى أن تنقطع عن العين رؤيته فى المنعطف فيعود « سيمن » إلى زوجه ويخبرها بأن جارها هذا لايبدو كونه وحشاً فظاً !!

على أن هذا الحديث لم يكن ليجر إلى الشادة فسرعان مايعود الاثنان إلى صفائهما ومجلسان حيث كانا من قبل ويبحثان ما كانا يبحثان فيه فترى « فاسيلي » يقول :

— حسن يا أخي ، فلولا هؤلاء الناس ما كنا نأوي إلى هذه المساكن التى نتجرفها واجباتنا ...

— وما اعتراضك على هذه الدور ؟ إنها ليست بالرديئة ... إنك تستطيع أن تعيش فيها

— نعم تستطيع أن تعيش فيها ، نعم ! ذلك رأيك أنت أيها الشيخ ... الفر ! ولكن خبرني بربك عن نوع هذه العيشة التى يعيش الفقراء سواء فى دور الحراسة هذه أو فى أى ملجأ آخر ... حدثني عنها كيف تكون ؟ إن « مصاصى الدماء » سيأكلونك وأنت ما تزال على قيد الحياة ! سيستنفدون آخر قطرة من دمك فاذا لم تعد صالحاً لهم رموك كما ترى فضلات الذبائح للخنازير ! ألا تحدثني عن أجرك ؟ إنك لتتناول اثنى عشر روبلاً فيما أظن . وأما أنا فأزيد عليك روبل ونصف روبل فكيف كان هذا ؟ فى حين أن الشركة قد فرضت للواحد منا خمسة عشر روبلا إلى جرايات للوقود والاضاءة ؟ كيف جعلت اثنى عشر روبلا لك وثلاثة عشر روبلاً ونصف روبل لي ؟ من رتب هذا المرتب ؟ أجبني على هذا ثم قل إن الواحد منا يستطيع أن يعيش ! إنك تفهم هذا على أنه حساب روبلات زهيدة ! ولكن الأمر ليس كما تظن ... فلقد كنت بالمطة فى الشهر الماضى حين مر « المدير » تحفه ضروب التجلة والاحترام، وكان راكباً سيارة خاصة فنزل منها ووقف على الرصيف ... دعني ... لن أبقى هنا أبداً سأهيم على وجهي :..

— إلى أين يا أخي « ستيفانيش » ؟ إن لك هنا سكناً يقيك البرد ، وإن لك قطعة أرض وزوجاً تقوم بخدمتك !

— آه ! قطعة أرض ... أنك لا تبصر غيرها ! ولكن ما الذى أفدته منها ؟ إنها خلاء حتى من الشوك ! لقد زرعتها في الربيع الماضى بشيء من الكرنب أفتدرى ماذا قال اللاحظ ؟ لقد جاء سكران بعربد :

— أى شيء فعلت ؟ هل استأذنت أحداً ؟ هل سمح لك به ؟ لا يجوز أن يبقى هذا ، ولا أثر منه بسيط ! أندرى أنه كان يحمى نفسه أن أنفحه بضعة روبلات ... ثلاثة جيلة ... لا بأس بها !

ثم قال « فاسيلي » بعد أن دخن فى غليونه :

2017-11-11

— ولولا أن تريث ، وتحملت ، لكنت بطشت به ...

— عجباً يا أخي ... اسمح لي أن أقول إنك رجل حديد الطبع ، سريع التأثر !

— كلا ، لست كما تصف ، بل إني أتأمل الحقيقة ثم أجهر بها .. وعلى كل فسينال الملاحظ جزاءه الذي يستحق ... سأرفع شكواي إلى الرئيس ... ثم كان الأمر كما قال .. إذ رفع شكواه إلى الرئيس .

... وجاء « الرئيس » لتفتيش الخط ، فقد كان من المنتظر أن يطرأ عليهم أحد من « بطرسبورج » بعد ثلاثة أيام ، ففحص الخط لاكمال نواقصه قبل وصول ذلك الطارئ .. لقد سويت الطريق ، وأصلحت المسامير ، والموارض واختبرت العقد بالمطارق وصبغت الأعمدة ، ونثرت الرمال الصفراء في مفارق الطرق ... وبعثت الحارسة العجوز بزوجها الهرم ذلك الأسبوع ليجتث الأعشاب !

أما « سيمن » فقد أجهد نفسه طوال ذلك الأسبوع حتى استوى له كل شيء على ما يرام ... لقد رفا ثوبه وغسله ، وأتم طاولته المدنية « بنيار الطاووس » حتى بدت صقيلة متوهجة ، وكذلك كان أمر « فاسيلي » الذي جد في عمله أي جد !

... وصل « الرئيس » إلى المحطة في مركبته الخاصة ... واندفع إلى مكان « سيمن » ، فقام إليه هذا فحياه تحية عسكرية !! . لقد كان كل شيء على ما يرام

— كم مضى عليك منذ مجيئك ؟

— كان مجيئي يا مولاي في مايو الماضي

— حسن ... أشكرك ... من هو صاحب الرقم ١٦٤ ؟

فأجابه الملاحظ الذي كان بصحبته :

— « فاسيلي سيبريدونوف »

— سيبريدونوف .. سيبريدونوف .. آه ، أهو ذلك الفتى الذي عوقب في العام المنصرم ؟

— نعم .. إنه هو

— حسن سنرى ، فلنمض ..

فسحب الرجال العربة وبدأت تسير ..

نظر « سيمن » إليهم لحظة ثم قال :

— لا بد أن يكون لهم شأن مع جارنا

وبعد ساعتين — انصرف فيهما « سيمن » إلى عمله — أبصر شخصاً قادماً من منعطف الطريق سائراً حذاء الخط ، وكأنه يحمل شيئاً أبيض فوق رأسه .. وتطلع « سيمن » وأطال نظره .. فاذا به يرى « فاسيلي » ، لقد كان ممسكا بعصا في يده ، وعلى عاتقه حزمة بيضاء ، وكان وجهه ملفعاً بمنديل

— إلى أين أيها الجار ؟

فاقترب « فاسيلي » ، وكان منظره غريباً ، ووجهه مثيراً للدهشة ، بعينيه الواسعتين الجاحظتين وحاول أن يتكلم فانفجر قائلاً :

— إني ذاهب إلى « موسكو » إلى حيث « اللجنة »

— إلى اللجنة ؟ أكذلك ؟ .. لترفع شكواك على ما أظن ؟ ! لا يا أخي .. تناسَ ذلك .. أسقطه من بالك

— لا ... لن يكون ذلك ! يستحيل . انظر لقد صفعني على وجهي فأدماه ! لن أنسى هذا

ما حييت ولن أوفي الأمر بعد بسلام

وأخذ « سيمن » ذراع صديقه بين يديه ثم قال :

— لا بأس يا أخي ... لا بأس ؛ إسمح لي أن أقول لك إنك لن تصلح شيئاً مطلقاً

— لن أُصْلِحَ شيئاً ، نعم أنا عالم بهذا ، لقد صح قولك عن « قسمة الله » ! لن أصلح شيئاً من أجل نفسي .. ولكن علينا أن نتمسك « بالحق » أيها الصديق

— أرجوك حدثني كيف تم هذا ؟

— اسمع ... لقد فَحَصَ كلٌّ شيء ، نزل من المركبة ودخل الدار وكنت عارفاً بمنايته بالتدقيق والفحص فهيّأت كل شيء ، وأعددته إعداداً حسناً ، وجعلته على خير ما يكون .. وهم بالخروج لولا أني رفعت إليه ظلامتي ، فصرخ قائلاً :

— هذا تفتيش إداري ، لا يجوز لك عرض شكواك الحقيرة هذه عليه ، هذا إلى أن هذه الأرض التي زرعت أرضٌ أميرية لاحق لك بأن تملأها قذارة بكرنبك ذاك ... ولم أستطع أن أقول شيئاً أجابهه به بعد هذا ... ثم ... ثم أهوى على وجهي بضربته التي ترى آثارها ! ولبثتُ في مكاني كأن ذلك لي هو حُكمُ النصفة ، وقرار « العدل » ... وانصرفوا عني ذاهبين ! وغسلت وجهي وفكرت فيما عساني أقوله لزوجي !... وانصرف « ڤاسيلي » وهو يقول :

— أترانى سأدرك العدل الذي أريد ؟!

— وستذهب ماشياً ؟

— سأسعى أن أسافر في قطار البضاعة ، وسأكون في موسكو غداً

ثم افترقا ...

... طال ارتقاب زوج «ڤاسيلي» عودة زوجها. إنها الآن هي التي تقوم بأعماله المسؤول عنها ليلَ نهار ! حتى صرَّ في اليوم الثالث مفتش من مفتشي القطار وكانت المحطة آنئذاك مزدحمة ، فهمنا قاطرة وهناك عربة شحن ، وبقربها عربتان أخريان من عربات الدرجة الأولى . وقد شغل كلُّ هذا الزحام المفتشَ عن أن يتحرى أو يفتش ... غير أن « ڤاسيلي » مايزال غائباً للآن ... وفي اليوم الرابع أتى « سيمن » زوجة جاره في بعض الطريق — وكانت محمرة العينين ، بادية النحب — فسألها عن زوجها : هل عاد ؟ فأشارت إليه بالنفي ولم تحر جواباً وانصرفت إلى سبيلها

* * *

كان سيمن حذق في صغره كيفية صنع المزامير من غصون الصفصاف فكان يقتطع لباب الشجر الطريّ ويجوّفها ويثقبها من أماكن خاصة ، ثم يبري لها « مكان الفم » فاذا تلك العصاة قد استوت له آلة يستطيع أن يوقع عليها ما شاء من ضروب الألحان ! وكان يَستَغل أوقات فراغه في صنع أمثال هذه المزامير ويبعث بها إلى القرية مع حارس من حراس قطار الشحن — له به معرفة سابقة — ويقبض « كوبيكين» عن كل واحد من تلك المزامير

وكان قد مضى على مرور « المفتش » ثلاثة أيام حين ترك « سيمن » مهمة التلويح لقطار الساعة السادسة إلى زوجه ومضى إلى الغابة يقتطع بعض أخشاب الصفصاف — بعد أن خير الخط بنفسه ليتأكد من سلامته

وكانت خيرة عيدان الصفصاف تنبت حول

2017-11-11

مستقع فى جوف الغابة ... فقصد « سيمن » إلى ذلك المكان واحتطب منه كفايته ثم تأهب للرجوع

كانت الشمس قد تضيفت للغروب ، وكان يخيم على المكان سكون رهيب لا يسمع من خلاله غير زفزفة الريح ، وحفيف الغصون ، وخشخشة[1] الأوراق الجافة المنتثرة على أرض الغابة ... وسار « سيمن » حتى قارب خط سكة الحديد تخيل إليه أنه يسمع طرقاً على ممدن، نغب السيرليرى ما هذا. إن الخط فى هذه المنطقة لا يحتاج إلى إصلاح فما تعليل هذا الطرق ؟

وخرج من الغابة فرأى على « سدة القطار » رجلا قد جلس القرفصاء وكأنه مشغول بشىء بين يديه ، فدنا منه « سيمن » فى حذر ، وكان يظن أنه رجل جاء لسرقة بعض صوابير الخط ! ثم أنعم فيه النظر — وكان الشخص قد نهض — فرأى مُخْلاً أمَرَّ من تحت الخط الحديدى لينحرف به عن اتجاهه .. لقد حاول « سيمن » أن يصرخ به ، ولكن كيف ؟ إنه .. « فاسيلى » فانقض عليه بسرعة عجيبة ، غير أن « فاسيلى » كان قد ظفر إلى الجانب الثانى من السد ، حاملا إزميله معه

— فاسيلى ستيفانيتش — أيها الأخ — أيها الصديق . عد إلى . هات أزميلك لنعيد الخط إلى ما كان . لن يعلم بهذا أحد ؛ عد . سارع وأنقذ « روحك » من اقتراف الاثم .

ولكن فاسيلى لم يعد بل أوغل فى الغابة هرباً !

وقف « سيمن » حيال الخط المفصومة عراه — تارة كما عيدانه تنتثر — ... إن القطار الآتى قطار ركاب لاشحن ! وليس فى استطاعته إيقافه إذ ليس لديه علم الخطر الأحمر ، وليس فى مقدوره أن يعيد الخط بيديه المجردتين إلى وضعه السابق . وإذاً فعليه أن يركض إلى مكان قريب . إلى داره ليحضر الأدوات . ومنك يإلهى النجدة ..

وانطلق « سيمن » نحو داره بسرعة فائقة وابتعد عن الغابة . غير أنه ما يزال بينه وبين داره نحو مئتى ياردة !

إنها الساعة السادسة الآن ، وسيكون القطار هنا بعد دقيقتين . أيها الاله الكريم أنقذ الأرواح البريئة . لقد ارتسم أمام ناظرى « سيمن » المنظر بكامله ، فهذه القاطرة تتقدم عجلاتها الأمامية إلى مكان الخطر ثم تتبعها العجلات الأخرى ! يا للهول ! هنالك موضع الخطر ومن تحته انحدار خمس وعشرين قدماً — ارتفاع السد ! تلكم جموع الأطفال والنساء الحاشدة فى عربات الدرجة الثالثة وهم جميعاً ساهون لا يتوقعون حدوث الكارثة ولا يدرون عنها شيئاً كلا ... ليس فى الوقت سعة للركض إلى الدار ، فليمد أدراجه إذن ...

استدار « سيمن » راكضاً من حيث أتى وهو لا يدرى ما يفعل ، مضاعفاً سرعته فى الركض ، غير مهتد إلى حل ، جاهلا نهاية هذه المشكلة !

عاد إلى حيث كان أساب الخط التخريب ، إن عصيه كانت مكومة هناك ، فوقف لحظة ، ثم أخذ إحداها ، وابتعد راكضاً — لقد وصل إلى أذنيه صفير القطار البعيد ، وها هى ذى القضبان بدأت تهتز وكانت قواه قد خارت ولم يعد باستطاعته أن يواصل الركض . إن بينه وبين مواطن الخطر الآن قرابة مائتى ياردة ، لقد خيل له أنه توصل إلى حل معقول .

(٥)

(١) صوت حركة القرطاس والثوب الجديد أو الورق أو ما أشبه ذلك ، وهي من الكلمات الدارجة التى تستعملها (العامة) فى العراق بهذا المعنى .

فرفع قبعته واستخرج منها منديلا قطنياً ثم سحب سكينه وحز ذراعه قائلا :

— باركني يا إلهي !

فتدفق الدم غزيراً قانياً حاراً ، فبلل منه منديله ثم نشره وعلقه على العصا الصغيرة ، ثم أمسك بعلبه الأحمر هذا ينتظر القطار ، ووقف هناك يلوح بعلبه . إنه ليتراءى له أن سائق القطار لم يره فهو يخفي مسرعاً حتى يقارب الموضع المشؤوم فيتردى كان دمه ما يزال يتدفق بغزارة ، فألصق جرحه بجسده ضاغطاً عليه ليوقف تدفق الدم ، ولكن ذلك لم يفده. لقد كان جرحاً رغيباً[1] .. إنه ليشعر بالدوار يستولي عليه ، والضباب يتراقص أمام عينيه . ثم عم الظلام فهو لا يرى شيئاً ، ولكنه يسمع مثل دقات الجرس . إن شيئاً واحداً يشغله : خوف ترنحه قبل مرور القطار ، فلا يراه السائق أو يشعر به ! أدركني يا إلهي برحمتك ... وأظلمت عيناه ، وتبلد ذهنه ، فهو لا يعي شيئاً مما حوله ... ثم سقط العلم من يده ! غير أن عله المدى لم يسقط ... بل أخذته منه يد شخص (١) لا يدري من هو ، وظلت تلوح به إلى موعد مرور القطار !

رأى هذا المشهد سائق القطار فأوقف قاطرته فنزل الركاب يستطلعون طلع الأمر ، متجمهرين ليروا ... ماذا ؟ رجل فاقد وعيه قد غطاه الدم ، وبقربه آخر ممسكا بعلم أحمر مدى مربوط بعصا صغيرة ...

ونظر « فاسيلي » إلى ما حوله ، ثم لوى رأسه وهو يقول :

« اقبضوا علي ... فقد كنت سبب ما ترون ! »

« بغداد » فتحي شهاب الصعيدي

(١) الجرح الرغيب العميق

بيت الله الحرام مهدت السبيل إليه

﴿ شركة مصر للملاحة البحرية ﴾

ببواخرها الفاخرة و فنادقها الفخمة

ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا

جميع الاستعلامات من شركة مصر للملاحة البحرية

رقم ١٥١ شارع عماد الدين — القاهرة

جزاء الفضيلة

للكاتب التركي رشاد نوري
بقلم الأديب السيد بشير الشريفي

(بهو دار البلدية في مركز إحدى المتصرفيات وقد غص بالعلماء والشيوخ وكبار الموظفين وأعيان المدينة)

(يوالي المتصرف قرع الجرس وهو في كرسي الرياسة حتى إذا سكنت الضوضاء وأنصت الحاضرون أنشأ يقول :

افتتحت الجلسة يا سادة. إنكم تعرفون الغاية من هذا الاجتماع فلا أنصب حضراتكم بمقدمات لا لزوم لها بل أرى أن أدخل في الموضوع رأساً

لقد انتقل إلى رحمة الله منذ أربعة أشهر الحاج (بهاء الدين أفندي) المعروف (بيوزجي زاده) وكان من تجار مدينتنا الموثوق بهم ومن كرام أعيانها وهاذا هو يدل على مبلغ سخائه بتخصيصه خمسمائة ليرة من كامل ثروته البالغة أربعمائة ألف ليرة، لتنفق في وجوه البر والاحسان وإني أقرأ عليكم الفقرة الخاصة بذلك من وصيته

(المتصرف يخرج غلافاً من بين الأوراق المكدسة أمامه ويصلح نظارتيه ويقرأ)

بعد أن تقسم ثروتي بين الورثة كما هو موضح في أعلاه يصرف المبلغ الباقي وقدره خمسمائة ليرة في الأعمال الخيرية على الوجه الآتي :

(١) تبتاع ستارة ثمينة بمبلغ خمس عشرة ليرة يجلل بها باب (مسجد جلبي) على أن يطرز اسمي في منتصفها بخيوط صفراء

(٢) تبتاع سبعة أباريق من النحاس الأصفر ينقش عليها اسمي وتوضع في سقاية (حسن الصغير)

المتصرف — حيث أن هذا القسم من الوصية طويل ولا علاقة له بموضوعنا الذي اجتمعنا من أجله فانكم توافقون على أن نصرف النظر عنه وننتقل إلى الفقرة الخاصة بنا

(المتصرف يقرأ) :

يُرينا الاختبار أن رجال النزاهة والاستقامة يقل عددهم يوماً بعد يوم، وهذا مما يؤسف له حقاً فلعلاج هذه الظاهرة الخطرة على قدر المستطاع، ولتشجيع أهل العفة وحث الناس على الاقتداء بهم فاني أوصي أن يعطى مبلغ المئتي ليرة الباقي من الخمسمائة ليرة إلى أعف شخص في مدينتنا على أن يشهد الجميع بعفته واستقامته وأن تقرر ذلك هيئة مؤلفة من وجوه المدينة وأعيانها، وعلى من سينال الجائزة أن يتعهد مع القسم بإيفاء الشروط الآتية :

أولاً : أن يرشد الناس إلى الخير في كل فرصة ومناسبة ويعلمهم أن النزاهة والاستقامة تكسب صاحبها الفوز والنجاح في الدارين ويضرب المثل على ذلك بهذه الجائزة

ثانياً — أن يتلو سورة (يس) الشريفة في كل مساء خميس

ثالثاً : أن يقرأ (المولد الشريف) في السنة مرتين

رابعاً : أن يزور قبري مرة في الأسبوع ...

(يلتفت المتصرف الأوراق من يده) — لا أدري من

(*) نقل لنا سامحها من التركية الأستاذ عمر فائق مدير المدرسة الثانوية في أربد فوضعتها في هذه الصيغة العربية

حاجة لمتابعة هذه الشروط التي تبلغ واحداً وسبعين شرطاً لأن وظيفتنا الأصلية هي انتخاب من يتفق الجميع على أنه أنزه وأعف شخص في البلد. ولتسهيل مهمة هيئتكم المحترمة قد تفضلت بالاشتراك مع سعادة الباشا رئيس البلدية وحضرة الأفندي رئيس الحسكمة قائمة بأسماء المرشحين ؛ ولكن مما يؤسف له حقا أن قائمتنا هذه ليست غنية بالأسماء فنحن بعد أن أجرينا تحقيقا دقيقا مع هيئة الشيوخ لم نجد سوى خمسة أشخاص قد توفرت فيهم الشروط اللازمة، ولكي نبرئ ذمتنا أمام الله فقد علقنا أسماء هؤلاء الأشخاص على أبواب المتصرفية والبلدية والحكمة ورجونا الشعب أن يوافينا بكل ما يعرفه عنهم

أصوات — (موافق ! نعم مافيش)

الرئيس — إن أول المرشحين هو السيد (حافظ رائف) أحد كتاب البلدية ، والسيد حافظ رائف يعرفه الجميع ويحبه الجميع ، إن هذا الشخص الذي أمضى ثلاثين عاما في دائرة البلدية لم يعرف عنه أنه أساء إلى أحد في يوم من الأيام

أصوات — نعم هذا صحيح

الرئيس — ولكني أستدرك فأعرض على حضراتكم بأن حافظ أفندي قد جاء قبل ساعة إلى مقام العاجز وحدثني حديثا غريبا جدا. قال لي: أنا فقير الحال وكثير العيال وإن مثل هذا المبلغ على فرض أني ظفرت به سيكون له أعظم شأن في حياتي ولكني على الرغم من ذلك أشعر بخوف غريب لا أعرف له سببا ... أرجو إعفائي من هذه الجائزة

رئيس الحكمة — ليس من محل لمثل هذا التوهم وعلينا أن نقوم بواجبنا نحو هذا الرجل المستقيم

طبيب البلدية — (وهو في الخمسين من عمره، بدين، أشيب الشارب ، أحمر الوجه)

حضرة الرئيس ، أرجو أن يسمح لي بالكلام . إني مقتنع أنا العاجز بأن هذا الرجل قد شعر بالخطر شعوراً حقيقياً فأرى أن ينظر إلى طلبه بعين الاعتبار فيصرف النظر عن هذه الجائزة التي أراها منافية للأخلاق

أصوات عديدة — (الله الله . أسكتوه إنه يهذي)

الطبيب — ياحضرة الرئيس أرجو أن يحفظ حقي في الكلام ... أيها السادة لا فائدة من الشوشاء ... سأتكلم حتى النهاية ... إننا جميعنا نعرف من هو (يوزبي زاده) فلا حاجة بنا إلى خداع أنفسنا ليغفر الله له سيئاته

المدرس زاهد افف — (بصوت أجش)

اذكروا موتاكم بالخير

الطبيب — لقد قلنا ياسيدي . غفر الله سيئاته نعم إن (يوزبي زاده) هذا قد أراد حتى بعد وفاته أن يزعج مواطنيه ويسيء إلى الناس ... لانصيحوا أيها السادة ... سأتم كلامي ولو انفلق الحجر ... أرأيتم لم تدركوا ما تنطوي عليه كلمة (شهادة الجميع) من النوايا المبيتة . إنها تجعل هذا الشخص المسكين هدفا لانتقاد الألوف من أهل هذه البلدة وكل واحد منهم عالم مستقل . إن السهام لآلاف العيون أن تخترق (حريم) حائلة مستورة لهو من أفظع الجرائم . أيها السادة إذا كنتم تحترمون العفة والفضيلة حقيقة فدعوا الرجل في عزلته يعيش كزهرة متواضعة من أزهار الجبال . إنكم تعرضون هذا الشخص الذي ستجعلونه نموذجا للعفة والاستقامة للفرق في طوفان

من الحسد والغرض . ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ؟ إنى أخشى أن تحمل الأغراض والمنافع من قطرات الندى على وجه هذا التمثال الذى انعكس عليه الضوء لطخات إجرام ، لذلك أرى أن تلغى هذه الجائزة

المدرس زاهد افف — لولا أن المجال ضيق لأثبت لك بالدليل المنطقى أن دفاعك كله مغالطة وسفسطة .

الرئيس — لنستمر فى البحث ؟ لقد سمعنا الكاتب ما ورد من رسائل ، فاذا سمحتم قرأ عليكم خلاصتها .

الكاتب — الرسالة الأولى وردت من جار لحافظ افندى يشهد له فيها أنه رجل طيب ولكنه يذكر أن مشاجرة وقعت فى الحى الذى يقطنه رائف افف وأنه لما دعى للشهادة رفض أن يدلى بأقواله مدعياً أنه لم يشاهد شيئاً فى حين أن أشخاصاً يشهدون أنه كان حاضراً .

المدرس — إن هذا لمعمر الحق ذنب عظيم . لقد كنا نعتقد فى رائف افف التقوى والصلاح فاذا به يكتم الشهادة أحياناً فأرجو أن تسجلوا عليه ذلك .

الكاتب — الرسالة الثانية وردت من جار آخر يقول فيها إن حافظ رائف افف كتب فى العام الماضى عريضة لامرأة فقيرة مهاجرة ذكر فيها أن المرأة عليلة مريضة .

الطبيب — ما هو ذنب حافظ رائف؟ لقد قالت له المرأة إنها مريضة فكتب أنها مريضة .

المدرس — لا تقل ذلك يا حضرة الطبيب، إن وسيط الخداع خداع . أرجو تدوين ذلك .

الكاتب — التحرير الثالث ورد من مختار الحى السابق يذكر فيه أنه منذ سنتين كانت تسكن امرأة فى الحى الذى يقيم فيه رائف افندى وأنه ثبت بالتواتر أن هذه المرأة قبلت فى منزلها رجلا غريباً عنها فوضع أهل الحى عريضة طلبوا فيها طردها من حيهم وأبى رائف أن يوقع تلك العريضة .

أصوات عديدة — لم نكن نتوقع هذا المنكر من حافظ رائف .

الطبيب — وأى منكر فى هذا ؟ لقد أحسن صنعاً ؟ ليس من شأنه أن يوقع مثل هذه العرائض .

المدرس — بل ليس أفظع من ذلك ؟ إن من يحمى الفجور هو فى الواقع مروج للفحشاء وإنكم لتعرفون ماذا يسعى من يسهل الاتصال غير المشروع .

الطبيب — وعليه قيدوا ذلك على النفس

المدرس — كلا ... سوف لا نلقب حافظ رائف بهذا اللقب البشع جرمة لما له من حسنات بل أرى أن يكتفى بالقول إنه سهل من بعض الوجوه إجراء فعل شنيع .

أصوات — موافق . موافق .

الكاتب — الكتاب الرابع ورد من أحد المستأجرين يتهم فيه رائف أفندى أنه كان يكتب فى بيان بدل إيجار العقارات ليستفيد أصحابها فيدفعون ضريبة مخفضة .

الطبيب — أيها السادة أرجوكم ... كلنا يعلم مقدار ما كان يدفعه المرحوم « بوطجى زاده » عن أملاكه ...

المدرس — (الباطل لا يقاس عليه) يا حضرة الطبيب ؟ ليدون ذلك .

المحاسب — أرجو أن تسمحوا لي بهذا الكتاب باحضرة الرئيس لأجرى التحقيقات الأصولية حتى إذا ثبت ما جاء فيه ضمناه الخسارة من أصل الجائزة .

الكاتب — صاحب هذا الكتاب استعاض عن التوقيع بهذا الشطر (العدل يغني عن التوقيع) التوقيع » وهو يفشي في كتابه بعض أسرار تتعلق بحياة رائف الخاصة .

الطبيب — لوجه الله أرى أن يطوي هذا الكتاب على الأقل، أنا لا أرى من حقنا أن نبحث في حياته الخاصة .

المدرس — الله ! الله ! إذا نحن لم نسبر غور حياته الخاصة فكيف تثبت عندنا درجة عفته وفضيلته . استمر يا حضرة الكاتب .

الكاتب — إني أقرأ بعض فقرات وردت في الكتاب « تزوج رائف افندي من امرأته الأولى بعد غرام دام ستة أشهر ؟ أما أمرأته الثانية التي تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى فقد كانت زوجة رجل عجوز يشغل منصب رئيس محكمة الجنايات عرفها أثناء ترددها على دار البلدية لقضاء مصالح لها ومن ذلك الحين تمكن الحب بينهما فما أن توفي زوجها حتى عقد عليها !

المدرس — يالله ! يا للعجب العجاب ، إن في حياة هذا الرجل الذي كنا نظنه المثل الأعلى للفضيلة صفحات مات فيها الوجدان ، خداع امرأة ذات زوج ، وأين يقع ذلك ؟ على رأس العمل أثناء القيام بالوظيفة . حسن استمر أيها الكاتب .

الكاتب — منذ سبع سنين فوجئت ابنة خالة حافظ رائف افندي مختلية بضابط في منزلها وأحبت ابنته الكبرى جابيا وفرت معه ، وحبس ابنه الصغير شهراً ونصف شهر لضربه ابن جاره وكسره سنين من أسنانه .

الطبيب — حسن ، أمسؤول هذا المسكين عن كل ذلك ؟

ابنته فرت، ابنه سجن، ابنة خالته فوجئت مع ضابط ، أما هو فما ذنبه ؟

المدرس — أرجوك يا حضرة الطبيب.. لو كان رائف أفندي رجلا فاضلا حقيقة وربى أولاده تربية دينية صالحة هل تظن أنه كان يحدث ما حدث ؟

الكاتب — صاحب الرسالة السادسة يذكر أن رائف أفندي شوهد منذ ثماني أو عشر سنوات يشرب الخمر في أحد الأعراس .

أحد الحاضرين — يالها من فضيلة ...

الرئيس — أرجو ألا أكون متطفلا ، إذاً فالرجل يشرب الخمر أحياناً .

الكاتب — الرسالة السابعة من إمام الحي يذكر فيها أن حافظ أفطر أسبوعا في رمضان محتجا بالمرض .

المدرس — سجلوا عليه تقصيره في واجباته الدينية .

الكاتب — الرسالة الثانية وردت من رجل يدعى رشدي أفندي كان أميناً على صندوق الانتخابات الأخيرة يذكر فيها أن حافظ رائف امتنع عن إعطاء صوته بدعوى أنهم لم يتركوا له حرية الانتخاب ...

الرئيس — سجلوا عليه أنه استنكف عن القيام بواجباته المدنية والسياسية .

رئيس النادي — تفضلوا وأضيفوا أنه غير مطيع للحكومة المقدسة .

مدير المدرسة — لو أضيف أيضا (أنه يحمل

2017-11-11

أفكارا رجعية) لكان ذلك صوابا .

الكاتب — الرسالة التاسعة من مفوض الشرطة يذكر فيها أنه من ستة أشهر بينما كان أحد رجال الشرطة يسوق موسا سكرى إلى المختفر اضطر إلى استعمال بعض الشدة معها فاعترضه رائف افف وقال له من العيب أن تسيئوا معاملة المرأة .

الرئيس — حال دون قيام الشرطى بواجبه .

الكاتب — الرسالة العاشرة وردت من أحد المواجعين وهو يذكر فيها أن رائف أفف قال له بعد أن ماطله أسبوعا : ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك ؟ إن الرئيس لم يحضر إلى البلدية حتى يوقع على الأوراق

رئيس البلدية — يالله من مفتر ... ومن أين له الحق فى انتقاد رئيسه ؟ سجلوا ذلك

الكاتب — الرسالة الحادية عشرة تبحث فى إهمال صدر عن رائف افف وذلك أن مناقصة جرت بالأمس لابتياع كية من الكلس فتأخر رائف عن تسليم مغلف أحد المناقصين إلى اللجنة فى الوقت المعين فسبب ذلك أن خسرت البلدية مائة ليرة .

رئيس البلدية — كثيراً ما أغضيت عن ذنوب كثيرة كان يرتكبها رائف أفندى ، أما الآن فقد طفح الكيل وسأعزله وبامكانه أن يستعين بالجائزة التى سيمنحها على معاشه فيفتح حانوتاً أو يفعل ما يشاء ذلك ما لا شأن لنا به

رئيس النادى — وعلى كل حال سيكون فى بلد آخر إذ ليس من الصواب أن يبقى هذا الرجل فى هذا البلد وهو مشكوك فى لونه السياسى

الطبيب — يصيح بأعلى صوته :

أيها السادة قليل من الشرف والايمان والوجدان يوجب الكف عن تلاوة هذه الرسائل . إن هذا الرجل فقد الثقة التى تدفع الناس إلى لقاء الناس

الرئيس — وأى محذور ترى فى استمرارنا على قراءة هذه الرسائل

الطبيب — وأى محذور أرى ؟ إنكم إذا تابعتم قراءتها ستجدون ما يوجب سوق هذا الرجل الذى اتخذتموه مثالاً للفضيلة إلى المشنقة غداً صباحاً

المدرس — إنك لمى باطل بيد أنى أرى أن نكتفى بما سلف ، لم تكن غايتنا محاكمة هذا الرجل بل التثبت من عفته ونزاهته (يا فى الروايا خبايا) وأخيراً نشرت صحيفة رائف افف على الجميع فانكشفت فضائله .. أرجو أن يأمر حضرة الرئيس بحذف اسمه من جدول المرشحين ... وفى الجلسة الآتية نحقق عن فضائل الباقين ...

الطبيب صائحاً — يا حضرة الأستاذ يظهر أن فضيلتكم .. قد اعتزمتم سوق أرباب العفة والنزاهة واحداً واحداً إلى المشنقة حتى لا يبقى فى المدينة غيركم

« شرق الأردن » بشير الشريفى

التصوف الاسلامى
فى الادب والاخلاق

بقلم الدكتور زكى مبارك

يقع هذا الكتاب فى مجلدين كبيرين وثمنهما معاً أربعون قرشاً ، وهو يطلب من المكاتب الشهيرة فى البلاد العربية ويطلب بالجملة من مطبعة الرسالة

من أقاصيص اليابان

وفاء راقصة

للكاتب لافكاديو هيرن

بقلم الأديب السيد صلاح الدين المنجد

تعريف

« لافكاديو هيرن كاتب كبير ، ولد من أم يونانية وأب إيرلندي . طوف في البلاد وهو في ريعان صباه ثم قصد إلى أمريكا وعرج على اليابان حيث أصبح مواطنا تحت اسم « كويزومي ياكومو » . ألف كثيراً من الكتب التي يظهر فيها التحليل العميق والشعر السامي والفلسفة النافذة . درس الحياة الاجتماعية في اليابان دراسة دقيقة ، بعد أن أصبح أستاذاً للأدب الانكليزي في جامعة طوكيو . له من المؤلفات : كتاب « اليابان المجهولة » و « في صميم الحياة اليابانية » وغيرها . وهذه قصة ذكرها عند بحثه عن نفسية اليابانيين ، أخذناها عن كتابه « اليابان المجهولة » وهي ليست بحاجة إلى تقديم ، إذ تقدم نفسها بنفسها لما فيها من الدقة في الوصف والجمال في المعنى والرشاقة في الأسلوب . »

حدث من كان في الأيام الخوالي . . أن فتاناً بارعاً أراد ، وهو في صدر شبابه ورونق يفاعته ، الطواف في بلاده ، ليوقد حسه فتضطرم عاطفته ويفيض شعوره وتخط ريشته ما يبهر العين ويسكر النفس ويحيي الشعور . وكانت البلاد آنئذ مليئة بنابغات الصنوبر ومزارع الأرز ، والحقول منمورة بأفواف الورد والزهر ، والقرى مكتظة بالأكواخ والجواسق . وحفاف الطرقات تحمل تماثيل « الجيزو » الضاحكة لحجاج الهيا كل وقصاد المعابد . . والأنهار تبسم للنواعم من الفتيات اللاتي كن يأتين ليرتمن فوق الحشيش الأخضر ويجممن من ضفافها أعواد الزنبق ، وأنواع الزهور ... وكل ما هنالك مغمور بالجمال والسحر ، ومفعم بالفتنة والبشر ، ومملوء بكل ما يحب ويشتهى .

وانطلق الفنان يمتع العين بالنظر ، والنفس بالتأمل ، والقلب بالذوب . ويحلق في عالم علوي يموج بالشعر والفتون . فأدركه المساء ، ذات يوم ، وهو في واد منعزل يضل فيه السائر وتيه العابر . فانقبض صدره واضطرب باله . وحار ، فما يدري إلى أين يأوي وفي أي مكان يبيت . وكان ظلام المساء وأنين الصنوبر ، وسجو الليل ، كان كل ذلك يملأ جنبات الوادي رهبة وحزناً ؛ فوقف المصور يفكر ، وقد بعث هذا المنظر في نفسه لذة وانقباضاً ولكنه انقباض وديع يرف فيما حوله ، ويدفعه لأن يقلب بصره مرة ومرة في هذا المكان الذي لا تسمع فيه سوى زفيف الريح تبث حزنها لأفنان الصنوبر ... وإلا زفرات الصراصير الحادة تتصعد على وتيرة واحدة . فشى على غير هدى تائهاً بين الأشجار والأزهار ، وتنقل في ظلال بين الحقول والبساتين ، والظلام دامس والحلك شديد . ثم هبط إلى السهل ، ومشى في الوادي ، وصعد في الجبل ، يفتش عن مأوى ، فما وجد المأوى ولا هدى السبيل ...

ويئست نفسه وضاقت بالكون .. فعزم على المبيت تحت النجوم بين الأخاديد ... ولكنه أبصر خجاءة في منبسط السفح وراء المنحدر الذي صعد فيه ، شعاعاً خفيفاً يخفق ويضطرب ، فقام يمدو .. نحوه ، فاذا هو أمام كوخ كبير .

2017-11-1

وطرق الباب بقلب خافق ونفس قلقة . فسمع من داخل الدار صوتاً عذباً يسأل عن الطارق . فطفق الفنان يحدثه عن نفسه وكيف ضل فى الوادى وقد أقبل الليل وخيم الظلام . وطلب المبيت فى الكوخ حتى يتنفس الصبح ويظهر له الطريق . وفتح الباب . . فاذا فتاة تحمل بيدها مصباحا أضاء الكوخ . فقادته إلى غرفة نظمت تنظيما يدل على ذوق تام وفن بارع . فجلس ينظر إلى الفتاة ... فبهت فجأة ... بالحسن الساحر والسنا الفياض ! لقد كانت رقة الاهاب ، غضة الشباب ، وكانت تميس تيهاً ودلالاً ، ويفيض جسمها إغراء وفتوناً . . آه ! إنها من بنات المدن وليست من القرويات ...

وأخذ الفنان يستمع إلى صوتها العذب المشتعى وفى عينيه وميض صبوة محرقة وظمأ قتال . قالت له بنبرة حلوة مسكرة :

— « أنا وحيدة فى هـذا الوادى ... عزفت عن الناس وعزف الناس عنى . والطريق فى شعاف الجبل صعبة ملتوية ، فابق هنا ، فان ما أقدمه لك ليس بالكثير .. وما عندى شىء . ولكن سأعطيك سريرى ، وسأقدم لك قليلا من الحلوى . . »

وقبل الفنان أن يبيت وقد هفا قلبه إلى الحسناء ورقص من أجلها طرباً . وقامت الفتاة فأشعلت النار . . ثم قدمت للضيف ما يأكل منه

على أن نظام الدار ، ونظافة الأثاث ، ونسق الترتيب وأناقة الطراز ، بهر نفسه وأعجبها . وخصوصاً هذه الزينة التى تجمل المكان ، والتى صنعت من الورق الأبيض الذى صور عليه أزاهير الربيع ، وأمطار الصيف ، ونجوم الخريف ، وظهر فيه سيف البحار ومياه الغدران وعواصف الشتاء مما يطرب الشاعر ويهز الفنان . وكان فى زاوية الغرفة مذبح صغير يتصاعد منه رائحة البخور المسك وفى داخله منضدة فرشت بالورود الوحشية . تحترق أمامها شموع كثيرة يبطء ، فتضىء صورة « كانون » إلهة الرحمة والغفران .

وأكل الفنان مما قدم له مضطرباً حائراً لكثرة ما علق بصره فى الفتاة ، ففى الأكل فلما فرغ منه قالت له :

— هذا هو سريرى ياسيدى أقدمه لك .. مع كلة من الورق الأبيض . وسأمضى إلى أعمالى فى الدار فنم ياسيدى بأمان .

ومانع الضيف . . . ولكنها طلبت منه بلهجة الآخت ، وبدلال الغوانى أن يستريح من غبار السفر ، ثم تراجعت ، ووضعت أمام سريره حاجزاً من الورق ، قسم الغرفة إلى قسمين ، وتمنت له نوماً هادئاً ومساء حلواً وتركته وعلى ثغرها ابتسامة كلها فتون وإغراء .

* * *

وما كاد الفنان يغمض أجفانه ، حتى غاب فى نوم عميق ... ولكنه مضطرب متقطع . وفجأة سمع صوتاً غريباً أيقظه . . ثم وقع أقدام . . لكن ما هذه الأقدام .. إنه مشى لا خفة فيه ولا هدوء .. إنه وقع قوى .. فيه حركة وفيه حياة . . قال فى نفسه : ترى أقدام من هذه ؟ ... ليت شعرى ألصوص يطوفون حول البيت ويرتصون فى جنباته ، أم قطاع طريق .. ؟ ماذا ؟ أيريدون المتاع أم اختطاف الفتاة . . ! ؟ ترى أتستسلم لهم . . ؟ أتذهب معهم . . ؟ أواه ! يا لجاهلها الباهر . . ! ومالى

لا أقوم . . إن الحركة لتزداد . ومد الفنان رأسه من الكلة ولكنه لم يستطع رؤية شيء ، فالحاجز الذى وضعته الفتاة يحول دونه ودون أولئك ! رباه ! ماذا أفعل ؟ أأصرخ ؟ ولكن ماذا يفيد الصراخ . . ؟ ومن يجيبه ؟ الهواء النائم ، أم الليل الوسنان ؟ . . إذن لأقدم ، فلا بد مما ليس منه بد . . وارتدى ثوبه وتقدم . . تقدم . . وأخذ ينظر إلى ما يجرى وراء الحاجز . فوقف مبهوتاً لا يتكلم ولا يتحرك . . .

لقد رأى الصبية الحسناء . . عارية الساقين . . ممتلئة الفخذين . . بارزة الثديين . . قد زينت نحرها باللؤلؤ ، وصدرها بالدر ، وبشرت الحلى هنا وهناك . . لقد رآها ترقص أمام المذبح بثوب قصير فاتن . . لا تجده عند الراقصات المحترفات . وقد زين بالحلى وضمخ بالعطر . . وهى تبكى . وكان جمالها سحريا كأنما مسحت عليه يد الملائكة وأفاضت عليه فتنة من فنها وجمالا من جمالها . . يا للحسن الباهر ! والأنوثة الرقيقة ! والرقص العبقرى . . . ! لقد وقف دهشا . وخيل إليه أنها إحدى الحور العين . وغاب عن نفسه . . وجلق فى عالم بعيد . . بعيد جداً . فنبهه شذى البخور المحترق ، وهذا الاله الذى يطل من فوق المذبح وينظر بعينين عميقتين . فأراد أن يعود إلى سريره . . لأن ما يفعله منقصة وعيب . . ولكن روعة المشهد ، وفتنة المرأة ، وسحر العرى . . كل ذلك سيطر عليه فأوقفه . . ودفعه إلى أن يتأمل . . ويتأمل . .

يا للساقين ! ليت شعرى أ أعمدة من مرمر أم قطع من رخام . .

وهذان الثديان ! لم يرقصان . . ؟ يا رحمتا لهما . . أيبكيان بعد الحبيب !

وهذا الصدر ! أواه . . . هنا يلتمس السحر ويطلب النعيم . . .

والفم الرقيق . . . والعيون . . . والخدود . . . هنا تتيه الشفاه الظامئة تلتمس القبلات . .

تباركت يا إلهى ! تباركت يا بوذا ! وقفزت الصبيّة قفزة إلى الأعلى . . . ثم هبطت ، ووقفت أمام المذبح تبكى . . ثم قامت تنزع ثوبها . . ولكنها . . تراجعت . . تراجعت إلى الوراء . . عندما رأت عيناً تحدق فيها .

واضطرب الفنّان وتلعثم فأيدرى ماذا يقول . . وبأى شيء يعتذر فاقتربت منه حتى تبينته . . ووقفا وقد علق بصر كل منهما بالثانى وتشجع . . وقال :

— من أنت إذن يا فتاة ! عفواً . . . عفواً . . . إغفرى لى زلّتى . . أأنت طيف من أطياف الجنان ؟ أم ربة من الربات الحسان . . ؟ ومن أين تعلمت هذا الرقص . ؟ أإنسية أنت أم من الجان . ؟ أنا لم أر بين راقصاتنا من يرقص مثلك يا فتاة ! لا تقضى . . . عفواً . . عفواً . . لقد أخطأت . .

قالت له بصوت ناعم ولهجة حزينة . .

— كلا . . لم أغضب يا سيدى ، ولكنى أخاف أن تحسبنى من بنات الهوى أو أن بى مساً من الشيطان . . إسمع إلىّ يا سيدى ، فما هى ذى قصتى سأنفضها بين يديك . .

وأخذت الفتاة تقول إنها إحدى بنات الأشراف ممن باركهن الاله وقرّبهن اليكادو . .

2017-11-1

ولكنها كانت فقيرة بائسة .. فأحبها شاب لا يقل عنها فى الشرف والجمال ، وإن زاد عنها فى الغناء والثروة . وفرّا ذات ليلة من أهليهما .. ليعيشا معاً ، وكان معهما من المال مايكفيهما . فذهب بها إلى واد منعزل ، بجانب إحدى النابات الهذارى ، فبنى هذه الدار وعاش بعيدها فيها ... ويرى أنها ملك أرسله الاله إليه ... لقد عاشا سنوات وسنوات ، ملكا فيها الحب والسعادة والآمال .. وكان يحب أن يراها ترقص عارية كل ليلة على أنغام الناى الحزينة .. فكانت ترقص وتبدع .. فيمضى إلى أقدامها الصغيرة يقبلها .. ويسكب دموعه فوقها . ولكنه مرض .. مرض ذات مرة فى الشتاء ... فمنيت به ، ولكن والأسفاه ، أخذه الموت .. ومضى

لشد ما أحبته ! لقد وهبت له قلبها ومالها وجسدها ...

كم مرة ... كانت تنحنى على أذنيه تسكب فيهما أناشيد الخلود !

كم مرة ... كانت تحدثه عن أقاصيص الحب وأحلام الهوى !

كم مرة . . . كانت تتعرى فى الليل . . . ثم ترقص رقصات فاتنات . . . والبرد يلذع جسمها العارى وأقدامها الصغيرة

لقد توسلت كثيراً إلى بوذا ... وبكت كثيراً أمامه ... ولكنه ... وا أسفاه ... لم يسمع لها ... أبدا

منذ ذلك الحين ... عاشت وحيدة فى هذه الدار تحفظ الذكرى التى كانت تملأ قلبها ونفسها . فكانت تصلى لروحه كل يوم أمام المذبح ... وتبكى ... فاذا ما سجا الليل ... ونامت العيون ... وسكنت النفوس ، قامت فتعرت ، ولبست ملابس الرقص القديمة ... ورقصت كثيراً وهى تسكب الدمع . حتى ينهكها الرقص وتمل البكاء ...

وأطرقت قليلاً تجفف عبراتها المنسكبة ثم قالت

— حسبت أنك نائم ، فقمت لأرضى روح زوجى ... ولكنك ... رأيتنى ... نعم

أنا أرقص كل ليلة ... وهو ينظر إلىّ ... هذا رأيى حتى أموت . قم ونم أيها الزائر . هذه قصتى نفضتها بين يديك ...

وبكى الزائر رحمة لها .. ثم قام إلى سريره يفكر ويسمع ...

ونام نوماً هادئاً .. لم يستيقظ منه إلا وقد متع النهار . وقام يريد الذهاب ، فقدم لها قليلا من الدراهم فضحكت ... وقالت له :

— لا أستحق ذلك يا سيدى ... لقد قمت بواجبى .. !

ومضى الفنان ، يفكر فيما رأى وسمع ... لقد أسف على شىء واحد ... إنها تجهل اسمه ، ولكنه قال لنفسه : ما أنا إلا فنان حقير...

***

وتقلبت الأيام ، وتغير كل شىء فى هذا الكون... وشاخ الفنان ، ولكنه كسب شهرة ما كسبها أحد قبله ، وسار ذكره فى البلاد ، وجاءت إليه الثروة تجر أذيالها وقربّه الملوك والأمراء ... وعظمته الخاصة والعامة ، وعاش تحفه السعادة ، ويرفرف فوقه الهناء ...!

وكان له قصر يقطنه مع تلاميذه ممن أتوا من أقصى بلاده وأدناها ليتلقوا الفن عنه . وكان كل شىء هادئاً طبيعياً فى هذا القصر . إلا تلك العجوز الشمطاء التى كانت تأتى كل يوم ، فتسأل عن الفنان

2017-11-11

وتلح فى السؤال . ثم تطلب مقابلته وتلحف فى الطلب فإذا سؤلت عن طلبها قالت : لى معه شأن .. فكانوا يردونها ظانين أنها فقيرة متسولة . فتعود فى اليوم الثانى تسأل عنه وتطلب رؤيته ! فاذا ما ردت عادت فى اليوم الثالث ، تحمل كمادتها صرة صغيرة تحت إبطها .

وضجر التلاميذ من العجوز وضاقوا بها ذرعاً فأخبروا شيخهم بخبرها . ففضب وذكر أيام بؤسه وحنته وقال لهم : إذا أتت فى الغد فأدخلوها .

وجاءت العجوز فى اليوم الثانى تدب دبيباً فأدخلت إلى قاعة واسعة . وهناك جلست تنشر أثواباً غريبة نادرة من الحرير ، عليها وشى من الذهب . قد زينت بأنواع الحلى والياقوت . فأخذ الفنان يحدق .. ثم أغرق فى ذهول عميق . ذكرى قديمة . قديمة جداً .. تأتيه ، إنها مضطربة حائرة . غامضة . . ها هى ذى تظهر شيئاً فشيئاً .. إنه يرى الجبل والوادى والكوخ المنفرد ، والراقصة فى جوف الليل ، أمام الشموع المحترقة ، بين الورود والأزاهير ..

ونظر إليها وقال :

— عفواً ياسيدتى .. سأكلمك .. ولكنك هل تذكرين أيامك الخوالى قبل أربعين عاماً ... خمسين عاماً ... هل تذكرين المأوى الذى آويتى فيه وقصة حياتك تحدثيننى عنها بين الدموع . آه . أنا لم أنس شيئاً !

وأغرق الفنان فى صمت عميق . أما العجوز فبهتت ولم تدرما يقول . وأخذت تفكر وترجع إلى الوراء . إلى الماضى البعيد ... إنها تراه ... يطرق الباب ، ثم يدخل ... ثم ينام ... وتنقض فجأة : عين تحدق بها وترى جسمها العارى ، فى هدأة الليل . !

يا إلهى ! شكراً لك .. لقد ندمت خطواتى إلى هذا السيد الرحيم ..

وطفقت العجوز تحدث الفنان عما أصابها قالت له :

— « وقست علىّ الأيام ، وأصبحت ما أطيق العيش هناك ... فتركت تلك الدار ورجعت عجوزاً فقيرة إلى المدينة التى تركتها وأنا فتاة حلوة الشباب غضة الصبا . شد ما تتغير الأشياء ! إنه ليصعب على المرء أن يترك المكان الذى ذاق فيه حلاوة العيش ولذة الحب .. بين ألافه وأحبابه ! ولكن كل شىء هيّن ياسيدى أمام هذه الشيخوخة القاهرة .. لقد منعتنى عن الرقص إذا ما جاء الليل أمام المذبح على نور الشموع وفاء لزوجى . أواه ! .. يا للهفة المحرقة والألم المعض ! وأصبحت لا أستطيع الحركة أو القيام . إن روح زوجى ترفرف كل ليلة تريد رؤيتى راقصة ! ولكن ... وأسفاه ! لقد جئت إليك لتخط ريشتك صورتى .. صورتى إذ كنت فتاة ، أرقص فى جوف الليل أمام المذبح ، وأنا عارية الجسم ، لأضمها أمام عينى الاله ، فاذا ما جاءت روح رفيق ترفرف رأت الصورة فرضيت عنى !

وبكت العجوز ... واغرورقت عينا الفنان .

وقال لها :

— لك ما تشائين !

قالت له :

— ولكن شيئاً واحداً يحزنني ياسيدى ، فأنا فقيرة ما عندى ما تريده منى ... سوى هذه

2017-11-11

الأثواب .. فتقبلها منى .. واحفظها إن شئت للذكرى !

— كلا .. كلا .. ما أريد شيئاً .. قرى عيناً .. واطمئنى .

وتهلل وجه المجوز بالبشر وقالت :

— لك الحمد يا إلهي .. لقد تحققت منيتى . لتكن صورتي يا سيدى جميلة .. فاتنة .. علها ترضى الفقود .. !

وأخذ الفنان يخط بريشته صورة رائعة فاتنة ، بهت منها التلاميذ . لقد حدقوا طويلاً بهذه الفتاة الناعمة ، ذات النظرة الساحرة ، والقد الأهيف ؛ وهذا السحر الذى يفيض من هنا ، ويظهر من هناك ، وينظرون إلى هذه الأثواب الموشاة بالذهب الزينة بالحلى ، المنعمة بالألوان .. يالله ؟ شد ما تشبه بنات السماء (١)

فلما فرغ من صورته .. قدمها المجوز

— أتريدين شيئاً من الدراهم ياسيدتى .. ؟

— كلا ياسيدى .. شكراً لك .. لن أنعى بعد اليوم شيئاً ؛ ولئن مت فان بوذا سيفتح لى طريق جنانه .. وسأدعو لك .. كل مساء أمام المذبح ، شكراً لك ياسيدى .. شكراً !

— أين مأواك ياسيدتي ؟

— إنه حقير .. لا يستحق زيارتك !

ومضت المجوز تمشى مشياً وئيداً يتبعها تلميذ أرسله الفنان يرى مأواها

— إنه مأوى حقير ياسيدى .. بجانب النهر .. وراء المستنقع .. !

(١) أى الملائكة

— سنراه غداً . وسنتعهده بعنايتنا

***

وفى اليوم الثانى جاء الفنان يدق الباب ، فلم يجبه أحد ؛ فنادى المجوز . ثم شاق ذرعاً ودفع الباب .. فانفتح . يارحمتا لها ! لقد كانت ممددة على الأرض ملتفة بثوب ممزق أمام المذبح . وكانت الشموع آنئذ ، كما كانت قبل خمسين عاماً ، تحترق ببطء ، والبخور يتصاعد فيملأ الكوخ بشذاه المسكر ... وكان فوق المذبح صورتها إذ كانت فتاة ، تقابلها صورة ثانية لألهة الرحمة .. وهنا خرق ممزقة .. وهناك عصاً طويلة .. !

لقد تقدم الفنان ليوقظها .. فناداها .. وكلمها .. وحدثها .. ولكنها ما كانت لتسمع أو تجيب .. فسقطت من عينيه دمعة ... وعلم أنها لن تستيقظ أبداً !

يالله ! لقد امحت آثار الألم .. وعاد إلى وجهها جماله ، وظهر عليه الوقار والجلال ، ورفرفت فوقها بنات السماء يستغفرن لها ويأخذن روحها إلى السموات العلى !

يا الوفاء ! ... يا الوفاء ! ...

«دمشق» صدوح السيد المنجد

إدارة الرسالة والرواية

انتقلت إدارة الرسالة والرواية إلى دارها الجديدة بشارع المبدولى رقم ٣٤ — عابدين

حاجي بابا أصفهاني

لكاتب الانجليزي "جيمس موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل التاسع

وصلنا إلى مشهد فى الموعد المضروب ودخل موكب الأمير فى وسط احتفالات أقيمت له . ووجدت نفسي غريباً فى هذه المدينة التى ليس لى فيها صديق ولا أحد أستطيع الاعتماد على مساعدته . ولم يكن معى غير خمسة طومانات « ثلاثة جنيهات » سرقتها من الموكب وخبأتها فى عمامتى، وكان الجندى الذى أنست منه العطف فى الطريق يبرئى ويقاسمنى طعامه، ولكنه فصل بعد وصولنا إلى المدينة، ولم يكن من المنتظر أن يساعدنى بعد فصله . وفكرت فى أن أباشر صناعتى الأولى وهى الحلاقة ، ولكن من الذى يأتمن على رقبته رجلاً متهما بأنه جاسوس للتركمان ؟

أطلق الأمير سراحى فلم أستفد من ذلك شيئاً بل حرمت الطعام الزهيد الذى يعطى للأسرى ، وتقابلت مع صاحبى الجندى فنصح لى أن أصير سقاء . وقال لى : « أنت صغير قوى، وأنت جميل الصوت ، فاذا نادیت على الماء بهذا الصوت أغريت من لا يحسُّ بالظمأ أن يشرب . ولك فضلا عن ذلك حيلة حسنة وقدرة على الضحك على الذقون. ولا تنقطع فى يوم من الأيام وفود الآتين لمدينة مشهد لكى يزوروا قبر الامام . وأول شئ يؤديه هؤلاء الزوار هو الاكثار من الصدقات لأن الزكاة كما تعلم مكفرة للذنوب عند المسلمين ، فلتسق الماء فى حب الحسين قتيل الظمأ يبذل لك الزائرون المال فى حبه . وتظاهر بأنك لا تأخذ أجراً على السقيا ، وقدمه لمن لا يطلبه، فاذا شرب فقل له : « هنيئاً، وأسأل الله ألا يظمئك فى يوم الحشر وألا تظمأ فى الدنيا ظمأ الحسين فى كربلاء»

ولكن هذا القول بصوت عال يستطيع كل من فى الطريق أن يسمعه؛ فاذا بقيت على هذه الحالة مدة فاعتقد أنك ستصبح من الأغنياء »

اتبعت نصيحة هذا الصديق واشتريت بما معى من المال « قربة » وأكواباً نحاسية وثوباً من الجلد أجعله على ظهرى . وذهبت إلى قبر الامام فوقفت عند بابه أصيح : « الماء يا ظمآن ! الماء فى حب الامام » .

وكنت أقول ذلك بنغمة حلوة وصوت جميل فسرعان ما تميزت على سائر السقائين الذين أخذوا يتساءلون عما إذا كان لى الحق فى مزاولة هذه الصناعة ، ثم تدرجوا من ذلك إلى مخاصمتى عندما أملأ القربة ، ولكنهم رأوا إصرارى ورأوا أن وراء هذا الاصرار عضلات قوية فاكتفوا من المخاصمة بالمنطق المهجر، ولكننى كنت أسلط منهم لساناً فأسكتهم . وظهر لى أن الطبيعة قد هيأتنى لأكون سقاء .

وقد كنت أملأ سقائى من بئر غير نظيفة ، ولكن الشاربين كانوا يلتذونه كأنه آت من بئر زمزم أو من ماء الحوض المورود فى يوم الحشر

المعهود . وقد كان الربح الذى جنيته أكبر كثيراً مما كنت أتصور .

وكان لتذكيرى الناس بموت الحسين ظلماً أكبر أثر فى استجلاب أموالهم وعزمت على ألا أترك هذه الصناعة ماحييت لكثرة مالقيته من ربحها وقلة متاعبها. وكنت أعتقد أن شهرتى ستزداد بمرور الأيام .

وكان لى منافس من السقائين ، ولكن بما أن قربتى أكبر كثيراً من قربته فقد كان معترفاً بتفوق عليه. وكان الرجل شديد الحقد على ولم يكن ليمتنع عن إيصال أى أذى إلى إذا أمكنه ذلك .

ولما جاء يوم الموسم استعد كل أهل المدينة لمشاهدة الاحتفال الدينى الذى يحضره الأمير بالنيابة عن الشاه . وخرجت فى ذلك اليوم عارى الصدر والكتفين . وليس على نصفى الأعلى من الثياب شئ غير القطعة الجلدية التى أحمل فوقها القربة ووقفت أمام نافذة الأمير أستمع الناس وأدعو لسموه بالسعادة والرخاء فاستلفت نظره بهذه الوسيلة. ورمى إلى قطعة ذهبية ، وكنت قد أتقنت الحيلة قبل ذلك فاستأجرت جماعة من الأطفال يرددون هتافى على توقيع نغمتى ، وكان الجمهور يبدى من ذلك أعظم الدهشة. وقد لاحظ منافسى كل ذلك فاشتد غيظه ووقف فوق بناء ثم ألقى بجسمه فوق فوقت على الأرض . وفى أثناء هذا اليوم لم أحس بكثير من الألم ؛ ولكننى لما عدت إلى منزلى وجدت ظهرى داميا بحيث لم يعد فى إمكانى أن أشتغل بالسقاية فى المستقبل . وفكرت فى الاشتغال بعمل آخر لأن ما جمعته من المال كان يكفى لتأسيس تجارة .

وكان صاحبى الجندى قد سافر إلى طهران فلم يبق لى أحد أستشيره . وكان على قبل كل شىء أن أطالب منافسى بالتعويض لما لحقنى من الضرر ، ولكننى رأيت ذلك يكلفنى كثيراً من المال والمشقة لصعوبة التقاضى فى هذه البلاد . ولأنه لم يكن لى ناصر قوى أستعين بنفوذه

الفصل العاشر

حاجى بابا يبتدع التبغ

أخذت أفكر فى الصناعة التى أشتغل بها فى المستقبل ، ورأيت من اشتغالى بالسقاية أن أروج صناعة فى المدينة هى التسول على أى ضرب من ضروبه، فعزمت على أن أشترى دباً وعنزة وأستجدى الناس فى الطرق بهذه الوسيلة؛ فهذا عمل رائج أيضاً ولا يحتاج تعلم الحيل التى يبديها ملاعبو هذه الحيوانات إلا إلى مدة قصيرة

ولكننى كنت متردداً فى تنفيذ هذا العزم لأنى كنت أفكر فى العودة إلى صناعتى وفتح حانوت للحلاقة ، وأخيراً أجبت هوى فى نفسى ، فاشتغلت بتجارة التبغ لأنى كنت مولعاً بالتدخين، فاشتريت مباسم من أنواع مختلفة ومؤثرات محاسية «ماشة» لتقليب الجمر على النرجيلة ومقداراً من التبغ والطباق « التمباك » من أنواع مختلفة كالشيرازى والسوسى والدمشقى . وكنت أخلط المقادير القليلة منه بمقادير كبيرة من غيره فأكسب مالاً وفيراً لهذا السبب

وكنت ألاحظ طبقات المشترين ، فالطبقة المتوسطة أعطيها من التبغ المخلوط بمقدار النصف ، والطبقة الدنيا بمقدار الثلاثة الأرباع أو من المواد التى أستعملها فى الغش خالية من التبغ بتاتاً .

2017-11-1

أما الطبقات الراقية فكنت أعطيها تبغاً صافياً غير مخلوط

واشتهرت في مشهد بجودة الياسم . وكان أحب زبائني إلى رجل من الدراويش لم أكسب منه كثيراً لأنني كنت أعطيه من أحسن الأنواع بأزهد الأثمان، ولكن عادته لي كانت ممتعة ؛ وقد عرفني بكثير من الناس وبذلت كل ما في وسعي لاستبقاء رضاه ومودته .

كان اسم هذا الرجل « درويش صفر » وهو رجل غريب الطلعة ذو أنف كبير أحدب ونظرات تكاد تخترق الحجب ، وهو كثيف اللحية ، وشعره الأسود منسدل على كتفيه، وقد طرزت عمامته بآية من القرآن، وعلى ظهره جلد عنزة على شكل كيس يجمع فيه ما يقدم إليه من الصدقات . وكان في منطقه وهيئته الرائعين ما يبث المهابة في النفوس كلما أراد ، وقد عرفت من معاشرته أن هذه حالة يتصنعها، لأنه عند ما يجلس بحانوتي وأقدم له الزجيلة يكون بحالة عادية طبيعية لا تبعث مهابة ولا خوفاً. وقد عرفني في النهاية بعدد من أصحابه الدراويش الذين دعوني إلى كثير من مجالسهم . وبالرغم من أن تعرفي بهم كان يكلفني ضياع كثير من التبغ بغير مقابل فاني لم أقو على مقاومة الدوافع التي تجذبني إليهم للطف معاشرتهم .

وفي ليلة قال لي صفر وقد دخنا من التبغ أكثر من العادة : « أنت يا حبي يابا أقدر وأكبر من أن تقصر حياتك على بيع التبغ، فلماذا لا تصير درويشا مثلنا؟ إننا نبث بذقون الناس أكثر مما يبث الطفل بالاعيبه ؛ وحياتنا ممتعة لذيذة لا فهم من الراحة مع كثرة الكسب، وقلوبنا مستريحة من ألم المطامع وحياتنا دائماً متغيرة متجددة رغم ما يبدو على حالتنا من الركود . إننا ننظر إلى الناس كأنهم بعض الألاعيب ونستغل مواضع الضعف والغفلة فيهم . وقد رأيت منذ عرفتك أنك تصلح لصناعتنا وتشرفها ولا ينقضي عليك وقت طويل ممنا حتى تكون من الرفعة والشهرة مثل الشيخ السعدي نفسه »

وقد وافق سائر الدراويش على قوله هذا فلم أبد نفوراً من هذه الصناعة وإنما أظهرت جهلي بمؤهلاتها وقلت : « كيف مع جهلي وقلة تجربتي أصير درويشاً عند ما أريد ؟ أنا أعرف القراءة والكتابة وأحفظ القرآن ودواني حافظ والسعدي وجزءاً كبيراً من الشاه نامه للفردوسي ، ولكني فيما عدا ذلك جاهل تمام الجهل » !

فقال لي الدرويش صفر : « أخطأت ياصاحبي فأنت لا تعرف إلا القليل عن الدراويش . إننا لسنا في حاجة إلى كثير من المعرفة ولكننا في حاجة قبل كل شيء إلى أن نظهر بمظهر الواثق المؤكد لا بمظهر الذي يشك ويتردد . أما المعلومات التي تعرفها فقد كان يكفيك عشرها، وأؤكد لك أن قليلاً من الثناء يمكنك — لا من جيوب الناس فحسب ، بل ومن أرواحهم أيضاً . إن الوقاحة والتبجح كنزان لا يقنيان أبها المعدين، وقد أصبحت بهما في نظر الناس ولياً من أولياء الله وأتيت بهما كثيراً من الكرامات. وفي إمكاني أن أقنع الناس بهذه الوقاحة أني قد شققت لهم القمر وأنهم رأوا بأعينهم انشقاقه

ولما فرغ الدرويش صفر من قوله أكد لي سائر الدراويش أن الجماهير في هذه البلاد من الغفلة بحيث لا يكذب بينهم مدع . ورووا لي قصصاً عجيبة

ظهرت فيها براعتهم وغفلة الجماهير . ووعدوني بأن يسردوا عليَّ في الغد تواريخ حياتهم وألحوا على أن أراجع عقلي فأنضم إليهم وأترك تجارة التبغ لأنها تجارة بائرة

الفصل الحادي عشر

الدراويش

لما اجتمعنا في الغد جلسنا وفي يد كل منا غليونه . وكان بالغرفة التي جلسنا فيها نافذة تطل على حديقة مغروسة بالأزهار ، وكانت ظهورنا إلى الحائط ووجوهنا نحو تلك النافذة . وبدأ الدرويش صفر وهو أكبر الدراويش غير منازع في الزعامة يقص علينا قصته بهذه الألفاظ قال :

كان أبي واسمه طاووس رئيساً للأعيبي القرود والدباب في قصر الشاه وقد تعلمت منه كل طرائقه وحيله كما تعلمت إحكام التقليد والتمثيل . ولما بلغت الخامسة عشرة كنت بارعاً في هذه الصناعة . ولولا مصادفة خلفت أبي فيها . أما ذلك الحادث فهو أن بنت قائد فرقة الجمال أحبتني منذ رأتني أرقص في عيد رأس السنة . وكان لي صديق من الجمالة في هذه الفرقة . ولهذا الصديق أخت تخدم في بيت القائد . وكانت الألفة شديدة بيني وبين هذا الصديق الذي أخبرته أخته بميل سيدتها نحوي فذهبتُ إلى « الميرزا » وهو الكاتب الذي يجلس في ركن من الطريق وكلفتُه أن يكتب لها خطاباً غرامياً يعبر شديد الاحترار وأن يتمثل في الخطاب بأرق الأبيات وأغزلها ، ويقول في هذا الخطاب إني ميت لما أرسلته إليَّ من نظرات عينيها ، وإن قلبي مكوى بنار حبها . ولم أستمع بعد هذا القول من التوكيد بأني أريد أن أراها وأن أطلب إليها أن تضرب لي موعداً بلقائها . وقد أخبرت الكاتب باسم التي سأرسل إليها الخطاب . وكان ذلك حماقة مني لأنه ذهب إلى القائد وأخبره بالأمر لكي ينال منه مكافأة

ولم يكن ذنبي ليغتفر عند القائد ، لأن زواج ابن ملاعب القرود من بنت « زامبورا كشي باشي » جريمة لا تعد لها جريمة

وكان لهذا الرجل نفوذ كبير في القصر فاستصدر أمراً بنفي إلى شيراز . ولم يسعَ أبي إلى تأخير سفري بل ألحَّ في التعجيل به لاعتراضه للأمير ولا خوفاً منه بل لأنه خشي أن أنافسه في صناعته التي أصبحتُ مثله في إتقانها

وقد قال لي يوم سفري : « اسمع يا بنيَّ ! يحزنني ابتعادك عني ولكن التربية التي ربيتها لك والصناعة التي أخذتها عني ستجعلان مستقبلك سعيداً إلا إذا شئت أن تفسده بالتفريط أو بالهوان . وسأعطيك أكبر قرد عندي فاعتنِ به من أجلي وأحببه حباً لي ، وأرجو أن تصل في وقت من الأوقات إلى مثل ما وصل إليه أبوك من المعرفة والتجربة »

قال لي ذلك ووضع القرد على كتفي . ثم غادرت منزله الأبوي وسرت في الطريق إلى أسفهان غير محزون ولا آسف لأني أصبحت أكثر استقلالاً ولأن في امتلاك القرد ما يسلي . ولكن شيئاً واحداً جعلني أذكر وطني الأول وأحن إليه . وهو تلك الفتاة التي كنت أتخيل أنها أجمل من شيرين »

وما ابتعدت عن المدينة حتى بدت لي معالمها كالأشباح ووجدت كوخاً لأحد الدراويش فجلست في ظله على قطعة من الحجر وأجلست القرد بجانبي مولياً وجهي شطر المدينة ، ولم أملك دموعي من

الانهمال وتهدت ودعوت الله بلهجة محزنة مؤثرة سمعها الدرويش فخرج واستخبرني عن حالتي فأخبرته، وتأثر فدعاني إلى كوخه الذي وجدت فيه درويشاً آخر على وجهه من النفوذ والهيبة أكثر مما يبدو على وجه صاحبه، وكانت ثيابه مماثلة للثياب التي على الآن وهذه العمامة هي نفس عمامته . وكان في نظراته قوة تبعث الخوف .

ولما رآني تداول مع صاحبه على انفراد ثم اقترح أن أستصحبه إلى أصفهان ووعد بكفاءتي إذا سلكت مسلكاً حسناً، ثم قدم لزميله في الكوخ غليوناً وقدم لي غليوناً آخر، وخرجت معه فسرنا نحو أصفهان وقد انقضى جزء كبير من الطريق دون أن يتحدث كلانا إلى الآخر بحرف .

وأخذ الدرويش « بدين » — وكان هذا هو اسمه — يسألني عن حياتي السالفة، فلما أخبرته بدا عليه السرور، ثم أخذ يشرح لي حياته وصناعته وحبب إليّ أن أصير درويشاً مثله . وقال لي إنني إذا عاملته معاملة التلميذ للعلم فانه لن يترك شيئاً يجب أن ألم به إلا وعلمنيه .

وكان الرجل من أعلم الدراويش وأكثرهم اطلاعاً فأخذ يحدثني عن الكيمياء والفلك وبعض ضروب السحر، وأكد لي أن ذئب الأرنب إذا وضع تحت وسادة الطفل فانه يجلب النوم، وأن دمه إذا شربه الجواد اتسعت خطواته، وأن الأولاد إذا أكلوا أعين الذئاب نشأت فيهم الشجاعة، وأن المرأة إذا دهنت جسمها بشحم الذئب كرهها زوجها، وأن أكل مرارته، يجلب الغم وأن الانسان إن وضع بين ثيابه قطعة من جلد الفهد أحبه الناس .

واستمر يحدثني على هذا المنوال حتى لدنى حديثه ورغبت في الاستزادة منه ثم قال لي : « أنت لا تعرف بأسفر ماذا تستطيع أن تجنيه من هذا القرد وهو حي مع أنك إذا ذبحته استخرجت من جثته ما ينفع في السحر ويجعل لنا منزلة عند النساء في قصر الشاه، لأن المرأة التي تأكل قطعة من كبد القرد تستميد محبة من تريد . وجلدة الأنف من القرود إذا وضعت على العنق منعت تأثير السم، والرماد الذي يبقى بعد إحراق عظمه يكسب صفات القرد وهي المكر والذكاء والقدرة على المحاكاة .

ثم ألح عليّ أن أقتل القرد، فأزعجني هذا الاقتراح لأنني تربيت مع القرد وشاركته السراء والضراء . وكدت أبدي له الرفض لولا أن سحنته تغيرت فجأة من الابتسام والبشاشة إلى العبوس والتقطيب بشكل خشيت معه عواقب الاصرار، وقلت في نفسي إنه يستطيع أن يفعل ما يريد بغير موافقتي فلا تفيدني المعارضة غير فقدان مودته فوافقته على ما اقترح .

وما كدت أوافق حتى أخذ القرد وقتله ثم أوقد ناراً وأخرج من جثة القرد ما أراد أن يخرجه ثم أحرق باقيها وجمع الرماد في منديله واستأنفنا الرحلة .

وصلنا إلى أصفهان في وقت مناسب . وفي هذه المدينة ظهرت شهرة سيدي وجني ربحاً كبيراً. وكان يأتي إليه مئات من الناس يستشيرونه في أمورهم، فالأمهات يأتين بأبنائهن لحمايتهم من الحسد، والزوجات يطلبن منه الحماية من غيرة الأزواج، والجنود يطلبون أن يكتب لهم طلاسم تقيهم الموت في المعارك . ولكن أهم من استشاره من نساء البلاط، فقد كانت زوجات الشاه يطلبن إلى

2017-11-1

الدرويش « بدين » أن يصف لهن مايبسط تجاعيد الوجه فلا تبدو الفضون عند الضحك أو التقطيب. وكان علاجه لذلك عظام البومة ورأس الذب ورجل الضفدع .

وكانت كبرى زوجات الشاه غير محبوبة من جلالته فدفعت مقداراً كبيراً من المال إلى الدرويش فى مقابل قطعة من كبد الفرد . وشكت إليه زوجة أخرى أن جلالته يؤثر عليها غيرها من نسائه فأعطاها بعض الرماد المتخلف عن إحراق عظام الفرد . وأعطى الثالثة قليلا من دهنه

اشتركت معه فى كل هذه الحيل وساعدته بما كنت أظهره من الاحترام على رواج بضاعته التى كان يكسب منها مالاً كثيراً . أما أنا فلم أكسب شيئاً ولم يعطنى درهما مما حصل عليه ثمناً لقردى أو ثمناً لغيره من أكاذيبى

رافقت الدرويش « بدين » فى رحلاته إلى بلاد مختلفة . ولما كانت كل هذه الرحلات مشياً على الأقدام فقد شاهدت مناظر رجة ورأيت بلاداً فسيحة. وكان سفرنا من طهران إلى الآستانة ومنها إلى دمشق ثم إلى حلب ، وذهبنا إلى القاهرة ومنها إلى جدة ثم مكة والمدينة ، وذهبنا بعد ذلك إلى لاهور وكشمير فى البلاد الهندية

على أن رحلتنا لم يكن كثيراً من البلدان الأخيرة لأن كثيرين من أهلها الأذكياء أظهروا كذبنا وخداعنا، فكنا ندخل البلدة ممزقين مكرمين ونخرج منها مطرودين محتقرين حتى وصلنا إلى الأفغان فلقينا من سرعة التصديق والسذاجة ما لم نجده فى أى مكان آخر . وأكرمنا أهلها إكرام ونسبوا إلينا من الأعمال ما ليس يصدر عن غير الأنبياء

وكان نزورنا فى هرات نحو ألف نفس فى كل يوم من النساء والرجال شباناً وشيوخاً. وكان الدرويش الدجال يقيم معى على رأس جبل فى هرات . ويزعم أنه لا يأكل شيئاً غير الذى تقدمه لنا الجن، ولكن مع الأسف مات صاحبى هذا متخوماً لأنه أكل من اللحم أكثر من طاقته . وقلت الناس بعد موته إن الجن حسدت الآدميين على وجود رجل مثل الدرويش بينهم فسلطت عليه الرياح الشرقية التى رفعته إلى السماء . وهذه الرياح رياح حارة تهب فى أشهر الصيف وتستمر مائة وعشرين يوماً

وقد صدق هؤلاء البسطاء ما زعمت وعدوه كرامة أخرى للدرويش الذى زادت شهرته بعد موته وأقيم له مأتم حضره الأمير وكافة الأعيان

وبقيت مدة فى هرات بعد موته فاكتسبت مالا من بيع قلامات الأظافر وقصاصات الشعر التى كنت أزعم أنها من شعر الدرويش وأظافره مع أنها كانت فى الحقيقة من شعرى وأظافرى ومما أجمعه من عند الحلاقين. ولقد كانت جملة ما بعته من ذلك كبيرة تكفى لتكوين عشرين لحية . وخشيت إذا بقيت على هذه الطريقة أن يفتضح الأمر بالرغم من سرعة التصديق عند الأفغانيين فرحلت من الأفغان إلى فارس

وفى أثناء الطريق وجدت قبائل تعيش فى الخيام بين كابول وقندهار فكان نجاحى بين هذه القبائل أكبر مما كنت أتصور فقد نلت من الحظ ما لم ينله الدرويش بدين

ثم وضع الدرويش صغر يده على ظهر الدرويش الذى كان جالساً بجانبه وقال : « لقد كان مى هذا الدرويش هناك ورأى مبلغ نجاحى الذى أصبحت

فيه مثل « حظرة إيشان » نفسه . ثم سافرت إلى مشهد ومكثت فيها مدة طويلة عالجت فيها مصابة بعينيها وشاع بين الناس أنني رددت إليها بصرها بعد أن أسابها العمى »

ثم سكت الدرويش وقال لجاره : اسرد أنت قصتك منذ تعرفت بك . فقال ذلك الدرويش : كان أبي من رجال القضاء في مدينة « قم » وقد اشتهر بكثرة الصلاة والصوم والانقطاع للعبادة وبأنه من أكثر الشيعة وسائر المسلمين صلاحاً وتقوى

وكان لي إخوة كثيرون؛ وكان أبي خشناً شديداً في معاملتنا فأنشأت خشونته وشدته في نفوسنا مكراً وحسن حيلة حتى صار يضرب بنا المثل في الرياء والكذب ونحن لم نجاوز بعد عهد الطفولة . ولما مات أبي صرت درويشاً واشتهرت لهذه الحادثة التي سأذكرها

لما وصلت إلى طهران اخترت لنفسي مجلساً أمام حانوت صغير لعطار كان يبيع المقاقير ، وقد اكتسبت مودته وثقته . وتصادف بعد عهد غير طويل من تعرق عليه أنه مرض مرضاً شديداً وانقطع عن المجيء إلى حانوته . وبعد أسبوع أو أسبوعين من انقطاعه جاءتني بنته وطلبت إليّ أن أكتب لها « حجاباً » فأظهرت استعدادي لذلك . ولكنني طلبت أن أذهب معها إلى منزله لعيادته ولأكتب الحجاب عنده . وقلت إنه ليس معي ورقة ولا حبر ولا قلم حتى أكتب الحجاب في الطريق فأخذتني إلى المنزل

رأيت ذلك المريض نائماً في حجرة قد ازدحمت بالنساء من أقاربه يبكين ويقلن على مسمعه إنه سيموت . ورأيت الوهم أثراً في مرضه . ورأيت الطبيب الذي يعالجه جالساً في ركن من الغرفة مع النساء وفي فمه غليونه وهو الذي أمر بكتابة الحجاب حتى يجد له شريكاً في المسئولية عند ما يتضح أن دواءه غير مجد وعوت المريض

ولقد بدا الأمل على وجهه وعلى النساء عند ما دخلت حجرة المريض وطلبت قطعة من الورق ودواة وقلماً وأظهرت ثقة عظيمة مع أني إلى ذلك العهد لم أكن قد كتبت حجاباً قط، فجيء لي بالدواة وبالقلم وبقطعة من الورق غير المعد للكتابة، وظهر لي من شكلها أنه كان ملفوفاً بها بعض المقاقير التي استعملت في علاجه

كتبت على هذه الورقة اسم الله واسم النبي والحسن والحسين ومن حضرتني أسماؤهم من الأولياء والرسل ، وخططت أرقاماً حول هذه الأسماء ثم سلمت الورقة للطبيب الذي أمر بإحضار طست وإبريق فمحا بالماء الكتابة التي كتبتها وغسلها ثم قال : « إذا كان للمريض أجل فإنه سيشفى ببركة هذه الأسماء . أما إذا كان أجله قد انتهى فلن تطيل عمره حيلتي ولا حيلة أي إنسان »

ثم أمر بأن يجرع هذا الماء فاتجهت إليه كل العيون . وبقي المسكين مدة لا تبدو عليه علامة من علائم الحياة، ثم مشى الطبيب نحوه وفتح عينيه ورفع رأسه بين ذراعيه وكله فأفاق، فنسبت ذلك بيني وبين نفسي إلى الدواء الذي كان في الورقة . ولكنني حرصت على أن أفهم المريض أن شفاءه إنما يرجع إلى بركة الكتابة التي كتبتها وأن ليس للطبيب فضل في شفائه

وفي الوقت نفسه حرص الطبيب على إفهامهم أن مريضهم شفي بسبب دوائه السالف وأنه لا فضل لي فقال عند ما فتح المريض عينيه وتنهد : « ألم أقل

2017-11-11

إنه سيشفى متى تم تأثير الدواء فى جسمه ؟ أنظروا كيف كان علاجى ناجعاً ! لولاى لكان مريضكم قد مات »

إغتنمت من الطبيب وخفت أن يضيع على ما كنت أنتظره من الأجر فقلت له : « إذا كنت طبيباً حقاً ، وكان فى مقدورك شفاء المرضى فلماذا استدعيتنى ؟ أنت لا تعرف من الطب غير الحجامة فلا تتدخل فيما ليس لك شأن فيه »

فأجابنى : « إسمع يا درويش ! أنا لست أنكر أنك أحسنت كتابة الحجاب ، ولست أنكر أنك تستحق على ذلك أجراً مناسباً . ولكنك تعرف من هم الدراويش وأن كتابتهم إن أفادت فبركة الأشياء التى يكتبونها لا بفضل هؤلاء الكاتبين »

أخذتنى العزة وقلت : « من أنت حتى تخاطبنى بهذا الأسلوب ؟ أنا خادم النبى فكيف أوازن بكم معاشر الأطباء الذين نضرب بجهلهم الأمثال ؟ إنكم تخفون هذا الجهل بنسبة الشر دون الخير إلى المقادير فاذا شفى من تعالجونه قلتم إن شفاءه من ثمرات علمكم ، وإذا مات قلتم وافاه أجله ، مع أنه إن شفى فمن طريق الصادفة ، وإن هلك فلأنكم تعطونه ما ليس يتفق مع مرضه . لقد كدت تقتل هذا المريض بمعاقيرك لولا أنى جئت وشفيته »

ولم يكن الطبيب يتوقع أن يسمع منى كل ذلك فهبت وقال : « هل قدر لى أن أسمع كل هذا من درويش حقير ؟ »

فرددت عليه بأقسى لهجات الاحتقار . ولم يطل بيننا الجدال حتى تضاربنا وأمسكت بلحيته وأمسك بناصيتى وانتزع كل منا خصلة من شعر الآخر وصرخ النساء وعلت الضجة وجرى بعضهن إلى الطريق ولم يزل كلانا منشبثاً بالآخر حتى دخل جندى استدعى لأجلنا من الطريق

عند ما طرق الجندى الباب ترك كل منا أخاه واعتمدت على أن أهل المريض سيشهدون لى لأنهم بالطبع يكرهون الأطباء خصوصاً هذا الذى ابتر مالهم ولم يكن الشفاء على يديه ، ولأننى لم أكن أخذت أجرى ولم يكن مضى زمن طويل على شفاء مريضهم .

كنت أعتمد على ذلك ، فلما دخل الجندى لم يسأل أحداً بل نظر إلى نظرة احترام وتقدير ، وإلى الطبيب الذى قال إنه أعانى نظرة ازدراء وتحقير ، فحار فى أمره وبدت عليه شدة القلق ؛ ثم خطر بباله خاطر فانحنى إلى الأرض وجمع بعض الشعر الذى نزعته من لحيته وقال لى أمام الجندى : « سترى فى الغد على أينا يحكم القاضى بعد ما نزعت شعر لحيتى وأنا رجل مسلم »

خفت عند ما ذكر ذلك أمام الجندى لأن لحية المسلم مقدسة فى هذه البلاد وديتها « دوكات » عن الشعرة الواحدة ؛ وقلت فى نفسى إن جميع ما أكتبه من الأحجبة لا يقوم بتعويض هذه اللحية . ولكنى اعتقدت أنه متى هدأ غضبه فلن ينفذ وعيده خشية نتائج المقاضاة ما دام الأمر مرجعه إلى الشهود وذلك لم يفزعنى هذا الوعيد .

ولقد صدق ظنى وذاع فى المدينة أن الدرويش الجديد قد أحيا عطاراً من الموت فاتسعت شهرتى وبقيت كل يوم من الصباح إلى الغروب أكتب للناس أحجبة بغير انقطاع . واجتمع لدى مقدار وافر من المال . لكن لسوء حظى لم يمرض عطار آخر فأشفيه وتتضاعف شهرتى بل أخذت شهرتى

فى التناقص بمضى الأيام حتى كادت تزول فعزمت على مغادرة طهران والقيام برحلة فى سائر البلاد الفارسية حتى وصلت إلى هذه المدينة وكان معى خطاب من المطار محمود بخاتمه يشهد فيه أننى رددت إليه الحياة، وكنت أطلع كل من رأيته على هذا الخطاب فظلت شهرتى قائمة على أساس هذا الحادث الفذ.

لما فرغ هذا الدرويش من سرد قصته قال الدرويش الثالث: إن قصتى قصيرة، وقد كان أبى معلماً فى مدرسة، وكنت فى مدة الدراسة منصرفاً إلى كتبى كل الانصراف. ولاحظ أبى أننى قوى الذاكرة فكلفنى أن أقرأ له كتب التاريخ. وبهذه الوسيلة اتسعت معارفى ووعيت ما قرأته، وحسن أسلوبى فصرت قاصًّا رواتياً ومات أبى وأنا لا أعرف صناعة ولا فناً أكتسب به القوت فصرت درويشاً وتنقلت بين البلدان أقص على الناس فى مجامع عامة حوادث الدهور الغابرة. ثم وضعت أقاصيص صرت أقرؤها فى مشارب القهوة وأتقاضى على ذلك مايسد رمقى ثم زادت تجاربى ومقدرتى فى هذه الصناعة، فوضعت روايات غرامية كرواية « أمير كانى » و « أميرة سمرقند » . وراعيت أذواق الجماهير فأغربت فى الخيال وقربت المحال وكنت أسكت عند أهم موضع فى الرواية التى أسردها فيكثر الاهتمام وتتطاول الأعناق تشوقاً لسماع سائر القصة ويطالبونى بأن أتمها فأطالبهم بأن يدفع كل منهم قطعة صغيرة من النقود وحصلت بذلك على مال كثير

وكنت كلما رأيت المنصتين يقلون فى بلدة انتقلت منها إلى غيرها فأجدد مجهودى بها

الفصل الثانى عشر

عوامى بابا برى أمد جهل الخداع قصير
فنبحث له عن عمل آخر

لما فرغ الدراويش من سرد قصصهم شكرت لهم دعوتهم إياى وتمهيدهم السبيل لمستقبلى وعزمت على أن أتعلم منهم أكثر ما أستطيع تعلمه لكى أصير درويشاً مثلهم وأن أترك الاتجار بالنبغ. وعلمنى الدرويش سفر طرقاً كثيرة للظهور بين الناس بمظهر العلماء. وتعلمت من الدرويش الثانى فن كتابة الأحجبة ومن الثالث فن القصص. وتعلمت منه كيف أستثير رغبة السامعين حتى يجودوا بأموالهم. وبقيت فى الوقت نفسه مستمراً على بيع النبغ، ولكن بما أن الدراويش كانوا يدخنون بما يعدل كل كسبى فقد اضطررت إلى زيادة الغش فى خلط النبغ. حتى صارت رائحة ما أبيع لا تفضل إلا قليلاً — رائحة الغش المحروق وأوراق الشجر المتعفنة —

وفى ليلة من الليالى جاءت إلىّ امرأة عجوز وطلبت أن أملأ غليونها بالنبغ وأعطتنى شاهيين (الشاهى عملة فارسية قيمتها مليم) فملأت لها الغليون وأشعلته. وما كادت تضعه فى فمها حتى سعلت سعالاً قوياً متكرراً خشيت معه أن تفارق الحياة أمام حانوتى وسرعان ما أقبل ستة رجال أشداء لنجدتها. وكان من بينهم المحتسب نفسه وهو موظف من قبل الحكومة يجلس فى السوق لمراقبة الموازين وأصناف المتاجر

ولما عرف المحتسب السبب قال لى: « لقد افتضح أمرك أخيراً يا أصفهانى. لقد كنت تسمم

أهل مشهد بتبنك المسموم فستضرب على قدميك عصاً على كل شاهي أخذته من الناس

وفي الحال وضعت رجلاي في عصاً مربوطة بحبل من طرفيها يدعونها الفلقة ولفوها على الساقين حتى أحكموا خنقها ثم ضربوني على قدمي ضرباً مؤلماً مبرحاً حتى خلت أن الأرض تدور بي وأنني أرى ألف محتسب وألف امرأة عجوز يضحكون من آلامي ويسخرون من بكائي

وأخذت أستغيث وأتوسل إلى المحتسب بأمه وأبيه وبأبنائه وبالنبي وعلي والحسن والحسين وبسائر الأئمة فلم يجد ذلك شيئاً وصرت ألعن التبغ وتجارته وبائعيه ومدخنيه

وكان أصحابي الدرويش جالسين في هدأة وصمت لا يحاول أحدهم أن يحرك ساكناً من أجلي ولا ينظر إلى نظرة عطف ثم أغمي عليّ .

ولما أفقت بعد ذلك وجدت نفسي نائماً على قارعة الطريق وحولي عدد كبير من الناس يبدون الشماتة لما نالني ويقولون إنني أستحق أكثر من ذلك لأني غشاش . ولم يرض أحد أن يمد إلي يد المساعدة . ونظرت إلى حانوتي فلم أجد به شيئاً فقد أخذ كل مافيه من التبغ والمباسم فاضطررت إلى الذهاب زحفاً إلى منزلي وكان تربياً من الحانوت فوصلت إليه وأنا أبكي بكاء يستجلب الشفقة لو كان فيمن يسمع من يعرف الاشفاق .

وبعد يوم قضيته في أوجع الآلام من الجراح المتعددة في قدمي زارني أحد أصحابي الدراويش وقال وهو خائف يرتجف إنه يخشى أن يوجد عندي فيظن فيه أنه شريك لي وقال لي إنه عوقب مرة في شبابه مثل هذا العقاب وإنه يعرف الدواء الذي يشفي قروح الجلد فيعيد القدمين إلى ماكانتا عليه . وكنت في أثناء هذا اليوم قد عزمت على الخروج من مشهد وقلت إن عجبتي إليها كان في ساعة منحوسة وأخبرت الدراويش بهذا العزم فحبذوه وقال لي الدرويش صفر إنه يريد مرافقتي في هذا الرحيل وأن يكون سفرنا مع أول قافلة، وقال إن مشيخة العلماء مشيخة منه لازدياد نفوذه على العامة والبسطاء الذين يريد العلماء الاستئثار بالنفوذ عليهم . وإنهم لذلك يدبرون ضده خطة ومن المحال عليه أن يثبت أمام مقاومتهم .

ولبست ثياب درويش وخبأت معي ما أملكه من المال واستعددت للسفر عند ما تحين ساعته . ولكن رغبتنا في التعجيل بالسفر كانت شديدة جداً ، ومن أجل ذلك فكرنا في الرحيل وحدنا غير منتظرين موعد القافلة وأردنا عمل استخارة على ذلك من ديوان السعدي لأن الفرس يأخذون الاستخارة منه ومن ديوان حافظ ومن القرآن الكريم فكانت الاستخارة هكذا : « ليس من العقل أن يشرب الانسان دواء بغير استشارة طبيب ولا أن يسافر بغير قافلة » فنهانا هذا التحذير الصريح عما كنا عازمين عليه

ولما ذهبت للسؤال عن الموعد الذي تسافر فيه القافلة قابلت في الطريق صاحبي « علي خاطر » وهو الجندي الذي أكرمني وأنا أسير في موكب الأمير . وكان قد وصل في هذا اليوم مع القافلة

2017-11-11

إلى مشهد ليشترى منها جلوداً يبيعها في بخارى. وعند ما وقع نظره عليّ صاح صيحة سرور ودعاني إلى تدخين النرجيلة وأخبرته بقصتي فأخبرني بقصته أيضاً . وقال لي إنه بعد مفارقتي اشتغل بالتجارة وإنه سافر بمقدار كبير من خام الفضة مع قافلة كانت تسير في الطريق الذي قطعته معه في أسر الأمير

وكان خوف القافلة شديداً لاعتقاد رجالها أن عدد التركمان الذين قابلونا كان ألفاً ولكنه لم يحدث لهم حادث حتى وصلوا إلى أسفهان ، وهناك سمع أخباراً كثيرة عن الحملة التي قام بها التركمان وعلم أن رجلاً حلاقاً اسمه كربلائي حسن جرح أحدهم جرحاً خطيراً وأبدى شجاعة نادرة وتخلص بأعجوبة عرفت أنه يعني مقابلتي لأبي في الليلة التي هاجمنا فيها المدينة وكنت قد كتمت هذا الجزء من القصة عنه لما سردتها عليه

ولما ذكرني بهذا الحادث علمت أن أبي يفاخر بنجاته من يدي ؛ وهو زعم أني أحد اللصوص فكدت أضحك وخشيت أن يرى محدثي على وجهي ما يريبه من الابتسام فصمدت نفساً طويلاً ملأ الفراغ بين وجهه ووجهي بدخان النرجيلة وقال لي إنه باع فضته في أسفهان واشترى بثمنها تبغاً ونحاساً وباع ذلك في « نيرد » ومن ثم جاء إلى مشهد في القافلة التي وصلت إليها . وقال إنه سيستأنف سفره مع القافلة إلى طهران ووافق على أن أذهب في صحبته إليها مع صاحبي الدرويش صفر وأن نركب بغلة من بغاله إذا تعبنا في أثناء الطريق

« يتبع » عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالوسائل الآتية

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

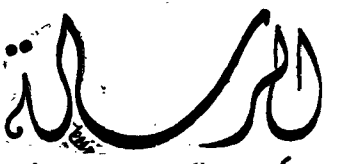
المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث سرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان - عابدين)



مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على مدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء اساليب البلاغة العربية

بمجموعة اعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل سنويا قرشا ، والخارجي ما يساوي جنيها مصريا ، والبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٥ — ٩ شوال سنة ١٣٥٧ — أول ديسمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
١١٣٠	غرام فنان	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...
١١٤٤	من قتل أباه ؟	للكاتب الانجليزي آرثر كونان دويل	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة ... ...
١١٥٢	عفو الملك أسركاف	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
١١٥٨	الفن	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود بك خيرت . ...
١١٦٥	القاضي السعيد	للفيلسوف الروسي تولستوي	بقلم الأديب السيد صلاح الدين المنجد
١١٦٩	حاجي بابا أصفهاني	للكاتب الانجليزي جيمز موير ..	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ...

2017-11-1

غرام فنان

قصة مصرية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

كان يشدو طائفة من الفنون أحبها إليه النحت والتصوير ، وكان ضريب بجاليون اليوناني ، لم يعب قلبه قط إلى امرأة ، لأنه لم يكن يرى في نساء العالم جميعاً (حواء) الرائعة التي يسيغها فنه ، وتستأهل أن تسكن معه في فردوسه المنشود ..

وكانت تماثيله كثيرة وجميلة ، وتترجم عن نفس واسعة شاسعة ممتلئة بالأسرار والألغاز ... لكن تمثالا واحداً كان يصبح أجلها وأشدها روعة لو أنه صنعه ، وهو مع ذلك لم يفكر فيه ولو مرة واحدة ، أو هو فكر فيه مرات لكنه لم يصنعه ... ذلك هو تمثال فتاة !

كنت ترى بين تماثيله الشحاذ المكفوف ، والمسن المحتضر ، وبواب القصر ، وبائع السمك ، والأفعى ذات الفرون ، والظبي ، والوعل ، والكلب الحارس ، والجمل ، والضب ، والكركي ، والحدأة الراغة ... بيد أنك تجيل الطرف في متحفه الرائع فلا ترى تمثال امرأة . على أن المرأة هي الملهمة الأولى للفنانين ، وهي النبع الصافي الذي يتفجر بالمعجزات في رؤوس الناثرين والمصورين والشعراء ورجال الموسيقى ... هي أجل باقة في بستان الله ... هي أبهى نغمة تنطلق من أوتار الكيان ... هي ابتسامة الله الداعة في قلوب عباده المؤمنين ... هي الواحة ذات الظلال والأفياء وسط صحراء الحياة ... ومع ذلك فليس يرى الرائي تمثالها الجميل الفنان في متحف رؤوف الفنان

وكان في رؤوف وحشة وضيق وانقباض عن الناس ، كأنهم كانوا أعداءه ... فلم يكن يطيق أن يشغله أحدهم عن فنه ، أو أن يشترك معه في أحلامه . خصوصاً إذا خرج للرياضة على عدوة النيل الناعم في مهبط الوادي ... حيث كان من دأبه أن يستغرق في تأملاته بهدهدها خرير الماء وطنين النحل وغناء الأطيار ، ويسطرها النسيم بما يحمل من شذى وأرج

وكان صديقه طارق أعرف الناس بما جبل عليه من ذلك العزوف عن الناس . فكان يتردد عليه لماماً ، بل لم يكن يزوره حتى يدعوه وحتى يلح عليه في الدعوة ... فاذا زاره صمت عن الحديث حتى يبدأ رؤوف فيتكلم بمقدار . ولم يكن ذلك من طارق عن عي ولا حصر ، بيد أنه كان يفضل تلك الوسيلة في التحدث إلى صديقه لما يعرفه عنه من قصد في الكلام ، وتفضيل الايجاز الذي بقي بحاجة التفاف على الثرثرة التي تلف التفكير وتذهب بجمال المجالس

وكان طارق مع ذلك لا ينى يفكر في حال صديقه ويجهد دائماً أن يكتشف سره ... لأن رؤوفاً كان فتى فيه من الشباب غضارة ونضارة ، ومثله لا جرم يصبي النساء بحسن فتنته ونفاذ نظرته وانسجام قوامه وهندامه ... ثم هو فنان صادق الفن ... والفن حاسة سادسة في الفنانين ، وليس معقولا أن يعيش الفنان بلا حب . لأن معنى ذلك أنه يعيش بلا قلب ، وهذا محال في رؤوف ...

وقد وقف طارق مرة تلقاء تحفة باهرة من

روائعه ، وجعل يجيل فيها طرفه وخياله ، ثم يتعجب ، ويسائل نفسه : « إن صانع هذا الطاووس العجيب الذى وقف ينازل أثناء على هذا النحو من الرسوخ فى فلسفة الحب ، لا بد أن يكون أعشق الناس . وتالله إن لصاحبي لسراً ، وإن وراء سره امرأة إن لم يكن تمثالها هنا فى ذلك المتحف ، فهو قائم من غير ريب فى قلبه ... »

وأقبل رؤوف يبتسم ، وحدج صديقه بنظرة ثم قال :

— « ما لك لصقت بهذا التمثال فلا تريد أن تريم يا طارق ؟ هل أعجبك ؟ »

— « وكيف لا يعجبنى وهو المفتاح الذهبى لقلبك الواسع الرحب ! »

— « ماذا تعنى ؟ »

— « أعنى أن تمثالك البديع قد أعانى على أن أفهمك »

— « لست أفهم !

— « رؤوف ! ! إجلس أحدثك حديثاً طالما أحببت أن أبدهك به ، لولا ما كان يخيفنى من إحراجك »

— « وما ذاك جعلت فداك !

— « أنظر إلى طاووسك الجميل الرائع وقل لى ماذا أخفيت وراءه ؟ »

— « ماذا أخفيت وراءه ؟ لا شىء ! »

— « وفيم تحته إذن ؟ »

— « الفن من أجل الفن ! »

— « الفن من أجل الفن خرافة لا تعيش إلا فى الغرب يا صديقى . أما هنا ، أما فى جنبات هذا الوادى السعيد فقد عاش الفن من أجل الحياة قبل أن يعرف الغرب ما الفن ، وقبل أن يعرف هل يعيش الفن من أجل نفسه أم من أجل البيئة وأرباب البيئة من بني الانسان

— أنت تبالغ يا طارق ، فقد يعيش الفن من أجل الفن فى كل مكان حتى على ضفاف النيل ... ماذا تظن أنني أخفيت وراء هذا الطاووس ؟

— لست أظن !

— وماذا إذن ؟

— لأنى أعتقد أنك أخفيت قطعة من قلبك ! إن لم يكن قلبك كله !

— أنا أخفيت قلبى كله وراء قطعة من المرمر؟

— قد تكون تركته دون أن تشعر به ، إن لم تكن تعمدت إخفاءه ! وأنت فى هذا كالشاعر الذى يلف فؤاده فى كلمات منظومة ، والموسيقى الذى يرسل نفسه فى نغمات مرقومة ... كلكم سواء أيها الفنانون ، تنحتون وتصورون وتشعرون وتغنون ، وتحسبون أنكم تضنون هذا من أجل الفن ، والناس مع ذاك يحسون آثاركم وهى تكاد تحترق مما فيها من حرارة

— وماذا تعنى يا طارق ؟

— أعنى الشىء نفسه الذى تبالغ فى إخفائه عنى وهو يأبى إلا أن يفوح كما يفوح شذى العطر لأنه أكثر منه عطراً وأشد عبقاً ! أعنى حبك يا رؤوف ! !

— آه فهمت !

— ألم تحاول أن تنحت تمثالاً لحبيبتك يارؤوف !

— إذا كانت لى حبيبة !

— ليس لك حبيبة وأنت مع ذاك فنان ؟

— أحتم أن يكون الفنان حبيبة ؟

— ذلك لا ريب فيه ؟

— ولو كان أعمى ؟

— ولو كان أعمى !

— ومن أين ينفذ الحب إلى فؤاد الأعمى ؟

— من أذنيه ... فقد يكون صوت الأنثى أشد سحراً من مرآها !

— فاذا كان أصم ؟

— فمن جسمه باللمس ! أنسيت بضاضة الكواعب الأتراب يا صديق الفنان ؟

— فاذا كان بليداً لا يحس ؟

— فمن أنفه ... إن للأنثى شميا كشميم الورد أو هو أطيب ؟

— لشد ما تضحكني ؟

— ولشد ما تغنابي على !

— لا ، لن أتغابى عليك يا طارق ... هلم في إثري .

وانطلقا إلى أقبية القصر

ودفع رؤوف باباً عتيقاً تعلقت به عشرات من بيوت العنكبوت ، فتدفق من داخل القبو ظلام داكن ، وانتشرت رائحة قديمة آسنة ... ثم أومأ إلى صاحبه وقال :

— هنا يا طارق ... هنا ... لا وراء قطعة الرخام التي تحت منها الطاووس ...

— هنا ماذا يا رؤوف ؟

— ألا تفهمني ؟ هنا دفنت قلبي وحبي ، وقد آليت ألا أطلع إليهما ... وأنا أدعك لتبحث عنهما وحدك ، وإني منتظرك في مكتبي ! !

وانطلق رؤوف ، وفي عينيه دمعة رقراقة ، وفي صدره آهة مكروبة ، وظل يترنح بمنة ويسرة حتى كان في مكتبه ، فانحط على كرسيه وهو لا يكاد يعي ...

ووقف طارق أمام القبو وهو موجس خيفة ... ثم مد رأسه في الظلام المنبث من النرفة الرطبة الآسنة ... فاذا رأى ؟

تماثيل ... تماثيل ... تماثيل ... ! !

تماثيل رائعة ناعمة ... عذاري وغانيات ... أجسام بضة طرية يكاد ماء الجمال يقطر من مرمرها الثمين ! بعضها واقف وبعضها جالس وبعضها منحن ! بعضها رزين مفكراً كأنه يحلم ، وبعضها ينظر ويبتسم ، وبعضها تهمهم حول شفتيه أسرار وألغاز ...

لله تلك الناذة الدالة التي تجردت من ثيابها ونزلت إلى البركة تبترد من وهج الشمس ، وقد مدت ذراعيها اللدنتين تفرق القصب وسيقان البردي !

وهذه الراقصة التي تكاد تتأود في مرمرها الناعم فتروح وتجيء في فيض من أشعة البرتقال والبنفسج والورد الجوري ، تارة يلون الحاشية ، وتارة ينصب على القدمين ، وترتفع حتى يكسو الفخذين ، ثم يتمالى حتى ينمر البطن والظهر ، ويعلو حتى ينضح النهد ويغسل رمانتيه ، ويشرئب حتى يلمع الوجه الباسم المشرق الجميل الحيا ...

وتلك العذارى التي تطرحت فوق العشب عارية متجردة تستمتع بأشعة الشمس ، وأشعة الشمس السعيدة تقبل كل جزء من جسمها تصل إليه ألف قبلة ...

وهذه اللعوب الكعاب قد جلست مع حبيبها عند حفاق الغدير يصيدان السمك ، وقد لفت ذراعها حول كاهله ، وراحت تحدق في عينيه وتحملق

2017-11-11

وتلك اللوحة النجيبة التي تمثل حديقة الأندلس أجل حدائق القاهرة الفاروقية !! أواه ! يا للحبيب يثوى مع الحبيب في ظل الدوحة الباسقة !! لقد أسندت الحمامة رأسها فوق صدر الألف الواهق ، وجعلت من شعرها المنسدون كِلَّةً فوق كاهلها وكاهله ... !!

وهذه الجالسة في غمر من أفياء الجميز تتلو قصة حبها ، وآدم الصغير جالس أمامها يقلب في قدميها الخلابتين عينيه الجانحتين وهو موشك أن يأكلهما

وتلك الحبيبة النافرة تمدو ثم تمدو ، ويمدو حبيبها في إثرها ثم يمدو....

وذاك التمثال العجيب الذي يمثل القبلة ! ما لك يا أجمل الفنان تذودين فمه الجائع الظمئ عن فمك الملهب الريان ! أعطيه قبلة !

أوه ! من هذا السادر الحزين يذرف دمعه فوق طروس كتابه المفتوح !

ويحك أيها الساهر في شرفته يرقب النجم ويناجي الكواكب !

سلام عليك أيها المتمزل في منعطف الحديقة تجتر ذكرياتك وأشجانك !

حنانيك اللهم لهذا المصلي لك المسبح باسمك وقد بسط كفيه يطلب العون منك والغوث من لدنك

مسكين يارؤوف ! مسكين يا صديقي !

ما هذه الدنيا الخافقة الجميلة التي دفنتها في ذلك القبو المظلم الرطب !

لك الله ! ما هذه الأماني التي كدستها في ذلك الدبجور الموحش الرهيب !

لله آمالك ! لم حطمتها هنا وآثرت أن تعيش في الدنيا وحدك !

* * *

وهرول طارق إلى الطابق العلوي حيث لقي صديقه المحطم المنهدم مستلقيا على كرسيه الكبير ذي الوسائد وقد حمل رأسه بيديه ، وملء أساريره العابسة آلام وأحزان

— ماذا بارؤوف ؟

— ماذا بأخي ؟! هل عرفت ؟

— عرفت كل شيء !

— كلا ! ما أحسبك عرفت شيئاً !

— بل عرفتك تماماً !

— هذا غرور ياصديقي !

— غرور ؟ ياعجباً ! وكيف يكون اهتدائي إلى قلبك غروراً ؟!

— قلبي ؟ وهل لي قلب ؟

— أحسن القلوب وأكبرها وأزكاها يارؤوف

— كيف عرفت هذا ؟ أمن أجل بضعة تماثيل لا قيمة لها ؟!

— وكيف لايكون لها قيمة وهي ثمرة حياتك

— وماذا ياطارق ؟

— وزهرة حبك يارؤوف !

— حبي ؟

— أجل حبك !

— وهل يحب من ليس له قلب ؟

— رؤوف !

— ماذا بأخي ؟

— أراك قانطا من شيء ثمين ضاع من يديك فهل تخبرني ما هو ؟

— لا ! لم يضع مني شيء ؛ فقد أحببت ففي ووهبت له حياتي وتفكيري ... وعملت التماثيل الرائعة والصور الشائقة . مثلت العذارى والثنائيات

والديان والرئيس ، وصورت الجنات والقصور والأرض والسماء والكواكب وأبدع ما في هذا الوادي السحري العجيب من آيات الخلود ... لقد كان النيل السمح العظيم يوحي إلي ما أوحى من قبل إلى فتاتي الفراعنة . وكنت كلما أقفر قلبي فتحته له فعمره بكل جديد وطريف من آيات الالهام فتناولت منحتي أو ريشتي فأخرجت ما رأيت وما أتر. تقول إني أضمت شيئاً؟ وماذا تظنني أضمت يا طارق؟

— هذا ما أحب أن أعرفه

— إذن فاعرف أنني لم أضع شيئاً !

— وهذه التماثيل ! لم دفنتها في هذا القبو الرهيب المليت ؟

لأنه أحسن مكان يناسبها !؟

— أولئك المذاري ؟

— أجل !

— لقد كنت أحسبك تصنع لهن جنة فيقمن فيها خالدات ؟

— لو كن يستأهلن هذا مني أو من أي مخلوق !

— ولم لا يستأهلن هذا منك يا رؤوف ؟

— لأنهن أبالسة ... كدت أقول إبليسات !

— ولِمَه ؟

— لأنهن خُسِّنَّ جميعاً. أوه ! لقد استدرجتني حتى فضحت سري الذي كنت أوثر ألا يطلع عليه أحد ! ...

— أنا لم أستدرجك يا رؤوف ، بل أردت أن تريح قلبك قليلا مما ينوء به بالبوح لي ، فليس أنفع للصديق من صديق يقول له ويقول صديقه له ، أما أن تعيش في هذه الدنيا المترعة بالعجائب وحدك دون أن تستعين عليها بأحد ، فهو عناء لا يحتمله صبر إنسان

— أشكرك يا طارق ! لقد كنت تحسبني أعيش للفن من أجل الفن .. فهل سرك أني كنت أعيش للفن من أجل الحياة ؟

— سرني كثيراً بل بهرني ، وسيسرني أن تعود فتصل أسبابك بهذه الأسباب التي تقطعت بينك وبين الماضي ؟

— هذا ما لن يكون أبداً !

— ولم لا يكون يا صديقي ؟

— لأنك لم تجرب مثلي ... هلم بنا إلى القبو أقص عليك أروع القصص يا طارق ... إحمل هذا المصباح الأحمر ، وذاك البرتقالي ، والثالث الأخضر ، وسأحمل أنا ذاك البنفسجي ، وهذا الأصفر .. و ..

* * *

وانطلق الصديقان يطويان الدرج إلى أقبية القصر

لقد كانت أعصاب رؤوف تضطرب وتهتز كما تهتز أوتار العود إذا لمستها أنامل الموسيقي ، وكان جبينه ذو الأسارير يتصبب عرق بارد هو عرق الحمى التي ألهبتها في قلبه الذكريات .. وكانت أنفاسه تتردد كأنها تحصي خفقات قلبه وضربات رئتيه .. وكانت عيناه الغائرتان القلقتان انطفأ فيهما بريق الأمل تنظران إلى أعماق الماضي ، ثم تنقلبان حسيرتين

ودفع رؤوف باب القبو دفعاً يسيراً فانفتح ، وانقذفت من ظلماته في قلبه خسرات ...

وقبل أن يلج نظر إلى طارق نظرة آسفة مكظومة ، ثم ذرف عبرة حزينة زلزلت فؤاد صديقه ثم قال :

— هنا يا طارق غيبت في الظلام آمالي منذ عامين ، واليوم فقط أعود فأدخل هذا الجحيم ،

ولولاك ما فعلت ، ولا أحببت أن أفعل . . .

ولم يتكلم طارق ، بل اقتحم القبو وراء صاحبه صامتاً ساكتاً .

— أرأيت إلى هذه الغادة المتجردة التي تغرق القصب وسيقان البردي لتبترد في ماء البركة ؟ هذه هي الحبيبة الأولى ... يالها من ذكرى ! لقد نبض فؤادي نبضة غرامه الأول حينما لمحت هذه الفتاة تمشي وحدها على شاطىء البحر الأبيض في ذوب من أشعة القمر ... وكنت قبل ذاك أبحث عن غرامي ! خفق قلبي بشدة وعنف يا أخي طارق ... وتلمثمت ... لم أجد ماذا أقول لها ... لقد كنت أبحث عن كلمة واحدة أقولها لها فما استطعت ... ونظرت هي إلي ، ولم أكن أدري أنها ممثلة ... أجل يا طارق ... لقد كانت ممثلة والممثلات ممثلات حتى في مواقف الحب العادية !

رشقت فؤادي بنمزة هائلة من جانب عينها الخبيثة ، فمادت الأرض تحتي ، وأيقنت أنها غرامي الذي أنشد ، وحبي الذي أشدو ... ورغم أنها لم تبال بي ، فقد تبسمت ... وكان الليل ساكناً ، ريحه وبدره وبحره ... ومشينا كثيراً ... ثم التفتت إلي فجأة وقالت : « إن لم تنصرف فستضطرني لنداء الشرطي ! » فقلت لها : « إذا كنت جادة فإني منصرف . على أنني لست أتبعك لمجرد العبث ... إني أبحث عنك منذ زمان طويل ، وأرجو أن أكون قد وجدتك ! » . فقالت لي : « تبحث عني ؟ وهل كنت تعرفني ؟ » فقلت : « لا ... ولكن قلبي كان يحدثني أنني سألقاك ... وها قد لقيتك ! » فقالت لي : « عجباً ! وهل تعرف من أنا ؟ » فقلت : « أعرف أنك أجمل حسان الاسكندرية ! » فقالت : « هذا أول الكذب ... لست من الاسكندرية » فقلت : « ومن أين إذن ؟ » فقالت في سخرية : « وأنت ما شأنك ؟ انصرف قلت لك ! » فقلت : « وإن لم أنصرف ، أتدعين الشرطي ؟ » قالت : « أجل سأدعوه ! » فقلت : « ولم يأتي الشرطي ؟ » فقالت : « ليسوقك إلى القسم ! » فقلت : « ويحرمني من هذه الدنيا الجميلة ! من هذا القمر وذاك البحر وهذا النسيم ... ثم ... منك ومن التحدث إليك ؟ ما اسمك نشدتك الله ؟ » فقالت : « حورية ! »

لقد ذكرت اسمها وكفى يا طارق !

وجلسنا على صخرة مشرفة على البحر ، وكانت ليلة ما أجملها ! لقد كانت الخبيثة تسحرني بكلمات رنانة حفظتها لتلقيها على المسرح ، فيا ترى ، هل فكرت في إلقائها في أذني عاشق ؟ ! إنني ما أزال أحفظ نتفاً من كلامها ، إسمع يا طارق : « أنت يا رؤوف تسطر حديثك بسير الحب !! أوه يا رؤوف ! ما كان أحب إليّ لو أنني عرفتك قبل أن أولد ، هناك ... هناك ... في الجنة التي طرد منها أبونا آدم ! لم لم تلقني قبل هذه الليلة يا رؤوف ؟ آه يا قاسي ! تقول إنك مثال ومصور ... هل فكرت في تمثالي ! ستصنعه من مرمرتي ، أليس كذلك ؟ ! ... إني أسألك كيف تهبه هذه الحرارة التي تحسها في جسمي . هل يستطيع أن يتكلم يا رؤوف ؟ هل يسمع ؟ هل يرى ؟ لشد ما أحب أن يكون كذلك ! »

وكنت أنا ساذجاً يا صديقي ، وكانت كلماتها تسحرني وتفعل أفاعيلها في نفسي ، لقد صدقتها جميعها ... وسافرت معي إلى هنا ! وكانت تتجرد من ثيابها فأغمر كل جسمها الفتان بالقبل ، ثم آخذ في صنع تمثالها ! لقد كانت جميلة حقاً ! لله ما كان

2017-11-11

أروع صدرها وأرق خصرها وأنعم قدميها وساقيها. لقد كان فيها يلهب كلما طبقت عليه قبلة ... وكانت قبلها تشحذ عبقريتي فاستودعتها جميعاً. نم التمثال أنظر ... ألا تحس يا صديقي ، إن فمه الرقيق الدقيق يجذبك إليه في شدة وعنف لتقبله؟ ولكن انتظر ... أغلق هذا الباب الكريه ... لا تزعج فقد أحضرنا معنا كل المصابيح ...

هاهوذا المصباح البرتقالي.. سأضيء به حواشي التمثال . أوه ! لقد نسينا أن نوصل تيار الكهرباء إلى هنا ...

وانطلق رؤوف يوصل التيار ، وبقي طارق لحظة وحده يرمق التمثال وقد تضاعف جماله في نفسه بعد حديث رؤوف . ثم .ثم تقدم رؤوف إلى التمثال وراح يطبع على الفم الجميل الحلو ملايين القبل !

وسكر المسكين من القبل وفعلها في نفسه فما شعر إلا ورؤوف وراءه يضحك منه ملء شدقيه

— حسبك يا طارق . حسبك . إنه ميت بارد !

— واخجلاه ؟ أوقد أقبلت يا رؤوف ؟

— إذن ماذا عسيت كنت فاعلا لو رأيتها وخلوت إليها ؟!

— ها ها ... ها ها ها ... إغفر لي يا أخي فقد سحرتني حقاً !

— لا عليك ... أنظر إذن ...

ثم سلط الشماع البرتقالي على حاشية التمثال فخيل إلى طارق أنه يسعى ... ثم غمر التمثال كله بصبغ البرتقال فبدا كأنه يرقص ، واستبدل المصباح بآخر وردي فلاحت حورية كأنها خارجة من حمام ساخن والبخار يتدفق في شرايينها !

— حسبك ... حسبك يا رؤوف ... لا تثير هذا الصباح ... الشعاع الوردي ... آلله ... !

لكن رؤوفاً استبدل المصباح بآخر بنفسجي ، وشعاع البنفسج يحتث في النفس رهبة لا كما يفعل عبير البنفسج الذي يثير فيها نشوة الحب !

وبعد أن انتهى هذا العرض الضوئي الذي بهر طارقاً وسحره عن نفسه ، أخذ رؤوف يتم قصة هذه النادة فقال :

— وانتهيت من صنع التمثال في شهر وبعض الشهر ... وكنت أحسبني أعيش مع حورية في جنة الفردوس طيلة هذه المدة ... قُبَل ! عناق لذيذ ! أحاديث أشهى من قطع الروض الموشى ! ضحكات كرنين الذهب ! ونظرات أسكر للنفس من حميا الخمر ! نسيت أهلها يا طارق ، ونسيت أهلي ... لقد نلت منها كل شيء إلا التفاحة ... التفاحة وحدها أقسم لك ! أجل لقد حاولت ذلك مدفوعاً بالحيوان الخبيث الذي يتململ في نفوسنا منذ آدم ... بيد أنها كانت تغضب وتثور وقد تقهرني أحياناً وتميرني بأني فنان ، وأول الفروض على الفنان ألا يدنس روحه بهذا الوزر الذي يبوء بإثمه إن فعل ! لقد كانت تقول لي : « إنك زجل لست كسائر الناس ! إن الخيال هو رأس مالك فلا تشوهه بهذا الدنس ! إن تفاحة حواء هي شقاء آدم فلا تقربها ... إني سأحتقرك إذا أرغمتني على شيء من ذلك ! وسأقر ظن تراني إلى الأبد ! »

وعرضت عليها الزواج لأنني لم أعد أحتمل حياتنا على هذا النحو المطهر الحصور ، فرفضت لأنها فتاة ، ولأني أنا أيضا فنان !

— ولماذا يا حياتي ؟ لم لا يتزوج الفنانون ؟

— لأن الزواج يغضب المعين الذي يفيض عنه فنهم !

— وكيف ؟

— لأنهم بالزواج ينالون التفاحة المحرمة فيفسد ذوقهم ويسمج خيالهم ولا يعود شيء يلهب عواطفهم

ولما اشتد الجدل بيني وبينها وعدتني أنها سترى لنفسها ... وفي الصباح ... صحوت فلم أجدها في الغرفة ... ولم أجدها في القصر ... فررت ! فررت يا طارق ؟ ! وتبعتها إلى الاسكندرية ، وبحثت عنها حتى حفيت ، ثم اهتديت إلى مخبئها في قصر أفخم من قصري وأضخم ... وقد شهدتها تلبس الملابس وتتقلد الجواهر ، فعرفت أنها وقعت على صيد أثرى مني . . . واختبأت مرة في حديقة خليلها أرقب مشهداً غرامياً بينها وبين الرجل الوجيه الذي استلبها مني .. وكدت أنقض عليهما أحطم رأسيهما لكني لم أفعل ، لأني ذكرت عندئذ أنها غادة ، وهي لمن يدفع أكثر ، فربأت أن أذهب بدمها النجس !

ثم لقيتها بعد ذلك وحدها في حديقة الأزهار قاتلها الله ! ... لقد كانت هناك أجمل من كليوبطرة وسألتها عن حالها ! أي والله يا طارق سألتها عن حالها. لقد نسيت في تلك اللحظة كل ما قدمت من سوء إلي ! نسيت أنها رفضتني زوجاً لتقبل غيري مدعياً. نسيت أنها رفضت يد الله لتسقط في يد الشيطان ! نسيت أنها رفضت فتاناً طاهر القلب لتترع في وحل الرذيلة تحت أقدام الأغنياء ! نسيت ذلك كله، نسيت أنها لم تأبه لجميع القبل التي رويتها بها في أغاريد الحب ونشوات الغرام ، فدلت على رياء ونفاق ... ثم تقدمت إليها ذليلا صارعاً أسألها العفو والمغفرة ! العفو والمغفرة ؟ ! هل تسمح ؟ ! هي التي تملك أن تعفو وتغفر بعد كل هذا ! وا أسفاه ! ما أتعس قلوب العاشقين !

ثم نظرت إلي شزراً ، وتبسمت مستهزئة ، وقالت لي : « كلا يا عزيزي ... ابحث عن غانية سواي فقد انتهى دورنا ! »

وتركتني وفي القلب حسرات تمزقه ، وفي الحشا عذاب وأوصاب .. ثم ذهبت لا تلوي على شيء وتبعتها لأرى ماذا ينتهي إليه مآلها ...

وا أسفاه عليها يا طارق ! لقد رأيتها تجلس إلى عصبة من الرعاع يلهون بها ويعبثون ... وهي وسطهم لا تحس كرامة ولا تشعر بآدمية... فعرفت أنها سقطت ... وهنا فقط ، مضيت لشأني ، غير آبه ولا آسف ولا مبال ...

***

هذا هو غرامي الأول يا طارق ...

أما ذاك ... فهو غرامي الثاني !

هذه الراقصة يا طارق ! الله كم من راقصة تحمل قلباً لا تتحلى بمثله ربات الخدور ! أبداً ما رأيت أطهر من هذه ولا أتقى !

لقد تلبثت عامين أجتر ذكريات حورية ، فتارة أبكي ، وتارة أسخر ، وتارة أتسلى بالتصوير وصنع التماثيل ... وكنت في ذلك كله كالتاجر الذي قام برأس ماله ، ثم قعد ملوماً محسوراً ... فهو يسلي النفس بالآمال ، ويداعبها بالأماني !

لقيتها في إحدى الصالات المعروفة بعد أن رقصت .. والناس في هذه الأماكن فوضى لا قانون لهم ولا عرف بينهم ... وأنت تتقدم إلى أي شئت كأنك تدخل محلا تجارياً لتشتري ، فاذا سرك الشيء دفعت الثمن وجلته ومضيت ، وإن لم يرقك تركته إلى ما سواه فان لم تجد ضالتك ، ذهبت مودعاً بالملق ، مشيعاً بتحيات الدهان ، وهم بذلك يرجون

ألا تلق أحسن مما عندهم فتعود ...

وجدتها جالسة وحدها فجلست إليها دون رجاء أو استئذان ... وكلما ذكرت لقائي حورية عند شاطئ البحر ، وجمال دلالها وروعته ، وتهديدها إياي باستدعاء الشرطي . كلما ذكرت ذلك ، وذكرت تأجرات فاك المرقص ، أسفت ، وذهبت نفسي على غرامي الأول حسرات

ما أسهل النزل هنا وما أيسره !

— عمى مساء يا حسناء

— عم مساء يا حبيبي

هكذا قالت لها وهكذا قالت لي ! . هل سمعت ؟ أنا حبيبها هكذا دون مقدمات ولا مؤخرات !

ثم تبسمت تلك الابتسامة المصنوعة السهلة الآلية التي تعودت أن تتبسمها لكل امرئ رام منها شيئاً ... فقلت :

— لقد أحسنت هذه الرقصة جداً ! إنها من أصعب الرقصات التي شهدت ! قلت ذلك وأنا لا أعرف عن الرقص الشرقي قليلاً ولا كثيراً ! فقالت :

— « وهل لك معرفة بالرقص أيها السيد ! »

فقلت :

— لي به معرفة كبيرة يا .. ما اسمك من فضلك ؟

— إسمي ؟ ... إسمي ... إفرض أنه سَنِيَّه !

— ولماذا أفرض ؟ ما اسمك الحقيقي ؟

— قبل أن أجيبك أرجو أن أعرف ما أنت ومن أنت ؟

— ولماذا تريدين ؟

— لأني أراك لجأ في غشيان هذه الأماكن ، وأنا ...

— تريدين أن تقولي إنني لا خبرة لي بها ؟

— أجل ... أردت أن أقول ذلك ...

— وأنت ماذا يعنيك من هذا كله ... ألست ترين في صَيْداً طيباً ؟

— أما الصيد فليس أيسر على من إقامه هنا ، لكني أحسست فيك شيئاً فأردت أن أعرف هل تصدق فراستي ؟

— وماذا أحسست يا ... سنية ؟

— لن أقول لك حتى تخبرني من أنت وما أنت ، ولم قدمت إلى هنا ؟ ...

— أما من أنا ، فأنا ... أنا ... رؤوف ! هل يعجبك هذا الاسم ؟

— إسم جميل إذا كان لك حقاً .. وما عملك ؟

— عملي ... أنا أصور وأصنع التماثيل ... !

— آه ! إذن أنت صادق ! إن اسمك رؤوف حقاً !

— وما ذاك جعلت فداك ؟

— لقد كلمني عنك حورية !

— حورية ؟ ...

— أجل ... حورية ... حبيبتك ... أحقاً صنعت لها تمثالا ؟

— يا ربي !

— ولماذا هجرت حوريةً يا رؤوف ؟

— بل هي التي هجرتني ! لقد هربت مني ! لقد تبعتها ! لقد سقطت !

— سقطت !

— نعم ... سقطت إلى الحضيض ! إنها الآن تبيع جسمها لكل راغب فيه !

— أنت قاس جداً يا رؤوف . . . إن حورية لم تسقط !

— وكيف ؟ لقد شهدتها بعيني لا ترد كف لامس !

— وإذا كنت تكره الساقطات فلماذا قدمت إلى هنا ؟

— حضرت لأتسلى ! وهذا هو الدواء بالتي كانت هي الداء !

— ولهذا جلست إلي !

— أعتذر ! ... إني أعتذر يا سنية !

— أنت تعتذر ؟ وكيف تعتذر لامرأة ساقطة ؟

— سنية ؟

— ماذا يا رؤوف ؟ هل علمتك حورية مواقف الهيام والغرام ؟ لقد كانت معلمة ماهرة ؟! ماذا تريد أن تقول ؟!

— إني أحس في صوتك طهراً وفي عينيك براءة!

— أنت تصب في أذني ما سبته حورية في أذنيك ! لقد كانت تجيد هذا الكلام إجادة عجيبة ! أي طهر وأي براءة يا رؤوف ؟! إني أبيع نفسي لكل راغب كل يوم مرة أو مرتين ؟! طهر وبراءة ! هذا عجيب !

— وبالرغم من هذا فأنا لا أشك في طهرك وبراءتك ! أين تسكنين يا سنية ؟

— أسكن في حي قذر موبوء !

— أريد أن أزورك ثمة ، فهل تأذنين ؟

— إني أخشى عليك أن تتنجس !

— أنا لا أبالي ... أرجوك ... لنذهب الآن !

وركبنا عربة ظلت تجوب شوارع القاهرة وقد نام ليلها الساهر ، ووقفت حركتها الدائبة ... ثم انتهينا إلى عطفة ضيقة مرطوبة ... ووقفت العربة أمام بيت عتيق متهدم ...

— هنا يا سيدي

— هذا بيتكم ؟!

— أجل ... هنا ... وأرجو ألا تحدث صوتا ونحن صاعدان ، فستري كم من البنايا وربات الفجور يسكن معي في هذا المنزل القذر ! كم الساعة الآن ؟ !

— الساعة ... الدنيا ظلام ... لنعد إلى العربة ... الساعة ... الثالثة صباحاً ... بل الثالثة والنصف ! لقد أذن الفجر !

— إذن لنصعد الآن !

وصعدت في إثرها يا طارق ... ووقفت في الظلام لحظة ، ثم نظرت إلى باب الشرفة ، فوجدت بصيصاً ضريناً من النور ينبعث خلال ثقب المفتاح ... وبعد أن نظرت سنية فيه رجعت قليلا وقالت لي ...

« أنظر إذن ! »

ونظرت !

يالله ! شيخ عجوز هرم يتهالك على نفسه ، وقد استقبل القبلة ، وبسط كفيه إلى الله ، وراح يقول : « الله أكبر ! »

الله أكبر يا طارق ! الله أكبر يا صديقي ! الرجل يصلي الصبح يا أخي ؟ فيا ترى ، هل يعلم من أين أقبلت سنية ؟ لقد عرفت أنه أبوها ... يالفارقات الحياة ، ويالهول التناقضات فيها !

ثم استيقظ طفلان صغيران وجعلا يتصارخان من شدة الجوع ، وأخذا يبكيان ، فقال لهما الشيخ : « لا . لا ... حالا ستأتي نفوسة بالطعام لكما ! صبرا ... صبرا ... حالا حالا ... يارب ! لطفك اللهم يارب ! ... » ورفع الرجل كفه ومسح بها دموعه

ولـكن ! ... يا ترى من تكون نفوسة ؟

— من تكون نفوسة يا سنية ؟

— نفوسة ؟ ... أنا ! أنا نفوسة !

— ولماذا قلت إنك تسمين سنية ؟

— لأنهم أرادوا ذلك !

— من هم ؟

— أصحاب المرقص !

— ولماذا ؟

— لأن اسم نفوسة اسم (بلدى) فى رأيهم ، ولا يصلح للاعلانات !

— آه ، فهمت ! ومن أوتاك ؟

— الشيخ أبى وهذان طفلاى !

— فهو جدهما إذن ؟

— ... ؟ ...

— وأمك ؟

— ماتت !

— وزوجك ؟

— أدمن السموم حتى مات ... وقد مات فى السجن !

— ولم يترك لـكم ما تقتاتون به ؟ !

— ولماذا لجأت إلى المراقص إذن ؟

— ولم تجدى عملا أشرف من هذا العمل ؟

— كان يجب أن ننتظر طويلا حتى نموت من الجوع لأجد هذا العمل الشريف ؟

— وأبوك يعلم ذلك !

— يعلم ماذا ؟

— أنك راقصة ، وتتجرين بعرضك ؟

— لو علم لقتلنى وقتل نفسه !

— كنت أفضل أن تدرسا أمر عيشكما قبل أن تقدمى على هذه المهنة !

— لو درسنا ذلك لاقترح على الشحاذة !

— أى أن تكونوا أبناء سبيل ؟

— أجل ... هو ذاك

— ولـكنى الحرة تموت ولا تأكل بثديها

— ما لم يكن لها طفلان ضعيفان عاجزان كهذين

— نفوسة

— ماذا يا رؤوف ؟

— ألم أقل لك إنى ألمح فى صـوتك الطهر وفى عينيك البراءة ؟

— أنت أول من لمح هذا لأنك فنان

— نفوسة أتقبلينى زوجاً ؟

— لا ... لن يكون ذلك

— ولماذا يا أختاه ؟ !

— لأنك تمرض هـذا وأنت فى غمر من عاطفتك البريئة ، فاذا جد الجد ، وهفوت ولو هفوة يسيرة ... صحت فى بأعلى صوتك قائلاً : يا عاهرة ! إذهبى ... عودى إلى منبتك الوخيم القذر ... لقد أتعستنى وكفرت بأنعمى ! ... لقد ...

ثم ارتفع صوتها بالطارق ، فانفتح باب الغرفة ، وبرزت رأس الشيخ ، وتلألأت فى الظلام لحيته التى أثارها الشيب

— من ؟ ! نفوسة ؟ ! لماذا أقبلت قبل ميعادك يا بنيتى ؟ لماذا تصيحين وتصخبين ؟ !

ووضع الرجل كفه فوق عينيه ، يتبينى ، وفى كفه الأخرى مصباحه الضعيف الخافت ... أنظر ...

واستدار رؤوف ، ثم أومأ إلى تمثال الشيخ وقد بسط كفيه إلى السماء وهو يقول : « الله

أكبر ! ! » ثم استدار مرة ثانية وأشار إلى تمثال آخر للشيخ نفسه وقد رفع كفه إلى جبينه وهو يحملق ، وفى كفه الأخرى مصباحه الضعيف الخافت ! !

أرأيت يا طارق ؟ ! أهذا كله للفن من أجل الفن ؟ أم للفن من أجل الحياة ؟ ورأى الرجل فصرخ صرخة عظيمة ... لأنه أيقن أننى عاشق من عشاق ابنته ، وربما أكد له ذلك ما تشمم من عبير البنفسج الذى كان ينتشر منها فى ظلام بيته ، ومن هذه الأصباغ التى كانت تتراكم صارخة فوق خديها وشفتيها .

— ما هذا يا نفوسة ؟ ما هذا الدين تصنعينه بنفسك ؟ ومن هذا الذى معك ؟ ألم تقولى لى إنك تذهبين إلى مصنع ... لتعملى فيه ليلا ؟ ! من أين لك هذه الملابس وهذا العطر وهذه الأصباغ ... وى ... يارب ! ... يارب ! ...

وسقط الرجل فوق الدرج سقطة هائلة ... وما هى إلا لحظة حتى أسلم آخر أنفاسه

ألا ليته مات وهو قائم يصلى ! ! ألا ليته ما علم سر ابنته ! !

وانحنت نفوسة فوقه تبلل لحيته ووجهه بدموعها ، فى حين أقبل طفلاها يصيحان من ألم الجوع ويقولان : « أى ... أى ... نفوسة ! هل أحضرت الخبز ؟ »

وسرت رعشة فى أعصابى فأثلجتها ... ولم أتمالك أن بكيت ! !

وأخلصت لى نفوسة وأخلصت لها ..

فانظر إلى هذا الحب الذى ينمو من رقات الموتى ! لقد كانت جميلة ... كانت جميلة جداً ، وكان حزنها يضاعف جمالها ... لقد أشرقت فى حياتى كما يشرق النجم الجميل فى غيهب الليل ، أو كما تشرق بارقة الأمل فى غياهب اليأس . أنظر إلى سورتها هذه يا طارق ! أترى إلى الهدبين كيف تنتشر منهما ظلال الرحمة لا سهام العذاب كما يقول شعراؤنا ؟ أنظر إلى هذا الفم الحلو المفتوح ! ألا يكلمك حديثا مشجيا تفهمه ولا تسمعه . وهذا الخد ! هذا الخد ! أنظر إلى قسمته ! ألا ترى فى صفحته آثار قبل ! ما أجرأنا نحن الفنانين ! لشد ما عيبت أن أنقل جمالها إلى هذا الرمس ! أين أنت يا نفوسة البيت العتيق ، وسنية المرقص الوخيم ! سلام عليك أيها الشيخ . سلام عليك فى عليين !

— وأين ذهبت صاحبتك هذه يا رؤوف ؟

— جاءت حورية ... حورية الشيطانة ! فسرقتها منى ! سرقتها بعد أن ظهر الموت نفسها ، ووضع فى النار عارها ، ولست أدرى اليوم أنى مضت ، وأين مستقرها ...

— ألم تبحث عنها ؟

— لم أترك مباءة ولا حانة ولا داراً للهو إلا غشيتها ، لكنى لم أقف لها على أثر . ولم أسمع عنها من أحد !

— وابناها ! ؟

— ذهبا معها . فلله هما ، لقد كنت أتخذتهما لى ولدين !

***

وظلا يتنقلان بين التماثيل ، ورؤوف يقص وقائع غرامه عند كل تمثال ، ثم يردف كل قصة بعرض ضوء يزيد فى بهاء تماثيله وسحر صوره المعلقة فوق الجدران ، أو الملقاة على أرض القبو ... وقد

2017-11-11

يذرف عبرة أو عبرتين عند كل منهـا ، إذا هاجه الوجد أو عصف بقلبه الاذكار ...

ثم انتهيا عنـد باب قبو آخر مقفل ، فوقف رؤوف تلقاءه صامتا دامع العين ... ودفع الفضول طارقا فسأله :

— وماذا هنا أيضا يارؤوف ؟

— لا . لن أقص عليك قصتى هـذه ، ففى كتابى الذى أقسمت ألا أفتحه . ومن يدرى؟ فقد أموت ، وبعدها تأتى يافارق إلى هنا ، وتكتب ما قصصت عليك ... ثم تكتب مالم أقصص عليك من أمر هذه القصة الراقدة هنا ... يالليأسة !

— يبدولى أن طوفانا من العواطف يجتاحك يارؤوف ، وهذا حال الشاعر وليس حال الفنان .. إهدأ ياصديقى ... وتجلد ... وعد إلى مرح الحياة فقد ضربت أنت أمثالها .. تنقل كما كنت تفعل .. وافتح هذا الباب الرهيب ، ولا تحمل من أسرارك وزراً يقصم ظهرك ... أليست هى الأخرى قصة حب أو مأساة غرام ؟ ماذا تخشى ؟

— أجل، هى مأساة غرام ، ولكنها من نوع آخر ... لقد رأيت كيف كنت أتقى حبيباتى من بنات الفن ، لأنى كنت أحسبهن أقرب إلى فهم حياة الفنان ... ولكنك رأيت كيف كفرن جميعاً بحبى ، فجرحن كبريائى ، ولم يكافئنى ... بل هربن منى ، برغم ما كنت أحوطهن به من عناية واقتداء وعبية ... ولكن ما بال هذه الثانية هنا ؟ ! لقـد شهدتها أول مانشهدتها فى حديقة الأندلس الناضرة. ولقد قرأت فى عينيها النبل ، وفوق جبينها العظمة والكبرياء ، وعرفت أنها من عائلة من أعرق العائلات فتقدمت إلى أهلها خاطباً على الطريقة المصرية ... هذه الطريقة التى كلها توكل واستسلام ... وقد رضيت بى بعلاً ... وزفت إلى على الطريقة المصرية أيضاً ... لقد كنت هذه المرة ثائراً على جبانتى ، نازلاً عند حيلة قوى ، وكنت أحسب أن علة شقائى فى مشاهد غرامى هى ثورتى على طباع قومى وعاداتهم... فقلت أنسى أنى فنان ... وأخطب على الطريقـة المصرية ... وتزف إلى عروسى التى لم أرها غير مرة ... وليقض الله أمره فى فؤادى !

على أن التجربة قد نفعت ... وكانت زوجة صالحة ... ولكن ، وا أسفاه ! إن صلاحها لم يدم طويلاً ...

أسبوع واحد من شهر العسل يا طارق ؛ ثم أخذت حواء تتنمر لآدم ! كنت أعمل مجداً فى تمثالها المسجون هنا ... فإذا بها تقبل مغاضبة ، وقد انقدت فى وجهها نيران الجحيم كلها ... قالت لى ؛ وقلت لها :

— رؤوف !

— سيدتى !

— أنا لا أصلح لك ، وأنت لا تصلح لى !

— أستغفر الله ! لماذا ؟

— أنت تعلم لماذا ، ولا حاجة بنا إلى النقاش ، فربما أن ترسلنى !

— أما أنى أعلم فأنا لا علم لى ، أؤكد لك ... وأما أن أرسلك فهذه تكون أشد كارثة تحل بى

— فنان ! ماشاء الله ! فنان غزل تهب قلبك لكل من تلقى ! يا تلميذ إبليس ! كلما فكرت فى تمثال أو سورة عبدت غانية ومرثت تحت قدميها جدك ! حياة كلها أوزار ونسوق ! ألف حبيبة وألف قينة ! لقد انخدعنا فيك ... ولكن ...

2017-11-1

— أوه ! ما هذا كله ؟ ماذا دهاك مني ؟

— ماذا دهاني منك ! خذ واقرأ ... وأرجو ألا تنكر خطك !

— آه ! حورية ! دائماً حورية ! إنها ترسب في حياتي كلما وتطفو ! هكذا دائماً ، هي تلعب دورها بمهارة ، ولكن بقسوة !

— أجل هي حورية ... حورية التي تهيم أحلامك وآمالك ، وتنظم فيها درر فنك !

— أيتها السيدة ... أرجوك !

— ترجوني ؟

— أجل ، أرجوك ! إن هذا الخطاب قديم .. قبل أن أعرفك بعشر سنوات !

— والدليل على ذلك هذا التمثال الذي تصنعه !

— التمثال الذي أصنعه ؟ إنه لك يا عائدة !

— ها ها ... ها ها ها ... جيل جداً ... يبدو لي أنك مجنون ! أنظر يا أبله إلى تمثالك فلن تستطيع أن تخدعني !

ونظرت إلى التمثال يا طارق !

يا للحلم ! صحيح إنه تمثال حورية ! تمثال حورية بعد عشر سنوات ، ولي مع ذلك زوجة صالحة جميلة كنت أرجو أن تنتشلني من دنيا الفن إلى عالم الحقيقة ... كنت أرجو أن تكون أم البنين !

وتناولت الخطاب القديم أقرؤه ... ورغم الموقف الهائل الذي كنت أقفه حيال زوجتي ... كنت أرقص طربا لكل فقرة من فقرات الخطاب أسلوب لا عهد لي به ! حب متقد ! أزهار منثورة بين ثنايا السطور ! دموع ما تزال حارة تغلي ! قلب أضناه الغرام وشفه الوجد أو كاد ، أرفع يدي إلى صدري أتحسسه ! آهات وزفرات ! شاطىء البحر الأبيض وبدره الساجي ونسيمه البليل ! الصخرة ! حرارة القبل !...

كل هذا مستمد في سطور الكتاب لساعاطارق ... ومع ذاك ... فها هي ذي زوجتي تشهد هذه الثورة الجامحة في أعماقي ، تبدو على وجهي ولا تستتر ...

قالت عائدة :

— رؤوف ... إذن ، أنا ذاهبة ! الوداع ! إني أسامحك وأصفح عنك !

ولم أرد بكلمة ياطارق ... فقد حيرني الخطاب الذي لم أشك مطلقا بعد أن ذهبت عائدة ، أنني كتبته أمس ! ومداده الجديد يشهد بذلك ؟

***

— والآن يا صديقي ، الفن للفن ، أم الفن للحياة ؟

— بل الفن للحياة رغم مآسيك كلها .. فلولا حياتك المفعمة المترعة ما حفل الفن بهذه الآيات الرائعات .. أنظر إلى هذا المتحف الكئيب ، وقارن بينه وبين القبو

هنا جماجم وأفاع وطيور وظباء قلية ، وصور خافتة للصحراء ... لوادي الموت ...

أما هناك ! ... فيا لله ؟

حورية . سنية . كوكب . سناء . الشيخ يحيا « الله أكبر » حديقة الأندلس . جنة الأزهار . طاقة البنفسج . باقة الكيليا .

— ومع ذاك . فسأحيا للفن

— وللحياة .

— كلا ... لقد ودعت حياتي منذ ودعت غرامي الأول .

وحنى رؤوف رأسه فذرف دمعة على ذكريات حورية .

ودنى منه

(الرواية) القصة مؤلفة الحياة والنقل والاقتباس ممنوعان

من قتل أباه ؟

للكاتب الانجليزي سير آرثر كونان دويل

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

حدث الدكتور وطسون قال :

كنت جالساً في مسكن شرلوك هولز رقم ٤٠ شارع بيكر ستريت في يوم عبوس قمطرير ، شديد البرد ؛ ولكن مظاهر الترف والرفاهية التي كانت تحفي أنستي المواصف المهولة التي كانت تهز الأشجار وتحطم زجاج النوافذ وتنزق السفائن في البحر

فدخلت مسز تيرنر مدبرة الدار وهي تحمل صينية من الأبنوس المطعم بالعاج وعليها طعام الافطار وقالت لي في سخط وغضب :

— أما آن لهذا المسكين أن يتناول وجبة الصباح ؟ لقد طرقت بابه فلم يجب فلما فتحت الباب كدادني وجدته مستلقياً على ظهره ووجهه شاحب كأنه سريع الأفيون ، وقد امتلأ جو الغرفة بدخان تلك البيبة الأبدية التي ينفنف خلالها النيكوتين ..

فقلت لها : وهل مستر هولز نائم ؟

قالت : أبداً ! إن عينيه شاخصتان ، كأنه ينظر إلى شيء في الفضاء يراه وحده

فقلت لها : هذه عادته فلا تبتئسي

فقالت : ولكنك طبيب ، وإني أخشى أن يكون بالرجل مسٌّ من الجن ، أو أنه يعاني مرضاً دفيناً يفشي عليه فجأة ، فانه لم ينم منذ ليلتين ، ولم يخلع ثيابه وما بدّل من مظهره سوى جدائه الذي استبدله بمجاذه

فنهضت وصحبتها إلى غرفة شرلوك هولز فرأيته على الحالة التي وصفتها البجوز ؛ وزاد عليها أنه لم يرد تحيتي ، فلما دنوت منه وقلت له : هذا هو طعام الافطار يا مستر هولز ، إنك بعد كل هذا رجل ، أي كائن حي تحتاج الطعام والشراب ولست ملكا ولا جنياً.

فسمعته يهمس : وتوشديل ... كليمنس.. تسعة أقدام وسبعة.. بعد ثلاثة أيام ... دائرة ضيقة

فضحكت ضحكة عالية ؛ لأني أدركت أنه منشغل بحل تلك الجريمة الخارقة للعادة

فكان لقهقهتي أثر غير منتظر ، فقد أفاق هولز من ذهوله وقال :

— ها أنت ذا يا وطسن. متى جئت؟ وأين تلك العجوز الشمطاء تيرنر التي لم تفكر في إعداد إفطاري حتى هذه الساعة المتأخرة من النهار . فضحكت وقلت له : اخفض صوتك فان هذه التي تدعوها « شمطاء » وتتهمها بالتقصير قد حملت إليك الشاي والحلوى منذ ساعة وهي بالباب تناديك فلا تجيب

ودعوت مسز تيرنر فلبت واستأذنت . ووضعت خوان الافطار على المنضدة التي تكدست عليها الكتب والخرائط والقواميس والرسوم بحالة مزعجة. وأخذت مقعدي حيال هولز لمؤانسته أثناء شرب الشاي

ولم يكد المسكين يمد يده إلى أحد الأقداح حتى عادت مسز تيرنر مهرولة وقالت :

— إن سيداً شاباً بالباب يريد لقاءك وقد بلله المطر ونال منه التعب نيلاً شديداً

فقال هولز دعيه يدخل وأعدي له الشاي

وفي تلك اللحظة دخل علينا شاب في منتصف العقد الثالث ، أصفر الوجه ، عصبي المزاج نحيلاً في عينيه جمال وهدوء ، وفي تحته وقار وثبات ، وفي يده كتاب تبينت بعد لحظة أنه الانجيل المقدس . فاتجه الفتى نحوي وقال لي : هل أنت مستر هولز ؟

2017-11-1

فقال هولز : نعم . إنه هو بعينه ، ولكنه قليل الكلام فقل وأوجز

فاتجه الشاب المسكين نحوى وقال لهولز : لقد وددت لو ألقاه وحده . فيا حبذاً ياسيدى لو تركتنا قليلاً حتى أفضى إليه بسر حضورى . فضحك هولز وقال : لا ! لا يمكنني أن أتركه ، لأنني كاتم أسراره ويده اليمنى . فخشيت أن أظهر الشاب على الحقيقة ، فيسوؤه مزاح هولز فى شخصه

وكان هولز يلجأ أحياناً لهذه الطريقة عندما يكون متعباً أوعندما يرى أمامه شخصاً خائر القوة، فيجب أن يتجه الحديث إليّ ليدرسه على غرة منه

فلم أفعل أكثر من أن هززت رأسى وأشرت إشارة الرضى والموافقة

فقال لى الشاب : إذن أتكلم ؟ إن مستسرك هذا لا يبعث بالثقة التى توحيها

فضحكت ولزمت صمتى ، ولكن وجه هولز لم يبد عليه أقل انفعال أو دهشة

وكانت مسز تيرنر قد أحضرت له الشاى فأخذ جرعة واحدة ثم ألقى بالفنجان جانباً وقال :

إننى انجليزى كاثوليكى من مقاطعة « سوث سكس » وعندما كنت طفلا ، كان من عادتى أن أتوجه إلى الاعتراف بين يدى قسيس القصر، نعم قصر أسرتي، فانني أنتمى إلى الأشراف النورمانديين الذين دخلوا هذه البلاد بقيادة غليوم الفاتح .

فقال هولز وقد اتخذ شخصيتى مؤقتاً :

— إن مستر هولز لا يهمه كثيراً ذكر الآباء والأجداد وتسلسل الدارى بقدر ما يهمه أن تدخل فوراً إلى صميم الموضوع

فاحمر وجه الشاب الذى كان خجلاً . ونهض على قدميه ونظر إليّ وقال :

— إن كاتم أسرارك يهينني . إنني متخرج فى جامعة اكسفورد وجئت لأمر جدى وأحل بين أحشائى ناراً موقدة . فالأفضل أن تعيده إلى صوابه وترشده إلى احترام الذين يستحقون الاحترام

فقال هولز : هون عليك ياسيدي النبيل . إن مقاطعتى أيك نوع من مصلحتك . فان وقت مستر هولز من ذهب ووقتى أنا أيضاً ، وقد تضيع على نفسك بهذه الفاخرة دقيقة قد تفر أثناءها فرصة العمل . فجلس الشاب هادئاً واسترسل قائلا : عندما كنت طفلا كان من عادتى أن أتوجه إلى الاعتراف . لشد ما وددت أن يرجع ذلك العهد ، عهد الصبى والطفولة فأعود طفلا يتوجه عند المغرب إلى محراب الصلاة الخاص بقصرنا فى تلك القاعة التى هيئت مبدأ وجمت كل ما فى الكنيسة من أسباب الهدوء والبساطة تقوم عليها جدران ناصعة البياض ويرتفع فوقها سقف أزرق اللون تناثرت فيه تصاوير فلكية تمثل الكواكب وقد احتوت عدداً من المقاعد تحمل أسماءنا وأرقام جلوسنا . وكان القسيس الكاثوليكي المحترم هولت يحب إلينا بصلة القرابة ، ولكنه تعلم وتكرس وتناول الأسرار العلوية فى كنيسة نوتردام دي باري . وكنت عند ما يحين دورى للركوع فى ذلك المعترف الضيق إلى جانب كرسى الاعتراف الذى يضم بدن القسيس الضئيل من فرط التعبد تتسارع دقات قلبي ويستولى عليّ شعور غامض ، وهذه الاحساسات المختلفة وخجلى من الخطايا التى سأعترف بها ، كانت سبب اضطراب أعصابى عندما تأتى اللحظة الرهيبة وأرى القسيس الذى كان يأكل معنا على خوان واحد ويؤهلنا للايمان يصوب إليّ نظراته رغم أن وجهه الصغير الشاحب يشع منه نور التقوى .

فتململ هولز فى مقعده ولكنه لم يبد عينت شفة . واستمر الشاب يقول :

يالها من لحظة يعقبها ألم عنيف ، يتلوه شعور بالراحة والحرية المطلقة وإحساس بخفة العبء الذى كنت أحمله . ثم توهب لى صفحة بيضاء علىّ أن أملأها بالأعمال الصالحة .

لقد حيل الآن بينى وبين عقيدتى الدينية التى كانت تشعرنى فى السنين الأولى بأن هناك سلطة عليا فيما وراء الطبيعة، وهى التى تسير كل شىء؛ وبعد ذلك أشعر بالحرية التى جددت شباب نفسى ، لأنى اعترفت بأخطائى وذنوبى وطرحت جانباً تلك الأوزار التى تثقل كاهلنا جميعاً .

فأصغى هولمز إلى هـذه النبذة الأخيرة إصغاء تاماً ، وتنهد تنهداً عميقاً وقال :

صرصر صرصر ! الآن دخلنا فى الموضوع ، ولكن السيد النبيل لم يذكر لنا اسمه

فقال الشاب : « أنا اسحق إزموند أوف كنجهام بليس هو رسام سوت سكس »

فقال هولمز : همْ !

قال الشاب : عندما بلغت العاشرة فى شهر يونيو سنة ١٩٠٧ كنت بعد ظهر أحد الأيام العاصفة جالساً فى حجرة مذاكرتى ، كما هى عادتى بعد حضور الدروس فى مدرسة القصر وتناول الشاى فى الساعة الخامسة . وكم من مرة زلت قدمى على الدرجات الثلاث المصقولة بالثقان وهى الموصلة إلى غرفتى الصغيرة المؤثثة على نسق أنيق وكل ما فيها أزرق اللون ؛ وبين جدران هذه الحجرة أمضيت آخر الأيام السعيدة فى حياتى . إنى لأستعيد الآن كل شىء . كنت جالساً إلى مكتبى مرتدياً معطفاً أسود ومشغولا بحل مسألة حسابية على ورقة مسطرة

وعلى حين غرة سمعت صيحات عالية أعقبتها أصوات ممتزجة فاندفعت إلى الباب لأستطلع الخبر؛ فلما رآنى الخادم وهو ممتقع اللون صاح مذعولا :

آه يا سيدى اسحق ! ياله من سوء حظ مروع وحادث فاجع

وعند ما نائب إلى رشده قال :

— عد إلى حجرتك فوراً ولا تبق هنا

فلما رأى ترددى أخذ بيدى عنوة وأدخلنى فى حجرتى رغم احتجاجى وإلحاحى عليه لأعرف سبب ذلك الاضطراب الشامل الذى احتوى الدار فجأة ، إلا أننى استطعت أن أفهم أخيراً أن والدى كان قد غادر القصر منذ يومين ولم يعد ، فأقلقت هذه الغيبة الطويلة بال والدتى فبعثت بخطاب إلى صديق الأسرة سير ويتنجهام خطاباً ليحضر . فجاء إلينا بعد العشاء فأقصتنى والدتى . ولكنى كنت قد لاحظت بريقاً غير عادى يشع من عينى سير ويتنجهام الزرقاوين اللتين تعودتا منهما مظهر الجمود من وجهه الحاد النقاطيم

فقاطعه هولمز سائلا : صف لى صورة جناب السير فى تلك الحقبة من الزمن التى مضى عليها على الأقل خمس وعشرون سنة

فقال اسحق أزموند :

كان رجلا مديد القامة حليق اللحية كستنائى الشعر وقد احتفظ بشعيرات باهتة اللون تركها تنمو فى مقدمة ذقنه

فقال هولمز : همْ ! واسترسل الشاب :

وحينما حاولت التوسل للبقاء مع والدتى وسير ويتنجهام لمحت حركة آلية بسما خفيفة يداعب بها ظهره . ولطالما أعجبت بتلك العصا وبتمثال الفاتلين الذى يزين رأسها . وكانت حركته لا تدل على الاضطراب؛ ولكن كيف لا يضطرب سير ويتنجهام لاختفاء أعز صديق لديه ؟ بل على العكس ، من ذلك كان سونه غاية فى الهدوء فأسبغ على عباراته لوناً من الموسيقى العذبة حينما وعد بأن يقوم بكل البحوث الحكمة الممكنة ليهتدى إلى مقر والدى وعلة اختفائه . فطالما تذكرت والدتى تمر بمخيلتى بشعرها

2017-11-11

الناعم وعينيها الدعجاوين وشقتيها المرتجفتين ، لقد كانت تحاكي في بياضها لون رمالها في ذلك المساء. وكان سير ويلنجهام كعادته متأنقاً في ملبسه؛ وإني لأتذكر جيداً وجهه الرشيق

مضيت في سبيلي مغتبطاً بما ناله ذلك الرجل فقد كانت له عندي منزلة كبيرة من أعزاز الطفولة . ولم يكن يساملني قط إلا بالعطف ، ولكنني أخيراً عرفت الحقيقة القاسية فقد ظلت أطرق الباب بعد أن احتجزني الخادم في غرفتي بعنف وشدة منادياً بأعلى صوتي دون أن أظفر بجواب إلى أن جاءت مربيتي جوليا فصحت قائلا :

— أبي ؟ أين أبي !

فقالت المربية : مسكين أيها الطفل مسكين ! ثم احتضنتني . كانت متوفدة لتنبئني بالحقيقة المروعة . ولكن قواها خانتها . ففررت من بين ذراعيها ، وعدوت في طرق القصر وممراته حتى بلغت حجرة رقاد أبي ، ودخلت إليها قبل أن يتمكن أي إنسان من اعتراضي . آه . قد علا السرير جسم متصلب ، وطرحت فوقه ملاءة بيضاء ووضعت تحت رأسه الساكن وسادة من الصوف ، وزال عنه لون الدم والحياة . وبقيت عيناه مفتوحتين ثابتتين . لأن جفونه لم تجد من يغمضها في الوقت المناسب

وكانت ذقنه معصوبة بضماد ، وقد لفت حول رأسه قطعة من القماش الأبيض . وبجوار السرير جثت امرأة لا تزال ثيابها الأبيض الصيق ، وهي حزينة تنتحب ... هذا أبي وأمي !

ألقيت بنفسي عليها وقد تولاني حزن جنوني فتلقتني باشفاق وصاحت قائلة :

— إسحق ! إسحق ! يا ولدي

في تلك الصيحة تجلى حزن عميق ، وفي تلك النغمة شعرت بقلبها المليء بالألم يدفىء فؤادي . وبعد برهة قامت وحملتني إلى خارج الغرفة حتى لا أرى ذلك المنظر البشع مرة أخرى . واستمرت تقول : « ليعاقبني الله . ليعاقبني ربي ! » . دون أن تدرك أثر كلماتها في نفسي ثم غمرتني بالقبلات ، وبللتني بدموعها في وجهي وعنق ورأسي

عندما طلبت إلى والدتي أن تقول لي كل ما تعلم عن ذلك الحادث الفظيع ، أخبرتني بأن أبي قضى على أثر نوبة قلبية في إحدى مركبات السفر . فظل مجهولاً مدة يومين، لأنه لم يكن مايدل على شخصيته

فسألته هولمز ... وهل صدقت ما قيل لك ؟

قال إسحق أزموند ... رغم حداثتي استغرقت طويلا في التفكير فيما قيل لي ، فلو أن أبي مات بتلك الحالة التي بلغتني ، فلماذا سألني الخادم عند ما خرج بي للنزهة عما قيل لي بشأنها ؟ فلما أجبته بلزم الصمت ، وعهدي به تركاراً كبيرا . وما الداعي لهذا الصمت المبهم الذي أشعر به حولي في كل مكان. في الهواء وخيما على كل الشفاه، ومختبئاً وراء كل نظرة

وحدث بعد مرور ثلاثة أشهر أن جاء إلى القصر طفلان في صحبة أمهما ، وهي صديقة صميمة لوالدتي . فاقترب مني أحدهما بعد لمبة الجولف واستجمع شجاعته ثم سألني :

— هل ألقي القبض على قاتل والدك ؟

وقبل أن أفيق من صدمة السؤال قال لي :

— وهل سيعد موته على المشنقة بعد محاكمته في أوله بيلي ؟

فاندفع الدم إلى وجهي وقلت : لا أعرف !

حدث ذلك منذ خمس عشرة سنة ، ولكني أشعر الآن بضربات قلبي عندما سمعت هذه الكلمات

فقال هولمز وهو يمثل شخصي :

— ولكن أيها السيد النبيل ، لعل مستر هولمز (مشيراً إلي) يسألك ما الفائدة من تشريفه بزيارتك وقد مضى على مصرع المرحوم والدك كل تلك المدة الطويلة؟ فاحمر وجه الشاب وقال :

2017-11-11

— إن قاتل أبي لم يعرف. وسأشرح لكما سبب هذه الزيارة التي قد تكون حبلى بالفوائد لي ولستر هولمز. فقد اطلعت أبي على ما سمعته، ولكني لم أفز منه بطائل. فقصدت إلى خادمتنا السجوزمس جوليا. فلم تجدبداً من أن تطلعني على الحقيقة. فقالت لي إن والدي مات قتيلاً، وإن الذي قتله رجل يدعى روتشديل اتصل به قبل مصرعه ببضعة أسابيع وزعم أنه وكيل إحدى الشركات التجارية في الهند. وقد جاء إلى انجلترا لمفاوضة والدي في بعض أعمال تهمه. ثم دعاه إلى فندق والدورف وهو الذي كان الرجل روتشيلد نزيله، وهناك وقعت الجناية واختفى روتشلد اختفاء غريباً ولم يعثر له على أثر.

فلما سمع مستر هولمز اسم روتشديل قفز من مقعده ولمعت عيناه، وأخذ يسير في الغرفة ذهابا وجيئة كعن مسته الشياطين.

وتذكرت فجأة الاسم الذي كان يهتف به قبل مقدم اسحق ازموند الذي انزعج لرؤية هولمز في هياجه والتفت إلى وهمس في أذني: إن كاتم أسرارك رجل غريب الأطوار ويجب أن تستبدل غيره به.

فأجابه هولمز من آخر الغرفة:

— هدىء روعك أيها السيد النبيل فان مستر هولمز سيعزلني بمجرد الانتهاء من كشف القناع عن مقتل المرحوم والدك فارتبك اسحق عند ما علم أن هولمز سمع همسه. واستمر هولمز قائلا:

— ولكن قبل أن تبت في هذه المسألة أحبني على سؤالي؟ هل تزوجت والدتك من سيروتينجهام صديق الأسرة الذي وصفته لنا؟

قال اسحق وهو بين الدهش والدهشة:

— نعم، من ذا الذي أخبرك؟

قال هولمز: وكان هذا الزواج في تمام العامين من مصرع أبيك؟

فقفز اسحق من مقعده وقال:

— نعم ياسيدي. إنك منجم حاذق

وقبل أن يفيق اسحق من دهشته قال له هولمز

— لقد عجز المحققون، لأن القاتل لم يسلب والدك نقوداً ولم يكن لأبيك أعداء في الهندولا في سواها.

فقال اسحق نعم نعم ياسيدي السكرتير أظن اسمك دكتور وطسن

فقال هولمز — إن الأشياء لا تهم بقدر ما يهمنا الوقوف على الحقيقة.

فقال اسحق — نعم ياسيدي وكان هذا الزواج الحادث الثاني في حياتي.

فقال هولمز — بقي عليك أن تقص علينا مسلك زوج أمك بعد أن عقد عليها.

فقال إسحق: اسمح لي أن أشرب قليلا من الشاي، فانني لم أتذوق شيئاً منذ ثلاثة أيام

فابتسم هولمز وأسرع بنداء كامل وقال له: وقد حضرت من بورنموث حيث تقيم بمفردك إلى هنا في مركبة (دوجكارت) يجرها جواد واحد

فضحك إسحق وقال: نعم وقد تركته باسطبل فولكنر وجئت سائراً على قدمي حتى بلغني المطر. يا ليتني عرفتكما منذ خمس سنين بعد بلوغ رشدي..

فقال هولمز: إن الوقت لحسن الحظ لم يفت

قال إسحق: أحسست بكراهة غريبة مبهمة لا أستطيع تفسيرها نحو سيروتينجهام زوج والدتي؛ وكنت أتجنب لقاءه بسبب الجفاء الذي كان يقع بيننا عند ما تتلاقى أبصارنا... بيد أنه كان بجميع تصرفه يستدر عطفي ويستدرج ولائي. وكان جميع أمره ينم عن رقة ودماثة أخلاق تخفي وراءها دهاء عميقاً وحذراً يقظاً. إذ أنه لما بلغت مبلغ الرجال أبى أن ينقص شيئاً من إرادتي الخاص، مما أنفق في تعليمي في إيتون وأكسفورد. واتفق ووالدتي على تقديم ثروتي وافر دخلها إلى منذ وفاة أبي كاملة لم تمس. فوجدت بين يدي في سن الشباب أموالا طائلة

ولكن هذه الأموال لم تغرني بشيء مما يغرى الشباب ، إذ كانت رغبة الثأر والانتقام لوالدى تتأجج فى صدرى كالنار المشتعلة . وكان كل همي موجها إلى معرفة القاتل . وهل هو على قيد الحياة؟ وما سبب جنايته على والدى المسكين ... ؟ ولكن كل ما انتهى إليه استقصائى كان أن والدى قد قتل غدراً بيد ذلك الرجل الذى يدعى روتشديل ، وإنه لا بد أن يكون انجليزياً أو أمريكياً كما شهد مدير الفندق وسائر خدمه . فاتصلت برجال سكوتلانديارد وبمستر مارشال هول ، وهو المحامى الذى تولى الدفاع عن حقوق ، وبلورد بروكلاند قاضى التحقيق الأول فأطلعنى على ملف الدعوى ولم يكن فيه أكثر مما عرفت . وأرشدنى إليك قائلا :

— إن مستر هولمز محقق جنائى هاو ولكنه أحذق من لخص قضية . فلما فاتحت مستر بارمور رئيس شرطة سكوتلانديارد أخبط عشوى زاعماً أن مستر هولمز فيلسوف نادر المثال ، له شطحات تقصيه عن المرمى وإن كان يصيب الأهداف أحياناً . ولكنها ليست القاعدة . وقال : « خصوصاً وإن حدة الجريمة أخذت تخف وتبرد فى الصحف والمنتديات ، وإن مستر هولمز لا يصلح للضرب على الحديد البارد » . ففترت همتى عن الحضور إليك . ولكننى الآن أعض بنان الندم ... ساءلت نفسى : أيمكن أن يضيع دم أبى هدراً ..؟ سار الأخذ بالثار محور حياتى ومعدق القدس ، ولكن كيف أنتقم ؟ فعدت لا أطيق المقام فى جو يعيش فيه وتنجهام ووالدتي ، فاتخذت مسكناً خاصاً وا كتفيت بزيارتهما فلا أزورهما إلا لماما

وفى أحد الأيام ناولنى الخادم برقية ممهورة باسم خادمنا الأمينة جوليا وهى التى تعهدتنى طفلا وسهرت على فتى ويافعاً . قد آثرت أن تعيش بعد وفاة أبي فى كنف عمتى فى الريف . وكانت نجوى هذه الرسالة أن عمتى مريضة جداً . فسافرت نواً إلى قرية كنيلورث ، وكانت جوليا أول من لقيني ، وكانت عمتى نائمة على فراشها ، فلما استيقظت رأتني وكان المرض قد أعجزها عن الكلام . فأشارت بيدها الكليلة إلى سوان إشارة فهمت منها أنها تريد أن أحضر منه صندوقاً فأحضرته وتناولته بيديها المرتجفتين وأخرجت منه حزمة من الرسائل وأتجه بصرها نحو المدفأ . ثم اعتدلت فى فراشها بجهد شديد وألقت بحزمة الرسائل لتكون طعمة للنار قبل أن يقرأها إنسان فى العالم . ولكن الرسائل لم تبلغ مدى النار ، فوعدتها أن أقوم بإحراقها فاستسلمت للنوم ولم تمض ساعات حتى لفظت آخر أنفاسها

واعتقدت أن تلك الرسائل ربما تلقى شعاعاً هادياً على سر مصرع أبي فلم أنفذ وصية عمتى لأن رغبتى الملحة فى الانتقام كانت أقوى من عاطفة الوفاء لوصية المرأة النبيلة

فقال هولمز : كانت هذه الرسائل بالطبع مؤرخة فى نفس العام الذى قتل فيه أبوك ، وكان اسم وتنجهام يتردد فيها بكثرة ، وكان والدك يصف حالته النفسية إزاء ذلك الرجل ، وإنه يحس بأنه يحب والدتك حباً قوياً ويخفيه بكره ودهائه ، وإن أمك بادلته الحب فتركت والدك مزاحمه على قلب زوجته ينشى القصر وهو يتعذب بعذاب الغيرة القاتلة !

فنهض إسحق أزموند من مقعده وضم مستر هولمز إلى صدره ضماً عنيفاً وقال له : أيها الرجل إنك تعرف أكثر مما أعرف فقل لى بربك من قاتل أبى ؟

فابتسم هولمز وقال له : هدئ روعك أيها السيد النبيل . إن الأمر ظاهر كالشمس فلم يكن رجل أفاد من مقتل أبيك سوى سير وتنجهام الذى صار زوجاً لأمك ، ولكن يموزك الدليل الحاسم

فقال أزموند : ولكن لم يخف هذا الأمر الواضح على هؤلاء البلهاء الرسميين فى سكوتلاند يارد ؟ إلا أن شيئاً هاماً طرأ على الموقف وهو مرض وتنجهام

2017-11-1

فى الأيام الأخيرة بنوبات قلبية

وبينما كنت أمس فى زيارة أبى وكان زوجها مريضاً قالت لى والدتى وهى تصحبنى إلى باب القصر إن النوبات التى تصيبه تزداد يوما فيوما وأن سببها أخ شقيق له مناصر فاسد الأخلاق فر من الجندية ثم ادعى أنه انتحر ؛ وساعده على هذه الدعوى سير ويتنجهام نفسه ليزيل عن أسرته هذه الوصمة . واستطاع هذا الرجل الشرير الذى بدد ثروته فى الحانات وبين النوافى أن يسافر إلى أمريكا باسم مستعار ولكنه عاد أخيراً إلى هذه البلاد معدماً وأخذ يتهدد أخاه ويصحب تهديده بطلب المال وإلا قدم نفسه للحكومة مثبتاً أنه لا يزال على قيد الحياة وأن الذى أعانه على الفرار هو شقيقه

فقال هولمز — من الواضح أن هذا الشقيق العابث المستهتر المتردى فى هاوية الرذيلة الذى يتهدد سير ويتنجهام حتى أصبح مصدر رعبه ليس إلا الرجل الذى تسمى باسم روتشديل وأنه قاتل أبيك بنفسه، وأن زوج أمك قد استغل انحطاطه وتدهوره فى تنفيذ جريمة القتل فلم يكن سوى الآلة التى نفذت الجريمة . فهبت اسحق ازموند وقال إذن ... فقاطعه شرلوك هولمز قائلا : هل لديك صورة للمرحوم والدك ؟ فبادر اسحق إلى إخراج غلاف من جيبه كانت فيه صورة أبيه فنظر هولمز إليها ثم إلى وجه محدثنا . وأشار إلى إشارة فهمت منها أنه يتأهب للخروج فى صحبة ازموند

فقلت لازموند : لقد طالت المهزلة . إن عمدتك هومستر هولمز نفسه أما أنا فصديقه دكتور وطسن وهو يريد أن يصحبك فضحك هولمز وقال :

— أردت أن تأخذ قسطك من الحرية فى مخاطبتى . وعليك الآن أن تعود إلىّ بعد ساعة مرتديا بثياب تماثل الثياب التى كان بها والدك يوم مقتله

فقال إسحق — لقد أخذت له هذه الصورة يوم مصرعه ولم نحصل عليها من المصور إلا بعد وفاته بشهر وقد علم باسمه من الصحف

فقال هولمز — لقد قدم لك قبل موته وسيلة لاتمام انتقامك، وسوف ترى . وخرج اسحق مهرولاً

وبدأ هولمز عمله فاتصل بالتليفون بالشرطة العامة والخاصة وبنصف فنادق لندن ، إلى أن اهتدى إلى مقر الرجل ؛ وكان الاسم الذى اختاره چون برود كاست وقد أفضت به لادى ويتنجهام نفسها لولعها وهى لا تدرى عاقبة الأمور

فقلت لهولمز — وماذا تريد الآن ؟

قال — أهاجر القاتل فى مكمنه . ولما كان الشبه بين اسحق ازموند ووالده شديداً فان ظهور النجل أمام القاتل فجأة سيلقى الرعب فى نفسه . ثم نناديه بالاسم الذى عرف به إذ ذاك وهو روتشديل . وعندئذ لا يجد مفراً من الاعتراف بسبب هذه المفاجأة

وفى تمام الساعة الثالثة بعد الظهر دخل علينا اسحق وهو فى صورة والده المتوفى منذ خمس عشرة سنة فدهشت، ولكن هولمز هز رأسه قائلا : إن قوانين الوراثة لاتخون ولاتكذب . وقال لاسحق : سأذهب معك فى هيأة تابع لك أحل حقيبتك . وانحدرنا إلى الشارع وركبنا « هانسوم كاب[1] »

وفى طريقنا سأل اسحق :

— هل تقبض عليه اليوم ونسلمه إلى الشرطة ؟

فأجاب هولمز — أبداً . إن تتلينا عليه سيوسلنا بسهولة إلى شقيقه سير ويتنجهام إذ أنه قبيل قتل والدك كان فاراً من الجندية ومقيما بأمريكا وكان فى نظر العالم قد انتحر . فلا بد أن زوج أمك أرسل إليه ببعض رسائل خاصة بتدبير الجريمة ليستقدمه إلى انجلترا وهذه الرسائل ذات قيمة عظيمة ، لأنها الحجة الوحيدة التى بيد قاتل أبيك الآن وهى التى يتهدد شقيقه بها لابتزاز ماله . فرغبتى الآن منحصرة

(١) نوع من مركبات الأجرة يكون سائقها خلف الراكب

2017-11-1

فى الحصول على تلك الرسائل من شقيق زوج والدتك بأى ثمن . أما القبض عليه فقد انتهيت هذا الصباح من الاستعراف عنه لأنه لا يتفق وخطتى ، إذ سيضطر المحققين إلى سؤال والدتك وهي فى اعتقادى بريئة من تدبير الجريمة . فتناول اسحق يد هولز وهم بتقبيلها وبكى . فقال له هولز : إننى أفهم عواطفك فأخرج الشاب من جيبه محفظة نقوده وقال له : هذه لك خذها . فرد هولز يده بلطف وقال : آسف ياسيدى إننى لا أتناول أجراً على عملى

وصلنا إلى الفندق وبقيت فى الممر الموصل إلى الغرفة التى بها الرجل الذى نعتقد أنه القاتل وأجهونا سويها ، ولم يكن لحسن الحظ بالبهو أحد . وفتح اسحق الغرفة فجأة وكان بها رجل مولياً ظهره للباب ، فلما فتح اتجه نحوه فصاح به اسحق ازموند : روتشديل

فمراه اصفرار مهول وتساقط العرق من جبينه وصاح صيحة مكتومة : ـ ازموند !

وقبل أن يأتى بأية حركة سوب هولز نحوه مسدساً وشهره بالقتل إذا تحرك . فلم يستطع الانكار طويلاً وقد ظن أولاً أن أخاه قد وشى به ليتخلص منه وقال : ماذا تريد منى ؟

فأجابه هولز : إنى أريد الرسائل وسأعطيك بها ثمناً سخياً لتهرب . أعطنى الرسائل فقط . فانهزم الرجل فرصة سانحة وقلب المنضدة وانقض على هولز فاشتبكا فى صراع عنيف فانتصر عليه هولز وقد أصيبت بثبات إسحق أزموند وفقاً لأوامر هولز ونواهيه ، فسلم الرجل الرسائل وأعطاه إسحق خمسمائة جنيه وسمح له هولز بالخروج على أن يغادر شواطىء انجلترا فى نفس اليوم وبعد أن خرج سأل إسحق مستر هولز كيف نسمح له أن يفر ؟

فقال هولز : إن شقيقه زوج أمك هو المقصود بالذات . وبيننا وبينه سيكون الموقف الفاصل .

وعدنا إلى ٤٠ بيكر ستريت فبدلنا ثيابنا وقصدنا تواً إلى مقر سير ويتنجهام فى قصر أزموند بسوث سكس . وكان سير ويتنجهام قد أبل من مرضه ، وزوجته خرجت لزيارة بعض صديقاتها فقصدنا تواً إلى غرفة المكتبة كما أخبرنا الخادم . فلما رأى الرجل ابن زوجته مد يده للمصافحة . فأبى أن يبادله التحية فدهش ولكنه لم يقل شيئاً وقال له إسحق أزموند : دعنا الآن من النفاق فقد ملته

فقال الرجل ماذا تعنى ؟ ومن هذان السيدان ؟

وبعد إطلاعه على الرسائل التى كتبها بخطه إلى أخيه استسلم إلى الاعتراف . فأعطاه إسحق مهلة يوم لينتحر انقاذاً لشرف المرأة التى ظلت بضع سنين زوجاً لقاتل زوجها الأول . فأبى ذلك وطلب بضعة أشهر متعللا بمرضه ودنو أجله

وقبل أن يتمكن هولز من أن يحول بينهما اندفع اسحق ازموند يجنون وتناول خنجراً كان كان معلقاً فوق رأس الجانى وأغمده إلى مقبضه فى قلب غريمه وهو لا يبى شيئاً مما يفعل .

فصرخ سير ويتنجهام صرخة مكتومة قوية أشبه بالزئير وكاد يحاول استخراج الخنجر من موضعه

فقال هولز : إنه متشبث بالحياة لأجل المرأة التى أحبها وأجرم فى سبيلها ، وبسرعة غريبة اتجه المطعون نحو مكتبه وكتب بضع كلمات على ورقة ثم سقط على الأرض ميتاً واتجهت أعيننا إلى المكتب وتناول هولز الورقة وكان قد كتب عليها

« سامحينى يا زوجتى الكريمة فانى قد انتحرت تخلصاً من آلامى وأمضى باسمه

فقال هولز : لقد أراد أن يخلصك من جرم مصرعه بأن يثبت انتحاره ، لا حباً بك ولكن ليلزمك الصمت فلا تعلم والدتك عن جرمه شيئاً وخرجنا دون أن يلحظ أحد شيئاً وكانت اللادى ما زالت خارج القصر

محمد لطفى جمعه

2017-11-11

عفو الملك أسركاف

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب نجيب محفوظ

كان الملك أسركاف من أجل ملوك الأسرة الخامسة الذين حكموا مصر حكماً اقترن فيه العدل بالرحمة والحزم بالكياسة والقوة بالمحبة ، وكان من سياسته — لدى أول عهده بالجلوس على العرش — أن عبأ جيشاً قوياً زحف به على الصحراء الغربية ليقضي على شوكة القبائل الرحالة التي أطمعها ميل الملوك السابقين إلى السلام — في نهب القوافل وسلب قرى الدلتا والاعتداء على الآمنين ، فانتصر عليها انتصاراً مبيناً وشتت قواها ورجع من غزوته بجيش من الأسرى وأثقال من الغنائم ، ووطد بذلك سلطانه وفرض هيبته وأعلى كلمة مصر وكفى أهلها شر القبائل المتوحشة ، والتفت في ظل السلام والطمأنينة إلى حالة البلاد الداخلية وأولاها عنايته وحبه ، فشق الطرق وحفر الترع وأقام لنفسه هرماً منيعاً في أسوان عاصمة ملكه ، فكان عهده عهد أمن ورخاء وتعمير ، وعاش الملك بين شعبه المجيد سعيداً مطمئناً يشع صدره ما يجد من حب رعيته له ويسعد أيامه ولياليه ما يلقى من إخلاص نفر من كبار رجاله يتفانون في محبته ؛ وكانوا له نعم المولى ونعم الصديق ، من هؤلاء سحورى ابنه وولى عهده ، وحروري رئيس وزرائه ، وسمن كبير كهنة الرب خنوم ، وسمنى القائد العام للجيش المصري

وكان من عادة الملك الصالح أن يذهب كل صباح إلى معبد خنوم للصلاة والعبادة ، وفي ذات مرة دخل إلى قدس الأقداس وخلا إلى تمثال الرب ولثم قدمه ثم صلى صلاة حارة وشكر الرب كثيراً وعدد آلاءه ونعماءه وختم صلاته بقوله : « الحمد لك يا أبي خنوم لما أوليتني من حب الناس وإخلاص الأصدقاء فإن حب المخلوق من رضا الخالق ، وليس أسعد في الدنيا ممن تسعد القلوب لسعادته وتشقى لشقائه »

ولأن الناس في تلك الأزمان كانوا يعبدون الآلهة بقلوب ملؤها الإخلاص والإيمان والسذاجة فقد كانت الآلهة تكرمهم بالحديث تارة وبالمعجزات تارة أخرى ، ولذلك لم يكن من الغريب أن يسمع فرعون صوتاً سماوياً يقول له :

— لقد منحتك حكمة أيها الملك فلماذا تطمئن إلى الناس كل هذا الاطمئنان ؟

فسجب الملك لقول الرب ودب الفلق في قلبه فقال في قنوت وخشوع :

— أيها الرب المعبود ... لقد خدمت شعبي بإخلاص فصدقني الحب ، ووفيت لأصدقائي فحق عليهم الوفاء لي ، فكيف يجوز لي أن أدع الريبة تفقأ إلى نفسي ؟

فقال الصوت السماوي الذي يجل عن الوصف والتشبيه :

— أنظر إلى الشجرة الموردة التي تملأ الجو بالأغصان وتتلفع بالخضرة اليانعة كيف يفيء الناس إلى ظلها الممدود يحتمون به من أشعة الشمس ويقطفون ثمارها الدانية ، وانظر إليها إذا جرد

2017-11-1

الشتاء عليها الرياح الباردة فتساقطت أوراقها وذبلت أغصانها وتمرت كآبة بالية لم يصنها تحنيط ، كيف يهجرها الناس ويقطعون أغصانها ليلقوا بها فى النيران ... !

وعاد الملك إلى قصره حزيناً كئيباً يستعيد ما قال الرب ويتأمل فى معانيه ، فيوسوس الشك فى صدره ويرن القلق على قلبه ، ومضى يستحضر ذهنه الوجوه العزيزة التى عاشرته الأعوام الطويلة فى مودة وصفاء — لأول مرة — فى هالات من الريبة تكشف خلف أحاديثهم الرقيقة عن أكاذيب مسمولة وتستشف وراء ابتساماتهم رياء مقيتا وترى فى فروض الطاعة التى يلزمها أثراً للرهبة والخوف ، وطفت موجة عارمة من سوء الظن على نفسه فجعل يرجع إلى الماضى السعيد المنطوى بأطياخ صفحاته الناصعة بقاذورات الظنة والشك فبدت له حياته التى آمن يوماً بأنها سلسلة من السعادات غفلت عنها عين الأقدار ... خدعة نكراء وشقاء تابساً خلف قناع سعادة زائفة

وفطن الأمير سحورى إلى حالة الملك الغريبة فتبلبل فكره وركبه الهم وسأل أباه عما يكدر صفوه وكان الأمير يحب والده حب عبادة ، وكان الملك يحب ابنه كأعز شىء فى دنياه ، ويثق به ثقته بنفسه فبثه حزنه ، وأفضى إليه بمخاوفه ، وروى له حديث الرب خنوم . واستولى الارتباك على الأمير ولم يدر كيف يطرد عن أبيه أشباح الشكوك ، وكان الملك لا ينقطع عن التفكير فقال لولى عهده :

— أنا لا أستطيع التنكيل بالمنافقين مالم يقم لى الدليل المحسوس على نفاقهم وقد اهتديت إلى طريقة أكشف بها عن خبيئة نفوسهم فاسمع إلى يابنى .

سأقوم من الغد برحلة إلى بلاد بنت ، فتول أنت مهام الدولة فى أثناء غيبتى ، وانتظر أياماً ثم أعلن نفسك ملكاً على وادى النيل ، وأطبع صحابتى فى جاهك ومالك وعدهم ومنهم كى يخفضوا لك جناح الذل والطاعة ولنر ماذا يكون من شأنهم ...

ولكن قلب الأمير نفر من تدبير فرعون واحتج قائلا :

— أضرع إليك يامولاى ألا تحملنى على موقف أشهر به عقوقى على العالمين ! وألا ترضى بنبية طويلة تحوم قلبى من طمأنينته وتسلب الشعب سهرك عليه وعنايتك به .

ولكن الملك أغمى على عواطفه وبدد مخاوفه وحمله على الرضوخ والاذعان وذهب إلى الملكة الشابة تاي — وهى غير أم ولى العهد التى ماتت منذ عهد بعيد — فودعها كما ودع كلبه الحبيب زاى ، ثم ركب سفينة تجارية أبحرت به إلى بلاد بنت المقدسة منبت البخور العبق ؟ وعاش عهداً غير قصير يتنقل بين وديانها الخصيبة فيلقى الاكرام والترحيب اللذين كان يقابل بهما رعايا فرعون أينما حلوا وحيثما نزلوا ... وكان لا ينفك يفكر فيما عسى أن يلقاه من رعيته وصحبه حين أوبته وكان كلما لج به سوء الظن وأورده مهالك الأوهام والهواجس فر إلى جبل الذكريات المنطوية يستمد ثقتها ويستلهمها الصبر والطمأنينة ، فلما أن ضاق صدره بالقلق والوساوس وغشيت قلبه وحشة الغربة عزم على العودة إلى وطنه فجمع متاعه القليل وأبحر على ظهر سفينة مصرية أرست به على شاطىء الأرض التى أفنى زهرة عمره فى سبيل إسعادها ، وقصد من توه إلى أقرب قرية واختلط بأهلها وهو فى ثياب

القرية حتى أنسوا به فسأل جماعة منهم يوماً قائلا :

— من ملككم أيها الرجال ؟

فأجابه شاب نفخت الشمس وجهه وفتل القماش ساعديه .

— المبارك اسمه سحورى

فسأله الملك :

— وكيف ترونه ؟

فقال الشاب بحماس أمن عليه رفقة ؤه :

— هو ماؤنا إذا النيل نضب وساعدنا إذا اشتد الخطب وادلهم

فسأله الملك :

— فكيف تذكرون أسركاف ؟ فقال :

— بالخير لولا أنه فى ميدان وملكنا فى ميدان

فتنهد الملك وسأله بصوت حزين :

— كيف خذلتموه وقد كان لكم نعم المولى ونعم النصير ؟

فدجه الشاب بنظرة قاسية وقال له وهو يوليه كشحه .

— إن العصيان شر لعنته الآلهة ...

فهجر الملك القرية حزيناً وسار إلى النيل إلى عاصمة ملكه ، وولى وجهه شطر معبد خنوم وطلب مقابلة الكاهن الأكبر سمن فدعى إلى المحراب ولما رآه الكاهن عرفه بالرغم من ثيابه القروية فبدت عليه الدهشة وتولاه الانزعاج وهتف بصوت مبحوح :

— مولاى الملك أسركاف

فابتسم الملك ابتسامة مرة تساخر وسأله كالمفكر

— كيف تدعونى بمولاك الملك وقد باركت بالأمس عاصياً غاصباً اغتصب عرشى ؟

فاضطرب الكاهن وزاغ بصره وقال بتلعثم :

— مولاى ، وما عسى أن يفعل رجل ضعيف مثلى لم يعد للقتال ؟

— ليس القتال فريضة على كل إنسان ولكن الوفاء واجب محتوم على كل رجل فاضل ، فكيف تخلد إلى خدمة من غدر بمولاك وولى نعمتك ؟

واشتد الارتباك بصديق الملك القديم واعتلته حيرة ، فلم يحر جواباً ، فقال فرعون :

— تستطيع يا سمن أن تكفر عن ذنبك بأن تعلن على الملأ عدم شرعية ولاية ابنى سحورى فتتقدم إلى خدمة بطمعى فى أدائك لما ماعهدته فيك من الوفاء فى عهد مضى

ولكن الكاهن ذهر وارتعب وقال بتضرع :

— لا أستطيع يامولاى ... إن واجبى خدمة الرب لا خلع الملوك

فصمت الملك لحظة يطارد بعينيه المستعرتين عينى الكاهن اللتين تتحاشيان النظر إليه ، ثم ولاه ظهره دون أن يزيد وترك المعبد كئيب النفس ضيق الصدر يمض أنامله حسرة وأسفا

وأسرع الخطى إلى قصر رئيس الوزراء حرورى وطلب الاذن بمقابلته ولكن الخدم احتقروا هيئته الزرية فهموا بطرده فتوسل وتضرع فما زادوا إلا استكبارا فقال لهم إنه صديق الوزير وسمى لهم اسمه يعلم أنه من المقربين ، فأذن له بالدخول وما إن وقع نظر الوزير على القادم حتى فزع قائما وقد أشاحت أطرافه واتسعت حدقتا عينيه وصاح بلا وعى :

— مولاى

فقال الملك بهدوء :

— طيب الرب أوقاتك أيها الصديق حرورى

2017-11-11

فاستولى الهلع على قلب الوزير وسأل مليكه السابق فى لهفة :

— هل رآك أحد وأنت تدخل بيتى ؟

فنطق الملك إلى الباعث على هذا السؤال وبدأ يستشعر اليأس والقنوط فقال :

— نعم أيها الصديق رآنى الخدم وجمع غفير ممن يجتمعون ببابك

فسأله بصوت يحمه الفزع :

— وهل عرفك منهم أحد ؟

فقال الملك :

— لا أدرى

فصاح الوزير :

— واضيعتاه لو علم الملك بزيارتك لقصرى

— وهل تخاف هذا الناسب الباغ ؟

— كيف لا ؟ أتوسل إليك أن تغادر قصرى من الباب الخلفى

— أو تطردنى أيها الصديق حرورى ؟

— معذرة يامولاى ، إن ظرفى دقيق وإنى أضرع إليك باسم صداقتنا القديمة

فضحك فرعون ساخراً ، ورأى رئيس وزرائه فى حالة من الهلع يرثى لها فلم يجد به من فائدة ترجى ولم ير بداً من مغادرة القصر من حيث أراد صاحبه فغادره وقد اعتلاه الحزن وران على صدره الندم...

ولم يبق من أصدقائه سوى القائد سمنرى ، وبالرغم مما حل به من الفشل لم يقو سوء ظنه وحرارة نفسه على زعزعة ثقته به لأنه كان رجلا شهما باسلا وعظيم الاخلاص ، ميزته الأرباب بطبع لاتطمع فيه الخيانة ولا الدنايا، فقصد إليه ببقية أمل وطلب الاذن بالدخول عليه . ولما وقعت عليه عيناه حن قلبه إليه فصاح به وهو يفتح ذراعيه له :

— أيها القائد سمنرى ... ألا تذكرنى ؟

وبهت القائد وقام واقفا مزمجماً وقال بدهشة :

— مولاى الملك أسركاف

فقال فرعون برجاء :

— نعم هو بذاته ويؤسه وأسفه

ولم ير القائد ذراعى الملك المفتوحتين وبدت على وجهه آى الصلابة والشدة ، فسأل مليكه السابق بجفاء قائلاً :

— هل يعلم جلالة الملك بدخولك مملكته ؟

فبهت أسركاف وسقطت ذراعاه فى خيبة مرة وقال باقتضاب :

— كلا

فسأله القائد بلهجة أشد من الأولى :

— وماذا جئت تفعل فى مصر ؟

فقال الملك :

— جئت أستصرخ أصدقائى القدماء

فتقدم القائدمن فرعون وقال بلهجة عسكرية :

— إن واجبى كقائد للجيش المصرى يقضى على بأن ألقى القبض عليك باسم الملك

فقال له أسركاف :

— ألا تعلم أنى أنا الملك الشرعى . فقال القائد وهو يضع يده على كتفه :

— إن لمصر ملكاً واحداً لا أعرف سواه

وأيقن فرعون بعبث الجدل فاستسلم القائد وترك له نفسه يسير به إلى القصر الفرعونى ودخل القائد إلى بهو العرش يسوق بين يديه الملك ، ورأى أسركاف ابنه جالساً على عرشه ومن حوله رجال مملكته وعلى رأسهم حرورى وسمن فعلم أنهما بادرا

إلى الثغول بين يدى مولاهم ليبنأه بظهوره ، وحد فى نفسه مجيئهما ليشهدا ويشهد معهما القائد صعوده إلى عرشه وتسلمه الأمانة التى أودعها يدى ابنه الأمينين فينوقوا جميعاً مر الحزن والمار وتذهب نفوسهم الحبيبة حسرات وتتقطع ندما ...

ونظر الملك إلى ابنه وابتسم إليه ابتسامة ذات مغزى عظيم وهم بالكلام لو لا أن سمع نباح كلب عالياً ورأى زاى يتخطى صفوف الحرس ويهرع إليه بقوة لا ترد ويثب عليه بيديه ويوسعه حنيناً دل على الجوى والشوق ، وما استطاع أن يهدئ ثائره ويطيب خاطره إلا بعد جهد جهيد، وغلب التأثر على الملك فتقدم إلى عرشه بخطوات ثابتة حتى أوقفته أيدى الحرس ، فاستولى عليه العجب ونظر إلى ابنه وقال:

— قم يا بنى فقد انتهت تجربتى ودعنى أمشل بهؤلاء المنافقين

ولكن ابنه لم يقم ولم يتدخل له عن مكانه وقال له بعظمة السلطان :

— ماذا جئت تفعل هنا أيها الرجل الذى أعطته الآلهة ملكا واسعاً فنهاون فى حقه وذهب يلهو فى بلاد بنت ؟

فوقع قول الابن على أبيه وقوع القضاء، فانسدت عيناه وجرت فيها الدهشة والجنون وجعل يقلب وجهه الذاهل بين ابنه المنجرف ورجاله الشامتين. ولم يصبر عليه ابنه فقال له بقسوة :

— يحق لى الآن أن أفصل رأسك عن جسدك ولكنى لا أنسى أنك أبى ولا أحب أن أرتكب تلك الجريمة التى تستنكرها تقاليدنا فأوسع لك من صدرى صبراً وأمهلك يوماً تعد فيه عدتك ومن ثم تنفى إلى بلاد النوبة ...

وأفلت الحاشية على بر الملك ولهجت ألسنتهم له بالدعاء ؛ أما أسر كاف فقد اشتد عليه البلاء حتى ألجم منه اللسان وشلت الأعضاء ، وكان زاى قد أحس بأنه لجمل ينبح ويتحسس عباءته التى عفرها التجوال

وأفاق الملك إلى نفسه فثار على ضعفه وتمالك زمام نفسه وقال لابنه :

— والملكة تاى ؟ . فقال له ابنه :

— هى الآن ملكة مصر السعيدة

فتنهد الملك وقال :

— هل أطمع فى أن تأذن لى فى اصطحاب زاى ؟ فقال :

— تلك هذا فقد ضايقنا بنباحه !

وغادر الملك أرض مصر ملوماً محسوراً يقلب كفيه من الألم والحزن وسوء المصير وولى وجهه شطر الجنوب يتبعه كلبه الأمين وحط فى بلاد النوبة وعاش بين جبالها فى عزلة رهيبة لا يكلم إنسياً فاذا ثقل عليه الهم والألم بث شكواه الخالق الوحيد الذى صدقه الحب ومحضه الوفاء واحتمل وحشة العزلة صابراً من أجله

ولم يدعه حاكم النوبة المصرى فى عزلته طويلا فزاره ودعاه إلى زيارته ولم يخف عنه المودة والاكرام وما لبث الملك أن اكتشف خبيئة نفسه فوجده حاكما متذمراً يرى منصبه فى بلاد النوبة غبنا له وسوء تقدير لخدماته ومؤهلاته . فالتمع فى قلب الملك بارق أمل فاستنزل سخط الحاكم ووعده ومناه حتى حمله على تجريد حملة من النوبيين والمصريين، سارا على رأسها صوب الشمال ، وأعد الملك سحورى جيشا لتأديبهما والتحم الجيشان فى معركة فاصلة حالف

النصر فيها الملك أسركاف فدخل عاصمة ملكه فاتحاً وقبض على ابنه وأصدقائه القدماء وأودعهم غيابات السجون ...

ولما علمت الملكة تاى بانتصار جيش زوجها السابق تولاها الخوف فقتلت نفسها وفوتت على الملك فرصة الانتقام منها ، على أن الملك لم يرض أن يبت فى أمر من الأمور ولا أن يقرر مصير أحد من أسراه إلا حين يسكت عنه الغضب وتهدأ ثورة الانتصار فى نفسه ويجد فرصة طويلة للتروى وسهلة للتفكير . وسهر ليلة طويلة يفكر ويديم التأمل حتى اهتدى إلى رأى ...

وفى الصباح أمر ابنه وصحبه فجيء بهم إلى عرشه وكانوا جميعاً منكسى الذقون زائغى النظرات ترهقهم ذلة وتشملهم قنوط . فتأملهم الملك ملياً وعلى شفتيه ابتسامة غامضة ثم قال بهدوء عجيب :

— لقد عفوت عنكم جميعاً

فاستولت عليهم الدهشة ولم يصدقوا آذانهم ونظروا إلى الملك الجالس على عرشه بتهيب وتبادلوا نظرات التعجب والحيرة وعدم التصديق ، فقال الملك بهدوئه العجيب :

— إنى أعنى ما أقول أيها السادة ، لقد عفوت عنكم فعودوا إلى مناصبكم وباشروا أعمالكم بالهمة والاخلاص اللذين عهدتهما فيكم

ولم يستطع حاكم بلاد النوبة صبرا فقال :

— أتعفو يا مولاى عمن اغتصب عرشك وطردك من مملكتك بلا رحمة ؟ أتعفو عنهم يامولاى وما زال حالقا بأرديتهم أثر الدم الذى سفكوا فى قتالك ؟

فابتسم الملك وقال بتهكم :

— من لى بولى عهد جديد ؟ ومن لى بكاهن أتقى من نمن أو وزير أقدر من حرورى أو قائد أبرع من سمنى ؟ بل يا ليت الملكة تاى لم تسارع إلى القضاء على نفسها إذاً لأجلستها إلى جانبى على هذا العرش مرة أخرى ، أما الاخلاص أيها الحاكم فقد أمسيت أسىء الظن بجميع البشر ؟ ولست أعظم ثقة بك نفسك منى بهؤلاء ، وإن جميع الناس ليأوون إلى ظل الشجرة المورقة فاذا عرّاها جدب الشتاء هجروها غير آسفين ، ولن يجدينى قتل هؤلاء قتيلا كلا ولن يبدلنى بهم من هم خير منهم

وعاش الملك أسركاف بقية عمره فى عزلة قلبية لا يؤنس وحشتها قصر آبو ولا الجم الغفير من الشعب والحاشية الهم إلا ذاى الصديق الأمين !

نجيب محفوظ

التصوف الاسلامى
فى الادب والاخلاق

بقلم الدكتور زكى مبارك

يقع هذا الكتاب فى مجلدين كبيرين وثمنها معاً أربعون قرشاً ، وهو يطلب من المكاتب الشهيرة فى البلاد العربية ويطلب بالمجلة من مطبعة الرسالة

الفن

أقصوصة مصرية
بقلم الأستاذ محمود بك خيرت

كان التمثيل والغناء والموسيقى فيما مضى من الفنون البغيضة فى عيون الطبقتين الراقية والمتوسطة، يُنفى أفرادها عنها ويحتقرون من يزاولونها حتى لقد طرد أحد الآباء زميلا فى أراد الالتحاق بقسم الموسيقى من مدرسة الصناعات لأنه يمتهن حرفة « المزيكا » . وكم ذاق الأمرّين من أبيه زميل آخر كان يقطع ليالية بالجرى خلف الحفلات التى كان يحييها المرحومان عبده الحمولى ومحمد عثمان . وذلك لأن أولئك الناس كانوا البقية من رجال العهد القديم لم تفتح أعينهم على النور ولا تذوقوا ما لهذه الفنون من معانى الجلال والجمال والسحر . ولذلك كانت من نصيب فقراء البلد لأنها من بعض وسائل العيش والارتزاق . وكانوا على كل حال أقرب إلى الأميين ، حتى فكر الطلبة فى ترقيتها والنهوض بها، فألف بينهم جمعية أطلق أعضاؤها عليها اسم « جمعية إحياء التمثيل »

وكان لرئيس هذه الجمعية صلة وثيقة بوجيه يسرى له دار فسيحة فى حارة قواديز على مقربة من شارع الناصرية بحى السيدة زينب، فسمح له — ولكن على كره — بالاجتماع مع زملائه فيها

وما كانت كراهية هذا السرى إلا لأنه من بقايا ذلك العهد، ولأنه شيخ درج على التقوى والعبادة، فكان فوق مقته هذه الفنون بحكم طبيعة عصره يرى فيها صارفا عن ذكر الله وعادة من مواد اللهو لا تثمر غير العبث . ولكنه مع ذلك كان يلبى رجاء رئيس الجمعية فى حضور جلساتها للوقوف على ما يدور فيها ولسماع ما يلقيه أعضاؤها فى كل أسبوع من القطع المختارة، فكان يعجب بالمرحوم عبد الرحيم [1] عند ما يمثل قطعة (مكبث) التى يخاطب فيها خنجره، وبالمرحوم محمود مراد [2] وهو يمزق على المكان، كما يعجب بنيرهما من الأعضاء، حتى إذا رأى أن ما يمارسونه يجرى فى حدود الاحتشام ويسمو بالنفوس إلى سماء التهذيب لم ير بأسا من الإذن لحفيدته « فتنة » بالحضور معه فى تلك الجلسات

وكانت فتنة فى الثالثة عشرة من عمرها سبوحة الوجه مشرقة الجبين ساحرة العينين رودا ناعمة ، يبشر جمالها بأن سيكون له من اسمها فيما بعد نصيب، وعنى جدها بتعليمها فى المدرسة ثم حجزها ورتب لها معلمين يستكملون ثقافتها

وكان الدَّوْر فى إحدى جلسات الجمعية على فتى فى السادسة عشرة من عمره اسمه زاهر يمثله إخوانه حيياً خجولا، فكانوا فى شوق إلى مشاهدته وهو يمثل، وينتظرون أن يحكموا على مبلغ فوقه فى اختيار القطعة المكلف بإلقائها، وعلى ما إذا كان حياؤه سيقف حائلا دون ما هو آخذ به. حتى إذا دق الرئيس الجرس أقبل عليهم قسّيس فى أعمال ممزقة له شعر غزير ولحية طويلة علاها الشيب ، وعلى إحدى عينيه عصابة من خرقة بالية ، ويده عكاز يتكىء عليه ويهتدى به وقد تقوّس ظهره وهو يخطو نحوهم يخطى مضطربة بطيئة ، حتى إذا ما توسط المكان أخذ يروى لهم قصة حياته :

(١) ، (٢) كانا من أساتذة التعليم بوزارة المعارف

« يا لَظلام الحظوظ ويا لقسوة الأقدار . لقد كنت آمناً مع زوجتي وأولادي . وكنت في أيام الآحاد أعظ أهل القرية وأفتح عيونهم على طريق الهداية ، وأحذرهم عصيان الله ونزوات النفس . حتى إذا كانت ليلة من ليالي الشتاء سادها الظلام وخيم عليها السكون — إلاّ ما كان يتخلله من خفيف الأشجار ونباح الكلاب — اشتد المرض بامرأتي فتقلّص وجهها وذبلت عيناها وانعجم لسانها . كانت تحتضر وأولادها حول سريرها يصرخون ويبكون

في تلك اللحظة لم يخامرني شك في أنها مقبلة على ساعتها الأخيرة ، فخطر لي أن أقوم بحقوها بواجبي كقسيس ، فسألتها أن تعترف بما يكون قد فرطت فيه لأغفر لها . ولكنها كانت تحملق فيّ وكأنها تفر من الكلام ، حتى إذا ألححت عليها وألححت عليها منيتها أيضاً استجمعت ما بقي لها من قوة وقالت كلمة واحدة كان فيها الشقاء الذي ركبني إلى اليوم : إن هؤلاء ليسوا بأولادك ...

عندئذ انخلع قلبي وطار صوابي وانقسمتُ إلى رجلين أحدهما زوج يجروح يريد أن ينتقم ، والثاني قسيس فرض الله عليه الصفح والرحمة . وهكذا قامت في نفسي حرب بين عاطفتين نبتت إحداهما من الأرض ، وهبطت الأخرى من السماء . حتى إذا بقي الزوج واختفى القسيس هممت بالانقضاض عليها ولكنها كانت قد أسلمت الروح ...

في تلك اللحظة الهائلة أظلمت الدنيا في عيني ونسيت وجودي فلم أشعر إلا وأنا أتسلق جبل القطم أعيش فيه بعيداً عن شرور الناس

وكانت أستانه عند ذلك تمسكك وجسمه ينتفض وقد أفلتت عصاه من يده فوقع على الأرض كتلة هامدة . وعندها دوى المكان بالتصفيق وأقبلنا عليه نهنئه ، وهو فوق قيامه بأداء مامثل كان الواضح لهذه القطعة الفريدة ، فكان نجما متألقاً في سماء التأليف وفي سماء التمثيل

أما صاحب الدار فكان أول من أسرع ليطمئن عليه وينهضه ، ثم انتقل به إلى حيث كان يجلس وحفيدته تنظر إلى هذا القسيس البائس وعلى ملامح وجهها دلائل التأثر كأن ماحدث به حقيقة واقعة ، حتى إذا ما نزع الشعر المستعار عن رأسه والتحية التي استعان بها في مهمته صاح عبد المجيد بك :

زاهر ! أنت زاهر ؟ تعال يا بني تعال . فلقد خيّل إليّ أن ماسادفك لم يمد الحقيقة حتى أشفقت عليك وأسرعت نحوك . رحمة الله على أبيك فقد كان نعم الصاحب ونعم الجار . الحمد لله على أني ظفرت بك واستلأت نفسي منك . لم انقطعت عني يا زاهر وأنا كمك ؟ ألم تكن تلعب وتلهو مع فتنة وأنتما صغيران ؟ بالله لا تقطع بعد ذلك زيارتك عنا فإنها تبعث في نفسي الرضى وتذكرني بالمرحوم أبيك

وعند ذلك سكت وهو يفكر ، وأمسكت فتنة عن الكلام أيضاً وتيار تفكيرها يتجهُ إلى هدف واحد هو زاهر . كان الشيخ يوازن بين ما أصبح يحمله من أثقال الشيخوخة وبين شباب هذا الفتى الناضر وكل ما في وجهه يضحك للحياة ويبتسم للأيام . يقول في نفسه : لقد كان لي مثل هذا الشباب فمن لي به أشعر عنده في كل خطوة من خطواتي بالحياة وأنا لا أفتح عينيّ كل صباح إلا على أمل ولهو جديدين ، ولكن الناس لا يعرفون قدر الشباب الذي يمرحون في سوجه إلا بعد أن يولي وهم يباهون بما يحسّونه من قوة الصبا حتى أن كثيراً من رفاق بالمدرسة كانوا يحملقون في قرص الشمس متنافسين فأصاب أكثرهم العمى . ومنهم من فقدوا أسنانهم البيضاء القوية قبل الأوان لأنهم

2017-11-11

كانوا يرفعون بها الأثقال والمقاعد وما خلقت عيوننا ولا أسماعنا لمثل ذلك

— قل لي يازاهر . ما الذي شعرت به وأنت تمثل دور هذا الشيخ الفاني ؟

— لا شيء وكل ما كنت أفكر فيه هو أن أتقن تمثيله

— ألم تلفتك هذه الصورة المستعارة إلى ما أنت فيه من نعمة الشباب ؟

— أبداً ياعمي

— لقد كنت تكذب الآن على شبابك يازاهر، وسيأتي يوم أرجو أن يكون بعيداً لا تحتاج عنده إلى تمثيل هذا الدور . ليتني كنت اليوم أمثله مثلك. أحني ظهري فأذكر اعتدال قامتي؛ وأخضب بالبياض رأسي فأنتبه إلى سواد لمتي ؛ وأرسم الأسارير على جبيني فأهتز نشوة من نعومة بشرتي ؛ وأتكلم والمي يلاحقني فأحمد الله على ما حل من عقدة لساني . اذكر الآن وماء الشباب يتدفق في جسمك النضير أنه سيأتي عليك يوم تبكيه حين لا تجده. نفذ لشبابك القائم من مشيبك المستعار، ومن غدك المجهول ليومك الحاضر .

أما فتنة فكانت في حيرة من هذا النسيس المحطم كيف انقلب في لحظة فتى مليح القسمات رشيق الحركات، يجري في بشرته ماء الحياة الدافق، وتبدو على وجهه نضرة الشباب البتسم ، ويشع من عينيه الدابلتين السحر حتى لكأنه وردة بهية أطلت من خلال أشواك ذلك النسيس . ولكنها ما كان ليخطر على بالها أنه سيكون له يوماً ما ذلك النصيب ، ولا أنها سيأتي عليها يوم تصبح عنده كجدتها التي هرمت وقضت . وذلك لأن النفوس المخمورة بسكر الشباب والنعمة لن تفكر في سواها .

وكان زاهر في خلال ذلك مطرقاً صامتاً ولكنه كان يخالسها النظر، وهي تحس ذلك فينطلق بها الخيال إلى الأيام الأولى التي كان يضمها وإياه فيها ذلك الفناء الفسيح تمتد في جوانبه كالأرنبة البيضاء البضة وهو يلاحقها وهي تحاوره حتى إذا أخذ منهما التعب اتجها إلى متكأ خشبي وأخذا يفرطان أوراق الورد القطوف من الحديقة وينثرانها على الأرض فيتذمر الخادم لانه راه إلى كنسها، ولكنها تضحك بملء فيها قائلة : وهل تكره يا عم رجب أن نكنسو لك سطح هذه الأرض بالورد ؟ وعند ذلك يهتز لجوابها الظريف ويدعو الله أن يعيش حتى ينثر هو الورد تحت قدميها في يوم زفافها إلى زاهر ، وعلى أثر ذلك تفرق هي وزاهر في ضحك بريء تكرير الماء الصافي .

ومن غير شك أنها كانت لا تفهم الزواج معنى إلا أن مصير كل فتاة وفتى إليه على ما تسمع من جدها وجداته . أما الآن فقد أخذ معناه ينكشف لعينيها شيئاً فشيئاً انكشافاً بطيئاً مبهماً ، إلا أنها كانت تشعر مع ذلك بأنه حال من أحوال الحياة لا غنى عنه . وسيأتي يوم قريب تكتمل فيه أنوثتها ورجولته فتستيقظ في نفسيهما عاطفة أخرى تجعل من الزواج سعادة وجنة

ولقد ظلت فرقة إحياء التمثيل تجتمع في دار جدها ثم انتقلت منها إلى سواها حتى كتب لها التوفيق والنجاح بعد خمس سنوات كانت بأكورة جهودها بعد الاعلان عن تمثيل رواية روميو وجولييت في دار الأوبرا بالاشتراك مع بعض الممثلات المحترفات

***

لم يقع اختيار الفرقة على هذه الرواية إلا لأنها مأساة أسهل من سواها في تمثيلها وأشد تأثيراً في نفس الجمهور فهي أقرب إلى الظفر بإقبال

ولكن زاهر الذى أسند إليه دور روميو لم يكن ليكتفى فى القيام به بالقدر الضئيل الذى اكتسبه من طريق المران، ولذلك عكف على دراسة هذا النوع عند الاغريق وعند الانكليز والفرنسيين

والاغريقيون تفتنهم المحاسن فهم يتوخون فى حوادث التاريخ البساطة لأنها من خير الوسائل فى إظهار جمال الخطوط ونبل الأوضاع . أما الانكليز فولعون بالحوادث العادية ولكن المعقدة ، لتكون خواتيمها أشد تأثيراً ، على عكس الفرنسيين الذين يكتفون بأبسط الحوادث يرتبون نتائجها على مقدماتها فى أسلوب منطقى حكيم . وهكذا كان لكل من هذه المآسى الثلاث وحدة خاصة ومعيار مستقل ، فتتأثر بجمال الفن وعظمته عند الاغريق ، وتدرك دقة الملاحظة فى دقائق الحياة عند الانكليز، وتلمس عند الفرنسيين سلامة الذوق فى أسلوبهم المنطقى . ثلاثة رؤوس شاخة تزينها أكاليل من الجمال والحياة والحكمة

وقد لا تخرج جميعها عن فتاة وفتى جمع بينهما الحب ولكن حال بينهما حائل من الواجبات كما تجيون وهيمون عند الاغريق، وروميو وجوليت عند الانكليز، ورودريج وشيان عند الفرنسيين. فهى على ما يظهر تستق من معين واحد، ولكن نتائجه تحمل طوابع خاصة لتعدد الأساليب المتبعة فى كل منها ، فتجد فى المأساة الفرنسية حرباً عواناً بين خلجات النفس وبين مطالب الواجبات، وهما عاطفتان متباينتان يتوقف مصير كل منهما على الشرارة التى تنبثق من اصطدام إحداهما بالأخرى . أما روميو وجوليت فلا يخوضان مثل هذا الصراع العنيف وقد طواهما سلطان الحب العاتى فيقتحمان ما يعترضهما من الموانع بخطى عمياء لا يسمعان فى خلالها غير صوته، وهما يتناجيان وسواعدهما ممدودة متوثبة للعناق حتى تحجبهما ظلمة القبر، هذه الظلمة التى أخفى هيمون جثة حبيبته فيها عن حساده لتستقبل شفتاهما عندها قبلة النوم الأبدى الهادئ

وعلى أثر هذه الدراسة انطلق زاهر يتفهم موضوع دوره ثم أكب على حفظه ، وأخيراً أخذ يجرب تمثيله أمام مرآة اشتراها لهذا الغرض ليرى بعينيه كيف يروض مخارجه على النبرات التى توجبها مقتضيات الالقاء، وكيف يوزع على أعضائه وأطرافه الحركات التى تتفق مع هذه المقتضيات . ولكنه مع ذلك كان لا يزال يشعر بخلو تمثيله من الحرارة والروح فى شتى العواطف التى تتخلل موقفه من حب وحرق، وحزن وبكاء، وجفوة وعتاب، إلى غير ذلك مما لا يمكن استعارته أو تقليده أو خلقه

وكان الخجل والحياء المتأصلان فيه من الأسباب القائمة فى وجه نجاحه حتى أنه كان إذا رفع صوته فى مواقف الشدة ظل ضعيفاً منخفضاً كالشخص الذى يعانى فى النوم كابوساً يضغط على صدره فيخيل إليه أنه يصرخ ويستنجد وصوته مع ذلك لا يصل إلى سمع أقرب الناس منه

وما كان هذا ليمنعه من الاقبال ثانية على المرآة والعودة إلى مخاطبة نفسه فيها، ولكنه يجد أنه لم يخط خطوة جديدة فى طريق الاقتراب من الحقيقة وساعداه يتحركان حركات آلية كأنهما ليسا منه، وفمه يخونه فى إخراج عباراته على ما يجب، كأنما قد سكنه طاقم جديد من أسنان صناعية يعوق أداء المخارج صحيحة متزنة . وهكذا تثور نفسه وينقلب عليه يأسه فيلعن التمثيل ويلعن الفن ، ويخص باللوم والتأنيب زميله عبد الرحيم الذى خصه بهذا الدور

ولكنه يرجع بذاكرته إلى تاريخ (المسارح) فيجد من بين الممثلين من كانوا مضرب المثل فى النبوغ مثل راشيل وتالما وفريدريك لومتر الذى

مثل ذات ليلة دور أسد ثار ألفى الرعب فى قلوب الحاضرين حتى أغمى على بعض السيدات ، ووضع فريق آخر أيديهم على قبضة مسدساتهم، فلما أدركوا أنه لم يكن غير فريدريك أخذوا عند باب الدار يشيعونه لكان كان يستقبلها بصدره مبتسما نشوان وهو يراها أثراً جديداً من آثار نجاحه

وعند ذلك يتساءل كيف أمكن لهؤلاء أن يصلوا إلى هذا الكمال ؟ وكيف دان لهم التوفيق بين إلقائهم وحركاتهم وبين الصور المختلفة التى وضعها المؤلفون مع تدرجها من الشدة إلى اللين، ومن الثورة إلى الحلم والاسترخاء، وغير ذلك مما لا يظفر به الممثل إلا إذا غاب عن نفسه وأسبح شخصاً آخر يتقمص كل هذه الصور ويفنى فيها ؟ إنه حاول كل سبيل للوصول إلى هذه الغاية فخانه أمله وقعد به جهده

وعند ذلك يجد أنه لا فرق بين أساليب المؤلفين وبين علامات الموسيقى وهى لا تعطى أكثر من تسجيل اتجاهات الألحان التى وضعها بيتهوفن وليست وموزار وغيرهم دون أن ترسم سر الطريقة الفنية Technique التى صرفت أصابعهم عليها ، وما كانت إلا الروح التى بثها وحيهم فيها عندما كانوا يمزقون تلك الألحان

وهكذا يشرق جبينه وتتقد عيناه وقد اهتدى أخيراً إلى أن الممثل لا يخرج عن اثنين، أحدهما لا هم له إلا غنا كان الفن (Acteur d'art) فهو مقلد مشغلف؛ والثانى ممثل يغمره وحى العاطفة فيخرجها فى ثوبها القشيب الطبيعى ، إذ شتان بين من يصور للناس روميو فى موقف غرامه وشقائه ، وبينه هو وهذه العاطفة تنبثق من نفسه الواجدة المذعنة

وأخيراً ينتهى الأمر به إلى أن ممثل الحب يجب أن يكون هو أيضاً قد جرّب الحب ونعم بجنته واكتوى بناره، فمن أين له هذا وواقع له ولا انتمس فيه ؟ بل إن السيدة التى خصصت لدور جولييت لتؤديه معه لم تكن غير امرأة جاوزت الأربعين ، ولم يكن على وجهها أثر لحسن ولو قديماً . وهى فوق ذلك من تلك الطبقة الجاهلة التى لا ينتظر منها أكثر من أداء دور ما على أية صورة كانت، فمثل هذه لا تشجعه ولا تنفخ فيه من تلك الروح التى لجولييت، حتى إنه كان إذا وقف يخاطبها شعر بالوحدة وأغمض عينيه لكيلا يقع بصره عليها فيضطرب ويفلت زمام الأمل الباقى فى نفسه من يده

وكان موعد التمثيل قد اقترب، فأخذت الصحف اليومية والمجلات تفيض فيه باعتباره حادثاً قومياً فذاً يمتّ إلى نهضة جديدة ويسد فراغاً فنياً كان لا يزال داعياً إلى الأسف . وأخذت كذلك تذكر أسماء الممثلين ونشأة كل منهم ومقدرته وما ينتظر على يدهم فى هذه الخطوة المباركة الجديدة

ومن هذه المجلات علمت فتنة أن رفيق صباها سيكون بطل هذه الرواية الخالدة . بل بطل ذلك الحب القديم عند روميو والجديد عندها، وقد بدأت بالميل إلى هذا الفتى الجميل الغريب . ولكنها كانت تقول فى نفسها إن تلك السورية[1] التى ستمثل معه لأوفر منها حظا وأكبر سعادة؛ وستسمع أذناها أول أحاديث الحب التى كانت هى أولى بها منها . وعند ذلك ينتفض جسمها ويخفق فؤادها . وتقول بعد ذلك إنه لولا جود شموره وتحجر قلبه لما انقطع عن زيارة جدها وقد أذن له بها . ولكنها لا تلبث

(١) لم يكن للمصريات فيما مضى نصيب من التمثيل كما هو حاصل اليوم

أن تلتمس له الأعذار وزمنه ذهب بين المصلحة التي يعمل فيها، وبين مناهب المسرح التي يمانيها، فتتجدد الرغبة في نفسها إلى مشاهدة تلك الرواية، بل إلى مشاهدته هو والناس معجبون به مصفقون لنبوغه

وإذا كانت فتنة قد اطمأنت نفسها إلى تلك الأعذار التي تبرعت بها، إلا أنها مع ذلك كانت مشدودة الأعصاب حزينة مهمومة، حتى أنها قصدت إلى سريرها واستسلمت للنوم والأحلام والحيلة بين يديها

وكان جدها بعد وفاة أبويها لا يتناول طعامه إلا إلى جانبها، فلما لم تحضر إلى المائدة وعلم أنها نائمة دهش لأنها كانت لا تذهب إلى سريرها عادة إلا بعد تناول طعام العشاء بساعة أو ساعتين، فهم إلى غرفتها، ولشد ما كانت دهشته حين رآها في نومها تتهد وتبكي. حتى إذا تناول الحيلة التي أغلت من يديها وجد من بين كفها شرحاً ضافياً عن زاهر وعن ذلك الاحتفال ... ولكنه في صباح اليوم التالي كتم عنها ما وقف عليه وأذن لها بالذهاب في عربته إلى حديقة الأسماك لتروح عن نفسها قليلا

ولم يكن ذلك اليوم يوم أحد أو جمعة يقبل الناس فيها على هذه الحديقة؛ وكان ذهابها عند الصباح الذي ينصرفون فيه إلى أعمالهم، فأخذت فتنة تتمشى رويداً رويداً في سروج الحديقة المكسوة بالعشب والشمس تمكس أشعتها على ما غشيه من الندى فتحيله قطعاً منتثرة من ماس متألق وعاج

ولما أحست النحب خطر لها أن تستريح قليلاً في إحدى حجرات (الجلباية) وكانت كلما خطت خطوة تسمع صوت تلاوة غريبة يقترب منها أو تقترب منه، حتى إذا وقفت عند الحجرة التي ينبعث منها الصوت شمرت بالنبطة تتمرها والنشوة تتمشى في جسمها، لأنه كان قريب الشبه من صوت حبيبها. وكان يتمشى وظهره إليها، فلما دار ليعود وهو يقول: جولييت — سمع خارج الحجرة صوتاً ناعماً يقول له: هاأنذي يا روميو. وعند ذلك أسرع نحو فوهة الحجرة فاذا به إلى جانبها. فكانت مفاجأة سارة لم تخطر بباله ولا ببالها

— أنت هنا ؟

— الصدفة هي التي جاءت بي وهي وحدها التي شاءت أن أجتمع بمن ضنّ علينا حتى بالسؤال

— لك أن تعتبي يافتنة لولا ما أنا غريق فيه..

— من الحب .. طبعاً وقد هيأت لك الأقدار من ستخاصرها وتتناجيان . . . وعند ذلك انفجر زاهر بالضحك . ولكنه شعر بما أخذ يدب في نفسها من عوامل الغيرة فأسرع إليها وضمها إلى صدره قائلا :

ثق أنني لن أكون في ذلك اليوم إلا وحدي. وستكون تلك التي يتمثلها خيالك كمية مهملة بازائي. آه لو تعلمين كم أنا شقي بهذا الدور الذي رزئت به عبد الرحيم افندي . وما نيمت بالحب ولا شقيت بالهجر. إنما يافتنة، هذه تذكرة لبنوار بين رقم ٣ أرجو أن تنوبي عني في تقديمها لجدك هدية مني. وعديني أنك تحضرين في تلك الليلة معه، فكم أكون ناعماً سعيداً . وإني لأسألك أيضاً طلباً آخر أنا في شدة الحاجة إليه . إن موعد الحفلة لم يبق عليه غير يومين، فافتحي لي صدرك وامنحيني فيهما ذلك لأن ذلك مما يشجعني ويساعدني في سعيي .. يومين فقط

— بل العمر كله يا زاهر

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-14

وعند ذلك غابا عن الوجود فى قبلة خافقة حارة ثم خرجا

***

وجاء اليوم الموعود والناس يفدون إلى الدار أفواجا أفواجا وهم يلغطون ويضجون ولا حديث لهم إلا هذه الفرقة المثقفة الجريئة التى خرجت على التقاليد ووهبت نفسها وجهودها للفن . وكانت فتنة فى تلك الفترة خائرة القوى مضطربة مشفقة عليه فى هذا الموقف الخطير الرهيب حتى إنها أخذت تتلو سورة الفلق سبع مرات . وما كان ذلك ليخفى على جدها وهو يتأملها وينظر من طرف خفى إلى حركاتها وقلقها . فلما خفت نور الصالة وانبعث الدقات الثلاث المعهودة ارتفع الستار رويدا رويدا بين موجات صاخبة من التهليل والتصفيق

وأقبل روميو على المسرح ودوّى المكان بالفتاة فانتهزت هذه الفرصة وانصراف الحاضرين إلى الممثل ورفعت نقابها عن وجهها لحظة ثم أعادته، حتى إذا ما أبصرها انطلق فى تمثيله فخما رائعا جبارا ووجهه مشرق بالحب ونفسه جياشة بالشعور كأنه كان يمثل نفسه ويصور غرامه وأشجانه ومواجعه

وفى الفترة التى قبل الفصل الأخير قدمت إليه باقة بديعة التنسيق كانت هدية من جدها . حتى إذا انسدل الستار وانتهى التمثيل وضج الناس وعلت الأصوات بالإعجاب والاستحسان كان هو فى البتوار عند جدها يقبل يديه ويشكره . وعند ذلك اغرورقت عينا هذا الشيخ المتهالك الفانى فأخذ يده إلى يد فتنة قائلا فى صوت منهدج مختنق :

هذى هى جوليت أقدسها أنا إليك مرة أخرى يا ولدى حتى لا أكون قاسيا كشكسبير !

محمود عزمت

بيت الله الحرام مهدت السبيل إليه

﴿ شركة مصر للملاحة البحرية ﴾

ببواخرها الفاخرة و فنادقها الفخمة

ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا

جميع الإستعلامات من شركة مصر للملاحة البحرية

رقم ١٥١ شارع عماد الدين — القاهرة

القاضي السعيد

للفيلسوف الروسي تولستوي

بقلم الأديب السيد صلاح الدين المنجد

قام المليك نملاً من الرقص الفاتن على أنغام المزامير ترنو إلى جمال الراقصات الباسم ... ويصغي إلى أحاديث الندامى ترن في مسامعه مرجعة أنباء الساحر الرهيب، ذي القوة الخارقة والسحر العجيب، وأقاصيص ذلك القاضي السعيد الفياضة بالغرائب، المملوءة بالأعاجيب ... !

وأيقظه نسيم السحر المرتعش، فنادى غلامه وقال: سمعت في العشية من صحبك أن في أقصى المملكة قاضياً واسع الحيلة، عظيم الذكاء، يعرف الكاذب إذا رآه من الصادق، وله في ذلك نكات حلوة وطرائف طلية ... ولقد هفت نفسي إلى رؤيته فهيئ لي يا غلام جوادي، وأحضر لي زادي، وائت لي بلباس لا يعرفني به أحد من رعيتي، كي أذهب فأرى صدقه من تدجيله

وبعد ساعة ... انطلق الملك يسري ... بين شعف الجبال وأحضانها، وهو يحث السير ويشده؛ حتى إذا ما وصل إلى بلد القاضي — وقد ارتفعت الشمس وقاظ النهار — لقيه رجل قد قطعت ساقاه وتهشم وجهه وجحظت عيناه، فاقترب منه، وهو يتكئ على عصوين أسندهما إلى إبطيه ... وأخذ يقبل أقدامه ويطلب إحسانه. فتصدق الملك عليه، وهمز حصانه وسار على مهله

وفرح البائس إذ ضحكت له الملق ولكنه لحق بالليك وأمسك بأثوابه لايدعها، فغضب الملك وثار وقال له:

— ما شأنك أيها الرجل، وماذا تريد؟ طلبت فأعطيناك ... وشكوت فرحمناك ... !

قال الرجل بصوت يشيع فيه الحزن واللوعة:

— أوصلني يا سيدي إلى ساحة المدينة. فأنا بائس عاجز وأخاف أن تطأني الجمال بأقدامها إذ تمشي مشيها الوئيد ... أوصلني إليها ياسيدي والله يجزيك أحسن الجزاء

ورق قلب الملك له وأشفق عليه. فحمله بين يديه وأردفه. ثم انطلقا حتى أتيا ساحة المدينة الكبرى. قال الملك آنذاك:

— ها هي ذي ساحة المدينة أيها الرجل، فاهبط آمناً. !

قال الرجل:

— وي. هذا حصاني فلم تريد اغتصابه مني؟ أهذا جزاء من يعطف عليك ويشفق؟ ياللوقاحة! ويل لك من العذاب الذي سيصيبك! هيا. هيا. دع الحصان وامض إلى سبيلك. وإن لم تفعل، فخير لك ولي أن تذهب إلى القاضي السعيد فتسأله، وهناك يظهر الحق ويزهق الباطل. !

وشده الملك. وعجب من هذا المحتال البائس. ثم ثار وغضب، وأرغى وأزبد، والتف حوله أهل

2017-11-11

المدينة ، فساقوهما إلى القاضي ليحكم بينهما

وأتى القاضي بحرّان وراءهما الناس ، وقد جاؤوا ليتسمعوا إلى حكمه. واستوى القاضي على كرسي مزين بالذهب المنوهج ، وبدأ ينادي المتخاصمين فرداً فرداً

وجيء بمالم أصلع الرأس ، كث اللحية ، حاري الأذنين[1] وإلى جانبه قروى رث الهيئة ، ممزق الأثواب ، على وجهه أمارات النباوة ، كانما يختصمان على امرأة حسناء على وجهها سحر وطلاوة . . . هذا يدعي أنها حليلته ، وذاك يقول إنها حليلته..!

واستغرق القاضي في صمت عميق... ثم قال :

— دعا حسناءكما عندي وتعاليا إليّ غداً . !

وتقدم جزار إلى جانب زيات . وكان الجزار يرتدي ثوباً مليئاً دماً، وكان الزيات يرتدي لباساً زيتي يقع الزيت الحمية . قال الجزار :

— لقد اشتريت من هذا الرجل يامولاي زيتاً ثم عمدت إلى قميصي فأخبأته تحت جيبه[2] . ولكنه هجم عليّ ، وانتزعه مني . فجئنا إليك يامولاي ... أنا أمسك بيدي دراهمي وهو يمسك بتلابيبي ثلاثا أفر ... ولكن الدراهم لي ... وما هو إلا سارق أثيم ..!

قال الزيات :

— كذب ما قاله ياسيدي وبهتان ... لقد جاء إليّ ليبتاع من زيتي ، فلفّت له وعاءه ، فلما أراد الانصراف طلب مني أن أبدل له قطعة ذهبية بقطع فضية ، فرحت أعطيه الدراهم ... ولكنه فرّ بها يا مولاي ، فلحقت به .. وأحضرته إليك .. !

واستغرق القاضي في صمت عميق. ثم قال :

— دعا الدراهم عندي وتعاليا إليّ غداً ..!

ونودي الملك والسائل . قال الملك :

— أنا تاجر ياسيدي ، وهذا سائل لقيني وأنا في طرف المدينة فرثيت له وأشفقت عليه ، ثم أعطيته ما يخفف من ألمه ويزيد في فرحه .. فلما انطلقت إلى ما أنا ماض من أجله ، لحق بي وطلب أن أوصله الساحة الكبرى . فأردفته . فلما كنا في الساحة الكبرى ، طلبت إليه أن يتركني فأبى ، وقال هذا حصاني جئت تنتزعه مني . فالتف حولنا الناس وساقونا إليك . هذه قصتي يامولاي فاحكم بما تريد ! ...

قال السائل :

— يا الكذب يا مولاي . لئن كذب وافتري ، فما أنا إلا صادق أمين . . . كنت أجتاز المدينة ومعي الحصان فرأيته في بعض الطريق . . . فطلب مني أن أوصله الساحة الكبرى فقد أنهكه السير الطويل . فلما أتيت به الساحة قال هذا حصاني . . . فاحكم يا مولاي أيدك الله وأطال بقاءك !

وفكر القاضي وقدّر ... ثم قال :

— سأعرف الكاذب من الصادق . . . دعا

---

(١) حاري الأذنين أي أن أذنيه كأذني الحمار . ويقال أيضا قبيل الأذنين . ذكر المصري في رسالة غفرانه ص ٤٧ ما يلي : « كان ببغداد رجل كبير الرأس قبيل الأذنين ، اسمه فاذوه ... الخ » وقد قسنا الأولى على الثانية

(٢) جيب القميص طوقه . أي صدره . وهذا المعنى هو خلاف ما هو شائع عن معنى هذه الكلمة .

الحصان لدى ، وارجعا إلى غداً ...

وتفرق الناس ، ومضى كل إلى سبيله ، وذهب الملك يفكر فى هذا القاضى الذى سماه الناس « بالسعيد »

***

أقبل الليل ، فجلس الملك يفكر فى أمر ذلك البائس المسكين ويتذكره ، فملأ صوته المضطرب سمعه وفؤاده، وهو يتساءل عن جزائه وكيف يكون.

فلما أمضاه التفكير أسلم نفسه للكرى . فنام نوماً عميقاً ، رأى فيه من الأطياف ما لا يحصر ، ومن الأشباح المرعبة ما لا يحد . ونهض النهار فاستيقظ الملك ... وأخذ يرتدى أثوابه . ثم مضى إلى المدينة ليطوف فى أسواقها ... فلما أجاز ساحة الحى وجد غريمه يتدحرج نحو دار القاضى

وكان الناس يأتون زرافات زرافات ، فقد أعجبوا بالقاضى ففدت نفوسهم فى شوق ملح لكل ما يقول . وجاء المتخاصمون فتقدم العالم والفروى. فنظر القاضى إليهما وقال :

— أيها العالم ! إنها زوجتك فخذها وامض بها إلى دارك . . . أما أنت أيها الفروى ، فجزاؤك خمسون جلدة تنالها فى الساحة الكبرى على ملأ من الناس ! ..

وانصرف العالم وزوجته ، وأخذ الفروى ليجلد. وبيع بالجزار وبائع الزيت ، فقال القاضى :

— أيها الجزار ! ها هي ذى دراهمك فخذها . أما أنت . . . فجزاؤك خمسون جلدة تنالها فى وضح النهار على ملأ من الناس ! ...

وأخذ الجزار دراهمه . ومضوا بالزيات ليجلدوه وتقدم الملك والسائل . فقال القاضى للملك المتنكر :

— هل تعرف حصانك جيداً ؟

— نعم يا مولاى !

— وأنت أيها السائل ؟

— وأنا أيضاً يا سيدى !

— اتبعانى إذن ...

وانطلق القاضى بهما إلى الاصطبل وقد امتلأ بالجياد . فقال الملك : دلنى على حصانك ... فدله الملك . ثم أخرجه وأدخل السائل ... فدله عليه أيضاً . فلما خرج القاضى قال : خذ حصانك أيها التاجر فهو لك . أما أنت فستجلد خمسين جلدة فى الساحة الكبرى

وهم القاضى بالانصراف ... فتبعه الملك وقال له:

— أريد يامولاى أن أعلم كيف استطعت أن تعرف أن المرأة كانت للعالم ، وأن الدراهم كانت للجزار ... وأن الحصان كان لى ... فلقد حار عقلى فى فهم ذلك ...!

قال القاضى :

— أما المرأة ، فقد أتيت بها إلى دارى ، وقلت لها ضعى فى هذه المحبرة مداداً . فأخذت الدواة فنظفتها ، ثم ملأتها مداداً . فعلمت أنها تعلم ذلك من قبل ، والدواة لا توجد إلا عند العالم . فحكمت بأنها امرأة العالم وليست خليلة الفروى . أما الدراهم فقد وضعتها فى إناء ملىء ماء ، وقلت لنفسى ، إن كانت لبائع الزيت ، فلا بد أن تطفو على صفحة الماء

قطرات من الزيت جاءت إليها من يديه . ولكن الماء بقى صافياً ، فعلمت أن الدراهم ليست لبائع الزيت وإنما هى للجزار .

وصمت القاضى قليلا .. فلما طال صمته قال الملك:

— والحصان ياسيدى ؟

قال القاضى :

لقد قلبت الأمر بين يدى . فلم أجد حيلة أنفع من أن تدلانى على الحصان ، فعرفته أنت كما عرفه السائل . . . ولكنى رأيت الحصان قد أدار وجهه نحوك . ورفع أذنيه عند ما دنوت منه . فلما جاء السائل أرخى أذنيه ورفع إحدى رجليه يريد نفسه، فعلمت أن الحصان لك

وابتسم الملك ضاحكا ... ثم تقدم من القاضى فقال له :

— أيها القاضى ! نعم العدل بك عيناً . . . لست بتاجر ، ولكننى الملك .. !

ودهش القاضى ... وارتجف رهبة . ثم انحنى وقال :

— عفواً يامولاى ... أنا عبدك

— قم أيها القاضى وسل ... !

— إن ثناءك على لمكافأة لى يامولاى . . .

وانحنى ليقبل قدميه .

— قم . . . قم أيها القاضى السعيد . . . فلقد صدقت بك ... وآمنت ... لقد صدقت وآمنت ... ومنذ الغد ستكون لى وزيراً .. !

جورج البهجورى المنير

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

ابى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

حاجي بابا الإصفهاني

لكاتب الانجليزي "جيمز موير"

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثالث عشر

حاجي بابا يسافر مع مشهدي

عند ما خرجنا من مشهد نظرت إليها ورفعت وجهي إلى السماء ودعوت الله أن ينزل غضبه على تلك المدينة ، ولم يسمعني وأنا أدعو هذا الدعاء غير الدرويش صفر ، وقد كان يشاركني شعوري نحوها . ولكن لو أن رجلاً آخر سمعني أفوه به ، لكان هذا اليوم أسوأ يوم في حياتي . وقال لي الدرويش : « أنت لا تزال صغيراً يا بنيّ وستعاني في الحياة آلاماً كثيرة قبل أن تستفيد من التجارب ما هو ضروري لك في الحياة . لا تشك من الصدمة الأولى فربما كان في شدتها وقايه لك من صدمات كثيرة ، وستستطيع في المستقبل أن تتجنب المتعب حتى ولو كان متنكراً في ثياب امرأة ، ولكن رجلا في مثل عمري (وأشار إلى الشيب في لحيته) يؤلمه أشد الألم بعد ما استفاد من التجارب أن يضطر إلى مغادرة مدينته ويعاود الأسفار خوفاً من محاولة نكبة به »

قلت : « ولكن كان في وسعك أن تبقى في مشهد غير مبال بالعلماء مادمت محافظاً على الصلاة والصوم

فقال الدرويش : « هذا صحيح ، ولكن شهر رمضان قد اقترب وهم يراقبونني فيه أشد مراقبة لأنهم يتربصون بي ، ولست أستطيع ولا أريد أن أصوم لأن التدخين ضروري عندي ، ولذلك أحب الأسفار في هذا الشهر لأن الافطار فيه مسموح به في الدين ، وقد يكون في الامكان أن أرائيهم كما فعلت ذلك مراراً وأتظاهر بالصوم وأفطر في السر ولكن ذلك يكون صعباً على من بلغ من الشهرة ما بلغته الآن وأصبح من الأمور العادية أن يتردد لزيارته عشرات من الناس في كل ساعة من ساعات النهار ليتبركوا به »

وصلنا إلى مدينة سلمان دون أن يحدث حادث هام سوي أنني في اليوم الأخير من مسافة السفر ساعدت صاحبي على خاطر على نقل متاجره المحمولة على البغال فجرح ظهري في الموضع الذي أصبت به يوم حدوث الحادث الذي تركت من أجله السقاية

وكان ألمي شديداً فلم أستطع الاستمرار في السفر مع القافلة وصممت على البقاء حيث كنت حتى يتم لي الشفاء ، وكان قد زال خطر التركمان لابتعاد هذا المكان عن جهات هجومهم ، ولم أعد في حاجة إلى حماية القافلة . وقد كان يجمل بالدرويش صفر أن يبقى معي ولكن شوقه كان شديداً إلى نبيذ العاصمة وملاهيها فتركني واستمر مع القافلة

كان المكان الذي تخلفت فيه عن القافلة عند المقابر ، فذهبت إليها وأعلنت قدومي كعادة الدراويش بصيحات مزعجة صحتها بهذا النداء : « هاك هو ! هاك هو ! » أي الله أكبر الله أكبر ، واستعدت لابداء ضروب الرياء والخداع إذا نابك أي إنسان وفقاً للتعليمات التي تلقيتها من الدراويش

وفى أثناء مرضى وإقامتى بالمقابر زارنى عدد من النساء فكتبت أحجبة وأخذت منهن مقادير وافرة من الفاكهة واللبن والعسل . ولما اشتد الجرح اضطررت إلى السؤال عما إذا كان فى مدينة سليمان من يستطيع علاجى؛ ولم يكن فى تلك المدينة من يعرف شيئاً من شئون الطب غير الحلاق والبيطار، فالحلاقون يعرفون الحجامة وخلع الأسنان، وأما البيطريون فيعرفون أمراض الخيل ومنها ما يشترك فيه الناس فيستشارون فى الجراح وجبر العظام وغير ذلك

وكان فى المدينة غير حلاقها وبيطارها امرأة عجوز تدعى لعلاج مايعجزان عنه من الأمراض. وقد استدعيت كلاً من هؤلاء الثلاثة فاتفقت كلمتهم على أن لا وسيلة للعلاج غير الكى بالنار . ولما كان البيطار أكثرهم مراناً على أداء هذه العملية فقد اخترته لاجرائها، فجاء بمقدار من الفحم وبحديدتين وأوقد ناره وأحمى الحديدتين حتى احمر لونهما ثم كوانى فى ثلاثة عشر موضعاً من ظهري

ومضت مدة قبل أن تشفى الجراح الأولى والجراح التى أنشأها الكى الذى لم يكن شفائى بسببه بل بسبب الراحة الطويلة

ولما شفيت عزمت على أن أستأنف رحلتى إلى ظهران التى لم أشأ أن يكون المرض ملازمى فى بدء عهدى بها، ودخلت المدينة فى ساعة الظهيرة وأعلنت قدومى إليها بالنداء المتاد فى وسط السوق فاجتمعت حولى الجموع، فلما رأيت كثرة عددهم حدثتنى نفسى بأن أقص عليهم قصة أستدر بها جيوبهم كما تعلمت من أحد الدراويش وراجعت ذاكرتى فتذكرت قصة جميلة وبدأت أسردها عليهم وأعينهم مرفوعة وأفواههم مفتوحة ، فقلت :

« كان فى عهد هرون الرشيد رجل حلاق بمدينة بغداد يدعى « على السقا » وقد اشتهر هذا الرجل بخفة يده وإتقانه صناعته وسرعته حتى إنه كان يحلق الرأس واللحية فى طرفة عين دون أن يسيل قطرة من الدم . وكان كل وجهاء بغداد يحلقون عنده، وقد وصل به الكبر والغرور إلى حد الامتناع عن الحلاقة لمن لم تكن لديه رتبة أو لقب وكان يشترى الأخشاب ويبيعها لزبائنه .

وفى يوم من الأيام جاءه أحد البساعة ومعه أخشاب على ظهر حمار فاتفق معه الحلاق على مبلغ معين فى مقابل (كل ما على ظهر حماره) فلما سلم البائع تلك الأخشاب طالبه الحلاق بالسرج الذى على ظهر الحمار وبالبردعة لأن الاتفاق كان يشمل « كل ماعلى ظهر الحمار» فدهش البائع وقال: « كيف؟ هل سمحت فى حياتك صفقة مثل هـذه ؟ إن هذا مستحيل »

وبعد مشادة حدثت بينهما أخذ الحلاق السرج والبردعة والخشب وترك البائع يفعل ما يداله، فذهب إلى القاضى ، وكان القاضى من أصحاب الحلاق فحكم له، فاستأنف البائع الحكم إلى قاض آخر أخذ كذلك بنص الاتفاق وصادق على الحكم الأول فلم يسع البائع المسكين إلا أن يرفع أمره إلى المفتى نفسه، فلما لم ينصفه أيضاً كتب شكواه ووقف فى طريق الخليفة وهو ذاهب إلى المسجد فى يوم الجمعة .

وكان الخليفة مشهوراً بعنايته بقراءة العرائض بالمسجد بعد الصلاة والفصل فيما يستحق النظر منها .

ولم تمض ساعة بعد الصلاة حتى دعى بائع الخشب إلى حضرة الخليفة فدخل وقبل الأرض ودعا له، فقال الخليفة: « لقد قرأت شكواك وفهمتها

وإن الألفاظ فى جانب خصمك والدلالة فى جانبك . والقانون يجب أن يحدد بالألفاظ؛ والاتفاقيات وهى قوانين الخصوم يجب أن تحدد بالألفاظ كذلك. ولهذا الشيب يجب أن ينفذ الاتفاق بألفاظه وإلا لما كانت له قيمة ولا أمكن الاحتفاظ بالثقة بين الناس، لذلك سيأخذ الحلاق البرذعة والسرج والخشب ولكن..» ثم استدعى البائع وهمس فى أذنه بكلمات فبدت على وجهه علائم الرضى وخرج وهو مسرور »

هنا بدا الاهتمام على وجوه السامعين فسكتُّ وهم ينتظرون أن أتكلم . ولما طال سكوتى طالبونى بإتمام الحديث فقلت لهم : إننى لا أتم القصة إلا إذا دفع لى كل منهم قطعة من النقود . فدفعوها وقلت: « قال الخليفة همساً لبائع الأخشاب : « إذهب إلى الحلاق واتبع معه الطريقة التى سأذكرها لك ومتى رجع الأمر إلىّ فانى سأنصفك » ثم علمه الطريقة فخرج البائع راضياً

وبعد أيام ذهب إلى الحلاق بحالة من الود تدل على أنه لم يكن بينهما أى خلاف وعلى أنه رضى واقتنع بحكم القضاء فى النزاع الذى كان بينهما

واتفق البائع مع الحلاق على أن يحلق له ولزميله الذى سيأتى بعد قليل فى مقابل مبلغ تراضيا عليه، فوافق الحلاق وبدأ يحلق للبائع، ثم سأله عن زميله فذهب وعاد ساحباً حماره وقال : إن هذا هو الزميل الذى يجب أن يحلق له وفقاً للاتفاق

اغتاظ الحلاق وامتنع عن الوفاء بتعهده قائلا : إن هذه خدعة . وقال : « أليس يكفيك أن أضع يدى على رأسك القذر حتى أحلق لحمارك أيضاً ؟ إننى لم أحلق قط لأمثالك وما حلقت لك إلا لمصالحتك إياى بعد القضية التى كانت بيننا . اذهب من هنا وإلا أذقتك الأمرّين »

فذهب البائع متناظاً إلى الخليفة ورفع أمره إليه ، فأمر الخليفة باحضار الحلاق وقال له فى جمع حاشد : « ألم تتفق معه على أن تحلق له ولزميله ؟ »

قال الحلاق : « نعم ولكن هل فى الدنيا من يزامل حماراً ؟ »

قال الخليفة : « وهل فى الدنيا من يشترى خشباً وبرذعة ؟ إحلق للحمار أمام هذا الجمع تنفيذاً لا تفاقك وإلا أودعتك السجن »

فاضطر الحلاق إلى الاذعان ، وأمر الخليفة بأن يؤتى له بالمواسى والصابون والماء ، وبدأ الحلاق يغسل شعر الحمار ويحلق له بحضور الخليفة وحاشيته

وكان الناس يسرون به ويضحكون منه ، ثم صار كل أهل بغداد يتحدثون بهذه القصة الدالة على ذكاء الخليفة وعدالته

الفصل الرابع عشر

الرجل الذى قابله عباسى بابا

تركت مدينة سليمان وأنا مسرور وقد شفيت جراحى وكنت لا أزال صغير السن جميلا وكان معى عشرون « طومانا » ادخرتها فى مشهد

وكنت إلى ذلك العهد قد جربت بعض التجاريب التى تنفضى فى الحياة وعزمت على أن أنزع ثياب الدراويش بجرد وصولى إلى طهران وأن ألبس ثياباً جميلة وأعيش معيشة راقية

وكنت فى أثناء الطريق أنشد بأعلى صوتى قصائد المجنون فى ليلى فقابلنى أحد السماة ونشأت بينى وبينه مودة فتحادثنا وقدم لى بعض ما كان معه من

2017-11-11

الفاكهة فقبلت سروراً لأن الحر كان شديداً فى ذلك اليوم .

وكنا نسير على شاطىء نهر وبالقرب منا مزارع قمح فنزع السايس لجام الفرس وتركه يأكل من القمح الجديد ثم أخرج من جرابه طعاماً ودعانى إلى مشاركته فيه وكان هذا الطعام أرزاً باردا وخبزاً فأكلنا بشهوة قوية ، ثم أخرج من هذا الجراب الذى فيه حذاؤه فجلاّ وبصلاً فأتممنا غداءنا وغسلنا أيدينا فى النهر . ثم قدم لى لفافة من التبغ وأخذ كل منا يسائل الآخر عن رحلاته السالفة ، وعرف من شكل ثيابى أننى درويش ، فسألنى عن تاريخ حياتى وقصصته عليه، ثم قص على تاريخ حياته وقال إنه سافر عندما كم مدينة « استراباد » وأخبرنى خبراً سرنى وأدهشنى وهو أن عسكر خان شاعر الشاه قد نجا من أسر التركمان ونزل ضيفاً عند هذا الحاكم

ولم أشأ أن أظهر له شيئاً من سروري وأن أخبره بأنى أعرف هذا الشاعر لأن تجربتى فى الحياة دلتنى على أن كتمان السر من الضروريات لمن يريد النجاح . وأخبرنى السايس بأن الشاعر أرسله إلى طهران برسائل وقال إنه شديد الشوق إلى معرفة ما فيها وإنه لا يعرف القراءة والكتابة وإنه مسرور للقائى لكى أقرأ له ، وأخرج من صدره تلك الرسائل

ولما كانت العادة فى بلاد فارس أن تطوى الرسائل على شكل مثلثات كالأحجبة ولا توضع فى مظاريف بل يكتفى بثنى جزء منها ووضعه بين طياتها بحيث يسهل فتحها وإعادتها إلى ما كانت عليه دون أن يظهر أنها فتحت — فقد سررت مما عرضه على وفتحت الرسائل لأعرف أخبار صاحبى الشاعر

وكانت أول رسالة منها إلى الشاه الذى دعاه شاعره باسم ملك الملوك وضمن رسالته إليه وصف الآلام التى تكبدها من معاملة التركمان ومن الجوع والظمأ والذل ، قائلا : إن ذلك كله لم يكن شيئاً يذكر بجانب ألمه للبعد عن جلالته وحرمانه التشرف بخدمته . وقال : إن حياته تستمد النور والحرارة من رحمة الشاه ومن قربه ، وإن أكبر أمل لديه هو أن يعاد إلى منصبه الذى كان غيابه عنه على الرغم منه وإنه يريد أن يعود إلى التغريد فى قصره كما يتغنى البلبل للورد

وكانت الرسالة الثانية لرئيس الوزارة الشرس الأخلاق المشوه الخلقة ، ولكن الشاعر وصفه بأنه كوكب ساطع بين نجوم السماء ، وبأنه روح البلاد وعمار مجدها . وكانت الرسالة الثالثة بهذا المعنى لعدوه القديم وزير المالية

أما باقى الرسائل فنها واحدة لزوجته يتكلم فيها عن شئونها الداخلية وعن نواياه فى المستقبل ويوصيها بأن تقتصد فى ملابسها وأن تعنى برقابة الخدم والعبيد وبأن تعد له ثياباً جديدة . ومن هذه الرسائل أيضاً رسالة إلى مربى أبنائه يحييه فيها ويرجو أن يكون قد علمهم الشعائر والتقاليد ومبادئ الدين وعودهم المواظبة على الصلاة فى مواعيدها ومرنهم على استعمال الرماح وإصابة الهدف وهم راكبون على ظهور الجياد

وكانت الرسالة الأخيرة إلى وكيل أعماله وهو يوصيه فيها بالاقتصاد الشديد وأن يذهب كل يوم إلى قصر رئيس الوزارة فيطيل من الدعاء له وشكره لأنه لولا عنايته وهيبته فى البلاد لما أطلق التركمان أسيرهم، ويوصيه أيضاً بأن يكون شديد العناية بأعماله

2017-11-11

وبأن يصحب زوجته فى عدواتها وروحاتها وبأن يكون مطيعاً لما تأمره به وبأن يتشدد فى مراقبة العبيد والخدم عموماً وبخص الرقيق جوهراً فاذا رابته منه علاقة بإحدى الجوارى جلده وجلدها معه . وأمره بمنع العجائز اللواتى يخشى منهن دس الدسائس — وبخاصة اليهوديات — من الدخول منزله . ويأمره أخيراً بأن يدفع جائزة لمن يحمل هذه الرسالة لتكون بمثابة البشرى لنجاته من الأسر .

طويت هذه الرسائل وأعدتها إلى الساعى الذى ظهر على وجهه البشر لما جاء فى الرسالة الأخيرة ، وقال إنه تعب كثيراً وخشى أن يأتى متأخراً فصار يقضى أيامه ولياليه ركضاً بجواده حتى أتعبه واضطر إلى تركه فى إحدى البلاد التى مرّ بها على أن يرسل إليه بعد شفائه واغتصب الجواد الذى هو راكب عليه الآن من أحد الفلاحين .

وبعد أن سرنا مسافة أخرى أدرك صاحبى التعب فربط جواده ونام ونظرت إليه وهو مستلق على الحشيش وحدثتنى نفسى بأن أسرق منه رسالة الشاعر إلى وكيله وأذهب بها . ولما كنت عارفاً كل المعرفة بحياة الشاعر وزاملته فى الأسر مدة طويلة فانى بغير شك أولى من هذا الساعى بأداء رسالته ، ولو كنت مع الشاعر عند ما نجا ما أرسل غيرى ليؤديها وأنا أحق كذلك بالجائزة التى تدفع من أموال رجل خدمته وكنت مستعداً للتضحية من أجله بالشىء الكثير لو سنحت لى فرصة لهذه التضحية . أما الجواد فليس حق الساعى فيه أكبر من حقى .

وفى غير مشقة كبيرة أخذت تلك الرسالة وركبت الجواد وركضت به جاعلا كل همى أن أسرع حتى لا يلحق بى الساعى إما على ظهر جواده الذى قال إنه سيرسل إليه وإما على ظهر جواد آخر يغتصبه وقلت فى نفسى : إننى إذا سبقته بمسيرة يوم فانى آمن من شره ، وعزمت على أن أبيع الجواد ساعة وصولى إلى طهران — وعلى أن أبدل ثيابى فى الحال فلا يجد الساعى إذا وصل أى دليل عندى ولا يجد من يصدقه إذا زعم أنى كنت درويشاً وأنى سرقت منه رسائل وجواداً . بل إنه من الصعب أن يعرفنى بعد إبدال ثيابى فى تلك المدينة

وحصرت تفكيرى عند ما وصلت إلى المدينة فى الكيفية التى أقابل بها أهل الشاعر وفى الكلام الذى أقوله لهم

الفصل الخامس عشر

عاجى بابا فى بيت الشاعر

دخلت المدينة فى ساعة الصباح من باب الشاه عبد العظيم وكان هذا الباب قد فتح لوقته وحينه . وذهبت توّاً إلى سوق الخيل وهو أقرب مكان إلى هذا السوق وهو يعقد يومياً لبيع الخيل

وكنت أعتقد أن جوادى حسن جداً وأنه سيباع بثمن غال لأن مجريى إياه فى أثناء الطريق دلتنى على أنه ليس به عيب : ولكن تاجراً من تجار الخيل فى ذلك السوق أكد لى أنه ملىء بالعيوب وأننى أكون سعيد الحظ إذا تخلصت منه فى مقابل أى مبلغ من المال . وعرض على خمسة طومانات ثمناً . فدهشت لأنى ما كنت أنتظر بعد وصفه المتقدم أن يعرض كل هذا الثمن

ودهش التاجر أيضاً لتسليمى بقوله وقبولى أول مبلغ عرضه .

ولما طلبت إليه أن يتقدنى المال أخذ الجواد

ودفع لى نصف الثمن وعرض على حماراً بالنصف الباقى فأبيت، فقال إنه سيدفع لى باقى الثمن عند ما أقابله الأول مرة . ولم يكن لدى متسع من الوقت للمساومة . وكان غرضى الأول هو التخلص من الجواد فتركته له وأخذت ما دفعه وكتبت اسمه عندى واتحدت معه على المكان والزمان اللذين أقابله فيهما لآخذ الباقى من ثمن جوادى وأنا أتوى ألا أعود إلى مقابلته وهو ينوى ألا يدفع لى شيئاً

ثم ذهبت إلى سوق الثياب فاشتريت (قفطاناً وجبة وعباءة سوداء) وليست ذلك فى نفس السوق وخلعت ما كان على من ثياب الدراويش. وقد كلفتنى هذه الثياب الجديدة مبلغاً كبيراً لأنى اضطررت إلى شراء أشياء أخرى من مستلزمات هذا الزى كالعمامة والحزام، ثم سألت عن منزل الشاعر

كان هذا المنزل فى حى من المدينة محوط بأشجار الرمان يدل شكله دلالة واضحة على بعد صاحبه

كان أحد مصراعى بابه مفتوحا والآخر مغلقا وظهر لى أن عدد القيمين فيه قليل جداً وأن الجائزة ستكون قليلة أو أننى لن أنالها

صعدت السلم حتى وصلت إلى الطبقة الثانية فوجدت رجلا فى سن الخمسين يدخن فى الفليون وظهر لى أنه الرجل الذى كنت أريد مقابلته وهو وكيل أعمال الشاعر وناظر زراعته

وصحت عند ما رأيته : « بشرى ! عسكر خان سيأتى »

فنظر لى الرجل نظرة اندهاش وقال : « ماذا تعنى ؟ أى خانٍ ومتى ومن أين ؟ » فقلت له: إنى رسول من قبله. وقدمت له الخطاب فبدا على الرجل فرح متصنع وحزن حقيق ودهشة وقال لى : «ولكن هل أنت واثق من أنه لا يزال على قيد الحياة ؟ »

قلت : « لاشك فى ذلك وأنا آت من عنده وسيأتيكم فى الغد رسول آخر من لدنه وسيكون معه رسائل أخرى باسم الملك والوزراء وغيرهم »

فقال الرجل مخاطباً نفسه : « هذا عجيب ! هذا مدهش ! ما هذا الخبر الذى وقع على رؤوسنا ؟ أين الذهب ؟ ماذا أفعل ؟ »

ولما ملك الرجل روعه حاول إفهامى سبب اضطرابه فقال : « إن كل إنسان يقول إنه قد مات ويجب أن يكون ميتاً فلقد رأت زوجته فى النوم أن ضرسها سقط من فمها وأنها تتألم لذلك أشد الألم . وهذا أكبر دليل على أن زوجها قد مات ... إنه غير حى ويجب ألا يكون حياً »

قلت : « ظن كما تشاء فان الرجل موجود الآن فى استراباد ولن تمضى ستة أيام حتى يصل إلى هذه المدينة ويركع شخصه

سكت الناظر وظل واجماً لا يعرف بماذا يجيب وقال : « لا يدهشك اضطرابى ودهشتى عند ما علمت بأن سيدى القديم لم يمت ، فان خبر موته لما شاع فى هذه المدينة أخذ الشاه أملاكه وأموالها وأرقاءه وأثاث بيته وأعطى ذلك كله « لطور على ميرزا » وهو أصغر الأمراء من أبناء الشاه ، أما ضيعته فهى الآن مملوكة لرئيس الوزراء ، وأما قصره فهو لميرزا فاضل ، ولم يبق غير هذا المنزل لزوجته التى تزوجت من معلم أبنائه، فقل لى هل لى أن أضطرب من هذا الخبر الذى تزعم أنك تبشرنى به أم لا ؟ »

قلت : « نعم لك أن تضطرب وتحار ، ولكن ماذا يكون من أمر الجائزة التى أشير إليها فى هذا الخطاب ؟ »

2017-11-11

فقال الناظر : « لا تنتظر مني أي شيء فأنت لم تأتني بخبر سار ، ولكن إذا شئت فاصبر حتى يأتي السيد الجديد »

قلت : « إنني سأعود في يوم آخر وخرجت من المنزل وأنا مستغرق في تأملاتي

الفصل السادس عشر

عزمت على أن أنتظر عودة الشاهر وأن أحصل بوساطته على منصب في الحكومة فأكتسب من هذا الوجه الشريف رزقي ويكون أمامي مجال واسع للترقي والظهور في ميدان الحياة بغير وسائل الغش والتدليس التي علمتنيها تجاربي السالفة لأنني قد سئمت من الاختلاط بالطبقة الدنيا ومن معاشرة الرعاع وطمحت نفسي إلى الرقي والغنى والجاه ولم أجد في ضمة أصلي وحقارة نشأتي ما يمنع من وصولي إلى رياسة الوزارة وقلت في نفسي: « ماذا كان إسماعيل بك تلي (أي الذهبي) أقرب المقربين إلى الشاه ؟ إنه لم يكن إلا فراشاً وضيعاً وليس أكثر مني علماً ولا أفصح لساناً ، وهو قد اشتهر بركوب الخيل ولكنه لو وقع في أسر التركمان كما وقعت في أسرهم لانتهت حقيقة هذه الشهرة وتبين أنني خير منه في ذلك أيضاً . وقلت : ومن هو وزير المالية الذي يوزع أموال الدولة على أصحاب الشاه ولا ينسى نفسه ؟ إنه ابن بدال وأنا ابن حلاق فليس يفضل أبوه أبي، وأنا أفضل من معاليه لأني أعرف القراءة والكتابة ومعاليه لا يعرفها . وهو يأكل ويشرب كما يشاء ويلبس كما يقولون حلة جديدة في كل يوم ويختار للوه أجمل النساء ، ولكنه مع ذلك لم ينل نصف كفاياتي ومواهبي وهو كما يلقبه جميع الفارسيين (خور بالتشديد) أي (حمار بتوكيد اللفظ)

اندفعت في تيار هذه التأملات وأنا في وسط الطريق المؤدي إلى القصر وظهري مستند إلى الحائط وقد غاب برأسي حرارة الفكر فرأيت نفسي في الخيال وقد بلغت ما أرجوه من العظمة وحالت رؤيتي ذلك الجلال دون رؤية المخلوقات الوضيعة التي تسير في الطريق وأخذ الطريق يزدحم شيئاً فشيئاً فاضطرتني الجماهير بضجتها وجلبتها إلى الالتفات إليها وأخذت أوقعها عني بكبرياء، ونظرت إلى الناس نظرة احتقار وزراية، ودهش الناس من معاملتي إياهم هذه المعاملة فأخذ البعض يضحك والبعض يسخر، وعنفني القليل منهم، وحسبني أكثرهم مجنوناً . ولما رجعت إلى نفسي بعد ذلك عذرت من انهمني هذه التهمة لأن ثيابي وإن كانت جديدة فهي لا تفضل في نوعها ثياب أدنى الطبقات ، فابتسمت من ظهوري بمظهر العظمة ، وسرت إلى السوق لأبدل تلك الثياب بثياب أرقى منها لكي أظهر بمظهر يتفق مع الأمل الذي أرجوه

وبينما كنت أشق لنفسي طريقاً بين الزحام إذ رأيت ثلاثة يتشاجرون ورأيت الناس مزدحمين حولهم ففرقت بينهم لأفض النزاع إن استطعت ولكن لسوء حظي وجدتهم السامي الذي سرقت منه الجواد ، والتاجر الذي بعته له ، والفلاح وهو صاحبه الأول

قال الفلاح : « هذا جوادي »

وقال السامي : « هذا سرجي ولجامي »

وقال التاجر : « أنا المالك وحدي »

ورأيت الخطر الذي يحدق بي ففكرت في النجاة

ولكن نظر التاجر وقع على فصاح : « هذا هو الرجل الذى اشتريت منه الجواد »

ولما رآنى الساعى انقض علىّ كما ينقض الوحش على فريسته ووصفنى بأننى غادر وأننى لص وأننى وغد

قال لى الفلاح : « هات جوادى »

وقال الساعى : « هات سرجى ولجامى »

وقال لى التاجر : « هات مالى »

وقال الجمهور : « خذوه إلى القاضى »

وعبثاً حاولت أن أقنع الجمهور بأننى برىء ، وعبثاً حاولت أن أطلب الرحمة أو أجد من ينصت إلى ما أقول وصرت أصيح مخاطباً الساعى : « لماذا تغضب ؟ هذا سرجك ولجامك سليمين فخذهما »

وقلت للفلاح : « ولماذا تغضب أنت ؟ هذا جوادك لم يمت ولم يصب بسوء فخذه واحمد الله إذ لم يحدث له ما ينجعك به »

وقلت للتاجر : « ولماذا تغضب أنت ؟ إنك لم تدفع لى إلا نصف ثمن الجواد وكنت تريد أن تتشفى وتعطينى حماراً أعرج بالنصف الباقى من الثمن »

وعرضت عليه أن أرد ما أخذته منه ولكنه رفض وأصر على أن أدفع للرجلين الآخرين ما يسكتهما ليصير الجواد ملكه

ولما لم يقبل ما عرضته عليه من أوجه الحلول انفقت كلمتنا على الذهاب إلى مأمور البوليس وتحكيمه وقد وجدناه فى السوق محاطاً بجنوده وفى يده عصاه الطويلة المستعدة لضرب الناس داعًا والتى يعتبر الضرب بها بمثابة الاتهام أو إعلان الشكوى

بدأت أنا برفع الأمر فشرحت القضية على حقيقتها وتمسكت بأن تاجر الخيل كان يريد خداعى وأنه غشنى فى الثمن . وطلبت رد الجواد إلىّ لأرده إلى صاحبه . وقال التاجر دفاعاً عن نفسه إن شكواى باطلة لأن الجواد مسروق ولا يمكن إلزامه بدفع باقى الثمن إلىّ لأنى لست صاحبه ، ولا يمكن أخذ الجواد منه لأنه اشتراه بحسن نية وإنما الشئ الوحيد الممكن فى نظره هو أن أدفع تعويضاً لصاحب الجواد

حار مأمور البوليس حيرة شديدة فى حل هذه المشكلة وقال إنها عويصة وإنه لا يستطيع الفصل فيها . ولذلك فإنه يتنحى عن نظرها ويأمر برفعها على القاضى . ولكن أحد الواقفين وهو رجل أشيب نظر إليه وقال : « لماذا تحار فى قضية بسيطة مثل هذه ؟ إن الخلاف بين حاجى بابا وتاجر الخيل يحل على أن يدفع التاجر باقى ثمن الجواد . ثم يدفع حاجى بابا إلى التاجر أجرة إيقائه عنده وإطعامه فى هذه المدة »

فصاح كل من سمع هذه الفتوى : « تبارك الله ! تبارك الله ! »

وسواء أكان رأيهم خطأ أو صواباً فقد بهرهم ذكاء الرجل ووافقه المأمور على ذلك .

وعلى الرغم من أن هذا الحل كان خطأ ومضحكاً فقد نفذ لأن المأمور قبله فى لحظة كان عقله مختلطاً فيها وأخذت الجواد بعد أن أخذت الباقى من ثمنه ودفعت للتاجر أجرة طعامه ، ثم رددت الجواد للفلاح والسرج واللجام للساعى وكانت الخسارة كلها على التاجر والمكسب كله لى

الفصل السابع عشر

حاجى بابا يبدأ عهداً جديداً فى الحياة

حمدت الله على خلاصى من هذا المأزق واستأنفت

2017-11-1

سيرى إلى سوق الثياب لأشترى منه ثوباً غالياً تنفيذاً للخطة التى رسمتها .

ولما وصلت لأول حانوت طلبت جبة حمراء من الجوخ الثمين لأنى كنت دائماً أشعر بالاحترام لمن يلبسون مثل هذه الجبة فنظر إلى البائع من رأسى إلى قدمى : « لمن تريد هذه الجبة ومن الذى سيدفع ثمنها ؟ »

فسألنى هذا السؤال وقلت : « لماذا ؟ أريدها لنفسى وأنا الذى سأدفع الثمن ؟ »

فقال : « ولماذا يلبس مثلك مثلها ؟ إنه لا يليس الجوخ الأحمر غير الميرزا أو الخان ولا شك عندى أنك لست أحدهما »

كاد الغضب يمتلكنى فأهنته لولا أن دلالاً سرّ فى هذه اللحظة من أمامى وسمه ثياب من جميع الأنواع ، ولكنها مستعملة فذهبت إليه وبالرغم من أن صاحب الحانوت أخذ يدعونى لأنه ندم على إبعادى عنه بالوسيلة التى اتبعها .

ومشيت مع الدلال إلى ركن من الطريق بالقرب من باب المسجد وجلس على الأرض وأخذ يعرض علىّ مامعه من الثياب، فأعجبنى ثوب حريرى مزركش بالذهب وبه زوائر ذهبية . ولما سألته عن ثمنه أقسم لى أن الثوب كان لنديم من ندماء الملك وأنه لم يلبسه إلا مرتين فقط . ولأجل أن يغريني بشرائه وضع هذا الثوب علىّ وأخذ يدور حولى ويقول : «ماشاء الله ! ماشاء الله ! » فعزمت على شراء الثوب وطلبت منه شالا من الكشمير لأجعله حزاماً فقدم لى شالا قديماً به كثير من الثقوب وأقسم أنه كان مملوكا لسيدة من سيدات القصر الملكى . وقال إنه سيبيعه بثمن زهيد . فأخذت الشال وجعلته حول خصرى محاولا إخفاء ثقوبه فلم أجد به عيباً بعدلفه، ورأيت أنه لا ينقصنى إلا خنجراً أضعه فى هذا الحزام فأصبح مثل سائر الوجهاء ، وطلبت من الدلال خنجراً قدمه لى ووضعته فى الحزام فأعربت عن رضائى لأنى أصبحت فى هذا الزى كأحسن رجل فى طهران

ولما بدأ دور المساومة وجدت الأمر أصعب مما كنت أتوقع، وأخذ الدلال يقسم لى أنه شريف وأنه ليس مثل سائر الدلالين الذين يطلبون مائة ثم يبيعون بخمسين، وقال إن الثمن الذى يطلبه هو الثمن الذى لا يستطيع أن يبيع بأقل منه . وطلب منى خمسة طومانات للجبة وخمسة عشر تمناً للشال وأربعة للخنجر فتكون الجملة أربعة وعشرين طومانا

لما سمعت ذلك أسفت لأنه لم يكن معى غير عشرين طومانا فقلت له إنى لا أريد الشراء ونزعت ثيابه وأخذت ألبس ثيابى فاستعملنى الدلال قائلا: « إذا كنت استكثرت الثمن فكم تريد أن تدفع ؟ »

قلت إنه لا يريد أن يبيع على ما يظهر وإننى لن أدفع أكثر من خمسة طومانات. فرفض البيع بهذا مظهراً لى أشد احتقار ، ورددت إليه الثياب فأخذ يطويها وظهر أن المساومة انتهت بيننا عند هذا الحد ولكن الرجل نظر إلى وقال : « إنى أشعر بجودة نحوك وسأبيع لك بما لا أقبل أن أبيع به لأخى فادفع عشرة طومانات » . فرفضت وأصررت على الثمن الذى عرضته . وأخذ يقلل من مقدار ما يطلبه حتى اتفقنا فى النهاية على ستة طومانات فدفعتها له وأخذت الثياب

كان أول غرض لى بعد أن اشتريت أن أذهب إلى الحمام فذهبت إليه . وفى أثناء الطريق اشتريت

حذاء أخضر وقميصاً أزرق وسروالا قرمزياً ووضعت ذلك كله فى منديل واستأنفت سيرى إلى الحمام

لم يلتفت أحد إلى ساعة دخولى لأن رجلا مثلى فى الثياب التى كانت لا تزال على لا يستثير اهتمام الناس . وكنت أعزى نفسى بأن هذه الحالة لاتلبث إلا ريثما أغير هذه الثياب بثيابى الجديدة وأن الناس فى داخل الحمام لا يتفاضلون تفاضلهم فى الطرقات بل تفاضلهم فيه بطول القامة وعرض الأكتاف ومظاهر القوة والشباب . وكنت فى ذلك أفضل الموجودين فى الحمام ونلت إعجاب من لو رآنى فى الطريق لازدرانى . واستدعيت دلاكين لتدليكى فوقفا بالقرب منى ينتظران أوامرى، فأمرت أحدهما بمعالجة رأسى وبأن يصبغ شعر لحيتى وشاربى

ولما بدأ فى التدليك أخذ يكرر إعجابه باتساع صدرى ، وحلى تخيلى الحالة التى سأكون عليها بعد أن ألبس الثياب الجديدة على النظاهر بأننى تعودت سماع الثناء والاصغاء إليه . وقال لى الدلاك إننى جئت فى ساعة سعيدة لأنه فرغ لساعته من خدمة خان كبير يلبس خلعة أنعم بها عليه الشاه وأن هذا الخان لم يأت إلى الحمام إلا بعد أن أخبره المنجمون بأن هذه ساعة مباركة تناسب الاستحمام

وبعد أن فرغت من الاغتسال والتدليك ذهبت إلى الغرفة التى فيها ثيابى فلبست جديدها وطويت القديم . وكان الزهو يكاد يقتلنى كلما وضعت على جسدى قطعة منها

وأخيراً جاء الدلاك بالمرآة وهذا هو الزمن عندهم لانتهاء عملهم ومطالبتهم بالأجر فرجلت شعرى ورفعت طرف شاربى إلى عينى ودفعت له الأجر بسخاء، وخرجت أمشى مشية الرجل الكبير الأهمية

الفصل الثامن عشر

عسكر خان يعود من الأسر — موقف حاجى بابا

مشيت توآ إلى بيت عسكر خان فرأيت وأنا فى أول الطريق إليه جمهوراً كبيراً محتشداً عند بابه وعلمت أنه وصل لساعته ، وأنه دخل البيت من النافذة بدلا من الباب فى وسط احتفال لأن هذه هى العادة عند مايرجع إلى منزله رجل كان المظنون أنه قد مات

زججت بنفسى بين الجمهور ودخلت إلى الغرفة التى كان الشاعر موجوداً بها وهنأته بوصوله سالماً فى أحر لهجة ودية ، ولكن الشاعر لم يعرفنى فعرفته بنفسى ولم يكد يصدق أن الرجل الذى أمامه الآن فى أجل ثياب وأرقاها هو ذلك الوغد القذر الثياب الذى كان معه فى أسر التركمان

وكانت الحجرة مزدحمة بالناس من جميع الطبقات، وكان بعضهم فى نهاية السرور بعودته سالما والبعض فى نهاية الحزن لهذا السبب . وكان من الفريق الأخير « ميرزا فاظل » ولكنه كان من أكثرهم ترحيباً به وإظهاراً لمودته . وقال له: « لقد كان مكانك شاغراً وكانت عيوننا متشوفة إليك

ثم حدثت ضجة بالمكان وفتح الباب ودخل ضابط مندوب من قبل الشاه وأمر عسكر خان بأن يلبس الثياب التى جاء بها من السفر ويذهب إلى الشاه . فتفرق الموجودون وذهبت فى جملة الذاهبين وفى عزمى أن أعود فى اليوم التالى، وفى طريق ثابت ناظر الزراعة فقلت له : « هل رأيت أن كلامى كان صادقاً وأن عسكر خان لم يزل على قيد الحياة .

2017-11-1

فأجابني : « نعم لقد صدقت فهو لا يزال على قيد الحياة ولكن الله كبير » ثم كرر الجملة الأخيرة مراراً وتركني وقد بدا عليه أنه يشعر بالبؤس والحزن الشديدين . وأمضيت يومي كما يقول المثل في تشييد قصور في الهواء . وجبت الأسواق لمعاينة ماعرضت على شرائه بعد أن تتحقق أحلامي ودخلت المساجد لأداء الصلاة والدعاء لله أن يوفقني إلى تحقيقها .

وفي أحد المساجد وجدت كثيرين ممن لاعمل لهم ولا شاغل يشغلهم غير التساؤل عن أخبار الناس والتحدث بها وقد سمعتهم يتكلمون عن عودة الشاعر عسكر خان وعن المقابلة التي قابله بها الشاه فقال البعض: إن جلالته قال عنه ما سمع أنه لا يزال على قيد الحياة إن شاعره قد مات وإن الذي يدعي هذه الدعوى لا يمكن أن يكون إلا كاذباً وإن جلالته سيعاقبه على ذلك . وقال البعض إن جلالة الشاه لم يقل ذلك وإنه أعرب عن سروره بعودة شاعره وأعطى لمن بشره بهذا الخبر عشرة طومانات . ولكن الكثرة كانت متفقة على أن جلالته لم يسر بعودة عسكر خان لأنها ستخل بالنظام الذي كان قد وضعه لتقسيم تركته

ولكن عسكراً كان يعرف حب مولاه للشعر فنظم قصيدة بديعة وصف بها حالته في الأسر ومدح الملك بما لم يمدح به ملك من قبله، وإن الشاه سمع منه هذه القصيدة فطرب كل الطرب وأمر بأن يملأ فوه ذهباً وخلع عليه خلعة سنية

لما سمعت الخبر الأخير خرجت من المسجد لأهنئ الشاعر وأنال جائزة منه على هذه التهنئة . وقد وجدته ضاحكا مستبشراً ورأيت من عطفه على وإيناسه إياي ما شجعني على أن أطلب منه تعييني في خدمته أو التوسط لدى واحد من معارفه لأشتغل لديه ، وشرحت له حالتي بالتفصيل وذكرت له كل الحوادث التي حدثت لي . وقد استكشفت أن سبب اضطراب ناظر الزراعة عندما علم بعودة سيده هو أنه بدد كثيراً من أمواله عند ما اعتقد أنه قد مات . ورجوت أن أنال عمله ، فأخبرت الشاعر بكل ما سمعته عن هذا الناظر الخائن ، ولكني مع الأسف لم أقنع فيما كنت أريده إما لأن الشاعر لم يثق بقولي وإما لأن الناظر استطاع إقناعه بأنه بريء. وبقي الرجل في عمله وبقيت منتظراً ما يجود به عليّ صاحبي في الأسر صدقة وإحساناً .

وأخيراً طلبني عسكر خان في صباح يوم من الأيام وقال لي : « حاجي بابا، أيها الصديق ، تعرف مقدار ما أجنه لك من الشكر على ما لقيته من عطفك وكلانا واقع في أسر التركمان وقد آن الوقت الذي يجب فيه عليّ إظهار عرفاني للجميل ، لقد تكلمت بشأنك مع ميرزا احمد « حكيمباشي » رئيس أطباء الشاه وذلك بمناسبة ما علمته من احتياجه إلى تابع . ولا شك أنه إذا وجد فيك ضالته فانه سيعلمك صناعته فتجد الطريق المؤدي إلى الغنى فاذهب إليه وقل له إنك أنت الرجل الذي حدثته عنه فانه سيضيفك في الحال »

لم أكن ميالا من قبل لمزاولة الطب وذكرت القصة التي سمعتها من الدرويش فشعرت نحو الأطباء باحتقار شديد . ولكن حالتي كانت حالة اليائس لأنني كنت قد أنفقت آخر دينار مني . ولم يعد أمامي غير أن أقبل أي عمل حتى ولو كان حرفة الطبيب .

وفي اليوم التالي ذهبت إلى منزل (الحكيمباشي) وهو مجاور لقصر الشاه ودخلت حديقته الواسعة المهملة فوجدت فيها على الجانبين غرفاً بها أسرة للمرضى ووجدت غرفة كبيرة أمامها أناس كثيرون فعلمت أنها غرفة الطبيب . وبقيت منتظراً عند بابها حتى يأتي دوري فيؤذن لي بالدخول

ولم يكن كل المنتظرين من المرضى بل كثير منهم من أصدقاء الطبيب أو أصدقاء أصدقائه ، وقد جاءوا لأمور عادية لا شأن لها بحرفته . والعادة في البلاد الفارسية أن يستقبل الأطباء أصدقاءهم في أوقات عملهم وأن يقدموا مقابلاتهم الشخصية على مقابلات المرضى . وفضلا عن ذلك فان موظفي القصر الملكي كانوا يدخلون حجرة الطبيب بغير استئذان ويطيلون المكث فيها والمرضى في انتظار خروجهم عند الباب

كان هذا الطبيب متقدماً في السن، عيناه غائرتان في وجهه، وعظام وجهه كبيرة ، وشعرات لحيته ورأسه قليلة . وكان محدودب الظهر من كبر السن قليل الكلام يبادر مريضه بأسئلة قليلة متناهية في الاختصار والايجاز، ويظهر الاشمئزاز إن كان الجواب طويلا ، وكان يبدو على وجهه أنه يفكر في كل شيء إلا الشيء الذي يكون أمامه

ولما جاء دوري أخبرته بأني أنا الذي كلمه الشاعر من أجلي فحدق في نظره لحظة قصيرة ثم أمرني بالانتظار لأنه كان يريد أن يكون كلامه معي على انفراد . وبعد أن انتهى من عمله مع الناس نادائي فذهبت معه إلى غرفة ضيقة ملحقة بمكتبه وهي التي يدعونها « الخلوة »

الفصل التاسع عشر

حامي بابا يصير نابعاً لطبيب الشاه

جلس الطبيب وأمرني بالجلوس فجلست مظهراً ما يجب إظهاره من الاحترام والرهبة عندما يتشرف حقير مثلي بإكرام عظيم كطبيب الشاه . وقال لي إن الشاعر كله في شأني ، وقال إنني رجل يمكن الاعتماد عليه . وإنني قوي صبور وإنني جربت تجاريب كثيرة في الحياة وإن لي اقتداراً خاصاً على كتمان الأسرار .

طأطأت رأسي مراراً وهو يكلمني وكنت شديد الحرص على ألا تظهر قدماي فأخفيتهما تحت طرف الثوب واستمر الطبيب يقول : « وما دامت هذه صفاتك فستكون حاجتي إليك كبيرة . وليس يصلح لخدمتي من لم تتوافر فيه صفة من هذه الصفات . وأنا واثق بما يقوله عسكر خان ، فاذا برهنت أنك عند ظنه فيك فستجد عندي فوق ما ترضيك » ثم أدناني منه وقال لي بصوت خافت كأنما يخشى أن يسمعه إنسان : « لقد جاء أخيراً سفير من أوربا وفي حاشيته طبيب كبير وقد نال هذا الكافرشهرة واسعة وهو يعالج مرضاه بطريقة جديدة علينا . وليس في وسعنا أن نتعلمها الآن . وجاء بصناديق مملوءة بمئات الأدوية التي لا نعرف أسماءها ، وهو يدعي أنه يعرف أشياء يجهلها جميع الأطباء الفارسيين، ولا يفرق بين الأمراض الحارة والأمراض الباردة، ولا بين الأدوية الحارة والأدوية الباردة . وهو لا يتبع نظريات جالينوس وابن سينا بل يقول إن علمهما قد أصبح الآن علماً قديماً . وأغرب من ذلك أنه يدعي القدرة على منع مرض

2017-11-11

الجدري يجرح بحدته في الذراع ويضع مادة فيه يقول إنه يستخرجها من البقر . ونحن لا نريد أن نسمح له بأخذ اللقوح من أفواهنا ومزاحمتنا في حرفتنا وفي بلادنا . ومن أجل ذلك أشعر بحاجة كبيرة إلى مساعدتك

ولقد مرض رئيس الوزارة منذ يومين بعد أن أكل مقداراً كبيراً من الخس والخيار . وأنا لم أعرف مرضه . وعلم السفير بمرضه فأرسل إليه طبيبه . ولكن كان بين رئيس الوزارة وبين السفير عداوة على ما يظهر لأن السفير يلح في طلب امتياز سياسي لدولته ويرى رئيس الوزارة أن في إجابة ذلك الطلب مساساً بمصالح فارس، فرفضه وغضب السفير من الرفض ، ويظهر أن هذا المرض جاء فرصة مناسبة للصلح بين شخصيهما بغض النظر عن موضوع الخلاف فأرسل السفير الطبيب بحاملة . ووجب على رئيس الوزارة أن يجامله كذلك بألا يرد الطبيب . ولو أنني علمت بهذا الأمر في الوقت المناسب لاحتلت بأية حيلة لمنعه ، وقد سمعت أن هذا اللعين قد أعطى رئيس الوزارة قطعة واحدة من دواء أبيض عديم اللون والرائحة فخفف ألمه . وكان تأثيرها قوياً عجيباً وقد دهش رئيس الوزارة حتى صار لا يتحدث إلا عن قدرة هذا الطبيب . وتسامع كل أهل القصر بذلك حتى إن الشاه نفسه أظهر دهشته وإعجابه ، واستدعى رئيس الوزارة ليقص الأمر على مسمعه . وكنت موجوداً في ذلك الوقت . فأمرني الشاه أن أبين ما أعرفه عن هذا الدواء وعن العلة، فبذلت كل ما في وسعي لإخفاء اضطرابي، وقد قبلت الأرض بين يدي جلالته وقلت : « إن نفسي فداك يا ملك الملوك إنني لم أر ذلك الدواء الذي أعطاه الطبيب الكافر لدولة الوزير ، ولكنني متى رأيته أخبرت جلالتكم عن عناصره . ولكنني أقول منذ الآن إن المرض كان سببه تلبس الشيطان بجسم الوزير بدليل أن الشفاء جاء على يد طبيب كافر لا يصدق بديننا ولا يؤمن بنبينا

قلت ذلك لكي أزعزع الثقة التي نالها هذا الطبيب، ولكنني كنت في نفسي شديد الرغبة في معرفة الدواء الذي استعمله . وأنت قد جئت لحسن الحظ في الوقت المناسب . وسأعتمد عليك في مساعدتي . والذي أريده منك هو أن تتصل به وتخدمه حتى تأخذ عنه علمه . ولكني أريد قبل كل شيء وفي أقرب وقت أن تعرف لي الدواء الذي أعطاه لرئيس الوزارة لكي أخبر الشاه عنه . اذهب الآن إلى السوق فاشتر خساً وخياراً وكل منهما مقداراً كبيراً وتمارض إن لم يعجبك المرض حتى يبدو لمن يراك أنك صرت بالحالة التي كان عليها الوزير واستدع الطبيب الأوربي فانه سيعطيك نفس الدواء الذي أعطاه للوزير فلا تتجرعه ولكن جئني ثم تناوله بعد أن أفحصه

أزعجني هذا المشروع الخطر فقلت : « إنني سأتبع كل ما تشير به ولكنني أخشى ألا يقبل علاجي ولا تستطيع أنت أن تداويني أو أن يكون الرجل ذكياً فيعطيني دواء آخر، وقد سمعت أعاجيب عن الأطباء الأوربيين ، ومع ذلك فدلني على الطريقة التي أصل بها إليه »

فقال : « إن عوائد هؤلاء القوم وأخلاقهم تنافي عوائدنا وأخلاقنا منافاة تامة . وسأخبرك بشيء منهم يعطيك فكرة عن مقدار التناقض بيننا وبينهم . إنهم بدلا من أن يحلقوا رءوسهم ويطلقوا لحاهم وشواربهم — كما نفعل نحن — يحلقون اللحى

2017-11-11

والشوارب ويتركون شعر رؤوسهم نامياً كالنساء ولا يأكلون بأيديهم كما نفعل نحن بل يأتون بقطع من الحديد لها عدة أطراف محدودة ويتناولون بها الطعام من الأطباق إلى أفواههم غير مبالين بأن يجرحوا ألسنتهم أو شفاههم ، وهم لا يخجلون من لبس ثيابهم الضيقة التي تظهر كل جزء من أجسامهم كأنما أحدهم يمشي عارياً في الطريق ، وهم لا يصلون خمس صلوات في اليوم مثلنا ولا يرون في تركهم الصلاة إثماً ولا معصية . وصفوة القول أن كل شيء عندنا مخالف لكل شيء عندهم ، وهم أقذر ناس خلقهم الله لأنهم لا يمرغون النجس من الطاهر ، فهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر ويدفنون الميت دون أن يغسلوه ليطهر ويغسلون كل شيء ولا يطهرون بدنه أجسامهم بالماء »

قلت : « نعم لقد سمعت أن كل ذلك من صفاتهم وسمعت أيضاً أنهم حتى فاذا أظهرت لأحدهم الشك في قوله أو قلت إنه كاذب حاربك من أجل ذلك حتى يقتلك أو يموت »

فقال الطبيب : « هذه أيضاً إحدى الصفات التي سمعتها عنهم وأحذرك في معاملتهم من شيء هام وهو إياك أن تقول لأحدهم على سبيل المجاملة كما يقول أحدنا للآخر : « هذا الشيء لك أو هو تحت تصرفك » فانه سرعان ما يعاملك بقولك فيأخذه ، فهم لا يمرفون هذه المجاملات ، ولا تقل لهم إلا الحقيقة فان ذلك يلائم طباعهم »

قلت : « إذا كان هذا شأنهم فهل تظن أن الطبيب سيغفر لي كذبي عليه واستدعائي إياه لكي يعالجني من المرض وأنا لست مريضاً ؟ »

فقال الطبيب : « كلا يا حاجي بابا ، إنك ستكون مريضاً بالفعل ، فاذهب في الحال وكل أكثر ما تستطيع أكله من الخس والخيار وهات لي الدواء الذي سيعطيه لك في هذه الليلة »

ثم منعني عن الاستمرار في مناقشته فأمسك بيدي وأخرجني برفق من حجرته فخرجت وأنا لا أعرف هل أضحك أم أبكي من هذا الاتجاه الذي اتجهت حياتي فيه ومن اضطراري إلى استدعاء المرض لنفسي دون أن أعرف ماذا يكون أجري على تحمل آلامه

وبعد أن ابتعدت عن حجرة الطبيب وقفت وحدثتني نفسي بأن أعود إليه وأساومه على الأجر ولكنني لما عدت إلى الحجرة لم أجده فيها ، ويظهر أنه صعد إلى منزله ، فاضطررت إلى الذهاب حيث وجهني

الفصل العشرون

عاجي بابا يخدع طبيبه

سألت عن منزل السفير وأنا أنوي أن أنفذ ما أشار به الطبيب ولكنني كنت أعتقد أن أكل الخيار والخس وإن أثر في معدة الوزير الهرم فلن يؤثر في معدة قوية لشاب مثلي

على أنه لم يكن أمامي بد من الحصول على دواء الطبيب الأوربي بأية حيلة ، وقلت لنفسي إنني إذا ادعيت المرض فان هذا الطبيب سيعرف الحقيقة ويطردني من منزله ففضلت أن أزعم أنني خادم لحرم الشاه وأختلق قصة أنال بها ما أريد . وعرجت على حانوت لرجل يبيع الثياب فاستأجرت منه ثوباً كالثياب التي يلبسها في العادة خدم القصر الملكي وتصنعت حالة تدل على أنني لست خادماً عادياً بل من رؤساء الخدم ، وتذكرت ما قاله لي ميرزا أحمد

2017-11-11

فاقتربت من باب السفير وأنا خائف متردد

وجدت القسم الذى يشغله الطبيب فى منزل السفير مملوءاً بالنساء الفقيرات وكل واحدة منهن تحمل طفلا على ذراعيها، وقيل لى: إنهن جئن ليفصدن الأطفال وقاية من الجدرى . ويظهر أن أسباباً سياسية حملت السفير وطبيبه على التطوع لخدمة الطبقات الفقيرة فى إيران

لما دخلت الغرفة وجدت رجلا فى وسطها أمام منضدة خشبية عليها أكداس من الكتب وآنية فيها المادة التى يستعملها فى التطعيم وكانت ثيابه مثل الثياب التى وصفها لى ميرزا أحمد والتى رأيت بعض الأوربيين يرتدونها

وكان حاسر الرأس مما يدل على عدم احترامه الناس، وحول رقبته قطعة من القماش كأنما يريد أن يخفى مرضاً بها . وثيابه شديدة الالتصاق بجسده خصوصاً الجزء الأسفل من ثوبه لأن شكله فيه كان غير لائق ، وهو مناف كل المناقاة للآداب . وكان حذاؤه فى قدميه فلم يخلعه ولم يبال بالسجاجيد الثمينة التى هو واقف فوقها على النقيض منا نحن الفارسيين فاننا نخلع الحذاء فى داخل الغرف

وجدت هذا الطبيب يتكلم بلثتنا وسألنى ساعة رآنى بتلك اللغة عما أريده، فوجدت الواجب يقضى بتجميل الرد جهد الطاقة فقلت له : إن شهرته قد انتشرت فى جميع البلاد الفارسية بأنه لقمان زمانه وأن ليس فى هذا العصر من يضارعه أو يحدثه نفسه بمنافسته

فلم يجفى بحرف عما قلته ، ويظهر أيضاً أنه لم يطرب من هذا الثناء كما يطرب أحدنا عندما يسمع مثله . وقلت له : إن الملك نفسه علم بتأثير دوائه فى نفس الوزير وأمر مؤرخيه بأن يقيدوا فى تاريخ البلاد هذا الحادث على اعتبار أنه من أعجب الأشياء الخارقة للعادة فى مدة حكمه ، وإن سيدات القصر سمعن باسمه فقلن إنهن لن يتداوين عند غيره إن مرضن، وإن جاريته الشركسية مريضة بالفصل وإن « الأتا باشى » أرسله بأمر خاص من جلالة الشاه لكى يحصل على دواء مماثل للذى أخذه الوزير . وختمت قولى بطلب هذا الدواء

ظهر لى أن الطبيب أخذ يفكر فيما سمعه منى وقال لى بعد مدة وجيزة: إنه ليس من عاداته أن يصف دواء لمريض لم يره لأن ذلك قد يكون أكثر ضرراً للمريض من عدم العلاج بتاتاً ، وإنه على استعداد لمعالجة الجارية إن سمح له برؤيتها . فأجبته على ذلك بأن رؤية أوجه السيدات ممنوعة قطعاً ، وأنه عند الضرورة القصوى يسمح بجس النبض دون رؤية الوجه على شرط أن تكون اليد مستورة برداء

قال لى الطبيب إنه لا يستطيع معالجة المريض بجس نبضه فقط بل يجب أن يرى لسانه أيضاً .

فقلت له : إن رؤية ألسن السيدات أمر لا عهد لنابه فى البلاد الفارسية ، وإن تحقيق هذا الشرط يستدعى صدور أمر خاص من الشاه ولكن الذى يعرض أمراً كهذا على جلالته يعرض لسانه للقطع عقاباً على جرأته .

قال لى الطبيب : « تذكر إذن أننى إذا أسلت لك الدواء فانما أسلمه على شرط ألا أتحمل مسئولية من تأثيره لأنه قد يقتل بدلاً من أن يشفى » فلما أكدت له أن ليس هناك مجال للخوف فتح صندوقاً كبيراً مملوءاً بالعقاقير وأخرج ذروراً أبيض وضعه فى غلاف أبيض صغير ودفعه إلى فسألته عن نوع هذا الدواء وعن تأثيره، فقال لى بغير التحفظ الشديد الذى بيديه أطباء فارس — كل الذى أردت أن أسمعه . ولو كان المسئول طبيباً فارسياً لما فهمت من كلامه غير أسماء أبقراط وابن

2017-11-11

سينا ولفان ، لكثرة ما يلجأون فيه من الابهام والغموض .

ولما وعيت ما قاله شكرته ورجعت فى الحال إلى ميرزا احمد طبيب الشاه وقد كان ينتظر عودتى بصبر نافد، وتظاهرت بأننى مريض لأوهمه أننى أكلت الخيار والخس وأننى بسبب ذلك مرضت كما مرض الوزير فتأثر الطبيب الفارسى من رؤيتى وأظهر لى ما يشبه الشفقة .

قلت له بألفاظ متقطعة كالمريض الذي أشرف على الوفاة : « لقد دخلت عيادة ذلك الطبيب وانبعث أوامرك فأجدنى وأنا منتظر كرمك »

فقاول ميرزا أحمد أن يحصل منى قبل كل شىء على الدواء الذى أتيت به ولكننى قبضت يدى وتركته يفهم أنى أنتظر جزاء سريعاً وأننى مصمم على ابتلاع الدواء لأشفى من مرضى إذا لم يعجل بمنحى ما أستحقه من التعويض

وكان خوفه شديداً من عدم الحصول على الدواء وعجزه تبعاً لذلك عن إجابة الشاه على ما سأله عنه فقدم لى قطعة من النقد الذهبى وتلطف معى ليحصل على هذا الدواء أكثر مما يتلطف عاشق أمام حبيبته .

وأردت أن أزيد فى التصنع حتى أحصل منه على قطعة ذهبية أخرى ولكنى رأيت الطبيب يجهز لى دواء ليشفينى من المرض الذي أتظاهر به وخشيت من دوائه ، فلت إلى الانتهاء من تمثيل هذا الدور وتركت له الدواء .

فلما أخذه نظر إليه باهتمام شديد وقلبه بين يديه وظل كذلك مدة طويلة دون أن يبدو عليه أنه عرف شيئاً عنه فقلت له: إن الطبيب الأوربي أخبرنى عن المادة التى صنع منها الدواء وعن طبيعته وتأثيره . فأصغى إلى باهتمام شديد ثم قال : « كأنى كنت ناسياً كل هذه الأمور الأولية التى تعلمتها فى أول عهدى بمدرسة الطب »

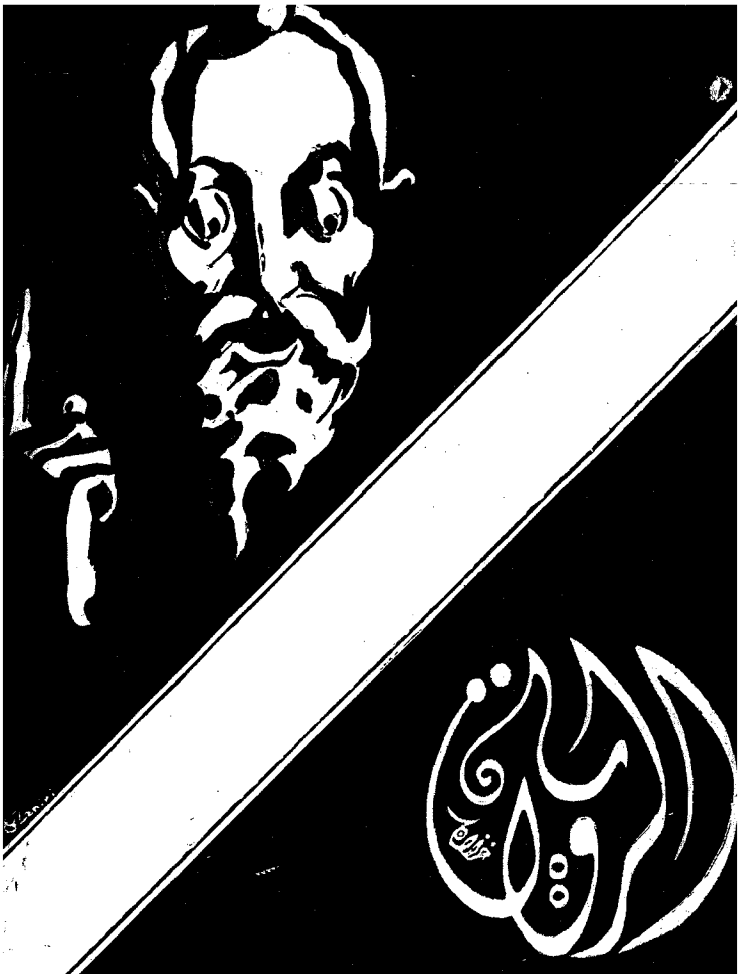
وكان فى جملة ما قلته له : إن الزئبق يدخل فى تركيب هذا الدواء

فقال : « وهل يريد هذا الكافر اللعين أن يسمم أجسامنا بالزئبق ويضيع بهذا الجهل شهرتى الواسعة التى لم يحلم بمثلها أبوه ؟ إن الزئبق بارد والخس والخيار باردان أيضاً، فهل الثلج يذيب الثلج؟ إننا لا نعالج الأمراض الباردة إلا بأدوية حارة والعكس بالعكس ، وهذا الحمار لا يعرف المبادئ الأولية فى علم الطب فيجب ألاَّ نسمح له بالضحك على ذقوننا بهذا الشكل »

وقبل أن يتم ملاحظاته جاء رسول من قبل الشاه يدعوه إليه، فأسرع فى لبس الثياب التى يقابل بها جلالته وأخذ معه الدواء وذهب مسرعاً مع الرسول

« يتبع » عبد اللطيف النشار

المجموعة الأولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فنى المصرلوسيه ، والأوذيسة لوميروس، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد


الرواية

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن ستة
أشهر
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٦ | ٢٣ شوال سنة ١٣٥٧ — ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية



فهرس العدد

صفحة			
١١٨٦	بين العدالة والقانون	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...
١١٩٦	جرذان الفنادق	للكاتب الانجليزي آرثر كونان دويل	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة ... ...
١٢٠٤	روض الفرج	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
١٢١٢	أحية أم ميتة ؟	لشاعر الهند وفيلسوفها « طاغور »	بقلم الأديب غرى شهاب السيدى
١٢٢١	السكيرة	للقصصي الفرنسي جي دي موباسان	بقلم الأديب كمال الحريري ... ...
١٢٢٥	حابي بابا أصفهاني	للكاتب الانجليزي جيمز موير ..	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ...

2017-11-14

بين العدالة والقانون

قصة مصرية
بقلم الأستاذ دريني خشبة

— وماذا تستطيع أن تنال بالعنف يا صديق إبراهيم ؟ لم لا تلجأ إلى قدس القضاء تعرض عليه شكواك ؟

— لن ألجأ إلى هذه الوسيلة العاجزة يا صديقي ؟

— القضاء وسيلة عاجزة ؟ ماذا تقول ؟ لقد بلغ القضاء في مصر ذروة العدالة ، بل هو في مصر أنزه منه في كثير من الأمم التي تفوقنا حضارة ... فكيف تتهمه بالعجز يا صديقي ؟

— أنا يا أخي لا أتهم قضاءنا بالعجز ، وإن اقتناعي بنزاهة قُضاتنا لا يفوقه اقتناع . لكنني مع ذلك أعده وسيلة عاجزة في رد الحقوق ، وإن شئت التخفيف من حدة التعبير ، فقل إنه وسيلة بطيئة بطئاً يشبه حَبْو المقعد

— أنت تقسو في حكمك يا إبراهيم !

— لست أقسو ، إذ هذا هو الواقع ، بل هذا هو الذي يشجع أمثالنا على هضم حقوقنا .. إنه خبير بأحوال محاكمنا وتعقد الاجراءات القضائية فيها ، ثم هو مطمئن من أجل هذا إلى خشيتنا وشدة تخوفنا من أن ندخل المحكمة . وهذا شعور عجيب يلابس الظالمين وآكلي الحقوق ويجعلهم يفترسون الضعفاء ويخرجون من مساومتهم باغتيال حقوقهم واضطرارهم إلى قبول ما يعرضون عليهم ساغرين !

— إذن هذا هو شعور العجز !

— عجز من يا صديق ؟

— عجزك أنت . إنك بكلامك هذا تبرهن على أنك رجل غير مقاوم ، تؤثر أن تعيش على هامش الحياة ، دون أن تخوض عبابها فتصارع الأهوال فيها !

— أنت تظلمني يا عبد الكريم ، بل أنت لا تفهمني !

— بل أنا أفهمك أكثر مما تفهم أنت نفسك . إنك مع خشيتك من اللجوء إلى القضاء ، وهو الطريق الأوحد الذي تنال به حقوقك ، تدعي أنك ستنال هذه الحقوق بالعنف ، فماذا عساك تفعل ؟

— سأقتله !

— أنت ؟

— أجل ، أنا !

— إنك لن تستطيع هذا !

— ولم لا أستطيع ؟

— لأنك رجل مهذب لا ترضى أن تلوث يديك الشريفتين بالجريمة . ومع ذلك فالقضاء الذي تفرمته اليوم ، هو الذي سيطاردك حتى يثأر لأخيك منك ... على أني لا أدري علام تريد قتل أخيك !

— لأنه ظلمنا !

— وكيف ظلمكم يا صديق ؟ أليس أبوك — عليه رحمة الله — هو الذي نزل له عن هذه الدور والضياع ؟ هل اختلسها منه مصطفى ؟

— أبي لم ينزل لأحد عن أملاكه !

— تريد أن تقول إن هذا عمل مزور ؟ أليس كذلك ؟

— لا ... وليس هذا أيضاً !

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-11

— إذن ماذا يا صديقي ؟

— لقد كان أبي يضارب بأمواله في التجارة وقد أراد أن يسون ثروتنا بالنزول لابنه الأكبر عنها ... فهو نزول صوري كما ترى

— إذن هي اللعبة التي يلجأ إليها الناس ليأكلوا أموال غيرهم إلى أموالهم ؟

— لقد كان أبي رجلا شريفاً ، ولم يسع يوماً إلى أكل أموال أحد ...

— وأنت مع ذلك تجيز تصرفه وتبرره ؟

— ... ؟ ...

— وهل كسب أبوك في مضارباته أم خسر ؟

— لقد خسر خسارة فادحة !

— ومن الذي احتمل خسارته وقد نزل لابنه هذا النزول الصوري عن أملاكه ؟

— احتملته الشركة التي كان يعاملها !

— وأموال هذه الشركة حلال لأبيك يضيعها بمضارباته في غير مبالاة ؟

— لو أنه ربح لربحت الشركة مالا عظيما ... وكم من مرة أربحها الألوف !

— إذن لم يكن أبوك تاجراً ، بل كان ... عفواً يا صديقي !

— عفواً ماذا ؟ ماذا كنت تريد أن تقول ؟

— لو كان الرجل الذي تتكلم عنه رجلا آخر غير أبيك لقلت إنه كان لصاً ولم يكن تاجراً ...

— إنك تهيفني يا عبد الكريم !

— عفواً يا صديقي فوالله ما أردت إهانتك قط، وقد عرفت أباك ، فعرفت فيه النبل وحميد الخصال .. غير أن محاولته سون ثروته بهذه الوسيلة كان ضعفاً منه ، لأن الذي لا يجيد السباحة يخلق به ألا يلقي بنفسه في اللجة ، وكذلك التاجر الذي يعتمد على الله في كسب قوته ، يخلق به ألا يكون مضارباً ، فاذا لم ير بأساً في أن يكون كذلك ، فلا يخلق به أن يتجرد من كل فضائله علناً منه أن المقامرة ليست أعلى درجة من اللصوصية

— وماذا كنت تريده أن يصنع إذن ؟

— كان الأفضل أن يدخل المترك وثروته من ورائه تسنده وتشد أزره ،

— وكيف كانت تسنده وقد خسر خسارة كانت تذهب بكل ما يملك ؟

— لو حدث هذا لكان بقي له شرفه ، والتاجر الذي يخسر ماله ولا يخسر شرفه يستطيع أن يستهد المال إذا بدأ الشوط من جديد ... أما أنه يستحل أموال الناس فيأكلها بالباطل فهذا هو ضياع الشرف ، والتفريط في الكرامة التي جعلها الله تاج عباده من بني آدم ... على أنه ما استفاد أبوكم ؟ لقد قد ملوماً محسوراً يبقى على القليل من المال الذي أضاع حتى مات من الهم ، وتركك أنت وأخاك الأصغر وأختك الصغرى فرائس لجشع أخيكم يستبد بكم ، ويذيقكم لباس الجوع والخوف ، دون أن يرعى الله فيكم ، ولا أن يرجو خشيته !!

— لهذا أردت أن أقتله يا عبد الكريم !

— أنت تعود إلى نغمة لا أحب أن ترددها أمامي وأنت تبرهن مرة أخرى على ضعفك واستخذائك... والرجل الذي يهرب من القضاء العادل لأنه يخشى كما يدعي ، لا يستطيع أن يقتل دجاجة

— إذن ماذا أصنع غير أن أتلجأ إلى القضاء ؟

— وحتى القضاء يا إبراهيم لم يعد لك أمل في أن ينتصف لك !

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن القاضى سيجد نفسه مقيداً بعقود بيع رسمى من أبيك لأخيك ، فماذا يصنع ؟

— إنها عقود باطلة !

— هذا كلام تقوله أنت ، وقد تفهمه العدالة التى تتصورها ، لكن القضاء الرسمى لا يفهمه !!

— القضاء الرسمى ؟! هاها ... أم أقل لك ؟

— أم تقل لى ماذا ؟

— أم أقل لك إن القضاء كما يجرى عندنا هو أحسن وسيلة لنصرة الظالمين وإضاعة حقوق المظلومين ؟ القانون ! آه من قانونكم يا رجال الحاكم ! القانون الذى أصبح فى اختلاف تفسيره اختلاف توزيع العدالة ، فهذا قاض يحكم ويزعم أن حكمه العدل المحض ، فيأتى قاض آخر يلغى هذا العدل المحض ويصدر حكماً يناقضه ، فيكون العدل المحض الذى صدر عن القاضى الأول ظلماً محضاً ، ثم ما يلبث قاض ثالث أن ينقض الحكمين جميعا ويصدر هو عدله المحض ، ولا تدرى العدالة بين القضاة الثلاثة أين موضعها ولا أيان مستقرها

— فى كل ذلك تمحيص للحقيقة يا إبراهيم

— تمحيص للحقيقة ؟! ما شاء الله !! وفيه أيضا إضاعة للمساكين وصرف لهم عن مرتزقهم وإنفاق على المحامين وإضاعة ما يملكون من كفاف العيش ليحصلوا على ثمن تذكرة يسافرون بها إلى مقر المحكمة ... وفى كل جلسة يحسبون أنها الأخيرة فتكون الأولى ، وينطلق القاضى فيؤجل ويؤجل، وينتحل الأعذار للتأجيل ، وكلما زين لهم محاميهم الآمال تبددت أمانيهم بين شفاه القضاة ، فعادوا إلى بلادهم محسورين

— وماذا عسى القاضى أن يصنع وهو يقف أمام براهين قانونية ومواد مكتوبة ترسم له خطاه ؟

— لست أدرى ماذا يصنع القاضى لأنى لست قاضيا ، ولو كنت قاضيا لرفضت أن أنظر مائة قضية فى جلسة واحدة لا تستغرق ساعتين !

— وهذا أيضاً لا يد للقضاة فيه يا صديقى !

— كل شىء لا يد للقضاة فيه ، وهذا هو الذى يصرفنى عن مقاضاة أخى .. وقد أفقتنى من حلمى.. لنفرض أن القضاء عندنا يسير فى مجراه السريع .. ولنس هذه القضايا المكدسة فى محاكمنا ، والتى يكون قد مضى على آلاف منها سنون وسنون ولما يصدر فيها حكم نهائى ... ولنس جشع المحامين وتلاعبهم بتفسير المواد ليُتَصَيِّروا الظلم حقاً والحق باطلاً ... لنس هذا كله ... فقد أرحتنى بصراحتك من الالتجاء إلى قانوننا لأنه لن ينصرنى.. قل لى إذن يا صديقى المحامى ماذا أصنع لأنال حقى من أخى ؟ وماذا يصنع أخى وأختى ليردا حقوقهما المغتصبة !

— لقد قلت لك كلمة القانون يا إبراهيم !

— كلمة القانون التى لا تجمل لأحد منا حقاً عند أخينا !

— لقد فهمت تماماً ما أردت أن أقول ... وأرجو ألا أثيرك بهذا فأنت تستثيرنى ، وبما أننى صديقك أحببت ألا أخدعك !

***

مسكين هذا الشاب البائس إبراهيم !

لقد انصرف عنه صديقه المحامى بعد أن فاجأه بموقفه وموقف إخوته من القانون تلقاء شقيقهم

2017-11-11

الأكبر ، ثم جلس وحده يفكر . . . ويقدح زناد التفكير ، بيد أنه مع ذلك لم يستقر على رأى

لقد لجأ قبل أن يلقى صديقه العامى إلى ذوى المروءة من أهله وأعيان بلدته ليكونوا شفعاءه عند أخيه ، لكن أخاه لم يلن ولم تتحرك عاطفة واحدة من عواطف الرحمة فى قلبه ... لقد استولى على قلب أخيه شيطان الدنيا ... لقد استحوذ عليه حب المال فأعماه وأضل بصيرته . . . لقد استذله سلطان المادة فأنساه هذه المعانى السامية التى تصل بيننا وبين الله بصلات النور والهداية

ماذا يصنع إبراهيم ؟ ليكن هذا المال الذى نزل عنه أبوه لوفده اتقاء ماتنخفض عنه المضاربة التجارية مالاً غير حلال، لأن العدالة لاتجعله حلالاً لأحد من أبناء التاجر المتوفى ، لكنها تجعله حلالا للشركة التى وقعت على رأسها الخسارة من جراء هذا التهريب

وليكن هناك هذا الفارق العظيم بين العدالة والقانون

لكن العدالة فى نظر إبراهيم ليست هى العدالة المطلقة التى تعرفها الفلسفة . . . إنه يعتقد ، بل هو يجزم بأن الثروة التى نزل عنها أبوه لابنه الأكبر عن طريق تصرف قانونى صحيح ، هى حلال لأبناء المتوفى جميعاً ... وليس مما يعنيه أن يكون هذا المال حلالا أو حراماً ، لأنه إن كان مالا نجساً فهو بأيلولته للورثة قد تطهر كما يتطهر مال الربا بوفاة المرابى فلا يحرم أكله على أبنائه

ثم إن إبراهيم لا يقر اللعبة التى انتهت باستيلاء أخيه على كل ما كان يملك أبوه

وهو لا يحترم هذا القانون الذى يحرمه ظلماً من ميراثه لأنه يعرف وجميع إخوته يعرفون أن أباهم لم يكن يقصد إلى تلك النتيجة الخائبة التى انتهى إليها تصرفه المعيب

وهو يقف الآن حائراً فى منتصف طريق الحياة لا يدرى أين يذهب ولا كيف يسير

إنه ما يزال يشدو العلم فى مدارس القاهرة ، فليس فى يده سلاح يغنيه عن هذه الثروة المغتصبة الضائعة ؛ وهو شاب عصبى المزاج ، يفكر تفكيراً غير سليم ولا مستقيم وإن كان فيه كثير من الوجاهة

إنه ينظر إلى معترك الحياة بمثل النظرة التى ينظر بها أهل هذا الزمان ... نظرة المال !

إنه يرى كل شىء قد قام فى زماننا على دعامة من الذهب ... فالتعليم الراقى لا يناله إلا القادرون عليه من أبناء الأغنياء ولو كانوا أحط فى مراتب الذكاء من أبناء الفقراء ... والتعليم الراقى يصل المتعلمون إلى مناصب الدولة الكبيرة فى حين يحرم منها أبناء الفقراء لأنهم لم يتعلموا ، والديمقراطية نفسها هى عنده كذب فى كذب ، لأن معناها فى اعتقاده وصول الأغنياء القادرين على الانفاق على المعركة الانتخابية إلى كراسى البرلمان ، فيجتمع ثمة رهط من المستبدين الأرستقراطيين ليتشدقوا بأنهم ممثلو الديمقراطية

فالتعليم ومناصب الدولة وكراسى البرلمان وقف فى نظره على أبناء الأغنياء ، وإذا أحد من أبناء الفقراء وصل إلى إحداها بفلتة من القدر ظل منظوراً إليه بأعين الريبة والامتعاض فى كل وسط ينشاه ، وهذه الأعين هى أعين الأغنياء ...

لقد كان ابراهيم يطمح فى مستقبل هو له أهل

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-14

ومن أجل هذا فكر فى الحصول على نصيبه من ثروة أبيه بأى طريق ، لأن المال وحده هو الذى يتيح له ما يروم من جاه وسعادة وبلهنية ... وإذا فقد المال فقد القوة العاصمة ، وإذا فقد المال فقد فى بلدته الخاملة الصغيرة وحرم من التعليم ، واضطر لأن يناقش أخاه ويمرغ جبينه تحت قدميه من أجل اللقمة والكساء ، وبذلك ينحط إلى درجات العبيد

لقد قسا عليه أخوه ، ولم ينفق عليه بعد موت أبيه إلا كما يتصدق بخلاء اليهود ... وكان يصحب كل قرش يرسله إليه بالمن المؤلم والأذى المرير ... وقد طفح الكيل حينما أنذره أخوه أنه لا يرى ذهابه إلى المدرسة ، وأنه يفضل أن يبقى ليساعده ، وقد فهم إبراهيم هذه المساعدة على أنها حرمان وتسخير ، ففهما على أنها أول الاستعباد ، ومن أجل ذلك صمم على أن يستخلص حقه من أخيه ولو أدى ذلك إلى قتله :

ما أبشع القتل !

لقد كان مصمما على الجريمة قبل أن يلقاه صديقه الحامى عبد الكريم ، لكن عبد الكريم كان صريحا فى النصح إليه ... لقد قبح إليه الجريمة ، والانسان العصبى سهل القياد ، يثور بسهولة ، ويهدأ بسهولة أيضاً ، لكن صديقه قد أغلق فى وجهه كل باب ... باب الجريمة وباب القانون على السواء ... وباب العدالة مغلق بطبعه لأن قلب أخيه الأكبر مغلق بطبعه كذلك ... فماذا يصنع ؟

هل يخضع لما يريد له أخوه من قهر واستعباد ومذلة ؟ لا ! لن يكون هذا ! فنفس إبراهيم نفس أبيه لا تقبل الضيم ، ولا يروضها شئ على الهوان ... ثم هو يعرف أن إبراهيم الذى يطمع فى ثروة أبيه كلها ... أو الذى ذهب بثروة أبيه كلها ، سيذهب كذلك بالسعادة التى كانت من حق إخوته وسيضمها إلى سعادته هو ، وهو فى هذا لم يبال بالشقاء الذى يجره فقر إخوته عليهم والذى هو سببه ، فهو بهذا لص ، والعدالة تعتبره هكذا

كره إبراهيم أن يقتل أخاه إذن ، وكره لنفسه أن يلوث يديه بدم الجريمة كما ألقى عبد الكريم فى روعه ، لأنه شاب مهذب ... أو لأن القانون سيطارده ، وسيأخذه بدم أخيه إن فعل ... وقد هال إبراهيم أن يكون صاحب الحق فيقتل ثم يُقتل ... ماذا يستفيد من ذلك ؟ هل يستفيد شفاء نفسه من الحرد الذى يثيره الظلم فيها ؟ لكنه سيدفع الثمن ... وسيدفعه كبيراً مضاعفا ... سيسلم رأسه للجلاد ... سيخرج من هذه الدنيا الجميلة الشرقة دون أن يستمتع بحقه فيها ... ثم هو سيترك أخاه وأخته فريستين لأخيه الظالم ، وهو بهذا سيحرمهما من القلب الأوحد الذى يشفق عليهما ويرق لآلامهما ... بل هو سيحرمهما من النصير الذى يعرف أحزانهما ... وإذا خلا مكانه فى وجودهما فسيشغله مصطفى ... وسيشغله مصطفى بالاستعباد والقسوة والمن ... وستكون كل لقمة يأكلانها من يده ، أو جرعة ماء يشربانها فى ظله سما زعافا يمزق أحشاءهما ويهرأ كبديهما .. وحسبهما أن يكونا خادمين من خدم مصطفى ... أو كلبين من كلابه ...

ما أقسى القادر على إبراهيم !!

***

صبر إبراهيم برغمه ... وماذا يملك العاجز غير الصبر ؟

2017-11-11

وأزف موعد العودة إلى القاهرة حيث تفتح معاهد العلم أبوابها ... فانقلب صبره إلى جزع ... وكما لقى زميلا من أقرانه تحدث إليه عن السفر، اريد وجه إبراهيم، وشاعت الكآبة فيه، وحبس الدموع فى مآقيه، ثم استأذن وانصرف

وكان يوم أوبة الطلاب إلى معاهدهم، وخرجوا إلى المحطة فى أهلهم وذويهم فرحين مستبشرين ... لكن إبراهيم لم يذهب إلى المحطة ذلك اليوم، بل استخفى فى حجرته الضيقة، حجرته التى يتزعها القانون منه فيعطيها لأخيه لأنها جزء من المنزل

لقد صار الهواء خانقاً حول الشاب البائس ... لقد رأى الثروة تفلت من يديه باسم القانون ... وشهد سعادته تزور عنه وتشيح بوجهها الجميل الخلاب ...

نظر إلى جدران الغرفة فأوحت إليه بأفكار غريبة سوداء، وشهد الأبالسة ترقص فوقها تغريه بالشر، وتعد إليه السكين المرهف الشحوذ، وتصفر فى أذنيه، وتغريه فى ظهره، وتكلمه كلاماً عجيباً لم يكن من دأبه أن يسمعه من قبل

— لم تجلس بليداً هكذا؟ لم يفوز أخوك بهذه الدنيا كلها ويطردك من فردوسك إلى ذاك الجحيم؟ سيكون لك أبناء كما أن لأخيك أبناء، فلم تقذف بفلذات كبدك إلى أيدى الشقاء والتعاسة فى حين ينعم أبناء أخيك بخير ما فى الحياة من نعم وملاذ؟ سيتعلم أبناء أخيك ويصبحون أطباء وعلماء ويفوزون بمناصب الدولة وكراسى البرلمان، أما أبناؤك وأما أنت، فلن تجدوا حتى ما يملأ بطونكم إلا بشق أنفسكم، ولو أنصف القانون لكنتم مثلهم إن لم تفوقوهم لأنكم عبقريون!

— قم يا شيخ! لا ترض هذا الهوان الذى أنت مقاسيه! كيف يدعى أخوك أنك لا تملك حجراً من هذا البيت المنيف؟ إنه إن شاء طردك الآن فلا يكون لك مأوى إلا بيوت المحسنين؟ وإنما كان ذلك فماذا يكون فرق ما بينك وبين الشحاذين؟ قم! إنه لا يستحق إلا القتل! القتل وحده ينجيك مما أنت فيه! تستطيع أن تحتاط فلا يراك أحد وبذلك تستعمل القانون فى براءتك كما استعمله أخوك فى سلب حقوقك! أليس يحكم القضاة ببراءتك إذا لم تقم أدلة تدينك؟ لن ينهض ضدك برهان على أنك صنعت هذا! أليس بمثل ذلك ضاعت أموال الشركة التى ضاربت بها أبوك؟ ألوف من الجناة والمنصابين واللصوص والمبارين يفلتون من أيدى العدالة لأنهم لا يقعون فى شراك القانون! وهم يفكرون فى الجريمة والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل قبل أن ينفذوا خططهم فتجىء محبوكة وتطيش حولهم سهام القانون!

— هلم! لا تكن جباناً!

وهكذا ظلت الشياطين حاكمة على فؤاده تزخرف له وتنفخ فيه حتى تشجع قليلا وأخذ يفكر فى الجريمة بالفعل؛ وهونها عليه أن أباه وأخاه قد سبقاه إلى استخدامها من قبل، فقد استخدمها أبوه ليأكل أموال الشركة، واستخدمها أخوه ليفوز بكل الثروة التى نزل له عنها والده حتى لا تستولى عليها الشركة فيما إذا حاقت به الخسارة المالية، فلم لا يستخدمها هو؟ بل هو يستخدمها لغرض أسمى، إنه سيستخدمها للانتقام من أخيه الذى يريد أن يقتله قتلا مدنياً حيث يبقيه فقيراً معدماً ... وهنا، كما يفهم

2017-11-11

إبراهيم ، هو أشد القتل ، إذ ليس القتل فى رأيه دماً يتدفق من غلاصم القتيل ، بل القتل هو تحويل دم السعادة من مجراه الطبيعى إلى مجرى غير طبيعى باسم القانون ، فيعيش المنتصبة سعادته كالمقتول بل أشد ، لأنه يحيا حينذاك ليتألم حتى يموت ، وليشهد مأساته ويتجرع مرارتها ، بينما القاتل يحسو أفاويق السعادة التى سلبها من الغير بالغدر ، ويتلذذ دائماً بأن صاحبها الحقيق لم يستطع أن يستردها منه ، والذلك انه فى نفوس الناسيين ، بل هم أحياناً يشفقون به فى تيه وافتخار

إذن ، لقد صمم ابراهيم على قتل أخيه ... ولم يعد يفكر فى فشل محاولته مطلقاً ؛ بل هو قد صمم على ذلك وهو مدفوع بتيار العاطفة الشيوية التى تأكل صدر صاحبها ، كما تأكل النار بعضها . . . لقد عميت بصيرته هو أيضاً . لقد آمن بعجزه عن السعى فى الحياة كأن أباه لم يترك له شيئاً قط . وهذا هو أكبر عيوب شبابنا ... لقد كبر عليه أن يبدأ جهاده من حيث كان يظن أن أوشك أن ينتهى .. ومن أكبر عيوبنا نحن الشرقيين أننا سرعان ما نقنط من النجاح فى الحياة لمجرد الفشل الأول الذى نقع فيه ، أو العقبة الأولى التى تعترض سبيلنا ، وقد ننثنى عن مواصلة السعى ظناً منا أن كل شىء قد انتهى . ونحن أقوام تؤمن إيماناً سخيفاً بالحظ ، مع أن ديننا هو أقوى الأديان ، ولن نستحيى من أن ندعوه دين القوة والسعى ومواصلة الكفاح مع الاعتماد على الله فى ذلك جميعاً

لقد عبس ابراهيم للحياة وتجهم ، وانطلق يشكو سوء حظه ، ويتسخط على المقادير ، ولم يفكر فى خطة إيجابية قط ، لم يفكر إلا فى الوسائل المنتهة التى ينتقم بها من أخيه ... وألحت الشياطين على فؤاده توسوس فيه وتصرخ ، ثم تتلى دمه ليكون حاراً فواراً يستجيب ولا يتردد

وفكر وهو يشحذ سكينه فى أن يستخدم الرذيلة فى إخضاع أخيه . فكر فى أن يغرى به بعض السفهاء والشذاذ يهدونه ... وفكر فى تلفيق بعض التهم التى يلصقها الأشرار بالأبرياء فتذهب بشرفهم أو بثرواتهم . . . لكنه هزىء بكل ذلك واستسخفه فنبذه ولم يعد يفكر فيه

***

وكان لمصطفى مكتب فى الطابق الأول من المنزل يجمع أوراقه ومستنداته ، وإن لم يحو من الثروة الطائلة التى خلفها له أبوه قليلا أو كثيرا . فبينا إبراهيم نازل على الدرج ، وبينا هو يفتح باب الردهة التى تؤدى إلى مكتب أخيه ، إذا فكرة مفاجئة تمر كالبرق فى خاطره . . . ذلك أنه فكر فى أن يقتحم المكتب عسى أن يجد فيه شيئا ينفعه ، وتقدم بالفعل إلى الباب المائل الذى بدأ يرقص أمام ابراهيم الخائف المذعور ... ولشد ما شده الشاب حين وجد الباب مفتوحا ... فدخل ، وأغلق المكتب ، ثم بدأ يعبث بأوراق أخيه ... ولما لم يجد بها مأربه ، لم يبال أن يحطم أدراج المكتب ثم أخذ ينظر فى الأوراق نظر الخائف الوجل .. وكانت أصابعه ترتجف كلما تناولت ورقة ليرى ما هى ... وكان كثيرا ما ينتفض كلما سمع حركة ، بل لقد هم أن ينصرف حينما سقط أحد الأضابير فأحدث صوتاً مزعجا جعل الدم يتجمد فى عروقه

ثم شع بريق الفرح فجأة فى عينيه !

وطفق قلبه يخفق بشدة !

2017-11-11

يا فرج الله ! خطابات من الشيخ عبد الواحد عليه رحمة الله إلى ولده مصطفى يخبره فيها صح عليه عزمه من التنازل له عن ثروته بطريق البيع والتسجيل لأنه شارع فى مضاربة إما أن تضاعف ثروته أضعافاً مضاعفة ، وإما أن تذهب بالأخضر واليابس إذا بقى فى يده أخضر أو يابس !

ثلاثة خطابات طويلة عريضة فياضة بخط الشيخ رحمه الله وتجاوز عن سيئاته تشرح الموضوع وترسم الخطة وتضع التواريخ

لقد كتبها الشيخ من الاسكندرية فى الشهر نفسه الذى تم فيه البيع والتسجيل بالحكمة المختلطة

هذه هى السكين حقاً ! وهكذا يكون القتل !

* * *

— أنا يا قليل الخير ، يا ناكر الجميل ، أنا الذى سترتك ولمت شعثك بعد موت أبيك ، يكون جزائى منك أن تتجسس علىّ ، وتبحث وراءى ، وتتسلل كاللص إلى مكتبى فتحطم أدراجه عساك تقع على سلاح تتمده فى صدرى ؟

— أينا كان لصاً يا مصطفى ؟ أنا أم أنت ؟

— صلْ نفسك !

— لقد سألتها فقالت إنك أنت كنت اللص !

— لأنى كسرت الأدراج وسرقت ماسرقت؟

— ليس هذا كل ما يفعله اللصوص !

— وماذا يصنعون أكثر من هذا ؟

— من الناس لصوص لا يحطمون الأقفال ولكن يحطمون حياة الناس ويسلبونهم سعادتهم ، واللوم أن القانون لا يدعوهم لصوصاً ، بل هم أمامه شرفاء معقولون

— هذه هى الفلسفة التى تعلمتها من المدارس !

— بل هى الفلسفة التى تعلمتها منك !

— وماذا سرقت من مكتبى إذن ؟

— أنا لم أسرق شيئاً ذا قيمة فاطمئن !

— أنا مطمئن يا إبراهيم ، فأنا لا أضع مليما ولا مستنداً فى مكتبى ، ولا فى بيتى ، وأنا واثق أنك لن تهدأ لك بال حتى يخرب منزلى

— وإن لم تتق الله فىّ وفى أخويك على وسعاد فسيجعل الله خراب بيتك ، وإنى أنذرك من الآن

— ولن يستجيب الله لك إن شاء الله

— أنا لا أبلغك يا مصطفى ! لن لم ترد إلينا ما هو حق لنا فلن يبقى لك مليم واحد من ثروتك الواسعة ينفعك ، وعندها تعض على أنامل الندم !

— وكيف ؟ أى حق لكم عندى ؟

— ما كنا نرثه لو لم ينزل لك والدنا عن ثروته حتى لا تضيع بالمضاربة !

— لقد باع لى أبوكم بيعاً حراً مسجلا ، وقد أخذ نقودى فضارب بها فضاعت ، ولولا ذلك لكنت اليوم أغنى حالا مما أنا فيه !

— هذا هو الكذب والتلفيق الرخيص لأنك لم تكن تملك ستين ألفاً من الجنيهات !

— لقد نظرت هذه المسألة أمام المحكمة المختلطة وثبت بالقانون أنى كنت أملك أكثر من هذا المبلغ لأنى كنت شريك والدى فى تجارته وقد شهد التجار وشهدت العقود بذلك ، ولسنا بحاجة إلى حجتك يا سيد إبراهيم ؟

— ستعرف أن كل هذا باطل إن لم ترد إلىّ حقوق كاملة ، وإن لم ترد إلى أخوىّ حقوقهما كاملة كذلك ؟

— ليس لكم عندى حقوق فاضل ما بدا لك

2017-11-11

إن استطعت أن تفعل شيئاً !

— ستري أنني مستطيع عمل كل شيء ، ولكني أسمعك خطاباً كتبه إليك أبوك عما كان ينتوي عمله قبل أن يبيع لك أملاكه هذا البيع الصوري الذي تتشبث الآن به كأنه حقيقة لا ريب فيها ياسيد مصطفى ، فاسمع :

وشرع إبراهيم يقرأ الخطاب الأول ، وما كاد يصل إلى نصفه حتى مادت الأرض تحت قدمي مصطفى : وحتى انطفأ نور العالم الجميل في عينيه .. ولم ينتظر حتى يتلو أخوه الخطاب كله . بل هب كالعاصفة ، وانقض على أخيه المسكين فطعنه في صدره وبطنه عدة طعنات بسكين كان يحملها معه ، وكانت لا تفارقه في روحاته وجيئاته ...

ووقع ابراهيم يتشحط في دمه ، وأسرع مصطفى فتناول الخطاب الذي كان أخوه يتلوه . ثم دفع يديه في جيوبه يبحث عن خطابات أخرى أو وثائق من هذا الصنف الخطر الذي إن وصل إلى خصومه من رجال الشركة لم يبق له من حطام فردوسه شيء ....

وترك أخاه يجود بأنفاسه ، ثم أسرع فغسل يديه وأحرق ملابسه التي علق بها شيء من دم أخيه وساعدته زوجته في كل ذلك . ثم صعد إلى حجرة أخيه فبحثها بحثاً دقيقاً عله يقع على شيء مما دبر ابراهيم له . لكنه لم يقع على شيء

أرأيت إذن ؟ !

لقد فكر ابراهيم في الجريمة ثم عدل عنها ، ثم صمم على ارتكابها ، لكنه حينما عثر على خطابات أبيه نسي القتل ونسي السكين ، ونسي كل شيء ، لأنه حسب أنه انتصر ... وأن أخاه سيخضع له إذ تذهب كل ثروته ... وهكذا انتفت فكرة القتل بسرعة زائدة من خاطره ، بعد أن فكر فيها خمسين أو ستين يوماً على الأقل ...

أما مصطفى !... فيالهول ! لقد رأى خرابه في هذا الخطاب الذي راح يتلوه إبراهيم عليه ، فلم يفكر إلا لحظة ... لحظة واحدة ... واندفع كالذئب ينمد سكينه في صدر أخيه حتى تخيب مؤامرته ، وحتى لا تضيع ثروته ، وحتى لا تأخذ العدالة مجراها ، وحتى ينتصر القانون ... القانون الذي لا جرم كان يحكم على مصطفى وينزع منه أملاكه ويردها إلى الشركة لو أنه فاز بالخطابات التي مع إبراهيم ! والقانون في ذلك يشبه السكين تماماً ، أو يشبه المدفع يكون في يد المحارب يصب منه النار على أعدائه ، فاذا سقط هذا المدفع في يد الأعداء لم يتوانوا عن صب ناره فوق رأس صاحبه !

هنا إذن فرق ما بين إبراهيم ومصطفى ...

لقد كان إبراهيم شاباً مهذباً قرأ التاريخ والأدب ودرس الدين وعرف الله ... ولما لم يستطع أن ينفذ الجريمة التي اعتزمها لأنه لم يحبل على الشر ولم يجر الشر في دمه ... ولما وجد الخطابات خمد الله واستبشر ، لأنها جنبته هذه الخطة الدامية التي كان في شك من مصيرها

أما مصطفى فلم يفكر كثيراً ... إنه استهول أن تضيع ثروته التي يفضلها على كل شيء ، فلم يبال ديناً ولا رباً ولا ضميراً ... ولذلك لم يكلفه القتل بأخيه شيئاً إلا أن ينقض عليه كالبرق ، وأن ينمد سكينه في صدره !

لم يقتل إبراهيم ! بل ظل في المستشفى شهراً وبعض الشهر ، ثم خرج منه سليما معافى

ورفض أن يتهم أخاه ! وأربك صمته رجال القضاء وحيرهم ! ترى علام عول ، وماذا اعتزم ؟ !

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-15

لقد فتح ذلك الحادث الرهيب عينيه على حقيقة الدنيا ...

نضال !

أليست الدنيا نضالا فى نضال ؟ فلماذا تكون نضالا من هذا الصنف الوضيع ؟ لماذا تكون نضالا على ميراث ؟ لماذا لا تكون نضالا شريفا ؟ لتكن كذلك إذن ... وليبدأ إبراهيم النضال الشريف من أجل الرفعة إذن ... إن الدنيا ليست لمن ورث الثروة بل هى لمن عمل عليها وملكها بكده وكدحه ، وإن الذى يملك الدنيا من هذا السبيل ليشعر بلذة حلوة سحرية ، ليس يشعر بمثلها الذى ملكها من طريق أبيه ... مثال ذلك الطير إذا وقع على الفريسة بعد أن رمقها وتخيرها فهو ينشب أظفاره فيها بفخار وعظمة ، أما الفريسة التى تسقط على الطير فقد تكون جيفة تقتله أو تسممه !

هذا هو الوحى الجديد الذى هبط على إبراهيم ! وهو وحى كريم طيب خير وإن نبع من جراحات وكلوم ، وارتوى من دم كريم طيب خيّر مثله !!

وتبسم إبراهيم تبسمة خبيثة هى بقية الشر فى نفس آدم !

ذلك أنه سمم هـذه المرة على أن يشرك أخاه مصطفى فى هذا النضال ؟!...

فكرة عجيبة !! لكن تنفيذها سهل هين ! إن الخطابات التى وقع عليهـا فى مكتب أخيه محفوظة فى مكان حريز لم تمسسها يد ... أما الخطابات التى أخذها مصطفى حينما ظن أخاه ، فهى صور نسخها ابراهيم ، وقلد فيها خط أبيه تقليدا عجيبا انطلى على مصطفى ولم يجعله يشك قط فى صحتها

وهكذا ذهب إبراهيم إلى رجال الشركة فساومهم على مبلغ كبير جداً لقاء هذه الخطابات التى ترد عليهم أموالهم حيث يستصفون أملاك الشيخ عبد الواحد عليه رحمة الله ، وتجاوز عن سيئاته

ولما خرج مصطفى من المحكمة صفر اليدين ، نظر حوله إلى الدنيا الواسعة الجميلة فلم تبسم له على جارى عادتها ! بل لعلها تبسمت ساخرة منه ، ولعل هذه الابتسامة هى التى جعلته يشحذ سكينه فيغمدها فى صدره ، لأنه لم يطق أن يذهب إلى المنزل المنيف فيقال له : « كلا أيها البيد ، ليس هذا منزلك ! » ولأنه عاش حياته لا يصل بينه وبين الله ، بل هو لم يعرف له إلهاً غير هواه ... ولو قد عرف الطريق إلى الله لحسنت آخرته وحسنت دنياه ...

وأتم إبراهيم تعليمه ... وظفر فى الحياة وأناضل من أجل الثروة... لكنه برغم ماجمع وبرغم ما اكتنز لم يبارح خياله طيف أخيه ، فكان يبكى من أجله ويستغفر له ربه ، ويجعل بين يدى نجواه صدقات يتصدر بها أبناء مصطفى ... فلم يدعهم يشعرون بمرارة اليتم أو صرامة العوز

زينى نجيب

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الالمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً

جرذان الفنادق

لكاتب الإنجليزي سير آرثر كونان دويل

بقلم الأستاذ محمد السباعي

حدث دكتور وطسن صديق شرلوك هولز ومسترسه ، ومسجل أخباره قال :

عقيب اكتشاف جريمة روتشديل ، ومصرع سيروتيجهام في قصره ، سرى عن شرلوك هولز قليلاً ، وأخذ ينام بانتظام ، ويتناول إفطاره وغداءه وعشاءه في ساعات معينة معلومة ، وقل إفراطه في شرب الشاى قبل الغروب . وكان يقول : « إنه عادة سكسونية ممقوتة » ولكنه أدمن الحقن بالمورفين إدمانا مزعجاً ، وكان يشق علىّ أن ألفت نظره إلى عواقبه الوخيمة ، فلما ضقت به ذرعاً وخشيت عليه لمحت إليه أن الأفيون ورث الحكة والصداع والأرق ، والرؤى المزعجة

فضحك وقال : « ابق شفقتك لمرضاك الذين تعودهم » وتناول من على رف الكتب مجلداً ضخما وقرأ « الأفيون عكاز الطبيب ، يتناول الرجل بعد الأربعين منه قحة انجليزية فيصح بصره ويحسن هضمه ، ويعتدل مزاجه ، ويرم عظمه وتصلب أعصابه ويزداد وزنه ، على شريطة أن يواظب ويحافظ على مقدار الجرعة ولا ينقصها ولا يزيدها » ثم قلب الكتاب فرأيت اسم المؤلف وهو دكتور درجاستر أشهر مؤلفي الأفريقيين قاطبة ، وقال : ما قولك ، ألم أجاوز حدود الأربعين يا طبيبي ؟ فابتسمت ولزمت الصمت . فقال : نعم إنني أزيد أحياناً ، ولكن بنيتي تهضمه وتبتلعه ، ولو علمت أن السر في نجاح موريارتي في إدمانه على هذا العقار اللوكي لمذرتني . آه يا عزيزي وطسن ، لو وفقتني العناية إلى القبض على عنقه متلبساً ، ذلك الأستاذ الأعظم !

الأستاذ الأعظم ! كان هذا هو اللقب الذي يطلقه على ذلك المجرم العالم الكبير ، الذي استخدم أحدث المخترعات في اقتراف جرائمه . وكان يلازمه التفكير فيه كل ما عرضت له قضية خطيرة ولكن البروفسور كان صعب المنال ، ولكن كان لا يفتط من الفوز في النهاية على خصمه الألد ، وكنت من جانبي أتوق توقاً شديداً لأري منظر الكفاح بين الاثنين لحماً ودماً وعقلا ، لا في الخيال كما كانت الحال منذ بضع سنين

في تلك اللحظة دخلت علينا مسز تيرنو مدبرة منزل هولز تحمل الشاى ويبدها بطاقة وقالت إن صاحبها بالباب وهو قلق ويريد لقاء مستر هولز في الحال . فتناول هولز البطاقة وقرأ بصوت مرتفع :

رايتيجج فلسنجفورد

صاحب مصرف هاتروف برادبيرج

ودخل علينا رجل أشعث أغبر أسود الشعر فاحه ، ضيق الأجفان ، ضخم الجثة ، كأنه فيل صغير وحيا وانحنى في احترام عميق ، ثم جلس قبالة هولز وقال :

— لقد عرفت اسمك من الصحف ، وضاعت حقيبتي منذ خمسة عشر يوماً في القطار ، من هارويتش ولندن وفيها أوراق خاسة وثياب .

فسأله هولمز : ولم لم تقصد إلى سكوتلانديارد وفيه رجال فطاحل ؟ أليديك بسبب يمنعك من التقدم إلى الشرطة ؟

فقال وابنيجيز : كلا ! ليس لدى ما يمنعنى عما أشرت إليه ، غير أنى أنهم البوليس بالبلادة والغباء والغرور . إن المجتمع الحديث فى البلاد المتحضرة محكوم بالبوليس ، وواضع عنقه تحت قدميه . والبوليس فى كل قطر ووطن ضالة الشعب وسقط متاعه ومجموعة أو غاده . وقد انصرف إلى التسلط على الأمم والتحكم فى أقفية الأفراد والجماعات وهو كثير الشكوك والظنون ، واسع الحيلة ، ملآن بالدسائس ، عش زنابير ، وجحر أفاع ، ووكر حيات . فكيف ؟ فابتسم هولمز وقال : إذن هى مبادئك السامية التى تموقك عن التماس المعونة على أيدى هؤلاء الذين تعتقد أنهم أوغاد . . . صدقنى أنك مخطىء يا هير هلسنجفورس خطأ شنيعاً . أنا لا أنقض قولك كله ، ولا أرمه كله . وإن كان البوليس على ما وصفت من الدنايا ، فلم قبلت أن تعمل فى صفوفه فى مدينة هيدلبرج فى سنة ١٨٨٦ حتى وصلت إلى درجة يوزباشى ؟

فانتفض الرجل وامتقع ثم ملك أعصابه وقال :

— هذا صحيح . . . ولكن كيف . . . كانت ظروف قاسية . ولكن كيف عرفت ذلك وأنت لم ترنى قبل اليوم ؟

فأشاح هولمز بيده وقال : هذا لا يهمك ، ولكن الذى يكربك ويكربنا هو فقدان حقيبتك وما احتوت من الوثائق الثمينة

فقال الرجل : أى نعم ، هـذا الذى يهمنى الآن . فقد ركبت الباخرة من هوك أوف هولاند فى منتصف الليل فى أول هذا الشهر ، ووصلت إلى شواطىء انجلترا غداة اليوم التالى والحقيبة بيدى ولم تفارقنى طرفة عين ، وسرت مع المسافرين إلى مبنى الجمارك ففتحت وأغلقت وأشر عليها الموظف المختص بحرف P رمزاً إلى السباح بالمرور ، وركبت القطار فى الدرجة الثانية ، وكان معى بضعة نفر من الطبقة الوسطى ، ولما وصلت إلى فندق فولكنر بشارع فولكنر سترت فتحت حقيبتى وأنا لا أرتاب فيها فاذا هى غير الحقيبة التى كنت أحملها

فنظر إليه هولمز نظرة تهكم وتحدى وقال :

هذا أليم حقاً . حسن جداً يا هير وابنيجيز وأشكر لك ثقتك ، ومادمت تحب أن تحل لك هذه المعضلة فاكتم خبر زيارتك لنا

فقال الرجل : ولكننى الآن أصبحت معدماً ، لا أملك قوت يوم ولا أعرف . . .

وقبل أن يتم كلامه أخرج هولمز من جيبه حزمة من الأوراق المالية وناولها إلى الهير ، فتردد الرجل وعاد إلى الوراء ولكن هولمز شجعه قائلا :

لا بأس عليك ، إنها قرض حسن ، فلا تحاول عد النقود وانصرف الآن بسلام وعد إلى غداً فى مثل هذه الساعة . فارتبك الرجل أيما ارتباك ، ولم يزد على أن قال :

— شكراً لك سأرد جميلك . وودع وانصرف .

وفى أثر من طرفة عين قال هولمز : على ياوطسن بثياب التنكر . سائح أمريكى وأنت سائح آخر . فتنكرنا وبدونا فى الزيين الذين عينهما وخرجنا من باب خلفى ومشينا حقائب جديدة وركبنا عربة إلى محطة

السكة الحديدية الملاصقة فى شارع بيكرلو وانتظرنا إلى موعد وصول أحد القطر وخرجنا مع المسافرين وأرشدنا الحوذي إلى الفندق المعهود . وأخذ كل منا غرفة بفراش فرد. وكانت الساعة السابعة عندما بدلنا ملابسنا واتخذنا مقعدنا فى ثياب السهرة إلى ملعب جلوب ثياتر ، بعد أن تناولنا وجبة خفيفة فى مطعم پول مول . وكانت الفرقة تمثل رواية « نيران القدر » لذلك المؤلف الشهير ، وفى فترة الراحة التى تعقب الفصل الثانى همس هولمز فى أذنى قائلاً :

— إياك أن تدور برأسك أو تبدى حركة أو إشارة فان خلفنا بالدقة وعلى مقعدين مقابلين لمقعدينا شخصين يهمك أمرهما . وهما يتجهان بالألمانية التى نجيدها معاً . وعند ما يبدأ التمثيل سوف يأخذان بأطراف الحديث الذى تركاه فى الفترة

فقلت كثيراً وحاولت أن ألتفت بأى عذر كشراء نسخة من برنامج الحفلة وملخص القصة أو شراء برتقالة ، أو قالب من الشكولاته ؛ ولكن كان هولمز راقبنى بدقة وينهانى بالغمز واللمز. فصبرت على مضض ، وقد فقدت رشدى فلم أتتبع حرفاً واحداً مما كان يلقيه الممثلون وسمحت الحديث الآتى

الرجل : إنه فندق مجهول من العامة مقصود من الخاصة . والذى يجعل العمل فيه سهلاً هيناً اتساع ممراته ، وتباعد غرفه ، وغفلة خدمه . فضلاً عن أن أضيافه يتمضون أجفانهم فى الساعة العاشرة مساء ، لأنهم رجال أعمال ومال ومنهوكو القوى . وإن فى قربه من محطة السكة الحديدية ما ييسر كل أمر عسير . فالقادم من سفر طويل يستقرب الفندق المجاور ولا يفكر فى اختيار آخر بعيد

فقالت المرأة : أنا لا يمكننى أن أعمل من الليلة الأولى ولم أتصرف بعد بجاهل الفندق . لا بد من انقضاء أيام وليال ثلاث على الأقل ، حتى أعرف طريقى ... وإلا يحدث لى ما حدث فى دصلدورف

فقال الرجل : اطمئنى ما عليك من بأس . لا عيب فيك إلا ترددك . ولو لم أكن متفلاً بدين ذلك الانجليزى الملعون شرلوك هولمز لنظرت فى تأجيل العمل حتى يتم تدريبك

قالت المرأة : إن ذلك الحادث المشين الذى وقع فى فندق دصلدورف لا يزال يرعبنى فقد كان الرجل قوى العضلات وملكنى رغم أنفى وكاد ينال منى

الرجل : لا تذكرى هذا الحادث . إنك لاشك أحببته وإلا ما تركت ثيابك فى غرفته ، وخرجت من بين يديه كما خرجت حواء من الجنة

المرأة : ولكن أنت تعلم أن « ثياب الشغل » ناعمة الملمس ، سهلة الانزلاق ، ومن أصول الصنعة أن نتركها خيراً من أن يقبض علينا

الرجل : هذا معلوم ولكن ليس كل ضحايانا أغبياء وذوى شبق ، ولا كلهم ذوى سبات خفيف يطرد النوم من أجفانهم أقل صوت أو حركة

المرأة : والمورفين ... إننى لا أستطيع العمل بدونه ...

الرجل : إن الكمية الكبرى فى الحقيبة ولكننى أعددت لك الجرعة الكافية

كان شرلوك هولمز يضحك عند ما قلت له :

— ما أشد غبائى وأبلد فطرتى . لقد سمعت صوت الرجل من قبل . ولما انتهى التمثيل رأيت الهير

2017-11-1

وإيثيبيج لابساً أفخر ثياب السهرة وعن يمينه فتاة ممشوقة القد ، ساحرة الجمال ، دعجاء العينين تسير كاحدى الملكات فى موكب التتويج

***

عدنا إلى الفندق فى نصف الليل ودخل كل منا غرفته . ورقدت فى فراشى ونمت كعادتى نوماً عميقاً وفجأة تيقظت على نور يبهر بصرى منبعثاً من بطرية كهربائية فنهضت فأشار إلى هولز بأن ألزم الصمت التام . وكان أول ما أعرف من أين دخل وباب غرفتى لا يزال مغلقاً من الداخل وثقبه منسد بمفتاحه؟ فلما قادنى هولز بيده رأيت باباً بين الغرفتين كان مغلقاً وفتحه هولز بأحد المفاتيح من المجموعة التى يحملها للخير لا للشر

وقد راعنى أن رأيت فى غرفته جسماً موثقاً

وقال لى : عليك الآن أن تساعدنى فى وضعها فى تلك الحقيبة الكبيرة

فقلت له : إن هذا المكان يخنقنى

فقال : لقد أعددت لها فتحات فى جدران الحقيبة تنفس عنها

قلت : عنها ... من هى ؟

قال : عليك الآن أن تنقل الحقيبة وتخرج من باب الفندق متسللاً فلا تقع عليك عين أحد . وإن وقعت فانك المسافر الذى يقصد إلى الباخرة التى تبحر من تلبرى فى فجر غد

ولم يكن هناك بد من طاعة هولز فانه لا يعرف المزاح فى هذه المواقف . وفى الحق كان الحمل جد خفيف فلم أشعر بأنى أنقل إنساناً . وأغرب من هذا أن الحمل لم يتحرك ولم يحاول أن يستغيث وأنا أعلم أن هولز أشفق من أن يكتم إنساناً ، بله امرأة ناعمة . فلا بد أن تكون مخدرة ، أو راضية . لا ريب فى أن هولز كانت له قوة سحرية يخضع لها الناس من كل جنس ولون وطبقة. تخيل أيها القارئ طبيباً مثلى ينقل إنساناً فى حقيبة ... لقد تذكرت جان ڤالجان بطل البؤساء وهو يحوس خلال مجارى باريس يحمل جثة ، كما تخيلت فريجولى ذلك المهرج الايطالى الذى كان يخطف الناس ليضعهم فى حقيبة . ماذا أقول لو أنى القبض علىّ وسئلت عن حملى « شكلا وموضوعا » ؟ ولكننى كنت أشعر بأن ظهرى كالحصن ، يحميه النفر الشديد القوى من الجند ، لمجرد التفكير أننى أعاون شرلوك هولز ذلك العبقرى الذى لا يعمل إلا الخير

كان البواب نائماً عند ما فتحت الباب الكبير فتنبه وقال : من هناك يمر ؟

قلت: سا كن الغرفة رقم ١٧ إلى تلبرى لآخذ مكانى فى الباخرة التى تبحر فجراً وقد تركت لك الحلوان بالغرفة

فقال : سفر سعيد ياسيدى مع السلامة .

ووجدت مركبة بالباب كأنها تنتظرنى فقفزت فيها وأشرت إلى السائق أن يسير دون أن أعلم الاتجاه الذى أقصد إليه فأطل علىّ وقال: أين ياسيدى؟

قلت : شارع بيكر ستريت

فقال رقم ٤٠ ياسيدى حيث يقطن ذلك النمر الشهير شرلوك هولز

قلت : هو كذلك .. ولكن من أين تعرف ؟

ولكن الحوذى كان أسرع من سؤالى فى إلهاب

ظهر الجواد بسوطه صائحاً بأسلوبه الشعبي[1] «جيها هاها!» وكان لوقع حوافر الحصان رنين على الأرض المرصوفة بالقار، وللعربة اهتزاز لذيذ أغرقاني في سبات عذب حنون. ولم أشعر إلا والحوذي ينزل ويحمل الحقيبة ويترك المركبة قائلا لي:

— صباح الخير يا وطسن، إني أعفيك هذه المرة من أجر المشوار الذي قطعناه، وسيأتي صاحب العربة لأخذها بعد بضع دقائق. فما كان أعظم دهشتي عند ما اكتشفت أن الحوذي الذي أمرته وتأمرت عليه، لم يكن أحداً سوى شرلوك هولز نفسه!! لقد كنت أزداد إعجاباً به كل لحظة.

بلغنا مسكننا في الساعة الرابعة والضباب يحكم الجو والفضاء ويسد الطرق في أوجه الذاهب والقادم وصوت السكون يدوي في آذاننا، كأعظم ما تكون الجلبة والضوضاء والصخب.

سعدنا وأيقظنا على الرغم منا مسز تيرنر مدبرة منزلنا، فلما وقفت تفرك عينيها والحقيبة تحت أقدامها قال لها هولز وهو لا يزال بثياب الحوذي: عليك أن تمشي أعظم العناية بهذه الحقيبة الغالية فتدخليها الحمام وتطعميها وتسدي لها الشاي ثم تضعيها في فراش دافئ وتجعليها قريرة العين، طيبة النفس.

فنظرت الكهلة إلى وغمزت بعينيها كأنها تقول: لقد فقد الرجل عقله إلى الأبد فوا أسفاه ثم نطقت وقالت:

— كيف يمكن يا مستر هولز أن تتناسل الحقيبة وأن تأكل وتشرب وتنام؟ لقد ضاع عقلي في معاشرتك. أو ضاع عقلك من طول التفكير أشفق بنفسك يا رجل، الحمد لله على أن الدكتور كوبرزفيلد لا يسمعك[1]

فابتسم هولز وقال: خذي حذرك يا مسز تيرنر فان كلامك هذا يعد قذفاً يعاقب عليه القانون وغمز بيده قفل الحقيبة فانفتحت وخرجت منها الفتاة في ثياب التفضل كما تخرج الشمس عند المشرق أو تتفتح الزهرة عن أكمامها. فلما وقع عليها بصر مسز تيرنر صرخت صرخة مكتمة كما لو كانت عنزة تلد جدياً صغيراً بعد ولادة عسيرة. وقالت:

— تباً لكم! تباً لكم! لقد أفقدتموني عقلي! هذه هي الحقيبة. فتاة جميلة على قيد الحياة. آه إعذراني أيها السيدان.

فضحك هولز حتى كاد يستلقي وضحكت، وفتحت الفتاة عينيها، وقالت:

— لقد أنقذتني يا سيدي من يد ذلك الوحش الضاري.

وأفاقت مسز تيرنر من ذهولها وضحكت، وقالت: لا تفتأ يا مستر هولز تمزح ولا تقول حقاً، هيا بنا يا حقيبتي العزيزة، إلى الحمام والمائدة. فان ظهورك بهذه الثياب لا يروق هذا العالم الملتزم الحب للفضيلة.

وكان هولز قد خلع ثيابه ولبس ثياب التفضل ووضع في قدميه مباطه الطرية الناعمة. وتناول شبقه الأيدي وقال لي وأنا أشرب فنجانة الشاي التي صنعتها بيدي:

— إن الرواية لم تتم فصولا يا وطسن وما قنا

(١) في الأصل Hackuly أي أسلوب سوقي خاص بأهل لندن

(١) مدير مستشفى المجانين بلندن

بغير تمثيل الفصل الأول . والآن دعنى أعرض عيني طرفة عين .

تيقظنا فى تمام الساعة الثامنة على صوت مستر تيرنر وهي تقدم إلينا شابا هادئ الطبع يجلس ويروى علينا قصته التى لخصها فى أن اسمه بلوبيرد وكان هادىء الطبع فاضل الخلق ، وقد استقل القطار قاصداً إلى بلدة صغيرة ليشغل فيها وظيفة متواضعة وكان كل شيء يبدو لبلوبيرد عادياً ، لا خطر له .

وقد مرت سنو عمره دون أن تتخللها مناظرة أو يعتريها حادث يهز حياته ...

وعند ما بلغ القطار عند منتصف الليل المكان الذى يقصده بلوبيرد أخذ حقيبته من الديوان المكتظ الذى كان يجلس فيه مولياً وجهه شطر حياته الجديدة، وصل بلوبيرد إلى الفندق الصغير الذى عزم على الاقامة فيه واسمه فندق فولكنر (يالتهكم الأقدار !) وعند ما ذهب إلى سريره لينام نظر إلى الحقيبة وسرعان ما علته الدهشة ، فقد كانت تشبه ولا شك حقيبته ولكنها لم تكن هي بذاتها ، على أن بلوبيرد خشي أن يكون مخطئاً فى تقديره فحاول أن يفتحها بالمفتاح الذى لديه ،ولكن عبثاً حاول، على أنه عند ما ضاعف جهده انفتحت فجأة، وكانت أول نظرة ألقاها كافية لأن تثبت له أنه لم يكن مخطئاً . نعم كانت الحقيبة لشخص آخر ، أما حقيبته الأصلية وما فيها من سقط المتاع وهو كل ما يملكه فقد كانت فى ذلك الوقت تجوب الآفاق المجهولة حيث لا صاحب لها ، ووجد بلوبيرد نفسه وهو الذى لم يصادف فى حياته مشاكل صعبة يحتاج لحلها — عاجزاً منذ اللحظة الأولى عن أن يجمع فى ذهنه فكرتين أثناء ذهوله ودهشته . فشرع بلوبيرد يبحث أثناء تفتيشه فى الملابس المنسخة عما يدله على الشخص الذى أخذ حقيبته . وعثر تحت يديه برزمة من الأوراق ، فلما جذبها وجدها سلسلة من الخطابات والرسائل البرقية وأفلتت هذه الرزمة من يد بلوبيرد فانتشرت على أرض الغرفة رزمة من الأوراق المالية من كل نوع لم يعرف بلوبيرد من هذه الأوراق المتعددة الألوان إلا عدداً ضئيلاً، وجمعها واستمر فى البحث فاكتشف فى قاع الحقيبة المفروشة بالورق ما يشبه وسادة منتفخة من الأوراق المالية المختلفة . ونظر بلوبيرد حواليه وقد انتابه السجب والذهول منتظراً شخصاً يأتى إليه ليوقظه من ذلك الحلم القذيذ المخيف . على أنه لم يأت أحد وبقيت الأوراق فى موضعها لم تختف. لم يكن بلوبيرد قد رأى مثل هذه الأوراق النقرية المتعددة الألوان إلا عدداً ضئيلا . فأخذ يعدها وكان حبه للنظام يجعله يضع كل نوع من الأوراق على حدة دون أن يعرف بالضبط قيمة كل منه . على أنه بعد بضع دقائق عرف جيداً أن ما أمامه مقدراً بالعملة الذهبية يتراوح بين مليون ونصف ومليونين، وكان يستطيع حينئذ أن يقول لنفسه إن محتويات حقيبته قد دفع لها ثمن أكثر من الثمن الذى تساويه، على أن هذه الفكرة لم تخطر بباله . وكل ما كان يضايقه هو فكرة الاتصال بصاحب هذه الكنوز واستبدال كل من الحقيبتين بالأخرى . قال لنفسه لا بد أن أقرأ بعض هذه الخطابات فعرف من القراءة أشياء كثيرة لم يعرفها طول الثلاثة والعشرين عاماً التى قضاها فى هذا العالم ، أشياء لم تخطر له على بال . فاستطاع أن يدرك أن هذه الأوراق المالية هى

ملك أحد لصوص الفنادق ذوى النفوذ الواسع وكانت تصل إليه من شركائه ومن صديقة عزيزة كل أنواع المعلومات . وفهم بلو بيرد من آخر خطاب أرسلته صديقة ذلك اللص إليه أنه يريد أن يضع حداً لمغامراته ويلجأ إلى الراحة والعزلة ، وكانت الحلى قد بيعت بثمن ضخم . ولكنه فهم أن اللص يريد أن يتهرب من صديقته ليفوز بالغنيمة وحده أو يتعطف عليها بنصيب زهيد ، بعد أن قاست معه عنتاً شديدة وأخطاراً لا عدد لها أمكن التغلب عليها بمهارة وشجاعة ، وقد صارت مدمنة للمورفين حتى تستطيع العمل فى تلك المهنة الشاقة الخطرة

فقال له هولمز بعد أن وقف منه على هذه المعلومات الثمينة : قبل كل شيء كن واثقاً على الأقل أن صاحب الحقيبة سوف لا يأتى إليك ليستبدل حقيبته بالأخرى لأنه لا يحب أن يقبض عليه، ومن أكثر الأمور احتمالاً إذن أن يلوذ اللص هارباً بيدلة بلو بيرد وحذائه وملابسه . فهذه الحقيبة التى لديك تجعلك وشريكك لك مجهولة لدينا الذين اخترقنا الجدران والأسطح وتسللنا بالليل البهيم والمدس فى قبضتكما لتدخلا الفنادق الفاخرة فتحطما صناديق الجواهر الموضوعة إلى جانب أصحابها النائمين فى نومهم

فقال بلو بيرد : والذى يزيد موقفى حرجاً أن صورة الفتاة التى عثرت عليها ولدتى على خطيبتى التى اختفت من بلدتى اختفاء غريباً منذ خمسة أعوام ولم نعد نراها ولا نعرف مقرها ولقد عزمت على ألا أخطب ولا أتزوج ما دمت حياً ، لعلها هى أيضاً تكون على قيد الحياة ومغلوبة على أمرها ، وهأنذا جئت إليك يا مستر هولمز لتنقذنى من هذا الموقف لأن المال المكتسب عن طريق غير شريف لا يأتى بفائدة

فضحك هولمز وقال لبلو بيرد عبارة لم أفهم مغزاها وهى : إنك سعيد يا بلو بيرد وقد أتتك السعادة كلها فى يوم واحد ودق الجرس فجاءت مسز تيرنر فقال لها : إن كانت الآنسة قد ارتاحت بما يكفيها فتفضلى بدعوتها إلينا

وعند ما دخلت علينا الآنسة المجهولة ووقع بصرها على بلو بيرد رفعت يديها إلى رأسها وقالت : آه يا رباه ! هل أنا فى حلم ؟ فقال لها هولمز : هذا خطيبك بلو بيرد جاء يسأل عنك . فتمالكت فى ذهول وانسحبنا لنترك لهما مجالا لبث لواعج الشوق

وكنت أنا فى حيرة وارتباك فقال لى هولمز : إن فى حيلة الدهر ما يغنى عن الحيل ، وعليك الآن يا واطسن أن تتعهد بعلاج الفتاة من عادة إدمان المخدر

وأكلنا جميعاً غداء هنيئاً إلى أن آن الموعد الذى ضربه هولمز لمر وايتنيج هلسنجورس الذى لم يكن سوى صاحب الحقيبة ومسخر الفتاة ومعودها المورفين . فلما دخل قال له هولمز : أين ذهبت شريكتك ؟

فأخرج الرجل مسدساً ضخما وهجم على هولمز وكنت أسرع من البرق فى نزع سلاحه وتقييده بالحديد ، وأجلسناه كالوحش الضارى يلهث أينما توجه

فقال له هولمز : لقد كشف سرك ، فاما أن تسلمك إلى البوليس ، وإما أن تغادر هذه البلاد آمناً ومتنازلا

2017-11-11

باختيارك عن كل أموالك التي هي ثمرة سرقتك ، وهنا دخل بلوبيرد والفتاة . فلما استبان وابنبيج حقيقة موقفه تنازل عن ماله للفتاة وخطيبها بمحض اختياره وقال بالألمانية :

« إن مشيئة علوية هي التي أرادت حرماني ثمرة هذه السرقة ورد هذه الأموال إلى تلك التي خاطرت بحياتها في الحصول عليها

وهأنذا قد أحسست دفعة واحدة بإحساس جديد وا كتشفت في قلبي راحة خفية كانت ولاشك نتيجة شعوري بالتوبة . » فقال له هولمز :

لقد تنازلت عن مطالبتك بالمال الذي أقرضتك إياه وهو يكفيك ويفيض إلى أن تعود إلى وطنك ألمانيا وتجد لك عملا مربحاً شريفاً . وفككنا عنه وأعدنا له سلاحه فهنأ شريكته السابقة وهي تحيته وخطيبها وصحبه هولمز إلى محطة السكة الحديدية وما زال يشير له بيده حتى غاب قطاره عن الأنظار . وعاد هولمز يقول لي : إن المال صار الآن حلالا ومشروعاً لأن أصحابه الأصليين مجهولون ووضع اليد في المنقول يفيد الملك . وقد دفع اللص السابق ثمن توبته إلى الفتاة ، وأراد الله أن يجمع شملها بخطيبها؛ وأظن أحدنا لن يذيع سر هذه المأساة التي انقلبت زفافاً ، وخصوصاً الآنسة وصديقها الذي عثر على الحقيبة

وبعد أشهر كان بلوبيرد وزوجته يسكنان قصراً على شاطئ البحر بجوار بريطون ، وكانا يرتديان أفخر الملابس وأغلاها وكان هولمز يقول لي :

— إن سيادتي هي في إقرار العدل ورؤية السعادة تتم للآخرين

محمد لطفي جمعه

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الأديب

ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ، وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

روض الفرح

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

اعتدل الأسطى شلبى فى جلسته وجعل يفتل شاربيه القزمين ورفع حاجبيه الكثيفين ويقول للشاب الجالس إلى يمينه على الكنبة :

— وما الداعى إلى التعجيل بالسفر ؟

فقال له صاحبه وهو شاب فى الثامنة عشرة من عمره تدل قوة بنيته الطبيعية وسذاجة نظرته على ريفيته الفجة :

— وما الداعى إلى البقاء وقد انتهيت من أداء امتحانى ؟

فقال الأسطى شلبى بتفلسف :

— وهل الغاية من الدنيا تنتهى بانتهاء امتحان النقل من السنة الأولى إلى السنة الثانية الثانوية ؟ ينبغى أن تروح عن نفسك قليلا فما العريش التى أنت ذاهب إليها إلا قطعة من البادية القاسية لا أثر فيها للهو والمرح ... فقال الشاب :

— أخشى أن يفلق والدى لتأخرى

— وماذا يضيره لو تأخرت يوماً آخر وقد غبت عنه عاماً مدرسيًّا كاملاً ؟ تعال نذهب معاً هذا المساء إلى روض الفرج والعشاق لمشاهدة تمثيل رواية « اشمعنى » وهى كوميديا غاية فى الإضحاك والبهجة ... ما رأيك ؟

وضحك الأسطى شلبى وهو ينظر إلى عبد المعز باغراء فابتسم الشاب وقال بتسليم :

— فليكن ... سأؤجل السفر إلى غد

فابتسم الأسطى مسروراً وقال له بخيلاء :

— نعم ارأي ، وستري بعد قليل عشيقتى تقوم بتمثيل الدور الأول فى رواية « اشمعنى » . وارتدى عبد المعز ثيابه وكانت تبدو عليه هيئة الطلبة الريفيين الذين يندر أن تنسجم (البدلة) مع قاسمهم ويبدو الطربوش غريباً على رؤوسهم . أما الأسطى فقد وقف أمام المرآة فى دل وتيه وارتدى قفطانه الزاهى وجيبته البنى الأنيقة ، وأمال الطربوش حتى مس حاجبه الأيمن وأمسك بمصاه المذهبة اليد ، وتقدم قريبه يختال فى مشيته كالطاووس

والأسطى شلبى هذا بدأ حياته كصبى حلاق بسيط ثم استقل بصالون جميل أنامنه رزقه رغداً ، ثم اشتغل بالسمسرة وصادفه فيها توفيق كبير فنمت أرباحه واستطاع أن ينفق عن سعة على عشيقاته العديدات من نجوم روض الفرج

أما عبد المعز فهو ابن أحد أقرباء الأسطى شلبى المدعو الشيخ طه شيخ كتاب وواعظ بالعريش ؛ وقد جاء فتح مدرسة العريش الابتدائية متأخراً مما دعا ولاة الأمور إلى التجاوز عن شروط سن القبول فالتحق بها عبد المعز وهو ابن ثلاثة عشر عاماً ، وبعد انتهائه من تعليمه الابتدائى أرسله أبوه إلى قريبه شلبى ليتم تعليمه الثانوى ، مؤثراً بعد القاهرة مع الاطمئنان عليه فى بيت قريبه على قرب الزقازيق مع إقامته وحده

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-1

على أن الأسطى شلبي لم يكن عند حسن ظن الشيخ طه فكان يدعو أحياناً عبد المز إلى المقهى واقترح عليه مرة أن يسلمه الزد ليستعينا به على تزجية أوقات الفراغ . وكان الشاب حكيما مجتهداً فلم يستسلم لاغراء قريبه ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسلمه فيها زمامه فذهب معه إلى روض الفرج ودخلا كازينو البسفور لمشاهدة رواية « اتهمى » وبدا الشاب بطيئاً في فهم النكت و(القفشات) وأخذ يقلب عينيه بين الضاحكين في استغراب وحيرة ، ولكن جذب عينيه إلى المسرح ظهور ممثلة قابلها الجمهور بعاصفة من التصفيق والتهليل ، وكانت امرأة فارعة طولا وعرضاً مزججة الحاجبين مكحلة العينين محمرة الخدين والشفتين ، تتوه بحمل ردفين ثقيلين لا ريب برهفانها ثقلا ، بل ما أحراها أن يميدا بها لولا أن وازنتهما البنانة بثديين كبطيختين وإن كانا — بقدرة قادر — ناهضين ، وكانت تنثني وتتمايل وتتخنث في كلامها وتتكسر وكأنها تتأوه وتتوجع والنظارة لا يكفون عن إبداء الاعجاب وبرقونها من أعين الحساد ، وفتل الأسطى شلبي شاربيه بقوة وزهو ومال على أذن صاحبه وهمس قائلا :

— هذه عشيقتي الآنسة نور الحياة .. أنظر !

وكان عبد المز ينظر بعينين جشعتين فزاد ذلك من مسرة الرجل فعاد يقول :

— إن بعض الظرفاء ممن يعرفون أني المالك لقلب هذه المرأة يقولون لي : « حقاً إنك لمن كبار ذوي الأملاك »

وقهقه الرجل ضاحكا تياهاً فخوراً

وفي أثناء فترة الاستراحة رأى عبد المز الممثلة الحسناء آتية صوب الركن المنعزل الذي يجلسان فيه ، تتبختر كأنها ترقص ، وتوزع النظرات الناعسة بلا عدل ولا رحمة ، ثم رآها تسلم على الأسطى شلبي وتقول له ضاحكة :

— كيف حالك يا رجل ؟

وسمع قريبه يجيبها قائلا :

— وما جدوى سؤالك عن حالي ما دمت تلتهمين مالي وصحتي بلا رأفة ؟

فضحكت ضحكة مثيرة وجلست تشارب الرجل كأساً من الويسكي ، وكبر على عبد المز أنها لم تباله ؛ ورأت المرأة ارتباكه ، فمدت يدها المكتنزة وقرصته في خده وهي تقول :

— وكيف حالك يا نونو ؟

فاحمر وجه عبد المز استحياء ، وأحس بإستياء وشغل بشعوره عما حوله فلم ينتبه إلى ما دار بين المرأة وقريبه ، وجعل يختلس النظرات إلى وجهها المتلفّ فأحس نحوها بإعجاب عجيب ، والظاهر أن المرأة لم تهمله لأنها حادثت تداعبه فسألته :

— كم عشقت من النساء يا غلام ؟

وكان عبد المز يشعر بميل إلى التحدث إليها فأغضى عن سخريتها وسألها بدوره :

— وهل يهمك أن تعرفي ذلك ؟

— كيف لا ؟

— ولم ؟

— لأسباب كثيرة أقلها أن أعرف عمرك

— وما علاقة العمر بالعشق ؟

فغمزت بعينها وقالت :

— نحن معشر أهل الهوى نقدر الأعمار بحساب الحب ، مثلنا مثل المراقبة التي تهتدي إلى معرفة الأعمار بالرمل والنجوم ...

2017-11-11

فضحك الأسطى شلبي وقال :

— إذا فسد المزح لم يولد بعد من تقدرك

فغرقت المرأة صدرها بيدها وقالت بانكسار :

— رباه... ولم تحرم نفسك من الحب يابني !...

ألا ترى الأسطى شلبي لا يفتر من الهوى وإن رد إلى أرذل العمر ؟

فتغاضب شلبي وقال محتجا :

— أيقال عني أنا مثل هذا الكلام (وقال شاربيه واستمر قائلا) أهذا شارب رجل رد إلى أرذل العمر؟

فمدت أنامله المخضبة بالحناء بشاربه وقالت :

— أقسم أنك سرقت هذا الشارب من زبون شارد الفكر !

ولم يكن لدى الممثلة متسع من الوقت لتسترسل في مداعباتها ، فشربت كأسها وحيت الأسطى وقرصت عبد المزح مرة أخرى وسارت ترقص على نغم موسيقاها الباطنة

واختتم التمثيل عند منتصف الليل ، وانتظر الأسطى شلبي السيدة نور الحياة حتى انتهت من تغيير ملابسها وعادت إليه وركب ثلاثتهم تاكسي انطلق بهم صوب المدينة . وفي أثناء الطريق كان عبد المزح يختلس من الوجه الممتلىء الجميل نظرات خائفة ، وكانت المرأة ترقبه بعينين نصف مفتوحتين لا تخفي عليها خافيته ، وقد وجدت لذة غريبة في مشاهدة قلقه وتحيره، وأرادت أن تقضي عنه استهانة فلم يطاوعها وجدانها ، وأخيرا أحست نحوه بعطف غريب لم تحاول إخفاءه. وبلغ التاكسي ميدان المحطة فأمر الأسطى السائق بالتوقف ريثما يودعهما عبد المزح الذي قدر له أن يعود إلى البيت وحده تلك الليلة ، وأرادت نور الحياة أن تحسن توديعه فقالت: «ياعيني ..

أتعود إلى البيت وحدك ... خذ هذه القبلة لتؤنس وحشتك »

ومالت نحوه بسرعة وقبلت فمه قبلة فاضحة ذات رنين عجيب

ووقف الشاب ينظر إلى التاكسي الذي ابتعد بهما في جوف الليل إلى حيث لا يعلم ، وكان ذاهلا محموماً يتصاعد الدم إلى رأسه كما يتصاعد الزئبق في الترمومتر، ويحس بالقبلة على شفتيه ويدوي رنينها في أذنيه ويشم رائحة الفم المعطر بالقرنفل ، واهتاجت أعصابه تلك الليلة الفريدة في حياته فخلت تخلق له الأحلام وتدنى إليه الأماني، وأناخت بين ذراعيه نور الحياة بشحمها ولحمها لتروي اشتهاءه بفنون الحب جميعا

ولدى نهي اليوم الثاني رجع الأسطى شلبي إلى بيته وقد أدهشه أن يرى عبد المزح ما يزال قابعاً به لم يسافر ولا تبدو عليه هيئة المسافرين فقال له :

— ظننت أنك سافرت إلى العريش

فسأله الشاب بقلق :

— أيضايقك أن أبقى مدة أخرى ؟

— كلا وألف مرة كلا .. على الرحب والسعة دائما ... ولكن قل لي بالله ما الذي حملك على تغيير رأيك ؟

فقال الشاب مبتسماً مرتبكا وهو ينظر بعينيه إلى الأرض :

— روض الفرج دون غيره ! ليتني أستطيع أن أشبع من ملاعبه !

وقال الأسطى شلبي لنفسه : ترى هو روض الفرج حقاً أم نور الحياة ، على أنه لم يبال بهما واعتقد أنه عبث طفولة لا يقابل بغير الهزء والسخرية فاصطحبه معه إلى روض الفرج. وكان تعلق الغلام

2017-11-11

بنور الحياة بيّناً لا يحتاج إلى دليل؛ أما الذى لم يدر بخلد إنسان أبداً ولا كان محل احتمال قط فهو أن تتعلق المرأة بالنلام، ولو أنه من المسلم به دائماً أن عالم الحب عالم حافل بالمفاجآت غنى بالغرائب والعجائب

وكانت الظواهر تجمع على حب تلك المرأة الماثلة لذلك النلام الغرير فكانت تأنس به وتخف إلى محضره وتماطيه نظرات حنان وعطف ومودة، وكان لسان حالها ينطق بالرغبة الحارة فى الانفراد به، وكأنما يطلبان غفلة من الأسطى شلبى ليتناجيا بنمزة عين أو يتفساعن صدريهما بلمسة يد، وفى أثناء ذلك لا تكف ركبته عن تحسس فخذها المكتنز . .

وحاول الأسطى شلبى أن يهزأ به فى حضرتها أكثر من مرة فكانت تغضب وتنهره حتى ضاق صدره وجعل يقتل شاربيه بعنف ويقول لنفسه بنيظ « أيغلب هذا الشارب الذى يقف عليه الصقر؟ هيهات ثم هيهات ... »

وفى أثناء ذلك استبطأ الشيخ حضور ابنه فأرسل إليه خطاباً يحثه فيه على العودة بلا إبطاء؛ وانتهز الأسطى الفرصة الذهبية فنصح الشاب بالطاعة والده ولكنه أجاب — أو قلبه أجاب — « لا أستطيع » . وانفجر حقد الأسطى شلبى فى كتاب حرره للشيخ طه كاشفه فيه بتدهور ابنه إلى الحضيض والفساد وسارحه بهيامه بإحدى بنايا روض الفرج، وأهاب به أن يدركه أو يتردى فى الهاوية إلى الأبد

وجن جنون الشيخ الواعظ فشد رحاله إلى القاهرة فبلغها عصراً، واستقبله الأسطى شلبى استقبالا دل على الاخلاص والمحبة، ولم يتردد فمضى به إلى روض الفرج وكان يوسوس فى صدره بما يزيد مخاوفه ويهيج بلابله، وانتهيا إلى كازينو البوسفور وكان الستار مرفوعاً فسار به إلى مكان يطلبان منه على الركن الأيمن الذى يجلس به عبد المنعم يشاهد التمثيل فى الظاهر وينتظر نور الحياة فى الحقيقة، ومال الأسطى على أذن الشيخ وقال هامساً :

— ستوافيه إلى هذه المائدة بعد قليل

فضرب الرجل حجره بيده فى حالة عصبية وقال بتأثر :

— ألا يكفيه أن ينشى هذه البؤرة الفاسدة ؟

فقال الأوسطى شلبى بلهجة دلت على الحزن والأسف :

— إن ما ينتظره له القلب حقاً أن عبد المنعم كان شاباً عفاً طاهر الخلق

— فتنهد الرجل بحسرة وقال كالهمس

— ولكن من أين له المال الذى ينفقه على ممثلة؟

— أظن أن العلاقة بينهما لم تجاوز خطى التعارف الأولى ولهذا أهبت بك أن تدركه والمأبوى

— فقال الشيخ يلوم وحزن :

— لقد سكت عنه يا شيخ شلبى أكثر مما ينبغى . كان يجب أن تحذرنى من بادىء الأمر ...

— فقال الأسطى ببقين :

— أقسم بالله إنى ما علمت بسقطته حتى بادرت إلى الكتابة إليك ...

— وعند ذاك نزل الستار فوجه الرجلان انتباههما إلى الشاب المولهما ظهره، وما لبثا أن رأيا نور الحياة تسير إليه فى مشية الأوزة العصرية وتجلس قبالته، ونظر الأسطى شلبى إلى الشيخ طه فرآه ينظر إلى المرأة نظرة فاحصة وسمعه يصرخ صرخة مكتومة ويهتف بصوت مبحوح مرتجف

— يا رحمة الله ! ورآه يقف مرتعش الأوصال زائغ البصر، فأشفق من عاقبة الثهور وقال له بتوسل:

2017-11-11

— هدىء روعك ياشيخ طه

ولكن الشيخ طه لم يستطع أن يهدىء روعه وسار كالمرتج حتى وقف خلف ابنه الذى لايحس به وألقى على المثلة نظرات وحش مفترس وألفت عليه نور الحياة نظرة احتقار عاجلة من النظرات التى تدخرها للمتطفلين، ولكنها علقت بوجهه ولم تبرح، وعبثا حاولت أن تحول عينيها عنه كالمستهوى، وعجب الأسطى شلبى لما رآها تتلبسها حالة دهشة وفزع كتلك التى تلبست الشيخ طه حين وقوع نظره عليها فخار لأمرها وقال لنفسه بقلق « ليست هـذه مسألة عبد المعز »

وفى تلك الأثناء التفت عبد المعز إلى الوراء فوقعت عيناه على أبيه فجمد مكانه كالصنم ولكن أباه لم يباله كما توقع وا كتفى أن أمسك يده بقسوة ووضعها فى يد شلبى وقال بشدة لا تحتمل مراجعة: اسبقانى إلى البيت .

— فمضى الأسطى شلبى مع الشاب المرتعب وهو يتمتم : «خلصنا من الابن طلع لنا الأب»

— ولما خلا الجو للشيخ والمثلة قال الرجل باحتقار:

— السلام عليك أيتها الفاجرة التى ما كنت أظن أن الله سيتلينى برؤيتها مرة أخرى

— ولم ترد عليه المرأة الماثلة بل استكانت وبدا عليها الذهول والقلق وتعلق عقلها بالشاب الذى ذهب فعاد الرجل يقول بنفس اللهجة :

— حقا هذه هي البؤرة التى أعدت لأمثالك. لقد كنت يوما ريفية بسيطة ولكن نفسك كانت ملوثة تبرأ منها النفوس الريفيات جميعا . كنت فاجرة بالطبيعة والفطرة فكان من المحتوم أن ينتهى بك المطاف إلى روض الفرج أو إلى هاوية أشد وعورة . أيتها الفاجرة

وكانت نور الحياة تفكر فى أمور أخرى ألهتها عن الاصغاء إليه فسألته بخوف وإشفاق وهى تشير إلى الناحية التى ذهب إليها الأسطى شلبى وعبد المعز:

— هل هو ...؟

— ولم تقو على إتمام سؤالها فقال الرجل بوحشية :

— نعم ... نعم ... هو ابنى ... بل هو الطفل الذى تركته فى القماط وفررت مع ذلك القصاب المنحوس غير آبهة بالأمومة ولا بالزوجية ... هو ابنك أيتها الفاجرة فقولى ماذا صنعت به ؟ ...

وابيض وجه المرأة وعلاه الكركم وزاغ بصرها فقال الرجل بقسوة :

— هل وقعت الجريمة النكراء ؟ هل حدث الاثم الأكبر ؟ هل سفلت يا فاجرة إلى مرتبة الحشرات والكلاب ؟ والله ما كنت أحب أن يشارك ابنى فى مثل هذه الفضلة الشنعاء ولكنه الانتقام الالهى الصارم أعمى بصرك وطبع على بصيرتك ليذيقك علقم الندامة ويضرب عليك المذلة والهوان إلى أبد الآبدين

وكانت المرأة فى حالة ذهول شديد حجب عن حواسها إدراك العالم المحيط بها ومنه الشيخ طه فظلت هواجس ضميرها صوت الرجل المرعى المزيد وجعلت تحدث نفسها

— إبنى ... رباه ... أهذا إذاً سر حبى له وعطفى عليه ؟... إبنى ... لكأنه حلم بعيد التحقيق

فقال الرجل الغاضب :

— فلتموتى كمداً جزاء إثمك الشنيع

فأشارت المرأة إليه بيدها إشارة غضب واحتقار وقالت :

— كفى هذيانا ... فانه لم يقع بينى وبين ابنى

2017-11-1

ما يخجل منه أحدنا أو كلانا

فاشتد غضب الرجل للجتها وصاح بصوت انفجاري :

— إياك وأن تقولي ابنك ... لقد ماتت أمه حين ولادته ... أفاهمة أنت ؟

ودوى صوته فالتفت النظارة إلى ناحيتهما من كل صوب، وكادت تفقد الممثلة صوابها، ولم تر بداً من الانسحاب السريع ، وغادر الشيخ مكانه ورجع إلى بيت قريبه الأوسطى شلبي ولم يطمئن به المكان فأخذ ابنه ومضيا إلى محطة مصر وفي أثناء الطريق قال له :

— لن ترى القاهرة مرة أخرى إن شاء الله .. وسأحولك إلى مدرسة الزقازيق والله المستعان

وصمت عبد المعز فلم تتفرج شفتاه عن كلمة وظل جامداً كالتمثال حتى آوى إلى حجرته وكان في قرارة نفسه غاضباً على أبيه ولعله لو رأي الشيخ وهو يختم صلاته ذاك المساء فيبسط يديه ويدعو ويتوسل ويذرف الدموع الساخنة لربما سكت عنه الغضب وأجبرته حياؤه على الذهاب إليه ليستغفره ويسترحمه ولكنه كان لا يرى من الدنيا جميعاً سوى وجه ممتلىء مستدير حلو الابتسامة جم المحبة والحنان يراه في النور وفي الظلام ويراه حين ينظر وحين يغمض جفنيه فهو لا يبرح خياله ولا يدع له فرصة للراحة أو الاطمئنان ، ولم يفكر قط في النسيان أو التعزي ولكنه كان يبتغي الوسيلة إلى الفرار إلى القاهرة مهما كلفه الأمر

ولاحت له الفرصة المطلوبة بعد أسبوع من وصوله إلى العريش حين اضطر أبوه إلى سفر يقتضيه التغيب بضعة أيام ، ولم يدع الفرصة تفلت لأنه كان عازماً عزماً أكيداً أمات ضميره وهزم نوازع الخير في نفسه ففتح صوان والده وبعثر ما فيه من الثياب فعثر — كما قدر — على خمسة جنيهات ضمها في جيبه وفر من البيت ...

وبلغ القاهرة ظهراً، وكان مضطرباً متعباً فاستراح في مقهى حتى العصر ، ثم ركب إلى روض الفرج فالى كازينو البوسفور وقصد إلى الركن المعهود ، ولكنه لمح عن بعد الأسطى شلبي جالساً إلى المائدة في اطمئنان ودعة ينتظر الحبيبة لا شك بعد أن خلا له الجو ، فظل الهم في عروقه وود لو يخسف به الأرض، وحار لحظة قصيرة ثم لم يتردد، فقصد رأساً إلى حجرات الممثلات وبحث عن حجرة نور الحياة ولم يصبر حتى يؤذن له فاقتحم بابها

وكانت مفاجأة غير متوقعة ، فقامت نور الحياة واقفة تاركة أدوات الكياج والتواليت تسقط من يديها، وتبدى على أسارير وجهها فرح قهري وكادت تفتح له ذراعيها وتضمه إلى صدرها الخفاق وتعاطيه قبل الحنان والأمومة ، ولكنها تنبهت إلى نفسها فتصلبت في وقفتها وجمدت أسارير وجهها وبدت عليها الحيرة والذهول ، ولم يكن لديها متسع للتفكير والتقدير ، ولكنها أحست بأن الطريق الذي تدفعها عواطفها إليه ليس الطريق الذي ينبغي لها سلوكه

ولم ترد عيناه أن ترى في وجهها سوى الفرح الذي كساه لأول وهلة ، فأقبل عليها مفتوح الذراعين ولكنها أغضت عنه وسألته بلهجة غريبة :

— عبد المعز ... ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

فقال بلهجة المستغيث وهو يشفق من تغيرها إشفاقاً :

— أنت تسلمين بما أني بي فكيف تتجاهليني ؟

ونفذت لهجته التوسلية إلى سويداء قلبها فخفق بشدة وكاد يطير من بين يديها ، ولكنها ضغطت عليه بقسوة لم تعهدها في نفسها من قبل وسكنت هنيهة

لتضبط عواطفها كيلا يظهر اضطرابُ وجدانها فى نبرات صوتها ثم قالت :

— لا أفقه لما تقول معنى

— فتنهد الشاب بحرقة وترك ذراعيه يستقطان إلى جانبه وقال :

— أتيت لأنى لا أحتمل البعد عنك وليس بى من قوة أستطيع بها التصبر أو التعزى ، فعبثاً حاولت أن أقيم لرجاء والدي وزناً ، وعبثاً حاولت أن أصرف نفسى عن التفكير فيك ، وانتهزت فرصة سفر والدى لألوذ بالفرار ، ولم أحسن التدبير إذ كانت ظروفى غاية فى القسوة فأخذت تقود أبي ...

وأسكتته عن إتمام حديثه صرخة فرت من فم المرأة الخائفة المشفقة ، وسمعها تسأله بألم :

— هل سرقت ؟

— فلم يحسن فهم الباعث لها على سؤالها وقال بتأثر شديد :

— نعم سرقت ولست آسفا على ما فعلت لأنه كان سبيلى الوحيد إليك ولن أتردد عن أى تضحية فى سبيل أن أحظى بقربك؛ وهاهى ذى نقودى فافعلى بها ما تشائين ...

— ولكنها أشارت إليه بيدها فأسكتته وسألته بجفاء يعلم الله كم كلفها من جهد وعذاب :

— هل يعود أبوك سريعاً من سفره ؟

— بعد يومين أو ثلاثة

— فتنهدت المرأة ارتياحا وقالت :

— ينبغى أن ترجع فى الحال إلى بلدك لترد النقود إلى مكانها فلا يعلم أبوك بجريمتك .

ولكنه قال بجزع وخوف :

— هذا مستحيل. أنا لا أستطيع مفارقتك أبداً

— هذا كلام فارغ وعبث طائش والحب سريع الزوال ، أما أثر الجريمة فلا يزول

فقال بإصرار :

— لن أفارقك أبداً

وخشيت إن هى لانت له وطاوعت قلبها أن تقضى عليه فقالت بصرامة :

— ينبغى يا هذا أن تذهب سريعاً وإلا وجهت إلى تهمة تحريضك على السرقة

فبغت الشاب وأحس بخيبة مريرة وسألها :

— أهذا كل ما يهمك من أمر عودتى ؟

— طبعاً ...

— أتجدين فى القول ؟

— وهل هذا وقت هزل ؟

— وفيم كانت مودتك لى ؟

— وأى مودة هذه التى تهون على النفس ما تهددنى به جريمتك ؟

فقال الشاب بانفعال شديد :

— ولكنى ارتكبت هذه الجريمة من أجلك أنت !

— لقد جئت أمراً نكراً ، وإن عشاق الكثيرين ليترددون إلى بغير ارتكاب الجرائم

فتنهد عبد المعز تنهد اليائس المغيظ وقال :

— وإذا كنت تكذبين ؟

فقالت وكانت فى حالة من الاعياء شديدة

— أنت الذى أخطأت فهمي ... نعم إنى لا أنكر أنى ذكرت فى حديثى معك الحب ولكنه كان حباً بريئاً كحب ... أمك مثلا

وكان دم عبد المعز يغلى فى عروقه غلياناً وكان الغضب يفور فى قلبه وينفث أمام عينه سحائب من دخان كثيف فصاح بصوت مرتعش النبرات :

— لا تشبهى نفسك الآثمة بأمى الطاهرة فتغلقى رقدتها الآمنة أيتها الماهرة ...

ولم يشف الكلام غليله فلطمها على وجهها — فى غيبوبة الغضب — وبصق عليها ...

2017-11-11

ثم ولى الأدبار فلم يقدر له أن يرى بشاعة الألم الذى قلص أسارير هاولا الحزن الذى طفر الشيخوخة على وجهها ولا رآها وهى تمسح بصفته يدها ودمعها ينهمل ...

ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء هائجا، ثائرا كالزوبعة، وركب الترام ونزل منه واستقل القطار وهو يحدث نفسه ويتهدد ويتوعد ويتجرع غصص الندم والأسف

وأراد الله ستره فأعاد النقود إلى مكانها ومحا أثر الجريمة بيديه ونجا من شر عظيم

وقد ظن أن الدرس القاسى الذى تلقنه كفيل بأن يجتث من نفسه كل ما كان من ميل أو عاطفة نحو نور الحياة وأمثالها جميعا، ولكنه حين عاودته طمأنينته وسكونه وجد عقله ينزع به إلى روض الفرج، وقد غالط نفسه وقاوم نزوعه ولكنه وجد عقله مجبرا على التفكير والتذكر، فساءل نفسه ماذا فعلت نور الحياة مما استحق غضبى؟ ألأنها تودد إلى؟ فهذه صناعتها وفنها، أم لأنها أشفقت على نفسها من عواقب جريمتى؟ فهذا ما ينتظر من أى إنسان مهما كان أدبه وكان تهذيبه، وربما كان من الطبيعى أن أغضب بعد أن منيت بالخيبة وذهبت تضحيتى هباء، ولكن لم يكن طبيعياً قط أن أسب عليها جام غضبى، وماذا فعلت هى تلقاء ذلك؟ لاشىء، لقد لطمتها وبصقت عليها فماذا فعلت وهى القادرة على «البهدلة»؟ لاشىء!

ومضت الأيام تلو الأيام وانتظر على رجاء أن يحول الزمن من نفسه تلك الذكرى المؤلمة. وكان يجد فى أعماقه عاطفة غريبة لم يعترف بها قط وطالما غالط نفسه فيها ولكن ربما غلبته على أمره أحيانا فيتنهد حزنا ويقول لنفسه آسفا محسوراً « ليتنى لم أمتد لها يدى بسوء »

نجيب محفوظ

شركة مصر للملاحة البحرية

تمهد لكم السبيل إلى بيت الله الحرام

بباخرتيها الفاخرتين

زمزم و روض الفرج

وفنادقها فى

السويس - جدة - مكة المكرمة

وبنك مصر يقدم لكم جميع الخدمات ويستبدل العملة ويحاسب المطوفين ويدفع الرسوم والمصاريف

استعلموا من

شركة مصر للملاحة البحرية وفروعها بنك مصر وفروعه شركة مصر للسياحة وفروعها

أحية أم ميتة ؟

لشاعر الهند وفيلسوفها طاغور

بقلم الأديب فخري شهاب الحدي

— ١ —

لم يكن « لكادامبيني » قريب من آل أبيها تمسها رحمه ، ولا نسيب من عشيرة زوجها تعتمده أو تعول عليه ، فقد أدرك أولئك الموت جميعاً حتى لم يبق على أحد غير طفل صغير لحمها « سارادا سنكار » أمير مقاطعة « رابنهات » خلطته بنفسها ، ووطأت له مهاد رأفتها منذ أن مرضت أمه بعد الوضع فكفلته هي وعنيت بأموره ؛ والمرأة إذا ما احتضنت طفلاً لغيرها محضته خالص حبها الذي ما فوقه شيء ، ذلك بأنها ليس لها عليه حق من حقوق القربى أو النسب غير حق « المحبة الخالصة » ... والمحبة هذه لا تستطيع أن تثبت حقوقها بالصك والوثيقة التي تواضع « الاجتماع » عليها ، بل هي لا تريد أن يكون إثباتها بهذا . وإنما تريد أن تثبت بالعاطفة القوية ، وتعبد بالحنوّ المضاعف من عند أمثال هذه من النساء [1] .. وكذلك كان حب هذه المرأة الخائب قوياً مضاعفاً لذلك الطفل الصغير ...

وفي ليلة من ليالي « سرابان [2] » — والعالم ماض على نهجه المعهود — توقف قلب « كادامبيني » في صدرها الصغير المدنف بالحب والآلام عن الخفوق وسكت سكتة الأبدية الطويلة ، إذ توفيت المسكينة « بسكتة القلب » ليلتئذ على حين غرة ...

وحمل الجثمان أربعة من الرجال سراً إلى حيث يحرقونه بغير أن يجروا له شعائر الاحراق المعروفة حتى لا يؤخرهم رجال الشرط عما يريدون.. ومضوا به إلى حيث يحرق أهل تلك المقاطعة موتاهم ، وهي بقعة في فسيح من الأرض لم يكن فيها غير كوخ صغير إلى جانبه حوض للماء وشجرة باسقة من أشجار « البانيان » وكانت ترى إلى ذلك آثار نهر قديم كان يجري في تلك الأرض من زمن بعيد ، ويظن الناس أن ماء الحوض ذاك قد أجري إليه من هذا النهر القديم فهم لذلك يقدسونه ويتبركون به .

وأدخل الرجال الجثة في الكوخ ومضى « كارجان » و « نيتائي » يلسان حطباً للاحراق وبقي الآخران في الكوخ يحرسان الجثة

وقد كانت ليلة حالكة شملت بظلامها كل شيء ، وحجب سحابها المتراكم الكثيف النجوم في السماء .. جلس الاثنان صامتين في الكوخ ، وقد خبا المصباح ولم تجد المحاولات في إيقاده نفعاً إذ كانت علب الكبريت رطبة لا حيلة في الاستفادة منها . وبعد سكون دام طويلاً ، قال أحدهما :

— ما أشد حاجتنا الآن يا أخي إلى غليون من التبغ ! لقد أنستنا السرعة أن نجيء بشيء من ذلك

فأجابه الآخر : إن في استطاعتي أن أركض

(*) من كتاب « من روائع طاغور » الذي يصدر قريبا

(١) اللائي ينظرن إلى الطفل نظرتين : نظرة الأمهات وهم ونظرة المرأة الحانية باعتبارها إنسانا رقيق القلب

(٢) شهر من الشهور الهندية كان مثبتا في النص الانكليزي ؛ والظاهر أنه من شهور الصيف التي تهب فيها الرياح الموسمية من ناحية الجنوب الغربي محملة بالأمطار الغزيرة كما سيمر بالقارىء

إلى القرية فأجيء بما نحتاج ...

وفهم « بدهو » سبب رغبة صاحبه « بنامالى » فى الذهاب[1] فأجابه قائلا :

— ويخيل إلى أنى سأظل وحدى فى غضون ذلك !

ثم انقطع الحوار ، وشمل السكون تارة أخرى ، فكان الوقت يمضى فى بطء شديد حتى لكأن الدقائق الخمس تعدل ساعة كاملة ؛ وكان كل من الرجلين يلمن صاحبيه اللذين ذهبا بحجة الحطب ، ويرتاب فى أنهما ذهبا لذلك . من يدرى فلعلهما يتداولان الحديث فى موضوعات شتى فى عجبهما الأمين

ولم يكن يسمع فى ذلك السكون غير صرير الحشرات أو نقيق الضفادع التى يقرب الحوض .. وجأة خيل للرجلين أن الفراش قد تحرك قليلا كما لو كان البدن الذى فيه قد استدار من جنب إلى جنب ... فارتجف كل من الرجلين فرقاً واستعاذ بالله مما يرى !

وفى اللحظة التى انطلق فيها هذان الحارسان من الكوخ متجهين إلى القرية كانت ترتفع فى جو الغرفة شهقة عميقة ! وبعد أن ركض الرجلان نحو ثلاثة أميال واغاثا الاثنان الآخران ، وما كان هذان ليسمعا أمر الحطب ، بل كانا فى الواقع قد ذهبا لإزجاء الوقت بالتدخين والكلام ، حتى إذا ما عادا زعما أن قطع إحدى الأشجار قد تم وأنه لم يبق إلا أن تشق الشجرة لتحمل بعد قليل ... ولكن « بدهو » وصاحبه قصّا عليهما ما رأيا من أمر الميتة ، فسخر هذان منهما ونعتاهما على أن تركا واجبهما المكلفين به !

ورجع الرجال الأربعة من فورهم إلى الكوخ ولكنهم إذ دخلوه لم يجدوا فيه غير الفراش خالياً من الجسد ! فاستولت عليهم الدهشة وعلق بعضهم فى وجوه بعض ... أفى الممكن أن يكون قد أخذ الجثة ابن آوى ؟ ولكن أين مزق الثياب الباقية ؟ وبخروجهم من الكوخ رأوا على الطين عند باب الكوخ آثاراً صغيرة انطبعت عليه من أقدام امرأة سارت من قريب على ذلك الطين

... ولم يكن « سارا داستكار » بالغبى ولا المجنون ليصدق هذه القصة الخيالية التى سيقصون عليه ، ولذلك عزموا — بعد تداول الرأى بينهم — على أن يعلنوا لقومهم أنهم أحرقوا الجسد ...

وعند ما انشق عمود الفجر ، وجىء بالحطب ، زعم الأربعة الحارسون للقوم أنهم أتموا الاحراق — نظراً لتأخرهم — بحطب غير هذا احتطبوه ! وإذ لم تكن لجسد الميتة قيمة فيسرق ، فقد أهمل الجميع السؤال عن كل ما يتعلق به ...

— ٢ —

ليس يجهل أحد أن الحياة قد تكون موجودة فى جسم من الأجسام فى حين أنه لا علامة لها فى ذلك الجسم ، وأنها ربما عادت فظهرت علائمها فى ذلك الجسم الذى قد بدا عليه الموت ... وكذلك كان شأن « كاداميفى » فهى لم تمت بل توقفت أجهزة جسمها لسبب مباغت مجهول ... ولما أفاقت أدارت الطرف فيما حولها فلم تر غير ظلم بنادية أطنابها فى كل مكان ! وفى لحظة خاطفة طمس على ذاكرة « كاداميفى » وشعورها ، فاذا هى لا تعى شيئاً مما حولها حتى لكأن هذا الوجود كتاب

(١) وهو ما خيل إليه من أن الأرض مسكونة بالجن والأشباح والأرواح (النص الانكليزى)

2017-11-11

انطمست حروفه وتداخل بعضها فى بعض فليس إلى فهم ما فيه من سبيل ! . . . إنها الآن لا تذكر أكان « الطفل » قد ناداها بصوته العذب المستحب يستدعيها للمرة الأخيرة أم أنه لم يفعل من ذلك شيئاً ؟ بل هى لا تذكر أكانت قد تزودت فى هذه السفرة المجهولة طيبها — بهدية من « مال الحب » تدفعه أجرة السفر إلى تلك الربوع الصامتة ، أم أن شيئاً من هذا لم يكن ؟ . . . هى لا تدرى من كل ذلك شيئاً .

وما أرى إلا أنها حسبت هـذا المكان المظلم حفرة القبر ، حيث لا يرى فيها ولا يسمع منها شىء ، وحيث الحركة منقطعة ، فليس إلى صنع شىء من سبيل ، بل كل ما هنالك ظلام عام يشمل كل شىء .

ولكن عند ما هبت نفحة من الهواء الندى من جهة الباب ، ووصل إلى أذنيها نقيق الضفادع ، عاد إلى ذاكرتها كل شىء ، وعرفت صلتها بهذا العالم ...

وأنار وميض البرق الخاطف ما حولها فرأت حوض الماء ، وشجرة « البانيان » والبراح الفسيح وأشجاراً كانت تقوم على بعد . . . رأت ذلك كله وتذكرت أنها كانت تجىء إلى نفس هذا المكان فى بعض الليالى المقمرة لتستحم فى هذا الحوض ، ولكم كان الموت فظيعاً مروعاً حين فارقت ذلك الماضى بجثتها ممددة على أرض « المحرقة » !

لقد خطر لها — أول ما خطر — أن تعود إلى الدار ولكنها وقفت تحاور نفسها : « إننى ميتة ، فكيف يمكننى أن أعود إلى البيت ؟ ستكون عودتى نكبة لهم ؟ فانى قد غادرت مملكة الأحياء ، وما أنا الآن سوى خيال . . . محض شبح . . . فان لم يكن هذا حقاً — واستطردت تبرهن على كلامها السابق — فان لم يكن هذا حقاً ، فكيف أمكنها الافلات من قلعة « سارادا سنكار » الحصينة إلى أرض « المحرقة » فى منتصف الليل ؟ ثم إن شمائر الاحراق لم تنته فأين المكلفون باحراقها ؟ »

ثم استعادت مشهد ساعة موتها فى دار « سارا دسنكار » فصح عندها — وهى فى هذه الغلاة — أنها ليست من أفراد هذا المجتمع إنما هى مخلوق مرعب مشؤوم ، هى محض خيال ...

وبهذه الفكرة التى استنتجتها حسبت أن كل العرى التى كانت تربطها بهذه الدنيا قد وهت فانفصمت وخيل إليها أن بمقدورها — وهى صاحبة القوة الخارقة والحرية المطلقة — أن تفعل ما تشاء ، وأن تذهب حيث تريد ...

وجُنت بوحى هذه الفكرة الجديدة فانطلقت خارجة من الكوخ بسرعة الريح ووقفت على أرض « المحرقة » وقد فارقتها كل ما كانت لها من آثار الحياء والخوف ... ثم لما سارت وأوغلت فى السير نال قدميها التعب ، وأدرك جسمها الاعياء فكانت تتخبط على غير هدى تارة فى الحقول المنخفضة وطوراً تخوض إلى ركبتها فى المياه !

وسمعت عند انبثاق أول أشعة الفجر صوت بعض الطيور فى ذرى الأشجار عن بعد ، فاعتراها الخوف إذ ما كانت تدرى نوع صلتها بالأرض وماهو عالم الأحياء ، فقد كانت إلى زمن يسير فى الغلاة الفسيحة بأرض المحرقة ، وقد أسدل الليل عليها سجفه فنطاها . كانت شديدة الثقة والاطمئنان متحكمة فى مملكتها التى تخيلتها لنفسها ، ولكن ما إن أضاء النهار ، حتى ملأ الناس نفسها رعباً منهم ! ذلك

بأن كلا من «البشر» و «الأرواح» يخاف الآخر، خوفاً منشؤه سكنى جماعات كل طائفة على جانب مختلف عن جانب الآخرين على ضفاف نهر الموت[1]

— ٣ —

كانت ثيابها ملطخة بالأوحال، ومظهرها — وهي تدلج بالليل — وأفكارها الغريبة السود، كل أولئك كان قدأ كسبها هيأة امرأة مجنونة تلقى الرعب فى قلوب الناس، بل قد تذرى الأطفال على حصبها بالحجارة.

وكان أول من رآها — لحسن الحظ — رجل مسافر اقترب منها حين وقعت عينه عليها، وقال:

— أيتها الأم الوقور ... أين تقصدين بهذا المطاف؟

ولم تستطع «كادامبيني» أن تجمع شتات أفكارها فتجيبه على ما سأل، وإنما كان جوابه منها نظرة ألقتها عليه وهى غارقة فى بحر من الوجوم عميق... لم يكن فى حسبانها أنها ما زالت على صلة بأهل هذه الوجوه بحيث يرونها امرأة وقوراً تستحق أن تسمع من مسافر سؤالاً يطرحه عليها...

ثم استأنف الرجل قائلاً: تعالى يا أماه سأحملك إلى دارك فخبرينى أين تسكنين؟

وفكرت «كادامبيني» فيما عساها أن تقول للرجل... لم يكن لها دار أب تأوى إليها، كما أنه ليس من الصواب أن تعود إلى بيت حبها بعد الذى حدث... وإنها لكذلك إذ ذكرت صديقة طفولتها «جوكايا»... إنها لم ترها منذ أيام الشباب، ولكنها كانت مع ذلك تراسلها، وربما خاصمتها أحياناً، وسبب تلك الخصومات أنها كانت تريد أن توضح لصديقتها أن حبها لها لم يكن ذا نهاية ولا محدوداً، فى حين أن «جوكايا» ما كانت تصدق أن حب صديقتها لها يساوى ما فى صدرها لتلك الصديقة من الحب!

وكانت كل من الصديقتين معتقدة بأن تلاقيهما — إن حدث مرة — فلن يفصمه الفراق!

وأجابت «كادامبيني» المسافر قائلة:

— إنى قاصدة إلى دار «سرپاتى» فى «نيسندايور» ولم تكن هذه المدينة قريبة، ولكنها كانت تقع على طريق الرجل فحملها إلى دار صديقتها.

ولم تعرف الواحدة الأخرى بادئ ذى بدء ولكنهما استعادتا — شيئاً فشيئاً — ملامح الطفولة التى كانت آثارها على وجهيهما فتعارفتا.

قالت «جوكايا» تخاطب صديقتها:

— يا للحظ! ما كنت أحلم بأننا سنلتقى أبداً، ولكن حدثينى كيف جئت إلىّ يا أختاه؟ كيف أفلتّ من دار حميك؟ إنهم بطبيعة الحال لم يسمحوا لك بالخروج!

ولكن «كادامبيني» ظلت صامتة ولم تجب؛ ثم قالت أخيراً:

— أختاه! لا تسألى عن سَحى، بل دعينى أنتبذْ فى دارك هذه زاوية، واحسبينى فى عداد الخدم، فسأقوم بكل حاجاتك...

فصرخت «جوكايا» قائلة:

— ماذا؟ أأحسبك فى عداد الخدم فى دارى؟ أنت يا أعز صديقاتى على؟ أنت التى... ومضت فى حديثها على هذا النمط.

ثم جاء «سرپاتى» زوج «جوكايا» فحدّقت

(١) أى أن الموت هو النهر الذى يجرى بين أرض هاتين الطائفتين فيكون حدودها الطبيعية الجغرافية

« كادامبيني » فى وجهه طويلاً ، ثم ابتعدت عنه على مهل ... ولم يكن فيا عملت علامة من علامات الاحترام أو الأدب ؛ غير أن « جوكايا » اعتذرت عن صديقتها إلى زوجها من هذا التصرف الشائن ، ولكن « سريداتى » الذى كان يصدق كل ما كانت تقوله زوجه — قطع حديثها عليها وتركها خارجاً ، مضطربة قلقة البال

***

... عادت « كادامبيني » إلى صديقتها ولكنها لم تكن فى الحقيقة أمامها وجهاً لوجه ، بل كان الموت يفصلهما ، إنها لم تكن تألف الناس أو ترتاح إليهم ، ذلك بأنها كانت قد وقعت فى حيرة من « وجودها »[1] هذا ، مع كونها بقيت مالكة شعورها وملكاتها العاقلة ...

... كانت ترنو إلى صديقتها وتطيل الفكر وتحاور نفسها بهذا الحديث :

— إن لها زوجها وأعمالها . إنها تعيش فى عالم بعيد عن الذى أعيش فيه . إنها تساهم فى تحمل التبعة والمسؤولية مع الناس فى هذا الوجود ، بينا أنا محض روح . إنها فى عالم الأحياء ، وأما أنا ففى عالم الخلود ...

وما كانت « جوكايا » بالمرتاحة المطمئنة ، ولكنها ما كانت تدرى سبب ذلك ، والمرأة لا تحب « الغموض » أو الابهام لأنه مهما تصور فى صور شتى من « شعر » أو « بطولة » أو « معرفة وبحث » فانه لن يكون فى شكل .. أعمال « المنزل » وتدبير أموره[2] ، وذلك ما يجعل المرأة تعصف بكل شىء لا يناله إدراكها ، أو هى — على الأقل — تتناساه أو تلبسه صورة أخرى من عند نفسها فان لم تستطع أن تضمه فى واحدة من هاتين المنزلتين فليست هى امرأة ... إذ أنها عندئذ تخسر طبيعتها النسوية !

***

كانت « جوكايا » كلما أمعنت « كادامبيني » فى الذهول — ازدادت هى ضيقاً وتعجباً مما كان يثقل عقل صاحبتها من الأفكار ... ثم تجم من بعد ذلك خطر جديد ... إن « كادامبيني » أخذت تخاف من نفسها ! وأين تستطيع من نفسها المهروب؟ إن الذين يخافون الأرواح والأخيلة إنما يخافون — فى الواقع — ما وراء تلك الأرواح من أخطار وهم خائفون دائماً أينما حلوا ما دام بصرهم لا يقع على شىء ، ولكن خوف « كادامبيني » غير خوف الناس ، إن خطرها الذى تخشاه إنما هو فى نفسها هو ليس خارجاً عنها !

فكانت إذا خلت إلى نفسها فى الغرفة ، إذا جن المساء صرخت خوفاً ، وإذا رأت ظلها فى نور المصباح ارتعدت فرائصها فرقاً ! وكان من ذلك أن غم أهل الدار نوع من الفزع أقلقهم جميعاً ... حتى كانت الأشباح تتراءى للخدم ، بل و « لجوكايا » نفسها أيضاً ...

وفى منتصف إحدى الليالى خرجت « كادامبيني » من غرفتها مولولة باكية ووقفت بباب غرفة صديقتها قائلة :

— أختاه ! يا أختاه .. دعيني أرقد عند قدميك ولا تتركيني أنام وحدى !

وما كان سخط « جوكايا » ليقل عن فزعها ؛ لقد كان بودها أن تطرد صديقتها فى كل حين من الدار !

(١) يقصد حياتها الثانية التى بدأت بعد صحوتها

(٢) أى أن الغموض لا يتلاءم وطبيعة المرأة

2017-11-11

وبعد محاولات شتى قام بها «سربياني» استطاع أن يهدئ ضيفتهم ويدخلها إلى غرفة مجاورة لتنام فيها

* * *

وفي اليوم التالي استدعت « جوكايا » زوجها إلى غرفتها وقالت تعنفه :

— هل تدعو نفسك رجلا ؟ امرأة تهرب من دار حميها ثم تدخل بيتك ويمضي على ذلك شهر وأنت لا تشير إلى ضرورة ذهابها ولا تظهر منك بادرة أو علامة تدل على هذا ! سأعدها منّة علي لو فسرت لي نفسك ... إنكم معشر الرجال جميعاً متشابهون ...

... والرجال باعتبارهم جنساً قائماً بذاته — لهم تحزب طبيعي ضد النساء على العموم ، وهذا ما يجعل النساء يحاسبنهم ويالغن في الحساب

لقد كان « سربياني » يقسم لزوجه أن شعوره نحو « كاداميني » ما كان ليتعدى الحد الذي تقتضيه الشفقة والرأفة ، وإن كان هذا لا يتفق في الظاهر مع سلوكه معها . إنه يعتقد أن أهل دارها قد أساءوا معاملتها حتى لم تكد تطيقهم وذلك ما دعاها إلى الالتجاء إلى هنا . أفلو كان لها أب أو أم أكانا يتركانها كذلك ؟ وعلى هذا فقد قال :

— دعي الأمر كما هو ... وأنا لا أستطيع أن أؤلم هذه البائسة بأن أطلب منها الخروج من الدار

ولكن « جوكايا » حاولت شتى المحاولات لتحمل زوجها الخامل (!) على أن ينزل عند مايريد حتى ارتأى — إحلالا للسلم في داره — أن يرسل خطاباً إلى حي « كاداميني » ولكنه رأى أن نتيجة الرسالة قد لا تأتي بالمطلوب . ولما قرر الذهاب إلى « رانيهات » ليجد الحل المعقول

وذهب « سربياني »

وحادث « جوكايا » تقول لصديقتها :

— أيتها الصديقة ، إن من الصعب عليك أن تبقي هنا بعد هذا ... ما ترين الناس قائلين ؟

وتفرست « كاداميني » في وجه صديقتها وقد استولى عليها الدهش ثم أجابتها :

— وماذا علي من الناس ؟

ودهشت « جوكايا » مما سمعت ثم قالت مجدّة :

— إذا لم تكن لك بالناس علاقة ولا مساس ، فان لنا بهم ما ليس لك . كيف نفسر وجود امرأة غريبة وتأخرها عندنا ؟

فسألتها « كاداميني » :

— وأين هي دار حميي ؟

قالت « جوكايا » وهي متذمتة ، مخاطبة نفسها :

— يا للهول ! ما الذي ستقوله المرأة المنكوبة بعد ذلك ؟

وفي بطء شديد أجابت « كاداميني » :

— وما يعنيني من أمركم ؟ أأنا من أهل الأرض ؟ إنكم لتضحكون وتبكون وتحيون وكل منكم محتفظ بالذي له ، وأنا أتطلع فقط ... أنتم بشر ، وأنا محض خيال ... روح ... إنني لست أقدر أن أفهم كيف أبقاني الله بينكم في حالكم هذا !

... وكانت نظراتها وكلامها غريبين بحيث لم تستطع أن تفهم « جوكايا » من مرماها إلا اليسير . ولم تكن بعد ذلك قادرة على طردها ، ولا على أن تسألها غير ما سألت ، وانصرفت مثقلة الرأس بالأفكار ...

* * *

... كانت عودة «سربياني» من « رانيهات » في قرابة الساعة العاشرة مساء . وكان يغشى وجه الأرض سيل جارف من مياه المطر الهاطل بغير

(٥)

انقطاع ، حتى ليخيل للمرء أن ليس لهذا التهتان حد ينقطع عنده ، ولا لهذه الليلة آخر تنكشف عنه

وابتدرت « جوكايا » زوجها قائلة :

— حسن ...

ولكنه أجابها : « لدى الكثير مما أريد أن أقول » قال ذلك وقام إلى ثيابه فنيرها ، وأكل عشاءه ثم جلس ليروح عن نفسه بنفثات من التبغ . وكان خلال ذلك شارد الذهن مشتغل الفكر ... وأما زوجه فقد كانت أثناء هذا تجاهد غصولها لتخفيه حتى إذا رأته استقر فى مقعده جاءت إليه فسألته :

— حدثني الآن عما سمعت !

— إنك ارتكبت بالأمس اضطررتني إليه أشنع الخطأ ... !

وأغضيها ماسمعت ... ذلك بأن النساء لا يرتكبن الأخطاء ، أو هن إن ارتكبنها فان الرجل العاقل الفاضل لا يأبه لذلك ، بل ربما كان الخير فى أن يتحملها على عاتقه هو ؛ وعلى ذلك فقد نَبَرتْ « جوكايا » مغضبة تقول :

— أجائز أن أسمع ما تقول ؟

فأجابها « سريباتى » : « أجل ! فالمرأة التى أدخلتها دارك لم تكن « كادامبيني » صديقتك ! »

وأحنقها أن تسمع هـذا ، وأن تسمعه من زوجها ، فأجابت :

— ماذا ؟ ألست أعرف صديقتى ؟ أكان على أن أسألك عن أمرها لتعرفها لى ؟ إنك لماهر حقاً !

وأفهمها « سريباتى » أنه لا يروم الجدال فى مهارته وذكائه ، فإن فى وسعه التدليل على صحة مازعم ذلك بأن « كادامبيني » صديقة « جوكايا » قـد توفيت !!

فأجابته زوجه قائلة : « إسمع إلى ... لا شك فى أنك ارتكبت خطأ جسيما فإما أنك ذهبت إلى دار غير دارهم خطأ ، وإما أنك لاتحاول أن تطلعنى على جلية الخبر ! من ذا الذى كانك الدهاب بنفسك ؟ ا كتب رسالة وسيتضح كل شئ »

وكان « سريباتى » قد آلمه عدم اطمئنان زوجه إلي « حسن تصرفه » فاصطنع لذلك شتى البراهين ، ولكن بغير جدوى ... وبقيا كذلك حتى منتصف الليل فى أخذ ورد . ومع أنهما كانا متفقين على إخراج « كادامبيني » من البيت ، ومع اعتقاد « سريباتى » بأن ضيفته تخدع زوجه بمعرفتها المكذوبة ، وأن « جوكايا » زوجه تخونه فى هذه الضيفة بقبولها تلك المعرفة المكذوبة وإقرارها ضيفتها عليها . . . مع ذلك كله فما توصل لا هو ولا زوجه إلى نتيجة ما، إذ لم يكن أحدهما — هو وزوجه — ليعترف بانتصار صاحبه فى الجدال ...

* * *

قال أحد الزوجين :

— إننا الآن فى مأزق ظريف حقاً . اسمعى أقل لك، لقد سمعت الخبر بأذنى هذين فليس إلى تكذيب ما سمعت من سبيل !

فأجابته زوجه محنقة غضبى : « وماذا يعنينى مما تقول ؟ إننى أستطيع أن أبصر بأم عيني دون أن يساورنى الشك »

وبعد هذا الحوار قالت « جوكايا » لزوجها : « حسن ، فقل متى توفيت « كادامبيني » ؟ » تريد بذلك أن تجد فرق مابين تاريخ آخر رسالة وردتها من صديقتها وتاريخ الوفاة ؛ ولكنها إذ علمت تاريخ الوفاة وجدته بعد آخر رسالة من رسائل صديقتها بيوم واحد فقط ! وهال «جوكايا» الأمر وارتجفت

2017-11-1

عند رؤيتها ذلك التاريخ ... بل إن « سريباتى » نفسه لم يبق على رباطة جأشه

... وإنهم لكذلك إذ فتح الباب بنتة ، وهبت من جهته ريح ندية فأطفأت المصباح فخيمت سدف الظلام على المكان كله وإذا « كادامبيني » تظهر فى الغرفة .. لقد كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، والمطر ينهمر في الخارج هتوناً . فتكلمت « كادامبيني » قائلة :

— أيتها الصديقة ... إنني « كادامبيني » التى تمهدين . ولكني لست من عالم الأحياء الآن . إنني ميتة !!

فأما « جوكايا » فقد صرخت رعباً ، وأما زوجها ، فما كان قادراً على أن ينبس ببنت شفة ... واستمرت « كادامبيني » تكمل حديثها :

— .. ولكن النجاة فى بقائى ميتة .. إنني ما ارتكبت خطأ ؛ إنه لا مكان لى بين الأحياء ولا فى عالم الأموات .. آه ، فالى أين أنجه ؟ ؟ وصرخت كأنها تريد أن توقظ العالم فى ذلك الليل الحامس المطير سائلة هذا السؤال : « آه .. إلى أين أنجه ؟ ! » قالت هذا وخرجت تاركة صديقتها مغمياً عليها فى دارها المظلمة — تضرب فى الأرض تفتش عن .. مأواها » !!

***

لعل من الصعب أن نقول كيف وصلت « كادامبيني » إلى بيتهم فى « رابنهات » .. فقد تكتمت عند وصولها أولاً ولم تر نفسها لأحد ، بل قضت سحابة نهارها فى معبد طال عليه القدم — تتضور جوعاً .. وعند ما عمت ظلم السحاب الناظر الكون ، ودخل الناس إلى بيوتهم فراراً من العاصفة المنتظرة جاءت « كادامبيني » مقتربة من دار حبها ، خافقة الفؤاد ، ودخلت مستترة وراء قناع كثيف أسدلته على وجهها ، فلم يعترضها أحد من البوابين حاسبين أنها من بعض الخدم .

وظل المطر ينهمر ، والريح تعصف بغير انقطاع .. كانت ربة البيت — زوج « ساراداستكار[1] » تلعب الورق مع أخت لها مترملة ؛ وكانت إحدى الخادمات فى المطبخ . أما الطفل فقد كان راقداً فى غرفة النوم . ودخلت « كادامبيني » الغرفة على صغيرها دون أن تشعر أحداً أو تستلفت نظر أحد ، وليس يدرى لم اختارت أن تجيء إلى دار حبها ؛ بل إنها هى نفسها لم تدر كيف كان ذلك منها ، إنما كانت قد تاقت إلى رؤية الطفل تارة أخرى . ولم تكن قد فكرت فيما ستعمله حين تنتهى من زيارة طفلها ، ولا أين تذهب .

رأت فى الغرفة المنارة الطفل راقداً ، وقد انكشفت قبضتا يديه ، وأنهكت بدنه الحمى ! لشد ماتشوق إليه فؤادها وظمأ إليه حين رأته راقداً كذلك آه لو أمكنها ضم هذا البدن المذنب إلى صدرها .

وحالا خطرت لها هذه الفكرة : « إنى لا أحيا؛ فمن سيرانى ؟ هذه أمه تحب « المعاشرة » و « القيل والقال » كما تحب الورق ! إنها لم تكن تقلق له أو تتعب من أجله على الأقل .. فمن يراه الآن كما كنت أفعل ؟ ؟ » . واستدار الطفل من جنب إلى جنب ، وصرخ — وهو مازال فى نومه — : يامه ، أعطنى ماء ...

إذاً فحبيبها لم ينس بعد عمته ... وفى سرعة جنونية عمدت إلى شىء من الماء فسكبته فى كوبة

(١) ساراداستكار هنا هو أمير مقاطعة « رابنهات » وهو بطلة القصة « كادامبيني » وأبو الطفل « سايتس » الذى عنيت بتربيته

قربتها من صدرها ثم قدمتها له ليشرب .

ولم يكن الطفل ليستشعر الغرابة فى أخذ الماء من اليد التى اعتادها من قبل ، ما دام لم يصح من نومه تماماً

غير أن « كادامبيتى » أرضت شوقها المُلِحّ بتقبيله ثم هزته ليستأنف رقاده ، ولكن الطفل استيقظ وعانقها :

— أفَقِدْتِ يا عمة حقاً ؟

— نعم أيها الحبيب

— إنك عُدْتِ ثانية ، فلا تموتى تارة أخرى

وقبل أن تتمكن من أن تجيبه على ما قال باغتتها الصبية ، إذ دخلت إحدى الخادمات بكوبة مليئة بالحساء . . . ولكنها ما إن دخلت حتى أسقطت ما فى يديها ... وسمعت ربة الدار الصوت[1] فجاءت إلى الغرفة ! فاذا بها تقف كالخشبة المسندة لا تقدر على الفرار ولا الكلام . وأبصر الطفل كل هذا فهاله الأمر وصرخ باكياً :

— إنجدى يا عمة ... إنجدى ... إنجدى !

والآن ، الآن فقط أدركت « كادامبيتى » أنها لم تمت !

إن الغرفة هى الغرفة الأولى ، والأثاث هو الأثاث القديم ، والطفل هو بعينه الطفل ، وحبها هو حبها الأول . . . كل أولئك قد عاد إلى « الحياة » كما عادت هى !

كانت قد عرفت فى دار صديقتها — أن « كادامبيتى » صديقة الطفولة قد ماتت . أما الآن فقد علمت — وهى فى غرفة طفلها — أن « العمة » لم تمت . وقالت « كادامبيتى » بصوت يئن من الألم :

— أختاه ... لم تخافون منى ؟ أنظرن إنى كما عهدتمونى

ولم تُطق تحيتها صبراً وسقطت مصفرة الوجه قد أغمى عليها ...

. . . ودخل « ساراداستكار » نفسه قصر الحرم ، وقال لها وأمارات الحزن والألم بادية على وجهه

— أهذا حسن ؟ إن « سايتس » وفدى الوحيد فلم أرَ بُدّاً من نفسك ؟ ألستا جميعاً أهلك ؟ لقد أهمل منذ أن ذهبت ، فكان يناديك ولكن بغير جدوى .. إنك قد غادرت العالم وقطعت صلاتك به ، وسنقيم لك كل شعائر الشرف والتكريم . وما احتملت « كادامبيتى » أكثر من هذا فأجابت :

— أوه . . . إنى لست ميتة . . . آه كيف أستطيع أن أدلل لكم على أنى لست من الموتى ؟ إنى حية . . . إنى أعيش . . . قالت ذلك وتناولت طاساً من النحاس فصكّت به جَبْهتها فتفجر الدم من جرحها ، فصرخت قائلة : « أنظروا . . إنى أعيش »

كان « ساراداستكار » قد وقف كصورة ... والطفل قد ملء رعباً . . . وأما المرأتان فما زالتا مضطجعتين ... ثم صرخت كادامبيتى :

— « لست ميتة ! لست ميتة »

ونزلت السلم إلى بئر فى قصر النساء وألقت بنفسها فيه ...

... ومن الطابق الأعلى سمع « ساراداستكار » صوت ارتطامها فى البئر

كان المطر يتحدر طول الليل والنهار الذى أعقبه إلى الفجر .. إلى الظهر .. لقد ماتت « كادامبيتى » وبموتها رهنت على أنها لم تكن فى الأموات !

« بغداد » فخرى شهاب السعيدى

(١) يقال لهذا الصوت فى العربية « القدم »

2017-11-11

السكينة

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان
تعريب الأديب كمال الحريري

وقفت العربة ذات الحصان الواحد أمام مزرعة الأم « ما كلوار » تحمل المعلم « شيكو » تجار « دى به فيل » وهو رجل فى العقد الرابع خشن المعارف هائل الخلقة أحمر الوجه بطين سمين، فى وجهه سيما الخبث والمكر

هبط الرجل سلم العربة ، ثم ربط حصانها بخشبة معترضة ومشى إلى ساحة الدار

كانت الأم « ما كلوار » تمتلك أرضاً تجاور مزرعته ، طالما تشوفت نفسه إلى ابتياعها منها ، وضمها إلى أرضه لولا أن كان يصده عن هذه الرغبة تعصب من العجوز عنيد وتصلب شديد. وكانت تقول:

— إنى ولدت فى هذه الأرض ، وستجنى تربتها ...

ففى هذا الصباح ألفى العجوز ، وهى دردبيس فى الثانية والسبعين من عمرها ، أمام باب منزلها ممتية بتقشير « البطاطس » كانت منكمشة الجلد ، جافة اللحم ، منضوخة الوجه . وبرغم ذلك كانت دائبة على عملها وكأنها فى ربيع العمر

تقدم منها المعلم « شيكو » وربت على كتفها فى دعابة ثم قال :

— وصحتك أيتها الأم، هل هى جيدة وأبد آجيدة؟

— أحمد الله ، وأنت أيها المعلم ؟

— بخير ، ولولا قليل من الألم لكنت هانئاً راضياً

— جدُّ مليح . ثم لاذت بالصمت وأخذت تقشر البطاطس وتديرها فى حذق ومهارة ، بين أصابع يابسة عقداء معروقة ، تشبه أرجل السراطين ، وفى يدها اليمنى سكين عتيقة متثلمة لاتكاد تقطع الجبن

وحين فرغت من البطاطس، وأمحت لماعة صفراء ، ألقت بها فى قدر مملوءة ماء. قاذا دجيجات وأفراخ تسعى إليها ناقة مقوقئة ، ثم تختلس ما تبقى فى حجرها من قشور البطاطس ، وتتراكض فى خبث عنها وفى منقار كل منها ماغنمت من قشور

كان المعلم « شيكو » يرقب هذا المنظر فى سأم وضيق وفى نفسه أمر ، وعلى لسانه كلام يجتهد فى انتزاعه ، وأخيراً وفق فقال :

— ألا خبريني أيتها الأم « ما كلوار »

— وما عساى خبرتك به ؟

— ألا زلت ترفضين بيع مزرعتك ؟

— هذا أمر قد فرغت منه أيها المعلم «شيكو» فلم إقلاق به مطلع كل صباح ومسهبط كل ليل ؟

— ولكنى يا سيدتى وجدت حلاً للمسألة إن رضيت به خرج كلانا راضياً بصفقة غير أسف ولا مغبون

— وما هو هذا الحل ؟

تبيعينى أرضك ثم تحتفظين بحق استثمارها ما بقيت فى قيد الأحياء ، أفلا يرضيك هذا أيضاً ؟

فشغلت العجوز عن تقشير البطاطس ، وراحت ترى الرجل بنظر حاد عنيف تحت جفنين خلقين أجدبين . ثم قال الرجل مفسراً :

— إنك إن ترضى بهذه الصفقة تتسلمى فى منتهى كل شهر مائة وخمسين فرنكا أحلها إليك فى

2017-11-11

عربتي.. أتدبرين قولي؟ أتنفقين حديثي؟ مائة وخمسون فرنكا ثم لا تتبدل بك حال، ولا تتغير حياة، فستظلين في حقلك آمنة السرب رافهة العيش لا يدينك أحد ولا تدينين لأحد، ولا تملين أمراً، ولا تنصبين نفسك لعمل. إلا أن يكون استلام مائة وخمسين فرنكا، مطلع كل شهر، عملاً شاقاً يكد ويتعب. قال هذا وطفق ينظر إليها فرحاً مستبشراً وفي وجهه الطيبة والصلاح والمسكنة... والعجوز تلحظه حذرة متيقظة. وقد كبر في وهمها أنه خادع لها وناصب لاصطياد مزرعتها أحبولة من ألفاظ منمقة مزورة. على أنها سألته في خبث:

إنك لتؤكد لي أن المزرعة ستظل في حوزتي فهل بلغ من أريحيتك أن تتبرع لامرأة عجوز بهذا الراتب الضخم دون فائدة تعود عليك؟ قال المعلم شيكو وقد أدرك ما تنطوي عليه غمزة العجوز

لا أثقل عليك يا سيدتي في شأن الأرض، فلسوف تنالين خيراتها وتنتفعين بثمراتها ما مد الله في حياتك العزيزة. غير أني أرجوك أن تكتبي لي حقاً شرعياً، يخولني حق امتلاكها بعد عمرك الطويل إن شاء الله. ولبثت المرأة وهي تصغي لقول المعلم مأخوذة دهشة حائرة لا تملك لرأيها إبراماً ولا نقضاً، ولا لموقفها من الرجل إجابة ولا رفضاً، وأخيراً قالت:

إنه لا يسعني رفض اقتراحك، فلو أنظرتني أسبوعاً آخر أتبصر أمري وأروي رأيي. فأطاع المعلم «شيكو» ثم غادر الأم فرحاً نخوراً، كأنه الملك الجبار، استولى على بلد عدوه بالحديد والنار... أما الأم «ماكاوار» فقد أمضت أيامها ساهمة حالمة، لا يستقر جنبها على مضجع، ولا يزور جفنها سنة من نوم. ثم استشرت بها حميا التردد وعصفت نار الحيرة فكادت توطن نفسها على الرفض التام، لولا أن ذكرى المائة والخمسين فرنكا الطنانة البراقة، التي توشك أن تتدحرج على حجرها مطلع كل شهر، كانت تلهب رغبتها الخامدة وتذكي أطماعها الهامدة وأرادت أن تضع لترددها حداً، فمضت إلى المسجل الشرعي تنفض له جملة حالها وتستنصحه في أمرها. فأشار إليها بالاطمئنان ونصح لها بالرضى بحمل المعلم «شيكو»، ولكنه اشترط عليها لذلك، أن يضاعف لها الراتب فيجعله ثلثمائة بدلاً من مئة وخمسين فرنكا لأن مزرعتها تساوي في أقل ثمن ١٦٠ ألف فرنك. ثم قال لها في أضعاف حديثه:

— لئن عمرت خمسة عشر عاماً، فلن ترزئي صاحبك أكثر من أربعين ألف فرنك...

فاستقلت جسم العجوز هزة من الطمع حين ذكرت الثلثمائة فرنكا التي سوف تحظى بها رأس كل شهر. ولكنها على ذلك ظلت حذرة مبلبلة الخاطر، تنوشها الهواجس، وتتوزعها الوساوس؛ فهي تتوقع حيناً مفاجأة مفجعة وآناً مكيدة مستورة، لا تبصرها ولكنها تحسها. ولبثت حتى المساء تناقش المسألة بكل حل، وتواجه المقترح من كل جهة. ثم، ثم لم تستقر على عزم ولم تتوجه جهة من الرأي.

وجاءها المعلم شيكو يستطلع رأيها ويستعلم غرضها الأخير فأنهت إليه قرارها النهائي، بلزوم رفع مرتبها الشهري، وحين رأت هزة الاخفاق تركب أوصاله، وثار الغيظ تحتدم في عينيه، وبوادر الرفض تتوافد على لسانه، أظهرته على قائمة السنين التي يمكن أن تعيشها بعد هذه الصفقة فقالت:

— إني من الوهن ورقة العظم واشتعال الشيب بحيث لا أستطيع الانتقال إلى سريري إلا مستندة إلى الأذرع، أو محمولة على الظهور

ومهما يمتد بي خيط الهرم، فانه تخيط المنكبوت

2017-11-11

وشيك الانبتات سريع الانقطاع . وهل بعد الثلاثة والسبعين عاماً التي توقر كاهلي حياة ترجى أو عيش ينتظر ؟ وقاطعها المعلم مغيظاً فقال :

— إنها لمحاولة فاشلة منك ياسيدتي أن تصطنعي العجز وتتظاهري بانقطاع المنة . فتى أن منجل الموت لا يعرف سبيله إلى شجرتك قبل أربعين سنة في أقل تقدير، وإني أراهن على أنك أنت التي ستدلين دفني ، فما هذا الخوف والفزع من الموت ؟

وتصرم عمر النهار في الجدل والنقاش والأخذ والرد، وجهد المعلم «شيكو» الجهد كله ليقنع العجوز بالنزول عن طلبها الجائر المرهق فما عاد بطائل. وحين لم يجد مندوحة من إجابتها رغى مكرهاً يدفع الثلاثمائة فرنك ... وغبرت سنين ثلاث وصاحبتنا العجوز كالسروة العتيقة لا يزيدها المزق إلا صلابة وجلداً على الأيام، حتى يئس المعلم من موتها وخيل إليه أنه مرغم على دفع مرتبها الضخم نصف قرن أو يزيد ، وأن صفقته كانت هي الخاسرة المغبونة ، وأنه لا بد موف على الخراب صائر إلى الافلاس إن ظلت معاهدة الصداقة والود بين العجوز وعزرائيل متينة السرى

كان يتردد على المرأة الغينة بعد الغينة بحجة السؤال عن نضوج الحنطة ، أو الاستفسار عن موعد الحصاد ، فكانت تستقبله في خبث ، وفي نفسها الشماتة والتشفي وفي معارف وجهها صورة الافتخار والزهو للدور المضحك المسلي الذي لبسته على مسرح بلاهته وغفلته . فكان يرتد سريعاً إلى عربته ويجمجم :

— وإذن فليس في نية هذه البهيمة أن تموت؟ لم يكن يعرف لمشكله حلا ولا لعقدة أزمته فكاكا . فكانت تمر به ساعات يود فيها لو أهوى على عنق العجوز فخنقه ، وروحها فأزهقه ، مما في نفسه منها من الغيظ والحنق والوجدة ، وظل زمناً يلتمس وجهة الحيلة للخلاص من طلعة العجوز المشؤومة ، وأخيراً ظفر بما يرجو فغدا عليها يوماً يطفر من البشر والسعادة ، ويصفق بيديه من الفرح والمرح ، وبعد أن ناقلها برعة حديث المجاملة والود قال :

— ألا قولي لي أيتها الأم ما كواد فيم امتناعك عن زيارة منزلي حين مرورك على حانة «إيدي فيل»؟ إن الحديث فيه ليلذ ويمتع ، وأنا هناك ويا للأسف مقطوع الصلة من الصديق ، منبت الوشيجة من القريب ، لا يؤنس وحشتي زائر ، ولا يمر علي عابر. فزوريني إن تكرمت وكلي ما طاب لك فلست معوزك مالاً ولا مكانك دفع طعام أو شراب.. زوريني في زيارتك تشيع البهجة في قلبي وينتشر السرور في داري

وفي الند لم تكلفه الأم إعادة الاستزارة ، فراحت إليه في عربتها ، والشمس لم تغادر خدرها الوردي ، وحين بلغت الحانة ربطت حصان العربة في الاصطبل ، ثم دخلت عليه طالبة الغداء الموعود

لم يكد يصدق عينيه المعلم شيكو ، وراح ينشط في خدمتها ويجتهد في مرضاتها ، كأنه أمام سيدة نبيلة لا قروية بخيلة ، ثم أخذ يفتن في تقديم فاخر الأطعمة والآكال وغريض اللحم ، من الطير المبهر ، والدجاج الحمر ، ولحم الخنزير المشوي ، وأصناف من الخضار والفاكهة والتوابل ، ولكنها لم تصب من هذه الآكال الدسمة إلا ما يوافق معدتها العجوز التي اعتادت الاكتفاء بحساء اللحم الرقيق ، أو قطع الخبز المنقوعة بالبدة ، وألح الرجل وعزم عليها . ولكنها لم تأكل مضغة ولم تشرب جرعة حتى القهوة امتنعت عن تناولها. وأخيراً قال لها وهو يناولها قدحاً من « الكونياك » :

— أو ترفضين أيضاً هذا القدح ؟

— أما هذا فأقبله دون أن أتول لا . فرنجت

2017-11-11

أركان الحانة بصوت المعلم يقول :

— « روزالى » أيتها العزيزة . احملى لنا كل فاخر معتق من الكونياك . وظهرت الخادمة تضم إلى صدرها زجاجة طويلة ممشوقة ازدانت فوهتها بطابع الكونياك الفاخر . فتناولها المعلم شيكو وأفرغ منها قدحين، ثم ماطل العجوز أحدهما قائلا:

— إنه لكنياك لذيذ شهير ، أفلا تتذوقينه ياسيدتي ؟

فتناولته الأم « ماكلوار » شاكرة وطفقت تتحساه جرعات صغيرات ، كي تطيل مدة نشوتها وانبساطها . وما إن فرغت من القدح الأول حتى أفرغ لها المعلم قدحاً ثانياً . فأعرضت عنه أولاً ثم أكرهها الضيف بالقول اللطيف والتجمل الظريف والنكتة المستملحة . وكان عازماً على إردافه بثالث ورابع لولا أن عالنته برفضها وامتناعها .

— ولكن هذا ياسيدتي ليس خمراً إن هو إلا حليب مصفى ، أبطع عشرة أقداح منه دون أن يتضعضع السكر أو تذهب بزقاوى النشوة ، لا يكاد يستقر فى الجوف كالسكر الذاب حتى يتبخر فى الجسم دون أن يجد طريقه إلى الرأس . وليس كمثله شيء لصحة الجسم وابتعاث النشاط . فدعا ذلك العجوز إلى أن اجترعت نصف الكأس الثالثة، ولم تجرؤ على استنفادها لأنها شمرت بفعل المسكر بأطرافها ، وتلاعب الخمر بأعطافها . فأهرعت إلى عربتها ومضت ... وغدا عليها صاحبنا فى عربته المعروفة ذات الحصان الواحد وحين استقر بهما المجلس أخرج من جوف العربة رميلا صغيراً ، فيه خمر الأمس ، ثم جلسا بميدان سيرة البارحة ، ولما استقر فى جوف كل منهما ثلاثة أقداح ، غادرها المعلم قائلا :

— ما أراني بحاجة لأقول لك إن الخمر التى أبقيتها لك تكفيك مدة. فاذا فرغت منها فعندى لك اللذيذ المعتق لا أبخل عليك به ولا أضن . وكلما ألححت فى الطلب ألح على السرور وطبت نفساً ...

وآب إليها بعد أيام أربعة ، فألفاها على الباب معنية بتقطيع الخبز الذى تعده للعشاء ، فاقترب منها أنفاً لأنف وبدرها بتحية الصباح ، ففتحته منها رائحة «الكحول» وملأت خياشيمه . هنالك أضاء وجهه بنور البشر والفوز ثم قال :

— ألا تقدمين لى قدحاً من الكونياك ... ؟

وجلس الاثنان يعاقران الخمر ويشرب كل منهما نخب صاحبه ... ولم يطل الأمر بالأم « ماكلوار » حتى شاع عنها أنها تعاقر الخمرة متخلية لنفسها . وفى الحق كان الجيران يلقونها إما مستلقية أمام مطبخها وساحة دارها لا تبى، أو منطرحة فى الطرق والشوارع لا تحس ، فيحملونها إلى بيتها جثة لا حراك فيها ولا وعى ...

ولم يعد المعلم شيكو يتردد إلى بيتها فكان يقول للجيران راثياً :

— إنه لمما يبتئس الأسى أن تدمن هذه العجوز الشراب وهى فى أرذل العمر ، مع أن الخمر تعجل خطواتها إلى القبر !

وفى الحق لقد وجدها أهل القرية ميتة على بساط الثلج صباح عيد الميلاد عقيب سكرة انكليزية أبلت فيها البلاء الحسن ...

وورث المعلم « شيكو » أرضها كما خوله الصك فكان يقول :

— لولم تتلف هذه العجوز البلهاء صحتها بسموم الخمر لعاشت عشر سنين أخر !

(حلب) كمال الحريري

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-1

حاجي بابا الإصفهاني

لكاتب الانجليزي "جيمس موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الحادي والعشرون

ميرزا أحمد عند الشاه

لما عاد ميرزا أحمد من عند الشاه في مساء ذلك اليوم استدعاني فوجدته مهتاجاً أشد الاهتياج. ولما وصلت إليه قال: «أدن مني! أدن مني!» وقال لي همساً: «هل تعرف يا حاجي بابا أن هذا الطبيب اللعين قد عرف الطريق إلى جلالة الشاه وأنه كان معه في صباح اليوم؟ لقد تقابل معه دون أن أعلم وأنا الطبيب الخاص لجلالته. وظهر لي أن ثقة الشاه كبيرة به وأنه شكا إليه من أمراضه القديمة المتعددة وهي فقر الدم والربو وعسر الهضم؛ فسأله الطبيب أسئلة كثيرة جاءت كلها مطابقة للواقع في وصف أعراض أمراضه مما جعل الشاه يعجب كل الاعجاب بدقته في تشخيص المرض وبغزارة مادته. ثم طلب أن يمهله جلالته ثلاثة أيام يراجع فيها كتبه. واستدعاني الشاه في المساء وسألني عما أعرفه عن أطباء أوربا وعن رأيي فيما يصفونه من الدواء فلم أتردد في إخبار جلالته برأيي وهو أن هؤلاء القوم ليسوا أهلاً لثقتنا لأنهم يكذبون نبينا ويأتون المنكرات ولا يعرفون الطهارة من النجاسة ويشربون الخمر. وقلت لجلالته إنه إذا أمكن اتهامهم على شيء فلا يجوز أن يؤتمنوا يا صاحب الجلالة على حياة الملوك الشرقيين. وانظر كيف فعلوا في الهند وكيف أذلوا حكامها. وإني لأرجو يا جلالة الشاه أن يحفظك الله من شر دوائهم فانهم إنما يرسلون الأطباء لخدمة سياستهم»

ولمحت له بأنهم يريدون قتله لاستعمار بلاده وأشرت إلى ما اشتهر من إجرائهم عمليات جراحية لحكام الهند وموت هؤلاء الحكام على أثر العمليات. وقد تمكنت من إقناع جلالته بهذا القول فوعدني بألا يقبل منه دواء ولا يستشيره في أي مرض. وقال إنه سيدعوني إلى مقابلته عند ما يرسل إليه الطبيب الأجنبي الدواء لكي أفحصه وأخبر جلالته عن المواد التي تركب منها»

ثم قال لي ميرزا أحمد: «وبالرغم من هذا القول فاني أعتقد يا حاجي بابا أن جلالة الشاه سيجرب دواء الطبيب الأجنبي وأنه سيجد له أحسن تأثير فكيف يثق بي بعد ذلك؟ ومن الذي يأتي لعيادتي إذا طردني الشاه؟»

فوعدته بأن أفعل كل ما في وسعي لمساعدته ضد هذا الطبيب الكافر

وبعد ثلاثة أيام دعي ميرزا أحمد مرة أخرى لمقابلة الشاه لفحص الدواء الذي قدمه الطبيب الأجنبي إلى جلالته، فتكلم عنه كلاماً غامضاً خشيه بأن هذا الطبيب طبيب سفارة لدولة أجنبية وأن هذا يدل على أن واجبه واجب سياسي قبل كل شيء. واقتنع الشاه بأن يعرض الأمر على مجلس وزرائه.

2017-11-11

وفي اليوم التالي عقد مجلس الوزراء كالعادة فجلس جلالته على العرش وجلس حوله الوزراء وهم على حسب النظام الحكومي في هذه البلاد : رئيس الوزارة ووزير المالية ووزير الداخلية وأمين الدولة وحاجب الملك ورئيس الحفلات ومدير المركبات الملكية ورئيس الأطباء، ويليهم كبار القواد

وبدأ الشاه خطابه بالتكلم مع رئيس الوزارة عن ذلك الطبيب الأجنبي الذي عرض خدماته على جلالته وقال إن هذا الطبيب حضر اليوم إلى القصر وقدم إليه دواء قال إنه لم يهتد إليه إلا بعد أن قضى ثلاثة أيام كاملة في مراجعة الكتب الطبية . وأكد أن هذا الدواء أقوى أثراً من كل حجاب وطلسم .

وقال جلالته إنه استدعى رئيس أطبائه واستشاره في أمر هذا الدواء فأعرب له عن شكه وارتيابه لأنه لا يعد أن يكون هذا الأجنبي مسخراً من قبل دولته الأجنبية لقضاء مآرب سياسي خصوصاً وهو طبيب سفارة .

قال جلالة الشاه وقد كان يرفع صوته أكثر مما تقتضي به ضرورة إسماع الجميع : « وقد رأيت أمام هذه النصيحة أن أجمعكم وأستشيركم لتخبروني برأيكم ورأيت أن أول عمل يجب أن تعملوه هو أن يتعاطى كل واحد منكم جزءاً من هذا الدواء ليجرب تأثيره في نفسه قبل أن يشير على برأي فيه»

فهتف رئيس الوزارة وسائر الوزراء بحياة جلالته وبدوام الصحة والعافية له وقالوا إنهم يعدون أنفسهم سعداء إذا نحوا بأرواحهم من أجل جلالته .

عند ذلك أمر الشاه بإحضار الدواء من غرفته الخاصة فذهب النديم وعاد يحمل الصندوق على طبق من الذهب

فنادى الشاه رئيس أطبائه وأمره بأن يدور به على الوزراء مبتدئاً برئيسهم ثم بمن يليه في الدرجة . ويقدم لكل منهم جزءاً منه فتفعل ذلك وأخذ كل من الموجودين ما ليس به حاجة إليه من الدواء بمقدار الجرعة العادية التي يتعاطاها لو كان مريضاً

وأخذ جلالته يراقب وجه كل منهم ليعرف الأثر الذي انطبع عليه وهو يتعاطى الدواء ثم دار الحديث عن شئون أوربا ، فسأل جلالته الموجودين أسئلة متعددة فأجابه كل منهم جواباً أكثر ألفاظه في مديح الشاه والدعاء له

وفي هذه الأثناء أخذ تأثير الدواء يظهر شيئاً فشيئاً وكان أسرعهم تأثيراً وزير المالية الذي كان يفتح فمه ليتكلم بشيء فيبسيه الكلام وتظهر على وجهه علائم النعب الشديد فاتجهت إليه كل الأنظار ثم ظهر الاصفرار الشديد على وجه أمين الملك وتلاه وزير الداخلية . وأخذت ترتسم على عينيه علائم النوسل والضراعة لكي يأذن له الشاه بترك المجلس

وبعد قليل ظهرت علامات المرض على سائر الموجودين إلا رئيس الوزارة الذي أخذ يسخر في نفسه من آلامهم

ولما تبين الشاه تأثير الدواء في جميع وزرائه أمرهم بمغادرة القصر ثم التفت إلى رئيس الأطباء وطلب إليه أن يحدثه عن هذا الدواء فوجد الرجل هذه الفرصة سانحة وأخذ يصف الدواء بشر الأوصاف مرتكناً إلى ما عاينه الشاه من تأثيره السيء في وزرائه

قال لي رئيس الأطباء بعد عودته من عند الشاه : « لقد كان سلطاني كبيراً يا حاجي بابا على جلالته

2017-11-11

وسترى فى الغد أن ذلك الطبيب الذى أراد أن يضحك منا سيتجرع الخوف بدلا من السخرية . وسيعلم مَن نحن معاشر الفرس . لقد كان يريد عزل من خدمة الشاه وأن يتولى علاجه بدلى . ولكن من هذا الأحمق بمن يعلمه أننى خلقت لمعالجة الشاه وأن الشاه خلق لكى أعالجه . إنه يفاخر باختراعاته الحديثة ولكن ما فائدة هذه الاختراعات ؟ هل خلق الله أمراضاً حديثة ؟ إننا نمرض بما كان يمرض به آباؤنا ونعالج بما كانوا يعالجون به وحسبنا ذلك . إننا لن نصف دواء لمريض غير ما كان يصفه ابن سينا لمريض فى مثل حالته

ثم أخذ رئيس الأطباء يستوثق منى لأعينه فى تدابير أخرى على منافسه الطبيب الكافر كيا تبقى له مكانته فى القصر الملكى . ثم أمرنى بالانصراف بعد أن حدثنى بما ضاق به صدره

الفصل الثـــانى والعشرون

عباس بابا يتقاضى راتباً من الطبيب

كنت إلى ذلك الوقت أعامل الطبيب الفارسى معاملة الصديق للصديق لا معاملة التابع للمتبوع ، وكان راضياً بهذه المعاملة لأنه كان يسمح لى بالجلوس أمامه وبأن آكل معه وأدخن ولكننى وجدت الاستمرار على هذه الخطة لا يتفق مع ما أرجوه من الكسب ولم أكن قد نلت من ماله غير القطعة الذهبية التى تقدم ذكرها ، وكانت الظواهر كلها تدل على أنها آخر ما سآخذه منه وإن كانت أول ما أخذته ، فعزمت على أن أكله فى الأمر فانتهزت فرصة سروره لانتساره على الطبيب الأجنبى وأخذت أبث شكايتى إليه

عاد الطبيب فى اليوم التالى من القصر الملكى ويكاد وجهه ينطق فرحاً وسروراً وقال لى : «ما أكرم صاحب الجلالة وما أرق طباعه ! لقد تابلى اليوم بالبشر والحفاوة وأثنى على مواهبى ولعن الطبيب الأجنبى ودعانى إلى الشاه» فقلت : « ومن فى البلاد الفارسية أكرم من جلالة الشاه ؟ ومن فى أطباء العالم يضارع ميرزا أحمد؟ إنهم إن أرادوا أن يستفيدوا علماً وحكمة فعليهم أن يأتوا ليستعلموا منك »

عند ذلك بدت على وجه الطبيب المغرور ابتسامة الرضى . وأخذ يفتل شاربيه ويمسح ذقنه وقلت له : « إن شاء الله جعل لى نصيباً من جاهك وشهرتك فانفى بجانبك كقطعة من الحجر ملقاة بجانب الورد فمن الذى ينظر إليها » ؟

قال لى الطبيب : « لماذا تتكلم بهذه اللهجة يا حاجى بابا ولماذا تبدى اليأس ؟ » فقلت له : « هل تأذن لى أن أقص عليك قصة تخل حالى ؟ »

فلما أذن لى قلت : « كان هناك كلب يشبه فى كل أحواله الذئاب حتى أن الذئاب أنفسها كانت تنخدع فيه وتأذن له بالبقاء فى زمرتها وكان يشاركها فى قتل الخراف وأكل لحومها . ولكنه كان يصير مع الكلاب كلباً مثلها . ثم لاحظت الكلاب اختلاطه بالذئاب فنفرت منه . وأدركت الذئاب أنه كلب فصارت تخافه وتتقيه . ورأى الكلب أنه أصبح منفرداً مهجوراً فلا الكلاب تقبله فى زمرتها ولا الذئاب تسمح له بالبقاء بينها ، فعزم عزماً أكيداً على أن يترك تقلبه ويقرر واحداً من اثنتين فاما أن يصير كلباً وإما أن يصير ذئباً — أنا أيها الطبيب مثل هذا الكلب فانك تسمح لى بأن أجلس معك وأدخن وأكل كأنك لست أعلى منى منزلة ، وأنت تستشيرنى وتركن

إلىّ كأنى واحد من أصدقائك . ولكن ليس فى أصدقائك من يكاد يقتله الجوع غيرى . ولست أستفيد من صداقتك كما تستفيد أنت منى؛ فأرجوك إما أن تصرفنى عنك فلا تعود إلى طلبى، وإما أن تجعل لى راتباً؛ فان الشاعر عسكر خان قال لك عنى إنى أريد عملاً أكتسب منه ولم يقل إنى أريد صديقاً »

قال لى الطبيب : « أجعل لك راتبا ؟! أنا لم أعط راتباً قط لواحد من خدمى ولكنهم يأخذون ما يستطيعون : خذ من المرضى الذين يأتون لسيادتى كما يفعلون . ولكننى أعطى كل واحد من أتباعى ثوباً جديداً فى عيد النوروز فماذا تريد منى أكثر من ذلك » ؟

وفى هذه اللحظة جاء رسول من قبل الملك يحمل هدية إلى الطبيب فوقف الطبيب وقفة الذى أصيب بالتشنج وهتف بحياة الشاه . ثم أخرج من جيبه قرشين (القرش عند الفرس يعادل نصف ريال مصرى) وأعطاهما لحامل الهدية فرفض أن يأخذهما بعزة وإباء، ودفع طومانا فرفضه كذلك، ولم يزل يزيده حتى عرض خمسة طومانات فقبلها وخرج غير شاكر لأن من حق الرسول الذى يحمل هدية أن يأخذ لنفسه مقداراً من المال قد يكون أكبر قيمة من الهدية نفسها

ولما ابتعد ذلك الرسول استولى الغضب على الطبيب فقال كلمات لو بلغت سمع الشاه لأذاقه الويل

وكان مما قاله : « أهدية هذه ؟ إنها لا تليق بمرسلها ولا بمن أرسلت إليه . انظر ياأخى ماذا بعث به الشاه ! إنه بعث إلى بطبق من الطعام فمن الذى أخبر جلالته أنى جائع ؟ إن قيمة الهدية لا تعدل فعل هذا ما دفعته لرسوله . جزاً ؟ هل هذه مكافأتى ؟

لقد صدق السعدى حين قال : « لا تثقوا بصداقة الملوك ولا بأصوات الأطفال، فان صداقة الملك تتغير بين يوم ويوم، وصوت الطفل يتغير بين ليلة وليلة »

وهنا تنبه الرجل إلى أنه قال ما ليس ينبغى أن يقال . وغلب خوفه من أن يجلد على حزنه على ضياع الطومانات فسكت مقطباً

ووجدت أن الفرصة ليست سانحة لاستئناف الحديث الذى تتكلم فيه فأجلته إلى فرصة أخرى واكتفيت بألا أكون كلباً ولا ذئباً

الفصل الثالث والعشرون

حامى بابا يحب

زاد سخطى على حاضرى وشكى فى مستقبلى، وكانت أيامى وليالى تنقضى بلا عمل، ولم تبق بنفسى رغبة فى تعلم صناعة الطب، ورأيت أملى فى ميرزا احمد يضعف شيئاً فشيئاً حتى عزمت على تركه لولا مصادفة لم تكن منتظرة أرجعتنى عن هذا العزم

وكانت هذه المصادفة أنى رأيت فتاة فاستولى حبها على قلبى حتى صرت أعتقد أن «المجنون» فى أشد حالات جنونه لم يكن أكثر تعلقاً بليلاه منى بتلك الفتاة

مضى الربيع وجانب من فصل الصيف ودفعت الحرارة أكثر الناس إلى ترك مساكنهم فى داخل الدور وفرش السجاجيد فوق الأسطحة ليناموا عليها؛ وكنت أكره أن أقضى الليل مع الخدم والطباخ، وهم ينامون عادة بغرفة فى الدور الأرضى فنمت فى شرفة تطل على الجزء الداخلى من منزل الطبيب وهو الذى تقيم فيه السيدات

كان الجزء الذى تطل عليه هذه الشرفة حديقة

2017-11-11

حولها غرف تكاد تكون منفصلة عن سائر المنزل يدعونها « مسكن الحرم » وكان مفروشاً فى هذه الحديقة أنواع الفاكهة والورد والياسمين، وكان لأسقف هذه الغرف حواف ممتدة تظلل جزءاً كالاطار حول هذه الحديقة، وفى هذه الظلال كان يجلس من فى المنزل من السيدات على سجاجيد فارسية بديعة الصنع مفروشة فوق إفريز خشبى مربع أمام أبواب الغرف

وكنت قد رأيت عدداً من سيدات القصر ولكن ليس فيهن مثل التى رأيتها أخيراً، ولو كنت أعرف أن فيهن مثلها لتجنبت النظر إلى مكانهن حتى لا أقع فى حبائل عينيها الساحرتين

وكان من سوء حظى أنهن رأينى وأنا أطل عليهن فى اليوم الذى وقع نظرى فيه على الفاتنة فصرخن وزجرننى ولقبننى بأقبح الألقاب وأقساها، ولكننى بعد هذه المرة لم أكف عن الاطلال عليهن وصرت أكثر حذراً من أن يرينى كذلك وهن مجتمعات

وكانت الفتاة التى ملكت على قلبى مشاعره طويلة الشعر تنسدل على جبينها خصل منه وتخفى بعض وجهها فى حين أن الأعين التى تراها شديدة الظأ إلى التحلى بكل جزء من محاسنه

وكانت يداها صغيرتين مخضوبتين بالحناء وقدماها كذلك، فقد رأيتها وهى فى منزلها تمشى حافية. وظللت أنظر إليها حتى فقدت سيطرتى على نفسى لما استولى على من الاعجاب فتحركت حركة نبهتها فنظرت إلى ووضعت النقاب على وجهها فرأيت أجمل صورة يمكن أن يتصورها إنسان ثم قالت بلهجة رقيقة وأدب بارع : « لماذا تنظر ؟ أليس هذا عيباً ؟ »

فقلت : « أستحلفك بحق الحسين ألا تطردينى.

إن الحب ليس جريمة وإن عينيك سحرتا قلبى. بحق أمك التى حملتك ارفعى النقاب عن وجهك لأنظر إليه مرة أخرى »

قالت بلهجة أرق من الأولى وبصوت أعذب :

لماذا تستحلفنى على ذلك ؟ أليس من المحرم على السيدات أن يكشفن وجوههن أمام الرجال الأجانب؟ إنك لست أباً ولا أخاً ولا زوجاً ولست أعرفك. ألا تخجل من مخاطبة أجنبية عنك ؟ »

وفى هذه اللحظة وقع نقابها كأنما كان وقوعه مصادفة ورأيت وجهها أجمل من قبل، وكانت عيناها سوداوين واسعتين وأهدابها طويلة. وكان حاجباها مقوسين تقويساً بديعاً متصلين فوق الأنف اتصالاً مغرياً فاتناً.

وكان أنفها أقنى صغيراً، وفمها ضيقا رقيق الشفتين عليه ابتسامة عذبة، وفى وسط ذقنها «غمازة» لطيفة، ولم أر فى حياتى شيئاً أجمل من شعرها الأسود وغدائرها الطويلة المنسدلة على ظهرها؛ وقد كانت فى الجملة مثالا للجمال والرقة . وفهمت عند رؤيتها أشياء كثيرة كنت قد قرأتها ولكنى لم أفهمها من قصائد الشعراء، وعرفت أننى أستطيع أن أنظر إلى وجهها إلى الأبد دون أن أشعر بشىء من الملل . ولكن نشأ بنفسى شعور قوى يدفعنى إلى تسلق الجدار ولمس جسدها الغض، وكدت أفعل ذلك لولا أن سمعت صوتاً يناديها باسم (زينب) وكان هذا الصوت عالياً حاداً كرره قائله دلالة على فقدان صبره، فذهبت، وبقيت فى مكانى مدة طويلة منتظراً عودتها، وأصغيت على أضعف صوتها وهى تكلم من كان يناديها، وقد ظهر لى أن هذا الصوت هو صوت زوجة الطبيب التى لم تكن من السيدات

الراقيات الرقيقات . وتمكنت من إخضاع زوجها لها كل الخضوع .

وانتهى النهار وكنت على وشك العودة إلى فراشي فسمعت صوت تلك الزوجة ينادي : « يا زينب ! يا زينب ! إلى أين تذهبين؟ لماذا لم تذهبي إلى فراشك ؟ »

ثم سمعت صوت الفتاة تجيبها، ورأيتها بعد ذلك تدخل الغرفة التي كانت بها في أثناء النهار ولكنها لسوء الحظ لم تمكث طويلاً حتى أمتع عيني برؤيتها بل أخذت سلة كان فيها بعض الفواكه التي جمعتها من الحديقة وخرجت من الغرفة وقالت لي بصوت خافت وهي تغادر الغرفة : « تعال في مساء الغد » فجرت عذوبة صوتها في دمائي وشعرت باحساس لم أشعر به من قبل واهتزت أو صالي كما تهتز أو صال الهموم، وذهبت بعد ذلك إلى فراشي فساورتني الحمى إلى أن طالعتني الشمس في الصباح

الفصل الرابع والعشرون

حاجي بابا يقابل زينب

عرفت في النهاية أني وقعت في حبائل الحب وقلت في نفسي : « سأعرف الليلة من هي التي أحبها، وإذا كانت من أسرة الطبيب فليهدم منزله على رأسه إذا أنا لم أعلم كيف يكون شديد الرقابة على أهل ذلك المنزل

أما من حيث زواجي بها فان ذلك أمر لا يخطر بالبال . ومن ذا الذي يرضى أن يزوجني ؟ إنني لا أملك ما أشتري به حذاء فكيف أحصل على تكاليف الزواج ؟ ولكن إن شاء الله فسأصبح قادراً على الزواج في يوم من الأيام . ومن هذا الوقت إلى أن يرزقني الله مالا فسأمتع نفسي بلذات الحب، وإذا اقتضى الأمر تحمل غرم فليتحمله الطبيب بالنيابة عني .

وقبيل الموعد لبست ثيابي وتأنقت أكثر من العادة ورجلت شعري بعناية شديدة وأتقنت ربطة الحزام وأملت عمامتي إلى جانب رأسي وخرجت من البيت قاصداً الحمام .

وبعد الاستحمام تمطرت وقضيت جانباً كبيراً من وقتي في الفناء ومشيت في المدينة بلا قصد غير قطع الوقت حتى يحين الموعد

وأخيراً انتهى النهار وكان صبري يقل شيئاً فشيئاً ، وكان من سوء حظي أن الطبيب تأخر عند الشاه، ومن أجل ذلك لم ينم الخدم مبكرين كعادتهم فقد كانوا مضطرين إلى انتظاره حتى يفرغ من طعامه لكي يتمشوا بفضلات مائدته . ولهذا السبب لم أستطع الذهاب إلى زينب في الموعد المحدد

ولما هدأت أنفاس النائمين وسطع نور البدر ذهبت إلى النافذة وكان مبعث الصبر قد غاض . ولما استوثقت من أنه لن يراني أحد أطللت من النافذة فرأيت بهـا أوراق التبغ الخضراء وإلى جانبها سلة بها جزء مرتب من هذه الأوراق وسائرها غير مرتب في الغرفة فعرفت أن زينب كانت ترتبها ولكنها لم تتم عملها

دارت بعيني في أرجاء الغرفة فلم أجد الفتاة وتنحنحت مرتين فلم أسمع جواباً ثم سمعت زوجة الطبيب تتكلم همساً ولكن حدة صوتها جعلته يخترق الحوائط ويصل إلى مسمعي، ولم أتبين في مبدأ الأمر موضوع الحديث ولكنني في النهاية سمعتها تقول بصوت واضح : أتتكلمين عن الشغل يا بنت

2017-11-11

الشيطان ؟ لماذا ذهبت إلى الحمام ؟ أى شأن لك فى المقابر ؟ لماذا لم يتم عملك ؟ لا تأكل الليلة ولا تشربى ولا تنامى حتى يتم . إذهبى فى الحال وإذا لم تتممه فوالله وبالله لأضربنك على قدميك حتى تسقط أظافرك »

وبعد ذلك سمعت صوت لطمات فعرفت أن زوجة الطبيب هى التى كانت تكلمها . وبعد قليل رأيت فانفتح تدخل الغرفة مطرقة مكسورة الخاطر . ولقد كنت أتمنى أن أراها فى هذه اللحظة فى أسعد الحالات وأرغدها

قلت فى نفسى : « ما أعجب الحب ! إنه يشحذ الذهن ويقوى الذكاء . ونظرت فى الغرفة فأدركت أن بها مكاناً أستطيع الاختباء فيه ومساعدتها فى العمل حتى يتم وأستطيع أن أقضى الليلة معها دون أن يشعر بنا أحد . ورأتنى الفتاة مطلاً من النافذة فلم تظهر أنها اهتمت حتى تهدأ العاصفة التى أثارتها السيدة . ثم لما ساد السكون بعد مدة دنت من النافذة ، وبعد لحظة كنت معها فى داخل الغرفة

ولست أشك فى أن الذين جربوا الحب من القراء يقدرون اضطرابنا فى هذا الموقف الذى لا يمكن وصفه

وعلمت من فتاتى أنها بنت زعيم من زعماء الأكراد وأن أباها سجن وهى لا تزال طفلة وأن سوء حظها جعلها جارية فى هذا المنزل . وبعد أن تبادلنا وصف ما يشعر به كلانا نحو الآخر أخذت تبثنى ما تجده من سوء معاملة السيدة ، وقالت لى إنها تشعر بأنها فى هذا المنزل أذل من الكلب ، فكل إنسان يسخر بها حتى مات نفسها ، وأن الاسم الوحيد الذى تنادى به بينهم هو بنت الشيطان . وقالت :

« أنا كردية من اليزيديين والناس يزعمون أننا نعبد الشيطان ، ولكن الحقيقة ليست كذلك وإنما نحن نخاف الشيطان ، وأى إنسان لا يخافه ؟ إننى أود أن أرى تلك السيدة بين الجبال لكى أريها ماذا تستطيع الفتاة الكردية أن تفعل »

حاولت بكل قوتى أن أعزيها وأن أقنعها بالصبر حتى تتهيأ لها فرصة للانتقام ، فقالت لى إنها يائسة من سنوح الفرصة لأنها مراقبة أشد المراقبة وأنها لا تكاد تنتقل من غرفة إلى أخرى إلا بإذن سيدتها

وقالت لى : إن هذه السيدة كانت من جوارى الشاه وإن الطبيب تزوجها بأمر من جلالته واضطر بتأثيرها إلى ترك زوجته الأولى ، وأن هذا الطبيب من أسرة وضيعة وأنه يعانى آلاماً شديدة من سوء أخلاقها وشدة كبريائها كأنما كانت تمد نفسها فى ماضيها سيدة من سيدات القصر الملكى لا جارية من جواريه ، وأنها لا تفرق فى المعاملة بين زوجها وبين الحيوان وتطالبه بالخضوع والتسليم فى كل شىء . وأن الطبيب لا يجرؤ على الجلوس أمامها حتى تأذن له ، وهى فضلا عن ذلك شديدة الغيرة ترتاب فى علاقة زوجها بكل جارية ، وأن الطبيب بتفاهل زوجته ويستكثر الضعف الانسانى فيقضى وطره من كل خادمة جميلة

وقالت لى زينب إنها هى نفسها موضع حبه وإعجابه وإن سيدتها لذلك تغار منها ولا تتركها تتحرك أقل حركة دون أن تراقبها أشد المراقبة ، وقالت لى إن جو البيوت التى وصفها كهذا الوصف جو دسائس

ولما كنت لا أعرف من نظام البيوت الفارسية إلا ما علق بذهنى من ذكريات منزلى وقد فارقته وأنا صغير — فقد كنت أصغى إلى الفتاة فى اهتمام

2017-11-11

شديد ، وكان مما قالته أن الحرم في هذا المنزل يتكون من خمس سيدات غير زوجة الطبيب وهن : شيرين الرقيقة الشركسية ، ونور جيهان (نور العالم) الرقيقة الحبشية ، وفاطمة جارية المطبخ ، وليلى خادمة الايوان ، وزينب وصيفة السيدة ، واسم هذه السيدة هانم

وعمل الوصيفة أن تصنع لها القهوة وتعد الرجيلة وتذهب معها إلى الحمام وتساعدها على لبس الثياب ؛ وأما شيرين الشركسية فهي أمينة المنزل وهي تعنى بثياب السيد والسيدة وسائر الأتباع وتحفظ حاجة المنزل في العام من القمح وسائر المؤونة وفي عهدتها نفقات المطبخ وأدوات الزينة

أما نور جيهان فهي فراشة البيت وهي تنظف السجاجيد وتكنس السلم وتساعد الطباخة وتحمل الطعام وتفعل ما يأمره بها كل من في المنزل

أما ليلى فانها عجوز تشترى ما يلزم من السوق وتحمل رسائل السيدة إلى سواحبها وتتجسس لها على السيد

قالت زينب : « ونحن نقضي أيامنا في الخلاف بيننا على كل شيء ، وكل اثنتين منا تتحالفان على الأخريات . والخصومة الآن شديدة بيني وبين الشركسية لأنها وجدت في العهد الأخير عناية السيد تنصرف عنها إلي ، ويظهر أنها تدس لي الدسائس عند السيدة لأني أجد السيدة كلما أساءت إلي أحسنت إليها ، وهذه الفتاة شديدة الغيرة مني وقد أحضرت في العهد الأخير حجاباً من أحد الدراويش . ولما رأيت حسن تأثير الحجاب أحضرت حجاباً من درويش آخر لكي يرزقني الله زوجاً صالحاً . ولم أكد أحمل هذا الحجاب بيمين حتى رأيتك تطل علي من النافذة فعرفت أن الله قد استجاب دعوتي . وأنا الآن على اتفاق مع نور جيهان الحبشية وقد أخبرتني بأن شيرين تدبر لي مكيدة عظيمة ولذلك أحتاط كل الاحتياط من كل ماء أو طعام أعرف أن يدها امتدت إليه خوفاً من أن تضع لي السم فيه . وقد أرادت أن تبدأني بالشر في هذا الصباح فقد لي : «لعنة الله على الشيطان» وهذه العبارة إهانة عظيمة لليزيدين فغضبت وأمسكت بشعرها فانتزعت خصلة منه ، وأخذنا نتشاتم حتى جفت حلوقنا ولست أعرف ماذا تكون نتيجة هذا الشجار عند ما يعلم سيدي الطبيب »

استمرت زينب تحدثني هذا الحديث حتى انبلج الفجر وسمعت صوت المؤذن فاستعددت للخروج واتفقنا على أن نتقابل كلما سنحت فرصة وجعلنا العلامة بيننا على إمكان المقابلة أن تعلق قطعة من القماش على شجرة فأعرف أنها مستعدة لقابلتي

الفصل الخامس والعشرون

المحاورة بنقيضه مرة أخرى

في مساء اليوم التالي ذهبت إلى الشرفة وأطلت على حديقة الحرم آملاً أن أرى قطعة قماش معلقة على شجرة ، فلم أرها ولم أسمع صوت زوجة الطبيب ذلك الصوت الذي أصبحت أتفاءل به . ولم أجد في الشرفة سلة التبغ ولم يكن في المنزل علامة على أنه مأهول غير وجود ليلى

وبقيت في مكاني حتى دق الجنود طبولهم ليغلق الباعة حوانيتهم وينصرفوا إلى منازلهم . وكان الصمت سائداً في كل مكان

قلت في نفسي : « لا أظن أن سيدات المنزل في الحمام لأن الساعة كانت متأخرة فلعلهن في حفلة زواج أو عند أسرة يكون أحد أفرادها مريضاً ، وصرت أعصر ذهني لأفترض الفروض حتى سمعت فجأة صوت الباب يفتح ، وتلت هذا الصوت أصوات

2017-11-11

نسائية فعزمت على البقاء لعلي أنعم منها بحديث مثل حديث الأمس

ولم تمض مدة طويلة حتى ظهرت زينب ومشت نحوي على أطراف الأنامل لتخبرني أن الظروف لا تسمح بمقابلتها الليلة ولكنها ستتنهز فرصة قريبة لتدعوني إلى مقابلة أخرى ، وأخبرتني أن سيدتها ذهبت إلى القصر الملكي بأمر من الشاه لتعني بسيدة مريضة فيه ، وأن المظنون في مرضها أنه نتيجة لدس السم لها في الطعام من سيدة أخرى في القصر

وقالت لي زينب : « إنه لا ينتظر أن تعيش تلك السيدة ولذلك فنحن نستعد لاقامة المأتم ونستهدي إلى كل واحدة مناثياب ومناديل سوداء » ثم ودعتني وأكدت علي ألا أنسى العلامة المتفق عليها بيننا

وفي الصباح التالي وجدت زينب تنظر من النافذة وتشير إليّ بالدنو منها فدنوت غير متردد ودخلت غرفتها كما دخلت في المرة السالفة وقد تملكني الخوف في هذه المرة ، وكدت أهم بالعودة لولا تشجيع الفتاة لي بابتسامة ، وقالت لي: « لا تخش ياحبي بأبا فليس هنا أحد غير حبيبتك زينب وإذا لم يعاكسنا الحظ فسنبقى معاً طول النهار »

فقلت : « ولكن ما هذه المصادفة العجيبة ، أين سائر السيدات وأين الطبيب ؟ »

قالت : « لا تخش شيئاً فاني أغلقت جميع الأبواب وإذا جاء أحد فسيكون لديك متسع من الوقت للفرار قبل أن أفتح له الباب وقد ذهب جميع السيدات إلى المأتم ، وقد دبرت السيدة الشديدة الغيرة أمراً لابعاد الطبيب حتى لا يأتي إلى المنزل في غيبتها وأنا موجودة فيه »

وقالت : « يجب أن تفهم يا حبي بابا أن نجم حظنا من أسعد النجوم وأن الساعة التي التقينا فيها كانت ساعة مباركة . وقد خدمتني شيرين الشركسية من حيث لا تعرف لأنها أرادت مني من دخول القصر الملكي حتى لا أنال المنحة التي يعطونها في العادة لمن يحضر المآتم من النادبات، فأفهمت السيدة أني لا أحسن الندب وأنه لا فائدة من وجودي في المأتم . وأني فضلاً عن ذلك لا أعرف عوائد الايرانيين لأني كردية فوجودي في الأوساط الراقية يجملني وسيدتي متفقدتين . وأفهمتها أن ليلى خير من تقوم بواجبها في المآتم فحثتها على مرافقتها . وعلى هذا ذهب الجميع إلى المأتم وبقيت وحدي في المنزل لحسن حظي حتى أتمكن من رؤيتك . ولكني تظاهرت بالتعب وعارضت في ذهاب ليلى من حيث كان الواجب أن أذهب »

ثم خرجت زينب لتعد لي طعام الافطار وتركتني أهتدي بنفسي إلى داخلية الحرم فذهبت أولا إلى غرفة « الهانم » ووجدتها غرفة واسعة وقد غطي بابها الذي على الحديقة بستار رقيق وفي صدرها نمرقة عليها سجادة صغيرة معطرة طيبتين ، وتحت هذه النمرقة وسادة مربعة عالية منطاة بالحرير المزركش بالذهب ، وبالقرب من النمرقة مرآة في إطار مزركش وأمامها أدوات الزينة من المكحلة إلى المرود إلى الخضاب والمقص وغير ذلك ، وبين هذه الأشياء إناء صغير به أحجبة متعددة .

وفي جانب من الغرفة سرير عليه ملاءة زرقاء وعلى الحوائط صور كثيرة في إطارات مختلفة الأشكال والألوان وفي أحد الأركان زجاجة كبيرة من النبيذ الشيرازي

قلت في نفسي : « كيف يدعي هذا الطبيب الصلاح والتقوى مع وجود الخمر في منزله ؟ »

وعزمت أن آخذ هذا العيب الذي عرفته عنه

سلاحاً أحاربه به عند الضرورة

وقبل أن أعاين سائر الترف حادت زينب بطعام الافطار واخترنا غرفة السيدة مكاناً لتناول طعامنا. ولم أتناول قط فى حياتى أله من هذا الطعام وهو مكون من طبق من الأرز ولحم مشوى وقاورونة فارسية مقسمة إلى أجزاء مستطيلة كنا نتبلغ بها فى أثناء الطعام كمادة الفارسيين، وطبق من العجة وآخر من الجبن، وخوخ ومشمش وأنواع من الحلوى والعسل

قلت لها: «خبرينى بحق أمك عليك كيف تمكنت من إعداد هذا كله فى هذه المدة اليسيرة؟ إن الطعام يصلح لمائدة الشاه»

فقالت: «لا تظنى أنى أحضرت ذلك الآن فان السيدة أمرت قبل ذهابها باعداد الطعام فأعد هذا الافطار ثم غيرت رأيها وفضلت أن تأكل فى بيت الشاه فتركته»

فأكلنا ما طاب لنا وتركنا قليلاً لمن عسى أن يسأل عنه من خدم المنزل. وبعد أن غسلنا أيدينا جاءت زينب بزجاجة النبيذ وكسرنا كأساً ليكون ذلك عهداً بيننا على دوام الحب وهنأ كل منا الآخر بأنه أصبح أسعد الناس. واستولت على نشوة الحب فرفعت عقيرتى وغنيت أبياتاً رقيقة من شعر حافظ الشيرازى فأقسمت لى زينب وهى منتشية نشوتين أنها لم تسمع قط صوتاً أطرب من صوتى. ونسيت لشدة سرورها أنها ليست إلا جارية رقيقة، ونسيت لشدة سرورى أنى فقير، وصورت لهما الخمر كما صورت لى أن سعادتنا دائمة أبدية، وغنت ثم غنيت كل منا بدوره والخمر فصاحة الأسرار كما يقولون فطلبت إلى زينب أن تقص علىّ تاريخها فلم تمتنع مما طلبت وأخذت تقص علىّ قصتها منذ البداية.

الفصل السادس والعشرون

قصة زينب الكردية

قالت: «أنا بنت زعيم كردى يدعى أوخوس أغا ولست أعرف من هى أمى ولكننى نشأت فى منزل أبى بين نساء كثيرات لم تشعرنى واحدة منهن بعطف خاص يدل على أنها الأم. ولكننى لما كبرت سمعت أن أمى كانت غريبة وأنها ماتت فى سفرى

وكان أبى مولعاً بالخيل حتى أن أول شىء أذكره فى طفولتى هو موت مهر له واقامته مأتماً له

وأنت تعرف أن الأكراد لا يعترفون بأية سلطة أو سيادة عليهم، وقد كان أبى كسائر الأكراد لا يحترم الدولة العثمانية، ولذلك اغتصب قطعة كبيرة من الأرض مملوكة لباشا بغداد وجعلها مرعى لمواشيه وغنمه؛ وكان يكلف القبائل المجاورة أن تقدم لمواشيه المؤونة فكانت تخضع مكرهة خوفاً من سطوته وإحراقه زرعها أو تسميمه المواشى

وكان الباشا يتقى شره، فبدلا من أن يغتنم أو يحاربه كان يتودد إليه ويرسل إليه الهدايا ويتغاضى عن كل إساءاته

وكان أبى طويل القامة عريض الكتفين تبعث هيئته على الهيبة والخوف، وقد قتل أشخاصاً عديدين ومن أجل ذلك كان يعلق خصلاً كثيرة من الشعر على أعلى رمحه لأن من عادة الفرسان التركمانيين أن يقطع أحدهم خصلة من شعر كل قتيل يقتله فيعلقها على رمحه وأنا إن نسيت شيئاً فلست أنسى الجلالة والعظمة المرتسمتين على وجهه عند ما يكون ممتطياً جواده بين ألف من أتباعه الخاشعين له أتم الخضوع والدين تتوهج أسنتهم وسيوفهم فى ضوء الشمس كما هموا بغزوة

وكان أبى رجلا يقدر الأمور حق قدرها، ويعمد إلى الحكمة بالرغم من استطاعته تنفيذ كل

2017-11-11

الذى يريده بالقوة . ومن أجل ذلك لم يزدر صداقة الباشا بل أراد الانتفاع بها . كذلك كان الباشا حكيما فلم تخف عليه هذه الرغبة عند أبى وصار يستعين به فى تأديب القبائل

وحدث فى ذلك الوقت أن جماعة من الوهابيين ثاروا على الحدود فاستعان الباشا بأبى على تأديبهم واشتركت جيوش الحكومة مع جيش الأكراد فى هذه الحملة، وقد تمكن أبى من قتل الزعيم الوهابى بيده فى أثناء المعركة

وأخذ أبى جواد الزعيم الوهابى فأرسله إلى معسكر الأكراد ، ولقد كان هذا الجواد عربياً أصيلا يحسد مالكه عليه ، ولو علم الباشا به ما تركه لأبى بأى حال من الأحوال

وأخيراً تقهقر جيش الوهابيين المنكوب وعاد الأكراد إلى الجبال ، وفى يوم من الأيام فوجئنا بزيارة مندوب من قبل الباشا ومعه عشرة من الجنود مدججين بالسلاح . وكان هذا المندوب هو المرياخور فأكرمه أبى وأدى له جنودنا التحية ثم أخذت جياد المندوبين إلى المرعى وذبحت الذبائح وقدم لهم الطعام. وبالجملة فقد بذلنا كل ما يستطيع بذله من واجب الضيافة أناس مثلنا من الرحل القاطنين فى الخيام

وقد أدرك أبى منذ رأى ضيوفه مقبلين كنه المهمة التى جاءوا من أجلها ، وأمر ابنه بأن يأخذ الجواد الذى كان للزعيم الوهابى إلى جهة مجاورة حتى يصدر إليه أمر آخر

ولما كانت جماعتنا جيلية فقد كان من السهل على أى رجل أن ينتقل من مكان إلى مكان دون أن يشعر به الموجودون معه . وإنى لأذكر الحوادث التى سأذكرها لك كما لو كانت حدثت بالأمس فقط. كنت أظل على المكان الذى اجتمع فيه المرياخور وأبى واثنان من الأتراك الوافدين من قبل الباشا، وكان هؤلاء الضيوف جالسين فى صدر الخيمة وأبى أمامهم جالس جلسة تدل على إكبارهم وتواضعه فى حضرتهم

قال أبى: «مرحباً بكم ! أسعدتمونا بتشريفكم»

فقال المرياخور : « لقد كان من حسن حظى أنى انتدبت لمقابلتك فانى مشتاق إليك وقد مضى زمن طويل على آخر مرة تلاقينا فيها »

وأخذا يتبادلان مثل هذه التحايا وكان كل من بالخيمة يدخنون فى هذه الأثناء حتى امتلأت الخيمة بالدخان

ثم قال المرياخور : « إن مولاى الباشا أرسلنى إليك لأبلغك تحيته وأقول لك إنه يحبك ويقدرك وإنه يمدك من أقدم أصدقائه وإنه يحب الأكراد ويصادق أصدقاءهم ويعادى أعداءهم »

فقال أبى : « أبلغ الباشا أنى لست إلا عبداً من عبيده، وأنه قد شرفنى أكثر مما أستحق، وإنى أحمد الله على المودة التى عقدت بينى وبينكم. إننا نعيش فى أمن مستظلين بظل الباشا وقد أصبحنا لا نعرف الخوف »

وبعد لحظة ساد فيها السكوت قال المرياخور : « الغرض من زيارتنا يا أوخوس أغا هو إبلاغك أن الوهابيين أرسلوا إلى الباشا يطالبونه برد الجواد الذى كان يركبه زعيمهم الذى قتل فى الحرب وأنهم لا يقبلون فداء غير رأس الباشا أو ابنه لأنهم يزعمون أن هذا الجواد من نسل الجواد الذى هاجر به النبى من مكة إلى المدينة . وقد قال رسل الوهابيين إنهم جمعوا جيشاً وسيحاربون حتى ترد إليهم جوادهم أو يهلكوا عن بكرة أبيهم. ويقول لك الباشا إن الناس كلهم علموا بوجود هذا الجواد عندك وإنه يريد أن يرد لهم الجواد ومن أجل ذلك أرسلنى إليك راجياً أن تسلمه إلى »

فقال أبى : « والله وبالله وبحق الخبز والملح الذى أكلته مع الباشا لقد كذب الوهابيون وليس عندى الجواد الذى يريدونه ، وكل ما فى الأمر أنى غنمت

2017-11-11

جواداً سريعاً غير أصيل فبعته لأحد الأعراب فى اليوم التالى لحدوث الوقعة ولا يزال عندى سرج هذا الجواد ولجامه ، وأنا مستعد لاعطائهما لك . أما الجواد نفسه فليس عندى »

قال المرياخور : « الله الله ! هذا أمر كبير الأهمية يا أوخوس أغا وأنت رجل محترم ونحن أناس محترمون فلا نحاول الشحك على ذقوننا ، وإذا لم تأت بالجواد لنرده إليهم فانهم سيحاربوننا حرباً تموت فيها كل جيادنا وستنتهى الصداقة التى بيننا وبين الباشا فاستحلفك برأس أبيك أن تأتى بالجواد ولا تعرضنا ونفسك لحرب مهلكة »

قال أبى : « أيها الصديق ما الذى أقوله لك ؟ إن الجواد ليس عندى ، وإن الوهابيين كاذبون ، ولم أقل لك غير الصدق »

ثم دنا من المرياخور وأخذ يتكلم معه همساً فلم أسمع حديثهما ولكنى وجدتهما متفقين فى نهاية هذا الحديث وقال المرياخور بصوت عال : « إذا كان الأمر كذلك ولم يكن الجواد لديك فان الله كريم والمرء لا يستطيع أن يغالب الأقدار وعلينا أن نعود إلى بغداد »

وقف أبى ثم خرج تاركا ضيوفه يدخنون ويشربون القهوة . وجاء إلى خيمة السيدات فأمر بالطعام الذى كان يعد فى ذلك الوقت لضيوفه وأخذ من إحدى نسائه كيساً فيه نقود ذهبية فوضعه فى حزامه ثم عاد إلى ضيوفه

ولم يدر حديث طويل فى وقت الغداء ولكنهم كانوا يتكلمون قليلا عن الخيول والكلاب والأسلحة

وكان الطعام طبقاً كبيراً من الحساء وقصعة بها أرز وثريد وحمل مشوى . وكان عدد الجالسين على المائدة خمسة عشر وهم رئيس الوفد التركى وأتباعه العشرة وأبى وثلاثة من أتباعه

وكان فى يد كل منهم ملعقة خشبية، وما هى غير دقائق حتى نفد الطعام لأن الجميع كانوا يأكلون بشهوة قوية . ثم جىء بقصعة من الأرز فالتهموها بأصابعهم وقال كل منهم : « الله بركات فارسن » أى أسأل الله أن يديم نعماءه

ثم خرج أبى مع المرياخور من الخيمة وتكلما بصوت خافت ولكن لغربهما من الخيمة التى كنت أنا فيها ولانصاتى الشديد تمكنت من سماع ما دار بينهما من الحديث

قال أبى : « إن كل ما أستطيع أن أدفعه لك هو عشرة جنيهات وليتنى كنت أملك أكثر من ذلك »

فقال المرياخور : « هذا مستحيل وأنت تعرف ماذا سيكون إذا لم تدفع لى ضعف هذا المبلغ . إن الباشا سيأمرنى بالعودة للقبض عليك لعدم حصولى على الجواد. بل هو قد أمرنى بألا أعود إلا بالجواد أو بك، ولكن إذا دفعت لى عشرين جنيهاً فانى سأسهل الأمر عليك وأحميك . فاختر يا صاحبى لنفسك ما تراه »

فأخرج أبى كيس النقود من حزامه ودفع له عشرين جنيهاً فأخذها المرياخور وأظهر علائم الرضى وقال لأبى : « لقد أكلنا الآن خبزاً وملحاً فنحن أصدقاء ووجب علىّ أن أنذرك إذا أراد الباشا سوءاً بك ولكننى أشير عليك بأن ترسل إليه هدية وإلا صعب على التوسط عنده »

فقال أبى : «أهدى إليه هدية تليق به على العين والرأس فان لى كلباً ذاعت شهرته فى كردستان يلحق بالوعل السريع ويندر وجود مثله عند الملوك فهل يقبل هذه الهدية ؟ »

فقال : « إنها تليق من وجهة واحدة ولكنها لا تكفى إذ يجب أن نذكر ما ينشأ عن رضى الباشا عنك »

فأجاب أبى : « إذن لقد خطر ببالى خاطر هو أن أرسل إليه بفتى ذات الوجه المشرق الوضاء

2017-11-1

والقوام الأهيف البض والخصر النحيل ، الملتهب قلبها بحرارة الشباب ، فقل له ولو أنه يرى أن اليزيديين غير مؤمنين إلا أنه قد يهوى امتلاك جميلة تتار منها حور الجنة ، وأنا على استعداد لارسالها معك »

فصفق المرباخور بيديه من فرط سروره وقال : « عفارم ! عفارم ! لقد أصبت وأحسنت وسأعرض الهبة وسيقبلها ولا شك وسيكون لك منها صديق فى قصر الباشا تعتمد عليه وينجدك فى الأزمات ويقيك شر ما تخاف »

وعلى ذلك اتفقا . وأما أنا فقد تركت مكاني الذي كنت أنصت منه لأفكر فيما سيكون من مصيري ، وقد ملت أولاً إلى البكاء وندبت سوء حظي . ولكنني بعد قليل من التأمل والتفكير قلت : « هل أكون زوجة الباشا؟ هل ألبس الحرير وأحل فى الحفلات؟ إن سروري بذلك لا يقدر وسيتبطن كل بنات الجبال »

وبعد قليل من الزمن كنت أنظر من الخيام إلى الفضاء الفسيح فأرى المرباخور فى أحسن حلة ومعه أتباعه وكلهم يسيرون إزاء سلسلة التلال التي تحيط بمعسكرنا ، وسمعت والدي يبدي شكره وامتنانه لأنه تخلص من هؤلاء الزائرين . ولما غاب القوم عن النظر أرسل والدي أحد رعاة غنمه إلى ابنه بالجبل يأمره بارجاع الجواد . ولما أمن على الجواد فى الخيام جمع رجال قبيلته المسنين من أقاربه وأقرباء زوجته والنازلين بجوارنا وشرح لهم الحالة التي أصبح فيها ، وبين لهم أن هلاكه وهلاكهم محتمان إن هم ظلوا فى أملاك الباشا . فعقدوا مجلساً ناطوا رياسته بعمي وهو أكبر رجال القبيلة

قال أبي : « تعلمون أن جميع المسلمين يكرهوننا نحن اليزيديين وقد كان الباشا يدعي صداقتنا ليأمن شرنا ولكي يستفيد من تسخيرنا ضد أعدائه ولكن حبه للمال أكبر من حب سواه ، وعددنا الآن لا يستطيع الثبات طويلا أمام جنوده خصوصاً وأن معنا نساء وأطفالاً تجب علينا حمايتهم فأنصح لكم بترك هذه المقاطعة التركية والسفر إلى فارس حيث نجد المرعى خصبا والناس مسالمين »

فقال عم أبي : « إسمع يا أوخوس أغا ! إسمع يا ابن أخي ! أنت رأس هذه القبيلة وأنت أشجع رجالنا ، وإذا نصحت لك بأن تسلم لهم جواد الوهابيين احتقرتني وقلت إني غير جدير بأن أكون كردياً أو يزيدياً . وإذا أسلمته الآن إليهم بعدد رسولهم فاننا لا نخلص من نية الانتقام لأني جربت حكام الأتراك وعرفت أنهم لا يتنهون عن الانتقام متى سنحت فرصة لذلك ، فأنا أرى رأيك فى الرحيل عن هذه البلاد التي لم يعد يحسن بنا البقاء فيها وقد تعودت منذ صباي أن أرى هذه البقاع وعزيز علي أن أفارقها ، ولكن ذلك لا يصلح عذراً للبقاء الذي قد يكون فيه هلاك القبيلة ، وأرى ما دمنا عازمين على الرحيل أن نسجل به لأن التأخير شديد الخطر ولأنه قد لا يمر يومان أو ثلاثة أيام قبل أن يأتي جنود الباشا ليثاروا منا ، وقد يأتي الوقت الذي تعودون فيه إلى أماكنكم القديمة »

ولما فرغ عم أبي من الكلام قال أكبر الرعاة سناً وهو شيخ مجرب يعرف طرق البلاد معرفة جيدة : « إذا كنا ذاهبين فلنذهب فى الحال فان الثلوج التي على قمم الجبال قد أوشكت تذوب ولن نستطيع إذا تغير الفصل أن ننتقل بأغنامنا ومواشينا ولم يبق إلا ثلاثة أسابيع ثم تدخل الشمس فى برج الحمل »

قال أبي : « لقد صدق شيخ الرعاة » ثم التفت إليه وقال : « لقد أحسنت النصيحة ، وأنت خادم أمين وسأجزيك جزاء حسناً متى ابتعدنا عن متناول يد الباشا »

2017-11-11

وعلى أثر هذا الاجتماع رفعت الخيام وحملت على ظهور الجياد والجمال ، ومشى الرعيان بالغنم وركب أبي الجواد الذي غنمه من الوهابيين

وكان النساء يبكين وينتحبن لأنهن لم يفهمن الأمر على حقيقته بل اعتقدن أن جنود الباشا على قاب قوسين منا وأنه لم يبق إلا يوم أو بعض يوم ثم يصبحن أسيرات في بيوت الأتراك »

قالت لي زينب : « أما أنا فقد كان الحزن سبب آخر هو يأسي مما كنت أعلل به نفسي بعد أن سمعت حديث أبي مع المرياخور فقد كنت أعتقد أني سأصبح زوجة للباشا

رأيت أحلامي تبددت دفعة واحدة فلا أمل لي في لبس الثياب الحريرية المزركشة ولا في سكنى القصور العالية المفروشة بالأثاث الغالي ولا في التمتع بالسيادة على الجواري والخدم ولم يبق أمامي أي شيء غير ما كنت فيه من حلب الضرع وصنع الجبن والزبد

تحرك ركبنا وكان الطريق أمامنا مملوءاً بجواشينا إلى آخر حد تقع العين عليه . وكنا نختار الطرق التي بين الجبال حتى لا يرانا أحد فيبلغ أمرنا للباشا

وبعد بضعة أيام وصلنا إلى الحدود الفارسية ولم يحدث لنا في أثناء الطريق إلا مصاعب تافهة أيسر مما كنا ننتظر . وكان الفرسان مجتمعين مستعدين للملاقاة الجنود التركية وحربها . ولكن لحسن حظنا لم تقابل الإجاعة من الرعاة فأخذنا مواشيهم وأسرنا هم

ولما وصلنا إلى كرمان شاه ذهب أبي إلى مقر الحكومة لمقابلة الوالي وهو أحد أبناء الشاه فطلب إليه أن يحميه وأن يقطعه أرضاً من أملاكه . وكنا في انتظار أبي ونحن على أحر من الجمر لأنه كان من المحتمل ألا يكتفي الوالي برفض طلبه، بل يرسل إلينا جنوداً تحاربنا فنقع بين نارين نار الترك ونار الفرس

ولكن السياسة التي جرت عليها الدولتان كانت تقضي بأن تؤوي إحداهما كل قبيلة تلجأ إليها فراراً من الدولة الأخرى

وأخيراً عاد أبي ومعه ضابط من ضباط الأمير وأقطعنا أرضاً على بعد عشرة فراسخ وهي واسعة نقطعها سيراً في ثلاثة أيام ، وفي جانب منها جبال عزمنا على الاقامة فيها شتاء ، وأما الجانب الآخر فعزمنا على جعله مصيفاً

وكان اسم أبي مشهوراً في كرمان شاه، فلما استأذن على الأمير ليقابله أعرب سموه عن السرور بهذه المقابلة وخلع عليه خلعة سنية ووعده بحمايته وقال له : « إذا طلب الباشا تسليمك أو تسليم أي رجل من قبيلتك فاني لا أتردد في رفض طلبه حتى ولو أدى إلى إشهار الحرب عليه . إن أرض الله واسعة يا أوخوس أغا فاذا ضاق بك الأتراك ذرعاً فان بلادنا وصدورنا واسعة رحبة »

وقد كان ما توقعه الأمير ، فلم تمض إلا أيام قليلة حتى جاء إلى المدينة رسول من قبل الباشا يحمل خطاباً موقعاً عليه منه، وهو في هذا الخطاب يطلب تسليمنا ويذكر الأسباب التي أدت إلى جلائنا عن بلاده . وقد اتهم أبي في هذا الخطاب بأنه لص وبأنه سرق جواداً من أنفس الجياد، وهدد الباشا في آخر الخطاب بأنه إذا لم يصله الجواد على الأقل فان الحكومة الفارسية ستكون مسئولة عن النتائج

ولما وصل هذا الخطاب إلى الأمير استدعى أبي وعرفنا أن الباشا لن يترك جهداً في الحصول على الجواد والانتقام من أبي مهما كلفه ذلك . وخشينا أن يسلمنا الفرس بالرغم من وعد الأمير، لأننا زيديون والسلمون جميعاً يكرهوننا ، ولكن الفارسيين أشد كرهاً لنا وتعصباً علينا

وقبل أن يذهب أبي لمقابلة الأمير أسدر أوامر سرية بأن يوضع الجواد في مكان أمين وبأن ينكر

وجوده إذا طلب . ولكن لما عاد أبي من عند الأمير تبين لنا أن هذا الاحتياط لم تكن تقضي به الضرورة فان الأمير أحسن استقباله وقال له إنه لن يقبل مطلب الباشا مهما كانه ذلك وإن لأبي أن يطمئن أن الجواد لديه وبرتكن على حماية الأمير . وقال له : « اطمئن يا أوخوس ! كيف يدعى هذا الأحمق أنك من رعايا مع أن مملكة أبي مفتوحة الأبواب لكل لاجئ ؟ أليس أبي ملك الملوك ؟ أليست حمايته مبسوطة على كل فرد مقيم في هذه البلاد ؟ إننا لن نكون مسلمين إذا أسلمناك لعدوك بعد أن استجرت بنا فاذهب إلى خيمتك هادىء البال »

كان لهذا القول رنة فرح بين سامعيه من الأكراد، ودعا أبي كبراء القبيلة إلى وليمة وعلى أثر هذه الوليمة عقد منهم مجلساً للبحث في شئوننا وتدبير خطة للمستقبل ، وكان الجميع متفائلين بحسن هذا المستقبل والاغتباط بحماية الأمير الفارسي إلا رجلاً واحداً لم يكن لديه ما لديهم من التفاؤل، وذلك هو عم أبي . وقال إنه يعرف الفارسيين معرفة جيدة وإنه خدم في عهد شبابه نادر شاه وإنه لا يجد في نفسه شيئاً من الثقة بوعد الأمير . وقال لرجال القبيلة : « أنتم لم تعاشروا هؤلاء القوم ولم تعرفوا عنهم مثل الذي أعرفه وهم لا يتخذون السلاح الظاهر كالسيوف والرماح ، وإنما سلاحهم الكيد والدس والخداع والكذب ، وأنتم مع شهرتكم بالتغلب في الميادين لا تستطيعون أن تحاربوهم بمثل هذا السلاح، وإذا وثقتم واطمأنتم فلا تلبثون أن تجدوا أنفسكم في حبائلهم وقد حاق بكم من كيدهم ما لا تقدرونه ولا تقدرون على دفعه

إن الكذب يكاد يكون عيباً علماً في هذه البلاد ودليلكم على ذلك أن الرجل منهم لا يكاد يقول جملة حتى يشفعها بيمين ، فهو يحلف برأسه وبرأس أبيه وبابنه وبالنبي وبجدوده وبالقبلة الشريفة وبرأس الشاه ويذقون الأولياء وبالموت الذي سيلاقيه وبالملح والخبز اللذين أكلهما ويشهد الحسين وعلي — على أن القسم بأي يمين من هذه الأيمان لا يدل إلا على أن القائل شديد الكذب وأنه يعتقد أن السامع لن يصدقه. والذي أفهمه من مسلك الأمير معنا هو أنه طامع في الجواد الذي جر علينا كل هذه المصائب فالفارسيون أشد من التركمان رغبة في الخيل وهم أحرص من الوهابيين على الاحتفاظ بهذا الجواد لأنهم من الشيعة، ولو علم الشاه أن لدينا هذا الجواد لأرسل إلينا في الحال فهل تريدون أن نحملوا السلاح في وجه العالم كله ؟ إن لكم رأيكم وأنا خاضع لما تتفقون عليه ولكني أحذركم وأقدم لكم النصيحة بأن يكون عندكم مبدأ عام في شأن الفرس هو ألا تصدقوهم ولا تثقوا بهم »

وقد أظهر رجال القبيلة اقتناعهم بقول هذا الناصح المجرب . وفي فجر يوم من الأيام رأينا حركة غير عادية وسمعنا نباح الكلاب ولما كنا تعودناه عندما يحاول الذئاب السطو على الأغنام فقد ظننا الأمر كذلك في البداية ولكن أبي وأخي حملا بندقيتيهما وذهبا إلى المرعى حيث كانت الأغنام والكلاب . ورأينا قبل وصولهما إليه فارساً يمتطي ثم رأينا خلفه فارساً آخر ووراءهما سبعة أو ثمانية من الفرسان ، وأخيراً تبين لنا أن خيامنا محاطة بالجنود، فصاح أبي ليوقظ رجال القبيلة وجرى نحوه الفارس الأول ليقتله ولكن أبي أطلق عليه رصاصة فقتله في الحال وضرب الفارس الثاني بسيفه فجرحه وكان صوت الرصاصة والصيحة التي تلته علامة للجنود التي خولتنا لنبدأ بالهجوم العام وقد ظهر أن الغرض من هذا الهجوم هو البحث عن الجواد لأن أول شيء فعلوه هو التفتيش في مربط الخيل وقد عرفنا أن الغزاة كانوا من الفارسيين وعرفنا

2017-11-11

أيضاً أنهم مرسلون من قبل السلطات الرسمية

وكان من سوء الحظ أن الرجل الذى قتله أبى هو رئيسهم وكان ذلك سبباً لاتخاذنا أسرى

وكان ذلك اليوم من أيام البؤس التى يستحيل أن أنساها »

ثم أخذت زينب تروى كيف أسر أبوها وكيف انتقلت من يد إلى يد حتى أصبحت جارية فى بيت ميرزا أحمد، وكان ازدجابى عند سماع قصتها مثل ازدجاجها وهي ترويها . ثم سمعت لجأة سوناً يطرق الباب فتوصلت إلى أن أسرع بالفرار من النافذة وكان الذى يطرق الباب هو الطبيب نفسه . وذهبت إلى الباب ففتحته .

ولما خرجت من النافذة وقفت أطل منها ورأيت الطبيب وقد تهلل وجهه بالبشر لرؤيته زينب وحدها بالمنزل، وقال لها كلمات فى نهاية الرقة ثم نظر إلى باب غرفته فرأى بقايا الطعام . فسألها عن سبب ذلك وقبل أن يستمع الجواب جلس ودعاها إلى الجلوس بجنبه وأخذ يداعبها، وعلى حين فجأة دخلت زوجته ووراءها سائر الفتيات ففاجأتهما قبل أن يتفرقا . وإذا نسيت شيئاً فلن أنسى نظراتها إليه ومسلكها الذى سلكته نحوه

قالت بلهجة الساخر : « السلام عليكما ، أتمنى لكما الصحة والهناء وأخشى أن يكون مجيئى مبكراً قد أزعج راحتكما »

ثم صعد الدم إلى وجهها واصطكت أسنانها وقالت بصوت يتهدج : « ... وتتناولان طعام الأفطار فى غرفتى أيضاً ؟ ما شاء الله ! ما شاء الله ! لقد أذللتنى واحتقرتنى ياسيدى أحمد! أفى غرفتى وفوق فراشى ! ؟ لقد سقطت السماء إلى الأرض ! هل تعد نفسك بعد الآن رجلاً بين الرجال؟ ألا تخجل حين يدعونك الناس طبيباً وحين يلقبونك بلقمان عصرك ؟

لعنة الله عليك وسخرية واستهزاء بلحيتك البيضاء ! »

ثم أشارت بأصبعها إلى عينيه وقالت : « أنا أبصق على وجهك ! من أنا حتى تفضل على جارية قذرة من جوارى منزلى ؟ ما الذى فعلت حتى تهينى هذه الأهانة ؟ إنك كنت خامل الذكر قبل زواجى فجعلت منك رجلاً وسهلت لك الطريق لدخول القصر الملكى والوقوف أمام الشاه وجعلتك رئيساً لأطبائه »

وكان الطبيب فى هذه الأثناء يقسم أغلظ الايمان على براءته ولكن ذلك لم يهدئ من غضب الزوجة ولم يقف تيار سخطها

ثم تركت زوجها والتفتت إلى زينب فأحمتها كل مؤثلة جارحة من القول ولم تكتف بالكلام بل صارت تجرها من شعرها ومن ثيابها فصارت الفتاة تصرخ من الألم . ثم أمرت الجوارى بأن ينقلنها إلى غرفة أخرى فنقلنها وضربنها حتى أدمين جلدها وكنت أتحرق فى هذه الآونة من الاشفاق وحدثتنى نفسى بأن أدخل المنزل لانقاذها مهما كانت النتائج وأحسست أن دمى صار فى مثل حرارة النار ولكن ما الذى أستطيع أن أفعل ؟ إننى إن دخلت فلن يكون نصيبها ونصيبى غير الموت . ولما هدأت الحالة تركت النافذة ومشيت فى الطريق حتى ابتعدت عن المدينة وأنا أدبر خطة لاخراج زينب من هذا البيت والتزوج منها . لكن كيف يمكن ذلك مع بقائى فى خدمة الطبيب وكيف أحصل على الرزق إن تركته ؟ هذا هو السؤال الذى كان يشغل التفكير فيه كل خواطرى

وأحسست أن قلبى يدمى كلما فكرت فى مصير تلك المسكينة لأنى سمعت أشياء كثيرة عما يجرى فى البيوت الفارسية وأيقنت أن اضطهاد السيدة لها لن يخف لا فى الحال ولا فى الاستقبال

« يتبع » عبد اللطيف النشار

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان ـ فاجالة ﴾

2017-11-11

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلة الآداب الرفيعة والثقافة العالية

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على هدى وبصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي فى النشء اساليب البلاغة العربية

بجوحة اعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق

الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل عشرون قرشاً ، والخارجي ما يساوي جنيهاً مصرياً ، والبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

2017-11-11 FREE ACCESS


الرواية

الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٤٧ — ١٠ ذى القعدة سنة ١٣٥٧ — أول يناير سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية



فهرس العـــدد

صفحة			
١٢٤٢	الزيف	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
١٢٥٠	مصرع البخيل	للكاتب الانجليزى أرثر كونان دويل	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة ... ...
١٢٦٠	الشق المدلل	للفيلسوف الروسى تولستوى	بقلم الأديب فخرى شهاب السعيدى
١٢٦٥	السعادة الذابلة	للكاتب جوزيف كسل	بقلم الأديب صلاح الدين المنجد ...
١٢٧١	البديل	للكاتب الفرنسى فرنسوا كوبيه	بقلم الأديب عادل الجمال ... ...
١٢٧٦	حاجى بابا أصفهانى ...	للكاتب الانجليزى جيمز موير ...	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ...
١٢٩٤	فهرس المجلد الثانى من الرواية		

الزيف

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

كان المسرح مكتظاً بالنظارة ، حيث كانت تمثل رواية البخيل لموليير ، وكان جمهوره كالمعتاد خليطاً من طلاب التسلية ومحبي الظهور ومدمني الفن وعشاق الخيال . وكان على أفندي جبر المترجم بوزارة الزراعة بين الجالسين في الصفوف الأمامية ، وكان يتتبع التمثيل بين اليقظة والنوم ، واضعاً خده على يده ، ومسنداً مرفقه إلى مسند المقعد . وكان قد طالع في بعض المجلات عن الرواية ما جعله يظنها آية من آيات الكوميدي فجاء المسرح بنفس توافة إلى الضحك والسرور ، وسرعان ما خاب رجاؤه وفترت حماسته وكاد يستسلم للنعاس . ولكن الأقدار أرادت أن تتبرع بتعويضه عن خيبته ، ففي أثناء الاستراحة دنا منه النادل وانحنى على أذنه وقال له باحترام وتأدب : « هل لبابك أن يتفضل بالذهاب إلى البنوار رقم ١ ؟ » ثم ذهب إلى حال سبيله ونظر على افندي إلى البنوار رقم ١ فرأى الستار الأبيض مسدلاً عليه فأدرك أن به « حريماً » وقام من توه وغادر الصالة وقصد إلى البنوار وهو يضرب أخماساً لأسداس ، وطرق الباب مستأذناً فسمع صوتاً رخيماً لا يعرفه يقول « تفضل »

فتردد لحظة سريعة لأنه أدرك لدى سماعه الصوت الغريب ، أن في الأمر خطأ ولكنه كان من الرجال الذين تتغلبهم على نفوسهم في حضر النساء جسارة غير محدودة وحب للمجازفات وثقة بالنفس وطيدة ، فاقتحم الباب غير هياب وصار وجهاً لوجه أمام السيدة الجالسة . وكانت في الأربعين ممتلئة الجسم ناضجة الأنوثة يزين قسمات وجهها الناجي حسن تركي بمصر ، ويدل على طبقتها العالية ثوبها الأنيق ونظرتها الرفيعة وحليها الثمينة . وقد بهر الرجل أمام روعة الحسن وانحنى باحترام وهو يقول لنفسه في إشفاق: « وآسفاه ! ستلم السيدة بالخطأ وسرعان ما تنتهي المقابلة » ولكن خاب ظنه ، لأن السيدة ابتسمت له تحية كأنه هو المعني وقالت برقة تعرفه بنفسها :

— أرجو ألا يسوءك إقلاق راحتك ... أنا أرملة المغفور له علي باشا عاصم

يسوؤه ! ينبغي له أن يعد نفسه من المحظوظين في هذه الدنيا لأن سيدة كتلك السيدة تقول له مثل ذلك الكلام بتلك اللهجة الرقيقة . ترى لماذا دعته إلى بنوارها ؟ فهو لا يذكر أنه رآها من قبل وإن كان يعلم علم اليقين أنه قرأ اسمها في بعض الأخبار الخاصة بالجمعيات النسائية ، وخيل إليه غروره أنها ربما تكون رأته من حيث لم يرها ، وأنها ربما وقع في نفسها منه — كما حدث لغيرها وإن كن لسن من نوعها — ما علقها به ، فاذا صدق حدسه — والدلائل تجمع على صدقه فهي تدعوه كما دعت قديماً امرأة العزيز فتاها ...

وأحس بنشوة فرح وزهو وقال للمرأة بكل رقة وهو ينظر إليها كما ينظر الانسان إلى شيء ثمين يملكه :

— العفو يا صاحبة السعادة .. خادمك ...

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-1

وهم أن يقدم لها شخصه العزيز، واستدلت السيدة من لهجته على ذلك فأشارت إليه بيدها البضة وقالت بسرعة وهي تبسم عن در نضيد :

— وهل أنت في حاجة إلى تعريف يا أستاذ ؟! تفضل

وجلس كما أرادت ، ولكن عبارتها الأخيرة قلبت ما بنفسه رأسا على عقب، فملأه الوجوم وأطفأ الكدر نور السرور في عينيه ، لأنه من المحتمل أن يكون قاتنا محبوبا من النساء وأن تقع في غرامه حرم عاصم باشا ، ولكن مما لا ريب فيه أنه في حاجة إلى تعريف كل إنسان ، وأنه لم يكن أبدا في غنى عن التعريف ، فماذا تعني السيدة الجميلة بقولها هذا ؟ إنه يكاد يهتدي إلى وجه الحق ، وقد ساعده على ذلك قولها له « يا أستاذ »

فهل تظن السيدة أنه شاعر مصر الأكبر بل شاعر الشرق العربي جميعاً الأستاذ محمد نور الدين ؟ والحق أن المشابهة التي بينه وبين سيد الشعراء معروفة مشهورة ، يعلم بها جميع أصحابه ، وطالما جعلوا منها موضوعاً للتنكيت والتفيش ؛ فكلاهما له هذا الوجه المستطيل الذي يحد من أعلى بجبهة عالية ، ومن أسفل بذقن عريضة ؛ وكلاهما له هذا الأنف الروماني العظيم والشارب الشركسي العزيز؛ ولا اختلاف بينهما إلا أنه أطول من الشاعر وأعظم امتلاء . وهذا يدل على أن السيدة — فيما لو صدق ظنه — لم تر الشاعر إلا في إحدى صوره التي تظهر أحيانا في المجلات والصحف

وأسفاه ! لقد ذاق حلاوة الفوز ومرارة الهزيمة في لحظة واحدة . فهل يتراجع ويرضى من الغنيمة بالإياب ؟ ولكن مثل هذا التردد لم يكن ليخالجه إلا لحظات قصيرة العمر لأنه كان — كما قلنا — يفقد رشاده في حضرة النساء ولا يفكر إلا في انتهاب اللذة واقتناص الفرصة ، فجلس مبتسما على ما به من خيبة مريرة مطمئنا كما ينبغي لشاعر مصر العظيم .

وقالت السيدة :

— سيدي الأستاذ ، إن معرفتي بك قديمة جداً لا كما تظن ، وإن أفضالك على زوجي لا تقدر بثمن ولا يحصيها عد . وطالما منيت نفسي بالتحدث إليك . وكم كان فرحي عظيما الليلة حين عثر بصري بك فلم أتردد في دعوتك . وإني أرجو يا سيدي أن تتفرغ لي لتطفل ...

فقال على افندي وقلبه يلتمس الشاعر :

— ما أسعدني بسطفك يا سيدتي ! إننا معشر الشعراء لنحرق أرواحنا في سبيل الخلود والشهرة . ومثل إعجابك يا سيدتي أثمن عندي من الخلود والشهرة

فتوردت وجنتا المرأة ورنت إليه ببيتين ناعستين وقرأت في عينيه ما حلها على تجنب حديث العواطف وإن كانت تضمر الرجوع إليه في المستقبل فقالت :

— هل أعجبتك الرواية ؟

الرواية التي صدعت رأسه وفر منها إلى النماس ! على أنه كان حكيما ، فلم يسارع إلى مصارحتها برأيه . ولم تنتظر السيدة جوابه فقالت بثقة :

— لا شك في أنك تعجب بها أيما إعجاب ، لأنها من تلك الفكاهة العالية التي كتبت عنها فصلاً رائعاً في كتابك الخالد « فلسفة الجمال » وقد كان هذا سبيلي إلى تذوق موليير وتوين وشو

فحمد الله أن لم يذكر رأيه الحقيقي وهز رأسه باسماً وقال باطمئنان عجيب :

« البخيل آية فنية رائعة ، وهي من الآيات التي لا تمنح كنوزها مرة واحدة، ولقد قرأتها مرة

2017-11-11

وأخرى . وهأنذا أشاهدها للمرة الثالثة، وفي كل مرة أفوز بحسن جديد

فابتسمت السيدة وقالت :

— إذاً أصاب ظني

فقال علي افندي :

— إنك يا سيدتي آية في الذكاء

ولم يأذن الوقت بالاسترسال في الأحاديث إذ دق الجرس معلنا انتهاء الاستراحة ، فانصرف علي افندي أن يستأذن في طلب الانصراف وقالت السيدة وهي تودعه :

— أرجو أن تشرف قصري بزيارتك

فقال وهو ينحني على يدها :

— لي عظيم الشرف يا سيدتي

— يوم الأربعاء الساعة السابعة مساء ... شارع نحاروبه رقم ١٠ بالزمالك

وتنهدت المرأة ارتياحاً وظنت أنها نالت أمنيّة من أعز أمانيها . وكانت مخلوقة سعيدة الحظ كأن الأقدار تتوخى راحتها، تزوجت من رجل من رجال مصر القانونيين المدودين فتمتعت برجولته وكفاها الموت شر شيخوخته وترك لها مالاً وجاهاً واسماً عظيما ، ولكن مايقها ظهور منافسة خطيرة لها هي أرملة الدكتور إبراهيم باشا رشدي ، يجري ذكر جمالها — مثلها — على الألسن وتتحدث بثرائها المتجسات وقد وضعتهما الصادفات في حي واحد وأغرت بينهما بالعداوة والبغضاء ، فكلتاهما تتمتع بأنوثة ناضجة وجمال فتان وثروة طائلة ، وتملك قصراً فخماً يتيه على قصور الأمراء ، وكانت كل منهما تعتز بنفسها وتود لو يتلب نورها نور الأخرى فتنافستا في اقتناء السيارات الثمينة والتحف النادرة والثياب الأنيقة وتسابقتا في ميدان الظهور تمرضان حسنهما وتثران حديثهما ، واتخذت كل منهما بطانة من كرائم الأسر والآنسات المثقفات ، وقد علمت حرم عاصم باشا يوماً بأن منافستها دعت إلى تأليف جمعية المرأة الحديثة فلم يرق لها جانب حتى كونت جمعية تعليم الأميات . وسمعت يوماً بأن الأخرى تبرعت بمبلغ كبير من المال مساهمة في إنشاء مدرسة كبيرة وأن الصحف أثنت عليها جميل الثناء ، فأمرت بتشييد جامع في عزبتها ودعت لالتقاط صوره مصور أكبر مجلة في مصر وطلبت إليه أن يثني على ورعها وتقواها ...

وكان آخر ما نمى إلى مسامعها من أخبار منافستها مالاكته الألسن من أن الموسيقار المعروف الأستاذ الشربيني قد شغف بها حباً ، وأنه لا يفتأ يتردد على قصرها. وأن الأغنية الدائعة «حبيت ياقلبي» التي يغنى بها المصريون جميعاً وتهفو إليها نفوسهم لحنت بوحي جمالها، وما علمت بهذه الأخبار حتى التهبت نفسها التهاباً . واحترق قلبها احتراقاً ، وتلفتت بغتة ويسرة تبحث عن عاشق « شهير » تصير بحبه حديثاً ممتعاً، وتغدو له وحياً ملهماً، فذكرت شاعر مصر محمد نور الدين ، فهو المصري الوحيد الذي له ما للشربيني من الشهرة والمكانة وهو أجدر الناس بتخليدها في قصيدة كما خلد الشربيني منافستها في الأغنية . وفي تلك الأثناء رأت الشاعر مصادفة في المسرح وكانت تفكر في وسيلة تصل بها إليه ، فهل كنا مغالين إذ قلنا إنها نالت أمنية من أعز أمانيها ..؟

أما علي أفندي جبر فقد رجع إلى مقعده ، وهو يلقي على الناظرين نظرة فاحصة خشية أن يكون

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-14

الشاعر الأصلي بين النظارة وقد ساءل نفسه : « ألا يجدر بي أن أفر ؟ » ولكنه لم يكن جاداً في سؤاله لأنه لم يعتد الفرار في ميدان النساء

ولم يأل جهداً في التأهب والاستعداد ليتقن تمثيل شخصيته الجديدة ، فطبع بطاقات باسم محمد نور الدين ورأى عن حكمة أن يلقي نظرة سطحية على مؤلفات الشاعر فذهب إلى مكتبة مصر وطلب مؤلفاته ، فسأله الكتبي :

— كلها ؟ فقال :

— نعم . فقال الرجل :

— الطلب غير ممكن الآن يا أستاذ لأن بعضها نفد والبعض غير موجود في المكتبة فاذا انتظرت إلى الغد ... »

ولكنه قاطعه متسائلا :

— ما الحاضر بين يديك ؟

فقال الرجل :

— دواوينه الأربعة . النور والظلام والجحيم والرحلة الروحية والسماء السابعة وكتاب فلسفة الجمال والرحلة الشرقية والجزء الثاني من كتاب الغد.

وهاله الأمر وأسقط في يده، ولم ير بدا من ابتياعها جميعاً . وكانت المرة الأولى في حياته التي يشتري فيها ديوان شعر لأنه بطبعه لا يحب الشعر ولا يهضمه ولا يجد منوعاً للقوافي التي تقيد معانيه، فلماذا لا يرسل الكلام على سجيته ؟ وإنه لينفث في آذان النساء غزلا يعتقد أنه أرق الكلام وأمتعه؛ ومع هذا لم يشعر مرة بالحاجة إلى تنسيقه في بيت من الشعر . ولم يقرأ من الشعر طوال حياته سوي المحفوظات المدرسية وهو كاره، فما كان يخطر له على بال أن يشتري ديواناً من الشعر فضلا عن أربعة دواوين كاملة ، ولكن قدر فكان

وقد قال لنفسه متبرما وهو يحملها إلى بيته : « أعقل أن يكافئني الحب مالا أو مطاردة خطرة أو سيرا طويلا أو شجارا عنيفا، أما الذي لا أعقله فهو أن يتفانى قراءة هذه الكتب! فهل أنا عاشق أم تلميذ ؟ » وأخذ يقلب صفحات الكتب فنفس بالشعر كما توقع ولم يفقه له معنى، ولو كان يسيرا مثل « إذا نام عمر في دجى الليل فاسهر » لهان الأمر ولكنه كان من نوع عجيب سهل الألفاظ منغلق المعاني

وهذا غزل نور الدين فما بالك بالأغراض الأخرى التي يجفل قلبه من مجرد تلاوة عناوينها ؟ والأدهى من هذا وذاك أن نثره ليس بخير من شعره فقد قرأ صفحات في كتاب فلسفة الجمال ما كان يظن أن إنسانا عاقلا ينشرها على الملأ . وضاق صدره بنور الدين شعره ونثره ، فرمى بالكتب جميعا ولكنه قال باصرار وعناد « سأذهب يوم الأربعاء »

وفي الموعد المسمى ذهب إلى قصر السيدة الجليلة بشارع نخارويه، وكان بادي الوجاهة والأناقة، وأرسل بطاقته إلى ربة القصر، فقاده الخادم إلى (صالون) رائع لم ير أجمل منه على كثرة ما غشي من (الصالونات) الفخمة، ولكنه لم يدهش لأن منظر الحديقة والقصر الخارجي سلبه كل دهشة. وكان يكره الانتظار لأن أمثاله من المناضرين تواتيهم النجدة بداهة وارتجالا وتشحذ أسلحتهم في أثناء المعمعة ؛ مثله في ذلك مثل الخطيب المطبوع الذي يلهمه الجمهور المعاني فيتدفق؛ ولذلك أحس بارتياح عجيب حين رآها تشرق عليه من باب الصالون في ثوب أبيض غير كتوم يعلن عن جمال كل ثنية من ثنيات جسمها الفتن ، ويبين خاصة عن الخصر الدقيق الذي يتعلق به كفلاها الثقيلان ، فطرد بقوة إرادته بقية قلق عالقة بنفسه

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-11

وانحنى باحترام ، فأعطته يدها فضغط عليها بحنو ثم قال وهما يجلسان :

— لقد حسبت الأيام ساعة فساعة

فابتسمت السيدة وقالت بلهجة لم تخل من عتاب :

— هذا معنى مبتذل لا قرابة بينه وبين معانيك الشعرية الخالدة !

فاحتدم النبيظ فى قلبه ولمن الشعر والشاعر وتذكر قراءته لبعض المعانى (الخالدة) التى لم يفقه لها معنى وعجب كيف تؤثرها هذه السيدة العجيبة على عبارته البسيطة التى طالما نصبت الشراك وعثرت الحصون ، وأراد أن يلتمس لعجزه عن خلق المعانى « الخالدة » عذرا فلسفيا فقال :

— معذرة ياسيدتى ، إنى إذا غشينى لألاء الحسن السامى تركت نفسى على فطرتها وهجرت إلى حين المعانى التى يبدعها التفكير والتكلف

فاتسعت عينا السيدة الجميلتان دهشة وقالت بإنكار :

— يا عجباً ! أأنت القائل يا أستاذ فى مقدمة ديوانك إن شعرك شعر الفطرة والطبع ؟ أو لست الآخذ على شعراء المدرسة القديمة تكلفهم ؟

فأسقط فى يده ووجد أن الحذر لم ينفعه وخشى أن يفقد ثقته بنفسه فقال بلهجة العالم الذى يملى ما يقول :

— إن الشعر ياسيدتى مزيج من الفطرة والتفكير ، والتفكير غير التكلف ، وما أردت قوله هو أن الشاعر فى حضرة الحسن يستبد به الشعور الخالص ...

وأشفق من أن تسأله مثلا عن الفرق بين التفكير والتكلف أو عن معنى الشعور الخالص ولكن السيدة قالت بإعجاب :

— صدقت يا أستاذ ، ولعل هذا يفسر قولك إن الشعر لا يعبر عن عاطفة إلا بعد أن تسكت ثورتها ويهدأ انفعالها

فهز رأسه مبتسما وقال وهو يتنهد ارتياحا :

— وهو الحق المبين ياسيدتى . أرى أن رأسك متوج بتاجى الحسن والأدب

فتورد خدا المرأة وقالت بحماس :

— إنى واحدة من قرائك المعجبين ... وقد قرأت مؤلفاتك جميعاً بامعان وشغف

فقال :

— أين لى بقراء مثلك يا سيدتى العزيزة ... ؟ إن هذا البلد لا يقدر الكاتبين

— هذا حق وا أسفاه على وجه العموم ولكن يقال إن لك جمهورا تحسد عليه يا سيدى الأستاذ ؟

فأشار بيده إشارة تدل على الأسف وقال :

— لو أتيح لى أن أكتب باللغة الانجليزية مثلا !

فسألته السيدة بقلق :

— أو ليس لك الجمهور الذى تحسد عليه ؟

فقال باطمئنان :

— جمهور قرائى يربو على ضعف جمهور أى كاتب آخر فى الشرق الاسلامى

— يا لها من مكانة سامية !

فهز رأسه آسفاً وقال :

— لقد دفعت شبابى وقوتى ثمناً لها

— أ آسف أنت على هذا ؟

— لا أدرى

— لقد خلدت شبابك فى آثارك الباقية

— أيهما أفضل أن يخلد شبابى كى يتمتع به غيرى أم يفنى وأتمتع به وحدى ؟

— لا تناقض بين الاثنين فانك تستطيع أن

2017-11-1

تستهلكه فى متعتك ثم تخلده فى شعرك ، أتسألنى وأنت أستاذى ؟

— هذه سعادة لا تتاح لغير المجدودين

— وإنك لمن المجدودين

فنظر إليها نظرة لو تحولت إلى كلمة لوقع قائلها تحت طائلة قانون العقوبات ، وكان يجيد هذه اللغة ثم قال بخبث :

— إنك ياسيدتي تتحدثين عن حظي كما لو كان مصيره بين يديك

فتخضب وجهها باحمرار طبيعى غلب أحمرها الصناعى الخفيف؛ وما كانت تكره أن يكون مصير سعادته بين يديها ولكنها ادخرت هذا الحديث إلى وقت آخر ففترت عيراه وقالت فجأة :

— ينبغى أن أنتهز فرصة وجودك معى لأسألك عن معنى بعض الأبيات الشعرية التى أغلق على فهمها

فخفق قلبه خفقة شديدة أيقظته من غيبوبة النرام وذعر ذعراً شديداً ، إذ أنى له بشرح معانى شعر نوز الدين المنغلقة وهو الذى لايفهم أيسر الشعر وأسلسه ؟ وخشى إن تردد أن يخسر كل شىء بعد أن أوفى على الفوز فقال بقوة :

— اعفينى يا سيدتى

فسألته دهشة :

— وله ؟ هل يبرم الشاعر بشعره أحياناً ؟

— ليس الأمر كذلك ، ولكن قد يسمو الشاعر حيناً على شعره فيخاله بعض مظاهر العالم المادى ، وإنى الآن فى نشوة روحية من تلك النشوات التى تخلق الشعر فكيف أنزل إلى الشرح والتفسير ؟

فتمرتها موجة فرح وسعادة ، وسادت نفسها قائلة : ترى هل أكون غداً بطلة قصيدة رائعة خالدة ؟ ثم سألته فى لهفة :

— أحقاً ما تقول يا سيدى ؟

— كيف يداخلك شك فى هذا ؟ والله إذا لم تخلق هذه الساعة شعراً فلا خلق الشعر أبداً

فامتلأ قلب المرأة فرحاً ومنت نفسها بأسعد الأمانى .

وفى تلك اللحظة دخلت الخادمة تعلن قدوم زائرات . ولم تفاجأ السيدة — كما فوجئ الأستاذ بقدومهن ، كأنها كانت على موعد معهن وأمرت الخادمة بإدخالهن . وبعد لحظة قصيرة دخل ثلاث آنسات حسان يحتار ماء الشباب فى وجوههن ؛ وتلقتهن السيدة بترحيب وقدمت إليهن الشاعر بلهجة فخار قائلة :

— الأستاذ محمد نور الدين سيد شعراء الشرق

وقدمتهن إليه واحدة واحدة قائلة إنهن أعضاء جمعية تعليم الأميات التى تتشرف برياستها ثم قالت :

— إنهن أديبات مثقفات ولكن واأسفا ، فان ثقافتهن قاصرة على الأدب الفرنسى الذى يتعشقنه إلى درجة أن جعلن الفرنسية لغة حوارهن . وإنى أرجو أن يكون تعرفك بهن ياسيدي سبباً لتوجيههن إلى الثقافة العربية المصرية

فعجب على أفندى الدلك وتساءل دهشاً : ترى هل يعلمن الفلاحات الأميات مبادئ اللغة الفرنسية؟!

واستطردت السيدة تقول للآنسات :

— ستجدن فى صديقى الشاعر محدثاً جليلا . ولكنى ما لهذا دعوتكن الليلة، فقد حجزت البنوار الأول فى مسرح رمسيس لنشاهد معاً رواية البخيل، ولا بأس أن يشاهدها الأستاذ للمرة الرابعة إكراماً لى

والحقيقة أن السيدة ما قصدت بدعوتهن إلا أن

2017-11-11

تذيع بينهن نبأ صداقتها للشاعر لكي يذعنها بدورهن في (الصالونات) الراقية فيتصل خبرها حتماً بملهم منافستها الخطيرة، وما ذهابها بهن إلى مسرح رمسيس إلا لهذا الغرض نفسه

وقد تضايق على افندى من حضور الزائرات وتضايق أكثر من دعوته إلى المسرح، وكان يرجو أن تطول خلوته بها، ولكنه كان يبالغ فى التشاؤم ولا يدري بالسعادة التى تخبئها له الأقدار، ففى الاستراحة انتهزت السيدة فرصة خروج الآنسات من البنوار وقالت له فى خفر: «ستعود معى إلى القصر» ولم يكن للدعوة إلا معنى واحد، فتساءل على افندى ترى كيف يتخلص من الآنسات، ولكن السيدة لم تمهل لذلك حساباً، فعند انتهاء التمثيل عادت السيارة بهم جميعاً وودعها الفتيات عند مبتدأ شارع محاوريه، ثم سارت بهما السيارة وحدهما إلى القصر السعيد، فأيقن أنه رغم طول تجاربه جاهل بالنساء، وأنه لم يعرف قبل الآن امرأة متمرسة بالفضائح!

وكانت ليلة ...

وبعد يومين ذهب على افندى جيرٍ إلى زيارة المرض الرابع عشر للفنون الجميلة، ولم يكن من الهواة ولكنه كان من محبى الظهور والادعاء، وكان حبه للنساء يدفعه إلى ارتياد الأماكن التى يحتمل وجود من بهاء فمضى يسير فى الحجرات الأنيقة وينظر بعينين فاترتين إلى اللوحات المعلقة، حتى استرعت انتباهه من بينها صورة فلاحة عارية تستحم فى النيل وقد أجادت الريشة تصوير قدها النحيف وثديها الناهدين وأضفت على سمرة بشرتها سحراً شهوياً عجيباً، فوقف أمامها طويلا لغير وجه الفن وذكر — لرؤيتها — ذلك الجسد البض المكتنز والردفين المكورين كأنهما إسفنجة هائلة مشبعة بالماء، والساقين المكورتين والبشرة العاجية ذات الرائحة الزكية ذكر ذلك الحسن الفتان الذى رمى به الحظ بين يديه قضاء وقدرا ... أى ليلة جميلة! كأنها حلم لذيذ لا يجود بمثله عالم الحقائق. وكأنه أراد أن يتأكد أنه حقيقة لا حلم فأخرج مذكرته وقرأ فيها الموعد المنتظر الذى كتبته بيدها الرخصة ...

كأن السادنة لم تقنع بما أتت من عجب عجاب، فانه لفى تأمله وتذكره إذ أحس بيد توضع على كتفه فالتفت إلى الوراء فرأى صاحبته الجميلة واقفة بين جماعة من السيدات الارستقراطيات، واستولت عليه الدهشة والارتباك، أما السيدة فالتفتت إلى صاحباتها وقالت بتيه:

— إأذن لى أن أقدم إليكن صديقى الأستاذ محمد نور الدين سيد شعراء الشرق

— فابتسمن له بترحيب إلا واحدة رددت النظر بينه وبين الأرملة وقالت، ضاحكة:

— يالها من نكتة بارعة ياسيدتى!

— فسألتها السيدة:

— أى نكتة تعنين ياسيدتى؟

— فلم تحفل السيدة بانكار الأرملة الجميلة وقالت وهى تحدج على افندى بنظرة استغراب

— رحماك يارب ... الآن صدقت قول القائل «يخلق من الشبه أربعين»

فاحتدمت الأرملة غيظا وقالت:

— إنى لا أفقه لما تقولين معنى

— بل تفقهين كل المعنى وتريدين أن تضاحكينا. والحق أن الشبه الذى بين شاعرنا المجيد وبين حضرة البك شبه عجيب ...

فاشتد التيظ بالأرملة والتفتت إلى على افندى وقالت:

— تكلم يا أستاذ لتعلم عصمتها أنى أجد لا أهزل

وكان على فى حالة ارتباك يرثى لها وقد خانته جسارته تلقاء نظرات السيدة الجريئة التى لاشك تعرف الشاعر الأصلى تمام المعرفة فلم يجد مناصا من الهرب فتظاهر بالدهشة وابتسم إلى الأرملة الباسمة وقال :

— معذرة ياسيدتى ... يخيل من الشبه أربعين

— وكان يتكلم بلهجة جدية لا تترك أثرا لشك فى نفس السامع، فجحظت عينا السيدة دهشة وانزعاجا، وعلا ضحك صاحباتها وتأملته بإمعان وهى تكاد تجن من الدهشة وسألته :

— ألست أنت الشاعر ؟ فأجاب بهدوء :

— كلا ياسيدتى . أنا موظف بوزارة الزراعة

— ألم تقابلنى قبل الآن ؟

— لم يحصل لى هذا الشرف ياسيدتى

— قال على افندى ذلك وأحنى رأسه تحية وذهب تاركا السيدة لصديقاتها الضاحكات ، وقالت السيدة الأخرى :

— إنى أعجب كيف يخدعك البصر إلى هذا الحد ! ألا ترين أنى فطنت إلى الحقيقة من النظرة الأولى ؟ فقالت الأرملة الداهية تداوى خجلها :

— ما أعجب الشبه بينهما !

فقالت الأخرى :

— ولكن شتان ما بين قامتيهما

وقالت أخرى ساخرة :

— سينضب « صديقك » الشاعر حين يعلم بهذا الخطأ الغريب !

وغادر على افندى المعرض مضطربا . ولما تنسم الهواء الطلق انفجر ضاحكا حتى دمعت عيناه. على أن الموقف لم يكن يخلو من دواعى الأسف ما دام قد خسر الموعد المنتظر ، وكان يعزى نفسه بأكثر من ليلة واحدة ...

نجيب محفوظ

شركة مصر للملاحة البحرية

تمهد لكم السبيل إلى بيت الله الحرام

بباخرتيها الفاخرتين

زمزم و روض الفرج

وفادقها فى

السويس — جدة — مكة المكرمة

وبنك مصر يقدم لكم جميع الخدمات ويستبدل العملة ويحاسب الملوفين ويدفع الرسوم والمصاريف

استعلموا من

شركة مصر للملاحة البحرية وفروعها بنك مصر وفروعه شركة مصر للسياحة وفروعها

مصرع البخيل

للكاتب الانجليزي سير آرثر كونان دويل

يقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

روى دكتور وطسن مسجل أخبار شرلوك هولز ومناصراته قال :

في هذه الليلة من أخريات الليالي في شهر ديسمبر سنة — ١٩ كان هولز منشرح الصدر قرير العين ، كعادته كلما دنا عيد الميلاد . كان لا يحب الديكة الحنيذة ولا يميل إلى حلوى البودنج ، وهما اللونان اللذان شغف بهما كل انجليزي تحت السماء ، ولكنه كان شديد الاكتراث باعداد وجبة العيد ، ويكثر من الاستعداد لمشاء أمسية عيد الميلاد ، ويحتفي بها ويحتفل أيما احتفاء واحتفال . فكانت مسز تيرنر منهمكة في تسوية الديك ، وتدخين لحم الخنزير ، وخلط الأفاويه والازار مع الزبيب والبندق والجوز واللوز ... وكان هولز يفرك يديه ، ويدخن غليونه الأبدي . وكان دأبه أن يبدأ الحديث بنفسه ، ولا يبيح لأحد أن يبتدئه أثناء صمته . فقال :

— أظنك بعد قرانك السعيد الذي كان ثمرة لمغامرة الكنز الدفين لم تشغل نفسك بالحب ... ؟

فابتسمت وقلت : الحب ... ؟ لا أظن ... أتريد حب الزوجة يا مستر هولز ؟

فضحك وقال : أقصد إلى الهوى الذي يتفرع منه العشق ، الذي يصفه ما كس بيرتون في قصصه كما وصفته شارلوت برونته وجورج أليوت ... العشق الذي يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كمداً على فراشه

فتجاسرت على مستر هولز ممازحاً وقلت : إنني رجل متزوج ولكنك يا مستر هولز رجل أعزب فهل ... ؟

فقال هولز رقد أبرقت عيناه بريقاً عجيباً : ليس الحب من طبيعتي . الشفقة نعم . الرحمة نعم . حب الانسانية أي نعم . أما الحب الذي تلمع إليه فلا ، ثم لا ، ثم لا ، لأنه قرين بادخال الضيم على المروءة واستشعار الذلة لمن أطاف بالشيقة كأهلها وذويها

فقلت : ولكن المناقب التي ذكرتها كالرحمة والرقة تنشب كلها من أصل الحب .

فقال : صحيح ، ولكن ... ثم تناول جريدة التيمس وناولني إياها ، وقد أشار بعلامة على نبذة قصيرة هذا نصها : « وقد اشتغل مستر هولز في تحقيق هذه القضية فأغرب فيها على عادته وافترض فيها افتراضاً بعيد الموافقة للواقع ، فقوت على رجال البوليس الرسميين فرصة القبض على المتهمين الذين لا شك قد اتخذوا سبيلهم في البحر عجباً ، فاستقلوا باخرة كبرى تمخر الآن عباب المحيط في طريقها إلى نيويورك ، ولا يزال مستر هولز يعزز أخيلته بألفاظه البطيئة ودخان شيشه في إحدى الشرف الموطأة في مسكنه القاصي بپيكر ستريت » . فناظنني هذه النبذة المسممة وقلت :

— لا تبتئس يا مستر هولز ولا تحزن ، فان الدنيا لا تخلو من حاسد باغ ، ومن قائل متكلف ، ومن سامع طاغ ، ومن منافس مقصر

2017-11-11

فضحك حتى بانت نواجذه وتجلت أسارير وجهه وبدا لونه كالعاج وقال :

— كما أنها لا تخلو من ذى سلامة فى المنطق وصحة فى النظر وصدق فى القصد، ومن رجل شديد المحاماة عن حقوق الضعفاء ، والمطالب بدماء القتلى قليل التسرع إلى أعراض العاملين . فلندع أبطال سكوتلاندياردى عنهم . ولكن قل لى : هل لاحظت أثناء زيارتك الأخيرة حديقة الحيوان كيف أن مُنْشِ طفل النورويلا بدأ يدق صدره بإحدى يديه على طريقة يتبعها كل أبناء جنسه حين تشرف على سن المراهقة ؟ فقلت له : نعم . . .

قال : لقد بدأ دور الدق على الصدر منذ ثلاثة أشهر ، أما الآن فهو يدق دقاً منظماً بكلتا راحتيه ونحن واثقون أنه اتبع غريزته وأصغى إلى صوت وراثته ، فلم يعلمه أحد ولم يلقنه أحد من الانسان أو الحيوان تلك الوسيلة التى تنم عن مراهقته واستكمال ذكورته . إن دق الصدر علامة على الاهتياج بأنواعه ، عند بعض طوائف البشر وبعض فصائل الحيوان ، هكذا فعلت أنثى النورويلا مونيا وذكرها موك . ولكن مونيا كانت أشد حذراً من موك ، لأنها كانت تتقى أن تؤذى ثديها ، فهى لا تنسى فى فورة الهيجان ضرورة الحرص على بدنها . والذكر يلطم خديه لا براحة مبسوطة بل بقبضة اليد مجتمعة. أما موك ومونيا ومنج فقد لطمت وجناتها ودقت صدورها براحة مبسوطة . وإن لذلك لصوتاً رهيباً فى الحديقة ، فما بالك به وسط الثاب فى هدوء الضحى أو سكون الليل

وكنت على شدة إعجابى بحديث هولمز فى كل وقت وانشراح خاطرى بهدوء باله ، قد بدأت أمل حديث القردة ، وملاحظة لطمها ودقها صدرها ونسيبها واغتلامها حتى كدت أقاطعه . . . فلم أتمكن من ذلك قبل أن قال : ألا تعلم أن جاكين رضيعة الشمبانزى تُنشأ الآن ومنج فى قفص واحد . فسوف نرى ما تكسب منه غداً . . .

فى تلك اللحظة أنقذت مسز تيرنر موقفى بدخولها وقالت :

إن سيداً بالباب يطلب لقاء مستر هولمز

فقطب هولمز جبينه وقال : فى عيد الميلاد ، عند سماع الأجراس العذبة ، أجراس العيد ، طارق يريد لقائى ؟!

فقالت مسز تيرنر وكانت روح الدعابة قد اخترمتها بعد طول المباشرة والمعيشة فى حاشية هولمز المرح :

— فى الحق وبالصدق ، إنه يشبه سانتا كلوز ، فلعله يحمل إليك هدية . . . ولكن شيئاً واحداً يزعجنى بشأنه ، أحب أن ألفت إليه نظر السيدين (تقصد إلى هولمز وإلىّ) إنه لا ينفك يدق صدره بقبضة يده ، ويلطم خده براحة كفه على طريقة مدهشة ، لم يسبق أن رأيتها لأحد من الناس . ربما بعض الزنوج فى مرض كوفت جاردن أو كريستال بلاس . أما الناس . . .

فدهشت ونقضت غزلى وغضضت بصرى ولم أجرؤ أن أحدق فى وجه ذلك الرجل العجيب الذى يكاد يطلع على الغيب ، ولكنى لم أشأ أن أفاجه بسؤال لأشفى غليل استطلاعى . . . بيد أنه أذن للرجل أن يدخل علينا، ليرى ما شأنه، فاستأذن على خلوتنا رجل ملتف اللحية كث العارضين ، منخلع الأسنان ، مغضن الوجه . وجلس فى المكان الذى أشار إليه هولمز ؛ ومالبث الرجل أن

2017-11-11

رفع حاجبيه الغزيرين فانطويا على جبين تكاثرت غضونه حتى لكأنها أسطر قاتمة فى صفحة من سحر القدماء ، ثم أخذ يلهث ويقطع الألفاظ ويسرد حديثاً لم تستبن معانيه لنموض تراكيبه فقال له هولز : كفّ عليك أيها الشيخ وحاول استرجاع هدوئك ما أمكنك ، فلا تحل قضية بعجلة وإنى ألح فيك الرجل الحليم والشيخ الركين . فما هذا الحزن الذى تقلك إلى طبع الصبيان والنساء وإلى أفعال المجانين ، تكاد بعد دق صدرك ولطم خديك تشق جيبك وتنفش جبونك وتبكى كما يبكى الحدث الغرير وتندب كالنوائح

فقال الرجل : وادى ! وادى الوحيد أيها الرجل المتفقد، زين الشباب لم تقع العين على أحسن منه وأعقل

فقال هولز : إنك بلاريب من مقاطعة كشمير فذ أى عهد استوطنت هذه البلاد ؟

قال الرجل : انى نزحت من الهند منذ ثلاثين عاماً وكان ابنى رضيعاً ، فنما وترعرع تحت سمائكم وأثرى لحسابه غير قانع بما ربحت من مال ، ولم يكن سفيهاً ولا مبذراً ، وكان مقتصداً لا أنكر ذلك ، حتى أنه لو طلب إليه مال ولو فى مصلحة واجبة الأداء كدفع الضريبة أو سداد دين مستحق تربد وجهه وطار الغضب فى دماغه ، فيمنع ويعصى ويأبى. ولي أخت فقيرة معسرة ، تبعتنا بولدها ، لأنها ترملت ولم يطب لها العيش فى ظلال الفاقة، وأحد ولديها وهو يصغر ابني نشأ فى فقر مدقع فشغل عن التعليم بالجوع ، وطمع فى مالنا عن خساسة، فكنا نبره ونرفده حيناً وتعتمه ونحرمه أحياناً . وكان عطائى إياه أكثر ما يحنق ابنى شاهين لال . ولم يزل معذباً أياماً حتى ينسى المال القليل الذى فرجت به كرب ابن عمته

ومنذ أسبوعين غادر ابنى بيت الأسرة إلى قرية دربهام ليجمع مالا من ثمار ضيعة لنا فيها أثمار الشليك التى تطبخ وتجعل مربى فى أعقاب من الزجاج . وكانت آخر مرة رؤى فيها ، وهو فى سيارة مأجورة نقلته من محطة ديكورث جنكسن فى طريقه إلى تلك القرية . ثم لم نقف له على أثر

فهمهم هولز : اختفاء غريب حقاً ! فهل أبلغت خبر اختفائه للشرطة ؟

فقال الهندى : أنا جوهر شاه لال أشهد أنى لم أر قط شرطة أغرب وأعجب من شرطة هذه البلاد . فساعتهم يوم وبوسهم بشهر وشهرهم بعام . وإن روح الدعابة فيهم لأقوى من موهبة الذكاء . والسخرية من المنكوبين أمثالى أنكى من عاطفة الواجب . وقد أصبح أداء الأعمال لديهم نوعاً من حركة الآلات التى لا تشعر ولا تحس

فقال هولز باسماً : على رسلك أيها الرجل الموتور إنك لا تزال من رعايا التاج والطاعة عليك واجبة فى حق السلطة التنفيذية ، التى لولا قوتها ما استطعت أن تعيش فى هذه البلاد آمناً فى سربك مطمئناً على مالك وحياتك

فقال الهندى : أى أمن هذا ؟ كان أهون علىّ أن أموت وأدفن أو أحرق بديلاً من وادي الوحيد. لقد قلت هذا القول نفسه للفتش جريفين ، فلم يهتز ولم يثر . ولما ذكرت له اسمك بعد يأسى من معونته وامتعاضى من طرائق عمله قال لى : عليك به . عليك بستر هولز إنه خير من يجلو غموض هذه القضية ويحل عقدتها . وليس لك عمل عندنا ، فقد استنفدنا وسائل البحث حتى البركة الآسنة نزحنا ماءها ، والقصر العتيق أقلبناه رأساً على عقب وكدنا نهدم

2017-11-11

جدرانه ، ثم أعرض عنى . وما هالنى إلا نبذة قارصة قرأتها فى جريدة هذا النهار ، تسلقك بألسنة حداد فهرولت إليك

فقال هولمز : وهذا أيضاً لا يبرر نقدك ، فقد أسدى مؤلاء الرجال الأفاضل للعدل خدمات لا تنسى ولا تقدر . ولكن أمهر الرماة وأحذقهم وأصوبهم قد يخطئ الهدف مرة أو مرتين فلا تكون خيبته سبباً فى نسيان إصابته مرات . أنت تتجر فى السجاد واللؤلؤ والأفاويه ؟

— نعم . من قال لك ذلك ؟

— لا تجعل لهذه الظنون شأناً

— ولكنها حقائق لا ظنون فقد ورثت تجارة السجاد الفارسى عن والدى . وهويت تجارة اللؤلؤ هواية عشقتها تقليداً لصديق صاحبها نرمرو؛ أما الأفاويه فيبث بها إلىَّ واحد من ذوى القربى يقيم منذ ثلاثين عاماً فى بطاوى عاصمة جاوه . فقلت للمستر جريفن إنك تقفنى هذا الموقف وتحملنى على هذا المركب ثم تخذلنى هذا الخذلان وتنشبنى مثل هذا الدل ، ولو حيرة الخوف من العقاب . إننى أنزل عن نصف مالى بل كله لو أنك رددت إلى والدى

فقال لى المفتش : أشروع فى رشوة أيها الأجنبى ؟ فقلت : لست وحقك أجنبياً ولا غريباً .

فقال هولمز : دعنا من حديث هذا المفتش جريفن لأنه من أصدقائى الأعزة ويؤلمنى أن تسىء بيننا ، فطالما أسدى إلىَّ خدمة جلى . وقل لى ما مقدار تلك الأروقة التى تنيه بها وتبذلها لنجاة ولدك فصمت الرجل وتنهد وتلفت يميناً وشمالاً كمادة أهل الشرق فى الحذر ونظر إلى نظرة مريبة . ثم قال : إن قلت مائة ألف جنيه أكون كاذباً ، أو مائتين أكون مقصراً . فسأل هولمز إنك تحمل ميزان رصيدك فى أحد جيوبك . أتملك نصف مليون بإسترلاك ؟ فتنهد الهندى وتلفت وقال : قد . قد يكون هذا الرقم قريباً من الحقيقة

فقال هولمز : فإذا مت من غير عقب ؟

فانتفض الرجل وقال : حاشا لكالى وفشنو وكريشنا أن تسح كهاتك . قال هولمز : لا عليك؛ فلا تتطير من سؤالى ، بل أجبنى ! إن مت من غير عقب ، فمن يرث مالك ؟

فبكى الرجل حتى بلل لحيته وقال : ترثنى تلك المسينة العوراء أختى شاه جيهان كربو

فقال هولمز : ولا أحد سواها

فقال الرجل : زوجتى تحرم وتحرق وتكب على مناخرها فى النار ولا تنال روبية واحدة . فقال هولمز : تفضل بادكتور رطسن وناولى هذا المجلد الأحمر البالى على الرف الثالث فى الصوان الخامس من اليسار وهو باسفل المطبوعة التاسعة من دائرة المعارف ج ٢٤ حرف ميم ونون . فلما ناولته المجلد المعهود فتحه وقرأ بعض نصوصه وقال :

أية شريعة للوارث هذه ؟ تكلم يا رطسن ، إن للمرأة فى الشرق مكانة سامية وإن كانت تحرق بعد وفاة بعلها ، فهلا كها قرين ترملها . ومما يدل على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالآلهة التى لا شىء أعظم منها ، ويلتمس إلى أقدس هياكل ، وبصدقة ماله فيسهل ذلك عليه ولا يأنف منه ، فان استحلف بالطلاق يغضب ، ويرفض ، وإن كان الحلف قاضياً جليلاً أو أميراً مهيباً أو حاكماً مطلقاً ، ولم يكن الرجل يحبها ، وكانت نفسها قبيحة المنظر قليلة النسب . ولكن هذه

2017-11-11

المرأة السكينة تفقد وجودها وكرامتها يوم يموت بعلها ويلقى بها من حالق ، وعلى ذكر النساء يا وطسن أتعلم أنى فكرت كثيراً فى الأخوات الثلاث من أسرة برونطه شارلوت وامبلى وآن[1] ولست أدرى إلى الآن أيهن أذكى وأقصى قلباً وأكثر تحملا للآلام ، فظهرت علائم القلق على الهندى وتململ فى مقعده ، ولكن هولز لم يلتفت إليه ولعله كان مكتفياً بدرسه عن كثب . ثم قال لى :

— أتعلم أن فى قصة (جان بار) التى دبجتها براعة شارلوت — حديث المرأة التى تصدق أحلامها ، فانا رأيت فيها يري النائم شيئاً ، فلا بد أن يقع على الحالة التى رأتها ، كأنها تطلع على الغيب ؟ وتعلم سلفاً حوادث الأيام ، فلو كانت هذه الرائية على قيد الحياة لكشفت لنا القناع عن كثير من الجرائم . .

فابتسمت وقلت : لعلك تأثرت يا مستر هولز بأعمال تلك الجمجمة التى يبحث أعضاؤها العلماء فى أسرار الروح والنفس على طريقة تتير الخواطر .

فقال هولز : إن عقلى كالخزانة المفتوحة تتلقى كل ما تستودعه من الصور والآراء . ثم حول وجهه فجأة نحو الهندى وقال له : وابن أختك هذا البائس المنبوذ أما زال ؟

قال الهندى : نعم ما زال مدقعاً محروماً منحوس الحظ ممنوعاً

قال هولز : أتراه يعشق فتاة من بنات جنسه أو خريدة أخرى من الجنس الأبيض ؟

قال الهندى : إنه منهتك فى حب النساء من سائر الأجناس يعشقهن ويتبذله فى هوامن ، بقدر ما يبتغضه الرزق .

(١) حنه أو حنينة

قال هولز : وهل يزور تلك الضيعة التى تؤوى أكلها من الأنحار ، أو له بها سكن ؟

قال الهندى : كان يختلف إليها إذ كان وولدى صبيين يلهوان معاً ويلعبان بالأكر والصوالج . وفرق بينهما الفقر . وقد حاول استدراج ولدى ، وقد عثرت مرة على ورقة مكتوبة بالهندستانى فيها هذه الكلمات : «ابن خالى العزيز ، لقد تأملت شأن الدنيا فوجدت أكبر نعيمها وأكمل لذاتها ظفر المحب بمحبيه العاشق بطليه ووجدت شقوة الطالب المكدى وغمه ، فى وزن سعادة الطالب الناجح وسروره ، ووجدت العشق كلما كان أرسخ وصاحبه به أكلف فان موقع لذة الظفر منه أرسخ وسروره بذلك أبهج .

ووجدتك قد ضربت بالعشق عرض الحائط فكنت البخل من نفسك . وعشقت الرزق وجمع المال ، حتى أبغضت كل شئ . وليس المال بامرأة ولا يعشق إلا النساء ، ورأيت حبهن من أكبر أسباب اجتماع الخير . وها أنت ذا قد امتحنت جمع المال ثلاثين عاماً ، فهلا جربت حب النساء شهراً واحداً ؟ »

وقد لاحظ هولز غرابة هذا الخطاب ، فعبس ثم ابتسم وقال أخيراً للهندى :

— وأين ان أختك الآن ؟ وهل شغلته الشعوذة أو السحر يوماً ؟

وإننا لكذلك وإذا بالهندى المتهدم يقفز من مقعده ويدق على صدره بيديه كمن مسه الجن . ثم أخذ يعول وينوح ويقول :

— أتؤمن بالسحر يا مستر هولز ؟ أتؤمن بالأحلام التى يراها النائم فيما يري ؟

فحاولت أن أبادل هولز النظرات ، ولكنه لم

يسبأ بي وركز عينيه اللامعتين فى وجه الرجل ، ثم قال ببطء :

— السحر ... لا . أما الأحلام فنعم . ولكن مادخل حديث السحر والرؤى فى استخفاء ولدك ؟

فقال المندى : اسمع يا مستر هولز ... إنك رجل عجيب . الآن فقط تذكرت ، ويرجع الفضل إليك فيما ذكرته

فقال هولز : وكيف ذلك ؟

— لقد رأيت أمس فى الحلم ولدى يختال فى ثياب جديدة من حرير الشرق وعلى رأسه عمامة ، أى نعم عمامة ، وفى قدميه حذاء أصفر تعود أن ينتعله ؛ وكان صبوح الوجه مشرقه . فلما دنوت منه لأقبله ، لأننى فى الرؤيا كنت عالماً أنه مستخف وأننى أبحث عنه وأخشى عليه الخطر ، فأعرض عنى وقال :

— كيف تتركنى هكذا ؟ أنهجر دى ؟ ألا تبحث عنى ؟ ألاتبذل جهدك ؟ . فبكيت ، فقال لى : ألا تعرف قاتلى ؟ ألا تعرف غريمك الذى اغتالنى ؟

فقلت : لا . قل لى من هو ؟

فقال : هو الرجل الذى تلقاه عصر هذا النهار هابطاً من سركبة الكهرباء فى محطة باسكرفيل ... ثم غاب شبح ولدي بالسرعة التى ظهر بها

فلم يبد على وجه هولز أى اهتمام ، ولكنه سأله فى هدوء :

— وهل صدقت هذا النذير وقصدت إلى موعد اللقاء ؟ أجاب : نعم

هولز — فمن رأيت ؟

المندى — رأيت ... آه ... إنى أختنق ... رأيت ابن أختى السوداء

فانفرجت أسارير هولز ، وكأنه أفاق من غشية ثم استدرك قائلا :

— هذه أمنياتك أحلام . إذا أتتك الرؤى بنبأ فتبينه قبل أن تتهم شخصاً قد يكون بريئاً

فقال المندى : الأمر لك يا مستر هولز ... ولكن هل تخدعنا الأرواح إلى هذا الحد ؟

فقال هولز : لا رأي لى فى هذا . وإن كانت روح والد هملت لم تخدعه قط ... ونحك ... عليك الآن أن تذهب إلى عملك ودارك وأن توافينى فى الساعة الرابعة بعد الظهر فى محطة باسكرفيل ، لتدلنى على المكان الذى لقيت فيه ابن أختك

فقال المندى : مستر هولز ... مستر هولز نسيت شيئاً . لقد أعرضت فى أول الأمر عن محادثة ذلك الولد ابن أختى السوداء المترملة ، قائلاً بينى وبين نفسى : أيبقى الطالح ويذهب الصالح ؟ ما نفع هذا الوغد فى الحياة وهو جاهل متعطل ؟ ولكنه أقبل علىّ ... وكان أصفر الوجه ممتقعاً وقال لى وهو يتلجلج : هل استجد شىء فى الحادث ؟

فقلت : أى حادث ؟

قال : استخفاء ابن خالى

فقلت له : وهل يهمك أمره ؟

قال : كيف لا ، أليس بيننا دم القرابة يجرى فى عروقنا معاً ؟

فأخرجت من جيبى هذا الخطاب الذى تلوت ترجمته على مسامعك وقلت له :

— لو كنت تحبه حقاً ما حرضته على الفسق ، وزينت له ملاهى الشيطان . فبكى وتوارى عنى دون أية تحية

فتناول هولز الخطاب المندى ونهض يودع

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-11

الرجل وعاد هادئاً ، ثم تناول عدسته المكبرة وأخذ يفحص الخطاب فحصاً دقيقاً

ثم قال لى : علينا الآن أن نهض لنخرج . أتعرف يا وطسن مبادئ الشيروماتسية ؟

قلت : أبداً

قال : لقد كان هذا الدجال تشيرو على نصيب كبير من الفطنة ، فخاز شهرة ومالاً . هيا ولنلبس ثياب الهنود وعمائمهم ولنتخذ مظهر العالمين بقراءة الكف

وبعد ساعة كنا نجوس خلال الشوارع تحت وابل من المطر . وقد تركنا الديك الرومى الحنيذ والبودنج ونفذ الحلوف الدخن تنبى من طبخها وهيأها . أى تنبى مسز تيرنر التى رأتنا نترك مأدبة عيد الميلاد فى أزياء غريبة . وما زلنا نسير كأننا على غير هدى — هكذا سبهلاً فى الواسع والضيق من مسالك لندن وجاداتها حتى بلغنا شارع ويلسو ، وهو الذى يربط كنجزواى بدورى لين ، ثم انحدرنا نحو الشمال وما زلنا نسير حتى بلغنا أوفد بلانيد ستريت وهو من أظلم الطرق وأضيقها وأقذرها فوقف هولز مترددا ثم دفع باباً صغيراً فاندفع ودخلنا فى حانة شمطاء ، فاستقبلتنا الساقية بابتسامة عريضة وسألتنا إن كنا نشرب الجعة دسمة ثقيلة ، أم نشربها خفيفة شقراء ، فطلب هولز الأخيرة . ولمحنا فى أحد أركان الحانة شاباً أسمر اللون منثنياً على نفسه كأنه « كوبرا » غبراء تهتضم الفريسة التى طوت عليها أحشاءها . فشربنا من الجعة جرعة ، ثم نهض هولز ودنا من الساقية ودفع لها ثمن المشروب وقال لها :

— أتودين أن تعرف حظك بقراءة الكف ؟

فضحكت وقالت : لقد جاوزت السن التى أهتم فيها بحظى ، وليس لى الآن محبوب أرتقبه أو أخشى فراقه

فقال هولز : وكان مدهشاً فى تقليد الهنود عند ما يتكلمون الانجليزية : لا لا يا مسز تحطئين إذا كان علم الكف يكشف عن الحب وحده فانه دليل الحياة والعقل والأمراض والنجاح وضده أثناء العمر وما يصادف الانسان من السعود والنحوس ، ويكشف عن القضايا الكبرى وما يصيب المرء من حسن الحظ

فناولت المرأة يدها لهولز فبدأ ينظر فيها بانعام وعند ذلك تحرك الشخص الأسمر المنطوى على نفسه وأخذ يصغى بانتباه

فقال هولز : إن فى جوارك أو فى حاشيتك أو على مقربة منك شخصاً يهمه الانتهاء فى قضية قتل خطيرة

فنظرت المرأة وسحبت كفها من يد هولز بلطف ، فقال لها :

لا تهتمى فان هذا السر لا يضيرك ولا يسوؤك إنه بعيد عنك . قد ترجعين فى حياتك المقبلة مبلغاً من المال عن طريق الحظ الحسن . وقد تشترين عقاراً فى مقاطعة ديرهام

فقالت : يالك من منجم صادق . إنها مقاطعتى وربى حيث ولدت وقضيت طفولتى وصباى فى مغانيها . ولا أزال أفكر فى العودة إليها ...

من الخير أن تجلس أيها السيد ، فسأحدد لك موعداً لتلتقى بحيث تسهب فى التنبؤ لى . فعاد هولز إلى مقعده

ولم يكد المقام يستقر بنا حتى نهض الشخص الأسمر ودنا منا وحيانا بالهندية . ولشد ما كانت

2017-11-11

دهشق عند ما أجابه هولز بالهندوستانى ، كأفضل مواطن نشأ فى مقاطعة كشمير ولم أكن قبل اليوم أعلم أن هولز يجيد الهندية كأحد أبنائها

وسرعان ما مد الشخص الأسمر كفه لهولز فأخذ ينظر فيها ثم قال له بالانجليزية :

حيث أننا جميعاً نجيد تلك اللغة ، فلنتكلم بها . ثم قال :

إنك ولدت فى الهند حتما ونزحت عنها فى سن صغيرة . وأنت يتيم الوالد ، وأمك الأرمل تعيش معك فى هذه البلاد ، وهي شوهاء عوراء ، ولكنها تحبك وتخلص لك . لم يسعفك الحظ لافى المال ولا فى طلب العلم ، وعندك هوى شديد للنساء . ماذا أرى ؟ كان لك قريب يدانيك فى السن ويفوقك فى الذكاء والغنى . وهو جد بخيل ولكنى لا أراه الآن ... لا أراه على قيد الحياة . وأرى امرأة بينكما تدفعك إلى اغتياله وهى امرأة أجنبية ، لا تهمها حياتك ولا حياته . إن الجثة ...

فبكى الهندى ، وأجهش فى البكاء وقال : أنا أعلم أن الجثة تكاد تتمفن ، لولا تلك الحفنة التى أفرغتها بين الجلد واللحم . إن الآلهة تعذبنى

فقال هولز وهو ثابت الجأش كأنه صخرة لا تتحرك

لنترك التنجيم جانباً ... إننا أبناء وطن واحد أين تلك الجثة ؟

فقال الهندى : فى غرفة هنا فى شارع كورنوال بادينتون حيث تقطن المرأة بولى التى أعشقها . لقد خنقته بيدى وهى تحرس الباب . فلم تنزف منه نقطة دم واحدة . وقد وضعناه معاً فى صندوق كبير

فقال هولز : عليك الآن أن تغادر شواطىء هذه البلاد بأقرب فرصة

فقال الهندى : والجثة ؟

فقال هولز : لا عليك منها . فأنا أتولى أمرها

فأخرج الهندى من جيبه حزمة من الأوراق المالية وقال : هاك بعض النقود التى وجدناها فى محفظته ، خذ منها ماتشاء أجراً على الخلاص من الجثة

فتناول هولز النقود وقال له : هيا بنا .

ونهضنا . وخرجنا نضرب فى سواد الليل ، حتى عثرنا على « هانسوم كاب » فاخذناها إلى أن وصلنا إلى المنزل الذى فيه الجثة فى الصندوق ، فكلفه هولز بحمله ونقله ، ودعا المرأة إلى مصاحبتنا موهماً إياها أننا ستغادر البلاد مع صديقها وأنه سيتولى الخلاص من الجثة ، واتخذنا عربة من طراز فيكتوريا . حملنا جميعاً وممنا صندوق الجثة . وكان المطر قد ازداد انهماره ، حتى اضطررنا للالتجاء إلى قبو تحت سكة حديد لمدجات هول ، وهو قبو مزدان بالقيشانى الأبيض اللامع ، حتى لكأنه ألواح من الجليد نشرت تحت الأرض على طول مائة ياردة طولاً وعرضاً وارتفاعاً .

لقد كان موقفاً غريباً حقاً : ثلاثة رجال وامرأة وجثة .

وكان الهندى الجانى مستسلماً لهولز الذى اعتبره منقذاً مخلصاً . أما الفتاة بولى فكانت من شر أنواع النساء الانجليزيات قلباً وقالباً ، فلم يزد هولز على أن يعلم اسم والدها ووطن ميلادها

وقد قضينا هذه الليلة الغريبة أو المريع الأخير منها تحت القبو ، حتى إذا كان مطلع الفجر أمر السائق بأن يسير قدما إلى محطة باسكرفيل ، التى تجتمع بها قطر من القرام لا عدد لها مقبلة وذاهبة إلى سائر أنحاء العاصمة .

وكان السهر والتعب وهم انتظار ما يأتي به الغد قد نالت منا جميعا ، ما عدا هولز الذي كان أنشط ما يكون « منجم هندي » .!

وقضينا وقتا طويلا في الطواف بشركات البواخر ، ليضمن الهندي وشريكته مرقدين في باخرة مبحرة إلى أمريكا أو إحدى المستعمرات .

وكان هولز هازلاً لا جاداً ، يقصد إلى تضييع الوقت أوفضيحة القاتلين . وكانت الفتاة الانجليزية بولى تقول بين حين وآخر : أرى أن هذا النهار لن ينتهي بخير أبداً .

فقال هولز بانجليزية مضمضمة ليتقن تقاليد الهنود :

— ربما صحت الأحلام والنبوءات أيتها السيدة

وفي الساعة الثانية كان الجوع قد أخذ منا كل مأخذ ، فوقفنا في شارع واترلو على مقربة من ميدان الطرف الأغر ، وإذا بالهندي يقول : «ضعوا على رأسي لحافاً أو غطاء سميكا ، فان البرد شديد

ولكن هولز قال له : ليس البرد شديداً ولكن هذا خالك والد القتيل قد أقبل . ثم أخرج من جيبه قيد الحديد ووضعه حول يديه وقال لي : تناول رفيقته برفق ولين فتلك عادة معاملة السيدات . فأخرجت على كره قيداً آخر ووضعته حول يديها ونشط هولز من عقاله ونادى بأعلى صوته « شاهين لال ثاوردجي » فالتفت إلينا الرجل ثم جرى إلينا فلم يتعرف علينا لولا أن قال له هولز: ها هو ذا والدك قتيلا في الصندوق وغريمك وشريكته ، ووضع عمامته عن رأسه فأقبل الهندي الثاكل يقبل يديه وقدميه .

فقال له : الأولى لك الآن أن تلجأ إلى المفتش جريفين فقد طبخنا له الطبيخة ، وما عليه إلا أن يأكلها . أما نحن فسنعود إلى مستر تيرنر لنشاركها في النهام الديك الحشو بالأرز الياباني والأفاوه الهندية والزبيب الأناضولي والصنوبر الشامي واللوز الاسباني والجوز التركي . فقد استحققنا هذه الأكلة التي تنتظرنا

فقال له القاتل : أيها الخائن الانجليزي

قال هولز وهو ينفخ في صفارته يستدعي الشرطة للقبض عليهما متلبسين :

— لئن كنت خائناً ، فخير من أن أكون قاتلا

فأجهشت بولى بالبكاء ثم ضحكت وقالت لمحبوبها الذي رمته في أعمق الحفر :

— ألم أقل لك إن النهار لن ينتهي بخير ؟

وأقبل الشرطي وتكاثر النظارة . وانطلقنا إلى منزلنا في ٤٠ بيكر ستريت

محمد لطفي جمعة

أطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتاب
الإسلام الصحيح
من مكتبة الوفد ، شارع الفلكي (بالأزبكية)
ومن المكتبات العربية المشهورة

الرسالة فى عامها السابع

المجلة التى أحدثت فى الأدب الحديث مدرسة خاصة

المجلة التى ثبتت على مكاره الجهاد والانتقاد والزمن

المجلة التى تنسم بأريج الاسلام والعروبة والشرق

المجلة التى لاتتخلف ولا تتوقف ولاتهن

ستخطو هذا العام أوسع خطواتها وأجرأها

أدب ، علم ، فن ، فلسفة ، اجتماع ، سياسة ، اقتصاد ، قصص ، نقد ، محاورات ، ريبورتاج ، مترجمات ، مختارات ، أنباء ، مسرح ، سينما

أسرة الرسالة فى سنتها الجديدة

الأستاذ العقاد ، الأستاذ المازنى ، الأستاذ توفيق الحكيم ، الأستاذ عبد الرحمن شكرى ، الأستاذ اسعاف النشاشيبى ، الأستاذ ساطع بك الحصرى ، الدكتور محمود عزمى ، الدكتور عبد الوهاب عزام ، الدكتور زكى مبارك ، الدكتور محمد محمود غالى ، الدكتور أحمد موسى ، الدكتور يوسف هيكل ، الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، الأستاذ سعيد العريان ، الأستاذ دريني خشبة ، الأستاذ عبد المنعم خلاف ، الأستاذ محمود الخفيف ، الأستاذ عمر الدسوق ، الأستاذ محمد حسن ظاظا ، الأستاذ أحمد خاكى ، الأستاذ على الطنطاوى ، الأستاذ أنور المعداوى ، الأستاذ أحمد الطرابلسى ، الأستاذ الحوماني ، الآنسة أسماء فهمى ، الآنسة زينب الحكيم ، الآنسة الزهرة ، الآنسة فلك طرزى ، الأستاذ محمد لطفى جمعة ، الأستاذ فليكس فارس ، الدكتور بشر فارس ، الأستاذ محمود غنيم ، الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، الأستاذ أحمد حسن الزيات .

إدفع من الآن لغاية آخر يناير ستين قرشاً

تكسب مجلة الرواية ومعها كتاب متوسط بالجان ، أو كتاب كبير بالتخفيض ، أو مجموعة السنة الأولى أو الثانية من مجلة الرواية بحيث يصبح اشتراك الرسالة مع هذه الهدايا عشرين قرشاً . والاشتراك فى الخارج هو مثله فى الداخل ، ويزاد عليه ثلاثون قرشاً مصرياً فرق أجور البريد . وسنعلن عن كتب الهدايا فى الرسالة خلال شهر يناير — أما الاشتراك بعد مدة التخفيض فهو ستون قرشاً الرسالة وثلاثون للرواية فى الداخل ، ومائة قرش للرسالة وخمسون فى الخارج للرواية ومجموعهما فى كل منهما للطلاب ٢٥ ٪

تظهر فى ثوبها الجديد : بحروف جديدة ، وطبع متقن

الشقي المدلل

للفيلسوف الروسي « تولستوي »

بقلم الأديب فخري شهاب السعيدي

كانت تقوم على شاطئ البحر الأبيض، وقريباً من الحدود الفرنسية الايطالية مملكة صغيرة اسمها «مملكة مونا كو»؛ ولعل لكثير من المدن أن تحتال على هذه المملكة بوفرة نفوسها وازدحام سكانها، فان أهالي هذه المملكة ما كانوا يتجاوزون سبعمة آلاف! وعلى أنه لو قسمت بينهم أراضي المملكة جميعاً لما أصاب المواطن الواحد منهم فدانا! ومع ذلك كله فقد كان لهذه المملكة ملك حقيقي له قصر وحاشية ووزراء، وله أسقف وجيش وقادة!

وعلى أن الجيش لم يكن بالجيش العرمرم الضخم — إذ ما كان عدد أفراده يزيد على الستين — فهو مع ذلك جيش له خطره وأهميته في المحافظة على كيان البلاد ... وكان للحكومة في هذه المملكة ضرائب على الشعب تتقاضاه إياها شأن بقية الحكومات؛ فضريبة على التبغ وضريبة على الشراب، وضريبة أخرى غير هاتين على الرؤوس... ومع أن الشعب كان كمامة شعوب العالم بدمن التدخين، ويتعاطى الخمور، إلا أن ضرائب الحكومة من ذلك لم تكن تسد حاجات الأمير ونفقات بلاطه وجيشه، لو لم تسعفه ضريبة أخرى من مصدر جديد هو لعبة «الروليت» فقد كان الناس يتقاطرون من أنحاء أوربا ليقامروا هناك في دار القمار، وسواء أربح اللاعبون أم كانوا من الخاسرين فان لصاحب الدار حصته المعروفة من المال. وكان يجتمع له بهذا مال كثير يكون النصيب الأوفر منه للأمير ... وتضخم أرباح الأمير من هذه اللعبة مرجعه أن دار القمار هذه هي الوحيدة من نوعها في أرجاء أوربا كلها؛ وإذ كان أمراء الألمان قد منعوا من إقامة أمثال هذه البيوت في بلادهم لما يقع فيها من حوادث الأجرام والأضرار الناتجة عن خسارة بعض اللاعبين ومفاجأتهم ومضارباتهم وانتهائهم عند نزول الكارثة بهم إلى الانتحار بالرصاص؛ وإذ كان أمير « مونا كو » غير مقيد ولا تابع لسلطة من التي يطيعها أمراء الألمان فقد ألفيت دور القمار عند أولئك وبقيت دارة هذه الوحيدة في أوربا التي لا قدرة لأحد أن يتعرض لها بشيء؛ وظل هو محتكراً هذه الأرباح

وكذلك كان الناس يفدون على « مونا كو » ليقامروا فتارة يخسرون وأخرى يربحون، أما الأمير فليس له في كلتا الحالتين سوى الربح ... وعلى أن

(*) أصل العنوان لم يكن بالأنكليزية كما أثبتناه وإنما كان معناه المرفق « عزيز جدا » (Too Dear) غير أن سياق القصة ومعناها أجدر بهذا العنوان الذي لاح لنا في نظرنا مخالفاً لرأي واضع القصة. والقصة بند هذا مما اقتبسه الفيلسوف عن القصصي الفرنسي (موباسان)

2017-11-1

أمير (مونا كو) كان عليا بالمثل القائل : « ليس من نتائج أعمال النزاهة والشرف تشييد شوامخ القصور . » وعلى أنه كان عارفاً بأن اليسر ليس من مشرفات الأعمال فانه لم يجد بداً من إبقاء نظام اليسر على وضعه ليسد حاجاته ، وليعيش عيشة يرضاها ؛ فكان يقيم الحفلات ويولم الولائم ، ويظهر للناس بمظاهر الأبهة التي يعهدونها في قصور الملوك .. وكان يمنح المنح ، ويجزل الهبات ، ويشكل اللجان ، ويشرع النظم ويلغي الحاكم ... وكان يعرض الجيش ويطوف بأنحاء المملكة ، ويفعل فعل غيره من الملوك ، ولكن في صورة مصغرة كنسبة مملكته المصغرة إلى بقية الممالك ! !

* * *

وكان أهل (مونا كو) معروفين بالسماحة ولين العريكة ، فليس بينهم مجرم ولا سفاح ، حتى حدثت منذ سنوات مضت جريمة قتل كانت الأولى في تاريخ هذه المملكة ؛ فاجتمع لها القضاة في يوم مشهود ليتداولوا في شؤون هذه القضية وفق أصول العدل والانصاف . وكان ذلك الحفل المهيب يضم رجال القانون من محامين وقضاة ومحلفين ومدعين عامين . وقد ظلوا يتدارسون نصوص القانون ، ويؤولونها ، ويذهبون في تفسيرها المذاهب حتى أصدروا حكم الاعدام على ذلك القاتل وفق إحدى مواد القانون ! وجعل القرار من بعد ذلك إلى الأمير ، فقرأه وأصدر الأمر بالموافقة على ما يرتأون !

على أن مشكلة واحدة بقيت لتنفيذ الحكم ، إذ لم يكن في المملكة مقصلة ولا كان بها جلاد ! فبحث الوزراء المشكلة وقرروا أن يفاوضوا الحكومة الفرنسية في أمر إعارتهم مقصلة وجلاداً لتنفيذ حكم الاعدام ، وطلبوا منها معرفة ما يقتضيهم ذلك من الأجور . ثم أرسلوا بالكتاب إلى رئيس الجمهورية الفرنسية .

وبعد أسبوع ورد جواب الرئيس قائلاً « إن تكاليف إرسال مقصلة وجلاد تبلغ ستة عشر ألفاً من الفرنكات . » وعرض هذا على الأمير فعجب من استحالة قطع رأس هذا الأثيم إلا بهذا المبلغ الجسيم الذي لا تقوم بشيء منه حياته ! ثم طلب التفتيش عن طريقة أرخص لا ترهق الأهلين بضريبة جديدة يجبرون عليها ، وربما كان من ذلك ثورة جامحة تندلع ألسنتها فتعفي على الأمن في البلاد!

... ودعي مجلس الوزراء للبحث في هذه المشكلة من جديد ... وعندئذ قرر المجلس إرسال طلب آخر إلى ملك إيطاليا . ذلك بأن حكومة فرنسا جمهورية لا ترعى الود المتبادل بين الملوك ؛ وليس أمر ملك إيطاليا كذلك ، فانه — ولا شك — سيرعى حرمة الرسالة التي تربطه بالأمير فيتساهل معه . وعلى هذا فقد كتبت رسالة في هذا الغرض وأرسلت ، فجاء الجواب : « إن من دواعي غبطة الحكومة الايطالية تجهيز جارتها بالمقصلة والجلاد مقابل اثني عشر ألفاً من الفرنكات ضمنها تكاليف الارسال والاعادة » وهذا الأجر وإن كان أقل من سابقه إلا أن المجرم لا يستحق صرف هذا المبلغ

عليه ، وتكليف الرعية بأن يدفع كل فرد منها نرنكين :

وهكذا دعى المجلس ثالثة للاجتماع فتداول أعضاؤه الأمر ، وتناقشوا فى المسئلة لعلهم يهتدون إلى طريقة رخيصة فى قتل هذا المجرم . فقال قائلهم : أو لا يمكن تكليف أحد من الجند بقطع رقبة هذا الأثيم ؟ ولكن ذلك كيفما اتفق إذ المهم أن يموت ! فدعى لذلك قائد الجيش وألقى عليه السؤال ، فجمع هذا جنده وسألهم : أى استطاعة أحدكم تنفيذ المهمة ؟ غير أنهم لم يجيبوه ولم يرتضوا ذلك منه ، وقالوا له : « إن ذلك ليس من شأننا — نحن — ولا كان مما سبق أن دربنا عليه ! »

هنالك فكر الوزراء وتذاكروا فأجمعوا أمرهم على تفويض النظر فى القضية إلى لجنتين عليا ودنيا ، وأخيراً تم القرار على الاستعاضة عن حكم الاعدام بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة . وكان الأمير بهذا يستطيع أن يرى الرعية رأفته ورقة قلبه ، كما أن تلك الطريقة كانت أرخص العقوبات جميعاً ! ووافق الأمير على الحكم الأخير وأوشك التنفيذ أن يتم لولا أن قامت أزمة جديدة تلك هى أزمة إيجاد سجن يقضى فيه هذا السجين حياته . على أنهم أخيراً وفقوا إلى إيجاد غرفة لاقامته ووكلوا به سجاناً يتولى أمر حراسته وإطعامه من مطبخ القصر

ظل السجين فى محبسه تتعاقب عليه الشهور حتى اكتملت عليه سنة تماماً ؛ ولكن بينما كان

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالورق الآتية

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوديسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

الأمير يفحص ميزانية الدولة ويقلب فيها نظره لاحظ أن فيها باباً جديداً من النفقة : تلك هي نفقات سجن هذا المجرم الشقي ، ولم تكن هذه بالنفقات اليسيرة البسيطة، ولا كانت بالسهلة القليلة، وإنما كانت شديدة الكلفة ثقيلة الوطأة على ميزانية الدولة ! فقد كان للمجرم هذا حارس يحميه من الهرب ، ورجل غيره يتولى أمر إطعامه ! وفي هذا السبيل صرفت سبعمائة فرنك من ميزانية الدولة هذا العام ! والأدهى من ذلك أن الرجل في ميعة الشباب ، صحيح البدن مساق ، ولربما امتد به العمر إلى خمسين من السنين! ولو حسب المرء المسألة هذا الحساب لم يجدها بالسهولة التي كان يتصور . . . وعلى ذلك فقد جمع الأمير وزراءه وقال لهم : « إن عليكم أن تكتشفوا طريقة غير هذه تكون أخف مؤونة وأقل منها نفقة ، فهذه التي اتبعتموها باهظة ! لا قبل لنا بها ! »

وتداول الوزراء الأمر بينهم حتى اهتدى أحدهم إلى فكرة فقال لاخوانه : « أيها السادة ، إن من المعقول — في نظري — أن نفصل الحارس فنقتصد نفقاته . غير أن وزيراً آخر اعترض عليه قائلاً : « إن الرجل سيهرب إن لم يجد من يحرسه . » هنا لك رد عليه صاحبه : إن ذلك ما يريدون إذ لا يهمهم هربه شيئاً !

وتم على ذلك الاتفاق . فرفعوا إلى الأمير تقريراً يشيرون له الأمر فوافقهم على ما يرتأون . وفصل الحارس من عمله وظل جماعة الوزراء يتقيون المآل حتى جاء موعد الغداء واشتد بالسجين الجوع ، فخرج بعد أن طال ارتقابه لحارسه حتى يئس منه — إلى مطبخ القصر وأخذ طعامه منه وعاد إلى غرفته وأغلق على نفسه الباب ! وعاد في اليوم التالي فكرر ما صنع بالأمس في الوقت المين المحدود ؛ وهكذا قبل السجين هذا العناء الجديد ، دون أن تخطر له فكرة الهرب من هذا السجن على بال !

وإذاً فما ترى الوزراء فاعلين ؟

هنا لك اجتمعوا وبحثوا المشكلة من جديد فقر رأيهم أن يصارحوه عدم رغبتهم في بقائه أبداً ، فاستدعاه (وزير العدل) إليه وسأله :

— ما بالك لم تهرب وليس عليك حارس يمنعك؟ إذهب حيث شئت فلن يعنى بذلك الأمير . فأجاب الرجل : — لعلي أستطيع أن أقول إن الأمير لا يعنيه ، ولكن أين المأوى الذي آوى إليه ؟ ولا حيلة لي في الحصول على قوتي وقد وصمتموني بأشنع الصفات بأحكامكم التي أصدرتم علي . وهؤلاء الناس لن يأتمنوني بعد الآن على شيء . ذلك إلى أني إعتدت حياة الكسل والخمول فاضطلت بالتدريج . لقد أسأتم إلي حقاً ، فقد كنتم أصدرتم الحكم على بالاعدام فلم تنفذوه ؛ ثم استعضتم عن ذلك بحكم الأشغال المؤبدة الشاقة وعينتم لذلك حارساً كان يأتيني بطعامي، غير أنكم — بعد برهة من الزمن — عزلتموه فاضطررت إلى الذهاب بنفسي إلى المطبخ للحصول على ما يكفيني من الطعام . ثم إنكم — بعد ذلك — تريدونني على الفرار ! كلا يا سيدي

2017-11-11

كل شيء يصح وليس إلى ما تريدونني عليه من سبيل! اصنعوا ما بدا لكم وافعلوا بي ما حلا لكم غير أني لن ألوذ بالفرار قط!

إذاً فكيف؟

واجتمع مجلس الوزراء يبحث المعضلة بحثاً جدياً حاسماً، ولكنهم احتاروا فيما يقررون! وترددوا في اختيار النهج الذي يرون اتباع السير عليه ... إن الرجل لن يبرح الديار أبداً. وفكروا واحتالوا فما وجدوا غير منح الرجل (معاشاً) يكفل لهم الخلاص منه! وأنهوا الحل الأخير إلى الأمير قائلين: إنه ليس من حل خير من هذا الذي ارتأوه، وهو أن يمنح الشقي معاشاً يقيهم أذاه، ويبعده عنهم؛ فأقر الأمير رأيهم مرغماً وتقرر للمجرم الشقي معاشاً سنوياً قدره (٦٠٠) فرنك فلما أخذ في ذلك رأيه أجاب:

— أما الآن فقد طاب الفرار! على أن تلزموا أنفسكم دفعه إلى بانتظام.

وهكذا حسمت المشكلة. وأخذ الشقي ثلث جرايته مقدماً وغادر المملكة إلى مسيرة ربع ساعة بالقطار!! ونزل قرية ابتاع فيها أرضاً بالقرب من حدود بلاده وزرعها متجراً بثمارها وغلاتها وعاش في راحة واطمئنان. وكان كلما حان موعد معاشه ذهب فاستلمه ثم اتجه إلى مائدة القمار فقامر عليها بفرنكين أو ثلاثة مكتفياً بهذا القدر اليسير ورجع إلى مهجره يستأنف حياة الدعة والراحة.

ولعل من حسن طالعه أنه لم يرتكب جريمته الأولى في قطر آخر ترخص فيه أثمان قطع الرقاب وتقل فيه تكاليف الإيداع في أعماق السجون مدى الحياة!!

فخري شهاب السعيدي

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته، وفي أسلوبه، وفي معانيه. وهو الذي قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن. ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة «الرسالة»

الثمن ١٢ قرشاً

السعادة الذابلة

للكاتب القصصي جوزيف كسل
للأديب صلاح الدين المنجد

كنت وأنا في بسمة العمر ونضرة الشباب ، أقضي الليالي بين أتباع القيصر ممن تخلى عنهم الحظ فتركوا موسكو فارين من عسف الثورة وجور القادة ، يحملون بين شغاف القلب لمحة على الحظ الآفل ، وحنيناً إلى الربع الآهل ، وأسى لذاك العهد السعيد

ما أدري ما الذي كان يحبّب إلى هذا الصحب الذي صرعته الخمر ، وسبت عقله الشهوة ، وأنهكته البلايا ... وإن كان يستهويني منه لباسه القوقازي الجميل ، المفعم بالألوان المشرقة ، الذي ينعكس جماله على لمّس الشفاه الدابلة عند الفوانى ، وضلال النظرات في الرجال ، ويثيرني بشرته أنغامه المطربة ، ورقصه الضاحك ، وحركاته المنوحشة ، التي كانت تملك على أسرى ، وتدفعني إلى البقاء معه أبداً ...

لقد كنت أشعر ، كلما تمثل في خاطري مصيرهم الباكي ، كأن دمي قد نضب وغاض ؛ فأوثر لحالهم ، وأبقى إلى جانبهم ، أسرى عنهم ما يشجيهم مذ هجروا الأوطان . فأمضي وقد تنبه الليل ، هائماً على وجهي في طرقات باريز الحالمة ، أستمع إلى أنين المذاري وعربدة الفتيات ...

لقد علمت من أغانيهم كل عجيب ، وسمعت من أحاديثهم كل طلي ، ونظرت إلى رعايهم نظرة الرحمة من خلال الدامع ... أولئك الشقر النواعم واللائي احترفن الرقص والغناء بعد أن ذقن الهناء وتمرغن في أحضان النعيم ...

يا رحمتاه لهن ... ! أكتب عليهن الشقاء في هذه الحانات الباريسية الضاحكة الآذة ، الغارقة في الفجور ... ؟ يجالسن السكارى والمربدين ، ويحدثنهم عن أنباء حياتهن وأغاصيص بلادهن ، وطرائف مناصاتهن ، عند ما كان العيش غضاً والزمان غلاماً ... ! حتى إذا ما هرم الليل ، قمن نشاوى من السكر متعبات من الكلام ، ليرتمين فوق فرش الحرير ... !

إن اعترافاتهن لمشجية ، ما كنت لأرتوي منها أو أمل ... كنت أستمع من تلك الشفاه الرقيقة أحاديث لذة تصور لي الامبراطورية الخالية ، في نعيمها وبؤسها ، وظلمها وجورها ، وتمثل لي أيام الارهاب ولياليه المترعة بالحب ، المفعمة بالدماء ...

لقد فقدن الكبرياء ... وصدف عنهن العز ... وما أحوجهن إلى نديم يسألهن ويستطلع دخائل قلوبهن ...

إيه باريس ... ! كم سمعت في زوايا شوارعك ... أمام موائد الخمر التي غمرت بروائح النبيذ والسطر ... أحاديث البؤساء ، وكلام التعساء ... التي ترقص بين كلماتها أشباح القوة الدابسة ، والظلم القاهر ، والموت الرهيب

حدثنيك نارني ! ماذا تريد أن أحدثك ؟ أقصة ذلك الأمير القوقازي ، الذي أحب الحرب وعشق البطولة ... ومات بعيداً عن سهيل الخيل ... في أحضان حبيبته ؟ أم قصة تلك الراقصة التي صرعتها

2017-11-11

نظرات راسبوتين الملتهبة ، وأغوتها جبته الراهبية ؟ أم قصة رئيس الوشاة عند القيصر ومغامراته اللاهية ... ؟ ما أدري عم أحدثك ... وهل أستطيع يا ترى أن أكتب كل ذلك دون أن أفقده روعته وجماله ... ؟ ما أدري ... ما أدري ... !

تبسمات أنتن يا غوانى الحانات ... ! أنا أشفق عليكن ... وأبكى لكن ... تدفعن دائماً رواد كن لأن يتجرعوا كؤوس الخمر وأكواب الشمبانيا لتاذهن بمرآهن ... ألا بئس العيش وبئس المصير ! إستمع إلى يا قارئى ... فقد أطلت ...

***

كانت فيرا يتوقفن جميلة جمال الورد الرقاف بالندى عند الصباح . أصابها داء القلب أيام السفنة والارهاب فى روسيا ، فاضطرها إلى الاخلاد للدوء والراحة ... وكنا جلوساً حول مائدة رأستها ، وأخذت تعمل كل ما أنفقته مذ كانت بنت عشر وثلاث ، لتدخل الفرح إلى نفوسنا ، والطرب إلى رؤوسنا . وكان شيطانها يوحى لها ما يسر الخاطر ويهيج القلب ، فكانت تبتسم بفمها وتغمز بعينها ، وترسل الغناء من ثغرها ... متدفقاً حتى لتحسب أنه قطع من نفسها تجود بها وهى تضحك وتلهو

وكان يغيض من وجهها حزن بائس جميل . فيشعرها السحر وتحيط بها الفتنة وترسل من عينها نظرات كلها إغراء وحنان . ويتكلم جسمها بحركاته المائعة الرخوة فترهف الأفئدة ، وتسلب العقول ، وهى نشوى من الفرح ، سكرى من الفجر . فهذه لحظات نادرة . ولن ترانا كل يوم .

قلت لى بصوت حزين :

— إنك تؤلمى يا سيدى . ولن تستطيع ،

مهما فعلت ، أن تخفى هذه الشفقة التى لا تبدو فى نظراتك ، وتفيض من كلماتك . إن عيشى لم ، ولكنه ناهم هنيء . آه لو رأيتنى قبل عشر سنين ! إذن لأنكرتنى ، ولما عرفتنى . ربما دلتك على شعورى البيض الذهبية التى لم تتبدل فى . نعم . أما جسمى ووجهى فيا أسفا عليهما ، لقد تبدلا ... وغاض جمالى وتولت فتنتى . أواه يا سيدى أواه ! كنت أغنى وأنا طفلة غضة ، فاذا تعبت وملت ، وأتملى الكرى ، أيقظتنى أمى بصفعة على وجهى ، وبجرعة من الفودكا وبلفافة من التبغ .

لقد حدثتك عن زوجى كثيراً حتى غدوت أخشى أن تمل . ولكن ماذا أفعل . أنا أحبه حب المرضعات لأطفالهن . أواه ، ما أشوقنى إلى عهده ، لقد كان من أبناء الأشراف الذين ملكوا الثروة والجاه ، فتزوج منى وأنا جاهلة كاملة .. حتى إذا ما فقد السلطان وأضاع الثروة جاء يبكى بين يدى يطلب الرحمة والغفران . !

لا شىء يبدل عيش الفتاة كنظرات الرجل يسددها إلى عينيها فيغريها . لقد كانت نظراته حالة ماؤها العطف والحنان ... إنها لم تخلق لترى الحياة ، بل لتشهد أشياء أعذب وأحلى .. لتشهد الحب ولياليه . !

لقد بدأ الهرم يدب إلى على الرغم من شبابى الغض مذ غابت عنى تلك النظرات . لك الله يا زوجى ! لقد أوثقوه فى السجن ، لأنه من أبناء الأشراف . ولأنه لم يعرف من الدنيا سوى الموسيقى وزوجته فيرا . كان يعزف فأغنى وأرقص . إنه نبيل ياسيدى ، ومثل هذه الخلة تكفيه ليودع فى السجن .

كان أملى فى إرجاع الحرية له واسماً سمة البحر

العميق . ولكني شعرت بأنني وحيدة لا يرعاني أحد وما كنت لأخاف على نفسي من شر أولئك البولشفيين . فلقد كانوا في أحرج أوقات الارهاب يتهافتون علينا تهافت الذباب على الحلوى . تلك خلتهم ... إنهم يعبدون المرأة . لقد استطاعوا أن يسيئوا إلى كل إنسان ، ولكنهم لم يسيئوا إلينا أبداً .

وبدأت أحس الجوع وأشعر بالبرد يأكل من جسمي ، ولكني لم آبه لهما ، فأنا ابنة قوم علمهم الشقاء والطواف حول الأرض الصبر على الخطوب

وكنت أتنقل بين الأندية والحانات أغني للمال ، فأعطي قليلاً من الدقيق والسمك والبطاطس . ولم أطلب المزيد وحولي آلاف النفوس يكبن من الجوع ويقضين من القر .

ما أستطيع أن أصف لكم ياسادتي ما كانت عليه روسيا في شتاء ١٩٢٠ . لقد كان الجوع يهلك الأجسام ويوهن القوى ، وكان شبح الموت يرقص فوق رأس كل إنسان ، في تلك الشوارع المغطاة بالثلج التي لا تسمع فيها نأمة ولا حركة ولا ضحكة . كل شيء هادىء فيها يمثل العدم والفناء . آه ! ما أدري أترتسم في مخيلتكم مدينة لا يضحك فيها أحد أبداً

وكان الارهاب قد بلغ أوجه ، فأصبحت مقادير الناس بين يدي أولئك ، كانوا يقتلون الحريات .. ويقتلون النفوس . وعصفت العصبية في رؤوسهم فأمضت السجون مقابر والمقابر سجوناً . كانت موسكو آنئذ مملوءة بالوحوش المتبلدين الذين فقدوا الشعور ونسوا عذاب الضمير ! ..؟

بماذا أحدثك .. إستمع إلي :

كان ذلك بعد أن فقدت فاسيلي بأسبوعين .

كنت في طريقي إلى الدار ، وكان الليل قد أظلم ، وأوحشت الأزقة والشوارع ، واستولت عليها رهبة الموت ، فرأيت شبحاً مزيلاً يتبعني حتى إذا ما كدت أصل إلى داري ، هجم علي .. وأمسك بيدي .

لم أستطع أن أتبينه ... ولم أشعر بخوف أو وجل ... إنها امرأة ... ربما كانت فقيرة سغبى تطلب ما تأكل ... أو مجنونة أفقدها الجوع عقلها

وتلفتت يمنة ويسرة ، ثم قادتني إلى ثغرة في أحد الجدر تراكم فيها الثلج ، ثم ضغطت على يدي وقالت بصوت متهدج :

— فيرا ... فيرا ... يا حسناتي ... هل تعرفينني ..؟

فأرهبني صوتها الخافت ، واعترتني رجفة خفيفة ... إنها تكلمني بلغة قبيلتي النورية ، التي كنت أسمعها وأنا بين المضارب والخيام

لقد نسيت تلك اللغة ... ولم يبق منها في رأسي إلا ذكريات ، فشعرت كأن قسماً من عمري قد انمحى ، وأن زوجي .. وأيامه الغر ، ولياليه الطيبة ، وبذخه وترفه .. كل ذلك قد انتهى ، وتخيلت عهد طفولتي إذ كنت نورية صغيرة لا ملجأ لي ولا مال .. أطيع الشيوخ وتسيطر علي النساء

وهمست العجوز في أذني :

— فيرا ... ! ما بك ... أنا ماريا .. عمتك .. ماريا ... عمتي ... الآن فهمت ... بلقد كانت مولعة للنساء ، ناقمة على الأمهات ، وعادمة في الدور ... يا لله ... إنها بلغت من الكبر عتياً ، وما تزال كما عرفتها يوم عرفت الدنيا . لقد ابتعتني مع أمي .. ثم سرقتني .. ثم هيأت لي أسباب العيش بعد ذلك مع زوجي ...

2017-11-11

وربت على كتفي وقالت :

— فيرا . . . يا حسناتي . . . غداً في الساعة التاسعة . . . سأنتظرك في عربة تقف على مائة قدم من دارك . . . على جهة اليمين مما يلي الطريق . . . إياك . . . أن تتركي الفرصة تمضي . . . ستساعدين زوجك . . .

ثم تركتني واختفت في الظلام

وفي مساء الغد . . . خرجت من داري أمشي وأنا أعد الخطى . . . وأعلل نفسي برجل أبتر منه منه دراهم بعد أن أسقيه العذاب . . . إن عمتي علمتني كيف أعذب الرجال

ووجدتها في عربة عتيقة . . فصعدت إليها . . ثم انطلق الحوذي في طريقه لا يلتفت إلينا . وأخذت العجوز تكلمني . . ثم لمست صدري وقالت :

— وهذا الفراء الناعم يا فيرا . . . ألا تشعرين بنعومته ؟

فارتعشت من قولها ، وقلت لها :

— إلى أين تقودينني يا عمتاه . . إن لم تتكلمي فسأري بنفسي . . هيا . . هيا . .

فراحت تداعبني وتمر يدها اليابسة المرتجفة على عنق البيض . . ثم ضحكت وقالت :

أأعمتك السعادة يا فيرا حتى غدوت ما تعرفين طريق قبيلتك ؟ آه منكن يا سبايا النور . . !

فصمت . . وأغمضت عيني ، وأنصت إلى صوت السجلات . . فوق الثلج المتجمد . . ثم وقفت العربة ونزلت منها إلى مرابع طفولتي

***

ما أجملك يا أرض قبيلتي !

لقد كنت قيثارة أوتارها النساء . . . وكنت لا تعرفين إلا المرح والغناء ، وكان كل ما فيك يمثل الحياة ويمجد معنى الفناء . . . هنا أصوات عذبة تشدو . . . وهنا فتيات نواهد يرقصن . . . وهناك حلقات الأقاصيص والسحر . . . وإلى جانبها تهرق أكواب الفودكا وكؤوس الخمر . . نعم كانت أرض قبيلتي مرتعاً للجمال واللهو والشعر !

يا حسرتا عليك يا أرض قبيلتي ! . . . ماذا أرى الآن في جنباتك ؟ . . . فارقتك النوائي فأوحشت ، واختفت أنغامك فهجرت ، وتهدمت دورك ، فأقفرت . . . شد ما يحزن المرء يا سيدي عند ما يرى وطنه تمدو عليه العوادي وترهقه المحن فيندو يباباً بلقعاً . . . ! إنه ليحزن ، لأنه قطع منا ، ولأننا قطع منه . ويا ليت شعري هل يستطيع المرء أن يدع قطعة من جسمه . ما أدري إن كانت أيامك الزهر ، يا أرض قبيلتي ، ستعود إليك . . . وهيهات أن أراك كما تركتك . . . ! لقد تفرقت حسانك بين جنات استنبول وحانات برلين ، واختفت رجالك في مقابر روسيا ، وكهوف باريس . . . وتلاشت أنغامك بين الأرض والسماء . . . !

وقفت مذهولة من روعة الذكرى . . . ثم قادتني العجوز ، ومشى أمامنا الحوذي المتنكر . وكان صوته يعلك على أسرى ، ويدفعني نحوه . إنه صوت بائس . . . كأنه لا يبالي الدنيا . لقد سمعت أصوات أولئك الذين كانوا يشدهون من أنغامنا الحزينة بين الخيام . . . وأصغيت إلى أصوات الذين عذبتهم الثورة ، وآهات من فقدوا الثروة ، ولكني لم أستمع قط إلى صوت مثل صوت هذا الرجل أبداً

ودفت العجوز باباً حقيراً فدخلناه . ونزع الحوذي رداءه ورماه ، ثم وقف أمامي وقال :

2017-11-11

لو كنت أعرفك يا فيرا ... لما أتيت إليك ... أنا أنيناسى لوليش بروبوف

يالله من رجل ثائر ... ثائر حتى على نفسه ... كان ميت القلب والنفس ... وكانت تبدو على وجهه طلاوة الجمال وسحر الشباب . وكانت عيناه عميقتين صافيتين ، وكان يعيش فى هذه الدار التى يحبسها المرء كوخاً حقيراً ، عيشة راضية ناعمة ... لا يأكل إلا مالا وطاب ، ولا يلبس إلا الثمين الفاخر ، ولا يعاشر إلا أجمل الفتيات ... فقد كان من أبناء الأشراف الذين يعلمون أنهم إن عاشوا اليوم فسيموتون غداً

وأعانى على نزع ردائى الثمين ... ثم دفع باباً خفياً فى الحائط وقال لى :

— أهلا بك يا فيرا ...

ودخلت إلى بهو متسع كبير ، زين بالمعقس وبالحرير، وفرش بأفخر الطنافس وأجل الأثاث. وكان فى منتصفه مائدة حفلت بأنواع الخمور وأطايب المأكول ... قل أن تجدها عند أحد فى ذاك الشتاء القاسى ، وهذه المسئلة القاتلة . فدهشت ، وسال لعابى ، وتلفظ فمى ، والتفت لأسأله فمنعنى عن الكلام ، ثم أجلسنى وجلس أمامى ، وملأ كأسين من الفودكا الذى لم أشربه منذ عامين ... وأخذت آكل ... يا لحم الطرى ... والسمك اللذيذ ... والفودكا الملهبة ، لقد أكلت كثيراً ياسيدى ... على عجل ... كنت لا أمضغ ولكنى أبتلع ابتلاعاً

فلما فرغت قال لى : أتدرين يافيرا لم أتيت بك ؟

قلت : لا أدرى ياسيدى . قال : من أجل صوتك . فأنا لا أريد أن أمضى عن الدنيا دون أن أتمتع بكل لذيذ فيها . لقد عرفت كل فتيات موسكو وعاشرتهن ولم يبق على إلا سماع صوتك المسكر ... سأسكر يا سيدتى مرتين فى هذه الليلة ... من الفودكا ... ومن صوتك المذهب ؟

قلت له : ومن يعيننى ياسيدى ؟

قال : أنا

وقام إلى ناى صغير وراح ينفخ فيه ... ورحت أغنى طوال الليل ... حتى ثمل وسقط على الأرض لا يحس ولا يعى

***

استيقظت صباح الغد ، وأنا أحسب أن ماحدث لى فى هذا الكوخ النورى حلماً لولا حرارة الغطاء الناعم المصنوع من جلد الدببة البيضاء . وفكرت فى المساعدة التى سأقدمها لروحى من هذا الكوخ فلم أجد شيئاً ... أنا أغنى وأشرب وأطرب وهو يئن فى سجنه .. وكيف يتاح لمثل أنيناسى أن ينقذ فاسيلى ... إنه نبيل لو علم به الشيوعيون لما تركوه . ثم قلت لنفسى : ويحك يا فيرا ... إنهم إن يعلموا بك يبقوك فى السجن ولو إلى حين ... هلا فررت .

وتركت الكوخ سراً وفى النفس عزم على ألا أعود إليه ... ووجدت شقائى فى غرفتى ... ولم تغض ليال حتى رأيت العجوز تعود فتلح على أن أذهب فى الغد إلى المحل المعهود ... وصفقت نفسى طرباً ... إن صوته ليشوينى أنا التى أغوى ...

وذهبت عشاء اليوم الثانى ... فغنيت له ... ولكن ... مسكين ... إنى لأتخله الآن يا سادتى ، وأراه وكوب الشمبانيا أمامه ... معلق الرأس ، كاسف البصر ، ساهم الوجه ، تنساقط على وجنتيه الدموع فتختلط مع نمالة الكأس ... لقد كان حزيناً ... فسكت ... وقلت : أنيناسى ... ما بك ؟

قال : أنمي بربك يا فيرا ... ولا تقلقي ...
فعدت أغني ... وعاد يبكي ... حتى ثمل ونام

***

ومازلت أتردد على أنيناسي ... حتى كانت النهاية التي كدت أموت فيها ...

كنت معه ذات ليلة نشرب الفودكا وننفي ... وفجأة سمعنا لغطاً وضجيجاً .. ثم فاجأنا البولشفيون ورأوا هذا الكوخ المملوء باليواقيت ، المفروش بالطنافس . لقد كان صاحبي يشرب ... ثم على حين بغتة كسرت كأسه ... وسال ما فيها فوق البساط ...

مسكين يا صاحبي ... لقد دنا أجلك !

ودخلوا يرسلون أسوأتهم الوحشية وينادون :

« ها هو ذا ... أقتلوه ... أقتلوه ... الشعب يموت وهو يشرب ... » وانقضوا عليه يرشقونه بالسنة حداده ويوسعونه لكما وضرباً . وهو صامت ساكت . ثم جرد كبيرهم مدية طويلة وضرب بها عنقه ، فتدحرج رأسه فوق المائدة ... واختلطت دماؤه بالفودكا والشمبانيا ... وطفق المتوحشون يشربون !

أما أنا ... فقد التفوا حولي ... هذا يقبلني ... وهذا يلكمني ... وذاك يجس بدني ... ورابع يصب الخمر فوق رأسي ... ثم ساقوني إلى السجن المظلم الرهيب ...

بقيت في السجن أياماً لا أرى فيها أحداً ولا أكلم مخلوقاً . وجاءت إليّ عمتي ذات يوم تخبرني بأن زوجي قد قتل في سجنه ، وأن جثته رميت في الأزقة ، وقد عثر عليها مع جثة أنيناسي

وقفت عند سماع ذلك شاردة اللب زائغة العينين ورحت أبكي ... وفكرت أن أقتل نفسي ولكن .. ولكن ... كيف أموت دون أن أثأر من هؤلاء لزوجي !

لقد هيأ الله لي أسباب ثأري ... فقد كان حارس السجن رجلا خشناً غليظاً ، ولكنه كان يميل إليّ ... ويسمعني كلمات الحب ... وجلست إلى جانبه ذات ليلة ... أستمع إلى أحاديثه ومناغماته وفجأة علمت أنه قاتل زوجي ... فلم أظهر له ما يجلب له الريبة فيّ ... و ...

وأشعلت فيرا لفافة وأرسلت دخانها الأسود إلى الفضاء ... وهي تتأوه وتنظر إلينا نظرات حزينة قلت لها : « ثم ماذا فعلت »

— هه ... انتقمت ... راودني عن نفسي ..

وكان سريره إلى جانب باب السجن فاضطجعت معه فيه ... وقد ثمل ... ثم أخرجت خنجري الذي أخذته ذات يوم من عمتي ، وغرسته في عنقه ... وجلست فوقه ... فاستغاث وصاح فلم يجبه إلا الليل البهيم !

ثم أستطع أن أزيل الدم الذي تسرب من عنقه إلى صدري وجسمي ... إذ سرقت المفاتيح . وفررت ولقد لحقوا بي يريدون أن يقتلوني ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .. وماذا أريد من الحياة .. أو أطمع بعد ذلك ... لقد عرفت زوجي فأخلصت له ... وثأرت ممن قتله ...

إني أعيش الآن يا سادة عيشة لا تتاح لكثير من النساء .. ولكني لم أعرف طعم السعادة بعد أن تولى زوجي ... إن الزوج هو كل شيء في حياة المرأة ... فاذا غاب عنها ذبلت سعادتها

لقد مضى وخلف لي زفرات أصعدها كلما مثلته لخاطري ... ما أحسبها إلا أنها قاتلتي يوماً من الأيام

صدوح الربيع المهيب

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-1

البديل

للكاتب الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأديب عادل الجمال

كان يبلغ العاشرة من عمره عند ما قبض عليه للمرة الأولى بتهمة التشرد .

وتكلم حينئذ قائلاً للقضاة :

« إنني أدعى چين فرانسوا ليتريك ، عملت لمدة ستة أشهر مع الرجل الذي كان يغني ويلعب على حبل رفيع مشدود بين مصابيح ميدان « الباستيل » ، وكنت أردد معه المقاطع الأخيرة لكل أغنية كان يلقيها ، ثم كان على بعد ذلك أن أغادر قائلاً : « كل ذلك بعشرة سنتيمات ... إنه أجر ضئيل لسماع تلك الأغاني الحديثة . وكان الرجل داعماً مملاً ... فتمود أن يضربني ... ولذلك هربت منه فقبض على الجنود أمس مساء . وكنت قبل ذلك مع الرجل الذي يبيع « المناقض الريشية » . أما أمي ... فسألة تدعى « إديل » ... كانت تعيش في وقت ما مع رجل على أرض موغارتر . ولقد كانت امرأة نشيطة تحبني . فادخرت مبلغاً من المال كان نتيجة اشتغالها مع عدة زبائن موفوري النعمة . وفي أيام الآحاد ... كانت ترسلني إلى فراشي في ساعة مبكرة ... ثم تذهب هي إلى أحد المرانيس ... أما في باقي أيام الأسبوع ... فكانت ترسلني إلى « مدرسة الفرير » حيث تعلمت القراءة .

وتعود ضابط يدعى « دي فيل » أن يقف عند نافذة منزلنا ليبادل أمي الحديث ، إذ أنه كان يقطن نفس الشارع الذي كنا نقطنه ... كان رجلا ... وشاباً ... حازاً على وسام من « كريميه » ... فتزوجا . وتمكست الأمور فلم أعد أبصبا بي ... كما أنه قد أثار أمي عليّ ... كانوا كلهم يحقدون عليّ لغير ماذنب اقترفته .. فكنت أخرج من المنزل إلى حي كليش حيث تعلمت الوحدة والبكاء .

وفقد زوج أمي منصبه كما فقدت هي عملها ... فاعتادت أن تخرج باحثة عن عمل لتعول زوجها ، وبذلك في ذلك مجهوداً كبيراً حتى ماتت في « الأمبواسير » .

واغرورقت عينا الطفل بالدموع .. ثم تمتم قائلا: « لقد كانت امرأة طيبة » ... ومنذ ذلك الحين وأنا أعيش مع بائع المناقض والمغني السابق الذكر . وصمت برهة ثم قال :

والآن ... هل ستسجنونني ؟ ؟

قال كل ذلك بطلاقة رجل مثقف مع أنه كان من أبناء الشارع ... قصير القامة تعلوه رأس ينطيه شعر أسود . لم يقاطعه أحد ... ولم يسأله أحد ... فقط أرسلوه إلى إصلاحية الأحداث .

لم يكن يجيد أي عمل يدوي ... والشيء الوحيد الذي كان يتقنه هو الاستراحة على المقاعد الخشبية . ولكنه فوق ذلك كان مطيعاً وهادئاً هدوءاً طبيعياً . وحين أكمل السابعة عشرة من حياته نبذ مرة أخرى ... وأتى طريداً شريداً في شوارع باريس .. ولتعاسته وجد كل رفاقه في الاصلاحية يمتهنون مهناً غير مشرفة ... مليين بذلك نداء طبيعتهم الدنيئة ... فبعضهم ... كان يمسح الأحذية على أبواب الأوبرا ... والبعض الآخر يتشاغل بتصيد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-11

ما ينفع من القاذورات ، فلم يكد ينقضي على خروجه من منزل الاصلاح عدة شهور ... حتى قبض عليه مرة أخرى بتهمة سرقة حذاء بال قديم من حانوت إسكاف ... سرقة ما فكر في الاقدام عليها إلا بعد أن أحس ببرودة الجو تتمشى في عظامه ... وكانت النتيجة قضاء عام في سجن « سانت بلاجيه » حيث أجبر على أن يترأس طغمة الثائرين الأحداث. وعاش ينعم التعجب بين تلك الفئة من المسجونين.. وجلهم صغار السن يتشابهون في الملبس ويتكلمون بأصوات عالية ... وكانوا قد اعتادوا الاجتماع في غرفة أكبرهم سناً ... وقد كان هذا تقسماً يبلغ الثلاثين ... قضى معظمها في السجون وبالأخص منها سجن « سانت بلاجيه » ... أما غرفته ... فكانت أكبر غرفة في السجن ... ممثلة جدرانها بالرسوم الكاريكاتورية ... ومن نافذتها كان بالمكان المستطاع أن يرى كل باريس بمبانيها الشاهقة وخوافيها المظلمة ... كما كان باستطاعته أن يرى على البعد خطا من التلال يبدو قريباً جداً من السماء الزرقاء . وفي تلك الغرفة كان المسجونون الأحداث يتناولون طعامهم .

وانقضى عام ... وراح مرة أخرى يجوس خلال باريس مراقباً من البوليس حيث أصبح من هؤلاء المشبوهين الذين يقبض عليهم بمجرد الشبهة فقط .. ففر إلى أورشليم ولكنه استقبل هناك بواجهات الجرائد وهي تتحدث عن الفار « التيريك » و « السجين التيريك » ... وأخيراً ... « المجرم التيريك »

ومر عامان على خروجه من السجن ... يأكل حيث كان ... ويقضي الليل في أحد الخنادق الحقيرة إن لم يكن في العراء . كان يرتدي قبعة رمادية مستقرة فوق مؤخرة رأسه . . . وفي قدميه حذاء من القماش يعلوه سروال أبيض قصير . وعندما استطاع أن يتحصل على خمسة وعشرين سنتيما . . جز شعره وراح يحترف الرقص في « مونبارناس » ولكنه لم يفلح .. فاحترف البطالة ... ولكنه لم يهنأ بحرفته الأخيرة ... إذ قبض عليه مع جمع من رفاقه بتهمة سرقة المخمورين وحكم عليه بالسجن عامين في « بوليس » حيث تعلم هناك كيف يسلك طريق الاجرام — فلم يكد ينقضي ستة شهور على فراره حتى اعتقل ثانية في حادث سطو حكم عليه فيه بخمسة أعوام قضى صيفها وشتاءها يعمل تحت أشعة الشمس صيفاً محتملاً ضربات السياط ، وينام تحت برد الشتاء القارس في العراء . . . خمسة أعوام مرت أرسل بعدها إلى « فيرنون » حيث اشتغل قليلا في أعمال الملاحة . وعندما سار متشرداً لا يمكن إصلاحه .. استطاع الافلات من أسره ورجع مرة أخرى إلى باريس ، حاملا معه ما ادخره وكان مبلغاً يقرب من ستة وخمسين فرنكا . كان يتغنى نهاراً ، أما ليله فكان يقضيه في نزل امرأة عجوز ، قدم لها نفسه على اعتبار أنه بحار قديم فقد أوراقه في مركبه الغريق ... وأوهمها أنه يبحث عن عمل ورجو أن تتكفل مساعيه بالنجاح في وقت قريب

وقادته قدماه ذات يوم إلى حي « مونمارتر » حيث ولد ... وفي تلك اللحظة هاجمته ذكرى بعيدة .. ذكرى أجبرته على التريث أمام « مدرسة الفرير » حيث تعلم القراءة . وفتح باب المدرسة لحرارة الجو ... فكان من السهل على المار في تلك الآونة أن يرى فصول المدرسة كما رآها فرنسوا . لم يتغير فيها شيء ، فها هو ذا النور الساطع يتلألأ في الداخل .. وها هي ذي الأدراج تفصلها الممرات.. ثم ... ها هي ذي الموائد المنطاة بطبقة من الكتب والأقلام ... و ... الخرائط التي طالما أشير عليها

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com 2017-11-14

إلى مواطن الحروب . ووجد فرنسوا نفسه دون وعي أو تفكير يقرأ ما قد كتب على السبورة الخشبية السوداء

« ستكون الراحة في السماء .. لهؤلاء الخاطئين المستغفرين ... وسيجدون فيها سعادة أكثر ألف مرة من هؤلاء الذين لا يجدون شيئاً يستغفرون منه »

لقد كانت إذ ذاك ساعة اللعب دون شك ، لأن المدرس كان قد ترك مقعده . . . وجلس على حافة مائدة وقد التف حوله جمع من الصبية يستمعون في شغف إلى قصة كان يرويها لهم . أي مظهر طاهر يرى كان يشع من ذلك الوجه الشاب الفتي وهو في عباءته الطويلة السوداء وربطة عنقه البيضاء التي تتناقض تماماً مع حذائه الكبير وشعره المشعث . وانتهى القس المدرس من قصته فأعقبها بضحكة هادئة . . . أعقبتها ضحكات تمالت من هؤلاء الذين كانوا ينصتون إليه

أي حياة سعيدة كان يحياها هؤلاء المجدودون !

وهاجت فرنسوا في وقفته المتأملة ... ذكرى الكلمات التي لم يمض على قراءته لها بضع دقائق فتمتم قائلا لنفسه بحزن « لو أنني لم آت متأخراً في النهاية ؟ ولو كان في الامكان أن أرجع ثانية كالآخرين فآكل خبزي الجاف بشهية وأملأ أجفاني بنوم لا تشوبه الأحلام ! وهز رأسه بيأس ولكنه سرعان ما أردف قائلا وفي عينيه بريق خاطف :

« إنه لجاسوس ماهر ذلك الذي يستطيع أن يستدل على الآن ... فلحيتي التي أزلتها هناك . . . نبتت هنا أشد قوة وغزارة .. إن الانسان ليستطيع أن يختفي في مكان ما على الجبل . . . أما من جهة العمل . . . فمن السهل الحصول عليه، إذ أن الأبنية تتمالى بسرعة هائلة . . . ومن الطبيعي أن البنائين يحتاجون لمساعدين يتقاضون أجراً قدره ثلاثة فرنكات يومياً . . . ثلاثة فرنكات . . . إنه أجر لم أحلم به يوماً من أيام حياتي . . . سأنسى ... نعم لابد أن أنسى .. والنسيان هو ما أنا في حاجة إليه »

وكان أميناً في تنفيذ فكرته التي اعتزمها ... فلم تكد تنقضي ثلاثة أشهر حتى أصبح رجلا غير الرجل ، فلقبه رئيس العمل الذي كان يعمل عنده برجله الفضل . وبعد أيام انقضت تحت أشعة الشمس القائظة وسط الأوحال ، يميل تارة ويستقيم أخرى ليتناول آلات البناء من الرجل الواقف تحته فيوصلها إلى ذلك الذي استقر على قطعة من الخشب ذهب ليتناول غداءه في حانوت قريب ... منهوك القوى تؤلمه قدماه ... بينما كادت يداه تتقدان وعيناه تسحان الدموع من تأثير حبيبات الرمال التي كانت تداعب أجفانه . ولكنه على رغم ذلك كان راضياً عن نفسه ، ممسكا بما كسبه من نقود في منديل استقر في يده . كان يخرج الآن دون خوف ، فقد كان قناع الجير الأبيض الطبيعي خير مخفٍ له عن عيون الرقباء حتى أنه حين مر برجل البوليس نظر إليه هذا الأخير نظرة كلها عطف ورثاء ، ففسر آلامه كلية ، فلقد كان حراً طليقاً

وأخيراً ... أوه ... يالله ... لقد وجد صديقاً

كان عاملا مثله يدعى « سافنيان » فلاحاً أتى إلى باريس بعصا في مؤخرتها « صرة » يكاد كتفه ينوء تحت ثقلها . أحبه جين فرنسوا لسذاجته وطيبته وأمانته ... أحبه لكل تلك الأشياء التي افتقدها هو في زمن مضى . وكان سافنيان يطبيبته ضعيفاً . يترك الأمور لتأخذ مجراها الطبيعي فعمل جين على مساعدته مساعدة جدية ، وعاشا سوياً في منزل صغير مرح وأشركا معهما لحاجتهما دخيلا

عجوزاً شحيحاً ... يسعى لادخار بعض المال حتى يمكنه أن يشترى قطعة من الأرض فى وطنه . وكان حين فرنسوا وسافنيان دائماً متحدين ، فى أيام العطلة كانا يتمشيان فى ضواحى باريس . ويتناولان غداءهما تحت شجرة فى أحد فنادق الضاحية التى يكونان قد استقرا بها . وتعلم فرنسوا من صديقه كل الأشياء التى يجهلها عن القرية ... فعرف أسماء الأشجار والزهور والنباتات ، وأصغى كثيراً لآلاف من الكلمات تصف حياة القرية ، كان منها « أغاريد الربيع ، وقصف الشتاء ، وصوت الطواحين على حافة المياه ...» وأخيراً ... اكتشف حين فرنسوا فى روحه ناحية حالة كان يجهلها

لم يكن يزعجه إلا رغبة سافنيان الشديدة فى معرفة شىء عن ماضيه ، ففى بعض الأحيان كانت تفرق من بين شفتيه بعض كلمات عن اللصوص والطريدين ، فكان يحس فى نفسه بآلام تشبه تلك التى تنتج عن جرح تفتح بعد أن كاد يندمل ، وخصوصاً بعد ما سأله عن أسرار المدينة الرحمة الخفية الغامضة عليه . كان يتهرب من الاجابة إذ رأى فيها خطراً على صديقه الذى كانت أنوار الحانة تؤثر فيه تأثيراً كبيراً فتجذبه إليها باطراد عجز عن صده . وعند ما أقبل الربيع ، ابتدأ سافنيان يتوجه منفرداً إلى المراقص بعد أن كان يهاب الدخول فيها . فجراً ذات يوم وولج باب إحدى الحانات الخارجى . ومن ذلك الحين ابتدأ فرانسوا يلمس التغير الذى طرأ على صديقه . فقد تبدلت عاداته وتصرفاته ، وأصبح بليداً خاملا ، شريراً ... لا يدفع ما عليه من ديون . فكان يتألم دون أن يشكو إذ لم يجد فائدة من نصائح سبق تكرارها له وحدث ذات مساء بينما كان ساعداً إلى غرفته ساهماً يفكر أن تعالى إلى سمعه قبل أن يدخل صوت غاضب متر فيه صوت الرجل العجوز الذى يشاركهما مسكنهما وصوت صاحب الدار وألحت عليه رغبة قوية ليتسمع حديثهما

وتكلم العجوز قائلا بغضب :

« نعم ... إننى واثق من أن أحداً قد اغتصب حقيبتى ونشل منها ثلاثة جنيهات كنت أخفيها فى صندوق صغير ، كما أننى متأكد من أن ذلك السارق لا يمكن إلا أن يكون أحد رفيقى اللذين أنام معهما. هذا إن لم تكن السارقة هى الخادمة ماريا ، والمسألة تختص بك تماماً كما تختص بى ... أفلست أنت صاحب المنزل ؟ وأقسم أننى سأسوقك إلى المحكمة فوراً إن لم تدعنى أنقب عن ذهبى فى حقيبتهما حالا آه يا ذهبى الضائع .. لقد كان هنا بالأمس وسأخبرك كيف كانوا حتى إذا عثرنا عليهم مستقبلا فلا يكون لأى إنسان أى شك فى صدق قولى . نعم ... إننى أعرف قطعى الذهبية الثلاث ، وأنا أراها أمام عينى الآن تماماً كما أراك . كانت الأولى جديدة تحمل صورة الامبراطور والثانية قديمة جداً . أما الثالثة فكان عليها أثر أسنان كانت تختبر نقاوتها . إنهم سوف لا يضحكون على ... هل تعلم أننى فى حاجة إلى قطعتين أخريين لأكمل باقى ثمن الأرض . هيا وتعال نتبحث معى فى تلك الأشياء وإلا فسأنادى البوليس ... هيا . وتكلم صاحب المنزل قائلا :

— حسن ... سأذهب لأبحث عنهما مع ماريا ولكننى ... وبعد أن أجبرتنى أنت على ذلك ... سأقبل المسئولية على عاتقك إن غضب البناءان »

كانت حياة جيف فرنسوا مملوءة بالمتاعب والمفاجآت ... نعم إنه تذكر جولات سافنيان الليليه ... ولكنه لم يكن ليصدق أنه كان لصا . وتعالى

2017-11-1

إلى أذنيه صوت العجوز فى نبراته الغاضبة ... خيل إليه أنه يستمع لدقات قلبه «هاهى ذى.. هاهى ذى .. قطتى المحبوبة .. انظر أيها العجوز ياصاحب المنزل .. إنها تماماً كما أخبرتك ... وبل للسارق ... إننى فى انتظاره وسيكون السجن بانتظاره هو الآخر »

وفى تلك اللحظة سمع جين فرانسوا وقع خطوات سافنيان وهى تتثاقل ببطء على درجات السلم متجهة إلى أعلى.. يالله .. إنه ذاهب للاغاثة حتفه.. يجب أن ينقذه

ثم فتح باب الغرفة ودخلها وعلى وجهه سيماء تعب شديد ... فرأى صاحب المنزل والخادمة قابعين فى ركن من الغرفة ... بينما كان العجوز را كعا على ركبتيه يقبل جبهتها الذهبية ... وهتف قائلا بصوت جهورى :

— ماذا تفعل ؟ .. إننى أخذت النقود من حقيبتك وخبأتها فى حقيبة زميلى ... نعم إننى لص ولكننى لست بنذل — هيا واطلب البوليس فلن أحاول الهروب . . . ولكننى أود أن أقول كلمة لسافنيان على انفراد ... ها هو ذا قد جاء

بوغت سافنيان حين ا كتشفت جريمته فذهل ووقف بيدا مضموم الذراعين . وأسرع فرانسوا ناحيته وجذبه إليه بقوة كا نما يريد أن يعانقه ثم همس فى أذنه «لاتتكلم» ثم التفت ناحية الآخرين وتمتم قائلاً:

« اتركونى وحيدا معه ... ولقد أخبرتكم أننى لن أحاول الهروب .. لكم أن تسجنونا ها هنا ... ولكن ... بعد أن تدعونا على انفراد »

وخرج الجميع فتهالك سافنيان على الفراش دون أن يفهم شيئا مما جرى . واقترب منه فرنسوا وأمسك بيديه قائلا :

انتبه إلى ... إننى متأكد من أنك سرقت تلك القطع الذهبية لشراء هدية لاحدى فتياتك ... وإن هذا ليكلفك ستة أشهر فى السجن ... لاتلبث بعدها أن ترجع إليه ثانية. ستكون طريدة البوليس والقضاء. إننى أعلم ذلك تماما فلقد مكثت سبعة أعوام فى مدرسة الاصلاح ... وستة مثلها فى سانت بلاجيه ثم ثلاثة أخرى فى بيوس وأخيرا.. خمسة فى تولون . والآن.. لا تخف فلقد رتبت كل شئ وأخذتها على عاتقى

وتمتم سافنيان بصوت فيه رنة الأمل « ... إن ذلك لمروع جدا» ولكن جين فرنسوا استمر قائلا:

عند ما يتوجه الأخ الأكبر للحرب فلا يحاول الأصغر الذهاب ... إننى بدلا منك وهذا كل شئ إنك تهتم بى قليلا ... أليس كذلك ياسافنيان ؟ ؟ إذا فكن رجلا ولا ترفض . إنهم كانوا سيأخذوننى فى تلك الأيام مرة أخرى لأننى هارب من المنفى ، إننى أفضل ذلك ولا أطلب منك شيئاً . . فقط ... أن تعدنى بأن لا تعود . . . لذلك مرة أخرى . لقد أحببتك ياسافنيان ولقد بعثت صداقتك السعادة إلى قلبى بعد أن تفقدتها عيشا قبل أن ألقاك . ولقد كنت حينئذ صادقا وأمينا كما كنت أود أن أكون دائماً . قد كان يكون ذلك لو أنه قد كان لى أب مثلك وأم لتعلمنى الصلاة . والشئ الوحيد الذى آسف له فى حياتى هو أننى لم أكن مفيدا لك . وأخيرا... لاتبك ياصديقى وهيا لنتعانق إذ أننى أسمع وقع أقدام ثقيلة على الدرج . . . إنهم هم مع الجنود وليس من المستحسن أن يعرفوا مبلغ صداقتنا

وجذب فرنسوا سافنيان إلى صدره ...وسرعان مادفعه إلى الأمام فى نفس اللحظة التى فتح فيها الباب. كانوا جميعهم : صاحب المنزل والرجل العجوز الذى أحضر رجال البوليس

وتقدم جين فرنسوا ليترك يداً يديه للقيد وهو يتمتم ضاحكا : « أوه ... إنه الحظ السيئ أخيرا » وهو الآن فى قابين ... يقضى بقية أيام حياته كمجرم لا يمكن إصلاحه .

عادل الهلال

2017-11-11

حاجي بابا الإصفهاني

لكاتب الإنجليزي "جيمز موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل السابع والعشرون

الشاه فى ضيافة الطبيب

انتهت نتيجة التفكير إلى العزم الصادق على الخروج من خدمة الطبيب والرحيل عن طهران. لكن حبي لزينب تتلب على هذا العزم فآثرت البقاء فى خدمته وقلت إنه ليس يعلم ولا يظن أنى أنافسه فى حبه ولا أنني أنا السبب فى الاضطراب الذى حدث اليوم فى منزله والاهانة التى ألحقتها به زوجته ولكنه كان يعلم على كل حال أن رجلاً دخل منزله فى غيبته ولم يكن قبل مجيء زوجته يعلق أهمية على ذلك بل كان على ما يظهر مسروراً لمعرفته هذه الحقيقة لأنها تسهل عليه طريق الحب مع زينب

لكن رأيه قد تغير بلا شك بعد مجيء زوجته، وحدوث ما حدث وسيكون أشد رقابة على منزله وستكون علاقتى بزينب أشد خطراً لسهره من جهة وسهر زوجته من جهة أخرى على حراسة الفتاة مدفوعين بأشد دوافع الغيرة

ظللت بعد عودتى أنظر كل يوم من النافذة لعلى أرى زينب فلم أرها وخطر ببالى أنه لابد أن يكون قد حدث أمر من اثنين فاما أن تكون مسجونة وإما أن تكون سائر الجوارى قد انتهزن هذه الفرصة فشفين ما فى نفوسهن من غل بقتلها. ونفد صبرى فلم يبق منه شيء.

وفى يوم من الأيام رأيت « نورجيهان » الجارية الحبشية تخرج من المنزل لتشترى شيئاً من السوق فتبعتها وقد دعتنى معرفتى بالصداقة التى بينها وبين زينب إلى الوثوق بها فدنوت منها وقلت : « سعدت يا جيهان ! لماذا تسيرين وحدك بهذه السرعة فى هذا الوقت ؟ »

فقالت : « أنا ذاهبة لأشترى دواء للجارية الكردية »

قلت : « ماذا ! وهل زينب مريضة ؟ »

قالت : « مسكينة زينب ! إنها مريضة حزينة وأنتم أيها الفرس فى نهاية القسوة. إننا سود أرقاء ولكن فى قلوبنا رحمة »

قلت : « ما الذى فعلوه بزينب حتى استنكرت من أجلهم أعمال الفرس ؟ » فأخبرتني بأن سيدتها سجنت زينب بسبب غيرتها منها فى حجرة ضيقة وحرم عليها الانتقال منها وعوملت معاملة قاسية فمرضت بالحمى واشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت، ولكن قوتها وشبابها تغلبا على المرض فأبلت منه، لكن السيدة ساءها ذلك فصارت تأمر بشراء العقاقير الضارة بالصحة وتكرهها على تعاطيها حتى لا تتحسن صحتها فيبدو جمالها. ثم وعد الشاه رئيس أطبائه بأن يزور منزله تشريفاً لقدره واعترافاً بخدماته فأرادت السيدة أن تظهر جواريها أمامه بمظهر يسره وأمرت بأن تعالج زينب حتى تعود إلى ما كانت عليه من الصحة والجمال لكى تكون فى خدمة الشاه بهذه الزيارة.

2017-11-11

وقد تبين لى بعد هذا اليوم صدق ما أخبرتنى به نورجيهان وعلمت أن الشاه لن يجمل هذه الزيارة عادية بل سيزيد من تشريف طبيبه بأن يتناول العشاء عنده ، وكان الطبيب خائفاً مضطرباً وكان بعد هذه الزيارة نذير سوء على ماليته لأنه لن يخرج منها إلا مفلساً

وكان أول واجب عليه أن يفرش الطريق بين قصر الشاه وبين منزله بالسجاجيد وينطيها بالأزهار والرياحين وفقاً لتقاليد هذه البلاد

وكان فى حيرة شديدة لأنه إن أظهر غناه تعرض فى المستقبل للمطامع ، وإن لم يظهره تعرض لاحتقار منافسيه . وبقى مدة طويلة لا يفكر فى استشارتى ولكنه عاد فتذكر ما أبديته من الذكاء حين أرسلنى فى مهمته مع الطبيب الأجنبى فأرسل إلىّ وقال: «أشر على يا حاجى بابا بما ينبغى أن أفعل فى هذه المشكلة الصعبة . إن جلالة الشاه سيزورونى وسيزور وزير ماليته فى يوم واحد . ووزير المالية كما تعلم أغنى رجل فى البلاد ويستحيل على أن أنافسه ، وقد علمت أنه سيجعل الأبسطة التى يفرشها فى الطريق موشاة بالذهب ، وسيجعل على جانبى الطريق شيلاناً من الكشمير ليمشى عليها جنود الشاه، وأنت تعلم أن وزير المالية لم يعلن هذا العزم منذ الآن إلا لأنه يتجر فى الشيلان والأبسطة ويريد أن أشترى منه بعضها ولو فعلت ذلك لما بقى عندى من المال بقية »

قلت : « إنك لست من الغنى فى منزلة الوزير ولكنك رئيس الأطباء ومرتبتك بين رجال القصر كرتبة الوزراء ، وفضلا عن ذلك فان زوجتك من نساء البلاط فيجب عليك من أجلها أن تبذل كل ما فى وسعك ولو كان فيه إرهاق لماليتك . ولا شك فى أن الشاه سينضب إذا لم تستقبله الاستقبال اللائق به فكن عند الثقة التى وضعها فيك »

قال الطبيب : « إن الذى تقوله ياحاجى بابا صدق كله ولكننى بالرغم من ذلك فقير . وإذا راعيت الاعتبارات التى ذكرتها فواجب على أيضاً أن أراعى اعتباراتى المالية، أفلا يصح الا كتفاء بفرش الطريق بالأزهار وأن أذبح ثوراً أو ثورين وأكسر قناتى الشراب تحت أقدام جواده ؟ ألا يكفى ذلك؟ أجبنى!»

قلت : «هذا مستحيل . وإذا فعلت ذلك فإنك تعرض نفسك لأشد الهوان ، وتكن أعداءك من أن يحملوا الشاه على تجريدك من كل ما تملك حتى تصبح معدماً مثلى . ولا ضرورة إلى أن تفعل كما يفعل وزير المالية فافرش الأرض بالقطيفة، والحديقة بالسجاجيد ، وغرف المنزل بالكشمير ؛ ولن تكون تكاليف ذلك باهظة »

فقال الطبيب : « إننى أقدر لك هذه النصيحة وقد أتبعها، وعندى شيلان زوجتى وهى كافية لفرش الغرفة التى سيجلس فيها جلالته وسجاجيد المنزل تكفى لفرش الحديقة وسأشترى من القطيفة ما يكفى لفرش الطريق »

قلت : « ولكن تذكر أن جلالة الشاه سيدخل غرف الحرم فى منزلك فيجب أن تكون مفروشة كلها بالشيلان ، ويجب أن تظهر جواريك كلهن أمام جلالته لابسات أفخر الثياب

فقال الطبيب : « إذا كان الأمر كذلك فعليهن أن يقترضن الثياب والمصوغات من جاراتهن »

لم أجبه على هذا القول لاعتقادى أن زوجته لن توافق عليه وأنها ستكفينى مؤونة الرد عليه وهى قادرة على إكراهه على ما تريد

وعند ما تمت هذه الزيارة كان كل من فى المنزل

2017-11-11

فى ثياب لائقة وقد تكلف الطبيب من النفقات أضعاف ما كان يقدره

الفصل الثامن والعشرون

ضيافة الشاه

فى صباح اليوم الذي حدث فيه هذا الحادث العظيم وهو اليوم الذى قرر المنجمون أنه مبارك يصلح لانتقال جلالة الشاه لأداء الزيارة — فى صباح ذلك اليوم جلس الشاه على عرش وضع له فى حديقة منزل الطبيب وقد أقيمت فوقه مظلة من الأزهار ودارت النوافير فى وسط الأحواض المصنوعة من المرمر والتى حليت فى ذلك اليوم بأزهار البرتقال وثماره

وذبح الطبيب من الأغنام والماشية عدداً وافراً جداً يكفى لإطعام نصف المدينة وصنع الطعام ثلاث من أصناف الحلوى والفواكه المجففة والمثلجة

وكان ممن حضروا مع الشاه هذه الوليمة كل وزرائه وكبار الموظفين فى القصر والعلماء وفرقته الموسيقية

وكان الطريق من القصر إلى منزل الطبيب مفروشاً بالسجاجيد الفارسية والأزهار وقد بدأ الموكب بذهاب ميرزا أحمد إلى القصر ليعلن استعداده لهذه الزيارة ؛ وعلى أثر ذلك تقدم بعض الجنود من الفرقة الموسيقية ليخلوا الطريق وليعلنوا بالنفخ فى أبواقهم أن الموكب الملكى سيمر ، وتقدم الموكب عدد كبير من الضباط بثيابهم الرسمية المحلاة بالذهب ووراءهم رجل يحمل نرجيلة الشاه الذهبية وآخر يحمل علبة التبغ وآخرون يحملون أشياء مماثلة

وبعدهم الوزراء والعلماء ورجال البلاط سائرين على أقدامهم وفى وسطهم الشاه راكباً جواده ووراءه فرقة من الجيش

وكان عسكر خان شاعر الشاه بين موظفى القصر الذين رافقوا جلالته فى هذه الزيارة

وكان الطبيب احمد خان الذى شرفه الملك كل هذا الشرف يمشى حافياً فى الموكب إعلاناً لشكره وخضوعه

ولما وصل الموكب إلى البيت وقف الطبيب عند بابه يستقبل الشاه، فلما نزل عن جواده قال الطبيب: « إن أحقر فرد من رعاياك يا جلالة الشاه يبدي خضوعه لملك الملوك ظل الله على الأرض ويتوسل إليك أن تتم النعم التى أسديتها إليه بأن تشرفه بدخول منزله »

فأجابه الشاه : « الحمد لله الذى وهبنا خدماً مخلصين مثلك يا ميرزا أحمد . لقد بيضت وجهك أمامي وعلت منزلتك عندي فاحمد الله على أن ملكك زار منزلك وقبل ضيافتك »

عند ذلك سجد الطبيب وقبل الأرض بين قدمى الشاه وصاح الوزراء : « نقسم برأس الشاه أن ميرزا أحمد عبد مخلص لجلالة مولاه وأنه لفنان عصره فى الطب والحكمة »

قال الطبيب : « كرم من أخلاقكم أن دعوتمونى لفنان عصرى ولست مثل لقمان وإنما رضى عن مرتبته تشرفي بالوجود فى ظل الشاه ملك الملوك . من ذا الذى يستطيع منافسة الفرس وهم تحت حكمه؟ وأى طبيب أجنبي ينافس طبيب جلالته فى حكمته وعلمه ؟ »

دخل الشاه وهو يقول : « صدقت، فان فارس قد اشتهرت منذ بدء تاريخها إلى الآن بذكاء أهلها

وجلال ملوكها، وليس فى العالم ملوك بلغوا من العظمة ما بلغه ملوك فارس من عهد قمبز إلى عهدى . نعم إن فى الهند حكاماً، وفى بلاد العرب خلفاء، وفى بلاد الترك سلاطين، وفى الصين قياصرة، ولكنهم ليسوا مثلنا . أما بلاد الفرنجة فاننا عرفنا بعض أهلها فى العهد الأخير، ويقولون إن فيها ملوكا عظاماً لم نسمع بأسمائهم »

قال أحد الوزراء : « فى بلاد الفرنجة يا جلالة الشاه أمم كثيرة إذا استثنينا منها انكلترا وفرنسا فان سائرها لا يعدل شيئاً فى الوجود . أما السكوفيون فانهم ليسوا أوربيين بل هم أقل من أن يكونوا عبيداً لأوربا »

ضحك الشاه ضحكة عالية وقال : « صدقت، فهم أناس تحكمهم امرأة يقال لها كاترينا وهى امرأة عجيبة تأتمن على سياسة بلادها وزيراً مجنوناً يدعى بوتمس، وقد بلغ من جنونه أنه أرسل جيشاً ليغزو الهند كأن فارس أذنته بذلك . والروس يحلقون ذقونهم ويلبسون ثياباً ضيقة ويدعون أنفسهم من أجل ذلك أوربيين كما ربط المرء فى ذراعيه جناحى أوزة ويدعى أنه ملك كريم »

قال الوزير : « تبارك الله ! من فى ملوك الغرب يتكلم بالحكمة التى يتكلم بها جلالة الشاه ؟ »

فقال وزير آخر : « أسأل الله أن يديم عهده ألف عام »

وقال وزير ثالث : « أسأل الله أن يديم له الصحة والعافية » واستمر الشاه يقول : « إننا نسمع أخباراً عجيبة عن نسائهم فليس فى بيوتهم مكان خاص بالسيدات بل هن يمشين مع الرجال كأنهن بعضهم ولا يضع النساء نقاباً على وجوههن بل يعرضن هذه الوجوه لكل من أراد كنساء قبائلنا المتنقلة . قل لى يا ميرزا أحمد، فأنت طبيب وفيلسوف كيف اختصت العناية الالهية المسلمين دون غيرهم بالنساء الخاضعات المطيعات » ثم ابتسم ابتسامة الساخر وقال : « لقد سمعت أن زوجتك من أوفى النساء وأكثرهن خضوعاً » .

فقال الطبيب : « لقد شملنى عطف ملك الملوك فتوافرت لدى كل أسباب السعادة والراحة، وأما زوجتى وكل ما نملك من أرقاء الشاه . وكل ما أوتيت من نعمة فهى من إحسانك الذى أحال نقائصى إلى فضائل . أما سؤالك عن اختلاط نساء الأوربيين برجالهم فأقول والله أعلم إن الأوربيين لا يفضلون البهائم والوحوش فى شىء، فهم لذلك لا يعرفون الحجاب كما أن إناث البهائم تختلط بذكورها . والبهائم والوحوش لا تتوضأ ولا تصلى ولا تدرك النجاسة فى لحم الخنزير، وكذلك الأوربيون. وقد علمت أن فى كل بيت بأوربا حجرة خاصة تربى فيها الخنازير، ولابد أن تكون علاقة الزوجية علاقة ضعيفة جداً فى تلك البلاد لأن كل امرأة فيها تقابل أى رجل »

قال الشاه : « أحسنت يا ميرزا أحمد. ومن الواضح أن كل الناس وحوش أو بهائم ماعدانا نحن . ولكننا سمعنا يا ميرزا أحمد أنك جعلت منزلك هذا كالجنة فلأنه بالحور، فهل هذا صحيح ؟ »

فسجد ميرزا أحمد وقال : « لك يا مولاى عبدك وما ملكت يداه، وإن أسعد ساعة فى حياتى هى التى يشرفنى فيها جلالة الشاه بدخول منزل الحرم » .

2017-11-11

قال الشاه : «سرى بأعيننا ما سألنا عنه» وإن نظرة من الملك لتجلب الحظ . ثم فأخبر سيدات الحرم أن الشاه داخل لزيارتهن . وإذا كان فيهن مريضة، أو من ينتظر رغبة لم تستطع إبداءها إلى الآن، أو جارية تحب إنساناً بعينه وتريد أن تتزوج منه، أو زوجة تريد أن تتخلص من زوجها فلتقل ذلك للشاه » .

كان عسكر خان شاعر الملك سا كتاً إلى هذه اللحظة، ويظهر أنه كان شارد الذهن فى نظم أبيات؛ فلما نطق الشاه بما نطق به وقف الشاعر وأنشد أبياتاً امتدح فيها الشاه وقال إن نظرة منه تنال من المرض مالا ينال منه الدواء وهنأ فيها الطبيب بزيارة الشاه له وتكريمه إياه »

وكان كل الموجودين ينصتون إليه حتى انتهى منها فهنأه الشاه بجودة شعره وفضله على الفردوسى ثم أمر كل الموجودين أن يقبلوا فمه . ثم ابتدأت الحاشية وجرى الاستعداد للوليمة .

الفصل التاسع والعشرون

الوليمة

لم يكن فى الغرفة التى تتندى فيها الشاه غير الخدم إلا أبناء الشاه الثلاثة . وقد كانوا واقفين فى طرف تلك الغرفة وظهورهم للحائط والسيوف معلقة على جنوبهم ، وكان ميرزا أحمد واقفاً بباب تلك الغرفة مستعداً لتلبية الأوامر . وكان القماش الذى غطيت به المنضدة موشى بالذهب كما كان الملعت والاريق المدلان لغسل يدى جلالته مصنوعين من الذهب. وجيء بالطعام فى أطباق مختومة بالشمع الأحمر بخاتم أمين الملك الذى فحصها فى المطبخ فوجدها خالية من السم . ولا يفض هذا الختام إلا أمام الشاه نفسه على المائدة .

وكان الطعام أنواعاً من الحساء، فنوع من لحم الضأن وآخر من الطير وآخر من السمك ، وبل ذلك طعام خاص مصنوع من اللوز والبرتقال والسكر، ثم أنواع متعددة من السمك فى أوان بعضها ذهبى والبعض فضى والبعض من أغلى أنواع الخزف المصنوع فى الصين ، ثم أنواع من اللحم بعضها مصنوع بالزبد والبيض وأصناف من الخضروات والبقول ، وجيء بالحلوى والأشربة المصنوعة من عصير الفواكه

ولما فرغ الشاه من طعامه انتقل إلى الغرفة المجاورة ليشرب القهوة ويدخن . وأذن لأبنائه الأمراء والوزراء أن يتندوا من فضلات طعامه . وفى أثناء تناول جلالته للنداء أمر بأن ينقل طبق من أطباق الطعام التى كانت أمامه إلى ميرزا أحمد الواقف بالباب وأذنه بأن يتندى به فعد ذلك أكبر تشريف منه . ودفع الخادم الذى نقل إليه الطبق مبلغاً كبيراً من المال . وكذلك أكرم الشاه زوجة مضيفه بنقل بعض الأطباق إليها

وبعد أن تندى الوزراء نقل الطعام إلى من هم دونهم فى المرتبة ، وفى هذه الأثناء زار الشاه مسكن الحرم مع مضيفه الطبيب . وقد كنت شديد الخوف والجزع فى أثناء هذه الزيارة . وزاد خوفى حتى أدركنى اليأس حين علمت بعد ذلك أن الطبيب أهدى إلى الشاه جاريته الكردية زينب

امتقع لونى عند ما سمعت هذا الخبر وعزمت على

مقابلتها قبل الذهاب إلى القصر الملكي مهما كلفني ذلك، وكان في مسكن الحرم كوة تطل على الطريق فقلت في نفسي إن زينب ستطل منها بلا ريب ساعة ذهاب الشاه . وكانت هذه الساعة قد دنت فذهبت ووقفت أمام تلك الكوة

وقد صدق ظني فانه ما كاد يتحرك الموكب حتى رفعت بصري إلى تلك الكوة فرأيت زينب تطل منها وقد نظرت إلي، وكان هذا كل ما أرجوه، وتركت لها تدبير الحيلة للقائي

وكان موكب الملك وهو يعود إلى قصره كموكبه وهو آت منه . وكان حديث النساء في هذه الأثناء مناقشات حادة عمن نظر إليها الشاه أكثر مما نظر إلى غيرها ، وعمن نالت إعجابه . وكن جميعاً يظهرن بمظهر الحسد لزينب . وقالت إحداهن : « لست أعرف ما الذي أعجب الشاه منها فهي ليست جميلة! »

فقالت الأخرى : « إن خصرها نحصر الفيل »

وقالت ثالثة : « وقدها نخف الجمل »

وقالت رابعة : « وهي يزيدية من بنات الشيطان »

هذا ما سمعت النساء يتحدثن به ثم لم أعد أسمع شيئاً . ولما اشتد سواد الليل ذهبت إلى النافذة التي في غرفة زينب آملاً أن أراها

الفصل الثلاثون

عاهل بابا يفقد صبيته

شكوت إلى زينب سوء الحالة النفسية التي وصلت إليها ، فنبهتني إلى الخطر الذي ينطوي عليه هذا الحديث . وقالت : إن هذه آخر مقابلة لنا وإنها منذ الآن أصبحت من نساء القصر الملكي ، وإن نصيبها ونصيبي لن يكونا غير الموت إذا وجدنا بهذه الحالة . وكنت شديد الشغف بأن أعرف كيف وقع اختيار الشاه عليها وما هو رأيها الآن في مستقبلها ، ولكن الدموع حالت بيني وبين كل الذي أردت أن أنطق به . ورأيت الفتاة لا تنظر إلى فراقنا باليأس التي أنظر بها إليه فقد شغلها الفرح بحسن مستقبلها حتى عما في هذا المستقبل من الأخطار . فلم أشأ أمام ما رأيته من فتورها أن أظهر لها حرارة حبي

وأخبرتني أنه لما دخل الشاه مسكن الحريم استقبله المغنيات بانشاد قصيدة قالها شاعره في مدحه. ولما جلس في البهو دخلت السيدة فقبلت الأرض بين يديه فأهدى إليها جلالته عقداً من اللؤلؤ. ثم دخلنا فوقفنا صفاً أمام جلالته

قالت زينب : « كنت آخر من في الصف . ونظر جلالته إلينا ، فقابله بعضنا بنظرة جريئة ، والبعض بنظرة خجل واضطراب ، وحملقت إحداهن في وجه الشاه فلم تغض من عينيها . وكان ينقل بصره على مهل من واحدة إلى واحدة حتى إذا نظر إلى أطال نظراته وأخذ يتأمل . وقال للطبيب : « ما هذه الجميلة التي يحتويها منزلك يا ميرزا أحمد ؟ وحق تاج الشاه إنها من أجمل من رأيت . أنت حسن الذوق يا طبيبي فوجه فتاتك كالقمر وجيدها كجيد الغزال، ما شاء الله ! ما شاء الله! »

فأحنى الطبيب رأسه وقال : « جعل الله نفسي فداك يا ملك الملوك . إن الجارية لا تستحق هذا الالتفات ولكنها وصاحبها لك ، فهل تشرفني بأن أضعها تحت أقدام عرشك ؟ »

قال الشاه : « مقبول » ثم أمر رئيس الخصيان أن يجعلني بالقصر الملكي في فرقة المغنيات »

قالت زينب : « ويستحيل أن أنسى يا حبي يا

تلك النظرات التي كانت تنظرها إليّ السيدة ، فقد عبرت بها عن أقصى عواطف الغيظ والغضب والحسد، أما الشركسية فقد كنت أحس أن نظراتها إلى تطعنني في صدري أشد من طعنات الخناجر . أما ورجيهان صديقتي الوفية فقد بدا على وجهها السرور والارتياح لما أتيح لي من حسن المستقبل . وسجدت أمام الشاه ، فنظر إلى نظرة عطف وحنو

وبعد أن خرج جلالته من المنزل لم يعد من فيه يطلقون عليّ لقب بنت الشيطان؛ بل صرن يقلن لي : « يا حبيبتي » و « يا روحي » و « يا نور عيني »

وصارت السيدة تقدم إلى التبغ بنفسها وتدعوني إلى التدخين في نرجيلتها، وصارت تضع بيدها الحلوى في فمي . أما الجارية الشركسية فانها لم تعد تطيق أن تراني ، وكانت تهرب كلما وقع نظرها على وعلى السيدة وهي تلاطفني هذه الملاطفة . أما سائر من في المنزل من الرقيقات فصرن يسألنني بماذا أخاطب الشاه وبماذا أجيبه إن نادائي وكيف أسلك في القصر مع زوجاته وسائر جواريه . وسجل القول يا حاجي بابا أن زينب المسكينة المهملة وجدت نفسها موضع الاحترام والاجلال والاعجاب »

كانت زينب تقول ذلك بلهجة طبيعية تدل على امتلاء قلبها بالسرور ، فلم أشأ تكدير صفوها بأن أنبهها إلى ما في هذا المستقبل الذي تبتهج به من المخاوف والأخطار فان غلطة بسيطة تقع منها أمام الشاه لا تعاقب عليها عقاباً أهون من الموت . وتظاهرت بأني أشاركها السرور لما ينتظرها من السعادة . وقلت لها إنه بالرغم من اضطرارنا إلى التفرق فاني لا أزال آمل أن تجمعنا الأيام فيما بعد . ومن يدري كيف تجري الظروف وتتغير الأحوال

وأخبرتني بأن خصياً من قصر الشاه سيأتي في صباح اليوم التالي ليأخذها إلى الحمام وأنها بعد أن تلبس ثياباً جديدة ستنقل إلى القصر لتتعلم الرقص والغناء مع سائر مغنياته ورافصاته

وهنا نوديت زينب فودعتني وتفرقنا وكلانا قليل الأمل في اللقاء .

الفصل الحادي والثلاثون

حاجي بابا يتعلم الطب

بعد أن ذهبت زينب بقيت في مكاني وأطلقت للفكر عنانه وقلت : « أهكذا الدنيا ؟ لقد كنت في الشهرين الماضيين كأني في حلم . كنت أظنها ونفسي كليلى ومجنونها ، وكنت أحسب قلبها يتحرق حباً كما يتحرق قلبي فاذا أنا مخدوع مضلل وإذا كلتاهما الشاه تذهبان بحبي إلى الأبد وتضمان حاجي بابا واسمه في عالم النسيان ومجعلان زينب ملكية كسائر الملكيات .

مضت عليّ هذه الليلة وأنا محموم وقمت في الصباح مهموماً مغموماً فعزمت على أن أتنزه خارج المدينة لأسلي نفسي . وفي أثناء الطريق وجدت زينب راكبة جواداً ومن حولها الخصيان . وقد كنت أنتظر أن ترمقني بنظرة ولكن خاب ظني فانها لم تبالي فسرت وأنا مصمم على أن أطرد اسمها من خاطري . ولكنني على غير إرادة مني غيرت اتجاهي فبدلاً من أن أسير إلى باب المدينة سرت وراءها حتى وصلت إلى باب القصر فوجدت الجنود مزدحمة عند بابه ووجدت دخولي مستحيلاً وإلا لدخلت مدفوعاً بدافع قوي مجهول .

وقد تنبهت في هذا الموقف وتذكرت حياتي

الماضية وتاقت نفسى إلى الاشتغال بعمل ما . وبينما أنا واقف أمام الباب إذ سقط جندى عن جواده . وتصادف أن غيره من الجنود الموجودين معه قد عرفوني لسبق رؤيتهم إياى فى عيادة الطبيب فدعونى لإسعافه . ولم أكد أسمع هذه الدعوة حتى ظهرت بمظهر الأطباء وسرت نحو المصاب فبدا لي أنه قد فقد الحياة .

وكان جندى فى ذلك الوقت يسكب الماء على صدره وآخر ينفخ فى وجهه دخان التبغ لكى يفيق وثالث يدلك يديه ورجليه . لكن عند ما لمست يدى هذا المصاب كفت سائر الأيدى عن لمسه وجست نبضه وقلت كما اعتاد الأطباء أن يقولوا : « إنه الآن فى حالة شديدة والموت والحياة يتنازعانه »

فاستعد السامعون لأسوأ الأمرين ثم أسرت بأن يهز المريض هزاً عنيفاً ليظهر هل هو أقرب إلى الحياة أو الموت، فصدع الجنود بأمرى وهزوه ولكن بغير جدوى

وبينما نحن كذلك إذ حدث ما لم أكن أنتظره، وأقبل الطبيب الأجنبي وأبعدنا عن المريض وهو يقول : « ماذا تفعلون ؟ يجب أن يحجم المريض الآن وإلا فلن يعيش »

فتظاهرت بالعلم ونسبت الجهل إلى هذا الطبيب وقلت : ماذا تقول ؟ تحجيم ! أهذا هو الطب الجديد ؟ ألا تعرف أن الموت بارد وأن الدم حار ، وأن أول مبدأ فى الطب ألاّ نعالج مريضاً بارداً بدواء بارد ؟ أبهذا أمر أبقراط أبو الطب . إنك إن حجمت هذا المصاب فسيموت فى الحال »

فتحص الطبيب المريض ثم نظر إلىّ وقال : « لقد كفانا الله شر الجدال فلا دواء حار ولا مريض بارد . إن الرجل قد مات »

قلت : « إننا معشر الأطباء لا نملك تغيير الحظوظ ولا مد الآجال »

وبعد لحظات جىء بالملاّ (الشيخ) فأمر بأن يدار وجه الميت إلى القبلة وتربط قدماه بعضهما إلى بعض . وكذلك ربط وجهه بقطعة من القماش وشدت تحت ذقنه وأحكمت عقدتها فى وسط رأسه . ثم نادى بالشهادتين فكررهما سائر الموجودين . وفى هذا الحين جاء أهل الميت فأخذوا ينوحون ويندبون كما هي العادة . ثم جىء بنعش فنقلت الجثة إلى مترلها وبالسؤال وجدت أن الميت كان « نارا كشى » وهى وظيفة تطلق على مساعدى الجلاد وعددهم مائة وخمسون ، وهم يذهبون مع الشاه فى روحاته وغدواته وينحون الناس عن الطريق ويؤدون واجبات الحرس الملكى الخاص

وحدثتنى نفسى بأن أحل فى تلك الوظيفة التى خلت بموته لأنها خير من معاونة الطبيب فى مزج الأدوية والعقاقير . وذكرت أن الجلاد صديق حميم لميرزا أحمد وقد كان عنده منذ أيام قلائل وأقنعه بأن يقسم أمام الشاه بأن التبنيذ دواء ضرورى للمحافظة على صحته فأباح شيخ العلماء لجلالته أن يتعاطى التبنيذ بناء على هذا القسم

قلت فى نفسى : « إذا أمكننى الحصول على تلك الوظيفة فان اتصالى بزينب يعود أكثر مما كان وينقلب سوء حظى إلى سعادة غير منتظرة

2017-11-11

الفصل الثانى والثلاثون

عاجى بابا يصير مهموراً

فى صباح اليوم التالى تقدمت إلى ميرزا أحمد ورجوته أن يكلم الجلاد فى شأنى لكى يسينى فى مكان « النازاكشى » الذى مات بالأمس . وألححت عليه ألا يهمل هذه الفرصة لأن الشاه سيذهب بعد أيام قليلة إلى قصره الصيفى وسيرافقه الطبيب كعادته، فاذا لم أنتحق بهذا العمل الآن فانى سأبقى مدة الصيف عاطلاً

وكان الطبيب لا يزال يتألم من نفقات الوليمة التى أقامها للشاه . وعزم على أن يقتصد فى نفقات المنزل . وكنت أجدر الناس بأن يوفر الطبيب على نفسه نفقات طعامه . فوعد بمساعدتى فى هذا الأمر وقال إنه سيكلم الجلاد فى الصباح وسيخبرنى بنتيجة المقابلة بعد صلاة الظهر فى القصر الملكى

وبعد أن صليت الظهر ذهبت توآ إلى القصر واستأذنت فى الدخول إلى غرفة الجلاد وهى واقعة أمام الباب الكبير . وكان أمام هذه الغرفة عدد كبير يظهر أنهم جميعاً كانوا يطلبون تعيينهم بهذه الوظيفة ، وكان الجلاد فى غرفته يصلى . وفى الغرفة أيضاً صديق عسكرخان شاعر الشاه ، وأمين القصر وكان الثانى يصف للأول حادث الأمس ويسرد عليه تاريخ النازكشى

ولما فرغ الجلاد من الصلاة قال للشاعر إن ما يقوله أمين القصر كذب بحت وإن الوقائع لم تحدث على الصورة التى وصفها . ثم أخذ يقص هو القصة مصححاً لما قيل فكان أشد مبالغة وكذباً ، وكان مما قاله أن الرجل لم يمت إلا بناء على غلطة الطبيب الأجنبى لأن الطبيب الفارسى (وهو بذلك يعنينى) كان قد أعاد إليه الحياة بأن هزه هزات عنيفة ولكن الأجنبى الكافر قصده فات للحال

وفى أثناء هذا الحديث دخل ميرزا أحمد غرفة الجلاد وسمع هذا الجزء من الحديث فأيده ثم أشار إلى وقال : « هذا هو الذى أعاد الحياة إلى النازكشى الذى كان سيظل حياً بيننا إلى الآن لولا جهل الطبيب الأوربى أو سوء نيته

عند ما قال ذلك اتجهت إلى العيون واشرأبت الأعناق ودعيت لكى أقص القصة كما حدثت فلفقتها لكى تكون قريبة مما سمعت وتظاهرت بالعلم الواسع الذى استفدته من ميرزا أحمد رئيس الأطباء وأكثرت من القول فى مدحه والثناء عليه حتى بدا عليه الطرب وتملكه الزهو وكافأنى على ذلك بمدحى عند الجلاد وبتأكيد الوصية

فأظهر الجلاد دهشته وقال : « لست أفهم كيف يطلب طبيب بارع مثل هذا أن يصير جلاداً »

فنظر إلىّ الشاعر ثم نظر إلى صديقه ميرزا أحمد وقال : « لا مانع من ذلك ولا ضرر فيه فان كلا الرجلين من نوع واحد فان الموت بالمقاقير لا يختلف شيئاً عن الموت بالسيف »

قال ميرزا أحمد الشاعر : « أما وقد اخترت هذا النهج من الكلام فان الشعراء حكمهم كحكم الجلادين والأطباء كما تقول فهم يقتلون شهرة من يهجونهم »

وقال الجلاد : « يظهر أن كليكما يريد مزاحتنا فكونا كما شئتما ولست أنازعكما فى القدرة على القتل ولكن اتركا لنا الروح العسكرية . إنكما تستطيبان رائحة الورد ولسنا نستطيب إلا رائحة البارود

ويهز أعطافكما صوت البلبل ولكن لا يطربنا غير صوت المدافع »

قال أمين القصر : « إن كل إنسان يعرف مزاياك جميعاً وقد قدر الشاه لكل منكم المنزلة التي يستحقها على هذه المزايا والمواهب . ثم نظر إلى الطبيب والشاعر وقال : « ها هي ذي دولة روسيا تشاكس إيران ، فأيكما يستطيع إفهامها منزلتنا . هل تغني العقاقير أو الشعر عن السيف والمدفع في قتال الروس ؟ »

فقال الجلاد : « بل ليس لذلك غير الجنود » . ثم اعترته رعشة من الخوف الذي كان يحاول إخفاءه وقال : « من هم الروس ؟ إن مثلهم كمثل البعوضة فان الانسان يتأذى منها ويشعر بالضايقة ولكنه ليس بعيبه أن يقتلها ويريح نفسه من أذاها »

ويظهر أنه أراد التخلص من هذا الموضوع الذي لم يلائم مزاجه فالتفت إلى وقال : « لقد قبلت رجاء ميرزا أحمد وعينتك في الوظيفة الخالية على شرط أن تكون لديك شجاعة رستم وقوة الأسد ونشاط النمر وأن يكون أحب الروائح عندك رائحة البارود وأشجى الأصوات صوت المدفع »

ثم أمرني أن أذهب إلى نائبه ليقلدني أعمال الوظيفة ويتخذ الاجراءات الرسمية لتسليمي

وذهبت إلى هذا النائب فوجدته مشتغلاً بإعداد المعدات لانتقال الشاه إلى مصيفه . ولما عرف أنني الذي عينت في وظيفة النازكشي الذي مات أمر بتسليمي جواداً وأوصاني بالعناية والحرص على حياته، وأمر بإعطائي كذلك ثوباً رسمياً وأخبرني أن راتبي السنوي هو ثلاثون تومانا

وقبل أن أتقدم خطوة في سياق القصة أريد أن أصف للقارئ شخصية الجلاد مراد خان (نازكشي باشا) ونائبه . أما الأول فكان طويل القامة عريض الكتفين كبير العظام يبلغ الخامسة والأربعين من العمر . ولكنه مع ذلك لا يزال محتفظاً بالشباب والقوة . وهو كبير عظام الوجه غليظ الحاجبين أسود الشعر كبير اللحية طويل الشاربين كبير الكفين

وكانت تبدو على وجهه هيئة تبعث الخوف في نفوس الأشرار . وكان الرجل منهمكا في ملذاته يسمع في بيته الغناء وتدق الطبول كل ليلة من الغروب إلى الشروق ويشرب النبيذ في الصباح وفي المساء ولا يبالي بعداوة العلماء ويسخر بهم

وكان يحمي المغنين والراقصين فما يجسر أحد من أهل المدينة على عداوة واحد منهم . وكان من أشهر الفرسان ويعتقد كل إنسان رآه أنه كبير الشجاعة والاقدام ولكنه كان في الحقيقة جباناً . وإنما اعتاد أن يخفي جبنه بكثرة الادعاء والمفاخرة حتى ظنه الناس بطلا من أبطال عصره

وكان نائبه رجلاً غليظاً ذا مظهر خشن . وكان يعرف أخلاق رئيسه فاعتاد أن يتملقه ويقول إنه ليس في إيران من يستحق أن يلقب بالرجل غير الشاه وجلاده .

وقد أدركت أن أقوى خلق فيه هو الحسد وخشيت أن يضع العراقيل أمامي لأنني عينت في هذه الوظيفة دون أن أقدم هدية إليه أو أستعين بوساطته ، فحاولت أن أصرف عن نفسي أذاه بأن أتملقه كما يتملق رئيسه وأدركت أنني على كل حال أطلق منه لساناً فصرت أقول إنه من صفوة الضباط وإن لديه الصفات التي تؤهله أن يكون جلاد المستقبل .

2017-11-11

فاستراح النائب لهذا القول وعَدَّهُ فألاً حسناً وقال لى إنه إذا تولى فى المستقبل عمل رئيسه فسوف يرفع منزلتى لما يتوسمه فىَّ وإنه يرى مؤهلاتى التى أستحق بها الرقى . وكنت إلى ذلك الوقت لا أزال مقيماً بمنزل الطبيب حتى جاء الوقت الذى سيسافر فيه الشاه إلى مصيفه . ووجدت فى وظيفتى الجديدة تسهيلاً كبيراً فى السوق فكلما أردت شراء شىء وجدت من يقدمه لى بالنسيئة أو هدية .

وكنت فى حاجة إلى أشياء أخرى لا يمكننى الحصول عليها بهذه الطريقة فحصلت عليها بطريق الحيلة، فمن أمثلة ذلك أننى كنت فى حاجة إلى سرير وما يلزم له من الفراش، فذهبت إلى أهل مريض كنا نعالجه فمات وعزيتهم فيه وقلت : إننا لم نقصر فى علاجه ولكن يظهر أن الله لم يمن عليه بالشفاء بسبب هذا السرير لأن فراشه كان من الحرير والحرير غير جائز الاستعمال للرجال ولأن مجملات هذا السرير لم تكن متجهة نحو القبلة .

ولما كان أهل الميت على درجة كبيرة من البساطة والسذاجة فقد اقتنعوا بهذا التعليل واستغنوا عن السرير فأخذته

ومن أمثلة ذلك أنى كنت فى حاجة إلى مرآة ووجدت أحد المرضى ينظر فى مرآته ويتحسر على نفسه لما أصابه من الهزال والشحوب بسبب المرض فأقنعته بأنه ليس به شىء مما يشكوه وأن وجهه كالوردة اليانعة ولكن العيب فى المرآة . وصدق الرجل قولى فرمى المرآة وأخذتها .

وكنت فى حاجة إلى حقيبتين لأضع فيهما ثيابى وكان محمد ميرزا أحد حقيبتان فى عيادته ولكنه شديد البخل ولا تنطلى عليه مثل هذه الحيل التى اتبعتها مع غيره فكنت كلما دخلت إلى مكانهما ورأيتهما مهملتين أخذت أتأمل فيهما وأفكر فى وسيلة للحصول عليهما وأنا آسف على أنى لم أرزق من سعة الحيلة مثل ما رزقه الدرويش صفر فأنال ما أردت بغير نصب ولا إجهاد خاطر .

وأخيراً بدت لى فكرة فنفذتها ونلت بها ما كنت أريد، وذلك بأن وضعت فى الحقيبتين كلاباً حديثة الولادة . فلما سمع عواء الكلاب فى غرفته تشاءم . وكان زواره مترددين إذ ذاك فى غرفته فاختلفوا فى تعليل الصوت وتشاءموا منه وصاروا يبحثون عن مصدره حتى أدركوا أن الكلاب فى الحقيبتين فلم يسع الطبيب غير أن يرمى بهما فى الطريق فأخذتهما .

وسرت على هذه الطريقة حتى توافر لدى ما أنا فى حاجة قليلة أو كثيرة إليه . ولما اقترب الموعد الذى سيسافر فيه الشاه كنت على أتم استعداد للذهاب معه .

الفصل الثالث والثلاثون

عباس بابا فى حاشية الشاه

أخيراً حدد المنجمون الموعد الذى يحسن أن يسافر فيه جلالته وهو اليوم الحادى والعشرون من شهر ربيع الأول فانتقلنا إلى قصره فى السليمانية وهى تبعد تسعة فراسخ عن طهران

وكان مع جلالته حرسه الخاص وفرقة من الهجانة وأخرى من الفرسان ، وكان فى حاشيته الوزراء ورجال البلاط وبعض كبار الموظفين

وفى اليوم الذى سافرنا فيه خرج من المدينة أكثر من ثلاثة أرباع أهلها لرؤية الموكب الملكى وتشييعه إلى خارج المدينة

2017-11-11

وكان الأجانب المقيمون فيها لشدة دهشتهم من هذه الحركة غير العادية يحسبون أهل البلد سيهاجرون منها . وقد قدم كل ميسور الحالة منهم ما استطاع أن يقدمه من الهدايا للشاه بمناسبة سفره ، فكنت ترى وراء الموكب عدداً كبيراً من الجمال والبغال على ظهورها المؤونة والأمتعة المعدة إلى جلالته من مخلفي رعيته . وكنت تسمع هنافهم مقروناً بصوت الأجراس المعلقة فى رقاب الجمال

وفى صباح اليوم الذى حدث فيه السفر اشتغل كل السقائين فى طهران بحركة الكنس والرش فى الطريق الذى سيسير فيه الموكب . وأمر الفلاحون الذين جاءوا كالعادة بمتاجرهم إلى المدينة — بأن يسلكوا طريقاً آخر، ولم يسمح لأية امرأة بأن تقف فى الطريق أو تطل من النافذة فى أثناء مرور الموكب خشية أن تقع عينها على جلالته فيصيبه سوء لأن النساء متهمات بالحسد فى هذه البلاد

وقد وجدت فى نفسى كفاية واقتداراً عجيبين فى المحافظة على النظام فصرت أطرد الناس من أمام الموكب ضارباً إياهم بالسياط على الأوجه والرؤوس والظهور فى غير ضعف ولا خوف حتى أعجب بى سائر الجنود وتساءلوا أى شيطان هذا الذى جىء به لينضم إلى زمرتهم . ونظر إلىّ رئيسى نظرات تدل على الرضى . وكنت شديد الشغف بأن أنال حظوة فى هذا المركز الجديد لكى أندرج فى سبيل الرقى إلى أعلى منه

وكان يتقدم الموكب جنود يلبسون ثياباً حمراء مذهبة ووراءهم فرقة الحرس الخاص ثم الوزراء والضباط بالأوسمة المرصعة والنياشين وفى وسطهم الشاه على ظهر جواده، ووراءه فرقة المشاة، ووراءها فرقة الجمالة

وكنت قد علمت فى صباح يوم السفر أن زينب نقلت من قصر الشاه إلى قصر آخر خارج المدينة على سفح الجبال التى تحيط بها لتتملأ فيه الرقص والغناء ، فلما مررنا بذلك القصر نظرت إليه وأسفت على حظ تلك الفتاة لما سوف تتعرض له من المخاطر

وذكرت ما قالته لى « نورجيهان » من أن الشاه أمر قبل سفره بأن تزاد العناية بتعليم زينب حتى إذا ما عاد من مصيفه فى أوائل الخريف استطاعت أن تغنى وأن ترقص أمامه

ولولا أننى فى الموكب لما التفت بالالتفات إلى ذلك القصر بل لذهبت إليه ووقفت تحت نوافذه أنتظر اجتيازه طلتها عند سنوح الفرصة

وبعد أن سار الموكب يوماً كاملا وصلنا إلى الجهة التى كنا نريد الوصول إليها . ونصبت لنا الخيام على مقربة من مصيف الشاه . وكان معى فى الخيمة خمسة من النازكشية كنت عرفتهم فى المدينة ولكن صداقتنا نأكدت فى هذه الخيمة الضيقة التى لا يزيد طولها على خمسة أمتار وعرضها على أربعة

وكان لنائب الجلاد الذى تقدم وصفه مساعد هو رئيسى المباشر واسمه «شمير على بك» ولا أجد بداً من أن أجمل له نصيباً فى هذه القصة لأنه رفع منزلتى ونوه بى فى مجالس الكبراء والحكام

وكان هذا الرئيس من شيراز، وعلى الرغم من الكراهية المتبادلة بين أهل مدينته وأهل مدينتى ، فقد توطدت بيننا المحبة إلى حد لم أكن أنتظره . وكان هو البادئ متطوعاً إذ لمح على وجهى فى يوم من أيام الحر الشديد أنى ظمآن ، وكان معه قارورة فكسرها وأعطانى قسماً منها ، ودعانى فى يوم آخر لكى جواده لما علم أنى لى دراية بمبادئ الطب ،

2017-11-1

وأهدى إلى غليونا وتبغا ، ثم أخذنا نتبادل الودات حتى صارت علاقتنا علاقة الصديق بالصديق

وكان شمير على بك يكبرني بثلاثة أعوام وهو طويل القامة جميل ذو لحية صغيرة بيضاوية ، له خصلتان جميلتان من الشعر تنسدلان وراء أذنيه كأنهما عنقودان من العنب يطلان من ثنايا الكرمة . وقد استفاد من مدة خدمته تجاريب كثيرة فلما دار بيننا الحديث عن وظائفنا أدهشني ذكاؤه وعلمه وزاد اعتزازي بهذا العمل الجديد

قال لي : « لا تحسب أن أحداً من موظفي حكومة الشاه يمتد قليلا أو كثيراً بالراتب الذي يعطاه بل كل مايمتد به أحدهم اقتداره على الانتفاع بالظروف التي يهيؤها له منصبه . وأنت ترى على سبيل المثل أن راتب الجلاد لا يزيد على ألف طومان في العام ولكنه ينفق خمسة أضعاف هذا الرقم أو ستة أضعافه وهو يتناوله بنظام في بعض الأشهر ولكن ربما مضت أشهر لا يتناول فيها درهما ، وليس في ذلك شيء يهمه لأن اعتماده كما قلت لك على موارد أخرى فكثيراً ما يغضب الشاه على بعض الكبراء أو الوزراء فيأمر بجلدهم وأنت تعرف أن قليلا من القسوة في تنفيذ هذا الحكم قد يؤدي إلى القتل وأن الرأفة في تنفيذه تجعله عديم الأهمية . ومتى عرفت أنه لا يمر يوم واحد دون أن يجلد عظيم أو عظيمان أمام الشاه أمكنك أن تقدر ربح الجلاد مما يدفعه له المحكوم عليهم لكي يخفف عنهم العقاب ، وينفذ الجلاد أحكام القصاص بخلع الضرس واقتلاع العين فاذا لم يعط مكافأة قيمة اقتلاع أعين المذنبين بالخناجر قتلهم بما يقطعه من عروق الرأس وإذا أعطى المكافأة التي يرضاها جرح الأعين دون أن يطفئ نورها . وفي ذلك مورد كبير للربح ولكن المورد الذي لا يمكن تقدير جسامته هو في الهدايا التي ترسل إلى الجلاد بنظام من كل الوزراء والوجهاء والعظماء الذين يتوقعون أن يأمر الشاه بجلدهم في وقت من الأوقات فيشترون مودة الجلاد بما يرسلونه إليه من الهدايا والهبات . وكثيراً ما تتمرد قرية أو قبيلة فيذهب الجلاد على رأس فرقة لينفذ فيها إرادة الشاه ولا تسل في هذه الحالة عما يجنيه من الربح ليترك بعض الرؤوس ويأتي بالبعض وليحرق جانباً من المزارع ويعفو عن الجانب الآخر .

قال لي مساعد النائب : « قبل أن أتقلد عملي هذا كنت رقيق القلب أعرف معنى الرحمة وأقدرها وفي أول عهدي بتنفيذ الأحكام صرت لا أضرب المجلود على قدميه بل على الخشبة التي يربط عليها الساقان ولم يعلمني القسوة غير الحادث الذي سأذكره لك:

« في يوم من الأيام غضب الشاه على أمين القصر فأمر بجلده وكلفني وأحد النائب كتبيين بجلده أمام جلالته . وأمر على سبيل الاستثناء بأن تفرش سجادة تحت أمين القصر عند جلده

« فلما أردنا أن ننزع عن المذنب عمامته وشاله قبل أن نطرحه على الأرض لتنفيذ الحكم همس في آذاننا بأنه سيدفع لكل واحد عشرة طومانات إذا رحمناه في تنفيذ الحكم فلم نصنع إليه وضربناه في أول الأمر بعنف لم نضرب أحداً قبله بمثله فصار يستغيث ويتأوه ويشير لنا بأصابعه أنه سيزيد المبلغ إلى عشرين ثم إلى ثلاثين ثم إلى خمسين ، ثم أشار بيده في النهاية بأنه سيقبل حكمنا أيا كان هذا الحكم فخففنا عنه

« ولما انتهت العقوبة انقلب السخاء الذي كان يبديه ونحن نجلده إلى شح شديد . ولم يقبل أن

2017-11-11

يدفع لنا أكثر مما عرضه أولاً . وقد كان بوده ألا يدفعه لولا خوفه من أن تعود الكرة

« ومنذ ذلك العهد أصبحت شديد القسوة على من أتولى عقابهم إلا إذا نلت منهم مقدماً شيئاً من المال »

سمعت أحاديث كثيرة رواها شمير على بك على هذا المنوال فتعرفت أسرار المهنة التى ازداد حبى لها وحرصى عليها وصرت لا أحلم بشىء سوى الكسب من أى طريق . ولما كان أهم طريق ينيل الكسب من هذه المهنة هو القسوة فقد عزمت على أن أقتلع من نفسى جذور الرحمة حتى أصير كأى سبع من سباع البرية وألا أشعر نفسى شعوراً غير القسوة والشر . ولما اعتدت ذلك صرت لا أحب شيئاً غير تقليم الأظفار وجدع الأنوف وفق الأعين. وهان على أن أعذب أقرب الأقرباء ولو كان فيهم أبى

الفصل الرابع والثلاثون

ذكرى الأسر

أخذت أوازن بين حالى هذه فى خدمة الشاه وبين حالى وأنا فى أسر التركمان فقلت فى نفسى : « الفرق بين الحالتين أنى كنت أولا من فريق المغلوبين وأنى الآن من الفريق الغالب، ولا أعرف لأى سبب من الأسباب أخذت فى سبيل المفاضلة بين الحالتين

وبينما أنا كذلك إذ أقبل على شمير على بك وقال : « يظهر أن الله يريد بك خيراً فقد تهيأت لنا فرصة ربما رفعتك إلى مستوى عال من الرقى إن شاء الله »

ثم أخبرنى أن مدينة سوار الواقعة بين السليمانية وبين همدان لم ترسل الضريبة المفروضة عليها فى هذا العام . وأرسل حاكمها يستذر عن ذلك بأن أحد الأمراء ذهب إلى تلك المدينة من مدة قصيرة ليتلهى بالصيد فأقام فيها بضعة أيام أخذ فى خلالها هو ورجاله كل ما أنبتته المدينة وما ربحه أهلها ، وقد أمرت بأن أذهب لتحقيق هذا القول وآتى بالحاكم والمسئولين من رجاله وتركت لى الحرية فى اختيار من أستصحبه معى ، فاخترتك لتقفى بك فاستعد للذهاب معى فانى ذاهب فى صباح الغد

سررت لاختيارى عاجلا لأداء مهمة ، وكنت بطبيعة الحال لا أعرف الخطة التى رسمها شمير بك ولكننى وثقت بالنظر لما سبق أن أخبرنى به من أن خطته ستعود على وعليه بالربح الطائل وخشيت أن يكون حاكم المدينة قد صدق فيما قال وأن يكون الأمير قد غادره وأهل مدينته من الفقر بحيث لا نستطيع أن ننال شيئاً منهم

على أننى استعددت للسفر فقمت فى الحال إلى جوادى فنظفت سرجه ولجامه ومسحت شكيمته ولم أستطع الامتناع عن مقارنة نفسى به وقلت : « إنك مثلى أيها الجواد وستصبح فى الغد حراً تفعل من الشرور ما بدا لك »

وخرجت فى الصباح الباكر مع شمير بك وقد فاتنى أن أذكر أن لقب « بك » عند الايرانيين غيره عند الأتراك ، فالايرانيون يطلقون هذا اللقب على كل جندى ولذلك كنت أنا أيضاً من حملة هذا اللقب على الرغم من أن راتبى الشهرى لا يتجاوز ثلاثة طومانات

خرجت فى الصباح الباكر مع شمير على بك

2017-11-11

وكنت قد اقترضت سلسلة وضمنتها فى جزاى ووعدت الذى أعارنيها بأن أحضر له هدية ثمينة عند عودتى ويظهر أن جميع الجنود الايرانيين كانوا يعرفون ما وراء هذه المهمات من الكسب ولذلك رأيت ممن استمرت منه إقبالا وثقة ورغبة فى إقراضى كأنه واثق بأنى لن أعود فقيراً كما ذهبت

قضينا طول النهار فى السير ونحن ساعتين من الليل فى قرية بالطريق ثم واصلنا السير ووصلنا إلى المدينة التى كنا نريدها فى ساعة الفجر، وكان النساء فى هذا الوقت قد خرجن من بيوتهن لخدمة الأرض وكن ينشدن الأناشيد كعادتهن فلما رأينا سكتن وغطين أوجههن وكنت أتمنى أن يرى القراء وجه شمير بك فى هذه الحالة فقد كان أحذق من أى ممثل فى الوجود فى تمثيل العظمة حتى غلب خوفى منه على معرفتى به وحتى كدت أخدع عنه. وكانت اللهجة التى يتكلم بها لهجة المسيطر النافذ الكلمة وسأل عن عمدة المدينة فأرشدنا النساء عنه؛ ووجدناه رجلا فى ثياب بسيطة أشيب الشعر رقيق الحالة، ولما رآنا سلم على شمير بك خاضعاً متواضعاً ثم ساعدنا على النزول عن جوادينا وأمر رجاله بأن يأخذوا الدابتين ودعانا إلى دخول منزله. وخلع بيديه حذاءينا كعادة المضيف حين يريد إكرام ضيفه العظيم الخطر

وقد قابل شمير بك كل هذا العمل بكبرياء عجيبة كأن المضيف لم يفعل غير ما هو واجب عليه نحوه وبعد أن صمد شمير بك أنفاساً من غليونه قال بلهجة التأكيد: «اعلم يا عمدة أنا جئنا من قبل الشاه لنعلم كيف منتم الضريبة هذا العام، فأجبنى جواباً صريحاً وبيض وجهك أمامى»

قال العمدة: «إن الذى كتبته إليكم سأعيده الآن، وكل هؤلاء الموجودون يعلمون أنه صدق»

وأشار إلى أهل القرية الذين جاءوا ليرحبوا بنا ثم قال: «إننى أقسم بعينى أننى صادق وأسأل الله أن يعمينى إن كنت كاذباً، وأنت أيها السيد رجل بعيد النظر رحيم الصدر واسع الفكر مسلم تخاف الله، فسأقص عليك الأمر وأترك لك حكمك»

قال شمير بك: «قل وأنا خادم الشاه فصلى تنفيذ حكمه واتباع رأيه وليس لأحد حكم ولا رأى»

فقال العمدة: «كنا خدم الشاه وعبيده ولكنك حاكم مطاع الأمر، مسموع النصيحة، مقبولة مشورتك فأتوسل إليك أن تسمع: منذ ثلاثة أشهر كانت أعواد القمح فى هذه المزارع تبلغ المتر ارتفاعاً وكانت الأغنام كثيرة فى المراعى فجاءنا خادم وقال: إنه آت من قبل الأمير «دمير ميرزا» وإن سموه سيأتى فى اليوم التالى لكى يتلهى بالصيد لأن فى الوديان القريبة منا وعولا كثيرة وغزلاناً وحيراً وحشية. وأبلغنا هذا الخادم أن الأمير يريد إخلاء منازل فى المدينة له ولرجال حاشيته

فلما علم أهل المدينة بذلك استولى عليهم الفزع ولم نجد حيلة مع هذا الخادم ليصرف عنا شر هذه الزيارة وقد حاولنا أن نرشوه فلم يقبل الرشوة، ولم يسعنا إلا أن نخلى المنازل والمدينة تجنباً للسوء ولجأنا إلى الجبال حتى تنصرف هذه المحنة، وأنت تعرف النكبة التى تحيق بفلاحين مساكين كهؤلاء الذين تراهم حين يضطرون إلى مغادرة المزارع وكل ما فيها والمنازل وما اشتملت عليه، وأنت بلا شك تشعر بالرحمة لنا ويكاد قلبك ينفطر علينا حناناً وعطفاً»

قال شمير بك: «ما الذى تعنيه بذلك؟ إن

2017-11-1

واجبكم يقضي بأن تسهروا على خدمة الأرض المباركة للشاه لكي تستطيعوا دفع الضرائب له . وأنتم هربتم من أرضه وأهلتموها ثم تزعمون أنكم تستحقون العطف والرحمة ؟ »

فقال العمدة : « أتوسل إليك أن تصغي إلى حديثي حتى آخره . لقد حملنا على ظهور الأغنام والمواشي كل ما استطعنا حمله من الحبوب لما انتقلنا إلى الجبال وسكنا في كهوف بها قريبة من مجرى النهر ولم نترك في المدينة غير ثلاث عجائز وغير القطط »

قال لي شمير بك : « هل تسمع ياحاجي بابك ؟ إنهم يقولون إنهم أخذوا ما يستعزون به وتركوا عجائزهم للأمير . هل سمعت في حياتك شيئاً كهذا ؟ ثم نظر إلى العمدة وقال : « استمر »

فاستمر العمدة يقول : « وظللنا نرسل جواسيس بين حين وحين ليخبرونا عما فعله الأمير بالمزارع وقد أخبرونا أن الأمير لما علم بتركنا المدينة هاج وغضب أشد الغضب وأرسل إلى أتباعه ليكسروا أبواب المنازل عنوة فلم يجدوا مقاومة إلا من عجوز كان لا يزال عندها من القوة ما ساعدها على مغادرة الفراش ، وقد أبدت شجاعة عظيمة في تأنيبهم وإسماعهم ما يكرهون من قوارص الكلام »

قال العمدة : « وقد سكن الأمير في منزلي وأرسل إلى أهل القرى المجاورة يأمرهم بأن يبعثوا إليه بما يلزم جنوده من القمح . فأرسلوا إليه وفوده تبلغه خجلهم مما فعلنا وسخطهم علينا ؛ وبعثوا إليه مع هذه الوفود ما جنوه من مزارعنا ، وأفهموه أن هذه مزارعهم وأن الذي أرسلوه هدية منهم وأخذوا لأنفسهم سائر ما في المزارع

فأنت ترى يا رسول الشاه أننا جردنا من كل شيء وأنه لم يبق لنا غير رحمة الله وعطفكم .

فوقف شمير على بك مغضباً وأمسك بلحية العمدة وقال : « ألا تخجل أيها الأشيب من التفوه بهذه الأكاذيب ؟ ألم تقل لي منذ لحظة إنكم حملتم على ظهور الغنم والماشية ما اعتززتم به ثم تنسى قولك في الحال وتدعي أنه لم يبق لكم شيء . إذا كنت تظن ياعمدة أنك تستطيع الضحك على ذقوننا فانك مخطئ وسنعلمك هول خطئك إن كنت لم تصله إلى الآن . أنت لا تعرف شمير علي بك ولا تعرف أننا من أناس ينام أحدهم باحدى مقلتيه ويسهر بالأخرى . أنت إذا استطعت أن تخدع سائر الناس فليس في وسعك أن تخادعنا فاعطن إلى نفسك »

قال العمدة : « أعوذ بالله أن أكون قد فكرت في خداعك أو خداع غيرك فاني آخر من يخطر الخداع بباله . إننا عبيد الشاه وكل مافي أيدينا فهو مملوك له ولكننا جردنا فلم يبق معنا شيء ولست أسألك إلا أن تذهب إلى المزارع فتراها بعينيك ثم تأتي إلى المخازن فترى هل فيها شيء مدخر ؟ »

فقال شمير بك : «سواء أجردتم أم لم تجردوا وسواء أكان لديكم قمح أم لم يكن لديكم فانه ليس أمامنا غير طريق واحد وليس في فمنا غير كلمة واحدة هي أن ما أمر به الشاه يجب أن ينفذ وإلا فتأتي معنا أنت ورجالك إلى السليمانية حيث تقابلون الشاه »

بعد هذه الكلمة تداول العمدة مع رجاله همساً وهم واقفون في ركن من الغرفة ، وكنا في ذلك الوقت ندخن ونظهر عدم المبالاة ونبدي من العظمة ما نضحك بيننا وبين أنفسنا من إبدائه

وأخيراً أعلنوا نتيجة مداولتهم وحاول العمدة أن يستلين قلبي وحاول رجل آخر غيره أن يستلين

قلب شعير بك، وقد أكد لى العمدة أنى أكل خلق الله، وأقسم أنه قد أحبنى هو وكل أهل القرية وأنهم جميعاً يعتقدون أنى أنا الرجل الوحيد الذى يستطيع تذليل مصاعبهم

وكنت أظهر الثبات والوقار وأنا أسمع هذا الاطراء، ثم شجعته على التكلم فى التفصيلات فقال إنهم تشاوروا فيما بينهم واجتمعت كلمتهم على أنه من المستحيل أن يرسلوا ما ليس فى أيديهم وأن القليل الذى فى أيديهم لا يصح أن يرسل للشاه ولذلك فهم يرون إعطاءنا ما يرضينا لكى نتولى الدفاع عنهم

قلت له : « هذا كلام معقول ، ولكننى لست الرجل الوحيد الذى أرسل لهذه المهمة وإن استرضائى وزميلى ليس يكفى لأن رئيسنا يجب أن يرضى كذلك وإذا لم يكن قسطه أوفر الأقساط فان جهودنا تذهب سدى ويضيع على أهل المدينة ما دفعوه »

فقال : « لكم علينا أن نعطيكم كل ما معنا واقتسموه أنتم كما تريدون . أما الضريبة فليس دفعها ممكناً بحال من الأحوال لأننا لم نعد نملك غير نسائنا وأطفالنا ، ونظن أنه ليس للشاه رغبة فى أخذ ذلك بدلا من الضريبة »

قلت : « مادام معكم مال كاف تستعدون لانفاقه فانكم بالنون كل رغبة فى نفوسكم . إنكم بالمال تستطيعون أن تشتروا التاج الذى على رأس الشاه . أما إذا لم تدفعوا ما يخلصكم من هذه الورطة فلا تنتظروا غير الجلد »

قال العمدة : « المال ! المال ! ومن أين نأتى بالمال ؟ إننا لا نكاد نكسب شيئاً من النقود الذهبية حتى يأخذه نساؤنا ويجعلنه حلياً لمن ضنابه وحرساً عليه، وإذا اجتمع لدى أحدنا عشرون أو ثلاثون طوماناً دفنها تحت الأرض خوفاً عليها من رغائب النفس ومشتهياتها »

ثم دنا منى وهمس فى أذنى قائلا : « يظهر ياأخى أنك ذكى فأرجو ألا تدعى الغباء . إن الرجل لا يلق بنفسه بين مخالب الأسد إذا كان فى وسعه أن يتجنب ذلك، فقل لى كم يرضى زميلك هذا (وأشار إلى شعير بك) ، هل يرضى بخمسة طومانات وشالين من الكشمير ؟ »

قلت : « لا أظن ذلك يكفيه وأنا على كل حال أريد خدمتك رحمة بك وإشفاقاً عليك فاجعل الطومانات عشرة واجعل الشالين ثوبين كاملين وسأبذل جهدى معه لكى يقبل »

فقال العمدة : « هذا كثير جداً وقريتنا كلها لا تساوى هذه القيمة فأقنعه بما عرضناه وستقدم إليك هدية تدهشك »

اشتد شوق إلى معرفة هذه الهدية التى يعدنى بها ، ولكننى لم أظهر له أنه استخفنى بهذا الوعد فقطعت حديثى معه وقلت لشعير بك فيما بينى وبينه: إن قليلاً من التشدد سيجعلهم ينزلون عند حكمنا ويدفعون الطومانات العشرة والثوبين وإنه لا يتفق مع كرامة الجندى الفارسى أن يقبل من الأعداء أقل من العشرات

ثم قلت للعمدة : « إذا أنت لم تقبل وساطتى ولم تذعن لحكمى فانك ستستحق ما ينزل بك من أنواع العنف . ولا ينفعك سمتك ونظرائك الهادئة»

وبعد فترة استطاعوا هاعادوا إلى الاجتماع بالركن الذى سبق لهم الاجتماع به. ثم تركهم العمدة يتحادثون وخرج وعاد بعد قليل يحمل لنا سلة من التفاح

2017-11-11

والخوخ ومائدة عليها طبق من العسل وآخر من الجبن وتوسل إلينا أن نشرفه بتناول الطعام فى منزله

ثم قال لشمير بك بصوت خافت إنه يرجو قبول خمسة الطومانات والشالين لأنه وأهل قريته أناس فقراء إلى درجة تذوب لها القلوب الرحيمة مثل قلب شمير على بك

واتفقت وزميلى على رفض الطعام وأمرناه بأن يرفع الطعام من أمامنا ، فبدا التأثر على القوم الفقراء وكادت تنحدر من أعينهم الدموع ، وحمل العمدة ما جاء به وهو مطأطىء الرأس ذلاً وخجلاً

وكنا فى هذه الأثناء كلما فرغ الخليون عدنا إلى ملئه واشتغلنا عن النظر إليهم بالتدخين ، وعاد العمدة بعد فترة استطلنا ها نحن أيضاً ، وسألنا هل تقبل طعامه إذا أحضر عشرة الطومانات والثوبين ؟

فأشار زميلى إشارة القبول وذهب العمدة وعاد سريعاً بالمال والثوبين والطعام ، فأخذ شمير بك ماتمم الاتفاق معه عليه ، وبدأنا نأكل ، وانتظرت الهدية التى ستدهشنى ، فلم يقدم لى أحد هدية سوى أن العمدة أخذ يشير لى بحاجبيه وعينيه فقلت له : « أين الهدية وما مقدارها ؟ »

فقال : « انتظر قليلا فهى آتية . إنها لم تتهيأ بعد »

وفى النهاية جاء بالشالين اللذين رفضهما شمير بك فوضعهما أمامى وزاد عليهما كلمات لطيفة راجياً ألا أكسر خاطره وألا أرد هديته

فغضبت وقلت للرجال الذين كانوا لا يزالون بالركن : ألا تعرفون أيها القوم المساوىء الحياء أننى جلاد وأننى أستطيع إحراقكم وإحراق أبنائكم وأذيقكم من الأحزان ما ليس يخطر لكم ببال ؟ ماذا تريدون بتقديم هذين الشالين القديمين لى بعد ما لبسهما جدودكم وآباؤكم من بعدهم ؟ هل أردتم إهانتى بتقديم هذه الهدية ؟ خذوها فى الحال وإلا اضطررت إلى إفهامكم ماذا يفعله النازا كشى إذا غضب »

فهم العمدة بأن يذعن لقولى ويأخذ الشالين ولكن شمير بك تدخل فى الأمر وقال : « أرنى هذين الشالين »

وفحصهما وقال : إنهما جديدان ولاعيب فيهما وقد قبلتهما وجعلتهما مع نصيبى وأنا أشكركم وأسأل الله أن يثيبكم »

فنظر كل منهم إلى الآخر نظرة دهشة واستغراب ولكن لم يجرؤ أحد منهم على النفوه بحرف . وضاع علىّ الجزاء الذى كنت أنتظره لأن مسلك شمير بك ألزمنى الصمت ، وإذا كنت قد خسرت ما كنت أطمع فيه من هدية فلقد استفدت تجربة عظيمة الأهمية هى أن أعرف كيف أعامل أبناء وطنى بعد الآن وألا أثق بمن أدعوه صديقى .

(يتبع) عبد اللطيف النشار

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الالمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً

فهرس المجلد الثانى من الرواية

الصفحة	القصة	المؤلف	المترجم
	(العـدد ٢٥)		
١	رجل البحر	هـ . أ . مانهود	أحمد حسن الزيات
٦	الرجل الذى صنع المعجزات	ولز	دريني خشبة
١٧	الثائر الساذج	ليو تولستوي	محمد لطفي جمعة
٢٤	أعصاب	أنطون تشيكوف	جورج سلستى
٣١	أول ابريل	نجيب محفوظ	
٤٢	بسمة الجوكندا	ألدوس هكسلى	حسن حبشى
	(العـدد ٢٦)		
٦٥	قتل	أرنولد بنت	أحمد حسن الزيات
٧٢	كيد معاوية	دريني خشبة	
٨٠	جنون لحظة		عبد اللطيف النشار
٨٣	الموعظة الأخيرة	إدوار كاترمير	محمد لطفي جمعة
٩٤	آلات الموت الثلاث	تفسترن	(ن . ع)
١٠٠	الفستان الأبيض	ستاكي أوموليير	نظمى خليل
١٠٧	الفلاح والتاجر	تاراشندوري	ابرهيم ابرهيم يوسف
١١٢	ثورة الجهال	يعقوب بابول	
١١٦	المحتضر	موباسان	كامل الحريرى
	(العـدد ٢٧)		
١٢٢	صديق الكلاب	أحمد حسن الزيات	
١٢٥	صمت المهراجا أو ضيافة الهنود	مارى كورلى	دريني خشبة
١٣٧	الخال المندي	م . ل . هويكنس	محمد لطفي جمعة
١٤٢	يحكى أن ملكا	طاغور	غرى شهاب السعيدى
١٥٨	قصة سيف	استيفان زوايج	أحمد فتحي عبد الوهاب
١٧٥	شعبدانات الأسقف	لنورمان ماكنيل	« الناقس »
	(العـدد ٢٨)		
١٧٨	الدواء الذى يخلق البقرة	ماكس بيربوم	دريني خشبة
١٩١	إن عادت الحية	هنرى بارنابلس	محمد لطفي جمعة
٢٠٥	الذكرى	نجيب محفوظ	
٢١٦	التحرير	طاغور	غرى شهاب السعيدى
٢١٩	هزيمة	شكرى محمد عياد	
٢٢٤	الجوسق الجبلي	موباسان	كامل الحريرى
	(العـدد ٢٩)		
٢٣٤	فيفى	ابراهيم عبد القادر المازنى	
٢٤٢	حفار إنك مراقب	جوزيف بلاكير	محمد لطفى جمعة
٢٥٣	إيولانثا — و — وفرنشسكا أو الحسناء والخيال	لويس جولييج	دريني خشبة
٢٦٨	الصورة المقنعة	جيمس ماجوفن	كامل محمود حبيب
٢٧٤	الجنية العاشقة	إميل زولا	صلاح الدين المنجد
٢٧٨	النافذة	بيير لويس	عز الدين عزوزى
٢٨١	الأعمى الذى ارتد بصيراً	أدون بو	نظمى خليل
	(العـدد ٣٠)		
٢٩٠	بهيرة	أحمد حسن الزيات	
٢٩٤	ليلة الوداع	على الطنطاوى	
٣٠٤	فاسيتوكين	بلزاك	دريني خشبة
٣١٥	الحب والقتل	أرمان بيكير	محمد لطفى جمعة
٣٢٦	راتما	محمد محمد مصطفى	
٣٣١	النافذة	محمود خيرت بك	
٢٣٥	حاجى بابا فى انكلترا	جيمز موير	عبد اللطيف النشار
	(العـدد ٣١)		
٣٤٦	الخاتم	إبراهيم عبد القادر المازنى	
٣٥١	الصقر	بوكاتشيو	محمد كامل حجاج
٣٥٥	أمنية	عبد المجيد جودة السحار	
٣٥٨	شجار أطفال	رشاد نورى	خلف شوقي الداودى
٣٦٤	مؤذن بغداد	محمد فهمى عبد اللطيف	
٣٦٨	ماريوتو	ماسو شيو سالر نيتاو	دريني خشبة
٣٧٣	يوم القضاء	على الطنطاوى	
٣٨٤	الزوجة المروعة	اسطفان بورياف	محمد لطفى جمعة
٣٩٢	حاجى بابا فى انكلترا	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

2017-11-11

(العـدد ٣٢)

الصفحة	القصة	المؤلف	المترجم
٤٠٢	ميمى	إبرهيم عبدالقادر المازنى	
٤٠٨	شجرة الكبثرى السعورة	بوكاتشو	محمد كامل حجاج
٤١١	سوسن التورية	محمود بك خيرت	
٤١٩	ابن الحب	على الطنطاوى	
٤٣٠	الملك والدرويش	ولفريد ستابلشير	محمد لطفى جمعة
٤٣٧	غيرة	صولومون جسنار	محمد عبد الفتاح محمد
٤٥١	عايجى بابا فى انكلترا	جيمز مور	عبد اللطيف النشار

(العـدد ٣٣)

٤٥٨	البديل	محمود بك تيمور	
٤٦٥	قلب أم	اندرسن	صلاح الدين المنجد
٤٩٩	لقد أحضرت المركبة	تيودور دي باتيل	محمد عبد الفتاح محمد
٤٧١	الولد	موباسان	على الطنطاوى
٤٧٧	سر الحقيبة الصفراء	سيدريك ديغروف	محمد لطفى جمعة
٤٨٩	صلاح الدين	بوكاتشو	محمد كامل حجاج
٤٩٥	المرأة المدبرة	محمد فهمى عبداللطيف	
٤٩٧	عايجى بابا فى انكلترا	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العـدد ٣٤)

٥١٣	أهى مجنونة ؟	إبرهيم عبدالقادر المازنى	
٥١٨	المرآة	كاتول ميندى	محمد عبد الفتاح محمد
٥٢٠	من ذكريات العراق	على الطنطاوى	
٥٢٥	أجنحة الحب		عبد اللطيف النشار
٥٢٠	سر تحفة القارة المظلمة	تونى كراوس	محمد لطفى جمعة
٥٤١	عواد كريمون	فرنسوا كوبيه	محمد كامل حجاج
٥٥٦	ثمن زوجة	نجيب محفوظ	
٥٥٣	حاجى بابا فى انكلترا	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العـدد ٣٥)

٥٧٠	ثلاثون ألف دينار	على الطنطاوى	
٥٧٨	عواد كريمون	فرنسوا كوبيه	محمد كامل حجاج
٥٨١	أحزان الطفولة	نجيب محفوظ	
٥٨٥	الدخيل	موريس ماترلنك	محمد أمين
٥٩٥	الفتاة القروية	يوشكين	عز الدين مزوزى
٦٠٩	حاجى بابا فى انكلترا	جيمز موير	عبد اللطف النشار

(العـدد ٣٦)

٦٢٦	الفصل الأخير من المأساة	على الطنطاوى	
٦٢٩	كان لما		عبد اللطيف النشار
٦٤١	مجموز الصور المتحركة. بلاسكوا بياينز		محمد محمود دوارة
٦٤٩	جارسون واحد شوب. كارديك لاهوفكى		محمد لطفى جمعة
٦٦٠	عواد كريمون	فرانسوا كوبيه	محمد كامل حجاج
٦٦٥	عايجى بابا فى انكلترا	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العـدد ٣٧)

٦٨٢	حرمة القبور	اسبيدار جودورف	محمد لطفى جمعة
٦٩٢	ثروة لم تخطر على بال.	بوكاتشو	محمد كامل حجاج
٦٩٤	الحب فوق الجبل		عبد اللطيف النشار
٦٩٦	عهادة الصلاحية للزواج	بول بورجيه	عبد الله الرياشى
٧٠٩	يد الهندى	لورنس استوداره	محمد المنزاوى
٧١٦	نكث الأمومة	نجيب محفوظ	
٧٢١	المجنونة	مارى بستوجى	صلاح الدين المنجد
٧٢٤	الكأس وقطعة النقود مصطفى صبحى		
٧٣٣	حاجى بابا فى انكلترا	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العـدد ٣٨)

٨٣٨	مصرع توماركوتو القديس الفاسق	كورلياف	محمد لطفى جمعة
٧٤٩	جبل النار	على الطنطاوى	
٧٥٧	تجربة قاسية		عبد اللطيف النشار
٧٦١	حكمة الموت	نجيب محفوظ	
٧٦٧	تكرم	بول بورجيه	كمال الحريرى
٧٧٧	الأول والأخير	جون جالزوروثى	سامى الناقش

(العـدد ٣٩)

٧٩٤	العدل والانتقام	ريتشارد وجنجى	محمد لطفى جمعة
٨٠٠	هيكل عظمى	رابندانات تاجور	محمد كامل حجاج
٨٠٥	الخادم	سيميونوف	نصرى عطاالله سوس
٨٠٩	الآنية المكسورة		عبد اللطيف النشار
٨١٦	موت الحب	نجيب محفوظ	
٨٢٣	مفارقات الفارع	دون ماركيز	محمد محمود دوارة
٨٣١	ذكرى حب	عبدالحليم محمود المصرى	
٨٣٨	ابن تاراس بولبا	غوغول	ابراهيم زين الدين

(العـدد ٤٠)

٨٥٠	دير سميحة	محمود بك خيرت	
٨٥٩	هل مات مسموماً	ليوكوز يانوف	محمد لطفى جمعة
٨٧٠	مشاهد قوجه العروس	تاجور	محمد كامل حجاج
٨٧٣	يوماً واحداً فحسب	أرجند أكرم	عبد اللطيف أحمد

2017-11-11

القصة	المؤلف	المترجم
المنفى		عبد اللطيف النشار
... ثم جاء الربيع	دوروثى بلاك	فؤاد الطوخى
الأغلال	بول هرفيو	فليكس فارس

(العـدد ٤١)

الوصول	محمود بك خيرت	
فى جوف الليل	طاغور	نخرى شهاب السعيدي
زهرة الجبل	جيوفانى دى نافا	محمد لطفى جمعة
الفرس الزرقاء		عبد اللطف النشار
جنية البحر	جول ليتر	محمد الفراوى
سارة فالأطفال	إيركمان وشاتريان	صلاح الدين المنجد
فنان	أدريانو زوكولى	محمد حسنى
الأغلال	بول هرفيو	فليكس فارس

(العـدد ٤٢)

عاشقة الأحذية	محمود بك خيرت	
معركة على عروس	جوستاف جيفروا	محمد لطفى جمعة
الكفاح فى الزواج		عبد اللطيف النشار
النار المقدسة	والتر سكوت	محمد كامل حجاج
الثلاثة الزاهدون	ليو تولستوى	نخرى شهاب السعيدى
تحت ظلال الشجر	فرنسيس بنج	فؤاد الطوخى
مبتور الساقين	جى دى موباسان	كمال الحريرى
القرار	هولوى هورن	محمود السيد شعبان
حاجى بابا أصفهانى	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العـدد ٤٣)

المجنونة	محمود بك خيرت	
سحر بابل	دريني خشبه	
خمسة أعوام فى عذاب		عبد اللطيف النشار
الشريدان	جوستاف جيفروا	محمد لطفى جمعة
وقائع مارتان ولديك	والتر سكوت	محمد كامل حجاج
إنتقام رهيب	أنوريه دى بازاك	عبد الوهاب بحاذق
فتاة الصبر	نجيب محفوظ	
حاجى بابا أصفهانى	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العـدد ٤٤)

الصفحة	القصة	المؤلف	المترجم
١٠٧٤	الجنة المهجورة	دريني خشبة	
١٠٨١	فى المصيف	أنطون تشيخوف	عبد الحميد حمدى
١٠٧٦	اليهود الثلاثة	الدكتور محمد بهجت	
١٠٩٠	بعد ثمانية عشر قرنا	يارونس أورزى	محمد لطفى جمعة
١٠٩٩	اللوح	ميخائيل وفتش	فخرى شهاب السعيدى
١١٠٧	جزاء الفضيلة	رشارد نورى	بشير الشربينى
١١١٢	وفاء راقصة	لافكاد يوهيرن	صلاح الدين المنجد
١١١٨	حاجى بابا أصفهانى	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العـدد ٤٥)

١١٣٠	غرام فنان	دريني خشبة	
١١٤٤	من قتل أباه ؟	أرثر كونان دويل	محمد لطفى جمعة
١١٥٢	عفو الملك أسركاف	نجيب محفوظ	
١١٥٨	الفن	محمود بك خيرت	
١١٦٥	القاضى السعيد	تولستوى	صلاح الدين المنجد
١١٦٩	حاجى بابا أصفهانى	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العـدد ٤٦)

١١٨٦	بين العدالة والقانون	دريني خشبة	
١١٩٦	جرذان الفنادق	أرثر كونان دويل	محمد لطفى جمعة
١٢٠٤	روض الفرج	نجيب محفوظ	
١٢١٢	أخية أم ميتة ؟	« طاغور »	نخرى شهاب السعيدى
١٢٢١	السكيرة	موباسان	كمال الحريرى
١٢٢٥	حاجى بابا أصفهانى	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

(العـدد ٤٧)

١٢٤٣	الريف	نجيب محفوظ	
١٢٥٠	مصرع البخيل	كونان دويل	محمد لطفى جمعة
١٢٦٠	الفتى المدلل	تولستوى	فخرى شهاب السعيدى
١٢٦٥	السعادة الغالية	جوزيف كسل	صلاح الدين المنجد
١٢٧١	البديل	فرنسوا كوبيه	عادل الجمال
١٢٧٦	حاجى بابا أصفهانى	جيمز موير	عبد اللطيف النشار

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع الفجالة — بالقاهرة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجـــلة الآداب الرفيعة والثقافة العاليـــة

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب

على مدى بصيرة

الرسالة : تعبر باخلاص عن روح النهضة المصرية

الرسالة : تجمع على وحدة الثقافة ابناء البلاد العربية

الرسالة : تصـــور مظاهر العبقرية للامة العربية

الرسالة : تسجل ظواهر التجديد في الآداب العربية

الرسالة : تحيي في النشء اساليب البلاغة العربية

بمجموعة اعدادها ديوان العرب المشترك ، وكتاب الشرق

الجديد ، وسجل الأدب الحديث ، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخل سنويا قرشا ، والخارجي ما يساوي جنيها مصريا ، وللبلاد العربية بخصم ٢٠ ٪

2017-11-13

FIN

DU

DOCUMENT

2017-11-15 15:15:05



مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

1938

Volume 2

2017-11-11 Hindawi